

الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

ل مؤلفه

ميخائيل شاروييم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية

والمفتش بنظارة المالية الجلية

عضى الله عنه

الجزء الرابع

عن الفترة من

١٨٠٠ م إلى سنة ١٨٩٠ م

١٢٢٠ هـ إلى سنة ١٣٠٩ هـ

الناشر

مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

هذه السلسلة تضم :

- ١ - فتح العرب لمصر
- ٢ - تاريخ مصر إلى الفتح العثماني
- ٣ - الجيش المصري البري والبحري في عهد محمد علي
- ٤ - تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي
- ٥ - تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم اسماعيل
- ٦ - تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبل الوقت الحاضر
- ٧ - ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا
- ٨ - تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد أول)
- ٩ - تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا (مجلد ثاني)
- ١٠ - فتوح مصر وأخبارها
- ١١ - تاريخ مصر الحديث مع فرلة في تاريخ مصر القديم
- ١٢ - قوانين الدواوين
- ١٣ - تاريخ مصر من محمد علي إلى العصر الحديث

- ١٤ - الحكم المصري في الشام
- ١٥ - تاريخ الخديوي محمد باشا توفيق
- ١٦ - آثار الزعيم سعد زغلول
- ١٧ - مذكراتي
- ١٨ - الجيش المصري في الحرب الروسية المعروفة بحرب القرم
- ١٩ - وادي التطرون وروهبانه وأدبرته ومختصر البطارقة
- ٢٠ - الجمعية الأثرية المصرية في صحراء العرب والأديرة الشرقية
- ٢١ - الرحلة الأولى للبحث عن منابع البحر الأبيض (النيل الأبيض)
- ٢٢ - السلطان قلاوون (تاريخه - أحوال مصر في عهده - منشآته المعمارية)
- ٢٣ - صفوة العصر
- ٢٤ - المماليك في مصر
- ٢٥ - تاريخ دولة المماليك في مصر
- ٢٦ - سلاطين بني عثمان
- ٢٧ - محمود فهمي النقراشي
- ٢٨ - دور القصر في الحياة السياسية
- ٢٩ - مذكرات اللورد كيللن
- ٣٠ - عادات المصريين

- ٣١ - خنقاوات الصوفية ج ١
- ٣٢ - خنقاوات الصوفية ج ٢
- ٣٣ - نخعة الباطنين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين
- ٣٤ - تاريخ عمرو بن العاص
- ٣٥ - دور القنائل العربية في صعود مصر
- ٣٦ - علاقات الفاطميين في مصر بدول المغرب
- ٣٧ - عيد الرحمن الجبري ٥ أجزاء
- ٣٨ - مصر في العصر العثماني في القرن ١٦
- ٣٩ - خطط المقريني ٣ أجزاء (محققة منقحة في ٢٧٥٠ صفحة)
- ٤٠ - صفحات من تاريخ مصر (صليب باشا سامي)
- ٤١ - صفحات من تاريخ مصر (سيد مرعي)
- ٤٢ - سلاطع الأمير النثري المسلم
- ٤٣ - مالية مصر
- ٤٤ - الموسيقى الشرقية
- ٤٥ - الدليل في موارد أعالي النيل
- ٤٦ - الموسيقى الشرقية
- ٤٧ - النخبة المصرية الحاكمة ١٩٥٢-١٩٠٠
- ٤٨ - الكافي في تاريخ مصر - ٤ أجزاء

MADBOULI BOOKSHOP

مكتبة مدبولي

6 Talat Harb SQ. Tel.: 5756421

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت : ٥٧٥٦٤٢١

الكافى

فى تاريخ مصر القديم والحديث

من سنة ١٨٠٠ م. إلى سنة ١٨٩٠ م

هـ ١٢٢٠ إلى سنة ١٣٠٩ هـ

الكاتب:	الكافى
الكاتب:	ميخائيل شاروبيم بك
الناشر:	مكتبة مدبولى
الطبعة:	ت: ٥٧٥٦٤٢١
	الأولى: ١٨٩٨م - ١٣١٥هـ
	الثانية: ٢٠٠٤م - ١٤٢٥هـ
رقم الإيداع:	
مراجعة لغوية:	عبد النبى محمد

الكافى

فى

تاريخ مصر القديم والحديث

لمؤلفه

ميخائيل شاروبيم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية

والمفتش بنظارة المالية الجلييلة

عفى الله عنه

الجزء الرابع

عن الفترة من

١٨٠٠ م إلى سنة ١٨٩٠ م

١٢٢٠ هـ إلى سنة ١٣٠٩ هـ

الناشر

مكتبة مدبولى

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

المحتويات

الصفحة	المحتوى	الصفحة	المحتوى
٦١	المورة وكريد ومقالة من بهما من الخوارج مطلب: تنظيم العساكر السلطانية على نظام عساكر دولة الفرنسيين	١١	وصل في: ترجمة محمد علي باشا (فصل) فيما وقع في أيامه من الحوادث والأنباء إلى ولاية ولده الأمير إبراهيم
٦٥	مطلب: ما انتحله محمد علي باشا من العلل لفتح باب الحرب على الشامات والتغلغل في قلب آسيا مطلب: تسليم محمد علي باشا وإلى حمص إلى الأمير إبراهيم وصدور فرمان السلطان بعزل محمد علي باشا وولاية حسين باشا سر عسكر بدله	١٤	إبراهيم الفصل العشرون: في سلطنة السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد
٦٩	مطلب: هزيمة عسكر السلطان عند حلب مطلب: ما كتبه السلطان إلى الدول من عزمه على مخالفة الروس وتهديده إياهم بذلك	٣٤	الفصل الحادي والعشرون: في سلطنة السلطان محمود الثاني ابن السلطان عبد الحميد
٧١	مطلب: مقدم صارم أفندي على محمد علي باشا ليخبره في الصلح مطلب: عقد المجلس الشرعي بدار السلطنة والحكم بعصيان محمد علي باشا وولده إبراهيم ثم الحكم عليهما بالتجريد والقصاص بالموت	٣٦	مطلب: قتل أمراء العسكر المعروفة بقتل الغز مطلب: الفرق على قتل محمد علي باشا ونهب دكاكين تجار المدينة مطلب: موت الأمير طوسون وقيام الأمير إبراهيم بقتال أهل الحجاز بعده
٧٤	مطلب: إنشاء المدارس الخيرية ومعامل الأسلحة والبارود	٤٢	مطلب: فتح السودان وتدوين أمرائه وترتيب جيش على نظام عسكر الفرنسيين
٧٦	مطلب: ما كتبه محمد علي باشا إلى صاحب سياسة الفرنسيين مطلب: ما كتبه محمد علي باشا يهدد	٥١	مطلب: إنشاء المدارس الخيرية ومعامل الأسلحة والبارود
٧٨		٥٤	مطلب: إنشاء المدارس الخيرية ومعامل الأسلحة والبارود
		٥٤	مطلب: إنشاء المدارس الخيرية ومعامل الأسلحة والبارود
		٥٦	مطلب: إنشاء المدارس الخيرية ومعامل الأسلحة والبارود
		٥٦	مطلب: إنشاء المدارس الخيرية ومعامل الأسلحة والبارود
		٥٨	مطلب: إنشاء المدارس الخيرية ومعامل الأسلحة والبارود

- ٧٩ به الدول
 مطلب: احتفال السلطان بزفاف ابنته
 زليخا سلطنة وهدية محمد علي
- ٨٠ باشا
 مطلب: ضرب الجزية على أهل حوران
 ولبنان ٨١
- مطلب: سفر محمد علي باشا إلى
 السودان في طلب معادن الذهب ٨٢
- مطلب: انقسام رجال الدولة العثمانية
 وعدم اتفاقهم على استمرار
 القتال مع محمد علي باشا ٨٣
- مطلب: خروج أهل الشام وانتشار
 الفتنة ٨٤
- مطلب: اتخاذ حلب مقراً لحركة
 العساكر المصرية واستحلاف
 أهلها على السمع والطاعة ٨٧
- مطلب: عودة قناصل الدول إلى مكاملة
 محمد علي باشا في الصلح وما
 كان من وراء ذلك ٨٧
- مطلب: ما كتبه الأمير إبراهيم إلى
 حافظ باشا مقدم العساكر
 العثمانية وما كان بعد ذلك ٩١
- مطلب: قدوم الميوا كاليه مندوب دولة
 الفرنسيين إلى مصر ومكاملة
 محمد علي باشا في تقرير قاعدة
 الصلح ٩٣
- مطلب: هزيمة المصريين ليلاً ثم
 انتصارهم على العدو ٩٤
- مطلب: استمالة محمد علي باشا إلى
 أمير سفن حرب الدول وأخذ
 سائر السفن غيمة بلا حرب
 ولا قتال ٩٥
- مطلب: وقوع رشيد باشا صدر الدولة
 أسيراً في يد الأمير إبراهيم
 وتمزيق شمل عسكره وما كان
 من وراء ذلك ٩٧
- مطلب: قدوم مندوب الباب العالي إلى
 مصر بفرمان العفو عن محمد
 علي باشا وولده ٩٩
- مطلب: حصول العمارة الروسية إلى
 البوسفور مدداً إلى السلطان ١٠٠
- مطلب: تعاقد الحاج محمد عاكف باشا
 باشكاتب المايين مع سفير
 الفرنسيين على كيفية إرجاع
 محمد علي باشا إلى طاعة
 سلطانه ١٠٢
- مطلب: صدور فرمان السلطان بالعفو
 عن محمد علي باشا وولده
 وتوجيه ما قد وجهه إليهما من
 الرتب وألقاب الشرف ١٠٣
- مطلب: اشتداد علة السلطان وما كان
 من وراء ذلك ١٠٤
- الفصل الثاني والعشرون: في سلطنة
 السلطان عبد الحميد خان ابن
 السلطان محمود خان ١٠٦
- مطلب: عزم دولة الإنجليز على إكراه
 محمد علي باشا على رد جميع ما أخذه
 واشتداد الخلاف بينهما وبين دولة
 الفرنسيين بسبب ذلك ١٠٧
- مطلب: تآهب محمد علي باشا للقتال
 بعد أن علم بتألب الدول عليه
 على السلطان ماعدا دولة
 الفرنسيين ١٠٩
- مطلب: قيام تبيرس كبير سياسة

- الفرنسيس لنصرة محمد علي
باشا وتعاقد الدول على العمل
ضد محمد علي باشا ١١٠
- مطلب: إطلاق سفن الإنجليز القنابل
على بيروت ومنازل السواحل
الشامية وما كان من وراء ذلك ١١٢
- مطلب: وصول فرمان السلطان إلى
محمد علي باشا بجعل ولاية
الديار المصرية في عقبه وتحديد
حقوق الولاية وما جاء بعده من
الفرمانات ١١٥
- مطلب: وصول سيف ونیشان هدية من
السلطان إلى محمد علي باشا ١١٩
- مطلب: كف محمد علي باشا عن
الحرب والعناية بإصلاح شئون
مملكته ١٢٠
- مطلب: ما أصاب البلاد من الضربات
السموية في سنة ثمان وخمسين
ومائتين وألف هجرية ١٢٣
- مطلب: زيارة محمد علي باشا دار
السلطنة وما لقيه من حفاوة
السلطان به ١٢٤
- مطلب: ولاية الأمير إبراهيم باشا ابن
محمد علي باشا ١٢٥
- مطلب: في من هو سليمان باشا
الفرنسوي ١٢٧
- مطلب: ولاية عباس باشا ابن الأمير
طوسون باشا ١٣٠
- مطلب: وقوع الحرب بين السلطان
ودولة الروس ومعاونة الإنجليز
والفرنسيس للسلطان على قتال
الروس ١٣١
- مطلب: ولاية محمد سعيد باشا ابن
ساكن الجنان الحاج محمد علي
باشا الكبير ١٤٤
- مطلب: عصاة عربان منية ابن خصيب
وما جرى لهم ١٤٥
- الفصل الثالث والعشرون: في خلافة
السلطان عبد العزيز ابن السلطان
محمود خان ١٧٣
- مطلب: ولاية إسماعيل باشا ابن
إبراهيم باشا ابن محمد علي
باشا ١٧٧
- مطلب: مجيء السلطان عبد العزيز إلى
ديار مصر ١٧٨
- مطلب: تولية إسماعيل باشا مصر دون
ذرية محمد باشا ١٨٣
- مطلب: فرمان السلطان القاضي بنقل
وراثة الخديوية من عقب محمد
علي باشا إلى ذرية إسماعيل
باشا ٢٠٤
- مطلب: بيع سندات خليج السويس إلى
الإنجليز ٢٠٧
- مطلب: حضور كيف رسولا من قبل
الإنجليز للبحث والتفتيش عن
الخزينة ٢٠٩
- مطلب: حضور فرمان من السلطان
بإستحسان عمل الخديوي
إسماعيل ٢١٠
- مطلب: حضور جوش الإنجليز وجوبير
الفرنسيس لتحقيق ديون البلاد ٢١٠
- مطلب: المؤامرة على قتل السلطان عبد
العزيز ٢١٨
- الفصل الرابع والعشرون: في سلطنة

مطلب: الاحتفال برفع قانون التصفية	
٢٨١ إلى مقام الخديوي	
مطلب: أول شكوى لضباط الجند عما	
٢٨٣ يلاقونه من عثمان رفاقي باشا	
مطلب: حضور الوحشة بين المراقب	
الفرنسي وقونصل جنرال	
٢٨٤ وظهور عصاة الجند	
مطلب: تحالف الضباط المصريين على	
السيف والمصحف وانتداب أحمد	
عراي للزعامة ورفع عريضة	
٢٨٦ بالظن في عثمان رفاقي باشا	
مطلب: تولية محمود باشا البارودي	
رئاسة ديوان الجند وما كان	
٢٩١ مطلب: اشتداد الخلاف ما بين قونصل	
الفرنسي والرئيس مصطفى	
٢٩٣ رياض باشا وما كان وراء ذلك	
مطلب: القبض على أحد الضباط	
الشراكة وهو يستكتب ضباط	
الجند السوداني بالشكوى من	
٢٩٤ عبد العال بك حشيش	
مطلب: في عمد أحمد عراي إلى	
٢٩٦ استمالة أهل البلاد	
مطلب: قيام جند الإسكندرية بسبب	
موت أحدهم بصدمة عربية	
٢٩٩ أجنبي	
مطلب: تطواف عبد الله التديم على	
أهل البلاد يستنصرهم لرجال	
٣٠٠ عصاة الجند	
مطلب: تقرب البارودي من المراقب	
الفرنساوي وقونصل جنرال	
٣٠١ الفرنسيين وما كان وراء ذلك	
مطلب: ورود الخبر من عمال السودان	

السلطان مراد ابن السلطان	
٢٢٣ عبد المجيد خان	
الفصل الخامس والعشرون: في	
سلطنة عبد الحميد ابن السلطان	
٢٢٥ عبد المجيد	
مطلب: رجوع دولة الإنجليز إلى تهديد	
٢٥٨ الخديوي إسماعيل	
مطلب: امتناع الوزير شريف باشا من	
الحضور أمام هيئة التحقيق	
٢٥٩ وخلعه لنفسه من المنصب	
مطلب: تشكيل الوزارة المختلطة وخلع	
٢٦٠ الوزراء المصريين	
مطلب: تحزب طوائف الضباط وإهانتهم	
٢٦١ للوزير نوبار باشا ومن بعده	
مطلب: رجوع وزارة الوزير شريف باشا	
بعد وزارة الأمير محمد توفيق	
٢٦٤ وما كان من وراء ذلك	
مطلب: مجيء الأمر السلطاني بخلع	
الخديوي إسماعيل وتولية ولده	
الأمير محمد توفيق وما كان بعد	
٢٦٦ ذلك	
مطلب: رحيل الخديوي إسماعيل عن	
٢٦٧ وطنه ومسقط رأسه وسكنه	
مطلب: ولاية الخديوي محمد توفيق	
٢٦٩ باشا	
مطلب: تخلي الوزير محمد شريف	
باشا عن منصب الرياسة وما	
٢٧٤ اشتهر به بين الناس	
مطلب: تولية رياض باشا الرياسة للمرة	
٢٧٧ الأولى	
مطلب: الحكم بتباعد جاهين باشا	
٢٧٩ وتجريده من رتبة والقبه	

٤٣٨ أصحاب الثورة. **مطلب:** قيام تجار الاسكندرية لمطالبة
الخزينة بضمن ما نهبه النهابون. ٤٣٨
وصل: «فيما كان من وراء احتلال
الجيش الانجليزية لأرض
الكثانة». ٤٤٦
مطلب: اعتزال الوزير محمد شريف
باشا وتولية نوبار باشا. ٤٤٨
مطلب: بعثة الأميرال هيوت إلى نجاشي
الحشة. ٤٥١
مطلب: اهتمام دولة الانجليز بإعطاء
الخزينة قرضاً فلم تفلح. ٤٥٤
مطلب: بعثة السير دورمندولف إلى دار
السلطنة العثمانية. ٤٥٥
مطلب: قاعدة الاتفاق الذي رامت
الدولة الانجليزية عقده مع
السلطان. ٤٥٧
مطلب: تعدي العساكر الإيطالية على
مصوع واحتلالها عنوة
وما جرى. ٤٥٩
مطلب: ما وقع إلى الكونت روني
وكيل الفرنسيين السياسي بمصر
واعذار الوزير إليه وهو بكسوة
التشريف. ٤٦١
فصل: «فيما كان من دهاء رجال
سياسة الإنجليز على عهد
الخديوي اسماعيل». ٤٦٦
مطلب: انحذار عردون بعد ذلك إلى
القاهرة. ٤٦٩
مطلب: وصول عبد القادر باشا إلى
الخرطوم. ٤٧٥
مطلب: قيام حملة ميكس إلى الخرطوم ٤٧٧

٣٠٣ بظهور كذاب يدعي المهديوة
مطلب: كيف كان احتجاج العسكر
بميدان عابدين وما كان من وراء
ذلك. ٣٠٥
مطلب: قبول الوزير شريف باشا
تشكيل الوزارة بعد امتناع. ٣١٣
مطلب: رفع ظلمات أهل الحبوس إلى
الوزير. ٣١٦
مطلب: رجال الوفد الخديوي في مقره
وذهابه إليهم. ٣٢٠
مطلب: مجلس نواب البلاد وهو أحد
مطالب جماعة الضباط، ٣٢٥
مطلب: ما كان من سياسة قونصل
جنرال الانجليز في أمر تشكيل
مجلس شوري النواب. ٣٢٦
مطلب: الاختلاف فمن يتولى مجلس
نواب البلاد. ٣٢٧
مطلب: الخبر باستفحال أمر مدعي
المهديوة بالسودان. ٣٢٨
مطلب: افتتاح مجلس شوري النواب. ٣٢٩
مطلب: مفاد ما في قانون الانتخاب. ٣٣٤
مطلب: تولية أحمد عرابي وكالة ديوان
الجند وورود لائحة الدولتين
للخديوي. ٣٣٥
مطلب: عودة النواب إلى تنفيذ
لائحتهم وما وراء ذلك. ٣٤٣
مطلب: تنزل المسو دي بليفار المراقب
الفرنسوي لنفسه من منصب
المراقبة وما وراء ذلك. ٣٥٣
مطلب: محاكمة أحمد عرابي ومن
معه من العصاة. ٤٣٦
مطلب: رسم الخديوي بمصادرة

مطلب: وقوف عثمان دقنة بسواكن	مطلب: الخلاف بين علاء الدين باشا
٥٦٩ على قدم الكر والفر	٤٧٩ وهيكس باشا
مطلب: موت رجل من الهنود واحراق	وصل في: ظهور الفتنة بالسودان
٥٧٣ جثته	٤٨١ الشرقي
مطلب: ما ترتب على كثرة اللصوص	مطلب: إرسال جيش لاستخلاص
من إلحاح السير يارنج بتعين	سناكات وطوكر
٥٧٤ مستشار لنظارة الحفانية	٤٨٣ ٤٨٥
مطلب: ظهور الجراد بالإقليم القبلي	وصل: «في هزيمة أخرى وكسرة أخرى
والبخري	مطلب: اشتداد الحال على بربر ومن بها
٥٨٣ ٤٩٠	وصل: «في سقوط أم درمان والخرطوم
مطلب: موافقة عيد الأضحى لعيد بلوغ	وما جرى بعد ذلك»
ولي العهد سن الرشد	٤٩١ ٥٠٦
مطلب: ظهور الوباء بمكة ومصوع	وصل: في حركة بعد أخرى
٥٨٦ ٥٠٩	مطلب: وتوالت الطلبات على الخزينة
مطلب: حريق سراي عابدين	لكثرة النفقة
٥٨٨ ٥١٢	مطلب: تحرك نجاشي الحبشة للحرب
مطلب: تحقيق ديون غردون باشا	مطلب: إرسال الأمير حسن إلى
مطلب: العثور على عبد الله النديم بعد	السودان باسم مندوب فوق العادة
هروبه	٥١٣ ٥١٨
مطلب: فتح جسر قشيشة المستجد في	المخابرات مع الباب العالي
٥٩١ ٥١٩	مطلب: العزم على إنقاذ أمين باشا من
مطلب: ما أبطل من المغارم والمكوس	خط الاستواء
مطلب: ما وقع من التبديل في قضاة	مطلب: طلب الإنجليز تخفيض عدد
المحاكم الشرعية	٥٣٢ ٥٣٤
٦٠١ ٥٣٤	مطلب: وكاد السلطان ينجح في استمالة
مطلب: ما فعله المستر منلر وكيل المالية	الروس والفرنسيس إلى معاونته
مطلب: مرض الخديوي توفيق باشا	مطلب: وقوع القتال بسواكن مع عثمان
وفاته	٥٤٠ ٥٤٣
مطلب: رثاء الخديوي من اسماعيل	مطلب: «في ارتياب وانقلاب»
٦١٥ ٥٥٨	مطلب: عدم بلوغ النيل حده المألوف
مطلب: رثاء من حفنى بك ناصف	من الزيادة
٦١٨ ٥٥٩	مطلب: مجيء ولي عهد السلطنة
مطلب: رثاء من وهبى بك	الانجليزية إلى مصر
٦٢٢ ٥٥٩	

بسم الله الرحمن الرحيم

وصل

(فى ترجمة محمد على باشا)

هو محمد على بن إبراهيم ولد فى بلدة قاولة التابعة للروم إىلى سنة اثنتين
وثمانين ومائة وألف هجرية أى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وكان أبوه
من صغار مقدمى العسكر وقيل إنه كان شيخ خفراء البلد وهو الصحيح ولما بلغ
محمد على الرابعة من عمره مات أبوه فتولى حضانتة عمه طوسون فأقام عنده
ما شاء الله ثم جاء مرسوم السلطان إلى والى قاولة بقتل طوسون المذكور فقتل وكان
محمد على إلى هذا الحين لم يبلغ أشده فأخذه أحد أعيان البلد واسمه براواسطه
فأقام عنده حقيراً مهاناً وكان كلما شب شبت معه الأحزان وظل على هذا الحال حيناً
حتى ضاقت نفسه وتاقت إلى الأسفار فى طلب الرزق فسيار فى أرض الله الواسعة
الفضاء وأجهد النفس فى تحمل الجوع والعناء فقاسى من الشدائد ما لا يحتمل، وما
جكاه عن نفسه أنه قال: كنت أتمنى أن الله سبحانه وتعالى يدفع عني هذه الشدائد
ويرحمنى مما ألاقه من الضنك والذل فكنت أجهد النفس فى طلب العيش على قدر
الحاجة وكان يمر بى اليوم واليومان أطوى الأرض سائراً على أقدامى لا أذوق مناما
ولا أسبغ طعاماً وكانت الأرض وطائى والسماء غطائى وأتفق أنى سافرت على ظهر
مركب أريد أرض الله الواسعة فى طلب العيش فخرجت ربح شديدة فأرتفعت
الأمواج وعلت وأزبد البحر وهاج وألقى مركبنا على الصخور فتحطمت وغرق كل
من فيها فتركنى رفاقى وطلعوا إلى بعض الجزائر القريبة وبقيت أنا عرضة للأمواج
تعلو بى تارة وتهبط بى أخرى وتستقبلنى الصخور فتدق عظمى وتدمى جسدى حتى

يسر الله لى الوصول إلى تلك الجزيرة سالماً وقد صارت اليوم من بعض أملاكى
فسبحان المعطى بغير حساب. اهـ قوله.

وما زال على هذا الحال من قلة ذات اليد وضيق العيش حتى بلغ الثامنة عشرة
من العمر فدخل فى خدمة العسكرية وظهرت عليه علامات الشهامة وشدة البأس
فقيده الوالى بجباية الأموال وجمع الخراج ومال إليه وأحبه وولاه رتبة البلكباشية.
قال بعض الكتاب: وقد زوجّه إحدى قريباته. وقيل غير ذلك فولدت له خمسا من
بنين وبنات وهم إبراهيم وطوسون وإسماعيل وزهرة وزينب، فلما كبرت عائلته وقل
ماله ترك خدمة العسكرية واتخذ له حانوتاً يبيع فيه التبغ (الدخان) فيسر الله له الحال
ويسط له فى الرزق وكانت قد بلغت منه الشجاعة مبلغاً عظيماً فكان إذا تعذر على
الوالى القبض على جان سير إليه محمد على فيأتى به صاغراً. فهابه الناس جدا
وأجله رفاقه وشهدوا له بالبسالة وعلو الهمة ولبث على هذا الحال حيناً فلما أغار
بونابارته بجيوش الفرنسيين على ديار مصر وكبر ذلك على السلطان سليم جيش
لقتاله الجيوش وأعد المعدات وأرسل إلى والى مقدونية فى طلب النجدة فبعث والى
مقدونية إلى براواسطه وكان قد تولى على ولاية قاوله بأن يجهز لقتال الفرنسيين
مائة مقاتل فجهزهم وجعل مقدمهم ولده عليا ورسم لمحمد على بأن يكون فى ركابه
وجاءهم حسن باشا أمير سفن الدولة بسفينة فركبوها فسارت بهم إلى أبى قير
وأنزلهم هناك فقاتلهم الفرنسيين قتالاً عنيفاً وظفروا بهم فخاف على المذكور ورجع
بالذى بقى معه من عسكره وأقام محمد على فى نفر قليل ممن مال إلى البقاء معه
فأعجب حسن باشا فعله وقلده رتبة البلكباشية على من كان معه من العساكر وضم
إليه طائفة أخرى فسار بهم مع العمارة الإنجليزية والجيوش العثمانية التى جاءت مع
يوسف باشا الصدر الأعظم لقتال الفرنسيين فأبلى محمد على فى قتالهم بلاء حسناً
ولما استقر بهم المقام بالقاهرة بعد جلاء الفرنسيين عنها قاتل الأمراء المصريين وكانت
له معهم وقائع مذكورة.

واتفق أن حضر بعيد ذلك خسرو باشا أحد كبار عسكر السلطان لقتال الأمراء
المصريين والمماليك وقطع شأفة من بقى منهم وإنقاذ البلاد من أيديهم ف وقعت بينه
وبين محمد على مناظرات كثيرة واشتدت الوحشة بينهما وكبرت حتى كاد خسرو
باشا ينفشل ويسقط فى يده ثم عاد فتمكن من نكاية محمد على وسد عليه مسالك
التقدم وقفل دونه أبواب الفلاح وجعل يراقب أموره ويرصد أعماله فخافه محمد
على وخشى العاقبة وجعل يستميل إليه طوائف الأرناؤط ويتزلف حتى مالوا إليه

وأحبوه فاستوثق لنفسه فولوه وظيفة (فابى بولك باشى) وهى فى عرفهم رتبة حرس السراى فهابه خسرو باشا وعاد إلى مسيرته وأدناه منه وقرّبه من مجلسه وبقياً على ذلك حيناً ثم ولاه منصب سرجشمه ولعلها مقدم أربعة آلاف فظهر من هذا الحين طالع نجمه وعلت كلمته ومال إليه الناس وتعلقت به آمال العسكر لا سيما طوائف الأرناؤط فخضعوا له وأطاعوا أمره وعملوا بإشارته فحسده خسرو باشا وتحذر منه وخشى عاقبة ظهوره فلما عصى الأمراء المصريون وخرجوا على خسرو باشا وانحدر إلى القاهرة من كان منهم بالصعيد الأعلى سير لقتالهم عسكراً من العثمانيين ورسم إلى محمد على بالخروج فى جنده لنجدة العساكر السلطانية فخرج كارهاً فلما احتدمت نار القتال بين الفريقين تأخر محمد على عن نجدة العثمانيين وبخلهم فانتصر عليهم الأمراء المصريون نصرة عظيمة وأعملوا فيهم القتل والتشريد وجاء مقدم العساكر العثمانية يشكو مما فعله محمد على فشق فعله على خسرو باشا وأكبره ورسم بقتله وحرر فرماناً بذلك واستدعاه ليلة إلى قلعة الجبل فأحس بالمكيدة وعلم بما وراء صعوده إلى القلعة فى تلك الليلة فتمارض وأصبح وقد ثار الجند يطالبون بالتأخر من جماكهم وعلوفاتهم فتحزبوا وشددوا فى الطلب وركبوا على خسرو باشا وقاتلوه فانهزم وفرّ إلى دمياط فى نفر من أتباعه فأقاموا فى الولاية بعده أحمد طاهر باشا وهو من مقدمى عسكر الأرناؤط فلم تكن إلا أيام قلائل حتى قام عليه جماعة الانكشارية وقتلوه فقامت بعد قتله الفتنة وعم الاختلال واشتدت الخطوب وكثر السلب والنهب وهتك النساء فى الشوارع والطرق واشتد الأمر شدة بالغة ووقع من الحوادث ما مر بك بيانه فى محله مفصلاً فكان لمحمد على فى إضرام نار هذه الفتنة اليد الطولى وأعانه على جميع ذلك الشيخ الشرقاوى والسيد عمر نقيب الأشراف وخلًا لمحمد على الجوّ بموت طاهر باشا وصارت جميع الجند من الأرناؤط طوع أمره فلما آتس منهم كمال الطاعة عمل على استمالة من كان بالقاهرة من كبار المشايخ والعلماء وأرباب الوظائف العالية فأنحاروا إليه ولبوا دعوته وتقدموا إلى دار السلطنة العثمانية فى طلب توليته على ديار مصر وكان السلطان قد رسم بولايته على جدة كما أشرنا إلى ذلك بقصد إبعاده عن ديار مصر وتمزيق شمل أصحابه فقد كان هو وأصحابه أشد خطراً على الدولة من جماعة الأمراء المصريين فلم يتعجل بالسفر وتقاعس وأظهر الاهتمام بجمع الزاد والذخيرة واحتياجات العسكر وكان المشايخ والعلماء فى خلال هذه الفترة يكثرون من الإلحاح على دار السلطنة بطلب تقليده الولاية على مصر ويرفعون إليه القصص ويشكون مما يلاقونه من الجور والعسف وقد

أضرموا نار الفتنة بمصر والقاهرة وأثاروا العامة أياماً فخرجوا على أحمد باشا خورشيد عامل الدولة يومئذ على ديار مصر وحاضروه بقلعة الجبل فكان بينه وبين الجند والعامة وقائع وحروب هائلة قد مر بك بيانها فى محلها . وطالت أيام الفتنة والرسل تتردد ما بين دار السلطنة ومصر والحرب والقتل والنهب قائمة على ساق حتى جاء الفرمان بولاية محمد على اعتباراً من العشرين من ربيع الأول سنة عشرين ومائتين وألف هجرية ولم يستقر به المنصب إلا فى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الأولى سنة عشرين لتمنع أحمد باشا بقلعة الجبل وعدم اعترافه بصحة ولاية محمد على باشا حتى وفد عليه رسول الدولة بمرسوم السلطان يأمره فيه بترك قلعة الجبل والجلأ عنها إلى الإسكندرية فنزل وسار إلى الإسكندرية على ما تقدم بك بيانه .

(فصل)

(فيما وقع فى أيامه من الحوادث والأنباء إلى ولاية ولده الأمير إبراهيم)

ولما استقرت الولاية بمحمد على باشا جعل يتصرف فى الأمور ويعمل على تعزيز سلطانه وتأييد مقامه باسترضاء الجند وصرف المتأخر من جماهيرهم فضرب على قبط مصر قرضاً وقسمه على كبارهم ، فكان ذلك أول قرض أحدثه بعد ولايته وكان عظيماً للغاية وبث الأعوان لقبضه فعاثوا وفعلوا ما لا خير فيه ثم قبض على المعلم جرجس الجوهري معلم مصر يومئذ وصاحب خراجها وعلى جماعة من عظماء القبط وسجنهم بيت كتحدا وطلب من المعلم جرجس حسابه عن سنة خمس عشرة ومائتين واستقدم المعلم غالى وكان يومئذ كاتب الألفى بالصعيد وأقامه بدله وضيق على المعلم جرجس وشدد فى طلب الحساب وفرض عليه مبلغاً عظيماً من المال فباع ما كان عنده من أثاث ومتاع ووفى بعض ما طولب به فلم يخل عنه وبقي معتقلاً أياماً . والطلب على أهل البلاد بما فرض عليهم مترادف فحسد الأمراء المصريون محمد على باشا على ما وصل إليه من علو الكلمة واتساع الشهرة وحقدوا عليه واستصغروا قدره وناووه فخافهم وخشى عاقبة أمرهم واهتم لقتالهم وشدد فى طلب الأموال وفى جمع الخراج وبث أصحاب الجباية فجابوا البلاد شرقاً وغرباً ونزلوا على القرى وجمعوا منها ما قدروا على جمعه ثم أخذ فى تدبير أمور العسكر وصرف الجماكى والعلوفات المتأخرة لهم وأكثر من جمع الأسلحة ومعدات الحرب وسير إلى زعماء الأمراء المصريين الذين كانوا بالأقاليم القبلية والبحرية يدعوهم إلى

ترك القتال والعود إلى طاعة السلطان فشطوا فى الطلب وبالفعل لم يقدر على القيام بمطالبهم فلما علموا بعجزه انحدروا بخيلهم ورجلهم إلى الجيزة وضربوا على أهلها الكلف والمغارم وانضم إليهم من كان بها من لمومهم وأتباعهم وسار جماعة منهم إلى ناحية المذبح وكسروا باب الحسينية ودخلوا من باب الفتوح وهم فى ضجة وجلبة عظيمة وخلفهم طبول ونقاير وجمال وأحمال وساروا من بين القصرين حتى جاءوا الأشرفية فاندحش الناس من دخولهم المدينة على هذه الحال وما زالوا حتى وصلوا إلى عطفة الخراطين فافترقوا إلى فرقتين ودخل جماعة منهم وبأيديهم البنادق والسيوف ومرو بالجامع الأزهر إلى بيت السيد عمر النقيب والشيخ الشرقاوى فامتنع السيد عمر من لقائهم فدخلوا إلى بيت الشيخ الشرقاوى وأتى إليهم السيد عمر فطلبوا منه النجدة وخروج العامة معهم لقتال محمد على باشا فامتنع فألحوا عليه فلم يقبل وهددهم فركبوا وخرجوا من باب البرقية، وكان قد وصل خبرهم إلى محمد على باشا فأرسل فى أثرهم حسن بيك الأرناؤطى فى عدة وافرة من المشاة فلم يلحق بهم، أما الفريق الثانى منه فإنه جعل يتقدم حتى وصل إلى باب زويلة وسار قليلاً إلى جهة الدرب الأحمر فمانعه العسكر المربطون هناك وأطلقوا عليهم البنادق فرجعوا القهقرى إلى جهة باب زويلة وهموا بالدخول إلى جامع المؤيد والتحصن به فمانعهم المغاربة الساكنون هناك وأطلق عليهم المربطون نيرانهم فقتلوا منهم وجرحوا وقوى جأش المربطين بجهة الدرب الأحمر عند سماعهم أصوات البنادق وتنبه غيرهم أيضاً فاجتمعوا لمعاونة بعضهم فلما شاهد الأمراء المصريون ما حل بأصحابهم من تساقط النيران عليهم من كل صوب وحذب ولوا الفرار فتبعهم العسكر يضربون فى أفقيتهم فلم يزالوا فى سيرهم إلى النحاسين. وقد أغلق الناس بوابة الكعكيين وبوابة الخراطين وبوابة البندقانيين فانقلبوا إلى ما بين القصرين فلاقاهم فريق من عسكر محمد على باشا وأطلقوا عليهم البنادق فوقعوا بين نارين فانفشلوا وسقطوا فى أيديهم وترجلوا عن خيلهم ودخل منهم جماعة إلى جامع البروقية وذهب آخرون بخيلهم إلى باب النصر فوجدوه مغلقاً فزلوا أيضاً عن الخيل ودخلوا العطوف وتسوروا الأسوار وتسلقوا الجدران إلى خارج باب النصر وتفرق منهم جماعة اختفوا فى الحارات وبعض الوكايل والبيوت فأحاط العسكر بمن دخلوا جامع البروقية وأحرقوا باب الجامع وقبضوا على من كان به وجردوهم من ثيابهم وأخذوا ما كان معهم من ذهب ونقود وأسلحة وذبحوا منهم جماعة وأخذوا من بقى مكبلين بالحديد وهم فى أسوأ حال وساروا بهم إلى بيت محمد على باشا بالأزبكية، وكان على أهبة الركوب فلما ألقوا بين يديه رؤوس القتلى سكن جأشه وفرح كثيراً، وكان ممن

قبض عليه من الأمراء أحمد بيك تابع البرديسى أمير دمياط وحسن شبكة وآخرون فلما مثل أحمد بيك بين يدى محمد على باشا قال له : أو لم تدري يا أحمد عاقبة الخروج؟ فقال أعطونى ماء فأمر محمد على باشا ففكوا قيوده وأتوه بماء ليشرب فنظر حوله وكان على مقربة منه أحد الجنود وفى حزامه خنجر فخطف الخنجر من حزامه وهَمَّ بقتل محمد على باشا وقد جرح عدة من العسكر فتكاثروا عليه وقتلوه ذبحاً كذبح الشاة وساقوا الباقين إلى الحبوس فكان ذلك آخر العهد بهم، قلت : وكانت هذه أول وقعة وقعت بين الأمراء المصريين وعسكر محمد على باشا بعد وصول فرمان السلطان بولايته على ديار مصر، وزاد من هذا الحين تحذر محمد على باشا وأصحابه من هجمات الأمراء المصريين وسير عابدى بيك فى عسكر عظيم لقتالهم فنزل عابدى بيك على طرا والتقى مع من كان بها منهم فكان بها إبراهيم بيك الكبير وابنه مرزوق بيك وأصحابهما فأقتلوا قتالاً شديداً فى البر والبحر وأبلى إبراهيم بيك وأصحابه فى هذه الحرب بلاءً حسناً فانهزم عابدى بيك ومن معه وقتل من عسكره خلق كثير وعاد من بقى إلى ناحية الفسطاط وقد غرقت بعض سفنهم فتقوت بذلك عزيمة إبراهيم بيك ونشر جموعه فى البلاد فعاثوا وأفسدوا وقتلوا ونهبوا وسبوا النساء والأولاد وأحرقوا الكفور والقرى فسير محمد على باشا اثنين من أصحابه إلى إبراهيم بيك ليخاطباه فى أمر الصلح فلم يجب إليه وشط فى الطلب، وحضر جماعة من أصحاب الألفى إلى جهة سقارة والجيزة وعاثوا فيها أيضاً وطلبوا منها الكلف والأموال وبلغ الصائح القاهرة فنادى محمد على باشا بخروج سائر الجنود والعسكر فخرجوا مشاة وركبانا وركب معهم محمد على باشا فى أبهة وجلالة وعبروا النيل إلى الجيزة ليلاً ولم تطلع الشمس إلا وكل أمير قد وقف على أصحابه . وجاء الخبر بقرب العدو من محلهم فزحفوا وبانت طلائع العدو فهجم عليهم عسكر محمد على باشا فانهزموا وولوا الأدبار فتبعوهم وأعملوا السيف فى أفقيتهم واشتدوا عليهم شدة بالغة، فبينما هم كذلك إذ خرج عليهم كامن من خلف فوق بينهم الضرب وحمل أحد مقدمى عسكر محمد على باشا بمن معه على الأعداء فظنوه محمد على فأحاطوا به وأخذوه أسيراً هو ومن معه واشتد القتال بين الفريقين وعلت الضوضاء وكثر الصياح فلم يلبثوا على هذا الحال حتى تقهقر عسكر محمد على باشا ورجع من بقى منهم إلى ناحية الفسطاط وترفع المصريون إلى ناحية بياض وبني سويف فكانت وقعة من شر الوقائع مات فيها خلق كثير من الفريقين وداست جثثهم سنايك الخيل .

ولم تكن إلا أيام حتى رجع المصريون فى أول المحرم افتتاح سنة إحدى وعشرين فى جمع كثير من العربان ولموم أهل الحرف ونزلوا بناحية جزيرة الهواء فأزعج حضورهم محمد على باشا ورسم بخروج العسكر فخرجوا لقتالهم واقتتلوا قتالاً شديداً فمات من الفريقين خلق وانضم فريق من عسكر الباشا إلى العدو وكان المقدم عليهم يومئذ حسن باشا الأرناؤطى فأرسل إلى محمد على باشا يستنجده ويخبره بما وقع فهاله الخبر وأزعجه فجمع جيشاً ضخماً وسير به نجدة إلى حسن باشا وعين المرابطين بإنابة وطرا وشدد عليهم فى ملازمة المعاقل ونادى فى جميع الجند بذلك وأكثر من جمع الأسلحة وآلات الحرب وجاء إلى القاهرة كثيرون من الجرحى ونادوا بعدم الخروج إلى الأسواق بعد أذان العشاء فكان لذلك النداء أثر مخيف وعاد العامة وأصحاب البيوت إلى حمل السلاح والسهر والتحرز وملازمة الأزقة نهاراً والأسطحة ليلاً وسار عابدى بيك بعسكره خلف لموم الألفى إلى الفيوم فلم يجد بها أحداً منهم فاحتلها بعسكره ثم ترك بها رباطاً وعاد لنجدة أخيه حسن باشا وأقام معه بناحية الرقق وتوالت رسائل الألفى الكبير على السيد عمر النقيب بالوساطة بينه وبين محمد على باشا وتقرير قاعدة للصلح فشاور محمد على باشا أصحابه فى الأمر فقرروا إقطاع الألفى بلاد الجيزة من غير عقد ولا عهد ولا كفالة كما طلب وكتبوا له بذلك على يد رسوله الذى حضر بخطابه واحتاج الألفى وأصحابه وهم فى انتظار الجواب إلى النفقة فطلبوها من أهل برطس وأم دينار ومنية عقبة فامتنعوا عليهم فركبوا وحاربوهم ونهبوا وقتلوا الشيوخ والنساء والأطفال وفعلوا ما لا خير فيه ثم تفرقوا فى البلاد وعاثوا ووصلت طلائعهم إلى المنوفية ففعلوا بها من القتل والنهب ما لا يوصف وانضم إليهم جماعة من عساكر محمد على باشا فتقوت شوكتهم وزاد عسفهم فعزم محمد على باشا على الخروج لقتالهم بنفسه وأخذ يتأهب لذلك وأنزل شيئاً كثيراً من المهمات من قلعة الجبل ونادى مناديه فى العسكر بالخروج وضرب للنفقة فرضة على البلاد وقامت الجباة لجمعها فكانت كثيرة جداً ووردت الأخبار بقيام الألفى وزحفه من جهة الجسر الأسود والطرانة إلى ناحية الجيزة فخرج لقتاله طائفة من العساكر فوصل الألفى إلى دمنهور فوجدها ممتنعة فحاصرها فقاتلته قتالاً شديداً فسار عنها قليلاً وعسكر على بُعد منها ومنع عنها الوارد وطلب حسن باشا المدد من محمد على باشا فسيره إليه فقام من بنى سويف إلى منية ابن خصيب فى جمع كثير وقاتل من كان بها من الأمراء المصريين والعربان وأبلى فيهم بلاء حسناً وسارت طائفة أخرى إلى دمنهور لإجلاء الألفى عنها وظن

محمد على باشا الظفر بأعدائه فى هذه الحملة واستبشر الناس بذلك أيضاً وجعلوا يعللون الآمال بقرب زوال هذه المحن والخطوب المتتابعة، فلما كان يوم الثلاثاء رابع عشر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين ومائتين. وألف جاء الخبر من حاكم الإسكندرية بقدوم جيش عظيم من العساكر العثمانية على نظام عسكر الفرنسيين ومع هذا الجيش وال جديد لمصر بدلاً من محمد على باشا اسمه موسى باشا وكان ورود هذا الخبر إلى الدفتر دار أولاً فسير به إلى السيد عمر النقيب فجاءه السيد عمر وركبا معاً إلى محمد على باشا وأعلماه بالخبر ثم شاع بين الناس وتناقلته الألسنة فبذل الوالى والمحاسب جهد الاستطاعة فى إخفاء الخبر كى لا يصل إلى الأمراء المصريين فلم يقدرا وقد سار المبشرون إلى الألفى وهو على سواد البحيرة. وأخبروه بوصول سفن الدولة وعليها العسكر المنظم فقرح وسر سروراً لا يوصف وطير الكتب بذلك إلى الآفاق فزاد فى مصر والقاهرة الهرج وكثر القال والقليل ولبث الناس على هذه الحال إلى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر فتقدم إلى القاهرة رسول من قبل أمير تلك السفن فسير محمد على باشا جماعة للقاءه وأنزله فى بيت الروزنامجى فأقام يومى السبت والأحد واجتمع بمحمد على باشا مرات كثيرة ثم سافر يوم الاثنين ولم يعلم أحد بما دار بينهما من الحديث وجعل محمد على باشا من هذا الحين يتأهب ويستعد ويكثر من عمل آلات الحرب ومعدات القتال وجمع الحدادين والنجارين وأرباب الصنائع بقلعة الجبل وجمع إليه مقدمى العسكر وأصحاب الوظائف العالية فخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وتحققوا عصيان محمد على باشا وخروجه على السلطان وأرسل محمد على باشا إلى السيد عمر النقيب والخاصة وبعض المشايخ والعلماء فأخبرهم بصورة الحال وما ورد له من دار السلطنة بعزله وولاية موسى باشا. قال: وسبب ذلك أن الأمراء المصريين تقدموا إلى الباب العالى فى طلب العفو عنهم وعودهم إلى ديارهم بشرط خروج جميع الجند الأرناؤط وجلائهم عن البلاد وعليهم القيام بخدمة الدولة والحرمين وإرسال غلالهما. ودفع الخزينة وتأمين السابلة فأجيبوا إلى سؤالهم على هذه الشروط وأن المشايخ والعلماء يتكفلون بهم ويضمنون عهدهم بذلك، فلما سمع من حضر هذا الكلام سكتوا جميعاً ولم ينطقوا ببنت شفة ثم انصرفوا واشتدت عزيمة محمد على باشا وقوى مع ذلك جأشه فبالغ فى الاستعداد والإكثار من آلات الحرب والتطواف فى الشوارع والصعود والتزول من قلعة الجبل ثم جمع العلماء والمشايخ والسيد عمر النقيب وبعض أخصائه ثانية ومعهم ديوان أفندى وتكلموا فى ذلك الأمر طويلاً فاتفقوا على أن يرفعوا إلى الباب

العالي قصة ينكرون عليه فيها ما يراد فعله من خلع محمد على باشا وتولية موسى باشا فكتبوا يقولون : بسم الله الرحمن الرحيم ، الرؤوف الحليم الحمد لله ذى الجلالة على جميع الشئون والأحوال نرفع إليك أكفا من بحر جودك مغترفه ونتوجه إلى كعبة فضلك بقلوب بخالص الوجدانية معترفه أن يديم بهجة الزمان ورونق عنوان اليمن والأمان بدوام وزير تخضع لمهابهته الرقاب وتدنو لهيبته سطوة المهمات الصعاب تنتهى آمال المقاصد والوسائل ومحط رحال المطالب من كل سائل حضرة صدر الصدور ومدبر مهمات الأمور الصدر الأعظم أدام الله دعائم العز ببقائه وفسح للأنام فى أيامه محفوظا بعناية الرب الكريم محفوظا بآيات القرآن العظيم آمين ، أما بعد رفع المقصد والرجاء ومد سواعد الخضوع والالتجاء فإننا ننهى لمسامعكم العلية وشيم أخلاقكم المرضية بأنه قد قدم حضرة الدستور الأكرم والمشير الأفخم مدير مهمات الأسكالات البحرية خادم الدولة العلية الوزير قبطان باشا إلى ثغر الإسكندرية فأرسل كتبها البوابين سعيد أغا ومعه الأمر الشريف الواجب القبول والتشريف المعنون بالرسم الهمايونى العالي دامت مسراته على عمر الدهور والأعوام والأيام والليالى فأوضح مكنونه وأفصح مضمونه أنه قد تطاولت العداوة بين الوزير محمد على باشا وبين الأمراء المصريين فتعطلت مهمات الحرمين الشريفين من غلال ومرتبات وتنظيم أمير الحاج على حكم سوابق العادات والحال أنه ينبغى تقديم ذلك على سائر المطالبات وأن هذا التأخير سببه كثرة العساكر والعلوفات وترتب على ذلك لكامل الرعية بالأقاليم المصرية الدمار والاضمحلال وأنهت الأمراء المصرية هذه الكيفية لحضرة السدة السنية وأنهم يتعهدون بالتزام جميع مرتبات الحرمين الشريفين من غلال وعوائد ومهمات وإخراج أمير الحاج على حكم أسلوب المتقدمين مع الامتثال لكامل ما يرد من الأوامر الشريفة إلى ولاية الأمور بالديار المصرية ، وأنهم يقومون فى كل سنة بدفع الأموال الأميرية إلى خزانة الدولة العلية إن حصل لهم العفو عن جرائمهم الماضية والرضا بدخولهم مصر المحمية والتمسوا من حضرة الدولة قبول ذلك منهم وبلوغهم مأمولهم فأصدرتم لهم الأمر الهمايونى للشريف المطاع المنيف بعزل الوزير المشار إليه المقرر العداوة معه ووجهتم له ولاية سلانيك ووجهتم ولاية مصر إلى الوزير موسى باشا وقبلتم توبتهم وأن العلماء والوجاقلية والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية الداعين لحضرة مولانا الخانكار ببلوغ الممولات المرضية إن تعهدوا بهم وكفلوهم تحصل لهم المساعدة الكلية حكم التماسهم من أعتاب حضرة الدولة العلية فأمرهم مطاع وواجب القبول والاتباع غير أننا نلتمس من

شيم الأخلاق المرضية والمراحم العلية العفو عن تعهدنا وكفالتنا لهم فإن شرط الكفيل قدرته على المكفول ونحن لا قدرة لنا على ذلك لما تقدم من الأفعال الشهيرة، والأحوال والمنظورات الكثيرة التى منها خيانة المرحوم السيد على باشا. وإلى مصر سابقاً بعد واقعة ميرميران ظاهر باشا وقتل الحجاج القادمين من البلاد الرومية، وسلب الأموال بغير أوجه شرعية والصغير لا يسمع كلام الكبير والكبير لا يستطيع تنفيذ الأمر على الصغير وغير ذلك مما هو معلومنا ومشاهدنا خصوصاً ما وقع فى العام الماضى من إقدامهم على مصر المحمية وهجومهم عليها فى وقت الفجيرة فجلاهم عنها حضرة المشار إليه وقتل منهم جماعة كثيرة فكانت وقعة شهيرة فهذا شئ لا ينكر فحيث لا يمكننا التكفل والتعهد لأننا لا نطلع على ما فى السرائر وما هو مستكن فى الضمائر ونرجو عدم المؤاخذه فى الأمور التى لا قدرة لنا عليها لأننا لا نقدر على دفع المفسدين والظغاة والمتمردين الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم فأنتم خلفاء الله على خليفته وأمنائه على بريته ونحن ممثلون لولاية أموركم فى جميع ما هو موافق للشريعة المحمدية على حكم الأمر من رب البرية فى قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ فلا تسعنا المخالفة فيما يرضى الله ورسوله فإن حصل منهم خلاف ذلك نكل الأمر فيهم إلى مالك الممالك لأن أهل مصر قوم ضعاف. وقال عليه الصلاة والسلام: «أهل مصر الجند الضعيف فما كادهم أحد إلا كفاهم الله مؤنته». وقال أيضاً: «وكل راع مسئول عن رعيته يوم القيامة»، ونفيد أيضاً حضرة المسامع العلية من خصوص القرض والسلف التى حصل منها الثقلة للأهالى من حضرة محسوبكم الوزير محمد على باشا فإنه اضطر إليها لأجل إغراء العساكر وتقويتهم على دفع الأتقياء والمفسدين والظغاة المتمردين امتثالاً لأوامر الدولة العلية فى دفعهم والخروج من حقهم واجتهد فى ذلك غاية الاجتهاد رغبة فى حلول أنظار الدولة العلية فالأمر مفوض إليكم والمملك أمانة تحت أيديكم نسأل الله الكريم المنان أن يديم العز والامتنان لسدة السلطان مع رفعة تترشح بها فى النفوس عظمتة وسطوة تسرى بها فى القلوب مهايته، وأن يبقى دولته على الأنام وأن يحسن المبدأ والختم بجاه سيدنا محمد خير البرية وآله وصحبه ذوى المناقب الوفية، انتهى بنصه.

وكتبوا هذا المحضر نسختين إحداهما برسم أمير سفن الحرب الراسية بمينا الإسكندرية والأخرى برسم السلطان ووقع المشايخ والعلماء عليهما وأرسلا مع مخصوص فلم يصل رسولهم إلى مدينة الإسكندرية إلا وقد وصل إلى بولاق

سلحدار الوزير فتزل بها فى ليلة الاثنين ثالث عشرى ربيع الآخر من السنة ثم حضر إلى بيت محمد على باشا وأصبح وقد بعث إلى جميع المشايخ خطابا ومثله إلى الشيخ السادات. وثالثًا إلى السيد عمر النقيب من أمير سفن الحرب وكلها تتضمن الأخبار بعزل محمد على باشا عن ولاية مصر وولايته على سالونيك وإقامة السيد موسى باشا المنفصل عنها بدلاً منه وأن يكون الجميع تحت الطاعة والامثال للأوامر والاجتهاد فى المعاونة ووجوب سفر محمد على باشا عن طريق دمياط ومعه حسن باشا حاكم جرجا وجميع من كان معهما من الجند بلا مهل فلما علموا بالأمر قاموا جميعاً وركبوا فى عصر اليوم واجتمعوا بمحمد على باشا وتناجوا فى الأمر طويلاً ثم انصرفوا وفى الغد سير إليهم بصورة عريضة يكتبونها ردًا على خطاب أمير تلك السفن فكتبوها وسيروا بها إليه وهى تتضمن الاسترحام وعدم القدرة على كفالة الأمراء وطلب منع الضرر الذى لا بد وأن يترتب على إرغام العسكر على الخروج بعد الاستيطان وبالغوا فى الشكوى وعظموا فى البلوى وأخذ محمد على باشا فى الأهبة والاستعداد لقتال الألفى وأمر فخرج العساكر إلى بولاق وعبروا النيل إلى الجيزة ونادى فى الجند والوجاقية بسرعة الخروج وعدم التخلف وأنزل كثيراً من المدافع وآلات الحرب ثم عبر هو أيضا النيل إلى انبابة واستقدم إليه مشايخ العربان ورتب منهم طائفة لخدمة الجند، فلما وصل إلى أمير سفن الحرب خطاب المشايخ والعلماء غضب وكتب إلى محمد على باشا يستحثه على ترك مصر والجلء عنها إلى دمياط قيل فلم يبال محمد على باشا بذلك ولم يكف عن حشد الجيوش وجمع معدات الحرب. حتى تحقق الناس عصيانه فلما كان ثانى عشر جمادى الأولى من السنة وردت الأخبار بوصول موسى باشا الوالى الجديد إلى مدينة الإسكندرية وحضر إلى القاهرة أحد أعوانه بكتاب إلى الدفتردار بأن يكون قائماً مقامه مسئولاً عن الأموال وحقوق الخزينة السلطانية فلم يقبل الدفتردار ذلك وكان الألفى لم يزل بالجيزة يبعث إلى أمير السفن الحرية بالأخبار والهدايا العظيمة وقد أرسل إليه ثلاثين حصانا منها عشرة برخوتها ومن الغنم أربعة آلاف رأس وجمله أبقار وجواميس ومائة جمل محملة بالذخيرة وغير ذلك من المال والثياب والأقمشة برسم كبار أتباعه فغضب محمد على من فعله هذا وخاف عاقبته وعجل فى تسيير الجند لقتاله فتزلوا تجاه الرحمانية فلما أحس الألفى بحضورهم سار إليهم بقومه وقاتلهم قتالاً عنيفاً انجلى عن هزيمة عسكر محمد على باشا ولم يزالوا فى هزيمتهم إلى البحر فآلقوا بأنفسهم وهرب كتحدا محمد على باشا وظاهر باشا إلى ناحية المنوفية وعبروا النيل

واستولى الألفى على ما تركوه من سلاح وكراع وكان شيئاً كثيراً وأرسل بمن أسير منهم إلى أمير سفن الحرب وجاءت الأخبار بذلك إلى محمد على باشا فخرج إلى انبابة وطاف إلى والى وأصحاب الدرك ينادون على العسكر بالخروج ووصل من بقى من عسكر طاهر باشا إلى بولاق ومعهم الجرحى والمرضى فمتعوا من النزول وسارت بهم السفن إلى امبابية وبناتوا وأصبحوا وقد عادوا إلى بولاق ودخلوا المدينة ثم حضر بعد أيام طاهر باشا إلى امبابية وكان قد أرسل إليه محمد على باشا بعد انهزام جيشه أن لا يعود إلى القاهرة، وأن يرحل عنه إلى رشيد فلم يصل إلى رشيد حتى رسم إليه بالرجوع إلى الرحمانية لإجلاء الألفى عنها فرجع إلى الرحمانية ومعه بعض الجند فلما التقى الجمع انهمز عسكر طاهر باشا ورجعوا القهقرى وما زالوا فى هزيمتهم ومعهم طاهر باشا حتى وصلوا إلى امبابية ورجع الألفى إلى حصار دمنهور والتضييق على من كانوا بها وجاءت الأخبار من أمير السفن إلى الألفى بالتشديد فى قتال من بها حتى يستأمنوا وطال القتال واشتد فى جميع الجهات وترددت الرسل بين أمير السفن والألفى والأمراء المقيمين بالصعيد وطالت المخابرة بينهم وطلب أمير السفن حضور الأمراء من الصعيد إلى الإسكندرية ليتشاوروا فى الأمر فلم يحضروا إذ منعهم البرديسى من ذلك لما بينه وبين الألفى من الشحنة وكان الألفى هو الذى استقدم أمير تلك السفن بسفنه إلى مياه الإسكندرية وعمل على خلع محمد على باشا بواسطة الإنجليز بدون مشورة الأمراء المصريين فلما لم ينجحوا إلى الإسكندرية علم أمير السفن ما بينهم من البغضاء والشحنة وما هم عليه من تفريق الكلمة فتحقق أنهم لا يفلحون وأنه لا يصح له الاستيثار منهم ولا الأخذ بمشورتهم فنبذهم وأرسل إلى محمد على باشا مكتوبه فيه واستوثق منه فتعهد له محمد على باشا بجميع الالتزامات والتعهدات التى عينها الألفى وكتب بذلك عرضاً ووقع عليه من المشايخ والاختيارية والوجاقلية وأرسله مع ولده إبراهيم وأرسل معه هدية فاخرة للغاية وخيلاً وأقمشة هندية وغير ذلك فلما كان العاشر من رجب وصل كتحدا أمير السفن المذكور إلى ساحل بولاق فأطلقوا لقدمه عدة مدافع وأرسلوا له فى صبح ثانى يوم خيولاً صحبة الأمير طوسون ولد محمد على باشا فركب فى موكب حافل للغاية ثم عقد الديوان وقضى مرسوم أمير السفن ببقاء محمد على باشا على ولاية الديار المصرية وعليه القيام بجميع التعهدات التى منها خروج الحاج والاستمرار على أداء لوازم الحرمين وإيصال العنائف والغلال لأربابها على النسق القديم، وأن لا يدخل فى دائرة تصرفه ثغور رشيد ودمياط والإسكندرية بل تبقى إيراداتها من

الجمارك حقاً للخزينة السلطانية فلما تمت قراءة ذلك المرسوم أطلقوا عدة مدافع وطاف المبشرون على بيوت الأمراء والأعيان وأقنع الأمير بسفنه إلى دار السلطنة ومعه موسى باشا والأمير وإبراهيم ولد محمد على باشا فى يوم السبت خامس شعبان وتقوت عزيمة محمد على باشا فجعل يتأهب لقتال الألفى وإجلاته عن دمنهور والرحمانية فلم يتم خروج العسكر لقتاله حتى جاء هو وقومه إلى الجيزة وانتشرت لمومه بيلادها فكانت كثيرة جداً فأسرع محمد على باشا فى إخراج الجند وعبر بهم النيل إلى امبابة وسير فريقاً منهم إلى الاختصاص فالتقى بأصحاب الألفى واقتتلوا قتالاً عنيفاً فتقهقرت عساكر محمد على باشا وانحازوا إلى الكفور والقرى وأصبحوا وقد نودى فى عسكر الألفى بالرحيل إلى شبرامنت فساروا فى يوم الثلاثاء ثامن عشر القعدة فكانوا عدة كثيرة على نظام وترتيب الفرنسيين فأعجب محمد على باشا نظامهم ورأى الألفى قرماً عنيداً فأمر ببقاء أصحابه على قدم الدفاع فلما كان يوم الخميس العشرين من القعدة حضر جماعة من العربان وأخبروا محمد على باشا بموت الألفى فى يوم وصوله إلى شبرامنت نزل به خلط دموى فتقايأ ثم مات من ساعته ناحية المحرقة على مقربة من دهشور وأن مماليكه أجمعوا على أن يؤمروا عليهم شاهين كما أوصى الألفى عند موته فانفصلت عنهم العربان من طائفة أولاد على وكذلك تركهم كثير من العسكر فلم يصدق محمد على باشا هذا الخبر وشاع فتحدث الناس به وهم بين مصدق ومكذب وسير محمد على باشا من يتحقق الخبر فلم تعد رسله حتى جاءه الخبر أيضاً بموت عثمان بيك البرديسى بمنفلوط وموت سليم بيك أبو دياب ببني عدى وكلاهما من كبار الأمراء الفارين بالأقاليم القبلية وزعماء العصاة ثم عادت رسل محمد على باشا وأكدوا له موت الألفى فسر بذلك سروراً لا يوصف وقال لمن كان معه من بطانته يوم وصول هذا الخبر إليه: اليوم طاب لى ملك مصر فلا خوف على. وأرسل إلى كبار جيش الألفى يخبرهم فى الصلح ويمنيهم بالأمانى العظيمة فلم يقبلوا إلا بما كان يطلبه أستاذهم من المزايا والإقطاعات وأن يدخل ضمن هذا العهد أيضاً جميع الأمراء المقيمين بالصعيد. وهم إبراهيم بيك وعثمان بيك حسن فخرج محمد على باشا بجنده وعبر النيل إلى الجيزة وخيم على مقربة من ساقية مكى وسير من يخبر الأمراء المصريين فى الصلح وكف القتال واستدعى ولد الشيخ الأمير وولد الشيخ العروسى والسيد محمد الدواخلى وسيرهم سفراء لتقرير قاعدة الصلح على ما فيه المصلحة وظل قوم الألفى وعسكره بيلاد الجيزة يعيشون ويفسدون ويطالبون أهلها بالكلف والمغارم وهم يستغيثون وليس

من مجيب، وكان الألفى داهية طاغية حازما حسن السياسة ساكن الجأش واسع التدبير جسوراً صبوراً على الخطوب مقدماً في الحروب وكان قد جلبه بعض النخاسين إلى مصر فاشتره أحمد جاويش المعروف بالمجنون فأقام عنده أياماً فلم تعجبه أوصافه إذ كان مجانناً سفيهاً فطلب منه أن يبيعه فباعه إلى آخر اسمه سليم. أغا الغزاوى المعروف بتمورلنك فأقام عنده حيناً ثم أهده إلى مراد بيك فأعطاه بدله ألف أردب من الغلال فسمى من ذلك الحين بالألفى وكان جميلاً حسن الصورة فأحبه مراد بيك وجعله جوخداره ثم اعتقه وجعله كاشفاً للشرقية. فظهر أمره وعرفه الناس وكان صعب المراس قوى الشكيمة وكان له جار اسمه على أغا المتوكلى فدخل عنده يوماً وترجاه فى أمر فوعده بقضائه ثم أحجم عنه فدخل عليه يوماً فى بيته وعاتبه فغضب الألفى وأمر خدامه أن يضربوه فضربوه بالنبايت ضرباً مبرحاً وحملوه إلى بيته فمات فى ثانى يوم فشكى أهله الألفى إلى أستاذه مراد بيك فغضب مراد بيك ونفاه إلى البحيرة فعاش فى قوة ومطوبس وبارنبال ورشيد وأكثر من الفساد وضرب على أهل البلاد الكلف والمغارم فشكوه إلى مراد بيك فأرسل إليه يتهده إن عاد إلى مثل ذلك، واتفق فى هذه الأثناء إن وقع التشاحن بين الأمراء المصريين فأبعدوا سليمان بيك الأغا وأخاه إبراهيم بيك ومصطفى بيك فأرسل إليه مراد بيك أن يرافق سليمان بيك إلى الإسكندرية ثم يعود إلى القاهرة ففعل ورجع إلى القاهرة فقلده صنجقا وذلك فى سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية واشتهر من هذا الحين بالغلظة والخشونة فخافه الناس وتحاشوا بأسه وبنى له داراً رحبة بقيصون واشترى الممالك والجوارى وأمر من مماليكه الأمراء والكشاف فنشوا على أخلاق أستاذهم وتطبعوا بطباعه من التعدى والعسف والفجور والتزم بإقطاع فرشوط وغيرها من بلاد الصعيد ومن الإقليم البحرى محلة دمنه ومليج وزوير وغيرها ولما تولى إمارة الشرقية خافه العربان وقبض على كبارهم وصادرهم فى أموالهم وماشيئهم وفرض على مشايخ القبائل المغارم والجمال ولم يزل على حاله وسطوته إلى أن قدم حسن باشا الجزائرى إلى مصر فخرج الألفى المذكور مع حاشيته وأصحابه إلى الصعيد وأقام بها ثم رجعوا فى أواخر سنة خمس ومائتين وألف بعد الطاعون وقد لبث بالصعيد نحو الأربع سنوات ولما عاد إلى الشرقية شوهده منه بعض السكون والثانى ومالت نفسه إلى مطالعة العلوم والنظر فى الفلكيات والهندسة وتعلق بالزرايع وأشكال الرمل وأحكام النجوم وقرب إليه أهل العلم بها واقتنى كتباً عظيمة فى أنواع العلوم والتاريخ واعتكف ثم عاد إلى القاهرة ونزل بداره القديمة وترك الإمارة وعكف على

العلوم واكتفى بما عنده من الأراضي والإقطاعات ولبت على هذه الحال حينما
فصغرت منزلته عند قومه وكادوا يحتقرونه فالتزم الأوسط وانتقل إلى دار أخرى ثم
عاد إلى الإكثار من شراء الممالك حتى بلغت ممالكه زهاء الألف عدا من كان منهم
في الوظائف الكبيرة وأنشأ داره العظيمة بالأربكية فلما تم بناؤها زينها بالفرش وأنواع
اليسط الفاخرة والتحف العظيمة التي أهداه بها جماعة الفرنجة وجعل خلفها بستاناً
عظيماً للغاية وسكن بهذه الدار في أواخر شعبان سنة اثنتي عشرة. وهناك الشعراء
ونظم الشيخ حسن العطار تاريخاً لقاعة جلوسه في بيتين على أسكفة باب القاعة
وهما:

شموس التهانى قد أضأت بقاعة

محاسنها للعين تزداد بالآلف

على بابها قال السرور مؤرخاً

سماء سعاداتي تجدد بالآلفى

١٠١ ٥٤٦ ٤٢١ ١٤٤

سنة ١٢١٢

فلما كان شهر رمضان أثار الدار المذكورة بالأنوار الكثيرة وازدحمت خيول
الأمراء على بابه وأتى إليه المهتجون من كل صوب وما زال على هذه الحال إلى
منتصف رمضان ثم بدا له السفر إلى الشرقية فأبطلوا الوقدة وأطفئوا تلك السرج
والشموع فكان ذلك فألاً وكانت مدة لبثه بهذه الدار ستة عشر يوماً فإنه ما تغيب
بالشرقية إلا قليلاً حتى احتل بونابارته بجيوشه ديار مصر وساق الأمراء المصريين
سوق الماشية إلى الأقاليم القبلية كما مر بك بيانه في محله، وكان للآلفى مع
الفرنسيس تاريخ يذكر وقائع عدة وما زال يراوغهم ويتعقب كتابهم إلى أن جاءت
الجيوش العثمانية إلى حدود مصر من ناحية الشام فسار إلى الصدر الأعظم قائد هذه
الجيوش وقدم له هدية نفيسة فخلع عليه الصدر وأقام عنده أياماً ثم رجع وترفع إلى
الصعيد ثم انحدر منها إلى الشام والفرنسيس يرصدونه.

ولما دخل الصدر الأعظم مصر بمن معه من الجنود وانتفض الصلح بينه وبين
الفرنسيس على ما تقدم بيانه وانحصر المصريون والعثمانيون بالمدينة ركب الآلفى في
قومه وقاتل الفرنسيين قتال الأبطال وخالف مراد بيك في الصلح مع الفرنسيين
واستمر على قتاله معهم وما زال إلى أن تم الصلح ثانيًا وخرج مع الصدر الأعظم
وجيوشه إلى الديار الشامية ثم رجع إلى شرقية بليس ثم جاء إلى القاهرة وأقام بها

مع بقية الأمراء بعد دخول الإنجليز وخروج الفرنسيين وكان فى مدة إقامته معهم شديد التحرز كثير التطير وجعل يتقرب من كاتب يد الوزير حتى مال إليه وأجبه فكلمه فى الوساطة بينه وبين الوزير على أن يقلده الوزير إمارة الصعيد بشرط قيامه بالغلل والأموال فى كل عام من غير تأخير ولما كان الألفى كثير الحشم والأتباع مسموع الكلمة مهيبا عند الناس كافة وكان الوزير يرغب فى تبعيده عن القاهرة وفى تمزيق شمل عصابة الأمراء أجابه إلى طلبه ورسم له بالإمارة فسار من فوره بجميع أتباعه ومالكيه وعسكره وجدّ فى السير فلما شاع الخبر جاء إلى الوزير من قبح له هذا العمل وأشار عليه بنقضه فندم الوزير وسير من يستحضره فلم يلحقوا به وقد وصل إلى مدينة أسيوط وأرسل إلى الوزير الأموال والغلل وهدايا أخرى من أغنام وعبيد وخصيان وغير ذلك ولم يمض على قيامه إلى الصعيد إلا القليل حتى قام جماعة من كبار جند الإنجليز إلى الإسكندرية وكذلك حسين باشا أمير سفن الدولة ونصبوا للمصريين الفخاخ وأرسل القبطان يطلب جماعة منهم، فلما قدموا أوقع بهم وقبض الوزير على من بالقاهرة منهم وحسبهم وجرى ما هو مسطور فى محله وأرسلوا طاهر باشا لقتال الألفى فى عسكر جرار وحصلت المفاومة وقتل من قتل ولجأ الكثيرون إلى معسكر الإنجليز بامبابية وهرب جميع الأمراء إلى الصعيد فقاتل عنهم الألفى قتال الأبطال فى عدة وقائع تذكر ثم سافر مع الإنجليز إلى لوندرة عاصمة مملكتهم وغاب بها سنة وشهرا وبعض أيام وجرى فى غيابه من الحوادث ما قد ذكر فى محله بالتفصيل.

ولما تولى محمد على باشا على مصر كان يخشى الألفى ويهابه كثيرا فوقع بينهما من الحروب ما مر بك ببيان فى محله وبالغ الألفى فى الشكوى من محمد على باشا إلى دار السلطنة العثمانية وإلى دولة الإنجليز حتى كان ما كان من حضور أمير سفن الدولة وعزل محمد على باشا وتولية موسى باشا مما قد ذكر فى محله فلما سافر أمير تلك السفن وتأيدت ولاية محمد على باشا اشتد بغض الألفى له وكبر عليه أمر ولايته على مصر فكتب إلى دولة الإنجليز يستجدها على قتال محمد على باشا فلم تجب طلبه ثم عادت فكتبت إليه توعده بنجدة مؤلفة من ستة آلاف مقاتل فتربص ناحية دمنهور وبقي ينتظر ثلاثة أشهر فلم يأت أحد ولما طال به المقام وعيل صبر قومه وقد ضجروا من الجذب سار بهم إلى الجيزة يريد الصعيد فخرج عليه محمد على باشا بعسكره فارتحل إلى شبرامنت. قال بعض الكتاب: فلما صار على مقربة من قناطرها نزل على ربوة هناك وجلس عليها وقد زاد به الهاجس

والقهر ونظر إلى جهة مصر وقال مخاطباً لها: ويلك أيتها القاهرة انظري إلى أولادك وهم حولك ممزقون كل ممزق انظري فقد استوطنك أجلاف الترك واليهود وأراذل الأرمن وطغاة وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقامون فرسانك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون بولدانك وحورك ويطمسون بهجتك ونورك، انظري، انظري، انظري. قال الراوي لهذه العبارة: ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله حتى تحرك به خلط دموى وتقياً في الحال دما ونادى بأعلى صوته أواه قد قضى الأمر وخلصت مصر لمحمد على وما ثم من ينازعه ويغالبه عليها وقد مد حكمه على طوائف الممالك فلا تقوم لهم راية بعد اليوم، قال: ثم جمع إليه أمراءه وأمر عليهم شاهين بيك وأوصاه وأوصاهم بالآلفة والتحايب وأن يحذروا من مخادعة عدوهم فهو قرم عنيد وأوصاهم أنه إذا مات يحملونه إلى البهنسا ويدفونه بجوار قبور الشهداء فمات في تلك الليلة وهى ليلة الأربعاء تاسع عشر ذى القعدة فحملوه على بعير وساروا به إلى البهنسا ودفنوه هناك وكان جليلاً مهيباً محتشماً بعيد الفكر عظيم البأس ذا غيرة حتى على أتباعه وكانت جميع قبائل العربان النازلة بمصر لا يخالفون له كلمة وكان له معهم سياسة غريبة ومعرفة بأحوالهم فكانما هو مربى بين ظهرانيهم يقومون ويقعدون لأمره وهو مع ذلك يصادرهم فى أموالهم وجمالهم ويقتل منهم وقد تزوج من بناتهم كثيراً ولم يبق منهن فى عصمته غير واحدة كانت غاية فى الجمال فمات عنها ولما شاع خبر موته بين العربان اجتمعت بناتهم وصرن يتدبته بكلام عجيب فكانت تتناقله أرباب المغانى فتغنى به على آلات الطرب.

وبعد موت الألفى بنحو الأربعين يوماً وصلت نجدة الإنجليز إلى نهر الإسكندرية ونزلوا إلى البر فبلغهم خبر موته فأرسلوا رسلهم إلى جماعة الأمراء المصريين يطلبونهم إلى الحضور ليتكلموا معهم فيما فيه المصلحة وفى ردهم إلى مناصبهم وإرجاع إقطاعاتهم إلى ما كانت عليه وكان محمد على باشا يقاتلهم بالصعيد فلما علم بذلك خابهم فى الصلح وأمر بتحصين الثغور وترميم القلاع وقيد بذلك جماعة من كبار العسكر وخشى عاقبة حضور الإنجليز إلى الإسكندرية وقد كان حضورهم فى عمارة عظيمة ونزل الإنجليز بالإسكندرية وأرسل مقدمهم إلى حاكمها يطلب تمكين العساكر البحرية من دخول الأبراج للدفاع عن الثغر بحجة أن جيوش الفرنسيين عائدة لأخذ المدينة عنوة فلم يقبل الحاكم منه ذلك ولم يمكن الجند من دخول الأبراج وترددت الرسل بين أميرال السفن الإنجليزية وحاكم المدينة ومقدم

العسكر المربطين بالحصون والقلاع وشدد الأميرال فى الطلب وضرب للحاكم أجلاً أربعاً وعشرين ساعة فإن أصر على الإباء والعتاد ضربت الحصون والقلاع بالقنابل من مدافع السفن فأرسل الحاكم يخبر كتحدا الباشا بجميع ما وقع بينه وبين أميرال السفن الإنجليزية فجمع إليه كبار الدولة وأصحاب الحل والعقد وتشاوروا فى الأمر فانفقوا على إبلاغ الخبر لمحمد على باشا واستنهاضه إلى سرعة الحضور إلى القاهرة بمن معه من المحاربين فسيروا له الأخبار بجميع ما جرى وشددوا عليه فى الحضور فلما انقضى الأجل المضروب بين الإنجليز وحاكم الإسكندرية وهو فى الممانعة أطلقوا على الحصون المدافع ورموا الأبراج بالقنابل الهائلة فهدموا ركناً من البرج الكبير وكذا هدموا الأبراج الصغار وجانباً عظيماً من السور فعند ذلك طلب أهل المدينة الأمان فأمّنهم ودخلت العساكر الأبراج وانتشرت فى المدينة وكانت عدتهم خمسة آلاف مقاتل ونزل أميرال الأسطول إلى المدينة وسكن بوكالة القنصل وأمن أمين أغا حاكم المدينة على نفسه ومن معه من العساكر والأجناد وكتب له عهداً بأن لا تسكن عسكر الإنجليز فى البيوت قهراً عن أصحابها بل بالأجرة والتراضى ولا يمتهنون المساجد ولا ييطلون منها الشعائر الدينية وأن من كان له دين على الحكومة يقبض نصفه من الإنجليز حالاً ومن أراد السفر بحرّاً فليسافر فى خفارتهم إلى أى جهة شاءها إلا دار السلطنة العثمانية وأن أهل البلد لا يتكلفون للأسطول بشئ من الميرة أو المال وتبقى المحكمة الشرعية على ما هى عليه من الفصل فى دعاوى الناس حسب الشريعة والسنة ولا ينظر الإنجليز فى دعاوى المسلمين بغير رضاهم وتبقى رعايا الدول الأجنبية حائزة لجميع الامتيازات الدولية المعروفة بين الممالك وبعضها وأن لا يؤخذ شئ من الرسوم الجمركية على جميع البضائع سوى اثنين ونصف فى المائة .

واشتد خوف محمد على باشا من احتلال الإنجليز للأبراج والحصون وكاد يسقط فى أمره وكتب إلى كتحده بأن يعجل بجمع العسكر ويجهز المعدات وشدد فى ذلك ، وسارت طائفة من الجنود الإنجليزية من الإسكندرية إلى رشيد لاحتلالها ، وكان من بها من المربطين والأهالى على يقظة تامة بالأزقة والعطوف وطيقان البيوت فلما صار الإنجليز بداخل البلد أطلقوا عليهم النيران من كل صوب وحذب فارتبك الإنجليز وألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا إليهم وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة ذبح الشاة وأسروا الباقين وفر جماعة منهم إلى ناحية دمنهور ، وكان بها طائفة من الجند وجماعة من العربان فخرجوا والتقوا بتلك الفئة فقتلوا بعضهم وأخذوا من بقى أسيراً وأرسلوا السعاة إلى القاهرة بالبشائر ثم

أرسلوا الأسرى مع رؤوس القتلى من الإنجليز، ونادى شيخ الجامع فى طلبة العلم والمجاورين بالأزهر بترك التدريس وحمل السلاح والتأهب للقتال والجهاد فى الإنجليز وشدّد السيد عمر النقيب فى ذلك على العامة فزاد هرج الناس وكثر لغظهم واجتمع المشايخ والأمراء وتشاوروا فيما يجب فعله دفاعاً عن البلاد فاتفقوا على تحصين المدينة وفتح الخندق الكبير الذى كان قد أنشأه الفرنسيّ عند باب الحديد واعتوا بإصلاحه قدر الاستطاعة وأكثروا من جمع الأسلحة والكراع وأكثر الوالى من الطواف والنداء بخروج العسكر وتأهب الأهالى للدفاع فلما علم أميرال الأسطول بما حل بعسكره فى رشيد سیر بعض السفن من مياه الإسكندرية إلى رشيد فأحس أهل رشيد بذلك وأرسلوا السعاة يستجدون كتحدا الباشا ويقولون عجل فقد أصبح العدو بسفنه على الأبواب وطيروا الخبر بذلك إلى محمد على باشا فتزايد خوفه وذهب صبره وأرسل رسله إلى الأمراء المصرين يستحثهم على الصلح ويستميلهم إلى الاستعداد لطرد العدو الزاحف إليهم وما زالوا بهم أياماً وهم بين إقبال وإدبار ولين وشدة ووعد ووعيد حتى مالوا إلى الصلح فاستوثق منهم وتركهم وانحدر بجيوشه إلى القاهرة ودخلها ليلاً فلما أصبح جمع إليه كبار العسكر وأرباب المناصب وخبرهم فى أمر جلاء الإنجليز وقد جاء الخبر بوصولهم إلى رشيد واستيلائهم على كوم الأفراج وأبى منصور واستمرار إطلاقهم القنابل على المدينة حتى تهدمت أكثر دورها ومات خلق كثير وأن من بها من الحكام وأرباب المناصب يطلبون المدد ويستجدون المشايخ فطلب محمد على باشا من السيد عمر النقيب أن يفرض على الأهالى فرضة لفقة الجند قدرها ألف كيس وأخذ فى تجميع الجيوش ونادى فى العسكر بعدم التخلف والخروج لدفع العدو وخرج بنفسه ومعه حسن باشا وعابدين بيك وعمر بيك وسار فى طائفة عظيمة من الجند وأرسل إلى الأمراء بالأقاليم القبلية يستنهضهم ويستقدمهم لقتال الإنجليز ويذكر لهم العهد الذى تعهد لهم به ويقول قد صارت الإنجليز على الأبواب فعجلوا بالحضور لدفعهم وإلا فعلى الإسلام السلام فلم يلبوا دعوته وقالوا لسنا على ثقة من عداوة الإنجليز لسلطاننا حتى نقاتلهم وكانوا قد حضروا لتجدتنا بناء على طلب الألفى ثم انحدروا إلى منية ابن خصيب وترىصوا بها وعاد محمد على باشا بعد تغيبه أياماً بظاهر المدينة يحض العسكر على الخروج إلى الجهاد ويستفرهم فلم تكن إلا أيام قلائل حتى جاءت الأخبار بهزيمة الإنجليز وجلائهم عن أبى منصور ومتاريس رشيد والحماة وقد أسر منهم عدة عظيمة وانحاز من بقى منهم إلى الإسكندرية وتحصنوا فيها وقطعوا سد أبى قير فانهمل ماء البحر المتوسط وأغرق ما حول الإسكندرية حتى كادت تسير فيه المراكب الصغار وحضر

الأسرى من الإنجليز إلى القاهرة فأصعدوهم إلى قلعة الجبل فكانوا زهاء الأربعمائة بينهم بعض كبار القواد ففرح الناس بهزيمتهم وتوقّت عزائم الجند المصرى وحضر أيضاً يس بيك أحد أمراء المصريين بعساكره وأقام بالجيزة على عهد الصلح الذى تقرر بينه وبين محمد على باشا ففرح محمد على باشا بقدومه وخلع عليه خلع الرضا وأعطاه ما طلب من متاع وسلاح وجهزه لقتال الإنجليز فعسكر بقومه ظاهر بولاق وطلب العساكر الخارجة عن خدمة محمد على باشا فأتوا إليه من كل صوب وحذب وكبر جيشه واتسعت كلمته فمالته نفسه إلى طلب الرياسة والخروج على محمد على باشا فبث الجبابة فى بلاد القليوبية تجمع له الأموال والمغارم والكلف فأحسن محمد على باشا بما وراء ذلك وأرسل إليه يطلب سرعة قيامه لقتال الإنجليز والمحافظة على العهد فتقاعس وشغل أمره محمد على باشا فأخذ فى التدبير عليه واستمال العسكر المنضمين إليه وحل عرى رباطهم ورشاهم بالمال والهدايا ونادى فى عسكر الأرنؤط بالخروج جميعاً فخرجوا إلى ناحية السبئية والخندق وحالوا بينه وبين بولاق ومصر وركب محمد على باشا فى طائفة من خواصه وخرج إلى تلك الناحية وحصن أبواب المدينة وأرسل إلى يس بيك يقول: إما أن تستمر على الطاعة وتصرف عنك هذه اللوموم وتخرج لقتال الإنجليز وإما أنك ترحل إلى بلادك بلا مهل ولا فأنأنا واصل إليك ومحاربك، فخاف يس بيك وانحلت عزائم قومه وتفرق عنه أكثرهم، فلما كان بعد غروب ذلك اليوم طلب الركوب ولم يعلم قومه إلى أين يريد فركبوا جميعاً وساروا قليلاً تحت جنح الليل ثم تفرقوا وتاهوا وذهب كل فريق منهم إلى ناحية لا يعلم له مقر ولم يزل يس فى سراه بمن معه حتى أصبح وقد نزل التبين فسير خلفه محمد على باشا طائفة من الجند لقتاله أما هو فإنه لم يستقر به المقام بالتبين حتى نهب عسكره التبين وحلوان وطرا والمعصرة والبساتين وخطفوا النساء ونهبوا الأجران وأخذوا ما كان فيها وفعلوا غير ذلك من فعال الشدة ولما أحس بقدوم العسكر ارتحل إلى صول والبرنيل ونزل إبراهيم بيك الكبير وعساكره أيضاً على بنى سويف وأرسل يعلم محمد على باشا بقدومه فلم يلتفت محمد على باشا إلى ذلك ولم يهمله ورسم بترميم القلاع والحصون التى كانت للفرنسيين أيام حلولهم بمصر وبالع فى التشديد بذلك وقيد بعض مقدمى العسكر بالعمل وحضر من الديار الشامية كثير من العساكر الدلاتية وبعض المرتزقة من الترك فججهزم محمد على باشا بالسلاح ومعدات القتال ونادى فيمن كان بمصر والقاهرة من العساكر والأجناد بالخروج إلى انبابة وخرج هو فاجتمع حول وطاقه طوائف العسكر

فلما كان يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف أمر بالارتحال فساروا فى أبهة وكبكة عظيمة إلى ناحية البحيرة وتربص محمد على باشا بطائفة من أصحابه على مقربة من مدينة الإسكندرية وبعث سفراء إلى مقدم الإنجليز يخبرونه فى أمر الصلح فجعل السفراء يترددون بين الفريقين أياما ثم حضر إلى معسكر محمد على باشا نفر من الإنجليز واختلوا به إلى نصف النهار، فلما كان يوم الجمعة غرة رجب الفرد من السنة تقرر بينهم قاعدة الصلح على أصول لم يذكرها أحد من أهل التاريخ ثم استحضر إلى الإسكندرية من كان بمصر من أسراء الإنجليز وردوا إلى معسكرهم وحضر لزيارة محمد على باشا بمعسكره أمير سفن الإنجليز فى نفر من قواده فأكرم محمد على باشا وفادته وأطلق لقدمهم عدة مدافع وقدم لهم خيولاً وهدايا نفيسة وأقمشة هندية وشيلانا كشميرية ثم ركب معهم فى قلة من قومه وساروا إلى بيت أمير الجيوش الإنجليزية فأكرموا محمد على باشا وقدموا له الهدايا والطرف من أفخر الصنائع ثم أتموا التوقيع على عقد الصلح وسلموا المدينة وفكوا من كان عندهم من أسرى رشيد وانسحبوا من الأبراج والحصون إلى مراكز البحر، ولبت محمد على باشا بالإسكندرية وقد باتت داخلة فى حكمه بعد أن كانت مع سائر الثغور فى حوزة وتصرف أمير سفن حرب الدولة العثمانية من عهد السلطان سليم إلى ذلك الحين وما زال بها حتى قدم إلى القاهرة فى يوم الاثنين ثالث شعبان من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية فخرج العلماء والأمراء للقائه وأطلقت لقدمه المدافع من قلعة الجبل وسائر الحصون وزينت المدينة ثلاث ليال ورجع معه حسن باشا طاهر وسليمان أغا وكثير من العساكر والأجناد.

وما استقر به المقام حتى جعل ينظر فى ترتيب أمور البلاد ويعمل على إزالة الوحشة التى بينه وبين من بقى من الأمراء المصريين فسير إليهم من يستميلهم ويحبب لهم ترك القتال والانضمام إلى حاشية محمد على فمنهم من مال إلى المصالحة ومنهم من تجافى وشط فى الطلب وكانت لم تزل الدساتر والفتن قائمة بين الجند وأصحاب الكلمة فيهم، فلما كان يوم الاثنين ثالث عشرى شعبان من السنة اجتمعت طائفة كبيرة من الأرناؤط والعساكر الرومية على بيت محمد على باشا وطلبوا علائقهم فوعدهم فقالوا لا نصبر فلاطفهم فتجافوا وأطلقوا بنادقهم مراراً وأصرروا على طلب العلائق ثم انصرفوا وتفرقوا فى القاهرة ومصر فخاف الناس وتطيروا وأرسل السيد عمر إلى أهل الغورية والعقادين والأسواق يأمرهم برفع

بضائعهم من الحوانيت ففعلوا وأغلقوها فلما كان قبيل الغروب وصل إلى بيت محمد على باشا فريق آخر من الدلاتية وطالبوا أيضاً بالعلائف وأطلقوا كذلك بنادقهم على من بباب محمد على باشا فردهم الجند وأطلقوا عليهم النار فجرحوا منهم عدد فانكفوا ورجعوا ويات الناس متخوفين وأصبح يوم الثلاثاء والحال فى اضطراب وقد نقلت أمتعة محمد على باشا فى تلك الليلة إلى قلعة الجبل وصعد هو كذلك إلى القلعة وأرسل إلى رجب أغا أحد مقدمى الأرناؤط من يلزمه بالخروج إلى الديار الرومية بلا مهل فأظهر العصيان وترس هو وفريق من جنده فى بعض الدور ووقع بينهم وبين عساكر محمد على باشا قتال ثلاثة أيام ثم انجلى عن سفر رجب أغا قهراً إلى الديار الرومية. قال بعض كتاب الأخبار: ونزل محمد على باشا وطاف بالمدينة. ومر بناحية سوق المعزى سائراً إلى بيت يلغا وهناك المكتب الذى فوق السيل بين الطريقين تجاه من يأتى من تلك الناحية فصعد إلى ذلك المكتب اثنان من الجند يرصدان محمد على باشا فى مروره فلما أتى مقابلاً لذلك المكتب أطلقا عليه بارودتين فأخطأته وأصاب إحدى الرصاصتين فرس أحد الملازمين حوله فسقط فترجل محمد على باشا عن فرسه وهو ساكن الجأش ووقف على مصطبة حانوت هناك وأمر بالقبض على الجندين فقبضوا عليهما فأمر بإخراجهما إلى الديار الرومية فأخرجوهما فى الحال، وعاد إلى مخايرة الأمراء المصريين فأول من أذعن منهم للصالح شاهين بيك الألفى فحضر ونزل بدهشور ومعه هدايا عظيمة من إبراهيم بيك الكبير ومحمد بيك المرادى المعروف بالمنفوخ برسم محمد على باشا وهى نحو الثلاثين حصاناً من جياذ الخيل ومائة قنطار بن قهوة ومائة قنطار سكر وأربعة خصيان وعشرين جارية سوداء فلما وصل شاهين بيك إلى دهشور وحضر من أعلم محمد على باشا بحضوره أرسل معهم هدية عظيمة ورافقهم ولده وكاتب سره ثم انتقل شاهين بيك إلى شبرامنت واستلم الجيزة بعد ذلك والقصر وما حوله وما به من المدافع وآلات الحرب ودخل القصر وأعطاه محمد على باشا إقليم البهنسا وعشر بلاد من بلاد الجيزة وكتب له بذلك تقاسيط ديوانية وضم له كشوفية البحيرة إلى الإسكندرية وأطلق له التصرف فى جميع ذلك بلا معارض وأكثر من مكاتبه الأمراء بالصعيد وسلم لهم أمر مقاتلة يس بيك الذى هرب إلى الصعيد فقاتلوه ونالوا منه وفرقوا جيوشه فانحاز إلى منية ابن خصيب وقد نهبت أحماله ودوابه وانصرف عنه أكثر جنده ولمومه وكاد يسقط فى يده.

ولما كان الثالث والعشرون من شوال من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ورد

فرمان السلطان بتأييد ولاية محمد على باشا ووجوب التأهب وإعداد الجند والسلاح لقتال الوهابيين الخارجين بالحجاز ففرضوا لذلك فرضة عظيمة على أهل البلاد وعين من كبار الجند من يقبضها ورسم محمد على باشا بعمارة أسوار وقلاع الإسكندرية وأبى قير والسويس ورشيد ودمياط وبالق في العمل وقيد به جماعة وأرسل إلى من كانوا يقاتلون يس بيك أن يشددوا في حصاره ويمنعوا الواصل إلى مقره ففعلوا وبالغوا في التشديد فخابرهم يس بيك في الصلح على شروط اقترحها فقبلوا منه ذلك فاستأمن وصرف من كان عنده من طوائف العربان ثم حضر إلى بولاق وصعد إلى قلعة الجبل فعوقه محمد على باشا وأراد الفتك به فقام من الأمراء من ترامى على أقدام من محمد على باشا فرسم بإخراجه إلى الديار الرومية ثم خلع عليه بعد ذلك وسير معه من يوصله إلى ثغر دمياط ومنها إلى جزيرة قبرص .

واشتغل السلطان عن مصر في هذا الحين بقيام الفتنة في القسطنطينية وخروج طوائف الانكشارية عن طاعته وذلك أنه لما أعياء أمرهم وصاروا أشد عداوة للدولة وأعظم ضرراً عليها من الأعداء عمد إلى تنظيم عسكر مخصوص على هيئة وترتيب عسكر الفرنسيين واستقدم لذلك قائداً من كبار قواد الفرنسيين فجاز ونجح وتم له الأمر أو كاد فلما أحست طوائف الانكشارية بما وراء ذلك تجردوا للعداوة وشق عصا الطاعة وأعانهم جماعة من العلماء والمشايخ وأضرموا نار الفتنة في جوف القسطنطينية وطلبوا صرف أولئك الجنود المنظمة وشددوا في الطلب فأجابهم السلطان إلى ذلك كارهاً فلم يقفوا عند هذا الحد وطلبوا أشياء أخرى فطاولهم فألحوا في الطلب فأجابهم إطفاء لنار الفتنة ولكي يتمكن من دفع العدو المحذق بالدولة من كل جانب فلما سكنت الفتنة وأخلد المشاغبيون إلى السكون سير الصدر الأعظم إلى مدينة شوملة لقتال الروس وكانوا قد تجردوا لقتال السلطان ورسم له أيضاً بإرجاع بعض الولايات التي شقت عصا الطاعة وولى مصطفى باشا قائممقامية الصدارة وكان مصطفى باشا هذا من أعداء النظام الجديد وكان قد مات في هذه الأثناء مفتى دار السلطنة وكان من أكبر أنصار السلطان سليم على إدخال النظام الجديد في عسكره فتولى مكانه آخر شديد التعصب لعادات الانكشارية ومذهبهم يكره ذلك النظام ويعده بدعة مخالفة للدين فاتفق مع مصطفى باشا وبعض المشايخ وكبار العلماء على إبطاله وتحالفوا على ذلك فذسوا الدسائس وأيقظوا الفتنة النائمة وأضرموا نارها فالتهب وقام العسكر بعضهم على بعض واقتتلوا قتال الأعداء فمات منهم خلق كثير

واجتمع كثير من العساكر المرتزقة وقدموا عليهم مقدما منهم فصار بهم حتى أتوا إلى المكان المعروف (بابت ميدان) وقد انضم إليهم جماعة من الانكشارية وغير الانكشارية فأتوا بقدر طعامهم فصفوها أمام صفوفهم وهى عادتهم عند عدم الطاعة وقيام الفتنة وصاحوا بالويل والثبور على أصحاب النظام الجديد ثم أتوا بجميع أرباب الوظائف العالية الذين ساعدوا السلطان على إدخال ذلك النظام فى عسكره إلى ذلك الميدان فقطعوا أعناقهم وقطعوا بعضهم فى الطريق قبل أن يصلوا بهم إلى الميدان ولم ينكفوا عن الضجيج والصياح والفتنة قائمة مدة يومين حتى أفتى المفتى بخلع السلطان سليم فى الحادى والعشرين من ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية. وقال: (لا يصلح للملك من يدخل عادات الفرنجة فى بلاد المسلمين والله أعلم) ففرح العسكر بذلك ونادوا بخلعه وولاية السلطان مصطفى خان الرابع ثم قبضوا عليه ووضعوه فى إحدى البسرايات محجورا عليه فكانت سلطته زهاء العشرين سنة.

ومات فى أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام فى الرياسة نحو أربع وعشرين سنة كلها شدائد ومحن وقد كثرت فيها المغارم ومصادرة الناس فى أموالهم على ما تقدم بيانه جميعه فى محله فأقيم بعده يوحنا وهو السابع بعد المائة وكان راهباً بدير أنطونيوس واسمه يوسف ووقع من الحوادث فى أيامه ما سيذكر فى محله.

(الفصل العشرون)

(فى سلطنة السلطان مصطفى)

(الرابع ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالأمر بعد السلطان سليم ابن أخيه السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد ببيع له بالملك يوم خلع عمه فى حادى عشرى ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية فلم يكن له من السلطنة سوى الاسم فقط والكلمة للمفتى ومن معه من مبغضى النظام الجديد فتصرفوا فى جميع الأمور وأطاعوا هواهم وولوا الوظائف لغير مستحقها وسلموا مقاليد القلاع والحصون إلى مقدم الجند الذين ثاروا على السلطان فسكنت الفتنة

وعادت الأمور إلى ما كانت عليه ، ووصل الخبر بما جرى إلى العسكر الذين كانوا يقاتلون الروس ففرح جماعة الانكشارية وسروا بقتلهم وقاموا على الصدر الأعظم فقتلوه وولوا بدله چلبى مصطفى باشا فسرى الفساد إلى جميع مصالح الدولة واستولى الخلل على أمورها وعبث بها الأغرار وعاثوا وأفسدوا وقام مقدم أصحاب الثورة بعد قليل على قائممقام الصدارة فخلعه وولى بدله آخر اسمه طاهر باشا فلما استقر بطاهر باشا هذا المنصب وأراد التصرف رأى أنه مغلوب على أمره ليس له من المنصب سوى الاسم والكلمة للمفتى ومقدم الجند أصحاب الفتنة فخلع نفسه ورحل عن القسطنطينية إلى مدينة روستجق ونزل فى جوار حاكمها مصطفى باشا البيرقدار وكان مصطفى باشا هذا راغباً فى النظام الجديد وقد جيش منه جيشاً عظيماً وكان من أنصار السلطان سليم ميالا إلى إعادته إلى عرش الملك فلما استجار به طاهر باشا قويت آماله بإرجاع السلطان إلى عرشه فسير إلى الصدر الأعظم وأصحاب الحل والعقد من يكلمهم فى الأمر ويستميلهم إلى الغدر بالمفتى ومقدم أصحاب الثورة وما زال بهم حتى مالوا إلى ذلك ووافقوه وبرز الحكم من الصدر الأعظم بقتل مقدم الثورة المذكور فركب عليه أحد مقدمى الفرسان وقتله فهاج أصحابه وماجوا وتجردوا للقتال وكان مصطفى باشا البيرقدار قد وصل فى هذه الأثناء إلى ضواحي القسطنطينية فى جيشه المنظم وصار عسكره على مقربة من الأبواب فلما علم السلطان مصطفى بحضوره خشى العاقبة ورسم بخلع المفتى وأمر فنادى فى الجند أصحاب الثورة بالانصراف إلى أوطانهم فلم يلتفت البيرقدار إلى شىء من ذلك وسار بجيوشه حتى وقف أمام باب السراى السلطانية وقد أغلقوه فهم بكسره أو حرقه ثم فتحوه عنوة وعبروا إلى داخل السراى وطلب السلطان سليم وكان محجورا عليه فأخفوه عنه وسير السلطان مصطفى فى الحال جماعة من خواصه فدخلوا على السلطان سليم وضربوه بالخناجر وأحضروه ميتا إلى حيث السلطان مصطفى فقال: سلموه إلى هذا وأشار إلى البيرقدار وقال: (ها هو سلطانك الذى تطلبه منا اليوم) فلما رآه البيرقدار بكى بكاء مرا وشاع قتل السلطان سليم بين الجند فهاجوا وماجوا وكثر ضجيجهم واشتدت الفتنة ونادوا بخلع السلطان مصطفى ثم قبضوا عليه وسجنوه فى المكان الذى قتل به السلطان سليم وذلك فى الخامس من جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطته بضعة أشهر وولوا الملك بعده لأخيه السلطان محمود الثانى وهو فى عتفوان الشباب وغضاضة السن.

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى سلطنة السلطان محمود)

(الثانى ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالأمر بعد خلع السلطان مصطفى أخوه السلطان محمود الثانى ببيع له بالملك يوم الخميس خامس جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية ووردت الأخبار بذلك إلى مصر فقام محمد على باشا بمظاهر الاحتفال وزينت المدينة ثلاث ليال وخطبوا له على المنابر بمصر والقاهرة وسائر المدن القبلية والبحرية واستوزر السلطان محمود الوزير مصطفى باشا البيرقدار وسلمه ختم الصدارة وصرفه فى جميع الأمور فأحكم السياسة وأحسن التدبير وجعل يعمل على إخضاع طوائف الانكشارية وإيقافهم عند حدهم فجمع يوماً جميع كبار الدولة وأصحاب المناصب العالية والعلماء والمشايخ وعقد مجلساً حافلاً وكلهم فيما تلاقيه الدولة بسبب خروج الانكشارية وعدم وقوفهم عند حد رسومهم وعاداتهم القديمة وبالع فى الشكوى وعظم فى البلوى وسألهم اجتماع الكلمة على دفع هذا الفساد ومنع تطاول أيدي أولئك القوم إلى العبث بمصالح الدولة التى استحوذ عليها الفشل وتولاها الخلل فأجابوه إلى ذلك ووافقوه على أخذ فتوى من مفتى دار السلطنة بوجوب رجوع طوائف الانكشارية فى جميع أمورهم إلى رسومهم وعاداتهم القديمة فقويت بذلك عزيمته واشتد أزره وعمد إلى إخضاعهم فأخضعهم وألبسهم ثياب الذل وتصرف فيهم فخاف عليه بعض أصحابه وحذره من مكرمهم وغدرهم فلم يلتفت إلى ذلك وبالع فى التشديد وأكثر من الوعيد، فلما ضاق بهم الخناق وأيسوا من الخلاص أثاروا الفتنة فى مدينة فليبي وأظهروا العصيان فسير لقتالهم جيشه المنظم ولم يبق معه سوى زهاء أربعة آلاف وبعض العساكر الأخرى وبالع فى الشدة على من بالقسطنطينية من الانكشارية فلما كانت ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ثلاث وعشرين أجمعوا أمرهم وتحزبوا وساروا إلى مقر السلطان مصطفى المعزول وانبثوا حوله وهموا بإخراجه وإرجاعه إلى عرش السلطنة فركب عليهم مصطفى باشا البيرقدار فيمن بقى من عساكره وقاتلهم قتالاً عنيفاً فلم يقو على ردهم وأحس بالهزيمة لكثرة العدو فسير إلى السلطان مصطفى المعزول من قتله وأمر بجثته فألقوها من أعلى السراى إلى أصحاب الثورة كى لا يتمكنوا من إرجاعه إلى عرش السلطنة فلما رأوا السلطان على هذا الحال

اشتد هياجهم وعلا ضجيجهم وأضرمو النار فى سراى السلطان مصطفى ليهلك فيها البيرقدار بالحريق وقيل بل أضرموها فى سراى البيرقدار وأفحشوا فى الحرق والهدم والنهب واختفى البيرقدار فى سرداب فلم يعثروا عليه وكان لما اشتبك القتال بين عسكر البيرقدار والانكشارية أدخل أمير سفن الحرب ثلاثاً من السفن إلى بوغاز القسطنطينية ووجه أفواه مدافعها نحو منازل الانكشارية ورمى عليها بالقنابل رمياً متتابعاً ثم نزل بطائفة من عسكره أيضاً وسار لنجدة البيرقدار وكذلك سار لنجدة أحد مقدمى العساكر المنظمة فلم يفلحوا إذ كان الانكشارية قد تمكنوا من حرق السراى فأعملوا السيف فى الانكشارية وأخذوهم من كل صوب وحذب حتى انهزموا وولوا الأدبار فانهدر جماعة منهم إلى بيوت الناس فأضرمو فيها النار فعلا اللهب واشتد وخاف السلطان وهاله الأمر وتحقق دمار جميع المدينة وطمس معالمها فنزل من مقره إلى الباب الموصل إلى البحر ونادى بقتال الانكشارية فقاتلوهم قتالاً عنيفاً وأكثر الانكشارية من حرق الدور والأبنية العظيمة فانهال اللهب أنهيال السيل والتهبت أكثر دور المدينة فدمرتها وعلا صياح النساء والأطفال من كل ناحية وهب الناس من مضاجعهم مذعورين فصاح السلطان وشدد على الجند بالقتال وذبح كل من وجدوه يعاون على الحريق وهو مع ذلك محصور فى سرايته يوماً وليلة فلما أشد الحال وضعفت من خلاص المدينة الآمال سير السلطان إلى كبار الانكشارية من يخبرهم فى أمر الصلح وترددت الرسل بينهم فانكفوا عن الحريق وأخذوا فى إطفائه ودخل جماعة من الانكشارية إلى حيث مصطفى باشا البيرقدار فأخرجوه من تحت الردم ميتاً وعلقوه فى شجرة ومثلوا به تمثيلاً وسكنت بعد ذلك الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه فاستوزر السلطان الوزير ضيا يوسف باشا الذى كان حضر إلى مصر لقتال عساكر بونابارته وكظم غيظه وجعل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها.

وكانت هذه الفتنة وما نجم عنها من اختلال نظام الدولة وسقوط هيبتها وغل أيدى السلطان عن أن يأتى بأى أمر أراده وتفاسم شر طوائف الانكشارية كل هذا جعل محمد على باشا فى مأمن من جانب السلطنة ومكنه ذلك من منصب الولاية فتجرد للعمل وسار عن القاهرة إلى الأقاليم البحرية وقد طلب الكلف اللازمة لذلك وفرضها على البلاد فكتب إليه الرزنامجى يقول إن الخراب ضارب أطنابه على أكثر البلاد بأسباب المحن المتوالية فلا قدرة لأهلها على دفع شئ الآن فلم يرض محمد على باشا من الرزنامجى بذلك وجاب البلاد شرقاً وغرباً ومعه الكتاب وبعض

المباشرين ثم رسم بتحرير سجل مخصوص يشمل عدد ما يوجد من البلاد التي لا قدرة لأهلها على الزرع فحرروا سجلاً بها فأقطعها لأولاده وذوى قرابته وجمع إليها من تشرّد من أهلها وصار من هذا الحين إذا تأخّرت بلده عن القيام بما يفرض عليها أقطعها إلى رجال الدولة أو أحد أولاده أو ذوى قرابته وسميت الإقطاعات من يومئذ أى من سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أو نحوها (بالعهد) ثم جعل ينظر فى احتياجات البلاد وفى ترتيب أمورها على ما فيه المصلحة واهتم بذلك كثيراً فكاد يتم له الأمر لسكون الأمراء المصريين واستقرارهم بالصعيد الأعلى وعدم قيام الفتنة .

فلما كان أوائل سنة أربع وعشرين ورد فرمان السلطان بالعودة إلى جمع العساكر والسلاح لقتال الوهابيين وكانوا قد خرجوا بالحجاز فعاثوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا ومنعوا الحج وأظهروا البدع والخروج عن السنن والعيب بالشريعة وهم أصحاب عبد الوهاب الدرعى، وعبد الوهاب هذا رجل من العرب ولد فى الدرعية من بلاد الحجاز وتعلم مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان ثم سار إلى أصفهان ولاذ بعلمائها وأخذ منهم حتى غرزت مادته وتضلّع من علم أصول وفروع الشريعة لاسيما تفسير القرآن ثم قفل راجعاً إلى بلاده فى سنة إحدى وسبعين ومائة وألف هجرية فلما استقر به المقام جعل يقرر مذهب الإمام أبى حنيفة ثم اجتهد واستقل وقرر له مذهباً مخصوصاً وألقاه على تلامذته فاتبعوه وعملوا به وكثر مريدوه وشاع أمره فى نجد والقطيف والأحساء وكثير من بلاد العرب كبنى عتبة من أرض اليمن وعمان وغيرهما لمذهبه هذا قواعد وشروط مخصوصة يعلم بعضها من رسالة ذكرها صاحب الخطط التوفيقية نأتى بها هنا تكميلاً للفائدة .

قال : اعلموا رحمكم الله أن الخليفة ملة إبراهيم أن تعبد الله مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم له كما قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ فإذا عرفت أن الله خلق العباد للعبادة فأعلم أن العبادة لا تسمى عبادة إلا مع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمى صلاة إلا مع الطهارة فإذا دخل الشرك فسدت كالحدث إذا دخل فى الطهارة كما قال الله تعالى : ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون﴾ فمن دعا غير الله طالباً منه ما لا يقدر عليه إلا الله من جلب خير أو دفع ضرر فقد أشرك فى العبادة كما قال الله تعالى : ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ وقال تعالى : ﴿والذين تدعون من دونه

ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعون دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا يثبتك مثل خير ﴿ فأنخير تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فمن قال يارسول الله أو يابن عباس أو ياعبد القادر زاعماً أنه باب حاجته إلى الله وشفيعه عنده ووسيلته إليه فهو المشرك الذي يهدر دمه وماله إلا أن يتوب من ذلك ، وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذي يتوكل على غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلتجئ إلى غير الله فهو أيضاً مشرك ، وما ذكرنا من أنواع الشرك هو الذي قال الله فيه : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ﴾ وهو الذي قاتل رسول الله المشركين عليه وأمرهم بإخلاص العبادة كلها لله تعالى ويصبح ذلك أى التشنيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى فى كتابه ، أولها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون أن الله هو الخالق الرازق المحيى المميت المدبر لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون ﴾ وقوله تعالى : ﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون ﴾ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴾ قل من بيده ملكوت كل شىء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴾ إذا عرفت هذه القاعدة وأشكل عليك الأمر فأعلم أنهم بهذا أفروا ثم توجهوا إلى غير الله يدعونه من دون الله فأشركوا ، القاعدة الثانية ، أنهم يقولون ما نرجوهم إلا لطلب الشفاعة عند الله نريد من الله لا منهم ولكن بشفاعتهم وهو شرك والدليل على ذلك قول الله تعالى : ﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون ﴾ وقال الله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون أن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴾ وإذا عرفت هذه القاعدة فأعرف القاعدة الثالثة ، وهى أن منهم من طلب الشفاعة من الأصنام ومنهم من تبرا من الأصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا ﴾ ورسول الله لم يفرق بين من عبد الأصنام ومن عبد الصالحين بل كفر الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله وإذا

عرفت هذه القاعدة، فأعرف القاعدة الرابعة، وهى أنهم يخلصون الله فى الشدائد وينسون ما يشركون والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾. وأهل زماننا يخلصون الدعاء فى الشدائد لغير الله فإذا عرفت هذا، فأعرف القاعدة الخامسة، وهى أن المشركين فى زمان النبىؐ أخف شركاً من عقلاء مشركى زماننا لأن أولئك يخلصون الله فى الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم فى الشدائد والرخاء، والله أعلم بالصواب انتهى بنصه.

ووردت الأخبار بخروج الصدر الأعظم يوسف باشا من دار السلطنة فى جيش عظيم لقتال الوهابيين وخروج آخر اسمه سليمان باشا من مدينة بغداد فى عسكر أيضاً لقتالهم فجعل محمد على باشا يتأهب للخروج ورسم بتحسين قلاع القلزم وتجهيزها بالأسلحة وآلات الحرب وأكثر فيها من المؤنة والماء وقيد بها طائفة من الجند حتى صارت على قدم الاستعداد وأنشأ على ساحل بولاق معملًا لمد السفن وصنعة التجارة سماه الترسخانة وعمل السفن والشوانى الكبيرة وجمع لذلك الصنائع والتجارين والحدادين فكانوا يهثون الأخشاب ويصلحونها ويحملونها على ظهور الجمال إلى السويس فيضمون بعضها إلى بعض وينزلونها إلى بحر القلزم فعملوا من ذلك أربع سفن كبيرة وعدة سفن صغيرة وشحنها بالآلات والمهمات الحربية فصارت على أهبة السفر إلى الأقطار الحجازية. وأظهر محمد على باشا الاهتمام بهذه الحملة، فبينما هو على هذا الحال من جمع الجند وآلات الحرب إذ جاءه الخبر بانحذار الأمراء المصريين إلى الجزيرة وأنهم نصبوا خيامهم خارجها ومعهم كثير من العربان والهواة ولموم آخر وأنهم يريدون حضور محمد على باشا لملاقاة من تعاهد منهم على الصلح فلم يلتفت محمد على إلى ذلك ولم يحضر ولم يرسل أحداً من قبله فى ذلك اليوم فساء ذلك إبراهيم بيك الكبير وعدا إهانة له ولأصحابه ومن حضر معه على العهد من الأمراء فلما كان ثانى يوم عبر شاهين بيك الألفى إلى شبرى واجتمع بمحمد على باشا وعاتبه وأغلظ عليه القول ثم نزل من عنده وعبر النيل إلى الجزيرة وأمر فنقلوا متاعه وجميع أثاثه ونساءه وسيرهن إلى الفيوم ونسى محاسن القصر الذى كان يسكنه بالجزيرة وانضم إلى إبراهيم بيك الكبير وبقيّة الأمراء وخالف العهد وكفر بالنعمة وجمع إليه مماليكه وأتباعه وعساكره ونصب خيامه على مقربة من خيامهم ورتبوا الأمر بينهم وقسموا مواقف الحرب والقتال واختص كل فريق منهم بجهة وجاء الخبر بذلك إلى محمد على باشا فسير إليهم يلاطفهم ويطيب

خواطريهم فلم يقبلوا وتجاؤا وأغلظوا فى القول ورموه بالخدعة وشاع الخبر بذلك بمصر والقاهرة فخرج إليهم أيضاً من كان مختفياً من العساكر والأجناد المصريين وعبروا النيل إلى الجيزة فكثرت لمومهم وكبر جيشهم فاستعظم محمد على باشا الأمر وخشى العاقبة فأخذ فى التجهيز ونادى فى عسكره بالخروج فعبروا النيل وهو فى مقدمتهم ونزل بقصر الجيزة وتحققت المفاومة وتحصن الأمراء خلف السور ووقفت أمامهم عساكر محمد على باشا ولبثوا على هذا الحال إلى ثانى يوم ولم يقع بينهما ضرب ولا قتال ثم ترفع المصريون إلى ناحية دهشور وزين فأمسك عليهم محمد على باشا الطرق ومنع عنهم المواصلات وشدد فى المنع وبث العيون والأرصاد واستمال من كان معهم من عربان أولاد على وغيرهم وأمنهم فتركوهم وأتوا إليه خاضعين فأحسن إليهم وردهم إلى أوطانهم وسير طائفة من العسكر لقتال شاهين بيك ومن معه فالتقوا بهم عند صول والبرنيل وقد جعلوا بها المتاريس ونصبوا عليها المدافع فقاتلوهم حتى أجلوهم عنها وملكوا المتاريس وقد مات من الفريقين خلق كثير وأنقسم الأمراء المصريون إلى قسمين قسم عبر النيل إلى شرق أطفيح وقسم قفل راجعاً إلى الجيزة لقتال المرابطين بها وإبعادهم عنهم فلم ينالوا منهم أرباً وجعل محمد على باشا يستميل من كان مع شاهين بيك من الأمراء المصريين والكشاف وما زال بهم حتى تغلوا عن شاهين وانحازوا إلى عسكر محمد على باشا فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضاء وشاع خبر رجوعهم عند أصحاب شاهين فزال ذلك هيئته وسقطت كلمته ورجع من كان على قدم الطاعة إليه والانضمام إلى عسكره وقام عليه أهل البلاد التى كانوا يمرون بها ومنعوهم من ضرب المغارم وأخذ الكلف وطرودوا المعينين لذلك من قبله وكادت تتلاشى سطوته وتنفرد كلمة من كانوا معه وأحسن محمد على باشا بانصرام حزمته فشدد فى مطاردتهم وضيق عليهم من كل صوب وحذب وأرتحل بعساكره من الجيزة ومعه ولده الأمير طوسون إلى جزيرة الذهب ثم ساروا منها إلى الصعيد فكان كلما اقترب من منازل المحاريين انسحب من جموعهم العدد الكثير وانحازوا إليه وقدموا له الطاعة، فلما كان يوم السبت عاشر رجب سنة خمس وعشرين التقى الجمعان واقتتلا قتالاً عنيفاً فاستظهرت عساكر محمد على باشا على الأمراء وأبلوا فيهم بلاء حسناً فترفع الأمراء إلى الصعيد وتبعتهم الجيوش المصرية فلما رأى جماعة الألفى أنهم مأخوذون استأمن منهم طائفة كبيرة وتتابع انتصارات محمد على باشا وضعفت عزيمة الأمراء المصريين فكانوا كلما اقترب العسكر من منازلهم تركوها وترفعوا إلى الصعيد وبينما هو على هذا

الحال إذ جاءه الخبر بقدم رسول من جانب السلطان بفرمان وأنه نزل بقصر شبرى من ضواحي القاهرة فأنحدر محمد على باشا إلى القاهرة على عجل وصعد إلى قلعة الجبل وطلب إليه الرسول فقابلته برهة لطيفة شاع بعدها الخبر بأن السلطان راغب فى سرعة قتال الوهابيين والتعجيل فى تسيير العساكر المصرية لقتالهم فأظهر محمد على باشا الاهتمام بذلك وأمر بالتأهب والاستعداد وأكثر من جمع العساكر ونادى فيهم بالخروج فأجتمعوا عند قبة العزب ونزلوا هناك أياماً حتى يتم خروجهم وقد سلم قيادهم إلى ولده الأمير طوسون ثم نادى مناديه باجتماع الأمراء وسائر أرباب الوظائف ورجال الحكومة فى قلعة الجبل ليركبوا فى غد بتجملاتهم وزيتهم ويسيروا أمام موكب الأمير طوسون عند خروجه بعسكره إلى مدينة السويس .

(مطلب)

(قتل أمراء العسكر المعروفة بقتل الغز)

فلما أصبح يوم الجمعة سادس صفر سنة ست وعشرين ومائتين وألف ركب جميع الأمراء والكشاف وصعدوا إلى قلعة الجبل فى مماليكهم وأتباعهم وأجنادهم بتجملاتهم وزيتهم ودخل الأمراء منهم على محمد على باشا وتحدثوا ساعة وهو يظهر لهم غاية البشر والإيناس ثم أمر فصار الموكب على الوضع الذى رتبوه فكانت طائفة الدلاة فى المقدمة ومن خلفهم طوائف العسكر المشاة والفرسان وأرباب المناصب وكان محمد على باشا قد أطلع حسن باشا وصالح جوق والكتخدا على ما فى نفسه من الغدر بالأمراء المصريين وقطع شأنتهم وأسرّ بذلك أيضاً فى صبح اليوم إبراهيم أغا أغات الباب فلما سار الموكب من باب العزب وفرغ طائفة الدلاة ومن كان معهم من الوجاقلية وانفصلوا من الباب المذكور أشار صالح جوق فأغلقوا الباب وعرف أصحابه بالمراد فأطلقوا فى الحال نيرانهم على المصريين وقد انحصروا جميعهم فى المضيق المنحدر من الحجر المقطوع فى أعلى باب العزب ما بين الباب الأعلى الذى يتوصل منه إلى رحبة سوق القلعة إلى الباب الأسفل ، وهو مشاهد إلى يومنا هذا ، وقد كانوا أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على الجدران التى بذلك المضيق فلما أطلقت البنادق من الواقفين عند الباب هم الأمراء بالرجوع إلى الورا فلم يتمكنوا من ذلك لتكاثر الخيل من خلف وقد أخذهم ضرب البنادق من خلفهم أيضاً واشتدت عليهم النيران وتتابعت وسمع العسكر الواقفون بالأعلى فأطلقوا نيرانهم أيضاً فلما نظروا ما حل بهم سقطوا فى أيديهم وارتبكوا ووقع منهم قتلى كثيرون وترجل أكثرهم عن خيولهم واقتحم شاهين بيك الألفى وسليمان بيك

الأبواب فى عدة من عماليكهم راجعين إلى فوق ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى
 والثياب الثقيلة وساروا والسيوف فى أيديهم حتى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة
 الأعمدة وهى قاعة صلاح الدين يوسف وقد قتل أكثرهم برمى البنادق وأصيب
 شاهين بيك وسقط على الأرض فانقضوا عليه وقطعوا رأسه وأسرعوا بها إلى محمد
 على باشا وكان محمد على باشا عندما ساروا بالموكب قد دخل إلى بيت الحريم
 وهرب سليمان بيك الباب وتسلى إلى حائط البرج الكبير فأصابوه برمى الرصاص
 فسقط فاحتزوا رأسه أيضاً وهرب كثير إلى بيت الأمير طوسون مستجيرين فلحقوهم
 وقتلوهم وأسرف العسكر فى القتل وتبعوا الشاردين فى نواحي القلعة وقبضوا على
 من لم يكن فى الموكب أيضاً وقتلوهم فى تلك الليلة واستمر القتل يوم الجمعة بطوله
 وليلة السبت ويوم السبت فكان المنظر مخيفاً للغاية والأرض مغطاة بالجثث والأسلحة
 وثياب القتلى، وأنفذوا إلى كشاف الأقاليم بقتل جميع من يوجد عندهم من طوائف
 المماليك وفوض محمد على باشا أمر ذلك إلى كتخده فبالغ فى البحث والتفتيش
 عليهم بالجهات القبلية والبحرية ونزلت العساكر إلى بيوت الأمراء فنهبوا ما فيها
 وسبوا النساء وأفحشوا فى القتل وإخراج المخدرات حاسرات الرؤوس وركب محمد
 على باشا ونزل من قلعة الجبل فى ضحوة يوم السبت وحوله أمراؤه الكبار مشاة
 وأمامه طائفة الصقاشية والجاووشية بزيئهم ولباسهم الفاخر مشاة وهو راكب على
 فرس وهم محدقون به وأمامه وخلفه عدة أخرى ونادى مناديه بمنع النهب وأمر بقتل
 من يضبط ومعه شيء من المنهوبات فانكف الجند وامتنعوا، وسير الكشاف برؤوس
 القتلى من المماليك ممن كانوا بالمدائن والقرى بالأقاليم القبلية والبحرية فكانت شيئاً
 كثيراً جداً. قال بعض الكتاب: فلم ينبج من طوائف الألفية إلا اثنان وهما أحمد
 بيك زوج ابنة إبراهيم بيك الكبير فقد كان غائباً فى بلدة بوش. وثانيهما أمين بيك
 وقيل إنه ألقى بنفسه وهو على ظهر جواده من السور المجاور لقاعة الأعمدة إلى
 ميدان الرميلة فمات جواده ونجا هو وهرب إلى الديار الشامية فكانت عدة من مات
 من المماليك فى هذه الواقعة زهاء الأربعمئة ومن الأتباع والكشاف وغيرهم زهاء
 الستمئة وبينهم مرزوق بيك بن إبراهيم بيك الكبير فوجدت عليه أمه وجدا عظيماً
 وطلبت جثته فاخرجوها من بين القتلى فدفنت فى مدفن أعدته له، ووصل الخبر بما
 وقع للأمراء المصريين إلى أحمد بيك الألفى وهو ببوش فسار من فوره إلى الصعيد
 الأعلى واجتمع بمن فيه من الأمراء وأعلم إبراهيم بيك الكبير بما جرى لولده مرزوق
 فحزن حزناً عظيماً ولبسوا جميعاً السواد وجلسوا للعزاء وما زال القتل متتابعاً فيمن
 يعثرون عليه من طوائف المماليك شرقاً وغرباً وفى أصحاب البيوتات القديمة منهم

حتى كادوا يمحون أثرهم فأرسل إبراهيم بيك ومن معه يطلب من محمد على باشا الأمان وأن يرسم لهم بالجهة التي يعيشون فيها فلم يرد عليهم جواباً وأرسل لقتالهم مصطفى بيك فى طائفة كبيرة من عسكر الأرنؤط واهتم بعد ذلك بتعبية الجند والسلاح لقتال الوهابيين، وكأنه قد تفرغ لذلك فجمع منهم طائفة عظيمة وعقد لابنه لواء الأمير طوسون هذه الحملة فلما كان يوم الأحد سادس ربيع الأول سنة ست وعشرين نزل الأمير طوسون بجيشه من قلعة الجبل فى موكب حافل وأمامه المدافع وآلات الحرب وعسكر بركة الحاج وأقام بها حتى تكامل جيشه وسافر محمد على باشا إلى السويس وقد سير ما كان فى ميناها من السفن ومراكب الحرب فسارت إلى الينبع وتقاتلت مع من بها من الوهابيين ونالت منهم ثم سار الأمير طوسون بجيشه من البركة فى يوم الخميس التاسع من رمضان هذه السنة فوصلوا فى السابع من شوال إلى بندر المويلح وعيدوا العيد بمقابر شعيب يوم السبت ثم ساروا إلى الينبع وملكوها من غير قتال وساروا إلى منزلة الصفراء والحديدة فوجدوا فيها عند سفح الجبل متارين فقاتلوا عليها حتى أخذوها ثم تسلقوا الجبال فالتقى فريق منهم بجيوش الوهابيين فانتشب بينهم القتال وثابروا عليه يوماً وليلة ثم المجلى عن هزيمة المصريين فرجعوا القهقرى واختل نظامهم وتبدد شملهم وطلبوا السفن وكان قد حضر منها بساحل البريك عدة مددا فلحقوا بها وتزاحموا عليها وتفرقت دواب الحمل وتشردت وترك الجنود خيامهم وسلاحهم مع جميع متاعهم وكانت وقعة من أشد الوقائع ورجع الأمير طوسون إلى ينيح بعد تغيبه يوماً عن معسكره وقد ظنوا موته ولبث بينيع أربعة وعشرين يوماً حتى جمع شتات عساكره المشاة أما الفرسان فقد رجعوا إلى وراء وما زالوا حتى وصلوا إلى المويلح وقد أجهدهم الجوع وأضناهم الوصب فترلوا بها ووردت الأخبار بما حصل إلى محمد على باشا فلم يتزعزع ولم تقتصر له همة ونادى فى العسكر المقيمين بمصر والقاهرة بالخروج وشدد فى النداء وبرز إلى ضواحي القاهرة وخرج العسكر فرتبهم وعقد لواءهم لبونابارته الخازندار فساروا إلى الينبع ليرابطوا بها وجيش جيشاً آخر وعقد لواءه لصالح بيك السلحدار وجعل معه جماعة من الكشاف واستقدم من كان مع الأمير طوسون فحضرهم فأمرهم بالجللاء عن مصر والرحيل إلى بلادهم فلم تسعهم المخالفة وخرجوا فى عدة كبيرة من العساكر الأرنؤط وخرج بنفسه لقتال الوهابيين والأخذ بثأر من مات من رجاله فسار بجيش عظيم ومعه حسن باشا طاهر وأخوه عابدين بيك فلم يسر برحلة عن القاهرة حتى وردت إليه الأخبار فى ثانى يوم باستيلاء من بقى من

المصريين على عقبة الصفراء والحديدة بغير حرب ولا قتال وأنهم لم يجدوا فيها أحداً من الوهابيين ففرح بذلك وسار إلى السويس ولبت فيها أياماً وقد عدل عن المسير إلى الحجاز فعجل بتسيير الجيوش التي كانت معه برا وأنزل طائفة منهم بالسفن والشوانى وسير كذلك مصطفى بك والى باشا بجميع عساكر الدلتالية ومعهم شىء كثير من المؤن وآلات الحرب وعاد إلى مصر فلما دخل القاهرة وردت إليه الأخبار بوصول عساكره إلى المدينة وأنهم نزلوا بفنائها وقد أحضر المبشر بهذا الخبر مفاتيح المدينة فزينت لذلك البلد ثلاث ليال أولها يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة سنة سبع وعشرين ومائتين وألف هجرية فأرسل المفاتيح مع رسول مخصوص إلى دار السلطنة .

وبينما كان بعض عساكره يقاتل الوهابيين ويسترد منهم ما ملكوه من بلاد الحجاز كان البعض الآخر يطارد أيضاً من بقى من الأمراء المصريين حتى أجلوهم عن الصعيد وما زالوا على أثرهم حتى ترفعوا إلى النوبة ودخلوا إبريم فقطعوا عنهم الواصل وسدوا عليهم المسالك وقبضوا على كثير من أتباعهم وقتلوهم وما زال يشدد فى تتبعهم بالقتل والتشريد حتى أمن شرهم فأمر ولده إبراهيم على جميع الأقاليم القبلية وأطلق له فيها التصرف وأخذ هو فى تدبير أمور البلاد فأكثر من المشروعات المهمة والأعمال المفيدة كحفر الترع وترميم الجسور وإنشاء الحصون والمعازل بمدينة الإسكندرية، وبعضها باق إلى هذا اليوم، وأنشأ المعامل العظيمة لمد السفن ومراكب الحرب وهياً عمارة حربية عظيمة وسلحها بالمدافع وآلات القتال وسير منها عدة كبيرة مددا إلى ولده الأمير طوسون وكان يظن ذهاب شوكة الوهابيين وسقوط كلمة زعيمهم الأمير سعود وقد كان الأمير سعود هذا قد انكف عن قتال عساكر الأمير طوسون حيناً وترفع بقومه إلى بعض الجبال ولكنه عاد فى سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف فهاجمهم بعدة كثيرة من أصحابه ناحية طراباى شرقى مكة فملكها وكانت شدة القىظ قد فعلت بالعسكر المصرى فعلاً رديئاً جداً ثم سار إلى المدينة وملك جميع أرباضها والقرى المجاورة لها وأفحش فى النهب والسلب وقاتل من بها من العساكر المصرية وضيق عليها ومنع عنها الواصل فكان كل من هرب من الحصار وقفل راجعاً إلى الورا قبضوا عليه وقتلوه ووصلت الأخبار بما جرى فشق الأمر على محمد على باشا وأعظمه وجيش جيشاً عظيماً وخرج به من القاهرة يوم الجمعة ثالث عشر شوال سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف ونزل ببركة الحاج ثم سار منها إلى السويس فلاقاه المبشرون فى الطريق وبشروه بسقوط عثمان المضايقى فى أسر

الأمير طوسون وكان المضايقي هذا قد خرج في لموم كثيرة لقتال من بالطائف من
العسكر المصرى فبرز إليه الشريف غالب بالعسكر المصرى وطوائف العربان وقتلوه
واشتد القتال بين الفريقين فأصيب جواد المضايقي فتزل عنه واحتلط بالعسكر فلم
يعرفوه فخرج من بينهم هارباً فصادفه جماعة من جند الشريف غالب فعرفوه
وقبضوا عليه وقد أصابته جراحة فلما مثل بين يدى الشريف أمر فقيده بالحديد
وسير به إلى الأمير طوسون. قال بعض كتاب الأخبار: والمضايقي هذا زوج أخت
الشريف خرج عنه وانضم إلى الوهابيين فكان أكبر عون لهم وكان هو الذى يستميل
لهم طوائف العربان فلما لذلك أمره واشتهر ذكره فدوخ المدن وفتح منها عدة كثيرة
وافتح الطائف وله وقائع وحروب مشهورة أضربنا عن ذكرها هنا.

ولما وصل محمد على باشا إلى ينبع سيرا طلائع عسكره إلى المدينة فناوشوا من
كان حولها من أصحاب الوهابي وأجلوهم عنها فتزل عليها محمد على باشا وأدى
فريضة الحج ثم أخذ في تدبير أمور الحملة ومال إلى الشريف غالب وأظهر له الولاء
والمحبة فانخدع الشريف وبقي معه على ذلك أياماً ثم قبض عليه هو وثلاثة من
أولاده وسيرهم مع نفر من الجند إلى جدة وأنزلوهم بإحدى السفن فأقلعت بهم إلى
مصر عن طريق القصير، قال بعض الكتاب: وتحرير الخبر أنه لما وصل محمد على
باشا إلى مكة جدد العهد مع الشريف غالب وحلفا الأيمان فى جوف الكعبة بأن لا
يخون أحد صاحبه ولا يغدر به ولا يعمل على إيذائه فكان بعد ذلك يذهب كل
منهما إلى الآخر فى قلة من أصحابه واستمرا على هذا الحال زهاء خمسة عشر يوماً
من ذى القعدة فلما كان أحد الأيام دعا الأمير طوسون الشريف غالب إلى بيته فأتاه
فى قلة على عادته فلما اقتحم الدار رأى فيها من العساكر والأجناد ما رابه فصعد
متخوفاً فلما استقر به المجلس حضر عابدين بيك فى نفر من الجند وصعد إلى
المجلس ودنا من الشريف وأخذ خنجره من منطقتة وقال له قم قد بعث سيدنا
ومولانا أمير المؤمنين فى طلبك إلى دار السلطنة فقال على السمع والطاعة ولكن لى
أشغال أقضيها فى ثلاثة أيام فقال لا سبيل إلى ذلك وقد أعدنا لك سفينة لتحملك
فلما سمع جماعة الشريف وعبيده هذا القول تحزبوا وأسرعوا إلى الأبراج التى هى
مقر الشريف يريدون القتال فأرسل محمد على باشا يتهددهم بحرق المدينة إن هم
فعلوا شيئاً وأرسل الشريف كذلك ينهاتهم عما عزموا على فعله وكان أولاد الشريف
الثلاثة فى بيت له فأرسل إليهم محمد على باشا أحد خواص الشريف وما زال
يخادعهم حتى انخدع كبيرهم فتزل بهم متحفظاً إلى مكان وفى الحال استحضر

محمد على باشا الشريف يحيى بن سرور وهو ابن أخى الشريف غالب وخلع عليه
وقلده إمارة مكة ونودى بذلك وطبروا خبره إلى الآفاق وأقام الشريف غالب أربعة
أيام ثم أنزل إلى سفينة فسارت به إلى القصير ومنها إلى القاهرة فاستقبله كتخدا
الباشا بالاحتفال والاحتفاء وأطلقت لقدمه المدافع وأنزلوه ببيت السيد المحروقى أياماً
ثم أعدوا له داراً أخرى وأسكنوه بها وجعلوا الجند على بابهِ تحرسه ثم قدم بعده أيضاً
ولد أخيه الشريف عبد الله بن الشريف سرور مبعداً منفياً فأنزلوه فى دار مخصوصة
محجوراً عليه ولم يجتمع بعمه ولم يره قيل وكان هذا كله بأمر من دار السلطنة
فكادت لذلك تنصرف عن الأمير طوسون طوائف العربان الذين أتوا بكلمة الشريف
غالب وتقاعسوا عن القتال معه وفترت همته وأنفشلوا وهاجر الكثير منهم ومن
الأشراف وانضموا إلى الوهابيين وقاتلوا جيوش الأمير طوسون قتالاً عنيفاً وأبلوا
بلاء حسناً فوقع بأسباب ذلك فى الحرمين غلاء شديد وقل الوارد من الحبوب
والدقيق واشتد الجوع وهاجر الفقراء إلى الجبال فكانت شدة عظيمة جداً، ومات فى
هذه الأثناء سعود شيخ الوهابيين فولى الوهابيون ولده عبد الله مكانه وكان يظن
انفسالهم بعد موته ووردت الأخبار بذلك إلى الأمير طوسون ففرح وأمر عساكره
فزحفوا إلى ناحية (قنفده) وحاربوا عليها أياماً كثيرة حتى فتحوها وأستولوا عليها
ووصلت الأخبار إلى دار السلطنة بوقوع الشريف غالب فى أسر المصريين فحضر
منها قاصد يخبر بوجوب جمع ما أخذ من الشريف ورده إليه من متاع ومال وذخائر
وكان محمد على باشا قد أرسل إلى دار السلطنة من ذخائر الشريف مسبحتين من
لؤلؤ فاستحضرهما معه ذلك القاصد وردهما للشريف فلما كان يوم السبت تاسع
عشرى شعبان سنة تسع وعشرين أنزلوا الشريف غالب إلى بولاق بنسائه وأولاده
وغلمانه وعبيده فسافروا مع القاصد إلى دمياط ومنها إلى سلانيك وأرسل محمد
على باشا فى طلب الشريف عبد الله بن سرور إلى الديار الحجازية وكانوا قد شددوا
فى الحجر والتضييق عليه وكان لما حضر إلى مصر وأقام محجوراً عليه أياماً رأى
كتخدا بيك عدم المانع من إخلاء سبيله يغدو ويروح فى الشوارع وعند المعارف
والأحباب واستمر على هذا الحال شهراً ثم زينت له نفسه الفرار فاختفى أياماً فأزعج
كتخدا بيك فرااره واستحضر سائر مشايخ الحارات وشدد عليهم فى إحضاره وبث
العيون والأرصاد واهتم لهذا الأمر جداً فلما كانت ليلة السبت ثامن عشرى رجب
سنة تسع وعشرين حضروا به فى وقت الغروب إلى بيت السيد المحروقى فسلمه إلى
كتخدا بيك وكانوا قد عثروا عليه بحلوان فضيق عليه هو وعمه من ذلك الوقت

ومنع من خروجهما حتى سافر الشريف غالب إلى سلاطيك وسافر عبد الله المذكور إلى الديار الحجازية .

ورأى محمد على باشا أنه لا بد من مصالحة الأشراف واسترضائهم كي تنحسب أسباب الخصام وتبطل الحرب بعد أن طالت أيامها وملت منها نفوس الجند فجعل يعمل ويدبر حتى استمال الشريف راجح وتودد إليه وأظهر له غاية الإخلاص وأمدّه بالمال وأجزل له العطاء فكانت مصالحته سبباً في ظفر جيوش الأمير طوسون وفوزهم وارتفاع كلمة محمد على باشا وقد دانت إليه الأمور وتم له المأمول وزيادة ووصل الخبر بذلك إلى دار السلطنة فجاءه فرمان السلطان بإضافة الديار الحجازية إلى ولاية مصر وجعلها كلها ولاية واحدة خاضعة لحكمه ففرح محمد على باشا فرحاً عظيماً وطير الخبر بذلك إلى الآفاق ولبت بالحجاز يدبر الأمر ويحسن حال جيش الأمير طوسون حتى أصلح ما أراد وقفل راجعاً إلى مصر ودخلها في ليلة الجمعة خامس عشر رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف هجرية في قلة من الخدم والأتباع وبعض الجند فسابق الناس إلى رفع التقدّم والهدايا إليه وقد احتجب عن الخروج أياماً ثم خرج وصعد إلى قلعة الجبل وأخذ في إعداد ما لزم لعساكر الأمير طوسون وأكثر من جمع الجند وآلات الحرب وبالع في ذلك كثيراً والناس في ريب وطميرة لا يدرون ما سيكون من وراء هذا الاهتمام وعمد إلى تنظيم هيئة الجنديّة وتنسيقها على نسق عسكر الفرنسيين فشاور مقدمي الجند في ذلك وجعل يستميلهم إلى رأيه فلم يقبلوا فأمر بعسكر ولده إسماعيل وكلهم من المرتزقة فاجتمعوا بظاهر بولاق فأوقفهم صفوفاً وأعلمهم بقصده من تربيهم على نسق عسكر الفرنسيين فلم تعجبهم مقالته وأكبروا الأمر جداً وأظهروا العصيان والخروج على كبارهم وياتوا ليلتهم تلك بين أخذ ورد وأصبحوا وقد اتفقوا على قتل محمد على باشا والغدر به ووافقهم على ذلك أيضاً بعض كبارهم .

(مطلب)

(العزم على قتل محمد على باشا ونهب دكاكين تجار المدينة)

فلما كانت ليلة الجمعة ثامن عشر شعبان من السنة اجتمع عند عابدين بيك جماعة من أكابر الجند في وليمة وبينهم مخويك وعبد الله أغا ساري جله وحسن أغا الأرمنجلي فتناجوا فيما يريدّه محمد على باشا وفيما تقرّر بين الأحزاب من القدر به فأعجبهم رأيهم واتفقوا على الركوب عليه في تلك الليلة واغتياله قبل أن يستشعر بالأمر وأن يهجموا عليه عند مطلع الفجر في بيته الذي بالأزبكية وتحالفوا على ذلك

واستوثق بعضهم من بعض ثم عادوا إلى ما كانوا عليه فى مجلسهم غافلهم عابدين بك وتركهم فى أنسهم ولهوهم وخرج متنكراً مسرعاً إلى محمد على باشا وأخبره بخبرهم ورجع إلى أصحابه فلم يعلموا من أمره شيئاً وأسرع محمد على فى الركوب فى سادس ساعة من الليل وطلب عسكر طاهر باشا فركبوا معه وقد أحاط الدار بالعسكر ثم أخلف الطريق وذهب إلى ناحية البركة الناصرية ومرمى الشباب وصعد إلى قلعة الجبل وتبعه من يثق به من الجنود فلما قارب الفجر قام المتآمرون يريدون الهجوم على دار محمد على باشا فمانعهم المرابطون واشتد بينهم رمى البنادق فقتل منهم عدة ولم ينالوا غرضاً فساروا إلى ناحية قلعة الجبل وقد علموا بصعود محمد على باشا إليها واجتمعوا بالرميلة وقراييدان وتحيروا فى أمرهم واشتد غيظهم ووقفوا وهم لا يدرون ماذا يفعلون ثم أجمع رأيهم على أن يتفرقوا فى المدينة وينهبوا متاع الرعية وأموالها فتزلوا من وسط قصبة رضوان على الصليبة والسروجية وجعلوا يكسرون أبواب الحوانيت المغلقة وينهبون ما فيها وقد كان الناس لما تسامعوا بالحركة أغلقوا حوانيتهم وأبواب دورهم وتركوا تجارتهم طلباً للسلامة وانضم إلى الثائرين من بقى طائفاً من الجنود وعمت الفوضى وبادروا جميعاً إلى النهب والخطف وشاركهم العامة وأراذل الناس ومضوا على طريقهم إلى داخل باب زويلة وكسروا حوانيت السكرية وأخذوا ما فيها من أموال وبضائع ومضوا فى سيرهم إلى العقادين والغورية والأشرفية وسوق الصاغة ووصلت طائفة إلى سوق مرجوش فكسروا أبواب الحوانيت والوكايل والخانات ونهبوا ما فيها من أقمشة وغيرها ومروا بخان الخليلي وأرادوا مد يد النهب فثارت عليهم طائفة الأتراك الذين يتعاطون التجارة الساكنين بخان البن والنحاس وأطلقوا عليهم نارا حامية وكذلك فعل من كان منهم بباب الزهومة حتى ردوهم ومنعوهم وقام عليهم أيضاً طائفة المغاربة بالفحامين وجارة الكعكيين وأطلقوا البنادق فردوهم عن تلك الناحية وأغلقوا البوابات التى على رؤوس الحارات وجلس عند كل باب جماعة ومن فوقها آخرون من أهل الخطة وبأيديهم البنادق لمنع الواصل إليهم ووصلت طائفة إلى خان الحمزاوى فعالجوا بابه حتى كسروا الخوخة التى بالباب وعبروا الخان وكسروا حواصل التجار كافة ونهبوا ما وجدوه من الأقمشة الهندية والشامية والمقصبات وتبعهم فى ذلك الخدم والعامة وأخرجوا ما فى الدكاكين والحواصل من الأموال وأنواع البضائع وكان القوى منهم يعدو على الضعيف فيأخذ ما معه ويقتل بعضهم بعضاً وكسروا أبواب الحوانيت التى خارج الخان بالخطبة وأخرجوا ما فيها من التحف والأواني الصينية والبلور وأنواع

الزجاج وكذلك فعلوا بسوق البندقانيين وكثر خلفهم النهابون والغوغاء واستباح الناس يومئذ أموال بعضهم وكان هذا الحادث من أشد الحوادث وأنكاهها بالرعية . قال بعض الكتاب : وقد تم هذا كله فى ظرف مدة لا تتجاوز الخمس ساعات وذلك من قبيل صلاة الجمعة إلى قبيل صلاة العصر ولم تصل الجمعة فى ذلك اليوم وأغلقت المساجد بداخل المدينة وأخذ الناس حذرهم وتسليحوا وأغلقوا البوابات وسهروا الليالى وأقاموا على التحذر والتخوف، وأصبح يوم السبت تاسع عشر شعبان موافقاً لآخر يوم من شهر أبيب وقد أوفى النيل أذرعه وكان فى ذلك اليوم أيضاً رؤية هلال رمضان فلم يعمل فيه شئ من المراسم المعتادة لقيام الفتنة فلما سكن الحال رسم محمد على باشا بإحصاء ما نهى العسكر وتقويمه لرده لأصحابه من ماله فطلع إليه كبار العسكر يعتذرون ويتصلون من تبعة ما فعله الجند فرسم لهم بجمع ما يمكن جمعه من النهابين ففعلوا وشقوا فى وسط المدينة ونادوا بالأمان فلم تطمئن خواطر الرعية ونزل كتحذا بيك وجلس عند جامع الغورية ورسم لأهل الأسواق بفتح حوانيتهم وأن يجلسوا فيها على عاداتهم ففعلوا على تخوف وأخذ محمد على باشا يتدبر فى أمر أولئك العسكر ويعمل على تمزيق شملهم فاستعمل مع بعض كبارهم المسائرة وقربهم من مجلسه وتزلف إليهم جهد الاستطاعة وأجزل لهم العطاء ورفعهم إلى الرتب السامية ولم يعجل فى عمله بل لازم الثانى والصبر، فلما كان شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وثلاثين أمر أولاده بالخروج بمن معهم من العساكر والأجناد إلى ظاهر المدينة والإقامة على أهبة السفر وأسر إليهم ما فى ضميره من قتل كبار الفتنة وزعماء هاته العصاة وخاطب أمراء العسكر فى الخروج فخرجوا وعسكروا بظاهر المدينة وأصبح مع ولده الأمير طوسون رجلاً من خواصه أسمه أحمد أغا المنجورجى المدلى ووكل إلى الأمير طوسون تدبير أمر قتل القوم فأخذ الأمير طوسون فى التدبير وعمل الحيلة وبدأ بمحو بيك وهو أعظمهم قدراً وأكثرهم جنداً وأخذ فى استمالة عسكره وإبعادهم عنه وما زال حتى لم يبق مع محو بيك إلا القليل فلما تمكن من ذلك وصار قتله أمراً مقضياً أرسل إليه يدعوه لمشورة فعلم أحمد أغا المنجورجى بما وراء ذلك فذهب إليه وأسر إليه بما يراه به فعله وأشار عليه بعدم الذهاب فركب محو بيك من فوره وذهب إلى كبار الدلاة مستجيراً فشفعوا فيه عند محمد على باشا وقد علم محمد على بما فعله أحمد أغا فأمر به فقتلوه عند باب زويلة وتركوا جثته ملقاة يوماً كاملاً وتحرز كبار الجند وداخلهم الخوف والقلق وأخذتهم الطيرة فأقام الأمير طوسون بعسكره أياماً حتى رسم له أبوه بالرجوع إلى

الحجاز فعاد إليها بعسكره وسير إلى الشريف عبد الله بن مسعود الذى تولى زعامة الوهابيين بعد موت أبيه من يخبره فى الصلح وطالت المخابرة بينهما إلى أن تقررت القاعدة على ما يجبان فحضر جماعة من الوهابيين نحو العشرين وأقاموا عند الأمير طوسون رهائن على تنفيذ عقد الصلح وحضر منهم اثنان إلى مصر وأبلغا محمد على باشا ما تقرر بينهم وبين الأمير طوسون ثم رجعا، فلما كان اليوم الأول من ذى القعدة من السنة أى سنة إحدى وثلاثين وصل الأمير طوسون إلى السويس وأتى إلى القاهرة فزينوا لقدمه المدينة وعملوا له موكبا حافلا فدخل من باب النصر وعلى رأسه الطبلخان وشعار الوزارة وطلع إلى قلعة الجبل وأقام بها إلى ليلة الجمعة خامس عشره ثم سافر إلى الإسكندرية حيث كان أبوه ينتظره ثم عاد إلى مصر وقد ولاه أبوه قيادة الجند الأتراك والدلاة وأطلق له التصرف فى تدبيرهم، وكان محمد على باشا فى خلال هذه المحن والخطوب مثابراً على مساحة الأراضى وضبط الرزق والأجاس وتعميم الفلاحة وإنشاء الترع والجسور وإحداث المعامل النافعة وغرس الأشجار الكبيرة وتنظيم الطرقات وتأسيس المدارس وإحياء العلوم على اختلافها ولاسيما الطب والهندسة والفلك وعمل السفن والمعاقل والحصون وقد بذل النفس فى إعادة السد الممتد الموصل إلى الإسكندرية وهو سد أبى قير فقد كان اتسع أمره وتخرّب وزحف منه الماء الملح وأتلف الكثير من الأراضى وأغرق القرى وخرب المدن والمزارع وتعطلت بسببه الطرق والمسالك وعجزت الدول فى أمره ولم يزل يتزايد فى التهور وزحف المياه الملحة على الأراضى حتى دخلت إلى خليج الأشرفية الذى تمتلئ منه صهاريج الإسكندرية المعروف الآن بترعة المحمودية فلما اعتنى محمد على باشا بتشيد الإسكندرية وتعمير أبراجها وحصونها ومعقلها وأنزل بها العمارات اعتنى أيضاً بأمر السد المذكور وأرسل إليه المباشرين والقوّام والعمال والفعلة والنجارين والبنائين والأخشاب وآلات الحديد والأحجار والمؤن حتى تمه وكان له عناية لم تكن لغيره من ملوك هذه الأزمان وقيد به بعض المهندسين والعمال وما زالوا به إلى هذا الحين.

(مطلب)

(موت الأمير طوسون وقيام الأمير إبراهيم بقتال أهل الحجاز بعده)

واتفق أن ظهر الطاعون بمصر فى هذه السنة أى سنة إحدى وثلاثين واشتد وكثر الموت فى الناس وكان الأمير طوسون قد ذهب إلى رشيد وعاد منها إلى قصره فى برنبال فى ليلة وصوله إلى القصر أصابه الطاعون فتملأ نحو العشر ساعات ومات

ليلة الأحد سابع شهر ذى القعدة من السنة فكفنوه ووضعوه داخل صندوق ووصلوا به فى سفينة منتصف ليلة الأربعاء عاشره وكان أبوه بالجيزة فلم يتجاسروا على إخباره فذهب إليه أحمد أغا أخو كتخدا بيك فلما علم بوصوله ليلاً استنكر حضوره فى ذلك الوقت فسأله عن سبب حضوره وعن ولده الأمير طوسون فقال إنه حضر متوعكا إلى شبرا فركب فى الحال محمد على باشا طرادة وانحدر إلى شبرا وصعد إلى القصر وصار يمر بالمخادع ويقول : أين هو؟ أين هو؟ فلم يقدر أحد على إخباره بالخبر وكانوا قد ذهبوا به وهو فى السفينة إلى بولاق ورسوا عند الترسانة وأقبل كتخدا بيك على محمد على باشا فرآه يبكى فأنزعج انزعاجاً شديداً وكاد يقع مغشياً عليه ونزل سفينة وأتى إلى بولاق آخر الليل ولازم النعش وهو يبكى بكاء مرا فلما أصبحوا ساروا بالنعش فى مشهد حافل للغاية وصلوا عليه بجامع المؤمنين ثم ذهبوا به إلى المدفن الذى أعده أبوه لموته وكان محمد على باشا يسير بجانب النعش وعيناه شاخصتان إليه والدموع تنحدر على خديه ولحيته ولم يخبروا والدته بموته إلا بعد دفته فوجدت عليه وجدا عظيما ولازم أهل المدينة الحداد أربعين يوماً وجلسوا للعتاء عند قبره ومات وهو فى مقتبل الشباب لم يبلغ العشرين وكان أبيض جسيماً بطلاً شجاعاً جواداً كريماً يحب المصريين وله هبة فى قلوب العسكر زائدة وكان محبوباً عند الناس فكانوا يرجون ولايته بعد أبيه ويأبى الله إلا ما يريد وطار خبر موته إلى الآفاق وشاع بين الوهابيين ففرحوا وعادوا إلى الخروج ثانية إلا القليل من كبارهم وجاء الخبر بذلك فجهز محمد على باشا لردهم ولده الأمير إبراهيم وجيش له جيشاً عظيماً وعدداً من مراكب الحرب والشوانى الكبيرة فصار وقاتل الشريف عبد الله وفتح بعض المدن والبنادر وأعمل فى أهلها القتل والنهب وتغلغل فى جوف البلاد وغاب عن أبيه خبره فأنزعج وبعث بطائفة أخرى من العساكر والأجناد وبالج فى المدد براً وبحراً ثم وردت الأنباء بوصول الأمير إبراهيم إلى ناحية اسمها (الموتان) وأنه قاتل الوهابيين فيها قتالاً شديداً كان له فيه الظفر وقد أسر منهم عدة رجال وأخذ خياماً كثيرة ومدفعين وقبض على زعيم من زعمائهم اسمه (عتيبة) ثم سار بعساكره إلى ناحية الشقراء وكان بها الشريف عبد الله بن مسعود فقاتل عليها قتالاً عظيماً فخرج منها الشريف هارباً إلى الدرعية فتبعه العسكر وفتحوا كل ما صادفهم فى طريقهم من المدن والبنادر حتى أتوا الدرعية فحاصروها وقاتلوها قتالاً عنيفاً ومنعوا عنها الواصل وأحاطوا بها أياماً كثيرة وضيقوا عليها وشددوا. واتفق أن سار الأمير إبراهيم بجماعة من عسكره إلى بعض الجبال لاستكشاف معسكر الوهابيين وقد كان على مرحلتين

من الدرعية فتغيب أياماً فلما أحسن المرابطون فى الدرعية بغيا به خرجوا وقاتلوا
عساكره حتى أجلوهم وأخذوا خيامهم وآلات حربهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة
واشتدوا عليهم شدة بالغة فكانت وقعة من شر الوقائع وجاء الخبر إلى الأمير إبراهيم
فكرّ راجعاً ولكنه لم ينل من الوهابيين فأخذ فى تدبير جيشه وجمع من تشرد منه
وطلب من أبيه المدد فأمدّه بعدة عظيمة من المشاة والفرسان وعدة من مراكب الحرب
فتقوى جند الأمير إبراهيم فأعاد الكرة على الشريف عبد الله وأصحابه واشتد فى
قتالهم فقتل الشريف حمودة أصابته جراحة وهو فى ساحة القتال ناحية الدرعية
وضيق على من بقى فيها حتى أخذها عنوة وقبض على الشريف عبد الله وسير به
أسيراً إلى مصر. قال بعض كتاب الأخبار: فلما مثل بين يدى محمد على باشا قام
له إجلالاً وأجلسه بجانبه ولاطفه وقال له: «ما هذه المطاولة؟» فقال: الحرب
سجال. قال: وكيف رأيت ولدى إبراهيم؟ قال: ما قصر وبذل الهمة وقد فعلنا نحن
فعله حتى كان ما قدره الله. فقال: سأشفع فيك عند الخليفة إن شاء الله. فقال:
ما قدر سوف يكون، فالبسه خلعة وانصرف من عنده إلى بيت إسماعيل باشا ببولاق
ولبث أياماً ثم سيروه إلى دار الخلافة مع طائفة من الجند تخفّره وأرسل الأمير
إبراهيم فريقاً من عسكره ومقدمه خليل باشا لفتح يمن الحجاز فقاتلها قتالاً عنيفاً
حتى تغلب عليها وفتحها عنوة فلما وصلت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة سر
السلطان بذلك سروراً عظيماً وأرسل إلى محمد على باشا وولده الأمير إبراهيم
الهدايا النفيسة والتحف الغالية وخلع عليهما خلع الرضا، وحضر إلى مصر من بقى
من الوهابيين وسقط فى قبضة الأمير إبراهيم فكانوا زهاء الأربعمائة ما بين رجال
ونساء وأولاد فأسكنوهم بالمكان المعروف بالقشلة بالأزبكية وبينهم ابن الشريف
عبد الله بن مسعود وقد كان أبوه قتل فى دار السلطنة بعد وصوله إليها بقليل فلم
يحجر عليهم فعلم الناس منهم أن يمن الحجاز لم تؤخذ عنوة قالوا: لأنه لما مات
حمودة شيخها وولوا مكانه ولده أظهر الطاعة للدولة فلما سار خليل باشا لقتاله
أخلى له البلد وأعتزل فى حصن له ولم يخرج لدفعه ومحاربته كما فعل أبوه
وترددت بينهم الرسل وما زال به خليل باشا حتى أنزله من الحصن وأتى إليه فى قلة
فقبض عليه وسيره إلى مصر أسيراً، وعاد الأمير إبراهيم من الاقطار الحجازية فى
حادى عشرى صفر سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف عن طريق القصير ودخل
القاهرة من باب النصر فى موكب حافل للغاية وعلى رأسه الطبلخان السليمى فى
شعار الوزراء وصعد بالموكب إلى قلعة الجبل ثم عاد إلى مقره بالروضة وقد تراحم

على باباه المهثون ومدحه الشعراء وقدّمت له الهدايا والأعلاق النفيسة وظهرت من هذا الحين كلمته واتسعت شهرته وهابه الكبراء والأمراء.

(مطلب)

(إصلاح ترعة الأشرفية)

ونظر محمد على باشا إلى ما يقاسيه التجار من صعوبة نقل أرزاقهم وقلة المواصلات فرسم بتصليح الترعة الموصلة إلى مدينة الإسكندرية المعروفة بالأشرفية فقيّد بها العمال والمباشرين والمهندسين فأخذوا في حفرها وتنسيقها سنة وبضع أشهر حتى تمت أخريات ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وجرى فيها الماء وسارت بها المراكب إلى رشيد والإسكندرية بالأرزاق والبضائع والركاب وفرح الناس بها فرحاً عظيماً وسافر بها محمد على باشا وأعجبه وصفها وسماها في ذلك اليوم المحمودية وهى من أجل الأعمال النافعة والمآثر الباقية إلى يومنا هذا.

(مطلب)

(فتح السودان وتدويخ أمرائه وترتيب

جيش على نظام عسكر الفرنسيين)

ولما زالت الفتن من جوف البلاد بزوال الأمراء المصريين وقطع شأفة الممالك والغوغاء من الجند والحرافيش وتذليل الوهابيين بالديار الحجازية والقبض على رعمائهم وأصحاب الكلمة فيهم وعجز من بقى منهم عن مقاومة المرابطين من العسكر المصرى عمد محمد على باشا إلى فتح السودان وقوى عزمه على الإغارة عليها واستخراج كنوزها ومعادنها فاهتم اهتماماً زائداً فى تجهيش الجيوش وإعداد المؤن وآلات الحرب وجعل ولده الأمير إسماعيل مقدّم هذه الغزوة وبالع في تجهيزه بجميع ما يلزم وضم إلى جيشه كثيراً من العربان فصار جيشاً ضخماً للغاية وسارت طلائعه فى أوائل شعبان سنة خمس وثلاثين ثم ارتحل الأمير إسماعيل فى ذى القعدة من السنة وارتحل معه محمد بيك الدفتردار ليتولى قيادة الحملة الذاهبة إلى الدارفور ومحو بيك وغيرهم واستقر محمد كتحدا لاظ بأنصنا التى هى إسنا لتوصيل المؤن والذخيرة ودواب الحمل وكان محمد على باشا إلى هذا الحين شديد الرغبة فى إنشاء جيش من أولاد الناس على نظام عسكر الفرنسيين وقد خلت البلاد من كثير من العسكر الذين ارتحلوا مع ولده الأمير إسماعيل إلى غزوة السودان فعمد إلى تنفيذ ما فى نفسه وخاطب أهالى البلاد بأن من يشاء أن يدخل فى خدمة الدولة بصفة جندى

يصرف له كذا من العلوفة وكذا من السلاح وكذا من الألبسة بشرط أن يكون. فى سن الخامسة والعشرين أبيض اللون صحيح الجسم سليم البصر فليسجل اسمه فى الدفتر الذى أعد لذلك عند مشايخ البلاد، وكان الناس جميعاً ميالين إلى مساواتهم بطوائف الجند فراراً من إيدائهم فتسابقوا إلى الدخول طوعاً وافتخر بعضهم على بعض بحسن القد وانتظام الهيئة وتسارعوا إلى تسجيل أسمائهم فكان إذا اجتمع فى البلدة أو القرية اثنان أو ثلاثة سيروا بهم إلى بنى عدى من مديرية أسيوط حيث كان محمد كتحدا لاظ أوغلى فيسلمهم إلى الموكلين بتعليمهم وكان محمد على باشا قد رسم بأخذ جماعة من ممالك رجال الدولة وأرباب الوظائف فاختاروا منهم من توسموا فيه النجابة واستقدم إليهم ضابطاً من عظماء الفرنسيس اسمه (الكولونيل ساف) فأخذ ساف المذكور فى تعليمهم العلوم العسكرية حتى تخرجوا ونبغوا وتولوا هم تدريب الجند وتعليمهم بحيث لم يعلم بخبرهم من أهل البلاد إلا النزر اليسير وما زالوا حتى تم لهم تمرين خمسة آلاف مقاتل وكمل نظامهم على نحو ما أرادوا وفرح محمد على باشا بهم فرحاً عظيماً وأمر فيسروهم مع من خرج من الجند إلى السودان فى شعبان سنة خمس وثلاثين فقطعوا الشلالات ومروا بشندى والمتمة وأخضعوا كل ما صادفهم فى طريقهم من القرى والبلدان وهم لا يدافعون إلا بالأمر الخفيف ثم ساروا إلى سنار على البحر الأزرق وراء الخرطوم فخرجت عليهم قبيلة الشايقية وقاتلتهم قتالاً غير طويل حتى استأمنت فدخل العساكر سنار التى هى عاصمة الكردفان وعسكروا بها ورتبوا أمورهم ثم سار الأمير إسماعيل عن سنار إلى فيزوغلى فى طائفة من عسكره ليكشف حقائق تلك البقاع ويعرف ما فيها من الكنوز والمعادن فاستولى على عسكره المرض وفشا فيهم الوباء وكثر الموت فمات منهم خلق كثير فأرسل يطلب المدد فأتى إليه نجدة من ثلاثة آلاف مقاتل ومقدمهم أحمد بيك الدفتردار فقويت عزيمة الأمير إسماعيل وترك الدفتردار يدبر الأمور فى كردفان وسار هو إلى المتمة فى عسكر ثم عبر النيل إلى شندى ونزل بها وكان بها سلطان اسمه (غمر) وكان عاتياً شديد البأس جباراً فاستحضره الأمير إسماعيل وضرب عليه الكلف وقرر عليه شيئاً كثيراً من الذهب والرجال قيل طلب منه ملء سفينة صغيرة من الذهب وألقى مقاتل فى أجل لا يتجاوز الخمسة أيام فاستعظم غم هذا الأمر وبالع فى الشكوى والاستعطاف وما زال بالأمير إسماعيل حتى رضى أن يأخذ عشرين ألف ريال عوض الذهب ثم سأله أن يمد له الأجل فغضب عند ذلك الأمير إسماعيل وكان بيده شبق الدخان فضرب غمرا به على رأسه وقيل بل ضربه بمنشة على وجهه وصاح عليه ونهره فخرج غم من عنده وهو مضمر له سوء فلما كان

المساء من تلك الليلة أكثر نمر من استحضار التبن علفا للجمال ودواب الحمل والخطب لوقود العسكر وجعل يصفه صفيوفاً حول العسكر بعضه يتصل ببعض فكان شيئاً كثيراً جداً ثم أتى إلى مقر الأمير إسماعيل في سرب من العبيد يضربون الطبول وينفخون في قرون الحيوانات كالزمامير ويرقصون فأعجب الأمير إسماعيل منظرهم وطرب أصحابه منهم وما زالوا على هذا الحال إلى منتصف الليل وقد اجتمعت الغوغاء وعلت الضوضاء واشتدت الطبول وعلت أصوات القرون فأمر نمر طائفة منهم فأشعلوا النار في التبن وذلك الوقود ووقفت طائفة منهم بالسيوف والحراش تجمع الخارج فاندلع لسان اللهب وعلا وأظلم الجو فاعملوا السيوف في أعناق الجند فهموا بالفرار فلم يتمكنوا فاحترق من أحترق ومات الأمير إسماعيل بالحريق وهو بين طائفة من مماليكه وأصبحوا ولم يبق من العسكر ديار ولا نفاخ نار وساق أصحاب نمر سلبهم إلى شندى وأتصل الخبر بالدفتردار وهو بدارفور فقام من فوره وسار إلى شندى وأقسم أنه ليهلك عشرين ألفاً فداء لإسماعيل فلما نزل عليها لاقاه نمر بأصحابه فقاتلهم بمن معه من العسكر وظفر بنمر وقتله وأعمل السيف في أصحابه وأفحش في القتل وأسرف في الانتقام ولم يحث في يمينه فهابه الناس واتسعت شهرته إلى أقاصى السودان فانكمش أصحاب الفتن وظل يدبر الأمور ويأمر وينهى ويخضع الكبار من السود إلى سنة أربعين ومائتين وألف هجرية حتى جاءه الأمر من محمد على باشا بالتخلي عنها والانحدار إلى القاهرة فانحدر وتولى مكانه رستم بيك فحذا حذوه وأكثر من الوعيد والتهديد حتى خضعت له جميع الأهالى ودانت له سائر الأمور.

(مطلب)

(إنشاء المدارس الحربية ومعامل الأسلحة والبارود)

واشتدت رغبة محمد على باشا بعد فتح السودان في إتقان نظام عسكره على نسق عسكر الفرنسيين فأنشأ مدرسة للمشاة في الخانقاه وأخرى للفرسان بالجيزة في بيت مراد بيك الكبير واستحضر لهما أشهر أساتذة الفرجة وأنشأ أيضاً مدرسة لأصحاب المدافع وأسس معامل للبارود وصب المدافع وعمل البنادق وجميع آلات الحرب واحتياجات الجند على اختلافها وسلم إلى الكولونيل سيف الذى هو سليمان باشا الفرنسوى زمام تديرها ووكّل لعهدته جميع أمور الجندية وجعله رأس جميع مقدميها فبالغ سليمان باشا في تعزيزها وإتقان نظامها فلم يمض عليها إلا القليل حتى صارت جنداً عظيماً مديراً مغازياً واسع الإصابة موففاً مظفراً أينما سار، ونقل

الناقلون إلى السلطان خبر ما وصل إليه محمد على باشا من الشهرة والجاه بعد فتحه للأقطار السودانية فخشى السلطان عاقبة أفعال محمد على باشا وظن به سوء وجعل يراقب أحواله ولكنه كان لا يقدر على أن يأتي معه أمرا لقيام الفتنة في جميع الإيالات التابعة لمملكته واشتغال عساكره بالحروب القائمة مع الأحزاب لا سيما الحرب القائمة منها مع اليونان فقد كانت من أشدها ويدا وأعظمها خرابا وأنكاهها بالغالب من الفريقين والمغلوب وطالت أيامها وأريق فيها من الدماء شيء كثير للغاية فكانت كلما طالت استعرت نارها واشتد أوارها وقويت ظهور الثائرين وجاءهم المدد من أرض الله الواسعة برا وبحرا فقاتلوا قتال المستقتلين حتى أعيا السلطان أمرهم وداخل عساكره الملل وخشى عاقبة ذلك.

(مطلب)

(خلود اليونان إلى الثورة وطلب الاستقلال)

قال أصحاب التاريخ: لما نهض اليونان إلى طلب الاستقلال والخروج عن تابعة السلطنة العثمانية رأوا أن هذا الأمر لا يتم لهم إلا بئس الحرية والمساواة بين طبقات الرعية وهذا لا يتم أيضاً إلا بتثقيف أذهان أبنائهم بالعلوم والمعارف الصحيحة فتألب كبرائهم وأصحاب الميسرة فيهم وسيروا أولادهم إلى بلاد الفرنجة لتلقى العلوم والآداب ومعرفة عاداتهم حتى إذا عادوا إلى أوطانهم بما عرفوه من معارف أولئك القوم وعاداتهم كانوا هم مقدمى الأمة ورعاة حريتها ومخرجيها من مضايق الأسر والاسترقاق إلى بحبوحة الحرية والمساواة فنجعوا في ذلك وأنشأوا جمعيات سرية للذب عن حقوقهم السياسية وجعلوا مقرها بلاد الروس وبلاد النمسا فعملت تلك الجمعيات وبالغت جداً وكان أهمها عملاً وأشدها خطراً الجمعية المسماة هيتيرى ومعناها الجمعية الأخوية وكان مقر هذه الجمعية أولاً بمدينة أودسا ثم انتقلت إلى مدينة كيف وكلتاها من أملاك الروس وبقيت تحافظ على كتمان أمرها إلى سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية ثم ظهرت نتائج أعمالها بظهور الفتنة وخروج اليونان عن طاعة السلطنة العثمانية، وكان للقيصر إسكندر الأول ابن القيصر بولس قيصر الروس يد قوية في تعضيد تلك الجمعيات وتقوية عزائم الجنس اليونانى وتعزيز مطالبة تنكيلا بالدولة العثمانية ولكى لا تخمد نار الفتنة من جميع بلادها ولا ينطل لها اضطراب فيتمكن من تنفيذ وصية بطرس الأكبر التى أوصى بها كل من يتولى ملك الروس أن يجعل القسطنطينية باب الممالك الروسية ومفتاح مغالق الديار الأوروبية (قلت) ولما كانت هذه الوصية عند كبار السياسة الشرقية والغربية لاسيما

عند كبار رجال السلطنة العثمانية بمكان وكان بقاء السلطنة المشار إليها وزوالها معقودين بإطراف تلك الوصية رأيت أنه لا بأس بإيرادها هنا كما جاءت فى ترجمة تاريخ العلامة جودت باشا ولا أعلم من أين وصلت إليه معرفتها وعهدنا بوصايا الملوك التى من هذا القبيل أن يقفل دونها جميع أبواب الوصول قال:

(وصية بطرس قيصر الروسية)

(البند الأول) من اللزوم أن تقاذ العساكر دائماً إلى الحرب وينبغى للأمة الروسية أن تكون متمادية على حالة الكفاح لتكون أليفة الوغا وترك وقت لراحة العساكر أو لأجل إصلاح المالية وتوفيرها وإن كان ضروريا يلزم أن يكون تنظيم المعسكرات متعاقبا وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة أنا بأن وعلى هذه الصورة ينبغى لروسيه أن تتخذ من الصلح والأمان وسيلة قوية للحرب وهكذا زمن الحرب للصلح وذلك لأجل زيادة قوتها وتوسيع منافعها.

(البند الثانى) فى وقت الحرب ينبغى اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط للجند من بين الملل والأقوام الذين هم أكثر معلومات فى أوروبا وكذلك فى زمن الصلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضاً ويلزم الاعتناء بما يجعل الأمة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث إنها لا تضع سعيها فى تحصيل المحسنات المخصوصة بمملكتها.

(البند الثالث) عند سنوح الفرصة ينبغى وضع اليد والمداخلة فى جميع الأمور والمصالح الجارية فى أوروبا وفى اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص فى وقوعات ممالك ألمانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدة قربها.

(البند الرابع) ينبغى استعمال أصول الرشوة لأجل إلقاء الفساد والبغضاء والجسد دائماً فى داخلية ممالك «له» وتفريق كلمتهم واستمالة أعيان الأمة ببذل المال واكتساب النفوذ فى مجلس الحكومة حتى تتمكن من المداخلة فى انتخاب الملك وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيه من تلك الأمة ينبغى حيثئذ دخول عساكر روسيه إلى داخل البلاد لحمايتهم والتعصب لهم بإقامة العساكر المذكورة مدة مديدة هناك إلى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكنا من الإقامة وعندما تظهر مخالفة فى ذلك من طرف الدولة المجاورة فلأجل إخماد نار الفتنة موقتاً ينبغى أن نقاسم المخالفين فى ممالك «له» ثم نترقب الفرص لاسترجاع الحصص التى تكون أعطيت لهم.

(البند الخامس) ينبغي الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك أسوج بقدر الإمكان ثم نسعى فى اغتنام وسيلة لاستكمال الباقي منها ولا نتوصل إلى ذلك إلا بوجه تضطر فيه تلك الدولة إلى أن تعلن الحرب على دولة الروسية وتهاجمها والذي يلزم أولاً هو أن تصرف المساعى والهمة لإلقاء الفساد والنفرة دائماً بين أسوج والدانقرقة بحيث إن يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائمين باقيين .

(البند السادس) يجب على الأسرة الامبراطورية الروسية أن يتزوجوا دائماً من بنات العائلة المملوكية الألمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم واشتراكهم فى المنافع إذ بهذه الصورة يمكن إجراء نفوذهم فى داخل ألمانيا ويربطون أيضاً الممالك المذكورة لجهة منافعنا ومصالحنا .

(البند السابع) أن دولة إنجلترا هى الدولة الأكثر احتياجاً إلينا فى أمورها البحرية ولهذه الدولة فائدة عظيمة جداً أيضاً فى أمر زيادة قوتنا البحرية فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معها فى أمر التجارة على سائر الدول وبيع محاصيل ممالكنا كالأخشاب وسائر الأشياء إلى إنجلترا وجلب الذهب من عندهم إلى ممالكنا واستكمال أسباب الروابط والمناسبات متمادياً بين تجار وملاحى الطرفين فيتوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير السفن فى ممالكنا .

(البند الثامن) على الروسين أن ينتشروا يوماً فتيوماً شمالاً فى سواحل بحر البلطيق وجنوباً فى سواحل البحر الأحمر .

(البند التاسع) ينبغي التقرب بقدر الإمكان من استانبول والهند وحيث أنه من القضايا المسلمة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا بأسرها فلذلك من اللازم إحداث المحاربات المتابعة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الإيرانية وينبغي ضبط البحر الأسود شيئاً فشيئاً وذلك لأجل إنشاء دار صناعات بحرية والاستيلاء على بحر البلطيق أيضاً لأنه ألزم موقع لحصول المقصود وللتعجيل بضعف بل بزوال دولة إيران لنتمكن من الوصول إلى خليج البصرة وربما نتمكن من إعادة تجار الممالك الشرقية القديمة إلى بلاد الشام والوصول منها إلى بلاد الهند التى هى بمثابة مخزن للعالم وبهذه الوسيلة نستغنى عن ذهب إنجلترا .

(البند العاشر) ينبغي الاهتمام بالحصول على الاتفاق والاتحاد مع دولة أوستريا والمحافظة على ذلك ومن اللازم التظاهر بترويج أفكار الدولة المشار إليها من جهة ما

تبتغى إجراءه من النفوذ فى المستقبل فى بلاد ألمانيا وأما باطنها فيبتغى لنا أن نسعى فى تحريك عروق حسد وعداوة سائر حكام ألمانيا لها وتحريك كل منهم لطلب الاستعانة والاستعداد من دولة روسية ومن اللازم إجراء نوع من حماية الدولة المذكورة بصورة يتسنى لنا فيها الحكم على تلك الدول فى المستقبل .

(البند الحادى عشر) ينبغى تحريض العائلة المالكة فى أستوريا على طرد الأتراك وتبعيدهم من بخطة الروم إلىلى وحينما نستولى على استانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة لستوريا حرباً أو نسكن حسداً ومراقبتها لنا بإعطائها حصّة صغيرة من الأماكن التى تكون قد أخذناها من قبل وبعده نسعى بتزج هذه الحصّة من يدها .

(البند الثانى عشر) ينبغى أن نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم المنكرين رياسة الباب الروحية والمتشرين فى بلاد المجر والممالك العثمانية وفى جنوبى ممالك «له» ونجعلهم أن يتخذوا دولة روسيا مرجعاً ومعيناً لهم ومن اللازم قبل كل شىء إحداث رياسة مذهبية حتى نتمكن من إجراء نوع نفوذ وحكومة رهبانية عليهم فنسعى بهذه الوساطة لاكتساب أصدقاء كثيرين ذوى غيرة نستعين بهم فى ولاية كل أعدائنا .

(البند الثالث عشر) حين ما يصبح الأسوجيون مستشنتين والإيرانيون مغلوبين واللاهيون محكومين والممالك العثمانية مضبوطة أيضاً حيثنذ نجتمع معسكراتنا فى محل واحد مع المحافظة على البحر الأسود وبحر البلطيق بقوتنا البحرية وعند ذلك نظهر أولاً لدولة فرنسا كيفية مقاسمات حكومات الدنيا بأسرها بيننا ثم لدولة أستوريا ويعرض ذلك على كل من الدولتين المشار إليهما كل منهما على حدة بصورة خفية جداً لقبول ذلك وحيث إنه لا بد من أن إحداهما تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغى مدارة واحترام كل منهما ونجعل من كان منهما قابلاً بما عرضناه عليهما واسطة لتتكيل الأخرى وبذا تكون دولة روسية حيثنذ قد ضبظت جميع الممالك الشرقية ويكون مثل ذلك أعظم قطع أوروبا حديثة الدخول فى يد تصرفها فعنده يسهل علينا أن نقهر وننكل فيما بعد أى دولة بقيت فى الميدان من الدولتين المذكورتين .

(البند الرابع عشر) على فرض المحال أن كلا من الدولتين المشار إليهما لم يقبل بما عرضته عليهما روسيه فيبتغى حيثنذ لروسية أن تصرف الأفكار لمراقبة ما يحدث

من النزاع والخلاف بينهما فإذا وقع ذلك فلا بد أن يحصل تعب للطرفين ويشتبك هذا الأمر مع الآخر وفي ذلك الوقت يجب على روسية أن تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالاً معسكراتها المجتمعة أولاً بأول على ألمانيا فتهجم على تلك الجهات ثم تخرج قسمين كليين من السفن أحدهما من بحر أراق المملوء بالعساكر الوافرة المجتمعة من أقوام الأناضول المتنوعة. والثاني من ليمان أرخانكل الكائنة في البحر المتجمد الشمالي فتسير هذه السفن وتمر في البحر الأبيض والبحر المحيط الشمالي مع الأسطول المرتب في البحر الأسود وبحر البلطيق وتهجم كالسيل على سواحل فرنسا وأما ألمانيا فلإنها تكون إذ ذاك مشغولة بحالها وبما ذكرنا تصبح المملكتان الواسعتان المذكورتان مغلوبتين على هذه الصورة فالقطعة التي تبقى من أوروبا قابلة للفتح والتسخير، انتهت بنصها. قلت: ولا يقع في ملكه إلا ما يشاء.

(مطلب)

(ولاية محمد علي باشا على المورة)

وكريد ومقالة من بهما من الخوارج)

وانتشر سر جمعية الهيئري المذكورة بين جميع الجنس اليوناني المقيم ببلاد المورة وغيرهما من بقية بلاد المملكة العثمانية وفشا بينهم فلم تأت سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية حتى بلغ عدد أعضائها العاملين فيها نيفا وعشرين ألفاً ممن يقدرون على حمل السلاح ولا يرهبون الموت عند الكفاح فلما ظهرت الفتنة في يانيا وخرج واليها المسمى على باشا عن طاعة السلطان واشتغلت العساكر السلطانية بقتاله نهض أعضاء تلك الجمعية نهضة الأسد الرابض وركبوا على الجنود العثمانية المرابطة في حصونهم وقلاعهم وأعملوا فيهم القتل واشتدت الفتنة وعمت وتمكن زعماء العصابة من الاستيلاء على كثير من الحصون والقلاع وأشغل السلطان أمر هذه الفتنة وأهتم لها اهتماماً عظيماً فلما سكنت فتنة يانيا وقتل واليها سير السلطان خورشيد باشا في عسكر عظيم لإخضاع اليونان وإرجاعهم إلى الطاعة فقاتلوه قتالاً عنيفاً وانتصروا عليه نصرة مؤزررة في مضيق الترمونبيل ومزقوا شمل عساكره كل ممزق وتمكنوا من إضرام النار في جميع سفن حرب الدولة العثمانية التي كانت يومئذ راسية أمام جزيرة صافز فمات في الحريق زهاء ثلاثة آلاف من جند تلك السفن وكانت هذه السفن قد قاتلت على جزيرة صافز وساموس وغيرهما واستخلصتها من أيدي أصحاب الفتنة فأفحش عسكرها في القتل والنهب وسبى النساء والأطفال

وارتكاب أنواع الفظائع والفجور فقام أصحاب الفتنة عليها ودمروها تدميراً فلما جاءت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة اضطرب السلطان وكاد يأمر بالكف عن القتال وترك الأعداء وشأنهم ولكنه خشى العار خصوصاً بعد أن قام سفراء الدول في دار السلطنة على ساق وقبحوا على الصدر الأعظم ما فعله عساكر السفن الحربية من القتل والنهب والسلب وسبى النساء والأطفال في صاقر وغيرها فعمد إلى استعمال الحيلة وأخذ في التدبير وسير إلى محمد علي باشا فرمان الولاية على المورة وكريد ورسم له بقتال أصحاب الفتنة وإرجاعهم إلى الطاعة ليشغله بهذه الحرب المستعصية عن الخروج وطلب الاستقلال بملك الديار المصرية. والأقطار الحجازية وأرسل إليه خلع الرضا فأجابه محمد باشا إلى ذلك وأعد للقتال زهاء السبعة عشر ألفاً من المشاة المصريين وعدداً من الفرسان وأصحاب المدافع وجعل مقدمهم ولده الأمير إبراهيم ومعه سليمان باشا الفرنساوي فساروا إلى مدينة الإسكندرية ثم ركبوا السفن وأقلعوا في ذى القعدة سنة أربعين ومائتين وألف هجرية إلى رودس فلبثوا بها أياماً ثم رحل عنها الأمير إبراهيم إلى كريد وترك سليمان باشا في طائفة من العسكر فلما وصل إلى كريد قاتل من بها من الثائرين ثم احتلها عنوة وسار إلى سواحل المورة يريد إنزال جنوده بها فلم يتمكن وقاتله أصحاب الفتنة قتالاً عنيفاً للغاية وكان إلى ذلك الحين لم يبق للدولة العثمانية من بلاد تلك السواحل سوى مدينتين مودون وكورون فسار إبراهيم باشا بعسكره إلى مينا مودون وأنزلهم إلى البر بعد عناء شديد وكان أصحاب الفتنة على قدم الأهبة والاستعداد للقاء العسكر المصري بما عندهم من الرجال والذخائر والأموال وآلات الحرب التي كانت ترد إليهم من أهل البر ومحبي تحرير الأمم وفك قيود أسرهم فقد كانت تألفت في ديار أوروبا عدة جمعيات باسم جمعيات محبي اليونان وانتظم في عداد أعضائها كثير من الأمراء والكبراء فكانوا يرسلون إلى أصحاب الفتنة بالأموال وآلات الحرب والذخيرة وكان ممن انتظم في سلكها الشاعر الفرنسي المسمى فيكتور هوجو والناظم كازيمير دلافين فجعلوا يقولان الأشعار والقصائد الحماسية في تلك الحروب وببالغان في وصف ما يقاسيه أهل المورة وكريد من العسف والجور فكان لقولهما وقع في قلوب أهل النخوة والمرءة فتجرد الكثير منهم إلى التطوع وبذل النفس في عتق تلك الأمة وجاءهم أيضاً واشنطن ابن واشنطن محرر بلاد أمريكا واللورد بيرون الشاعر الإنجليزي متطوعين حبا في تعميم الحرية وانتصاراً للضعيف على القوى ففاز اليونان وتقوت عزائمهم وانتصروا على العساكر السلطانية في عدة وقائع واستخلصوا كثيراً من

القلاع والحصون التي كانت تسكنها عساكر الدولة العثمانية ولم يستقر بالأمير إبراهيم في مودون المقام حتى جاء الخبر بمحاصرة العدو لمدينة كورون وكان بها بعض العساكر السلطانية فسير لنجدتها طائفة من عسكره وسار هو في طائفة لحصار مدينة ناورين فنزل عليها وشدد في حصارها وضيق وما زال بها حتى فتحها ودخلها عنوة في سلخ شوال سنة إحدى وأربعين ومائتين وألف هجرية ثم سار إلى مدينة كلاماتا ففتحها أيضاً ودخل مدينة تريبولنا بعد قتال وكان رشيد باشا مقدم العسكر السلطاني نازلاً في هذا الحين على مدينة يسولونجي محاصراً فاستعصى عليه الفتح وأعيته الخيل فسير إلى الأمير إبراهيم يستقدمه لنجدته فسار إليه فيمن معه من العسكر المصري ونزل عليها وقتلها قتلاً شديداً وبالف سليمان باشا الفرنسي في حصارها وضيق وطالت أيام الحصار لوصول المدد إليها من البحر وعدم التمكن من قطعه عنها وما زالوا بها حتى فتحوها ودخلها العسكران المصري والعثماني ظافرين فأعملوا فيمن وجدوه بها القتل وغنموا منها شيئاً كثيراً من المؤن والذخيرة وآلات الحرب، ثم لم تستهل سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف هجرية حتى رحفت العساكر السلطانية على مدينة أتينا وقتلت عليها حتى فتحها واحتلت قلعتها الشهيرة وكان بها الأمير كوشران القائد البحري الإنكليزي مقدم الجيوش اليونانية في تلك الثورة فأعمل العسكر السلطاني السيف فيمن وجدوه بها من العسكر والمتطوعة وأفحشوا في القتل والتخريب وبينما هم على هذا الحال والأمير إبراهيم يتأهب لرد ما بقى في أيدي أصحاب الفتنة إذ مات إسكندر الأول قيصر الروس وتولى الملك بعده نيقولا الأول ثالث أولاد القيصر بولس فتجرد إلى معاكسة الدولة العثمانية وطالبها بالمطالب الطويلة العريضة وهم بفتح أبواب الحرب عليها وتسيير عسكره إلى بعض الإيالات التابعة لها فأجابته إلى ما طلب وعقدت معه معاهدة سميت بمعاهدة «آق قرمان» فكان مما جاء فيها منح الروس حق الملاحة في البحر الأسود والعبور من البوغازين بلا معارضة ولا تفتيش على ما في سفنها وأن لا تحتل العساكر السلطانية إلا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى مما هو في حوزة الدولة العثمانية ومنح الصرب كثير من الامتيازات تجعلها أشبه بالمستقلة بإدارة نفسها وأن يكون للدولة الروسية حق انتخاب حكام كل من القلاخ والبلغدان لمدة سبع سنين ولا يصح للدولة العثمانية عزلهما إلا بإقرار من قيصر الروس، ومع ما كان في هذه المعاهدة من الخيف والجور بالدولة العثمانية لم تر بدا من قبولها تفادياً من فتح أبواب الحرب في ذلك الوقت ولم يقف القيصر نقولا عند هذا الحد بل دس إلى جميع الدول الكبرى بأن يتوسطوا ما بين

السلطان وأصحاب الفتنة من اليونان فكلم سفير الإنجليز الصدر الأعظم فى ذلك وبالغ فى الشكوى مما تلاقىه أهل مورة من العسكرين العثمانيين والمصري وألح فى الطلب فلم يلتفت السلطان إلى ذلك وصمم على قتالهم حتى يرجعوا إلى الطاعة فاتفق قيصر الروس وملكا الإنجليز والفرنسيس وتعاهدوا على إكراه السلطان على منح اليونان استقلالهم الإدارى وعليهم الجزية فى كل عام حسبما يقع عليه الاتفاق وتحديد تخوم الفريقين وضربوا للسلطان أجلاً لا يتجاوز ثلاثين يوماً لا يقع فيها حرب ولا جلاذ فلما علم السلطان بما فى هذا العهد غضب وأبى إلا القتال حتى يرجعوا إلى الطاعة وسير إلى خورشيد باشا بالإلحاح فى قتال الثائرين واستخلاص ما بأيديهم من القلاع والحصون ولبثت الدول الثلاثة تراقب فوات الأجل المضروب فلما انقضت أيامه سيروا مراكب حربهم إلى سواحل اليونان وكتبوا إلى الأمير إبراهيم بالكف عن القتال فلم يلتفت إلى قولهم وقال حتى يأتى فرمان السلطان وسير الخبر بذلك إلى دار السلطنة فاجتمعت سفن الأحزاب فى ميناء تاورين ومنعت من خروج السفن العثمانية والمصرية وشددت فى المنع ثم لم تلبث أن أطلقت مدافعها على السفن العثمانية والمصرية وراست الرمى بالقنابل فاشتبك القتال بين الفريقين وحمل الوطيس وارتفع الدخان وتكاثف وأظلم الجو وانكشف عن تدمير جميع السفن العثمانية والمصرية بنيران المدافع ووصلت الأخبار بما وقع إلى دار السلطنة فاضطرب السلطان وهاله هذا الأمر وكتب إلى جميع الولايات التابعة إلى مملكته يحذروهم من مقاصد الدول عموماً ودولة الروس خصوصاً ويحضهم على الغزو والجهاد دفاعاً عن الإسلام وأهله وأن يقوموا يداً واحدة لنصرة الدين ودفع العدو الطامع فاهتم قيصر الروس لذلك وخشى العاقبة وعجل بفتح باب الحرب على الدولة وزحف بعسكره فى صفر سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية ورأى الأمير إبراهيم أنه لا قبل له على قتال الأحزاب بعد حرق أعظم السفن التى كانت معه فكتب إلى أبيه بما جرى فجاءه الأمر بالانسحاب بجميع عسكره والعود إلى مصر فخرج بمن معه وعاد على ما بقى من السفن المصرية إلى مدينة الإسكندرية ثم وقع بعيد ذلك ما وقع بين الدولة العثمانية والأحزاب ف عقدوا محفلاً فى لندن عاصمة الإنجليز ليقرروا فيه قاعدة لاستقلال اليونان وطلبوا من السلطان أن يبعث سفيرا من قبله فلم يقبل وأصر على ما فى نفسه فلم يهتمهم ذلك وقرروا ما شاءوا من سلخ بلاد اليونان من تابعة الدولة فانسلخت من ذلك الحين واستقلت بحكم نفسها وتعهدت بدفع الجزية خمسمائة ألف قرش تحمل إلى الخزينة السلطانية فى كل

عام وأشتغل السلطان بحرب الروس عن إخضاع اليونان وإرجاعهم إلى الطاعة وطالت أيام الحرب بين الفريقين ثم انكشفت عن هزيمة العساكر السلطانية فترددت رسل السلطان فى طلب الصلح وبعد أخذ وردت تقررت القاعدة بينهما على حصول دولة الروس على كثير من الامتيازات والحقوق وأعترف السلطان بسلخ البلاد اليونانية من مملكته ومنحها جميع الامتيازات التى تقررت فى محفل لندن عاصمة الإنجليز.

(مطلب)

تنظيم العساكر السلطانية على نظام عساكر دولة الفرنسيين)

وكان إلى هذا الحين قد تمكن السلطان من زيادة جميع طوائف الانكشارية وطوائف السلامدارية والعلوفة جيه وأراح الدولة من شرهم. قال أصحاب التاريخ: لما رأى السلطان أن لا قبل لهؤلاء الأخلاط من العسكر على قتال جيوش الدول المتمدنة المنظمة لا سيما فى الحروب الأخيرة عمد إلى تنظيم عسكر على نسق العسكر الأوروبى وتجرد لمعاداة كل من يخالفه فى ذلك وجمع كبار الدولة وأعيان المملكة ومقدمى جميع طوائف الانكشارية ومفتى دار السلطنة وكان ممن لا ييغضون النظام الجديد فقام الصدر الأعظم بينهم خطيباً وتكلم فى أمر الانكشارية كثيراً وحض القوم على نصره الدين بتقوية المجاهدين وترتيبهم على النظام الكافل بصد الأعداء والذب عن بيضة الإسلام فوافقوا جميعاً على عمل ما فيه المصلحة للأمة والبلاد وحرروا محضراً بذلك وأفتى مفتى دار السلطنة بجواز العمل بما تقرر شرعاً وتعزير المخالفين له ووقع على ذلك جميع مقدمى الانكشارية فلما شرعوا فى العمل وأحس طوائف الانكشارية بما وراء ذلك ندموا على ما فعله كبارهم وأكثروا من التآلب والاجتماع وتأهبوا للثورة والخروج كما فعلوا على عهد السلطان سليم وأخذت الوحشة بينهم وبين العسكر المنظم تكبر فلما كان شهر رمضان سنة أربعين ومائتين وألف قام جماعة منهم وجعلوا يزاحمون العسكر المنظم فى أوقات تمرينهم ويعاكسونهم فرفع كبار الجند أمر ذلك إلى السلطان فأغضبه جدا ورسم بقتل كل من يبدو منه أدنى معارضة بلا معاودة فلما شاع خبر ذلك بين طوائف الانكشارية هاجوا واجتمعوا وتحالفوا على العصيان وتأهبوا للخروج فجمع السلطان العلماء والمشايخ

وأخبرهم بما فعله طوائف الانكشارية فأكبروه وقبحوه وتقدموا إلى السلطان فى طلب قتالهم والجهاد فيهم وأصبحوا وقد أخرج السلطان علم صاحب الشريعة المحمدية وأمر أصحاب المدافع بالخروج إلى (آت ميدان) فخرجوا وأمامهم العلم المشار إليه وخرج معهم أيضاً كثير من العلماء والمشايع وطلبة العلم وكان بالميدان المذكور أصحاب الفتنة والعدد العديد من طوائف الانكشارية وهم فى ضجيج وجلبة فأحاط بهم أصحاب المدافع إحاطة السوار بالمعصم وأطلقوا عليهم القنابل وراسلوا الرمى واشتدوا وأصلوهم نارا حامية فهربوا إلى منازلهم يريدون النجاة فتبعهم أصحاب المدافع وصوبوا أقوا المدافع نحو المنازل واشتدوا فى الرمى عليها بالقنابل فهدمتها جميعها وأشعلت فيها النيران وارتفع لهيبها وتطاير شررها وما زالت النيران فى اشتعال حتى أبادتها وصيرتها رمادا ومات فيها جميع من كان بها من طوائف الانكشارية ويات الحال هكذا وأصبحوا وقد رسم السلطان بإبطال زعيم واصطلاحاتهم وجميع ما يتعلق بهم من جميع الأيالات التابعة لمملكته ونودى بذلك فى الشوارع وطيروا الخبر بما جرى إلى الآفاق وكتب إلى جميع العمال بالقبض على كل من يجده منهم فيقتلونه بغير معاودة فوقع فيهم القتل فى كل فج وتبعوهم حتى أبادوهم ولم يبق منهم إلا من طال عمره فاخفى عن العيون والأرصاد، وجاءت الأخبار بما وقع بطوائف الانكشارية إلى محمد على باشا فعاتت همته إلى ما كبات عليه قبل حرب مورة من تجنيد الجنود وإتقان نظام العسكر والإكثار من الآلات والكراع وإنشاء عمارة عظيمة من سفن الحرب وشوانى النقل بدل التى أحرقتها سفن الأحزاب وأقام البنايات العظيمة منازل للجند وجلب الخيل والبغال والجمال لحمل المؤن والذخيرة وغير ذلك فاتصلت أخبار هذا كله بالسلطان فحقد على محمد على باشا لما يعلمه من ميله إلى الخروج ورغبته فى الاستبداد بملك الديار المصرية مع عجز السلطان عن رده وإرجاعه إلى الطاعة إن هو عمد إلى ذلك وجعل يراقب الأمور ويتودد إلى محمد على باشا بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة.

(مطلب)

(ما انتحله محمد على باشا من العلل لفتح باب الحرب على الشامات والتغلغل فى قلب آسيه)

قال بعض الكتاب: وكان تأهب محمد على باشا واستعداده فى هذه المرة إنما هو للزحف على الديار الشامية وضمها إلى بلاده كما كانت على عهد من سبقه من

الخلفاء والسلاطين وكان شديد الرغبة فى ذلك جداً فاتفق أن بعض الملتزمين من أهل مصر هربوا إلى عكا ونزلوا فى جوار عبد الله باشا الجزار واليه فرارا من محمد على باشا لدين عليهم وقيل فرارا من الفرض والطلبات المتابعة وقيل غير ذلك فأرسل محمد على باشا إلى الجزار يقول له: اقبض على من أتاك من أهل بلادى وردهم إلى فإنه لا يصح أن تمنعهم عنى فاستعظم الجزار هذا الأمر من محمد على باشا وأرسل إليه يوبخه ويشنع عليه ويقول: لست خادماً على بابك حتى تتصرف فى أمرى وإياك أن تخاطبني فى هذا الأمر ثانياً فشق هذا الكلام على محمد على باشا وأقسم الأيمان الغلاظ أن يسير عسكره إلى عكا لقتال الجزار ويضم جميع البلاد الشامية إلى مصر وجعل يتأهب لذلك من هذا الحين، فلما كان سادس عشرى جمادى الأولى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف خرجت الجيوش المصرية من القاهرة تريد عكا ومقدمها الأمير إبراهيم ومعه سليمان باشا الفرنساوى وكان عددها رهاء أربعة وعشرين ألفاً فساروا إلى الصالحية فالعريش فغزة وركب الأمير إبراهيم وحاشيته السفن إلى يافا فلم يدرك يافا حتى استولت عساكره على غزة ويافا بعد دفاع خفيف فسار بهم إلى عكا فنزل عليها حادى عشرى جمادى الثانية وحاصرها برا وبحرا ونصب خيامه أمامها ورمى عليها بالقنابل وراسل الرمى وشدد فخرج الجزار فى عسكر عظيم وقتلوا قتلاً عنيفاً فمات منهم خلق كثير وعادوا إلى المدينة وجعلوا يقاتلون من وراء الأسوار وطالت الحرب واشتد الحصار ومنع الأمير إبراهيم الوارد عن المدينة من البر والبحر إلى سادس عشرى ذى القعدة وقيل سادس شوال ثم نادى فى عسكره بالهجوم فهجموا عليها واقتحموا أسوارها وحصونها فاستأمن من كان بها من العسكر الشامى والعثمانى فأمنهم ودخل بعسكره البلد فكاد العسكر يستيحيونها فلم يمكنهم الأمير إبراهيم من ذلك وقيل أباحها ثلاثة أيام فأعمل عسكره فيمن بها السيف، فلما كان اليوم الثانى وصل الأمير عباس حلمى ابن الأمير طوسون فى عسكر عظيم ومعه كثير من العربان والهواره إعانة للعسكر المصرى فسيرهم الأمير إبراهيم إلى حصار بعض المدن والبنادر كصور وصيدا وبירות واشتدت عزيمة العساكر المصرية بما نالوه من النصر المتتابع وسير الأمير إبراهيم الكتب إلى البلاد كافة يدعوهم إلى الطاعة والخروج على من عندهم من العساكر السلطانية كتب كذلك إلى متولى بيت القدس والمفتى وقاضى القضاة به يقول:

تعلمون أن فى بيت المقدس كثيراً من الديارات والكنائس والآثار الدينية التى تحج إليها فى كل عام طوائف النصرانية واليهود وقد شكى إلينا هؤلاء مما يلاقونه

منكم من العنت والقسوة والغلظة عليهم والتحقير لدينهم فضلاً عما أنتم فارضوه عليهم من الكلف والمغارم الفادحة غير ناظرين إلا إلى ما فيه إرضاء أنفسكم والعمل بهواكم على أن هذه الغايات الدنيئة والفعال الرديئة لا ترضاها النفوس الأبية ولا يصح السكوت عليها ولذلك أنهاكم وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم وأسألكم أن تفسحوا لجماعة القسيسين والرهبان والشمامسة أهل ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب قبطا كانوا أو روما أو أرمناً في دينهم ودنياهم ولا تمنعوه من إقامة شعائر دينهم ولا تأخذوا ممن يذهبون زائرين بحر الشريعة شيئاً من الكلف والمغارم ولا تضيّقوا على زائري كنيسة القيامة ولا تلزموهم الصغار بدفع المال فإن أطمعتم أحستهم لأنفسكم وإن خالفتم أسأتم عليها والسلام عليكم ورحمة الله.

وجاءت الأخبار بذلك إلى السلطان فاغتم وكاد يسقط في أمره وكانت قد جرت عادة الباب العالي أن ينشر جدول التوجيهات والتغيرات التي تحصل في هيئة الحكومة في كل سنة في اليوم الأول من العيد الأكبر فجاء في صدر الجدول الذي نشر في تلك السنة ما معناه قد رأينا أن لا نقطع بتوجيه ولايات مصر وجدة وكريد حتى يأتي إلى بابنا العالي جواب محمد علي باشا علي ما أرسلناه إليه من الرسائل والفرمانات بشأن ما ارتكبه من الخروج والعصيان على خليفته وسلطانه ولزوم عدوله عن خطة الخسة والدناءة التي سار فيها هو وإبراهيم ولده ورجوعه إلى حد التأدب وقهره بقدر ما تصل إليه القدرة إن شاء الله، ثم رسم للوزير عثمان باشا بالخروج في جيش عظيم لقتال الأمير إبراهيم واستخلاص ما بيده من بلاد الدولة لا سيما منها مدينة عكا وقهره جهد الاستطاعة فسار الوزير وسير الكتب إلى الأمير إبراهيم يدعوه فيها إلى طاعة خليفته وسلطانه ويحذره من عاقبة الخروج وشق عصا الطاعة فلم يلتفت الأمير إبراهيم إلى شيء من ذلك وترددت الرسل بين العسكرين أياماً على غير طائل ثم رحف الفريقان للقتال فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالاً عنيفاً فانهزم الوزير عثمان باشا بعسكره شر هزيمة وأخذتهم سيوف المصريين من كل صوب وحذب فمزقت شملهم وولى من بقى منهم مدحوراً فغنم المصريون ما كان في معسكرهم من كراع ومتاع وعجل الأمير إبراهيم المسير بعسكره بعد هذه النصر إلى مدينة حمص يريد حصارها والتضييق عليها وتحقيق الوزير من ذلك فجعل يجمع من بقى من عسكره وسار بهم خلف العسكر المصرى يتخطف سبّاقه ويتناوشهم القتال فوقف له العسكر المصرى وقاتلوه فهزموه ثانية وأعملوا في جنده السيف ففروا ووصلت الأخبار بما جرى إلى دار السلطنة فحال السلطان هذا الحال وأزعجه فأنفذ إلى عامله على حمص

بالثبات وقتال العسكر المصرى ما استطاع ووصل الأمير إبراهيم بخيله ورجله إلى حمص فى سابع ربيع الاول سنة ثمان وأربعين ومائتين فلاقاه واليهها محمد باشا بعسكره واقتل الفريقان قتالاً شديداً.

(مطلب)

**تسليم محمد على باشا والى حمص إلى الأمير إبراهيم وصدور
فرمان السلطان بعزل محمد على باشا وولاية حسين باشا سر
عسكر بدله**

قال بعض الكتاب: كان هذا القتال حيلة من محمد باشا يريد بها تسليم حمص إلى الأمير إبراهيم وقد كان استوثق لنفسه وتعاهد مع الأمير إبراهيم على ما لم يصل أحد إلى معرفته فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى استسلم محمد باشا فاستلم الأمير إبراهيم حمصاً ورتب أمورهما على ما شاء وترك طائفة من عسكره فيها وسير جيشاً إلى حلب فاستسلمت إليه بغير قتال فكان كلما اقترب من مدينة أو قرية سلمت إليه بغير قتال فيأخذ منها المؤن ودواب الحمل ويسير عنها إلى غيرها فلما ورد الخبر بما وقع إلى دار السلطنة كاد السلطان يتميز غيظاً وجهز حسين باشا سر عسكر الدولة فى جيش عظيم ورسم له بالخروج إلى القتال وولاه مصر وكريد والحبشة، كذا ولا أعلم ما هى ولاية الحبشة والحبشة كما هو محقق ومشهور دولة قائمة بذاتها منذ قرون وأجيال، وسلمه فرمان الولاية بيده وترجمته:

من سلطان الدولة العلية العثمانية وولى نعمة المملكة العظمى الشاهانية إلى فخر الأمراء المعظمين وقدوة أعيان دولتنا المفخمين حسين باشا بلغه الله ما شاء وأسبل عليه بساط اليمن والأمان وأفاض عليه سجال العدل والإحسان وأسبغ عليه من المكارم رداء سابغاً وأورده من موارد الأمن شراباً سائغاً سنجق التشيرمان وأمير بحرية الأناضول الموجه إليه من لدن مكارمنا المشهورة ولاية الديار المصرية والحبشة وجزيرة كريد وما يتعلق بها.

- أما بعد - لا يخفى على من تهمة أخبار دولتنا العلية وما هى عليه مملكتنا العثمانية الشاهانية أن محمد على باشا والى الديار المصرية سابقاً بعد أن كان فرداً من آحاد الرعية لا يعرف له حسب ولا نسب قد تدرج إلى أوج المعالى وما زال حتى تولى حكومة الديار المصرية من قبل بابنا العالى فنظرنا إليه بما جبلنا عليه من كرم الطباع وعاملناه بغاية الرفق والتودد والاتضاع وكنا نظن أنه يقف عند حد الشكران فلا يخالف لنا كلمة ولا يغلب على طبعه النكران وأن يقابل نعمتنا بالصدق والولاء

ولكنه لدناءة أصله وخسة نفسه. قد أطاع هواه فداخله الغرور والكبرياء وكفر بالنعمة وشق عصا طاعتنا وجاهر بمعاداة حكومتنا ولم يقف عند حد من إثارة الفتن وتعميم القلاقل والاحن ودس الدسائس الشيطانية بين عمال وولاة إيالاتنا الشاهانية حتى استمال إليه الكثير ممن كنا نعتمد عليهم ونركن في جميع الأمور المهمة إليهم وقد أقلق راحة أهالي ألبانيا والروم إلى بطن الغارة على بلادهم والإكثار من القتل والنهب بلا موجب ولا سبب حتى كاد الخراب يتولاها وكثيراً ما ألح على مصطفى باشا بوساطة جلال بك وقاوالى مصطفى بالخروج عن طاعتنا سرا وطالما ما مناه بالمال والرجال ومعدات القتال فلم يفلح وهو يظن أننا عن تصرفاته هذه غافلون وعن سوء أفعاله لاهون على حالة أنه لم تخف عنا خافية قط وكثيراً ما دس إلى عبد الله باشا وإلى عكا المخلص في طاعتنا ووسوس إليه وسوسة الخناس الذي يوسوس في صدور الناس حتى فتنه أوكاد وأدركه لطف الله سبحانه فعاد فوقع بينهما من العداوة والشحناء ما قامت بسببه الحرب بين الفريقين وجاء إبراهيم ولد محمد على باشا الخائن المذكور في عسكر جرار إلى يافا ففتحها وإلى طرابلس ودمشق الشام فدخلهما ثم تقدم نحو عكا فحاصرها وقتلها ولم يبال بما أرسلناه إليه من الرسائل المقعمة بالنصح والاسترضاء ولم يعد عن غيه وضلاله بل اندفع وراء هواه حتى استهواه ومع هذا كله فلم نعجل بمؤاخذته ولم نتسرع بمعاقبته وطاولناه حقناً للدماء ورحمة بعباد الله الذين عهدت العناية الربانية إلينا رعايتهم وعسى أن يجد لنفسه من نفسه رادعا عن ركوب هذا المركب الخشن والتماذى على عدم طاعة خليفة رسول رب العالمين والرجوع إلى جادة الحق بعد هذا الزيغ والضلال والمروق عن الدين ويتوب ويستغفر عما جنت يده وقد فسحنا إلى ذلك المارق الأجل عله يرتدع أما الآن وقد آن الأوان وحل القضاء الذى لا مفر له منه فلم يبق من باعث على التهاون والإغضاء ولكننا مع ذلك نعفو عمن يأتي إلى بابنا طائعا لا ئذا مقرا بالذنب ممن شاركوه فى خيانة العصيان مكرهين ولو كانوا من ولده وأهله وعشيرته وأصحاب الوظائف السامية والمناصب العالية وكبار الجند وأفراد العسكر وغيرهم وقد أصدرنا فرماننا هذا على الشأن بتوجيه ولاية مصر والشام وجريد والحيشة إليك مع ما يتبعها ورسماً لك بنزعها من أيدي أولئك المارقين وإنا لعللى يقين بحسن خبرتك ودرايتك بجميع الأمور ويبسالتك فى الغزو والجهاد وبمشيئة الله تعالى وببركة رسوله المصطفى ﷺ تسير بالعسكر المنصور إلى حلب ثم تنحدر إلى ديار مصر فتتزعج جميع البلاد من أيدي أولئك الخائنين وأذكر شفقتى ولا تنس عفوى عمن يتوب ويرجع إلى طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة خليفته من بعده واتق الله وأخلص النية يجعل الله لك من كل

شدة مخرجاً والسلام، فسار حسين باشا بعسكره وهم زهاء ستين ألفاً بين فارس وراجل وتباطأ في سيره حتى تمكن الأمير إبراهيم من ترتيب عسكره على ما يشاء وتأهب للقاء العسكر السلطاني وجاء الخبر بذلك إلى محمد علي باشا فجعل يببالغ في التأهب والاستعداد وأيقن بأن قد بلغ العظم السكين واستعصى الوثام فلم يبق إلا الكفاح والجلاد حتى يحكم الله بينه وبين خليفته وهو أحكم الحاكمين.

(مطلب)

(هزيمة عسكر السلطان عند حلب)

ووصلت طلائع عسكر السلطان إلى مقربة من حلب فخرج للقائهم الأمير إبراهيم في عسكره وقاتلهم وصبر على قتالهم حتى ظفر بهم وبدد شملهم ثم ساق بخيلة ورجله حتى دخل حلب واحتلها ففرق من بقى من العسكر السلطاني وجاء الخبر بذلك إلى حسين باشا فتقهقر بمن بقى معه وتحصن في مضيق بيلان أهم مضائق جبال الطورس وعلم الأمير إبراهيم بخبره وما هو عليه فخرج من حلب لقتاله فلما ألتقى الجمعان اقتتلا قتالاً عنيفاً وما زالا حتى تمت هزيمة العسكر السلطاني فغنم الأمير إبراهيم متاعهم ودوابهم وآلات حربهم وتبع من بقى منهم حتى نزلوا سفنهم التي كانت راسية في مينا الإسكندرونة ووصلت الأخبار إلى دار السلطنة بما حل بعسكر السلطان فحزن وأغتم وعم الخبر وشاع عند سائر الدول وكانت ولاية المجر تخشى من استفحال أمر الفتنة في إيالات الدولة العثمانية وأشتغال الدولة بالحروب والخطوب المتتابعة فتطمع دولة النمسا في إرجاع المجر إلى سلطتها وتلحقها بمملكته وكانت تلاحظ مع الحزم والتأني الحوادث الجارية في أوروبا فأرسلت يومئذ إلى محمد علي باشا تهده بتسيير جندها مع العسكر السلطاني لقتاله إن هو لم يرجع إلى الطاعة وينكف عن العصيان وجارتها في ذلك دولة الروس وأظهرت المودة والإشفاق إلى الخليفة فكتبت إلى قنصلها الجنرال بديار مصر بأن انسحب من الإسكندرية وأقطع كل علاقة مع محمد علي باشا فانسحب فلم يلتفت محمد علي باشا إلى شيء من ذلك البتة واشتدت رغبته في هدم أركان الدولة العثمانية وأخذ سائر ما بيد سلطانه من الإيالات وتدمير معالم الخلافة.

(مطلب)

(ما كتبه السلطان إلى الدول من عزمه)

(على محالفة الروس وتهديده إياهم بذلك)

وكتب إلى ولده إبراهيم بالإلحاح في القتال وأن يعجل بالفتح ما استطاع وأن

يتقدم بعد ذلك إلى الأمام ما قدر فتغلغل الأمير إبراهيم فى خوف الأناضول فكتب السلطان إلى الدول يخبرها بعزمه على التحالف مع قيصر الروس على الذب والدفاع إن لم تبادر إلى إيقاف محمد على عند حده وترجع عساكره عن التغلغل فى جوف أملاك السلطنة العثمانية فكتبت دولتا الفرنسيين والإنجليز إلى محمد على باشا بذلك وحذرتاه عاقبة تعاقد السلطان مع دولة الروس وألحنا عليه بإيقاف تيار هذه المحنة حتى تتقرر قاعدة الصلح على ما فيه مصلحة الطرفين، وأنفذ يومئذ قيصر الروس الأمير مورافف أحد كبار قومه إلى محمد على باشا ليكلمه فى ذلك وسيرت معه كذلك دولة الفرنسيين الكولونيل روهابيل وكتب قنصل جنرال الفرنسيين أيضاً إلى الأمير إبراهيم يقول: كتابى إليك حرسك الله ورسل السلام يخاطبون أباك فى وضع حد لهذه القلاقل والمحن المترتبة على تلك الحرب القائمة فقد آن للباب العالى أن يطلب حقن دماء خلق الله الذين عهدت رعايتهم إليه وسيصل خليل باشا أمير سفن الحرب السلطانية رسولاً إلى أليك ومعه شروط الصلح التى رضىها السلطان بينا على إشارة دولة الفرنسيين التى لم يبق فى وسعها السكوت عن هذه القلاقل التى عمت جميع المشرق أو كادت بسبب الحرب القائمة بين أليك وسلطانها ولنا جميعاً الأمل بأن ما جبل عليه والدك من سلامة النية وما هو موصوف به من الحزم والنظر فى عواقب الأمور يكونان سببا فى قبوله الصلح وترك الخصام فيشير إليك بإيقاف عسكريك عن التوغل فى قلب الشام والروم وإطفاء نار الوغى حتى يأتيك الأمر بما كان وما سيكون، واعلم هداك الله أنك مسئول أمام جميع الدول العظمى عما ينجم عن تغلغل عسكريك فى داخلية البلاد والله عليم بالعاقبة فاعدل عن الحرب وانكف حتى يأتيك الخبر والسلام.

وكان الأمير إبراهيم فى هذه الآونة ينتقل بجيوشه من مكان إلى مكان يريد القسطنطينية فأرسل السلطان إلى قيصر الروس يطلب منه أن يسير لصد الأمير إبراهيم سفينة حربية وخمسة آلاف من المقاتلين وعلمت دولة الفرنسيين بذلك فأرسلت إلى السلطان تهدهده بمساعدتها للعساكر المصرية إن هو عاقد الروس على شىء من ذلك، ووصل فى هذه الأثناء الجنرال مورافف رسول القيصر إلى الإسكندرية وكلم محمد على باشا فى أمر الصلح فحاول محمد على باشا وطاول وأظهر الشدة وخاطب الجنرال مورافف بغلظة وحدة فغضب الجنرال مورافف وعمد إلى التهديد فضرب إلى محمد على باشا أجلا فخشى محمد على باشا شر العاقبة وكتب إلى ولده الأمير إبراهيم يقول: إذا أتاك كتابى بأية أرض فقف حتى يأتيك رسولى ثم أعلم مورافف بما كتبه فطير مورافف الخبر بذلك إلى الآفاق ففرح

السلطان ولم تنكث دولة الروس بعد ذلك فيما وعدت به السلطان وتمكنت فى هذه الآونة من التعاقد معه على الذب والدفاع عن جميع أملاك السلطنة العثمانية واحتلال أى جهة شاءتها بخيلها ورجلها أو سفن حربيها فى أى وقت شاءت وسمت هذه المعاهدة بمعاهدة (خونكار اسكله سيبى) فلما علمت الدول بخبر هذه المعاهدة امتعضت ولاسيما دولتا الفرنسيس والإنجليز فسعتا جهدا لاستطاعة فى إبطالها فلم تفلحا وخابت مساعيهما وخافت دولة الفرنسيس من تمكن دولة الروس من احتلال شئ من أملاك السلطنة العثمانية بسبب هذه المعاهدة فجعلت تراقب القصر واشتدت عزيمة السلطان بهذه المعاهدة وقوى ظهره فجعل يتأهب ويستعد ويستعمل الحيلة فى إطالة الوقت بين أخذ ورد ليتمكن من لم. شعث جنوده وجمع ما تفرق فى تلك الأصقاع من أعلامه، واتفق أن قدمت إلى دار السلطنة فى هذه الأثناء زهرة هانم أرملة الأمير إسماعيل ثالث أولاد محمد على باشا ابنة عارف أفندى قاضى عسكر ولاية آسية وكان شيخ الإسلام يومئذ بدار السلطنة تريد زيارة أبيها. قال بعض كتاب الأخبار: ولم يكن ذهاب تلك السيدة إلى دار السلطنة لمجرد محض الزيارة كما كان يظن الكثير من الناس وإنما كانت رسول محمد على باشا فى التقرب من كبار السلطنة ومقدمى الدولة واستمالة أهل الحل والعقد من جماعة المايين بما لأبيها من النفوذ والكلمة المسموعة فسعت وأجهدت النفس وسعى أبوها ولبثت على هذه الحال أياما لم يخف فيها على عيون السلطان من أعمالها خافية فكان السلطان فى خلال ذلك يكثر من مناجاة الدول فى أمر إرجاع محمد على باشا إلى الطاعة ويستفزههم إلى الأخذ بناصر الحق وإزهاق الباطل فكان كلما عرضت الدول عليه رأيا حاول فيه وطاول ورد عليهم ردا جميلا وسألهم التوسع فى النصح قال الراوى: كل ذلك ليتمكن من الفرص المناسبة لأغراضه وقدمت بعيد قليل من الإسكندرية السفينة الحربية المسماة (النيل) لنقل الأميرة زهرة هانم فأرسلت تستأذن السلطان فى ذلك فأذن لها وأهداها هدية نفيسة وأحسن إلى رجال السفينة بشئ من المال للنفقة وسير معها أحمد فوزى باشا أحد رجال سفن الحرب فلما ألفت النيل مرناها وعلم محمد على باشا بمقدم فوزى باشا تغافل عنه ولم يظهر شيئا من الاهتمام به وأوعز إلى حبيب أفندى أن يتلقاه ويكرم مثواه فأنزله حبيب أفندى منزلا رجا ورتب له المأكول والمشرب على أحسن ما يكون ولبث على هذه الحال أياما لم ير فيها محمد على باشا ولا علم من أمره شيئا حتى جاءه مرسوم السلطان بالقيام إلى القاهرة والالتقاء بمحمد على باشا ومناجاته فى أمر الصلح وفى العدول عما يغضب خليفته وسلطانة وقد أبلغ السلطان رجال ديوانه الخاص خبر بعثة فوزى باشا وطلب أن يبدوا فيها

رأيهم ليعمل هو به فقام يرتو باشا وعارض في ذلك كثيراً. وقال: يا أمير المؤمنين والله ما مثل فوزى باشا في مصر إلا مثل الحمل الصغير الذي ذهب إلى وكر الذئب الهرم ليعوده وهو يرجو السلامة من العطب فلا يغرنك من ذلك الشيخ نعومة كلامه وبساطة أحلامه فهو يا أمير المؤمنين أكبر من كل كبيرة والرأى أن ترسل إليه صارم أفندى مهر دار الخارجية فهو ابن بجدةها وأخو نجدتها فأعجب السلطان رأيه وسير في الحال يطلب فوزى باشا وكان فوزى باشا إلى هذا الحين قد اجتمع بمحمد على باشا ووقع بينهما من المحبة والمودة ما أكبر معه العود إلى دار السلطنة ولكنه قام كارها ولم يستقر به في دار السلطنة المقام حتى أرسل إلى محمد على باشا يقول: إياك وخفض الجناح إلى من سيقدم إليك واحفظ عليك نفسك وكرامتك حتى أرجع إليك فاتفق وإياك على ما فيه المصلحة لبلادك إن شاء الله تعالى.

(مطلب)

(مقدم صارم أفندى على محمد على باشا ليخبره في الصلح)

ووصل صارم أفندى إلى القاهرة مع بعض الخدم والأتباع فأكرم محمد على باشا وفادته وبألف في الحفاوة به وأنزله منزلاً عظيماً فجعل صارم أفندى يغدو ويروح إلى مقر محمد على باشا ويكلمه في الرجوع إلى طاعة سلطانه ومحمد على باشا تارة يظهر اللين وأخرى يظهر الشدة وآونة يشكو مما يلاقيه من أفاعيل أهل الحل والعقد بدار السلطنة وأخرى يظهر الصبر والتجلد فسأله صارم أفندى يوماً قائلاً أما لئن لك أن تخلص النية وتتمثل بين يدي خليفتك وسلطانك فتتعاهد معه على ما ترضيانه فاعتذر محمد على باشا وقال نفعل إن شاء الله إذا آذنت الفرص. قال الراوى لهذا الخبر: ويعجبني من محمد على ما قاله يوماً لأحد كبار الأجانب وكان من أصدقائه هلاً علمت بخبر جنون القيصر نقولاً قيصر الروس وكانت الجرائد أذاعت هذا الخبر زوراً وبهتاناً فقال ذلك الصديق نعم سمعته وهو من الغرابة بمكان فقال وعندى أنه ليس في الأمر شيء من ذلك فإن جلالة السلطان متبوعى الأعظم أجن بكثير من نقولاً إذ هو يدعو محمد على ذلك الشيخ الذي حنكته التجارب وهذبتة المحن والنوائب إلى المثول بين يديه والتعاقد معه على ما فيه المصلحة. قال: ثم ضحك حتى كاد يستلقى على قفاه. وطال مكث صارم أفندى بالقاهرة وهو ومحمد على باشا كل يوم في أخذ وردّ وقد قال يوماً لمحمد على باشا سيعطيك سلطانك ولايتى مصر وجزيرة العرب لك ولذريتك من بعدك إن أنت رجعت عن قصدك وأخلصت له النية وأقلعت عن عدائه فلم يلتفت محمد على باشا إلى قوله فقال ويوليك أيضاً ولايتى عكا وطرابلس أو صيدا وطرابلس بشرط أن تعيد إلى

حكومة سلطانك سائر ما أخذته من الشام فلم يقبل وقال لابد من بقاء سائر ما فتحته عساكرى فى يدى وفى يد ذريتى من بعدى فإذا تم ذلك قمت بإرسال الإتاوة فى حينها إلى الخزينة السلطانية ووفيت طاعة سلطانى حقها فعاد صارم أفندى بعد أيام إلى دار السلطنة ولم يمض على وصوله إلا القليل حتى ورد مرسوم السلطان بالرضا عن محمد على باشا وقبول توليته الولاية العامة على ديار مصر وبلاد العرب وجعل هذه الولاية فى عقبه من بعده الأرشد فالأرشد مع ولاية صيدا وطرابلس بشرط قيامه بحمل الخراج إلى الخزينة السلطانية فى آجاله وخفض جناح الطاعة إلى متبوعه وولى أمره فى السر والعلانية: وفى بعض الروايات أنه لما عاد صارم أفندى إلى دار السلطنة وقد بلغ ما وقع بينه وبين محمد على باشا من الأخذ والرد رسم السلطان فى سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشر ذى الحجة سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية بتملك محمد على باشا ديار مصر وكريد وتولية ولده الأمير إبراهيم ولاية جدة وتسليمه رئاسة الحرم المكى مع ضم الشام إلى مصر وجعلها إرثا لذريته من بعده. قال الراوى: وجاء إلى مصر صارم أفندى أحد قرناء السلطان يحمل قاعدة هذا الوفاق ونزل على محمد على باشا بالإسكندرية فأكرم لقاءه وأحسن مثواه وأظهر له غاية المجاملة والتلطف. وقال له: إنما تعطى إلى بلاد الشام إلى طوروس كما تعطى لذريتى من بعدى. قال: فراجعته صارم أفندى وقال: هذا يكون غير ما أذن به أمير المؤمنين والمصلحة أن تنكفوا عن إراقة دماء المسلمين ولا تحاربوا الله ورسوله وكفى ما مضى فقال محمد على باشا: لا سبيل إلى غير ما أقول ولا مصلحة لى إلا فى الذى أنا طالبه فقال صارم أفندى: والمصلحة عندى أن تتمثل بين يدى سلطانك فيهبون الأمر وتنفرج هذه الأزمة فقال: نفعل إن شاء الله فعاد صارم أفندى إلى دار السلطنة ولم يتم له مع محمد على باشا شىء، قال: وقد كان صارم أفندى هذا يحمل معه عند ذهابه إلى مصر عقد الصلح الذى كان وقع الاتفاق عليه فى بلد كوتاهية التى هى مقر الأمير إبراهيم وعساكره يومئذ، قلت: ومع بحثى عن معاهدة كوتاهية هذه لعلى أعرف لها تفصيلا إذ هى من أهم المعلقات التاريخية لحروب محمد على باشا مع دار السلطنة فلم أجد لها أثرا ولم أقف لها على خبر فى مؤلفات أصحاب التأليف من الغربيين والشرقيين وعلى الخصوص مؤلف الشهير تيتسا الفرنسوى الذى تجرد لجمع سائر المعاهدات والعقود والرسائل التى دارت ما بين الدول كافة ودار السلطنة العثمانية غير أنى وجدت فى مؤلفه المشار إليه صفحة ٣٥٠ ما تعريه: ولقد طالما زعم مؤرخو الغرب أن الخلاف الذى وقع بين الباب العالى ومحمد على باشا صاحب مصر انتهى بعقد المعاهدة التى سميت باسم كوتاهية وهى

المدينة الكائنة بأسية الصغرى وعندى أن لا أثر البتة لهذه المعاهدة ولم تحصل مطلقاً غاية ما وقع أن السلطان أرسل إلى محمد على باشا بعض الفرمانات والخطوط الهاموية فعلم منها محمد على باشا مقاصد الباب وبيان ما يريد السلطان منحه إياه من البلاد والامتيازات الأخرى التى اقتضاها يومئذ الحال. قال : ثم بعد أن تبادل الفريقان الأخذ والردّ انحسرت الأسباب ووقعت الهدنة بين الفريقين حيناً من الدهر. انتهى.

(مطلب)

(عقد المجلس الشرعى بدار السلطنة، والحكم بعصيان محمد على باشا وولده إبراهيم ثم الحكم عليهما بالتجريد والقصاص بالموت)

وأرسل محمد على باشا من فوره إلى دار السلطنة بعد قيام صارم أفندى يقول : ليس فيما رسم به السلطان شىء مما وقع الاتفاق عليه مع مبعوث الباب وأنه يبقى الحالة الراهنة على ما هى عليه من عدم قبول شىء من ذلك البتة وسير إلى ولده الأمير إبراهيم بالتأهب والاستعداد إلى إصلاء نار الحرب ثانياً وعدم الوقوف عند حد، ووصلت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة فأعظم السلطان الأمر وأكبره ورسم بعقد مجلس شرعى لينظر فى أمر عصيان محمد على باشا وولده ويحكم بالجهاد فيهما فانعقد المجلس فى سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشرى الشهر المذكور سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف فحضر فيه ثلاثة من المفتين وأربعة عشر من قضاة العسكر واثنا عشر قاضياً وتسعة من أئمة السراى السلطانية والمدارس الشاهانية وشيخا جامع آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد فلما اجتمع عقد نظامهم رسم السلطان بتوجيه الأسئلة الآتية إليه :

ما الذى جاء به الشرع الشريف من الأمر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين؟

الجواب عن ذلك : قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره جهداً الاستطاعة.

ما الذى جاء به الشرع الشريف فى عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانه الذى أحسن إليه وأتم نعمته عليه فطغى وتجبّر ودس الدسائس وأقام الأحقاد وأيقظ الفتنة الراقدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب متن الجور والعسف وأراق الدماء هدرأ وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا العمل بسنة سيد المرسلين؟

الجواب عن ذلك: يجرد عن سائر رتبة ووظائفه ولا يعهد إليه بأمر من أمور المسلمين ثم يقتل وتلقى جثته لوحوش البرية أو إلى طيور الفلاة وهذا جزاؤه في الدنيا وفي الآخرة الحزى والنار الآكلة.

هل يكون الخليفة مسئولاً بدم ذلك المارق أمام الله والناس؟
الجواب عن ذلك: لا جناح عليه ولا تثريب فإنه قد قام بما فرضه الشرع الشريف وجاءت به أحكام الدين المنيف.

ثم اختلى القوم ساعة وأصدروا الحكم الآتى:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، حيث ثبت خروج محمد على وولده إبراهيم عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من حذا حذوهما فى شق عصا طاعة أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وبذلك قد قضى الشرع الشريف أولاً بتجريد محمد على وولده إبراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من لدن أمير المؤمنين ثم بقصاصهما قتلا مع سائر من شاركهما فى هذا العصيان والخروج عن طاعة السلطان . اهـ.

وجاء الخبر إلى محمد على باشا بما جرى فى دار السلطنة فلم يحفل به ولم يلتفت إليه وسير الكتب إلى ولده إبراهيم بالإكثار من الحصون والقلاع على خط جبال الطورس التى هى مفتاح الشامات من جهة آسيه وامتنع من حمل الخراج إلى الخزينة السلطانية وشدّد فى تعبئة الجيوش وإعداد المعدات وسير كثيراً من قطع السفن الكبار مشحونة بالمؤن والذخيرة إلى ولده فسعى سفراء السلطان لدى الدول الكبرى فى وساطتهم فى الأمر والعمل على إيقاف محمد على باشا عند حده وكانت دول أوروبا تعرف أنه إذا اشتدت نار الوغى بين محمد على باشا وسلطانه وتم لمحمد على باشا ما يتمناه من تغلغل عسكره فى داخلية آسية وضم أكثر بلدانها إلى مملكته التى يريد الاستقلال بها وجعل قاعدتها على ضفاف النيل عمدت دولة الروس إلى العمل بمقتضى معاهدة خنكارا سكله سى فتنشب أظفارها فى جوف المملكة العثمانية وتنال منها غنما فيستعصى على الدول إرجاع الشئ إلى أصله والله يعلم بما سيكون من وراء ذلك، فكتبت دولة الفرنسيين على يدى البارون روسين متولى أعمال خارجيتها إلى محمد على باشا تقول قد آن للسلطان أن يعدل عن تلك الحرب المشثومة بعد أن عرف قدرك وتحقق أن لا قبل لعسكره على لقاء عسكرك المنصور بحسن قيادة ولدك وقد عاد عما تعاقد عليه مع قيصر الروس وقد سير إليه بإيقاف إرسال تلك النجدة التى كان يطلبها لقتال ولدك وودّ لو لم يكن قد تسرع فى الأمر

ولكن القيصر لم يلتفت إلى شئ من ذلك ورسم فأتت إلى بوغاز القسطنطينية سفينة من أكبر سفن الحرب الروسية فألقت مرساها والله سبحانه يعلم بما سيكون من وراء حضورها إن أنت أبيت الصلح وصممت على القتال فاحذر التطويل وأقلع عن التسويف والتعليل ولا تفتح لخصوم الدولة باباً يلجونه للإضرار بها وأنت هداك الله شريك لسلطانك فى السراء والضراء وسيقدم عليك خليل باشا مبعوثاً من قبل السلطان ومعه شروط الصلح التى تقررت قاعدتها فلا تأبأها عليه ولا تشط فى الطلب فتدفع بدولة الروس إلى ابتلاع مملكة سلطانك واذكر أنك إن عاقدت سلطانك على الصلح حقنت دماء قومك وعملت ما فيه المصلحة لبلادك فعجل بتسيير رسلك إلى ولدك بالكف عن القتال واقبل من سلطانك ما تنازل لك عنه فقد عفا عنك وولاك حكم عكا وجميع أراضي بيت المقدس والشام و نابلس وإياك والطمع فإنه يجلب عليك وعلى بلادك وبالأ و نكالا واعلم أن دولة الفرنسيين التى هذبت رجالك وعلمت فنون الحرب لإبطالك هى التى أشارت بعقد رباط هذا الصلح ورضيت عن القاعدة الواصلة إليك وأرسلتنى إلى دار السلطنة لهذه الغاية فلا تأبى الكرامة ولا تطع هوى النفس وسيصل إلى مقرك السامى كتابى هذا على يد كبير تشريفات ديوانى فأكرم وفادته كما عودتنا الجميل والسلام.

وأرسلت كذلك دولتا النمسا والإنجليز إلى محمد على باشا على يدى قنصليهما تهديدانه بأشد ما يكون من التهديد إن هو لم يقف عند حد الطاعة لسلطانته وأرسلت إليه دولة الروس تقول أيضاً إن لم تعدل عن غيك وتنكف عن عدائك وترجع إلى طاعة سلطانك عملت بمقتضى ما بينى وبين سلطانك من العهد وفعلت ما تسوئك عقباه ومالم تطق عليه صبراً إذا لم تعجل دولتا الفرنسيين والإنجليز بحصر سائر السواحل المصرية والشامية بسفن حربهما وتضييقا عليها تضييقاً ثم وإياك والشطط فى دعواك بعد الذى تنازل لك عنه خليفتك فالله الله فى نفسك وأهلك وولدك والسلام.

(مطلب)

(ما كتبه محمد علي باشا إلى صاحب سياسة الفرنسيين)

فكتب محمد على باشا إلى صاحب سياسة الفرنسيين يقول: أما بعد فقد وافاننى كتابك الشريف على يدى كبير تشريفات مقرك المنيق وقد ذكرت فيه أنه بمقتضى قاعدة الاتفاق التى قررتموها لم يبق لى حق فى شئ من البلاد الشامية سوى

حكم ولاية عكا وطرابلس الشام وبيت المقدس ونابلس وبعض مدن أخرى أخجل ويعلم الله من ذكرها وأنه يلزمني بعد ذلك استرجاع جميع جنودي من بلاد الأناضول والمبادرة إلى عقد رباط الصلح مع سلطاني فإذا آيت ذلك قامت دولة الفرنسيين بخيلها ورجلها لتذيقني وجميع أهل بلادى النكال، أعاذنا الله معاشر المصريين من ذلك ولقد بلغنى رسolk هده الله أنى إن لم أبادر إلى قبول تلك الشروط الجائرة وأحلها محل السمع والطاعة سيرت إلى دولتا الفرنسيين والإنجليز سفن الحرب والشوانى الكبار مشحونة بالرجال لتكرهنى على الطاعة والتسليم، فقل لى بحقك كيف جاز لكم إكراهى وأى شرع من شرائع الأمم المتمدنة أحل لكم هذه الفعال أو ترضى أمة الفرنسيين أم التمدن ومهد الحرية والتفنن أن أترك بلاداً فتحتها بالسيف والجهاد والكنفاح والجلاد قضية مسلمة اعلم أن قومى وسائر أهل بلادى هم طوع أمرى واقفون عند حد إشارتى فلا شئ عندى أقرب من أن أقود بنفسى جيوشى تلك المظفرة وأسير بها لفتح جميع بلاد الأناضول والروم إلى وأبذل النفس والنفس فى ضم كل ما استطعت ضمه إلى مملكتى ما دام فى قطرة من دم وثق بأنى قد وطنت النفس على ذلك فلا حول لى عنه ولا مندوحة منه وإنى لأعجب كيف تشدد على التكبر وتكرهنى على ترك بلاد قد حكمتها بالفتح والغزو وتكبدت فى فتحها جيوشى أصعب المصاعب وأتعب المتاعب وأريقَت فيها الدماء الكثيرة وضاعت الخزائن الوفيرة وعلم أهل المعمور شرقاً وغرباً شهامة رجالى وبسالة أبطالى ونبالة مقصدى واستبشر الناس طراً بأنى سأوفق إن شاء الله تعالى إلى فتح جميع بلاد الدولة العثمانية وأنال منها قبل أن تنال دولة الروس وهل يجمل بك أن تشير بتركى مصر والاستعاضة عنها وأنت تعلم أنها لا تفارقنى أبداً ولا أفارقها إلا بمفارقة الروح للجسد فافقه يا هداك الله واعدل ولا تكن من المجحفين واذكر أن المروءة لا ترضى بذل من وطن النفس على القيام بخدمة الشرق عموماً ودولة آل عثمان خصوصاً والسلام.

(مطلب)

ما كتبه محمد علي باشا يهدد به الدول

قال بعض الكتاب: ثم لم ير محمد على باشا بعد كل هذا التهديد والوعيد بدءاً من العدول عن طلب الاستقلال التام بحكم ما بيده من ديار مصر والشام إلى طلب الولاية بالتوريث فى عقبه من بعده وأن يكون حكمه فى ذلك كحكم ولاية بغداد

وعلى باشا والى يانبا وسير الكتب إلى سفراء الدول وكلم سفير الفرنسيس فى ذلك طويلاً فلما لم ير منهم أذنًا صاغية عمد إلى التهديد، وكتب إليهم ثانية يقول كتابى إليكم يا أنصار الإنسانية وعهدى بكم الوفاء وحسن الإخلاص والولاء وإنى والله لا أدري ما علة هذا الجفاء مهلاً مهلاً ما بالكم تجافيتم بعد ذلك العطف والتلطف فإن كنتم ترون فى طلبى الاستقلال بملك ما فى يدي شططاً وغنماً لا تحمد عقباه فقد عدلت عنه إلى طلب الولاية وجعلها ميراثاً بعدى إلى ولدى ولا أخالكم تنكرون على ذلك أيضاً بعد الذى تحققتموه من أمرى فإن شئتم فعلتم ذلك وإلا فدون استسلامى إلى سلطانى على يدكم خطر القتاد ولا لوم على ولا تريب إذا جاهرت بالذى أبتغيه وحافظت على ما يدي من البلاد بحد السيف فقد عشت طويلاً ورأيت كثيراً وخير لشيخ مثلى أن يموت عزيزاً موقراً من أن يموت حقيراً مردولاً وكيف ذلك وأنا لم أطلب شيئاً يتعدى مصلحة أوروبا السياسية ولم أسأل ما هو من العنت والخيلاء فى شئ فملككم تراوغونى مراوغة ما أنزل الله بها من سلطان أكونى على غير دين المسيحية لا أظن ذلك ويعلم الله فإن المروءة والشهامة تأبيان الإضرار بمن لا يسعى إلا إلى غاية شريفة ومستقبل شريف لذريته من بعده ولقد أكثرت من الشكوى ولم أخف عنكم ما وطنت النفس على عمله فلم يبق إلا أن أقول علانية إنى عاهدت النفس أخيراً على الخوض فى معامع الحرب والجلاد حتى الموت فإن فازت الدول بالانتصار وألحقت بى وبعسكرى البوار فهذا لا يزيدنا شرفاً ولا يكسبنا غنماً إذ أنها أكبر من ذلك كثيراً وإن أتاح الله سبحانه لى الظفر ووفقنى إلى سبل الغلبة والنصر أريت الدول عاقبة هذا الأمر وأنبأتها بما لم تطق عليه الصبر وكم من فئة صغيرة غلبت فئة كبيرة بإذن الله والسلام.

(مطلب)

احتفال السلطان بزفاف ابنته زليخا

سلطانه وهديه محمد علي باشا

واتفق فى غضون هذه الحوادث أن احتفل السلطان بزفاف ابنته زليخا سلطانه على خليل باشا أحد كبار رجال الدولة فعمل لذلك الأفراح والولائم وأتت إليه هدايا الملوك والولاة من كل صوب وحذب فأرسل إليه كذلك محمد على باشا شيئاً كثيراً من الأعلاق النفيسة والتعابى الثمينة والجواهر النادرة المثال فلم يكن احتفال السلطان بها إلا كاحتفال الدائن يأخذ ماله فى ذمة مدينه ولم يرد على

محمد على باشا ردًا جميلاً فامتعض محمد على باشا من ذلك وعاد إلى الشكوى من فعال الدول ووقوفهم في وجهه فكلم وكلاء الدول السلطان في وضع حد لهذا النزاع والخصام يكون من ورائه فصل الخطاب والكف عن إراقة تلك الدماء هدرا فأجابهم بأحسن جواب وأخذ على نفسه هذا العمل وهجر سرايه المعروفة بسرأي استافروى فراراً من الطاعون الذى دخلها بالعدوى من بعض الشيلان الكاشميرية التى جاءت هدية من قاضى القضاة بمصر ومنع رجال دولته من التداخل فى أمر حل هذه المشاكل ولم يشرك معه فى حلها سوى سعيد بيك كاتم أسرار الأول وواصف أفندى كاتم أسرار الثانى وجعلت رسله تتردد على مقر سفير الفرنسيس وطال الأخذ والرد فى تقرير قاعدة لتنازل السلطان عن ولاية مصر وتركها إلى محمد على باشا ثم إلى ذريته من بعده ميراثاً للأرشد فالأرشد وعن ولاية الشامات مقيدة ببعض القيود اللازمة لحفظ حقوق المتبوع على التابع وألح سفير دولة الفرنسيس فى ذلك وأكثر من التشديد فلم يفلح.

(مطلب)

ضرب الجزية على أهل حوران ولبنان

وكتب محمد على باشا إلى ولده الأمير إبراهيم يأمره بالتأهب والاستعداد لإصلاء نار الحرب فى الأقرب العاجل فجعل الأمير إبراهيم يتأهب وقد بالغ فى ذلك ففرض على أهل الشام الفرض الفادحة وضرب الجزية على أهل حوران ولبنان وقد أحس منهم بالشر والخروج عن الطاعة فألزمهم الصغار واشتد فى تذليلهم وعمت الجزية سائر أهل تلك الأصقاع وقد كان عمال السلطان قبلاً لا يفرضونها إلا على اليهود والنصارى دون المسلمين فعم القلق من أقرب البلاد إلى أقصاها وبدت إشارات العصيان وعلم الأمير إبراهيم بحضور جماعة من عيون السلطان وأنهم يجوبون البلاد ويحضون الناس على الخروج وإضرار نار الفتنة فبالغ فى الحيلة والتحرز وبلغ جيشه الذى جمعه فى هذا الحين زهاء ثمانية عشر ألفاً، وجعل السلطان يكثر أيضاً من حشد الجيوش ويعد المعدات ويرسل الجند تبعاً إلى حدود الشامات وقلب آسيه وسلم قيادتها إلى حافظ باشا أحد كبار الحرب وعمد إلى الإضرار بمحمد على باشا مالياً أيضاً فعاقده دولة الإنجليز على يد رشيد باشا واللورد بونسبى على منع احتكار المحاصيل المصرية فكبر هذا الأمر على محمد على باشا وكاد يسقط فى يده حاجته إلى المال لتفقة الجنود وجعل يفكر فى تجديد المخابرات مع

الباب العالى مباشرة مبتعداً ما استطاع عن وساطة الدول ساداً دون ذلك كل منفذ وباب.

(مطلب)

سفر محمد علي باشا إلى السودان في طلب معادن الذهب

قال بعض الكتاب: وكان يرى أنه فى حاجة إلى المال الذى هو أكبر معين على بلوغ هذه الآمال فعزم على الرحيل إلى بلاد السنار فى طلب معادن الذهب حتى إذا فاز منها ببلوغ الأرب أعطى ووهب وقهر وغلب وقلب إلى تلك الدول ظهر المجن بعد الذى عاناه بسببهم من المكاييد والمحن وقال آخرون: بل كان يقصد بهذه الرحلة الطويلة تغيير مجرى الحوادث وتفريج تلك الأزمة التى استحكمت حلقاتها بما كان يأتيه من التشديد والتهديد وقد كان يرى من دولتى الروس والإنجليز عدواً لدوداً وخصماً مشاعباً كنوداً وأن رجوعه القهقرى بعد ذلك التشامخ والتعاضم يكون نقطة سوداء فى صحيفة أيامه فعمد إلى تلك الرحلة وعقد النية على أنه إن عاد سالماً لا يظهر فى ميدان ذلك المعترك بمظهر البادئ بالشر إلا إذا اضطره الخصم إلى القبض بكلتى يديه على حر هذا الجمر، وكان معه فى هذه الحملة كثير من العمال وأرباب الصنائع والبنائين والمهندسين وأصحاب علم طبقات الأرض من الفرنسيين وغيرهم وجماعة من القبط والمترمين والخدم والأتباع وجاهد من مشاق الأسفار ما لا يقدر عليه إلا القليل فلما وصل إلى سنار جاءه مشايخ القبائل وأمراء السود وبعض سلاطين ذلك الصعيد خاضعين وقدموا له الهدايا النفيسة من الذهب وكثيراً من الإماء والعبيد والخصيان ومن الفيل والريش والعطريات فأكرم لقاءهم وبالع في الحفاوة بهم وحادثهم فيما هم عليه ووعدهم خيراً إن هو ظفر بأمنيته من تدويخ سائر ولايات السلطنة العثمانية وتم له الاستقلال بملك سائر ما بيده من البلاد ثم بث سائر من معه من أصحاب علم طبقات الأرض فى أنحاء السنار يجوبون الصحارى والقفار عليهم يهتدون إلى شئ من معادن الذهب فلم يوفقوا إلى ذلك البتة سوى ما عثروا عليه من بعض الرمال المخلوطة بالشئ اليسير من القشور الذهبية فأحزنه هذا الأمر وسار عن السنار وقد ترك بها جماعة من المهندسين والعمال والكتاب وأصحاب طبقات الأرض وهو على عزم أن يؤسس بها مستعمرة يسميها باسمه ووافق وصوله مدينة القاهرة يوم افتتاح سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية فعلم بخبر وصول بعض السفن العثمانية ومعها الهدايا والتعابى المعتاد إرسالها فى

كل عام إلى مكة والمدينة وكان الموكل بتوصيل تلك الهدايا نائب أمير سفن الحرب العثمانية فلم يحفل محمد على باشا بقدومه وأغضى عنه وكأنه لا يعلم من أمره شيئاً فأرسل إليه النائب يقول: أمير المؤمنين يقرئك السلام ويخصك بالتحية والإكرام ويقول: عجل بحمل الخراج ولا تحدث حدثاً بعد الذى علمته من إغضاء سلطانك وعفوه عما فات فلم يردّ عليه أياماً ثم أرسل إليه كتاباً يقول فيه لست فى استعداد للقائك الآن فأرحل عنا ثم عد بعد أربعة أشهر فلم يسع النائب المذكور إلا العود خائباً مقهوراً.

(مطلب)

انقسام رجال الدولة العثمانية وعدم اتفاقهم

على استمرار القتال مع محمد علي باشا

وانقسم رجال الدولة من هذا الحين إلى فريقين مختلفين أحدهما يقول بلزوم الحرب وإصلاء نار الوغى مع محمد على باشا حتى يرجع صاغراً وكبير هذا الحزب أحمد قبطان باشا وثانيهما يقول بلزوم التانى وترك العجلة والأخذ بأسباب المساهلة حتى تخمد نار هذه الفتنة وتعود الأمور إلى ما كانت عليه من المودة والصفاء بين المتبوع وتابعه ورأس هذا الحزب خسرو باشا قال بعض الكتاب: وقد كان خسرو هذا من الد أعداء محمد على باشا وأكبر خصومه وهو الذى كان والياً على ديار مصر أيام على بيك الكبير شيخ البلد ومراد بيك ووقع بينه وبين محمد على باشا من البغضاء ما قامت الحرب بسببه بين أصحابه وعسكر محمد على باشا أياماً كثيرة حتى خلعه محمد على باشا وأخرجه من مصر خاسراً مقهوراً وولى مكانه خورشيد باشا (كما هو مذكور فى محله من الجزء الثالث من كتابنا هذا) قال الراوى: ومع ذلك فقد كان من المحقق الذى لا مرأى فيه أن خسرو باشا مع قيامه بزعامه حزب السلم كان يرجو قهر أحد الفريقين المتحاربين وغلبته ويقول: إن دحر محمد على وقهرته العساكر السلطانية كان ذلك غاية ما أتمنى أن يحقق به جزاءً له على خلعى من ولاية مصر وإخراجى منها قهراً وإن ظفر محمد على بالعساكر السلطانية ومزق شمل جمعهم كان ذلك ما أرجوه كى يحقق برشيد محمد باشا وحسين باشا مقدمى العساكر السلطانية العار والشنار والخزى والبوار.

(مطلب)

خروج أهل الشام وانتشار الفتنة

وعلت في غضون هذه الحوادث ضوضاء أهل حوران ولبنان وكثر ضجيجهم ونادوا بالخللاص من نير عبودية الأمير إبراهيم وجور عسكره وقدمت رسلهم إلى دار السلطنة يصيحون المدد وقد كان لما أحس أهل الشام بضعف جيوش الأمير إبراهيم قاموا على عماله وخرجوا عن طاعتهم وانبثت عصاباتهم في القرى والبلدان يدعون الناس إلى شق عصا الطاعة فهبوا جميعاً إلى الثورة فأرسل الأمير إبراهيم إلى أبيه بالإسكندرية يستنجد به فسار محمد على باشا من فوره إلى يافا ومعه الهدايا النفيسة والتعابى الفاخرة فلما ألفت سفينته مرساها طلب وجهاء البلد وأعيان القوم وكبار القبائل فحضروا إليه فأحسن لقاءهم وخلع عليهم الخلع النفيسة وأعطاهم التعابى الغالية وبالح في استمالتهم فمالوا إليه وعاهدوه فأرسل إلى ولده يقول عجل بالخروج وقاتل ما استطعت وشرذ أصحاب الفتنة وشدد عليه في ذلك وبالح في توييخه وتعزيزه استرضاء لأصحاب العهد فخرج الأمير إبراهيم بعسكره وحارب أصحاب الفتنة وقاتلهم قتالاً عنيفاً حتى دوتهم وظفر بهم ثم ركب على نابلس وقاتل من بها فقاتلوه وصبروا على قتاله أياماً كثيرة ثم عادوا فطلبوا الأمان فأمّنهم وركب كذلك على الكرك والسلط وأمر عسكره فهدموها ودكوا حصونها وأخضع جبال الناصرة وأرجع أهلها إلى الطاعة وسير جماعة من عسكره إلى اللاذقية فينبأهم في طريقهم إذ خرج عليهم أهل الناصرة ثانية فنالوا منهم قتلاً وجرحاً وتشريداً فرجع من بقى إلى حيث الأمير إبراهيم فكبر عليه هذا الأمر وأخذ في التدبير على أهل الناصرة وعاهد الأمير بشير الشهابى على الذب والدفاع فجيش الأمير بشير عسكراً لقتال أهل الناصرة وقدم عليهم ولده الأمير خليل وجيش كذلك الأمير إبراهيم جيشاً آخر وسلم قيادته إلى الأمير خليل فسار بهم إلى الناصرة وقاتل من بها فوقعت بينهم عدة وقائع كانت الحرب فيها سجالاً وما زال الأمير يقاتل والمدد يأتيه تباعاً حتى ظفر بأهل الناصرة وأخضعهم وقبض على كبارهم وسلمهم إلى الأمير إبراهيم فمثل بهم وقتلهم وبالح في التحذر واستئصال أسباب الفتنة فرسم بجمع ما في أيدي الشاميين من سلاح وآلة حرب وشدد في ذلك وتوعد وطاف القرى والبلدان ومعه جماعة من العسكر يكبسون الدور ويحفرون الفسحات ويهدمون الجدران ويخرجون ما فيها من سلاح وآلات حرب فكانت شيئاً كثيراً فخافه الشاميون

وانكمشوا وانمحت آثار الفتنة وخضعت جميع الشامات فلم يتركهم بل عمد إلى إذلالهم وتنكيلهم ورسم بجمع كل ما قدروا على جمعه من الخيل ودواب الحمل وأدخل الشبان من أولادهم فى مصاف الجند وسيرهم إلى أقصى البلاد فكان عمله هذا من أشد الضربات على الشاميين وكان كلما بدت منهم دالة التمرد أو الخروج فعل بهم كذلك فيرجعون إلى الطاعة وقد تراكت الشكاوى من ذلك على الباب العالى فأبلغ السلطان وكلاء الدول خبرها وقال لابد من خروج إبراهيم وعسكره من الشامات وجلائهم عنها بغير معاودة وإلا فالسيف والنار ولا هذا الخزى والعار فراجعته دولة الفرنسيين وكذلك فعلت دولة الروس آخذة فى هذه الآونة برأى كبير سياستها المسيو رويوتانوف. قال أصحاب التاريخ: فقد كان هذا الرجل من فحول أصحاب السياسة ومقدمي رجال الرياسة كثير المعرفة بأحوال الدول فلما رأى من اللورد بونسبى سفير الإنجليز من المواربة والدهاء أدرك ما وراء ذلك فاستدرك الخطأ وعمد إلى تغيير خطة سياسة دولته من المكابرة والمعاذلة إلى المساهلة والمجاملة واتبعته فى ذلك أيضاً دولتا بروسيا والنمسا وأكثروا جميعاً من الأخذ والرد مع السلطان وهو يطاول ويحاول ويظهر خلاف ما يظن حتى خشى حزب السلم من تفاقم الخطب واشتداد الكرب وعمد إلى طلب خلع أحمد قبطان باشا مقدم حزب الحرب فلم يفلح لمكائنه وقربه من السلطان فعدل عن ذلك إلى طلب تحقيق حالة الشامات وما إذا كانت تستلزم البقاء على هذه الحرب المشؤمة التى لا يعلم عاقبتها إلا الله وحده وألح خسرو باشا بطلب ذلك وزين للسلطان العمل برأيه فأجابه كارهاً وسير سعيد باشا ناظر الحربية إلى الديار الشامية وكانت العساكر السلطانية إلى هذا الحين نازلة بملاطية وقد فعل فيها برد ذلك الشتاء فعله وقلت عندهم المؤن وفشت بينهم الأمراض وكثر الموات وساءت حالهم وبدت منهم إشارات الخروج وشق عصا الطاعة فكان حافظ باشا مقدمهم يخشى عاقبة ذلك ويلج على السلطان بطلب الإذن بفتح باب الحرب والزحف بعساكره لقتال الأمير إبراهيم فأجابه السلطان إلى ذلك وسير إليه ثلاثة من كبار قواد الجيوش البروسياويه وبينهم البارون ملتكه الشهير ليكونوا له عوناً على العمل فصار حافظ باشا بعسكره من ملاطية يريد الشامات وعبرت طائفة منهم الفرات ومقدمهم إسماعيل باشا وسارت على أكمل ترتيب ونظام حتى اقتربت من حلب وكان الأمير إبراهيم قد سار عن حلب إلى حوران ليرى المزارع وغرس الأشجار الكثيرة التى أشار بغرسها فى تلك الأصقاع فلما جاءه الخبر بوصول العساكر السلطانية أرسل إلى قواد عسكره يستحثهم على التأهب والاستعداد وجمع

إليه مشايخ قبائل وبلاد تلك الأنحاء واستحلفهم على الطاعة والولاء فحلفوا له
الأيمن الغلاظ وكان ممن حضر معه فى ذلك اليوم سليمان باشا الفرنسوى فقال له :
أيها الأمير خفف عنك فوالله إما أن ندخل دار السلطنة فى هذه المرة بعسكرنا المنصور
ولما أن نعود إلى ديارنا مدحورين خاسرين فسرّ الأمير إبراهيم عند سماعه هذا
الكلام وقال بوركى يا سليمان والله لن يكون إلا دخولنا بإذنه تعالى ظافرين
غاثمين ، وأحاطت العساكر السلطانية بالشامات ونزلت على بلادها من كل صوب
وحذب واجتمع لهم عند مدينة قونية كثير من الجند وتأهبوا للهجوم على البلد
والولوج منها إلى الفواز الموصلة إلى مدينة أطنة وجاءت كتب السلطان إلى عزت
محمد باشا وإلى أنجور بتجيش الجيوش وإعداد المعدات مددا عند ميسس الحاجة
وسار كل من وإلى بغداد وإلى الموصل فى عسكر عظيم مددا إلى حافظ باشا . قال
بعض الكتّاب : ولم يكن سير هذين الأميرين بعسكرهما إلا لإمداد الأمير إبراهيم
ومعاونته على قتال عسكر السلطان وكان الأمير إبراهيم فى خلال هذه الحركة وتعبية
تلك الجيوش الجراحة ساكن القلب هادئ القلب وهو مع ذلك يعلم أن جيوش
السلطان التى جاءت لقتاله فى هذه المرة زهاء المائة ألف وخمسين ألفاً فضلاً عما
وصل أيضاً من سفن الحرب الكبيرة والشوانى المشحونة بالمدافع والمقاتلين وجعل
يرتب جيوشه ويرسلها إلى مواقع القتال فسارت منها طائفة إلى مرعش وأخرى من
أصحاب المدافع إلى عتاب لرد أهلها إلى الطاعة فإنهم لما أحسوا بقرب العساكر
السلطانية منهم ثاروا على عمال الأمير إبراهيم وشاغبوه وسارت طائفة أخرى من
الفرسان وأصحاب المدافع إلى حماة ومعهم جماعة من عربان الهنادى ومقدمهم
قفطان بك وخرجت قبيلة العنزة عن طاعة السلطان أيضاً وانضمت إلى العسكر
المصرى فهال السلطان خروجهم وأزعجه واهتم محمد على باشا بجمع المال لنفقة
الجند واحتياجات العسكر فزاد فى فرض الفرض وضرب المكوس والمغارم على سائر
أهالى البلاد بلا فرق بين الغنى والفقير والصغير والكبير من التجار وأرباب الحرف
والصنائع والكتاب والمتزيمين وبالغ فى جمعها وبث الجبابة والمأمورين يجوبون البلاد
شرقاً وغرباً فى طلب ذلك فاشتدوا على الناس شدة بالغة وأخذ أيضاً سائر ما كان
مودعاً من المال بصندوق التوفير من مال أرباب الرتب العالية وأصحاب الوظائف
السامية وقدره ثلاثون ألف ألف قرش وخرج إلى بعض المدن مثل طنطا والمحلة
وشبين الكوم والمنصورة وفارسكور وغيرها ليحض الجبابة والمأمورين على جمع المال

وكتب إلى الأمير إبراهيم يقول: لا تعجل بفتح أبواب الحرب وكن مدافعاً لا مهاجماً حتى تعرف دول أوروبا أن سلطانك هو البادى بالشر والبادى أظلم.

(مطلب)

اتخاذ حلب مقراً لحركة العساكر المصرية واستحلاف أهلها على السمع والطاعة

وكان إلى هذا الحين قد انقطعت المواصلات بين الشام ومصر وبلاد الترك وانقطع ورود القوافل بالتجارة واستوحش كل قرين من قرينه واشتد الخوف بأهل تلك الأطراف من عبث الجيوش العثمانية وإهلاكهم للحرث والنسل، وقدم طاهر باشا رسولاً من قبل السلطان إلى حافظ باشا مقدم العسكر السلطاني يحمل المرسوم بفتح أبواب الحرب وإصلاء نار الوغى وكانت عيون الأمير إبراهيم تنقل إليه الأخبار فأعلموه بخبر ما هي عليه العساكر السلطانية من القوة ووفرة العدد والعدد وحصانة الموقع فاتخذ حلب مقراً لحركة جنوده واستحلف عظماءها ثانية على السمع والطاعة فحلفوا فجبا أهلها الجزية سلفاً فدفعوها فكانت ثلاثة آلاف كيس ومائة كيس واستقرضهم قرضاً قدره ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألف قرش فأقرضوه إياه فكان ما خص النصارى والمسلمين من هذا القرض ثلاثمائة ألف وما خص اليهود خمسة وسبعين ألفاً وسير لحراسة بعلبك ومنع القادم من العساكر العثمانية إلى حوران ولبنان طائفة من الأرنؤوط ورفع عن أهلها الجزية وسائر المغارم كي يخلدوا إلى السكون وأباحهم الزرع بلا مال ولا خراج وأجاز لهم انتخاب شيوخهم ومديري أمورهم وأعاد إليهم ما كان قد جمعه منهم من الأسلحة وآلات الحرب وأقام عليهم شبلى عريان أحد كبارهم ومقدمي حزبهم عيناً ليراقب أحوالهم ويحرس دروبهم وبالعجاء جداً في الحيلة والتحرز من أهل تلك الأطراف لشدة بأسهم وصبرهم على الحرب والقتال.

(مطلب)

عود قناصل الدول إلى مكاتبة محمد علي باشا في الصلح وما كان من وراء ذلك

ووردت كتب الدول إلى وكلائهم بالإسكندرية بأن يعاودوا محمد علي باشا في كف ولده عن الزحف والقتال. قال بعض الكتاب: وكان كتاب كبير سياسة الروس

فى ذلك إلى قنصلهم شديد اللهجة غليظ الكلام وكان محمد على باشا هذه الأثناء
يجوب البلاد وقد وصل إلى مدينة دمياط فسار إليه قنصل الروس وأبلغه الرسالة
وأخبره بخبر كتب الدول إلى وكلائها فغضب محمد على باشا وعاد من فوره إلى
الإسكندرية فاجتمع إليه سائر القناصل وجعلوا يكلمونه فى الإقلاع عن كل هذا
العداء والكف عن الحرب واستدعاء ولده ومن معه من العسكر وتقرير قاعدة أخرى
للصلح قال: فامتعض محمد على باشا وقال ما بالكم تسعون فى الإضرار بى
وبأهلى وولدى وما بالكم تضربون على يدى وتطلقون يد السلطان يقتل من شاء
ويخرب ما شاء ويحرق ما شاء أو لم تخافوا الله وتحكموا بالقسط بينى وبينه والله لن
أرجع عن الحرب والقتال ولن ترجع عساكرى عن الغزو والفتح حتى يحكم الله بينى
وبينه وهو أحكم الحاكمين. فجعل القناصل عند ذلك يخفون عليه حتى سكن
بعض ما به ورسم إلى كاتب سره أن يكتب إلى الدول شيئاً مما هم بصده فكتب
يقول: قد خاطبنى قناصل الدول العظمى بما جاءهم من الكتب فى أمر تقرير قاعدة
للصلح بينى وبين سلطانى فلم أر بداً من العود إلى إعلامكم بما قد وطنت النفس
على عمله آخذاً بمشورتكم فإن عادت العساكر السلطانية الذين عبروا الفرات
وأصبحوا على مقربة من المعسكر المصرى إلى حيث أتوا وتم ذلك فى الأقرب
العاجل سيرت إلى ولدى بإيقاف عسكره ورجوعه إلى دمشق مع حاشيته وأركان
حربه وإن خرجت سائر العساكر السلطانية وانجلت عن الديار الشامية استوقفت سائر
جيوشى واستقدمت ولدى إلى مصر فإذا تكفلت لنا الدول بالمحافظة على السلام
وتوكيد عرى الولاء مع السلطان بتوريث أولادى من بعدى ملك ما بيدى من البلاد
فإنى لا أحجم عن استقدام بعض جيوشى إلى مصر ولا آنف من العود إلى المخابرة
مع سلطانى فى تقرير قاعدة للصلح راسخة الأركان لا يبقى من ورائها باقية
والسلام، قال بعض الكتاب: كل هذا والسلطان يظهر إلى سفراء الدول خلاف ما
يظن فكان من جهة يقول: إنه ما برح يطاول محمد على باشا وولده ويدفعهما عن
بلادهم بالتي هى أحسن ومن أخرى يحض مقدم عسكره على الزحف والانتقال من
بلد إلى آخر بعلل وأسباب مختلفة وقد أنشب الموت أظافره فى العساكر السلطانية
فأهلك منهم خلقاً كثيراً ولحق كذلك بدوابهم فكاد يبيدها ونزل فريق من العساكر فى
مضيق من الجبال وعر المسلك ولبثوا فيه لا يتحركون أياماً. قال الراوى: فلو كان
الأمير إبراهيم نازلهم فى ذلك المضيق بنفر من عسكره ساعة لأتى على آخرهم ولكنه

لم يفعل حقًا للدماء ولكي لا يقال أنه البادى بالشر وشاع خبر ذلك فى دار السلطنة فكبر خوف حزب السلام وقام سفراء الدول يسألون طاهر باشا فى ذلك فلم يروا منه جنوحًا إلى المسالمة ولا ميلًا إلى المكاملة وكثر اللغظ بلزوم الحرب والقتال وقطع شأفة العساكر المصرية من كافة بلاد الدولة وظهر من اللورد بونسبى سفير الإنجليز ميل إلى معاداة محمد على باشا وأوعز إلى قنصل الإنجليز بدار السلطنة أن يكلم السلطان فى تقليد الجنرال سكرانودسكى البروسياوى قيادة الجيوش العثمانية فى هذه الحملة فلما شاع خبر ذلك غضب سائر كبار حرب الجيش البروسياوى وقاموا قومة رجل واحد وقالوا النار ولا هذا العار الذى يلحق بنا إذا ظل الرجل فى خدمة جيوشنا وكان هذا الجنرال قد تجنّس بالجنسية الإنجليزية وقام كذلك كبير سياسة بروسيا يمانع ويشدد فى المنع فخاف السلطان شر العاقبة ولم يوافق على طلب اللورد بونسبى وانبثت العساكر السلطانية فى أنحاء الشامات فعانت وأفسدت واجتمع إليها أهل البطالة والفساد وأتت إليها الأحزاب من كل صوب وحذب ووصلت طائفة من الفرسان إلى ناحية (مزار) على قيد فرسخين من نصيبين وأرسل مقدم هذه الطائفة إلى عامل السلطان على (أرول) فى طلب الرجوع إلى طاعة سلطانه وترك الأمير إبراهيم وشأنه فأجابه إلى ذلك وعلم الأمير إبراهيم بخبره فرسم إلى محمد معجون بك بالمسير بمن معه من العساكر والعربان إلى تل باشر فسار إليه ثالث عشر ربيع الأول من السنة وكثر احتلال الجنود العثمانية للكثير من القرى والبلدان الداخلة فى ولاية عنتاب والتقى والى (أرول) بمقدم العساكر السلطانية فأكرم وفادته فبالغ الوالى فى السمع والطاعة إليه وأشار عليه بجمع مشايخ ذلك الصعيد ففعل فكلمهم فى الخروج عن طاعة الأمير إبراهيم فأجابوه إلى ذلك فأعطاهم الأسلحة وآلات الحرب وأكثر لهم من الذخيرة ففرقوها على أهل البلاد ودفعوا بهم إلى قتال العسكر المصرى ومع كل هذا فقد كان كبير سياسة السلطان يقول لسفراء الدول إن أمير المؤمنين جانح إلى السلم كاره للحرب وإنه على ما هو عليه من التأنى وترك التسرع حتى تقضى الدول بينه وبين متبوعه .

وكبر كيد الأمير إبراهيم فلم يبق فى إمكانه السكوت لا سيما وقد انبثت العساكر السلطانية حوله وجاءوا إلى مواقع عسكره من كل صوب فأرسل إلى سليمان باشا الفرنسوى يستحثه على الحضور بسائر من عنده من العساكر ثم سار هو من حلب فى جماعة من الفرسان وأصحاب المدافع ولحق به سليمان باشا بمن معه

وبينما الأمير إبراهيم فى طريقه إذ جاءه الخبر بهزيمة العربان الذين كانوا رباطاً عند نهر الساجور قاتلهم الفرسان العثمانيون فلم تأت ساعة أو بعض ساعة حتى انهزموا شر هزيمة وأسر منهم جماعة كثيرة وتمزق شمل من بقى منهم فأزعجه هذا الخبر وسار سيراً حثيثاً يريد لقاء العساكر السلطانية فلم يتمكن من ذلك وكان رجال المايين السلطاني فى خلال هذه المشاغبات يكثرون من الضجيج والعجيج إلى الدول من شر فعال محمد على باشا وولده إبراهيم وامتناعه من حمل الخراج إلى الخزينة السلطانية ويقولون إنه ما برح يظهر إلى سلطانه كل بغض وعداء بتجيشه الجيوش وإعدادة المعدّات بعد أن صَفَح عنه وعفا عما فات ثم أرسل صدر الدولة إلى وكلاء الدول كتاباً يقول فيه: قد آن لكم أن تروا ما يراه أمير المؤمنين من لزوم حل عقدة هذه المشاكل والإحن التى قوّضت أركان السلام أو كادت فقد فرغ الصبر واستفحل شر هذا الأمر وأخذت الخيلاء من ذلك التابع المارق مأخذها فداس بقدميه هامة الخلافة ورزعزأ أركانها وبلغت به القحة مبلغها والفسادة منتهاها فلم يبق فى وسع الباب العالى الإغضاء بعد هذا كله، وقد تنازل أمير المؤمنين بأن يبعث إلى الإسكندرية سفراء يعرضون على محمد على الرجوع إلى طاعة خليفته وسلطانه فإن أذعن عفا الله عما سلف وإن امتنع وكابر فالسيف والنار ولا هذا الخزي والعار، ولأمير المؤمنين عضد ونصير من جانب دولة الإنجليز التى وعدت بالمعونة والمدد وأمسى وعدّها إن شاء الله أمراً مقضياً، وبعد فأمر المؤمنين يسأل الدول المتحابّة أن تسعى جاهدها فى إقناع ذلك التابع بالإذعان والكف عن المشاغبة وعدم الطموح إلى ما لا تحمد عقباه وأمير المؤمنين على يقين من حسن نوايا الدول المتحابّة وميلهن إلى توطيد أركان السلم وسد أبواب تلك الحرب التى لم يبق فى وسع أحد النظر إلى تيارها الجارف نظرة المتفرج فلذلك يرجوهم تدارك الخطر قبل استفحاله والسلام.

ووردت على محمد على باشا فى هذه الأثناء الأخبار من ولده الأمير إبراهيم بما هم عليه من الجهد والتعب بسبب هجمات طلائع الجيوش السلطانية على مقدمة العساكر المصرية والتزامه خطة الدفاع والوقوف عند حد التحرز لكل لا تتهمه الدول بسوء القصد بعد الذى هم فيه من الأخذ والرد فلم يصل إليه الجواب حتى جاءه الخبر بوصول رجل اسمه -موسستيك بك فى طائفة كبيرة من عساكر الكراداغ المرتزقة يريد قتاله وما زال موسستيك هذا يتقدم بخيله ورجله حتى صار على قيد فرسخ من مواقف المصريين فكبر أمره على الأمير إبراهيم وركب فى طائفة من المصريين لقتاله

وشاع الخبر بذلك بين أهل ذلك الصعيد فهب أهل لبنان إلى شق عصا الطاعة وتآلبوا جميعاً على قتال المصريين وإجلائهم عن البلاد ووصلت طلائع لموم موسستيك إلى عنتاب وبها طائفة من العساكر المصرية فخرج أهل البلد للقائهم وفرحوا بمقدمهم وانقلبوا يريدون مشاغبة من عندهم من المصريين فأسرع الأمير إبراهيم في إجلاء عسكره عن عنتاب فانسحبوا في رابع عشر ربيع الأول من تلك السنة بجميع متاعهم وكراعهم وانضموا إلى المقاتلين ولم يتم انجلاؤهم عن عنتاب حتى دخلها وإلى مرعش وقد خرج عن طاعة الأمير إبراهيم ياغراء مقدم العساكر السلطانية وجعل يتصرف في البلد وفيما هو فيها من مال وكراع، فلما كان سابع عشر ربيع المذكور عبر حافظ باشا مقدم الجيوش السلطانية الساجور ومعه خمسة آلاف من المقاتلة وثلاثة آلاف فارس من المرتزقة وسار يريد الالتقاء بالعساكر المصرية فلما ترى الفريقان جعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعاً فلم تلتفت إليها العساكر المصرية .

(مطلب)

ما كتبه الأمير إبراهيم إلى حافظ باشا مقدم العساكر العثمانية وما كان بعد ذلك

وكتب في الحال الأمير إبراهيم إلى مقدم عسكر السلطان يقول: إذا كنتم تعلمون ما هو جار بين أمير المؤمنين والدول من الأخذ والرد في شأن الكف عن القتال حتى تتقرر قاعدة الصلح بيننا وبينكم فكيف سيرتم سليمان باشا العثماني في طائفة كبيرة من الفرسان المرتزقة لمهاجمة عسكرنا النازلين (بولايك) وكيف استبجتم إرسال موسستيك بك في جيش جرار من الأكراد ليعاونوا أهالي (باياس) على شق عصا طاعتنا وبعثتم الحاج عمر أوغلي إلى الكراداغ لإيقاظ الفتنة النائمة وهاجمتم عرباننا الهنادى المرباطين على الحدود ومددتم أهل عنتاب بالأسلحة ومعدات الحرب ليقاتلونا ورسمتم إلى سليمان باشا العثماني بدخول عنتاب والقتال عنها ما استطاع ولم تقفوا عند هذا الحد من التعدي وخرق حرمة العهد حتى زحفت علينا بخيلكم ورجلكم وأطلقت علينا اليوم بنادقكم ومدافعكم رجاء أن تخرجونا من دائرة التآني والصبر والعمل برغائب أمير المؤمنين والدول المتحابة إلى التهور والاندفاع إلى إصلاء نار الحرب المغضبة لخليفتنا وسطاننا وللدول أجمع وكأنك هداك الله ظننت أن سكوتنا عن قتالكم ضرب من العجز أو شيء من الجبن حاشا ثم حاشا فإن كان قد أتاكم أمر الخليفة بقتالنا فليس من النصفة أن تستعملوا الخدعة والمكر بنا والتدليس

بأصحابك فأعلن الحرب جهاراً وناد بالجهاد علانية وسترى منا إن شاء الله أسوداً بواسل لا يهابون القتال ولا يحسبون حساباً للقاء الأبطال فقد عيل منهم الصبر وهذا كتابي واصل إليك على يد محمود بك أحد مقدمي أصحاب المدافع فأفدنا الجواب والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

فلما علم حافظ باشا ما فى جواب الأمير إبراهيم كتب إليه يقول: ألفت كتابك مفعماً بعبارات الطاعة وإشارات الخضوع إلى سلطانك خليفة رسول رب العالمين وظل الله الوارف فى أرضه فقبل كل قول يجب علينا أن نرفع أكف الضراعة والابتهاال إلى المولى العزيز المتعال بأن يديم لنا فرع هذه الشجرة المقدسة زاهياً زاهراً موفقاً مدى الدهور والأعوام ويعد فإنك تعلم هداك الله أن طاعة أمير المؤمنين واجبة مفروضة على من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر وأن هذه الطاعة لم تكن باللفظ المجرد عن العمل وإلا كانت مروقاً وعصيانا فإن كنت قد وطنت النفس على الطاعة وعقدت النية على التقرب من عرش الخلافة فكيف أرسلت لقتالنا محمد معجون بك فى جماعة من العربان وكيف أذنت طلائع عسكرك بأن يناوشوا طلائعنا الحرب ويجبروهم إلى القتال فكل هذه الأمور قد جعلتنا فى ريب من إخلاصك ودفعت بنا إلى مناوشتك القتال فإن أنت رجعت وتبت ونذمت على ما فعلت فعليك الأمان من أمير المؤمنين والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، ولم يصل كتاب حافظ باشا إلى الأمير إبراهيم حتى جاءه الخبر أيضاً بقيام سفن حرب السلطان مشحونة بالمقاتلة والفرسان والذخيرة والميرة الكثيرة وهى مؤلفة من عدة شوانى كبار وقطع عظيمة وبأن الحرب لا مندوحة عنها ولا فرار قط منها فسير الأمير إبراهيم الخبر بذلك إلى أبيه وطلب المدد واستسرع النجدة فكتب إليه أبوه فى ثامن عشر ربيع الأول من السنة أى سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف يقول: جاءنى كتابك وعندى الخبر اليقين بما يلاقى عسكرنا من الحيف وما هو مشاهد فى كل يوم من عبث العساكر العثمانية بالبلاد وتسليح حافظ باشا لأهل الشقاوة الخوارج ويشهم فى المدن والقرى لإهلاك الحرث والنسل ولقد طال منا التغاضى أخذاً بمشورة الدول أصحاب الوساطة لعل حافظ باشا يرعوى ويقف عند حده حتى تقرر القاعدة بيننا على ما فيه المصلحة فلم يفعل فإذا أذاك كتابى هذا فسر على بركة الله بعسكرك المنصور وقاتل هذا العدو المارق وادحره دحرأ وأوقع به وبعسكره ما استطعت وسر من فورك إلى (كوليك) بوغاز ومن هناك إلى ملاشيا وقرىوت وعرفنة وديار بكر والله سبحانه وليك وهو حواليك لا عليك والسلام ورحمة الله وبركاته.

(مطلب)

قدوم المسيو كاليه مندوب دولة الفرنسييس إلى مصر ومكالمة محمد علي باشا في تقرير قاعدة للمصلح

وجعل محمد علي باشا يجيش الجيوش ويكثر من آلات الحرب لنجدة ولده وأقام المرابطين على الحدود وبث العيون وظهرت الحركة بالقاهرة وبولاق القاهرة ومصر وتحت قلعة الجبل بمرور دواب الحمل وسحب المدافع والأثقال وطير قناصل الدول الخبر بذلك إلى الآفاق فاهتمت له دولة الفرنسييس وسيرت على الأثر رسولين أحدهما إلى محمد علي باشا واسمه المسيو كاليه وثانيهما إلى دار السلطنة واسمه المسيو فوتز وزودت كلا منهما من الأسرار بما اقتضاه الحال، واتفق أن قدم محمد علي باشا إلى مدينة الإسكندرية ليأشر بنفسه إرسال المدد إلى ولده الأمير إبراهيم فقدم عليه المسيو كاليه في نفر من الكتاب والحشم والأتباع فآكرم محمد علي باشا مقدمه وبألف في الحفاوة به فكلم محمد علي باشا في أمر الكف عن القتال والثاني في الحركة حتى يتم تقرير قاعدة المصلح بينه وبين السلطنة على ما فيه المصلحة فامتنع محمد علي باشا من ذلك وقال لابد من متابعة القتال وعدم الكف عن الحرب حتى يقضى الله بيننا فألح المسيو كاليه في الطلب وبألف في استرضاء محمد علي باشا وطاوله أياماً ثم عاوده فأجابه ورسم إلى خسرو أفندى بقبول وساطة دولة الفرنسييس وساطة فعلية في جعل حد لهذه الحرب وتقرير قاعدة راسخة للمصلح وأن يكتب إلى الأمير إبراهيم بأن يبقى حيث هو مقيم حتى يأتيه كتاب وركب المسيو كاليه وخسرو أفندى سفينة مصرية يريدان الشام والالتقاء بالأمير إبراهيم وكان قد قام بعسكره لقتال حافظ باشا عملاً بالكتاب الوارد إليه من محمد علي باشا وقصد ناحية مزار الواقعة جنوب شرقي نصيبين ونزل على قيد فراسخ من محلة العساكر السلطانية، قال بعض كتاب الأخبار: فاضطرب عند ذلك مقدم العساكر السلطانية ورسم لمقدمي عسكره بمناوشة طلائع المصريين فجعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعاً على المصريين مع ما هم عليه من مشقة السفر فأطلق كذلك المصريون مدافعهم وتراسلت قنابلهم قال فخاف عند ذلك جماعة الترك وولى منهم فيلق الحرس الفرار فنادى عند ذلك النفير على المصريين بالزحف على مزار فالتصقوا بأسوارها قبل غروب الشمس ونزلوا على شاطئ الساجور بخيلهم وكراعهم فكبر أمرهم على حافظ باشا وقد شاهد من نظامهم وكثرة عددهم وعددهم ما أذهله

وأخافه فرسم إلى كبار عسكره بأن لا يبدءوا بالقتال وأن يتحينوا الفرص فلما رأى الأمير إبراهيم إحجامهم سار بعسكره وعبر الساجور ونزل على الضفة الثانية وجعل كل من الفريقين يتأهب للقتال وكانت العساكر السلطانية قد بلغت إلى هذا الحين زهاء ثلاثين ألفاً من المشاة وخمسة آلاف من الركبان وثلاثة آلاف من أصحاب المدافع عدا أرباب الخدم وكانت العساكر المصرية تربو على الأربعين ألفاً عدا أصحاب الخدم، قال بعض كتاب الأخبار: وكانت هاته الجيوش التركية على كثرتها ينقصها شئ من الصفات العسكرية كاللدبة على الحروب وحسن النظام والطاعة ونحو ذلك من الصفات المهيئة لأسباب الظفر والغلبة على العدو وكانت الوظائف العسكرية عندهم تعطى لغير مستحقيها من الأغرار الصنائع الذين لا خلاق لهم فكان حافظ باشا لذلك فى قلق دائم وكمد ملازم يتوقع الهزيمة فى كل لحظة تمر فى النهار.

(مطلب)

هزيمة المصريين ليلاً ثم انتصارهم على العدو

وما غربت شمس ذلك اليوم حتى نادى منادى الأمير إبراهيم فاصطفت جنوده فخطب فيهم وقال: قد علمتم أيها الجنود البواسل قدر ما أحرزتموه من الشرف والفخار لغاية الآن فلم يبق عليكم إلا أن تكللوا هذه الأعمال بإكليل حسن الختام واعلموا أنكم لن تنالوا ذلك إلا ببذل المهج فيكم إعزاز الوطن وبموثكم حياته وخير لنا أن نموت لحياة الوطن من أن نحيا لذلك وشقائه فإله سبحانه حوالينا لا علينا وهو حسبنا ونعم النصير، فصاح عند ذلك جماعة الضباط الله الله ولا حول ولا قوة إلا بالله وباتوا ليلتهم تلك وكان حافظ باشا قد رأى أن الظفر كل الظفر فى كبس المصريين ليلاً وأخذهم على غرة فرسم إلى إسماعيل باشا أحد كبار العسكر بالإسراء نصف الليل بجماعة من أصحاب المدافع وأن يتزلوا على ميسرة المصريين حتى إذا صاروا على مقربة منهم أطلقوا عليهم المدافع وأصلوهم ناراً حامية قال الراوى: فلم يشعر المصريون إلا ونيران الترك قد أخذتهم من كل جانب وتراسلت قتالهم على خيمتى الأمير إبراهيم وسليمان باشا الفرنسوى فهبوا من نومهم مذعورين وكادوا يتمزقون كل ممزق فنادوا فيهم بالنفير فنشطوا إلى الدفاع وقاتلوا حتى مطلع الفجر وظفروا بالعساكر السلطانية وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم جماعة ولما أصبحوا جعل الأمير إبراهيم يتفرس فى مواقف العساكر السلطانية فإذا هم على مرتفع من

الأرض تحيط به أخاديد كأنها خنادق طبيعية وكانت مواقف العساكر المصرية فى ذلك اليوم حرجة للغاية معرضة لنيران مدافع العدو فكير عليه هذا الأمر وأعظمه لا سيما وقد رأى من حركة العساكر السلطانية ومن معهم من الضباط الأجانب ما أدهشه وأخافه فرسم إلى سليمان باشا الفرنسوى بترتيب الصفوف وإحكام مواقع الوقوف ونادى فى العسكر بالتأهب للقتال والاستعداد للطعن والتزال فأنس من بعضهم شيئاً من العصيان فجعل يسوقهم إلى ساحة القتال فانتشبت الحرب بين الفريقين وارتفعت أصوات المدافع والتحمت الصفوف بالصفوف والتفت السيوف بالسيوف وزلزلت الأرض من هول ذلك اليوم العصيب وثبت الترك الثبات العجيب ونكلوا بالمصريين تنكيلاً حتى دحروهم وقهروهم فهربت منهم طائفة فى عرض الأرض وكادت تتم هزيمتهم وما زالوا بين أخذ ورد وطعن وصد حتى تمكنوا من الظفر على مقربة من نصيبين ففرقت الجنود التركية أشتاتاً وفرّ حافظ باشا إلى مدينة مرعش فاستولى المصريون على ما فى معسكر الترك من متاع وكراع وكثير من الخيام وذواب الحمل وأسروا زهاء خمسة عشر ألفاً من الأتراك ووجد الأمير إبراهيم فى خيمة حافظ باشا سائر الكتب التى كانت تأتية من السلطان بالإسراع فى الزحف والقتال وقطع شأفة المصريين .

(مطلب)

استمالة محمد علي باشا إلى أمير سفن حرب الدولة وأخذ سائر السفن غنيمة بلا حرب ولا قتال

وكان السلطان قد رسم أيضاً إلى أمير سفن حرب الدولة بالإقلاع إلى مدينة الإسكندرية ودكّ حصونها ومعاقلها بقنابل المدافع وعدم البراح من مياهها حتى يقبض على محمد على باشا ويأتى به إلى دار السلطنة مكبلاً بالأغلال والقيود فسارت السفن وألقت مرساها عند كريد أياماً كثيرة ترددت فى خلالها الرسل بين أميرها ومحمد على باشا قيل فخدعه محمد على باشا واستماله وعاقده على تسليم سائر ما معه من سفن الحرب والشوانى بغير حرب ولا قتال فجاءت تلك السفن وألقت مرساها بمينا الإسكندرية أمام رأس التين ثم أنزلوا من بها من العساكر والأجناد إلى المدينة وقد سلموا جميع سلاحهم وآلات حربهم ولم يلبثوا إلا أياماً قلائل حتى فرقوهم فى البلاد شرقاً وغرباً وأنزلوا أمير تلك السفن فى بيت محرم

بك ثم نقوله بعد أيام إلى دار مخصوصة وجرت عليه الأرزاق فى كل شهر وشاع الخبر بذلك بين سائر الدول فكان له دهشة عظيمة، قال بعض الكتاب: وكانت حجة أمير تلك السفن فى التسليم على هذه الصورة تأخير جماكى العسكر وقطع بعض المرتبات، ووصل المسيو كاليه مبعوث دولة الفرنسيس الذى تقدم الكلام عليه ومعه مرسوم محمد على باشا إلى حلب فلاقاه واليها وأعلمه بخبر تلك الموقعة وما جرى فيها على الترك فسار مجدداً يريد لقاء الأمير إبراهيم قبل أن يتحرك حركة أخرى وقد كان الأمير إبراهيم بعد أن تم له النصر وحقق الله له الغلبة والظفر رسم إلى معجون بك بأن يسير بمن معه من العربان إلى غزنة ويقاقل من بها ويفتحها والى عثمان بك وأحمد بك المنكلى وسليمان بك بالاستيلاء على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من بلاد آسية الصغرى وسار هو فى طائفة أخرى من العساكر والأجناد فى سادس عشر ربيع الثانى يريد عتاب لإخضاعها وإرجاعها إلى الطاعة ونزل عليها بخيله ورجله فخرج إليه كبارها وأصحاب الكلمة فيها يرجون عفوه وصفحه عما فات فعفا عنهم ولكنه ضرب عليهم الجزية مضاعفة فكانت نارها أشد عليهم من نار الحرب ولما كانت ليلة حادى عشر الشهر المذكور وصل المسيو كاليه إلى معسكر الأمير إبراهيم فأحسن الأمير لقاءه وبالغ فى إكرامه فبات ليلته وعند الصباح سلم إلى الأمير إبراهيم كتاب أبيه ثم تقدم إليه فى الكف عن القتال وترك الأمر حتى يتم تقرير قاعدة الصلح فامتنع الأمير إبراهيم من ذلك وقال لابد من القتال حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً فألح عليه المسيو كاليه وجعل يهون عليه الأمر وهو لا يزداد إلا عناداً ونفوراً واختلف الكتاب فى الذى دفع بالأمير إبراهيم إلى عدم الإذعان والرضا بمطالب المسيو كاليه فمن قائل إن ذلك كان بإيعاز من أبيه على يد سامى بك كاتب سره ومن قائل غير ذلك وصمم الأمير إبراهيم على الزحف والقتال ونادى فى عسكره بحضرة المسيو كاليه بالمسير وعبور جبال الطورس واصلاء نار الحرب ما استطاعوا إليها سبيلاً فمانعه المسيو كاليه وما زال حتى رسم إلى كبار جنده بأن لا يتجاوزوا سلسلة تلك الجبال ولكنه مع ذلك لم ينكف عن تدويخ وإرجاع سائر من خرج عن طاعته ولم يتعرض لفتح شئ من البلاد الثابتة على طاعة السلطان وسير إلى أبيه كتاباً يقول: جاءنى أمركم الكريم على يد المسيو كاليه أحد كبار ديوان السياسة الإفرنسية والذى أحيطكم به علماً أنه لما استولى حافظ باشا مقدم العساكر السلطانية على مدينة عتاب قد صممت بعد الاتكال على الله سبحانه وتعالى على

إرجاعها وسرت بجيوشنا المظفرة إلى مواقع العدو فوافانى أمركم الكريم بالكف عن القتال وترك الحرب والنزال إلى حين ولما كان الصعيد الذى قد نزلناه ليس فيه من المؤن والزاد ما يكفى بحاجة العسكر ولا من الكلا ما يفى بمؤنة دواب الحمل وخيول الفرسان وكان بقاؤنا فيه أشد خطراً علينا من لقاء العدو وكان أقرب بلد من ذلك الصعيد هو حلب الشهباء فقد سرنا إليه فشهدنا من تأهب العدو واستعداده لصدنا وإصلاثنا ناراً حامية ما اضطرنا إلى تركه والمسير نحو عنتاب ومرعش وهذا ما دفع بنا إلى التقدم إلى الأمام والسلام ورحمة الله وبركاته، وأما المسيو فوتز رسول دولة الفرنسيس إلى دار السلطنة فإنه لم يفلح فى رسالته ولم يتمكن من إقناع السلطان بالعدول عن الحرب وفتح أبواب الصلح وأقام أياماً لم يئل فيها مأرباً فاستعان باللورد بونسبى سفير الإنجليز بدار السلطنة فلم يعنه واتهم السلطان دولة الفرنسيس بالتحزب مع محمد على باشا والعمل على إرغام السلطان وفعل كل ما يحط بقدر الدولة ويذهب بكرامتها.

(مطلب)

وقوع رشيد باشا صدر الدولة أسيراً في يد الأمير إبراهيم وتمزيق شمل عسكره وما كان من وراء ذلك

واشتد الضيق بالأمير إبراهيم وعسكره وأحدثت بهم العساكر السلطانية من كل صوب وحذب فخاف شر العاقبة سيما وقد كاد يظهر عجزه عن الحركة واستضعفه أهل الأطراف فجعلوا يتخطفون مؤخرة جنده فساق بعسكره يريد التغلغل فى قلب الأناضول واخترق جبال الطورس واحتل إقليم أطنة وما وراءه إلى مدينة قونية ووردت الأخبار بذلك إلى السلطان فكاد يسقط فى يده وكبر كيده ورسم بتسيير رشيد باشا صدر الدولة فى عسكر لرد الأمير إبراهيم فصار رشيد باشا فى عسكره يريد اللحاق بقونية والدفاع عنها وجاء الخبر بذلك إلى الأمير إبراهيم فجمع جيشاً عظيماً من الشام والروم وعجل بالمسير يريد القسطنطينية لملاقاة رشيد باشا فالتقى الجمعان عند قونية واشتبك القتال بينهما وتراسلت القنابل واشتدت النيران وعلت أصوات المدافع وتكاثف الدخان فلم تكن إلا فترة بين الزوال والغروب حتى تمت هزيمة العساكر السلطانية وتمزقت كل ممزق ووقع رشيد باشا أسيراً فى يدى الأمير إبراهيم وكذلك أسر جماعة كثيره من مقدمى العساكر التركية فكانت هذه الواقعة من

أتعس الوقائع وأشدّها هولاً على السلطان، واختلف الكتاب وأصحاب التاريخ يومئذ في كيفية سقوط رشيد باشا في قبضة الأمير إبراهيم فمن قائل أن ذلك كان باتفاق بينهما ومن قائل بل كان لحسن تدبير حركة الجنود المصرية في ذلك اليوم وحصانة موقفهم ومن قائل غير ذلك وطار الخبر بما جرى على رشيد باشا وعسكره فكان له أشدّ الوقع في النفوس وسار الأمير إبراهيم بخيله ورجله يريد القسطنطينية فأرسل السلطان إلى قيصر الروس يطلب منه إرسال سفينة حربية وخمسة آلاف من المقاتلين لرد إبراهيم وإيقافه عند حده وشاع الخبر بذلك بين رجال السلطنة فقبّحوا هذا الرأي وقالوا لا تحل الاستعانة على قتال المسلمين بالعساكر النصرانية وورد الخبر إلى محمد علي باشا فجعل يبالغ في الشكوى ويعظم في البلوى ويكتب الدول في هذا الأمر وظهر على أثر ذلك حركة في دار السلطنة وتكلم الناس كثيراً فخاف السلطان شر العاقبة وعاد إلى مخابرة محمد علي باشا في عقد الصلح وسير في الحال خليل باشا قبطان باشا قبلاً إلى مصر وفوض إليه الاتفاق على ما فيه المصلحة وكتب إلى سفير الروس يعلمه بأن الحالة الآن لا تستلزم طلب المساعدة وأخذ يعمل الجهد على إرجاع الجنرال مورافيف الروسي عن عزم الذهاب إلى ديار مصر والالتقاء بمحمد علي باشا فلم يفلح ودخل مورافيف إلى الإسكندرية كإشارة لقيصر الروس فعمد السلطان حينئذ إلى ملاطفة دولة الفرنسيين واستمالها إلى التحرير أولاً إلى محمد علي باشا بوجوب المحافظة على مبادئ الصلح وأسباب السلم التي قد تعهد بالمحافظة عليها وثانياً إلى الأمير إبراهيم بعدم مبارحة موقفه والكف عن التغلغل بجيوشه في جوف البلاد وقد كان الأمير إبراهيم إلى ذلك الحين لم يكتف عن الناس خطة تسير جنوده ولم يخف عن المأ أنه سائر نحو قوطاهيه وبروسا ومنها إلى أسقودار ليجمع هناك مجلساً من كبار علماء الإسلام ليحكموا بينه وبين سلطانه فكان ذلك موجباً لقلق السلطان وعدوله عن الاستعانة بدولة الفرنسيين ورجوعه إلى طلب معاونة دولة الروس فسير في الحال كتبه إلى القيصر بأن يمدّه عند الطلب بعشرين ألفاً من الجنود البرية وخمسة آلاف من العساكر البحرية وعمارة ساوتابول البحرية فعلم سفير الفرنسيين بذلك فكتب إلى الأمير إبراهيم في الحال يقول إياك ومبارحة قوية واحذر شر العاقبة فقد بلغ القنوط من سلطانك فيبلغه وجاء الخبر بما فعله السلطان إلى محمد علي باشا فكتب إلى ولده يقول: إذا أتاك كتابي وأنت بأية أرض فلا تبرحها ولا تحرك لك قدماً حتى يأتيك آخر، وكان الأمير إبراهيم قد بلغ بجيوشه مدينة

قوطاهيه وأرسل محمد على باشا إلى السلطان وإلى دولة الفرنسيين يخبرهما بخبر ما كتبه إلى ولده الأمير إبراهيم ويقول الباب العالي إن الحامل لولدى على الانحدار إلى قوطاهيه إنما هي حاجته إلى حطب الوقود وغيره من احتياجات العسكر التي لم توجد في قونية وما زال الحال بين أخذ ورد وخوف ورجاء حتى عاد سفير الروس الذي كان ذهب للالتقاء بمحمد على باشا إلى دار السلطنة يحمل بشائر الطمأنينة والسلام حيث أبلغ الباب العالي أن محمد على باشا صرح بخضوعه وطاعته لسلطانه وأنه عبد لمولاه وقد عقد النية عقدًا وثيقًا على فض أسباب الخلاف والاتفاق مع خليل باشا على أمر الصلح بتاتًا، قال بعض الكتاب: ولم يستعمل الجنرال مورافيف في كلامه مع محمد على باشا شيئًا من الشدة التي أقسم أنه يستعملها معه ولم يسمعه شيئًا من هذر الكلام كما كانت تقتضيه رسالته ولكنه كان إذا اجتمع به لاطفه وهون عليه أمر الصلح وحبيه إليه ويقول له إن مولاي القيصر يعلم ما أنت عليه من شرف المبدأ ونبالة المقصد ومكارم الأخلاق فلا تكن سببًا في زلزلة موقف سلطانتك ولا تعمل على فساد ملكه ولا تحدث في الإسلام حديثًا قل أن تحمد عاقبته واتق الله في نفسك وولديك وعسرك، ووصلت كتب محمد على باشا إلى ولده بالكف عن القتال والوقوف عند حد السكون حتى يتم الأمر على ما تشاؤه الأقدار، وما شاعت الأنباء بذلك حتى ورد على قنصل جنرال النمسا كتاب من بابا روميه يسأله الوساطة بين محمد على باشا وسلطانه وكفه عن إراقة الدماء هدرًا وكأنه لم يعلم بخبر ما وقع الاتفاق عليه بين محمد علي باشا والجنرال مورافيف مندوب الروس فأرسل القنصل إلى محمد على باشا خطابًا في المعنى محشورًا بالتهديد والوعيد فلم يلتفت محمد على باشا إليه ولم يفلح القنصل في شيء البتة.

(مطلب)

قدوم مندوب الباب العالي إلى مصر بفرمان العفو عن محمد علي باشا وولده

ووصل خليل باشا مندوب الباب العالي إلى مصر يحمل فرمان السلطاني بالعفو عن محمد علي باشا وشروط الصلح على قاعدة الامتيازات التي أعطيت إلى محمد علي باشا وهي ولاية عكا وطرابلس والشام ونابلس وأراضى بيت المقدس فلاقاه محمد علي باشا وسائر رجال حكومته بالحفاوة والتعظيم وأنزله منزلاً رحباً

وقدّم له التقادم من التحف والأعلاق النفيسة ورتب له المرتبات من المأكول والمشروب ثم رسم بقراءة فرمان فلم يعجبه ما جاء فيه من الامتيازات حيث لم تكن شاملة لسائر الشامتات ولا لولاية أطنة فكلم خليل باشا في ذلك وطال بينهما الأخذ والرد أياماً حتى تم الاتفاق على نوال محمد على باشا سائر ما طلبه وسير خليل باشا الكتب بما وقع الاتفاق عليه إلى دار السلطنة، قال بعض الكتاب ومع ذلك فقد كان السلطان في ريب من العقابة فلم يصرف وجهه عن طلب معاونة دولة الروس ولم ينكف عن مكالمه وكيلها في ذلك من حين إلى حين، قال: وكان الحامل له على ذلك كثرة إرجاف الأمير إبراهيم وإرساله البعث إلى بلاد آسيا لدس الدسائس وبث الفتن وتحريض الناس على شق عصا طاعة السلطان ولم يمض إلا القليل من الأيام حتى عاد الصدر الأعظم وكتب إلى الدول الكبرى يقول إن أمير المؤمنين جاهر بأنه لم يبق في إمكانه العدول عن طلب المدد من قيصر الروس والاستنجاد بعسكره على إخراج الأمير إبراهيم وعسكره من جميع أملاك الدولة في الأقرب العاجل واتفق أن وصل في عشية ذلك اليوم إلى دار السلطنة مندوب دولة الفرنسيين وقد علم بما سير به الصدر الأعظم من الكتب إلى الدول فاجتمع به وخاطبه في الأمر طويلاً وحجب إليه أن يكتب إلى دولة الروس بعدم الحاجة إلى إرسال سفن الحرب بعد أن أسفرت مأمورية خليل باشا عن طاعة محمد على باشا ورجوعه إلى مجاملة سلطانه فوعده الصدر الأعظم وعداً جميلاً وقال لابد من اجتماع مجلس شورى الدولة وطرح هذا الأمر عليه.

(مطلب)

حصول العمارة الروسية إلى البوسفور مدداً إلى السلطان

وبينما كان مندوب الفرنسيين يراقب ما سيكون من وراء اجتماع المجلس إذ وصلت العمارة الروسية تمخر في عباب البحار وألقت مرسها أمام البوسفور فكانت عشر قطع كبار من الطراز الأول وكانت بعض سفن الحرب الإفرنسية راسية هناك كطلب سفير الفرنسيين فلما رأى ربانها تلك السفن والشواني الروسية هاله أمر حضورها وسير في الحال إلى صدر الدولة يقول نظراً للانقلاب السريع الذي طرأ في هذه الآونة وتغيير الأحوال عن سابق مجراها صار يعز على البقاء بما معى من السفن إن لم تقلع السفن الروسية وترجع من حيث أتت وأكثرت رسله من التردد على

الباب العالى فى طلب الجواب فكتب إليه السلطان يقول: كتابى إليك أعزك الله وعوامل الاضطراب والقلق المستحوذين على مملكتى تشخص أمام عينى ذلك الود القديم الذى يربط بلادى بمملكة الفرنسيين وتدفع بى إلى طلب المعونة والمدد من تلك الدولة القوية العظيمة دولة الفرنسيين الفخيمة فإن أنت هداك الله تعهدت باسم وشرف مملكة الفرنسيين بأن يكون عقد رباط الصلح بينى وبين متبوعى محمد على على قاعدة الشروط التى بلغها إليه خليل باشا عجلت بإرجاع العساكر الروسية ورد سفنها الحرية والسلام، فأجابه ريان السفن الإفرنسية إلى ذلك فلم يسع السلطان يومئذ إلا معاودة ريان سفن الحرب الروسية وأمير جيوشها البرية بالرجوع فما أقلعت تلك السفن حتى سير أمير سفن حرب الفرنسيين رسولين على عجل أحدهما إلى محمد على باشا ليقهره على إرسال كتبه إلى كبار عسكره بسرعة الكف عن الحرب وثنائهما إلى الأمير إبراهيم ليلزمه بسرعة العودة إلى مصر والكف عن كل عدا مع ولاية وعمال السلطان وكتب كبير سياسة الفرنسيين أيضاً إلى قنصلهم بمصر يقول أن شدّد على محمد باشا بالإذعان وقبول شروط الصلح التى وصلت إليه على يدى خليل باشا فإن أطاع وأذعن فيها وإلا فلا مندوحة عن إكراهه.

قال كبير السياسة المذكور فى كتاب بعث به إلى وكلاء دولته لدى سائر الدول بعد كلام طويل: ومن تصفح أحوال هذه الأزمة، يعنى بها الأزمة القائمة ما بين محمد على باشا وسلطانته، مع عدم التحيز حكم بتزاهة دولة الفرنسيين عن الغرض وطهارة ذمتها من أدران التشيع وتحقق نبالة مقصدها فى سائر أحوال هذه الأزمة التى اختلط فيها الحابل بالنابل وكادت تذهب بالشرق الأدنى إلى مهواة الدمار قال ولما كانت دولة الفرنسيين قد أخذت على عهدها إصلاح ذات البين والتوفيق بين مصلحة الطرفين لم يبق فى وسعها العدول ولا ترك الأمور هدفاً للحوادث ولا غرضاً للغاية الطامحة ولو تطوَّح بها الأمر إلى رد القوة بالقوة والسيف بالسيف فإنها لا تلوى عنان الجهد ولا تتقهقر أمام هاتيك العواقب التى قد حسبت لها ألف حساب اهـ.

(مطلب)

تعاقد الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب

المابين مع سفير الفرنسيين على كيفية

إرجاع محمد علي باشا إلى طاعة سلطانه

ورسم السلطان بعد ذلك إلى الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب ما بينه بالتعاقد مع سفير دولة الفرنسيين على إرجاع محمد علي باشا إلى طاعة سلطانه فتعاقدا ثاني شوال من السنة على شروط حاصل ما فيها قبول الباب العالي تداخل دولة الفرنسيين بواسطة سفيرها البارون روفارن في أمر الصلح بشرط أنها تضمن للباب العالي قبول محمد علي باشا بالامتيازات التي منحه إياها السلطان بالفرمان المرسل على يدى خليل باشا مشير الطبخانه العامة وبشرط رجوع محمد علي باشا إلى الطاعة والإخلاص لمتبوعه وأن هذه الامتيازات لا تتعدى ولايته على عكا وطرابلس والشام وبيت المقدس ونابلس وأن يتكفل السفير المذكور باسم امبراطور الفرنسيين بعقد رباط الصلح على هذه القاعدة ويتعهد الباب العالي بأن يقرر ويعلم عدوله عن قبول أو طلب كل مدد أجنبي أو مساعدة مادية يراد بها الإضرار بمحمد علي باشا، وشاع الخبر بما وقع الاتفاق عليه ما بين الحاج محمد عاكف باشا وسفير الفرنسيين وعزم دولة الفرنسيين على قهر محمد علي باشا وإرغامه على طاعة سلطانه وتكلم الناس فى الأمر كثيراً وكتب سفير الإنجليز إلى الأمير إبراهيم يقول، كتابى إليك وعندى العلم اليقين بما رضىه سلطانك من تقرر قاعدة الصلح مع خليل باشا مشير الطوبخانه السلطانية فامتلاً قلبى فرحاً وتحقق آمالى بأنك ستكف عن تلك الحرب المشؤمة التى كادت تدك معالم المدينة وأنتك ترفع سيفك إن شاء الله عن هامة تلك الأرجاء التى قد تولاها الخراب ونزل بها البلاء من كل حدب واعلم أن سلطانك قد منح أباك ولاية الشامات وحلب ودمشق وقد سير إليه فرمان الرضا وفرمان الولاية على يدى رشيد بك قابوجى السلطنة وأمره بالكف عن القتال وأن يكتب إليك بذلك فى الأقرب العاجل وقد ورد الأمر من لدن إمبراطور الفرنسيين إلى سفيره لدى الباب العالي بالمسير مع رشيد بك إلى الإسكندرية ليشرح لأبيك وخامة العاقبة إن هو أغضب دولة الفرنسيين برفض الصلح على قاعدة ما فى فرمان أما دولة الإنجليز فقد أضحت أميالها وأغراضها واضحة معلومة لأبيك ولا أشك فى أنه لا

يجهل التأثير الذى يحصل للحكومة الإنجليزية إن هو امتنع من الصلح كما أنه عالم بالعواقب التى تكون من وراء هذا الرفض وإننى لا أخالك أيها الأمير عن أبى الكرامة فلا تمتنع من الصلح الآن واجعل خاتمة أعمالك السلامة والسلام.

(مطلب)

صدر فرمان السلطان بالعفو عن محمد علي باشا وولده وتوجيه ما قد وجهه إليهما من الرتب وألقاب الشرف

وطير السلطان الخبر إلى الآفاق بالعفو عن محمد علي باشا وولده الأمير إبراهيم وتوجيه ما قد وجهه إليهما من الرتب وألقاب الشرف وأصدر فرماناً يقول فيه: حيث إن محمد علي باشا وولده قد عادا إلى طاعة سلطانتهما وأبديا من الإخلاص مالم يبق معه موضع للريب فى حسن المآل إن شاء الله تعالى وقد طلبا العفو عما فات فقد اقتضت إرادتنا السلطانية ومراحمتنا الشاهانية العفو عنهما وأصدرنا فرماننا هذا السامى بتأييد ولاية أحدهما محمد علي باشا على كريد والديار المصرية كالتماسه وأحسننا إليه أيضاً بالولاية على دمشق وطرابلس وصيدا وصفت وحلب وبيت المقدس ونابلس مع إمارة الحج ونيابة أشقودره وولينا ولده رئاسة الحرمين الشريفين مع صنجقية جده وقارئاً التماسه بالإحسان عليه أيضاً بولاية أطنة وملحقاتها وعهدنا إليه جباية خراجها الآن وبناء على ما طبعنا عليه من الرفق والحنان وما خصنا الله سبحانه وتعالى به من الميل إلى إسداء المعروف والإحسان نعلن أصحاب الكلمة وأولى الشأن من العمال والمأمورين ببلاد الاناضول أن يغضوا الطرف عما وقع من سكان تلك العمالات من الخروج وشق عصا الطاعة وأن لا يتعرضوا لأحد لا فى روحه ولا فى ماله ولا فى عياله وأن يعلموا الناس كافة بما اقتضته إرادتنا الشاهانية وسمحت به تعطفاتنا الخافانية من العفو عن الجميع والصفح عما وقع من الرفيع والوضيع وأن يكونوا من الآن ساكنى الخواطر قريرى النواظر وعلى سائر الولاة والحكام حض الرعية على الالتفات إلى ما فيه خيرهم وإصلاحهم واستمرار الدعاء بتأييد عرشنا بالنصر الدائم والظفر الملامم ولكى يكون فى علم سائر الولاة والحكام وجميع صنوف الرعية من مسيحين وإسلام ما شملهم من العفو العام والرضا التام قد أصدرنا هذه الإرادة متوجة بطغرائنا ناطقة بما نحن عليه من حسن النية وسلامة الطوية كى ييسط الكل أكف الضراعة والإبتهال إلى المولى ذى الجلال والإكرام بدوام دولتنا وتأييد سدتنا وإعزاز شوكتنا بمنه وكرمه اهـ.

فلما شاع خبر هذا فرمان وذاع رفع الأمير إبراهيم إلى الباب العالى عريضة ضمنها أبلغ ما يكون من عبارات الشكران والامتنان إلى أن قال: ويعلم مولاي أدام الله سلطانه وحرس ملكه وأيد بالنصر أركانه أن العبد ما برح على ما يعلمه فيه مولاه من الطاعة والولاء لسدتكم العلية لا سيما وقد قلدنى المولى أدام الله تعالى وجوده منة العفو وولانى تفضلاً منه وتكرماً حكم ولاية أطنة وجباية خراجها فلم يبق فى النفس بعد ذلك شئ والله سبحانه على ما أقول شهيد وها أنا العبد باسط أكف الضراعة والابتهال بأن يديم أيام ملككم غرة فى جبين الدهر وليعلم مولاي أنى قد وطنت النفس على خدمة الأعتاب الشريفة بما فى الطاقة والله خير مسئول يوفقنى إلى طاعتكم بمنه وكرمه إنه السميع المجيب، قال بعض الكتاب: ومع هذا فإنه لم يمض القليل من الأيام حتى جاءت الأخبار إلى دار السلطنة ترى بزحف الأمير إبراهيم بجيوشه وآلات حربه إلى قلب آسية وأنه ترك قونية وهو على قدم المسير إلى بروصاء فاندesh السلطان من سماع هذه الأنباء وظنها مبالغة ووقية فلم تكن إلا أيام حتى ثبتت صحتها وجاءت الكتب بذلك إلى الباب العالى فسير السلطان فى الحال إلى سفير الفرنسيين من يكلمه فى أمر ذلك فاندesh السفير وكتب إلى الأمير إبراهيم يقبح ما فعله ويحذره شر العقابة ويمنعه من التغلغل فى داخلية البلاد فرد عليه الأمير إبراهيم يقول إن الحاجة إلى الماء والميرة وحطب الوقود وعدم وجود شئ من ذلك ألته بقونية واتقاء برد الشتاء وتفشى الأمراض فى الجنود المصرية كل ذلك كان الحامل لنا على المسير إلى بروصاء وأنا مازلنا على قدم الطاعة والولاء لأمير المؤمنين وواقفين عند حد ما رسمه لنا محمد على باشا فلا تصغوا إلى وشاية الواشين ولا تلتفتوا إلى غواية الغاوين وأعرضوا عن كل قول هراء فإن العدو ما برح يدس السم فى الدسم ويتمنى لو أن الدهر يرمى كياننا بالعدم فالله الله والسلام.

(مطلب)

اشتداد علة السلطان وما كان من وراء ذلك

واشتدت فى هذه الأثناء علة السلطان محمود وكبر مرضه واستعصى برؤه فاضطربت أحوال السلطنة أو كادت وكثر تحدث الناس فى أسباب علته فمن قائل أنها ذات الجنب ومن قائل أنها ضرب من الهذيان والهزؤ الدائم ومن قائل أنه السل وكانت أخباره كل يوم فى شأن والباب العالى يكثر من نشر بشائر سلامته وعافيته

والناس لا يصدقون ذلك فانعقد مجلس فى السراى السلطانية من خسرو باشا و خليل باشا وسعيد باشا وعزت بك وضيا بك وجعلوا يتشاورون فيما يجب عمله إذا جاءت منية السلطان على عجل وكانت رسل والدة السلطان وولى عهده يغدون ويروحون إلى مقر السلطان وبعد أخذ وردّ بين أصحاب المجلس وقع الاتفاق على أن يكتبوا إلى قبطان باشا سفن الحرب بأن لا يبرح بسفنه كلها من البوسفور والى حافظ باشا مقدم العساكر القائمة بقتال الأمير إبراهيم بإيقاف رحى الحرب حتى تأتيهما الأخبار بما سيكون فكاد حافظ باشا يسقط فى يده وطارأت الأخبار بما أصبح فيه السلطان من الخطر وشدّد الأطباء فى عدم دخول أحد عليه فلما كان يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الأول وقيل سادس عشره سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية مات وحيداً فى مخدعه فكانت سلطنته زهاء إحدى وثلاثين سنة وعمره أربعاً وخمسين سنة على المشهور، قال بعض الكتّاب: ومن الغريب أن اليوم الذى مات فيه يوافق اليوم الذى تولى فيه السلطنة قال وكان ملكاً مهيباً مقداماً على الهمة واسع المعرفة كبير الدراية بالأمور صبوراً على الشدائد مجباً للرعية ميالاً إلى العمارة عادلاً بعيداً عن العسف والجور ولكنه كان قليل الحظ حسن الخط غير موفق كان الدهر عدوه مغلوباً على أمره بحكم الأيام فقد خرج فى أيامه كثير من الإيالات ما بين حجازية وشامية ورومية وهو الذى أباد طوائف الانكشارية والأصبهانية ونظم عسكره على نظام الفرنسيين وأنشأ الكثير من سفن الحرب ومعدات القتال وأفرغ الجهد فى إصلاح الأمور ومحو آثار الفتن الداخلية فلم يوفق إلى ذلك لسوء حظه ونكد طالعه والله سبحانه يؤتى النصر لمن يشاء من عباده.

ومات فى أيام السلطان محمود يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ستاً وعشرين سنة ولم يقع له من الحوادث الأجنبية شئ يذكر ولكن قامت عليه النصارى لأسباب تقوموا عليه فهرب واختفى مدة ثم استقدموه بعد أن تاب واستغفر ولبث فى منصب البطريكية إلى أن مات فأقاموا بعده مرقس وهو الثامن بعد المائة واسمه يوحنا وكان راهباً بدير أنطونيوس بالجبل الشرقى وفى أيامه نقلت دار البطريكية من حارة الروم عند باب زويلة بالقاهرة إلى الأزبكية بالدرب المعروف بالدرب الواسع فصارت من حيثئذ مقراً لبطاركة المتأصلين إلى يومنا الذى نحن فيه ثم مات بعد أن أقام ثلاث عشرة سنة فأقاموا بعده بطرس وهو التاسع بعد المائة واسمه مرقوريوس وكان راهباً بدير أنطونيوس وأصله من بلدة جاولى بصعيد مصر ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله.

الفصل الثانى والعشرون

(فى سلطنة السلطان عبدالمجيد خان)

ابن السلطان محمود خان)

ثم قام بالأمر بعد السلطان محمود خان ولده السلطان عبدالمجيد ببيع له بالملك يوم موت أبيه سادس عشرى ربيع الأول سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية تولاهما والفتنة قائمة ونار الحرب متأججة والأمور فى خبال ونكال ودول أوروبا فى إقدام وإحجام يوم معه ويوم عليه وكان قيصر الروس لا ينكف عن طلب العمل بمعاودة خونكار اسكله سى التى تعاقد فيها مع السلطان محمود على الذب والدفاع عن جميع بلاد الدولة واحتلال كل ما يمكن احتلاله منها عند الضرورة وقد تزايد طلبه إلى ذلك بعد استسلام جميع سفن الحرب السلطانية إلى محمد على باشا وفناء أكثر العساكر العثمانية فى الحرب القائمة مع الخوارج وكانت دولتا الفرنسيس والإنجليز تكرهان ذلك من قيصر الروس ولا ترغبان فى أن يكون له عليهما سابقة ولا كلمة وتخشيان أن يكون من وراء تلك المعاهدة احتلال الروس لمدينة القسطنطينية تكون الطامة الكبرى على سائر أوروبا فجعل سفراء الفرنسيس والإنجليز والنمسا والبروسيا يعملون على ما فيه استمالة دولة الروس إلى جانبهم وما زالوا حتى أوعز القيصر إلى سفيره بدار السلطنة بذلك فاجتمعوا بخسرو باشا صدر الدولة يومئذ وتناجوا فيما يصح جعله قاعدة للتعاقد مع محمد على باشا والكف عن القتال وأشار سفير النمسا والإنجليز برد جميع ما فتحه محمد على باشا من البلاد الشامية إلى الدولة وأن لا يعطى إليه إلا ديار مصر فقط فعارضهما فى ذلك سفيرا الفرنسيس والروس وقالوا لا بل يعطى إليه ملك مصر وإيالات الشام الأربع وطال الجدل بينهم وما زالوا فى أخذ وردّ حتى وافق سفير البروسيا سفيرى النمسا والإنجليز وقال بقولهما فسقط رأى سفيرى الفرنسيس والروس وتقررت القاعدة بينهم على أن لا يعطى إلى محمد على باشا سوى ديار مصر وأن يؤخذ منه جميع ما افتتحه من بلاد الدولة ثم أشار سفير النمسا بعقد مؤتمر دولى إما فى عاصمة النمسا وإما فى عاصمة الإنجليز لإتمام ما بقى متعلقا بمصر فلم

تصادف إشارته قبولاً وعارضه سفيراً الفرنسيين والإنجليز وكذلك سفير الروس وقال إن مولاي القيصر لا يقبل أن يكون لمؤتمر دولي حق تجديد علاقة مملكته السياسية مع دار السلطنة العثمانية وأنه لا يتنازل عن العمل بما أباحته معاهدة خونكار اسلكه سى من الذب والدفاع عن جميع أملاك الدولة العثمانية بما أعده القيصر من الجيوش البرية والسفن الحربية واحتلال معظم إيلات الدولة إذا لم ينكف الأمير إبراهيم عن القتال والتغلغل في قلب بلاد الدولة فهال سفيرى الفرنسيين والإنجليز هذا الطلب وخافا شر عاقبه وطلبا من صدر الدولة أن يجيز لمراكب الحرب الإنجليزية والفرنسية العبور من بوغاز الدردنيل لدفع غارات الروس والمصريين عن بلاد الدولة عند الحاجة وسيرت دولة الإنجليز إلى القسطنطينية إحدى مراكب حربيها المسماة ستوفورد للمخاطبة مع السلطان في ذلك وكثر القيل والقال وساء بقية السفراء ما فعله سفير الإنجليز وتجرد سفير الروس إلى المقاومة والإصرار على ما طلبه وسير إلى صدر الدولة يقول إن أباح السلطان لمراكب الإنجليز والفرنسيين العبور من الدردنيل قطعت كل علاقة بين حكومتى ودار السلطنة وخرجت من القسطنطينية بلا مهل، وكانت مراكب الإنجليز والفرنسيين على مقربة من البوغاز تنتظر ما يرد إليها من الأخبار، وأرسلت دولة النمسا إلى عاصمتى الفرنسيين والإنجليز تقول إن ما فعله سفيركما من الشدة والعنت لا يكون من ورائه إلا فصم عروة الاتحاد وقيام الحرب على قدم وساق ولذلك فهي تصمم على الانسحاب من دائرة ذلك التحالف إذا بقى الحال هكذا وتكون مطلقة السيدين فيما تنوى فعله، وكان السلطان ميالاً إلى إجابة طلب مبعوث الإنجليز فكان خسرو باشا يحبب إليه ذلك فلما اشتد الخصام بين مندوبى الدول وكبرت الفتنة خشى السلطان العاقبة فلم يجب مطالب مبعوث الإنجليز وأوعز إلى الصدر الأعظم بأن يخابر الدولتين في أمر إبعاد مراكبهما عن الدردنيل ففعل ففشلوا جميعاً وتفرقت كلمتهم وذهب كل إلى مذهب وتعطلت المخاطبة أياماً كثيرة.

(مطلب)

عزم دولة الإنجليز على إكراه محمد علي باشا

على رد جميع ما أخذه، واشتداد الخلاف بينها

وبين دولة الفرنسيين بسبب ذلك

فلما كان شهر شوال سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية سیرت دولة الإنجليز رسولاً من قبلها اسمه اللورد بونسبى إلى دار السلطنة العثمانية يقول

للسلطان: إن دولة الإنجليز متأهبة لأن تكره محمد على باشا على رد جميع ما اغتصبه من المراكب العثمانية وترغمه إلى الطاعة والإخلاق إلى جميع مطالب السلطان بشرط أن تدخل مراكب الحرب الإنجليزية إلى بوغار القسطنطينية. لدفع الروس إذا اعتدوا على بلاد الدولة فساء ذلك دولة الفرنسيين واستعظمته وأوعزت إلى أمير مراكب حربها الراسية في بحر الروم بأن لا يعاون مراكب الإنجليز على قتال محمد على باشا ولا يشترك معها في أى عمل كان وأن يكون دائماً على قدم التأهب والاستعداد وطيروا الأخبار بذلك إلى الآفاق فعم الخوف وظن الناس أن الحرب بين الدولتين الإنجليزية والإفرنسية صارت على قاب قوسين أو أدنى وأخذت بقية الدول حذرهما وكتبت دولة النمسا تقول إنها تأبى التداخل في هذه المسألة بعد أن خابت سعيًا في عقد المؤتمر الذى أشارت به وجاھرت دولة الفرنسيين بميلها إلى الذب عن محمد على باشا وتعظيمه في جميع مطالبه وقالت لابد من إعطائه ولايتى مصر والشام له ولذريته من بعده وإقليمى أطنه وطرسوس له مدة حياته فخالفتها في ذلك دولة الإنجليز وقالت لا يعطى إليه إلا ولاية مصر فقط وأصرت على ذلك فلما رأت من دولة الفرنسيين قرماً عنيدا عادت إلى مسايرتها وأشارت بإعطائه أيضاً النصف القبلى من بلاد الشام مدة حياته واشترطت أن لا تكون مدينة عكا داخلة في ذلك النصف فأبت دولة فرنسا عليها ذلك وألحت بقبول مطالبها إذ المصلحة فيها للطرفين وطال الأخذ والرد بين الدولتين أياماً فكان لا ينكف فيها رسول الإنجليز عن استمالة سفراء الدول الأخرى إلى الأخذ بمشورته حتى ظفر وفاز وكتبت دولتا النمسا والبروسيا تقولان إنهما توافقان على ما أشار به رسول الإنجليز وتعضدان مطالبه في السر والجمهور.

وكانت دولة الروس إلى هذا الحين تراقب الفرص فلما تحققت من اشتداد الفتنة بين دولتى الإنجليز والفرنسيين واختلاف الغاية سيرت إلى عاصمة الإنجليز رسولاً اسمه البارون دى برونو يقول إن دولة الروس تترك للإنجليز حرية العمل في مصر ولا تأنف من مساعدتهم على إخضاع محمد على باشا بشرط أن تتمكن الروس من وضع جيش في مدينة سينوب الواقعة على شاطئ البحر الأسود بالقرب من دار السلطنة العثمانية لتيسير الدفاع عن مدينة القسطنطينية إذا زحف عليها الأمير إبراهيم بعساكره فمال اللورد بالمرستون كبير سياسة الإنجليز يومئذ إلى ذلك واستحسنه وحسبه من مسببات الفوز والغلبة وهم بإنفاذه فرأى من استنكار كبار الدولة

وأصحاب الحل والعقد له واستقباحهم إياه ما أقعده فحاول الاستظهار عليهم فلم يفلح فمال إلى المواربة وسأل مبعوث الروس أن يكلم القيصر في أمر تخليه عن جميع تلك الحقوق الممنوحة له بمعااهدة خونكار اسكله سى من حماية جميع بلاد الدولة العثمانية فإذا تخلى عنها أنفذ له مطالبه وتعاقده معه على ما فيه المصلحة فلم يقبل القيصر ذلك واستنكره وأوعز إلى رسوله بمبارحة عاصمة الإنجليز فرحل عنها وتعطلت المخابرة وأعرضت عنها جميع الدول.

(مطلب)

تأهب محمد علي باشا للقتال بعد أن علم بتألب الدول عليه مع السلطان ما عدا دولة الفرنسيين

وعلم محمد علي باشا بما تنويه له دولة الإنجليز من سوء وما صممت عليه من أخذ جميع ما افتتحه من بلاد الدولة وإرجاعه إلى طاعة السلطان ومساعدة جميع الدول لها إلا دولة الفرنسيين وأن لا قدرة للدولة الفرنسيين على الدفاع عنه ومعاداة جميع هاته الدول فعمد إلى التأهب والاستعداد وتجرد للدفاع ما استطاع وأوعز إلى سليمان باشا الفرنسوى بتقوية الحصون والقلاع الشامية جهد الاستطاعة وعلى الخصوص منها قلاع عكا وبيروت ورسم بتكليف جميع أهل الشام بحمل السلاح والتدرب على الحركات العسكرية للقيام بها عند الحاجة واستقدم جميع العساكر المصرية التي كانت في نجد والحجاز وأهمل شأن تلك الأصقاع وأطلق سراح محمد ابن عون شريف مكة وقد كان محجوراً عليه بالقاهرة فسار إلى مكة وجعل يتصرف في أمورها على ما تقتضيه مصلحته وأنفذ إلى ولده الأمير إبراهيم بالالتفات والأخذ بأسباب الحزم فبالغ الأمير إبراهيم في ذلك وبث الغيون والأرصاء وحاسب أهل الشام على الذرة والبرة فانكمشوا وانكفوا وأخلد كبارهم إلى الطاعة خوفاً من جيروته وبقي الحال هكذا إلى أوائل سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية وإذا بدولة النمسا قد عادت إلى الإلحاح بطلب عقد المؤتمر في مدينة فينا لفض جميع المسائل المتعلقة بمصر ومنع جميع القلاقل المترتبة على بقاء هذه المسألة عرضة لأغراض الدولة وسبباً لوقوع التخاصم بينهم فأجابتها الدول حينئذ إلى عقد المؤتمر بلندن عاصمة الإنجليز وحضره مبعوث من دار السلطنة العثمانية بناء على طلب دولة الفرنسيين فلم يتفقوا على حال من الأحوال وأصرت كل من دولتي الفرنسيين

والإنجليز على ما طلبته ثم انصرفوا على غير طائل وتعطلت المخابرة ووقفت عند حدها الذى كانت عليه.

(مطلب)

قيام تييرس كبير سياسة الفرنسيين لنصرة محمد علي باشا وتعاقد الدول على العمل ضد محمد علي باشا

واتفق بعيد ذلك بقليل أن تولى الموسيو تييرس رئاسة الحكومة الفرنسية وكان يكره أن تحل المسئلة المصرية جميع الدول ويرغب أن يكون حلها بينه وبين السلطان مباشرة فما استقرّ به المنصب حتى سير إلى السلطان من يعلمه بوجوب ترك إيالات الشام ومصر إلى محمد علي باشا وذريته من بعده ويتوعده بقيام دولة الفرنسيين للذب والدفاع عن محمد علي باشا إن أبى عليه ذلك وسير أيضاً إلى محمد علي باشا يمينه بالأمانى الطويلة ويحضه على نبذ مطالب دولة الإنجليز وعدم الالتفات إليها وأن يثابر على الجد والاجتهاد وتقوية الحصون والقلاع الشامية وأنه سيأتيه المدد من عسكر الفرنسيين إذا هم الإنجليز يكرهه على قبول ما لا يحب فتقوت عزائم محمد علي باشا قيل: ولكنه كان يحسب ما وراء تألب بقية الدول على معاكسته فكان كثير الوسائوس شديد الهواجس بعيد النظر فى العواقب فلما علم اللورد بالمرستون كبير سياسة الإنجليز بما فعله تييرس صاحب سياسة الفرنسيين تجرد إلى المقاومة وعمد إلى إغراء دولة الروس والنمساويين وروسيا على التحالف معه على صد إغارات الأمير إبراهيم ورد جميع ما أخذه من البلاد الشامية وإرجاعه إلى طاعة سلطانه وما زال بهم حتى أفلح وتعاقدوا معا على هذا العهد :

أولاً: إلزام محمد علي باشا بإرجاع جميع ما أخذه من بلاد الدولة ما عدا الجانب القبلى من ولاية الشام دون مدينة عكا.

ثانياً: محاصرة السفن الإنجليزية والسفن النمساوية للموانى الشامية ومساعدة جميع من أراد من أهل الشام على خلع طاعة الأمير إبراهيم والخروج على العساكر المصرية لإشغالهم عن مقاومة سفن الدولتين .

ثالثاً: دخول سفن روسية وإنجليزية ونمساوية إلى بوغاز القسطنطينية للذب عن المدينة إذا اتصلت بها العساكر المصرية.

رابعاً: عدم جواز عبور سفن إحدى الدول المذكورات بوغاز القسطنطينية ما دام الأمن مستتباً في المدينة.

خامساً: وجوب تصديق الدول الثلاث المذكورات على هذا العقد في مدة لا تتجاوز الشهرين وأن يكون هذا التصديق في مدينة لندن.

وأضافوا إلى هذا العقد صكاً موقعاً عليه من مبعوث دار السلطنة فيه بيان لما وقع الاتفاق على إعطائه إلى محمد علي باشا من الحقوق، قال بعض كتاب الأخبار: وعز على كبير سياسة الإنجليز الصبر فعمد إلى دس الدسائس وإثارة الفتنة بين أهل لبنان وأوعز إلى سفيرهم بدار السلطنة أن يجعل في ذلك تفسير السفير ترجمانه المدعو (وود) إلى الشام فوصلها ولم يلبث بها أياماً حتى ظهرت الفتنة وعمت البلاد وخرج الشاميون على الأمير إبراهيم وامتنعوا من دفع الخراج وحمل المؤن للجنود فركب الأمير إبراهيم وسليمان باشا القرنسوى والأمير عباس على أهل الثورة وقاتلوهم حتى أخضعوهم وأرجعوهم إلى الطاعة صاغرين وجاء المدد من مصر فتقوت عزائم المصريين ونالوا من الشاميين وأطفئوا نار الثورة وبالق سليمان باشا في تحصين مدينة بيروت وجعلها على أهبة الدفاع وشحنها بالمؤن والذخيرة وأنشأ القلاع والحصون بالثغور والمدن وتآهب لصد الأعداء برا وبحرا وأرسل إلى محمد علي باشا يطلب المدد من طريق البحر فعلم كبير سياسة الإنجليز بذلك وأوعز إلى الأمير نايف من أمراء سفن الحرب الإنجليزية بالوقوف بسفنه في طريق الشام والإسكندرية وإحراق كل ما يلاقيه من السفن المصرية وأسره ما يمكن أسره منها فأحسن كبير السياسة الفرنسية بذلك فسير في الحال مركباً إلى مدينة بيروت لتخبر قائد أجيوش المصرية بالخبر وجاء النبأ إلى محمد علي باشا فأزعجه واسترجع ما كان قد سيره من تلك السفن ووصلت السفن الإنجليزية مع نايفير إلى الإسكندرية فلم تعثر في طريقها على واحدة من السفن المصرية.

ولما كان خامس عشر جمادى الأولى سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية تم توقيع الأحزاب على معاهدة لندن وصدق عليها السلطان فصار معمولاً بها من ذلك اليوم ولم يمض عليها شهر حتى أبلغها قناصل الدول المتعاهدة إلى محمد علي باشا وعرضوا عليه ما اتفقت عليه كلمة دولهم من إعطائه ولاية مصر له ولذريته من بعده وولاية نصف الشام بما فيها عكا مدة حياته ثم تردّ إلى مملكة السلطان بعد موته وضربوا له أجلاً عشرة أيام قيل فأزعجه هذا الحال وأحزنه ومضى الأجل المضروب

فلم يجب إلا بالسلب والامتناع وعدم التسليم فى شىء مما تطلبه الأحزاب فأخبره القناصل بأن امتناعه عن قبول ذلك قد أسقط حقه أيضاً فى أخذ مدينة عكا مدة حياته وصارت الدول لا تسمح له بشىء سوى ولاية مصر فكبر غيظه وراجعهم فى الكلام فقالوا لا سبيل إلى غير ذلك وقد أمهلناك عشرة أخرى فأصر على الامتناع وانقضت المهلة ولم يجيبهم فسيروا الأخبار بذلك إلى دار السلطنة ولما ضربوا له الأجل الأول ولم يجب رسم السلطان بعقد مجلس فى دار شيخ الإسلام حضره المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب العالية وتناجوا فى امتناع محمد على باشا وتأهبه للذب والدفاع فبعد أخذ ورد أفتى الشيخ بسقوط حكم محمد علي باشا من الشام وخلعه وقرئت هذه الفتوى فى سائر مساجد دار السلطنة وورد الخبر بما جرى إلى محمد علي باشا فأرسل إلى السلطان يقبح ما أفتى به شيخ الإسلام ويقول: إما ولاية مصر فهى من حقوقى وحقوق أولادى الوراثية وأما الشام فلا أتخلى عنها بعد الذى أرقته فيها من الدماء وصرفته من الأموال الطائلة.

(مطلب)

إطلاق سفن الإنجليز القنابل على بيروت وسائر السواحل الشامية، وما كان من وراء ذلك

وجاء الأمر إلى نايبير أمير سفن الحرب الإنجليزية بالتأهب لإطلاق المدافع على بيروت وجميع السواحل الشامية وأخذها من أيدي المصريين فسار بسفنه قاصداً بيروت وأخذ فى طريقه كل ما صادفه من مراكب التجارة المصرية ولحق به أيضاً الأميرال ستفورد ومعه ثمان سفن حربية من القطع الكبار ولحقهم التجريدة العثمانية من قبرص وهى زهاء ستة آلاف مقاتل تحملها ثمان وعشرون قطعة من سفن النقل الإنجليزية ومقدمها الأمير واكر وأرسى نايبير سفنه أمام حصون بيروت وأرسل إلى سليمان باشا الفرنسوى مقدم العساكر المصرية بها يعلمه بسرعة التخلي عن المدينة والجلء عنها وسير إلى من بعكا يخبرهم بذلك أيضاً وطير الأخبار إلى الآفاق بما تقرر شرعا من خلع محمد على باشا وتنزيله عن ولاية الشامات وحض أهل الشام جميعا على الخروج وشق عصا طاعة الأمير إبراهيم فبدأت عند ذلك تظهر علامات الوحشة بين الفريقين وأخذ كل حذره وجعل سليمان باشا يرتب عسكره ويزيد فى تحصين القلاع والحصون ويبعث البعث إلى بقية الشغور للحض على اليقظة

والالتفات وأرسل محمد على باشا إلى الموسيو تيرس كبير السياسة الفرنسية يستنهضه إلى الوساطة في الأمر والرجوع بالأحزاب إلى اللين وترك الشدة فتجرد الموسيو تيرس إلى ذلك وبالف في الإرهاب وجعل يتأهب ويحشد الجيوش ويعدّ المعدات للذب والدفاع عن جميع مطالب محمد على باشا. قال بعض كتاب الأخبار: ولكنه رأى أنه في حاجة إلى شيء من السلاح والذخيرة لفراغ المخازن منها يومئذ وأنه ينقصه أشياء أخرى من معدات الحرب فكاد يسقط في أمره وشاع الخبر بذلك بين الفرنسيين فقاموا على كبير سياستهم وقبحوا فعالة ونادوا بالويل والثبور ورموه بالخيانة والغدر ووسموه بالكذب والفجور حيث حرص محمد على باشا على مقاومة الأحزاب وشق عصا طاعة سلطانه ثم عاد فتخلى عنه عند شديد الحاجة وجعلوا يطوفون جماعات حول بيته وهم يهزءون ويسخرون به ويصيحون فكبر عليه الأمر واستعظمه وأنزل نفسه عن منصب الرئاسة واعتزل موقف هذه السياسة في سلخ رمضان سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية وجاء الأمر إلى أمير سفن الحرب الفرنسية التي كانت راسية يومئذ على مقربة من بيروت بسرعة العود إلى جزائر اليونان ثم إلى بلاد الفرنسيين فأقلعت من فورها وتركت الشام ومصر هدفا لرمي قنابل سفن الأحزاب فعاد ذلك للدولة الفرنسية من الغلطات المسودة لوجه تاريخ حسناتها في ديار مصر وهكذا سياستها عند اشتداد الكروب وتفاقم الخطوب ومثل هذا سواء بسواء ما فعلته مما نجم عن ظهور الثورة العرابية كما سيتلى عليك في محله إن شاء الله.

ولما كان الخامس عشر من رجب الفرد سنة ست وخمسين تقدمت سفن نابيير الإنجليزى نحو حصون بيروت ورمتها بالقنابل وراسلت الرمي لحظة ثم انكفت وأرسل نابيير إلى سليمان باشا الفرنسي يقول له: أن تخل عن الحصون والمنجبل بعسكرك عن المدينة قبل أن أدكها عليكم دكا فأرسل إليه سليمان يقول: لن تدخلوها إلا خرابا بلقعا ولم نسلم لكم فيها وفيها رجل وكان قد سير إلى الأمير إبراهيم في بعلبك أن ينحدر إلى بيروت بمن معه من العساكر والأجناد فحضر ونصب خيامه ظاهر بيروت وباتوا ليلتهم ثم أصبحوا وقد اقتربت جميع السفن من المدينة وأطلقت عليها القنابل واشتدت في القتال شدة بالغة حتى أحرقت المدينة ودكت أسوارها وتقدم الأرشيديوق فردريك أمير سفن الحرب النمساوية بمركبه وأطلق مدافعها على بيت المرضى من العساكر والأجناد المصرية وكانت عليه راية سوداء إشارة إلى أنه

بيت المرضى فلم يحفل بها وأطلق على جدران ذلك البيت القنابل حتى دكه على من به من المرضى ولم تأخذه شفقة ولا حنان وهم يقولون بأنهم أنصار المروءة وإخوان الرحمة وتمكن نابيير من تنزيل طائفة من العساكر العثمانية والإنجليزية إلى بيروت وسير بعض السفن إلى عكا وبقية الشغور فدمرتها بنيران المدافع وأصلت من بها من المصريين نارا حامية، وانتفض أهل الشام ولبنان وخان الأمير بشير الشهابي العهد واليمين الذى حلفه للأمير إبراهيم فاشتدت نار الفتنة وعمت جميع البلاد وصار المصريون بين متطحن عزيزين وتساقطت عليهم نيران الأعداء من البر والبحر فانجلى من بقى منهم عما كان بأيديهم من القلاع والحصون وخرجوا وهم فى أسوأ حال لا مؤن ولا زاد ولا دواب للحمل إلا القليل وتبعهم الشاميون يتخطفون ساقهم ويمنعون عنهم الواصل من الماء والميرة فاشتد بهم الجوع شدة بالغة فأكلوا جميع ما كان معهم من دواب الحمل حتى أكلوا جذوع الأشجار وما صادفوه من الحشيش اليابس وشربوا بول البهائم وفشا فيهم الموت بالحميات الخبيثة وما زالوا يجدون السير ويدافعون عن ساقهم والعدو من خلفهم حتى وصلوا إلى حدود الديار المصرية وقد ذاقوا مرارة التعب وقاسوا شديد النصب وتحملوا ما تكل عن وصفه الأقلام ولا تحيط بنعته الأوهام وتركوا تلك الديار التى ترطب أديمها بدماء إخوانهم حيناً من الدهر، وسار نابيير بست من سفنه الكبار إلى الإسكندرية ورسا أمام مقر محمد على باشا برأس التين وأرسل إليه يطلب تنازله عن جميع الحقوق التى تقررت بمعاهدة كوتاهيه فأبى محمد على باشا ذلك فأغلظ نابيير فى القول وشد فى الطلب وتهدهد بحرق الإسكندرية ويخلعه من منصب الولاية على مصر أيضاً إن هو أصر على الامتناع والعناد وضرب له أجلاً ضيقاً وأرسل يقول: إن مضى الأجل ولم توقع على عقد التنازل أحرقت المدينة وجعلتها رمادا فكبر الأمر على محمد على باشا وأحزنه جداً وترددت الرسل بينه وبين محمد على باشا عسى أن يصلوا إلى أمر فيه المصلحة فلم يفلحوا وأبى نابيير إلا ما أراد فأجابه محمد علي باشا إلى ما طلب فأقلع نابيير بسفنه راجعا إلى دار السلطنة وعاد محمد على باشا إلى الشكوى فرفع أمره إلى دولتى الفرنسيس والروس وشكا مما فعله نابيير فعمدت الدولتان إلى إبطال ذلك العقد وعملنا جهد الاستطاعة على إحباط مساعى دولة الإنجليز نظراً لفردتها بالعمل وتجاوزها حد الوساطة وشددنا فى ذلك وكادت الروس تتحد مع الفرنسيس على ما فيه الإضرار بالدولة العثمانية فخشى السلطان شر العاقبة وعمد إلى الملاطفة

والمجاملة وأنفذ إلى محمد على باشا بأن تكون ولاية مصر فى عقبه وللسلطان أن يختار منهم الأليق فامتنع محمد على باشا من قبول ذلك أولاً ثم عاد فرضى به وتقررت القاعدة بين الفريقين نهائياً وتم الاتفاق .

(مطلب)

**وصول فرمان السلطان إلى محمد علي باشا
بجعل ولاية الديار المصرية فى عقبه، وتحديد
حقوق الولاية، وما جاء بعده من الفرمانات**

فلما كان حادى عشر ذى الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية ورد فرمان السلطان بذلك إلى مصر فأبلغته قناصل الدول إلى باغوص بيك ناظر الخارجية يومئذ ونصه :

قد رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيدات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذاتنا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالى من طول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسلمة إدارتها لكم من مدة مديدة لا يجعلان عندنا ريباً بأنكم قادرون بما لكم من الغيرة والحكمة فى إدارة شئون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهانى على حقوق جديدة ونظراً لتعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم فلا بد أنكم تقدرون إحساساتنا إليكم حق قدرها وتجتهدون فى بث هذه المزاي التى التزمتم بها إلى أولادكم ولذلك قد صممنا على تثبيتكم على ولاية مصر وسلمنا لكم زمامها حسب الحدود المبينة بالخريطة المرسومة لكم من لدن صدر دولتنا الأعظم وقد منحناكم فضلاً عن ذلك الولاية بطريق التوارث بالشروط الآتية .

عندما يخلو منصب الولاية المصرية تعهد الولاية إلى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجربى هذه الطريقة فى حق أولاده أيضاً إلى ما شاء الله فإذا انقرضت ذريتكم الذكور فلا حق لأولاد بناتكم الذكور فى الولاية وإرثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب للولاية على ديار مصر بالإرث من بعدكم وجب عليه الحضور إلى دار السلطنة لتقليده الولاية بشرط أن حق التوارث الممنوح لكل وال منه لا يمنحه رتبة ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً فى التقدم عليهم بل يعامل بنفس معاملتهم وجميع خطنا الشريف الهمايونى الصادر عن كل خانه وكافة القوانين الإدارية الجارى العمل بها أو تلك التى سيجرى العمل بها فى جميع

ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التي ستعقد في مستقبل الأيام بين بابنا العالي والدولة المتحابية يجب العمل بها جميعها في ولاية مصر أيضاً وتحصيل جميع الأموال والضرائب المفروضة على أهل مصر باسمنا الملوكانى .

ولكى لا يكون أهل مصر الذين هم من بعض رعايا بابنا العالي معرضين للمضار والضرائب غير القانونية يجب أن تنظم تلك الضرائب بما يوافق حالة ترتيبها في سائر الممالك العثمانية ويرسل إلى خزانة بابنا العالي العامرة ربع الإيرادات الناتجة من جميع الرسوم الجمركية ومن بقية الضرائب التي تتحصل في سائر الديار المصرية ولا يتأخر منه شيء ألبتة والثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم للقيام بنفقة التحصيل والإدارة والعسكرية ونفقات الوالى وأثمان الغلال التي تقوم مصر بتسييرها في كل عام إلى الحرمين الشريفين ويبقى هذا الخراج مستمرا أداؤه على هذا الوجه مدة خمس سنوات ابتداء من عام سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ويصبح تعديل ذلك بطريقة أخرى في مستقبل الأيام تكون أكثر موافقة لحالة الإيالة المصرية ونوع الظروف والمناسبات التي تطرأ عليها .

ولما كان من واجب بابنا العالي الوقوف على مقدار الإيرادات في كل عام وكيفية تحصيلها لا سيما تحصيل العشورى منها وجباة بقية الضرائب وكان الوصول إلى معرفة هذا كله يستلزم تعيين عمدة يخول حق المراقبة على جميع أعمال إيالة مصر فينظر في ذلك فيما بعد وسيقرر ما يوافق إرادتنا السلطانية ونظراً لأهمية طريقة سك النقود ووجوب تقرير قاعدة ثابتة لهذا الأمر المهم كى لا يحدث فيها خلاف لا من جهة العيار ولا من جهة القيمة فقد اقتضت إرادتنا السلطانية أن تكون جميع النقود من الذهب والفضة التي يجوز لإيالة مصر ضربها باسمنا الشاهانى معادلة للنقود المضروبة في الضربخانه السلطانية العامرة سواء كانت فى العيار أو فى الشكل ولا يكون لإيالة مصر فى أوقات السلم أكثر من ثمانية عشر ألفاً من الجند للمحافظة على داخلية البلاد بحيث لا يجوز أن تزيدوا على هذا العدد شيئاً ألبتة غير أنه لما كانت قوات مصر العسكرية هى معدة لخدمة ممالكنا المحروسة أسوة ببقية إيالاتنا العثمانية فلذلك يسوغ أن يزداد هذا العدد فى زمن الحرب بما يرى لزومه ويراعى فى خدمة الجندية بإيالتكم ما هو مقرر ومتبع فى كافة ممالكنا المحروسة وهى بعد أن تخدم الجند خمس سنوات يستبدلون بغيرهم من أبناء البلاد وهذه القاعدة يجب اتباعها فى إيالة مصر بحيث ينتخب ممن يكون فى الخدمة حالاً بعد الذين

أمضوا تلك المدة عشرين ألفاً فيبقى منهم ثمانية عشر ألفاً بمصر والألفان الباقيان يرسلان إلى الأستانة لأداء مدة خدمتهم وحيث إن خمس هذا القدر يعنى العشرين ألفاً واجب استبداله سنوياً فيطلب فى كل سنة من مصر أربعة آلاف حسب القاعدة المقررة فى نظام العسكرية عند سحب القرعة بشرط أن تستعمل مواجب الإنسانية ونزاهة القصد والسرعة المقتضية فى هذه الأحوال فيبقى فى مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندي ممن ينتخبون حديثاً ويرسل منهم أربعمائة إلى الأستانة فمن أتم منهم خدمته سواء كان ذلك بمصر أو بدار السلطنة عاد إلى بلده ولا يجوز طلبه للخدمة مرة ثانية هذا وبما أن طبيعة بلاد مصر وهواءها ربما يستلزم أن تكون أقمشة ملابس عسكريها غير أقمشة ملابس عسكرينا المنصور فلا بأس بذلك إنما يراعى جيداً أن لا تختلف هيئة الملابس والعلامات التمييزية ورايات الجنود المصرية عن مثلها من ملابس ورايات سائر عسكرينا المظفر وكذا ملابس الضابطان وعلامات امتيازاتهم وملابس البحرية والعساكر البحرية ورايات السفن المصرية يجب أن تكون كملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا ويجوز للحكومة المصرية أن تمنح ضابطان البر والبحر إلى حد رتبة الملازم أما ما كان من فوق ذلك فمرجع الأمر فيه إلى إرادتنا الملوكانية ولا يسوغ منذ الآن لوالى مصر أن ينشئ سفناً حربية إلا بإذنا الخصوصى، ومن المعلوم أن الامتياز المعطى من لدنا بوراثه مصر هو معلق بجميع الاشتراطات المبينة آنفاً فإذا توقف تنفيذ هذه الاشتراطات كان الامتياز المذكور لاغياً لا عمل له وبناء على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكانى لتعرفوا أنتم وذريتكم قدر ما جبلنا عليه من الإحسان فتقوموا مع تمام الاعتناء بتنفيذ الاشتراطات المدونة آنفاً وتمنعوا عن أهل مصر كل ما يكرهونه وتكفلوا أمنيته وسعادتهم وتجتنبوا كل مخالفة لسائر أوامرنا السلطانية مع إخبار بابنا العالى عن جميع المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهوده ولايتها لكم . اهـ .

وورد مع هذا الفرمان فرمان آخر بتوجيه ولاية النوبة ودارفور وكردفان وسنار إلى محمد على باشا مدة حياته فقط ثم تعاد بعد موته إلى السلطنة العثمانية فيوليها السلطان لمن يشاء ونصه: حيث قد تثبت على ولاية مصر بمقتضى ما هو واضح بفرماننا السلطانى الصادر إليكم ووافق إرادتنا الشاهانية توريث ذريته من بعدكم مسند هذه الولاية بشروط وحدود معلومة ومعينة فقد قلدتم أيضاً فضلاً عن ولاية ديار مصر إيالات النوبة ودارفور وكردفان وسنار وجميع ملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير توارث فبناء على ما هو معهود فيكم من الحكمة والاختيار وما

أمرتم به من التمسك بهما تقومون بإدارة هذه الإيالات وترتيب جميع شئونها بما ينطبق على عدالتنا ويوافق رغائبنا السلطانية مع توفير أسباب السعادة لسائر الرعية وترسلوا في كل سنة إلى بابنا العالي قائمة ببيان الإيرادات السنوية جميعها .

وحيث إنه في غالب الأحيان يصير الهجوم من العساكر والأجناد على القرى والبلدان بتلك الأصقاع فيأخذون منها ما يقدرون على أخذه من الشبان الذكور والإناث ويتصرفون فيها بالبيع وغير ذلك نظير مرتباتهم وعلوقاتهم فهذه الفعال فضلاً عما يترتب على استمرارها من انقراض أهالي تلك الديار فإنها من الأمور المخالفة للشريعة الإسلامية المطهرة وكذلك أيضاً ما هو شائع ومستعمل في جب الرجال أى جعلهم خصيانا لخدمة النساء فإنه من أفظع الأمور التى لا تنطبق على إرادتنا السنية لما فيها من مخالفة مبادئ العدل والإنسانية التى هى من أجل مقاصدنا منذ جلوسنا على عرش الخلافة العظمى فعليكم مداركة جميع الأمور بما ينبغى من العناية والاعتناء ومنع حدوثها فى المستقبل واعلم أنى قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وباقى المأمورين الموجودين الآن بديار مصر إلا من وصلوا منها بمراكبنا الحربية فاستسلموا وكما قلنا بفرماننا السلطانى المرسل إليكم قبل هذا أنه يجوز لكم منح سائر الضابطان من البرية والبحرية لحد رتبة الملازم فقط فلا بأس من إرسال جدول بأسماء من رتبتم من ضابطان العسكر المصرى إلى بابنا العالي لينال التصديق منا وترسل لكم الفرمانات المثبتة لرتبتهم هذا ما اقتضته إرادتنا الشاهانية ووافق رغبتنا السامية السلطانية فعليكم المبادرة فى العمل بمقتضاه . اهـ .

فلم ير محمد على باشا بدا من الطاعة وخفض الجناح لهذه الشروط على ما فيها من الحيف والقهر وذلل النفس بعد الذى نالته عساكره من الفوز والغلبة ولكنه كتب إلى الدول يشكو من جور هاته الشروط وشدة ما فيها من الحجر والتضييق ويسألها الوساطة فى تحديد شروط الوراثة وجعلها لأكبر أولاده من بعده وتحديد مبلغ الخراج وجعله قدر ما يحمل فى كل عام إلى الخزينة السلطانية ومنحه حق إعطاء الرتب وألقاب الشرف للضابطان البرين والبحرين إلى رتبة الميرالاي فأجابته الدول إلى ذلك وخابرت السلطان فى الأمر فأجابها إلى ما طلبت وسير إلى محمد على باشا الفرمان بذلك فى عاشر جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ونصه :

إن الحضرة الفخيمة السلطانية تلقت ما تعطف عليها به الدول المتحالفة من

النصائح فى هذه الواقعة أيضاً ولذلك قد منحت محمد على باشا وتكرمت عليه بالامتيازات الآتية بشرط انقياده الانقياد التام إلى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالاً والتي ستبرم فى مستقبل الأيام فيما بين سلطتنا العثمانية والدول المتحالفة، قد صار مسند ولاية ديار مصر من الآن فصاعداً يتقل بالإرث من محمد على باشا إلى أولاده وأولاد أولاده الذكور بكيفية أن يتولاه الأرشد فالأرشد فيقلده الباب العالي مسند الولاية كلما خلا هذا المسند من وال وقد تنازلت سدتنا الملوكانية عن أخذ ربع إيرادات الإيالة المصرية مقابلة تقرير مبلغ فى كل سنة يحمل إلى خزيرتنا السلطانية خراجاً وهذا المبلغ سيقدر فيما بعد مع بيان كيفية تحصيله بما يناسب حالة إيرادات البلاد كما وأنه من الآن فصاعداً صار من المرخص لمحمد على باشا أن يمنح من تلقاء نفسه رتب ضابطان البرية والبحرية إلى رتبة الأميرالاي فقط وما زاد عن ذلك يعرض عنه لبابنا العالي أما ما يتعلق بإدارة الإيالة الداخلية التى يجب أن تكون على مثال الإدارة الجارية فى جميع ممالكنا المحروسة فهو وإن كان محمد على باشا لم يتكلم عنها بشيء حسبما يقتضيه الحال من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك بالعقد الملحق لمعاهدة المحالفة ولكن لكى لا يدع الباب العالي سبيلاً للدول المتحالفة بالتضرر منه كما لو حدث أن وقع من محمد على باشا فى مستقبل الأيام أمور مخالفة لوجه مهم من الأوجه المستندة على المعاهدة المحكى عنها قد تقرر أن تطلب أولاً الإيضاحات والتقارير المذكورة من قبلكم كتابة. اهـ.

فقبلت الدول المتحالفة هذا التحوير وأشارت بتأييده فجاء فرمان بذلك إلى محمد على باشا، ثم ورد فرمان آخر فى غرة جمادى الأولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف بتقرير مبلغ ثمانية آلاف كيس خراجاً يحمل فى كل عام إلى الخزينة السلطانية ووقفت المخابرات بين محمد على باشا وسلطانه يومئذ عند هذا الحد.

(مطلب)

وصول سيف ونيشان هدية من السلطان إلى محمد على باشا

فلما كان رابع عشرى شعبان سنة سبع وخمسين قدم إلى القاهرة رسول من دار السلطنة يحمل سيفاً ونيشاناً عالياً هدية من السلطان إلى محمد على باشا فانزلوه فى سراى شبرى واحتفلوا للقائه احتفالاً شائقاً وعملوا لذلك تشريفاً بقلعة الجبل فى

خامس عشرى الشهر اجتمع فيه جميع الأمراء والكبراء ورجال الحكومة والمشايخ والعلماء، قال بعض كتاب الأخبار: ولم تكن هذه الهدايا لتذهب ما علق بخاطر محمد على باشا من فعال رجال دار السلطنة ولا ما داخله من الحقد على كبير سياسة الإنجليز والبغض لهذه الدولة فقد عملت حتى نالت منه وسلخت عنه الشام والحجاز وغيرهما ولم تبق له إلا ولاية مصر والنوبة وذهبت أمواله ودماء رجاله الذين فتحوا تلك الأصقاع ودوتخوها هدرا وانحصرت حدود مملكته وضاعت حلقة سلطته وألزم بدفع الجزية صاغرا مبلغا قدره ثمانية آلاف كيس ذهبا تحمل إلى الخزينة السلطانية فى كل عام وقل عدد عساكره إلى ثمانية عشر ألفا لا يلبسون إلا رى العسكر السلطانى وقيدوا علاقته مع سائر الدول الأجنبية بقيود منها أنه لا يجوز عقد عهود أو استئانة شىء من المال إلا بأمر من دار السلطنة ولا يعطى شيئا من ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار إلا إلى الدرجة الثانية للملكيين ورتبة أميرالاي للعسكريين فخر بسعايتهم ما لم يكن له فى حساب وقد كانوا يريدون إخضاعه وإرجاعه إلى طاعة سلطانه بغير عهد ولا شرط، قال: وسعوا فى جرمان ذريته من تولى منصب الولاية من بعده تشفيا وانتقاما لأمر نعموها عليه منها أنهم كانوا اشتروا جزيرة عدن من أحد مشايخ العربان مع أرض أخرى متصلة بها بمبلغ من المال وأنشئوا بها حصنا عظيما لعلمهم ما سيكون لتلك الأرض من الأهمية فى مستقبل الزمان فلما امتدت شوكة محمد على باشا بالفتح إلى خليج فارس وعلت كلمته وكبرت شهرته بتلك الأصقاع خاف الإنجليز على ما لهم من الأملأك الواقعة على شطوط البحر الأحمر فكتبوا إلى محمد على باشا بأن ينفذ إلى عسكره النازلين على تلك الجزيرة بالانجلاء عنها خوفاً من تألب العرب مع العساكر المصرية فيقومون على الإنجليز النازلين بتلك الجزيرة فيكروهونهم على الجلاء عنها فأبى محمد على باشا عليهم ذلك فبقيت فى حوزة جنوده تابعة لمملكته حتى تنازل عنها إلى سلطانه مع مكة والمدينة وجميع الديار الحجازية بغير عهد ولا شرط.

(مطلب)

كف محمد علي باشا عن الحرب والعناية بإصلاح شئون مملكته

قال الراوى لهذه الحادثة: ونقموا على محمد علي باشا أشياء أخرى غير هذه فكانوا لذلك يظهرون له غاية البغض وينظرون إلى فعالة بعين المقت والحسد

ويخشون عاقبة ظهوره فلم ينكفوا عنه حتى أذلوه وأقعدوه عن كل عمل فانكف عن الغزو والفتح ووقف عند حد العناية بإصلاح شئون مملكته وترتيب أمورها على ما تقتضيه مصلحة العباد والبلاد وسالم سلطانه وخليفته وخفض له جناح الطاعة وأظهر له غاية الإخلاص والولاء وسير ولده الأمير محمد سعيد إلى دار السلطنة ليرفع إليه فروض الإخلاص فقال الأمير محمد من السلطان غاية الالتفات وحسن الوفادة فلما استأذنه بالرجوع إلى مصر أذن له وأهداه كثيرا من الهدايا والتحف النفيسة والتعابى الثمينة وأحسن إلى من كانوا معه من الخدم والحشم والأتباع فكان لهذا الصنيع وقع حسن عند محمد على باشا فتجرد إلى الإصلاح، وكانت الحوادث المتوالية والمحن المترامية قد أمحلت البلاد وكادت تذهب ما بقى بها من آثار العمران فعمد إلى إنشاء المعامل وضبط الصنائع واحتكر تجارة جميع الأصناف وراك الحياة وجعل لكل شىء ديوانا وكتابا وجعل لكل ديوان لما يتحصل من غلات البلاد جواصل بكل بلد يأتى إليها الزارعون بما يتحصل عندهم بثمن مقدر فيخصم منه ما عليه من الخراج ويبيع ما بقى إلى التجار الأجانب الذين كانوا يأتون إلى ديار مصر ليمتاروا وأنشأ معامل للحديد وأخرى للقطن وأخرى للكتان ومثلها لسائر أصناف الأقمشة من المقصيات والأحواض ونحوها ونظم الشوارع ومهد الطرق وابتنى المباني العظيمة ديارا للعلوم والصنائع وأنشأ بالإسكندرية معملا للسفن وصناعة البحار وكان قد أتى بسفن الحرب والدواور من البلاد الأجنبية وأنشأ بها أيضاً مدرسة لعلم البحار وأتى لها بالأساتذة من ديار الإنجليز والفرنسيين واستقدم زهاء الألف وخمسمائة من فلاحى الفرنسيين وفرقهم فى البلاد البحرية والقبلية ليعلموا أهلها طرق الزراعة ويشوا بينهم محبة وخدمة الأرض ويكثروا من زراعة شجرة البن واستقدم المسيو جوميل الفرنسوى لزراعة القطن وقد كانت إلى ذلك الحين هملا مهملا لا يعرفون لها طريقا ففاز ونجح وكبرت زراعته واتسعت وأتى بنبات النيلة والأفيون وأكثر من غرس الأشجار الكبيرة النافعة وأنشأ الجنائن والبساتين العظيمة فى جزيرة الروضة وشبرى والأزبكية وبالغ فى الاهتمام بأمر الطب وأتى له بالطبيب الشهير العلامة كلوت الفرنسوى فأنشأ مدرسة لذلك وأخرى للقوابل وعهد بإدارتها إلى الست جوت الفرنساوية وأخرى للطب البيطرى وسلم إدارتها إلى المسيو هامون الفرنسوى وأنشأ ديارا لمرضى العسكر وأهل البلاد على أحسن ما يكون من النظافة والنظام وجعلها تحت نظر المسيو دوساب والمسيو لبها وقد كان الطب إلى هذا الحين كغيره هملا مهملا وسقطا مردولا

ليس بين أهل البلاد من يعرفه بل كانوا لا يعولون إلا على ما تصفه العجائز ولا يرضون إلا بأقوال المشعوذين والدجالين فكانوا إذا مرض أحدهم ذهب أهله فطرقوا له الودع والقول وقاسوا الأثر وحسبوا النجم فكل ما قاله لهم الدجال صدقوه واعتمدوا عليه ثم يكتبون له الأحجبة والتعاويذ والتحويلات الطويلة العريضة التي ربما بلغ طول ورقتها ضعفى طول المريض وربما أضعافا ويخرونه باللبان وجلد القنفذ والكزبرة اليابسة ونسج العنكبوت والشب الأبيض والميعة وغير ذلك وعلقوا عليه الخرزات وكان لهم عناية عجبية بالأحجار فكانت عندهم خرزات كل واحدة يزعمون أنها تبرئ من داء فللعين خرزة حمراء يسمونها البذلة وللرقبة خرزة بيضاء يسمونها خرزة الرقبة ولهم أحجار يحكونها للفرقة والحمى يسمونها حجر الشفاء فإذا لسع أحدهم حكوا له الخرتيت وسقوه ماء أو وضعوا له على موضع اللسعة فصا يسمى فص العقرب وغير ذلك من التمايم والأحجبة وخيطان الصوف وعظام الأموات المعروفة عندهم بعظام الكفرة أو أصبح الكافر، ومن إهمال أمر الصحة يومئذ اتخاذ الناس المقابر وسط المدينة فكانت بمصر والقاهرة شيئاً كثيراً مثل مقبرة السيدة زينب ومقبرة القاصد والشيخ عبد الله والشيخ ريحان وغيرهم بل كان الكثير من الناس يدفنون موتاهم فى حيشان البيوت وفى المساجد والمدارس الكائنة وسط المدينة، ووقع فى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وباء شديد فأمات خلقاً كثيراً حتى أن الأموات كانت تشاهد ملقاة بالأرقة والحارات ويجانب جدران البيوت فى الشوارع ثم انتقل إلى الماشية فأهلك منها شيئاً يفوق الحصر وكاد يفنيها لولا لطف الله .

قال بعض الكتاب : وكما كان الطب مهملاً فقد كان كذلك أمر تدبير ماء النيل وحفظ الجسور وبناء القناطر فأتى لها محمد على باشا بالمسيو لينان الفرنسوى فأكثر من بناء القناطر والجسور وسهل سبل الزراعة ومهد المسالك وأنشأ القناطر العظيمة الواقعة على رأس مصر السفلى المسماة بالقناطر الخيرية على يدى أحد كبار مهندسى الفرنسيس المدعو المسيو موجيل وهى من أكبر الأعمال الهندسية وأشرفها وهى مفتاح النيل ومغلقة عند فرعيه الشرقى والغربى وعليها حساب رى الإقليم البحرى ونصف الإقليم القبلى وكان مع موجيل هذا جماعة من مهندسى الفرنسيس فأظهروا فى وضع هذه القناطر أسرار الهندسة ودقائق صنعة البناء وكانت ديار مصر إلى هذا الحين قد فقدت صناعتها المهرة وأمست وهى فى حاجة إلى كل شىء لا سيما العمارة، أما إهمال النظافة فقد كان شاملا مصر والقاهرة وجميع المدن والبنادر على

اختلافها وكانت القاذورات تلقى بجوانب الحارات وعلى أبواب الأزقة وتحت الأسبطة وفي أركان الجدران وكان ما ينشأ من الهدم والأتربة إن اعتنى به ألقى على أبواب المدينة فيصير تلالا فإذا نسفها الريح قام منها فوق البلد سحب من التراب نتن الرائحة كرية الشم يورث الأمراض المعدية الوبائية فأين سرحت الطرف في البلد ترى المجذوم والمجدور والأبرص والأعمى وغير ذلك من بقية الأمراض، وكانت البلد محاطة بالتلال من كل جانب وكانت ضيقة المسالك والحارات مرتفعة البناء على غير نظام قدرة فلا تتمكن الشمس من تحويل أشعتها نحو قاع تلك الحارات لتنقيها من الرطوبات وتحلل ما فيها من النتن ولا الرياح من تخفيفها وكانت تتصاعد على من بها من السكان فتحدث الأمراض الجلدية كالحكة والأجذيمة وغيرها كل هذه الأدوار قد طهر منها البلاد وأراح من مصائبها العباد فحسبت له حسنات لا يمحيها كرور الأيام وينال عليها إن شاء الله خير الجزاء من بارئ الأنام.

(مطلب)

ما أصاب البلاد من الضربات السماوية في سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف هجرية

ولما كانت سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف هجرية نزل على البلاد جراد كثير فعمها وأهلك زرعها حتى ورق الأشجار العظيمة وكل نبات أخضر ثم باض وأفرخ حتى غطا وجه الأرض فوق الغلاء وقل وارد الغلال واشتد الضيق بالناس وعم البلاء والويل الغنى والفقير وهاجر الناس فراراً من أصحاب الجباية وأعوان التحصيل وقد كانوا انبثوا في البلاد لجبايتها بأمر من الأمير إبراهيم فكانوا إذا نزع أهل بلد أضافوا ما عليهم من الخراج على البلد المجاورة لها وشددوا على أهلها في الطلب وبالغوا في إيذائهم فضاق خناق أهل البلاد وارتفع ضجيجهم وعجيجهم وأصبحوا وهم بين منتطح كبشين إذهاب الحرث والنسل وإيذاء أصحاب الجباية فكادوا يشقون عصا الطاعة ويخرجون على عمال الخراج وكان محمد على باشا يومئذ بالإسكندرية فلما علم بالخبر اضطرب قليل فأصابه بسبب ذلك نوع من الهذيان وتحقق أن ذلك من فعال الأمير إبراهيم بالرعية فغضب غضبا عظيما وانتقل من مقره برأس الثين إلى بيت محرم بك عند المحمودية وأقام هناك أياما وهو يخطط في القول ويكثر من النداء على بعض الخدم ويقول: يا الله قد خاننى القوم فأيقظوا الفتنة

وأبغضوا الناس فىّ وبقي على هذا أياماً والناس يقولون بذهاب عقله ولزوم تخليه عن حكم البلاد ثم سار من الإسكندرية إلى القاهرة فى نفر من الأتباع ونزل بقصره بشبرى فأتى إليه أصحاب الوظائف ورجال الدولة فعنفهم وزاد فى توبيخهم رحمة بالرعية فلم يجسر أحد على معاودته .

(مطلب)

زيارة محمد علي باشا دار السلطنة. وما لقيه من حفاوة السلطان به

وتأقت نفس السلطان عبد المجيد لرؤية محمد علي باشا فدعاه للحضور إلى دار السلطنة فلبى دعوته وسار فى سنة اثنتين وستين ومائتين وألف هجرية فى قلة من الخدم والأتباع ونزل ضيفاً على رضا باشا أحد كبار الدولة وكان رضا باشا هذا من ألد أعداء محمد علي باشا ثم تمثل بين يدى السلطان فرحب به كثيراً فتقدم ليقبل يده فأمسك بيده ورفع وأجلسه بجانبه ولاطفه جداً وحادثه ساعة، قال بعض الكتاب: واتفق أنه كان يحادث السلطان يوماً فقال له فى أثناء الحديث حفظت يابنى وأحسنت، ثم استدرك أن هذا الخطاب لا يليق بأمر المؤمنين فقال: ليعف مولاي عن زلة عبده فإن حبنى لأبناء مصر قد أجرى على لسانى مخاطبة الكبير منهم والصغير بيا بنى، فتبسم السلطان وقال: لا بأس عليك يغفر الله لنا ولك ولبت فى دار السلطنة زهاء ثلاثين يوماً أنفق فيها من المال ألف ألف قرش ما عدا الهدايا النفيسة والتعابى الغالية والتصدق على المساكين وذوى البيوتات ثم رحل عنها إلى قوله مسقط رأسه فمكث بها أياماً وأنشأ بها مدرسة للفقراء وداراً للمساكين ورحل عنها راجعاً إلى الإسكندرية ففرح الناس كافة برجوعه فرحاً عظيماً ودقت له البشائر وزينت المدينة ثلاث ليال وكذلك زينت مصر والقاهرة والكثير من المدن وأقام يدبر الأمر ويتصرف حتى كثر هذيانه وقل إدراكه فكان لا ينكف عن النداء على بعض حاشيته لغير سبب وكان سريع الغضب يكره أن يرى ولده الأمير إبراهيم فإذا رآه اضطرب وظهر على وجهه الغضب فأنفذ الأمير إبراهيم إلى دار السلطنة يخبر بأمر أبيه وما وصلت إليه حالته ويعلم أهل المايين بوجود تخليه عن المنصب فأجابه السلطان إلى ذلك ورسم له بالولاية على ديار مصر وجاءه فرمان بذلك فقرأه بقلعة الجبل فى مشهد حافل ودقت البشائر وطيروا الخبر إلى الآفاق ونقل محمد علي باشا إلى الإسكندرية وكانت أحب البلاد إليه وقد كثر خلطه وكبرت علته .

فلما كان ثالث عشر رمضان سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية فى ولاية عباس حلمى باشا الأول مات محمد على باشا وله من العمر ثلاث وثمانون سنة وقيل أكثر من ذلك وكان ولده الأمير محمد سعيد فى صحبته لم يفارقه كل أيام مرضه فبالغ فى جنازته ونقل نعشه إلى القاهرة مع التجلة والتكريم فى مشهد جافل جداً ودفن بالمقصورة التى ابتناها لنفسه فى جامع الذى أنشأه بقلعة الجبل ولم يكن قد تم بناؤه فحزن عليه أهل القاهرة وسائر البلاد حزناً عظيماً لاجتماع القلوب على محبته، وكان رحمه الله أبيض اللون مشرباً بحمرة عالية الجبهة أصلعها أسود العينين متوسط القامة جميل الهيئة مع هيئة ووداعة سريع الحركة كثير التفكير إذا مشى يجعل يديه خلفه مثل نابوليون وبونابارته بسيط الملبس لا يحب التفاخر ولا الزينة ولا كثرة الحشم والحجاب ميالاً إلى مسامرة كبار الجند ورجال الحرب لا سيما منهم سليمان باشا الفرنسوى فإنه كان يحبه ويجله، قال بعض الكتاب: فكان سليمان باشا يقول لم أتعلق بمحبة أحد غير ثلاثة أبى وبونابارته ومحمد على باشا وكان محمد على باشا إذا جلس فى مجلسه لا يتقلد السلاح بل يجلس وفى يده علبة السعوط والمسبحة وكان سليم القلب سريع التأثر لا يعرف الكظم سريع الانقياد كريم النفس أيها سخى العطاء واسع التدبير مجاب للاطلاع على أخبار الأمم وأحوال الممالك كثير الاشتغال بالسياسة كبير الاهتمام بأحوال الرعية قليل العزم ديناً صحيح الإسلام مجاب للنصارى لا سيما القبط أهل البلاد قرب منهم جماعة كثيرة وأخلص لهم فأخلصوا فى خدمته وخدمة البلاد فسلم إليهم مقاليد الدواوين وصرفهم فى ما وراء بابه فأحسنوا العمل وأحكموا التدبير وكان الأجانب عموماً يسمونه بمحى ديار مصر بعد اندراسها ومبيد طوائف الممالك رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه جنات النعيم.

(مطلب)

(فى ولاية الأمير إبراهيم باشا ابن محمد على باشا)

لما اشتدت علة محمد على باشا وكثر هذيانه أنفذ ولده إبراهيم باشا إلى دار السلطنة يعلمهم بما آلت إليه حالة أبيه ويسألهم الإجازة بتزيله عن منصب الولاية وتخليه عن حكم البلاد فجاءه الأمر بذلك فى جمادى الأولى سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فجعل يتصرف فى الأمور بالوكالة عن أبيه حتى يأتیه فرمان

التولية فلما كان منتصف شعبان من السنة قدم إلى القاهرة مظلوم بك أحد رجال دار السلطنة ومعه الفرمان بولاية إبراهيم باشا فقرأ في ثامن عشر شعبان بقلعة الجبل في محفل حافل من كبار الدولة والعلماء والمشايخ والكبراء ودقت البشائر وطبخوا الخبر بذلك إلى الآفاق فلما كان شهر رمضان سافر إبراهيم باشا إلى دار السلطنة ليقبل الاعتاب على حكم ما في فرمان الولاية فأكرم السلطان لقاءه وأحسن وفادته ولبث أياما ثم عاد فوصل الإسكندرية في عاشر شوال من السنة وهو يشكو من مرض في البطن وما زال يشتد به المرض حتى مات ثالث عشر ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وأربعين وثمانمائة وألف ميلادية فلأزم أهل مصر والقاهرة الحداد عليه أربعين يوما ودفن بالإمام الشافعى وكان جليل القدر مهيبا حازما واسع الفكر عظيم التدبير شديد البطش سريع الغضب جبارا قرما عنيدا صبوراً على الحروب جسورا راسخ القلب موفقا يحسبه العدو بألف مقاتل فى قومه، وكان لما عاد من حروبه فى آسيه الصغرى وتم عقد الصلح بين محمد على باشا وسلطانه عزم على السفر إلى بلاد الفرنسيس للاطلاع على ما فيها من فنون القتال وأسرار الحروب فسار معه سليمان باشا الفرنسوى ورافقهما الدوق نيمورس والامير جوانفيل فلما وصل إلى عاصمة الفرنسيس قوبل بغاية التجلة والاعتبار وكان يتظره أحد كبار الأسطبل الملوكى وقيل أحد كبار الدولة ومعه فرس عربى مطهم بسرج من السروج الكلیمانية قد أعد لركوبه فقدمه إليه فركبه وسار بين مظاهر الاحتفال والاحتفاء وكان هذا الفرس لإبراهيم باشا وقد شاهد معه جميع الوقائع والحروب فى الشام وآسيه الصغرى ودخل به مدينة نصيبين ظافراً منصوراً بعد فتكه بالعسكر السلطانى فسير به محمد على باشا بعد ذلك هدية إلى قصر التويلرى بعاصمة الفرنسيس ومعه تسعة من السوأس المصریین ولبث إبراهيم باشا بباريز أياماً أولمت له فيها الولاثم العظيمة وكانوا يضعون له فى كل مأدبة أو وليمة كرسيا موجهها إلى جهة الشرق إشارة إلى أنه نابغة الشرق ومحجى دياره بعد الاندراست وكانت آلات الطرب والموسیقات تكرر بحضرته نغمات النصر وتردد أذوار الظفر والألحان الحماسية إشارة إلى الوقائع والحروب التى اشتهر بها وفاز فيها بالنصر والغلبة، وجال فى باريز وشاهد ما فيها من الغرائب وتصدق على فقرائها بثمانية وأربعين ألف قرش وسیرت إليه ملكة الإنجلیز تدعوه لزيارة بلادها فاعتذر ولم يشأ الذهاب لبغضه لكبار الإنجلیز وبارح ديار الفرنسيس إلى عاصمة البرتغال فأحسن ملكها وفادته واحتفل لقدمه

احتفالاً شائقاً وأهداه نيشان الصليب الأكبر ثم عاد إلى مصر وعاد في ركباه سليمان باشا.

(مطلب)

فى من هو سليمان باشا الفرنسوى

وقد سمعت بعض الناس يقولون إن سليمان باشا هذا كان فوضويا ميالاً إلى الثورة وقلب هيئة الحكومات فلما اشتهر خبره بين كبار الفرنسيين خافوا منه فأقصوه إلى البلاد البعيدة فجاء هارباً إلى مصر ودخل في خدمة محمد على باشا وتقلب في الوظائف العسكرية حتى حاز الرتب العالية والألقاب السامية واعتنق الديانة الإسلامية تزلفاً واسترضاء فجعلت أبحاث عن ترجمة حاله وأسأل عن صدق أخباره ممن كانوا معه وساروا في ركباه إلى معامع الحروب ومشاهد القتال فلم أعرف منهم إلا ما عرفه العامة وتحدثوا به وما زلت أبحث حتى عثرت على ترجمته لأحد كتاب الفرنسيين فقلتها عنه وهى، هو سيف بن أوكثاف جوزيف انتلم الطحان ولد بمدينة ليون من أعمال فرنسا في أوائل شهر أبريل سنة سبع وثمانين وسبعمائة وألف ميلادية أى سنة إحدى ومائتين وألف هجرية وكان له جد قوى الجأش شديد البأس طاغية قاسى القلب يلقب بالتركى لقساوته وسكون قلبه وكان سيف المذكور مولعاً بالحروب ميالاً إلى الغزو والجهاد والخوض في معامع القتال فلما بلغ السابعة عشرة من عمره سار إلى طولون إحدى أعمال فرنسا ودخل في خدمة بحريتها متطوعاً وأقام بها خمس سنوات ثم نال رتبة وكيل للفرقة الثانية البحرية المدفعية ولبت بها زهاء ستين ثم تاقبت نفسه إلى الانخراط في سلك الجندية البرية وقد كان مارس حركاتها وتعلم أساليبها وجال في البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلانتيكى مرات كثيرة وزار جزائر الأرخبيل ثم عاد إلى ليون لجراحة أصابته في ذراعه الأيسر في حرب ترافالجار وأقام مع أبويه أياماً كثيرة ثم حدث بعد ذلك أن وقع بينه وبين عدو له مشاجرة أدت إلى الملاكمة ثم المضاربة فانقض سيف على عدوه وقتله وفرّ هارباً من ليون إلى إيطاليا خوفاً من العقاب ودخل في عسكريتها جندياً في الفرقة السادسة التى كان يقودها الكولونيل باجول ولبت على هذا الحال حيناً ولما كان من نظام دولة إيطاليا العسكرى في ذلك الحين تعليم الفرسان الإيطالية جميع حركات المشاة أيضاً قد تكفل سيف بتعليمهم وأخذ ذلك على عهدته فظهر أمره وكبر شأنه وعرفه الناس فاستعت شهرته، فلما كانت سنة تسع وثمانمائة وألف ميلادية اختارته الدولة

الإيطالية لأن يكون قائدا لجيوشها التي ساقتها إلى القتال في واقعة الرين الشهيرة مع دولة الروس فأبلى في تلك الحرب بلاء حسنا حتى شهد له العدو بالبسالة ومعرفة أسرار الحروب وما زال يقاتل والنصر يلازمه والتوفيق يتقدمه حتى أصيب فرسه في إحدى المعامع فسقط ميتا وسقط هو على الأرض فأصابه العدو بثلاث طعنات وطلق ناراً ثم حمل أسيراً إلى مدينة موسكو عاصمة الروس فلبث بها ما شاء الله حتى شفيت جراحته ونقه من علته واستعرض القيصر أسراء تلك الحرب وعلم بأحوال سيف فمال إليه وامتنح بسالته وجعله وكيل مقدم جميع الفرسان الروسية ثم مقدم جميع الفرسان فظهر نبلة واشتد أمره وخاز نياشين الشرف في معامع الحروب وكاد أن يسقط في يد العدو في واقعة بوزن وقد جرح بجراحة خطيرة ثم شفى منها فقلده القيصر قايمقامية قيادة الجيوش الروسية وفي سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف ميلادية افتتح بعض المقاطعات القوزاقية بطريقة لم يسبق لها مثيل ولم يكن ليسمح له بها رئيسه الجنرال بيره فزاد إعجاب رجال حرب الروس به وقدره قدره ولما طالت غيبة سيف عن الآل والوطن حنت إليهما جوارحه فصار بين إقدام وإحجام حتى علم بونابارته من أمره ما أعجبه فأنفذ إليه بالحضور إلى عاصمة الفرنسيين فلبى إشارته وأتى مسرعاً إلى باريز فأكرم بونابارته لقاءه وأدخله في خدمة الجيوش الفرنسية فسار سيرة حسنة للغاية وبالع في الطاعة وأداء الخدمة حقها واشتهر في خدمة بريئة شهرة عظيمة للغاية فمال إليه بونابارته وأحبه ومنحه رتبة القايمقام، ورافق المارشال جروشى قائد جيوش فرنساوية في واقعة وأنزلوا الإنجليزية فنال شهرة عظيمة ثم تغيب عن ساحة الحرب فدارت في غيبته الدائرة على الفرنسيين فانهمزموا شر هزيمة وكان له بعيد ذلك في حروب المائة يوم المشهورة اليد الطولى فغلب فيها وقهر وفاز وانتصر ونال من العدو وظفر فنال رتبة الكولونيل أى أميرالاي مع نيشان الافتخار، فلما سقط بونابارته عن عرشه وبطلت الحروب بسقوطه عز على الأمير سيف هذا المصائب وحزن على بونابارته حزناً عظيماً واعتزل الجندية ومال إلى الزرع والفلاحة فاستأجر مزرعة في أراضي الجرنيل وجعل يفلح حيناً ثم تآقت نفسه إلى الخوض في عباب الحروب ومشاهد القتال وكأنه أقسم أن لا يموت إلا شهيد الحرب والجلاد ولما لم يكن بين بلاده وبين دولة أخرى حرب قائمة ترك وطنه ومسقط رأسه وسكنه وسار إلى بلاد فارس وقد كان ملك فارس أخذ ينظم جيوشه يومئذ على ترتيب ونظام جيوش الفرنسيين فمر سيف في طريقه بالإسكندرية ولبث بها أياماً فأعجبه هواؤها وحن إلى البقاء فيها وعدل عن الذهاب إلى ملك فارس وكان يعرف

بالإسكندرية تاجرا من كبار الفرنسيين فقصده وكاشفه على ما فى نفسه من الميل إلى خدمة محمد على باشا وترتيب عسكره على نسق وترتيب عسكر الفرنسيين وكان محمد على باشا ميالا إلى ذلك جدا فلما علم بأخبار الكولونيل سيف وعرف مبلغ شهرته فى تنظيم الجيوش وتدريب العسكر وتحقق من بسالته وإقدامه وتمكنه من الفنون الحربية مال إليه وأدخله فى خدمته وسلم إليه مقاليد كافة الأمور العسكرية فلاقى من كبار وصغار العسكر الأرئود والدلاة وغيرهم من بقية أخلاط العسكر المصرى يومئذ غاية الجفاء والشدة فكانوا يخاطبونه بفحش القول وينادونه بالكافر واشتد بغضهم إليه وكرهوا بقاءه بينهم فألحوا على محمد على باشا بإخراجه من ديار مصر وإلا فهم قاتلوه لا محالة ودسوا إلى جماعة منهم ممن دخل فى نظام العسكر الجديد أن يقتلوه فبينما كان يدرّب العسكر يوما ويعلمهم استعمال البنادق أطلق عليه أحدهم بارودته فأخطأته فتغافل الكولونيل سيف عنه ولم يظهر اهتماما بأمره وظل على ما هو عليه من لين الجانب ودماثة الأخلاق وجعل يستميل خصومه ويسامرهم فنجح بعض النجاح ولكنهم عادوا فأطلقوا عليه الرصاص مرة ثانية فلم يصيبوه فتبسم وصاح عليهم لا بأس عليكم يارفاق وددت لو أنكم تحسنون الرماية فيسر خاطرى بكم فلما رأوا ثباته وشدة محبة محمد على باشا له هابوه وخضعوا له فظهرت كلمته واتسعت شهرته ولبت يعلم الجند ثلاث سنين والتوفيق ملازم له حتى ظهرت فتنة أهل المورة وخرجوا عن طاعة السلطان محمود فسير السلطان لإخضاعهم جيشا من خمسة آلاف مقاتل ومقدمه خورشيد باشا صدر الدولة يومئذ وكثيراً من سفن الحرب ومراكب النقل فاستظهرت الروم على الترك ونالت منهم قتلا وتفريقا وأحرقوا سفنهم وكادوا يدمرونها عن آخرها فأنفذ السلطان إلى محمد على باشا فى رابع عشر جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية يستنجده على قتال الروم ويمنيه بالأمانى الكثيرة ويخاطبه بعبارات التجلة والتكريم ويلقبه بمبيد طغام الكفار ويعده بضم مورة إلى ولاية مصر إن هو دوتّحها وأرجعها إلى الطاعة وكان يوسف بوغوس بيك الأرمنى متوليا يومئذ رئاسة الخارجية والتجارة وكتابة سر محمد على باشا فلما اطلع على ما فى فرمان السلطان من عبارات التجلة والتكريم كاد يطير فرحا وتقدم إلى محمد على باشا وهو يقول: ليضع الله يده القادرة على جبينك الشريف تاج ملك جميع العالم فإنك أهل لذلك يابونابارته أفريقية. فسير محمد على باشا لقتال الروم جيشا ومقدمه الأمير إبراهيم باشا وكان الكولونيل سيف فى هذا الحين قد أسلم واعتنق الدين الإسلامى وسمى سليمان ونال رتبة الباشاوية

فسار مع الأمير إبراهيم باشا وقاتل الروم وأظهر من فنون القتال وأسرار الحرب ما شهدت به الأعداء وبلغت شهرته يومئذ مبلغاً عظيماً وأحبه محمد على باشا ثم كان منه ما كان في حروب الشام وآسيه الصغرى وزحفه بالعسكر المصرى على أبواب القسطنطينية وأسره للصدر الأعظم وغيره من كبار رجال حرب الدولة وما أنشأه من القلاع والحصون والمعازل التي كانت من معجزات فنون القتال وغير ذلك من الأعمال الخطيرة التي قل أن يأتى غيره بمثلها في ذلك الحين وما زال يتقلب على بساط النعيم في بحبوحة الهناء حتى مات ودفن بيستان منزله على ساحل النيل بمصر القديمة.

وكان إبراهيم باشا مولعاً بالزراعة وفلاحة الأرض فضم إلى أملاكه أجود الأراضي وأخصبها بالإقليمين القبلى والبحرى ورتبها بغرس الأشجار العظيمة وأنشأ معامل السكر والكتان ومطاحن القمح ومعامل النيلة وبالع في ترتيبها وبذل النفيس في إصلاح أمرها حتى زادت غلتها وكثرت محصولاتها ونمت، قالوا: وكان شديد البأس على الفلاحين جافى الطبع حازماً مقتراً يحاسب على الذرة والبرة ولا يترك لأحد منهم مثقال ذرة فكان أبوه يكره منه ذلك ويعنفه عليه ولا يمكن نفسه من هواها وقد أثرى وكثر ماله في آخر أيامه كثرة بالغة واتسعت ماله رزقه اتساعاً عظيماً وخلف ثلاثة بنين هم أحمد وإسماعيل ومصطفى ومات عن عدة زوجات أكثرهن بغير ولد وكثير من الجوارى والخطيات وعمره ستون سنة هلالية فكانت ولايته سبعة أشهر وثلاثة عشر يوماً منها ثلاثة أشهر بعد ورود فرمان السلطان إليه بالولاية فتولى الأمر بعده ولد أخيه عباس باشا الأول ابن طوسون بن محمد على باشا.

(مطلب)

(ولاية عباس باشا ابن الأمير طوسون باشا)

كان عباس باشا يوم موت عمه إبراهيم بالديار الحجازية فاراً من وجه عمه إذ كان يمقته كثيراً ويريد البطش به لأمر تقمها عليه وقيل بل ذهب لأداء مناسك الحج والأول أشهر فاستقدموه ورفعوا أمر ولايته إلى دار السلطنة فورد فرمان بولايته في سابع عشرين ذي الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فأصعدوه إلى قلعة الجبل في موكب حافل وطبروا الخبر بذلك إلى الآفاق فلما استقرت به الولاية صرف الكثير من بطانة جده وأبعد أصحاب الوظائف العالية واتخذ له بطانة ممن يعتمد

عليهم ويميل بالطبع إليهم وأقصى أصحاب الرأي وأهل الشورى واختص بقوم غيرهم فلم إليهم مقاليد الأمور وتدير مهام الرعية فعملوا لأنفسهم واشتدت في هذا الحين الفتنة بين قيصر الروس والسلطان عبد المجيد وكبرت الوحشة بين الفريقين .

(مطلب)

وقوع الحرب بين السلطان ودولة الروس ومعاونة الإنجليز

والفرنسيين للسلطان على قتال الروس

قال أصحاب التاريخ : وكان سبب ذلك أنه لما كان لدولة الفرنسيين حق حماية جميع الكنائس الكاثوليكية والذب عنها عند الحاجة بمقتضى أحكام المعاهدة التي تمت ما بين الملك لويس الخامس عشر ملك الفرنسيين والسلطان محمد خان سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربعين وسبعمائة وألف ميلادية على ما تقدم بك بيانه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب ، وكانت دولة الروس تكره ذلك وتسعى فى تعضيد جانب جماعة الأرثوذكس وإعلاء كلمتهم فوق كلمة أصحاب الكثلثة لا سيما فى بيت المقدس وتشتد رغبتها كل يوم فى نزع كنائس بيت المقدس من أيدي قسوس الكاثوليك وإعطائها إلى قسوس الأرثوذكس فجعلت تراقب القصر وتبين ارتفاعها حتى رأت اشتغال دولة الفرنسيين بإخماد نار ثورتها الداخلية ثم بالحروب التى أثارها بوناپارته على جميع الممالك الغربية زهاء اثنتين وعشرين سنة بما لا تقدر معه على الذب عن أهل الكثلثة فعمدت إلى نزع جميع ما بأيدي الكاثوليك من تلك الحقوق والامتيازات وسلمتها إلى جماعة الأرثوذكس فتصرفوا فيها واستبدوا بها وغيروا وبدلوا حسب أهوائهم وما زالوا يتصرفون حتى تولى نابليون الثالث رئاسة جمهور الفرنسيين الثانية فرأى من اهتمام أهل الكثلثة بهذا الأمر ما أعجبه وزين له مخابرة السلطان فى إرجاع تلك الحقوق والامتيازات إلى ما كانت عليه حسب المعاهدات والعقود القديمة فطال الأخذ والرد ثم تقرررت القاعبة بين الفريقين على انتخاب عمدة من كبار المذاهب وأئمة الدين لينظروا فى مزاعم الخصمين ويقرروا فيها أمرا باتا فأطالت العمدة البحث والتنقيب ولبت الحال على ذلك أياماً كثيرة ثم حكمت برد جميع الكنائس والديارات إلى جماعة الكاثوليك ببيت المقدس ويرد بعض الامتيازات والحقوق الأخرى حسب أحكام المعاهدات القديمة وحررت بذلك صكا. فى شهر جمادى الأولى سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أى فى شهر فبراير سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية فعارضت دولة الروس فى نفاذ

هذا الصك وهدد قيصرها السلطان بالحرب والقتال إن هو رسم بتنفيذه وطالب نابوليون السلطان بتنفيذ حكم العملة ورد ما أخذ من جماعة الكاثوليك وشدد في الطلب فأصبح السلطان وهو بين متطحن عزيز ولكن عاده عاد فرسم بتنفيذ حكم العملة فقامت دولة الروس وقعدت وكان القيصر شديد الرغبة في فتح أبواب الحرب والتعجيل في قتال السلطان وقد أخذ تأهبه لذلك منذ حين فعمد إلى استعمال الشدة وسير إلى دار السلطنة الأمير منشكوف كبير ديوان البحرية الروسية ليكلم السلطان في عدم جواز العمل بما قضت به العملة وعدم مس ما بأيدي الارثوذكس من الكنائس والديارات فوصل إلى دار السلطنة في ثامن جمادى الأولى سنة تسع وستين، قال بعض الكتاب: فاحتفل للقائه جماعة الروم بالقسطنطينية احتفالا عظيما وبالعوا في إجلاله وتعظيمه استصغارا بالمسلمين وساروا أمامه وهم في ضجة وجلبة عظيمتين فنزل في دار سفير الروس أياما لا يقابل فيها أحدا من رجال الدولة فلما كان العشرون من جمادى المذكور سار إلى مقر صدر الدولة وهو في زى المسافرين ودخل عليه بلا حشمة ولا تأدب وكلمه في أمر الكنائس بيت المقدس وقال إن مولاي القيصر لا يطيق الصبر على ما يلاقيه أهل الارثوذكسية من أصحاب الكثرة ولا يسمح بتنفيذ حكم العملة الدينية وقد سير بى إلى هنا لأكلمكم فى الامر فإن أنتم فعلتم ما نحب فيها ونعمت وإلا فالسيف يحكم بيننا وبينكم وطير الخبر بذلك إلى القيصر فجعل القيصر يستطلع ما سيكون من دولة الإنجليز إن هو ركب بعسكره لقتال السلطان وسأل سفير الإنجليز فى ذلك وفيما إذا كانت دولة الإنجليز تعاقده على قتال السلطان «قال» فإذا هى فعلت ذلك وبلغنا المقصود من تقسيم بلاد السلطنة العثمانية وإرجعناها إلى ما كانت عليه من الذل والصغار تساهلت معها وأنتها أخذ الديار المصرية وجزيرة كريد وتخلصنا جميعاً من مكاييد هذا القرم العنيد فخابر سفير الإنجليز دولته فى ذلك فلم تقبل خوفا من استفحال أمر الروس وامتداد شوكتهم فى الشرق ودخول القسطنطينية فى عداد أملاكهم فيشاركون الإنجليز فى ملك البحار ويزاحمونهم على نيل الأوطار.

وكبر ما وقع من سفير الروس على السلطان عبد المجيد واستعظمه فكلم دولتى الإنجليز والفرنسيين فى أمره فتجرد نابوليون الثالث للعداوة وزين لدولة الإنجليز التحالف على قتال الروس وإيقافهم عند حد احترام العهود والعمل بمقتضى المواثيق القديمة وما زال بها حتى مالت إلى الحرب خوفا على هندها فسير فى الحال بعض

سفن الحرب الفرنسية إلى اليونان فألقت مرساها في فرضة سلامين إحدى الجزر اليونانية ولبثت تراقب الحوادث ورسمت كذلك دولة الإنجليز إلى سفن حربيها الراسية في مينا مالطة بأن تكون على قدم التأهب والاستعداد وكان الأمير منشيكوف الروسى فى غضون ذلك يتردد على الباب العالى فى طلب تجديد معاهدة خونكار اسكله سى ليكون لدولة الروس من وراء تجديدها حق حماية جميع طوائف الأرثوذكس الذين فى بلاد السلطنة العثمانية فكان السلطان يطاوله ويمنيه بالأمانى البعيدة ثم رسم بإعادة رشيد باشا الصدر المعزول إلى منصب الصدارة وهو من أعداء الروس وأشد رجال الدولة كرها لهم وكان قد خلع من منصبه استرضاء للقيصر ومنعا للدسائس والفتن السياسية فلما تقلد المنصب تجرد إلى الدفاع ووقف فى وجه الأمير منشيكوف وأبى عليه كلما طلبه فاستعظم الأمير منشيكوف هذا الأمر وأنفذ إلى الباب العالى بلاغا فى شعبان سنة تسع وستين ومائتين وألف بجميع مطالب مولاه القيصر وضرب للصدر الأعظم أجلا خمسة أيام فلما انقضى الأجل المضروب أمده بشمانية أيام آخر فانقضت ولم ينل من الباب العالى جوابا، وكان السلطان لما ورد إليه بلاغ الأمير منشيكوف طير خبره إلى عاصمتى الإنجليز والفرنسيس وطلب منهما الوساطة فى الأمر حقنا للدماء فسيرت فى الحال سفنهما الحربية نحو الدردنيل وعلم الأمير منشيكوف بذلك فكتب إلى صدر الدولة فى تاسع عشر رمضان من السنة يعلمه بزحف الجيوش الروسية على حدود السلطنة العثمانية فلما كان خامس عشر الشهر المذكور جاءت الأخبار باجتيار الأمير كورتشاكوف الروسى بعساكره نهر البرونة واختلاله مقاطعة الدانوب فسير إليه السلطان من يسأله الجلاء وعدم مجاوزة الحدود فلم يلتفت إلى ذلك ونادى فى عسكره بالتأهب ووردت الأخبار بذلك أيضاً إلى عاصمتى الفرنسيس والإنجليز فاجتازت سفنهما الدردنيل وكان القيصر يؤمل مساعدة إمبراطور النمسا له فى هذه الحرب لما بين القيصر وبينه من العلائق الودية وما للقيصر عليه من الأيادى البيضاء لا سيما بعد قيام الفتنة فى بلاد المجر وخروج أهلها عن طاعته وكان إمبراطور النمسا يخشى عاقبة هذه الحرب ويعلم أن ما وراءها إلا الطامة الكبرى على مملكته إن نالت دولة الروس من السلطنة العثمانية وتم لها النصر فعمد إلى استعمال المؤاربة وخاير الدول جميعا فى عقد مؤتمر بمدينة وينا لإصلاح ذات البين ومنع وقوع الحرب بين الطرفين فأجابته الدول إلى ذلك وتم انعقاد المؤتمر فى سلخ ذى القعدة سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية وتقررت القاعدة بين

مبعوثى كافة الدول على حدود وشروط معينة قيل فأذعنت لها دولة الروس راضية على ما فيها من المواربة والتعقيد ولم يقبلها الباب العالي وفضل الحرب على هذا السلم المحفوف بصنوف المكاره فانحل المؤتمر على غير طائل وكان الأمير كورتشاكوف قائد الجيوش الروسية قد تمكن فى خلال هذه الفترة من احتلال ولايتى الفلاق والبغدان والتحصن فى حصونها فأنفذ إليه السلطان بإخلائهما وضرب له أجلا خمسة عشر يوما ورسم إلى عمر باشا مقدم الجيوش العثمانية فعبّر الطونة فصارت الحرب بين الفريقين أدنى من قاب قوسين .

واستخف الأمير كورتشاكوف بقدر الجيوش العثمانية التى عبرت الطونة فلم ينجل عن مواقعه وزاد فى التحصن والاستعداد فسار إليه عمر باشا وقاتله قتالاً عنيفاً وطال القتال أياماً ثم انكشف عن هزيمة كورتشاكوف شر هزيمة وجلائه عن معاقله وانتصار عمر باشا نصرة مؤزرة وجاءت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة وكان السلطان قد رسم أيضاً إلى عبده باشا أحد مقدمى العسكر السلطاني بالزحف على حدود الروس من جهة بلاد قافقاسية فسار بعسكره حتى اجتاز الحدود وقاتل وأخذ قلعة سان نقولا وانتصر كذلك على الروس نصرة عظيمة واشتد القتال بين الطرفين أياماً ثم توقف بسبب الشتاء وتراكم الثلوج والأمطار فهال القيصر هذا الأمر وأرعجه وكبر خوفه من عاقبة هذه الحرب إن اشتركت فيها أيضاً عساكر الفرنسيين والإنجليز وطلب المدد من إمبراطور النمسا فلم يجبه خوفاً من شر العاقبة فسير القيصر إلى دولتى الفرنسيين والإنجليز يسألهما عدم دخول مراكبهما الحربية إلى البحر الأسود وتربصها عند البوغاز وهو يكفل لهما عدم إجراء شيء من الحرب والقتال . قال بعض الكتاب : البحر المذكور لو نزلت فيه مراكب الدولتين لا تتحرك من مكانها أياماً وظن السلطان وقوف رضى الحرب حتى ينقضى الشتاء وكان للسلطان عمارة صغيرة بالبحر الأسود راسية فى مينا سانوب فلم يشعر أميرها إلا وقد داهمته مراكب الروس وأحاطت بمراكبه من كل جانب وأطلقت عليها القنابل تباعاً فسقط فى أمره واختبل وعز عليه التدبير للخلاص واشتد رمى مراكب الروس وتراسلت القنابل حتى دمرت جميع المراكب السلطانية ولم تبق لها أثرا وجاء الخبر بذلك إلى دار السلطنة فأبلغه الصدر إلى سفراء الدول فجاء الأمر على الأثر إلى السفن الفرنسية والإنجليزية باجتياز البوغاز ودخول البحر الأسود والتأهب لرد جميع المراكب الروسية عن الدنو من موانئ السلطنة العثمانية فاجتازته وسارت تمخر فى طوله وعرضه وأرسل السلطان إلى عباس باشا يطلب المدد من العسكر المصرى فبعث إليه عباس باشا

بجيش ضخم كامل العدد وأرسل إلى الخزينة السلطانية شيئاً من المال لنفقة الجند قيل وكان يكره نجدة السلطان ويتمنى انفضاله حبا في الاستقلال بملك مصر والخروج من تابعة السلطنة فلم تساعد الأيام ولم يتل هذا المرام وسارت العساكر المصرية مع العساكر العثمانية وقاتلت وانتصرت في عدة مواقع كثيرة وأبليت بلاء حسنا ووردت الأوامر من قيصر الروس إلى سفيريه بعاصمتي الفرنسيين والإنجليز بالشخص إلى عاصمة الروس وقطع العلاقات السياسية فانسحبا ووقع الاتفاق بين دولتي الفرنسيين والإنجليز والسلطان على قتال الروس وتقررت القاعدة بينهم على أن تسوق دولة الفرنسيين إلى ساحة القتال خمسين ألف مقاتل من رجالها كاملي العدد وكذلك دولة الإنجليزية تسيّر خمسة وعشرين ألفا ليتألبوا على القتال ولا ينفكوا عنه حتى تلزم دولة الروس حدودها وتكف عن القتال صاغرة فلماذا تم لهم النصر عادت العساكر الفرنسية والإنجليزية وتركت الدولة العثمانية وشأنها تتصرف في بلادها وترتب أمورها على ما فيه مصلحتها فلما كان شعبان سنة سبعين ومائتين وألف هجرية قامت الجيوش الفرنسية ومقدمها الماريشال دي سنت أرنو والجيوش الإنجليزية ومقدمها اللورد رجلان ومعهم شيء كثير من المؤن والذخائر وآلات الحرب الكاملة على ظهور سفن النقل العظيمة قاصدة دار السلطنة العثمانية فلم تكد تصل إليها حتى قامت الحرب على ساقها بين مراكب الحرب الإنجليزية والفرنساوية وبين قلاع وحصون مدينة أوديسا، قال بعض الكتاب: وتحرير الخبر أنه لما انقطعت العلاقات السياسية بين الأحزاب ودولة الروس جعلت كل دولة منهم تحافظ على كرامة رعاياها وحرمتهم في بلاد عدوتها فسيرت دولة الإنجليز بعض السفن الحربية التي لها بالبحر الأسود لنقل قنصل الإنجليز ومن معه من الرعايا الإنجليزين الذين بمدينة أوديسا فلما اقتربت السفينة المذكورة أطلق عليها الروس الذين بقلاعها المدافع وراسلوا الرمي بالقنابل حتى كادت تدمرها فهربت فهال هذا الأمر أمير السفن الإنجليزية واتفق مع أمير السفن الفرنسية على الأخذ بالشار إن لم يعتذر حاكم أوديسا عما وقع ويطلب الصفح ويقوم بالترضية وضرباً له أجلاً أربعاً وعشرين ساعة فلم يلتفت الحاكم إلى ذلك ولم يحل طلبهما محلاً فسارت جميع السفن في شعبان سنة سبعين ووقفت أمام حصون المدينة وجعلت ترمي عليها بالقنابل تباعاً حتى دمرتها تدميراً والتهمت النيران جانباً منها ثم تركتها وسارت نحو سياستوبول ودعت مراكب الحرب الروسية للنزول فلم تبرز لنزالها فسارت على الفور بعض السفن الفرنسية والإنجليزية لضرب جميع الثغور الروسية الواقعة على البحر الأسود فأنفذ القيصر الماريشال بسكيفتش

فى جيش جرار لعبور نهر الطونة فعبره وسار نحو مدينة سلسيريا وحاصرها وضيق عليها من كل جانب وأقام على حصارها زهاء خمسة وثلاثين يوما فلم ينل منها وقد كان من بها من العسكر السلطانى لا يتجاوز الخمسة عشر ألفا ومقدمهم موسى باشا وجاءت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة فسارت الجيوش المتحالفة إلى وارنه لنجدة موسى باشا ومن معه فمات موسى باشا قبل أن ينجدوه وخاف أمير العساكر الروسية من وصول الجيوش المتحالفة وهو على قدم الحصار فأنجلى بعسكره عن المدينة فتبعته العساكر العثمانية وجعلت تتخطف ساقته حتى تجاوز نهر الطونة وما زال يقاتل ويدافع حتى عبر نهر البروت وصار فى مأمن من نيران العسكر السلطانى فعادت بعد ذلك العساكر السلطانية فاجتمع سائر أمراء الجيوش المتحالفة وتشاوروا فى أمر القتال مع العدو وكان الطاعون قد تفشى فى حدود السلطنة العثمانية وكثر فيها الموات فاتفقت كلمتهم على التزول على سباستبول ومحاصرتها وعدم الجلاء عنها حتى يدكوا أسوارها دكا وسيروا فى الحرم افتتاح سنة إحدى وسبعين جماعة من المقاتلين من الفرنسيين والإنجليز والترك والمصريين فكانوا زهاء ستين ألفا كاملى العدد فزلوا عليها ولم يستقر بهم المقام حتى التهبت نار الحرب بينهم وبين الروس وعلا ضرامها وانكشفت عن هزيمة الروس ونصرة الفرنسيين نصرة مؤزررة وأخذوا منهم المرتفعات المشرفة على نهر الماء فكانت عندهم من أهم المواقع الحصينة ثم عمدوا إلى فتح مينا بلكلاوا ليجعلوها مأمنا لسنهم التى كانت تأتى إليهم بالمؤن والذخائر ومعدات الحرب فزحفوا عليها وقتلوا يومين حتى فتحوها عنوة ودخلوها ثم انكفوا عن القتال أياما فتمكنوا فيها جماعة الروس من تحصين سباستبول تحصينا منيعا وبالغت فى ذلك من البر والبحر حتى صارت لا ترام.

وسارت جيوش الأحزاب نحو سباستبول وقد نفشت فيهم الحميات فكثر الموات بينهم وحمل الماريشال سانت أرنو مقدمى الجيوش الإفرنسية ومات قبل أن يعيد الكرة على حصون سباستبول فنقلوا جثته إلى عاصمة الفرنسيين باحتفال زائد وأقاموا مكانه الجنرال كانروبر فحاصروا سباستبول ورموا عليها بالقنابل فى أوائل صفر سنة إحدى وسبعين ولتبشوا يزاسلون الرمى ليلا ونهارا زهاء خمسة أيام ثم هجموا عليها هجمة رجل واحد فلم ينالوا منها وردوا على أعقابهم خاسرين وتبعتهم طائفة من العساكر الروسية وقتلتهم قتالا عنيفا ثم عادت ولم تظفر بهم وطالت أيام الحصار والحرب بين الفريقين سجالا حتى دخل الشتاء فكثر الموات فى عسكر الأحزاب ونفشت بينهم الأمراض فأوقفوا رمى القتال ولبشوا على قدم الحصار فعادت العساكر

الروسية إلى تقوية ما تشعث من الحصون وترميم ما تهدم منها حتى عادت إلى ما كانت عليه من المنعة وخاف رجال سياسة الفرنسيين والإنجليز من اتحاد إمبراطور النمسا مع قيصر الروس على الذب والقتال فتزداد هذه الحرب ويلا وتعظم مصيبتها لا سيما وقد كانوا يرون في الروس خصما عنيدا وقرما صبوراً على القتال فعمدوا إلى استمالة إمبراطور النمسا وحببوا إليه الاتفاق معهم على ما فيه المصلحة لبلاده أيضاً فوافقهم على ذلك وكان بينه وبين فريديك غليوم ملك البروسيا عهد على أن لا يقدم أحدهما على التحالف مع الدول الثلاثة المتحالفة إلا بعد رضا الآخر فخابره إمبراطور النمسا في ذلك وزين له الاشتراك معه على ما فيه المصلحة لبلاده فلم يلتفت إلى شيء من أقواله فاتفق الأحزاب على مخابرة قيصر الروس في الصلح وكف القتال على قاعدة هي عدم انفراد القيصر بحماية المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية وعدم التعرض لحماية الفلاح والبيضان وإباحة المرور لجميع مراكب الدول في نهر الطونة وتعديل المعاهدات المتعلقة بالمرور في بوغازات القسطنطينية لا سيما منها معاهدة سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وكلما سفير الروس بعاصمة النمسا في ذلك فطلب المهلة حتى يأتيه أمر القيصر فأسهلوه واشتغلوا بالتأهب والاستعداد لإضرار نار الحرب إذا ولي الشتاء وجاء الصيف وبينما هم على هذا الحال إذ هاجم الروس مدينة أوياتوريا وكان بها عدد من العساكر السلطانية والعساكر المصرية فاقتل الفريقان قتالاً عنيفاً وصبر كل فريق على القتال فمات خلق كثير ومات سليمان باشا مقدم العسكر المصرى في هذه الموقعة ثم انكشف القتال عن هزيمة الروس وردهم على أعقابهم خاسرين ووردت الأخبار بذلك إلى معسكر الأحزاب فأخذوا أهبتهم واستعدوا لمهاجمة سباستبول والإلحاح في قتالها وأكثروا من جمع الأسلحة والكرام فلم يمض على ذلك إلا أيام حتى مرض القيصر وأشد به مرضه ومات في جمادى الثانية سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية وشاع خبر موته فظن الناس زوال الفتنة وكف المتحالفون عن القتال فلم يصب ظنهم المرمى إذ تولى الملك بعد موت القيصر المشار إليه ابنه إسكندر الثانى ولم يستقر به المنصب حتى جعل يتأهب للزحف على مواقع الأحزاب ويكثر من حشد الجيوش وإعداد معدات القتال فلما أنس الأحزاب منه ذلك زينوا إلى ملك ساردينا التى هي اليوم مملكة إيطاليا الاتحاد معهم على قتال الروس وما زالوا به حتى سير جيشاً عظيماً من عسكره إلى حصار سباستبول وتحالف على الذب والقتال فقويت عزيمة الأحزاب وجعلوا يناوشون الروس القتال فكانت بينهم سجالات ثم تمكنت جيوش الأحزاب من

احتلال مدينة كمرش وبوغاز پريكوب ومدخل بحر أزاك فأتموا حصار سباستبول ومنعوا عنها الواصل واشتد الحال من هذا الحين على الروس فجعلت جيوش الأحزاب توالى الزحف والهجوم على مواقع الروس وتلح فى قتالهم من البر والبحر فانتصروا فى عدة مواقع وأخذوا بعض القلاع والحصون الداخلة فى حدود بلاد القرم ومنها قلعة ملاكوف أخذها الجنرال ماك مهون الفرنسوى عنوة فى خامس عشر ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية ولما اشتد الحصار على سباستبول وضائق عليها المسالك وانقطع المدد خرج من كان بها من الروس وأوقدوا فيها النيران فالتهمتها عن آخرها ودكتها دكا فدخلتها عساكر الأحزاب فى ثانى يوم متخوفة .

ودخل الشتاء فوقفت رحى الحرب بين الفريقين وأحست دولة الروس بالغلبة وعدم القدرة على دفع جيوش الأحزاب بعد خراب سباستبول فعمدت إلى المواربة وتودد القيصر إسكندر إلى أمبراطور النمسا فكلم الأمبراطور الدول المتحالفة فى تقرير قاعدة للصلح والكف عن القتال وحقق الدماء المهدرة بسبب هذه الحرب المشؤمة فأجابته الدول إلى ذلك وقرروا القاعدة بينهم على ما فيه المصلحة وعرضوها على القيصر فأجابهم إليها وطلب عقد مؤتمر فى باريس عاصمة الفرنسيس لتقرير أمر الصلح نهائياً فأجابوه إلى ذلك أيضاً وانعقد المؤتمر ووالى الاجتماع أياماً حتى تم الصلح بينهم وتسطر فى أربع وثلاثين مادة أصلية ومادة إضافية صار التوقيع عليها من جميع مبعوثى الدول ومبعوث السلطان ثم تقرر بعيد ذلك رفع الحصار عن جميع الموانىء والثغور الروسية وانسحاب جميع عساكر الأحزاب من بلاد القرم فى أجل لا يتجاوز الستة أشهر وأن تنجلي دولة النمسا عن ولايتى الفلاق والبغدان فى بحر ثلاثة أشهر وكذلك تنجلي الروس عن مدينة قرص وقلعتها وتردها إلى الأملاك السلطانية فى بحر ثلاثة أشهر وعاد من بقى من العساكر المصرية إلى القاهرة ثم كان بعيد ذلك ما كان من الفتن والإرهاصات الداخلية وخروج بعض الإيالات عن طاعة السلطان ونوالها شبه الاستقلال بتعصيد دول أوروبا لها بما لا محل له هنا خوف الإطالة .

وكرر على باب عباس باشا أصحاب السعاية وأهل الرشاية فأخذ بقولهم وعمل بمشورتهم واشتدت رغبته فى معرفة أحوال جميع الناس وأسرار أصحاب البيوتات فأنفذ لذلك جماعة فكانوا يأتون إليه بالأخبار المقلقة والحوادث المكدرية ليأعدوا بينه

وبين الناس فتطير وأخذ حذره وأكثر من شراء الممالك الجلب والإماء السود وأقام طوائف الترك على بابه يحرسونه نهارا وطوائف الممالك يخفرونه ليلا وكان شديد البغض لأهله وعمومته وعلى الخصوص منهم أولاد إبراهيم باشا فضيق عليهم وشدد وبالغ فى تنكيلهم فضبط أرزاقهم وحبس غلاتهم وشرد أتباعهم وحاشيتهم وأقصى القائمى بأشغالهم إلى سنار وفيزوغلى وأقام عليهم الدعاوى الطويلة حتى ضاق بهم الخناق فكانوا لا يحصلون على طعام يوم لحبس أرزاقهم وانكمشوا وقل ظهورهم بين الناس خوفا من اشتداد الفتنة ورميهم بالتهمة الكاذبة ومع ذلك فقد كانت عيونه وأرصاده لا تفارق أبوابهم ساعة ووقع بينه وبين عمه الأمير محمد سعيد من النفرة والشحناء ما لم يبق معه إلا القتال فادعى على عمه الدعاوى الكثيرة واتهمه بالخروج وشق عصا الطاعة واتهم أعيان البحيرة وبعض مشايخ عربان أولاد على بنجدته فأعمل فيهم القتل والتشريد والتبديد إلى أقاصى السودان وبالغ فى تخريب دورهم ومحو آثار منازلهم فاخفى من بقى منهم ونزحوا إلى الشام والحجاز وألزم عمه بالملك فى الإسكندرية وعدم دخوله القاهرة وبث حوله العيون والأرصاد فضافت على الأمير محمد سعيد المذاهب واستنجد ببعض رجال الدولة وكبار التزلاء من الأجانب فلم يفلح لشدة بأس عباس باشا وعظم هيبتة فى نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم واشتدت بعباس باشا الطيرة فاحتجب عن الناس ومال إلى سكنى البيداء والجبال فابتنى له قصرا بالدار البيضاء بطريق السويس وآخر بسفح الجبل الأحمر خارج باب الحسينية سماه العباسية نسبة إلى اسمه فكان إذا ذهب إلى أحدهما أقام به أياما لا يصل إليه إلا المقربون من قومه وابتنى مبانى أخرى كثيرة كالخلمية وغيرها بمنيل شبحه ورسم ببناء دار بظاهر بركة الأربكية بجوار جامع الكيخيا فشرعوا فى العمل وبدؤا ببناء السور من الحجر الأحمر وجمعوا لذلك البنائى والنحاتين والحجارين والخشابين والفعلة ووكل بهم جماعة من الترك يحملون العصى والأسواط فكانوا يسومون أولئك العمال الخسف ويذيقونهم مضض التعذيب وكان ذلك على عهد ولاية جده محمد على باشا فاتفق أن مر الأمير إبراهيم باشا يوما بالأربكية فسمع من صياح العمال وجلبتهم ما أدهشه فسأل عن ذلك ف قيل له أنهم عمال فى بناء الدار التى ينشئها الأمير عباس فسار نحوها فرأى من كثرة أولئك العمال وما يقاسونه من تعذيب الموكلين بالعمل ما هاله وأحزنه فسير فى الحال إلى الأمير عباس من يعلمه بترك هذا العمل وصرف أولئك العمال بالتى هى فخاف

الأمير عباس وصرفهم وترك البناء فى ذلك المكان ولم يتم منه إلا بعض السور من الجانب الشرقى فرسم الأمير إبراهيم يجعله مناخا للجمال المرتبين لخدمة الدولة وبقي كذلك إلى أيام إسماعيل باشا ابن إبراهيم باشا فأزاله وأنشأ فى جانب منه التزل المعروف باللوقانة الجديدة وأمر ببيع الباقي منه فصار الآن من أحسن الدور وأرفعها بناء وأنظمها ترتيبا وتنسيقا، وكان شديد البغض للأجانب جبارا على الرعية سهل الانقياد لبعض حاشيته والمقربين إليه ميالا إلى الوشاية وإيقاع الفتنة بين أصحاب الوظائف حذرا من تألفهم واتحادهم على ما يخشاه وكان مثل الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد فى الإكثار من شراء الممالك ووقوفهم على بابه وتزينهم بأفخر الملابس وكان يركبهم جياد الخيل بالسروج المظهمة وأنشأ فرقة منهم ومن أبناء بعض الناس بلباس مخصوص على رى الجند سماها الأورطة المفروزة فكانوا هم حراس أبوابه وكان مع شدة بطشه وعدم أعضائه عن الصغائر كثير التخيل لا يمكن أحدا من الدنو منه حيثما سار فكان يمشى وحوله طوائف الترك فلذا رابهم من أحد ربية فى طريقهم مالوا عليه وأوجعوه ضربا بالسياط والعصى وربما قتلوه وكان يحب المكث عند عرب الهنادى بالشرقية، قال جماعة: وتزوج بإحدى بناتهم وكانت غاية فى الجمال وعندى أنها قرية ما أنزل الله بها من سلطان، وقال آخرون بل سلم جماعة منهم ولد له ليربوه على طباع أهل البادية فلم يعش ومات وهذه هى الحقيقة بلا مرأى وكان قربه منهم باعثا لهم على التمرد والشقاوة فأذلوا أهل الشرقية وتطاولت أيديهم إلى سلب أموالهم ونهب زروعهم ومواشيهم فلم يكن الرجل من أصحاب الزرع ليأمن على ماله ولا على عرضه ولم يقفوا عند هذا الحد بل ضربوا على أصحاب الزروع المغارم والكلف الفادحة من مال وغلال فلذا تعذر جمعها عاثوا فى البلاد وأهلكوا الحرث والنسل وكان عباس باشا يدفع بهم كل قليل من الزمان إلى قتال عربان البحيرة لميلهم إلى عمه الأمير محمد سعيد ثم لم يلبث على موالاتهم طويلا حتى عاد فغدر بهم وأهلك كبارهم وشرذ نساءهم ونهب زروعاتهم على يدى رستم بك مدير الشرقية فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة، وأبطل فى يوم واحد جميع معامل القطن والكتان والأقمشة والأجواخ والحرير والمقصبات التى أنشأها جده محمد على باشا وشرذ من كان بها من الصناع والعمال، قال بعض الكتاب: وقد تم ذلك بإغراء من الجنرال ميرى قنصل جنرال الإنجليز فكان فعله هذا من أشد الفعال المحزنة لقلوب أهل البلاد فقد كانت هذه المعامل على ضخامة آلاتها وقلة معداتها والاعتماد فى

حركتها على الدواب لعدم ظهور استعمال البخار يومئذ وتعذر وصولها إلى حد الكمال التي هي عليه المعامل اليوم كافة باحتياجات البلاد وقد أحيت من الصنائع ما أماته الأيام وأذهب جور الحكام وأعادت لمصر بعض رونقها القديم وسهلت على أهل البلاد سبل الكسب والتعليم فعاش في ظلها العدد العديد وترامت آمالهم فيها إلى المرمى البعيد ولو بقيت إلى يومنا هذا لكان لها من الشهرة ما يغنى البلاد عن كثير من المصنوعات الأجنبية على اختلافها وأمست وهي مهبط الرزق للصانع فيها والمتجر في مصنوعات ولكنها أصبحت فلم تكن شيئاً مذكوراً.

ولما كانت سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية تقدم إليه قنصل جنرال الإنجليز في تحجير الطريق من باب الحسينية إلى مدينة السويس تسهيلاً لنقل السواح من الإنجليز الذين كانوا يأتون من السويس على عجلات كانت تجرها الخيل فرسم بذلك وقيد بعض الترك بهذا العمل فأفحشوا في الجور وإيذاء خلق الله حتى أتموه في عهد قريب، وعمر في سنة ست وستين مسجد السيدة سكيئة وعمل على الضريح مقصورة من النحاس الأحمر وجدد كذلك جامع العشماوى بشارع العشماوى بالأزليكية فأعجب ذلك أهل القاهرة ومصر واستحسنوه منه وتقدم إليه الجنرال ميرى قنصل الإنجليز في إنشاء خط حديدى أيضاً بين الإسكندرية والقاهرة وسلك تلغرافى كذلك وألح عليه وكرر الطلب لتسهيل المواصلات بين عاصمة الإنجليز وهندها وما زال به وهو يمينه بالأمانى البعيدة حتى رسم بإنشائهما فكان مدحور الخط في تاسع عشرى ذى الحجة سنة سبع وستين ومائتين وألف هجرية، وحجت أمه فخرجت من القاهرة في كبكبة عظيمة وسارت مع ركب الحج وأمام هودجها الجند وخلفه الخدم والحشم والغلمان والأتباع فلما دخلت المدينة أنفقت وفرقت من الغلال شيئاً كثيراً وفعلت كذلك بمكة وغيرها وعادت إلى القاهرة فأولم لها الولاثم العظيمة وأطعم وكسى أولاد المكاتب والأيتام وتصدق على بعض المساجد وأضرحة الأولياء وأقام المقرئين والفقهاء يتلون القرآن في دارها أياما وزارها جميع الأمراء والكبراء وأصحاب البيوتات العالية من النساء وقدموا لها الهدايا والتعابى النفيسة.

وكان كثير التساؤل عن مستقبل الأمور ثابت الاعتقاد في صحة الكهانة والعرافة والزائرجات فأدنى منه جماعة من أصحابها وقربهم وسألهم عما يكون في أيامه من الحوادث والكوائن وما سيقع إليه من خير أو شر فأبهموا عليه الأمر فهددهم فقالوا

إننا نخاف عليك من رجل طويل القامة أسمر اللون فى شكل كذا وكذا قيل فاضطرب وزاد خوفه من جميع الناس وأمر بالدجالين وأصحاب الزابرجات فجمعوهم وأقصوهم إلى أعالي السنار والدارفور فتطاوت عند ذلك أيدي أعوانه إلى خيار الناس من كل ملة فكان صاحب الوجاهة لا يشعر إلا وقد كبس داره جماعة من الترك فيحملونه مقيدا بالحديد إلى حيث لا يدرى ويرجعون فيبحثون عما فى داره من كتب وأوراق ويأخذون كل ما وصلت إليه أيديهم من حلى ومتاع فكثرت لذلك أصحاب السعاية واشتد الخوف بالناس فانكمشوا وقل اجتماعهم وأوجس كل من صاحبه بل ومن خادمه أو خادمتة إذ كان من المحتم على كل خادم أن يبلغ شيخه فى كل يوم أخبار بيت سيده من قيل وقال وما دخل إليه من مأكول ومشروب وملبوس وغير ذلك فلا يشعر صاحب البيت إلا وهو بين يدي صاحب الشرطة يسأله عما قاله فى ليلته أو فعله فى صباح يومه فإذا أنكر أتى إليه بألف دليل من أسرار بيته وعورات أهله وولده فكان إذا أغضب المخدم خادمه أو أغلظ عليه فى القول وشى به عند صاحب الشرطة فتكون عليه الطامة الكبرى، وكان يحب اقتناء المعزى والتعاج وكبار الكباش للمضاربة والحمام والسباع والفيلة والضباع وجياد الخيل وكان شديد العناية بها ينفق عليها أموالا كثيرة ويرسل خواصه للإتيان بها من أقاصى البلاد كالهند والعراق واليمن ونجد ويغداد وكان شديد البغض للنصارىة ناقما على النصارى لا سيما منهم أهل البلاد فأخرج الكثير منهم من خدمة الدولة ومنع من استخدامهم وبألف فى تذليلهم وأتى للمباشرين منهم بطائفة من الأحداث الأغرار وأبناء المكاتب فجعلهم فى وظائفهم وألزمهم بتعليمهم وتدريبهم وضرب لهم أجلا فاختلف نظام المصالح الديوانية وتطرق الفساد إلى جميع الأعمال وكسدت حرفة القلم وتحقرت، قيل: واشتد به البغض للنصارى حتى دبر أمر إخراجهم من وطنهم وتبعيدهم إلى أقاصى السودان وأرسل إلى الأستاذ الشيخ الباجورى شيخ الإسلام يومئذ يسأله فى ذلك فلما جلس الشيخ قال له أسألك أمرا لا تكتمه علىّ قال وما هو ياأمير قال: إني أقصد تبعيد النصارى كافة من بلادى ومقر حكومتى إلى أقصى السودان وقد دبرت لذلك تدييرا فما قولك قيل فقطب الشيخ وجهه وقال أى النصارى تعنى ياأمير إن كنت تعنى الذميين الذين هم أهل البلاد وأصحابها فالحمد لله لم يطرأ على ذمة الإسلام طارئ ولم يستول عليها خلل حتى تغدر بمن هم فى ذمته إلى اليوم الآخر وإن كنت تعنى النصارى الفرنجة النازلين فى بلادك فإنى أخاف

إذا فعلت بهم شرا أن يحل ببلادك ما حل بالجزائر من الفرنسيين، قيل فغضب عباس باشا ونادى خذوه عنى فقام الشيخ وهو يقول أى ويعلم الله أى ويعلم الله، وكان إذا أبغض أحد من بطانته آخر أيا كانت درجته قال له أن فلانا (يريد خصمه) فيه شيء من الأوصاف التى قال عنها فلان صاحب الزايرجة وفلان صاحب تخت الرمل فلا يشعر ذلك المبعوض إلا وقد دخل عليه طائفة من الترك فيأخذونه إلى حيث لا يعود فكان الرجل أية كانت وجاهته يقضى بياض يومه فى حساب ما سيكون فى سواد ليله فكان إذا غضب على أحد غضب الناس كافة عليه فلا يقترب منه الرفيق ولا يكلمه الصديق خوفا من العيون فأشد الخوف بالناس إلى حد القنوط واليأس.

قال أحد كتاب الأخبار: فتجدوا للعداوة وابتهلوا إلى الله وتوجهوا إليه بقلوبهم واتفق أنه خرج من القاهرة فى شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية ونزل بقصره بينها العسل على النيل كعادته وهو قصر قد أنشأه على مقربة من تل تريب قيل موضع قصر المقوقس عظيم قبطة مصر وأقام به أياما مع بطانته وكثير من الخدم والحشم والأتباع وطائفة من الغلمان فلما كانت ليلة ثامن عشر شوال من السنة تأمر أولئك الغلمان على قتله فدبروا الأمر وأحكموا التدبير وتولى قتله أربعة منهم وقيل ستة والأول أصبح فقاموا عليه وهو بفراشه فقتلوه وخرجوا من ساعتهم يوهمون أنهم إنما خرجوا يريدون القاهرة لأمر أشار به عباس باشا وتركوه وباب حجرته مغلق عليه فطلع النهار وارتفع وصار الظهر قريبا ولم يدر أحد بما جرى عليه واتفق أن مر فى ذلك اليوم بينها أحمد باشا يكن يريد بالذهاب إلى إقطاعاته بالمنصورة فلما علم بوجود عباس باشا بقصره نزل للسلام عليه وطلع إلى الديوان وسأل عنه فقيل له أنه نائم فلبث ينتظره ساعة حتى أذن الظهر ثم قرب العصر ولم يظهر خبر فأوجس أحمد باشا خوفا وقال دلونى على حجرة نومه فدلوه عليها فطرق بابها فلم يجبه أحد فتابع الطرق ثم أمر فكسروا الباب ودخلوا فإذا هو ملقى على فراشه فأمر من كان معه بكتمان الخبر واستدعى كبير الحصيان وقال له الباشا يأمر بذهاب جميع النساء إلى القاهرة فى هذه الساعة فتزلوا ونزل رجال ديوانه الخاص وجميع الخدم والحشم والأتباع وجماعة الغلمان وأبقى معه جماعة وألبس عباس باشا ثيابه وأعد عربته ولم يعلم بالخبر إلا القليل فلما أذنت العشاء أنزلوه من حجرته حملا على الأيدي وأجلسوه فى عربته كان به مرضا وجلس معه أحمد باشا وساروا إلى القاهرة

فى الككببة المعتادة وأنزلوه بمقره بالخلمية وأصبحوا وقد شاع الخبر بموته وتناقله الناس فلم يصدقوه وكان عمه الأمير محمد سعيد بالإسكندرية محجورا عليه فوردت عليه فى صباح ذلك الیوم رسائل التهانی وأرسلوا إلیه ىستقدمونه وتشاغل الناس عن جنازة عباس باشا حتى المقربون إلیه والعائشون فى نعمته وأبطؤا فى دفنه فلم تخرج جنازته إلا بعد الظهر وكان الیوم شدید القیظ فسارت جنازته فى نفر من خواصه وبعض الجنء ومرت من الغورية فالتحاسین والناس فى دهشة لا یصدقون بموته ثم طیروا الخبر إلی محمد سعید باشا واستقدموه لیولوه الولاية فرحل عن الإسكندرية یرید القاهرة فكانت ولاية عباس باشا زهاء خمس سنوات رحمه الله .

(مطلب)

(ولاية محمد سعید باشا ابن ساكن الجنان الحاج محمد على باشا الكبير)

لما ورد الخبر إلی الأمير محمد سعید باشا بموت عباس باشا قیل : إنه اندهش وكاد أن لا یصدقہ لولا ترادف رسائل التهانی علیه من كل فج وصوب فجمع إلیه قناصل الدول وسار بهم من الإسكندرية یرید القاهرة فعلم فى الطريق أن ألفى باشا أحمد أخصاء عباس باشا تعاهد مع أمير جند قلعة الجبل على غلق أبواب القلعة ومنع سعید باشا من دخولها واستقدام الأمير إلهامى ولد عباس باشا من الدیار الأوروبية وكان قد سافر إلیها من أيام وتحالفا على ذلك فلما دخل سعید باشا القاهرة لاقاه جمیع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالیة والعلماء والمشایخ وساروا فى ركابه إلی قلعة الجبل ومعه قناصل الدول وبعض كبار الأجانب ففتح لهم أمير جندھا الأبواب وقابله الجند بالسلام وانطلقت ألسنتهم بالدعاء إلیه ودقت البشائر وطیروا الخبر بولایته إلی الآفاق ففرح الناس فرحا عظیما قیل فلم یمض على ألفى باشا بیاض یومه ذلك حتى مات غما وقیل خوفا مما فعل فتولاھا الأمير محمد سعید باشا ابن محمد على باشا فى عشرى شوال سنة سبعین ومائتین وألف هجرية أى سنة أربع وخمسن وثمانمئة وألف میلادیه فلما استقرت به الولاية وجاءه فرمان السلطان أحسن التذیر وأحكم السیاسة ورتب أمور البلاد على ما فیه المصلحة لأهلها ورد جمیع الأطیان التى كانت أعطیت إلی كبار المأمورین وأرباب الدولة على عهد إبراهیم باشا وعباس باشا إلی أصحابها من الفلاحین وأبطل الكثير من المكوس

والمغارم والضرائب الفادحة وأزال البدع والمظالم والأحداث التي كادت تدمر البلاد منذ ولاية إبراهيم باشا ورتب الخراج ورفع المتأخرات والبقايا من الأموال الأميرية عن الفلاحين ورد المتشردين منهم إلى أوطانهم وأمن الطرق وسهل سبل التجارة فراجت أسباب الزراعة واتسع نطاقها وعلت الأسعار فأثرى الفلاح وحسن حاله واتسعت مادة رزقه فأسرف وبالف في السفه حتى لم يبق ولم يذر.

وكان يحب الجندية ويعجب بها جداً فبالغ في تنظيمها وأكثر عدد رجالها وألبسهم الملابس الفاخرة وسلحهم بالأسلحة المتقنة وجمع إليهم من أبناء جميع البلاد وأنشأ طائفة من السود فكانت على أكمل هيئة وأجمل نظام فكان إذا سار إلى بلد سار جميع الجنود في ركابه وخلفها المكاحل والمدافع ودواب الحمل كأنها راحفة للحرب والقتال وإذا عاد عادت على هذه الصورة من الكبكية ونزلت بالخيام ظاهر القاهرة ومصر القديمة أو دخلت إلى منازل الجند كقصر النيل وطرا والجيزة وغيرها فلم يستقر بها المقام حتى يأتيها الأمر بالرحيل إلى مريوط أو أدفينة أو بنى سويف أو غيرها فكانوا دائماً على قدم الأهبة والاستعداد لا تفتر لهم همة ولا تخمد لهم عزيمة وكان مع حبه للجنود وشدة تعلقه بهم شديد البطش فتاكاً بمن تقع منه صغيرة أو كبيرة من العسكر فكانوا كأحسن عساكر الدنيا طاعة وخفة ونظاماً وملبسا ومأكلاً ومشرباً.

(مطلب)

عصاوة عربان منية ابن خصيب وما جرى لهم

وظهر في أيامه عصيان عربان منية ابن خصيب فركب عليهم بخيله ورجله وأعمل فيهم القتل والتشريد. قال بعض كتاب الأخبار: وكان سبب خروجهم عن الطاعة أنه أراد أن يأخذ منهم جماعة ليدخلهم في مصاف الجند فيكون لهم ما لهم وعليهم ما عليهم وأنفذ إلى مدير منية ابن خصيب بإحصائهم فجمع المدير كبارهم وأصحاب الرأي منهم وكلمهم في الأمر فامتنعوا وقالوا لا سبيل إلى ذلك ونحن وعيالنا متعهدون بخفر الدروب والجبال منذ ولاية محمد على باشا الكبير إلى هذا الحين فلا يصح إدخال أولادنا في مصاف العسكر وإذهاب ما بأيدينا من الحقوق المعطاة لنا من ذلك العهد فراجعهم المدير في ذلك فامتنعوا فألح عليهم فتجافوا وخاطبوه بفحش القول فأمر بهم فعوقبهم ورفع أمرهم إلى محمد سعيد باشا فأغضبه ذلك قيل وكان ييغضهم بغضا شديداً ليل عباس باشا إليهم وتحريضهم على

قتال عربان أولاد على نكاية سعيد باشا كما تقدم القول فأنفذ إلى مدير منية ابن خصيب يقول لا سبيل إلى غير ما سيرت به إليك فإياك والتقاعس وإهمال هذا الأمر فشدد المدير فى الطلب وألح على أولئك المشايخ فطلبوا مهلة فأمهلهم وسرحهم وضرب لهم أجلاً فساروا وتحصنوا بالجبل الشرقى ولم يرجعوا إليه وجاء الخبر بذلك إلى محمد سعيد باشا فكاد يتميز غيظا ونادى فى عسكره بالرحيل إلى منية ابن خصيب وبنى سويف فساروا وركبوا على أولئك العربان وقتلوهم أياما كثيرة فترفع العربان إلى الجبل الشرقى وبعضهم إلى الجبل الغربى فتبعهم الجند وأعملوا فيهم القتل فقتلوا منهم خلقا كثيرا وسبوا النساء والأولاد والبنات وأتوا بهم إلى مدينة الفيوم وبنى سويف فكانوا يعطونهم إلى أصحاب البيوت كالإماء والعبيد وقبضوا على كبارهم وأصحاب الوجاهة منهم وأودعوهم السجن وكان الجند إذا كبسوا حيا من أحياء أولئك القوم وجدوا البيوت قاعا صفتفا لبس فيها إلا ما ثقل حمله وبخس ثمنه فيأخذونه فإذا ابتعدوا عنها قليلاً وجدوا الأطفال مطروحين مثقلين بالرمل كى لا يقدرّون على الزحف فيموتون حيث وضعتهم أمهاتهم فكانوا يأتون بهم إلى بنى سويف والفيوم وغيرهما ويعطونهم إلى أهل الخير فيكفلونهم وكان أولئك العربان على عهد عباس باشا واسعى الكلمة عظيمى الصولة كبرى الإهابة فعاثوا فى البلاد وأفسدوا وأهلكوا الحرث والنسل وأمر سعيد باشا فأعملوا فيهم القتل والشق والتمزيق بنيران المدافع وأباحهم لجميع المديرين لا سيما يعقوب بيك مدير بنى سويف فأفحش فى قتلهم وبالح فى البحث عنهم وتبعضهم أينما ساروا وخرب منازلهم وشرد من بقى منهم إلى أقاصى الشام والحجاز فأختفى من لم يتمكن من الفرار فى القرى والكفور وتزايذى العامة والفلاحين وتكلم بكلامهم وترك ما يلتزمه العرب فى كلامهم من الترخيم وكسر آخر الكلم وقد كان الفقير منهم يأنف من مخالطة أهل البلاد ومكالمتهم ويحسب ذلك عارا ومذلة فصار الكبير منهم لا يرى السلامة إلا بالالتجاء إلى أصغر بيوت الفلاحين، وأشدت الخوف بأهل الفساد واللصوص وقطاع الطريق فأختفوا فأمنت السبل وسلكت المسالك وأشدت يقظة أهل البلاد فأقاموا الخفاء على الحدود ورؤوس الطرق والمسالك وارتفع الخوف عن الناس فكانت المرأة تأتى من مربوط إلى أقاصى الصعيد الأعلى برا من غير رفيق فلا تجد فى طريقها من يعترضها فى مالها أو عرضها أو يسألها من أين أو إلى أين وكبرت هبة سعيد باشا فى أعين أهل البلاد كافة فانكفوا عن إيذاء بعضهم وعكف كل على مهته وحرفته وصنعتة فحسنت حالهم وكثرت أموالهم وغزرت مادتهم

ونمت زروعاتهم ودرت الأرزاق فأكلوا وشربوا وشبّعوا ولبسوا ما لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يلبسوا فى أيامهم الغابرة، ونظر إلى مستقبل موظفى الحكومة وأرباب الدولة فرتب لهم قانونا كافلا لمعاشهم إذا تقاعدوا عن الخدمة ورسوم فى خامس ربيع الثانى سنة إحدى وسبعين بالعمل بمقتضى هذا القانون فكان من أكبر النعم وأجل المزايا التى لا يعادلها شىء عند جميع موظفى الدولة وهو معمول به إلى يومنا الذى نحن فيه حتى أصدر إسماعيل باشا قانونه الجديد فنفذ حكمه على من كانت خدمته فى مصالح الدولة ودواوينها تالية لتاريخ صدور ذلك القانون، وأنشأ القلعة القائمة على بناء القناطر الخيرية وسماها بالقلعة السعيدية ووضع أساسها بيده فى ثالث عشرى جمادى الآخرة من السنة ويبلغ فى تنظيمها حتى جاءت من أحسن المباني وأتقنها وقد زالت محاسنها وتشعث بعض بنائها فازالها اليوم جماعة الإنجليز ولم يبقوا منها حجرا على حجر، ولما كان شهر رمضان من السنة ظهرت الهيضة بالقاهرة ومصر واشتدت فكثر الموات فى الناس كثرة بالغة ولبث الحال على ذلك أياما فبلغ عدد من أحصى ممن مات نيافا وخمسة آلاف نسمة وأما من لم يحصى فكثير ثم ارتفع واطمأنت القلوب وعاد من هاجر من أهالى القاهرة ومصر فرارا من الموت، وأعاد سعيد باشا بعض ما أبطله عباس باشا من المعامل والمدارس الملكية والعسكرية واستقدم العلامة رفاعه بيك من منفاه بالديار السودانية حيث كان أبعد عباس باشا لوشاية الواشين وسلمه مقاليد تلك المدارس فأفلحت وتخرج منها الكثير من أبناء البلاد.

وقدم فى ولايته الشهير فرديناند ديلسبس الفرنسوى إلى القاهرة وكلمه فى حفر خليج يصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر مبتدئا من مدينة السويس إلى ما يجاور الاشتوم المعروف باشتوم الجمل على ساحل البحر الأبيض المتوسط وألح على سعيد باشا فى ذلك فاستكبر سعيد باشا هذا العمل وعده رابع المستحيلات وطاول ديلسبس ومناه فاشتدت عزيمة دى لسبس وشدد فى الطلب وأكثر التردد على مقر سعيد باشا وتواردت على سعيد باشا الرسائل ترى بعضها طعنا فى أعمال دى لسبس وبعضها استهزاء بمشروعه وسخرية به. قال أحد الكتاب: وأكثرت دولة الإنجليز من التنديد بهذا العمل الخطير واندفع أصحاب صحف أخبارها يسلقون دى لسبس بالسنة حداد ويبالغون فى الهجاء والسخرية فمنهم من سماه سيزوستريس القرن التاسع عشر ومنهم من قال بل هو إسكندر المقدونى ابن فلبس ومنهم من قال هو عمرو بن العاص فاتح مصر الذين تقدموا فى أيامهم إلى إيصال البحرين ببعضهما ولم يبق

لعملهم أثر على ما كان لهم من بُعد الصيت واتساع الكلمة وتذليلهم للصعاب ومع هذا كله لم يثن لدلبس عزم ولم تفتقر له همة وثابر على الإلحاح فوعده سعيد باشا ومنه فرجع إليه فى ثانى عشرى صفر سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية كتابا يقول فيه :

يامولای .. لقد طالما اشتغل عظماء العالم بأسره لا سيما ملوك مصر الأولين بأمر إيصال البحر الأحمر بالبحر الأبيض المتوسط وقد أثبت التاريخ ما قيل عن سيزوستريس فرعون مصر الشهير والإسكندر المقدونى وقصر ملك رومية وعمرو بن العاص وبونابارته ووالدك محمد على باشا أنهم قد بذلوا جهدهم فى سبيل انجاز هذا المشروع الخطير وقد تم لبعضهم ما أراد فأوصلوا البحرين ببعضهما بواسطة ترعة تمر بالنيل وبقيت هذه التربة مدة غير طويلة فى منتصف القرن التاسع قبل الهجرة المحمدية ثم علاها التراب فطمها وامتنع جريان الماء بها فتعطلت وبطل نفعها ثم قام بعضهم بعيد ذلك وأعاد هذا الاتصال فبقى زهاء أربعمئة سنة وخمس وأربعين سنة فى أيام خلفاء الإسكندر المقدونى على ديار مصر ولبت الحال على ذلك إلى القرن الرابع قبل الهجرة المحمدية ثم علاها التراب وطمها حيناً حتى دخل عمرو بن العاص مصر بجيوش المسلمين فأخذ بأطراف هذا الأمر العظيم ونهض إلى استرجاع ذلك الاتصال ففاز ونجح وجرى الماء فيه فعبرت السفن مائة وثلاثين سنة ولقيام الفتن وتوالى البلايا والمحن علاه التراب فطم وامتنع سير السفن منه .

ولما دخل الشهير بونابارته بجيوشه ديار مصر وشاهد بعينى رأسه موقع ذلك الاتصال ودّ لو استطاع إرجاعه فينال شهرة عظيمة لا يحوها كرور الأيام والسنين وعمد إلى تشكيل عمدة من كبارالمهندسين وأمائل علماء الآثار وأتى بهم من الديار الأوروبية لينظر فى انجاز هذه الأمنية وسألهم إذا كان فى الإمكان إرجاع ذلك الاتصال بشرط أن لا يمر بالنيل فأجابوه إلى ذلك ورفع إلى مقامه أحدهم الموسو لوير تقريراً عما ظهر لهم من البحث والتنقيب وما يحتاجه هذا العمل الخطير من النفقة فلما اطلع عليه بونابارته صاح قائلاً أنه لعمل يستحق مزيد العناية والاهتمام ويجب على إنجازاه ولكن من أين لى النفقة الآن ويذى خالية فعسى أن يأتى يوم تعود فيه السلطنة العثمانية إلى سابق مسجدها وغناها فتعيد ذلك الاتصال فيخلد ذكرها على مر الأعوام فما قد آن يامولای الآوان وجاء اليوم الذى قال عنه الشهير بونابارته نعم إن العمل خطير ولكن انجازه سيكون داعياً إلى ظهور شأن السلطنة العثمانية ورفعة كلمتها واتساع شهرتها فتقطع السنة القائليل بقرب سقوطها وزوال

مجدها ويرجعون فيعلمون أنها ما برحت صاحبة الكلمة المسموعة والقول الذى لا يرد ويخلد لها الذكر الحسن فى بطون التواريخ الجامعة لحوادث المدنية والعمران، ولا خفاء أن اجتماع دول أوروبا على الذب عن الآستانة وحفظها مقرا للسلطنة العثمانية والدود عن ذمارها ورغبتها فى بقاء السلطنة المشار إليها زاهرة موقفة معزة قوية على خصومها وقيامها لنصرتها عند أى حادث بالنفس والنفس وركوبها على عدوها لقتاله وارجاعه إلى الطاعة والخلود إلى السكون إنما هذا كله نظراً لما لبوغاز السويس من خطارة المركز وأهمية الموقع الذى يفصل ما بين البحرين وحذرا من وضع يد إحداهن عليه فتصبح هى المالكة المتسلطة على بقية الديار فتنتقض المساواة وتختل الموازنة المتفق عليها بين الدول الغربية التى يهم العالم بأسره حفظها بين الدول الكبرى، ولعمري إذا كان البوغاز المذكور هو سبب تكاثف سائر الدول على معاونة السلطنة العثمانية والاهتمام بأمورها فكيف بها لو جعلت مصر مركز العالم بأسره ومحط رحال التجارة وطريق العالمين الغربى والشرقى بالجمع بين البحرين فلا بد وأن يزداد شأنها علواً وقدرها خطارة ومقامها أهمية لدى أهل السياسة إذ تصبح مفاتيح العالم بأسره فى يدها ولا خوف عليها فأنه متى تم حفر ذلك الاتصال قام جميع الدول بجعله حراً مباحاً للجميع سواء وجعلته تحت رعاية الدولة العلية دون سواها إذ هى صاحبة الدار، وقد كان الموسيو لويير من نحو الخمسين سنة قدّر عدد الفعلة اللازمين للعمل فى الاتصال المذكور بعشرة آلاف وضرب لهم أجلاً لانجازه زهاء أربع سنين وقوم ما يحتاجه من النفقة بقيمة ثلاثين أو أربعين مليوناً من الفرنكات وقال أنه يمكن اتصال البحرين بواسطة ترعة على خط مستقيم وأما الموسيو طلايوت الذى سبق انتدابه لهذا الغرض ضمن الثلاثة المهندسين المشهورين الذين سیرت بهم الجمعية الفرنسية التى تأسست بفرانسا من نحو العشر سنين للنظر فى هذا الموضوع فقد تراءى له جعل الترعة المذكورة واصله من مدينة السويس إلى الإسكندرية بحيث تمر بالنيل على القناطر الخيرية وقدر للنفقة على هذا العمل مائة وثلاثين أو مائة وأربعين مليوناً من الفرنكات ونحو عشرين مليوناً أخرى لعمل مينا ورصيف بمدينة السويس وأما لينان بيك الموظف بخدمة الحكومة المصرية الموكول لعهدته منذ ثلاثين سنة حفر الترعة وتقوية الجسور ونحوه فقد اشتغل بأمر البحث عن إعادة الاتصال المذكور بحثاً مدققاً مع ما هو عليه من الدراية والخبرة المشهود له بهما فى جميع الدول فترأى له صلاحية مدّ ترعة بحيث تمر ببجيرة التماسح وأن يعمل

بالبحيرة المذكورة مينا ترسى فيها السفن الآتية من يبلوز التى هى آتية إلى البحر الأحمر أو من السويس إلى البحر الأبيض المتوسط وكذلك العلامة الشهير كاليبك مهندس الحصون والقلاع المصرية على عهد المرحوم أيك قد كان رفع إلى أيك رحمه الله مشروع حفر ذلك الاتصال على شكل خط مستقيم وعمل له رسماً عن ذلك بقلم العلامة لينان بيك المشار إليه وموجيل بيك مهندس أشغال القناطر الخيرية والكبارى والجسور المصرية وما من هؤلاء إلا وكان يطنب لوالدك المبرور فى مدح هذا العمل وما ينجم عنه من الفوائد الجمة وفوق ذلك فإنه فى سنة أربعين وثمانمائة وألف ميلادية استدعى الكونت دى والوسكى الذى كان وقتئذ نزيل الديار المصرية الموسيو كاليبك المومى إليه وكلمه فى أمر هذا الاتصال فرفع إليه كاليبك تقريراً بما يراه ولكن قد حالت يومئذ دون انجاز هذا المشروع موانع لا وجود لها اليوم.

ولما كان من الواجب علينا أن ندقق البحث ونعمن النظر مع التأمل فى جميع آراء أولئك العلماء الأفاضل والمهندسين الأماثل مع مراعاة أن هذا المشروع المهم قابل للانجاز على أحسن حال وأتم منوال لزمنا أن نختار منها أسدّها وأصوبها وأقواها حجة وبرهاناً فنعمل به وليعلم مولاي حفظه الله أن الموانع والمراكب والعقبات التى طالما أفلقت القدماء وأضعفت عزائمهم وحالت بينهم وبين انجاز هذا العمل الجليل قد زالت اليوم وهب أنها لم تزل باقية بعضها أو كلها فإن تحمل الصعاب مع الصبر والجلد فى سبيل انجاز هذا الأمر الخطير لهو من أوجب الواجب بل من أسمى المطالب بقى إذا علينا أن ننظر فى أمر النفقة وهذه أيضاً ليست بالأمر البعيد فإنه لا يصعب على أولى الحزم والعزم حل عقدها على أحسن ما يرام إذ ستكون إيرادات ذلك الاتصال أضعافاً مضاعفات ما سينفق عليه وعلى ذكر هذه المسئلة الثانوية فليسمح لى مولاي أدامه الله بأن أتى إليه بالبيان الآتى بعد فيتضح لسموه أن المصاريف التى يحتاجها عمل ذلك الاتصال لا تعد شيئاً فى جانب الفوائد المهمة والمنافع الجمة المترتبة على إعادته فضلاً عن كونه سيقصر المسافة الواقعة ما بين الهند وآسية وبين أوروبا وأمريكا وهذا البيان قد سطره الأستاذ الشهير والجيولوجى الماهر الموسيو كورديه.

أشهر مين أوروبا وأمريكا	المسافة ما بين المين المذكورة إلى بومباي		الفرق بين الطريقين بالفرسخ
	من المحيط الاطلانتىكى	من طريق الاتصال الجديد	
قسطنطينية	٦١٠٠	١٨٠٠	٤٣٠٠ بالفرسخ
مالطا	٥٨٠٠	٢٠٦٢	٣٧٧٨ بالفرسخ
تريستا	٥٩٦٠	٢٣٤٠	٣٦٢٠ بالفرسخ
مارسيليا	٥٦٥٠	٢٣٧٤	٣٢٧٦ بالفرسخ
كاديش	٥٢٠٠	٢٢٣٤	٢٩٧٦ بالفرسخ
يسيون	٥٣٥٠	٢٥٠٠	٢٨٥٠ بالفرسخ
بورديو	٥٦٥٠	٢٨٠٠	٢٨٥٠ بالفرسخ
هافر	٥٨٠٠	٢٨٢٤	٢٩٧٦ بالفرسخ
لوندرا	٥٩٥٠	٣١٠٠	٢٨٥٠ بالفرسخ
ليفربول	٥٩٠٠	٣٠٥٠	٢٨٥٠ بالفرسخ
أمستردام	٥٩٥٠	٣١٠٠	٢٨٥٠ بالفرسخ
سان بطرس برج	٦٥٥٠	٣٧٠٠	٢٨٥٠ بالفرسخ
نيويورك	٦٢٠٠	٣٧٦١	٢٤٣٩ بالفرسخ
نيوفيل أورلانس	٦٤٥٠	٣٧٢٤	٢٧٢٦ بالفرسخ

ولقد وافق على هذا التقدير سائر المهندسين وأجمعوا على دقة ضبطه وقرروا بأنه يهم جداً سائر بلاد أوروبا وأمريكا والهند والعالم بأسره إعادة هذا الاتصال، وليعلم مولاي أن لا عمل في بلاده أكبر خطارة ولا أعظم فائدة ولا أجل شأنًا من هذا العمل العظيم فليعمل مولاي على ذكر اسمه في مصاف أولئك الذين تملكوا على ديار مصر وينجز هذا المشروع في أيامه فيزدان حكمه بما لم ينله غيره من قبل

وتسعد الأمة المصرية فتتجه نحوها الأبصار وتعد إليها الأعناق وينادى باسم مولاي
فى سائر أنحاء المعمورة ويخلد ذكره فى بطون التواريخ وينال من الشهرة ورفعة
القدر ما لم ينله الفراعنة الذين شادوا الأهرام والهيكل الضخمة التى لا فائدة فيها
لنوع الإنسانى كالفائدة المترتبة على إعادة ذلك الاتصال وإنما هى مبان تدل على
القدرة البشرية التى سخرت كل نوع لحذقها وإظهار مجدها، ومن فوائد هذا
الاتصال العظيمة التى لا ينكرها مكابر تسهيل طريق الحج إلى بيت الله الحرام وتعلق
الناس بفن الملاحة وتسيير السفن وإتقان السباحة فى أرض البحار فيتسع نطاق
التجارة وتفتح أبواب الرزق على أهل البلاد المصرية ويعم نفع ذلك جميع البلاد
الواقعة على ساحل القلزم وخليج العجم وشرقى أفريقيا ومملكة سيام وشتين واليابان
ومملكة الصين البالغ عدد سكانها زهاء أربعمئة مليون فضلاً عن جزائر فيليين
وأستراليا وجميع جزائر البحر الأبيض المتوسط التى هاجر إليها الكثير من
الأوروبوين فتجرى المواصلات بينها جميعها وتسعد حالها.

هذا ولقد ظهر من الإحصاءات المدققة أن ما تنقله السفن الأوروبية فى كل
سنة عن طريق رأس الرجاء الصالح ورأس هارون لا يقل عن الستة ملايين طونلاطة
فإذا سارت هذه السفن بطريق خليج العجم وترعة السويس المراد إنشاؤها زاد نقلها
عن ذلك زيادة عظيمة وكان الدخل المتحصل منها زهاء المائة وخمسين مليوناً من
الفرنكات باعتبار عشرة فرنكات عن كل طونلاطة وربما زاد الدخل عن ذلك كلما
انتظم سير السفن بالترعة المذكورة وحسنت الملاحة فيها، ويجب مراعاة أن إعادة هذا
الاتصال بين البحرين يهيم جداً دولة الإنجليز التى هى سيده البحار وأغنى سائر
العالم مالا وأكثرهم تجارة وأكبرهم رغبة فى تقريب الاتصالات التجارية ولكن بعض
أهل السياسة يقولون أن إعادة هذا الاتصال تضر جداً بمصالح الإنجليز وتحط بها لأنها
تقرب العالم بعضه إلى بعض وتوسع نطاق ملاحه جميع الدول على أن الإنجليز لا
يحبون تقدم غيرهم فى شئ من ذلك البتة ويميلون إلى أن يروا أنفسهم السابقين
فى كل شئ والرابحين لكل شئ ولذا أصبح هذا البحث الدقيق الشغل الشاغل
لكثير من أهل السياسة وكان من أكبر الأسباب الباعثة على تأجيل الشروع فى هذا
العمل الجليل ولو تأمل أصحاب هذا رأى فيما جاء فى المعاهدات التى أبرمت بين
دول فرنسا وإنجلترا والباب العالى فى هذا الشأن لتحققوا أن الأمر على غير ما
يتوهمون وعلموا أن دولة إنجلترا تملك أهم وأعظم يوغازات العالم بأسره مثل جبل
طارق ومالطا وجزائر الأرخيل وعدن وغير ذلك فى الهند وسنجاپور وأستراليا فلا

يضر بشيء من مصالحها إرجاع ذلك الاتصال فإذا سمح مولاي بالأخذ بأطراف هذا العمل لا يسع دولتي الفرنسيين والإنجليز إلا الإذعان والموافقة على حفر مستطيل لا يتجاوز طوله ثلاثين فرسخاً ولعمر الحق من ينظر إلى شكل هذا المستطيل على خريطة نظرة التأمل ولا يهيم شوقاً إلى رؤياه برزخاً يجمع ما بين البحرين أما مدّ خط حديدي من مدينة الإسكندرية إلى مدينة السويس كما تمت ذلك الدولة الإنجليزية وسعت جهد الاستطاعة وراء الحصول عليه فهذا لا يأتي بالفائدة المطلوبة إلا إذا كان المراد منه مساعدة الملاحة في الاتصال المذكور.

وإذا نظرنا إلى دولة النمسا فلا نراها تبدى اعتراضاً على هذا العمل لأنها أباحت حرية الملاحة في نهر الدانوب والسوبليانا فلا سبيل لها إلى غير الإذعان والقبول وكذلك دولة المجر لا ترى في هذا العمل سوى زيادة أهمية ميناء تريستا والبندقية وجعلهما من أهم مين العالم التجارية فنعم به السعادة والرفاهية أهل بلادها ويتسع عندها نطاق التجارة والصناعة فلا تجد بداً من معاونتنا وهي على أتم ما يكون من حسن الرضا والقبول، وإن قيل أن دولة روسيا لا ترضى عن ذلك العمل قلت هذا لا يكون لأنها تودّ ظهوره وهي الآن في غناء عن أن تعارضنا لا سيما وجلالة قيصرها قد فاز بكل ما تاقّت إليه نفسه فافسح لكل بلاد دخلت في دائرة حكومته طرق التمدن والعمران فإذا تم عمل هذا الاتصال كان له نور على نور فينفذ قومه إلى أقاصى الهند بأصناف المتاجر والبضائع فتفتح لهم أبواب الرزق وتسد أحوالهم وكذلك تزداد العلائق يوماً عن يوم بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الهند والصين وتزداد مواصلات أسبانيا مع جزائر الفلبين وهولاندا مع جافا والصومال وبرنيو ودولة إيطاليا الشهيرة قديماً مع اليونان وبالإجمال يسر العالم بأسره سروراً عظيماً يوم يعم خبر الشروع في هذا العمل العظيم، وإنى أعد مولاي جرسه الله بآنى سأبذل جهد المجتهد في الحصول على معاونة جميع هذه الدول وأقوم خير قيام بوفاء وعدى والسلام.

فاستحسن سعيد باشا هذا المشروع وأحلّه محلّ القبول ويعدّ التأمل والبحث الطويل أجاب الموسيو ديلبس إلى الأخذ في أسباب عمل الاتصال المذكور وأنفذ إليه إجازة تتضمن اثنتي عشرة مادة بصورة العمل وما يحتاجه من العمال وما يتبع في حق الأراضي الواقعة على شاطئ الاتصال المذكور وكيفية المساهمة والمشاركة في الأموال اللازمة للنفقة والأرباح الناتجة من الملاحة فيه وفي تسمية شركة لذلك

وتعيين عدد المساهمين وغير ذلك من الشروط والالتزامات التي يستلزمها هذا العمل العظيم، ولما كان لا يتأتى الجزم بالشروع في هذا العمل عقب إعطاء هذه الإجازة للموسيو ديلسبس إلا من بعد مخابرة دار السلطنة العثمانية في ذلك والحصول على رخصة البراءة السلطانية أو عز سعيد باشا إلى الموسيو دى لسبس بالشخص إلى دارالسلطنة ليخبر صدر الدولة في هذا الأمر فصار إليها فكان بينه وبين الصدر الأعظم أخذ ورداً أياما كثيرة وورد مرسوم الصدر الأعظم إلى سعيد باشا باستحسان المشروع وحلوله محل القبول لدى أمير المؤمنين ولزوم التآني والتروى فيه قبل إنفاذه وأنه صار من ذلك اليوم موضوع نظر رجال الدولة ومبحث أرباب الحل والعقد وأنه قد تصرح للموسيو ديلسبس بالشخص إلى حيث شاء حتى يأتيه أمر السلطان.

وجاء المسيو ديلسبس إلى القاهرة غير قانط ولاضعيف الأمل ولبث بها أياما يغدو ويروح على مقر سعيد باشا ثم سار إلى بلاد الفرنسيس ليعدّ المعدات ويجمع المال للنفقة فكثرت تحذير كبار الدول في هذا الأمر واندفعت أصحاب صحف أخبارهم تبدى وتعيد كل حسب ما تمليه عليه أهواؤه وما يلائم مصلحة بلاده ووقف الوشاة على باب السلطان يدسون الدسائس ويحركون ما فى صدور أهل الحل والعقد ويعملون على إبطال هذا المشروع فلم يكن بأسرع من أن عاد ديلسبس ومعه جماعات المهندسين والرسام والبنائين والغواصين وصناع الآلات ومعلمى طبقات الأرض والمعادن وشرعوا فى العمل فرسم محمد سعيد باشا فى سادس عشر ذى القعدة سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية بتسخير زهاء عشرين ألفا من أهالى البلاد بالمناوبة فى حفر ذلك الاتصال ووكل مديرى الجهات بجمعهم وتسييرهم فكانت شدة عظيمة للغاية ونال مشايخ القرى والبلاد من أهلها فأذلوهم وتمكن العدو من عدوه وشمّت الغريم بغريمه وكادت تتعطل أسباب الفلاحة إذ هاجر الكثير من أهل البلاد ونزحوا من أوطانهم فرارا من هذه المحنة الكبرى، وسار ديلسبس فى العمل سيرا حثيثا غير مبال بعدم رضا السلطان ولا هيب من العاقبة وفرق العمال على طول خط الاتصال من ييلوز على البحر الأبيض التى على أرضها الآن مدينة بورسعيد إلى مدينة السويس فتبعهم البياعون على اختلافهم وأصحاب القهاوى والحنات وأهل الخلاعة والقصف فعمرت تلك الأصقاع وصارت أهلة بأخلاط الناس من الروم والترك والفرنجية والمصريين وغيرهم ممن جاء من البلاد البعيدة فى طلب الرزق واهتم رجال الدولة باستتباب الأمن فى تلك الانحاء فرتبوا لها العسس

والشرطة لا ينكفون عن التطواف ليلا ولا نهارا وقام سعيد باشا بجميع تعهداته التى تعهد بها إلى ديلبس ماديا وأديبا فاندeshش العالم بأسره وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله .

وبينما كانت الأحوال على ما يرام والقلوب مطمئنة والفتنة راقدة إذ جاء الخبر بزحف نجاشى الحبشة على بعض الأملاك المصرية الواقعة على الحدود وشنه الغارة عليها وأنه نهب أهلها وساق مواشيهم وأسر منهم خلقا فهال سعيد باشا هذا الأمر وأزعجه فجنّد جنّدا عظيما لقتال النجاشى وعزم على لقائه وكان إلى هذا الحين لم يرتق كيرولس بطرك المتأصلين مسند البطركية بل كان مطرانا ووكيلا للدار البطركية بعد موت بطرس البطرك وكان بين كيرولس ونجاشى الحبشة مودة وصحبة قديمة على عهد بطرس فإنه كان سفيرا من قبل بطرس إلى النجاشى وقد نزل فى جواره أياما كثيرة، والحبشان يجلون بطارقة القبط ويخضعون لسلطتهم الدينية خضوعا عظيما ويعتقدون أن البطرك إنما هو أقرب جميع المخلوقات إلى نوع الملائكة والأرواح العلوية من أنواع البشر ولذلك لا يقربون من مقامه ولا ينظرون إليه فإذا نظروا اضطرابا فبطرف خاشع مطرق، وبعد أن تأهب سعيد باشا للمسير للقاء النجاشى عاد فحسب ما وراء هذه الحملة فخاف العاقبة وظهر أن ماء النيل آخذ فى الهبوط فى غير أوانه فخاف الناس وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فسلّك سعيد باشا فى الأمر مسلك التأنى وشاور أصحاب الفكر فأشاروا بإفّاذ رسل إلى النجاشى يكون كيرولس مطران المتأصلين صاحب الكلمة بينهم فأعجب سعيد باشا رأيهم وكلم كيرولس فى الأمر فأجابته إلى ذلك فرسم سعيد باشا فجهزوا له باخرة من بواخر النيل فركبها مع رجال الوفد وترفعوا نحو الصعيد الأعلى فكانت إذا مرت باخرتهم بإحدى المديريات أطلقوا لها المدافع إجلالا وتعظيما وأنزلوا فيها أصناف المأكول والمشروب ثم ركبوا الهجن والجمال حتى بلغوا حدود الحبشة وعلم النجاشى بقدوم كيرولس ومن معه فخف للقائهم وسار إليهم فى أربعين ألفا من الجنّد فلما اقترب من المحلة التى كانوا بها ترجل وسعى على أقدامه حاسر الرأس فقام كيرولس للقائه فقبل النجاشى يديه وقبل كيرولس رأسه وسار معه والجنّد حوله حتى دخل مجدلة تحت الملك يومئذ وشاع خبر مجيء كيرولس فى جميع أرض الحبشة ففرحوا فرحا عظيما ودقت البشائر وأقيمت الصلاة فى جميع الكنائس وبالغ النجاشى فى إكرامه وقد كان يتمنى لو أنه يراه كى يمسحه ملكا على جميع ملوك الحبشة كما

كانت تسمح أبناء بنى إسرائيل ملوكهم حسب ناموس موسى عليه السلام وكان إلى هذا الحين لم يعتبر النجاشى نفسه ملكا على سائر ملوك الحبشة إذ هو لم يمسح بتلك المسحة فلم يستقر بكيرولس المقام حتى سأله النجاشى أن يمسحه فأجابه إلى ذلك وضرب له أجلا فوفدت جميع ملوك الحبشة والأمراء وسائر قواد الجند والوجهاء والأعيان من أقاصى الحبشة إلى مجدلة وأقيمت الولائم والأفراح فى كل صوب وحذب أياماً ثم مسح بين الملوك والأمراء وقواد الجند وصفوف العسكر والعدد العديد من أهل البلاد وفرح ثيودوروس النجاشى بذلك فرحاً لا يوصف وكان فى مجدلة نفر من الإنجليز مرسلين من الجمعية المعروفة بجمعية التبشير بالإنجيل لبث تعاليم مارتين لوثر الدينية بين الحبشان وقد تقربوا من النجاشى بعمل المدافع وصنع الأسلحة لعسكره وتعليمهم فنون الحرب والقتال حتى مال إليهم وأحبهم وأباح لهم التجول فى جوف البلاد فجالوها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً وبثوا تعاليمهم حتى كادت تعم تقاليدهم جميع البلاد وأصبحوا وقد عبثوا بطقوس الكنيسة القبطية التى هى أم الكنيسة الحبشية فكبر هذا الأمر على مطران الحبشة وخشى العقابة فعمد إلى إيقاف هؤلاء المرسلين عند حددهم فلم يفلح وقد كبر شأنهم واتسعت كلمتهم واشتدت الوحشة بينهم وبينه فلما جاء كيرولس شكى إليه المطران عما تلاقه الكنيسة من أولئك القوم وسأله أن يتقدم إلى النجاشى فى تبعيدهم عسى أن تزول من البلاد تقاليدهم فأجابه كيرولس إلى ذلك ولما تمت الأنراح بمسح النجاشى ورجع من حضر من الملوك والأمراء والقواد والجند إلى أوطانهم كلم كيرولس النجاشى فى سبب قدومه عليه من مصر وسأله أن يرد ما أخذه من بلاد مصر وأن يقلع عما يفعله فى الحدود منعا لقيام الحرب بين الحبشة ومصر وحققنا للدماء التى حرم الله سفكها فأذعن النجاشى وأجابه إلى كل ما طلبه ورسم فكتبوا إلى سعيد باشا يعلمونه بقبول ما طلبه كيرولس بغير شرط ولا تقييد ففرح كيرولس بذلك وكلمه أيضاً فى أمر المرسلين الإنجليز وزين له تسييرهم إلى أوطانهم فقال إنما هم عندى لعمل المدافع وتدريب عسكرى على القتال فقال كيرولس لم يبق موجب لبقائهم وقد زال والله المنة والحمد ما كان بينك وبين مصر من الوحشة والنفور فإن كنت فى حاجة إلى صناعات الحرب أو إلى من يدرب عسكرك أتيت لك من مصر بمن لا تحتاج معهم إلى غيرهم فقال النجاشى هذا ما أبغيه ثم رسم بإخراج من كان فى البلاد من جماعة الإنجليز فأخرجوهم وقد علموا بالسبب فشق عليهم الأمر جداً واستعظموه وصمموا على الانتقام.

وكتب كيرولس إلى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله أن يسير إليه بطائفة من الصناع والمعلمين وعلم قنصل جنرال الإنجليز بمصر بالخبر فعمد إلى الأخذ بالثأر والانتقام من كيرولس جزاء ما فعله بجماعة المسلمين فدخل على سعيد باشا بمقره وقال قد علمت أن كيرولس مطران القبط سأل مولاي أن يبعث إلى نجاشي الحبشة ببعض صناعات آلات الحرب ومعلمي الجند فقال قد كان ذلك قال ولا أظن أن مولاي يجهل أن عند القبط كتابا يعتقدون صحة ما فيه وهو يدلهم على زحف الحبشة على أرض مصر في يوم معلوم عندهم فيأخذونها عنوة قال لا علم لي بذلك ولعله حديث خرافة فقال القنصل هو كذلك. ولكنني أتقدم إلى مولاي في أن يأخذ حذره من كيرولس فإنه داهية طاغية قوى المراس بعيد الفكر محتال قال الراوى لهذا الحديث وما زال بسعيد باشا حتى تمكنت منه الظنون وترامت إلى المرمى البعيد وجمع إليه رجال ديوانه وأهل الدولة وشاورهم في الأمر فأشاروا بالقتال وإعداد الجند والعسكر فرسم بالتأهب والاستعداد وكتب إلى كيرولس يعيب عليه ما فعله ويقول قد أفرطت وتجاوزت حد المصالحة فعجل بالحضور، وقام في جيش عظيم قاصدا الخرطوم فوصلها في سادس عشرى جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف هجرية، قال الراوى فلما تمت حيلة الإنجليز بقيام سعيد باشا بعسكره إلى حدود الحبشان دسوا إلى النجاشي من أعلمه بأن قدوم كيرولس إلى بلادك إنما هو لمنكع من إعداد جندك وآلات حريك لتذب عن مملكتك من إغارة والى مصر وقد أتى إلى السودان ليركب عليك بخيله ورجله فيأخذ ملكك ويذهب سلطانتك وأنت آمن مطمئن وقد سير إليك أيضاً مع كيرولس كساء مسمم النسيج حتى إذا لبسته تسمم جسدك وموت من يومك وكان مع ما أتى به كيرولس من الهدايا والتحف النفيسة والتعابى الثمينة برنس من الجوخ الأحمر المزركش بطراز الذهب والفضة والحرير الملون فهال النجاشي هذا الأمر وأزعجه جدا وأنفذ من يستكشف له خبر مجيء سعيد باشا إلى الخرطوم فجاءه الخبر بوصول جيش عظيم من المصريين فكبر خوفه وتبدلت أفراحه أتراحا وأمر بكيرولس فسجنوه في مقره وأحاط به الحراس من الجند ومنعوا من الدخول عنده ووكل به جماعة من خواصه يراقبونه في الليل والنهار لمعرفة أحواله واستطلاع أسرارهم ووكل جماعة آخرين بطعامه وشرابه وضيق عليه وشدد وكيرولس لا يعلم بالخبر ولا يدرى ما هذا الأمر ثم لم يلبث أن نادى في عسكره بالخروج وكثرت المنادة في كل يوم فخرجت طوائف الجند مشاة وركبانا

فكانت شيئاً كثيراً للغاية وصاروا على قدم الرحيل إلى حيث يلتقون بالعدو، ورأى النجاشي أنه إذا ترك كيرولس معتقلاً وسار بعسكره للقتال تمكن كيرولس من الخروج فيمسخ أحد بيت الملك أو أحد كبار قواد الجند ملكاً فتذهب سلطته وتسقط بيعته وتخرج عليه الملوك والقواد فيصبح بين منتطح عزيزين فعزم على أن لا يتركه فكان إذا سار من بلد إلى آخر ساقه معه في حلقة من الحراس ونفر من الخواص وإذا نزل بعسكره للراحة استدعاه وجعل يؤنبه ويعنفه بفحش الكلام ويقول أو هذه فعالك يا إمام النصرانية فشق هذا الأمر على كيرولس وأحزنه جداً وأخذ في التدبير فكان كلما كلموا الملك في أمره زاد غضباً وغيتاً فلبث كيرولس على هذه الحال من الشدة أياماً طويلاً إلى أن تمكن من لقاء أم الملك وكانت تقية صاحبة دين وورع فشكى إليها ما يلاقيه من ولدها وقص عليها خبره واستجار بها وسألها أن تعلم ولدها بحقيقة الحال فأجابه إلى ذلك وكلمت النجاشي واستحلفت أن يجمع إليه رجال دولته ويشاورهم في أمر كيرولس فلم ير بدا من طاعتها وجمع كبار قومه ورجال دولته وقص عليهم ماعلمه من أمر قدوم كيرولس إلى البلاد ثم أمر بحضوره فاستحضر فسئل عن سبب حضور سعيد باشا إلى الخرطوم بعسكره وسبب وضع الكساء المسمم بين الهدايا التي قدمها إلى الملك فوقف بين أيديهم والدمع ينحدر على لحيته وبالف في بيان الحقائق وأكثر من مدح سعيد باشا وبالف في إخلاصه وولائه للنجاشي وجميع قومه وما زال يستميل القلوب بحسن إبداعه حتى بش الملك وزال عنه بعض الغضب فقال كيرولس: وأما الكساء فهو هدية الباشا إليك أيها الملك العظيم فلا يأخذنك ريب في أمره ولا تصدق ما أخبرك به الوشاة وما أنا إلا أخلص الناس في الأمانة وأقرب إلى طاعة الله فلا أخذ بالوجوه ولا أبيع الأجلة بالعاجلة فإن كنت في ريب من أمر هذا الكساء فأذن لي حتى ألبسه ما شئت من الأيام فيتحقق لك الأمر فاستحسن الملك مقالته وأمر بالكساء فأتوا به وألبسوه إياه على لحمه ووكل به من يحرسه يومين كاملين فلم يصبه ضرر فاستغرب الملك من ذلك وأمر فجاء برجل محكوم عليه بالموت فألبسوه الكساء ووكل به من يحرسه ثلاثة أيام فلم يصبه شيء البتة فالتفت الملك إلى قومه وقال: ماذا تقولون قالوا: هي فرية ما أنزل الله بها من سلطان وقد أسأنا إلى كيرولس فليجعلنا في حل مما وقع فقال: بقي علينا أن نسأله إرجاع سعيد باشا إلى مقره فإن فعل شكرناه وكنا له من المحسنين ثم أرسل إلى كيرولس فدخل عليه فأجله وأجلسه بجانبه فقال: هل لك أن تكتب إلى سعيد باشا

بالانحدار بعسكره إلى تخت بلاده ويكفينا وإياه شر القتال فإن فعلت ذلك شكرناك واستغفرنا عما سلف قال: سأفعل الساعة إن شاء الله وكتب من فوره إلى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله الانصراف عن الخرطوم تتيماً لقاعدة الصلح التي تقررت مع النجاشي وسير بالكتاب مع نفر من كبار الحبشان فلما ورد الكتاب على سعيد باشا رحل بعسكره عن الخرطوم وكتب إلى كيرولس، قد رحلنا عن الخرطوم إلى القاهرة فبلغوا عنا الملك خالص المودة وأعلموه أننا ما زلنا على حسن الولاء والمحبة، فعاد الرسل بالجواب ففرح كيرولس فرحاً لا يوصف وقام ودخل على الملك فلاقاه الملك وهو حاسر الرأس حافى الأقدام وانكب على يديه يقبلهما فقبل كيرولس رأسه وسامحه وأمر الملك فدقت البشائر وأقيمت الأفراح وأولت الولايات ونودي في العسكر بالخروج فخرجوا أفواجاً ومروا بالمكان الذي كان به كيرولس والنجاشي وصاخوا بأصوات التهليل وأمر النجاشي فجاء إليه بورقة العهد الذي رسم بعقده مع سعيد باشا فوقع عليها وهو بين كبار قومه ورجال دولته وأرسلت والدته النجاشي إلى كيرولس هدية نفيسة للغاية وكذلك الأمراء وكبار القواد وزاروه وقبلوا أقدامه وتزاحمت على بابهِ أقدام المهنيين وأتوا إليه من كل صوب وحذب ثم استأذن الملك في الشخوص إلى مصر فجهزه بمال وأرسل معه كثيراً من الهدايا النفيسة وسير معه وزيراً من كبار وزرائه وكتاباً إلى سعيد باشا فلما وصل كيرولس إلى الإسكندرية قوبل بغاية الاحتفاء والاحتفال وأنزلوا وزير النجاشي بدار الضيافة الخاصة وقد رفع إلى سعيد باشا كتاب الملك والعهد والهدايا ولبت أياماً كثيرة لم ير فيها سعيد باشا غير المرة الأولى ثم استأذن بالانصراف فأذن له وأرسل معه بعض الهدايا والتحف وجواباً إلى الملك.

وأحسن كيرولس بعيد رحيل وزير النجاشي بغيظ محمد سعيد باشا منه وإعراضه عنه فكبر عليه ذلك وتردد على مقر سعيد باشا لعله يعرف شيئاً من الأمر فلم يتمكن فصمم على العزلة حتى تنجلي الحقيقة ويظهر الصدق لدى عينين، واتفق بعد أيام أن خرج كيرولس إلى دير أنطونيوس بالجبل الشرقي ومعه بطركا الروم والأرمن الأورثوذكس ليقضوا فيه أياماً ترويحاً للنفس فلما وصلوا بلدة بوش على مقربة من بني سويف نزلوا بعزبة الرهبان أياماً حتى تأتي القافلة فيخرجوا معها، قال الراوى لهذا الحديث: وعلم فنصل الإنجليز بخبر قيامهم ونزولهم بعزبة الرهبان ببوش فسار إلى مقر سعيد باشا ودس إليه بأن كيرولس إنما ذهب إلى الدير بمن معه

من البطارقة للتحالف وتجديد العهد على وحدة الطوائف الأرثوذكسية بمصر وجعل كيرولس بطركا عليهم ووضع الكنيسة القبطية تحت حماية دولة الروس فإذا تم له ذلك أصبح مسند الولاية المصرية على شفا جرف تحيط به الأخطار من كل جانب، قيل فاندهل سعيد باشا من فعال كيرولس وأنفذ إلى مدير بنى سويف يقول: سر إلى كيرولس بطرك القبط وقل له أن يأتى إلينا عاجلا فإننا فى حاجة إلى حضوره فصار إليه بعزبة بوش وأبلغه الرسالة فقال إنى ذاهب مع رفاقى إلى الدير بالجبل الشرقى فإذا عدنا إن شاء الله ذهبنا إليه وتمثلت بين يديه فقال المدير اكتب بذلك فأخذ كيرولس ورقة وكتب مقالته هذه فبعث بها المدير إلى سعيد باشا فاشتد غيظه ثم كان من خبر كيرولس وما جرى له بعيد ذلك ما سيذكر فى محله إن شاء الله تعالى .

ولم تكن لتشغل محمد سعيد باشا عندما نزل على الخرطوم الحرب المتظر وقوعها بينه وبين نجاشى الحبشة عن النظر فى شئون الرعية وإصلاح ما أفسدته أيدي الحكام والعمال من أمور البلاد وتخفيف الضرائب وإبطال بعض المكوس فأنفذ إلى جميع عماله على السودان فى سلخ جمادى الثانية سنة ثلاث وسبعين مرسوما يقول فيه: ليس منكم من يجهل ما ألقى من التعب فى سبيل إحياء ما اندرس من معالم المدنية والعمران وإيراد كافة صنوف الرعية موارد العز والرفاهية وقطع شأفة الظلم والاستعباد ومع ذلك فإنى لما قدمت إلى هذه الأصقاع شاهدت بعينى رأسى ما يلاقى أهلها من الضنك والفاقة وسمعت بأذنى صوت أنينهم من أحمال الضرائب التى أثقلت كاهل الغنى منهم فضلا عن الفقير وفداحة الخراج المضروب على سقاياتهم وأطيانهم وتسخيرهم فى كثير من الأعمال التى لا قدرة لهم على القيام بها والإتجار فى أولادهم وبناتهم كالسلعة فى الأسواق فكان ذلك مما أحزن قلبى وبلبل فكرى لا سيما وقد علمت بأنهم أخذوا يهاجرون من أوطانهم إلى أقاصى البلاد هربا من هذه الكوارث والمحن المتراكمة بعضها فوق بعض فلذلك قد عقدت النية على جعل الخراج قدرا يناسب حالة البلاد وأهلها وعلى أن أبذل جهد المجتهد فى إصلاح أحوالهم وترتيب أمورهم على ما فيه الصالح لهم ولذريتهم من بعدهم فلما نزلت على بربر جمعت المشايخ وجميع من جاء للقاءى من أهل البلاد على اختلاف مراتبهم وسألتهم أن يؤمروا عليهم أميرا يختارونه من بينهم ممن يستبشرون بإمارته ويتوسمون فيه الخير للبلاد وتحصل على يديه السكينة والخلود إلى الطاعة وأن يقدروا مبلغ الخراج الذى يسهل عليهم القيام به بلا كلفة ولا مشقة ففرحوا بذلك وطلبوا أن

يربط على كل سقاية خراجا قدره مائتان وخمسون قرشا فى كل سنة فلم يعجبني ذلك منهم لكثرة مع حاجة البلاد إلى التخفيف فرسمت بأن لا يزيد خراج كل سقاية عن مائة وخمسين قرشا وخراج كل فدان من أرض الجزائر خمسة وعشرون قرشا أما أراضي الغلو فعشرون قرشا لا غير فكان لهذا العمل أحسن وقع فى قلوب سائر الرعية وفرحوا فرحا لا يوصف وأخلدوا إلى السكون والطاعة وهنا بعضهم بعضا وأرسلوا يستقدمون من هاجر منهم وترك الأوطان.

ولما وصلت إلى الخرطوم جاءني أولئك المشايخ والأعيان فأحسن لقاءهم وأكرمت مشايعهم وطيت خواطهم عما لم يسبق له مثيل عليكم تققدون بى وإنى لم أقلدكم المناصب إلا لتكونوا عونى على استتباب الأمن وإصلاح أمور الرعية وإياكم والعسف والجور ولا تجبوا الخراج إلا فى الأوقات المناسبة واعقدوا لتقرير قاعدة ذلك جمعية فى الثلاثة شهور التى لا زرع ولا قلع فيها وقسموا الخراج على أقساط متساوية يسهل عليكم جبايتها إلى آخر كل سنة وكلفوا جماعة الأعيان بتقرير هذا العمل وكل ما وقع عليه الاتفاق أرفعه إلى ثم أحصوا جميع الكشاف والجند الموكلين بجباية الخراج وأخلعوههم وقلدوا مكانهم مشايخ البلاد فهم أولى بذلك وعافوهم فى مقابلة هذه الخدمة برفع خراج سقاية فى كل خمس وعشرين سقاية هذا وحيث أن لأولئك المشايخ والأعيان بيوتا ينزل عليها كل طارق وقاصد فأرفعوا عن كل منهم خراج أربعة أفدنة فى كل مائة فدان وإذا ابتاعت الحكومة شيئا من أهالى البلاد لزمها أن تنقدهم ثمنه حالا بزيادة اثنين فى المائة عما تشتري به الأهالى بعضها من البعض الآخر وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء.

وحيث يوجد فى هذه البلاد من الأخشاب الصالحة للعمائر ومد السفن والخزيق وغيره شيئا كثيرا فاشترى منه من الأهالى كل ما تيسر وسيروا به إلى القاهرة وانقدوهم الثمن معجلا وعلموهم الصنائع والفنون وإنشاء المباني المنظمة والمتاكف المشيدة وغرس الأشجار بالشوارع والطرق وإذا أعطيتم أحدا أرضا للصلاح من الأطيان المتروكة فأخبروا بذلك المديرية التى أنتم فى دائرة اختصاصها وإذا عاد من هاجر إلى بلده وطلب رد أطيانه وكانت ثابتة إليه وجب ردها إذا لم يهض على انسحابه خمس عشرة سنة وأرفعوا عن الأهالى جميع التأخرات لغاية سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف هجرية واعتبروا أن مساحة كل فدان أربع مائة قصبة وإن كل قصبة ثلاثة أمتار فقط وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء اهـ.

فلما ذاع خبر هذا المنشور بين أهل السودان فرحوا فرحاً عظيماً وعاد منهم من هاجر ورحل عن الأوطان بسبب تلك المغارم والمظالم المتراكم بعضها فوق بعض وجاءت وفودهم إلى مقر سعيد باشا يقبلون أعتابه ويدعون له بخير ويعلمونه بأنهم قد أصبحوا على قدم الطاعة والخلود إلى الدعاء بدوام ملكه وتأييد عرشه فأكرم لقاءهم وأحسن وفادتهم ووعدهم بانجاز كل ما يتمنونه من الخير لبلادهم.

وكان ميالاً جداً إلى مد الخطوط التلغرافية والحديدية من القاهرة إلى قلب السودان فلم تمكنه الأيام من ذلك ولكنه رسم بتسيير عدة من سفن البخار في النيل بين الصعيدين فكانت من أكبر أسباب العمران وأدعى إلى رحيل الكثير من الأجانب إلى تلك الأطراف، وكان سريع الخاطر قريب الغضب سريع الرضا يرضى بالقليل من كل شيء ولا يتطلع إلى ما في أيدي الرعية ولم يظلم أحداً قط. وكان إذا علم بظلامة أحد هاج وعاقب مرتكب هذه الظلامة لا سيما منهم أرباب الدولة والحكام وكان بعيد التعصب لأحد الأديان لا يفرق بينهم ولا يفضل بعضهم على بعض فأحبته الرعية ومالت إليه جميع القلوب وكان لا يملك ذاراً لنفسه فإن جميع ما ابتناه جعله ملكاً للخزينة، وسار في عشر رجب من القاهرة يريد الحجاز فوصل مدينة السويس في رابع عشرة وركب من يومه الباخرة المسماة نجلد وزار الحرمين وتصدق في مكة والمدينة وأطعم وفرق أموالاً كثيرة. وقام من المدينة في سادس شعبان فوصل ينبع في ثالث عشرة وسار منها إلى مدينة السويس فوصلها في سابع عشر الشهر المذكور ففرح الناس بقدومه ودقت البشائر وزينوا له مصر والقاهرة ثلاث ليل فكانت كلها أفراحاً، وكان بينه وبين نابوليون امبراطور الفرنسيين محبة كبيرة وكانا على وفاق في كثير من الأمور فأبغضه لذلك كبار سياسة الإنجليز وعملوا على نكايته وتذليله، قال بعض الكتاب: فدرسوا إلى السلطان أنه إنما يسالم نابليون ليساعده على الاستقلال بملك البلاد والخروج عن تابعة دار السلطنة وكانت المملكة العثمانية يومئذ في غاية الارتباك والخبال لخروج الكثير من إيالاتها كالجبل الأسود والبوسنة والهرسك وغيرها عن الطاعة وطلب الاستقلال أو شبه الاستقلال مع تعرض الدول الكبرى إلى جميع أمور السلطنة الداخلية ووقوفهن في سبيل إصلاح الأحوال وإرجاع الأمور إلى سابق مجراها فكانت إذا عمدت إلى إخماد فتنة في إحدى الإيالات ظهرت ثورة في أخرى وإذا تجردت إلى مقاومة طائفة قامت عليها أمة فكان كبار سياسة الدول يهوكون ويرمون السلطنة بالجور والعسف ويسمونونها بالغلظة

والجفاء فسعت وبذلت المهج فى سبيل إخماد تلك الفتن وأجهدت نفسها ولم تتمكن من إعادة السكينة إلى ربوع الهرسك وبوسنه وإصلاح بعض أمورها حتى ظهرت الفتنة بجزيرة كريد واشتدت وعظم أمرها فقام من بها من المسلمين على النصارى واقتتل الفريقان قتال الأعداء وكادت تمتد نار الفتنة إلى جميع البلاد فتدارك صدر الدولة يومئذ على باشا الأمر بحكمة منه وخلع وإلى الجزيرة وأقام مكانه سامى باشا استرضاء لفريق النصارى فسكنت الفتنة وعادت الأمور إلى ما كانت عليه وشدد الصدر الأعظم فى مراقبة الأحوال واستطلاع الأخبار فلم يكن بأسرع من أن ظهرت الفتنة أيضاً بمدينة جدة فقام من بها من المسلمين وركبوا على النصارى فى ذى الحجة سنة خمس وسبعين وأعملوا فيهم القتل بحد السيف وجرحوا قنصل الفرنسيس وكتبه بجراحة عظيمة وقتلوا زوجة القنصل وجاء الخبر بذلك إلى دار السلطنة فاهتم له الصدر الأعظم وفؤاد باشا ناظر الخارجية اهتماماً عظيماً وسيرا فى الحال فريقاً من الجند ومقدمه إسماعيل باشا وأباح له الصدر قصاص جميع أصحاب هذه الثورة بالقتل من غير معاودة فسار إسماعيل باشا قاصداً جدة فلم يبلغها حتى علمت الدول الكبرى بالأمر فهاجت وماجت ونادت بالويل والحرب وأنفذت دولتا الفرنسيس والإنجليز إلى بعض سفن حربهما بالشخوص إلى جدة ورميها بالقنابل تباعاً حتى تدكها دكاً وأعلمتا الباب العالى بذلك فراجعهما فلم يلتفتا لقوله، وكان لما وصل الخبر بما جرى فى مدينة جدة إلى عامل السلطان على مكة سار من فوره إلى جدة وقبض على أصحاب الفتنة وزعماء الثورة وحكم على جماعة منهم بالقتل وعلى آخرين بالتبعد ورفع أمرهم إلى دار السلطنة ولبت ينتظر الجواب فوصلت فى هذه الأثناء إحدى سفن الحرب الإنجليزية وعلم ربانها بما جرى فسير إلى العامل على مكة يطلب التعجيل بقتل أصحاب الفتنة وضرب له أجلاً أربعاً وعشرين ساعة فأعاد إليه الجواب لا أعمل عملاً حتى يأتينى أمر السلطان فلما مضى الأجل المضروب أطلق ربان السفينة قنابل مدافعه على المدينة تباعاً واشتد الرمي وتراسلت القنابل زهاء عشرين ساعة حتى كادت تدمرها ولا تبقى بها حجراً على حجر ومات تحت الردم خلق كثير وبينما القنابل تتساقط من كل صوب وحذب إذ وصل إسماعيل باشا مبعوث السلطان ومعه طوائف الجند والعسكر العثماني فكلم ربان السفينة الإنجليزية فى الكف عن رمى القنابل فأجابيه إلى ذلك وأنزل من معه من العسكر وكذلك أنزل إسماعيل باشا عسكره إلى البر ورسم بقتل أصحاب الفتنة وزعماء الثورة فعلقوهم على الأخشاب وبالعوا فى التمثيل بهم فزالت الفتنة ولم يبق لها أثر.

وكانت هذه الدسائس وأشباهها موجبة لطيرة السلطان وتخوفه من جميع عماله ورجال مملكته وتحذره عند كل حادث فلما أعلموه بخبر مسالة سعيد باشا ل نابوليون ودسوا إليه أنه إنما يتودد إلى نابوليون ليكون له عونًا على الخروج والاستقلال بملك مصر خشى العاقبة والبلاد باب الحرمين وطريق الحج إلى بيت الله فبث العيون ليأتوا إليه بالأخبار وما زال حتى تحقق أنها فرية لحاجة في النفس فأجلد إلى السكينة مع التحذر والالتفات وما زالت الأمور بينهما على ما يرام من التودد والصفاء حتى مرض السلطان ومات في سابع عشر ذي الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته ثلاثًا وعشرين سنة وستة أشهر وعمره أربعون سنة وأربعة عشر يومًا.

ومات في أيامه بطرس بطرك المتأصلين بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان تقيًا ورعًا زاهدًا مستشفًا محبًا للخير قليل الكلام مع هبة ووقار يقضى يومه منكبًا على المطالعة ولا يجلس إلا على الأرض ولا يلبس إلا الصوف الخشن ولا ينام إلا على حصير من القش بعيد الغضب إذا تكلم فسمع التأدب والحشمة ولا ينظر إلى وجه سامعه وكان قد استقدمه إبراهيم باشا إلى بيت المقدس على عهد حكمه على الشام فأكرم وفادته وأحسن لقاءه وبالح في تعظيمه ثم أعاده إلى القاهرة، قيل ولما احتضر سأل بعض كبار الأمة عمن يخلفه في المنصب فرفع عينيه إلى السماء لحظة ثم أطرق وقال داود رئيس عزبة بوش فاستقدموه عاجلاً وكان قد كتب إليه قبل مرضه بأيام كثيرة أن أحضر ولا تبطئ فإني في حاجة إليك، وكان لا يتعرض إلى أمر من أمور السياسة ولا يجتمع بأحد من ولاة الأمور وإذا سار في الطريق أرخى على وجهه لثامًا أسود، مات في ليلة الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجرية ولم يصل داود إلى القاهرة إلا في تاسع عشر رمضان من السنة أى بعد موت بطرس بشهرين وخمسة عشر يومًا فقد كان رسوله إلى الرسا على ملك ملوك الحبشة لفض الخلاف الذى كان بين الحبشة ودار البطركية بخصوص الدير المعروف بدير السلطان الكائن بأرض بيت المقدس، وتحرير الخبر أن للقبط بأرض بيت المقدس ديرًا عظيمًا يعرف بدير السلطان وهو على مقربة من كنيسة القيامة وكانت تأوى إليه جماعة من الحبشان المتوطنين ببيت المقدس كسائر الأغراب الذين لا مأوى لهم بتلك الديار فاتفق أن وقع بين بعض أولئك الحبشان وبين رهبان ذلك الدير شقاق أدى إلى المخاصمة ثم إلى الملاكمة فلم يسع الرهبان إلا إخراج

أولئك الحبشان خارج الدير المذكور. وسد أبوابه في وجوههم فتحزبوا وأرادوا الدخول عنوة فلم يفلحوا فشكوا أمرهم إلى أصحاب الحل والعقد فلم ينالوا غرضاً وكأنه قد كبر مصابهم على قنصل الإنجليز بيت المقدس فتجرد للأخذ بناصرهم وبالع في تعضيدهم لأمر لم تصل إلينا معرفته فقام أولئك الحبشان يدعون ملكية الدير المذكور وقالوا إن الذي أنشأه هو أحد ملوك الحبشة ولذلك يسمى بدير السلطان. وأما القبط فلا ملك لهم ولا سلطان منذ دخول النصارية بأرض مصر وإنما السلطان للحبشان وقال القبط: غير ذلك وإن الذي بناه هو الأسعد أحد عظماء القبط في خلافة محمد المهدي ثالث خلفاء بني العباس وقد كان الخليفة المشار إليه أحسن إلى القبط بقطعة الأرض الواقع عليها بناء الدير المذكور ورسم بينائه على نفقته فسماه جماعة القبط من يومئذ دير السلطان إجلالاً للخليفة المهدي وتعظيمًا واشتد الخلاف وتخرجت الأمور بين الفريقين فأوعز قنصل الإنجليز بيت المقدس إلى جماعة الحبشان برفع ظلامتهم إلى دار السلطنة العثمانية فسار نفر منهم إلى القسطنطينية ووردت كتب النجاشي في ذلك إلى بطرس البطريرك فرسم بطرس إلى مطران بيت المقدس بفيض هذا الخلاف بالتي هي أحسن فبذل المطران الجهد في إقناع جماعة الحبشان فلم يفلح واستفحل الأمر وتعذر الوثام وكبر التساهل على الفريقين وقنصل الإنجليز لا يقف عند حد فلما أعيى بطرس البطريرك الحال وخشى سوء المآل استقدم داود رئيس عزية بوش التي هي مفتاح دير أنطونيوس بالجبل الشرقي ورسم له بالذهاب إلى الحبشة سفيراً إلى الرسا على لفض الخلاف الواقع بسبب ذلك الدير. وكان لداود المذكور إقبال وحسن سياسة فسار في نفر والتقى بالرسا على وكلمه في الأمر قال بعض الكتاب: فلم يفلح لسعاية قنصل الإنجليز وطال مقامه على غير طائل فجاء إليه الطلب في أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وستين فتقدم إلى النجاشي في ذلك فلم يأذن له وعوقبه أياماً آخر ثم سرحه فوصل القاهرة في تاسع عشر رمضان فكانت مدة لبثه عند النجاشي سنة وبضعة أشهر وكان وصوله إلى القاهرة بعد موت بطرس كما تقدم القول فلاقاه الناس باحتفال عظيم للغاية ونزل بدار البطريركية ضيقاً ولبت بها أياماً على الرحب والسعة ثم اجتمع كبار الملة وأصحاب الرأي فيهم وتشاوروا في إقامة داود خلفاً لبطرس فاتفقت كلمتهم على ذلك وكان الأمر يومئذ إلى عباس باشا حلمي وإلى الديار المصرية فاجتمع جماعة من كبار الملة ورفعوا إلى عباس باشا رقعة بطلب إقامة داود مكان بطرس البطريرك، قال أحد كتاب الأخبار فطاولهم وسأل

أصحاب الزايرجات عما يروونه في إقامة داود بطركاً فأرجفوا وهولوا وقالوا نكد ثم خصام وشدة ثم موت الوالي وتمزيق شمل أتباعه فاضطرب عباس باشا وشدد في السؤال فلم يروا في حسابهم غير ذلك وكان من مقدمي دواوين الدولة يومئذ ديواني اسمه جاد أفندي عوني وهو جاد شيخه فاستدعاه كتبخدا الباشا وقال له أعلم جماعة القبط بأن لا سبيل إلى ولاية داود منصب البطركية فإن أبوا إلا هو كانت الطامة الكبرى فلما علم القوم بما قاله كتبخدا الباشا اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم وانقسموا فمتهم من قال : لا نختار غير داود ومنهم من طلب الأنبا يوساب أسقف إخميم وهؤلاء هم أنصار جاد أفندي ومنهم من اختار الأنبا اثنا سيوس أسقف أبي تيج ومنهم من اختار غيره واشتد الخلاف وتفرقت الأهواء وكثر التحزب وتوالى الاجتماع في الليل والنهار وليثوا على هذه الحال أياماً فوجد أفندي يغدر ويروح على كتبخدا الباشا ليعلمه بأخبار كل يوم .

فلما كادت الحزمة تنصيرم ونار الوحشة بين الأحزاب تضطرم قام أنصار داود ولجئوا إلى المستر ليدر أحد مرسلني جمعية التبشير الإنجليزية واستجدوه فكلم قنصل الإنجليز في ذلك والقنصل كلم عباس باشا فطاولة فالج عليه فيناه وطال الحال والناس يذهبون في كل يوم إلى بيت القنصل ويسألونه التعجيل ، وافق أن قدم في هذه الأثناء رسول من قبل نجاشي الحبشة ومعه كثير من التحف والهدايا النفيسة إلى عباس باشا وشئ من الذهب والفضة والمرجان والدواب والوحوش البرية وكتاب من النجاشي لم يصل إلينا علم ما فيه فأنزلوه في دار الضيافة فلم يمض على حضوره إلا أيام حتى شاع الخبر بأن القبط جميعاً كانوا على قدم الخروج وشق عصا الطاعة وأن داود إنما سار إلى النجاشي ليستجده وكثر تحدث الناس في هذا الأمر فلما كان في أحد الأيام جاء إلى دار البطركية رسول من قبل محافظ البلد ومعه جماعة من الكتاب والجند وجعلوا يسألون داود عن سبب ذهابه إلى النجاشي وما كان بينه وبين النجاشي من القيل والقال وعما هي رسالة بطريرك إلى النجاشي وظلوا على هذه الحال أياماً ثم رسم عباس باشا يحتمل داود إلى مجلس الأحكام بقلعة الجبل فكانوا يأتون به أمام المجلس في كل يوم المرة والمرة ويشددون عليه في السؤال وهو مع ذلك ساكن القلب هادئ القلب لا ينطق عن الهوى فكبر أمره على عباس باشا وزادت كراهته للقبط فرسم بإخراج جميع مبشرين الدواوين من خدمة الدولة وكذلك سائر الكتاب فأخرجوهم وأقصى أصحاب الوجاهة منهم إلى سنار

ودارفور وبالع في تدليل من لم يمكن الاستغناء عنهم فكانوا لصيق الخصال ونفاد ما
 بأيديهم يشترى المصالح الديوانية بالمناقضة وكثر ذهاب أنصار داود إلى بيت المستر
 ميري فنصل جنرال الإنجليز يستفزونته إلى الأخذ بناصرهم وعباس باشا لا يزداد إلا
 إباءً وعناداً ثم سيز كتحدا الباشا يوماً في طلب جاد أفندي ورسوموا له بأن يختاروا
 آخر غير داود خللاً لبطرس وأن يعجلوا في ذلك كي لا يبقى لوساطة القنصل محل
 فقام جاد أفندي واجتمع من ساعته بجميع الأساقفة وأخبرهم بما يريد كتحدا الباشا
 وقال لهم اختاروا واحداً من بينكم يكفيها مؤنة التطويل فاختلفت كلمتهم وتفرقت
 أغراضهم وذهب كل إلى مذهب ثم طال بينهم الكلام واشتد اللدد والخصام ففسا
 سرهم وانكشف خفي أمرهم وتفرقوا في ليلتهم تلك على غير طائل وأصبحوا وقد
 اجتمعوا وبينهم جاد أفندي وتكلموا في الأمر وبعد أخذ ورد اتفقت كلمتهم على
 مبايعة الأنبا يوسف أسقف إخميم وكتبوا عهداً بذلك وتحالفوا على كتمان الخبر فلما
 كانت الليلة الأولى من رجب الفرد سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية اجتمع
 جميع الأساقفة بدار البطريكية فتبعتهم الغوغاء سرّاً ومعهم صاحبهم يوسف وجاد
 أفندي ونفر من أقاربه وأغلقت الأبواب وأقاموا الحجاب تحرسهم ورفعوا الصلاة
 وبينما هم على هذه الحال إذ برز أعشى من عرافان المكاتب اسمه بنى وجعل يطوف
 في الأرقه والحارات المجاورة لدار البطريكية وينادي بأعلى صوته هبوا يا قوم فقد
 قضى الأمر اليوم يا قوم ها هم يبائعون الليلة أنبا يوسف فإن تغافلتم ندمتم وإن
 نشطتم غنمتم يا قوم قد قامت الصلاة قد قامت الصلاة بادروا قبل القوات هداكم
 الله هداكم الله وما زال يكرر النداء ويكثر من الصياح والتطواف حتى استيقظ
 الناس وهبوا من نومهم وهم لا يدرون ما الخبر وهرعوا إلى دار البطريكية فتبعتهم
 الغوغاء واقتحموا الأبواب وعلت الضوضاء وكثر الصياح وهب جماعة من الحيشان
 كانوا نياماً بدار البطريكية وسألوا عن الخبر فزينوا لهم إخراج الأساقفة من المسجد
 فذهب جماعة منهم وأتوا بالعصى والمساوق واقتحموا المكان الذي كان به جمع
 الأساقفة ورسول الباشا وهم لا يعرفون حقيقة الخبر فكسروا الأبواب وفرقوا شمل
 جميع الحجاب وصاحوا في وجوه الأساقفة وأخرجوهم قهراً فعلت أصوات العامة
 وكثر الصياح ووقع بينهم الهرج وطلب العامة رسول الباشا فكان كمن غمين في
 الماء أو عرج به إلى عنان السماء وظل جماعة الحيشان والناس يغدون ويروحون أمام
 دار البطريكية حتى مطلع الفجر فتفرقوا وانصرف جمعهم

وقد بدأ التعصب يدب في صدور الناس ولاحت لوائح الفتنة وظنهرت علامات
الناس فذهب قنصل الإنجليز إلى عباس باشا وأخبره بما جرى وببالغ في الأمر. وهول
في سوء العاقبة وأشار إلى ما سيكون من وراء الإباءة والمنع. فخاف عباس باشا ورسم
بإقامة داود. وكيلاً لدار البطريكية. فرضى القنصل. ورضى سائر القبط. بذلك أن
أول الغيث قطر فلما كان خامس عشر رجب من السنة سير الباشا مرسومه. بذلك
فأقاموا الصلاة سراً خوفاً من قيام جماعة الحبشان إذ كانوا لا يحبون داود ولا
يرضونه بطركا. فما كادت الصلاة تتم حتى برح الخفاء وشاع الخير فاجتمع الحبشان
بالمسجد فلحق بهم العامة وتبعهم أتباع المصلين واقتحموا الأبواب وبأيديهم الغصى
والمساوق وصاحوا في وجوه المصلين واكثروا من شتمهم وسبهم ثم تماسكوا
بالأطواق ووقع الضرب واللكم وكثر الصياح وعلت الأصوات واشتدت الجلبة
وتطايرت العمائم عن الرؤوس وتكسرت مصابيح المسجد وأطفئت الشموع فهرب
الأساقفة واختفى داود وأصحابه ففتش عليه الحبشان فلم يعثروا عليه فأنكفوا
وسكنت الفتنة وقد كان لا يظن أنها تسكن وأصبحوا وقد اتفقت كلمتهم على إقامة
داود خلفاً لبطرس فلما كان يوم الأحد التالي اجتمعوا بالكنيسة الكبرى وبإيعوه
جهازاً وسموه كيرولسا وولوه مطراناً على كرسي مصر ووكيلاً للكرسي البطريكي
فلم يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة ووقع الخلاف فتفرقت الكلمة وتحزبت
الأحزاب وذهب كل إلى مذهب في أمر كيرولس وكبرت الوحشة بينه وبين فريق
منهم وقد كانوا هم مقدمي القويم وأصحاب الكلمة فيهم فحجروا عليه في جميع
تصرفاته ومنعوه من النظر في شئون الملة واشتدوا عليه شدة بالغة فكان إذا أراد النوم
لا يجد لرأسه وسادة ولا لجنبه فراشاً وإذا جاع لا يطعم إلا ما قدموه إليه وإذا زاره
أحد فلا يأذنون له بلقائه. وهو مع ذلك ساكن البال رائق الحال لا يألو جهداً في
تأليف القلوب المتفرقة والنفوس المتنافرة وما زال حتى أفلح في ضم الكل إلى الكل
فصاروا على الخير أعواناً وفي ذات الله إخواناً وطرخوا عنهم الخلاف وعادوا إلى
الاستنجا بـقنصل جنرال الإنجليز على تولية كيرولس منصب البطريكية فأجابهم إلى
ذلك وما زال بعباس باشا حتى رسم في سلخ شعبان من السنة أي سنة سبعين
ومائتين وألف هجرية بولايته.

فلما كان تاسع رمضان بايعة الأساقفة في أبهة زائدة وطيروا الخير بذلك إلى
الآفاق وفرحوا بولايته ووفد عليه المهثون من كل صوب وحذب ولم يمض على

ارتقائه منصب البطريكية أيام حتى مات عباس باشا فاعتقد الناس صحة ما قاله أصحاب الزايعات وأحلوه محلاً ، ولما استقر بكيرولس المنصب جمع إليه القلوب المتنافرة واستمال الخواطر المتباعدة وأصلح ما أفسده التحاقد فمال الناس جميعاً إليه وأخذوا بكلمته وساروا بمشورته فعمد إلى إخراج سليلة قدماء المصريين من حضيض الجهالة ومهاوى الرذالة إلى أوج المعارف والتمددن وصروح التعلم والتفنن فأنشأ لهم المدارس وأتى لها بكبار الأساتذة والمعلمين من الفرنسيين والإنجليز والإيطاليين وعلماء العربية وأكثر لها من المعدات والأدوات والكتب المرتبة وغير ذلك ، وكان المشار إليهم في تعليم الأطفال يومئذ جماعة من العميان يعرفون باسم العرفان وكان لهم منزلة عظيمة بين الناس وحرمة واسعة وكلمة مسموعة فلما أحسنوا بما فعله كيرولس أدركوا ما وراءه من الحيلة وسد أبواب الرزق في وجوههم فتجردوا إلى العداوة وإيقاظ الفتنة الراقدة وجعلوا يطوفون البيوت ويحسون آباء الأولاد وأمهاتهم على العصيان وشق عصا الطاعة ويقولون كيف تلقون أولادكم بأيديكم إلى التهلكة وصاحبكم كيرولس قد عاقد الدولة على أن يجند لها من أولادكم الوفا لتدفع بهم إلى حيث لا يعلم إلا الله وكان إذا وصل إلى دار البطريكية شيء من الكتب أو معدات التعليم ولولوا وقالوا هذه البنادق وآلات الحرب وملابس الصيف وأحذية الشتاء تأتي على عجل وكان الناس كافة كما هو اليوم يكرهون الجندية ويخافون التجند خوفاً ما عليه من مزيد فاعتقدوا صحة الخبر وأخذتهم الطيرة وكرهوا عمل كيرولس وتجردوا لمقاومته وجماعة العرفان لا ينكفون عن التطواف وحض الناس على مقاومته ، أقول وقد كنت وإخواني نتعلم العربية عند أحد أولئك العميان ولي من العمر يومئذ السابعة فينما نحن يوماً نرقب حضوره كالعادة إذ أقبل يهرول في ثيابه ويده على كتف أحد الصبيان فقمنا إجلالاً إليه وأقبلنا جميعاً نقبل يديه فجلس ثم أخذ يتمايل تمايل الزق المفتوخ أو البو المسلوخ وأخرج غلبة السعوط فحشا خياشيمه حشوا حتى تأوه وعطس ثم مخط وسعل وثقل يمينه ويسرة وضرب الأرض بعصاه فطار عثبرها وتساقط على رؤسنا تساقط المطر وصاح لا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم قال أف لكم وتعباً لوالديكم فلسوف تلقون غداً ما تلقون فقد استسلم أبائكم إلى الترهات وزخرف القول فضلوا والقوكم بأيديهم إلى التهلكة فبش المصير بشن المصير ثم عاد فحشا خياشيمه بالسعوط وصاح اقرؤا ارفعوا أصواتكم ثم اشتد

به السعال حتى كاد يغمى عليه فلما أفاق قال ها ها هاهيه أسمعنى صوتك، كرر لوحتك، اسكت يابن النجار، أخسأ يا شقى، اخرس يا شيطان، لا تعض أذن أخيك يابن الصائغ قم وأفرغ ما فى خياشيمك يابن يوصف صه يا أحدب يا أبا الرأسين يا أبا ذباب وما زال على هذا الحال من النداء والصياح والجلبة والسب والشتم ونحن فى جلبة وضجيج حتى نعس ونام واشتد غطيظه ونحن كالحلقة حوله ندفع عنه الذباب ونطرذ الكلاب الداخلة علينا من الباب فلما سكنت قلوبنا بنومه أقبلنا على معلمنا الذى كان يكتب لنا الألواح ويضفر لنا زعف النخل فراشا نجلس عليه فيسألناه عما أصاب العريف فى يومه فقال هو بخير وعافية ولكنه فى شغل مما أتاه كيرولس البطريك فإنه على عزم أن يجمع جميع أبناء الملة ويضعهم فى دار أنشأها بالقبيلة وسماها (دار العلوم) وقد عين لدخول التلامذة فيها يوم كذا ونودى بذلك فى الناس اليوم بالكنيسة الكبرى فدعونا وهذا الكلام وإرفعوا أصواتكم قبل أن يرفع العريف رأسه فعلت الأصوات واشتدت الجلبة.

وأحسن كيرولس بما وراء تطواف أولئك العميان من الفشل فاستعمل الحيلة وأحسن التدبير فجمعهم إليه وطيب خواطرهم وأناط بهم التعاليم الابتدائية وأقرهم على ما بأيديهم وأفرز لكل منهم محلا يدار المدرسة الكبرى ورتب لهم الجماكى والمرتبات وأخذ عليهم العهود ومهد لهم طريقا للتعليم وجعل لامتحان تلامذتهم أياما معدودة فى كل ستة شهور فمن وجد منهم ناجيا ضم إلى صفوف المدرسة فلم يمض على ذلك إلا القليل حتى دخل من هؤلاء فى صفوف المدرسة نيف وتسعون تلميذا ومائة ممن كانوا خارجا وظهرت عليهم علامات النجابة ودلائل الفلاح فتكلموا بالإنجليزية والأفرنسية والإيطالية والقبطية وجودوا العربية وتعلموا منها النحو والصرف والبديع والبيان ونبحوا ونجحوا نحاحا عظيما ثم أنشأ بعد ذلك مدرسة ثانية بالخطه المعروفة بحارة السقاين فكان شديد الولع بها وكان فى نهاية كل سنة يولم الولايم العظيمة ويدعو كبار القوم والوجهاء والعلماء لامتحان التلامذة ثم يفرق الجوائز من نياشين الذهب والفضة ونفيس الكتب ويهد الموائد الفاخرة وكان إذا سمع من أحد التلامذة كلمة وأعجبه وضعها أو استكبرها على قائلها لصغره وعدم بلوغه حد النقد فرح به فرحا عظيما واستعادها مرارا وأخبر بها كل من يراه فى يومه فيقول سمعت اليوم فلان ابن فلان يقول كيت وكيت فسرتنى جدا إدراكه وتحقق لي نجاحه إن شاء الله، ووجه عنايته إلى ترميم المعابد وإعادة ما تخرب منها فأعادها إلى ما كانت عليه وأنشأ بالخطه المعروفة بحارة السقاين كنيسة وقد كان إلى ذلك الحين

يضعب جداً إنشاء الكنائس تمسكاً بالعهد القديم والسنة المتبعة عند أولياء الأمور وأصحاب الكلمة من أمناء الدين وأنشأ أيضاً الكنيسة الكبرى بالقبيلة على نظام أشهر الكنائس ولم يتم بناؤها وأنشأ داراً للطباعة وسمّاها باسمه وسلم أمر تديرها لجماعة من أبناء المدارس فأحسنوه وأنقنوا صنعة الطباعة فطبعوا فيها كثيراً من الكتب الدينية وكتب التاريخ والآداب وجمع من خزائن الديارات والمعابد القديمة نفائس الكتب وأشهر السجلات ليضعها في دار مخصوصة قد أعدها لذلك وقد تبددت بموته ورسم بتصحيح الكثير من كتب الكنيسة وقد كانت محشوة بالخلط والتحريف فصححوا ما فيها وضبطوا عباراتها فجاءت على أحسن ما يرام وترتب الطقس الإكليريكي وهذب الزى الشماسي فجاء حسناً مقبولاً جازياً إلى يومنا الذي نحن فيه وأحيا اللغة القبطية بعد موتاتها فطبع منها عدة كتب بدار الطباعة الكبرى بلندن عاصمة الإنجليز فتعلمها أبناء المدارس وتكلموا بها فكانت إلى آخر أيامه من أهم اللغات التي تتكلم بها أبناء المدارس، وكان ميالاً إلى تعليم البنات وتهذيبهن إلى جد يكن فيه معينات لأرواجهن ومرييات لأولادهن فصادف من المقاومة في ذلك أشكالا ولكنه كان مع ذلك يتحين الفرص ويتبين انتفاعها فلم تطل أيامه ومات قبل أن ينال إربه من ذلك ووقع بينه وبين محمد سعيد باشا من الوحشة والنفور بسبب ما رماه به الإنجليز من سعيه وراء الخروج عن طاعة الدولة وجعله الكنيسة القبطية تحت حماية الدولة الروسية كما تقدم بيان هذا كله في محله ما أوجب تخوفه وانكماشه وعدم اجتماعه بأحد من رجال الدولة وكأنه كان يخشى وقوع أمر يتهدده ولكن.

ولا يمتنعك الطير شيئاً أردته فقد خط بالأقلام ما كنت لا قيا

وطالت أيام عزله ورسل القيصر تعوده كل قليل وتخبره في أمر الكنيسيتين القبطية والروسية وعندى أنها حقيقة لا يصح إنكارها فقد كانت من أعظم رغائب كيرولس وهو أكثر الناس تعلقاً بها وأشدّهم تمسكاً بأهداها وقد بذل في الوصول إليها النفس وتقرب عن أشاروا عليه بذلك جهد الاستطاعة واستمالهم فأعانوه وصار اتحاد الكنيسيتين أدنى من قاب قوسين بل أمراً مقضياً، فلما كان في أحد الأيام جاء إليه رسول من قبل محافظ مصر يستدعيه إلى الديوان لأمر لا يتم إلا بحضوره فلم يقبل الذهاب وصرف عنه الرسول بالتى هى أحسن فعاد إليه ثانية وثالثة فلم ير بداً من الذهاب وسار معه وغاب ساعة ثم عاد ووجهه يقطر منه العرق وقد نزلت به حمى شديدة فلأزم الفراش من ساعته واشتدت به الحمى شدة بالغة فأتوا إليه بطبيب

فعرف العلة وأشار بالدواء فلم يأت به حتى أتاه طبيب محمد سعيد باشا بأمر منه وأخذ في علاجه وما زال يعالجه أياماً وقد اشتدت عليه وعظم الداء وفقد الرشيد وسقط شعر رأسه ولحيته على وسادته وانحل جسده ومات ليلة من سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية ودفن ببيتته التى ابتناها لنفسه بالكنيسة الكبرى بالقبيلة ودفن معه حظ القبط جميعاً وحظ بنينهم من بعدهم وحزن الناس عليه حزناً عظيماً فكانت مدته خمس سنين إلا أياماً رحمه الله رحمة واسعة.

قلت وهو داود بن توماس بن بشوت بن داود ولد سنة خمس وعشرين ومائتين وألف هجرية بقرية اسمها نجع أبوزقالى من قسم صومعة شغلاق بإقليم إخميم بصعيد مصر وأقام مع أبويه بهذه القرية إلى أن ناهز الخامسة والعشرين وكان رحمه الله عفواً تقياً ورعاً محباً للفقراء حسن النية سليم الطوية ميالاً إلى العزلة والانفراد شديد الرغبة فى معرفة أخبار الصالحين مولعاً بأهل العلم أوى إليه كثيراً من أهل الفضل من جماعة القسيسين والرهبان واتكب على تلقى العلوم الدينية ثم تافى نفسه إلى الرهبنة والتجهد وهم بالرحيل عن وطنه فمنعه من ذلك أبواه ثم جعل يراقب الفرص حتى خرج هارباً فى عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية إلى دير أنطونيوس الأعلى بالجبل الشرقى وليس مسح الرهبانية وأقام سبع سنين فكان محبوباً موقراً يشار إليه فى المهمات، فلما كانت سنة خمس وخمسين ارتقى إلى رتبة القسيسية فزادت منزلته وعلت كلمته ومالت إليه القلوب وأحبه الناس وفى سنخ جمادى الأولى من السنة المذكورة استقدمه بطرس البطريرك وولاه الوكالة على الأحباس والأوقاف فدير أمورهما وأحسن تدبيرهما وأكمل نظامهما وعرفه الناس فمالوا إليه وتقربوا منه فرأوه شهماً حازماً واسع الدراية يقظاً نشيطاً وقوراً حسن السياسة ميالاً إلى تعميم المعارف وتوسيع نطاق التمدن شديد الرغبة فى إحياء ما اندرس من معالم مدنية الأمة القبطية والارتقاء بها إلى درجات الرفعة والتقدم، وفى أخريات سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية ولاه بطرس البطريرك الرئاسة على دير أنطونيوس الأعلى فأحسن التدبير ورتب الأمور على أحسن ما يرام وشدد فى ملازمة حدود الرهبانية فافتتن فى أيامه جماعة الرهبان فتنة كبرى ولبت أياماً حتى تمكن من إخماد نارها وبقي رئيساً تسع سنين أولها سنة سبع وخمسين وآخرها سنة ست وستين ثم استقدمه بطرس وسير به إلى الحبشة رسولاً إلى النجاشى كما تقدم القول

وكان رحمه الله عظيم التجهد يتظاهر بحسن المنبس وهو لا يلبس على جسده إلا
أخشن الوبر يظهر الإعتناء بعظائم الأمور وهو غاية في العفة والتقشف حلیم بعيد
الغضب شديد على جماعة الرهبان لا يبيح لهم ترك الجبل والاختلاط بالناس كريم
النفس أبها رزين خبير بالأمور وبموته خلا الكرسي زهاء سبع سنين كان يدبر الأمر
فيها مرقس مطران البحيرة ثم قام بعده ديمتريوس سنة سبعين ومائتين وألف هجرية
أى سنة أربع وخمسين وثمانمائة وألف ميلادية وهو الحادى عشر بعد المائة واسمه
مخائيل وكان رئيسا على دير أبى مقار ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى
محلّه إن شاء الله تعالى .

(الفصل الثالث والعشرون)

(فى خلافة السلطان عبد العزيز)

ابن السلطان محمود خان)

ثم قام بالأمر بعد موت السلطان عبد المجيد أخوه السلطان عبدالعزيز خان ابن
السلطان محمود خان ببيع له بالملك يوم موت أخيه سبع عشر ذى الحجة سنة سبع
وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة إحدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية وأتت
بذلك الأخبار إلى القاهرة فزينت المدينة ودقت البشائر وخطب له على المنابر
وضربت النكة باسمه وورد إلى محمد سعيد باشا فرمان الرضا فقرئ فى ديوان
الغورى بقلعة الجبل ولما استقرت به السلطنة نظر إلى أمور الدولة من أبوابها وأجهدها
النفس فى ترتيبها وقد كانت الحروب القائمة عليها أمحلتها وأذهبت رونقها وبهجتها
حتى كاد العدو ينشب أظفاره فى جوفها فبالغ فى إصلاح ما أفسدته الأيام وعزز
جانبيها وجند لها الجند الكثير وأنشأ مراكب الحزب وسفن الطراد وحصن الحصون
والقلاع بأنواع الأسلحة الثقيلة فعلت كلمته وكبرت فى أعين الخصوم هيئته وتقرب
منه الإسكندر الثانى قيصر الروس وتحبب إليه وسأله وأخذ بقوله وعمل بمشورته
حتى كاد ينفضح ما كان بينهما من السر المكتوم وخاف الإنجليز شدة ذلك وأحسوا بما
وراءه من تنكيس أعلامهم فى قلب آسية وداخل أبواب هندهم فبدلوا النفيس وتقربوا

إلى مشايخ قبائل ذلك الصقع وأعملوا الدسائس فى دار السلطنة ببذل المال وإعطاء العطايا العظيمة وما زالوا يميلون بأبناء البلاد يمنة ويسرة حتى نالوا منهم وأسسوا عصابة باسم تركية الفتاة وأمدوها بالمال فتمت وعظمت وكثر عددها وانضم إليها الكثير من فحول الكتاب وأصحاب التحرير والخطباء والقوالين فكتبوا وألفوا وصنفوا وقالوا فى الخليفة السلطان عبد العزيز ما قال مالك فى الخمر ورموه بالمرزوق عن الدين ووسموه بموالاة الروس أعداء المسلمين وأكثروا من التفريع والوقعة بعالى باشا الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وأهل الحل والعقد من رجال الدولة وبلغت بهؤلاء القوم القحة إلى حد كانت رسائلهم المشحونة بالسب والشتم وفحش القول تلقى فى مخادع الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وقد وصلوا إلى معرفة أخبار دار السلطان وأسرار كافة بيوت أهل الحل والعقد واشتدوا عليهم شدة بالغة وكان لهذه العصابة أصول وفروع بين عاصمة الفرنسيس وعاصمة الإنجليز ودار السلطنة العثمانية فخافها السلطان وعمل على تنكيلها فلم ينجح له عمل ولم ينل منها أربا لاستفحال أمرها واتساع كلمتها حتى كان من أمرها بعد ذلك ما سيتلى عليك فى محله ، ولم يقع بين السلطان ومحمد سعيد باشا من المودة والإخلاص ما كان يظن وقوعه بعد موت السلطان عبد المجيد فقد كانت الوحشة لم تزل قائمة ما بين محمد سعيد باشا ورجال الدولة وأركان السلطنة لا سيما الصدر الأعظم عالى باشا فكان كل من الطرفين على حذر والتفات دائم وكان سعيد باشا أبعد جميع الولاة عن موالاة السلطان وأقربهم إلى بغض رجاله وأكبرهم حقدا وشماتة ومع ذلك لم تتمكن رجال الدولة من استغلاطه ولا مؤاخذته بأمر من الأمور السياسية لا فى الداخل ولا فى الخارج ولا هبت للفتنة بسبب ذلك نار فى جميع أيامه لاشتغالهم عنه بالكثير من الكوائن والمحن الداخلية فكان فى مأمن من كيدهم وفى حرز من شرهم يعطيهم من طرف اللسان حلاوة ، ومات فى أيام محمد سعيد باشا الأمير أحمد أكبر أولاد إبراهيم باشا بن محمد على باشا مات غريقا فى النيل بين كفر الزيات وكفر العيس بإقليم الغربية فى يوم عيد أضحى سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف هجرية وذلك أنه لما كان سعيد باشا بالإسكندرية وقد دخل عيد الأضحى استقدم جميع أصحاب الوظائف العالية من الملكيين والجنديين وعمد وأعيان سائر المدن وجميع الأمراء من ذرية محمد على باشا لعمل تشريف العيد بمقره بالإسكندرية فعمل التشريف فى ذلك على نسق لم يسبق له مثال ثم نزلوا يريدون الرجوع إلى القاهرة . وكان جسر

كفر الزيات الحديدى الموصل لخط السكة الحديد بما بين الإسكندرية والقاهرة لم يتم بناؤه إلى ذلك الحين وقد جعلوا لنقل عربات الركاب والبضائع والوابورات جسراً متحركاً على ظهر سفينة تسير فى النيل بالبخار فكان إذا وصل المسافرون إلى كفر العيس من الإسكندرية وقف القطار هناك فيأتون بذلك الجسر ويوقفونه ملتحماً بصفة النيل ويدفعون على ظهره عدداً معلوماً من العربات ويقيدون عجلاتها بسلاسل الحديد فيسير بها الجسر ويعبر النيل عرضاً إلى أن يرسو ملتحماً بالجانب الثانى فيدفعون بما عليه من العربات بمن فيها من المسافرين إلى الخط الحديدى الموصل إلى القاهرة أو بالعكس إلى الإسكندرية وكان ممن ركب فى قطار ذلك اليوم يريد الرجوع إلى القاهرة الأمير أحمد بن إبراهيم باشا والأمير عبد الحليم بن محمد على باشا وبعض الباشاوات مثل أدهم باشا وغيرهم ونزل أيضاً الأمير إسماعيل وأخوه الأمير مصطفى فاضل أخوا الأمير أحمد ولكنهما عادا فترلاً من القطار قبل أن يسير من الإسكندرية بإيعاز من أحد رجال ديوان سعيد باشا فلما وصل القطار إلى كفر العيس ودفعوا بعدد من عربات المسافرين إلى ظهر ذلك الجسر وقد كان فى إحداها الأمير أحمد والأمير عبد الحليم وغيرهما من الباشاوات قيل إنهم لم يقيدوا عجلات العربات كعادتهم بل وتركوها خلوا وأتوا بغيرها من خلفها فلطمت الأولى فتحركت واندفعت إلى الأمام فسقطت جميعها فى النيل وغرقت وكان الأمير أحمد شاباً جميلاً قوى الجسم ضخماً كبير البطن فلم يتمكن من الخلاص فمات غريقاً أما الأمير عبد الحليم فإنه لما سقطت العربى ألقى بنفسه من نافذتها إلى البحر فعاونه بعض أصحاب السفن التى كانت هناك وأخرجوه حياً ومات أدهم باشا وجميع من كانوا بالعربى مع الأمير أحمد فكان المنظر مروّعاً والمشهد مخزناً وقد كثر صياح العامة وولولت النساء وانتشرت ممالك الأمير أحمد وأتباعه على وجه الماء يطلبون جثته وأتوا بجماعة من صيادى السمك فألقوا شباكهم وما زالوا حتى عثروا عليها وأخرجوها وأخرجوا من عثروا به أيضاً من بقية الأموات وجاءوا به إلى القاهرة وغسلوه فى بيته الذى بجانب القصر العالى ثم دفنوه فى ثانى يوم فى مشهد حافل للغاية وتحدث الناس كثيراً فى أمر موته فقالوا أنه أغرق يأمر من سعيد باشا كى لا يتولى ملك البلاد بعده لأمر نقمه عليه ولكى تتقل الوراثه بموته إلى أخيه الأمير إسماعيل، قلت وقد حدثنى أحد ممالك الأمير أحمد قال جاء الأمر من سعيد باشا إلى مولاي الأمير وهو بالقاهرة بشخصه إلى الإسكندرية للحضور فى تشريف عيد

أضحى سنة ثمان وسبعين فقمنا فى صبح يوم الوقفة بعرفات ووصلنا إلى الإسكندرية قبل المساء بقليل وبتنا ليلتنا تلك والأمير ساكن البال رائق الحال وأصبحنا وقد دعانى فدخلت عليه فرأيت الدمع يذرف من عينيه فقلت أصلح الله حال مولاي ما باله يبكى وقد كنا بالأمس على أحسن ما يكون من السرور وصفاء البال قال رأيت البارحة فى نومى كأنى وإياك على شرافة هذا المنزل تريد الاختفاء من وجه سعيد باشا وقد أرسل فى طلبنا جماعة من العبيد السود فما وقع بصرهم علينا حتى هجموا على هجمة الأسود الضواري وأخذوا جميعاً يدي ورجلي وألقوا بى فى تيار النيل فقممت مذعوراً من نومى وتعوذت بالله ونمت فجاءنى هاتف يقول هلا أوصيت على العيال قلت ولماذا قال قد أتت المنية فلا مفر فقممت مذعوراً وتعوذت بالله ولبثت باهتا ساعة حتى غلب على النوم فتمت فإذا بشخص فى زى الفقراء وعلى كتفه شبكة صياد قد اقترب منى وقال قم يا أحمد فقلت ومن أنت؟ يرحمك الله قال رسول ملك الموت فقممت باكياً من ساعتى كما ترى، قال: فقلت يامولاي هذه أضغاث أحلام وقد أتبعك البارحة السفر فلا تظن الظنون الفاسدة وقم فقد حل وقت عمل التشريف فقام وليس كسوة التشريف وركب وهو فى قلق واضطراب وركبت معه فكان كلما مررنا بقولق من قولقات العسكر قاموا إجلالا وتعظيماً ونفخوا فى البوق فيبكى ويذرف الدمع فلما انقضت ساعة التشريف قال لا بد من السفر الساعة فقلت يامولاي أرحم نفسك ودعنا نبيت الليلة هنا فقال لا بل نسير إلى القاهرة عسى الله يفرج كربتى فركبنا القطار وركب معنا جميع الأمراء من ذرية محمد على باشا فلم يكن بأسرع من أن دخل أحد رجال ديوان سعيد باشا وهمس فى أذن الأمير إسماعيل فالتفت إلى أحد أتباعه وقال أنزلوا متاعى فقد عدلت عن السفر فقال له أخوه الأمير مصطفى فاضل إن كان ولا بد من بقائك اليوم فإنى مرافقك ونزلاً معاً وتركنا فسار بنا القطار حتى وصلنا إلى كفر العيس وكان من أمر غرقنا ما سارت بذكره الركبان وعرفه القاصى والدان فالله الله ولا حول ولا قوة إلا بالله . اهـ .

قلت ولم تطل ولاية سعيد باشا بعد هذا الحادث فإنه مات سادس عشر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى تاسع عشر يناير سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف ميلادية، قال بعض الكتاب من الغربيين: لما ثقل المرض بسعيد باشا واشتدت علته وجاء خبر ذلك إلى الأمير إسماعيل وهو بالقاهرة سير إلى الإسكندرية أحد المقربين إليه من جماعة الفرنسيين واسمه ديرفيو ليرسل إليه بأخبار سعيد باشا

فى كل يوم ومناه بالأماني الكثيرة والعطاء الجزيل إن هو بعث إليه بخبر وفاته. فلبث دير فيور بالإسكندرية أياما يرسل فيها الأخبار إلى الأمير إسماعيل باشا فلما كان صباح تاسع عشر يناير أرسل إليه يقول أعدوا البيت فقد عزم الساكن على الرحيل، يشير بذلك إلى قرب مفارقة سعيد باشا لهذه الدار الدنيا وتأهب إسماعيل باشا للدخول فيها، فلما جاءه هذا الخبر فرح به كثيراً ولبث ينتظر ما سيكون من وراء ذلك حتى جاءه الخبر بموته فسير إلى الإسكندرية من يجهزه ويدفنه هناك وكان جميع أرباب الديوان الخاص قد حضروا إلى القاهرة ولم يبق منهم بالإسكندرية إلا نفر قليل مع محمد شريف باشا الذى لم يفارقه طرفه عين قيل وكان سعيد باشا قد أوصى بأن يدفنه فى القاهرة وقيل فى الإسكندرية فحزن عليه الناس كثيراً لا سيما أهل الإسكندرية وأقامت النساء عليه المناجات بشوارع المدينة فكان يوم دفنه يوما مشهودا وكانت ولايته زهاء تسع سنين وقيل ثمان سنين وتسعة أشهر وستة أيام وعمره اثنتين وأربعين سنة رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه فردوس جناته.

(مطلب)

(ولاية إسماعيل باشا بن إبراهيم)

باشا بن محمد على باشا)

ببيع فى اليوم الذى مات فيه محمد سعيد باشا وهو يوم السبت سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية الأمير إسماعيل باشا بن إبراهيم باشا ابن محمد على باشا بإيعه فى قلعة الجبل أرباب الدولة وأهل الحل والعقد والعلماء والوجهاء ودقت البشائر وطيروا الخبر إلى الآفاق وزينت جميع المدن والبنادر ثلاث ليال وأقيمت الأفراح والولائم ويولغ فى ذلك مبالغة زائدة جداً وفرقت والدته فى ذلك اليوم من الهدايا والتعابى النفيسة إلى أرباب الدولة والعلماء والمشايخ شيئا كثيرا وأقامت الأدمية فى المساجد أياماً ورسمت بترميم بعض أضرحة الأولياء والصالحين من مالها تفاؤلا واستزادة للنعمة فلما استقرت به الولاية وجاءه فرمان السلطان عميد إلى تغيير الكثير من عادات البلاد والأحداث المتبعة وتصرف فى الأمور ونظر فى ترتيب موارد الإيرادات نظرة الراغب فى المزيد فضبط الخراج وعدل العشر وأحدث بعض المكوس والمغارم ورتب لذلك طوائف الحياة والعمال والقباض والرقباء وتقريب كثيرا من رجال السلطنة وأهل المايين واتخذ له من كبارهم أخلاء يعتمد عليهم فى

عظائم الأمور وأجزل عطاءهم فمهدوا له العقبات وذلّلوا له الضعاب وفتحوا له من الآمال والأمانى أوسع الأبواب وجلبوا إلى السلطان زيارة مصر وزينوا له مشاهدة ما فيها من العجائب والآثار فمال إلى ذلك ووردت الأخبار بعزمه على الحضور فى نفر من خواصه وحشمه وأتباعه فبالغ إسماعيل باشا فى الاستعداد لقدمه وأنفق النفقة الواسعة فى إعداد معدات اللوائى ولوازم الأفراح من مأكول ومشروب ومفروش وملبوس واهتم لذلك اهتماما عظيما .

(مطلب)

مجيء السلطان عبد العزيز إلى ديار مصر

فلما كان رابع عشر شوال سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية وصل السلطان إلى مدينة الإسكندرية على باخرة عظيمة يخقرها الأسطول العثمانى الحربى وفريق من العسكر وكان فى انتظاره فى الإسكندرية إسماعيل باشا وجميع رجال الدولة وأرباب الوظائف العالية فقبول فى أبهة واحتفال لم يسبق لهما مثال لملك من ملوك المشرق والمغرب وسار فى شوارع المدينة والذهب يثر بين يديه وكان فى ركابه مراد أفندى وعبد الحميد أفندى ابنا السلطان عبد المجيد خان ورشاد أفندى ويوسف عز الدين أفندى والوزير محمد باشا والوزير فؤاد باشا ثم قام من الإسكندرية إلى القاهرة على قطار مخصوص وكانت الناس على جانبي الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة فلما دخل إليها قبيل بأحسن ما قبيل به فى الإسكندرية وشق من وسط المدينة فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وصاحوا نصر الله مولانا السلطان وطلع إلى قلعة الجبل وقد أعدوا له مقرا بها فزينوه بأنواع الخرائر والمقصبات وأفخر وسائل الزينة ودقت له البشائر وزينت مصر والقاهرة سبعة أيام وأقيم له الدعاء بالمساجد كافة وكبروا لحضوره على مآذن مصر والقاهرة وبعد أيام نزل لزيارة المساجد فزار المشهد الحسينى والزينبى والنفسى وغيرها فكان إذا مر بالناس وقفوا صفوفاً إجلالاً وتعظيماً فينظر إليهم يمنة ويسرة نظرة لطيفة وهى كناية عن السلام فى عرف سلاطين آل عثمان وكان العامة والسوقة إذا راوه صاحوا الفاتحة لمولانا السلطان فينظر إليهم كأنه يحييهم فيكثر صياحهم وتشتد جلبتهم وهى حالة لم يرها السلطان فى بلاده فإنه إذا مر بالناس يوم خروجه للصلاة مثلاً أو فى أيام المواكب أطرقوا بأبصارهم إلى الأرض وتخشعوا ولم يرتفع لأحد منهم صوت .

وتصدق السلطان وأكثر العطاء وفرق على الفقراء والمحتاجين وطلبة العلم بالجامع الأزهر وعلى أصحاب التكايا وخدام المساجد وبعض الأضرحة ولم يره من أصحاب الوظائف إلا القليل، وكان إذا ركب سارت خلف عربته الجنائب السلطانية وطائفة الحرس السلطاني بالعمائم البيض والبرانس الحرير الأبيض وفي أيديهم القرابينات على شكل جميل للغاية ولبث بالقاهرة أياماً ثم سار إلى الإسكندرية وركب منها إلى دار السلطنة وتبعه الأسطول الحربي والسفن التي تحمل التحف والهدايا فكانت أيامه بديار مصر كلها أفراحاً وولائم عند العامة ومن لا خلاق لهم، وأما خيار الناس فقد كانوا يخشون عاقبة مجيئه إلى مصر وقد أخذتهم الطيرة إذ لم يسبق لأحد من سلاطين آل عثمان بعد السلطان سليم الفاتح دخول أرض مصر وكبر خوفهم وقد أخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات فترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فلما كانت سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف هجرية مع أخريات سنة ثمانين ظهر الوباء في البقر واشتد وعم جميع البلاد شرقاً وغرباً ولم يترك قرية ولا كفراً إلا ودخله واشتد شدة بالغة حتى كاد يفنى جميع البقر وقل وارد السمن من جميع البلاد بل وانقطع وأكل الناس الدهن والزيت فأمر إسماعيل باشا فاستحضروا من البلاد الأجنبية كالنمسا والمجر ونواحى الأناضول السمن وهو في غاية الرداءة والنق وباعه على أهل البلاد وفرق منه على الفقراء مجاناً فكانوا يتزاحمون على الوكائل ومخازن التوزيع بالأخطاط وهم في ضجيج وجلبة تصم الأذان واستمر الحال هكذا أياماً كثيرة حتى ارتفع الوباء وبدأ الوارد من سمن الجاموس والضأن يرد إلى القاهرة ومصر من الجهات القبلية ولم يكذ ينقضى هذا الوباء حتى وقع الغلاء وارتفعت الأسعار وانقطع وارد القمح واشتد الطلب فلم يجد الفقراء له أثراً لا في سواحل بولاق ولا في مصر القديمة ولا في جميع رقع الغلال فضجوا وعجوا وكثر طواف النساء في الأسواق يحملن المقاطف لعلهن يجدن من يبيعهن قمحاً أو دقيقاً وعلم إسماعيل باشا بما عليه الناس من الضر فهاله الأمر وأزعجه ورسم بجلب القمح والدقيق من البلاد الخارجية فأتوا له بشيء كثير منهما وفرقه في الوكائل وجهات الرقع ورتبوا للبيع وقتين في الصباح والمساء ونادوا في الناس بذلك فقرحوا وتزاحموا على أبواب الوكائل وجهات الرقع تزاحم الجلياع واستمروا على هذا الحال شهرين وبضعة أيام حتى تواردت الغلال من الأقاليم القبلية وملأت مخازن التجار وأشوان الدولة وعم الوارد منها الأقاليم البحرية فلم تكن لتسكن الخواطر وتطمئن القلوب

حتى ظهر الوباء فى الناس ثانى عشر المحرم افتتاح سنة اثنتين وثمانين ومائتين وألف هجرية واشتد الموات شدة بالغة بالقاهرة ومصر القديمة ثم عم جميع البلاد شرقا وغربا فكانت الفقراء تموت بجانب جدران البيوت وفى الأزقة والحارات وأصحاب الشرطة يطوفون لنقل الجثث إلى المقابر ويبلغ محافظ المدينة فى نظافتها فلم يرتفع الوباء واستمر على شدته إلى رابع عشر ربيع الثانى فمات خلق كثير ثم ارتفع وقد نزع الكثير من الأجانب وأهل البلاد إلى الديار الخارجية فرارا من الموت وخط الناس وخبطوا وقالوا أن هذه الكوائن إنما هى ناجمة عن دخول السلطان إلى مصر إذ لم يسبق لذلك مثل منذ فتحها السلطان سليم بعسكره واشتد خوفهم وأخذتهم الطيرة وتشاءوا من حاكم الوقت وخشوا عواقب أيامه وأخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات والمنجمين كعادتهم عند وقوع الشدائد وضجوا وعجوا وابتهلوا إلى الله تعالى وتوجهوا إليه بقلوبهم وقد أحصوا من مات فكان رهاء المائة ألف نسمة .

وما انقطع الوباء وسكنت الخواطر حتى جعل إسماعيل باشا يتصرف فى أمور الدولة بحب هواه أو ما يلائم مصلحة البلاد فنقض ما أبرمه سعيد باشا مع ديليسين فاتح ترعة السويس ورسم بعدم تسخير أهل البلاد فى حفر ذلك الاتصال كما كان المينين سعيد باشا وديلسين واستعان إسماعيل باشا على إبطال هذا الحدث بالسلطان فكتب إلى الباب العالي يقول :

إن عدل أمير المؤمنين لا يسمح بتسخير رعاياه فى عمل قد أضر بالحرث والنسل وأذهب براحة أهل البلاد وأوغز إلى أصحاب صحف الأخبار المصرية فهبت يومها تنادى بالويل والحرب وتستفز رجال الدولة إلى إبطال هذا العمل والأخذ بالأسباب لدفع ورفع هذا النير عن أعناق أهل البلاد وكان إلى هذا الحين لم يصدر السلطان البراءة وعمل ذات الاتصال بعد أن سار دى لسبس إلى دار السلطنة وأقام بها أياما كثيرة وكنائب الصدر الأعظم فى ذلك مرارا فكتب على باشا إلى سفير الدولة العثمانية بعاصمة الفرنسيين فى شأن ذلك يقول : غير خاف على معارفكم أن الدولة العلية أيدها الله قد صرفت كثير أنفس أوقاتهما فى بحث أمر عمل الاتصال المراد عمله ما بين البحر الأبيض المتوسط والاحمر ومع كونها تود من صميم القلب إنجاز هذا المشروع الخطير والعمل على الاتحاد مع الدولتين البحريتين العظيمتين لعلهما بأهمية وخطارة هذا الاتصال إلا الورود على الباب العالي فى هذا الحين مطالعة من والى الديار المصرية يطلب فيها تأييد أمير المؤمنين فى هذا الأمر ويحزننى جداً أن

أرى أنه قد بدىء وكاد أن يتم عمل الاتصال قبل أن يقع الاتفاق على أمر من الأمور بين الباب العالي والدول المتحالفة ويعز على أيضاً إيقاف العمل الآن وتعطيل مشروع كهذا جزئيل الفائدة كبير القيمة على أنى مع ذلك أقول أنه لا يمكن للدولة العلية على أى حال كان الموافقة على عمل هذا الاتصال إلا بعد اتفاق سائر الدول مع الباب العالي على جعله حراً مستقلاً تحت حكومة البلاد التى هو فيها بمثابة بورغاز البوسفور والدردنيل فى دار السلطنة العثمانية وقد تكلفت تلك البلاد أعنى البلاد المصرية بتشغيل زهاء عشرين ألفاً من جراء هذا الاتصال عونة وسخيرة مع سبق النشر والإعلان بإبطال هذه العادة الخشنة وإبطال العدل والشرف وما يحول دون اعتراف الباب العالي بتسييم عمل ذلك الاتصال فقد تم عقد الاتفاق الموقع عليه محمد سعيد باشا والموسيو دى لسبس صاحب ذلك المشروع بعد محمد سعيد باشا الموسيو المشار إليه بتنازل حكومة البلاد له عن منفعة بيع الأراضى التى تكون واقعة على ضفتى الاتصال المذكور مدة تسع وتسعين سنة ولم يبق مانع يمنع دخول مدينة السويس وجميع ما جاورها من القرى والمزارع والبقاع ومدينة بورسعيد وسائر حدود الشام أى معظم المملكة المصرية فى حوزة وتصرف شركة ترعة السويس وينجم عن ذلك ظهور شعوب متفرقة مستقلة بنفسها خارجة عن طاعة أمير المؤمنين وهو أمر لا تحمد عواقبه ولا أخالكم تنكرون على القول بأنه ما من حكومة رزقها الله حسن النظر فى عواقب الأمور ولو بقدر مثقال ذرة وألهمها السعى وراء حفظ استقلالها وتوسيع نطاق عمرانها ومدنيها ترضى بمثل هذه الشروط المفحمة جوراً وخذلانا لرعاياها الطائعين ولا تظنوا أن أمير المؤمنين يجيز العمل بمقتضى تلك الشروط التى كان بعث محمد سعيد باشا بصورة منها إلى الباب العالي وهو يعلم حرسه الله ما وراء ذلك من تعيير سائر الأمم لحكومته ورميها بالقصور والمروق عن جادة الخلق فإن أجازه فإنما يجيزه بعد قبول هاته الخصال الثلاث:

الأولى منها: جعل هذا الاتصال مستقلاً تحت رعاية الحكومة المصرية وعدم منح أية دولة كانت امتيازات أو حقوق خصوصية فى أى حال من الأحوال.

الثانية: رفع نير السخرة من أعناق أهل البلاد.

الثالثة: العدول عن مشروع حفر الاتصال المار بالنيل وأن لا يعطى شئ من الأراضى لشركة هذا الاتصال إلا ما كان لازماً لإنشاء معاملها وورشها فقط.

فإذا تم قبول هاته الخصال الثلاث جاز العمل بالاتفاق مع والى الديار وسهل التصديق على بقية الشروط المدونة بالعقد، فالذى نسالكم إياه الآن هو أخذ رأى

الدولتين المتحالفتين أعنى بهما دولتى الفرنسيين والإنجليز عما يليق عمله الآن أليق منح شركة جفر هذا الاتصال عدة امتيازات وحقوق لا يكون من ورائها إلا هضم حقوق رعايا الدولة العلية وإذهاب ثروة البلاد واضمحلالها. وضياح كثير مما نالته من شبه استقلالها وهل يوافق أنه إذا لم يتم التراضى بيننا تأخذ حكومة أمير المؤمنين على عهدها بالاتفاق مع عاملها على ديار مصر المجاز عمل هذا الاتصال وأن تتفق عليه من مالها أو تسلمه لشركة أخرى بشروط وعهود يقع الاتفاق عليها بحيث لا يبقى للشركة الحالية حق فى المطالبة بالمال الذى أنفقته إذ كان اندفاعها إلى العمل بغير إجازة ولا مسوغ أفيدوا الجواب، ووزدت الأخبار بهذا المعنى إلى إسماعيل باشا من الباب العالى فسر بها سرورا عظيما وكتب إلى الموسىو دى لسبس يقول:

لا يليق بنا أن نخفى عليك معرفة أنه لما كان من الخلاف فى أمر عمل اتصال البحر الأبيض بالبحر الأحمر قد كنا خابرا دار السلطنة العلية فى ذلك وسألنا الباب العالى أن يفتينا فى الامر فجاءنا منه مطالعة فى هذا الحين تجيز لنا المخابرة مع شركة الاتصال المذكور والاتفاق معها على جميع التغيرات المراد إدخالها على عقد التنازل الموقع عليه مع المرحوم محمد سعيد باشا وإبطال ما فيها مما كان سببا لحصول الإباءة وعدم قبوله لغاية الآن، ولا إخالك تجهل إنى مذ وليت الأحكام إلى هذا الحين لم يكن عندى من المشاغل شىء يعادل هذه المسئلة وكان الذى لم يقبله الباب العالى وهو يمانع فيه للآن كل الممانعة أمرين الأول تسخير أهل البلاد فى ذلك العمل والثانى تنازل الحكومة عن منفعة الأراضى الواقعة على شاطئ الاتصال المذكور فلأجل أن لا يزداد الأمر إشكالا والأحوال بيننا جدالا قد رسمت إلى نوبار باشا بحل عقدة هذه المسئلة بالاتحاد معك ومع أعضاء الشركة وإنى لوائق بأنك تبادر إلى فض هذا النزاع بالتى هى أحسن بما لك من سلامة النية كى لا يقع بسبب ذلك فى مستقبل الأيام ما لا تحمد عقباه وقد ضرب لنا الباب العالى أجلا للاتفاق قدره ستة أشهر فإن مضى الأجل ولم تتفق على أمر يحسن السكوت عليه لم يعد إذ ذاك فى وسعى أن أعيد الكلام مع دار السلطنة فتدخل المسئلة فى دور جديد مع الباب العالى ويعز الوفاق ومعاذ الله أن نصل إلى هذا الحد، وسترون أن الذى رسمته إلى نوبار باشا ليخابرك عنه لم أراع فيه سوى راحة الرعية ورفع المضار عنهم مع إنجاز مشروعكم على النمط المرغوب هذا وقد جاءنى مرسوم أمير المؤمنين بأن أبادر إلى تبليغ مقره الكريم حالة ما هو عليه الاتصال المذكور من العمق والطول والعرض

المراد جعله حساباً لذلك الاتصال وأن يلاحظ بأن لا يكون الاتصال المذكور قليلاً
السير السفن الحربية فإن أمير المؤمنين حرسه الله لا شيء أحب إليه من المحافظة على
السلم واجتناب جميع المشاكل مع سائر الدول . اهـ .

فاجتمع نوبار باشا بعد أيام مع الموسيؤ ديلبس وسأله الموافقة على تقليل عدد
العاملين في حفر ذلك الاتصال من أهل البلاد من عشرين ألفاً إلى ستة آلاف ونفقة
فرنكين أى سبعة قروش وثلاثون فضة لكل واحد يومياً والتنازل عن جميع الأراضي
المتنازع فيها وقيام الحكومة بجميع المصاريف التى أنفقتها الشركة إلى تاريخ عقد هذا
الاتفاق مع قيامها أيضاً بجميع نفقة التربة المراد إنشاؤها من النيل إلى جوار الاتصال
فطالب بين الفريقين الأخذ والرد واشتد الجدل وكاد يتعذر الوفاق وينفض اجتماعهم
على غير طائل فرفع إسماعيل باشا الأمر إلى نابوليون أمبراطور الفرنسيين وتقرب
منه وتزلف إليه وأقام الوسطاء والشفعاء فأشار نابوليون بوجود تقرب الفريقين
وإصلاح ذات البين وأقام لذلك عمدة من خمسة من كبار السياسة وأصحاب الشريعة
بعاصمة الفرنسيين ورسم لهم بالتخفيف وخسم أسباب النزاع التى هى أحسن فهم
الوفاق على ما شاء إسماعيل باشا وقام برد النفقة التى أنفقت على جميع الأراضي
التي كانت الشركة تتنازع فيها وبنفقة التربة الحلوة التى أنشئت ممتدة من النيل فكان
ما أنفق على ذلك دون غيره عشرة آلاف ألف من الفرنكات أى سبعة وثلاثين ألف
ألف وخمسمائة ألف قرش وورد فرمان السلطان في ثانی عشر القعدة سنة اثنتين
وثمانين وألف هجرية بقبول كل ما وقع الاتفاق عليه وارتفعت السخرة عن أهل
البلاد وزالت عنهم تلك المحنة وحسبت مكرمة إلى إسماعيل باشا على مر الأيام .

(مطلب)

تولية إسماعيل باشا مصر دون ذرية محمد باشا

وكان إسماعيل باشا قد سبر غور رجال المايين وأصحاب الحل والعقد في دار
السلطنة بعد أن تم له ما أراد في أمر اتصال ترعة السويس ولما كان شديد الرغبة من
يوم توليه مسند الولاية في نزح حقوق الوراثة المحصورة في ذرية محمد على باشا
بمقتضى فرمان السلطاني المؤرخ في شهر ذي الحجة سنة ست وخمسين ومائتين
وألف وجعلها في عقبه من بعده أى في الأرشد من ولده وفي عقب ولده، قال
بعض أهل التحقيق: وقد كانت رغبته في ذلك مترتبة على سببين أولهما بغضه
الشديد لأخيه الأمير مصطفى فاضل المستحق للولاية من بعده وثانيهما حرمان الأمير
عبد الحليم بن محمد على باشا من الولاية بعد الأمير مصطفى فاضل فسعى في دار

السلطنة وأنفق الأموال الطائلة. وأجزل العطاء لأرباب الدولة وتزلف إلى أصحاب الحل والعقد. ورجال المايين وهادى الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ثم جعل يدبر على أخيه وعمه ويكيد لهما ورفع القصص إلى الباب العالى يشكو من أفاعيل عزاهما إليهما وقال أنهما كادا له وعملا على قتله وكان أخوه قد نزل فى جوار السلطان وعمه باق بالقاهرة فضيق على عمه وشدد وأرهب وتوعد فانكمش عمه بمقره بشيرا بضواحي القاهرة وانزوى عن الناس فزاد فى التضيق عليه وأقصى عنه حاشيته والمتقربين إليه وميزق أتباعه وضبط أكثر أزراره وحبس غلاته وبالع فى نكايته حتى أخرجه مدحورا إلى دار السلطنة فتزل على أصحاب المايين مستجيرا فلم يمدوا له يدا قد بسطوها إلى عمه فأقام يزاقب الفرص لعل الله يأتيه بالفرج القريب وما زال إسماعيل باشا يكثر السعى ويجهد النفس ويبدل النفيس حتى مال السلطان إلى طلبه وحقق أمنيته ورسم فى ثالث عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية بجعل حكومة البلاد وراثية تنتقل من إسماعيل باشا إلى أكبر أولاده ثم للأرشد من عقب ولده وجاء فرمان بذلك إلى القاهرة ففرح إسماعيل باشا فرحا لا يوصف ودقت البشائر وعملت الولايم والمآذب وأكثر رجال الدولة من عمل الأفراح وتصدقت والددة إسماعيل باشا وأطعمت وفزقت الهدايا على المشايخ والعلماء وكنت أولاد المكاتب واليتامى وقد أدرك الباب العالى بعد قليل من الأيام أنه لم يحدد فى فرمانه الخطة الواجب إتباعها عندما يكون الوارث لكرسى الحكومة المصرية قاصرا أى لم يبلغ سن الثامنة عشرة وعلم أن فى إغفال ذلك تعقيدا وإشكالا فسير فى ثانى صفر من السنة إلى مصر رسولا ومعه فرمان آخر بما ذكر فلما وصل القاهرة قوبل باحتفال عظيم فاستغرب الناس يومئذ حضوره وكثرت الأقوال فى شأنه وترامت الظنون إلى المزمى البعيد وما زالوا على هذا الحال حتى شاع الخبر بما فى ذلك فرمان وتناقلته أصحاب صحف الأخبار على اختلافها.

وبدأت من هذا الحين تعلق كلمة إسماعيل باشا وقد زال عنه ما كان يلاقيه من متاعب شركة ترعة السويس ونقل الوراثة إلى عقبه من بعده وتبعيد أخيه الأمير مصطفى فاضل وعمه الأمير عبد الحليم وتمكن من مخاتق رجال المايين وأصنحت الحل والعقد فى دار السلطنة فاشتدت عزيمته ومالت نفسه إلى التشبه بكبار الملوك وأصحاب الحكومات الدستورية لما فى ذلك من استرضاء الناقمين من كبار الدول الأوروبية فرسم فى شعبان من السنة أى سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية

يتشكيل مجلس شورى للبلاد على نسق ورغب مجالس الأمم المتقدمة والحكومات الدستورية المقيتة وبالغ في الأمر وطير الخير بذلك إلى الآفاق وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فقاموا وقعدوا وشادوا بذكر تلك المجلس وقالوا هو من مقدمات الإصلاح ومبادئ الفلاح وانتقال البلاد من دور الخراب والهمجية إلى دور العمران والمدنية (قال بعض الكتاب) ولم يكن في الأمر شيء من ذلك البتة فإنه ما تم اجتماع أعضائه وجعلوا ينظرون في مصالح البلاد حتى زادت الضرائب وكثرت المكوس وتعددت أنواع المغارم واثبت أصحاب الجباية شرقاً وغرباً واشتدوا على الرعية شدة بالغة ونواب الأمة لا يعرفون من مواجب النيابة غير الطاعة لمن قال من كبار الحكومة أو أشار من أصحاب الحل والعقد فكانوا حملاً ثقيلًا على عاتق أهل البلد وسداً قويا بين القادحين من أهل النقد وبين أصحاب الحل والعقد فهض عند ذلك بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية إلى الطعن وتجردوا إلى التعيب ورموا نواب الأمة بالجهل والمروق وشخصوا أوقات اجتماعهم بهيات مضحكة حاكوا فيها الملاعب الخيالية والأشكال السخرية وحذروا أهل البلاد من شر العاقبة وخوفوهم من سوء المصير ولا يضعف هذا كله لإسماعيل باشا عزمًا ولا وقف به عند حد لمكانته عند رجال السلطنة وأصحاب الكلمة في المابين وكان كلما زاد أصحاب صحف الأخبار في التقرير والتعيب زاد هو أيضاً في التقرب إلى رجال السلطنة وأجزل لهم العطاء وأهدى لهم الهدايا والتحف العظيمة فيقضون له كل ما في نفسه، واشتدت رغبته في التسمي باسم لم يسم به أحد ممن تولى حكم البلاد قبله فسأل السلطان أن يلقيه بعزير مضر وأن يرسل له خطاً فطوعه بذلك السلطان ومنه فكثر رسائله إلى أصحاب الباب ثم أهدى وفرق فجاء الخبر بأن السلطان قد لقبه بلقب خديو وهو أكبر مراتب الدولة وأرفعها ولم يسبق لأحد نوال مثلها من الوزراء وكبار القوم فإن لقب عزيز مضر إنما هو دون لقب خديو إذ كان يوسف بن يعقوب عليهما السلام عزيز مصر أي وزيرها والأمين على خزائنها ففرح بهذه البشرى وشاع خبرها بين الناس فلما كان خامس ربيع الأول من السنة جاء زمان السلطان بذلك على يدي أحد القراء السلطانية فقرأ في محفل حافل للغاية ودقت البشائر وطيروا الأخبار إلى الآفاق ودعوا للسلطان في جميع المساجد بالقاهرة ومصر والأقاليم القبلية والبحرية وانطلقت كلمة الخديو إسماعيل من هذا الحين بعد التقيد واتسعت وحل له فعل ما لم يحل من قبل من عقد العهود مع الممالك الأجنبية والقروض مع أصحاب الأموال بلا استئذان من الباب وضرب الضرائب وتعديل

المكوس وفعل كل ما يختار من غير معاودة ولم يمض على ذلك إلا اليسير حتى مالت به النفس إلى الاستزادة وتاقت لها الاستقلال بملك الديار المصرية فعمد إلى تنظيم الجند والإكثار من معدات الحرب وحصنت الحصون وأنشأ القلاع العظيمة بشجر دمياط ورشيد وأبى قير ومعامل البارود والفشتك والبنادق والمكاحل وملابس الجند والخيام وسروج الخيل وغير ذلك وأرسل يشتري الكثير من البنادق الجديدة المستعملة في جيوش الدول الكبرى واستقدم جماعة من كبار جند الأمريكان وأركان الحرب والمهندسين لتعليم العسكر وتدريبهم على النسق المستعمل في جيوش الممالك الأجنبية وأكثر من التزلف إلى نابوليون أمبراطور الفرنسيين وهو يومئذ صاحب الكلمة والقول الفصل بين كبار الملوك ليستعين به عند الحاجة وأدنى منه دى لسيين فاتح خليج السويس ليكون رسوله في المهمات وجعل يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلم تخف أعماله على رجال دار السلطنة وعلم السلطان بما في نيته فكبر عليه أمر ذلك واستعظمه ورسم إلى عالي باشا الصدر الأعظم بمراقبة الحوادث وعدم التهاون في شيء وكان صفاء الود الذي بين الخديو والصدر المشار إليه قد تكدر لأسباب لم تصل إلينا معرفتها فاشتد الصدر على الخديو وبعث العيون إلى مصر وجعل يراقب الحوادث ويسأل عن الصغيرة والكبيرة ويحاسب على الذرة والبرة.

واتفق في هذا الحين أن قدم إلى دار السلطنة داعي نابوليون أمبراطور الفرنسيين يدعو السلطان إلى الوليمة المزمع أعمالها في عاصمة الفرنسيين عند فتح المعرض الذي أقيم فيها وقد دعا إليه الأمبراطور كثيراً من الملوك والأمراء والخديو إسماعيل فسار الخديو من الإسكندرية في سابع صفر ووصل السلطان إلى باريز في تاسع عشرة فقبول باحتفال واحتفاء عظيمين وأقام بها زهاء شهر ونصف وكان معه بعض رجال الدولة وجماعة من المايين فكلمه الأمبراطور في أمر الخلاف الواقع بين الباب العالي والخديو وهون عليه الأمر وما زال به حتى استرضاه فعفا السلطان عما سلف وأدنى الخديو منه ولاطفه ثم عاد السلطان إلى دار الخلافة في سادس ربيع الثاني سنة أربع وثمانين ومائتين وألف هجرية وأقام الخديو أياماً فعرقه من حضر إلى باريز من الملوك وأولاد الملوك والأمراء والكبراء وتقرب من الكثير منهم وتزلف إليهم وبالغ في التظاهر بمظاهر كبار الملوك فاتفق وأهدى وأجزل العطاء وحب إليهم الحضور إلى مصر عند عمل الأفراح لفتح خليج السويس فمنهم من أجاب إلى ذلك ومنهم من وعد ثم عاد إلى الإسكندرية وأقام بها أياماً يدبر أمر ضيافة أولئك الملوك والكبراء

فرأى أن مصر ليس فيها من مجال اللعب واللهو ما فى أصغر بلاد الفرنجة كمراسح
التشخيص ومواقف المغاني وغير ذلك مما لم تسمع به أهل البلاد ولم تره فعاد إلى
القاهرة ورسم إلى بعض المقرئين إليه من الأجانب بإنشاء مسرحين على نفقة الخزينة
فأقام أحدهما على بقايا بناء السراى المعروفة بسراى ثلاثة ولينه وهى منزل أحمد
طاهر باشا بن طاهر باشا الكبير وسموه باسم الكوميديا والثانى على يسار الأول
وسموه باسم (الأوبرا) وبالغوا فى تزئينهما بأنواع الفرش والبسط والطنافس والتحف
والتقوش البديعة وأتوا إليهما من الديار الأوروبية بجماعة المشخصين والمشخصات
والمغنين والمغنيات وأساتذة هذا الفن وعملوا لهم من الملبوس والخلى الفاخرة شيئاً
يكاد أن لا يدخل تحت الحصر ورتبوا لهم الجماكى والمرتبات الواسعة ورسم إلى
شركة ترعة السويس بأن تنشئ على نفقة الخزينة أيضاً داراً فى مدينة الإسماعيلية
لضيافة الزائرين من أولئك الملوك والأمراء والكبراء فأنشأتها فكان ما انفق عليها زهاء
ثمانين ألفاً ذهباً فلما حل الأجل المضروب لإقامة تلك الأفراح والولائم وكان
الاتصال بين البحرين الأبيض والأحمر قد تم وجرى الماء بينهما مختلطاً وهو كاف
لحمل البواخر والسفن التى تشق عبابه سير الخديو رسله إلى الديار الأوروبية
يدعون ملوكها وأمراءها إلى تلك الأفراح فلقوا من جميعهم الرضا وقد أخذ فى
الاهبة والاستعداد ورسم بخروج سائر عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية بخيامهم
وطبولهم ورمورهم وخيلهم ومأكولهم ومشروبهم فخيّموا بمدينة الإسماعيلية وهى
إحدى المدن التى أنشئت على شاطئ الترعة على قيد بعض فراسخ من قرية القباسية
وأمر فجمعوا سائر المغنين والمغنيات وأرباب الملاعب على اختلاف أنواعها وعملوا
الزينة على أشكال متنوعة يعجز اللسان والقلم عن وصفها ورتبوا الحراقات
والأشكال النازية ووضعوا الرايات الخاصة بمملكة كل ملك وأمير دعى إلى هذه
الأفراح وجاءت إلى مدينة الإسماعيلية طوائف العساكر والأجناد بالمدافع وآلات
الحرب الكاملة وكثير من الزوارق والسفن الصغيرة المزينة بأحسن الزينة وتقاطرت
إليها الذبائح من الضأن وشباب البقر وفحول الجاموس والغزلان والمعزى ومن الطيور
على اختلافها وتراكت أحمال المأكول والمشروب بحالة يقصر عن وصفها اللسان
والقلم.

وبينما كانت الاستعدادات لهذه الأفراح والولائم قائمة على ساق كان على باشا
الصدر الأعظم يخبر الدول الكبرى فى أمر تعدى الخديو على حقوق أمير المؤمنين

واستصغاره لواجبات التبعية وأنه إذا كانت ديار مصر من أملاك الخلافة كالقلب من الإنسان فكيف ساع للخديو أن يتولى أمرا من أهم الأمور وأكبرها بغير إجازة وأنه ليس من الكياسة ولا من حسن السياسة في شيء أن تذهب الضيوف إلى دار أمير المؤمنين وهو غير عالم بأسباب الضيافة ولا قائم بواجباتها مع أنه أحرص الناس على حفظ كرامة مملكته وشرف كرسى سلطته وعدم تعريض حقوقه الذاتية للضياع، قال بعض كتاب الاخبار: وكان قد بلغ الباب العالي أن الخديو إنما يريد بهذه الأفراح واستدعاء ملوك الدول وكبار الممالك ليس شعار السلطنة على ديار مصر والخروج من تبعية السلطان فهال السلطان هذا الأمر وأزعجه جدا ورسم إلى الصدر الأعظم بمذاركة الخطب قبل استفحاله وشدد في ذلك فكلم الصدر الأعظم كبار ساسة الدول وما زال بهم حتى أحجم بعض الملوك عن الذهاب وبعضهم أناب عنه ولى عهده أو أحد قرابته وانفشلوا أو كادوا ولاحت بشائر الظفر للصدر الأعظم فكبر الأمر على الخديو واستعظمه وشكى حاله إلى نابوليون واستجده فكلم نابوليون الصدر الأعظم فى ذلك وشدد وهدد وما زال الأمر بين أخذ ورد أياما حتى تقررت القاعدة على أن كل من شاء من الملوك والأمراء إجابة دعوة الخديو وجب عليه أن يعرج على دار الخلافة قبل ذهابه إلى مصر ويزور الخليفة السلطان بصفته صاحب الدعوة ثم يسير إلى مصر بعد ذلك على الرحب والسعة وأن للخليفة أن ينب عنه من شاء فى هذه الولايم لتفتح مراسم التهانى باسمه الشاهانى وترفع لمن حضر واجبات الشكر وحقوق الضيافة فأنايب السلطان عنه مبعوث دولة الإنجليز وزوده بما شاء مما لم تصل إلينا معرفته.

فلما كان ثانى شعبان سنة ست وثمانين ومائتين وألف هجرية قدم الوافدون تتقدمهم أوجنيه إمبراطورة الفرنسيس وإمبراطور النمسا والمجر مع ولى عهده وولى عهد ملك إيطاليا وكثير من الأمراء والكبراء وولى عهد البروسيا فباتوا ليلة فى مدينة بورسعيد بين مظاهر الأنس والسرور وأصبحوا وقد ركبوا السفن ومعههم طوائف الحرس والخدم والحشم وأكابر ممالكهم ونزلوا الإسماعيلية وقد تكامل عددهم ولم يتأخر منهم سوى مبعوث الإنجليز النائب عن الخليفة أمير المؤمنين فباتوا ليلتهم ورأوا من إنقان نظام الوليمة وحسن تربيها ما لم يعرج على مثال سابق وكانت الموائد تمد تباعا فى الخيام والصوامين والسفن والأماكن التى أعدت لذلك والمدعوون يتعاقبون عليها فوجا بعد فوج واستمر الحال على ذلك زهاء أربع عشرة ساعة، قال بعض كتاب الاخبار، فأعجب الملوك ذلك جدا بل أدهشهم وجعلهم فى حيرة وأصبحوا

رابع عشر شعبان وقد اجتمعوا جميعاً فى مجلس أعد لهم وبينهم أوجنيه أمبراطورة
الفرنسيس وكبير وزراء مملكتها ورئيس أركان حرب الجيوش الأفرنسية فقامت فيهم
الخطباء والفصحاء فخطبوا وتكلموا وأطنبوا وبالغوا فى الإطراء ولم يتم الخطيب
كلامه حتى وقف فى وسطهم مبعوث الإنجليز وقد كان لا يظن وصوله فى هذا الحين
فختم الخطيب خطابه بالثناء على الخديوى واستدح من حسن لقائه وكرم أخلاقه
فصاح رسول الإنجليز بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين صاحب البيت وما فيه فتيحه من
حضر بالدعاء جهاراً فأطلقت السفن مدافعها تباعاً وأطلقت كذلك مدافع البر وهتف
الجند بأصوات التهليل والدعاء وصدحت الموسيقى من كل صوب وحذب وعلا
الصياح واشتد التهليل ودقت العمد والأغاني والمشايع وأرباب الطرق طبولهم وهتفوا
جميعاً بالدعاء ومرت السفن بالخليج تباعاً بعضها أت من البحر الأبيض المتوسط
وبعضها من البحر الأحمر وهى مزينة بصنوف الرايات وأشكال الزينة ورست أمام
مدينة الإسماعيلية بعضها خلف بعض وجندها وملاحوها يهتفون بالدعاء على أعالي
الصواري وما زالوا على هذه الحال حتى تم عبورها فكان مشهداً من أعجب المشاهد
وأحسنها لا يمكن وصفه ولا استيفاء محاسن ما فيه وقد كان ما أنفق من مال الخزينة
على هذه التولائم والأفراح ما قدره ألف ألف ذهباً ما عدا الهدايا والتقدم النفيسة التى
أهداها الخديوى من ماله وهى كثيرة جداً ورجع من حضر من الملوك والأمراء ولم
يبق إلا أوجنيه أمبراطورة الفرنسيس ومن معها من الجشم والاتباع وبعض الأمراء
لمشاهدة الآثار القديمة بمصر وصعيدها فبالغ الخديوى فى إكرامها ولازم ركبها حيثما
سارت وجعل الأمير حسين ثانى أولاده فى خدمتها وطاف معها الخديوى جميع
ضواحي القاهرة ومصر مثل المطرية وطرا والأهرام وسقارة وغيرها على ظهور الحمير
وأراها جميع العادات المصرية فى المأكول والملبوس وفى الأعراس والتولائم وفى
تمشيط العروس وجلوتها وتخطيرها وغير ذلك بأن روج بعض حظياته إلى بعض
رجال ديوانه الخاص وعمل لهن الأعراس على أحسن ما يكون من الأبهة والعظمة
الشرقية ثم سارت أوجنيه من القاهرة تريد الصعيد فسار الأمير حسين فى ركبها
وخصص الخديوى لخدمتها ستة عشرة باخرة تمخر فى النيل صعوداً وهبوطاً فكان
بعضها لحمل الجشم والاتباع وبعضها لجلب المأكول والمشرب فى كل يوم من القاهرة
وقضت بالصعيد اثنين وعشرين يوماً صرف فيها من الأموال شيئاً كثيراً ثم عادت
ولبثت بالقاهرة أياماً قلائل ثم سارت راجعة إلى عاصمة الفرنسيس ومعها من
التحف والهدايا الفاخرة والأعلاق الثمينة ما لا يكاد يدخل تحت الحصر ويجل عن
الوصف.

ولما فرغ الخديو من ولائم ترعة السويس وأفراحها عاد إلى التفكير فى أمر توسيع دائرة خديويته بين مصر والسودان والحبشة وخط الاستواء فسير الإرساليات العلمية والعسكرية إلى جوف السودان والحبشة لتخطيط الطرق واستكشاف أحوال البلاد ومواقعها وعوائد أهلها وأميالهم وغير ذلك واهتم بتحسين فرضتى سواكن ومصوع الواقعتين على ساحل القلزم وقد كان تقدم إلى السلطان فى ضمهما إلى خديوية مصر مع بعض بلاد الصومال التابعة للسلطنة العثمانية فى مقابلة زيادة الخراج المقرر دفعه كل سنة إلى الخزينة السلطانية وإبلاغه إلى سبعمائة وخمسين ألفاً من الجنهات فأعطاه إياها السلطان فحصن سواكن ببعض القلاع الخفيفة وأقام بها المرباطين من العسكر المصرى وفعل كذلك بمصوع ثم تاهت عساكره وشتت الغارة على غير ما أخذه من بلاد الصومال واستولى على عدة بلدان منها وسير جيشاً عظيماً إلى جوف السودان والدارفور وخط الاستواء ففتح الكثير من بلدانها واستولى على عدة مدائن وأراض واسعة وعاثت جنوده فى تلك الأصقاع وأعملت فىمن عصاها السيف ففتكت ونهبت وأسرت وأهلكت الحرث والنسل فهابهم أهل السودان وخشوا بأسهم واستسلموا لهم كارهين فأقام عليهم الحكام من أهل القوة والبأس وبث بينهم جباة الأموال من أهل الخشونة والقوة ووكل بهم ذوى الطمع والجشع وجعل تلك البلاد الأهلة بالإنسان والحيوان والضرع والزرع منفى لأصحاب الجرائم وأهل الشقاوة وضرب عليهم العمال والولاء الضرائب الفادحة وفرضوا الفرض والمكوس الجائرة واشتدوا على طوائف التجار منهم والنحاسين وخصوهم بالمغارم والفرض وأذلّوهم بالمصادرة والتشريد عند أصغر سبب أو أقل تقصير، وكان ممن سيرهم إلى جوف بلاد الحبشان لمعرفة أحوالها والتقرب من بعض كبار رجالها رجاء الغنم رجل نمساوى الأصل اسمه مثنجر فتغلغل مثنجر هذا فيها وغاب خبره حيناً ثم عاد حاملاً شيئاً من محاصيل البلاد وزين للخديو التغلب عليها وضمها إلى مملكته وقد كانت الفتنة يومئذ قائمة بين ملوكها وأمرائها والخلل ضارب فيها أطنابه قيل وأقسم مثنجر للخديو بأغلظ الأيمان أنه يملكها ويدرّجها بنفر من العسكر المصرى وشئ من النفقة فأعجب الخديو رأيه ومال إليه وما زال مثنجر يتردد على أبواب الخديو حتى ولاه المحافظة على فرضة مصوع التى هى مفتاح أرض الحبشان البحرى وأعطاه رتبة البيكوية فسار مثنجر إليها واستقر بها وجعل يدبر فى فتح البلاد وقرب إليه بعض مشايخ السواحل واستمالهم بالرشاوى والبراطيل ودفع بهم إلى دس الدسائس

وإيقاظ الفتنة ما استطاعوا ولبث على هذا الحال حيناً ثم استقدمه الخديو إلى القاهرة وعوقبه أياماً ثم أعاده وأنفذ إليه جيشاً خفيفاً معقوداً لوازحه إلى أرندروب بيك الأمريكانى أحد مقدمى الحرب الذين أتى بهم الخديو للخدمة فى الجيش المصرى ورسم له بالزحف على البلاد وفتحها وأقام مكانه فى المحافظة على مصوع أراكيل بيك وهو شاب أرمنى المحتد لابس به فخرج مشنجر بالعسكر من مصوع فى يوم مشؤم الطالع وسار نحو بلاد الحبشة سيراً بطيئاً وجعل يستميل فى طريقه مشايخ القبائل البضارية فى الطرق والمسالك وقرب منه شيخ قبيلة الحماسيين وبالح فى التودد إليه ومناه بالأمانى الكثيرة فلأزم الشيخ ركابه خديعة ومكرًا وسار معه وهو على قدم السمع والطاعة ومشنجر يظن بلوغ الغاية والفرح ملء فؤاده وسير إلى أراكيل بيك يعلمه بالخبر فكتب أراكيل إلى الخديو يشره بذلك، وتاقت نفس أراكيل إلى الخروج والغزو مع مشنجر ليشاطره النصر ويشاركه فى الغنم فسار عن مصوع ولحق بالحملة وساروا جميعاً وعيون النجاشى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم ويسارهم وهم لا يشعرون فلما بلغوا بلدة (جندت) نزلوا بها ونصبوا خيامهم وأوقدوا نيرانهم ليبيتوا ليلتهم وكان مع مشنجر فى هذه الغزوة امرأته وأولاده وبناته وبعض الخدم والأتباع كأنهم ذاهبون إلى عرس أو وليمة أعدت لهم على الرحب والسعة فينما هم نيام على فراش الإطمئنان إذ دب عليهم جماعة الحبشان فى منتصف الليل الآخر وأحاطوا بالخيام إحاطة السوار بالمعصم ودخلت جماعة أخرى فى وسط الخيام وأعملوا فى العسكر السيف فهب العسكر من نومهم مذعورين واختلطوا بالحبشان فلم تمكنهم الحبشان من الدفاع وأثخنوا فيهم قتلاً وطعنًا حتى أفنوهم أو كادوا ودخلوا على مشنجر فى سرداقه فذبحوه مع امرأته وأولاده وبناته ذبح الشاة وذبحوا جميع حاشيته وأتباعه وقتلوا أراكيل بيك شر قتلة وكان شاباً جميلاً حسن السمائل عاقلاً ذكياً مولعاً بالمعالى وقتلوا كذلك أرندروب وأصبحوا ودماء القتلى تجري بين الخيام جريان الماء وأخذوا جميع ما وجدوه من سلاح ومؤن وذخيرة وخيام ودواب للحمل ورجعوا ظافرين غانمين.

وعاد من بقى من العسكر إلى مصوع فى أسوأ حال من العرى والجوع وكلهم مشخن بالجراح وأخبروا بما جرى فسيروا بالخبر إلى الخديو فهاله وأزعجه، قال بعض الكتاب: وأقسم بالإيمان الغلاظ أن لا ترجع عساكره عن أرض الحبشان وفيها ديار أو نفاخ نار ورسم إلى راتب باشا أحد مقدمى العساكر وسردارها يومئذ بتجنيد الجند

واععداد المعدات وشدد وبالغ في ذلك وكان قد عباد في هذه الأثناء من الديار الأورباوية الأمير حسن ثالث أولاد الخديو وقد تعلم الفنون الحربية وخدم في عسكر الإنجليز وعسكر الألمان حيناً.

فلما كثر شوال من سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف رسم الخديو بخروج العساكر والأجناد وتسييرهم إلى مصوع فسار أولاً عثمان رفقي باشا أحد مقدمي العسكر من الشراكسة على رأس الألبان إلى مصوع ونزل بها أياماً ثم لحقهم الجيش كله في ذى القعدة من السنة في ثالث عشرة ولشوا بها جميعاً وهاء أربعين يوماً حتى تكامل وصول مؤنتهم ودواب حملهم وذخيرتهم وآلات حربهم ووصل أيضاً الأمير حسن ومن معه من أركان حربه ومقدمهم الجنرال لورنج الأمريكاني المعروف بأبي ذراع لبتز ذراعه الأيسر ثم بعد أن رتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للزحف سار في مقدمتهم عثمان رفقي باشا عن معه من العسكر إلى المحلة المعروفة باسم (بعرزه) وهي تبعد مسيرة يوم للمجدد المسافر ويومين للراكب البطيء وسار بقية الجيش بستلاحه ومتاعه ودواب حمله عن مصوع في يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجة من السنة فلم تغرب عليهم شمس ذلك اليوم حتى نزلوا على بلدة (ينعش) فباتوا بها ليلتهم وأصبحوا سائرين على أحسن ما يكون من الهيئة والترتيب فبلغوا (بعرزه) بعد الزوال بقليل فأنزلوا بها أحمالهم يوم الأربعاء وباتوا ليلة الخميس وفي الصباح الذي هو أول المحرم افتتح سنة ثلاث وتسعين ساروا إلى (عندرسه) فنزلوا عليها في غروب اليوم وباتوا بها ليلتهم وأصبحوا يريدون بلدة (قيح خور) التي يقال لها أيضاً (قيا خور) وباتوا بها ثم أصبحوا سائرين نحو (قرع) فبلغوها في ضحوة يوم السبت ثالث المحرم المذكور وقيا خور وقرع كلاهما من حدود مملكة الحبشان فرسم السردار إلى أركان حربه بتهيئة مكان للنزل العسكر فأنزلوهم غربي البلد ودقوا خيامهم ورتبوا دوابهم وحفروا الخنادق وأقاموا الاستحكامات الخفيفة وأنشؤا قلعة على ذلك الاستحكام على أحسن ما يكون من الوضع والنظام وخذقوا حولها خندقاً على أعظم ما يكون من العمق وسموا هذه القلعة بالقلعة الجديدة وقد مهدوا الطريق من مصوع إلى قيا خور وأزالوا ما يشغله من العقبات وحفروا به بعض الآبار للإرتواء واثبت جماعة منهم بين الحبشك لشراء الشعير لمونة الدواب والدقيق والعسل فاشترؤا من ذلك شيئاً كثيراً وآخرون لاستراق سمع الأخبار عن النجاشي يوحنا ومن معه من العساكر والأجناد وقد سار عن (عدوة) تحت مملكته يريد الالتقاء بالعساكر المصرية

والقتال معهم وما زال يتقل بخيله ورجله من بلد إلى بلد حتى وصل إلى ناحيتين يقال لأحدهما (دنبه) والأخرى (لمزه) وهما يبعدان عن المعسكر المصرى زهاء ست ساعات فتربص هناك، وجعل الأمير حسن يرأسل كبار الحيشان وأمرأهم ويستميلهم إلى طاعة أبيه ويمنيهم بالأمانى الكثيرة فكان أول من مال إلى ذلك (لح برو) عظيم (عد خاله) فحضر إلى معسكر المصريين فى نفر من الجند والأتباع فأكرم الأمير حسن وفادته وأهداه شيئاً من الملابس وشقق الحرير وهذا الرجل من أهل العصاوة وقطاع الطرق وله وقائع عدة مع العساكر المصرية فى واقعة أرندروب وجاءهم أيضاً (دجاج) ولد تكائيل صاحب الحماسيين فى جيش عظيم وطبول ورايات فلاقاه الأمير حسن ومقدموا عسكره وأحسنوا لقاءه وقدموا له الهدايا النفيسة من الشيلات الكاشميرية وشقق الحرير والمقصبات وقلائد الفضة وسروج الخيل المطهمة وأقام بالمعسكر المصرى يوماً وليلة وأطلقوا لقدمه بعض المدافع وحادثه الأمير حسن فيما هم بصدده، وولد تكائيل هذا من دهاة الحيشان وأصحاب الكلمة فيهم واجتمع حول المعسكر المصرى بذلك الصقع الكثير من السوقة وأصحاب السلع وأصناف الحبوب من الفول والعدس والشعير والسمن والعسل واللبن والدجاج والبقر والخيول والبغال والضأن والمعز فكانوا ييسعون على العسكر آمنين مطمئنين وكانوا مدة لبثهم بغير قتال شديدي التحرز والالتفات وكان كبار الضباط من الشراكسة شديدي القسوة والجبروت على صغار الضباط من المصريين يؤاخذونهم بالعنف والشدة على أصغر الصغائر، قالوا لكى لا ينفشلوا، ويلقونهم فى أضيق الحبوس عند أقل حادثة فكانت أيام هذه الحملة على صغار الضباط المصريين من أتس الأيام وأشدّها ولاءً، وكانت عيون الأمير حسن وجواسيسه تنقل من أخبار النجاشى وعسكره فى كل يوم أشكالا حتى أتت فأخبرت بأن النجاشى على أهبة الزحف بخيله ورجله فى يوم الثلاثاء حادى عشر صفر من السنة أى سنة ثلاث وتسعين فتأدى راتب باشا فى المعسكر المصرى بالتأهب والاستعداد لملاقاة العدو فتأهبوا ورحل يوحنا النجاشى عن دنبه ولمزه يريد مواقع المصريين فظهرت طلائع جيوشه ضحوة الثلاثاء وسمعت أصوات طبولهم وزمورهم فخرج فريق من المصريين ما بين مشاة وفرسان وجماعة من أصحاب المكاحل والمدافع من القلعة ووقفوا على قيد فرسخ منها على أحسن ما يكون من النظام والترتيب وناوشوا العدو القتال فقامت الحرب بينهما على قدم وساق واشتد الطعن والتزال وحمى الوطيس وعلت أصوات المدافع وارتفع الدخان إلى عنان السماء

فأظلم الجوّ والتقت الصفوف بالصفوف والتقت السيوف بالسيوف فأظهر الحبشان القهقري والرجوع فتبعهم العسكر المصرى ومازالوا يتقهقرون والمصريون من خلفهم يصلونهم ناراً حامية حتى قطعوا ذلك الوادى وعبروا خوراً هناك وطلعوا على قطعة من اليبس توصل إلى خورثان وكلاهما يجرى فيه الماء والحبشان من أمامهم يناوشونهم القتال ولم يطل الحال على ذلك ساعة أو بضع ساعة إلا وقد أخذ الحبشان المصريين من خلفهم يعملون فى أقفيتهم السيوف والحرايب وانطبقوا عليهم من كل جانب واشتدوا بالطعن والضرب وكانت صفوف المصريين الذين خرجوا من القلعة للقتال بغير احتياط ولا مدد وربما كان ذلك لحكمة لا يعلمها إلا العارفون بفنون الحرب والقتال وهجمت طائفة من فرسان الحبشان على القلعة يريدون اقتحامها وأخذ الأمير منها وكانوا يظنون أنه بها فالتقوا به عند الخور الأول فى جماعة من الحرس وأركان الحرب فاندفعوا عليه اندفاع السيل الجارف وأوشكوا أن يقبضوا عليه فساق بجواده وهم خلفه فلم يدركوه وتبعه من كان معه من حاشيته والعدو فى أثره حتى دخل الحصن وأغلقت أبوابه وانفشل العسكر المصرى أى انفشال واستولت عليه الهزيمة وأمر راتب باشا فجعلوا يطلقون المدافع على من كانوا خارج الحصن ووالوا الرمى بأشد ما يكون فكانت قتابل المدافع تكنس الأجسام من العسكرين كنساً بل فعلت بالمصريين فعلاً تنفطر له الأكباد وتمزق من هوله القلوب وما زال الرمى متراسلاً إلى قرب الزوال فتفرق من بقى من الحبشان وخلا منهم ذلك المكان فبطل رمى القنابل وقد امتلأ ذلك الوادى بالجثث والجرحى من العسكرين وجرى فيه الدم جريان الماء فى خوره وكان المنظر مزعجاً للغاية ثم خرج فريق من العساكر المصرية لدفن الموتى فأقاموا على ذلك أياماً .

ووقع فى أسر الحبشان كثير من العساكر المصرية وجماعة من أرباب الوظائف بالجيش فقتلوا منهم وخصوا وأذاقوهم مر العذاب ، قال أحمد رفعت بيك مقدم كتاب هذه الحملة فى رسالته التى ألفها باسم ، جبر الكسر فى الخلاص من الأسر ، وقد كان وقع فى أسر الحبشان فى هذه الواقعة ووفقه الله تعالى إلى عقد رباط الصلح مع النجاشى ما نصه ، وقد حضر إلينا والحرب قائمة ضابطان من سوارينا يستطلعان حال القلعة إذ ربما يكون قد دهمتها جنود الأعداء وعلمنا منهما انتصار عساكرنا وظهورهم على العدو قال وقد كان لى فى القلعة جواد فأخذه خادم محمد نسيم أفندى أحد أصحابنا بقصد التوجه به إلى مخدومه لتوصيل ماء إليه فناديت

الخادم أن ارجع فلم يرجع وكان قصدى بذلك أن يوجد جوادى بجانبى حتى إذا فاجأتنا الأعداء بالهجوم واضطرتنا الحال إلى مغادرة القلعة ألفت الجواد بجانبى ونجوت به مع الناجين، قال: ولما لم يرجع الخادم بعثت خلفه بتابع لى يستحضره ويحجزه فلم يعد هو أيضاً فاشتد حلقى وزاد غيظى وخرجت من القلعة ماشياً ومعى قريينة وجبخانه بقدر ما يكفى سعيًا على الحصول على جوادى وطعمًا فى مشاهدة الحرب ومشاركة القتال وقد ظننت أنه إذا حصلت هزيمة لعساكرنا المحاربة أدركهم عسكر الاحتياط بالمدد كما شاهدت ذلك فى محاربة كريد فاكون ما بين ذلك قد تمكنت من العود إلى القلعة غير أن الأمر كان بخلاف ذلك إذ لم يكن لعساكرنا مدد ولا احتياط على حسب القواعد الحربية وما كنت أظن هذا الأمر ولا أتخيل حصوله، ولما أخذت فى السير وبعدت عن القلعة بمسافة ألف وخمسمائة متر تقريباً وجدت حسن أفندى أحمد الكاتب معى حاضراً خلفى على قدميه ثم رأيت حضرة محمد على بيك الحكيم راكباً بجير ومعه خادمه وشاهدت خادم محمد بيك جبر الميرالاي راكباً على بجير محمل ماء لتوصيله إلى مخدومه فأمر محمد على بيك الحكيم خادم محمد بيك جبر بالتزول عن البجير كى أركبه ففعل ولما امتطيته سلمت القريينة للخادم المذكور وسرنا وقد جاء تسليم القريينة للخادم من الحكمة كما سيظهر فيما بعد وبعد مسيرنا ببرهة لم نشعر إلا والعجاج الثائر يغشانا شيئاً فشيئاً وقد رأيت وقتئذ شاين من عساكرنا راجعين بهرولة فسألتهما عن السبب فقالا إن عساكرنا انهزموا ولما أردت الرجوع بالبجير قصر عن الإسعاف ثم حزن وعمد إلى التقدم مجفلاً عن الرجوع فلم أجد سبيلاً سوى التزجل فتزلت عنه ولسان حالى يقول:

أتل قدمى ظهر الأرض إنى رأيت الأرض أثبت منك ظهراً

وقصدت العود ماشياً ولكن هيهات إذ بعدت المسافة ولم يمكنى الجرى. قال: أما الكاتب فأندهش وأنذهل وقال هات يدك ثم افترق منى إلى الجبل وقد رأيت محمد على بيك الحكيم راجعاً بجواده وما لبثنا حتى وافتنا خيالة العدو فى الحال تؤم القلعة بالهجوم فأحاطت بنا إحاطة السوار بالمعصم وأقامت بيننا وبين القلعة سدا محكما ثم أقعدنى أحد فرسان العدو فعمد الشابان المنهزمان إلى ضربه فقال لهما أمان فكفأ أيديهما عنه فعاد إلى وجذبى من يدى فتخلصت منه بالعنف وأنا عن السلاح أعزل فصبّ نحوى بندقيته ولم يطلقها وربما كانت خالية من الذخيرة وكان تصويبه إياها من باب الإرهاب ثم عمد إلى سيفه وضربنى به ضربة جاءت خلف أذنى اليسرى فأسالت الدم فى الحال غير أنى لم أشعر بها إلا عند نزول الدم على

ملا بى لما اعترانى من الدهش والانذهال وشتات الذهن وتفرق البال ثم شفع
الضربة الأولى بثانية صادفتنى خلف العنق وكانت خفيفة الوطأة هينة التأثير قائلا:
كيدن، ومعناها بالحشية اذهب وهنا انجلت حكمة سبق تسليمى القربينة للخدام
المتقدم ذكره إذ لو كنت حاملاً لبعض السلاح لظننى الفارس محارباً وابتدرنى بالقتال
والكفاح، قال: ولما كانت خيالتنا عائدة بالهجوم على القلعة طار عنى الفارس
المذكور خائفاً وجلاً فاخفتيت فى شجر المرسين فلما سلم منهم عاد إلى فأدركنى
بمجنى ومختبئى وقهرنى على القيام وكانت النيران فى أثناء ذلك تلقى من قلعتنا على
العدو صدا لهجمات وردا لغاراته فأخذ العدو فى القهقرى ونزل حيثئذ الفارس الذى
أسك بى عن جواده اتقاء الإصابة بالمقذوفات النارية راجعاً إلى الورا منحنياً فى
سيره مشيراً إلى الاقتداء به حتى أسلم من الإصابة وكنت أشاهد بعض عساكر
العدو وبعض عساكرنا الذين اختلطوا بهم فى ملتحم الهجوم ومزدحم الرجعى
يصابون بالرصاص فيخرون على الغبراء مخرجين بالدماء وقد أفضت بنا القهقرى
إلى نفق بالجبل فأوينا إليه وتوارينا به وكانت حيثئذ تمر على رؤسنا مقذوفات المدافع
فتنصدم بالجبال ولما توارينا بالجبل وصرنا على حذر من الوجمل أخذ الأسر المذكور
يمشى بى على مهل حتى وصلنا إلى نهير فاغترف لى منه ماء بيده وسقانى وبعد أن
شربت شرع فى سلب ما على من الثياب فأخذ منى أولاً البالطو وكان ملطخاً بالدم
وعلقه بعنق جواده وبعد ذلك سرنّا حتى جئنا إلى ميدان واسع وكان ذلك فى الساعة
الحادية عشرة نهارة تقريباً فرأيت هناك جموعاً شتى ولم يمكن أن أتبين فى الحال هذا
الميدان الذى أعهدته من قبل وذلك بسبب ما أصابنى من الدهشة والفرق ووجدت
هناك جملة أسارى من عساكرنا وقد سأل الأسر المذكور أحدهم عما إذا كنت أميراً
من الأمراء أو غير ذلك فأخبره وكان لا يعرف أننى منهم مستدلاً على ذلك بزى
وهيئتى ثم رمو الأسر ساعتى وسلسلتها وأراد سلبهما فأخرجت ختمى من السلسلة
بحيث لا يرانى وأخفيتته فى جيب البنطلون لتعلقى به إذ هو عندى من منذ ثلاث
وعشرين سنة فأخذ منى الساعة والسلسلة وعلقهما بعنقه وصار يدور حولى راكباً
ويقول كلاماً لم أفهمه قيل لى فيما بعد أنه عبارة عن ترغمة بشجاعته وذكر حسبه
ونسبه وإتيانه بأسير وبعد ذلك وصل بى إلى محل فى هذا الميدان وأخذ يفنش على
رملائه فلم يجد منهم أحداً وكان ذلك وقت الغروب وقد عرفت هذا الميدان وهو
الكائن شرقى (قرع) الذى كنا اتخذناه معسكراً لنا فى أول الأمر إذ وجدت فى المكان

الذى كنت فيه قطع ورق مما كنت أكتب فيه بختمى فقلت سبحان من أحلنى بهذا المكان أسيراً وقد كنت فيه البارحة أميراً ولعلنى منيت بالأسر لحكمة مستورة علمها عند الله إلى أن قال وفى صباح يوم الخميس ثالث عشر صفر رأيت عساكر العدو يحتشدون زمراً وأفواجاً على هيئة القولات واحتفzوا للتوجه إلى القلعة ثم ساروا ولم يخلفوا فى معسكرهم سوى الأسراء والنساء والصبيان وقد أوثقوا الأسراء وبعد برهة سمعنا صوت البنادق والمدافع منبهة بانتشاب المحاربة واشتداد المضاربة وحمى الوطيس بين الفريقين فانطلقت النساء الموجودات بالمعسكر عند إذ يصحن قائلات أبيت أبيت وهى كلمة تضرع ومعناه ياسيدى ياسيدى وكن يسجدن على الأرض ويأخذن التراب ويذررنه على رؤوسهن وهذا جميعه طلباً للنصر والتماساً للظفر وبعد ساعتين تقريباً عاد قوشو أسرى وعلمت من حاله انفشال أمرهم وخيبة أملهم ثم صار عساكر العدو يؤبون بالتعاقب إلى آخر النهار وسيماهم الحزن والاكدار إلى أن قال ولم يمكن العدو أن يتغلب على الاستحكام فى محاربة يوم الخميس كما أسلفنا ذلك وقد رجع مهزوما مغلوباً مع كونه كرر الهجوم على الاستحكام دفعات متعددة من أول النهار إلى آخره حالة أن الاستحكام المذكور لم يكن به سوى أورطة ونصف تقريباً من العساكر فلو أن السبع أورطات يعنى كامل العساكر التى ساقوها لهذه الغزوة التى خرجت من الاستحكام أقامت به ولحقها الثلاث أورطات التى كانت فى قيادخور لتكوّن من ذلك قسوة عظيمة فى الاستحكام ولانهزم جيش العدو شر هزيمة ولم يقو على القرب من الاستحكام لوصول مقذوفاتنا إلى النقطة التى أخذها العدو معسكراً ولو كنا اقتصرنا على قذف النيران على العدو من الاستحكام لكان هذا كافياً لكسره وتبديد جموعه قال: وحصول الأمر بخلاف ذلك نشأ من تفرق الكلمة وتباين الآراء لأن جناب السردار رأى أن تتحصن العساكر فى الاستحكام وتلحق بها الأورطات التى كانت بقياخور ورأى الغير ولعله الأمير حسن خروج العساكر لمقابلة العدو وبقاء جزء منه بالقلعة مع عدم إخلاء قياخور من العساكر خشية انقطاع خط المواصلات، إلى أن قال: ولكن إذا أراد الله نفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ أحكامه فيهم فإن صاحب ذلك رأى يريد (الأمير حسن) لم يراع فيه التدبير اللازم حتى إننا ما كنا نعلم بسبب عدم الاستكشاف إن كانت مقذوفات مدافعنا تصل إلى معسكر العدو أم لا وما علمنا وصولها إلا بعد أن غادر جيش العدو هذا المعسكر قال وليس من الحكمة والتدبير أن تساق العساكر بأجمعها إلى المحاربة دفعة واحدة ولا يكون لها مدد واحتياط للرجعى

ولا يصح إيجاد العساكر فى مكان على يمينه جبل يمكن صعود العدو فيه وإشرافه عليهم وحول أطرافه خور محيط به يمنع الرجعة فإنه لما اصطفت عساكرنا فى ذلك المكان وأقبل عليهم جيش العدو رموه بمقذوفات المدافع والبنادق فما وسعه إلا الهبوط إلى الخور والسير منه بحيث لم تزه عساكرنا لعمق الخور حتى وصل منه إلى ذروة الجبل فتسلط على يمين جيشنا وكسر جناحه ولما عمد جيشنا إلى الرجعى منه الخور المذكور وقد انقلب فيه مدفع من مدافعنا بحيواناته وانكبت حملة من عساكرنا فيه على بعضهم فبطل الرجوع بالكلية ونشأ منه ذلك الفشل والهزيمة ووقوع فوج من عساكرنا فى أسر العدو. أهـ.

ولما لم تتمكن الحباشان من أخذ الحصن عنوة وقد أخذتهم نيران مدافعه تراجعوا فنادوا فيهم بدفن الموتى ونقل الجرحى فدفعوهم ونقلوا جرحاهم ثم دقت طبولهم بالرجل فانقلبوا فى الحال على من عندهم من الأسرى فقتلوا منهم خنقا وذبحا وأنفحوا فى ذلك جداً ثم ساروا أفواجا وهم فى عدة كثيرة بكراعهم ومتاعهم حتى نزلوا على بلدة (أقلبه) وعسكروا بها فلما كان يوم السبت أرسل الملك فى طلب أحمد بيك رفعت وقد أخذ منه الجهد والتعب ولبلة البال مأخذا عظيما فقام وسار مع رسول الملك وصحبتهما الأسر لأحمد بيك وهما يقولان له أمان أمان ويفهمانه أنه ذاهب إلى حيث النجاشى يكلمه فى شيء من أمر الصلح والكف عن الحرب، قال أحمد بيك فلما وصلنا إلى ساحة الملك وجدت الأسر سجد خلف خيمة فظننتها خيمة الملك وأن السجود له وإذا هى كنيسة الملك وهى مصنوعة من جوخ أحمر أما خيمته التى يقيم فيها فمن قماش أبيض قال: وبعد برهة طلبت إليه وكان أول من قابلنى على باب خيمته شخص يعرف قليلا من العربية وحيثئذ خرج كل من كان عند الملك من أمير وحقير ولم يبق لديه إلا عمه المدعو رأس سرايه فقال لى: ذلك الشخص الذى قابلنى أأنت الكاتب وكبير الكتاب وهل تعرف مقدار السلاح والبارود وكل شيء فقلت نعم ولما دخلت فى الخيمة ألفت الملك متلثما حتى لا يمكننى من معرفة صورته وقيل لى فيما بعد أن من عادة ملوك الحبشة أن يفعلوا ذلك عند لقاء الأجنبى المعادى خوفا من أن يعرفه فيفتك به عند سنوح الفرصة وكان الملك طويل القامة متوسط اللون بين السواد والسمره عارى الرأس مضمفور الشعر مستطيل الوجه عسلى العينين ضخم الأنف بارز الأسنان خافى الأقدام نظيف الملابس وعليه منها جلابية ولباس وفوطة متشح بها وكان جالسا على سرير عتجريب وعلى يمينه مخدة

وعلى يساره أخرى وهما كبيرتان الجرم من نوع الشطمة المستعملة قديما. وأمامه على الأرض كليمان وقد وقف بجانبه الشخص الذى دخل معى وسألنى عن وظيفتى ثانيا وكان إذ ذاك عم الملك جالسا على الكليم دون السرير ولما لم يحسن الفهم ولم يجد التفهيم استحضر الملك شخصا آخر يحسن الكلام بالعربية فصار يترجم بينى وبينه .

فسألنى الملك بواسطة ترجمانه قائلا: ما سبب حضوركم وما القصد منه؟ قلت: أن القصد هو تبادل التجارة بين الحبشة والمصريين وتوطيد دعائم المودة والألفة بين الفريقين ولما أرسل إليكم أرندروب بيك أحد النواب المدعو محمد عبد الرحيم للمفاوضة فى هذا الصدد سجتتموه على أن الرسول لا يسجن ولا يهان فقال: نحن لم نأمر بسجنه إلا لكونه قال: أن الخديو يريد الاستيلاء على ما بين مصوع إلى المارب ومن العادة أن من يريد المفاوضة فى هذه المسائل لا يأتى ومعه العساكر فأرندروب بيك حضر إلى بلادنا ومعه الجنود فقلت له أما ما بلغه الرسول فلا ينطبق على الواقع ولا يوافق القصد فإن كان قال: ذلك فهو من عندياته وأما حضور أرندروب بيك بعساكر فمن المعلوم أن أراضى الحبشة عبارة عن وديان سحيقة وجبال وعرة وفيها قطاع الطريق والمتلصصون ونحوهم ويخشى من الطواف بها والتجول فيها بالانفراد فالعساكر التى أرسلت مع أرندروب بيك لم تكن إلا للمحافظة عليه فى أثناء الطريق واتصال خط المواصلات والدليل على ذلك أنه لم يكن معه سوى ألف نفر وباقى العساكر كان بالمحطات بقصد توصيل الذخائر إليه وإلى من معه حتى لا يكلفوا جناب الملك بشيء ما فقال ولو أن كلامك من هذا القبيل غير أنى عارف ببواطن الأمور وهل عندك ختم تكتب لنا جوابا بالصلح فقلت نعم: ولكن أخذه الأسر فأمر الملك حينئذ بإحضار الختم وقد حصل فكان ذلك عندى من طلائع السرور وتباشير الجور إلى أن قال: ولما خرجت من عند الملك أجلسونى فى خيمة معدة لحفظ الأسلحة الخاصة به وهى عبارة عن درق وحرايب وبعض أمتعة فطلبت قرطاسا وقلما ودواة فأحضروا لى ذلك مع كاتب يدعى متى من أقباط مصر يشبه صيارفة البلاد ولبسه ثوب وعمامة وهو حافى الأقدام وفى خلال ذلك كنت قعدت بمعزل عن الخيمة مع الترجمان وعرفنى أن اسمه دسته وطلب منى الوعد بأن لا أنساه من البر والإحسان إذا نجح المطلوب وحصل المرغوب فقلت له لك ذلك وبعد حضور الكاتب قدموا لى من باب الإكرام بعضا من العسلىة فتناولته مطمئنا فرحا وقلت لمن فى الخيمة (تملسوا) ومعناها باللغة الحبشية أخرجوا وقصدى بذلك إخلاء الخيمة من الناس فضحكوا تعجبا من إخراجهم مع كونهم هم أصحاب المحل ثم

أخذت القرطاس والقلم وكتبت مسودة خطاب عن لسان الملك إلى جناب البرنس حسن باشا وذكرت فيه .

إننى كنت أود استمرار علاقات المودة بينى وبين والدكم الأفخم ولكن حال دون هذه الأمنية تمويهات مثنى بشا محافظ مصنع وبثه الأكاذيب حتى بنى على ذلك حضور أرندروب بيك وحضوركم وكان ما كان فى وقعتى جندت وقرع من هدر الدماء بين الفريقين وهذا أمر لا يرضى الله ولا الناس ولم ندر ما هو المقصد والمرام من حضوركم بالجند إلى بلادنا فالأولى أن ترسلوا مندوباً من عندكم أو نرسل مندوباً من عندنا للمفاوضة فى شأن الأمر الذى نحن فيه إلى أن قال ونقلت مسودة كتابى على قرطاس بخط كاتبهم بدون تغيير فيها ولا تبديل ولا محور ولا إثبات ثم عرض على الملك فختمه وحررت منى كتاباً تركى العبارة إلى جناب السردار بما شاهدته من حال جيوش الحبشة من حيث وفرتها وكثرتها وما لاح لى من هذا القليل مع الاختصار وختمته باستلقات نظره إلى ضرورة حسم هذه المشكلة بالحسنى .

وقامت رسل النجاشى بالكتاب إلى المعسكر المصرى وسلموه إلى الأمير حسن فشرع يكلمهم فى تقرير قاعده يحسن الوقوف عندها فقالوا إنما نحن أتينا نحمل خطاب الملك لا أن نناجيك فى أمر الصلح فرسم الأمير حسن بأن يكتبوا إلى النجاشى بأن يرسل إليهم رجلاً مفوضاً من قبله فى عقد رباط الصلح والكف عن الحرب والقتال فلم يرد عليهم النجاشى أياماً كثيرة وسار فى عسكره عن (أقلبه) إلى ناحية دوارية إحدى بلاد الحماسيين وهى التى وصلت إليها العساكر التركية على عهد فتح السلطان سليم لبلاد الحبشة وتعطلت المخابرة فى أمر الصلح أو كادت ثم كتب النجاشى بعد ذلك إلى الأمير حسن يقول قوموا وتوجهوا ولا خوف على عساكركم منا ولا على مودتنا من الانقطاع فلما علم الأمير حسن ما فى هذا الجواب سأل الرسول أن يبدى رأيه فى أمر الصلح فقال : لم يأذن لى مولاي بالكلام فى شىء من ذلك فكبر الأمر على الأمير حسن واستعظمه وسير فى طلب المدد فجاءته طائفة من الجند فأمد بها المرابطين فى قياخور ولبت ينتظر ما سيكون وكانت كتبه ترد فى كل يوم على أبيه بمصر يحملها السلك البرقى وكذلك كتب أبيه وكلها فى معنى ما هم فيه ، واشتد قلق أحمد رفعت بيك وخشى عاقبة التطويل وكان يرى من حركة الحبشان وميل كبارهم إلى إعادة الكرة على العسكر المصرى ما زاده قلقاً وانزعاجاً فسير إلى راتب باشا سرا يسأله تعجيل طلب الصلح وتلافى الخطب قبل استفحاله

وعدم النطوح إلى إعادة الحرب التي لا تؤمن عاقبتها على حالة أن النجاشي موصوف بالحنان والرفق كارها لإراقة الدماء راغبا في المسالمة والتؤدّد فأجابه راتب باشا إلى ذلك وحثه على عقد رباط الصلح والإسراع في عمله قبل دخول الشتاء واشتداده على العسكر المصرى ومنه بالأمانى الكثيرة إن هو عجل في العمل فتقدم أحمد رفعت بيك إلى النجاشي في طلب تقرير قاعدة الصلح على ما فيه المصلحة للطرفين وما زال به حتى ألانه واستماله وهون عليه الأمر فرسم له النجاشي بطلب أحد زعماء العسكر المصرى يكلمه فى شيء من ذلك فسير أحمد رفعت بيك إلى راتب باشا يطلب مبعوثا من قبلهم وضمن هو سلامته وعدم مس المبعوث بضر فلم تكن إلا أيام حتى جاءت الأخبار بقرب وصول علي أفندى الروبى أحد مقدمى الفرسان المصريين وأحمد أفندى عبد الغفار ويورباشى من الأقباط مبعوثين لعقد شروط الصلح والكف عن القتال فرسم النجاشي بالاستعداد والتأهب للقائهم فخرج للقائهم زهاء الألفين من الحبشان بسلاحهم وآلات حربهم وكثر اللفظ فى معسكرهم بقرب وصول المبعوثين فلما وصلوا وصاروا على مقربة من مقر النجاشي ترجلوا عن خيولهم ودخلوا على النجاشي مع بعض الأمراء الذين هم فى ركاب الملك فأحسن النجاشي لقاءهم ورحب بهم كثيراً ورسم بنزولهم على الرحب والسعة فأنزلوهم فى خيمة أعدت لهم وقدموا لهم شيئاً من المأكّل والمشرب ولبثوا يومين يتكلمون فى قاعدة الصلح ثم اتفقوا على أن يرسل الملك رسولا من قبله إلى معسكر المصريين فسير معهم رجلا اسمه (ليكا منكاس ورقى) وهو من قرناء الملك فغاب ليكامنكاس ورقى أياما وعاد معه شيء من الهدايا والتحف ومبعوثو الأمير حسن المفوضون بعقد رباط الصلح فتناجوا فى ذلك أياما فكان ما طلبه المصريون من الحبشان رد سائر المدافع وآلات الحرب التى غنموها وفتح أبواب التجارة ما بين أملاك مصر والحبشة فكره النجاشي منهم ذلك وأنكره وقال لا سبيل إلى رد شيء من الأسلحة البتة اللهم إلا إذا كان ما قدره خمسمائة بندقية لا غير فآلح رسل الأمير حسن فى الطلب وجعلوا يهونون على النجاشي الأمر فأخذته ثورة الغضب. وقال: لا سبيل إلى رد شيء وقد أخذتم من بلادنا سنهيت ومضوع بغير مسوغ شرعى ومضوع هى مينا الديار الحبشية ومفتاحها البحرى فلا سبيل قط إلى شيء مما تطلبون وما كنا لتوقع من خديويكم أن يناوينا الشر على غير موجب ولا سبب فكان من وراء فعالة هذه ما هدرتموه من دم أولئك الأبرياء فالله عليكم شهيد ثم أعرض عن رسل الأمير

فأخرجوهم عنه وباتوا وأصبحوا وهم محل الإعراض والازدراء بعد الذى لقوه من
التجلة والتكريم فعادوا وأعلموا الأمير حسن بإعراض النجاشى عنهم وعدم الالتفات
إلى شىء مما طلبوه وأن النجاشى لا يسلم فى شىء من السلاح والمتاع ولا رد شىء
مما غنمته عساكره البثة سوى إرجاع الأسرى والتعاقد على المحبة والولاء وفتح طريق
التجارة بين المملكتين فلم ير الأمير حسن بدا من قبول ذلك فأعاد الرسل بالسمع
والقبول فرسم النجاشى بإحصاء الأسرى وردهم جميعا فتأدى مناديه فى العسكر
بذلك فاجتمع الأسرى حول خيمة النجاشى حتى تكاملوا ثم أدخلوهم عليه وكان
بينهم بيبكباشى أمريكى اسمه دورهاش فالتفت إليهم النجاشى التفاتة لطيفة كأنه
يحييهم تحية الوداع فخرجوا فصار أمامهم أصحاب الطبول والزمور يضربون بطبولهم
ويعزفون بمزاميرهم والحشبان من نساء ورجال على جانبي الطريق حتى دخلوا إلى
المعسكر المصرى سالمين .

وعاد الأمير حسن بمن بقى من حاشيته ويطائته وبعض مقدمى العساكر المصرية
من جماعة الشراكسة إلى القاهرة ثم لحقهم طائفة من العسكر وبقيت طائفة أخرى
بعضها بقياخور وبعضها بعدرسة ويعرزه وهؤلاء لم يلبثوا طويلا حتى رحلوا إلى
القاهرة وحل محلهم جماعة الباشيبوزق والعربان وبقي راتب باشا معهم حتى يأتيه
مرسوم الخديو بالرحيل فلما جاء المرسوم بذلك نزل بمن معه فى إحدى السفن
التجارية وأنزلوا ما بقى من المدافع والأسلحة والمهمات فى ثلاث سفن كبيرة وبينما
هى تسير قاصدة السويس اصطدمت إحداها المسماة دنقلة بصخر فى الماء فغرقت بما
عليها ولم ينج منها غير الرجال ووصلت العساكر إلى مدينة السويس فسيروهم على
الأثر إلى رأس الوادى فأقاموا بها أياما ثم سرحوهم فعادوا إلى أوطانهم فكانت هذه
الغزوة من أنعس الغزوات وأشرها على البلاد وأهلها فسبحان من يؤتى النصر لمن
يشاء من عباده .

وكان الخديو منذ ولايته ميالا إلى جعل مدينة القاهرة على نسق عواصم الأمم
المتمدنة والدول الكبرى فى الترتيب والنظام وتنسيق المباني وتوسيع الطرق وغرس
الأشجار لتظليل الشوارع وغير ذلك من المحسنات فبالغ فى هذا الأمر ورتب له
ديوانا مخصوصا وقيد به جماعة من المأمورين فصرفوا الأموال الطائلة فى توسيع
الطرق وإنشاء المباني وعمل المراسح ومحال اللعب العمومية وغرس الأشجار الكبيرة
وإنشاء الحدائق والمنتزهات البديعية وإنارة الشوارع بالأنوار الغازية على ترتيب غريب
وفرشوا الأرض بالحصا الأحمر وكسوها بالرمال الأصفر وهدموا الكثير من الدور

والوكائل القديمة والجوامع والأضرحة والتكايا توسيعا للطرقا وعملوا من محاسن البناء والتنظيم شيئا كثيرا فكانت هذه الأعمال وغيرها مما سيتلى عليك بعضه سببا فى امحال الخزينة ونضوب الإيراد وذهاب الدرهم والدينار والاضطرار إلى الاستدانة من أصحاب الأموال بالربا الفاحش فاستدانت الخزينة مبلغا من المال قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب فكانت هذه القرضة الأولى التى مدت إليها يدها بعد ولاية إسماعيل باشا ولم تكن استدانت شيئا من قبل سوى أربعة آلاف ألف على عهد سعيد باشا لتبتاع بها سهاماً من شركة خليج السويس فكثرت من هذا الحين معاملة أصحاب الأموال للخزينة وانبسطت أيديهم فاعطوا وسجلوا وحاسبوا وطالبوا وطاولوا وتقربوا وتلطفوا فى المعاملة فأمن الخديو جانبهم واستدان منهم أيضاً باسم أملاكه وزروعاته الخصوصية فأعطوه فاستزاد فزادوه واستطال فطاولوه حتى بلغ الدرهم دينارا فأنشأ معامل السكر العظيمة وسكك الحديد الزراعية والأبنية الفاخرة والعمائر الواسعة وأكثر من بناء القصور والمتزهات الغربية وبالع في أسباب الزينة بأحسن مما يفعله أكبر ملوك العالم وزوج أولاده وبناته وعمل لهم الأفراح والولائم العظيمة وجمع فيها سائر أرباب القصف واللهو وسائر المغنين والمغنيات وفرق الهدايا العظيمة والتحف الجليلة على رجال الدولة والعلماء والمشايخ وأنفق الأموال الطائلة وخص كل واحدة واحد منهم بالاقطاعات العظيمة والعقارات الواسعة للنفقة وأنشأ لهم القصور المشيدة والمباني الفاخرة فى باب الخرق وخطة الإسماعيلية والقبة والجيزة وبولاق التكرور وزوج الكثير من جواريه وسراريه إلى كبار الجند وصغار الضباط وأصحاب الوظائف الديوانية وبنى لهم الدور الواسعة وزينها بأنواع الفرش والبسط وأفخر الأواني ورتب لهم الجماكى والمرتبات وأعطاهن غير ذلك من العطايا والتحف .

وكان إذا نضب الإيراد وأمحلت الخزينة وعز الدرهم عمد إلى الاستدانة وضرب المغارم وتكثير المكوس وفرض الفرض على البلاد شرقا وغربا وإعادة أشكال المكوس الغربية التى كانت على عهد ملوك دولة الشراكسة الثانية وما زال على هذه الحال من السرف والأرغال وأصحاب الأموال تطاولوه وهو يمتنهم بالأمانى البعيدة حتى اشتد بأهل البلاد الضيق واستحكمت حلقاته فضجوا وعجوا وجباة الأموال تجوب البلاد شرقا- وغرباً وأصحاب الأموال من اليهود والروم تتبعهم فلماذا تعذر على الممول سد مطالب أصحاب الجباية أخذوا ما وجدوه عنده من غلة أو ماشية وباعوها لمن تبعهم من أولئك المرابين بأبخس الأثمان وهكذا كانوا يفعلون بأهل كل بلد وقرية حتى عم

الويل واشتد الكرب واستفحل الخطب وعز الخلاص ، ولم تكن هذه المحن لتعقد الخديوى عن إعطاء نفسه كل ما تتمناه إذ سار فى سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية إلى دار السلطنة العثمانية ليستعطف صدر الدولة يومئذ ويزيل ما كان بينهما من الوحشة والتقاطع فأحسن السلطان لقاءه وبالع في إكرامه فأقام فى قسطنطينية أشهرا أنفق فيها من الأموال ما لا يكاد يدخل تحت الحصر وتقرّب من صدر الدولة وكبار السلطنة وأزال ما كان بينهم وبينه من الوحشة وأولم الولائم الكثيرة وأهدى لهم الهدايا العظيمة والتحف الفاخرة فلما تمكن من استرضائهم استقدم إليه من عاصمة الفرنسيس الموسيو أوبنهايم المرابى الشهير واقترض منه قرضا برسم الخزينة قدره ثمان وعشرون ألف ألف من الجنيهات أى ثمانية وعشرون مليوناً ذهباً بحجة وفاء جميع ما على الخزينة من الديون وصرف ما يتبقى فى شئون البلاد وحاجاتها وكان من شروط هذا القرض أن لا يدفع ملتزمه للخزينة معجلاً سوى ستة آلاف ألف نقداً وأن يعطى بالباقي أوراقاً، هى المعروفة فى عرف أصحاب الأموال بالسندات الاسمية ، فقام أوبنهايم بهذا الشرط ووفى إلى خزينة الخديوى هذا المال فى آجاله فلم يهتم له الخديوى وتقدم إلى أمير المؤمنين فى قبول ثلاثة آلاف ألف منه إعانة للخزينة السلطانية فقبل السلطان ذلك ورسم بحمل المال إلى الخزينة السلطانية وكأنه عز على الخديوى العود إلى القاهرة وفى خزينته شئ مما بقى من ذلك المال فعمد إلى شراء الجوارى الحسان والجواهر الثمينة والأعلاق النفيسة وهادى جميع رجال الدولة وأنفق وأولم للسلطان وليمة لم يسبق لها مثال جمع فيها من أصناف الزينة وبدائع الألعاب النارية والأنوار والفرش والماكول والمشروب ما لا يمكن استيفاء شرح محاسنه وأولت كذلك والدته لوالدة السلطان وليمة أخرى وقدمت لها من التعابى والأعلاق الثمينة ما لا يمكن وصفه .

(مطلب)

فرمان السلطان القاضي بنقل وراثه الخديوية

من عقب محمد علي باشا إلى ذرية إسماعيل باشا

قال بعض كتاب الأخبار: وتحقق لهما فى تلك الليلة أنهما من أقرباء بعضهما تجتمعان فى جد واحد ففرحنا بذلك فرحاً عظيماً وجعلتا تتزاوران كل قليل ولا تنقطع من بينهما فى كل يوم رسل التحية والتسليم ولبت الخديوى بعد ذلك أياماً

كلها أفراح ومواسم ثم تقدّم إلى السلطان فى أن يسرحه بالانصراف فسرحه فوصل الإسكندرية فى أوائل ربيع الثانى من السنة فزنت له المدينة ثلاثة أيام وكذلك زينت القاهرة عند وصوله إليها ودقت البشائر وزاره الأمراء والكبراء والعلماء والوجهاء ولم يستقر به المقام حتى شاع الخبر بورود فرمان السلطان بتأييد سائر فرمانات السابقة مع إضافة جميع الحقوق والامتيازات التابعة لرتبة الخديوية إليه وتحدث الناس فى ذلك كثيرا ولم تمض إلا أيام حتى قرئ فرمان فى محفل حافل بديوان السلطان الملك الغورى بقلعة الجبل حضره جميع رجال الدولة والأمراء والكبراء والمشايخ والعلماء فكان ما فى فرمان المذكور بعد الدياجة المعلومة ما نصه .

قد نظرنا بعين الاهتمام إلى طلبك بإصدار خط سلطانى يجمع بالتفصيل والتغيير اللازم جميع الخطوط الصادرة بعد فرمان المانع المرحوم الوالى محمد على باشا الحكومة الأثرية سواء كانت تلك الفرامين متعلقة بكيفية الخلافة أو بالحقوق والامتيازات الجديدة الممنوحة مراعاة لحال الخديوية وسكانها فهذا فرمان من شأنه أن ينسخ فى المستقبل حكم تلك الفرامين جميعها بما يتضمنه مما سيأتى بعد ويكون دائما نافذا مرعى الإجراء .

أن كيفية وراثه الحكومة المصرية المقررة فى فرماننا الصادر ثانى ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائتين وألف قد غيرت على وجه أن تنقل الخديوية من متبوى كرسنها إلى كبير أبنائه ومن هذا إلى أكبر أبنائه أيضا وهلم جرا علما بأن ذلك أدنى إلى المصلحة وأرشد ملاءمة لأحوال البلاد المصرية واختصاصا لك بانعطافى الذى صرت له أهلا بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وأمانتك وإثباتا لذلك أ جعل قانون الوراثة الخديوية لمصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومضوع وتوابعهما كما تقدم بيانه بحيث تكون الولاية لبكر أبنائك ثم لبكر أبنائه من بعده فإذا لم يرزق من ولى الخديوية ولدا ذكرا كانت الولاية من بعده لأكبر أخوته أو لأكبر بنى أخيه الأكبر كما تقرر ولا تكون هذه الوراثة لأبناء البنات ولاجل تأييد هذه الأحكام ينبغى أن تكون الوصاية فى حال كون الوارث قاصرا على الصورة الآتية :

إذا توفى الخديوى وكان كبير ولده قاصرا أى غير بالغ من العمر ثمانى عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديويا بحق الوراثة فيصدر إليه فرمانا بوجه السرعة وأما إذا كان الخديوى المتوفى قد نظم قبل وفاته أسلوبا للوصاية وعين كيفيتها وذوى إدارتها بصك ثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فأولئك الأوصياء يقبضون إذ ذاك

على أزمة الأعمال عقب وفاة الخديوى ثم ينهون ذلك إلى الباب ليثبتهم فى مناصبهم ولكن إذا توفى الخديوى بسغير وصية وكان ابنه قاصرا فمجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولى الإدارة الداخلية والحرية والمالية والخارجية والحقانية وقائد العسكر ومفتش الأقاليم فتجتمع هؤلاء الذوات ويتخبون للخديوى وصيا بإجماع الآراء لا بالأغلبية فإذا تساوت الآراء لاثنين من المنتخبين كانت الوصاية لارفعهما رتبة باعتماد الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها ويشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعاً أمور الخديوية ويعرضون بذلك لسلطتنا السنية ليصدق عليه بالفرمان الشريف. وكما أنه لا يجوز تبديل الوصى وتغيير هيئة الوصايا قبل انتهاء مدتها على الصورة الأولى أى فيما إذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوى المتوفى فكذلك لا تغير فى الصورة الثانية وأما إذا توفى الوصى أو أحد أعضاء مجلس الوصاية فى خلال تلك المدة فيتخب بدل الأول أحد أعضاء المجلس وبدل الثانى أحد ذوات الحكومة وبمجرد بلوغ الخديوى القاصر ثمانى عشرة سنة يكون راشدا فيباشر أمور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقتضته إرادتنا السلطانية.

ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهية سكانها من أهم الأمور لدينا وكانت إدارة المملكة المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدا على الحكومة المصرية رأينا أن نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقا للحكومة المصرية وذلك أنه لما كانت إدارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها وأحوالها ومنافعها عائدة بالحصر على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم أن إدارة أى مملكة وحسن نظامها وتزايد عمارتها وسعادة سكانها ما لا يتم إلا بالتوفيق والتطبيق بين الإدارة العمومية والأحوال والمواقع وأمزجة السكان وطباعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة فى وضع القوانين والنظمات الداخلية حسب الحاجة واللزوم ولأجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية أو من قبل الحكومة مع الأجانب وتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير أسباب التجارة منحناكم أيضاً الرخصة المطلقة فى عقد المشاركات وتجديد المقاولات مع مأمورى الدول الأجنبية فى أمور الممالك والتجارة وسائر المعاملات الجارية مع الأجانب فى أمور المملكة الداخلية وغيرها على شرط أن لا يكون ذلك موجبا للإخلال بمعاهدات الدول السياسية.

ولكون خديوى مصر حائزا لحق التصرف المطلق فى الأمور المالية فقد أعطيت له

الرخصة فى عقد القروض من الخارج بغير استئذان عندما يجد لذلك لزوما على شرط أن يكون القرض باسم الحكومة المصرية. وبما أن أمر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق وهو أهم الأمور وأحوجها إلى العناية من أقدم الوظائف المختصة بخديوى مصر قد منحناه الإذن المطلق بتدارك أسباب المحافظة وتنسيبها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبتكثير أو تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقيد ولا تحديد وأبقينا كذلك لخديوى مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية إلى رتبة ميرالاي والملكية إلى الرتبة الثانية على شرط أن تكون المسكوكات المضروبة فى مصر باسمنا الشاهانى وتكون أعلام العساكر البرية والبحرية فى القطر المصرى كالأعلام التى لعساكرنا السلطانية بلا فرق ولا تمييز ولا يجوز لخديوى مصر أن ينشئ البوارج المدرعة بغير استئذان أما سائر السفن والبوارج ففى استطاعته أن ينشئها متى شاء .

ولأجل إعلان الأحكام السابق بيانها وتأيدها قد أصدرنا إليكم هذا فرمان الجليل القدر من ديواننا الهاميونى وأعطى لكم متمما ومعدلا وشارحا للخطوط الشريفة والأوامر المنيفة الصادرة إلى هذا التاريخ سواء كانت فى وراثة الحكومة المصرية وفى كيفية الوصاية أو فى إدارة الأمور الملكية والعسكرية والمالية والمنافع العمومية وسائر المهمات على شرط أن تكون أحكام هذا فرمان الجديدة نافذة مرعية الإجراء على ممر الأزمان قائمة مقام أحكام فرمانات السالفة على ما اقتضته إرادتنا السلطانية فينبغى أن تعلموا قدر لطف عنايتنا وتؤدوا الشكر لها وتصرفوا الهمة إلى تنظيم الإدارة على محور الاستقامة وإلى الأخذ بأسباب وقاية الرعية وإصلاح شئونها وتأيد راحتها على حسب ما فطرتم عليه من الغيرة والاستقامة وحسن الأخلاق وما وقفتم عليه من أحوال تلك الجهات وأن تراعوا أحكام الشروط الواردة فى هذا فرمان الجديد مع تأدية المائة وخمسين ألف كيس المضروبة على الديار المصرية سنويا فى أوقاتها المعينة إلى خزيتنا العامة السلطانية على القوانين والقواعد المرعية انتهى بنصه .

(مطلب)

بيع سندات خليج السويس إلى الإنجليز

وظل الخديوى سائرا على ما يهواه من السرف وتمهيد العقبات أمام أصحاب الأموال حتى تمكنوا من أعناق أهل البلاد وأنقلوهم بالديون التى لا خلاص لهم منها

ونال أموال قرض الثمانى وعشرين ألف ألف ما نال غيره من أموال القروض السابقة له وكثرت الديون المعروفة فى عرفهم بالديون السائرة إلى حد لا يمكن معه الوفاء ونضب جميع موارد الإيراد والحدوى مع ذلك لا ينكف عن إنشاء المباني الواسعة والقصور المشيدة والحدائق الناضرة والتغالى فى أسباب الزينة والترف والإتيان بعجائب المقتنيات من بلاد الهند والصين غير مبال بما وراء هذا كله، وكان المتولى النظر على الخزينة فى هذا الحين المشير إسماعيل صديق باشا فأعمل الفكرة فى رأب هذه الصدوع فلم يكن فى الإمكان إصلاح ما كان واشتدت الأزمة واستحكمت على الخزينة حلقات الضيق وتأخر صرف الجماكى والمرببات والعلوفات ولا سيما جماكى الجند وعلوفاتهم فطالب أصحاب الديون السائرة بديونهم وتزاحموا على أبواب الخزينة ولجوا ورموا المشير إسماعيل صديق باشا بسوء التدبير وفساد الرأى فعمد إلى معالجة الداء بالداء واصطفى له من بين أصحاب تلك الديون جماعة فجعلوا يخلطون ويخبطون ويمنون غيرهم بالأمانى الكثيرة ولكن على غير جدوى فانكمش أصحاب الأموال وعز على الخزينة الاستدانة وابتعد عنها من كان أقربهم إليها واشتد الطلب على المشير إسماعيل صديق باشا وقد سدت فى وجهه أبواب الخيل ولج الخديوى بإصلاح الحال تعامياً وتغريراً ورسم بيع سندات خليج السويس التى كان اشتراها محمد سعيد باشا باسم الخزينة كما تقدم القول وسامها مع قنصل جنرال الإنجليز وكلمه فى شرائها باسم دولته فأجابته إلى ذلك وعجل بشرائها كى لا يسبقه إلى ذلك قنصل جنرال الفرنسيين، فلما كان أوائل سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية رسم إلى المشير إسماعيل صديق باشا بتسليم تلك السندات إلى المستر بوج قنصل الإنجليز بالقاهرة وقد كانت مودعة بالخرزينة وكنت يومئذ ترجمان الباشا المشار إليه فقضيت فى تسليمها أياماً فكنت أرى من الاهتمام بأمرها والتعجيل بنقلها إلى عاصمة الإنجليز على ظهر دارة حربية استقدمت من الهند لهذا الغرض ما لم يكن لأحد فى حساب وفرح كبار سياسة الإنجليز بشراء تلك السندات فرحاً عظيماً وتكلم أصحاب صحف أخبارهم فى الأمر ففصلوا وقاسوا وألبسوه ثوب الأطراء والمدح وعدوه من معجزات سياسة ذلك الحين ثم انقلبوا يقرعون الخديوى وينددون به ويرمون به بالخيانة ويسمون المشير إسماعيل صديق باشا بالتغريير وظلوا على هذه الحال أياماً كثيرة لم تكن لتهدأ فيها أيضاً خواطر أصحاب الديون السائرة ولا انثنى لهم عزم عن الإلحاح فى طلب الوفاء.

(مطلب)

حضور كيف رسولاً من قبل الإنجليز للبحث والتنقيب عن الخزينة

واشتدت الأزمة وانقلب أصحاب صحف أخبار الإنجليز من التقريع والتبديد إلى تحريض صاحب سياستهم على التدخل فى الأمر والأخذ بناصر أصحاب الديون والبحث فى الأسباب المترتب عليها إحمال الخزينة ونضب الإيرادات وأطالوا الكلام فى ذلك وبالفعل فلم يمتض إلا القليل حتى وردت الأخبار بقيام مبعوث من الإنجليز يريد القاهرة اسمه المستر (كيف) وهو مزود بشيء من الأسرار فاهتم الخديوى لحضوره وأمر فأعدوا قصر الزهرة من ضواحي القاهرة لتزوله ورتبوا له أصناف المأكول والمشروب وبعض الخدم والحشم فلما وصل إلى القاهرة لاقاه بعض رجال الديوان الخاص وأنزلوه بذلك القصر فاستراح قليلا ثم زار الخديوى بمقره بعبدين فأحسن الخديوى لقاءه وأولم له فى تلك الليلة ثم لم يلبث أياما حتى شاع خبره وتناقله الناس وقالوا أن كيف هذا جاء ومعه أوامر بعضها سرية وبعضها علانية فالسرية منها كشف المخبا من أعمال الخديوى والحامل له على السرف وإنفاق الأموال الطائلة التى استدانها باسم الخزينة فى حين أن الخزينة لم تأخذ منها إلا القليل وأما العلانية فهى البحث فى حساب الخزينة وتحقيق جميع أبواب الإيراد والمصرف منذ تولى الولاية والأسباب الحاملة إلى كثرة الاستدانة وأوجه النفع المترتبة عليها إلى غير ذلك من أبواب البحث والتنقيب وقد كنت يومئذ رسول المشير إسماعيل صديق باشا إلى ذلك المبعوث فكنت أودى رسالة كل منهما إلى صاحبه وأحمل إلى (كيف) الصكوك والأوراق الديوانية التى كان يطلبها من الخزينة فكنت أرى منه رجلاً عاقلاً رزينا واسع المعرفة وكان إذا طلب شيئا من الصكوك أو الأوراق نقبه تنقيا فلا يتركه حتى يأتى على ما فيه من صدق أو كذب وأقام على هذه الحال أياما ثم رحل عن مصر إلى عاصمة الإنجليز فظن الناس أنه عاد صفر اليدين والأمر على غير ذلك فإنه لم ينكف عن البحث والاستقصاء والإتيان على جميع الأمور من أبوابها حتى عرف ما لم يعرفه أقرب الناس من مقام الخديوى وأعرفهم بأحوال البلاد وأهلها وقد سألنى المشير إسماعيل صديق باشا عما استطلعت من أعمال كيف ونوياه مدة مكثى معه فأعلمته بما عرفته وكاشفته بما استكشفت فظن أن فى الخبر إطراء ومبالغة وأن الرجل سارعتا وهو لا يعرف شيئا من عورتنا، وما جاء الخبر بوصوله إلى عاصمة بلاده

حتى أرسل كبير سياسة الإنجليز إلى الخديوى يستنهضه إلى استرضاء أصحاب الديون السائرة ويحذره من انقلاب الأحوال بسبب استجداد أرباب تلك الديون بحكوماتهم فكبر هذا الكلام على الخديوى واشتد على المشير إسماعيل صديق باشا فاشتد الطلب على الفلاحين بقبض الثلث من الخراج معجلاً ثم الربع ثم ما بقى من المغارم الأخرى فلم يأت هذا كله بالغرض المطلوب واشتدت الأزمة بأكثر مما كانت عليه وبقي الحال هكذا حيناً وشاع الخبر بتكدر خاطر السلطان على الخديوى بسبب ما يلاقه أهل البلاد من أصحاب الجباية وتكلم أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية فى ذلك وبالغوا وهو كوا.

(مطلب)

حضور فرمان من السلطان باستحسان

عمل الخديوى إسماعيل

فلما كان سابع عشر ربيع الثانى سير السلطان سرّياً وراءه إلى مصر ومعه خط شريف باستحسان مساعى الخديو لدى الذات الشاهانية ومحظوظيتها منها مع إحالة فرصة زيلع وملحقاتها على الخديوية المصرية مقابلة خمسة عشر ألف جنيه عثمانى تضاف إلى الخراج الذى يحمل إلى الخزينة السلطانية فى كل سنة فبالغ الخديوى فى الاحتفال بقرءاءة هذا الخط وطير الخبر به إلى الآفاق فاستعظم الإنجليز هذا الأمر وكبر عليهم جداً وتجرد كبارهم إلى المقاومة وخابروا كبار ساسة الفرنسيين فى ذلك وزينوا لهم الاتحاد على ما فيه المصلحة لأصحاب الديون وكان أصحاب السياسة من الفرنسيين ميالين إلى الانتقام فأجابوا كبار سياسة الإنجليز إلى ما طلبوا وكتبوا إلى الخديوى يسألونه التعجيل فى فض هذه الأزمة بالتى هى أحسن ويحذرونه شر العقابة فمناهم وبقي الحال هكذا أياماً كثيرة.

(مطلب)

حضور جوشن الإنجليز وجوبير

الفرنسيين لتحقيق ديون البلاد

وعاد أصحاب الديون إلى الوقوف على باب المشير إسماعيل صديق باشا يطالبون بما لهم أو ببعض الشئ منه فلم يفلحوا فعمدوا إلى الاستغاثة بقناصلهم وهؤلاء رفعوا الأمر إلى دولهم فظهرت لوائح الشدة ويانت دلائل الوحشة وجاء

الخبر إلى القاهرة بعزم دولتى الفرنسيس والإنجليز على تسيير رسولين إلى مصر باسم وكيلى الدائنين من رعايا الفرنسيس والإنجليز وتحدث الناس فى هذا الأمر فلما كانت أخريات سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية وصل المبعوثان المذكوران إلى القاهرة ونزلا بالنزل المعروف بنزل شبرد ببركة الأزبكية واعتزلا الناس كافة ولم يقابلا الخديوى إلا فى اليوم الثالث من وصولهما وكلماه فى سبب حضورهما وسألاه أن لا يكون بينهما وبينه وساطة ولا متكلم وأن جميع طلباتهما المتعلقة بمأمرتهما إنما يطلبانها من شخص الخديوى دون غيره وهو يكلم بها من شاء من رجال دولته فشق هذا الأمر على الخديوى وأكبره وتحقق أن فى الجراب ما فيه وكان الإنجليزى منهما اسمه جوشن والفرنسوى اسمه جوير.

وبالغ جوشن ورفيقه فى البحث والاستقصاء عن موارد الإيراد وأوجه الصرف وأسباب الاستدانة وما أنفق وما لم ينفق حتى حصحص الحق وبان ولم يمض على ذلك إلا القليل حتى رفعا إلى الخديوى محضرا بما رآياه من أوجه الإصلاح وهى، إقامة اثنين باسم مفتشين أحدهما فرنسوى والآخر إنجليزى وتقسيم أعمال الخزينة إلى قسمين قسم للإيراد ويرأسه الإنجليزى وقسم للمصرف ويرأسه الفرنسوى وسألاه التصديق على ذلك فلم يسعه إلا الإذعان ورسم به فلم يكن بأسرع من أن حضر إلى القاهرة ذلك الذى تولى على الإيراد واسمه المستر رومين وحضر أيضاً الذى تولى على المصرف واسمه البارون دى ملاريه وقبضا على زمام أعمال الخزينة وأمرأ ونهيا وتصرفا واشتدا على أصحاب الجباية والمديرين وأخذوا ما فى يد المشير إسماعيل صديق باشا من الوظائف فلم يبق له من الرياسة إلا الاسم فقط ثم رفعا إلى الخديوى محضرا آخر بتسليم زمام الجمارك إلى رجل من الإنجليز يديرها على ما فيه المصلحة وبتشكيل هيئة من ثلاثة مأمورين أحدهم فرنسوى وثنانهم إنجليزى وثنالثهم مصرى يختصون بإشغال السكك الحديدية غير تابعين إلا إلى جهة واحدة هى نظارة الأشغال العمومية فرأى الخديوى أن مستعظم النار من مستصغر الشرر وأنه إن تساهل مع جوشن ورفيقه اختبط عليه الأمر واختلط الحابل بالنابل وخرجت موارد الإيراد من قبضته فلا يعود فى إمكانه الحصول على شيء مما كان فعمد إلى المراوغة والتطويل وسير إلى جوشن ورفيقه يعلمهما بأن مصلحة البلاد وعادات أهلها لا تجيز تسليم الأمور ليد أجنبية وأنهما يتفاوضان مع المشير إسماعيل صديق باشا فى ذلك فأبيا مكالته وألح جوشن فى الطلب وطال الأخذ والرد أياما فلما رأى جوشن عناد

الخدوي وإصراره على الإبقاء تجرد للعداوة وأظهر ما كان يخفيه من الحقد فكان يدخل على الخديوي بمقره بلا تأدب ولا احتفال ويخاطبه بفحش القول ويتهدده بإفشاء ما علمه من خفى سره، قال بعض الكتاب: وأرسل إليه يوماً رقعة يقول فيها: لقد كنت أتمنى أن لا تحدوني بمأموريتي إلى حد توجيه السؤال إلى شخصك الكريم عن أمر يهم دولة الإنجليز معرفته ولكني أرى نفسي مع زميلي مضطرين إلى سؤالك أين صرفت الأربعة عشر مليون جنيه الباقية من قرض الخزينة والإيراد السنوي من عهد المرحوم محمد سعيد باشا إلى هذا الحين، قال فلما اطلع الخديوي على هذا السؤال اضطرب وكبر عليه الأمر فجعل يردد ويزيد ويتكلم كمن أصابه هذيان ثم جمع إليه رجال الدولة وأصحاب الحل والعقد من العاملين والمتقاعدين وبينهم ولده الأمير حسين وهو يومئذ في منصب تفتيش الأقاليم وشاورهم في الأمر فتكلموا فيه كثيراً ثم استقر رأيهم على تكليف المشير إسماعيل صديق باشا بالجواب على ذلك السؤال ولم يكن المشير بينهم في تلك الليلة فكتب الخديوي إلى جوشن بذلك واستدعى إليه المشير إسماعيل صديق باشا ورسم له بالجواب على سؤال جوشن فامتنع وقال لا جواب عندي البتة فشد عليه وقال لا بد من الجواب فقال إن كان ولا بد فلا جواب عندي سوى قول الحق والتزام جانب الصدق وهذه كتبك ومراسيمك تثبتك بما فعلته بتلك الأموال وما بددته في الحل والترحال قال فاستعظم الخديوي هذا الكلام واضطرب منه أي اضطراب وراجع المشير فقال لا سبيل إلى غير ذلك، وعاد رسول الخديوي ومعه جواب من جوشن يقول لا حاجة لنا البتة إلى السؤال من إسماعيل صديق باشا خلافا لما بيننا من العهد ولا نطلب الجواب إلا من شخصك فجمع الخديوي إليه محمد شريف باشا وولده الأمير حسين وبعض حاشيته ورجال ديوانه الخاص ولم يحضر معهم في ذلك اليوم أيضاً المشير إسماعيل صديق باشا وتناجوا في الأمر طويلاً ثم انفض اجتماعهم على ما لم تصل إلينا معرفته، فلما كانت الساعة الثالثة من ليلة الخميس حادى عشرى شوال من السنة أى سنة ثلاث وتسعين حضر إلى مقر الخديوي بعابدين أحد أتباع المشير إسماعيل صديق باشا ومعه مكاتبة برسم خيرى باشا المهر دار وسلمه إياها ففضها وإذا هي خطاب إلى شخص الخديوي غاية في الشدة وفي بيان ما أصاب خزينة البلاد من الإهمال وما حل بالرعية من الضنك وسوء الحال بأسباب أفاعيل الخديوي وأنه هو برئ من كل تبعة مترتبة على كثرة الاستدانة والتفقة بغير حساب وأنه قد خلع نفسه من منصب النظر على الخزينة واعتزل من ذلك اليوم الوظيفة وترك الأمر لمن بيده سبحانه وتعالى

تدبير سائر الأمور فدخل خيرى باشا على الخديوى وناولہ الخطاب فهاج عند رؤيته وماج وصاح على به الساعة فسار إليه خيرى باشا يستدعيه فامتنع ولم يحضر فجاء إليه طونينو بيك أحد رجال التشریفات فامتنع أيضا فأرسل إليه أحمد نشأت بيك فامتنع وبات ليلته تلك وأصبح يوم الخميس فجاء إليه خيرى باشا واجتمع به وجلس يكلمه ساعة ثم قاما معا وسارا إلى مقر الخديوى بعابدين فلما دخل على الخديوى أحسن لقاءه وبش فى وجهه وعاتبه وتلطف فى عتابه ثم مازحه وقضى معه ذلك اليوم ثم انصرف المشير إسمعيل صديق باشا من عنده فى نحو الساعة الثالثة ليلاً وفى ثانى يوم الجمعة صباحاً جاءه رسول الخديوى يدعوه كالعادة فسار معه إلى عابدين وصعد إلى مقر الخديوى فلم يلبث إلا قليلاً حتى جاءت عربة الخديوى أمام سلم الديوان وحولها طوائف الحرس على عادتهم ثم انحدر الخديوى ومعه المشير إسمعيل صديق باشا وركبا معا فسارت العربة بهما فى الساعة الرابعة نهارة من الطريق الموصل إلى قصر النيل فكانت هذه الساعة آخر العهد به رحمه الله تعالى .

وعقد الخديوى فى تلك الليلة مجلساً بمقره بعابدين اجتمع فيه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ ومفتى الديار المصرية وتكلموا فى أمر المشير إسمعيل صديق باشا وأسندوا إليه فعل ما لا يحل من العصيان والكيد على الخديوى وحرروا محضراً بذلك وحكموا بتبعيده إلى دنقلة إحدى مدائن السودان ووقعوا جميعاً على ذلك المحضر فلم يعلم الناس إلى هذا اليوم شيئاً مما جاء فيه غير ما قلناه وقد قفلت دونه من تلك الساعة أبواب الوصول، حدثنى صاحب لى، قال: أو ظننت صدق الخبر القائل بتسيير المشير إسمعيل صديق باشا إلى دنقلة وموته بها مبطوناً، قلت نعم هو الصدق الذى لا مراء فيه فقال: اعلم أنه لما ركب الخديوى مع المشير العربة من رحبة عابدين سارت بهما والجند تخفروها إلى قصر النيل وكان به الأمير حسن ونساؤه يومئذ فلما وقفت بهما عند السلامك التفت الخديو إلى المشير وقال تبقى هنا قليلاً حتى أزور ولدى وأرجع إليك فنزل المشير وجلس برهة لطيفة وإذا بالأمير حسن قد أقبل وهو يتلكأ فى مشيته وسلم فقام المشير إجلالاً له وحياه فنظر الأمير إليه وقال قد رسم الخديو الساعة بالترسيم عليك هنا تحت حراسة هؤلاء الجند حتى تأتى الباخرة التى ستقلك إلى دنقلة مبعداً فقال: وما سبب ذلك يامولاي وأى ذنب جنيتيه وأنا أصدق الناس فى خدمة أبيك وأشفقهم عليه وأطوعهم لإشارته فقال: لست أدري ويعلم الله هل لك من حاجة تسألنيها

ففاضت عينا المشير بالدمع وقال: لاشئ أسالك، وإنما أسأل الله الرحمة بى ثم نادى بأعلى صوته، يا غياث أغث عبدك وسكت وكانوا قد ذبروا أمر تبعيده وأعدوا لذلك باخرة من بواخر النيل وأرسوها تحت القصر وحولها الجند تحرسها وقد أنزلوا إليها بعض المأكول والمشروب والمفروش وجماعة من الخدم والاتباع وطائفة من الجند ومقدمهم إسحق بيك أحد الضباط الشراكسة ثم عاد الأمير حسن وخلفه الأمير حسين ودخلا على المشير فوجداه هادئ القلب ساكن فقال له الأمير حسن: قم فقد تم كل شئ فهم يريد القيام فلم يقدر فأمسك الأمير حسن بيده وخرج به من المكان وسلمه إلى إسحق بيك مقدم العسكر المكلفين بحراسة الباخرة ومصطفى فهمى باشا محافظ المدينة يومئذ.

قال الراوى: لهذه العبارة وسمعت عن يدعى أنه رأى المشير وهو خارج من المكان بين الأميرين حسن وحسين أن الأمير حسين لما رأى جنبه وخور عزيمته لطمه على وجهه وقال له: لقد خانتك الأيام يالئيم فأذهب، قال: وعندى أنه لم يحصل شئ من ذلك فقد كان لوقوع هذا الأمر الغريب فى ذلك الحين دهشة عند القريب والبعيد ولما أنزلوه إلى الباخرة أحاط بها الجند من كل جانب وأوصدوا جميع ما بها من الشبايك وأرسوها فى وسط النيل فكان المشير يصيح وينادى كل قليل كأنه فى غرفة نومه ثم كثر هذيانه واشتدت جلبته ومازالت الباخرة فى مرساها والناس يسمعون صياحه حتى غربت الشمس فأقلعت وسارت ببطء قاصدة الإقليم القبلى ولم تسر قيد ربع فرسخ من قصر النيل حتى خفى صوت المشير ولم يعلم ماذا جرى عليه بعد ذلك ثم سارت الباخرة عند شروق الشمس مترفعة إلى الصعيد وقد طيروا الخبر إلى الآفاق بعدم دنو أحد منها ولا خروج أحد منها إلى البر فسارت فى عرض النيل سيرا حثيثا وما زالت والناس فى ريب من صحة الخبر حتى وصلت إلى أسوان فنزل من الباخرة رجل على رأسه شملة من صوف وركب على جمل وساروا به على هذه الحال إلى دنقلة ونزلوا بها أياما قلائل ثم أذاعوا خبر موت المشير بمطونا وعملوا محضرا بذلك بشهادة قاضى دنقلة ومديرها وبعض مأمورى الحكومة فيها وعادوا إلى القاهرة وقد شوهده فى سبابة إسحق بيك اليمنى جراحة عظيمة فشاع خبر تلك الجراحة وتحدث الناس فى أمرها وقالوا بأنها دليل على مقتل ذلك الشهيد رحمه الله تعالى رحمة واسعة، قال: وأصبحوا ليلة القبض عليه وقد وصل خبر ما حل به إلى نسائه فقام الصياح واشتد العويل والبكاء وهرعت جميع النساء العائشات فى نعمته إلى دوره وأقمن الصياح والتدب فاشتدت الجلبة وعلت الاصوات فكانت

ساعة تنفطر من هولها الأكباد وجاء رجال ديوان الخديوى الخاص ونفر من قومه الذين اصطفاهم لنفسه ودخلوا على نساء وجوارى المشير وأخذوا جميع ما فى الدور من تحف وأعلاق وأموال وأوراق الديون المعروفة باسم (بنات الخزينة) وكانت كثيرة ونقلوا جميع ما وجدوه من الأمتعة الغالية وأدوات الزينة الفاخرة وأخرجوا جواريه وسراريه وفرقوه من على بعض عامة الناس ومشايخ القرى ونقلوا جميع نسائه وذريته إلى دار فى خطة التبانة تحت قلعة الجبل وشرّدوا ممتلكاته وغلمانه وخصيانه وأقصوا بعضهم إلى أقاصى السنار والدارفور وضيقوا على خزندارته واثنين معها ليدلن على خبايا المشير وأمواله ونقلوه من إلى سراى الزعفران بالعباسية فلم يعترف بشيء وقلن أن جميع ما كان له قد نقله أعوان الخديوى وأتباعه، وجاء أصحاب بيت المال فأحصوا ما بقى من فرش وبسط وغير ذلك وضبطوه وبالفوضى الضبط والتحرير فقام كل من كان له دين على المشير يطلب بما له وقد استبدل درهمه بدينار واشتد الطلب من كل صوب وحذب فعينوا لعمل حساب تركته عمدة من أصحاب الوظائف فأحصوا ما لأصحاب تلك الديون وسجلوه وادعى الأمير حسين ثانى أولاد الخديوى بأن للخزينة على المشير قدرا من المال له صورة وكان قد تولى نظارة الخزينة بعد خلع المشير فأجابته العمدة إلى ما طلب وجعلوا يبيعون ما أحصوه من فرش وبسط وطنافس وأسرة ومقاعد وكراسى وأوانى فاخرة وغير ذلك فاشترها بعض صغار الناس وبعض السوقه بأبخس الأثمان وظلوا على هذه الحال أياماً ربح فيها من ربح وخسر من خسر وقليلون ويعلم الله هم الخاسرون وانقضى الأمر وقد جمع ما ترك من متاع وزروع ودور وهى من أحسن الدور وأفخرها وأوسعها وأجملها زينة فأعطى الخديو واحدة منها إلى المشير محمد شريف باشا فانتقل إليها بعياله ورسم بجعل الاثنين الآخرين مقرا لبعض دواوين الحكومة فأنزلوا فيهما الخارجية والحقانية والخزينة والداخلية وهى باقية فيها إلى يومنا الذى نحن فيه فسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

قلت: وقد كان بين المشير إسماعيل صديق باشا وبين أحد رجال دار الندوة الإنجليزية مودة وصحبة كبيرة فكان إذا أتى الرجل إلى القاهرة أيام الشتاء تبديلا للهواء على عادة كبار الإنجليز لازم المشير وبالغ فى التقرب منه فاتفق أنه حضر إلى القاهرة فى غضون الأزمة القائمة بسبب فعال جوشن وجوبير فاجتمع بالمشير إسماعيل صديق باشا وكلمه فى أمر بعثة جوشن ورفيقه وقد كنت يومئذ ترجمانهما وكاشفه

على كثير من المسائل المهمة التي لا محل لها هنا ونصح له أن يلتزم جانب الحزم عند الحاجة وأن يدفع عن نفسه بالتى هى فقال له المشير: إني عزمتم على خلع نفسى وترك منصبى فيؤليه الخديوى من يشاء من أولاده فلان منهم من يزاحمنى عليه أشد الزاحمة. قال: ومن هو قال: هو الأمير حسين فإذا تخليت عن المنصب واعتزلته وجاءنى الطلب من جوشنكم، يريد جوشن الإنجليز، وسألنى عما أعلمه من أمر المصرف والإيراد وكيفية الاستدانة ولا أظنه إلا فاعل ذلك أطلعتة على ما ظهر من الأمر وما خفى وأعلمته بكل ما علمته من أفاعيل الخديوى مذ تولى إلى هذا الحين فيخف عنى ما ألقىه من اضطراب الحال ولبلة البال وأكون قد وفيت الذمة حقها والله يتولانى برحمة منه، فقال له: أو تأمن شر الخديوى والله لئن فعلت ذلك ليقتلنك شر قتلة وإنى أراه داهية غادرا خداعا يظهر غير ما يبطن فقال لم يبق فى قدرته فعل شيء من ذلك بعد أن نلت رتبة المشيرية فأنا اليوم رجل السلطان لى ما للخديوى نفسه وعلى ما عليه، فقال الرجل: لا يغرنك هذا الأمر فسلطانك فى شاغل عنك بما لديه من المشاغل المهمة والخطوب المدلهمة فلا تعجل فى الأمر واحذر التقرب من جوشن حتى يظهر الحق ويزهق الباطل ثم افترقا على ذلك فلما رفع المشير قصته إلى الخديوى وقد تهدده فيها بتبليغ جوشن جميع ما يعلمه من أمره كما تقدم الكلام سير إلى صاحبه المشار إليه فجاء فقال لى: قل له إني خلعت نفسى واعتزلت المناصب وأوعدت الخديوى شرا فقد عيل منى الصبر واشتد بى الأمر ولم أر لى خلاصا إلا فيما فعلت فماذا تقول، فبهت الرجل وظهرت عليه علامات الدهشة وسكت برهة ثم قال: قد قضى الأمر وغدر بك صاحبك فقال لى: قل له لا تخش من ذلك فالله غالب على أمره ثم افترقا على ذلك فلما شاع الخبر بتباعد المشير إلى دنقلة ذهب الرجل فى صباح الليلة التى أنزلوا فيها المشير إلى الباخرة ودخل على الخديوى وتقدم إليه فى أن لا يصيب المشير أدنى ضرر فقال له الخديوى أخشى أنه يقتل نفسه بنفسه فإنه ما برح منذ أنزلوه إلى الباخرة وهو يشرب الخمر بالطاس ولا ينكف عنها فرما عجلت بموته فخرج من عنده حزينا، واتفق أنى قابلته فى ثانى يوم فسلمت عليه فوجدته مقطب الوجه كاسف البال فرد على السلام وقال قتل صاحبى ويعلم الله قلت ومن أين أتاك علم ذلك قال: كنت البارحة عند الخديوى أرجوه أن لا يصيب المشير ضرر فقال لى كيت وكيت فتحققت أنه مات لا محالة.

وتقدم الأمير حسين إلى الخديوى فى طلب منصب النظر على الخزينة بدلا من المشير إسماعيل صديق باشا فولاه إياه فلم يستقر به حتى جعل يعزل ويولى ويتصرف فى صغير الأمور وكبيرها ولم يقدر على إرجاع جوشن ورفيقه عن عزمهما من إقامة موظفى الجمارك والسكك الحديدية كما شأ وقد عاودا الطلب والتزما جانب الشدة فلم ير الخديو بدا من الإذعان ورسم بذلك فى أخريات شوال سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ومع هذا فلم يقف بهما الطلب عند هذا الحد بل طلبا أيضاً إقامة مراقبين من جانب الدولتين الإنجليزية والفرنسوية على جميع أعمال الحكومة فلا يبرم أمراً إلا بمشورتهمما ولا يعمل عملاً إلا برأيهمما بحيث يبقى منصبهما دائماً لا يتزعزع وإقامة عمدة من جميع الدول يكون من اختصاصها إجراء جميع الأعمال المتعلقة بديون الخزينة ومراقبة تحصيل الأموال الأميرية وصرفها إلى أصحاب الديون فى آجال ضربت لذلك فرسم الخديو بتنفيذ جميع ذلك صاغراً وحضرت العمدة إلى القاهرة فأنشأوا لها مكاناً مخصوصاً سموه، صندوق الدين، وتسموا هم كذلك باسم أعضاء صندوق الدين وجعلوا يتصرفون فى الأمور فجمعوا إليهم جميع إيراد المديرية والمصالح الضامنة لدين الخزينة وتسيطروا على جميع الأعمال الخاصة بأصول وفروع الديون فلما تم لجوشن ورفيقه ما أراد عادا إلى بلادهما يظنان الخلاص مما مضى والغلبة فيما هو آت وقام أصحاب صحف الأخبار من الإنجليز والفرنسيين يشنون عليهما بكل لسان ويقولون أنهما إنما أقاما بحكمة منهما دون تطاول يد الخديوى إلى أموال الخزينة سدا قوى البنيان فلم يكن فى الأمر شئ من ذلك البتة إذ عاد الخديو إلى العبث بموارد الإيراد وأهمل كل عهد وميثاق وجعل يحمل منها ما شاء من الأموال إلى خزائن زروعاته وبعضها إلى خزينته الخاصة وأعضاء صندوق الدين ثملون بخمرة وظائفهم هذه العالية ومراتبهم الفادحة التى لم تكن تخطر لأحدهم على خاطر ولم يمض على ذلك الترتيب والنظام الجوشنى الجويرى سوى بضعة أشهر حتى ظهر العجز فى الإيراد زهاء ثمانمائة ألف وعشرين ألفاً ذهاباً وتعذر القيام بمطالب أصحاب الديون السائرة فى آجالها وعادت الأزمة بأشد مما كانت عليه فتزاحم أصحاب تلك الديون على أبواب الخزينة وأكثروا الإلحاح واللجاج وصاح بعضهم فى وجه الأمير حسين وخاطبه ببذى الكلام وفحش القول وأقاموا الدعاوى على الخزينة أمام المحاكم المختلطة فحكمت وشددت فى التنفيذ وحجرت على الكثير من موارد الحكومة وأملأوها فاشتد الضيق بالخزينة واستحكمت حلقاته وزادت

الأمور خبالاً وأشكالاً وأنفذت دولة الإنجليز إلى المستر فيفيان قنصلها الجنرال بمصر أن يكلم الخديوى فى الأمر ويسأله سرعة القيام بمطالب أرباب تلك الديون قبل استفحال الخطب وتفاقم الضرر فلم يلتفت الخديو إلى ذلك ولم تقصر يده عن أخذ كل ما وصلت إليه من أموال الخزينة وبقي الحال هكذا أياماً قد وقف فيها دولاب التجارة وضافت على أهل البلاد مسالك الرزق.

(مطلب)

المؤامرة على قتل السلطان عبد العزيز

وبينما كانت الأزمة فى مصر تشتد والحال فى ارتباك وخيال كانت الفتنة فى دار السلطنة قائمة على قدم وساق ورجال الدولة وأصحاب الحل والعقد فيما وراء باب السلطان يعملون على خلعه ويحزبون الأحزاب ويهيئون العصب ويفتحون للفتنة أوسع الأبواب، قال بعض الكتاب: وتحرير الخبر، أنه لما أحس السلطان بمكايد الإنجليز واتخاذهم رجال الدولة وكبار السلطنة آلة صماء فى أيديهم يهددون بها دولة الروس كلما رأوا منها تدخلاً نحو أملاكهم الهندية أو تعطيلاً لرواج تجارتهم الآسيوية فتخسر السلطنة العثمانية بأسباب ذلك من الرجال والأموال والبلدان ما لا يمكن معه بقاء عين أو أثر لمملكة آل عثمان ففطن إلى الأمر وهم بمداركة الخطر ومال عن معاضدة الإنجليز وأبغض سياستهم بغضا شديداً وتقرب من قيصر الروس على يد سفيره الأمير أغناتيف ففرح القيصر بذلك ونحى إلى السلطان وترددت بينهما رسل المودة والتسليم وتكاثرت رسائل المحبة وتناسيا ما بين الأمتين من العداوة القديمة وتعاهدا على كبح جماح الإنجليز وإبعادهم عن أن ينالوا من السلطنة العثمانية بسياستهم ما كانوا ينالونه من قبل ودبروا لذلك تدبيراً حسناً للغاية فعلمت عيون سفير الإنجليز بالخبر وأعلمته به فخافه جداً وسير به إلى كبير سياستهم فجاءته الرسائل بالتيقظ ودقة الالتفات فيث العيون والأرصاء حول الأمير أغناتيف وتجرد إلى المقاومة وجعل يستميل كبار الدولة ويشتريهم بالذهب الرنان ثم كلمهم فى التدبير على خلع السلطان والتخلص منه فمالوا إليه وباعوا آخرتهم بأبخس الأثمان وكان ممن وافقه على ذلك نوري باشا ومحمد جلال الدين باشا صهرا السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدى باشا الصدر الأعظم وعونى باشا وقيصرلى أحمد باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام ومدحت باشا رئيس شورى الدولة وبقي هذا السر

مكتوما بينهم حينما كانوا يحزبون فيه الأحزاب ويهيشون لإيقاد نار هذه الفتنة أعظم الأسباب حتى تم لهم ما أرادوا ثم سلموا الأمر بعد ذلك إلى محمد رشدى باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام وانضم إلى عصابتهم أيضاً السلطنة والددة مراد أفندى بكر أولاد السلطان عبد المجيد وجماعة من المابين وبعض كبار جند الحرس وهم نجيب بيك وعلى بيك وفخرى بيك وسعيد بيك ورضا بيك وغيرهم وجعلوا يتحينون الفرص ويتبينون انتفاعها وسفير الإنجليز يمهّد لهم العقبات فلما أحكموا التدبير عمد الصدر الأعظم إلى الادعاء على السلطان بالدعوى العريضة واتهمه بمخالفة العدو والتفريط فى أعظم حقوق الأمة والوطن وتعريض حقوق الخلافة الإسلامية إلى الضياع والتعاقد مع قيصر الروس على إدخال جيش من الروس فى قلب دار السلطنة للفتك بكبار الدولة وأركان الملة وأنه خالف عوائد أسلافه السلاطين وحاكى جماعة الفرنجة فى عاداتهم ومجتمعاتهم وغير ذلك ورفع إلى شيخ الإسلام هذا السؤال وهو: إذا كان زيد الذى هو أمير المؤمنين قد اختل شعوره فصار لا قدرة له على سياسة الأمة وهو مع ذلك ينفق أموال الخزينة فى ملاذه الذاتية ومنافعه الخصوصية إلى حد لا تطيق الأمة الصبر عليه وقد زاغ عن الحقائق الدينية وأخل بالأمور الدنيوية وكاد يقلب هيئة الملك ويهدم أركان السلطنة وكان بقاؤه ضرراً فهل يصح خلع بيعته؟

(الجواب) يصح كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه.

فلما كان يوم الاثنين سادس جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى خامس عشرى مايو سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية هموا بخلع السلطان وأناطوا حسين عونى باشا بتدبير أمر ذلك وكلفوا شيخ الإسلام مع بقية رجال الدولة وزعماء العصابة بمبايعة السلطان مراد بن السلطان عبد المجيد خان فأنفذ الصدر الأعظم إلى أمير سفن الحرب السلطانية بالتأهب والاستعداد فجعل يرتب سفنه على هيئة حصار لمقر السلطان وشاهد السلطان ذلك من بعض نوافذ مقره فاستغربه وسير إلى أمير السفن يستعلم عن سبب تلك الحركة الفجائية فأجاب بأنه ليس فى الأمر ما يستوجب الخوف وإنما هى مناورات لا بد منها وعلم الصدر الأعظم ومدحت باشا بسؤال السلطان عن حركة السفن أمام مقره فخشياً أن يفتضح أمرهم ويتضح ما خفى من سرهم فلما كانت الساعة الثانية من غروب ذلك اليوم اجتمع زعماء العصابة فى باب السر عسكرية وخرج رديف باشا فى ألفين وخمسمائة من

الجند وأحاطوا بسرّاي السلطان إحاطة السوار بالمعصم وتسلم سليمان باشا حراسة أبوابها بمائة من تلامذة المدرسة الحربية وهم على ظهور الخيل ثم خرج حسين عوني باشا في عربة وسار إلى مقر السلطان مراد وأنزله وأركبه في العربة وهو لا يدري ما الخبر فانزعج واشتد به الخوف حتى كاد يغمى عليه فلما وصلا إلى باب السر العسكرية لأقاهما شيخ الإسلام والشريف عبد المطلب وأخذوا بيد السلطان مراد وهو يضطرب وكان رجال الدولة وكبار السلطنة وجميع أصحاب الحل والعقد وكبار الجند وقوا على الأقدام فاجلسوا السلطان مراد على كرسى وحوله زعماء العصابة وتولى جماعة من العسكر حراسة الأبواب كي لا يخرج عن حضر أحد وقام شيخ الإسلام فبايع السلطان وبايعه جميع الأمراء والكبراء ورجال السلطنة وكبار الجند وهو مع ذلك لا يتمالك نفسه مما لحقه من الخوف والفرع ووصل الخبر إلى رديف باشا بتمام البيعة إلى السلطان مراد فلم يشعر السلطان عبد العزيز إلا وقد دخل عليه رديف ونفر من كبار ضباط الجند فاضطرب واستكبر الأمر جدا وقال كيف تأتون إليّ في هذه الساعة بغير إذن فقال رديف باشا أتينا لنخبرك بأن الأمة خلعت بيعتك فقال كيف يكون ذلك وصاح في وجوهم فقال له: رديف باشا انظر من الطاق فنظر وإذا بالجند قد أحاطت بمقره ومدافع مراكب البحر موجهة نحوه قيل فبكى وقال: أو أنتم فاعلمون بي شيئا الساعة فقالوا: لا وإنما سنقوم بحراسة أبوابك حتى ينقل بك إلى سرّاي طوب قبو وفي نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً أطلقت المدافع من البر والبحر ونادى المتنادون في الشوارع والطرقات بخلع السلطان عبد العزيز وولاية السلطان مراد ابن أخيه فهرع الناس من كل صوب وحذب إلى باب السر العسكرية وأصبحوا وقد نقلوا السلطان عبد العزيز من مقره إلى سرّاي طوب قبو فذهبت معه السلطانة والدته وولده يوسف عز الدين أفندي وباقي أولاده ونساؤه فأقامت والدته في حجرة بجانب حجراته خوفا عليه من فعال الأعداء وقد وكلوا بحراسة السراي نفرا من الجند ومعهم نجيب بيك وعلى بيك وهما من أصحاب الفتنة، قال أحد كتاب الأخبار، ولما تم نقل السلطان عبد العزيز إلى ذلك المكان وقد نقلوا معه جميع متاعه ومقتنياته اجتمع جلال الدين باشا ومدحت باشا ونوري باشا وبقية أصحاب الفتنة فجعلوا يدبرون أمر قتل السلطان عبد العزيز وأرسلوا إلى نجيب بيك وعلى بيك في أمر ذلك.

واشتد القلق بالسلطان عبد العزيز من بقاءه في سرّاي طوب قبو وتطير من ذلك فكتب في عاشر جمادى الأولى إلى ابن أخيه السلطان مراد يقول، بعد اتكالي على

الله سبحانه قد وجهت اعتمادي عليك فأرفع إليك مراسم التهاني بارتقائك تخت السلطنة وأبين لك ما بي من الأسف على أنى لم أقدر على القيام بخدمة الأمة كما تبغى ولكنى أؤمل أنك تبلغ هذا الأرب وإنك لا تنسى إنسى بذلت كل ما فى وسعى لصيانة المملكة والذب عن شرفها وأوصيك أن تذكر أن من صيرنى إلى ما أنا فيه الآن إنما هم الجند الذين سلحتهم أنا بيدي وحيث إنى كنت كثير الرفق بالمظلومين ميالا إلى معاملتهم بالمعروف فأرغب إليك أن تأذن بنقلى من هذا المكان الضيق الذى أنا فيه الآن إلى مكان آخر وإنى أهنى نفسى بانتقال الخلافة إلى ذرية أخى السلطان عبد المجيد خان، فرسم السلطان مراد بنقله إلى سراى أخرى فلم يمكث بها غير بياض يومه ذلك وفى المساء أدخل نجيب بيك وعلى بيك المتوليان حراسة المكان جماعة هم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى وأربعة من الخصيان إلى مقر السلطان وأخفوه عن الناس فلما كانت الساعة الثالثة ليلا دخل عليه أولئك القوم ومعهم اثنان أحدهما اسمه فخرى بيك والثانى اسمه الحاج أحمد أغا فتقدم فخرى بك وأمسك بكفى السلطان وقبض مصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا على ساقيه وتقدم مصطفى البهلوان وأمسك بأحد ذراعيه وقطع أورده بمقراض ثم فعل كذلك بالثانى وما زالوا به وهو يصيح ويستغيث حتى خرج جميع دمه ومات فلقوا جثته بقميص أبيض وحملوها إلى حجرة قهوة وجاق الحرس السلطانى وألقوها على حصيرة كانت هناك وقد شاهدت بعض ما حل بالسلطان جارية من جوارى والدته فصاحت واستغاثت فصاح لصياحها سائر الجوارى واشتد الصياح والعويل وعلت الضوضاء وكانت والددة السلطان قد خرجت من حجرتها لقضاء حاجة فجاءت مسرعة لترى ما حل بولدها وفلذة كبدها فلم يمكنوها من ذلك وأخذوا فى حمل متاعه ومقتنياته وما كان عنده من تحف وأعلاق ثمينة إلى مقر السلطان مراد وكان مما أخذ من عنده سيف السلطان سليم فاتح مصر وهو من أشهر السيوف عند سلاطين آل عثمان ولباتوا على تلك الحالة وأصبحوا وقد حضر إلى محل الجثة بعض الوزراء وكبار الدولة وبعض المشايخ والعلماء ووكلاء سفارات الدول وطبيب سفارة الإنجليز وماركو باشا رئيس المدرسة الطبية السلطانية وغيرهما من كبار الأطباء وكشفوا على جثة السلطان وبحثوا عما فيها فاختلفت كلماتهم وتحاجوا وطال بينهم الجدل وقال طبيب سفارة الإنجليز إن السلطان هو القاتل لنفسه ووافقه على ذلك بعض الأطباء وقال رئيس المدرسة الطبية بل قتل عمدا ووافقه على قوله بعض الأطباء واشتد

الجدال بين الفريقين وأبى رئيس المدرسة الطبية أن يوقع على محضر الكشف وأصر على الإبقاء وقد شوهد في جثة السلطان طعنة خنجر في جانبه الأيسر وبعض خدوش في فمه وذهاب إحدى أسنانه بضربة شديدة على فمه واشتد اللجاج بين جماعة الأطباء ساعة ثم أشاروا بدفن السلطان فدفنوه في مشهد حافل للغاية ولم يكن حديث الناس طرا يومئذ إلا أنه مات شهيد التقرب من قيصر الروس وتناقل هذا الحديث أصحاب صحف الأخبار الروسية وقالوا وعادوا وبالفوا في الشكوى فخاف رجال الدولة وخشوا العاقبة فأشاعوا أن قد أصاب السلطان أمراض عقلية بسبب تنزيله عن عرش السلطنة فاضطربت من ذلك اليوم أحواله وتبلبل بلباله فكان يتخيل له أن السفن راسية في بوغاز المدينة ترسل رمى القنابل على العدو واشتد به هذا التخيل إلى حد أذهب نومه في الليلة التالية لخلعه وأصبح فذهب إلى الحمام على عادته ثم خرج منه ونزل إلى البستان ثم عاد وأمر بعض الجوارى بفتح سائر الشبايك والأبواب ففعلن فتركهن وخرج إلى البستان ثم عاد ثم خرج ثالثة ثم عاد ثم أراد الخروج من الباب الموصل إلى البحر وفي يده غدارة فمنعه الموكل بحراسة الباب فتهدده بتلك الغدارة ثم عاد إلى حجرته وقد اشتدت به الأعراض وكثر هذيانه فصار يتخيل أن عدوا هاجم عليه فيصبح على الجند والحراس بأن تطارده وعلى السفن بأن تمنعه قالوا ثم طلب من بعض الجوارى أن تأتيه بمقراض ومراة ليهدم لحيته فأحضرتهمما له من والدته وانصرفت عنه فتأمل فرأى والدته تنظر من وراء الباب فصاح عليها وأمرها بالانصراف ثم حضر عنده بعد ذلك أحد قرنائته وجلس معه برهة فجعل يقص عليه خبر العدو الذي كان يتخيله ولزوم مقاتلته وفي أثناء الحديث أخذ المقراض وقطع به عرقا من أوردة ذراعه الأيمن فهم الرجل يمنعه فلم يقدر فأسرع إلى والده السلطان ليخبرها بالخبر فقام السلطان في الحال وأقفل الباب وجميع شبايك المكان وقطع عرق ذراعه الأيسر أيضاً ونام على فراشه حتى خرج دمه ومات، ويروون عنه غير ذلك أيضاً ما لا يسعنا إيراده هنا، وعظمت الفتنة بعد موت السلطان عبد العزيز وكاد يتطاير شررها إلى سائر الإيالات وتظاهر جماعة من أصحاب الكلمة المسموعة والرأى الحمود في دار السلطنة بالتشجيع إليه والرغبة في الأخذ بثأره فخاف أصحاب الفتنة وبالفوا في الحيلة وعملوا على تفريق القوم ما استطاعوا وأوعزوا إلى بعض أصحاب صحف الأخبار التركية فحملوا على السلطان عبد العزيز حملة منكرة ورموه بالمروق عن الدين وإذهاب كرامة سائر المسلمين

ووسموه بالخبال وذهاب العقل وأكثروا من الجلبة والضوضاء حتى تخيل للناس أن أصحاب الفتنة فى حل مما فعلوه، وما سيتلى عليك من تحقيق حادث خلع السلطان عبد العزيز وموته وما جرى فى شأن ذلك فى خلافة السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت تعرف أى القولين أصح وأى الحجتين أقوى وأشد فتحكم إما لأصحاب الفتنة وإما عليهم والله يحكم بينهم وهو أحكم الحاكمين.

مات السلطان فكانت مدة سلطته زهاء خمس عشرة سنة وله من العمر اثنتان وستون وقيل خمس وستون سنة وكان كبير المعرفة واسع الدراية ميالا إلى خير الرعية وإيراد البلاد موارد التقدم وال عمران بعيد العسف غير متحجب ولا مشاغب مبغضا للإنجليز وسياستهم عاملا على التخلص منهم جهد الاستطاعة فلم يبلغ مآربا ومات شهيد جراته رحمه الله برحمته الواسعة.

ومات فى أيامه ديمتريوس بطرك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وكان شهما عاقلا محبا للعلوم فاعتنى بترتيب المدارس وبألف فى وضعها على النحو الذى نحاها كيرولس مؤسسها فأعانه الخديو على ذلك وأقطع المدارس أرضا واسعة فأوقفت على عمارتها وتوسيع نطاق العلوم فكانت لها أعظم عضد ولما مات خلا الكرسي بعده أشهراً ثم أقيم كيرولس وهو الثالث عشر بعد المائة وأصله من بلدة تزمنت بإقليم بنى سويف واسمه يوحنا من رهبان دير البراموس بيرية شهات وهو بطرك المتأصلين الآن وله من الأعمال المبرورة والآثار المشكورة ما سيذكر فى محله إن شاء الله.

(الفصل الرابع والعشرون)

(فى سلطنة السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد خان)

وقام بالأمر بعد السلطان عبد العزيز السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد بويج بالملك يوم خلع عمه عبد العزيز سابع جمادى الأولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولم يمض على ولايته إلا بضعة أيام حتى ظهرت عليه علامات الضعف ووهن العزيمة قتل وكثر هذيانه فكان يميل إلى العزلة والانفراد ويخاف من كل شىء ويضطرب لأقل شىء يراه أو يسمع به، وكان ليوسف عز الدين أفندى ابن السلطان عبد العزيز ياور لركابه فى

أيام أبيه اسمه حسين بيك بن إسماعيل بيك أحد أمراء الجراكسة الذين هاجروا إلى دار السلطنة وكان حسين بيك هذا طاغية شديد البأس جبارا وحسين عونى باشا السر عسكر يعلم حال حسين بيك ويخشى عاقبة بقاءه في دار السلطنة بعد موت السلطان عبد العزيز فرسم بتسييره إلى بغداد ليتولى رياسة فريق بمن بها من العسكر السلطاني وأرسل إليه الفرمان بذلك فامتنع فأمر بحبس فحبسوه أياما ثم عاد فأظهر الطاعة والرغبة في الرحيل إلى بغداد وطلب مهلة يومين فأمهله فلما كان صباح يوم الخميس ثالث عشر جمادى الأولى خرج حسين بيك هذا من داره متسلحا بخنجر وأربع غدارات مسدسة وسار يريد منزل حسين عونى باشا وسأل عنه ف قيل له أنه في بيت مدحت باشا فسار إلى بيت مدحت وسأل الخدم عن عونى باشا فقالوا إنه مع بقية الوكلاء في مجلس مخصوص فأعلمهم بأن معه تلغرافا يتعلق بباب السر عسكرية يريد توصيله إلى عونى باشا فأغضوا عنه فلبث برهة لطيفة ثم صعد إلى حيث مجلس الوكلاء وأراد الدخول فمنعه حارس الباب فسأله حسين بيك ومن أنت قال: سالم أغا خادام الصدر الأعظم فقال: ادع إلى خادم عونى باشا فإننى فى حاجة إلى لقاء مولاه الساعة فذهب سالم أغا وترك الباب فدخل حسين بيك فى الحال إلى المكان الذى فيه الوكلاء وقصد حسين عونى باشا فلما دنا منه أطلق عليه غدارته طلقتين فأصابته فقام ليدفع عن نفسه فانخرط عليه حسين بيك بالخنجر وطعنه عدة طعنات ثم أطلق عيارا على محمد راشد باشا فأصابه فى عنقه فمات لساعته ومال على قيصرلى أحمد باشا أمير سفن الحرب فقام وأمسكه بيده فأنخته بالجراح وقد تمكن قيصرلى أحمد باشا وبقيّة الوكلاء من الهرب إلى بيت النساء وأغلّقوا دونهم الأبواب وجاء أحمد أغا خادام الصدر الأعظم مسرعا وهجم على حسين بيك ليقبض عليه فصرعه حسين بيك قتيلاً وقصد كسر الباب الذى حال بينه وبين بقية الوكلاء فلم يفلح فجعل يكسر المصاييح وأخذ شمعة ليقود بها الأستار كى يحترق جميع المنزل ليتمكن من الفرار فلم يقدر إذ جاءت طائفة من العسكر وكبسوا عليه وأمسكوه وقد قتل أحد العسكر وشكرى بيك ياور ركاب الصدر الأعظم وزجوه ليلته تلك فى السجن وأصبحوا وقد عجلوا بالحكم عليه بالتجريد والقتل شنقا، فلما كان فجر يوم السبت أتوا به بين طائفة من الجنود وعلقوه على شجرة فى ميدان بايزيد وبقي معلقا إلى يوم الاثنين، قال بعض الكتاب: وكان عند عمل التحقيق معه ساكن القلب هادى اللب لم تأخذه أخذه من الخوف وكان يظهر الأسف على من مات من ضباط العسكر والعسكر ويقول وددت لو أنى أذقت قيصرلى أحمد باشا أيضاً كأس المنون

كما ذاقها عذنى وراشد، وتحدث الناس بما فعله حسين بيك فاختلفت الأقوال وتباينت ثم عادوا فاجتمعت كلمتهم على أنه إنما فعل ذلك بهم انتقاما لقتلهم السلطان عبد العزيز واتصل خبر هذا الحادث بالسلطان مراد فكبر خوفه قيل واشتد هذيانبه وتغيرت أحواله واضطربت فكان لا يعرف أحدا ولا يميز بين الضار والنافع وكان الصدر الأعظم يخفى حقيقة حاله عن الناس وقيل بل كانت أمه تظهر أنه عاقل رزين وتعمل على إخفاء حقيقة أمره ولا تقرب منه أحدا فلما طال تحجبه عن الناس لا سيما عن قناصل الدول وقد اشتدت به علته استحضروا له طبيبا نمساويا اسمه ليدرورف قد اشتهر بمداواة المجانين فلما شاهد أحواله وخبر أموره حكم بعدم نجاحه فاجتمعت كلمة الوزراء وكبار الدولة على خلعه وكتبوا إلى خير الله أفندى شيخ الإسلام سؤالا فى معنى ذلك وهو:

إذا جنّ إمام المسلمين جنونا مطبقا ففات المقصود من الإمامة فهل يصح حل الإمامة من عهده؟ (الجواب) يصح والله أعلم، كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه، واجتمع الوزراء فى يوم الأربعاء عاشر شعبان وقرروا خلعه بيعته والبيعة لأخيه السلطان عبد الحميد فخلعوه فكانت سلطته ثلاثة أشهر وثلاثة أيام لا غير ووردت الأخبار بما وقع له إلى القاهرة فكان الخديو فى شغل عنها بما هو فيه من نكد الحال ولبلة البلال بسبب مطالب أصحاب الديون وقيام دولة الإنجليز لنصرتهم كما ستراه فى محله إن شاء الله تعالى.

(الفصل الخامس والعشرون)

(فى سلطنة السلطان عبد الحميد)

(ابن السلطان عبد الحميد)

وقام بالأمر بعد خلعه السلطان مراد أخوه السلطان عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد خان ببيع بالملك فى يوم الخميس حادى عشر شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية تولى السلطنة والملك فى ارتباك والفتنة قائمة والعمالات فى اضطراب فعمد إلى سن القوانين والنظامات الدستورية الحافظة لحقوق جميع الرعية على التساوى بلا فرق ولا تمييز

وكان التفريق بينهم يومئذ قد أخذ مأخذه حتى تمزقت جامعتهم وتفرقت كلمتهم وعمل التقاطع فيهم عمله فنالت الدول أصحاب الغايات السياسية من ذلك ما لم تنله بحد السيف وكرات المدافع، ورسم في خامس شوال سنة ثلاث وتسعين بتأسيس مجلس لنواب البلاد يتألف من هيتين إحداهما ينتخب أعضاؤها أهل البلاد وتسمى بمجلس المبعوثان والثانية تنتخب أعضاؤها الحكومة وتسمى بمجلس الأعيان وكان المتولى الصدارة العظمى يومئذ محمد رشيد باشا فخلعه وولاه أحمد مدحت باشا وهو صاحب ذلك الدستور وأنفذ إليه صورة من القانون الأساسى الذى أنشئ لجميع الإصلاحات الواجب العمل بها فى جميع ما وراء الباب. قال بعض الكتاب وكان هذا القانون يشتمل على مائة وتسع عشرة مادة فرسم بنشره والعمل به من يومه فى جميع أنحاء المملكة وأصدر فرمانا بذلك فى سابع ذى الحجة فكان من أحكام ذلك القانون المساواة بين صنف الرعية وعدم التفريق بين الناس كافة وتحديد اختصاص مجلسي المبعوثان والأعيان وإبطال مصادرة الناس فى أموالهم وترك القسوة والتعذيب فى تحقيق الجرائم ومنع السخرة والعبودية وعدم عزل القضاة إلا بحكم شرعى وتعيين مواجب العمال والولاية وجعل التعليم إجباريا وإعطاء الحرية للمطبوعات وغير ذلك مما لا يسعنا إيراده هنا مفصلا، قال بعض الرواة: فلم يستقر بمدحت باشا منصب الصدارة حتى داخله الغرور وجعل يعمل على خلع السلطان عبد الحميد وإرجاع السلطان مراد إلى تحت الملك ويسعى فى فصل الخلافة الإسلامية عن مسند السلطنة العثمانية وجعلها عربية فيمن بقى من قريش من أشرف مكة وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فأشارت إلى ذلك وتكلمت عنه مع التعقيد والإبهام، قلت: وهذه سياسة غلادستون زعيم الأحرار بديار الإنجليز وأمنيته منذ نعومة أظفاره وكثيراً ما كتب وخطب وحض على أخذ شعار الخلافة من ملوك آل عثمان وإعطائه إلى من بقى من قريش أو لمن يصلح للإمامة من غير قريش وكان عربياً فلما أحس السلطان عبد الحميد بذلك رسم فى حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين بخلع أحمد مدحت باشا وتنزله عن منصب الصدارة وتبعيده عن دار الخلافة وأقام محمد أدهم باشا بدله فكانت صدارة مدحت باشا شهرين لا غير. قال بعض كتاب الأخبار: ولم يبعد مدحت باشا عن دار الخلافة حتى تحركت إمارتا الصرب والجبل الأسود وجعلتا تحشد الجيوش وتعدّ المعدات وتدرّب العساكر والأجناد على فنون القتال وقدم جماعة من ضباط عسكر الروس فتطوعوا فى خدمة جيوش

الإمارتين وجعلوا يحصنون الدروب ويوعرون الطرق وعلم السلطان بما وراء ذلك فرسم بحشد جيش ضخيم على الحدود فلما تم للإمارتين ما أرادتا سير كل من نقولا وميلائن أميري الإماراتين إلى دار السلطنة يطلبان كثيراً من المطالب الطويلة العريضة فأبى عليهما السلطان جميع ما طلباه وكثر الأخذ والرد بين الطرفين وأصر كل منهم على مزاعمه فاجتازت عند ذلك عساكر الجبل والعساكر الصربية الحدود وزحفت على بلاد السلطنة العثمانية فزحف عليهم العسكر السلطاني من كل صوب وحذب ومقدمهم الغازي عثمان باشا وعبد الكريم باشا السر عسكر وقاتلوهم حتى هزموهم شر هزيمة ثم سارت طائفة من العسكر السلطاني إلى مدينة مينا شيوار ففتحوها عنوة وساروا إلى مدينتي عالكناس ودلجراد ليقاتلوها فلم يتالوا منهما تحصانتهما ومنعتهما فرحلوا عنهما وعبروا نهر موروا فلم يشعر العدو إلا وهم قد صاروا على الشاطئ الأيسر من النهر وساروا يريدون مدينة بلغراد عاصمة الصرب فهال الصربين هذا الأمر وأزعجهم جداً لخلو المدينة ممن يدافع عنها ويقاقل دونها فغبروا النهر على الفور وساروا خلف العسكر السلطاني فوقفوا للقائهم وأصلوهم نارا حامية حتى انفشلوا وتفرق جمعهم وركن أكثرهم إلى الفرار من غير ضرب ولا طعن فسارت العساكر نحو بلغراد لا يمانعهم في طريقهم ممانع وجاء الخبر بذلك إلى دار السلطنة وكان أمير الصرب قد سير إلى سفراء الدول بدار الخلافة في طلب الوساطة بينه وبين الباب العالي خوف الهزيمة والعار فكلموا السلطان في ذلك فمناهم وطاولهم حتى صارت العساكر السلطانية على أبواب بلغراد ووردت الأخبار بذلك إلى السفراء فقاموا وقعدوا وشددوا في الطلب فسير السلطان إلى مقدم عساكره بالكف عن القتال حتى يأتيه الأمر وفتح سفراء الدول باب المخابرة في أمر الصلح وكثر الأخذ والرد وترددت السفراء على الباب العالي أياماً والقلوب في اضطراب فأبى الباب العالي إمضاء الصلح إلا على ثلاث خصال، الأولى حضور أمير الصرب إلى دار السلطنة وتقديمه مواجب الخضوع والتذلل لعرش السدة الشاهانية، الثانية أن تحتل الجيوش السلطانية ثانياً جميع القلاع التي كانت الدولة سمّحت لإمارة الصرب باحتلالها مؤقتاً في ستة اثنتين وثمانين ومائتين وألف هجزية، الثالثة إبطال الرديف من إمالة الصرب وأن لا تحيى الإمالة من الآن عسكراً إلا عشرة آلاف فقط ويطاريتين من أصحاب المدافع لحفظ الأمن في الداخل فلم يرض الدول هذا الطلب واتفقوا معاً على إكراه الباب العالي على إرجاع حالة

الصرب والجبل الأسود إلى ما كانت عليه قبل الحرب وتأسيس إدارة وطنية مستقلة في البوسنييه والهرسك لتراقب مأمورى الحكومة وكذلك فى البلغار وأنفذ اللورد دربى صاحب سياسة الإنجليز يومئذ إلى الباب العالى مكتابة بذلك وأوعز إلى سفيره فى دار السلطنة بأن يلح فى الطلب فبالغ السفير فى ذلك فلم يلتفت السلطان إلى قوله وأوعز إلى مقدم الجيوش المحاربة بإعادة الحرب والقتال حتى يتمكن من تدويخ العدو ويرجعه إلى ما كان عليه من الطاعة فزحفت العساكر السلطانية على مدينة جونيس وكان بها الجنرال تشرنايف الروسى ومعظم العسكر الصربى فقاتلوهم قتالاً عنيفاً ثم هجموا على المدينة هجمة رجل واحد فتقهقر الصربيون وتركوا المدينة وأخلوا كذلك مدينة دجراد فدخلتهما طائفة من العساكر السلطانية وسارت طائفة أخرى تريد مدينة بلغراد عاصمة الصرب لقتال من بها وأخذها عنوة.

وطار الخبر بذلك إلى الآفاق وعلمت به سائر الدول فاهتموا له اهتماماً عظيماً وأنفذ صاحب سياسة الروس إلى سفيره فى دار السلطنة بطلب إيقاف رضى الحرب ومهادنة الصرب والجبل الأسود مدة شهرين فإن لم يجب الباب العالى إلى ذلك انقطع حبل العلاقات السياسية بين الدولتين وضرب لذلك أجلاً ثمانياً وأربعين ساعة فأجاب الباب العالى إلى ذلك كارهاً وقد أحس بتأهب الروس للقتال وإضرار نار الحرب وبدأت من هذا الحين تظهر دلائل الوحشة بين الفريقين وخافت سائر الدول عاقبة ذلك لا سيما دولة الإنجليز فتخابر صاحب سياستها كبار ساسة الدول فى عقد مؤتمر فى دار الخلافة لتقرير قاعدة ثابتة لراحة جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ومنع الحرب التى صارت على قاب قوسين فأجابته الدول إلى ذلك بعد أخذ ورد وسيرت مبعوثيها إلى دار السلطنة وقررت كثيراً من الطلبات التى لا يطيق الباب العالى الصبر عليها ولا الإذعان لها ثم اجتمع جمعهم فى سراى البحرية وحضر بينهم مندوبو الدولة فتكلموا فى الأمر كثيراً وطال اجتماعهم أياماً على غير طائل فرسم السلطان حينئذ بعقد مجلس من كبار الدولة وأعيان السلطنة ورؤساء الأديان كافة فلما تم اجتماعهم وكانوا زهاء المائتين عرض عليهم طلبات مبعوثى الدول فاستعظموها وقالوا هى مذلة وصغار وحط من كرامة الدولة ومقام الخلافة العظمى فلا سبيل إلى قبولها وفى المملكة من يذب عن ذمارها فراجعوهم فى الأمر فقالوا جميعاً: الحرب والنار ولا هذا الخزى والعار وكثرت جلبتهم وعلت أصواتهم ثم انصرفوا وقد سطوروا بذلك محضراً. فرفعه صفوت باشا مندوب الدولة يومئذ إلى

أصحاب المؤتمر فكبر عليهم ورحلوا عن دار السلطنة ولم يقابل منهم أحد أمير المؤمنين كما جرت العادة بذلك واختلط الحال على كبار سياسة الدول واختبط واستعصى عليهم حل هذه العقدة وقد رأوا من الباب العالي عنادا وتصميما وكانوا لا يتوقعون منه غير الطاعة والإذعان فجعلوا يمتنون الروس بالأمانى البعيدة ويهوّنون عليهم الأمر، فبينما هم على هذه الحال إذ عاقدت الدولة العثمانية الإمارة الصربية على الصلح وترك القتال على شروط رضى بها الفريقان وشاع الخبر بذلك فخشيت دولة الروس العاقبة وفطنت إلى الأمر وتحققت أنها إن لم تبادر إلى إشهار الحرب مع الدولة العثمانية قبل أن تعاقد أمير الجبل الأسود الصلح أيضاً انفضّل الروس وسقطوا فى أمرهم فحضر القيصر الدول كافة على تدارك الخطب قبل استفحاله فأجابته إلى ذلك وأرسلت إلى دار السلطنة إنذارا تتعهد فيه الباب العالي بأن تتركه وشأنه مع دولة الروس إن هو أصر على الإيابة والعناد فرد عليهم القول ردا جميلاً وصمم على مطالبه كلها فتجرد قيصر الروس عندئذ إلى التأهب والاستعداد وجعل يحشد الجيوش ويعد المعدات ويكثر من نقل المؤن والذخيرة وأنفذ إلى مندوب الباب العالي فى عاصمة الروس بأن يرجع إلى سلطانه ويأنه قد أعلن بالحرب والقتال فصار المندوب إلى دار السلطنة فما وصل الخبر إلى الباب العالي وتناقله الناس حتى قاموا وقعدوا واشتد بينهم الهرج ونودى فى جميع العسكر بالخروج وأفتى شيخ الإسلام بأنه قد حق على كل مسلم الغزو والجهاد وبأن يضاف إلى ألقاب أمير المؤمنين عند الدعاء له على المنابر لقب غازى عملا بحديث صاحب الشريعة القائل «من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا».

وورد الطلب من الباب العالي إلى الخديوى بإرسال مدد من العسكر المصرى ليسير مع العسكر المنصور لقتال الروس فاهتم بذلك الخديوى وأظهر العناية وجهز طائفة من المقاتلين ومقدمهم الأمير حسن ثالث أولاده ومعه جماعة من كبار الضباط الشراكسة فحملتهم بعض السفن إلى در السلطنة واشتركوا مع العسكر السلطانى فى عدة مواقع، قال بعض كتاب الاخبار: وقد أبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس فى عدة وقائع واشتد القتال بين الفريقين وحمى الوطيس واجتاز الروس نهر الطونة بغير قتال وقيل: بل كانوا يدفعون بالأمر الخفيف ثم ألحوا فى القتال فاحتلوا مدينة ترنوه ثم مدينة ينكوبلى وسار الجنرال جوركوا فى عسكره فاحتل مضائق البلقان التى هى أبواب مضيق شبكا واشتدوا على العساكر السلطانية شدة بالغة وجاء الخبر بذلك إلى

دار السلطنة فكبر خوف الناس وعظم اضطرابهم واشتد قلقهم وهم الكثير منهم بالجلء عن دار السلطنة فلم يتمكنوا حيث رسم السلطان فى جمادى الأولى من السنة أى سنة أربع وتسعين بجعل دار السلطنة تحت الأحكام العرفية فانكمش الناس وأخذوا حذرهم وكانوا يتوقعون هجوم العدو على المدينة فى كل لحظة واشتد الروس فى القتال والنصر ملازم لهم وجاءوا لحصار مدينة بلفنه وكان بها عثمان باشا فى ثلاثين ألفا من المقاتلين فسير إلى دار السلطنة فى طلب المدد قبل أن يتمكن الروس من تشديد الحصار وألح فى الطلب ووردت رسائله تترى على ديوان الحرب مفعمة بالخص والاستنهاض فلم يلتفتوا إلى ندائه والروس تشدد فى حصار المدينة يوما عن يوم فكان عثمان باشا يقاتلهم فى كل يوم من وراء الأسوار كى يشغلهم عن تشديد الحصار فلم يفلح ووالى الروس الهجوم على المدينة لعلهم يفتحونها فلم يتمكنوا حتى تم لهم حصارها فضيّقوا وشدّدوا ومنعوا عنها الوارد من كل جانب ووصلت الأخبار بذلك إلى السلطان فكبر عليه الأمر ورسم بخلع عبد الكريم باشا سردار العساكر السلطانية من منصبه وتنزيل درويش باشا من منصب رئاسة ديوان الحرب لظهور خيائته وسوء تدبيره وخلعوا أيضاً جماعة كثيرة من كبار الضباط وصغارهم لخيانتهم لسلطانهم وبلادهم وحكموا عليهم بالنفى والتباعد وأكثروا من التغيير والتبديل فى مراكز الجند ومواقف القتال استدراكا لما فات وسيروا المدد إلى عثمان باشا فلم يتمكن من الوصول إليه لإحاطة العدو بالمدينة من كل صوب وحذب وسيروا طائفة أخرى لتقاتل الروس على مضيق شبكا وأخرى لدفع جيوش ولى عهد القيصر الزاحفة على بلاد الدولة العثمانية واهتم السلطان لذلك وظن بلوغ الآمال وإرجاع العدو فاقتتلوا قتالاً شديداً وأبلوا بلاء حسناً ونالوا من الروس وجاء الخبر للقيصر بما حل بعسكره فسار من فورهِ فى قلة إلى ميدان القتال وقيل بل جاء جريدة وسير إلى أمير الجبل الأسود يسأله العون والمدد فجاءه فى نحو مائة ألف مقاتل وكثير من الأسلحة والكراع وقاتلوا العثمانيين قتالاً عنيفاً للغاية وانتصروا عليهم فى عدة وقائع واشتدوا فى حصار بلفنه شدة بالغة وألحوا فى قتال من بها من العساكر فكانوا لا ينكفون عن الرمى عليها فى الليل والنهار وما زال الرمى من الفريقين متراسلاً حتى نفذ ما عند العساكر السلطانية من المُن والذخيرة فنادى عثمان باشا فيمن بقى من العسكر بالخروج من المدينة ومهاجمة العدو فلما أنهم يموتون جميعاً شهداء الدفاع عن ملجأ الخلافة أو أنهم يسلمون فخرجوا جميعاً واندفعوا على خطوط العدو وثابروا على القتال والعدو يصليهم نارا حامية حتى أصابت

عثمان باشا مقدمهم جراحة فى ساقه الأيسر فسقط عن جواده وسقط جواده أيضاً ميتاً وشاع خبر موته بين الجند فانفسلوا وسقطوا فى أمرهم وهموا بالرجوع إلى المدينة فلم يتمكنوا من ذلك لدخول العدو بها ورميه بالقنابل عليهم تباعاً فصاروا بين نارين فلم يروا بدا من التسليم فآلقوا عنهم سلاحهم وسلموا بأنفسهم وكانوا قد نقلوا عثمان باشا إلى أحد البيوت القريبة من موقف القتال فقابلته أحد كبار ضباط الروس وبألف فى إجلاله وتعظيمه ونقله فى إحدى العربات إلى مدينة بلفته وبينما هو فى الطريق قابله الغرنديق نقولا وأمير رومانيا فأوقفاه وسلميا عليه وبألفاً فى ملاطفته إظهاراً لفضله وإكباراً لشهامته.

وتقوت عزيمة الروس لسقوط بلفته فى أيديهم فتقدموا نحو دار السلطنة وهم يفتحون كل ما صادفهم فى طريقهم من الحصون والقلاع فخرج عند ذلك أمير الصرب عن الطاعة ونقض ما كان بينه وبين الباب العالى من العهد ونهض إلى معاونة الروس بالرجال والمال فاشتد الأمر على الباب العالى وسدت فى وجه العساكر السلطانية أبواب الفلاح وتولاهم القشل وكادوا يقنطون من النصر والغلبة فانفذ السلطان إلى الدول الكبرى فى الوساطة بينه وبين قيصر الروس فظاولوه ولم يهتموا إلى ذلك وبقيت الحرب قائمة بين الفريقين حتى دخل الشتاء وكثرت الثلوج والأمطار وهم مع ذلك لم يتكفوا وسارت جيوش الروس تريد الإغارة على بلاد البلغار والروملى الشرقية وتقدم الجنرال چوركوا بعسكره فاجتاز جبال البلقان ونزل على مدينة صوفية تحت البلقان واحتلها ثم سار إلى مدينة فليسيه واحتلها أيضاً وسارت طائفة من عسكر الجنرال سكوليف إلى مدينة أدرنه فقاتلت من بها واحتلتها عنوة ولبثوا فى هذه المدن أياماً حتى أصلحوا حالهم وساروا فى كثرة يزيدون دار السلطنة فلم يجدوا فى طريقهم من يمنعهم أو يناوشهم الحرب لخلو الطريق حتى صاروا على أبوابها، وبينما كان الروس يتقدمون نحو دار السلطنة فى عدة وافرة كانت عساكر الجبل الأسود تقاتل مدينة انتيبارى حتى ملكتها وسارت حتى وصلت إلى ضواحي أشقودره ودخلت أيضاً العساكر الصربية مدينة نيش وأحاط الأعداء بمعظم بلاد الدولة من كل صوب ودرب وقد زاد الأمر ويلاً وشدة جلاء المسلمين من أهل البلغار وغيرهم عن أوطانهم ونزولهم على دار السلطنة وهم فى أسوأ حال من العرى والجوع فملثوا شوارع المدينة وحاراتها واهتم الباب العالى بمأكلهم ومشربهم وملبسهم ووقودهم لوقر البرد وتبرع أهل البر والإحسان بالمال للنفقة واهتموا لذلك

اهتماما عظيما ومع هذا فقد فشت بينهم الحميات الخبيثة وكثر فيهم الموات واشتد فكانوا يموتون بجانب الجدران وعلى أبواب بيوت أهل الخير فكان المنظر محزنا والخطب عظيما.

ورسم السلطان بتسيير أربعة من كبار الدولة إلى حيث الغراندوق نقولا ليكلموه في تقرير قاعدة للصلح بين الفريقين يكون من ورائها إبطال الحرب وحقن الدماء فساروا إلى قزانلق والتقوا بالغراندوق وكلموه في الأمر فأجابهم إلى ذلك وسار بهم إلى مدينة أدرنة وقد سير إلى القيصر في طلب إجارته بعقد شروط الصلح فأجابه فأمضى معهم عهدا في المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين كان فيه منح الاستقلال الإداري لإمارة البلغار والاستقلال السياسي لكل من مملكة رومانيا ومملكة الجبل الأسود وأعطاهم بعض أملاك من أملاك السلطنة وتكليف الخزينة السلطانية بنفقة الحرب فإن لم تدفعها عينا أعطت بها قلاعا أو حصونا من قلاع السلطنة ثم قرروا بينهم قاعدة للهدنة ونودي في العسكرين بالكف عن القتال فبطل الحرب وكفى الله المؤمنين شر القتال وطبروا الخبر بذلك إلى الآفاق فقامت الدول الكبرى وقعدت وترامت ظنون كبارها إلى المرمى البعيد لا سيما دولة النمسا فإنها كانت تخشى من قرب الروس من حدودها فأنفذ إمبراطورها إلى الدول في طلب عقد مؤتمر لينظر في شروط ذلك الصلح وماهيته وألح على دولة الإنجليز في ذلك فأجابته إلى ما طلب وأشارت على الدول بذلك وكلمت الروس في الأمر فطاول القيصر وحاول ولم يبلغ الدول شيئا مما وقع الاتفاق عليه بينه وبين الباب العالي وقد كان يأبى وساطة الدول وعدم تداخلهم في أمر الصلح وطال الأخذ والرد بين الدول وبعضهم أياما فأزعج الدول امتناع القيصر وعدم إجابة طلبهم وكثر القيل والقال واختلط عليهم الحال وكثرت الإشاعة بدخول الروس في دار السلطنة وعمدت دولة الإنجليز إلى استعمال الشدة والترهيب فسيرت سفن حربها إلى دار السلطنة لمنع الروس من الدنو من القسطنطينية فاجتازت الدردانيل عنوة ورسست أمام المدينة فخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وكثر لغتهم وتحذتهم في هذا الأمر ورموا رجال الدولة وكبار السلطنة بالخيانة والتدليس وقام جماعة من رجال مجلس المبعوثان يعيبون على أصحاب الحل والعقد سوء تديبرهم ويرمونهم بالمروق عن الدين فرسم السلطان بنفيهم وتبعيدهم فأقصوهم عن دار السلطنة وكثر الهرج والمرج وكادت تلتهب نار الفتنة في جوف القسطنطينية واختلط الحال على السلطان فجعل يكثر من العزل

والتولية فى مناصب الدولة وخلع الصدر الأعظم أدهم باشا وولى مكانه أحمد حمدي باشا فلم يمض على ارتقائه منصب الصدارة سوى أيام حتى خلع أيضاً وأبطل لقب الصدارة بلقب رئيس الوكلاء وعين فى هذا المنصب رفيق باشا فلم يلبث أن عزل فى خامس عشر ربيع الثانى وولى مكانه الصادق محمد باشا واشتدت الأزمة فاستحكمت الوحشة وكره الناس أصحاب الحل والعقد وبدأت تظهر دلائل الفتنة .

فلما كان سابع عشر جمادى الأولى قام رجل بخارى الأصل اسمه صعاوى من أصحاب الدسائس والفتن وهو أحد أركان العصاة التى كان ألفها الأمير مصطفى فاضل باشا أخى الخديوى إسماعيل وسماها باسم (جون ترك) أى تركية الفتاة وصرف عليها الأموال الطائلة فكان لها فى قلب هيئة السلطنة وخلع السلطان عبد العزيز وقتله وغير ذلك من الفتن والدسائس الداخلية اليد الطولى وكان الأمير مصطفى فاضل باشا هذا يتمنى أنه يرى جميع ذلك بعينه ولكنه مات قبل أن يخلع السلطان بأشهر وعمد صعاوى هذا إلى إيقاد نار الفتنة فى جوف القسطنطينية وخلع السلطان عبد الحميد وإعادة السلطان مراد إلى منصب الخلافة وكان فى دار السلطنة زهاء مائة وخمسين ألفاً من المهاجرين وكلهم ناقدون على رجال الدولة كارهون للسلطان فقام بينهم صعاوى خطيباً وكان فصيح اللسان قوى الجنان وجعل يزين لهم خلع السلطان عبد الحميد ومبايعة السلطان مراد ثم سار فى جماعة منهم فى ذلك اليوم إلى سراى جراغان التى هى مقر السلطان مراد واقتحموها من البر والبحر وقتلوا من كان على أبوابها من الحرس واتصل صعاوى بغرفة السلطان مراد وسلمه طبنجة وأخذ بيده يريد الخروج وقد علت الضوضاء وكثر صياح العامة فترامح الناس من كل صوب وحذب واشتد الخوف بهم شدة بالغة وظن السوق دخول الروس إلى المدينة وإعمالهم السيف فى أهلها فتسابقوا إلى غلق حوانيتهم وهرعوا إلى بيوتهم يدفعون عنها إيذاء العدو وجاءت طائفة من جند الحرس السلطانى إلى سراى جراغان وكبت على أصحاب الفتنة من البر والبحر وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى أتوا على آخرهم إلا من طال عمره ومات صعاوى وصالح بيك مقدماً هذه الفتنة وجاء الأمر من السلطان بالقبض على أخيه مراد ووالدته ومن عنده من الجوارى والغلمان فقبضوا عليهم ونقلوهم إلى سراى السلطان عبد الحميد محجوراً عليهم ولم يمض على هذا الحادث سوى ثلاثة أيام

حتى دس بعض أصحاب الفتنة النار في دوائر الباب العالي فاشتعلت اشتعالاً عظيماً واندلع لسان لهيبها إلى عنان السماء فأحرقت دوائر شورى الدولة وما يتبعها ودائرة الأحكام العدلية والتشريفات والداخلية وغيرها وأبادت جميع ما فيها من فرش وبسط وأوراق وغير ذلك وكبر غيظ السلطان فرسم بخلع الصادق محمد باشا من منصب رئاسة الوكلاء فخلع في سابع عشر جمادى الأولى وولى مكانه محمد رشدى باشا وأعيد إليه لقب صدر أعظم فلم يكد يستقر به المنصب بضعة أيام حتى خلع وولى مكانه صفوت باشا.

ولما دخلت سفن حرب الإنجليز ورسست أمام القسطنطينية كما تقدم القول عظم أمرها على الروس وعدوه إهانة لهم وتحقيراً فانفذ مقدم عساكرهم النازلة عند أبواب القسطنطينية في طلب دخول طائفة من عسكره إلى المدينة وشدد في ذلك فمانعته دولة الإنجليز وطال الأخذ والرد بين الروس وبقية الدول أياماً وجاء الغراندوق نقولا إلى أدرنه قبل انتهاء الهدنة فسير إليه السلطان نامق باشا ليكلمه في منع دخول عساكره إلى المدينة فلم يقبل إلا بشرط أن تحتل مقدمة جيوشه خط ييوك چكمجه وكوچك چكمجه من ضواحي القسطنطينية وأن تنسحب العساكر السلطانية إلى ما وراء ذلك مع جعل مركز المخابرات في قرية سان اسطفانوس الواقعة على بحر مرمرة وكان لم يعرف لها اسم ولا خبر قبل هذا الحادث فقبل السلطان ذلك وسار الغراندوق إلى قرية سان اسطفانوس في ألف مقاتل ونزل بها وصار يأتى إليه المدد في كل يوم حتى بلغت عساكره بالقرية المذكورة زهاء عشرين ألفاً وجاءت رسل السلطان بعد ذلك لتقرير قاعدة الصلح فطال الجدل بين الفريقين أياماً وكان رسول القيصر في عقد هذا الصلح الأمير اغتاتيف وهو من دهاة السياسيين وأقطابهم فجعل يقلب للدولة ظهر المجن فسطر شروطاً غاية في الشدة والتضييق على الدولة العثمانية وسأل رسل السلطان التوقيع عليها فطلبوا مهلة فلم يقبل وضرب لهم أجلاً فإن انقضى ذلك الأجل سارت العساكر النازلة في سان اسطفانوس إلى القسطنطينية ودخلتها عنوة فراجعهم رسل السلطان فلم يقبل وكان ذلك الأجل الثالث من شهر مارس الذى هو يوم عيد قيصر الروس فجعل رسل السلطان يتقبن في تلك الشروط كى لا يحل الأجل المضروب إلا وقد أتوا على آخرها فلما كان ثالث الشهر المذكور أى ثامن عشر صفر سنة خمس وتسعين جمع الغراندوق نقولا جيوشه بين مشاة وفرسان وأوقفهم موقف الاستعراض إجلالاً لعيد القيصر ولبت يتنظر ما سيكون من

رسل السلطان فلما أبطا عليه الجواب سار إلى حيث رسل السلطان وطلب منهم الجواب في تلك الساعة وإلا سارت جميع جيوشه إلى دار السلطنة بلا مهل فهاهنا الرسل هذا الأمر وما زال الأمير اغنائيف يتهددهم حتى يتم توقيعهم على الشروط ولحق اغنائيف بالغراندوق ومعه شروط الصلح وكان الغراندوق ممطيا جواده أمام العساكر وحوله جماعة من كبار الجنود والحرس فناوله اغنائيف شروط الصلح فلما تناولها صاح من كان حوله من كبار العسكر فصاح العسكر جميعاً بأصوات الفرح وترجل جميع ضباط الجنود عن خيولهم وخرروا على الأرض سجداً لله عز وجل الذي أتاح لهم هذا النصر المبين وجاء أحد القيسيين فصلى بالعسكر صلاة الشكر وهم جميعاً سجدوا وطير الغراندوق الخبر إلى القيصر بما جرى ففرح فرحاً لا يوصف ووردت على الغراندوق رسائل التهاني من كل فج عميق، وكان مما أخذ عهداً وميثاقاً بين الدولتين بعد تلك الحرب الهائلة واشتهر بمعاهدة سان اسطفانوس هو الشرط الآتي ترجمته بعد: إن حضرة قيصر الروسية وحضرة سلطان المملكة العثمانية قد عين كل منهما مرخصين لأجل تحرير مقدمات الصلح رغبة في تأمين بلادهما ورعاياهما من وقوع ما يخل بالراحة والأمنية فيما بعد وطلباً لحصول فوائد المسألة والراحة العمومية حالاً فالمرخصان اللذان نصبهما القيصر أحدهما (الكونت نقولا اغنائيف) وهو حائز رتبة أمير اللواء ياور القيصر ومن أعضاء المجلس الخصوصي وعنده نشان روسي مرصع وهو نشان صان عكساندر نويسكي ونياشين أجنبية متعددة والمرخص الآخر (موسيو نيلدوف) من قرناء الدائرة الإمبراطورية ومن أعضاء شورى الدولة وعنده نشان صانت آن من الطبقة الأولى مع السيوف المختصة به وعدة من النياشين الروسية والأجنبية والمرخصان اللذان عينهما حضرة السلطان أحدهما (صفوت باشا) ناظر الأمور الخارجية الحامل النيشان العثماني المرصع والنيشان المجيدي وكلاهما من الطبقة الأولى والنياشين الأجنبية المتنوعة والثاني (سعد الله بيك) سفير الدولة العلية في مركز إمبراطورية ألمانيا وهو حامل النيشان المجيدي من الطبقة الأولى والنيشان العثماني من الطبقة الثانية فهؤلاء المرخصون من بعد أن اطلعوا على المحررات الرسمية المتعلقة بكيفية ترخيصهم ووجودها مطابقة للأصول والعادات قرروا المواد الآتية ذكرها فيما بينهم.

المادة الأولى: أنه بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة وبمقتضى الشروط والوجوه الآتية ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العلية والجبل الأسود وذلك

لأجل إنهاء المنازعات والمصادمات المتتالية الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل
دوبروزيجه على الوجه الذى عينه المؤتمر الذى كان عقد فى الآستانة إلى
(غوريتوبيلكه) والحد الجديد يستطيل إلى (غاجقه) وعلى هذا (توتركيا غاجفو) تبقى
فى تصرف الجبل الأسود وتمتد الحدود أيضاً من مجمع أنهر (بيوه وتاره) وتمر من نهر
(درين) إلى جهة الشمال وتنتهى إلى مجمع هذا النهر مع النهر المسمى (ثيم) وأما
حدود الجبل المذكور الشرقية فتبتدىء من نهر (ثيم) إلى (بريرة بولره) ومن (روستراق
إلى سوق بلانيا) ويهور وروستراق تبقيان داخل الجبل فعلى ذلك يكون تخطيط
الحدود هكذا أعنى من الجبال المتسلسلة الجامة لروغوه بلاوا وكورنره إلى باقلنى ومن
رؤوس جبال قوبر يونيق وباباور وبور وحذاء حدود بلاد الأرناؤط إلى أعلى ذروة
جبل (بروقلنى) ومن هذه النقطة إلى (كنيب إيسقاشيق) وينتهى الحد على الخط
المستقيم إلى عين الماء فى جيستى هوتى ويفصل فيما بين جيستى هوتى وجيلستى
فاسترانى ويتجاوز ماء أشقوره إلى أن ينتهى لنهر بويانه. وهكذا مع النهر إلى مصبه
فى البحر وبموجب ذلك تبقى نكسيك وغاجقه وأشوبزى وبورغوربيجه وزابلياق وباز
ضمن الجبل المذكور وقد يصير تعيين حدود الجبل قطعياً بمعرفة لجنة مركبة من بعض
مأمورى دول أوروبا بشرط أن تكون وكلاء الباب العالى والجبل الأسود معهم أيضاً
فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وأمنية البلاد الكائنة فى الجهتين ثم تشير فى
الخريطة إلى التعديلات التى ترى لها لزوماً وتعلم أنها هى الحق وتوضح فى ذلك ما
رأته من صالح الجهتين ثم لا يخفى أن أمر سير السفن فى نهر بويانه لم يزل يجلب
التزاع فيما بين الباب العالى والجبل الأسود فلأجل قطع هذا النزاع سيصير تحرير
نظام ذلك بمعرفة اللجنة المذكورة.

المادة الثانية: أن الباب العالى يثبت استقلال إمارة الجبل الأسود على الوجه
القطعى ثم فيما يأتى تتقرر فيما بين دولة الروسيه والدولة العلية والإمارة المذكورة
كيفية المناسبات التى ستكون بين الباب العالى والجبل وقضية تعيين وكلاء من طرف
الإمارة فى الآستانة والبلاد العثمانية المقتضية ويتقرر أيضاً أمر إعادة أرباب الجنائيات
الذين يفرون من بلاد الدولة العلية إلى الجبل الأسود ومن الجبل إلى بلاد الدولة
وأمر إطاعة أهل الجبل المقيمين أو المارين فى بلاد الدولة العلية وانقيادهم إلى
نظامات ومأمورى الدولة طبق الحقوق الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة
التي كانت تجرى بحقهم فى بلاد الدولة وستعقد أيضاً مقابلة فيما بين الباب العالى

والجبل الأسود لأجل توضيح وتنظيم المسائل المتعلقة بالإنشاءات العسكرية فى قرب الحدود. وأحوال ومناسبات الأهالى المتجاوزة هناك وإذا اختلف الباب العالى مع الجبل الأسود فى بعض مسائل ولم يمكن فصلها باتفاقهما فتحكم بينهما دولتا الروسيه وأوستريا ومن بعد هذه المعاهدة إذا وقعت مباحثة أو مصادمة فيما بين الباب العالى والجبل الأسود ما عدا المطالب الملكية الجديدة ينبغى أن يفوضا أمرهما إلى دولتى الروسيه وأوستريا وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر أنه من بعد إمضاء مقدمات الصلح إلى عشرة أيام يجب على عساكر الجبل الأسود أن تخرج من البلاد الغير داخله ضمن الحدود المذكورة أعلاه.

المادة الثالثة: أن إمارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة لهذه المعاهدة مجرى نهردرين وتبقى كوجك أزورنيق وسقار فى إدارة الصرب ويمتد هذا الحد إلى منبع نهر رازده الكائن بجوار استايلاق على حسب الحدود القديمة وتبتدىء الحدود الجديدة من هنا أعنى مع مجرى نهر رزوه إلى نهر راسقه ومنه إلى يكي بزار ومن يكي بزار يصعد الخط الفاصل ويمر من جوار قريتى مهنتره وارغويج إلى أعلى النهر المذكور حتى ينتهى إلى منبعه ويمتد إلى بوسور بلاتينا الكائنة فى وادى إيبار وينزل مع الماء الجارى الذى يصب فى النهر المذكور ومنه يسير مع أنهر إيبار وسيديج ولاب إلى منبع نهر ياتنسه الكائن فى جبل عزايا شينجه بلاتينا وبعدها يمر من التلال الفاصلة بين نهري قريوه وترينجه ومن أقصر الطرق الموجودة على مصب نهر ميواواجقه حتى ينتهى أيضاً إلى نهر ديرنجه ويسير مع هذا النهر ويقطع ميواواجقه وبلاتينا ويصل إلى جهة مواروه فى قرب قرية قاليمانس ومن هنا يسير إلى قرب قرية استابوجى ويجتمع هناك مع نهر بلوسينه وهكذا مع النهر إلى مواروه ويمتد من النهر إلى جهة فوق حتى يصل إلى قوتقاويجه ويقطع سوق بلاتينا ويجتمع بنهر نيساوة ويتصل بقرية قرونراج ومنها يمر من أقصر الطرق ويمتد على حدود الصرب القديمة إلى جنوب شرق قره ول بور وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونة وتقرر إخلاء اطله قلعة وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مأمورى الدولة العلية والصرب لأجل تعيين خط الحدود على الوجه القطعى فى برهة ثلاثة أشهر ويكون ذلك بمعاونة مأمورين من طرف دولة الروسيه وهذه اللجنة تفصل أيضاً المسائل المتعلقة بجزاير نهر درين وتقطعها وحينما تبتدىء هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والصقالية ينبغى أن يكون وكيل واحد من طرف الصقالية يشترك معهم فى هذا الأمر.

المادة الرابعة: أن المسلمين الذين لهم أملاك في البلاد التي صار إلحاقها بالصرب إذا لم يريدوا الإقامة هناك فلهم الخيار إن أحبوا أجروا أملاكهم وإن أحبوا أقاموا وكلاء من طرفهم لأجل حفظها واستغلالها والمسائل المتعلقة بأموالهم غير المنقولة تفصلها لجنة مركبة من مأموري الدولة العلية والصرب بإعانة مأمورين من طرف دولة الروسيه في ظرف ستين وهذه اللجنة تفصل أيضاً في برهة ثلاث سنين أمر فراغ الأملاك الميرية والموقوفة والمسائل المتعلقة ببعض الأشخاص الذين لهم علاقة ونفع في الأملاك المذكورة وذلك يكون عقيب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العلية والصرب والأناس المقيمون أو الذين يجولون في بلاد الدولة من تبعة الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكلية بمقتضى الحقوق الكائنة بين الدول وقد تقرر أنه من بعد إمضاء مقدمات الصلح إلى خمسة عشر يوماً يجب على عساكر الصرب أن تخرج من البلاد التي ليست داخلية ضمن الحدود المذكورة أعلاه.

المادة الخامسة: أن الباب العالي قد أثبت استقلال رومانيا أعنى المملكتين ولها أن تطلب من الدولة العلية تضمينات الحرب وتجرى المذاكرة في هذا الشأن فيما بينهما وعند ما تنعقد المعاهدة بين الدولة العلية ورومانيا رأساً تنال تبعة رومانيا الأمن والامتياز طبق تبعة دول أوربا.

المادة السادسة: تقرر أن تكون البلغارستان أعنى بلاد الصقالبة إمارة مختارة في إدارتها تدفع مبلغاً معلوماً إلى الدولة العلية ويكون مأمورو الحكومة والعساكر المالية من المسيحيين ويصير تعيين حدودها على الوجه القطعي بمعرفة لجنة مركبة من مأموري الدولة العلية والروسية وذلك قبل خروج عساكر الروسيه من الروم إلى هذه اللجنة تبين هناك في الخريطة التعديلات التي ينبغي إجراؤها وتلاحظ ملية أكثر الأهالي وتوضح المنافع المحلية تطبيقاً لقن تخصيص الأراضي وتقرر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة بخريطة وجعلها أساساً في قطع الحدود، وخط الحدود يتبدى من حدود الصرب الجديدة ومن غرب ورا نثره إلى سلسلة الجبل الأسود ومن جهة الغرب يمر من نهر دبو جينجه إلى درنية غرب قومانونه وقوچانى وقلقان ولن إلى جبل قوارب ومن هناك يمر من نهر بوجيجيه إلى درنية ويلتفت إلى جهة الجنوب إلى حدود غرب قضاء (أخرى) حتى ينتهى إلى جبل ليناس ومنه يمر من غربى كوريجه واستادره ويتصل بجبل غراموس وكذلك يمر من ماء فاستريا ويلتصق بنهر موغلينجه ويسير مع النهر إلى يكچه ويمر عن نهر واردا يكچه ومن مصب نهر وارد وقرية غاليقو وإلى قراء يارغه وصارى كوى وهناك يمر من وسط عين الماء المعبر عنه

بشيك كل إلى مصب نهري أستروما وقره صو ومن السواحل إلى بوروكل ويمتد إلى الشمال الغربى ويمر على سلسلة جبل رودوب إلى جبل جالتبه وأوشو ويمر من جبال أشك قولاج وجيلون وقره قولاس وجيقلر إلى نهر أرده ويلتفت إلى جهة الجنوب ويمر من قرامسو كوتلى وقره حمزة وارناد كوى وأقارجى وأبنجه إلى تكة دره سى فى قرب أدرنه ومن تكة دره سى وجورلى دره سى إلى لوله برغوئى ومن هنا وعن نهر جوجق دره إلى قرية سوركن ومنها إلى التلال ويقطع حكيم طاييه سى حتى يتصل بساحل البحر الأسود ويتبدى أيضاً من صقالبه السواحل ويمر من شمال حدود لواء طولجى ومن فرق راسوه إلى نهر الطونة.

المادة السابعة: أن أمير الصقالبه يصير انتخابه من طرف الأهالى بالحرية التامة والباب العالى يشته بانضمام آراء الدول ولا يجوز انتخاب أحد من أقارب دول أوربا الجالسين على سرير الملك للإمارة المذكورة وحينما تتحل الإمارة كذلك يكون انتخاب الأمير الجديد على هذا المنوال وهاته الشروط وقد تقرر أنه ينبغى من قبل انتخاب الأمير أن يجتمع مجلس مشيرى الصقالبه إما فى قلبه وإما فى طربوه تحت نظارة مأمورين من طرف الروسيه وفى حضور مأمورين من طرف الدولة العلية وتؤسس نظمات هذه الإدارة المستقلة توفيقاً لأمثالها أعنى لنظمات المملكتين التى تنظمت فى سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية بعد انعقاد مصالحه أدرنه وعند تأسيس تلك النظمات ستمير وقاية حقوق ومنافع الأهالى من المسلمين والروم والأولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع الصقالبه وتقرر أيضاً إحالة تأسيس هذه الإدارة الجديدة فى البلغار ستان مع ما يلزم من النظر فى صور إجرائها لعهد مأمورين موظفين من طرف دولة الروسيه من هنا إلى ستين وفى انقضاء السنة الأولى من تأسيس الإدارة الجديدة إذا لم يحصل اتفاق بهذا الشأن فيما بين الروسيه والباب العالى ودول أوربا يكون للدول المشار إليهم حق أن يوظفوا مأمورين يرفق مأمورين الروسيه.

المادة الثامنة: ليس لعساكر الدولة العثمانية حق بعد هذا للإقامة فى البلغارستان وسيضير هدم القلاع القديمة الكائنة هناك بمعرفة الحكومة المحلية وأن الباب العالى له حق أن يتصرف فى الأدوات الحرية الموجودة فى قلاع الطونة التى صار إخلاؤها من العساكر بموجب سند المشاركة الذى تحرر فى حادى ثلاثين كانون الثانى والآلات الحرية الكائنة فى مدينتى شمنى ووارنه وجميع الأملاك المتعلقة بالحكومة العثمانية

كيفما شاء وتبقى عساكر الروسية فى البلغارستان مقيمة إلى أن ينتهى ترتيب العساكر المالية المحلية الكافية لحفظ الراحة وتوطيد الأمانة وإذا اقتضت الحال يقومون فعلا بإعانة المأمورين وسيصير تعيين عدد العساكر المالية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولة الروسية وأن مدة إقامة عساكر الروسية فى البلغارستان تكون ستين والعساكر التى تبقى هناك بعد خروج جميع العساكر الروسية من بلاد الدولة العلية تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها خمسون ألفا ومصروف هؤلاء العساكر يكون على بلاد الصقالبة ويكون لها طرق مراسلات فى المملكيتين فى شطوط البحر الأسود من جهة وارنه وبرغوس وفى مدة إقامتها هناك يكون لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة.

المادة التاسعة: أن المرتب السنوى الذى يلزم على البلغارستان إيفاءه للدولة العلية يتسلم إلى البنك الذى يعينه الباب العالى وهذا البنك يصير تعيينه بمعرفة دولة الروسية والدولة العلية وسائر الدول وذلك فى انتهاء السنة الأولى من ابتداء إجراء أصول الإدارة الجديدة ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر لإيراد البلاد والأراضى التى تكون فى إدارة الإمارة على الحساب المتوسط والبلغارستان تتعهد بالقيام بالتعهد الذى على الدولة العلية إلى شركة سكة الحديد فى طريق وارنه وروسجق غب المذاكرة المذكورة ومع الباب العالى وإدارة الشركة المذكورة ومسئلة السكة الحديد الأخرى الموجودة ضمن الإمارة يصير فصلها بمعرفة الدولة العلية وحكومة الصقالبة وإدارة الشركة.

المادة العاشرة: أن الباب العالى له حق أن ينقل ويجلب عساكر ومهمات وذخرة من الطريق المعينة فى داخل البلغارستان إلى الإيالات العثمانية التى وزاء البلغارستان ولأجل عدم وقوع مشاكل فى هذا الخصوص وتأمين الإيجابيات العسكرية العثمانية سيوضع نظام بالاتفاق مع الباب العالى والإمارة من ابتداء تعاطى هذه المعاهدة إلى ثلاثة أشهر فى ذلك وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظامية فقط دون الباشبورق والجراكسة والعساكر المعاونة وللباب العالى كذلك أن يتعاطى البوسطة من طريق الإمارة ويستعمل مسالك التلغراف فى مخابراته فهذان الامران كذلك يصير تعيينهما وتنظيمهما فى المدة والشروط المحررة أعلاه.

المادة الحادية عشرة: أن المسلمين وغيرهم من أصحاب الأملاك إذا أرادوا الإقامة فى خارج الإمارة لهم أن يحفظوا أملاكهم ويؤجروها أو يفوضوا أمر إدارتها إلى من

يريدونه ثم إن مأمور الدولة العلية ومأمور الصقالبة يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسية ويفعلون المسائل المتعلقة بتصرف الأملاك وفي منافع مسلمى الصقالبة وذلك يكون فى ظرف سنتين والأملاك الميرية والموقوفة يصير تعيين أمرها إما بالبيع وإما باستعمالها على الوجه الذى يكون فيه النفع الزائد لجهة الباب العالى ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة فى السنتين المذكورتين والأراضى التى تبقى بدون صاحب عند انتفاض السنتين يصير طرحها فى المزاد وتباع ويؤخذ ثمنها ويدفع إلى أيتام وأرامل المصابين فى الأحوال الأخيرة من المسلمين والمسيحيين.

المادة الثانية عشرة: أن القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعاً ولا يبقى من بعد هذا على سواحل الطونة قلعة مآ مطلقاً ولا يجوز وجود سفن حربية فى مياه رومانيا والصرب والصقالبة سوى السفن الصغيرة والفلوكات المختصة والمستعملة فى أمور الضبط فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونة المختلطة تبقى بتمامها على أصلها.

المادة الثالثة عشرة: أن الباب العالى يتعهد بتنظيف البحر فى مضيق سنه وإرجاعه إلى حاله السابق ليصلح لمرور السفن منه ويتعهد أن يضمن العطل والضرر الذى حصل للتجار بسبب منع مرور السفن من نهر الطونة مدة الحرب وسيصير خصم خمسمائة ألف فرنك من أصل دين لجنة الطونة إلى الباب العالى لأجل هذا الأمر.

المادة الرابعة عشرة: أن الإصلاحات التى تبليغت إلى مرخص الباب العالى فى أول جلسة مؤتمر الآستانة ينبغى حالاً وضعها فى موقع الإجراء فى بوسنه وهرسك مع التعديلات التى ستقرر فيما بين دولتى الروسية وأوستراليا ويجب أن لا يطلب من هاتين الإيالتين بقايا الأموال الميرية وأن لا يؤخذ شئ من الواردات إلى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها فى الاحتياجات المحلية ويسد بها عور الأهالى والعيال الذين أصيبوا فى الأحوال الأخيرة ومن بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المبلغ الذى يلزم على الأهالى دفعه فى كل سنة إلى الحكومة المركزية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولتى الروسية وأوستراليا.

المادة الخامسة عشرة: يتعهد الباب العالى بإجراء أحكام النظام الأساسى الذى وضع فى سنة ثمان وستين وستمائة وألف المختص بجزيرة كريد طبقاً لمطلوب الأهالى الذى بينوه مقدماً ويلزم إجراء الإصلاحات المماثلة لنظامات كريد فى ترحاله

ويانيه وفي سائر جهات الروم إلى التي ليس لها نظمات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الأهالي المحلية في كل إيالة لأجل ترتيب وتأليف النظمات الجديدة ثم يصير تقديمها إلى الباب العالي وهو يتذاكر مع دولة الروسية في ذلك .

المادة السادسة عشرة: أن خروج عساكر الروسيه من الأرمنستان وإرجاع تلك البلاد إلى الدولة العلية يمكن أن يفضى إلى المناقشة والاختلاف فيما بينهما فلهذا يتعهد الباب العالي حالا بإجراء الإصلاحات على حسب الاحتياجات المحلية في الولايات التي سكانها أرمن وتأمين المسيحيين من تعدى الاكراد والجراكسة .

المادة السابعة عشرة: أن الباب العالي سيعلم العفو العمومى عن المتهمين في الأحوال الأخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك .

المادة الثامنة عشرة: أن الباب العالي يتعهد بالتبصر بعين الدقة إلى ما بينه وكلاء الدول المتوسطة في خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الإيرانية على الوجه القطعى .

المادة التاسعة عشرة: أن مبالغ التضمينات الحرية التي طلبها حضرة قيصر الروسيه هي في مقابلة الأضرار والخسائر التي تكبدتها دولته بسبب هذه الحرب والباب العالي قد تعهد بدفعها فمن هاته المبالغ أولا - تسعمائة مليون روبل في مقابلة مصروف العساكر والأدوات الحرية والأشياء التالفة . وثانيا : - أربعمائة مليون روبل لأجل الأضرار الحاصلة في سواحل بلاد الروسية الجنوبية وفي إخراجات البضائع التجارية وفي طرق الحديد . وثالثا : - مائة مليون روبل في مقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس . ورابعا - عشرة ملايين روبل لأجل الخسائر التي حصلت لتبعة الروسية المقيمين في الممالك العثمانية ولتأسيساتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن مليار واحد وأربعمائة مليون وعشرة ملايين روبل يعنى مائتين وخمسة وأربعين مليونا ومائتين وسبعة عشر ألفا وثلثمائة وأحدا وتسعين ليرة عثمانية وريال مجيدى أبيض ونصف، هذا وأن القيصر المشار إليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال وتأمل في مقاصدها التي نوهت عنها في هذا الشأن فلذلك قد قبل أن تترك الدولة العلية الأراضي المحررة أسماؤها أدناه عوضا عن القسم الأكثر من المبالغ المذكورة . أولا - لواء طواحي يعنى قضاء كيليا وسنه ومحموديه وإيساقجى وياجين وبابا طاغى وخرسوه ولوستنجه ومجيدية والجزائر الكائنة في نهر طونة قد تركتها الدولة العلية جميعا إلا أن الدولة الروسية

ليس لها فكر بإلحاق هاته البلاد إلى ملكها بل إنها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارايا التي أخذت منها بموجب معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف فحدود قطعة بسارايا من جهة الجنوب طرف من أراضي كييليا ومصب نهر الطونة والجهات التي يصطادون بها السمك في النهر يصير تفريقها بمعرفة مأمورين من طرف الروسية ومن حكومة المملكتين في برهة سنة واحدة اعتباراً من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة.

ثانياً - أردهان وقبرص وباطوم وبايزيد مع الأراضي المحاذية لها إلى جبل جوغانلى سيصير تسليمها إلى دولة روسية وحيث الحدود الفاصلة تكون هكذا أعنى يتدنى الخط الفاصل من الجبال التي فيما بين المياه الجارية والمنصب في نهر هويا وجوروق ويمر من الجبال المتسلسلة الواقعة في جنوب قضاء وارتوين ومن جوار قريتي والات وبشاكيت ومن فوق درونيسك وكفى وهو جسه زاد ويحقين صاغ ومن الجبال الفاصلة للمياه التي تختلط بنهرى تورقم وجورف ومن فوق قراء يالى وهين ولم كليسا إلى أن ينتهى لنهر تورتم ومن هناك يمر من سيورى طاغ ومن مضيق سيورى طاغ ويتصل بقرية نريمان ويلتفت إلى وجهة الجنوب حتى يصل إلى زوين ومن زوين يمر من غربى طريق أردوست خراسان إلى جنوب جبل جوغانلى ويتصل بقرية كيلجمان ومنها يمر من جبل تريا ومن قرية خمير ومن أون رست مسافة ومن تلال طاندور ومن جنوب وادى بايزيد وينتهى فى الجهة الجنوبية من قازلى كول وهذا المحل هو الحد الفاصل قديماً فيما بين حدود أرض الدولة العلية وأراضي دولة إيران وإن الأراضي التي صار إلحاقها بممالك الروسية ومذكورة فى الخريطة المربوطة لهذه المعاهدات يصير تعيين حدودها قطعياً بمعرفة مأمور من طرف الروسية ومأمور من طرف الدولة العلية وهما يلاحظان قواعد تخطيط الأراضي وأسباب تأمين حسن الإدارة.

ثالثاً: إن الأراضي التي صار تركها للدولة الروسية كما هو محرر أعلاه قد اعتبرت بمبلغ مليار ومائة وعشرة ملايين روبل وأما الباقي من التضمينات وهو ثلثمائة مليون روبل ما عدا العشرة ملايين روبل التي هى فى مقابلة خسائر تبعة الروسية وتأسيساتها فستفق دولة الروسية مع الدولة العلية على قضية دفعها وتأمين وفائها.

رابعاً: إن العشرة ملايين روبل التي تخص التبعة الروسية ومؤسساتها يصير تسويتها هكذا. أعنى أن سفارة الروسية فى الاستانة تجرى التدقيقات اللازمة بهذا الشأن على طلبات أرباب الشأن وتعرض الكيفية على الباب العالى وهو يجرى التسوية على مقتضى تبليغات السفارة.

المادة العشرون: أن الباب العالى يتعهد بأن يستعمل التدابير المؤثرة سريعاً فى حسم الدعاوى المتنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسية وأنه إذا اقتضى الأمر يدفع تضمينات وينفذ أحكام الإعلانات.

المادة الحادية والعشرون. أن أهالى البلاد التى سلمت إلى الروسية إن أرادوا الهجرة منها لم أن يبيعوا أملاكهم وأراضيههم ويهاجروا وقد أعطى لهم مهلة فى ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة فالذين لا يبيعون أملاكهم فى هذه المدة ولا يهاجرون يدخلون فى حكم الروسية عند انقضاء تلك المدة. والأملاك الأميرية والموقوفة يصير بيعها على حسب الأصول التى يعينها مأمور الروسية ومأمور الدولة العلية فى بحر السنين المذكورة وهما يتممان إيفاء كيفية نقل الأدوات الحربية الموجودة فى المحلات التى هى الآن فى يد الروس سواء كانت من البلاد التى سلمت إلى دولة الروسية أو غيرها.

المادة الثانية والعشرون: أن القسيسين والزوار الذين يسكنون أو يسبحون فى الممالك العثمانية فى الروم إلى الأناضول من تبعة الروسية سينالون الحقوق والامتيازات التى ينالها القسيسون والزوار من تبعة سائر الدول سوية وسفارة الروسية الكائنة فى الاستانة وقناصلها يحمون حقوق أولئك الأشخاص وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودون فى الأماكن المقدسة وبالأخص فى اينورز فهم حائزون حقوقهم التى كانوا حائزين عليها فى السابق ويحفظون الديارات الثلاثة الكائنة فى اينورز مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديارات والمؤسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هناك سوية.

المادة الثالثة والعشرون: أن المعاهدات والمقاولات التى كانت موجودة فيما بين الدولة العلية والروسية المتعلقة بالتجارة المحاكمة وبتبعة الروسية المقيمين فى بلاد الدولة العلية وتعطلت أحكامها بسبب هذه الحرب ينبغى أن تجرى أحكامها كما فى السابق وأن دولتى الروسية والعثمانية قد أعادتا العلاقات إلى سابق مجراها قبل هذه الحرب فى الأمور التجارية وغيرها فيقتضى إحكام عرى المعاهدات والمقاولات المذكورة ما عدا المواد التى نسختها هاته المعاهدة.

المادة الرابعة والعشرون: أن خليج الاستانة وخليج جناق قلعة سواء كان فى زمن الحرب أو زمن الصلح يكون مفتوحاً للسفن التجارية التى تريد المرور منه إلى بلاد الروسية من الدول التى تكون على الحيادة والباب العالى ليس له من بعد هذا

أن يستبد بمراقبة الشطوط الواقعة فيما بين البحر الأسود وبحر الأراق المخالف لمضمون معاهدة باريز التي صار إمضاؤها فى رابع أبريل سنة ١٨٥٦ ست وخمسين وثمانمائة وألف.

المادة الخامسة والعشرون: أن عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العلية الكائنة فى أوربا بالروم إلى ما عدا البلغارستان وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعى إلى ثلاثة أشهر هذا وأن العساكر المذكورة لهم أن يأتوا إلى الأساكن الموجودة فى البحر الأسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب فى السفائن التى تحضرها أو تستأجرها دولة الروسية حتى لا يكونوا مجبورين على تحديد مدة الإقامة فى الممالك العثمانية وفى رومانيا وأما خروج عساكر الروسية من الأناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعى بسة أشهر ولهم أن يأتوا إلى طرايزون لأجل الركوب فى السفن ومن هناك يسافرون إلى القريم أو القوقاى.

المادة السادسة والعشرون: أن قواعد الإدارة والأوامر التى وضعتها دولة الروسية فى البلاد التى دخلتها عساكرها والتى ينبغى تسليمها إلى الدولة العلية بموجب هذه المعاهدة تكون باقية وجارية إلى حين قيام العساكر منها وليس للبواب العالى المشاركة فى الأحكام ولا للعساكر العثمانية الدخول إليها قبل ذلك بناء على هذا فإن أمير عساكر الروسية يخبر الضابط الذى يعينه البواب العالى عن سفر عساكر الروسية وليس للبواب العالى أن يجرى الأحكام من قبل أن تسلم له القلاع والإيالات.

المادة السابعة والعشرون: أن البواب العالى لا يجازى أحدا بسوء من تبعته الذين لهم علاقة مع دولة الروسية فى زمن الحرب وليس لمأمورى الدولة العلية أن يمنعوا أو يوقفوا أحدا من الأهالى الذين يرغبون أن يسافروا مع العساكر الروسية.

المادة الثامنة والعشرون: أن أسرى الحرب يصير إرجاعهم تحت ملاحظة مأمورين مرتبين من طرف الدولتين وذلك عقب تعاطى مقدمات الصلح وهؤلاء المأمورون يسافرون إلى أودسة وسيواستابول وأما مصروف أسراء العساكر العثمانية فتدفعه الدولة العلية فى ظرف ست سنوات على ثمانية عشر قسما بموجب الدفتر الذى يحرره المأمورون المذكورون وأما قضية مبادلة الأسرى فيما بين حكومتى دونيا والصرب وإمارة الجبل الأسود فيصير إجراؤها على هذا الأساس إلا أنه يصير تنزيل العدد الذى تستلمه الدولة العلية من العدد الذى تستلمه من الأسرى.

المادة التاسعة والعشرون: أن حضرة إمبراطور الروسية والحضرة السلطانية

سيثبتون هذه المعاهدة ووثائق الاتفاق تكون معاطاتها في سان بطرسبورج في ظرف خمسة عشر يوما أو بوجه أسرع من ذلك إن أمكن وكذلك يجرى التصديق رسميا على الشروط المذكورة في هذه المعاهدة على حسب الأصول الجارية في المعاهدات الصلحية وأن الدولتين المتعاهدتين من تاريخ تعاطي المعاهدة تعدّان أنفسهما رسميا بأنهما متعهدتان بأن مرخصى الطرفين قد أمضوا هذه المعاهدة كما يأتى تصديقا لمضمونها (انتهت كما رقمها صاحب الجواب) ثم جاء بعد ذلك ما نصه : إن معاهدة مقدمة الصلح التى صار إمضاؤها فى هذا اليوم أعنى فى تاسع عشر شعبان وثالث إدار سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية قد حصل سهو بها فى الجملة الأخيرة من المادة الحادية عشرة فلذلك زيدت العبارة الآتية واعتبرت جزءاً متمماً للمعاهدة المذكورة وهى :

أن الذين يقيمون أو يسبحون فى الممالك العثمانية من أهالى البلغارستان يكونون تابعين للقوانين العثمانية انتهى .

قال بعض كتاب الأخبار : فلم تكن لترضى هذه المعاهدة سكان البلاد المنسلخة عن السلطنة العثمانية ولا بقية الدول وعلى الخصوص منها دولة الإنجليز فإنها أصبحت وكان الطير على رؤوس كبار سياستها فقد هاجوا وماجوا وأوعزوا إلى دولة النمسا فقام أصحاب الكلمة فيها يطالبون بحل عقد هذا التحالف ويرمون دولة الروس بالخديعة والمكر ويقولون لا سبيل إلى ترك بوسنة وهرسك مضغة لينة لغيرنا ولا بد من أخذ مينا سلاتنيك لتغنينا عن تريستا التى أكثرت إيطاليا تهديدنا ووعيدنا بسببها وكتب كبير سياسة الإنجليز إلى دولة الروس يقول إن كل عمل تأتبه الروسية مع الدولة العلية مخالفا لنصوص معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف المبرمة فى عاصمة الفرنسيين لا يعمل به إلا برضا جميع الدول الضامنة لتلك المعاهدة وسألت دولة النمسا بقية الدول فى عقد مؤتمر فى مدينة برلين عاصمة الألمان للنظر فى مدعياتها فأجابتها إلى ذلك واشترطت دولة الإنجليز أن يكون لأعضاء هذا المؤتمر حق النظر فى جميع مواد معاهدة سان اسطفانوس والإتيان عليها من سائر أبوابها فمانعت دولة الروس فى ذلك وشدت فى المنع وعظم الخلاف بين الروس والإنجليز واستفحل الخطب وجعل كل فريق يتأهب لقتال الآخر وكثر اهتمام الإنجليز بحشد الجنود وإعداد معدات القتال وجعل سفن خربهم على قدم الاستعداد أمام جزيرة مالطة واستقدموا عدة طوائف من عساكرهم الهندية إلى الجزيرة المذكورة كى يكونوا على مقربة من دار السلطنة عند الحاجة إليهم وبالغت دولة الروس كذلك فى حشد

الجنود وتسليح الكثير من سفن التجارة بالمدافع الضخمة لتسحق بها سفن تجارة الإنجليز عند انتشاب الحرب بين الفريقين واشتد الخوف وعم الاضطراب وقامت الفتنة في البلغارستان وخرج من بها من المسلمين على الروس وقاتلوهم وتحصنوا في الجبال فعز على الروس إرجاعهم إلى الطاعة وعمت الفتنة جميع البلغارستان وضواحي صوفيا إلى حدود الصرب واشتدت وبقي الحال هكذا أياما ومراكب حرب الإنجليز راسية أمام دار السلطنة وعساكر الروس حولها من كل صوب ودخل الصيف وزال الشتاء فتفشيت الأمراض في عسكر الروس ووقع في الجند الموات فكبر الأمر على القيصر وسير إلى خاله إمبراطور الألمان في الوساطة بينه وبين الإنجليز وأنفذ إلى سفيره بعاصمة الإنجليز في ذلك أيضاً فافتتح باب المخابرة في الصلح والوقوف عند حدّ يكون فيه المصلحة للفريقين ثم اتفق الروس والإنجليز على عقد المؤتمر في برلين عاصمة الألمان كطلب دولة النمسا وكتبوا إلى البرنس بسمارك كبير سياسة الألمان في أمر ذلك فأنفذ إلى بقية الدول بأن تبعث سفراء من قبلهم فجاءت سفراؤهم إلى برلين بعد أخذ وردّ وانعقد المؤتمر وتكلموا في معاهدة سان اصفانوس وفيما يجب تغييره من أحكامها. قال بعض الكتاب: وقال اللورد بيكنشفيلد كبير سياسة الإنجليز يومئذ: ولماذا لا تنسحب العساكر الروسية عن ضواحي دار السلطنة العثمانية فأجابه البرنس غورتشاكوف كبير سياسة الروس حتى تنسحب السفن الإنجليزية من مياه القسطنطينية فعارضه بيكنشفيلد في ذلك وردّ عليه غورتشاكوف وعلت أصواتهما واشتد بينهما اللدد وكاد ينحل عقد المؤتمر لولا وساطة بسمارك وحسن سياسته، وما زال المؤتمر يوالى جلساته حتى تم الاتفاق على ما أرادوه وكتبوا به عهدا في عاشر رجب سنة خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أي ثالث عشر يوليو سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وهو المعروف بمعاهدة برلين. وهي تحتوى على أربع وستين مادة قد أضربنا عن إيرادها هنا وكان من أحكامها انفصال ولاية البلغار انفصالا تاما عن ممالك الدولة العثمانية وتسليم البوسنة والهرسك إلى دولة النمسا والمجر تسليمها لا رد بعده وإعطاء اليونانية جزءاً من أراضي الدولة العلية توسيعاً لحدودها وكذلك اتسعت حدود الصرب وحدود الجبل الأسود وإعطاء أمير الجبل المذكور مينا انتبغاري المهمة الواقعة على بحر الأدرياتيك وقد نالت كذلك دولة فارس جزءاً من الأملاك العثمانية أسوة بغيرها أما دولة الإنجليز فإنها لم تكتف من الغنيمة بالإياب بل أخذت جزيرة قبرص على شروط

وعهود قد أضربنا عن إيرادها هنا وانقضت تلك الحرب المشتومة وقد خسرت فيها السلطنة العثمانية من المال والرجال والأراضي ما كاد أن يخلخل أركانها بل يقوض بنيانها ويمحى ما بقى من آثار مجدها القديم والأمر يومئذ لله الواحد القهار.

لما عادت الأمور إلى سابق مجراها أظهر السلطان ميله إلى موالاة الروس ومحبة قيصره وكرهه لسياسة الإنجليز ثم عمد إلى قطع شأفة المفسدين وأصحاب السعاية والفتن والمتحيزين للإنجليز من كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية ورسم بتحقيق مقتل عمه السلطان عبد العزيز وقد بث العيون والجواسيس حول جميع من كان لهم يد في تلك الفتنة وشدد في الأمر وقيد بذلك جماعة من كبار المحاكم فقبضوا على كل من ظهرت تهمته في ارتكاب هذه الجناية، قال أحد الكتاب: فكانوا خمسة عشر شخصاً منهم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا ونجيب بيك وعلى بيك ونورى باشا ومحمد جلال الدين باشا أصحاب السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدى باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام والسلطنة والدة السلطان مراد وأربعة آخرون وقد أثبتوا عليهم ارتكاب هذه الجناية الشنعاء.

فلما كان رابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية انعقدت محكمة القضاء لمحاكمتهم فأتى بهم أمام دائرة الجنايات وكانت هذه الدائرة مشكلة من رئيس اسمه تيمستوفل خرستو فوتيادى يونانى الجنس عثمانى التبعة وثلاثة قضاة آخرين أحدهم أرمنى واسمه إسكندر أفندى والاثنان مسلمان وتعين لرئاسة الجلسات التى عهد إليها النظر فى هذه الدعوى سرورى أفندى رئيس دائرة محكمة الاستئناف وهو الذى تولى التحقيقات الابتدائية وقد حضر فى قاعة الجلسة السفراء والوكلاء وقناصل سائر الدول وموظفو الحكومة وأرباب المناصب العالية وكتاب صحف الأخبار فلما استقر بمن حضروا المقام نودى على المتهمين وقد كانت نصبت لهم خيمة كبيرة بجانب حرس مالطة على بعد من سراية يلدر فحضر أولاً مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا ونجيب بيك وعلى بيك وفخرى بيك وسعيد بيك ورضا بيك ثم استحضروا نورى باشا ومحمد جلال الدين باشا، وكان المدعى العمومى اسمه لطيف بيك، فافتتح الرئيس الجلسة وأخذ فى تعريف المتهمين وقد محض النصيحة للمحاميين الذين انتدبوا للدفاع عنهم، ثم أشار بتلاوة الميثاق فى صحيفة التحقيق وأوراقه فجعل يتلوها عز الله أفندى باشكاتب الدائرة واستمر فى تلاوة هذه الأوراق نحو ثلاث ساعات فكان حاضراً ما فيها:

أنه بعد خلع السلطان مراد وجلس السلطان عبد الحميد على سرير الملك رسم بترتيب مصروفات السراى السلطانية. ويبحث فى أمر المرتبات فوجد أن ثلاثة أشخاص من صغار المأمورين عين لهم مائة ليرة عثمانية معاشا شهريا فبحث عن سبب ترتيب هذا المعاش لهم، فعلم أنه ترتب لهم مكافأة على قتل المرحوم السلطان عبد العزيز وهؤلاء المأمورون هم: مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا، فلما سئلوا عن ذلك اعترفوا بالحقيقة وقالوا: إن محمد جلال الدين باشا ونورى باشا أصهار الحضرة السلطانية هما اللذان أغرياهم على فعل القتل، وأن محمود باشا زودهم بما يلزم فعله وزادهم علما به نورى باشا وشدد عليهم بكتمان الأمر بإيمان القسامة، وقد وافق على إجراء هذا الفعل العظيم هيئة تألفت من: محمد رشدى باشا الصدر الأعظم، ومدحت باشا، وحسين عونى باشا، وخير الله أفندى شيخ الإسلام فإنهم كانوا استصدروا من السلطان مراد قبل خلعهم فرمانا بأن لا يقع فى داخلية السلطنة وخارجها شيء إلا بأمر هذه الهيئة، فظهر من التحقيق أن قتل السلطان عبد العزيز كان بموافقة رأى هذه الهيئة وثبت أن المتآمرين كان من قصدهم أيضا اغتيال جميع العائلة السلطانية حيث دعوهم جميعاً إلى مأدبة أعدّها جلال الدين باشا فى قسطنطينية فى أعالي بك أوغلى فأحسوا بالمكيدة وامتنعوا عن الذهاب إلى تلك الناحية، وبناء على ما ظهر فى هذه القضية حكمت النظارة (لعلها دائرة التحقيق عندهم) على المتهمين الذين هم: محمد جلال الدين باشا، ونورى باشا، ومدحت باشا، ومحمد رشدى باشا، وخير الله أفندى شيخ الإسلام، والسلطانة والددة السلطان مراد بالأشغال الشاقة إلى أمد طبقاً للمادة الحادية والتسعين من قانون العقوبات، وعلى السلطان مراد بهذا الجزاء أيضاً، وبأن يعافى من ذلك لاختلال عقله، وحكمت بالقتل على فخرى بك، ومصطفى الجزايرلى، ومصطفى البهلوان، والحاج أحمد أغا، ونجيب بك، وعلى بك وسعيد بك، ورضا بك طبقاً للمادة المائة وسبعين من قانون العقوبات، وبعد تلاوة الأوراق لخص سرورى أفندى الرئيس الدعاوى وأخذ فى استنطاق المتهمين فسأل مصطفى البهلوان أولاً: فقال:

قد استدعانى محمد جلال الدين باشا يوماً وقال لى: إنه رتب لى مائة ليرة عثمانية فى كل شهر، ولرفيقى مصطفى الجزايرلى أيضاً على أن نقوم بمهمة قتل السلطان عبد العزيز بواسطة فتح عروقه بمقرض أعدّه لنا، ثم استدعانى نورى باشا أنا ورفيقى وأوصانا بما ذكر وبأن فى الوصية وشدد علينا فى الأمر، وقال: لم يبق

لنا حيلة سوى الخلاص من أسر هذا السلطان واسترقاقه لنا. واستحلفنا على كتمان السر فحلفنا فناول كلا منا ثلاثين ليرة عثمانية. فلما كان عصر اليوم أدخلني نجيب بيك وعلى بيك الضابطان اللذان كانا يحرسان السراي بأورطة كوى أنا ورفاقي وأربعة من الخصيان إلى مقر السلطان عبد العزيز فقتلناه بحضرة فخرى بك وهو الذى قبض على السلطان من كتفيه ومصطفى الجزائريلى والحاج أحمد أغا قبضا على ساقيه بعنف وشدة كى لا يستطيع التخلص فقبضت أنا على ذراعه وقطعت أوردته ثم على الثانى وفعلت به كذلك وهو يصيح ويستغيث، وكان نجيب بك وعلى بك فى هذا الحين يحرسان باب الدائرة فلما قضى السلطان نحبه حملوا جثته وهى ملفوفة ببعض الثياب ووضعت فى حجرة قهوة وجاق الحرس على حصير من القش كانت هناك.

فسأله الرئيس - أصبح ما قيل أن السلطان كان به رمق من الحياة حين نقل به إلى الحرس. فقال البلهوان: لا أعلم لى بذلك غير أنى أظن أنه كان قد مات وشيع موتا.

فالتفت الرئيس إلى الحاج أحمد أغا وسأله فاعترف ولم ينكر من فعله شيئا، ثم سأل مصطفى الجزائريلى فتلعثم وتلون واختلقت أقواله عما اعترف به فى التحقيق الابتدائى، ثم قال: إن ما قلته من أن نورى باشا قد حلفنا اليمين بأن نقتل السلطان ونكتم سر ذلك خطأ منى، فإن نورى باشا لم يأمرنا بشيء من ذلك بل أوصانا بأن نخدم السلطان أحسن خدمة وأن نقتررب من مقامه إن شاء أن نكون بحضرته وأن نعتنى بحراسة مقره غاية الاعتناء فعملنا بما أوصانا به إلى أن قتل السلطان نفسه - فقال الرئيس - أو لم تشترك مع رفاقك فى قتل السلطان؟ فقال: حاشا فقد كنت وقت قتله فى أسفل الدائرة فلما سمعت الغوغاء صعدت مع من صعد من الناس لأعرف الخبر فوجدت أن السلطان قد قتل، فقال الرئيس: قد خالفت ما اعترفت به فى التحقيق الأول، فقال: أخطأت مرادى أن أقول سمعت الغوغاء فتوهمت حريقا فى السراي فهرولت إليها فقالوا لى إن السلطان قتل نفسه.

فنظر الرئيس إلى فخرى بك وسأله فقص ما وقع من السلطان عبد العزيز وانتقاله إلى طوب قبو وإقامته بها بعد أن كتب ورقة إلى السلطان مراد وهو فى سراي سراغان ثم قال: إن السلطان عبد العزيز ما دخل هذا المكان حتى بدأت تظهر عليه علامات الجنون والهذيان، فقد رأى حزمة فى أرض الجنيينة لتدويب الكلس

فاضطرب منها . وقال إنها من علامات السوء ودلائل النحس ، ثم سمع طلق مدفع فقال : إن أهل البلاد انقسموا إلى حزبين وها هم يتضاربون من أجله . قال : وكان السلطان يقول : إنه لا بد من أن يقتل كما قتل السلطان سليم ، واتفق أن رأى نفرا من الجند يدخلون السيجار تحت شبابيك السراى فجعل يشتمهم ويعزرهم على كفرهم بالإحسان . ورأى مركبا حربية آتية لترسو تجاه قصره فصاح مناديا بأنهم لا يلبثون أن يطلقوا القنابل على مقره . قال : وفى تلك المدة دعيت إلى حرس أورطة كوى حيث كان نجيب بك وعلى بك فأخبرانى بأن عندهم ثلاثة أشخاص لا بد من إدخالهم إلى مقر السلطان تنفيذا للإرادة الشاهانية ، وأن هؤلاء الأشخاص مآذونون بنقل بعض المتاع من السراى فعارضتهما ولكن اضطرت بعيد ذلك إلى الإذعان فدخلوا وقد رجعت إلى مقر السلطان فكنت أرى علامات الجنون تزداد عليه حتى كان يتوهم أن سقف السراى يلتهب نارا وأن الأعداء أوقدوا فيه النار عمدا ، وقد طلب مرآة ومقصا لكى يهندهم لحيته وكنت أمرت أن لا يعطى شيئا ولكن بالرغم عنى أعطوه ما طلب فانزوى فى مخدعه وقفل بابه فحضرت إحدى جواري والدته وجعلت تنظر من الطاق لتعرف ما الذى يفعله فلما لم تتمكن من ذلك صاحت وعلا صوتها فأسرعت إلى الدائرة فوجدته مطروحا غريقا فى دمه . فقال الرئيس : قد كان عند السلطان سيف السلطان سليم فهل أخذت ذلك السيف ؟ فقال : نعم ولكن وضعت مع بقية الأشياء التى أخذت بأمر الذات السلطانية . فقال الرئيس : لمن سلمته . فقال أدخلته من الطاق وأعطيته لأحد الحراس . الرئيس : من هو هذا الحارس . لا أعرف اسمه . الرئيس : قد نظروك مساء وأنت تتكلم فى موضع الحرس مع جلال الدين باشا وحسين عوى باشا ونورى باشا .

نعم : قد كانوا استدعونى ليتحدثوا معى بشأن خدام السراى . الرئيس : لمن سلمت السيف ؟ لا أعرف . لا يخطر لعاقل على بال أنك تكون سلمته لمن لا تعرفه .

ثم سئل نجيب بك الذى كان متوليا رئاسة حراسة الباب المشرف على الرصيف فى أمر مقتل السلطان فأنكره ، وأكد أنه قتل نفسه . قال : وقد كنت مكلفا بحراسة متاع السلطان المأخوذ من السراى فى ليلة هذه الحادثة ذهبت إلى سراى دوله بغجه حيث تقابلت مع جلال الدين باشا وأخذت منه سلسلة من ذهب وساعة ثم رجعت إلى مقر السلطان عبد العزيز ومعى ثلاثة من الخدام وأربعة من الخصيان مرسلين بأمر

السلطان مراد فقضيت ليلتي تلك بغاية الطمأنينة، وبينما أنا راقد في الليل إذ سمعت غوغاء فانتبهت ورأيت ما جرى وعلمت أن السلطان قتل نفسه.

الرئيس - إن بعض المتهمين قالوا إنك كنت قائما بالباب عندما كانوا يباشرون فعل القتل - فقال - ليس ذلك بصحيح - فالتفت الرئيس إلى محمود باشا، وقال: قد ظهر أنه بعد جلوس السلطان مراد على التخت الملوكاني كانت تشكلت هيئة في السراي بإرادة سلطانية، فصار من المحتم أن كل شيء يقع في البلد لا يكون إلا بإشارة هذه الهيئة فهلا كنت عضوا عاملا فيها؟ - فقال محمود باشا: لا علم لي بوجود هذه الهيئة ولم أكن من أعضائها، نعم إنه في ثاني يوم جلوس السلطان مراد توجهت إلى السراي فكلفوني بقبول منصب إحدى الوزارات، وفي اليوم التالي بقيت في السراي ولا أعلم ألبة بهذه الهيئة - فقال الرئيس - لقد صرح أدهم أفندي ونوري باشا بما يخالف ذلك - فقال محمود باشا: كذبا فيما قالوا.

الرئيس - علمنا أنه لما نقل السلطان عبد العزيز إلى سراي طوب قبو طلب منك أن تنقل إليه جميع أمتعته وعهد إليك أيضاً المحافظة عليه حين نقله بعيد ذلك إلى سراي قرية، فأنت حيثنذ الذي حافظت على مقر السلطان مع نجيب بك وعلى بك من كبار العسكر، فقال: حاشا حاشا وكلا لم يعهد إلي بأن أخفر السلطان في مقره - فقال الرئيس - وأين كنت ياترى ليلة مقتل السلطان - فقال: كنت في داري بالفندقلي إلى أن توجهت إلى محمد رشدي باشا - فقال الرئيس - محمد رشدي باشا يكذبك فإنهم قد نظروك ليلة قتل السلطان وقبل حصول القتل بساعة في الحرس تتكلم مع فخرى بك ونجيب بك وعلى بك - فقال: لم يحصل شيء من ذلك ألبة - فقال الرئيس - الشهود عليك كثيرون وذكر له أسماء الشهود - فقال محمود باشا كلهم يكذبون فيما يدعون - فقال الرئيس - قد نظرت القبطان راسم يوم نقل أمتعة السلطان تكسر صندوقا مدهونا بدهن أخضر - فقال محمود باشا: قد حصل وقت النقل ضرر ولم يمكن منع وقوعه - فقال الرئيس - هل توجهت إلى محل الحادثة عندما علمت بها؟ فقال: لا لا - قال الرئيس - ومن أين إذا علمت بهذه التفاصيل - فقال: علمت بها من صحف الأخبار التي تكلمت عنها.

فالتفت الرئيس إلى نوري باشا وقال: من الذي دعاك ماريشال السراي أي أمير أمراء جند الحرس السلطاني - فقال: السلطان مراد هو الذي دعاني بهذا الاسم - فقال الرئيس - قد شكلت بعد جلوس السلطان على تخت السلطنة هيئة في السراي

فممن ياترى كانت هذه الهيئة مؤلفة؟ - فقال نورى باشا: كانت مؤلفة من محمد رشدى باشا ومحمد جلال الدين باشا ومدحت باشا وحسين عونى باشا وخير الله أفندى شيخ الإسلام. وكنت أنا من أعضائها أيضا - فقال الرئيس - إذا ما هى الأعمال التى نيطت بتلك الهيئة؟ - فقال: هى جميع الأشغال وقد كان لابد من عرضها عليها بحيث لا يقع فى الدولة شىء بدون آرائها حسبما أمر به مولانا السلطان - الرئيس - ومن الذى بعث بالثلاثة رجال إلى مقر السلطان عبد العزيز؟ - فقال: أرسلهم المباينجى سعيد باشا حيث أتى بهم إلى بامر سلطانى، وبما أتى مارشال السراى كان لابد من مخابراتى فى جميع الأمور فأرسلتهم بصفة كونهم خدمة إلى مقر السلطان عبد العزيز وأوصيتهم بأن يحسنوا الخدمة ما استطاعوا - الرئيس - هل أعطيتهم تعليمات سرية؟ حاشا فإنى أدخلتهم فى مخدعى بحضور كثير من الناس وكلمتهم عما لزم جهارا، ثم ذكر أسماء الذين كانوا حاضرين وقتئذ - الرئيس - كيف هذا مع أن مصطفى الجزايرلى قد قرر خلاف ما ذكرت وقال: إنك طلبت منهم كتمان السر وإنك حلفتهم يمين القسامة؟ ليس ذلك بصحيح ألبتة - الرئيس - هل توجهت إلى محل القتل؟ - نعم عندما علمت أن السلطان عبد العزيز جرح نفسه توجهت واستدعيت ماركو باشا طبيب المرحوم السلطان فأتى ومعه أطباء آخرون وجعلوا يفحصون أسباب الموت فحصا طبييا وكتبوا تقريرا بما رأوه غير أن ماركو باشا أبى أن يوقع على التقرير وتشاجر مع بقية الأطباء.

فتقدم محمود باشا وأنكر أقوال نورى باشا وكرر القول بأنه لا يعلم ألبتة بتشكيل تلك الهيئة - فقال الرئيس - كيف وقد قلت واعترفت بأنك أنت الذى أوصيت نورى باشا بمصطفى البهلوان - فقال: إنى لم أر البهلوان سوى مرة واحدة من نحو الخمس عشرة سنة فى ناحية جاملجة وأوصيت نورى باشا به ولم يكن فى خدمتى أو يتردد على قط قبل الآن.

ثم دخل مدحت باشا ويده مفكرات ودفاتر فأوقف موقف المتهمين وعلامات السكون تنطق من وجهه فمدت إليه الأعناق وأحدقت به الأبصار وقد وضع ذراعه على رأس كرسى كان أمامه - فقال له الرئيس - يتلو عليك الكاتب الآن ما يتعلق بك بما ورد فى أوراق الدعوى - فأجاب مدحت قائلا: قبل أن أسمع هذه التلاوة أقول ويحق لى أن أقول إنى أعد نفسى سعيدا إذ دعيت لأبرىء نفسى من تبعة جنائية أمام هيئة علانية ويجب على فى هذا المقام أن أمتدح غيرة ومساعى المأمورين بالقضاء

إذ رغبوا فى أن يقوموا حق القيام بمأمراتهم فتصرفوا بنوع من العجلة وحكموا قبل أن يقضوا وينبغى على هذا تقديم واجب الاحترام لشعائر العدل المتصف بها جلالة مولانا السلطان حيث تنازل وأمر بكشف خفايا هذه المسئلة فى محاكمة علنية وهى خطوة عظيمة نحو الحرية فما تم مقاله حتى جعل الكاتب يتلو مرسوم الإحالة وأوراق الدعوى، وقبل أن تتم تلاوة جميع الأوراق عاد مدحت باشا إلى سياق مقالته الأولى فقاطعه الرئيس وقال: يجب عليك السكوت فإن إدارة المحكمة هى من خصائص الرئيس لا المتهم، ثم قال له: قل ما تعلمه من أمر الهيئة التى كانت فى السراى. فقال: لا علم لى بوجود الهيئة المذكورة بل الذى أعلمه أن مجلس الوزراء هو الذى كان وحده يدبر جميع أمور الدولة، وإنى كنت أحد أعضائه ولم تؤمر قط بقتل السلطان عبد العزيز، فقال الرئيس: من الذى أمر بأن يؤخذ من السلطان المخلوع سيف السلطان سليم؟ فقال مدحت باشا: أتعنى بذلك بعد الخلع؟ فقال الرئيس: نعم، قال: قد أمر بعد نقله إلى سراى طوقبو أن يبعد عنه كل نوع من الأسلحة ولم يكن لذلك من سبب سوى الخوف على حياته - الرئيس - متى تمت وفاة السلطان؟ فقال مدحت باشا: يوم الأحد توجهت إلى الباب العالى لأحضر الجلسة التى كان مزعما عقدها فوصلت إليه ولم أجد أحدا فسألت عن الخبر فقبل لى: أن المستشار سعيد باشا أفندى هو وحده موجود هنا، فسألته عن سبب غياب الوزراء فأخبرنى بالحادثة فراعنى الخبر بل كدرتى جدا خصوصا وقد خطر ببالى وقتئذ ما يترتب على ذلك من مؤاخذة الكثير من خلق الله فى هذه الحادثة بمجرد الشبهة - الرئيس - لكن سعيد باشا أفندى المذكور يكذب قولك، فقال مدحت: ليس لتكذيبه عندى أهمية فبعد أن سمعت هذا الخبر يارحت الباب العالى وسرت إلى دوله بفنجه قاصدا حرس أورطة كوى حيث كان هناك جماعة الوزراء وجم من العلماء وغيرهم من أهل المراتب وتسعة عشر طبيا فكلهم قالوا لى مع فخرى بك إن السلطان قتل نفسه فلم يسعنى إلا التصديق كسائر من سمع الخبر من الحراس - الرئيس - قالوا إنهم وجدوا عدا الجروح التى كانت فى ذراعيه جرحا آخر فوق ثديه الشمال وآثارا أخرى شديدة تدل على أنه قتل مقهورا وحيث إنك كنت فى ذاك الحين وزيرا فكان من واجباتك أن تأمر بالفحص فى أمر قتله، فقال مدحت: إذا اعتبرتمونى لأجل ذلك مسئولاً وجب إذا جعل جميع الوزراء الآخرين مسئولين مثلى ولكنى لست أراهم قائمين بجانبى فى هذا الموقف حتى أقسم بينى وبينهم مسئولية

عدم أمرهم بإجراء الفحص - الرئيس - هل كان فى السلطان رفق من الحياة عندما نقلت جثته إلى وجاق قهوة الحرس؟ فقال مدحت: لا علم لى ألبنة بذلك - الرئيس - كيف ومحمد رشدى باشا لا يقول ما قتله أنت الآن؟ فقال مدحت: ذلك ممكن وقد قرر محمد رشدى باشا أموراً أخرى كثيرة من هذا القبيل - الرئيس - إن المجلس يرغب أن يسألك أيضاً عن الأسباب التى حملتك على الالتجاء إلى دار قونصلية فرنسا، فقال مدحت باشا: هذه الحادثة تحتاج للتفصيل ولكنى مع ذلك أقول: إنه قد كانت وردت لى مكاتبات من الآستانة تعلمنى بكل ما كان يقال فى حقى وكشفت لى عن التهمة التى رميت بها فى ظروف لا يطمئن معها قلبى، ثم لم ألبث أن رأيت فى صباح ذات يوم معاون الحضرة السلطانية وصل إلى أزمير ثم أتى القوناق وجعل فى الحال يرسل السراى السلطانية برسائل الأرقام، وقد أبلغنى بذلك رجال البوليس السرى الذى كنت أنشأته هناك، فعلمت أن ذلك الأمر يختص بى ذاتياً ثم بعيد وصول هذا المعاون بأيام قلائل علمت أيضاً بوصول مأمور عسكري وهو على ييك رجل على شاكلة وفطرة شركسلى حسن وادعى أنه إنما جاء لأجل أن يرتقى إلى رتبة ميرالاي وأن لباسه الرسمى لم يكمل لغاية حضوره إلى أزمير ولذلك أتى بغير لباس عسكري ثم جعل بعد أيام من وصوله يتكلم بما لا يليق ونسب لى أموراً قبيحة فقصدت القبض عليه ولكن لم يقع ذلك حتى بلغنى أنهم عازمون على القبض على وفى تلك الليلة نفسها رأيت أنه قد أحاط بمنزلى ثلاثمائة جندى فداخلنى من الخوف ما ألجأنى إلى عدم التأخر عن المسير حتى لا تتألى هذه الحراب المشرعة ولا أقع فى أيدي رجال على بك المذكور ولهذا السبب خرجت من باب الجنيئة وركبت أول عربة وجدتها وسرت إلى المحلة الأوروبية فأول باب وجدته مفتوحاً كان باب دار قونصلية دول الفرنسيس فدخلتها وإنى لأكذب كل التكذيب ما قيل من أنى فتحت باباً فى الجنيئة عمداً لهذا الغرض قبل بخمسة أيام كما أنى برىء من اتهامى بأنى هيات العربة فى تلك الليلة قبل الأمر.

فلما أتم مدحت باشا كلامه أشار الرئيس بقفل الجلسة وأنه لدى افتتاحها تسمع شهادة كثير من الشهود ولما كان اليوم الثانى افتتحت الجلسة بعد الظهر وجلس القضاة وأخذ فى تلاوة طلب المدعى العمومى وقرار المجلس المشتمل على الحكم على مصطفى البهلوان وحاجى محمد ومصطفى الجزايرلى وفخرى بك بأن لهم اليد فى قتل السلطان وعلى محمود باشا ونورى باشا وعلى بيك ونجيب بيك وعزت بيك

بأنهم شركاء فدافع عنهم المحامون، وقال بعضهم أمام هيئة المحكمة: إنهم يرفعون دعواهم أمام محكمة التمييز، وقال البعض الآخر: إنهم يسلمون أمرهم لحلم ورحمة الذات السلطانية وكذلك طلب المحامي عن محمود باشا تخفيف الحكم عليه، ثم قام الأعضاء واختلوا برهة ثم عادوا وقرروا الحكم على سبعة من المتهمين بالقتل طبقاً للمادة المائة وخمس عشرة من القانون العثماني، وهم: مصطفى البهلوان وحاجي محمد ومصطفى الجزايرلي وفخرى بيك ومحمود باشا ونورى باشا وعلى بيك ونجيب بيك، وحكموا على سعيد بيك وعزت بيك بعشر سنين فى الأشغال الشاقة وكان هذا الحكم بموافقة جميع الآراء خلا الحكم على محمود باشا ونورى باشا فإنه كان بالأغلبية، ثم أخرجوا جميع المتهمين من قاعة الجلسة وعاد القضاة بعد ذلك فحكموا على مدحت باشا ولم يحضر بين القضاة سرورى أفندى فإنه قد رد نفسه عن الحكم لخلاف وقع بينه وبين مدحت عند مدافعتها عن نفسه وبعد أن تقرر الحكم على مدحت استدعى أمام الهيئة فلما حضر تلى عليه طلب المدعى العمومى القاضى بقتله لاشتراكه فى مقتل السلطان عبد العزيز، ثم سأله الرئيس هل عندك شىء من الملاحظات تقوله لهيئة المحكمة؟ فقال: إن عندى كلاماً طويلاً فى طريقة المحاكمة والسير الذى سارت به، فأجابه الرئيس بأن هذا ليس له فى هذه الهيئة من محل وأمره بالسكوت فقام شهرى أفندى المحامى عن مدحت باشا وقال: إن موكلى مدحت باشا يطلب استئناف الدعوى فقام القضاة واختلوا ملياً ثم عادوا وحكموا باتحاد الآراء بالقتل لاشتراكه فى قتل السلطان عبد العزيز، وبعد أن تلى عليه الحكم قال له الرئيس: إنه لا بد من تقديم تقرير الاستئناف فى ظرف ثمانية أيام، فلما شاع الحكم على مدحت باشا بالقتل اندفع أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية يهولون ويهددون ويرمون رجال السلطنة العثمانية بالعسف والجور وقام أحد خطباء الإنجليز يطلب من حكومته باسم الإنسانية ويشرف الأمة الإنجليزية التداخل فى أمر استبدال الحكم على مدحت بحكم آخر لا يضر بحياته التى هى ثمينة عندهم وجعل يبالغ فى الإطراء ويعدد مناقب مدحت وماله من الأيادى البيضاء على الدولة الإنجليزية فرد عليه أحد رجال السياسة وقال متهمكماً: خفف عنك يا صاح ولا تجزع، فإن رجال حكومتنا عافاهم الله لم ينجلوا بأن أنفذوا إلى دوفرين سفيرنا فى دار السلطنة العثمانية بالوساطة فى استصدار فرمان من السلطان بالعفو عن مدحت ومحمود جلال الدين ونورى باشا فإنهم قد دافعوا كثيراً عن السياسة الإنجليزية وعززوا جانبها بل أخلصوا لها الخدمة يوم كانوا قابضين على زمام الحكومة لا سيما مدحت، قال:

ولا إخالك تنكر على القول بأن قومك الإنجليز أصلح الله حالهم يحبون مدحت
حبيهم لأنفسهم ولم يتركوه يوم أنزله السلطان من مسند الصدارة بل أعمل سفيركم
هناك الجهد حتى ولاه على الشام، وكم شدد يومها وهدد وأرعد وأزبد ونادى بالويل
والثبور ولو لم يقدر الله بسقوط الحزب المحافظ الذى كان قابضا على زمام الحكم
على بلادك يومئذ لأرانا من دسائسه فى تلك الأصقاع عجائب غرائب بل المبكى
والمضحك فتأمل عافاك الله واجكم إن كنت من المنصفين . اهـ .

ورفع مدحت باشا إلى أمير المؤمنين بعد الحكم عليه بالقتل قصة يقول فيها :
إنى وإن كنت قد عملت على خلع بيعة السلطان عبد العزيز عندما ظهرت منه الرغبة
فى عزل الوزراء وتسليم البلاد والأمة وإدخال جيش روسى فى دار الخلافة الإسلامية
ولكننى لم أعمل على موته ولم أشارك فى ذنب سفك دمه ولم أوافق قومه إلا على
خلع بيعته وتنزيله والله ورسوله على ما أقول . شهيدان ، فلم يلتفت السلطان إلى
كلامه ولم يسمح بتخفيف العقوبة عليه قال بعض كتاب الأخبار : وقد نسب
أصحاب صحف أخبار الإنجليز ما وقع لقاتلى السلطان عبد العزيز من الشدة ثم
الحكم عليهم بهاته العقوبات إلى دسائس الروس واتساع كلمتهم فى دار السلطنة
العثمانية فتجرك لذلك خواطر العامة والخاصة من الإنجليز وقاموا وقعدوا وطلبوا منع
تنفيذ الأحكام على مدحت ورفقائه كأنهم إنجليز أولاد إنجليز ، ثم قام خطبائهم فى
دار ندوتهم ينادون وتمنئانه وإنسانيته وامرحمته فوقعت عند ذلك بينهم ضجة حمل
فيها أهل اليمين على أهل اليسار وعلت الضوضاء وارتفعت الأصوات وطال الجدل
واشتد اللجاج واحتدم النكال فلم يخرجوا وقبعاتهم على رؤوسهم إلا وهم على بينة
مما سيكون ولم يمض على ذلك إلا القليل حتى شاع الخبر بصدور فرمان السلطان
باستبدال حكم القتل على مدحت ورفقائه بالنفى والتباعد إلى الأقطار الحجازية ،
فلما كان تاسع رمضان سنة ثلاث وتسعين عبرت من ترعة السويس سفينة عثمانية
حربية اسمها (عز الدين) تحمل مدحت ورفقاء قاصدة جدة ولم ترس بالمينا بل
دخلت من البوغاز وسارت إلى السويس مسرعة فأغضب قيصر الروس هذا الأمر
وعلم أنه من أفاعيل دولة الإنجليز فأضمر لها سوء وعمد إلى معاكساتها فى أواسط
آسيا وتنكيس أعلامها فى جوف الهند وعلى حدود الصين فسير عسكره المنصور إلى
قلب التركمان تك وحدود الأفغان التى هى حصن الإنجليز الأكبر الحائل بين غارات
الروس وبين هندهم ، ففعل ذلك الجيش فعالة وتغلغل فى جوف البلاد وأزهب

وهدد وأخضع الخصوم وذلل الصعاب فكادت قلوب الإنجليز تطير خوفا وقد أعيت كبارهم الحيل وضائق عليهم المذاهب فكادوا يسقطون فى أمرهم، وبينما كان القيصر ينظر إلى ظفر جنوده فى تلك الأصقاع نظرة الساهر على الأخذ بالثأر إذ تحركت طوائف الناهليست وهم طائفة العديميين، وقيل: حركتهم أيدي الإنجليز وتآمروا على قتله فدبروا له المكاييد وتبعوه أينما سار بالآلات الجهنمية قصد إذهاب روحه فتحفظ وبت العيون والأرصاد وأكثر من الحراس والرقباء وبالغ فى تعقب هذه العصابة الوحشية واشتد عليها شدة بالغة حتى خيل له أنه فى مأمن من شرها، واتفق أنه ذهب بعد ظهر الحادى عشر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين إلى مشاهدة معرض الجنود على عادته فبينما هو عائد إلى مقره ألقى عليه نفر من هذه العصابة قبلة محشوة بالمواد الاتهائية فسقطت القبلة تحت عجلات عربته وانفجرت انفجارا هائلا فقتلت وجرحت بعضا ممن كان معه فأسرع هو ونزل من العربة فرارا ولكن لم تصل أقدامه إلى الأرض حتى سقطت بين رجله قبلة أخرى فخلعتهما معا فسقط وأغمى عليه لا يبدى ولا يعيد فأسرع الجند فى نقله إلى السراى وهو لا ينطق بكلمة ولبت ثلاث ساعات ونصفا فى نزع شديد حتى فارق الحياة وقد مات أيضاً بعض من كانوا معه وبذل أصحاب الشرطة جهد المجتهد فى القبض على مرتكبى هذه الجناية العظيمة فكانوا أربعة ثلاثة رجال وامرأة وهم دوساكوف وسكبالابوف ومكاوف وصوفيا برسوكا وألقتهم فى السجن مكبلين بالحديد ونادوا بولى العهد قيصر على الروس وبإيعوه البيعة العامة ثم دفنوا القيصر فى مشهد وأخذوا فى محاكمة أولئك القاتلين فحكم عليهم جميعا بالقتل، ولم يكن موت هؤلاء الطغاة يغنى عن موت السلطان عبد العزيز والقيصر إسكندر الثانى اللذين ذهبا شهيدى التحالف والاتفاق على الضرب على يد أصحاب السياسة الإنجليزية رحمهما الله تعالى فهو الغفور التواب.

(مطلب)

رجوع دولة الإنجليز إلى تهديد الخديوى إسماعيل

وعادت دولة الإنجليز وكأنها قد تفرغت إلى تهديد الخديوى إسماعيل وإرغامه على وفاء سائر الديون الصغيرة التى حكمت بها المحاكم المختلطة كما تقدم القول وأنفذت إلى قونصلها المستر فيفيان أن يشدد فى طلب ذلك والخديوى يحاول ويحاول، واتفق فى هذه الأثناء أن تغيرت هيئة حكومة الفرنسيس بهيئة أخرى كان

فيها المسيو وادنجتون وزيرا للأمر الخارجية فنظر هذا المسيو إلى ما هو واقع من الخديوى بعين القلا والرجل من دم إنجليزى أقام سفيراً للفرنسيين بدار الإنجليز أعواماً كثيرة فيصح أن يقال عنه أنه إنكليزى بحث فكتب فى صفر سنة خمس وتسعين إلى وزير الإنجليز يعلمه بما آلت إليه الحالة بمصر ويستفزه إلى الأخذ بالأحوط وتدارك الخطر قبل استفحاله وما زالت المخابرة بين الفريقين متتابعة حتى تقرر القاعدة بينهما على تشكيل هيئة باسم مجلس التفتيش يكون من اختصاصها تنقيب جميع الطرق التى اتخذت للنظر فى حالة خزانة البلاد وأرباب الديون وكلموا الخديوى فى ذلك وما زالوا به حتى رسم فى سادس عشر ربيع الأول سنة خمس وتسعين أى فى غاية مارس سنة ثمان وسبعين ميلادية بتشكيل ذلك المجلس برئاسة المسيو فردينددلبس فاتح خليج السويس وكالة أحد رجال الإنجليز المسمى ريفرس ويلصون فلم يتسن للرئيس الحضور فى جلسات المجلس لأسباب سياسية لم نصل إلى معرفة الصحيح منها فأخذ المجلس فى العمل تحت رئاسة ويلصون الإنجليزى وجعل يبالغ فى البحث والتنقيب وكان من حدوده بمقتضى ما رسم به الخديوى أن يطلب من شاء من موظفى الحكومة وكبار رجال الدولة ويسألهم فيما يرى لزوم سؤالهم فيه.

(مطلب)

امتناع الوزير شريف باشا من الحضور أمام هيئة التحقيق وخلعه لنفسه من المنصب

وكان الوزير محمد شريف باشا فى هذا الحين فى منصب وزارتى الخارجية والحقانية فسير إليه ويلصون يستدعيه يوماً لسؤاله أمام المجلس عن شئ يريده فاستعظم الوزير هذا الأمر وأكبره وامتنع من الذهاب فكير ذلك على ويلصون وكان مصطفى رياض باشا قد أقامه الخديو وكيلاً ثانياً لهيئة ذلك المجلس وكان بينه وبين الوزير شريف باشا بغض ونفور مستحكم فلما امتنع الوزير من الحضور أمام هيئة المجلس، قيل إن مصطفى رياض باشا جعل يزين إلى ويلصون الإصرار على طلب الوزير وأن يحاسبه على الذرة والبرة فشدد ويلصون فى الطلب ومال على الوزير شريف باشا، وقال: لأبد من حضوره فصمم الوزير على الامتناع، وقال: لا سبيل إلى ذلك، وطال بين الفريقين الأخذ والرد وتداخل فى الأمر قناصل الدول واشتدت

الأزمة واتسع الخرق فلم يسع الوزير إلا التخلي عن منصبه فاعتزله ولم يرض بالذل والصغار، فرسم الخديو بإقامة مصطفى رياض باشا بدلا منه بإيعاز من ويلصون فتعطلت أعمال المجلس أياماً وأحست دولة الإنجليز بما وراء ذلك من الخيبة والفشل فرسمت بإقامة ويلصون رئيساً فأجابها الخديو إلى ذلك وأتاب عن هيئة الحكومة في ذلك المجلس بطرس بيك غالى وهو يومئذ كاتم أسرار وزارة الحقانية فبالغ ويلصون في البحث والتنقيب حتى أتى على جميع الأمور من أبوابها وكتبوا بما علموه من حالة البلاد والخزينة والديون محضراً ذكروا فيه أموراً كثيرة كان أهم ما فيها أن جميع ما اتخذ من التحوطات قبلاً وما تقرر يومئذ من القواعد الكافلة بحسن سير الخزينة وراحة أهل البلاد وطمأنينة أصحاب الديون لا حقيقة لها ألبتة وماهى إلا من قبيل النقش على الماء وأن لا سبيل إلا إلى تصفية جميع حسابات الخزينة وتقرير قاعدة لها ثابتة الأركان لا يعتورها شيء من الزور والبهتان وكلموا الخديو في ذلك فأظهر غاية المسيل ومزيد الرغبة وسهل لهم الأمر ما استطاع وعمل بما أشاروا به جهد الاستطاعة.

(مطلب)

تشكيل الوزارة المختلطة وخلع الوزراء المصريين

فلما كان شهر شعبان سنة ١٢٩٥ خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أى شهر أغسطس سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية أنفذت دولة الإنجليز إلى الخديو بخلع الوزراء وتزويلهم كافة عن مناصبهم فخلعهم طائعاً فرسمت له بتأليف وزارة أخرى من ويلصون رجلها ودى بليانار الفرنسي الذى كان ممن جاءوا للنظر فى أمر ديون الخزينة وآخرين من أهل البلاد وأن يكون رئيس هاته الوزارة الوزير نوبار باشا فأجابها إلى ذلك، وتم تشكيل الوزارة على ما أرادت فكان ويلصون الإنجليزى لوزارة المالية ودى بليانار الفرنسى للأشغال العمومية ومصطفى رياض باشا للداخلية وأخذت على الخديو العهد بأن لا يأتى عملاً إلا بمشورة وزرائه ولا يبدى رأياً إلا بعد رأيهم أسوة الممالك الدستورية، وصادق أصحاب سياسة الفرنسيس والإنجليز على هذه العهد وأنزلوها منزلة عالية وفرح الناس بها وظنوا سكون الحال وزوال الشدة وانحلال عقدة ذلك الضيق، وأعقب ذلك أن استدانن الخزينة قرضاً جديداً قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب من أحد كبار أغنياء الإنجليز المسمى روشيلد وجعلت جميع إقطاعات الخديو وإقطاعات عائلته على اختلافها رهناً

لوفاء هذا القرض وعقدوا بذلك عقدا كان من شروطه أن أنشوا ديوانا مخصوصا فتولى رجاله إدارة عمل تلك الإقطاعات وجمع أموالها وتدير شئونها وكانوا ثلاثة إنجليزى وفرنساوى ومصرى، واشترطت دولتا الإنجليز والفرنسيين عدم جواز تنزيل أحدهم من منصبه إلا بعد رضاهما بذلك وخصتهم ببعض الحقوق والامتيازات التى تجعلهم فى مأمن من كل حادث ولم تقف عند هذا الحد بل طلبنا أيضاً إقامة اثنين مراقبين يكون من اختصاصهما المراقبة على جميع أعمال الهيئة الحاكمة ومنع وقوع ما لا يلائم منها مصلحة أصحاب الديون وخزينة البلاد، وراسلت دولة الإنجليز الخديو فى ذلك على يد المستر فيفيان فنصلها الجنرال بمصر وأظهرت للخديو غاية التجمل والملاطفة فأبى الخديو عليها ذلك فألح عليه القونصل وأكثر من الإلحاح والترداد على مقر الخديو فأكبر الخديو هذا الأمر وأحزنه، وقال للقونصل يوماً: ما هذا الإلحاح وقد كنا والإنجليز يشيرون علينا إشارة صاحب الودود فأصبحنا وهم يتهددوننا تهديد العدو الكنود فجعل القونصل يطاوله وهو يراوغه ويحاوله.

وسار الوزراء فى أعمالهم سيرا حثيثاً وأظهر ويلصون همة ورغبة زائدة فى تخفيف المصارفات عن عاتق أهل البلاد والتزام جانب الاقتصاد والحزم جهد الاستطاعة، قيل: وكلم الخديو فى ذلك فاستحسنه وحبب إليه العمل به وقد كانت الخزينة إلى هذا الحين فارغة والجماكى معطلة لا سيما مرتبات سائر الجند والعسكر وعلوفات كبارهم، وقد مضى عليهم زهاء عشرين شهراً لا يحصلون على فضة ولا نحاس فعمد ويلصون عند ذلك إلى الإتيان على أوجه الاقتصاد من أبوابها فحسب ودقق وصرف من الجند والعسكر زهاء الألفين إلى أوطانهم تخفيفاً على الخزينة وجعل ينظر فى جميع مصروفاتهم من أوجهها الحقيقية فساء ذلك أمراء الجند وكبارهم واستعظموه وشكوا منه إلى مقدمهم، وتزاحموا على أبواب ويلصون والوزير نوبار باشا يطلبون صرف جماكيهم الموقوفة ومرتباتهم المتأخرة وهما يعدانهم ويهوتان عليهم فكانوا لا يزدادون إلا إلحاحاً وتشديداً فى الطلب.

(مطلب)

تحزب طوائف الضباط وإهانتهم للوزير نوبار باشا ومن معه

فلما كان خامس عشرى صفر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى ثامن عشر فبراير سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية اجتمع نيف وأربعمائة من صغار الضباط، وساروا وهم مزججون بالسلاح ومروا برحبة عابدين حتى أتوا شارع

الدواوين فى نحو الظهر وتفرقوا فى أنحائه يراقبون مرور ويلصون والوزير نوبار باشا فلما مرت بهم عربة الوزير وهو بها وعلى يمينه كمال بك كاتب سر المجلس انقض عليها جماعة منهم وأمسكوا بلجم الخيل وتقدم جماعة آخرون وأمسكوا بأطواق الوزير وصاحوا فى وجهه لا يحل لك ياظالم أن تعيش رغدا متمتعا ونحن نموت جوعا أعطنا جماكيننا الساعة، فجعل يلاطفهم ويكلمهم بأحسن الكلام وقد حث سائق العربة الخيل بضرب السوط يريد الفرار بمولاه فترايح خلفه جميع الضباط حتى أوقفوه وأخذوا بلجم الخيل وعادوا به إلى مقر الدواوين واتفق خروج ويلصون ولم يشعر به أحد من المتآمرين فلما علموا بخروجه أكثروا من الصياح والجلبة وعلت بينهم الضوضاء وترايح الناس فأغلق أصحاب البيوت القرية أبوابهم وغص مقر الدواوين بالضباط والجند وأصحاب الوظائف وأصعدوا الوزير نوبار باشا إلى الديوان ووقفوا على الأبواب يحرسونها، ووصل الخبز بما جرى إلى مقر الخديو فجاء وحوله طوائف الحرس وجميع بطانته ورجال ديوانه الخاص وعبد القادر باشا محافظ المدينة يومئذ وشق من وسط الزحام حتى دخل حوش الديوان واقتحم الدرج وهو ساكن القلب هادئ اللب كأن لا خوف عليه فلما رآه الضباط والجند صاحوا بأصوات الدعاء والتهليل فغاب برهة جمع فيها هيئة مجلس الوزراء وكلمهم فى الأمر ثم أشرف على الجمع من الشباك وخاطبهم بالحسنى وأكثر من ملاطفتهم ووعدهم بصرف جميع جماكيهم وسائر مرتباتهم المتأخرة إن هم عادوا إلى منازلهم، فصاحوا لا سبيل إلى ذلك فالموت بالنار خير لنا من الموت جوعا فزاد فى ملاطفتهم فزادوهم لجاجا وحجاجا فغاب عنهم برهة ثم عاد وكلمهم فلم ينصرفوا، فنزل وحوله بطانته وحاشيته وحرسه وأمر فتقدم إلى جماعة الضباط نفر من الحجاب والحراس ليفرقوهم فمانعوا وأطلقوا عدة طلقات نارية فكثر عند ذلك الضجيج وعلا الصياح والتحم الجمع واشتدت الضوضاء وتماسك البعض بالبعض واشتد اللكم والضرب فأسرع الخديو وركب عربته وخلفه أصحابه وأتباعه وسار إلى مقره وجمع إليه هيئة الوزراء ثانية وبينهم بعض قناصل الدول وكلمهم فى الأمر طويلا وبالع فى الشكوى إلى أن قال للقناصل: قد صرت عاجزا عن درء كل ما يحدث فى داخلية البلاد وأخشى من انتشار الفتنة واتساع نطاق الثورة إن لم تعد إلى السلطة التى سلبتها منى هيئة الوزارة الجديدة وإنى لا أرى من المناسب قط بعد وقوع ما وقع اليوم بقاء الوزير نوبار باشا

قابضاً على زمام الحكومة وقد رأيتهم ظهور الفتنة وتحزب طوائف الجند على ما لم يسبق له مثال قيل فاستعظم القناصل هذا الأمر ولم يبق عند أحدهم شك فى أن الخديو هو الذى هباً هذه الفتنة وأصرم نارها لغاية فى نفسه واشتد الخوف بالناس وكثر تطيرهم والخديو يشدد فى طلب تنزيل الوزراء عن مناصبهم ويظعن فى شخص ويلصون الإنجليزى ويرميه ببغض البلاد وأهلها وأنه عامل على تخريبها وكثر اجتماع العلماء وكبار المشايخ بالجامع الأزهر وهم يتكلمون فيما فعله ويلصون والوزير نوبار باشا من الإضرار بالبلاد ويشكون من تغلب النصرانية على حدود الشريعة المحمدية المطهرة وتقدم الشيخ البكرى بالأصالة عن نفسه وبالوكالة عن زهاء سبعين ألفاً من الدراويش هم أرباب الأشاير والطرق ومشايخ السجاجيد وأصحاب العكاكيز والمتعممين يشكون مما أصاب البلاد وأهلها من سوء فعال ويلصون والوزير نوبار باشا، وتكلم مع الخديو فى ذلك وأكثر من التردد على مقره. قال بعض الكتاب: فكان إذا اجتمع عند الخديو قناصل الدول أو بعض كبار الأجانب أرسل فى الحال إلى الشيخ البكرى فيدخل على الخديو فيقوم له الخديو إجلالاً ويعظمه ويدنيه من مجلسه ويخاطبه بغاية التجلة والتكريم مع الرهبة والوقار، فإذا خرج نظر الخديو إلى الحاضرين، وقال: هذا هو كبير الإسلام وشيخ مشايخ الدراويش وإن فى خدمته وتحت أمره وإشارته سبعين ألف من الدراويش وهو اليوم يطالبنى بحقوق الأمة فلا أدري ما ستكون عاقبة الأمر معه، ونادى بعض العلماء على منابر الجوامع بتكفير مصطفى رياض باشا ومروقه عن جادة الحق وتعضيده للنصرانية وأهلها، ثم اجتمع نواب البلاد وجعلوا يطعنون فيما بدا من ويلصون وينكرون عليه ما قاله من ضعف جال البلاد وإمحال موارد الإيراد وذهاب ما فى خزيتها من الأموال وأرسل صاحب شرطة القاهرة إلى مصطفى رياض باشا يقول: دبر للخلاص أمراً فإن البغض إليك فى ازدياد ولذلك فإننى غير مسئول عما سيحيق بك إذا لم تغادر البلاد فإننى أرى الخطب شديد والخلاص بعيد فهال مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأزعجه جداً، ورأى الوزير نوبار بعد ذلك استحالة بقاءه فى منصب الوزارة فخلع نفسه وتبعه فى ذلك مصطفى رياض باشا وبقي ويلصون الإنجليزى ودى بلينار الفرنسيس فى القاهرة ينتظران الأمر من دولتيهما، وفر مصطفى رياض باشا من وجه الخديو إلى الديار الأورباوية خوفاً من البطش به.

(مطلب)

رجوع وزارة الوزير شريف باشا بعد وزارة الأمير محمد توفيق وما كان من وراء ذلك

ولما تم تنزيل الوزير نوبار باشا ورفاقه وتخليهم عن المناصب عمد الخديو إلى تشكيل وزارة يرأسها أكبر أولاده الأمير محمد توفيق وسير الخبر بذلك إلى دولتي الفرنسيين والإنجليز فوافقتاه على كره واشترطنا أنه إن حدث أى حادث بعد وقوع ما وقع فلا لوم إلا على شخص الخديو فقبل الخديو ذلك ولكن لم تطل أيام رئاسة الأمير محمد توفيق وزالت لاشتداد الأزمة واستحكام حلقات الضيق بإمحال الخزينة فخلع رابع عشرى ربيع الآخر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع أبريل سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وأقيم بدله الوزير محمد شريف باشا قال بعض الكتاب: وقد كان لم يصل لأحد من الوزراء علم بهذا التغيير فلم يشعر الواحد منهم إلا وقد دخل عليه من خلفه وقبض على زمام الأعمال ففتحوا عن المراكز وهم صاغرون وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق، فلما علمت دولتا الإنجليز والفرنسيين بما جرى خلافاً للعهد هالهما الأمر وحرك منهما ساكنا فأوعزتا إلى وكيليهما بالقاهرة أن يكلما الخديو ويحذراه سوء العاقبة فلم يلتفت لقولهما وأطلق للنفس عنان هواها وأمر فزيد فى عدد العساكر والأجناد إلى ستين ألفاً وأكثر من جمع الأسلحة وآلات الحرب وبالغ فى التأهب والاستعداد، قيل وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار فنقلوا خبر ذلك مخشوا بالغلو والمبالغة وصاحوا بالثارات الدائنين بالثارات حاملي السندات، ولم يقف عند هذا الحد بل رسم أيضاً فى تاسع عشرى ربيع الآخر سنة ست وتسعين بإبطال جميع النظامات والتعديلات التى كانت تقررت للخزينة سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وعدم اعتبارها لعدم ملاءمتها لحالة البلاد وعادات أهلها فتجرد عندئذ أصحاب سياستى الفرنسيين والإنجليز للذب والدفاع وعمدوا إلى الاستعانة بالسلطان وأوعزوا إلى سفيريهما بدار السلطنة أن يبلغا السلطان حديث ما جرى ويستطلعاً أفكاره وكلموا فى ذلك أيضاً بسمارك داهية السياسة وكبير وزراء الألمان فسير بسمارك إلى دار السلطنة فى طلب خلع الخديو تلافياً للخطر قبل استفحاله فاشتدت عزائم الإنجليز حيثئذ وتقدموا إلى السلطان فى تولية الأمير محمد توفيق مسند الخديوية وظنوا أنهم إن فازوا بذلك كانوا أقوى جميع الدول حجة على الأمير وأبيضهن يداً فلا يصح له بعد ذلك أن

ينقض لهم كلمة أو يخالف لهم إشارة، وأحس الخديو إسماعيل بذلك فبث العيون في دار السلطنة وأكثر من البذل والعطاء وهادى رجال الدولة وكبار المايين فأتت إليه الأخبار بعضها يناقض بعضها وطال الأخذ والرد بين سفراء الإنجليز والفرنسيين وصدر الدولة واشتدت الأزمة في سائر البلاد واستحكمت حلقات الضيق على أهلها وسيرت دولة الفرنسيين إلى مصر وكيلا لها اسمه تريكو وأوعزت إليه أن يعمل على خلع الخديو بكل ما وصلت إليه حيلته فزاد هذا الرجل الأمر تعقيدا وخبالا وكان يدخل على الخديو تارة يظهر التحقير والاستخفاف وطورا بالإرهاب والتهويل ويطلب منه التخلي عن منصب الخديوية وكان قونصل الإنجليز في ذلك الحين أروغ من ثعلب يظهر الرفق آونة وآونة يظهر الوعيد والخديو يجد في استمالة رجال السلطنة العثمانية وكبار الدولة ويتقرب منهم كي لا تتمكن الدول الثلاث من خلعه، وبينما هو على هذه الحال إذ ورد عليه الخبر من إبراهيم باشا كابوكخياه بدار السعادة بأن السلطان أبى على الدول خلعه ففرح بذلك فرحا لا يوصف وطير الخبر إلى الآفاق ولكن لم يمض بياض يومه حتى وردت الأخبار في سواد ليله تنبئ بأنه إن لم يتنازل عن عرشه لولده الأمير محمد توفيق طائعا سلبه إياه الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا كرها فاضطرب أى اضطراب وكاد يسقط في يده وجاء الخبر من سفير الفرنسيين بدار السلطنة العثمانية إلى تريكو بأن يلح على الخديو بالتعجيل في خلع نفسه والتنازل لولده إذ صارت تولية الأمير عبد الحليم أمرا مقضيا وشاع الخبر بذلك في تلك الليلة فاشتد الخوف بالناس وكثر تحدثهم فيه وجمع إليه الخديو كبار قومه ورجال أبيه إبراهيم باشا وطوائف المشايخ والعلماء والأعيان ونواب الأمة وتناجوا في الأمر طويلا فلم يستقروا على أمر من الأمور واشتد قلق الخديو وفارقه تلك الحمية وذلك الثبات فلما كانت ليلة الخامس من رجب أى ليلة خامس عشر جونيو سار قونصلا الفرنسيين والإنجليز إلى دار الوزير محمد شريف باشا وأعلماه بخبر ما تقرر في دار السلطنة من خلع الخديو وتولية ولده الأمير محمد توفيق وحدثاه بعزم السلطان على إعادة حقوق السورانة إلى ذرية محمد على باشا وتولية الأمير عبد الحليم إن أصر الخديو على الإباء والعناد، ثم قاموا جميعاً وقد مضى من الليل أكثره وساروا إلى مقر الخديو بعابدين وطلبوا الاجتماع به فمات في ذلك كبير الخصيان، وقال: كيف أفتح لكم الأبواب وقد مضى من الليل أكثره فراجعه الوزير فلم يقبل فصاح به، وقال: ويحك أنا رئيس الوزراء وهؤلاء وكلاء الدول الكبرى وقد أتينا لأمر لا تدرك أنت أهميته.

(مطلب)

مجيئ الأمر السلطاني بخلع الخديوى إسماعيل وتولية ولده الأمير محمد توفيق وما كان بعد ذلك

فبينما هم على هذه الحال مع كبير الخصيان إذ نادى مناد من وراء الحجاب افتح لهم عاجلاً يا غلام الأبواب فصعد الوزير ومن معه ولاقاهم الخديو بلباس النوم فكلموه طويلاً فى أمر تخليه عن المنصب طوعاً قبل تنزيه كرها وألح الوزير عليه فى ذلك فأعلمهم الخديو بالخبر الذى جاء من كابوتخده بدار السلطنة وطال بينهم وبينه الجدل واشتد اللجاج فقال الخديو: لا أتنازل حتى يأتينى أمر السلطان بذلك وقد كان يظن طول الأجل وبلوغ نهاية الأمل فخرجوا من عنده وقد كتب تريكو إلى سفير الفرنسيين بدار السلطنة يخبره بما قاله الخديو فلم تمض الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة حتى ورد إلى خيرى باشا المهردار مرسوم السلطان على جناح البرق خطاباً إلى الخديو بخلعه من منصب الخديوية فاضطرب خيرى باشا ولم يجسر على إخبار الخديو بخبره وظل باهتاً حائراً فدخل عليه الوزير محمد شريف باشا فأعلمه خيرى باشا بالخبر، فقال: ولماذا لم ترفعه لمولايك؟ فقال: لا أجسر على الدخول عليه الآن، فقال: قم وادخل معى فقام ودخلا معاً وفى يد خيرى باشا ورقة الخبر فلما رآها الخديو قال: ما هذا الذى أتيتانى به الساعة، فقال الوزير: هو خبر ورد من دار السلطنة فمدّ الخديو يده وأخذه ونظر إلى ما فيه فاضطرب وعلا وجهه الاصفرار ولبت برهة لا ينطق ببنت شفة ثم نظر إلى الوزير وقال: على بولدى توفيق الساعة، وكان لما كثر اللغط بين الناس وتحدثوا فى أمر خلع الخديو وفيما هو جار بين الدول ودار السلطنة العثمانية فى شأن ذلك وكان الأمير محمد توفيق يومئذ نازلاً بسراى الإسماعيلية الكائنة عند قصر الدبارة كثر ذهاب بعض رجال الدولة وكبار الأمة والمشايخ إليه ورسم بنقل الأمير محمد توفيق من سراى الإسماعيلية إلى سراى القبة بعين شمس فنقلوه مع نسائه وأولاده وأحاطت بمقره طوائف الجند فامتنع الناس عنه وبقي محجوراً عليه حتى سير الخديو فى طلبه فى تلك الليلة فأتوا به إلى سراى الإسماعيلية وأوقفوا الحراس على بابه يمنعون من أراد الدخول عليه فسار إليه الوزير محمد شريف باشا وهنأه بالولاية وأركبه معه وحضر به إلى عابدين فلما مثل بين يدى أبيه قام له إجلالاً، وهى أول مرة قام له، فتقدم الأمير وقبل يده فأذن له بالجلوس فجلس وهو ينظر إليه نظرة البائس الحزين، وقال له: يا بنى لقد اقتضت

إرادة الله سبحانه وتعالى وإرادة مولانا وسلطاننا أن تكون أنت خديو البلاد فأوصيك يا بنى بإخوتك وسائر آل برا واعلم أنى سائر عنك آسف لعجزى عن إزالة جميع ما ستلقاه فى أعمالك من المصاعب والمتاعب على أنى واثق بحزمك فاتبع يا بنى رأى ذوى شورك وعش سعيداً لا كما عاش أبوك. فبكى الأمير توفيق عند سماعه هذا الكلام وبكى سائر الحاضرين وشاع الخبر فى القاهرة ومصر القديمة بخلع الخديو وولاية ولده الأمير محمد توفيق وطير الخبر بذلك إلى الآفاق وأخذ الوزير بيد الأمير وعاد به إلى مقره بالإسماعيلية ثم تركه وعاد إلى عابدين فوجد بها قناصل جميع الدول وبينهم تريكو الفرنسى فدخل الوزير على إسماعيل باشا وأعلمه بحضورهم فدعاهم إليه وكلمهم فى أمر تخليه عن المنصب لولده الأمير توفيق وفى ميله إلى العزلة ما بقى من أيامه وكان إلى هذه الساعة لم يخطر على باله قط أنهم سيعدونه عن البلاد ويخرجونه من أرض الفراعنة قهراً فتقدم إليه عند ذلك تريكو وأعلمه بما وقع الاتفاق عليه من تبعيده عن أرض مصر وطلب منه الإسراع فى جمع ما يشاء من متاعه لينقلو إلى البلد التى يختارها، قيل: فاصفر لونه وتلجلج لسانه وعض على إصبعه ندماً على ما بدا منه من التخلّى عن المنصب قبل أن يستوثق لنفسه ونظر إلى تريكو وقال: يعلم الله أن هذا التباعد ما كان لى فى خلد، ثم جعل يمانع وأغلظ على تريكو فى القول وتجاافى فى الرد فجعل الحاضرون يلاطفونه ويهوئون عليه ويحذرونه عاقبة العناد وما زالوا به حتى عاد وطلب كثيراً من المطالب فأجابوه إلى جميعها.

ثم قال: أطلب مائة ألف ذهبا للنفقة وباخرة لخدمتى وأن آخذ معى جميع مقتنياتى ومن يريد الخروج معى من نسائى والجوارى والحاشية والأتباع وجميع الأمتعة وأن أقيم فى جزيرة أزمير إحدى جزر البحر المتوسط فوافقوه على كل طلب وتساهلوا معه جهد الاستطاعة، وقامت بشأن ذلك المخابرات ما بين قناصل الدول بمصر والسفراء بدار السلطنة والناس فى القاهرة فى خوف عظيم يحسبون للعاقبة ألف حساب.

(مطلب)

رحيل الخديو إسماعيل عن وطنه ومسقط رأسه وسكنه

وأخذ أتباعه فى نقل المتاع والصناديق من عابدين والجيزة والجزيرة إلى بولاق الذكور وطاف جماعة الحصيان على بيوت الأمراء يخبرونهم بالخبر وهم فى بكاء

ونحيب فخرج النساء فى ذلك اليوم وتزاحمن على أبواب عابدين وهن باكيات مولولات رافعات أصوات النحيب، وخرج أيضاً نساء إسماعيل باشا وطفن ببعض البيوت الكبيرة مودّعات فكان يوماً شره قمطيريا، وفى اليوم الثانى الذى هو سادس رجب وسادس-عشرى يونيو قبل شروق الشمس غصت رحبة عابدين بجماهير الناس والجند وأرباب الوظائف العالية والمأمورين والعلماء والمشايخ والأعيان وقاضى القضاة والمفتى وجميع أتباع إسماعيل باشا والعاششين فى نعمته، وقد علا الضجيج وكثرت الغوغاء وظلوا على هذه الحال إلى الساعة الثالثة غربى، فحضر الأمير توفيق ومعه سائر الوزراء وصعدوا إلى مقر إسماعيل باشا فلاقاهم والدمع ينحدر على خديه وحادثهم ساعة ثم حضر تريكو الفرنسيس يستحثه على الخروج فقام من فوره وهو لا يتكلم واقتحم الدرج وهو يتوكأ على كتف ولده الأمير توفيق وخلفه ولدها حسن وحسين والوزراء وقناصل الدول ورجال الديوان الخاص وكبار الجند وأصحاب الرتب العالية وغيرهم من طوائف الخدم والحشم، فلما انتهى إلى باب السراى وقف على آخر الدرج لحظة لطيفة كأنه يودّع الدار ومن فيها فتقدم إليه قاضى القضاة وقبل طرف أثوابه وهو يتحبج بالبكاء فانحنى إليه وقبل رأسه وارتفع صوته بالبكاء وتقدم إليه الوزير محمد شريف باشا وصافحه فتبعه فى ذلك بقية الوزراء وبكوا لبكائه، ثم نزل وركب عربة وركب معه ولده الأمير توفيق وركب فى عربة ثانية الأميران حسن وحسين فلما سارت به العربة وخلفه الجم الغفير صاح النساء من شبايك السراى واشتد الصراخ من كل صوب وارتفعت أصوات الرجال أيضاً بالبكاء واشتد الهرج والمرج وترامح جماعة الخصيان والجاويزية حول عربته وهم يبكون ويلولون «على من تركتنا ياسيدنا» «من أوصيته بنا ياسيدنا» وكان إذا مرت عربته ببيت من بيوت جواريه فتحن الشبايك وصحن صارخات بأعلى أصواتهن وكدن يلقين بأنفسهن وما زال سائرا والصراخ أمامه وخلفه متواصل حتى وصل إلى محطة السكة الحديد وكانوا قد أعدوا للقاءه فريقا من الجند، فنزل الأمير توفيق وأمسك بيد أبيه وأنزله ومر من بين صفوف الجند فحيوه بالسلام وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى فدخل إلى المحطة وقد أعدوا له قطارا مخصوصا فلما دنا منه التفت إلى ولده الأمير توفيق يريد أن يخاطبه فخففه البكاء فضمه إلى صدره وقبله وبكى بكاء مرا فقبل الأمير يده ووقف بجانبه طارق العين والتفت لإسماعيل باشا إلى الحاضرين ورفع صوته يريد أن يودّعهم فلم يقدر فصعد إلى عربة القطار فسار به إلى الإسكندرية وأنزله بالقبارى

حيث كان ينتظره زورق خصوصى فركب وسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع من جميع القلاع والحصون وركب الباخرة المسماة المحروسة وقد كانت أعدت لركوبه وركب معه ولداه حسن وحسين وجميع نسائه وجواريه وأتباعه وغلماناه ومن رافقه من كبار الموظفين والباشاوات وقد سلم محافظ المدينة إلى ريان الباخرة مرسوما وأمره أن لا يفيض ختامه حتى يبعد عن الإسكندرية فراسخ قيل: وهو يتضمن منع تنزيل إسماعيل باشا ومن معه بأى جهة من أملاك السلطنة العثمانية والمسير به إلى أى جهة شاءها من الممالك الأجنبية فلما أعلمه الريان بذلك قال: نسير إلى مدينة نابولى إحدى أعمال دولة إيطاليا فوصلها بعد أربعة أيام وألقت الباخرة مراسها وكان ملك إيطاليا قد رسم لحاكم المدينة بلقائه فلاقاه وبألف في إكرامه والاحتفال به فكانت ولايته سبع عشرة سنة وعشرين يوماً، ومن عجيب الاتفاق أنه تولاه في شهر رجب واعتزلها في شهر رجب فسبحان من لا زوال للملكه ولا إذلال للجبروته سبحانه فهو المعز المذل لا يهدى من عاداه ولا يضل من استهدها إنه التواب العظيم .

(مطلب)

ولاية الخديو محمد توفيق باشا

ولما كان يوم الخميس سابع رجب الفرد من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية ورد من خير الدين باشا صدر الدولة يومئذ مرسوم على جناح البرق خطابا إلى الأمير محمد توفيق باشا يقول:

بناء على أن الخطة المصرية هى من الأجزاء المتممة لجسم أملاك السلطنة العثمانية وأن غاية صاحب الشوكة والاقتدار إنما هى تأمين أسباب الترقى وحفظ الأمن والعمارة فى الممالك - وبناء على أن الامتيازات والشرائط المخصوصة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية - وبناء على تزايد أهمية ما حصل فى القطر المصرى الناشئة عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالى إسماعيل باشا - ثم إنه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السامية الأصافانية من الرشيد وحسن الروية وعلى ما ثبت لدى ملجأ الخلافة العظمى من أن جنابكم الداورى ستوفقون إلى استحصال أسباب الأمانة والرفاهة لصنوف الأهالى وإدارة أمور المملكة على وفق إرادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الإرادة العالية بتوجيه الخديوية الجليلة إلى عهدة استئصال صفائيتكم - وبناء على فرمان العلى الشأن الذى سيصدر حسب العادة على مقتضى

الإرادة السنية السلطانية التى صار شرح حدودها - وبناء على ما كتب بالتلغراف إلى حضرة المشار إليه إسماعيل باشا من تخليه عن النظر فى أمور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله قد تحرر هذا التلغراف لكى يعلن حال وصوله للعلماء والأمراء والأعيان وأهل المملكة جميعاً وتباشر من بعده أمور الحكومة وهذا من التوجيهات الوجهية إلى أثر استحقاق اصفانيتكم لتجرى التنظيمات والترقيات مبدأً وتقدمة ويصير تكرار الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة إلى إبداء لوازم التهئة لحضرتكم أيها الخديوى المعظم والأمر والفرمان على كل حال لمن له الأمر. انتهى.

فلما كانت الساعة الثالثة صباحاً من يوم الخميس صعد الخديوى إلى قلعة الجبل فى أبهة وكبكة زائدة واحتفل بقراءة هذا المرسوم احتفالاً عظيماً ودخل عليه رجال الدولة وكبار الحكومة والعلماء والمشايع والرؤساء الروحانيون ووكلاء الدول كافة وطوائف ضباط الجند فهتؤه وتزاحمت ذوات البيوتات على باب والدته وأتت إليه رسائل التهاني تباعاً من كل صوب وفرح الناس جميعاً بولايته ودقت البشائر فى ذلك اليوم وأولت والدته وأطعمت وكست بعض الفقراء وتصدقت وكتب الخديوى إلى الصدر الأعظم يقول:

وصل ليد التبجيل تلغرافكم السامى الأمر أن فراغ محسوبيكم والذى المحترم عن الحكومة المصرية وتوجيه مقام الخديوية من محض جليل عواطف الحضرة الملوكانية لعهد رقيقكم هما من مقتضى على إرادته السنية السلطانية وبالحقيقة أن تكرم حضرة صاحب الخلافة الأقدس الذات بتوجيه مقام الخديوية لعهد هذا العبد كان دليلاً على جليل المباني وركنا بالفخر لا يعادله ثانى على وجود عبدكم مشمولاً بفيض النظر الملوكاني وبما أننى مهتماً بذلك من الوسع والمقدرة لإيفاء ذرة من التشكرات المفروضة على هذه العنايات والآلاء أرى ذاتى عاجزاً بالكلية عن حق الإيفاء والأداء فلذا رفعت إلى مقر إجابة الرب القدير أكف الأدعية الخيرية ببقاء عمر وعافية وارتقاء شأن وشوكة الحضرة السلطانية مشفوعة بتكرار الدعوات المستجابة بدوام موفقية فنخامتكم وبمقتضى منيف إرادة الجنب السلطاني السنية قد صعدت إلى قلعة مصر فى الساعة العاشرة من يوم الخميس وهناك قد أعلنت الكيفية لجميع من حضر من العلماء والأشراف والوجوه والأعيان والرؤساء الروحانيين والمأمورين الأجانب ولكافة الأهالي وأطلقت المدافع، ثم أخذت بزمم الحكومة وبدأت بظليل ظل الحضرة السنية الملوكانية فى مباشرة أمور الخديوية عالم علم اليقين أن سلامة

الخدوية المصرية وسعادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم
العبودية والتابعة للسلطنة السنية، وأن بقاءها لا يقوم إلا بالصدقة والإخلاص
للذات السنية الملوكانية فأستمر على هذا الطريق وأصرف الوسع والقدرة بالاهتمام
لاستحصل راحة ورفاهية أهالى مصر وسكانها والملمس عرض ذلك لعالى أعتاب
الحضرة السنية السلطانية متخذاً ذلك وسيلة لاستبقاء توجيهات فخامتكم العلية وفى
جميع الأحوال الإرادة والفرمان الحضرة من له الأمر. انتهى.

ولما استقر بالخدوى المنصب رسم إلى الوزير محمد شريف باشا بترتيب هيئة
الوزارة فرتبها على ما شاء، ثم رسم بصرف عشرة آلاف من الجند إلى أوطانهم
فصرفوا ولم يبق من الجند العامل سوى اثنى عشر ألفاً فبدأت دلائل الإصلاح
وظهرت إشارات الفلاح فقرح الناس فرحاً عظيماً ورفع الكثير من الأجانب
المستوطنين بالإسكندرية والقاهرة على اختلاف أجناسهم العرائض إلى وكلاء
حكوماتهم بالإطراء والمدح للهيئة الحاكمة ويشكرون لها أخذها بأطراف الهمة
وسيرها على سنن الإصلاح ويرجونهم فى منع تعرض أبناء جلدتهم إلى عمل
الحكومة وترك تدبير أمور البلاد إلى أهلها قالوا: لأنهم أعلم الناس بها وأعرفهم
بحاجاتها فاشتدت عند ذلك عزائم المصريين وعمد الوزير إلى الإتيان على جميع
أوجه الإصلاح من أبوابها وبالغ فى ترتيب سائر الأمور وإحكام نظامها، وكان إلى
هذا الحين لم يرد فرمان السلطان بالولاية وقد جاء الخبر بأن رجال السلطنة العثمانية
وأهل المابين الهمايونى على طرفى نقيض فإن بعضهم يعمل على تقليل امتيازات
مصر الممنوحة لها من أيام محمد على باشا الكبير وأن السلطان ميال إلى ذلك
فخشى الوزير محمد شريف باشا العاقبة، وكلم وكيلى الفرنسيس والإنجليز فى الأمر
فكتبوا إلى كبيرى السياسة الإفرنسية والإنجليزية فى ذلك فكلما الباب العالى وشددا
فى الطلب وطال الأخذ والرد بين الفريقين وأظهر رجال السلطنة العثمانية حزمًا
وثباتًا فطاولوا وحاولوا واشتدت عزيمة أنصار الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا
وبذلوا النفيس فى استمالة رجال المابين فخاف سفيرا الفرنسيس والإنجليز بدار
السلطنة شر عاقبة هذه الحال وأعمالا الفكرة وأكثر التردد على الباب العالى وما زالا
حتى تقررت القاعدة بينهما وبين الصدر الأعظم على تسيير سفير مخصوص ومعه
فرمان الولاية فطبروا الخبر بذلك إلى القاهرة فزال عن الوزير محمد شريف باشا
ما كان يخشاه.

(مطلب)

ورود فرمان الولاية على يدى فؤاد بك كاتب أول المابين

فلما كان ثالث عشرى شعبان سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية وصلت إلى مدينة الإسكندرية الباخرة عز الدين السلطانية وعليها الأمير على فؤاد بيك كاتب أول المابين يحمل فرمان المشار إليه فأنزل فى سراى رأس التين فى تلك الليلة وقدم إلى القاهرة فى رابع عشره فأنزل مع حاشيته بقصر التزهة بشبرا من ضواحي القاهرة فزاره جميع الوزراء ورجال الحكومة وبالقوا فى إجلاله وتعظيمه وطبروا الخبر بقدمه وفى صبح الخميس خامس عشره هرع الناس إلى قلعة الجبل وتقاطر إليها رجال الدولة وكبار المأمورين وهم بلباس الزينة والتشريف، وصعد كذلك وكلاء الدول والعلماء والرؤساء والأعيان واصطففت الجند تباعا من صليبة ابن طولون وظريق محمد على إلى ديوان السلطان الغورى بقلعة الجبل، وفى نحو الساعة الثانية صباحاً صعد الخديوى راكباً فى عربة التشريف وعلى يساره الوزير محمد شريف باشا وأمامه على فؤاد بيك رسول السلطان وبجانبه طلعت باشا كاتب الديوان الخديوى ومر من وسط الجند بين ضجيج الدعاء وأصوات البوق والنفير ودوى المدافع حتى صعد إلى الديوان فلما استقر به المقام تقدم مبعوث الخليفة بالفرمان وناولوه إياه فأخذه وقبله ورفعته إلى رأسه ثم ناوله إلى طلعت باشا الكاتب فقبله هو أيضاً وارتقى مكاناً مرتفعاً أعد له وقرأ ما فيه بالرومية فكان بالعربية هكذا:

الدستور الأكرم والمعظم الخديوى الأفخم المحترم نظام العالم وناظم منازم الأمم مدير أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الأنام بالرأى الصائب بمهد بنيان الدولة والإقبال مشيد أركان السعادة والإجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى خديوى مصر الحائز لرتبة الصدارة الجليلة فعلاً الحامل لنيشاننا الهمايونى العثمانى المرصع ونيشاننا المرصع المجيدى وزيرى سمير المعالى «توفيق باشا» أدام الله إجلاله وضاعف اقتداره وإقباله إنه لدى وصول توقيعنا الهمايونى الرفيع يكون معلوماً لكم أنه بناء على انفصال إسماعيل باشا خديوى مصر فى اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ ست وتسعين ومائتين وألف هجرية وحسن خدامتكم وصادقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولتأفد دولتنا العلية ولما هو معلوم لدينا من أن لكم وقفاً ومعلومات بمصر منذ مدة وإصلاحها وجهنا إلى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة

المعلومة مع الأراضى المنضمة إليها المعطاة إلى إدارة مصر توفيقا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالى الصادر فى الثانى عشر من المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية المتضمن توجيه الخديوية المصرية إلى أكبر الأولاد - وحيث إنكم أكبر أولاد الباشا المشار إليه قد وجهت إلى عهدتكم الخديوية المصرية ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر أن بعض أحكام الفرمان العالى الشأن المبني على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيها الامتيازات الحائزة لها الخديوية المصرية قديما نشأت عنها الأحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد المقتضى تبديلها وتعديلها وإصلاحها فما تقرر إجراؤه الآن هو المواد الآتية :

إن كافة إيرادات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفؤها باسمنا الشاهانى وحيث إن أهالى مصر أيضاً من تبعة دولتنا العلية وأن الخديوية المصرية ملزمة بإدارة أمور المملكة والمالية والعدلية بشرط أن لا يقع فى حقهم أدنى ظلم ولا تعدّ فى وقت من الأوقات فخديوى مصر يكون مآذونا بوضع النظمات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة - وأيضاً خديوى مصر مآذون بعقد وتحديد المشارطات مع مأمورى الدول الأجنبية بخصوص الجمرك والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لأجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولأجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والأجانب بشرط عدم خلل معاهدات دولتنا العلية المؤسسة وفى حقوق متبوعية مصر إليها وإنما قبل إعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الأجانب بهذه الصورة يصير تقديمها إلى بابنا العالى - وأيضاً يكون حائزاً للتصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مآذونا بعقد استقراض من الآن فصاعداً بوجه من الوجوه وإنما يكون مآذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسمياً وهذا الاستقراض يكون منحصرًا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصاً بها - وحيث إن الامتيازات التى أعطيت إلى مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديها لا يجوز لأى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الأراضى المصرية إلى الغير مطلقاً - ويلزم تأدية مبلغ سبعمائة وخمسين ألف ليرة عثمانية الذى هو الويركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه - وكذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية

عشر ألفا لأن هذا القدر كاف لأمنية إيالة مصر الداخلية فى وقت الصلح وإنما حيث إن قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من أجل دولتنا يجوز أن يزداد مقدار العساكر بالصورة التى تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات ونياشين عسكرنا الشاهانى وبياح الخديوى مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية إلى غاية رتبة أميرآلى والملكية إلى الرتبة الثانية ولا يرخص الخديوى مصر أن ينشئ سفنا مدرعة إلا بعد الإذن والحصول على رخصة صريحة قطعية إليه من دولتنا العلية - ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها - وحيث صدرت إزادتنا السنية بإجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمرنا هذا الجليل القدر والموشح أعلاه بخطنا الهمايونى وهو مرسل صحبة افتتاح الأعالى والأعظم وفخار الأكابر والأفاحم فؤاد بيك باشكاتب المابين الهمايونى ومن أعظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنياشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف انتهى.

فلما أتم طلعت باشا قراءته نزل فارلقى مكانه الشيخ سليم عمر خطيب جامع قلعة الجبل ودعا ببعض الأدعية للخليفة ورجال دولته وللخديوى ورجاله ثم أطلقت المدافع تباعا وهتف الجند بأصوات الدعاء والتعظيم ودقوا طبولهم ونزل الخديوى بموكبه إلى مقر عابدين فانصرف الجميع وتزاحم الكبراء والأمراء ورجال الدولة فى ذلك اليوم على بابه وزار والدته نساء الأمراء والكبراء وزينت مصر والقاهرة ثلاث ليال وأطلقت المدافع من قلعة الجبل فى الأوقات الخمس وفرح الناس بذلك كثيراً.

(مطلب)

تخلى الوزير محمد شريف باشا عن منصب

الرئاسة وما اشتهر به بين الناس

وسار الخديوى فى الرعية سيرا حسنا وسلك بهم مسالك الدعة والرفق وفرّق الصدقات على المساكين والمتقطعين وبالع فى الإحسان فلم يرد سائلا ولم يمنع مستعطيا وتقدم إليه الوزير محمد شريف باشا فى رفع الخراج عن جميع الأراضى المأخوذة للمنافع العمومية فرسم برفعه وكان شيئا كثيراً وتقدم إليه أيضاً فى طلب كثير من الأمور النافعة للبلاد وأهلها فأجابه إليها فتعلقت الآمال بالوزير واجتمعت على محبته القلوب وظل الحال على أحسن ما يكون من الهدوء والطمأنينة ورواج

الأعمال أياما والناس فى فرح واستبشار حتى خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من منصب الرئاسة وتخلّى عنه طائعا فى الثلاثين من شعبان فتطير الناس من ذلك وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد واختلفت الأقوال فى الأسباب فمن قائل أنه تخلّى لخلاف بينه وبين قونصلى الإنجليز والفرنسيين ومن قائل بل لخلاف مع قونصل الفرنسيين لأمور نقيمت عليه ومن قائل: بل بإيعاز من دولة الإنجليز إذ كانت ترى منه قرما عنيدا شديد البأس عزيز النفس أبيها صبورا على الشدائد فعملت على تنزيله فأحس بذلك فبادر هو بخلع نفسه، ومن قائل غير ذلك وعندى أن القول الأخير أرجح بل أصبح فحزن الناس عليه وأسفوا أسفا شديدا وقد عرفوا منه رجلا كسبا حازما صائب الرأى شريف النفس واسع المعرفة بأساليب السياسة شديد الميل إلى نصرة المظلوم يعفو عند المقدرة ويغض عن الهفوات ويعرض عن بطانة السوء ويكره المطرئين وأصحاب الوشاية ميالا إلى بث روح الحرية والمساواة بين صفوف الرعية، وهو أول من نادى بالشورى على عهد الخديو إسماعيل وبذل جهد المجتهد فى بثها فى جوف البلاد ثم أنشأ قانونها ورفعها إلى الخديو إسماعيل وطالبه يومئذ بتحرير البلاد وفك قيود الرعية فتمللم ولم يقبل فآلح عليه وهدده بتنزيل نفسه وتخليه عن منصب الرئاسة يومئذ إن هو أصر على الإبقاء ثم حدث فى ذلك الحين من الكوائن ما كان سببا لترك ذلك القانون فى روبا الإهمال، فلما تولى الخديوية الأمير محمد توفيق باشا ووجه مسند الرئاسة إليه أحسن الظن بمخدومه وأخلص له النية. قال بعض كتاب الأخبار: فأبان له عما فى الشورى من الخير والبركة وجعل يحجب إليه العمل بها فمال إلى رأيه ودعاه إلى سنّ قانون لا يمس حقوقه الذاتية ولا يذهب شيئا من سلطته الوراثية فرفع إليه القانون الذى كان أنشأه على عهد أبيه إسماعيل. قال: فاستشار رجال ديوانه فى جواز العمل به فقبحوا له ذلك وموهوا عليه الحقائق وهولوا فى العاقبة فأعرض عنه فراجعه الوزير فلم يرض فأنزل نفسه عن منصب الرئاسة فى الثلاثين من شعبان كما تقدم القول (قلت): وهذا قول آخر فى أسباب تخليه عن منصبه وعندى أنه قول لا صحة له والأول أصح، وكان مصطفى رياض باشا إلى هذا الحين نزيل الديار الأوروبية وكان قد فرّ هاربا من وجه إسماعيل باشا خوفا من البطش به كما تقدم القول فأرسل إليه الخديو يستقدمه ويستحثه على الحضور ليوليه مسند الرئاسة وأقام هيئة وزراء مؤقتة برياسته كان فيها الوزير منصور باشا يكن وعلى حيدر باشا وذو الفقار باشا ومصطفى فهمى باشا ومحمد مرعشلى

باشا وعثمان رفقى باشا وعلى إبراهيم باشا فتحدث الناس فى أمر طلب مصطفى رياض باشا وتطيطروا من توليته مسند الرياسة وخشوا عاقبته لما يعلمونه من عدم موفقيته ونكد طالعه على البلاد وكثر لغتهم فى ذلك، فلما كان سابع عشر رمضان قدم رياض باشا إلى القاهرة فبالغ الخديوى فى إكرامه ولبث أياما يغدو ويروح إلى مقر الخديوى والناس فى تخوف كأن على رؤوسهم الطير ثم شاع أن استقدمه بعد ذلك التباعد إنما كان بإيعاز من دولة الإنجليز وإلحاح من قونصلها بمصر. قال بعض كتاب الأخبار: وتحرير الخبر أنه لما سار إلى لندن عاصمة الإنجليز بعيد فراره من القاهرة اجتمع به ويلصون الذى كان متوليا نظارة المالية المصرية على عهد إسماعيل باشا وشكى إليه حاله وما لاقاه من مضض التضيق وذل التباعد عن الآل والوطن فقربه ويلصون من كبار ساسة الإنجليز واستمالهم إليه وأعلمهم بحاله وما لاقاه من إسماعيل باشا. قال الراوى: فسأله بعضهم قائلاً: ماذا تفعل إذا أرجعناك إلى ديار مصر ووليناك منصب الرياسة؟ قال: أكفل لكم تعضيد سيادتكم وإعلاء كلمتكم والعمل فى سائر الأحوال بحسب إشارتكم فوعده بذلك إن هو حافظ على العهد ولم يرجع عنه وجعلوا من ذلك الحين يعملون مع الخديوى على إرجاعه وتوليته فأحسن الوزير محمد شريف باشا بذلك فخلع نفسه وأفرغ لهم المسند فاستقدمه الخديوى كما أشار قونصل الإنجليز وقد زاد الناس اعتقاداً فى صدق هذا النبأ ما تبينوه يومئذ من استحسان أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية أمر توليته منصب الرياسة وامتداحهم لكفاءته وحسن سياسته وقدرته على تدبير الأمور على أحسن ما يكون، وقد تطرف بهم الإطراء إلى القول بأنه على عزم أن يرفع إلى مقام الخديوى قبل تولية المنصب ثلاثة مطالب لا بد منها ولا مندوحة عنها الأول: جعل هيئة الحكومة دستورية أو مشورية بأن تولف من وزراء مسئولين ولا يكون أمير البلاد مسئولاً عن أى خلل يحدث فى الخزانة أو فى إدارة البلاد. الثانى: عدم جواز خلع أحد من موظفى الحكومة إلا بحكم يصدر عليه. الثالث: أن لا يتأسس الخديوى قط على هيئة مجلس الوزراء ليكون لكل منهم حرية إبداء فكره فلم يعتبر الناس يومئذ بأن هاته المطالب من عنديات مصطفى رياض باشا لأنهم يعرفونه عدواً للشورى. قلت: وقد سبق لأصحاب هذه الصحف طلب تقرير هاته الأمور على عهد إسماعيل باشا فحضوا جوشن وجوبير يوم كانا بديار مصر على تقريرها وإكرامه إسماعيل باشا على العمل بها ثم حال دون ذلك من المحن والكوائن ما كان سبباً فى خلع إسماعيل باشا وتبعيده.

(مطلب)

تولية رياض باشا الرئاسة للمرة الأولى

فلما كان رابع شوال من السنة (أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية) رسم الخديوى إلى مصطفى رياض باشا بتشكيل هيئة الوزارة فشكلها على نحو ما أراد ووافقه الخديوى على تشكيلها. فتزاحمت على بابہ أقدام أصحاب الوظائف والمناصب العالية ومأمورى الحكومة وذوى الغايات والمطامع فأمر ونهى وتقدم إلى الخديوى فى إقامة المراقبين الماليين الإنجليزى والفرنسى اللذين أشار بهما رجال لجنة التصفية كما تقدم الكلام على ذلك فى محله فأجابه إلى ما طلب ورسم به فجاء من قبل دولة الإنجليز أحد رجالها واسمه الماجور بارنج وجاء من قبل دولة الفرنسيس آخر اسمه المسيو دى بليانر وهو الذى كان متوليا نظارة الأشغال العمومية على عهد إسماعيل باشا فسلم لهما الرئيس مصطفى رياض باشا زمام الأعمال فبحثا ونقبا وأتيا على جميع أمور الخزينة من أبوابها وأخذوا فى إصلاح ما فسد من أحوالها ورتبا لأصحاب الديون نظاما كافلا بحفظ حقوقهم وعينا لجباية الأموال آجالا يجبون فيها الخراج وقد كانت إلى ذلك الحين هملا مهملا وأبطالا كثيرا من المغارم والمكوس الظالمة والبدع المستحدثة وقرروا قاعدة لميزانية خزينة البلاد وإيرادها ومصرفها ونظروا فى جميع أوجه الإصلاح من أبوابها وقيدا الأعمال باللوائح والنظامات المرتبة على نسق ما فى بلاد الأمم المتقدمة ونظروا إلى فلاحي البلاد وأصحاب الزراعات نظرة الأب الشفيق فهوئا عليهم كل أمر شاق، وبينما كان المراقبان يعملان على ما فيه المصلحة للبلاد وأهلها كان الرئيس مصطفى رياض باشا يعمل أيضاً على تعزيز مقامه وإعلاء كلمته وبسط يده على جميع الأمور وإحاطته علما بالصغير منها والكبير فتطرق به جب هذه الأثرة إلى التعدى على حقوق الخديوى وجعل أعماله ونفوذه الذاتى لا يتعدى إشارته وكان الخديوى منذ تولى المنصب قد جعل يعطى مأمورى الحكومة وبعض أعيان البلاد ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار تلطفا منه وإحسانا فلم يرق عمله هذا فى عين الرئيس بل أنكره وندد به ونهاه عن التمدادى عليه فلم يلتفت الخديوى إلى قوله فأكبر الرئيس هذا الأمر من الخديوى وكتب فى رابع عشر ذى القعدة من السنة إلى جميع دواوين الحكومة يقول: إنه لا عبرة قط لهذه الرتب فى أمر الجماكى والمرتبات فى جميع الخدمات الملكية فساء الخديوى ذلك واستعظمه وكبر عليه الرجوع عما فى نفسه فزاد فى الإحسان وأكثر من العطاء فامتعض الرئيس وعقد لذلك مجلس الوزراء فقرّ قرارهم على أن لا يعطى شىء من ألقاب الشرف والناشين

إلى مأمورى الحكومة وموظفيها أيا كانت درجته إلا بعد الطلب من مجلس الوزراء
ورفع هذا القرار إلى الخديوى ليصادق عليه.
(مطلب)

فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوى

والرئيس مصطفى رياض باشا

فكبر الأمر عليه وأزعجه فطاول وحاول أيا ما وراجع الرئيس ثم أدرك ما سيكون
من وراء ذلك من الفشل واستفحال الخطب إن هو أصر على الامتناع فوقع على
القرار كارها فكان هذا الحادث فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوى والرئيس
مصطفى رياض ومن معه ورأى الخديوى بعد ذلك من الرئيس غلظة وجفاء فتأهب
للتجول فى أنحاء القطر والترفع إلى الأقاليم القبلية ترويحاً للنفس من شر هذا
الحال، فلما كان صبح الخميس تاسع عشرى صفر من السنة أى سنة سبع وتسعين
ومائتين وألف هجرية تحرك ركابه وسار قاصداً الأقاليم القبلية ومعه آل بيته وحاشيته
وأتباعه وغلمانهم ورجال ديوانه الخاص فاستعد أهل البلاد للقاءه وفرحوا بحضوره
إليهم فرحاً لا يوصف وأظهروا من الإخلاص والتلطف للقاءه ما لا يكاد يصدق
العقل فزينوا البلاد بالأنوار والرايات والرياحين والأزهار وقابلوه بالطبول والزمور
وإطلاق البنادق بين ضجيج الفرع وأصوات الدعاء والابتهال إلى الله، فكان إذا نزل
ببلد هرع أهلها رجالاً ونساء وأطفالاً وقابلوه بالدعاء وبالغوا فى تعظيمه فكان
يقابلهم بالبشاشة والترحاب ويمد لهم الموائد ويعطى الفقراء والمساكين منهم ولا يرد
لهم سائلاً وما زال على هذه الحال حتى مدينة أسيوط، فلما استقر بها ركبته كتب
إلى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول:

أنا الآن بأسيوط وليس فى الإمكان والاستطاعة وصف جميع ما أظهره الأهالى
من الجيزة إلى هذا المكان من عظم الفرع والمسرة وحسن الترحب بنا ولا شك أن
مثل هذه الأفراح والمسرات لا تصدر إلا عن الثقة العمومية ولا توجد الثقة إلا
بوجود العدالة والاستقامة، ويرى أن الرعية الآن آملة فينا واثقة بنا، تلك نعمة آلهية
عظيمة المقدار وتوجب علينا الاستمرار على نهج منهج العدالة والأمانة لتزداد الرعية
حباً لنا وثقة بنا جمل الله القدير اجتهادنا بالفلاح، ثم رجع إلى القاهرة فى كبكته
وزينته بين خدمه وحاشيته وأتباعه ورجال ديوانه وسار منها إلى الأقاليم البحرية
فلاقاه أهل البلاد بالفرح وأولموا لقدمه اللائم والأفراح وبالغوا فى ذلك بما لا
يكاد يدخل تحت الحصر ثم قفل راجعاً إلى القاهرة وقد بلغه من أخبار الرئيس

مصطفى رياض باشا واستهتاره بالأمور وتحامله على منصب الخديوية وشخص الخديوى ما أنساه تلك الولايم والأفراح فجعل عند ذلك يراقب الأحوال والرئيس لا يلوى غنان النفس عن هواها وقد بسط يده على جميع مصالح الحكومة فتزاحم على بابيه أصحاب السعاية وتقرب من مجلسه أهل النميمة والوشاية واشتد على كل من آتس منه جاشا فهابه الحكام وخافه أصحاب الوظائف وكثرت عيونه وأرصاده وأوجس أتباع إسماعيل باشا منه شرا إذ مال على بعضهم يريد الانتقام واشتد عليهم شدة بالغة فهاهم أمره وأزعجهم تهديده وخشوا عاقبة فعله فانضم بعضهم إلى بعض وتألّبو مع الفريق شاهين باشا كنج الذى كان رئيس ديوان الجند على عهد إسماعيل باشا وجعلوا يدبرون على الخلاص منه فلما أحس بما هم عليه سير إلى شاهين باشا يتهدده ويقول: إن لم تقلع عما أنت عليه ساءت حالك وكذب فالك ثم بث حول داره العيون ومنع من دخول الناس إليه فكبر الأمر على شاهين باشا وأرسل إلى إسماعيل باشا يعلمه بما آلت إليه حالة أتباعه وحاشيته وكل من نالته منه نعمة ويشكو من مقال الرئيس مصطفى رياض باشا فحبب إليه إسماعيل باشا ترك تابعة السلطنة العثمانية والالتجاء إلى دولة إيطاليا فمال شاهين إلى ذلك فرارا من إيذاء الرئيس وعلم الرئيس بالخبر فمانع قال بعض الكتاب: وحرص بعض مشايخ البلاد التى بها زروعات شاهين باشا فأقاموا عليه الدعاوى الطويلة وضيقوا على خدمه وأتباعه وأخذوا ما قدروا عليه من أرزاقه فكبر عند ذلك خوف شاهين باشا وألح على إسماعيل باشا فى التعجيل فوردت إليه أوراق التابعة فقام من فوره وحصر أرزاقه وضبطها ووكل بها من يبعث إليه برزقها فى حينه وتأهب للرحيل إلى مدينة نابولى حيث يقيم إسماعيل باشا فكبر الأمر على الرئيس مصطفى رياض باشا وجعل يدبر على فساد حيلة شاهين وسير إلى قونصل دولة إيطاليا فى ذلك فلم يفلح.

(مطلب)

الحكم بتبعيد جاهين باشا وتجريده من رتبه وألقابه

فلما كان خامس رجب قام شاهين من القاهرة إلى الإسكندرية يريد الذهاب إلى نابولى فجمع الرئيس فى صباح سادسه هيئة مجلس الوزراء على خلاف العادة وهيا قرارا بتجريد شاهين باشا من جميع رتبه وألقابه وصفاته الرسمية مع محو اسمه من سجل ضباط الجيش المصرى ومنعه من العود إلى ديار مصر منعاً مؤبداً، ثم رفع

هذا القرار إلى الخديوى فامتنع من التوقيع عليه فشدد الرئيس فى الطلب فوق عليه كارها فسير به الرئيس مع رسول إلى شاهين باشا فأعطاه إياه وهو على ظهر السفينة التى كانت قائمة ذلك اليوم إلى مدينة نابولى، حدثنى صاحب لى قال: كنت فى ذلك اليوم على ظهر السفينة التى كان بها شاهين باشا وكنت مودعا خليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى حيث كان قاصدا مدينة نابولى إحدى أعمال إيطاليا فرارا من وجه الرئيس مصطفى رياض باشا فبينما نحن مهتمون بإصلاح متاع السفر إذ صعد على ظهر السفينة أحد مأمورى الحكومة وعلامات الاضطراب بادية على وجهه فتقدم إلى شاهين باشا وناولوه ورقة مختومة ففحصها وقرا ما فيها وهو هادى اللب ساكن القلب ثم التفت إلى ذلك المأمور وقال: قل للرئيس أصلح الله حاله إنى فاعل ما أراده حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا والتفت إلينا وقال وهو يتبسم: تالله لو بغى جبل على جبل لك الباغى. قال: صاحبى فقلت جعلت فداك هل هى وصية يجب العمل بها؟ فقال: بل هى فرية يجب أن تخلد فى بطون التواريخ ليعلم صاغر عن كابر كم تقاسى مصر وأهلها من الجور والاستعباد. قال صاحبى: فخفت أن أطيل الكلام بحضرة المأمور وتشاغلته عن حديثه بحديثى مع كبير الخصيان حتى تركنا المأمور وانصرف فنظرت إلى شاهين باشا لعله يعيد علينا حديث ما فى تلك الورقة فلم يفعل وكان لم يكن به شئ وودعته مع كبير الخصيان وانصرفت وأنا فى خوف ظانا أن قد وصل خبرى إلى الرئيس فرجعت إلى القاهرة ولازمت دارى أياما حتى سكن جاشى واطمأن قلبى ولم يقدر الله على بمكره . اهـ.

قلت: وقد عدّ فرار شاهين باشا و خليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى وإحاقهما بإسماعيل باشا ذنبا لا يغفر إذ عقد الرئيس مصطفى رياض باشا فى ثامن رجب هيئة مجلس الوزراء وتناجوا فى ذلك طويلا وبعد أخذ وردّ تقررت القاعدة بينهم على نزع سراى عابدين مع ما يتبعها من الأبنية وغيرها من جميع الملحقات وسراى الإسماعيلية وملحقاتها وما يتبعها من الأبنية وسراى القصر العالى وملحقاتها وما يتبعها والمكان الكائن بمصر القاهرة بخط الإسماعيلية وملحقاته المعروف بمخزن الموبليات ومطبعة بولاق وملحقاتها مع ما يتبعها من الآلات والمهمات والأبنية وأصطبلات بولاق وسراى الجزيرة مع ما يتبعها من الأبنية والجنية البالغ مقدار ذلك اثنين وستين فدانا والأراضى التى تتبعها وقدرها ثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون فدانا وجميع الملحقات الكائنة بالجزيرة وسراى الجزيرة وما يتبعها من الأبنية

والجنية والأراضى من جميع الملحقات التى قدرها خمسمائة فدان وسبعة عشر فداناً والنزل والكشك والحمامات الكائنة بمدينة حلوان وجنية النزهة القديمة المعروفة بجنية باستريه بالإسكندرية على ترعة المحمودية وسراى الرمل بالإسكندرية وجميع ما يتبعها من الأبنية والثكنات والإصطبلات وغيرها من الملحقات الكائنة بالرمل وسراى دفينه وما يتبعها بمديرية البحيرة وسراى المنصورة وما يتبعها وسراى الروضة وسراى المنيا (أى منية ابن خصيب) من ملكية إسماعيل باشا وجعلها من أملاك الحكومة قالوا: لأنه قد تبين لهم أن بناء البعض وشراء البعض الآخر كان من مال الخزينة ولأنها لازمة جميعها للمنافع العمومية أو لإقامة خديوى مصر ولأنها كانت لغاية الآن مخصصة لذلك، فلما شاع خبر ذلك استعظمه الناس وتحدثوا به وقد كانوا لا يظنون وقوعه من الرئيس، ثم أعقب ذلك أيضاً أن سير الرئيس إلى ربان السفينة المسماة المحروسة التى كان إسماعيل باشا اتخذها مسكناً لنسائه أمام مدينة نابولى بأن يسرع الكرة إلى الإسكندرية بالسفينة وإلا عدّ تأخيرها عن الحضور عصياناً وخروجاً وكتب بذلك أيضاً إلى إسماعيل باشا فكبر الأمر على إسماعيل باشا وأحزنه جدا ولم يسعه إلا إعادة السفينة ومن شاء الرجوع إلى القاهرة من خدمه وأتباعه وحاشيته واشترى له داراً بنابولى وأسكن بها من بقى من جواريه ونسائه وأرسل إلى الخديوى توفيق فى ذلك وعاتبه وبالحق فى الشكوى من فعال الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة وأشار عليه باليقظة والاتفات.

(مطلب)

الاحتفال برفع قانون التصفية إلى مقام الخديوى

وكانت لجنة التصفية إلى هذا الحين قد أتمت أعمالها على وجه ما تقدم بيانه وعملت بها دستورا سمته (قانون التصفية) وتأهبت لنشره والعمل به، فلما كان يوم السبت تاسع شعبان من السنة سار رجال هذه اللجنة من القاهرة إلى الإسكندرية وصعدوا إلى مقر الخديوى بسراى رأس التين فتقدم إليه ويلصون رئيس اللجنة وبقية رجالها فصافحهم جميعاً ثم خاطبه ويلصون بعبارات التهاني وقص عليه مجمل ما عملته اللجنة فأجابه الخديوى بعبارات التلطف وناوله بيده النيشان المجيدى من الدرجة الأولى وكذلك ناول كلا من بطرس بك غالى والمستر كولفن والمسيو براوللى والمسيو دى بوغاز والمسيو تريكو والمسيو يتجره والمسيو ليرون دى رول النيشان العثمانى من الرتبة الثالثة وأعطى كذلك النيشان المجيدى من الرتبة الرابعة لبقية رجال

تلك اللجنة وبعد انصرافهم أحسن الخديوى على الرئيس مصطفى رياض باشا بالنيشان العثمانى من الدرجة الأولى وعلى المسيدى بليانار المراقب الفرنسى بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى أيضاً وأحسن كذلك بعدة رتب ونياشين إلى بعض الوزراء وعند غروب اليوم استدعى الخديوى للطعام جميع الوزراء ورجال لجنة التصفية بمقره برأس التين، وكان المكان غاية فى البهجة والزينة داخلاً وخارجاً فأنت إلى ديوان الخديوى فى ذلك اليوم وتلك الليلة رسائل التهاني من الآفاق وحضر فى نحو الساعة الثالثة من تلك الليلة إلى رحبة السراى طوائف الجند ما بين مشاة وركبان بالطبول رافعين بأيديهم فوانيس الزجاج الملون موقدة بالشموع وساروا إلى أن وصلوا إلى واجهة السراى المشرفة على تلك الرحبة حيث كان الخديوى وسائر الوزراء ورجال اللجنة يتظرونهم فاصطفوا هناك وبعد برهة لطيفة نادوا بأصوات التهليل ثم ساروا وعبروا شوارع المدينة حتى انتهوا إلى ميدان المنشية فوقفوا هناك برهة فهرع الناس لرؤيتهم وفى أواخر الساعة الثالثة اجتمع أرباب الأشاير والطرق تتقدمهم المشاعل والأنوار والطبول والزمور والبيارق والرايات وساروا على نظام معلوم عندهم إلى أن دخلوا رحبة السراى فى عدد كثير وكان كل فريق منهم على شكل مخصوص وهم يضجون ويعجون ثم ورد من بعدهم أبناء المدارس وفى أيديهم مصابيح الشمع وفى ذلك الوقت كان ساحل البحر مزداناً بالأنوار وكذلك جميع السفن الراسية فى المينا وقد سار عدد من قوارب البحر يحمل الجماهير من الناس وكانت مزدانة بالأنوار والقناديل وفى بعضها الطبول والمغنون والمغنيات فانتهوا إلى مقر الخديوى وهم يعزفون ويضربون الطبول إلى أن كانت الساعة السادسة من تلك الليلة فأطلقت شنكات البارود والحرايق والألعاب النارية أمام السراى من باخرة الخديوى الخصوصية وباخرتى محمد على ومصر واستمرت كذلك إلى الساعة السابعة من الليل وقد تسابق الناس على اختلافهم لرؤية هذا المنظر البهيج والمشهد الحافل وكانت ليلة لم يسبق لها مثال وأكثر الشعراء فيها من المدح والغزل وعملوا فى لجنة التصفية القصائد والمدائح وأوعز الرئيس مصطفى رياض باشا إلى مديرى الأقاليم فوردت رسائل التهاني ركاباً من سائر البلاد.

وكان أول شيء بدى به من نفثات التصفية زيادة مائة وخمسين ألف جنيه ذهباً على ضريبة الأطنان العشورية وتوزيعها على التساوى بلا فرق ولا تمييز بين الأراضى وبعضها قالوا: وستبقى هذه الضريبة معمولاً بها حتى ينجز ترتيب أمور الخزانة فلم

يتم توزيعها حتى انبث أصحاب الجباية يعيشون في البلاد لجمعها فشق هذا الأمر على أصحاب تلك الأطنان وشكوا منه وتزاحموا على باب الرئيس فمناهم ووعدهم خيرا فسكتوا فلما كان خامس عشر رمضان من السنة قرر الرئيس اعتبار هذه الضريبة أصلا مقررا في ضرائب الأطنان العشورية وأن لا يكون بينها وبين الضرائب الأصلية فرق وأن جميع الأطنان المعطاة قبل الآن بشرط أن تكون عشورية يربط عليها العشور المناسبة لها على هذا الأساس بعد فرزها وتقدير درجاتها وما كان معطى بدون شرط جعلها عشورية وكذلك جميع الأطنان الميرية التي تنقل من الآن فصاعدا من حياة الميرى لحياة أخرى تعتبر أطنان خراجية ويربط عليها الخراج بحسب الدرجة المناسبة لها فأثت الزيادة بعد ذلك القرار أمرا مقضيا فاشتد انقباض الناس من فعال الرئيس وتطيروا منها وابتعدت قلوبهم عنه أو كادت وكثرت الإشاعة بقرب خلعه وتنزله عن منصب الرئاسة .

(مطلب)

أول شكوى لضباط الجند مما يلاقونه من عثمان رفقى باشا

وأعقب ذلك أيضاً أن ظهر فريق من ضباط الجند يشكون مما يلاقون من عثمان رفقى باشا رئيس ديوان الجند وصرفه الكثير منهم عن الخدمة العسكرية واستعاضتهم بآخرين من جماعة الشراكسة بغير سبب، قالوا: سوى الميل إلى الجنسية ورغبته في تباعد أبناء البلاد ووالوا الشكوى وعظموا البلوى ورفعوا إلى الرئيس مصطفى رياض باشا ظلامتهم ووقفوا ببابه أياماً فلم يروا منه التفاتاً وقد اشتد بهم الضيق وكثرت عليهم حاجة العيال فكانوا يجتمعون في كل ليلة في دار محمد أفندي فنى رئيس المترجمين بديوان الخزينة يتناجون في أمرهم وما هم فيه من الشدة والفاقة ويرددون حديث ما تعانيه أهل البلاد من جفاء الرئيس مصطفى رياض باشا واستصغاره بأمور البرعية فاتصل به خبر اجتماعهم فبث حولهم العيون والأرصاد وهم لا يشعرون، فلما كانوا في إحدى الليالي يتناجون في حوادث يومهم ذلك إذ كبس عليهم نفر من الجند وأصحاب الشرطة وأمور من مأمورى الضابطة وقبضوا عليهم جميعاً ومافوهم إلى الحبوس فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا تنقلوهم إلى سجن قلعة الجبل ورسم الرئيس فهيئوا لمحاكمتهم مجلساً حربياً وشددوا عليهم وضيقوا فكثرت تحذير الناس في ذلك وتناولت ألسنتهم إلى التقرير والسباب، فلما كان ثالث ذى الحجة سنة سبع وتسعين حكموا على محمد أفندي فنى صاحب البيت بالطرد من خدمات

الحكومة والسجن بقلعة الجبل ستين وحكموا على من كانوا يجتمعون معه بالسجن والعزل من الوظائف العسكرية، واشتدوا من هذا الحين على جميع الضباط المصريين وبالعوا في التضييق عليهم وخلعوا الكثير منهم بغير موجب ولا سبب واستودعهم برقع الجماكى فكانوا نيفا وألف ضابط وقد حاق بهم الذل والحيف وأعمل الجوع فى أطفالهم عمله فتألبوا وتحزبوا وارتبط بعضهم ببعض بالإيمان والعهد وانضم إلى جمعهم كل ذى نائبة من أبناء البلاد وكانوا كثيرين لا سيما من ثقلت عليهم يد الرئيس، حدثنى صاحب لى قال: لما ظهرت علامات الفتنة وكادت تبدو إشارات الخروج وأحس الخديوى بذلك كلم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة فلم يلتفت وكان إذا شدد عليه الخديوى وحذره وألقى عليه التبعة ذهب إلى قونصل الإنجليز وشكى إليه واستعان به على الخديوى فبلغ من نفوذ القونصل المذكور يومئذ أن صار يعزل ويولى من يشاء من مأمورى الحكومة وأرباب الوظائف وأتى بجماعة من قومه فأدخلهم فى خدمة الحكومة وسد بهم أبواب الرزق فى وجوه أهل البلاد وجاراه فى ذلك قونصل الفرنسي فبات الرئيس وهو لا يقدر أن يخالف لهما كلمة ولا ينبذ لهما طاعة وظل على هذه الحال والخديوى لا يرى للخلاص سبيلا .

(مطلب)

ظهور الوحشة بين المراقب الفرنسى وقونصل جنرالاه

وظهور عصابة الجند

ورأى المسيو دى بليانر مراقب الفرنسيين من نفوذ قونصل جنرال دولته واتساع كلمته وتناول يده إلى أعمال الحكومة والبحث بمنصب المراقبة ما أزعجه وبلبل أفكاره فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك وحذره من سوء العاقبة ثم جعل يمانع فى تدخل القونصل ويعمل على إيقافه عند حده فاستكبر القونصل ذلك ونقمه عليه وناواه الخصام فقامت بين الاثنين قائمة الشخاء واشتدت البغضاء وأعرض الرئيس عن المراقب ومال إلى جانب القونصل فكبر بغض المراقب له أيضاً واستفحل بينهما الخلاف واستعصى الوثام، وبينما كان الرئيس والمراقب والقونصل يتنازعون النفوذ والحرب بينهم سجال كان عثمان رفقى باشا رئيس ديوان الجند يكثر من عزل الضباط المصريين ويقصدهم عن مناصبهم ويولى بدلهم جماعة الشراكسة وكان ممن عزلهم من مناصبهم كبير من ضباط الفرسان اسمه أحمد بيك عبد الغفار وكان له منزلة وحرمة بين قومه فما شاع خبر عزله حتى انضم إليه جماعة الضباط المعزولين وجعلوا

يجتمعون فى كل ليلة فى داره ثم اتفقوا على أن يختاروا لهم رئيسا يرجعون إليه فى أمورهم وتدير شئونهم فوق اختيارهم على أحد أمراء الجند المدعو أحمد بينك عرابى أمير جند الألاى الرابع فلبى دعوتهم وتجرد لنجدتهم وعمل على توحيد كلمتهم وأحكم التدبير على ما يناسب مصلحتهم، قلت: وأحمد عرابى بينك هذا رجل ولد من أبوين فقيرين وكان مولده فى ليلة السبت ثالث عشرى جمادى الثانية من عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية، وقيل: ولد فى صفر عام سبع وخمسين فى قرية من قرى الشرقية تسمى هرية رزّه على بعد بعض فراسخ من الزقاريق أنشأها محمد على باشا الكبير وأسكن بها جماعة من العربان الذين يقال إن أجداد أحمد عرابى هذا منهم وأقطعهم بعض الأراضى لزراعها واستغلالها رزقه بلا مال إلى أجل فكان ما أصاب أبو أحمد المدعو عرابى من تلك الأرض ستة أفدنة سوادا فكانت مادة حياتهم ومنبع تعيشهم، فلما بلغ أحمد عرابى أشده سلمه أبوه إلى قبضى اسمه المعلم مخايل غطاس وكان صراف الناحية ليعلمه القراءة والكتابة فلازمه زهاء خمس سنوات أحسن فيها معرفة القراءة والكتابة وبعض القواعد الحسابية ثم أدخله أبوه فى مصاف طلبة العلم بالجامع الأزهر فرارا من العسكرية وذلك سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية فلبث به زهاء الأربع سنوات يتلقى بعض أصول النحو واللغة والفقه وحفظ القرآن ثم عاد إلى قريته وأقام مع والديه إلى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية ثم أخذ إلى العسكرية قهرا على عهد سعيد باشا وكان من أهل قريته بالمعسكر جاويش بروجى لسعيد باشا اسمه حسن حلمى له كلمة مسموعة فتقرب منه أحمد عرابى ولازمه واحتسب عليه فأحببه وعمل على مساعدته فرقى بواسطته إلى رتبة بلوك أمين للبلوك السابع من الأربعة من الألاى المشاة الأول وكان يعرف بين الجند يومئذ بالشيخ أحمد عرابى فلما كانت سنة ثلاث سبعين رقى إلى رتبة ملازم ثم إلى رتبة يوزباشى فى سنة أربع وسبعين ثم إلى رتبة الصاغقول أغاسى واليىكباشى إلى سنة ست وسبعين وكان فى غضون هذه المدة قد بلغ حسن حلمى البروجى رتبة القائمقام ومات فيكاه أحمد عرابى بكاء مرا وجزع عليه جزعا شديدا وبلغ ذلك طيب الذكر سعيد باشا فتعجب ومنحه رتبة حسن حلمى المتوفى وذلك سنة سبع وسبعين فصار من هذا الحين معدودا من كبار ضباط الجند ولبث على هذا الحال حيناً ثم اعتزل الخدمة حيناً أيضاً ثم عاد إليها فى أوائل ولاية إسماعيل باشا فى سنة تسع وسبعين هجرية ولبث بها إلى أن وقعت بينه

وبين خسرو باشا أحد كبار الضباط الشراكسة خصومة فهشوا لمحاكمة أحمد عرابي مجلسا حريبا فحكم عليه بالحبس بضعة أيام فلم يقبل الحكم ورمى هيئة المحكمة بالمروق عن جادة العدل والأخذ بالوجوه فرفعوا أمره إلى إسماعيل باشا فأمر بإبعاده عن الخدمة العسكرية فأبعدوه وبالعوا في تذليله فكبر عليه الأمر وعظم بغضه لطائفة الشراكسة ولبت مبعدا زهاء السنة ثم توسط بعض أهل الخير في شأنه فأدخلوه في خدمة الدائرة الخلمية وهي دائرة الأمير إلهامي باشا ولد عباس باشا الأول فأحسن الخدمة واستمال إليه كبار الدائرة فزوجه بابتة مرضعة الأمير إلهامي وهي أخت حرم الخديوي محمد توفيق باشا بالرضاع، ولما كانت سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية تشفعوا له عند الخديوي إسماعيل بسبب زوجته فأعاده إلى خدمة الجندية فلم يستقر به المنصب حتى جعل يث بين الضباط من المصريين روح الألفة والاتحاد ويقرب بعضهم إلى بعض حتى صاروا على قلب رجل واحد فلما تولى الخديوية الأمير محمد توفيق باشا وأحسن على الكثير من رجال العسكرية والملكية بنياشين الشرف ورتب الاعتبار ساعد الحظ يومئذ أحمد عرابي فنال رتبة الميرالاي وكان ذلك في رجب سنة ست وتسعين .

(مطلب)

تحالف الضباط المصريين على السيف والمصحف

وانتداب أحمد عرابي للزعامة ورفعته عريضة

بالطعن في عثمان باشا رفقي

واتفق في هذا الحين أن شرع عثمان رفقي باشا كبير ديوان الجند في سن قانون للقرعة العسكرية دل مبدؤه على عدم جواز ترقى أحد من الجند إلى الرتب العالية حيث قضى على العسكرى أن يبقى في الخدمة مدة أربع سنوات ثم يذهب إلى بلده إمداديا ويبقى هكذا مدة خمس سنوات أخرى ويأتي إلى مركز المديرية شهرين في كل سنة لمباشرة التمرينات العسكرية وبعد مضي الخمس سنوات يقيم في بلده بغير عمل ويسمى احتياطيا تحت الطلب مدة ست سنوات ثم يمضى اسمه من دفاتر الجندية فلما ذاع خبر هذا القانون بين ضباط الجند فرح لسماعه جماعة الضباط الترك والشراكسة وانقبض له الضباط المصريون وعلموا بأنه إنما سن هذا القانون على هذا المبدأ لحرمانهم من الرتب وجعلهم جندا تحت تسلط جماعة الترك والشراكسة واختصاص هؤلاء بالرتب والمناصب العالية فجعلوا يقبحون العمل به وشكوا من

فعال عثمان رفقى باشا وكان بين الباشا المذكور وبين على فهمى المعروف بعلى الديب أمير ألى جند الحرس الخديوى وعبد العال حلمى المعروف بعبد العال أبى حشيش تفور ووحشة لأمر لم نصل إلى معرفتها فاجتمع على فهمى وعبد العال وأحمد عبد الغفار بأحمد عرابى فى بيته وتناجوا فى أمر ذلك القانون وفى فعال عثمان رفقى باشا ثم تحالفوا وتعاهدوا وارتبطوا بالمواثيق على أن يكونوا كرجل واحد ثم أصبحوا وقد جمع كل من عنده من الضباط والصف ضباط وخطب فيهم خطب الحث والتهييج ضد جماعة الشراكسة وقبح لهم فعال عثمان رفقى باشا ثم استحلفهم على السيف والمصحف بأن يكونوا يدا واحدة وقلبا واحدا على مساعدة أمراء الأليات الثلاثة فى عملهم والمحافظة على أرواحهم إذا قصدوا بسوء وبعد أن تم ذلك كتب كل من ضباط الأليات عريضة يطلبون فيها بعض المطالب الذى هم فى حاجة إليها فأخذ أحمد عرابى العرائض الثلاثة وأبقاها عنده ورفع هو عريضة أخرى إلى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول:

مقدم هذا لإعتاب دولتكم بغاية كل خضوع ضباط الجهادية وما نعرض عنه أفندم أنه لما أشرقت بحمد الله أنوار شمس الحضرة التوفيقية وأينعت بالعدل فى أرجاء ديارنا المصرية نشر العدل ألوته على دوائر أطلالنا وتحررت رقاب المصريين من رق العبودية كما تخلصت نفوسهم من ضيق الاستبداد الذى طالما استولى على بلادنا عدة أجيال يعاملنا بأنواع المظالم الغدرية فحمدناه تعالى على ذلك وسألناه التوفيق لتشييد دعائم أركان العدل والإنصاف محفوفة برياض الحرية المبينة على المساواة فى الحقوق بين الرعية لكن لما أحيل على سعادة عثمان رفقى باشا نظارة الجهادية رأينا سعادته يعامل ضابطان الجهادية بالذل والاحتقار ويسعى فيما يوجب لنا الحرمان والإضرار كأننا الأعداء الألداء وكان الله سبحانه وتعالى يطلب منه ظلم المصريين والإجحاف بحقوقهم مقتفيا فى ذلك أثر راتب باشا فى آخر العهد السابق من تهيج الأفكار وإثارة الفتن التى تكون سببا فى توقيف حركة الإصلاح الإدارى قصد أن يتمكن مما ساقته إليه نفس سعادته وما زلنا صابرين على مضض البلايا حتى آل الأمر لحرمان أغلبنا من خدمة وطننا مع استعدادنا وتأهلنا وعدم تأخرنا عن ترقوا فى الخدمة بوجه امتياز على ما بهم من العلل ولا موجب لترقيهم سوى كونهم أقارب ومحاسيب من لهم فى العسكرية التفوذ المطلق وبرهانتنا على ذلك أنه موجود بديوان الجهادية فوق الألف ضابط بقلم المستودعين لم يكن فيهم أحد من غير الوطنيين

وهذا مضاد للمساواة ومجحف بالحقوق هذا ومن بعد أن تبين لسعادته تسكين
الخواطر واستقامة الأحوال كبر ذلك عليه وقصد تهيج الأفكار بإصدار أمره المبنى
على الاستبداد والاستعباد برفت أحد قائمقامى السوارى المسمى أحمد عبد الغفار
بيك بصورة تهكم بغير محاكمة قانونية وعلى ضد كل قانون عادل فبذلك هيج بلبالنا
وأورثنا عدم الأمن والاطمئنان وصرنا متوقعين الإيقاع بنا واحدا بعد واحد ما دام
سعادة المشار إليه فى مسند نظارة الجهادية الذى لا تسمح القوانين الحرة بتوجيه هذا
المسند لمثل سعادته وما يؤيد تلك القوانين مسائلنا كنج جاهين وحافظ باشا وبعد ذلك
ينظر فى أفضلية من امتازهم عنا بالخدمة مع عدم مساواتهم معنا فى العلوم والآداب
العسكرية وغيرها ومآثر دولتكم فى تسكين حركة الخواطر وبث روح العدل والمساواة
اتباعا لمبدأ الحضرة الخديوية يوجب علينا القيام بواجبات الشكر الحقيقى والأمر لمن له
الأمر انتهى .

(مطلب)

تشكيل المجلس العسكرى للحكم على عرابى بك

ومن معه من كبار العسكر

فلما علم الرئيس مصطفى رياض باشا بما فى هذه العريضة كبر عليه الأمر
ونقمه على أحمد بيك عرابى وجمع إليه فى الحال هيئة مجلس الوزراء وعقد
مجلسهم وبينهم عثمان رفقى باشا كبير ديوان الجند وتكلموا فى الأمر طويلاً فطال
بينهم الأخذ والرد ساعة ثم انفض مجلسهم على غير طائل وعلم الخديوى بالخبر
فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره سوء العاقبة وأشار بالتأني وترك العجلة
ورسم بالمجاملة والتلطف وترك القسوة والعنف فلم يعجب الرئيس منه ذلك وتجرد
إلى المقاومة وعمد إلى التهديد فبث العيون وشد فى التكير والضباط لا ينكفون عن
التحزب والتألب وضم كل بعيد عنهم ممن مسه الضر بفعل الرئيس، فلما كان صبح
الثلاثاء ثالث ربيع الأول من السنة أى سنة ثمان وتسعين اجتمع الرئيس مصطفى
رياض باشا ببقية الوزراء فى جلسة خصوصية وكلمهم فى أمر أحمد عرابى بيك
ومن معه من جماعة الضباط فاتفقوا بعد جدال على تشكيل مجلس عسكرى من
كبار الشراكسة لمحاكمة كل من له يد فى تأسيس عصابتهم وتشكيل محكمة أخرى
من بعض الموظفين الملكيين لمحاكمة من انضم إليهم من الأهليين وقد أخذ عثمان
رفقى باشا على عهده تنفيذ ما يتعلق بزعماء العصابة وقام من ساعته وذهب إلى

مقر ديوانه بقصر النيل وجمع إليه رجال مجلسه الحربى وكلهم من الشراكسة فتكلموا فى الأمر برهة قصيرة ثم برز من مجلسهم الحكم بتجريد كبار العصابة من رتبهم ووظائفهم العسكرية وتبعيدهم عن الديار المصرية وتسليم مناصبهم لجماعة من الضباط الشراكسة وكتبوا فى الحال ثلاثة أوامر إلى الثلاثة أمراء وهم على بيك فهمى المعروف بعلى الديب أمير جند الحرس الخديوى وأحمد عرابى بيك أمير جند الألبان الرابع وعبد العال حلمى بيك المعروف بأبى حشيش أمير الجند السودانى يستدعونهم إلى قصر النيل بحجة أن عثمان باشا كبير الديوان يريد مشاورتهم فيما يجب فعله من ترتيب زفاف الأميرة جميلة هانم أخت الخديوى فلم تخف عليهم الحقيقة وقد علموا بكل ما وقع الاتفاق عليه ومع ذلك فإنهم لم يتأخروا وقاموا من فورهم وساروا إلى قصر النيل ومعهم من يأتى بالخبر إلى أصحابهم إذا حل بهم ما يكرهون فلما دنوا من مقر عثمان رفقى باشا أحاطت بهم طوائف الحرس ومشى خلفهم كثير من الضباط الشراكسة وأدخلوهم إلى حيث المجلس العسكرى فلما وقفوا بين أيدي رجال المجلس التفت إليهم خسرو باشا أحد الأعضاء وقال: قد حكم عليكم اليوم مجلسنا العسكرى بالتجريد من الوظائف وجميع الرتب العسكرية ومحو أسمائكم من سجل العسكرية فاخلعوا عنكم سيوفكم الآن وسلموها. فقال أحمد عرابى بيك: قد سمعنا ما تقول ونطلب أن تطلعنا على ورقة هذا الحكم لتكون على علم بما جئنا ونعرف ما إذا كان حكمكم هذا ينطبق على ما جاءت به أحكام القوانين العسكرية أو... فقاطعه أحد رجال المجلس بأن قال: ومن أين أثبتتم لأنفسكم حق هذا النظر وكيف تطلبون الاطلاع على ورقة الحكم وأنتم اليوم مجرمون مجردون من كل رتبة وشرف، ثم صاح ببعض الحراس خذوا عنهم سيوفهم الساعة واذهبوا بهم إلى حيث أمرناكم فخلع الأمراء عنهم سيوفهم وسلموها وهم صاغرون فأخذوهم ومضوا بهم إلى أسفل الديوان ووضعوا كل أمير منهم فى سجن منفردا تخفزه الجند وبعض كبار الجراكسة وكان ذلك فى نحو الساعة العاشرة نهارا فلما بلغ خبر سجنهم عسكر الحرس الخديوى برجة عابدين وكان محمد أفندى عبيد أحد كبار ضباط هذا الحرس يراقب الحوادث وقد علم بما وراء حجب الأمراء نادى فى جنده بالخروج فخرجوا جميعاً بأسلحتهم وعدتهم فاعترضه خورشيد بيك يسمى قائم مقام الحرس وسأله عن سبب خروج العسكر على هذه الصورة فلم يلتفت إلى قوله وأمر بعض الجند فقبضوا عليه وأودعوه فى إحدى الحجرات ووقفوا على بابه يخفرونه وسار محمد عبيد بجميع الجند إلى قصر النيل وهم فى ضجة وجلبة وبلغ الخديوى الخبر

فأشرف على الجند من شرافة السلامك ورسم إلى الفريق راشد حسنى باشا بمنعهم من الذهاب إلى قصر النيل فلم يتمكن فأمر بروجى قرا قول السراى بأن ينفخ فى البوق مناديا لجماعة الضباط أن احضروا أمام الخديوى فلم يلتفت أحد لندائه وظلوا سائرين وهم فى ضجة وجلبة حتى دخلوا أبواب قصر النيل فمانعهم بعض الجند النازلين هناك فلم يلتفتوا إليهم وقصدوا مقر الفريق عثمان رفقى باشا وكان عثمان باشا قد علم بخبر مجيء الجند فأمر بالأبواب فأغلقت فلما رأى الجند أن الأبواب مقفلة صاحوا ودمدموا وكسروها واقتحموها عنوة وهم يكثرون من الشتم واللعن ويبادروا كل من لاقوه بالضرب واللكم والسب وفتشوا على عثمان رفقى باشا يريدون البطش به فلم يعثروا له على أثر وكان قد خرج من ديوانه مسرعا حتى دخل ورشة تشغيل ملابس العسكر فقام إليه ناظرها ألباس بيك وأخذ بيده وأدخله أحد المخازن وستره عن الأعين ببعض الأكياس الفارغة فتوارى هناك فلما لم يجدوه اقتحموا سجون الأمراء الثلاثة وأخرجوهم وساروا بهم إلى مقر الحرس الخديوى حملا على الأيدى وهم حاسرون الرؤوس والناس خلفهم فى ضجة وجلبة عظيمة.

ووصل الخبر إلى الخديوى بما جرى فاضطرب وأى اضطراب وسير فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وسائر الوزراء فحضروا فرسم بذهابهم إلى قصر النيل ليتداركوا الأمر قبل استفحاله فساروا ولم يتجاوزوا رحبة عابدين حتى رأوا الجند آتين ومعهم الأمراء الثلاثة وهم ينفخون فى البوق وخلفهم العامة فى ضجة عظيمة فعادوا مسرعين إلى مقر الخديوى وأعلموه بالخبر ولم يكذب يقرّبهم المقام حتى أحاط الجند بالسراى إحاطة السوار بالمعصم وقد طار الخبر فى هذه الأثناء إلى معسكر طرا والعباسية فحضر منهما على الفور فرقتان بالبنادق والحراب وانضمتا إلى جند الحرس ورفعوا أصواتهم على الأثر ونادوا بالويل والثبور على عثمان رفقى باشا وأشياعه وطلبوا خلعه من منصبه وأكثروا من الضجيج والصياح فسير إليهم الخديوى يقول هونوا عليكم فسرى فيما تطلبون الساعة فضجوا عند ذلك بالدعاء للخديوى ثلاثاً وقد هرع الناس عند سماعهم الضجيج وأتوا إلى رحبة عابدين من كل فج عميق وتزاحموا خلف صفوف الجند وعلت بينهم الضوضاء وصاح الصبيان (الله ينصر السلطان) واجتمعت الغوغاء وكثر الهرج والمرج وحضر قناصل الدول إلى مقر الخديوى وهم فى دهشة واضطراب وكان أحمد عرابى بك قد أرسل إليهم فى الحال يعلمهم بالحادثة ويظمنّ خواطهم من نحو رعاياهم وأتباعهم ويقول لهم: إنه لا علاقة لهذه الحركة قط بالأمور السياسية.

(مطلب)

تولية محمود باشا البارودى رئاسة ديوان الجند وما كان

ورأى الخديوى من استفحال الخطب ما أزعجه فأمر بمجلس الوزراء فانتظم وحضره جميع من حضر من قناصل الدول وتكلموا فى الأمر طويلاً ثم استدعوا أحمد عرابى بك وسألوه ماذا يطلب فتكلم كثيراً وبالف فى الشكوى وعظم البلوى ثم قال: إنا لا نطلب الآن سوى خلع عثمان رفقى باشا وتنزيله من منصبه فتناجوا فى الأمر طويلاً ثم قرروا خلع عثمان باشا من منصبه والعفو عن الأمراء الثلاثة وأن تعاد لهم وظائفهم فنزل أحمد عرابى بك وأعلم جميع الضباط بما جرى ووقع الاتفاق عليه ونادى فى العسكر بالمسير فهتفوا جميعاً بأصوات الدعاء ثلاثاً وانسحبوا إلى معسكر عابدين والموزيقى تصدح أمام صفوفهم فباتوا ليلتهم وهم بين راقص ومطرب ومدخن بقصبة دخانه وضاحك مع رفيقه حتى مطلع الفجر فسارت الجنود السودانية مع مقدمهم عبد العال بك إلى طرا وسار أحمد عرابى بك بعسكره إلى العباسية وأصبحوا وقد تولى محمود باشا البارودى رئاسة ديوان الجند بدلاً من عثمان رفقى باشا المعزول فانحاز جميع الأمراء ومقدمى الجند إليه وتقربوا منه ليكون لهم عوناً فأعجبه ذلك منهم ومال إليهم وتقدم إلى الخديوى فى طلب العفو عنهم جميعاً وما زال به حتى أجابه إلى ذلك.

فلما كان يوم السبت عشرين ربيع الأول رسم الخديوى بحضورهم جميعاً إلى مقره بعابدين فحضرُوا فى الساعة الخامسة وفى مقدمتهم محمود باشا البارودى فلما تمثلوا بين يديه قام فيهم خطيباً يقول:

إنكم تعلمون حق العلم ما عندى من الميل والمحبة للعساكر والالتفات إلى شئونهم من يوم استلامى زمام الحكومة وذلك لما هو محقق لدى من أنهم متحدون معنى على مقاصدى الحسنة التى هى دوام حفظ الأمانة واستقامة الأحوال الإدارية فى هذا القطر لذلك لا أخفى عليكم ما حصل لى من الأسف بأسباب الحركة التى حدثت وانقضت ومع ذلك فإنى قد عفوت ولم يبق فى قلبى من آثارها شيء بالكلية فيلزكم من الآن فصاعداً أن لا تشتغلوا بشيء خارج عن حدود وظائفكم واجتهدوا فى أداء واجباتكم العسكرية ومن المعلوم أن سعى واجتهادى متجه إلى إصلاح الأحوال وتحسين الأمور وهيئة النظر الحاضرة متحدة معنى فى هذه المقاصد الخيرية ومجتهدة فى تميم ما يجب من الإصلاحات اللازمة وليس يخاف عليكم ما تم بهذا

القطر من الإصلاحات المالية والإدارية فى ظرف سنة واحدة وذلك مما يوجب على كل محب لهذا القطر إبداء الشكر وإظهار المسرة وحاصل ما أقول لكم إن العساكر ليس لهم وظيفة سوى التمسك بالقوانين العسكرية والسعى فى أداء واجباتهم والامتنال لولى أمرهم وإنى لعلى يقين من أنكم تعتقدون بأن أكمل الصفات العسكرية هى الاستقامة والامتنال فى جميع الأمور والأحوال فمن الواجب عليكم أن تحافظوا على ذلك وتجعلوا أعمالكم كلها دائرة على هذا المحور . اهـ .

فلما أتم خطابه هتفوا جميعاً بالدعاء وانصرفوا ثم توجه الأمراء الثلاثة إلى قونصلى الفرنسيين والإنجليز وتكلموا معهما فيما هم عليه من السكينة والتمسك بالحدود والقوانين العسكرية وأن ليس هناك قط ما يدعو إلى القلق أو الاضطراب والله در من قال :

فلا يمنعنك الطير شيئاً أردته فقد خط بالأقلام ما كنت لا قيا

ولم يكن يرضى الرئيس رياض باشا عما بدا من الخديوى من والعفو السماح ولا عما وقع من خلع عثمان رفقى باشا من منصبه ولا عن تولية محمود باشا البارودى مسند نظارة الجهادية فجعل يرقب الفرص ليوقع بالأمراء الثلاثة وصار يكيد لهم كيدا والبارودى يعمل على ما فيه المصلحة لهم والذب عنهم وما زال حتى أعيت الرئيس الحيل وكاد يخيب منه الرجاء والأمل وتحقق أن لا نجاح له ولا فلاح إلا بالخلاص من البارودى فعمد إلى معاكسته فى السر والنجوى ورماه بتهمة الخيانة وإفشاء أسرار الحكومة وأعمال مجلس الوزراء قبل تقريرها وتبليغ قونصل جنرال الفرنسيين بحوادث البلاد قبل إذاعتها، قيل : وقد كان البارودى تقرب من قونصل الفرنسيين وتحبب إليه فأحبه ومال إليه انتقاماً من الرئيس لما بينهما من سابق العداوة التى تقدم الكلام عنها واشتد الخلاف بين الرئيس والبارودى شدة بالغة وشكا الرئيس للخديوى وقبح مصاحبة البارودى للقونصل وكتب إلى رئيس جمهور الفرنسيين يشكو من فعال القونصل ويعيب تداخله فى أعمال الحكومة وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار المحلية فقاموا وقعدوا ووقعوا بالقونصل سبا وتعييباً وأكثروا من اللوم والتقريع بدولة الفرنسيين لتركها قونصلها يعمل على إثارة الخواطر وبلبله الأفكار وأعانهم المراقب الفرنسي على ذلك أيضاً لما بينه وبين القونصل من البغض والمزاحمة على النفوذ .

(مطلب)

اشتداد الخلاف ما بين قونصل الفرنسيين

والرئيس مصطفى رياض باشا وما كان من وراء ذلك

ولما اشتد الخلاف بين القونصل والرئيس وكبرت الوحشة بينهما قام جماعة من الفرنسيين نزلاء القاهرة والإسكندرية واجتمعوا بالنزل المعروف بنزل أبات بالإسكندرية يريدون تعضيد القونصل ورد كيد الرئيس والمراقب عنه فخطب فيهم الخطباء وتكلم بينهم الفصحاء في ذلك اليوم وهم يقبحون أفعال الرئيس والمراقب وكتبوا بذلك محضرا ويعثوا به إلى مجلس نواب بلادهم وسألوه أن لا يغيروا شكوى الرئيس وشاية المراقب جانب الالتفات وأن يستبقوا القونصل في منصبه كي لا يهدموا بأيديهم ما بناه القونصل بديار مصر من العز ونفوذ الكلمة فلم يكذب يصل خطابهم إلى عاصمة الفرنسيين حتى جاء الطلب إلى القونصل مع البريد فهاج أصحابه وماجروا ورفعوا عريضة ثانية إلى كبير جمهورهم فلم ينالوا وطرا وسار القونصل عن القاهرة في غاية ربيع الأول من السنة فشيعة العدد العديد من الفرنسيين وبالغوا في الاحتفال بوداعه وألقوا المقالات المهيجة وهم على ظهر الباخرة التي نزل بها راجعا إلى بلاده وفرح أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية بخلع القونصل وتبعيده عن ديار مصر واتهموه بالاشتراك في مؤامرة الجند وخروج الأمراء الثلاثة وقالوا إنه هو الذي حضهم على شق عصا الطاعة نكاية بالرئيس وأصحابه فرد عليهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيين وأغلظوا في الرد ونجأوا في القول وقامت بينهم حرب الأقلام على قدم وساق واشتد الغيظ بأصحاب القونصل وقام زعيمهم المدعو الموسيوجاكن وألف لجنة أو عصابة سماها العصابة الوقتية المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيين بأرض الفراعنة وكتب إلى كبير جمهور الفرنسيين يقول: إنني بصفتي رئيس اللجنة المؤقتة المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيين في ديار مصر أطلب بإلحاح أن تنظروا بعين الالتفات إلى العريضة التي بعثنا بها لمقامكم على جناح البريد ثم نشر الزعيم المذكور في ربيع الثاني إعلانا يطلب فيه اجتماع كافة الفرنسيين نزلاء مصر والإسكندرية وسائر التابعين للراية ذات الألوان الثلاثة يعنى الراية الإفريقية بالنزل المعروف بنزل أبات بالإسكندرية لإقامة لجنة دائمة تكلف بالدفاع عن مصالح الفرنسيين عوضا عن تلك اللجنة المؤقتة فلبى القوم دعوته وتزاحموا حتى غص بهم المكان فقام فيهم الخطباء والنصحاء ورموا الرئيس بالخيانة

لوطنه والمروق عن جادة الحق وبالغوا فى السب والتعيب بين أصوات التهليل وضجيج الاستحسان ثم بعثوا بعد ذلك برسالة ثالثة إلى كبير جمهورهم فلما علم الرئيس بما جرى خشى العقاب وقد أحس بوشك رجوع القونصل إلى منصبه فتقدم إلى الخديوى فى التحرير إلى كبير جمهور الفرنسيين بمنع رجوع القونصل إلى ديار مصر كي لا يتكدر صفاء المودة بين البلدين فأجابه الخديوى إلى ذلك وكتب .

(مطلب)

القبض على أحد الضباط الشراكسة وهو يستكتب

ضبط الجند السودانى بالشكوى من عبد العال بيك حشيش

ولم يكد يطمئن قلب الرئيس باستحالة رجوع القونصل إلى منصبه حتى قام زعماء عصابة الجند وقعدوا وهاجوا وماجوا وكثر اجتماعهم فى دار البارودى وطاف أعوانهم يزحفون ذلك لأن عبد العال بيك حشيش أمير الجند السودانى قبض على أحد الشراكسة من الضباط الذين معه وهو يطوف على جميع الضباط والعسكر السودانى يحضهم للتوقيع منهم على محضر قالوا إنه مرقوم عن لسان جميع الضباط والجند بأنهم ليسوا راضين عن أميرهم عبد العال وأنهم يطلبون العفو من الخديوى عما سلف من طاعتهم لأمرهم وإخراجهم إياه من قصر النيل قالوا: وقد ثبت أن يوسف باشا كامل كبير ديوان بيت الخديوى يومئذ هو الذى استقدم إليه الضابط المذكور وسلمه ذلك المحضر وتسعمائة جنيه عينا وأوصاه أن يذل جهد المجتهد فى التوقيع عليه من جميع ضباط وأفراد جند عبد العال ولكل ضابط فى نظير ذلك ثلاثة جنيهات وللجندى جنيه وله هو فى مقابلة ذلك الرقعة وعلو الكلمة فذهب الضابط وسعى وسط الجند فاستمال بعضهم وخدع بعضهم وكان ممن تكلم معه فى ذلك أونباشى أى كبير عشرة من الجنود فوافقه الأونباشى ووعدته ثم تركه وذهب إلى القائمقام وأعلمه بالخبر فقام من فوره ودخل على ذلك الضابط وقبض عليه وفتشه فوجد المحضر وعليه نيف وثلاثون توقيعاً فكبلة بالحديد وألقاه فى الحال بالسجن وصيق عليه وسأله فاعترف بما ذكر وبأنه رسول يوسف باشا كامل فسير القائمقام فى الحال إلى عبد العال بيك فحضر وأخذ تلك الورقة وعاد بها إلى رفاقه وأعلمهم بخبر الضابط واجتمعوا بمعسكر رحبة عابدين وأرسلوا إلى البارودى باشا فجاء على الأثر وعقدوا مجلسهم وتناجوا فى الأمر ثم قام البارودى ودخل على الرئيس وأعلمه بما

جرى فلم يهتم به ولم يلتفت إليه فساء البارودى ذلك وذهب إلى الخديوى وحدثه بما جرى فغضب ورسم بخلع يوسف باشا وتبعيده عن القاهرة فصار إلى أرض له بالإقليم البحرى وخمدت بتبعيده نار الفتنة وسكت خواطر زعماء العصاة وأخذوا من ذلك اليوم بأطراف الجند والحزامة فتقدموا إلى البارودى فى ترتيب سائر أمور الجنديّة على ما يقتضيه نظامها وتقييدها بالقوانين واللوائح والنظر فى حالة الترقى والجماعى والمرتبات وسنّ قانون يكون إليه المرجع فى تقدم كل عسكري وواجباته وعدم تقييد حياته بالخدمة العسكرية وغير ذلك من أوجه الإصلاح فأجابهم البارودى إلى ذلك وكلم الرئيس مصطفى رياض باشا فى الأمر فحاول وطاول البارودى يلح فى الطلب فلما أعيته الحيلة سأل الخديوى فى ذلك فكلم الخديوى الرئيس فلم يلتفت وأصر على الإبقاء فرسم الخديوى بتشكيل مجلس من جاكى باشا واستون باشا وبلتش باشا وإسماعيل كامل باشا وأحمد عرابى بيك وبراناردى بيك والمستر جولد اسمث مفتش الدار السنية وغيرهم من الضباط لينظروا فى طلبات زعماء الجند ويقدروها قدرها فاجتمعوا ووالوا الاجتماع أياما ثم رفعوا إلى الرئيس مصطفى رياض باشا محضرا بينوا فيه لزوم تقليل العسكر العامل وجعلوا حداً للترقى فى الدرجات العسكرية تخلصا من تزايد عدد المستودعين وقالوا: إنه يوجد من هؤلاء أى من المستودعين بعد الذين أدخلوا فى الخدمات الملكية والدواوين العمومية ما يبلغ ألفا وزيادة وطلبوا من الرئيس الإقرار على هاته القاعدة فأجابهم إلى ذلك كارها ورفعها إلى الخديوى فرسم بتنفيذها والعمل بها فبات الجند وأصبحوا وقد زادت جماعيتهم وزادت أيضا المرتبات والعلوفات فظهرت عند ذلك كلمة محمود باشا البارودى وعلت منزلته واتسعت شهرة أحمد عرابى بيك وأحبه الضباط والجند كافة ومالوا إلى طاعته والاجتماع عند إشارته إلا نفرا من الضباط فسعى فى عزلهم وتولية أنصاره مكانهم.

ورأى البارودى بعيد هذا كله ضرورة الجمع ما بين زعماء العصاة والرئيس مصطفى رياض باشا وصرف ما فى النفوس لعل الأزمة تنفجر، فلما كان حادى عشرى جمادى الأولى من السنة أولم وليمة عظيمة بقصر النيل ودعا إليها جميع الوزراء والمراقبين الإنجليز والفرنسوى وضباط الجند فلما جلسوا على الطعام قام البارودى وخطب فيهم فكان ما قاله، هذه ليلة أنس دعيتا إلى الاجتماع فيها دواعى المحبة والاتلاف تذكارا لما أثر الحكومة الخديوية الجليلة التى وجهت وجه عزميتها إلى

إصلاح أحوال الأهالي جميعا وإقامة العدل فيهم وإيصال كل لما يستحقه فقد رأينا في هذا الزمن القليل من عهد خديونا المعظم زمام الحكومة تغيرا مهما إذ تبدل فيه العسر باليسر والظلم بالعدل وما ذاك إلا من حسن مقاصد هذا الجنب وطهارة سجاياه - إلى أن قال - ولاريب في هذه النعم يجب علينا استبقاؤها والاستزادة منها ولن يكون ذلك إلا إذا قرناها بالشكر فقد قالوا الشكر سياج النعم وحقيقته أن يكون جميعنا مخلصا للحكومة في خدمته قائما بواجباتها معضدا لجميع مقاصدها خاضعا لأوامر الحضرة الخديوية التي هي السبب في هذا الخير العظيم وعلى ذلك لابد أن ننادى جميعا فليحي الجنب الخديوى أظال الله بقاءه، فقام بعده الرئيس مصطفى رياض باشا وتكلم مخاطبا طوائف الضباط - إلى أن قال - إن محسنات العدل ووجوه الإصلاح التي امتازت بها أيام حكم الجنب الخديوى في هذه الأوطان أمر معلوم يعدّ تعداده من قبيل تحصيل الحاصل وأنتم معاشر الضباط تعلمون ذلك حق العلم فلا حاجة إلى بسط الكلام فيه وإن ضباط العسكرية وهم من أشرف أعضاء الحكومة ممن شملتهم هذه المحسنات وعمتهم فوائد الإصلاح - إلى أن قال - وقد رأيتم من أنفسكم أن حقوقكم وصلت إليكم وبين الرأفة والرحمة فعليكم وجوبا كما أخذتم مالكم أن تؤدّوا ما عليكم وهو طاعة ولي الأمر الذى هو السبب الأعظم في جميع هذه الخيرات - إلى أن قال - وعلينا جميعا أن نبتهل إلى الله تعالى ببقاء الخديوى وتأييد عزة وأن ننادي بلسان الحال فليعيش الجنب الخديوى فأجابه الحاضرون على ذلك .

(مطلب)

فى عهد أحمد عرابى بيك إلى استمالة أهل البلاد

قلت: ولم تكن هذه المآدب والخطابات والتمدح بطاعة الجند لتذهب ما فى نفوس زعماء العصاة من البغض للرئيس مصطفى رياض باشا ولا لتقلل من همتهم فى العمل على خلعه والتخلص منه فإنه لما تمكن أحمد عرابى بيك من طاعة جميع الجند ومحبة سائر الضباط عمد إلى استمالة أهل البلاد وعمدها ومشايخها ومشايخ قبائل العربان والتقرب من جماعة العلماء والمشايخ والوجهاء ثم جعل يبعث البعث فكانوا يجوبون البلاد ويهيجون العامة ويضرمون فى صدورهم نار البغض للرئيس وأعدائه وتخطى به الخروج إلى أن كتب إلى عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية على

أيدى رسله يقول: إن الوزارة الرياضية يعنى الهيئة التى يرأسها مصطفى رياض باشا قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم وليس لها من نية سوى العمل على مافيه اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع الأراضى الكثيرة للأجانب وتسليم أغلب مصالح الحكومة لهم وإعطائهم الرواتب الفادحة المثقلة على أكتافكم فضلا عن أنها رسمت برفع الأحجار الطبيعية الموجودة ببوغاز إسكندرية لتمكين سفن الأجانب من الدخول إلى جوف البلاد بلا ممانع وإن سكوتنا وإضرابنا عن هذا كله يعدّ من الجبن والعجز والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا فاعلموا يا معاشر الوطنيين أن أولادكم القائمين بالخدمة العسكرية قد اتكلوا على البارى سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل إجحاف بحقوقكم والدود عنها جهد الاستطاعة ولا يخفاكم أن هذا لا يتم إلا بتنزيل وزارة رياض باشا وخلعه من منصب الرئاسة وتشكيل مجلس نواب للبلاد لينال وطننا الحرية المطلوبة والمقصود هو أنكم توقعون على الكتابة المرسلة إليكم على يد حاملها والغاية منها جعلى نائبا عنكم فى كل ما يتعلق بأحوال البلاد، فأجابه إلى ذلك كثير من عمد البلاد وأعيانها وغيرهم من المزارعين وأصحاب الأراضى واتفق فى غضون ذلك أن قام الخديوى وحاشيته ورجال ديوانه إلى مدينة الإسكندرية لقضاء فصل الصيف فيها على عادته فى كل عام وتبعه الرئيس وهيئة مجلس الوزارة فخلا الجو لزعماء العصاة فأكثر رسلهم من التطواف على بيوت الأعيان والدخول فى مجالس أصحاب الكلمة المسموعة وهم يرجفون ويقبحون فعال الرئيس ويحضونهم على تعزيد العصاة والأخذ بيد زعمائها، وظهر فى هذا الحين نجم من ذوات الذنب فكان يرى فى كل ليلة بشكل جلى حتى لضعاف البصر فهال الناس ظهوره وخافوه وأخذتهم الطيرة وجعلوا يتأولون ظهوره إلى رموز وإشارات شتى ويقولون: إن هذه السنة أى سنة ثمان وتسعين لا تتم دون وقوع أمور مهمة وحوادث مدلهمة بل حروب وكروب وخطوب وقطوب وقد نسبوا إليه جميع الوقائع والحوادث التى وقعت فى غير ديار مصر، وتكلم أصحاب صحف الأخبار عن هذا النجم فقالوا: إنه النجم ذو الذنب الذى سبق فتكلم عنه المعلم ميل الفلكى الشهر فقال: إنه ظهر فى سنة ست وسبعائة وألف ميلادية وشاهده فى سنة سبع وثمانائة وألف ميلادية واستدل على أنه سيعود بعد أربع وسبعين سنة من هذا التاريخ، ونقل بعض أصحاب تلك الصحف أيضا أن أحد المنجمين الأقدمين تنبأ بأن العالم بأسره سينقرض نهارا فى رابع عشرى نوفمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانائة

وألف ميلادية يعنى فى ثانى المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين ومائتين. وألف هجرية قال: وتستمر الأحوال من هذا التاريخ إلى ثامن ديسمبر يعنى سابع عشر المحرم أى مدة خمسة عشر يوما يأتى كل يوم منها بداهية. دهياء وأن النوع البشرى ينقرض فى اليوم السادس من ديسمبر المذكور الذى هو يوم عيد القديس نيقولاس العجائبي بعد أن يشاهد الكثير من هذه النوازل الطامة التى منها تلاشى أسماك جميع البحار وأن يوم البعث والنشور يكون فى ثامن ديسمبر بحيث لا يستغرق إلا يوما واحدا قال المتنبي: ثم يعود بعد ذلك كل إلى وظائفه العادية أ.هـ.

«قلت»: فكان أهل القاهرة عند ظهور ذلك النجم يحيون الليالى وهم على أسطحة البيوت مولولين وكانت لا تمضى لحظة إلا ويسمع فيها من يقول قد دنت الساعة وبعد أيام كذا تقوم القيامة ومنهم من ترك أشغاله وتأهب للرحيل إلى دار الخلود ومنهم من اقتصر على الصلاة فى المساجد ومنهم من باع حلى امرأته واشترى له قبرا وكانوا يقضون اليوم فى بيوتهم وهم يضربون بالعصى على بعض أواني النحاس ويضجون ويعجون ويقولون: يا لطيف يا لطيف فإذا سألهم سائل عن ذلك قالوا: الناس تتحدث به وهذا نجم الذنب ظاهر للعيان، وقد اعتقد الناس أنه دليل صحيح على حدوث أمر خطير فى هيئة الحكومة أو كرسى الخلافة والولاية وغير ذلك، وكان مما زاد أهل البلاد خوفا وتطيرا إرجاف الضباط الذين كانوا يجوبون البلاد ويلقون بين أهاليها الأراجيف الباطلة والإشاعات الكاذبة ويستفزونهم إلى الخروج عن طاعة ولاية الأمور ويحضونهم على عدم دفع الضرائب والمكوس لأصحاب الجباية ويوسوسون لهم بأن ما كان فى البلاد من الضنك والخراب وإمحال الأرض إنما هو من فعال الرئيس وبغضه للأهالى ورغبته فى تسليم البلاد للإنجليز حتى صدقوا ذلك وأحلوه محل الاعتبار وعمت هذه الأراجيف البلاد شرقا وغربا فنجم عنها أن كره أهلها سائر الأجانب المستوطنين فى البلاد وطمعت نفوسهم فى أموالهم وأرزاقهم فكان إذا استدان أحد دينا من أحد هؤلاء التجار وحل أجله ماطل وحاول وطلب المهلة فإذا شدد عليه الطلب أنكر الدين وهدد صاحبه وتوعده فخاف جميع التجار وانكمشوا وقلت ومعاملتهم لأهل البلاد ونزح الكثير منهم إلى المدن الكبيرة وقد تبدل ورقهم ورقا حتى تعطل البيع والشراء وبارت الأرزاق ومحاصيل البلاد لتخوف المشترين من الأجانب وتعذرت الجباية وقلت حيلة أصحابها وذهب الأمن من جميع الجهات وعاث أهل الفساد وكثرت اللصوص فشدد الرئيس على

المديرين ومأمورى الحكومة بمراقبة الأحوال ومنع هذه القلاقل وإيقاف تيار الفتنة فلم يفلحوا. لفساد أخلاق العامة وميل أهل البلاد إلى الأباطيل والاختلاف بأقوال الأولياء والمشايخ والمكاشفين من رجال الوقت وأصحاب الزايرجات التى كان يذيعها ضباط الجند بين أهل البلاد.

(مطلب)

قيام جند الإسكندرية

بسبب موت أحدهم بصدمة من عربة أجنبى

وبينما كانت أفكار العامة فى اضطراب وقلوبهم تتقد غيظا من النزلاء ويتمنون لو أنهم ييطشون بهم جميعا إذ حدث بمدينة الإسكندرية أن جنديا من مرابطة القلاع كان سائرا بميدان المنشية فصدته عربة لأحد النزلاء فسقط ميتا فى الحال فرآه بعض رفاقه فأسرعوا إليه وطلبوا سائق العربة فلم يجدوه وكان كمن قمس فى الماء أو عرج به إلى عنان السماء فحملوا جثة رفيقهم وساروا بها إلى سراى رأس التين وخلفهم الخلق الكثير من السوق والغوغاء وهم فى صياح وجلبة فإذا مروا بأجنبى أوسعوه شتما وسبا وتهديدا وكثر صياح الغوغاء وتخطفهم الأشياء من حوانيت الناس فخاف الناس العاقبة وأغلقوا حوانيتهم وشاع الخبر فتلاحق بهؤلاء الجند نفر من أصحاب الشرطة يريدون أخذ الجثة منهم فمانعوا وأبوا إلا الصعود بها إلى مقر الخديوى ومازالوا سائرين بين صياح العامة وولولة النساء حتى دخلوا حوش رأس التين ووضعوا جثة رفيقهم تجاه شبك مجلس الخديوى وصاحوا نصرك الله يا أفندينا ما يحل للنصارى قتلنا فى أيامك انت لنا بصاحب العربة يا أفندينا نصرك الله على أعداء الدين فأشرف الخديوى فى الحال من الطاق ولاطفهم وهون عليهم ووعدهم ورسم بحمل الجثة إلى دار صاحب الشرطة فصاحوا ما يحل ذلك يا أفندينا النصارى النصارى تقتلهم جميعا فأرسل إليهم بعض ضباط حرسه يطمنون خواطرهم ويهونون عليهم فلم ينكفوا عن النداء والصياح وحضر فى هذه الاثناء صاحب الشرطة ومعه نفر من أعوانه فحملوا الجثة قهرا وساروا بها وخلفهم الغوغاء وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة فبالغ الناس فيه وخططوا وخبطوا حتى قالوا: إنه قد قامت الحرب بين الجند والطوائف الأفرنجية بشوارع الإسكندرية والأمر يومئذ على غير ذلك فقد قبض صاحب الشرطة على رفاق ذلك الجندي وألقاهم فى السجن أياما ثم حكموا عليهم بالعقاب الشديد فلما شاع خبر الحكم عليهم تحرك جند الإسكندرية وأظهروا غاية

السخط وعدم الرضا عما أصاب رفاقهم ثم كثر تطوافهم فى ذلك اليوم فى الأزقة والحارات التى تسكنها الطوائف الإفرنجية فعم الحوف جميع سكان الإسكندرية وجاء الخبر إلى البارودى فأبلغه للرئيس مصطفى رياض باشا فلم يعره جانب التصديق وظنه فرية أو هو من أراجيف زعماء العصاة التى ما يرحوا يذيعونها للتسهيل والإرهاب.

(مطلب)

تطواف عبد الله النديم على أهل البلاد يستنصرهم لرجال عصاة الجند

وأوعز فى هذا الحين أحمد عرابى بيك إلى رجل من أهل البلاد اسمه عبد الله نديم صاحب صحيفة من صحف الأخبار اسمها (التنكيث والتبكيث) أن يحوب الأقاليم القبلية والبحرية ويدعو الناس إلى نصرة زعماء العصاة ويستفزههم إلى طلب تشكيل مجلس نواب للبلاد كما كان على عهد إسماعيل باشا لينالوا بواسطته مالم يقدروا على نواله الآن من الرئيس مصطفى رياض باشا وكان عبد الله هذا قوى الحجة فصيح اللسان قوآلا سهل العبارات عذب المنطق مفلقا مهيجا بذلاقة لسانه وقوة حجته وبيانه قد عرف عادات البلاد وأميال أهلها فطفق يحوب المدن والبنادر والقرى ويخطب فى الناس ويقص عليهم حديث أجدادهم وأخبارهم وما ألم بهم من الجور والعسف وما حل بالبلاد على أيامهم من الويل والخراب وكان يصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارا وعيناه تذرفان الدمع فافتتن الناس ومال إليه خلق كثير من الأعيان والوجهاء من كل صوب وحذب فلما آتس منهم ذلك كتب محضرا وذكر فى عرض عباراته أن أهل البلاد كافة يدعون ولالة الأمور ومن ييدهم زمام الأحكام إلى تشكيل مجلس تكون أعضاؤه من أهل البلاد البحرية والقبلية للذب عن حقوقهم واستخلاصهم من ريق الاستعباد الذى أثقلهم فوقعوا عليه جميعا وسموه المحضر الوطنى وعاد عبد الله بذلك المحضر إلى القاهرة وسلمه إلى أحمد بيك عرابى ففرح به وتقوت عزائم زعماء العصاة فنهضوا إلى طلب الشئ الكثير من المطالب وسألوا زيادة عدد العسكر العامل إلى ثلاثين ألفا، وجعل زمام الجيش وإدارة جميع أموره بيد أمراء الآلايات دون غيرهم - وزيادة جماكى العسكر - وتعديل قوانين العسكرية وغير ذلك مما لم يكن للرئيس مصطفى رياض باشا فى حساب وكتبوا بجميع ذلك محضرا ورفعوه إلى الرئيس على يدى البارودى فحرك ذلك ساكنا من قلب الرئيس

ولكنه جعل يطاول ويحاول ويمنى البارودى، والبارودى لا ينكف عن الطلب ولم تفر له عزيمة وبلغت منه الشدة يومئذ مبلغها قيل: فكاشف الخديوى على ماخفى من فعال الرئيس وحقق له أن الرئيس إنما يعمل منذ اليوم الذى عفا عنه الخديوى عن الجند وزعماء العصاة على سلب امتيازات الخديوى وإذهاب حقوقه الذاتية وأطلعته على كثير من الأمور الخفية التى لم تكن تخطر له على بال، قال الراوى: فاندesh الخديو من ذلك وتزايد قلقه وكاد يظهر للرئيس ما يخفيه من بغضه إليه وحقدته عليه ولكنه اعتصم بحبل التانى ورسم بأن لا تعقد هيئة مجلس الوزراء إلا برئاسته وأن لا يقع شئ إلا بعد مشورته وأن لا يأتى الرئيس عملاً إلا بعد التصديق عليه منه فأجابه الرئيس بالسمع الطاعة ولكنه لم يطق الصبر عليه فكان إذا أطلع الخديوى على شئ أخفى عنه أشياء وإذا أخبره بأمر ستر عنه أمورا والخديوى يتغافل ويظهر الصبر والتجلد وبقي الحال على هذا المنوال أياما.

(مطلب)

تقرب البارودى من المراقب الفرنسى وقونصل جنرال

الفرنسييس وما كان من وراء ذلك

وتقرب البارودى من المراقب الفرنسى واستماله فمال إليه وقربه من المسيو سنكوفيتش قونصل جنرال الفرنسي الذى جاء خلفا للمسيو دى رنج المعزول الذى تقدم لنا الكلام على أعماله وحوادثه مع الرئيس رياض باشا. قال بعض الكتاب: وتحابوا تواؤما فأروا من الخديوى عينا راضية وأذنا صاغية فلم يبق عند الناس من هذا الحين شك فى أن للخديوى يدا فى جميع هذه الحوادث وأنه راض عن فعال زعماء العصاة انتقاما من الرئيس للأسباب التى تقدم بيانها واشتدت عزيمة البارودى وتقوت أنصار أحمد عرابى بيك وتقدم البارودى إلى الرئيس فى طلب تنفيذ مطالب أمراء الجند التى تقدم بيانها وشدد فى ذلك وألح وهدد الرئيس فكبر الأمر على الرئيس وشكا إلى قونصل جنرال الإنجليز ما يلاقه من المراقب وقونصل الفرنسي والبارودى وزعماء العصاة، قيل: فهون عليه القونصل وشدد عزمته وحسن له الإصرار على الإبادة. قال بعض العارفين بأساليب تلك السياسة: إن القونصل إنما أراد بذلك اشتداد الفتنة واستفحال الخلاف فعمل الرئيس بمشورته وأخذ بقوله ومنع البارودى وأغلظ له فى القول فقابلته البارودى بما هو أشد وأنكى وأوعز إلى زعماء العصاة فقاموا وقعدوا وأكثروا من عقد المحافل وإلقاء خطب التهديد على لسان

عبدالله صاحب (التنكيث والتبكيث) وكثر الأخذ والرد بين الرئيس والبارودى وكلم
 قناصل الدول الخديوى فى ذلك فأرسل الخديوى فى سادس عشر رمضان يستقدم
 الرئيس وجميع الوزراء إلى الإسكندرية فساروا إليه وانعقد مجلسهم فى ساعة
 وصولهم فكلّمهم الخديوى فى أمر ذلك الخلاف وحذرهم من الفتنة وحركة الجند
 وعرض بذكر أعمال الرئيس وتحافيه وحظه من مقام الخديوى وقال: لابد من تنزيل
 الوزراء وخلعهم جميعاً وأن يتقلد هو رئاسة المجلس ويتولى النيابة الوزير محمد
 شريف باشا كى تخدم نار هذه الفتنة وترجع الأمور إلى سابق مجراها وشدد فى
 ذلك وعنف الرئيس. قال الراوى لهذا الخبر: فتغيرت عند ذلك أحوال الرئيس
 واصفر لونه وقال: لست بمتمخل عن منصبى ولا أنا بمتمزل نفسى وفى بقية من الرمز
 بل لن أعترف بما يطلبه الخديوى من تقليده نفسه رئاسة مجلس الوزراء فأجابه على
 ذلك البارودى وجعل يؤنبه ويعدد معاييه ويذكر للخديو ما ينويه الرئيس من سوء
 للبلاد وأهلها فكثير بينهم الأخذ والرد واشتد اللد فتلجلج الرئيس وضعفت حجته
 وفاز البارودى أو كاد فكبر الأمر على قونصل جنرال الإنجليز وقد كان حضر
 مجلسهم وهم يحتاجون فانتصر للرئيس وبالف فى الدفاع عنه فكثرت عند ذلك
 الغوغاء وعلت الضوضاء وأظهر البارودى ثباتاً وحزماً وتقدم إلى الخديوى فى قبول
 تنازله عن منصبه وألح على الخديوى وترامى على أقدامه، وقال: والله لن يجمع
 بينى وبين رياض باشا مجلس فأجابه الخديوى إلى ذلك ورسم فى الحال بتقليد
 الأمير داود باشا ابن الأمير أحمد باشا يكن منصبه ثم انفض مجلسهم على ذلك فى
 نحو الساعة السابعة عربى من تلك الليلة وفى النفوس مافيه، وفرح الرئيس
 مصطفى رياض باشا بخلع البارودى وظن انفشال أصحاب الحركة وانصرام حزمهم
 ففرب إليه الأمير داود واستحثه على عدم التهاون حتى بصغائر الأمور فشدد الأمير
 على صغار الضباط ومنعهم من الاجتماع ليلاً فى بيوت بعضهم وحرر بذلك منشوراً
 وأوعد كل من يخالف بالتبديد إلى أقاصى السودان فلم يرتدوا وظلوا على ما هم
 عليه من الخروج ليلاً وتطواف بعضهم على بعض فأنفذ إلى الدراملى صاحب شحنة
 القاهرة بالقبض على كل من يراه منهم ليلاً فطاف الدراملى ليلاً ونهاراً فلم يفلح إذ
 كانوا يتهددونه ويتوعدونه بالقتل وكان إذا هم بعمل شئ علموا به قبل الشروع فيه
 وسدوا عليه جميع أبوابه فلما أعيته الحيل تمارض وطلب التخلّى عن منصبه فأنزلوه
 وولوا مكانه عبدالقادر باشا أحد أمراء الجند على عهد إسماعيل باشا فتدبر وجعل
 يكثر من التطواف والتشديد ولكنه لم يفلح أيضاً إذ عصاه أصحاب الشرطة ونبذوا

كلمته وعكسوا عليه عمله وأفسدوا تدييره واتهمه ضباط الجند بأنه إنما يطوف حول دار أحمد عرابي ليفتك به وأذاعوا ذلك بين العامة فتحدثوا به وخططوا وخطبوا فخاف عبدالقادر باشا شر العاقبة ولازم بيته أياما بحجة أنه مبطون وكلم الأمير داود الرئيس مصطفى رياض باشا في ذلك فاستعظم الأمر ولم يطق الصبر على حر هذا الجمر ورسم بالتشديد وعدم الكف عن التهديد حتى يرجعوا صاغرين .

وبينما الناس في شغل بالحوادث المترادفة والبلايا المتراسلة إذ ظهر أيضا نجم جديد من ذوات الذنب ولم يكن غاب النجم الأول غير أنه صار ضعيف الضوء لا يكاد ينظر إلا بالجهد وكان هذا النجم الجديد صغيراً لا يتجاوز الست درجات ولا يظهر جدا لشدة ارتفاعه في الشمال الغربي بأسفل الدب الأكبر ومع ذلك فقد كان ينظر في نحو الساعة الثالثة عربى ليلا إلى بعد نصف الليل بساعة فلما رآه الناس عادوا إلى التخوف والتطير وجعلوا يحيون الليالى على الأسطحة ورؤوس الجدران يرصدونه وهم فى ضجة وولولة وابتهاال إلى الله أن يرفع عن البلاد وأهلها ما يستقبلها من الخطوب وكان ظهور هذا النجم فى خامس عشرى رمضان من السنة أى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف هجرية .

(مطلب)

روود الخبر من عمال السودان بظهور كذاب يدعى المهدي

فلما كان سابع عشرية وردت الأخبار من عامل السودان بظهور رجل كذاب يدعى أنه المهدي المنتظر على رأس القرن الثانى عشر من الهجرة المحمدية واسمه محمد أحمد وكان سبب ظهوره أنه لما سار جماعة من العسكر السودانى بمديرية آيا الكائنة بالنيل الأبيض وهى مستقر المهدي المذكور ليأتوا به إلى مقر الوالى وقد تنبه على مقدمهم بأن لا يسير إليه إلا ومعه قاضى بلدة الكوة فلم يأخذ معه القاضى وسار بعسكره فى الساعة الثالثة ليلا فلما قربوا من مقر المهدي وجدوا عنده زهاء المائتين من الدراويش مزججين بالرماح والبنادق فأوعز مقدم العسكر إلى العسكر بأن يطلقوا النيران على أولئك الدراويش ليمزقوا جمعهم فامتنع العسكر من ذلك وقالوا: لا نضرب قوما فقراء ولا نقاومهم لأنهم من الدراويش فأحس الدراويش بهم فركبوا عليهم وأعملوا فيهم القتل بحد السيف فقتلوا نيفا ومائة عسكرى وستة من الضباط وفر من بقى والتجشوا إلى النيل، ولما رجع أصحاب المهدي إليه ظافرين اشتد ظهوره وتفتت عزيمته وبث الدعاة فى البلاد فلبى دعوته كثير من البقارة وأهالى

الجبال وكثرت لمومه فعبّر بهم إلى الجانب الغربى وظهر من هذا الحين أمره وعلت كلمته ثم دخل بلدة حبال نقلى إحدى بلدان مديرية كردفان بأراضى البقارة وجعل بها مقره وطير الخبر إلى الآفاق يدعو الناس إلى طاعته ويستحثهم على الخروج عن طاعة الكفرة الملحدّين فجمع الوالى عند ذلك لقتاله جماعة من الباشيبيروق والجند وسيرهم إلى فاشوده ليسيروا منها غربا والوالى يومئذ رؤوف باشا وأرسل إلى القاهرة فى طلب المدد من الرجال ومعدات الحرب فسر الرئيس مصطفى رياض باشا بذلك وظن بلوغ المأمول ورسم إلى الأمير داود بأن يسير إليه طائفة من مرابطى قلعة الجبل وأخرى من جند أحمد عرابى بك النازلين بالعباسية فأحس زعماء العصاة بما وراء ذلك فبثوا أعوانهم يشيعون تكذيب خبر الفتنة بالسودان ويقولون: إنها مناوشات بين البقارة وسكان الجبال لا يد منها عند خروج أصحاب الجباية لجمع الخراج فشدد الأمير داود فى طلب خروج العسكر والمعدات فامتنع كبارهم وبالفوا فى الامتناع وتجرد عبدالله صاحب (التكتيك والتبكيك) للذب والدفاع وكثر بين الفريقين الأخذ والرد فكلم الرئيس مصطفى رياض باشا المستر مالىت قونصل جنرال الإنجليز فى ذلك واستعان به فأعانه وتقدم إلى الخديوى فى طلب صرف جميع الجند إلى أوطانهم عليها تسقط كلمة أحمد عرابى ويذهب نفوذ زعماء العصاة فرسم الخديوى بذلك إلى الأمير داود فجمع الأمير داود كبار الجند من جماعة الشراكسة وكلمهم فى الأمر فأجابوه بالسمع والطاعة ولكنهم لم يفلحوا حيث رأوا من صغار الضباط غاية الممانعة والرفض فعملوا على استرضائهم فلم يتمكنوا وكان الأمر على غير ما يريدون، فلما أعيتهم الحيل وكاد يخيب منهم الرجاء والأمل كتب الأمير داود مرسوما فى ثالث عشر شوال إلى جميع طوائف الضباط ينهاهم عن الاجتماع ويحذرهم من شر العقابة وطاف فى ليلة تحزيره ذلك المرسوم على بيوت الضباط ليرى ما سيكون من أمرهم فرآها غاصة بجماهيرهم وهم فى هرج وجلبة فأصبح وقد كتب إليه عبد العال بيك أمير الجند السودانى يطعن فى مرسومه ويعيب قوله ويرمى الهيئة الحاكمة بالجور والعنف ويقول إن هذا النهى مما لا يصح الامتثال إليه إذ هو مخالف للقوانين العسكرية وإرادة أمير البلاد ومقتضيات الملة الحنيفة وأن تعاضد الجند واتحاد العسكر فى أمورهم وتقوية عزائمهم بالتزاور وتآلفهم وتجميعهم فى أعمالهم كل ذلك عنصره القوة والنظام العسكرى فى كل أمة وملة ولا سبيل إلى النهى عنه فاستعظم الأمير داود هذا الجواب وأكبر مافيه من الغلظة والتعنيف وقام من ساعته وسار إلى قصر النيل وجمع ضباط الفرسان المرباطين هناك وجعل

يستميلهم ويمنيهم بالأمانى العظيمة وما زال بهم حتى استمالهم واستمال كذلك ضباط فرسان قلعة الجبل وكان قبل هذا الحين قد استحلف ضباط الألاى الخامس النازلين بمدينة الإسكندرية وضباط الحرس الخديوى وظن إخلاصهم والاعتماد عليهم عند الحاجة فلما تم له ذلك رسم إلى أحمد عرابى بالقيام بجميع عسكره إلى مدينة رشيد وإلى جند قلعة الجبل بالقيام إلى دمياط وأنفذ إلى مقدم جند دمياط أن يأتى بعسكره إلى مدينة الإسكندرية وإلى مقدم جند الإسكندرية بالحضور إلى القاهرة عند انحدار جند أحمد عرابى وجند قلعة الجبل إلى رشيد ودمياط، فلما وصل مرسوم الأمير داود إلى مقدم جند القلعة بالانحدار إلى رشيد وكان ممن لا يميلون إلى أحمد عرابى وأصحابه جمع الضباط الذين معه وتلا عليهم المرسوم واستحثهم على التأهب للخروج مع العسكر إلى رشيد فقالوا لا نخرج فراجعهم فعتفوه وانحدر جماعة منهم وأعلموا زعماء العصاة بما جرى فخافوا العاقبة وجمعوا فى الحال جميع ضباط الجند الذين بالقاهرة وطرا والعباسية فى معسكر الحرس الخديوى وقام فيهم أحمد عرابى خطيبا فشكى من فعال الأمير داود وبألف فى الشكوى وعظم البلوى وأطال الكلام عن الاتحاد والتعاقد وما فيهما من الخير والأمن على الأرواح ثم استحلفهم جميعا على السيف والكتاب بأن تكون أرواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الأعداء والاحتراس على موارد إيراده من أيدى الطمع وبأن يكونوا جميعا على قلب رجل واحد ثم أعلمهم بأنه قد اجتمعت الكلمة على تسليمه زمام الزعامة وأن يكون المرجع فى كل الأمور إليه.

(مطلب)

كيف كان اجتماع العسكر بميدان عابدين وما كان من وراء ذلك
وانقضى مجلسهم فكتب أحمد عرابى بىك إلى الأمير داود يقول: قد تحقق لنا ولعموم ضابطان الجهادية وأفراد العسكر صدور أمرهم إلى الألاى السادس بالتوجه إلى الإسكندرية بدون باعث ولا سبب يقتضى ذلك ولكن علمنا أن المراد تفريق القوة العسكرية ليسهل الانتقام منا والتمكن من الغدر بمن هم محافظون على الطاعة والإخلاص ولا ذنب لهم سوى طلب الإصلاح فليكن معلوما لدى سعادتكم أننا لا نسلم أنفسنا إلى الموت وأن كافة الألايات ستجتمع يوم تاريخه فى الساعة التاسعة نهارا بميدان عابدين للنظر فى حل تلك المسائل بحيث إن هذه الألايات لا تتحرك من

موضعها إلا إذا حصل التأمين الكافى لسنّ قانون عادل يوقف كل إنسان عند حده وسنشعر وكلاء الدول الأجنبية بما يلزم أ. هـ بنصه.

وكتب إلى قناصل الدول أيضا يقول: أتشف بأن أحيط علم جنابكم أنه من أول شهر فبراير سنة إحدى وثمانين أى من وقت ابتداء الفتنة التى أحدثها عثمان رفقى باشا إلى الآن قد مضى فوق السبعة أشهر وفى كل هذه المدة تقاسى العسكرية أتعابا وتحمل مصائب ونوازل وتهديدات وتتوقع الفتك والإعدام غدرا وخديعة ومن هذه المصائب حادثة يوسف باشا كامل وكيل الحضرة الخديوية ونازلة فرج بك السودانى وواقعة التسعة عشر ضابطا الذين كانوا يدسون الدسائس. قلت: وهاتان الحادثتان لم أذكرهما لعدم أهميتهما يومئذ، ونحن مع كل ذلك نسعى فى تحسين الحال وقطع المفاصد بالحكمة والتدبير رغبة فى الحصول على الراحة العمومية وحقق الدماء والمحافظة على كافة تبعة الدول المتحابة ومن وقت أن تشرفت مصر بالحضرة الخديوية أخذت الفتن والدسائس تزداد إلى أن شرع فى تجزئة الجيش المصرى وتفريقه تسهيلا للغدر والانتقام فلهذا التزمنا بالمحافظة والمدافعة عن أنفسنا وأعراضنا إلى أن يأتينا أمر دولتنا العلية الذى يترتب عليه حفظ بلادنا ومن فيها وقد دعت الحالة إلى تحرير هذا لجنايبكم لتعلموا بأننا متمسكون بالمحافظة على حقوق التبعة الأوروبية واقبلوا مزيد الاحترام. أ. هـ.

فلما وقف الأمير داود على ما فى خطاب أحمد عرابى بيك تكدر وقام من فوره ودخل على الخديوى بعابدين وكان الخديوى قد عاد من الإسكندرية منذ أيام وحدثه بخبر تحزب جميع الضباط وما فى خطاب أحمد عرابى بيك فسير الخديوى فى الحال فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وجميع الوزراء وبينهم المستر كولفن المراقب الإنجليزى لغياب ماليت قونصلهم الجنرال فحضرُوا فعقد مجلسا وتناجوا فى الأمر طويلا وكثر بينهم الأخذ والرد فأوقعوا اللوم على الرئيس وعابوا عليه جميع أفعاله وبينما هم على هذا الحال إذ حضر من يعلم الخديوى بأن حرس سراى القبة التى هى مقر نساء الخديوى قد انضموا إلى عسكر العباسية وتركوا مراكزهم فظهرت عند ذلك على وجوه جميع الحاضرين علامات الدهشة والخوف واشتد بهم القلق وانفض مجلسهم على مالم تصل إلينا معرفته إلى الآن، وفى نحو الساعة السادسة نهارا عاد الرئيس مصطفى رياض باشا ومعه سائر الوزراء فعقدوا مجلسهم ثانية وتكلموا فى الأمر وبينهم كولفن المراقب الإنجليزى فتقدم كولفن إلى الخديوى فى إبلاغ المسيو سنكوفيش قونصل جنرال الفرنسيس يخبر هذا الحادث إذ كان فى هذا

اليوم بمدينة طنطا فرسم له بذلك فغاب كولفن ساعة ثم عاد فأعلمه الخديوى بأن جند الحرس وجند الألاى الثانى على قدم الاستعداد لإرغام جند أحمد عرابى وإرجاعهم إلى الطاعة وأنه على عزم الذهاب ومعه جميع الحاضرين إلى معسكر الحرس لتحقيق صدقهم وإخلاصهم جميعا بكلمة الإخلاص وهتفوا بالدعاء له فسار هو ومن معه إلى قلعة الجبل ودعا إليه رضا باشا مقدم العسكر النازلين بها ورسم إليه بأن يسير إلى أحمد عرابى بك من يخبره بأن لا يتحرك بجنده ولايتى إلى ميدان عابدين بشىء من المدافع وفى هذه الأثناء حضر المستر كوكسن كاتب المستر ماليت قونصل جنرال الإنجليز فقص عليه كولفن تفاصيل الحادثة فنزل من فورهِ من القلعة وبعث بها إلى عاصمة الإنجليز على جناح البرق ولما صار الخديوى ومن معه فى جوف القلعة اجتمع حوله جميع الضباط وأظهروا له كمال الطاعة وحسن الولاء والإخلاص ودعوا له ثلاثا ثم نادوا بالويل والثبور على الرئيس مصطفى رياض باشا ورفاقه وطلبوا خلعه من منصب الرئاسة عاجلا فقال الخديوى: ما السبب فى نبذكم للأوامر فقالوا حاشا أن نخالف لأمرنا أمرا ونحن عبيده المخلصون فى طاعته فالتفت إلى إبراهيم بيك حيدر مقدمهم التفات الاستغراب فقال إبراهيم بيك: لم يكن من سبب لنبذ الأوامر سوى إغراء فوده حسن هذا البيكباشى وأشار إليه فتقدم نحوه الرئيس مصطفى رياض باشا وأمسك بأطوافه وجذبه إليه وقال له: أمثلك من يعصى أمير البلاد ويمانع فى إجراء ما أشارت به الهيئة الحاكمة فلما فعل به ذلك نفخ أحد أصحاب البوق على الجند ونادى ضعوا الحراب ضعوا الحراب فأسرعوا جميعا ووضعوا حرايبهم على أفواه البنادق وأحاطوا بالخديوى ومن معه إحاطة السوار بالمعصم وكثر ضجيجهم واشتدت جلبتهم ونادوا أطلق ضابطنا أطلقه فخلى عنه الرئيس وقد ظن أنه مأخوذ على رؤوس الحراب فالتفت الخديوى إلى الجند وقال: ألسن خديويكم وولى أمركم قالوا: بلى قال: هل تأخر لأحد منكم راتب أو تعيين أو كسوة حتى جهرتم بهذا العصيان وفعلتم ماأنتم فاعلوه قالوا والله إنا مطيعون لك لانخالف لك أمرا وأنت أميرنا وولى نعمتنا ولانريد سوى خلع الرئيس وتبعيده عن خدمة البلاد فتركهم عند ذلك الخديوى واتحدر واتحدر من كان معه على عجل، قيل: وبينما هم منحدرون أشار الرئيس والمستر كولفن على الخديوى بأن ينحدر إلى عابدين قبل أن يصل إلى ميدانها أحمد عرابى ومن معه من الجند فامتنع وأصر على الذهاب إلى العباسية على غير الطريق المسلك حتى انقطع عنه بعض فرسان حرسه

وقد غطى الغبار وجهه ولحيته وابتلت جميع ملابسه بالعرق فوصل العباسية فى أقل من ساعة ودخل محلة الجند فلم ير فيها دياراً ولا نفاخ نار قيل فطرق كفا على كف وكر راجعا إلى عابدين ، وأما أحمد عرابى بك فإنه لما صار الساعة الثامنة عربى نهارا نادى فنفخوا فى البوق واصطف الجند وحملوا بنادقهم وساروا من العباسية فتبعهم أصحاب المدافع يجزون اثنين وعشرين مدفعا من الطراز الكبير وكان قيامه بهذه العساكر والأجناد من العباسية فى نفس الساعة التى دخل فيها الخديوى قلعة الجبل فقد أرسل إليه ضباط القلعة يعلمونه بوصول ركب الخديوى إليهم وكذلك أرسلوا إلى عبدالعال بك مقدم الجند السودانى بمعسكره بطرا فتحرك فى الحال عبد العال بجنوده وركبوا قطار سكة حديد حلوان ونزلوا بميدان محمد على ثم صعدوا إلى قلعة الجبل ليقبضوا على جميع الوزراء ويلقوهم فى سجن القلعة ، وفى رواية ليقبضوا على الخديوى وعندى أن الاول أصح ، فقد أكد بعض العارفين أن الخديوى كان على اتفاق مع زعماء العصاة إلى هذا الحين فلم يكن من موجد إذن للقبض عليه ولما لم يجدوا أحداً بالقلعة كروا راجعين إلى رحبة عابدين فالتقوا هناك بجند العباسية والفرسان وأصحاب المدافع فتقدم عبد العال بك إلى حيث أحمد عرابى وبقيّة الضباط وتعانقوا ثم تصافحوا وتساروا لحظة ثم وقف كل فى مقدمة عسكره وسيفه بيده مسلول وقد اجتمع حولهم العامة ما لا يحصر عدده من النساء والرجال والصبيان وما وصل جند عبدالعال بىك حتى نفخ البوق نفخات متتابعة فعلت الفوضاء عند ذلك وكثر صياح العامة وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة وترامحوا وترامى بعضهم فوق بعض ظنا منهم أن البوق إنما يدعو الجند إلى إطلاق قنابل المدافع على المدينة وقد كان صوت البوق ينادى جند الحرس الخديوى للخروج من معسكرهم فخرجوا فى الحال يحملون البنادق والحراب ومروا بين الصفوف ودخلوا السراى وأمامهم مقدمهم على بىك الديب وأحاطوا بالسراى من كل صوب ودرب يمنعون الناس من الدنو منها وهم فى غاية الهدوء والسكينة ، أما الخديوى فإنه لما وصل إلى رأس الطريق الموصل إلى ميدان عابدين ورأى الميدان غاصا بالجند والخيّل والمدافع والخلق الكثير من العامة وهم فى ولولة وخوف عرج إلى طريق أخرى ودخل السراى من باب صغير أمام الجناح الذى بالجانب القبلى من السراى وكان معه فى مركبته كولفن المراقب الإنجليزى وخلفه الجنرال أستون باشا وثلاثة من الضباط فنزل وسار نحو الباب الغربى الموصل إلى الميدان حيث الجند والخيّل فتقدم إليه فى

الحال رضا باشا وأعلمه بأن جند قلعة الجبل قد انضموا أيضاً إلى المتظاهرين ولم يسمعوا لمقدمهم كلمة فالتفت كولفن إلى الخديوى عندئذ وقال: إذا تقدم نحوك أحمد عرابى فأمره أن يرد سيفه إلى غمده ويتبعك فإذا فعل تقدم أنت إلى رأس كل فريق من الجند ومره بالانصراف فقدم الخديوى بقلب ثابت وشهامة كبرى وسار نحو أحمد عرابى وعبد العال وأشار لهما بالسّلام فسلما بالاحترام والتجلة والوقار فقال لهم: مالكم قد نبذتم عن طاعتي وعصيتم أمرى؟ فقالوا: حاشا نحن عبيدك المخلصون فقال: انصرفوا وسأبذل جهد الاستطاعة فى تحسين أحوال العسكرية وتنظيم قوانينها على قواعد ثابتة فأجاب أحمد عرابى إنى وإخوانى وجميع ضباط الجيش وأفراد العسكر خاضعون لك يا مولاي وكلنا لا نبرح من هذا الموقف حتى تنجز لنا ما طلبناه فقال له الخديوى ردّ سيفك إلى غمده فأجاب سمعاً وطاعة وناول الخديوى ورقة وقال: هذه يا مولاي ملحقه بمقترحات الوطن وبنه فأخذها الخديوى وقفل راجعاً إلى السراى ولم يأمر أحمد عرابى أن يتبعه ليقبض عليه ويطره فى السجن كما أشار بذلك المراقب الإنجليزى فلم يفتح الخديوى الدرج حتى جاءه من يقول إن جند الحرس انضموا أيضاً إلى المتظاهرين فقطب وجهه وصعد إلى مقره فلما استوى به المقام أمر فعقدوا هيئة مجلس الوزارة وتليت عليهم مقترحات ضباط الجند فكانت - أولاً: عزل جميع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى يرأسها الوزير محمد شريف - ثانياً: جعل عدد العساكر العاملة ثمانية عشر ألفاً طبقاً للفرمان الصادر فى شأن ذلك - ثالثاً: تشكيل مجلس نواب البلاد على ما كان عليه فلما طرّق أذن الرئيس مصطفى رياض باشا طبل هذا الكلام كاد يتميز غيظاً وقال: كيف يحل لهم طلب خلع الوزراء كافة والوزراء خدموا البلاد وأخلصوا فى خدمة أبنائها لا سيما وهم اليوم مؤيدون بتصديق دولتى الإنجليز والفرنسيّين فلا يصح التعرض لهم بشيء ألتة إلا بعد استشارة الدولتين فقال الخديوى: وأنا أرى أيضاً أن الوزير محمد شريف باشا لا يريد أن تكون له الرئاسة على هيئة تكون كالآلة الصماء فى أيدي الجند، أما من جهة مجلس شورى النواب فلا اختصاص لعصابة الجند بطلب تشكيله وكذلك جعل عدد العسكر العامل ثمانية عشر ألفاً مما يثقل حمله على عاتق الخزينة وليس فى الأمر الآن ما يستلزم هذه الزيادة، فكثّر عند ذلك الأخذ والرد بين الوزراء والخديوى وعلت بينهم الضوضاء وتنوعت الأغراض وتفرقت الأهواء وعلا صوت الرئيس مصطفى رياض باشا وأقسم أنه لا يخلع نفسه وفيه بقية من الحياة فعنونه

بعض رجال ديوان الخديوى وقالوا له : إنك أنت محدث هذه الثورة وموقد نار هاته الفتنة وكأنك تعمل على خلع شخص الخديوى لغاية فى نفسك فأغلظ عليهم فى الرد وشدد فى الامتناع فراجع الخديوى فامتنع أيضاً ، فقام عند ذلك المستر كوكسن نائب قونصل جنرال الإنجليز ليسأل أحمد عرابى بىك عن رغائبه ، وكان أحمد عرابى واقفا وحوله كتية من الجند تحرسه على شكل قلعة فدنا منه المستر كوكسن وقال : قد تقرر خلع الوزراء الآن ولكن لا يتقرر تعيين بدلهم حتى تصرف جميع الجند وتفض هاته الجموع المجتمعة حولهم فصاح عند ذلك جميع الضباط ونادوا نطلب الوزير محمد شريف باشا ، الوزير محمد شريف باشا ، فقال كوكسن : ويحكم إنى أرى أن الأجل صرف الجند الساعة وإلا كتتم سبب ضياع وطنكم وعيالكم فإن الخليفة أمير المؤمنين ودولتى الإنجليز والفرنسيس لا يرضون عن جعل حكم هذه البلاد فى قبضة جنودها انصرفوا ، فصاح الضباط ثلاثا نطلب الوزير محمد شريف باشا فرجع كوكسن إلى مقر الخديوى وغاب برهة لطيفة ثم عاد ، وقال : إن الخديوى رسم بإحالة نظر هذه المشكلة على دار السلطنة فلا يعمل فيها عملا حتى يأتية الإذن من أمير المؤمنين فأصرفوا الجند وفضوا هذا التظاهر ، فقال أحمد عرابى بىك : أما إحالة نظر هذه المشكلة على دار الخلافة الإسلامية فلا بأس به وأما صرف الجند فلا سبيل إليه قبل أن يعطى لنا الخديوى أمرا قاضيا بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحابه وإقامة الوزير محمد شريف باشا بدله ، فقال كوكسن : إن كنت تخشى شيئا من انصراف الجند فأنا كافل لك أنت ومن معك حفظ أرواحكم وعيالكم وأموالكم وجميع ما لكم من الرتب وألقاب الشرف فضحك أحمد عرابى وقال : بورك فيك ، كيف تكفل لنا حفظ أرواحنا وأموالنا وعيالنا وأنت غريب نازل ببلادنا التى هى فى حفظ وحراسة هؤلاء الجنود الساهرين على حفظ أرواح سائر الأجانب وصيانة أموالهم وأعراضهم وكيف يكون لك ذلك وأنت فرد من الإنجليز ولا أظنك تجهل أن دولتى الإنجليز والفرنسيس مع تكفلهما معا بحفظ حياة الوزير إسماعيل صديق باشا لم يدفعنا عنه مرارة تلك الكاس التى شربها قهرا فعند ذلك سكت كوكسن وعاد إلى المجلس ولم يعد ثالثة إلا ومعه كولفن المراقب وخيرى باشا الممهدار ويبد خيرى باشا مرسوم الخديوى إلى الوزير محمد شريف باشا بتوليته منصب الرئاسة وتشكيل هيئة الوزراء على ما يشاء ، فلما دنوا من موقف أحمد عرابى أخذ القونصل المرسوم ودفعه إلى أحمد عرابى وقال : ها هو ما تطلبه فأعطه

بيدك إلى الوزير محمد شريف باشا ومر الجند بالانصراف وقد خرج من مجلس الخديوى من يستدعى أحمد عرابى للمثول بين يدى الخديوى فدخل أحمد عرابى إلى المجلس وغاب برهة ثم عاد فأمر صاحب البوق فنفخ فيه تباعاً فصاح الجند جميعاً بصوت واحد (أفند مز جوق يشأ) ثلاثاً فظن الناس عند ذلك أن قد قامت الحرب على ساقها ولم يبق إلا طلق المدافع فترامحوا وارتفعت أصواتهم بالصياح وتساقت بعضهم فوق بعض وكثر بكاؤهم فنفخ البوق ثانية وثالثة فسار أولاً جند عبد العال بيك إلى ناحية طرا ثم جند قصر النيل، ثم جند العباسية وكان فى مقدمة جند العباسية كوكبة من الفرسان ثم أخرى من المشاة على شكل قلعة وفى وسطها أحمد عرابى بك وخلفه جماعة من الضباط يحملون السيوف ثم بقية المشاة ثم أصحاب المدافع وخلفهم نساء العامة والسوقة وهن يزغرتن ويغنين الأغاني الريفية ويصحن فى كل لحظة ويقولن الله ينصرك يا عرابى ياسند الولايا الله ينصرك.

وسير الخديوى فى الحال بعد انفضاض الجمع خبر هذا الحادث إلى دار السلطنة فأناه الجواب من صدر الدولة يستحثه على استدراك الخطب قبل استفحاله، وأرسل فى نحو الساعة الخامسة ليلاً إلى الإسكندرية يستقدم الوزير محمد شريف باشا وقد كان بها منذ أيام فقام من محطة الحاضرة فى قطار مخصوص هو وآل بيته وخدمه وحشمه وأتباعه فوصل القاهرة فى فجر السبت سادس عشرى شوال ودخل على الخديوى ولبث بحضرته طويلاً ولم يحدث فى تلك الليلة شئ مما كان يتوقع الناس حدوثه من العامة وزغانف الفرنجة، فقد كان أصحاب الشرطة ساهرين يقظين والعسس يكثر التطواف فى الأزقة والحارات، وأصحاب الدركات ينادون بعضهم على بعض تباعاً ورتب أحمد عرابى بك جماعة من الجند يطوفون ويمنعون العامة من التجمع فى الطرق والفهاوى على عاداتهم، وألبس كثيراً من صغار الضباط ملابس العامة فكانوا يمشون بين الناس لاستراق السمع واستطلاع الحوادث وأصبحوا والناس فى فرح ما عليه من مزيد وقد سر أصحاب الوظائف ورجال الدولة بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وذهب الوزير محمد شريف باشا إلى مقر الخديوى بعابدين وعقد مجلساً حضره جميع قناصل الدول الكبرى وبعض قناصل الدول الصغرى وكان بعضهم فى هذا اليوم فى الإسكندرية وبعضهم فى طنطا وحضر فى هذا المجلس أيضاً مقدمو العسكر فتكلم الوزير محمد شريف باشا فى طلبات زعماء الجند وتباحثوا كثيراً فعلق الوزير قبوله منصب الرياسة على خلع أمراء الأيالات

الثلاثة من مناصبهم وأنه يكفل لهم الذب عن جميع حقوقهم الذاتية ولسائر الجند بنوال العفو عما فرط ولزوم انسحاب جند العباسية وطرا إلى رأس الوادى ودمياط فلم يرض مقدمو العسكر بذلك، وقالوا: إنما نحن نطلب أن يتولى رئاسة ديوان الجند رجل من أهل البلاد لا شركسى ولا من العائلة الخديوية وأن لا بد من إبلاغ عدد الجنود العاملة إلى ثمانية عشر ألفا، وأن يشكل مجلس شورى البلاد كما كان على أيام الخديوى إسماعيل باشا فطال بينهم الأخذ والرد وكثرت المضوضاء ثم انفض مجلسهم على غير طائل، وشاع الخبر بما كان فتطير الناس وخافوا وكثرت الأراجيف وتنوعت الإشاعات فمن قائل إن مراكب حرب الإنجليز والفرنسيس آتية للإسكندرية لإخضاع زعماء الجند وإرجاعهم إلى الطاعة، ومن قائل لا بل إن عسكر السلطان صارت على مقربة من العرش وهى آتية لمعاونة زعماء الجند وتقرير جميع مطالبهم واشتد اللغط وكثر تساؤل الناس بعضهم لبعض وأصبحوا فأرسل الخديوى إلى الوزير محمد شريف باشا يلح عليه بقبول منصب الرئاسة وتوسط فى ذلك أيضاً قناصل الدول فامتنع، وقال: لا سبيل إلى ذلك حتى تنسحب جميع العساكر إلى رأس الوادى ودمياط وينزل أمراء الجند الثلاثة عن مناصبهم فانقسم الناس فى أمره يومئذ إلى فريقين فريق كان يصوب آراءه ويستحسنها غاية الاستحسان مشيراً بذلك إلى عزة نفسه ونزاهتها عن الأغراض الذاتية التى تصحب عادة تلك المناصب العالية مع حبه الزائد للوطن، وفريق كان يرى أن حب الوطن مفضل على كل شيء فكان عليه أن يلبى الداعى ويأخذ بأطراف الحزم مع أجمل المساعى فيفض المشكلة بحكمته المشهورة وينقذ البلاد وأهلها من البلايا التى وقعت فيها، وكان لكل من الفريقين دليل وبرهان وعندى: أن القول الثانى أفضل وقد ظن بعض الناس أن تردده فى قبول منصب الرئاسة مبنى على رغبته فى إماتة الوقت والمطاوله حتى تصل إلى الإسكندرية مراكب الحرب السلطانية، وظن آخرون أنه لا يقبل هذا المنصب حتى تنحل عقدة المراقبة وينزل المراقبان الإنجليزى والفرنساوى عن مناصبهما لما بين الوزير والمراقب الفرنساوى من الوحشة والنفور، قلت: ولم يكن الوزير على هذا الجانب من الإفراط والتفريط فإنه معروف بين جميع أهل البلاد بالتزهد عن الأغراض الذاتية مشهور بلبين العريكة وسلامة النية فلا تميله الأغراض ولا تغير المناصب من أخلاقه شيئاً ولا يسير إلا على ما يعتقد أن فيه الخير والمصلحة للبلاد وأهلها، وفوق ذلك فهو ليس بذى طمع مع إحدى الدول الطامعة فى البلاد كغيره ممن تولوا الرئاسة،

ولذلك كان الناس كافة يعتبرونه أبا الأمة وأخا الإصلاح ومحى روح المساواة بين صنوف الرعية، ولما طال امتناعه أوعز الخديوى إلى قناصل الدول والعلماء والرؤساء الروحانيين وعمد البلاد ووجهاء التجار أن يستميلوه إلى قبول المنصب ففعلوا وزادوا فى استعطافه ورفع إليه العلماء وعمد البلاد ووجهاءها وأئمة المذاهب ومشايخ الطرق سجلا بأختامهم وأسمائهم وهم زهاء الستة آلاف ذكروا فيه: أنهم كافلون وضامنون طاعة أمراء العسكر وجميع صغار الضباط وعدم عودهم إلى تكدير صفو الراحة وامتثالهم لإشارة الوزير. وغير ذلك من أقوال اللين والتلطف فلم يسعه بعد ذلك إلا القبول وقام من ساعته ودخل على الخديوى بمقره بالإسماعيلية ولبت بحضرته لحظة ثم كر راجعا إلى داره فلقبه وفد من مقدمى العسكر ومعهم التماس وقع عليه جميع أفراد الضباط على اختلاف درجاتهم فدفعوه إليه فقبله ولاطفهم وأظهر لهم غاية البشر والإيناس وقرأه وإذا هم يقولون فيه:

نحن ضباط الجيش المصرى نعتقد الاعتقاد التام فى حسن صداقة وغيره دولتكم وخلوص طويتكم وسلامة نيتكم فى خدمة الوطن العزيز والمحافظة على حقوقه والسعى فى رفاهية أهله ولهذا ولكوننا جميعا نحب تقدم وطننا العزيز فنلتمس من دولتكم قبول مسند رئاسة مجلس النظار ونسترحم من دولتكم انتخاب نظار الدواوين ممن يكونون موصوفين بالصفات الحسنة والعرض عنهم للحضرة الفخيمة الخديوية للقيام بأعباء خدمة الوطن العزيز وإعلانا لصداقتنا وانقيادنا لأوامر الحكومة التى تصدر فى صالحنا العمومى قد أمضينا هذه العريضة ونحن على يقين أن تقع لدى دولتكم موقع القبول : اهـ.

(مطلب)

قبول الوزير شريف باشا تشكيل الوزارة بعد امتناع

فما فرغ من قراءة العريضة حتى هان عليه الخطب وخف عنه ما كان يلاقيه ورسم بتشكيل هيئة الوزراء فعين مصطفى فهمى باشا لوزارة الخارجية وحيدر باشا للمالية وإسماعيل أيوب باشا للأشغال ومحمود باشا البارودى للجهادية والبحرية وقدرى بك للحقانية وأضاف إلى مسند الرئاسة وزارة الداخلية وكان الفراغ من تشكيل الوزارة على هذا النسق بعد ظهر يوم الثلاثاء تاسع عشر شوال سنة ثمان وتسعين وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا فرحا لا يوصف واطمأنت قلوبهم بعد

الخوف وذهبت عنهم تلك الطيرة ووردت رسائل التهاني على الوزير محمد شريف باشا من كل صوب وحذب وأحسن مصطفى رياض باشا بما وراء تنزيله عن منصب الرئاسة لا سيما وقد كثر اللغط وعمت الإشاعة بأن زعماء الجند يطلبون محاكمته على ما ارتكبه من الجور والعسف وتخريب البيوت العامرة وتبعيد الكثير من أبناء البلاد إلى أقاصى السودان والدارفور بلا موجب، فخاف وتقدم إلى الخديوى فى أن يسرحه بالخروج إلى الديار الأجنبية كما فعل عند خلعه على أيام الخديوى إسماعيل فسرحه بشفاعه قونصل الإنجليز والمستر كولفن المراقب فرحل عن القاهرة مساء الثلاثاء تاسع عشر شوال إلى الإسكندرية ثم سار عنها فى ثانى يوم إلى مدينة نيس إحدى مدن بلاد الفرنسيس فكان بين خلعه وارتحاله ثلاثة أيام وإحدى عشرة ساعة بالقاهرة وزهاء سبع عشرة ساعة بالإسكندرية وطير الخديوى الخبر بجميع ما جرى إلى دار السلطنة، فجاءه الجواب فى ثالث عشرى شوال يهته بما حصل ويسأله تحقيق الآمال بجعل الوزير محمد شريف باشا يتصرف فى الأمور بعزمه وحزمه المعلومين وينظر إلى مصالح الخلق من أبوابها الحققة، وجاء إلى القاهرة العدد العديد من وجهاء البلاد وأعيانها وكبار الأهلين ومعهم عريضتان موقع على كل منهما من زهاء الألف والخمسمائة من عمد البلاد وكبارها إحداهما برسم الوزير محمد شريف باشا ومضمونها: أن جميع من وقعوا عليها كافلون بأنه لا يقع فى المستقبل من الجيوش المصرية شىء تأباه الهيئة الحاكمة وإنهم فرحون فرحا ما عليه من مزيد حيث تنازل وقبل مسند الرئاسة لأنهم يعتقدون أن قبوله هذا هو الوسيلة العظمى فى اطمئنان الخواطر وسكون النفوس، وثانيتها: برسم الخديوى ومضمونها طلب تشكيل مجلس النواب حيث إنه هو الوسيلة الكبرى للإصلاح الذى توجهت إليه آمال جميع الأهلين وكان بين هذه الجموع التى حضرت محمد سلطان باشا أحد وجهاء منية ابن خصيب فوقف وقال مخاطبا الوزير محمد شريف باشا: إني أعرض على سامع دولتكم أن هؤلاء الوجهاء والنبلاء قد تمثلوا بين أيدي مراقمكم ليظهروا ما عندهم من القرح والسرور حيث تفضلتم بقبول مسند الرئاسة الجليل فأنهم يعرفون ما لدولتكم من الميل الحقيقى لإجراء الإصلاح الذى كثيرا ما أملوه ويعرضوا أنهم متكلفون بالجيوش المصرية الذين هم فى الحقيقة أبناءهم وإخوانهم وليلتمسوا من مكارمكم ما يعلمونه فى سمو أفكاركم من بث روح الحرية فى البلاد والمساواة بين أصناف الرعية، وحيث إن دولتكم على هذه الأفكار السامية فهذا الجمع يلتبس من

كرمكم بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن إخوانهم الموقعين على هاتين العريضتين أن تمدوا إليهم ساعد المساعدة القوى وتسعفوهم بما علموه فى همتكم من الإقدام وقوة العزيمة وأن مساعدتهم على نوال ما طلبوه لا تتحقق إلا بأن تكون دولتكم الوساطة العظمى فى رفع هذه العريضة المتضمنة طلب تشكيل مجلس النواب إلى الجناح الخديوى المعظم أعزه الله، وليست هذه بأول ما رآه الناس من حبكم لبث روح الحرية فى البلاد فإن أفكاركم السامية لم تزل ولا تزال موجهة نحو كل ما فيه الخير والمنفعة لهذه الأوطان . اهـ .

فأجابه الوزير بما شف عن إخلاصه فى مساعدتهم وأنه عازم كل العزم على أن يسعى جهده فيما تتقدم به البلاد لا سيما فى تشكيل مجلس شورى النواب فانصرفوا وطبروا الخبر بذلك إلى الآفاق، فوردت على الوزير فى هذا اليوم رسائل التهانى من جميع قناصل الدول وكبار الأجانب والأهلين وأرسل إليه صاحب جريدة التقدم وهو يومئذ بالشام فاراً من وجه مصطفى رياض باشا تاريخاً على جناح البرق يؤرخ به عوده إلى منصب الرياسة وهو :

فهذه النعمة تاريخها نصر من الله بفتح قريب

سنة ١٢٩٨ هجرية

وتواردت عليه قصائد التهانى وأبيات المديح من جميع الجهات ترى ووقف بعض الشعراء على بابيه، وسمعت شطر بيت لأحد أدباء القاهرة يؤرخ به رياسة المشار إليه وكأنه كان يعرض بأعمال مصطفى رياض باشا أيام رياسته ولكنى لم أقف على الشطر الأول وهو

* الدهر حر والوزير شريف * سنة ١٢٩٨

ولم يستقر به المنصب حتى جعل ينظر فى طلبات الجند من أبوابها فقرر منها قانون الإجازات العسكرية البرية والبحرية، وقانون تسوية حالة الضباط المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية، وقانون القواعد الأساسية الذى يليه قانون الترقى، وقانون الضمان والامتيازات والإعانات العسكرية فلما أتمها على الوجه المطلوب رفعها إلى الخديوى فصادق عليها ورسم بتنفيذها والعمل بها اعتباراً من ثامن عشرى شوال ففرح الجند بذلك فرحاً لا يوصف وسر كبارهم واطمأنت قلوبهم واعترفوا للوزير بالفضل والمنة، وكانت هذه القوانين غاية فى السهولة والاعتدال لا شئ فيها خارج عن رغائب الحكومة وما تقتضيه حالة البلاد ولم يعلم إلى هذا

الحين ما الذى حمل مصطفى رياض باشا أيام رياسته على تعيينها والامتناع من العمل بها بعد أن رسم بتقريرها فكانت على نحو ما أراد ولو لم يقع منه فى أيام رياسته شئ من الجفاء والشدة مع مقدمى الجند سوى إصراره على عدم تنفيذ هذه القوانين لكفى فإن أعمال زعماء العصاة كانت لغاية اليوم الذى تقرر فى هذه القوانين غاية فى الخطأ والخلل بل هى كأعمال صبيان المكاتب ليس فيها ما يوجب الخوف ولا ما يورث القلق وكانت مجردة عن كل حكمة مشوية بالأغراض التى لا بد وأن تفضى بصاحبها يوما إلى الوقوع فى الهلكة وكان عقلاء القوم يعرفون ذلك جيدا فلما رسم مصطفى رياض باشا بتقرير تلك القوانين ثم عاد فامتنع من العمل بها كان مثله فى ذلك كمثل رجل سلم لآخر سيفاً باتراً على حين لا يملك عصا واستحلفه أن لا يتقلده إلا متى بلغت منه الشدة مبلغها ثم كان منه بعد أيام أن ضيق عليه وبالع في إذلاله وسامه الخسف فلم يشعر إلا وذاك السيف يكاد يعمل فى عنقه فالتفت مذعورا وقال لصاحبه: أو أنت فاعل قال: كيف لا وقد استحلفتني وهذا السيف سيفك الذى سلمتني فندم ولكن لم ينفع الندم.

(مطلب)

رفع ظلامات أهل الحبوس إلى الوزير

وسار الوزير محمد شريف باشا فى النظر فى أمور البلاد واحتياجاتها سيرا حثيثاً فكثرت توارد القصص والظلامات على ديوانه من أهل الحبوس التى ملأها مصطفى رياض باشا بالكثير من أهل البلاد لأقل ذنب وأصغر شبهة فكان إذا خرج الوزير من بيته يريد الديوان تعلق نساء أهل تلك الحبوس وأطفالهم بأثوابه واستغاثوا وضجوا وبكوا وتساقطت الظلامات بين يديه فتناقل هذا أصحاب صحف الأخبار المحلية وشاع حتى نقله أصحاب صحف أخبار الإنجليز وقاموا له وقعدوا وتبعهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيين واستعظموا البلوى ونادوا بالعدالة بالإنسانية فكبر الأمر على الوزير محمد شريف باشا واستعظمه ورسم بتشكيل لجنة عهد إليها تفتيش جميع الحبوس وتحقيق ظلامة كل مسجون، وسيارت دولة الإنجليز أحد مقدمى جنودها إلى القاهرة ليشترك اللجنة فى أعمالها، وكلم القونصل الوزير محمد شريف باشا عنه فلم يمانع فى حضوره فبحثت اللجنة ونقبت فظهر لها كثير من المظالم والفظائع قالوا: ولم تكن هذه المظالم قاصرة على مستخدمى بعض المصالح

والدواوين كالطرد والحرمان من الخدمات والتباعد والسجن وغير ذلك بل قد عمت أيضاً جميع أهل البلاد وأنشبت بالجليل منهم والفقير والغنى والفقير حتى غصت بهم الحبوس وضائق على اتساعها وأبعد الكثير منهم إلى أقاصى السودان وغيرها بلا قضاء شرعى ولا حكم قانونى وأحصوهم فكانوا زهاء الأربعة آلاف من سائر المديرىات القبلية والبنجرية فأطلقوا من بقى منهم فعادوا إلى أوطانهم على نفقة الخزينة، وبينما الناس فى شاغل بحوادث أصحاب الظلامات ومن أهلكتهم الحبوس إذ جاء الخبر من دار السلطنة فى ثلث من ذى القعدة إلى ديوان الخديوى الخاص بقيام إحدى سفن حرب الدولة إلى الإسكندرية وعليها أربعة من مأمورى الدولة وهم: على نظامى باشا المعتمد الأول الموكل إليه البحث فى أمر تظاهر أحمد عرابى بىك وأصحابه، وعلى فؤاد بىك المعتمد الثانى الموكل إليه النظر فى الأمور السياسية وله حق الاشتراك فى المخابرات التى تقع بين مصر والدول الكبرى، وراتب باشا، وصفر أئندى وهما من ياوران الخليفة أمير المؤمنين ويتضمن الخبر أيضاً التهانى للخديوى على ما أظهره من الحزم وحسن السياسة فى حل تظاهر الجند وتسكين قلوب الرعية، ويقول إنى: أرسلت إليك فى مركب حرية من مراكبتنا السلطانية بعض المأمورين من ياوراتنا الخاص سيكونون لك عوناً على حل هذا الإشكال وفض الخلاف بالتى هى أحسن ومنع حدوث مثل هذه القلاقل مرة ثانية فلما شاع الخبر بما ذكر استعظمه الناس وخافوا عاقبته واهتم له الوزير محمد شريف باشا فرسم فى الحال بانحدر عبد العال بىك بعسكره السود إلى مدينة دمياط فانحدر فى نفس اليوم الذى جاء فيه الخبر بقيام وفد السلطان وقد شيعه على المحطة العدد العديد من ضباط الجند والوجهاء والأعيان والتجار على اختلاف درجاتهم وأحمد عرابى بىك والبارودى، فقبل أن يسير بهم القطار وقف عبد العال بين الضباط وقال مخاطباً للجمع أيها الإخوان: إنا نودعكم والقلوب معكم وكلمة الوطنية تجمعنا فاجعلوا حبل المواصله بيننا ممدوداً وثقوا بعزمكم ولا تطيعوا الوشاة فيما يفترونه علينا كما أننا لا نسمع من واش كلاماً واعلموا أننا فى تيار أفكار إن لم تحفظ أنفسنا فيه بالاتحاد وإلا هلكنا وكلنا يعلم حسن طوية مولانا الخديوى وطهارة رجاله الفخام فنحن نخدم أفكارهم بأرواحنا ونقضى العمر فى طاعتهم والله الحفيظ على وعليكم وهو على كل شىء قدير.

فبرز عند ذلك عبد الله صاحب جريدتى الطائف والتكيب والتبكيك وقال مخاطباً للجند: حماة البلاد وفرسانها من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من

الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف وما كتب لكم في صفحات التاريخ من الحسنات فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم إليها سابق ولا يلحقكم في إدراكها لاحق ألا وهي حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنهما فلكم الذكر الجميل والمجدد المخلد يباهى بكم الحاضر من أهلنا ويفاخر بאתركم الآتي من أبنائنا فقد حوى الوطن حياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقي فإن الأمة جسد والجند روح ولا حياة للجسم بلا روح وهذا وطنكم العزيز أصبح يناديكم ويناجيكم ويقول:

إليكم يرد الأمر وهو عظيم	فإني بكم طول الزمان رحيم
إذا لم تكونوا للخطوب وللورى	فمن أين يأتي للديار نعيم
وأن الفتى إن لم ينازل زمانه	تأخر عنه صاحب وحميم
فردوا عنان الخيل نحو متيم	تقلبه بين البيوت نسيم
وشدوا له الأطراف من كل وجهة	فمشدود أطراف الجهات قويم
إذا لم تكن سيفاً فكن أرض وطاة	فليس لمغلول اليدين حریم
وإن لم تكن للعائدين حماية	فأنت ومخضوب البنان قسيم

ولقد ذكرتم باتحادكم وحسن تعاهدكم ما كان من رسول الله ﷺ عند تغيب سيدنا عثمان في أهل مكة من مبايعة أهل الشجرة على استخلاص صاحبهم فصاروا يعنونون بالعشرة المبشرين بالجنة وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الأوطان وبقاء سلطة مولانا الخديوى وتأييد ملكه وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهليكم من كل ما يذهب بالثروة أو يضعف القوة أو يחדش الشرف فاستبشروا ببيعكم الذى يبيعكم به وذلك هو الفور العظيم ثم التفت إلى عبد العال بك وقال: هذا أخوكم الحر يودعكم ويسير بإخوانكم إلى دمياط فاجعلوا عروة الود وثيقة ولا تحلوا حبل الاتحاد الذى جاهدتم الأنفس فى إحكامه فقد:

زالت ——— وانعنا التى	كانت تجر إلى الفساد
والأنس دار رحيمة	بين الجيوش أولى الرشاد
لا تعمّر الدنيا إذا	لم تنرك الخلق العناد
الأرض تثبت زرعها	حياتنا باللتحاد

ومن محاسنكم التى تفتخرون بها ويعرف لكم بها الفضل طاعتكم لأوامر الحكومة وامثالكم لإشارتها وربط قلوبكم بحبة مولانا الخديوى ورجاله الكرام

خصوصا هذا الرئيس البر الرءوف القائم بخدمة الأمة وبلادها وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادى عند النوازل أن يقال مات شهيد الأوطان . اهـ .

فما ختم خطابه حتى نادى الجمع بصوت واحد رضىنا بالموت فى حفظ الأوطان ووقاية أميرنا من كل ما يمس سلطته ، ثم سار القطار قاصدا دمياط فقابلهم أهلها بالبشر والترحاب فنزل الجند فى المحلة التى أعدت لهم ، وزار عبد العال بيك جميع وجهاء البلد وأعيانها وعملوا له الولائم والختومات وتوددوا إليه وتقربوا منه جهد الاستطاعة فلما جاء الخبر إلى القاهرة بأن قد استقرّ بعبد العال بيك وجنده المقام رسم الوزير محمد شريف باشا إلى أحمد عرابى بأن ينحدر بجنده إلى رأس الوادى فنادى فيهم بالخروج فخرجوا يوم الخميس ثالث عشر ذى القعدة وأمامهم أحمد عرابى بك على فرس وحوله كوكبة من الضباط على ظهور الخيل والسيوف بأيديهم مسلولة وساروا من وسط المدينة إلى المقام الحسينى فلما اقتربوا منه ترجل أحمد عرابى بيك وترجل معه جماعة من الضباط ودخل إلى المقام ومعه بيرق الألاى وطاف حول الضريح مرارا كثيرة وهو يقرأ بعض الأحزاب ثم خرج وركب هو ومن معه وساروا قاصدين محطة السكة الحديد وكان جند الحرس الخديوى مصطفيا على جانبي الطريق وبأيدي ضباطه باقات الورد والزهور وكذلك بعض العامة وكانت الطرق غاصة بجماهير الناس من الرجال والنساء والصبيان فلما اقترب أحمد عرابى بيك من المحطة هتف الناس هتافا عظيما وعزفت الموسيقى وترامت عليه ضمات الزهور من كل جانب وكان فى انتظاره كبار الضباط وبعض أعيان القاهرة وعمد بعض البلاد وقد فرشوا له الأرض بالزهور والرياحين وأوراق الشجر فترجل عن جواده ووقف برهة لطيفة وحوله جماعة من مقدمى الجند وهم : على بيك الديب مقدم الحرس الخديوى ، وعلى بيك يوسف مقدم جند قلعة الجبل الذى تولى بدل إبراهيم بيك حيدر ، وطلبة بيك عصمت مقدم جند قصر النيل الذى تولى بدل شوقى بيك وقبل أن يتحرك به وبعسكره القطار التفت إلى من كانوا حوله وجعل يحضهم على الاتحاد والتعاون وعدم تفريق الكلمة مع صفاء القلوب وإخلاص النية عند كل عمل ، ثم تقدم عبد الله صاحب الطائف وخطب فحضر وحث وبالغ فى التنكىت والتبكىت حتى أخذ بالعقول وكاد يبكى الناس ثم رحل بهم القطار قاصدا رأس الوادى فلما وصل مدينة الزقازيق التى هى كرسى القرية التى ولد فيها أحمد عرابى بيك هرع إليه الكثير من مشايخ البلدان والعمد والأعيان يحمل بعضهم أغصان الشجر وبعضهم سعف النخل وبعضهم الزهور والرياحين وهم فى ضجة

وجلبة عظيمة فأشرف عليهم من نافذة العربة فصاحوا ودعوا له فنزل ووقف بينهم وأشار إلى صاحب الطائف فتكلم وبألف في الحث ثم تكلم هو كذلك فترامت عليه الزهور والرياحين من كل جانب وعلت الأصوات بالدعاء ثم انحدر القطار مسرعا إلى رأس الوداي...

(مطلب)

رجال الوفد بالخدوي في مقره وذهابه إليهم

واتفق أنه وصل في هذا اليوم رجال الوفد القادمون من دار السلطنة إلى مدينة الإسكندرية ودخلت مركبهم المينا فسلمت فرد عليها بعض الحصون السلام وكان الخديوي قد رسم إلى ذى الفقار باشا فأنحدر إلى الإسكندرية للقاء رجال الوفد فأنزلوهم في سراي رأس التين فأكلوا وشربوا وركبوا إلى محطة السكة الحديد حيث كان ينتظرهم قطار الخديوي الخاص وكان في ركابهم فريق من العسكر وجماعة من أصحاب الشرطة ومحافظ المدينة وصاحب شرطتها فسار بهم القطار قاصدا القاهرة فوصلوا في الساعة الثانية ليلا وساروا إلى قصر النزهة حيث أعد لهم وكانت عدتهم ستة، وهم: على نظامى باشا وراتب باشا وعلى فؤاد بيك وصفر أفندى وسيف الله أفندى والشيخ أحمد أسعد أفندى متولى الفراشة بالخرمين الشريفين عدا الخدم والحشم والأتباع فإنهم كثيرون وكان جميع ضباط الباخرة التى جاءت بهم من ضباط القصر الشاهانى وقد بقى معهم اثنا عشر شخصا لم يتزلوا إلى البر وهم من الحرس السلطاني المكلفين بمراقبة رجال الوفد، ولما كان صباح الجمعة رابع عشر ذى القعدة ركب رجال الوفد لزيارة الخديوي بمقره بالإسماعيلية فتلقاهم بغاية البشر والترحاب وبألف في تكريمهم وجلسوا معه برهة يتحدثون فيما لم تصل إلينا معرفته أو كما قال بعض أصحاب صحف الأخبار المحلية أنهم أبلغوا الخديوي تسليما للذات السلطانية وأعربوا عما لها من تمام المسرة والرضا عن همة الخديوي في حفظ الأمانة وأن المقصود من حضورهم إنما هو إظهار ما للذات الملوكانية من الوثوق والاعتماد على الجنب الخديوي وتأييد نفوذه وتعزيز موقعه وتثبيت مركزه، قالوا: فعند ذلك نطق الخديوي بآيات الخضوع وأدى واجبات الشكر للذات الشاهانية على حسن عنايتها ثم دعا لها بتخليد ملكها وتمكين قوتها وبعد ذلك انصرفوا، فلما جاءت الساعة الخامسة ركب الخديوي في كبكبه وزار رجال الوفد بقصر النزهة ولبث معهم برهة ثم كر راجعا إلى الإسماعيلية فبات حضور رجال هذا الوفد مع طلب الأمانة

إنشاء مجلس شورى نواب البلاد شغل جميع الناس الشاغل لهم عن كل شيء وكان الوزير محمد شريف باشا يعرف ذلك منهم فتقدم إلى الخديوى فى خامس عشر ذى القعدة فى طلب التصديق على إنشاء المجلس على قاعدة قد قررها فصادق الخديوى عليها راضيا ورسم بافتتاحه فى غرة صفر الخير سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية باحتفال عظيم وشاع الخبر بذلك ففرح الناس كثيراً وطاف جماعة الضباط على بيوت الوجهاء والأعيان بالقاهرة ومصر يبشرونهم وتكلم أصحاب صحف الأخبار المحلية عن الفوائد العظيمة التى تنجم عن إنشاء هذا المجلس وأطالوا الكلام وبالغوا فى الإطراء، وقالوا: إنه لهو من المحسنات بل من المعجزات التى لا يقدر غير الوزير محمد شريف باشا على الإتيان بها لا سيما فى إبان هذه الظروف المهمة والخطوب المدلهمة.

وفى يوم الثلاثاء ثامن عشر ذى القعدة زار رجال الوفد سائر دواوين الحكومة ونظاراتها ثم ساروا إلى ديوان الجند بقصر النيل فاصطفت لقدمهم جميع العساكر وكان محمود باشا البارودى واقفا على باب الديوان متهيئا لاستقبال رجال الوفد فلما دخل على نظامى باشا أخذ البارودى بيده ومر معه على صفوف العسكر ثم استدعى إليه طلبة بيك وجميع القائمقامات والبيكباشية فألقى عليهم خطابا بالتركية فترجمه البارودى بالعربية فكان هكذا، إن للجناب الخديوى الأكرم منزلة رفيعة من الجب وحسن الرعاية عند مولانا السلطان الأعظم أيده الله ونصره فهو لذلك يحافظ على تعزيز جانبه وتأييد مركزه ويعضد نفوذه وسلطته وليس بخاف على حضراتكم أن الجناب الخديوى هو الوكيل المفوض عن مولانا السلطان الأعظم وأن الوكيل كالأصيل فمن أطاع الجناب الخديوى وامثل أوامره واثقاد لأحكامه فقد أطاع حضرة مولانا السلطان وكان من العاملين بما جاء فى محكم القرآن من قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرِّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ومن خالف الجناب الخديوى فقد خالف مولانا السلطان وعصى أمر الرحمن - نعوذ بالله من ذلك، فنحن معشر العساكر يلزمنا فى كل حال أن نطيع ونذعن لولى الأمر وأن لا نتردد أو نتهاون فى القيام بما يكلف به من الأوامر وأن لا نبحث عن موجبها ولا نسأل عن أسباب ما تكلف به من الأوامر وإنما علينا أن نمثل كل ما أمرنا به ونجرى على مقتضاه وقد أمضيت فى خدمة العسكرية ثلاثة وأربعين عاما واشتركت معكم أيام الحروب الماضية فى المخاطرة بدمائنا وأرواحنا امتثالاً لأوامر مولانا وسلطاننا وإعلاء لكلمة ديننا

ودفاعا عن عموم أوطاننا فأوصيكم أن تتمسكوا بالطاعة وتقيموا على الانقياد وتلزموا حدودكم المعروفة فلا يعرف الصغير إلا من هو أكبر درجة منه ولا الكبير إلا الأعلى منه رتبة وهكذا لا يعرف إلا كبيره درجة بعد درجة إلى الانتهاء، وبعد أن ختم مقالته هذه ودّعهم وانصرف مع من حضروا معه فلما كان بعد ظهر اليوم ركب معه فؤاد بيك وزار بعض المدارس العليا والوزير محمد شريف باشا قيل وأعلماه بأنه لم يكن في عزمهما التداخل في شيء من أمور البلاد وبأن غاية حضورهما مع من حضر من رجال الوفد إنما هي تقديم مراسيم التهاني للجناح الخديوي على ما أظهره من الحزم وأصالة الرأي فحادثهما الوزير عن عادات البلاد وسلامة نوايا أهلها ودوام خلودهم إلى الهدوء والسكينة وعدم الاندفاع إلى ما يكدّر صفو راحتهم ثم انصرفوا وأمر الخديوي فزارهم كثير من الوجهاء والأعيان وشيخ الإسلام وبعض العلماء ومشايخ الطرق وبالفاء في إجلال رجال الوفد وتعظيمهم.

وحسب قونصل جنرال الإنجليز بمصر ما وراء حسن وفادة على نظامي باشا ومن معه وتقرب أهل البلاد منهم فجعل يراقب الحوادث ويستطلع الأخبار ويكثر من الذهاب تارة إلى مقر الخديوي وأخرى إلى مقر الوزير محمد شريف باشا وطورا إلى مقر البارودي ويث العيون والأرصاد حول مقام الوفد وطاف رجال ديوانه على بيوت بعض رجال الدولة يستشقون نسمات تلك الأخبار وكأنه آتس منهم بعض الشيء فكتب به إلى اللورد جرانفل كبير السليسة الإنجليزية يومئذ فسير هذا اللورد إلى الباب العالي يطلب سرعة استرجاع رجال الوفد وجلالته عن الكنانة واستتجد بكبير سياسة الفرنسيين وهو يومئذ المسيو بارتملي. ستهلار فأنجده وجعلا يشددان الطلب وضربا لجلاء الوفد أجلا وأوعزا إلى أصحاب صحف أخبارهم فهاجوا وماجوا ونادوا بالحرب والقتال وخطبوا وخطبوا في القول وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد، فمن قائل: أن الوفد إنما دخل أرض الكنانة يتابعه من السر ما لا يعلمه إلا المقربون من أبواب السلطان، ومن قائل: بل هم يتأبطون جميع القرامين والخطوط الهمايونية الصادرة من عهد محمد علي باشا الكبير إلى أيام الخديوي توفيق لغاية خفية وسر مكتوم وتناهى ببعضهم الخلط إلى القول بأن رئيس الوفد قام من دار السلطنة إلى مصر ومعه فرمان مخصص لا يليق التكلم عنه حتى ينجلي الصبح لذي عينين (قلت): يريدون فرمانا بعزل الخديوي توفيق وتولية الأمير عبد الحليم بن محمد علي باشا وجعلوا يقولون غير ذلك من الأراجيف فقام أصحاب صحف الأخبار التركية

يفتدون تلك المزاغم ويرمون أصحاب صحف الإنجليز والفرنسيس بسوء النية وخبث الطوية ويقولون إنما مصر بلد إسلامية وهى كالقلب من جسم السلطنة العثمانية فأى جناح على المتبوع إذا سير إلى تابعه يسأل عن حاله ويخفف عنه ما اشتد من أحواله وطال الأخذ والرد على غير جدوى والسلطان لا يلتفت إلى أقوال صاحبى سياسة الإنجليز والفرنسيس فعند ذلك صاحب سياسة الفرنسيس إلى التهديد وسير إحدى مراكب حربهم إلى مدينة الإسكندرية وكانت من أضخم سفنهم واسمها ألما فوصلت ليلة تاسع عشر ذى القعدة وباتت ليلتها خارج البوغاز وأصبحت فدخلت إلى المرسى وسلمت على الطوابى بإطلاق مدافعها فردت عليها طوابى رأس التين السلام وكانت تحمل زهاء ثلثمائة وخمسين من الفرق الحربية وعشرة مدافع من العيار الكبير والطراز الجديد، وشاع خبر قدومها ووصل إلى القاهرة فخاف الناس وكثر تحدثهم به وخشوا سوء العاقبة وكان السلطان قد بما وراء ذلك فجاء الخبر إلى رجال الوفد بالجلاء عن مصر فتأهبوا للرحيل، ولما كان ثالث عشرى ذى القعدة تمثل على نظامى باشا وفؤاد بيك ورجال الوفد بين يدى الخديوى وأبلغاه أن أمير المؤمنين قد أحسن عليه ب尼شان الامتياز وأن من شأن توجيه هذا النيشان أن الخليفة يضعه بيده على صدر من تشرف به وهو ممثل بين يديه بملابس التشريف، قيل: فأظهر الخديوى الخضوع والطاعة، وقال: سأتشرف إن شاء الله بالمثل لدى سيدى ومولاي أمير المؤمنين عند تمام استتباب الأمن وسكون خواطر أهل البلاد، ثم تقدم إليه فخبر بيك ريان باخرة الوفد وأبلغه بأن قد ورد إليه مرسوم السلطان بالعود إلى دار السلطنة حالا وانصرفوا وفى الساعة الثالثة من صباح ثانى يوم الثلاثاء رابع عشرى الشهر خف على نظامى باشا وفؤاد بيك إلى مقر الخديوى بالإسماعيلية لوداعه فأحسن لقاءهما ورحب بهما ورسم فهيؤا قطاره المخصوص فركبوا إلى محطة السكة الحديد، وكان الوزير محمد شريف باشا وسائر الوزراء والكبراء وموظفى الحكومة فى انتظارهم فركبوا القطار وسار بهم إلى الإسكندرية ونزلوا بسرارى رأس التين فوفد عليهم جميع ضباط جند الإسكندرية للسلام فوقف بينهم المشير على نظامى باشا وخطب خطابا وجيزا معناه، أنه عند وصوله إلى مقر الخلافة العظمى لابد أن يشر إخوانهم العسكر المنصور هناك بأن لهم فى مصر إخوانا لا يرون غير الطاعة لأوامر مولانا أمير المؤمنين والانقياد للخديوى ثم نزلوا إلى السفينة ورحلوا إلى دار السلطنة وقد تخلف عنهم بالقاهرة عظيم اسمه كامل باشا وحجته فى ذلك عزمه على السفر

إلى الأقطار الحجازية، فأقام أياماً يتراوح بين القاهرة والإسكندرية لا يعلم أحد من أمره شيئاً ثم رحل إلى السويس ومر بمدينة الزقازيق. قسبة الشرقية فلاقاه فى محطتها أحمد عرابى بيك وكأنه كان فى انتظاره فركب معه فى عربة القطار ولبثا معا إلى أن بلغ القطار محطة التل الكبير ثم ودّعه ونزل فسار القطار الهوينا وكان على يسار طريق القطار جميع جند أحمد عرابى ومعهم الموسيقى، فلما اقترب منهم القطار عزفت الموسيقى بنشيد السلام السلطانى وضج الجند بأصوات التهليل والتكبير فبرز كامل باشا من شباك العربة وحياهم بإشارات السلام فصاحوا بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين وكان أحمد عرابى على رأس صفوف أولئك العسكر وخلفه جماعة من كبار الضباط وهو يهلل بالدعاء فأعجب هذا كله كامل باشا وسر به سرورا عظيما، وكان لقاء كامل باشا وأحمد عرابى على موعد بينهما رغما عن ممانعة رجال الحكومة وبذلهم الجهد فى التباعد بينهما، وبعد أن خرجت الباخرة العثمانية بمن عليها من رجال الوفد من مينا الإسكندرية بقليل دخلت باخرة حربية إنجليزية اسمها انشيل قادمة من مالطه وهى من المدرعات الضخمة فيها أربعة عشر مدفعا كبيرا فأقامت بالإسكندرية يومين ثم خرجت فى سادس عشرى ذى القعدة وخرجت معها المركب الفرنسية، وتشوّف الناس يومئذ إلى معرفة ما سيكون بعد وصول رجال الوفد إلى دار السلطنة وتزايد تساؤلهم عما فى صحف الأخبار وأكثروا من شرائها واضطر من لا يعرف القراءة من العامة إلى مصاحبة من يعرف القليل منها فكنت تراهم فى شوارع القاهرة ومصر القديمة جماعات وبينهم الرجل أو الصبي من صبيان المكاتب وهو يقرأ عليهم ترجمة عبارة لصاحب جريدة التيمس الإنجليزية أو لصاحب الديبا الأفرنسية أو لغيرها من صحف الأخبار الأجنبية وهم فى ضجة وحوقة وعم هذا الحال السوق وأصحاب الحرف الدنيئة كالصباغين والزياتين والحلاقين، وقد رأيت يوما صبيا فى حانوت لرجل يبيع البقل ويده صحيفة من صحف الأخبار العربية وأمام الحانوت خلق من السوق وهم محدقون بالصبي وهو يقرأ عليهم ما نصه، قد طلب الباب العالى من سفيرى الفرنسيس والإنجليز أن يعلماه مفصلا بالسبب الحامل للدولتين على إرسال المركبين الحريتين إلى مدينة الإسكندرية، فأجاباه بأن ليس المقصود من إرسالهما إرغام رجال الوفد العثمانى على سرعة الخروج من مصر كما أشاعه المرجفون وإنما المقصود هو وقاية رعايا الدولتين فقط. فإذا سافر المبعوثان سافر المركبان أيضاً انتهى، فقهقه الجمع عند سماعهم هذا الكلام وهمس كل فى أذن

الآخر وصاح أحدهم قائلاً وهلا ترى فى هذه الورقة أيضاً أن الإنجليز والفرنسيين يتخوفون من تخلف كامل باشا السمين بالقاهرة بعد قيام الذين جاءوا معه من دار السلطنة وقد نادى أصحاب صحف أخبار الفرنسيين على قومهم بالخدر والالتفات إلى ما عساه أن يحصل من بقاء الباشا المذكور فقلب الصبى الصحيفة يمنة ويسرة وتأمل فيها، وقال: صدقت ياعماء ومن الذى أعلمك بهذا الخبر، فقال: سمعت فلانا الخلاق الساعة يقول أنه سمعه من أحد موظفى الحكومة، فقلت فى نفسى أن الله بالعاقبة عليم.

(مطلب)

مجلس نواب البلاد وهو أحد مطالب جماعة الضباط

ووصل رجال الوفد إلى دار السلطنة فاندش كبار سياسة الدول من دهاء السلطان وعدم جعله تلازماً أو تعلقاً بين وجود مبعوثيه فى بلاد هى تابعة له وبين إرسال دولتى الإنجليز والفرنسيين مركبيهما الحرييتين إلى مدينة الإسكندرية فكاد سفير الإنجليز فى دار السلطنة يتميز غيظاً من عجزه عن إدراك جميع هاته المعميات التى لم تكن تخطر له على بال، وقد أشار إلى ذلك صاحب جريدة الدالى نيوز الإنجليزية فى كثير من عباراته عن سياسة الخليفة السلطان «عبد الحميد» وما فعله عند إرسال وفده إلى مصر مما لم يعرفه أحد إلى يوم رجوع رجال الوفد إلى القسطنطينية، وانصرفت أفكار الناس عن البحث فيما أتى من أجله رجال الوفد بعد رحيلهم إلى القسطنطينية إلى استطلاع ما سيكون من أمر تشكيل مجلس شورى نواب البلاد وقد رسم الوزير محمد شريف باشا إلى مديرى الجهات ومحافظيها باستدعاء أهالى البلاد إلى الانتخاب على القاعدة التى تقررت لذلك وأرسل يستحث الناس على التدبر وأن لا يتخبوا إلا من عهد بالصدق وعرف فيما بين العموم بالفتانة والذكاء واشتهر بالمعرفة وحب المنافع للبلاد والاهتداء إلى طرقها الحقيقية وتحققته منه العفة والاستقامة قديماً وحديثاً - قال - فمن وجد بهذه الصفات انتخبوه غير مراعين إلى الشهرة والظهور ومن وجدتموه على ما يناقض هذه الأخلاق فابتعدوا عنه وانبذوه وإن كان أثرى المثرين، فما طار الخبر بذلك إلى الآفاق حتى غصت دواوين الحكومة بالوجهاء والأعيان والمثرين من أهل القرى واختلفت كلمة أهل البلاد وتفرقت أهواؤهم وتباينت أغراضهم حتى كادوا يفستنون وتعذر على المديرين

والمحافظين عمل الانتخاب والوزير يستحثهم ويحضهم على الأخذ بأطراف الحزم وأن لا يراعوا إلا المصلحة العامة ولا ينظروا إلا إلى الأوسع معرفة من قومهم والاقوى إدراكا والأنفذ بصيرة والأكثر اطلاعا والأعرف بأحوال بلاده وحكوماتها في الماضي والحاضر فاطمأنت عند ذلك القلوب وتم الانتخاب أو كاد.

(مطلب)

ما كان من سياسة قونصل جنرال الإنجليز في أمر تشكيل مجلس شورى النواب

قال بعض الكتاب: فكبر هذا الأمر على المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز واستعظمه لا لانه من الأهمية عنده في شيء ولكن لاعتباره إياه أنه هو المحور الذي ستدور عليه رجا أعماله فعمد إلى ملازمة الخديوى وأكثر من مجالسته فكان إذا رأى منه تسرعا في تحديد أجل تشكيل مجلس النواب على النحو الذى أشار به الوزير محمد شريف باشا بالغ في النصيحة وهول في العقابة وأظهر من جانب القسوة خنواً وإشفاقاً وإذا رأى منه بعد ذلك تباطؤاً في العمل وإغضاء ذهب إلى البارودى وشكا إليه من تغاضى الخديوى وإبطائه وحض البارودى على الثبات والحزم وعدم التخلي عن زعماء العصاة حتى يدركوا منشودهم فلم يخرج من عند البارودى وأصحابه إلا وهم في ضجة وجلبة وهياج فإذا كثرت جلبتهم وعظم ضجيتهم وزموا الخديوى بسوء النية وبالغوا في تعنيفه وتعييبه حتى ينقبض ويغضب ذهب إليه مالت ولأطفه وهون عليه الأمر ومناه بالأمانى الطويلة العريضة فإذا آسن منه سكون الخاطر والخلود إلى المساهلة عرج به إلى الوقعة وشذ في القول وعظم البلوى وحذر من العقابة حتى يتخيل للخديوى أن قد سدت أبواب النجاح وانطمست معالم الفلاح فيرجع إلى ما كان عليه من الوحشة والانقباض ويرجع كذلك البارودى وأصحابه إلى الاستغاثة بقرونصلى الرئيس والإنجليز - قال - وهكذا كان حال الخديوى وزعماء العصاة من اليوم الذى بعث فيه الوزير محمد شريف باشا يستحث المديرين والمحافظين على سرعة الانتخاب، وكان من وراء ذلك أن تطاولت أيدي رجال العصاة العسكرية إلى العبت بعمل الانتخاب فجعل عبد الله صاحب الطائف يجوب البلاد ويستميل الناس إلى انتخاب المحزين لرجال العصاة فاستمال الكثير من أهل الشرقية والبحيرة والدقهلية والقليوبية وغيرهم من أهالى المدن القبلية، فلما كان

عاشر ذى الحجة من السنة أى سنة ثمان وتسعين قدم أحمد عرابى إلى القاهرة. وقدم كذلك من مدينة دمياط عبد العال بيك حشيش وشاع خبر حضورهما فتحدث الناس به وترامت ظنونهم، وقالوا: إنهما إنما قد حضرا لإكراه الهيئة الحاكمة على سرعة تشكيل مجلس نواب البلاد واشتد خوف العامة وكثر لغظهم فكانوا إذا رأوا جماعة يهرولون فى الطريق، قالوا: إنهم ذاهبون بدعوة من أحمد عرابى أو شاهدوا زحاما على حانوت، قالوا: إنه بإشارة منه لسر لا يعلمه إلا هو والمقربون إليه أو سمعوا مؤذنا ينادى حى على الفلاح، قالوا: إنما هو يدعو الناس إلى التعاون والتعاقد أو سمعوا امرأة تولول على صبي ضل اسمه أحمد، قالوا: إنما هى تستغيث بأحمد عرابى بيك لدفع ظلامتها وكشف غمتها وعم هذا الخلط جميع المدن والبلاد فكانت إذا وضعت حبلى صبيا سمته عرابى أو أحمد عرابى لا سيما أهل القرى واشتد تعلق الناس به شدة لم تكن تخطر لأحد على بال وتكلم أصحاب صحف الإنجليز والفرنسيين فى أمر مجيء أحمد عرابى وعبد العال حشيش إلى القاهرة وفصلوا وقاسوا وخاطبوا فخشى الوزير محمد شريف باشا العقابة واستقدم سائر المديرين والمحافظين وشدد عليهم بسرعة الانتخاب فأتموه فى ثانى عشر ذى الحجة المذكور.

(مطلب)

الاختلاف فيمن يتولى مجلس نواب البلاد

ولما تم انتخاب سائر الأعضاء ولم يبق إلا الرئيس اختلفوا فيمن يتولى الرئاسة وطالت أيام الاختلاف فتباينت الأغراض وتفرقت الأهواء وعادوا إلى ما كانوا عليه من الخلط والخبط وكثرت أراجيف ضباط الجند وتزايد تطوافهم فى شوارع المدينة ولبثوا على هذه الحال أياما حتى اجتمعت كلمتهم على انتخاب محمد سلطان باشا أحد أعيان منية ابن خصيب بالأقاليم القبلية. وزال ما كاد أن يقع من الوحشة بين الوزير محمد شريف باشا وزعماء العصاة وشاع خبر رحيل أحمد عرابى وعبد العال حشيش عن القاهرة إلى دمياط ورأس الوادى ولم تكذب تسكن الخواطر وتطمئن القلوب لقيام أحمد عرابى بك وعبد العال بك إلى مقر عسكريهما حتى عاد الأرجاف بقيام العسكر على كافة النزلاء الذين بالإسكندرية وإعمال السيف فى رقابهم فاشتد الخوف بالناس شدة بالغة، وتحرير الخبر أنهم وجدوا فى سادس عشر المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين رجلا من الشرطة قتيلا فى الطريق وكان أول من رأى

جثته رجلاً إيطالياً فذهب الرجل إلى مقر محافظ المدينة وأعلمه بالخبر فلما شاع الخبر وعلمه أصحاب ذلك الشرطي ظنوا أن الإيطالي هو القاتل فهاجوا ومهاجوا وحملوا بنادقهم وتأثروا الإيطالي فاختبأ في مقر المحافظ فأرادوه عنوة واقتحموا المكان وهم في ضجيج هائل وذهب جماعة منهم إلى موضع القتل فحملوه وأتوا به أمام مقر المحافظ وصاحوا ونادوا وطلبوا الإيطالي للبطش به فاجتمعت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وتزاحم الناس على أبواب الديوان يريدون الدخول فتزل إليهم المحافظ وجعل يلاطفهم وأمر بالقتل ليحمل ويدفن فامتنعوا وصاحوا في وجهه وقالوا: لا يحل لك ذلك يا مسلم أحضر لنا النصراني الساعة لنبطش به وإلا ذهبنا بالجثة إلى القاهرة فاشتد الالدد وخاف الناس واختفى الأجانب وأغلق أصحاب الجوانيت حوانيتهم وأرسل المحافظ إلى الوزير محمد شريف باشا يعلمه بالخبر فاستعظم الأمر جدا وسير إلى المحافظ يستحثه إلى مداركة الأمر وكتب إلى صاحب الشرطة يقول لازموا السكينة وسيقدم عليكم وقد لتحقيق الحادثة فبذل المحافظ وصاحب الشرطة جهد الاستطاعة حتى فرقوا تلك الجموع وحملوا الجثة وواروها التراب ليلا وبات الناس ليلتهم تلك وهم في خوف ما عليه من مزيد، فلما كان اليوم الثاني قدم إلى الإسكندرية وفد الوزير محمد شريف باشا فسأل وبحث ودقق فلم يظهر أن للإيطالي ذنبا ولا جناية فاخلوا سبيله وقد ثبت أن القاتل للشرطي نفر من أهله لسر بينهم فسكنت الفتنة وأطمأنت قلوب الخلق.

(مطلب)

الخبر باستفحال أمر مدعى المهدوية بالسودان

ولم تكن لتتمكن الهيئة الحاكمة إلى هذا الحين من تسيير المدد إلى السودان لقتال مدعى المهدوية، وقد وردت الأخبار من وإلى السودان وهو رؤف باشا في ثالث صفر من السنة تنبىء باستفحال أمر مدعى المهدوية وإعلاء كلمته وأنه عاد فخرج على من وجده من العسكر المصري فقتل منهم زهاء الثلاثمائة ونهب متاعهم وسلاحهم فلما شاع خبر نصرته بين سكان الجبال اعتقدوا صحة دعواه فتبعه خلق كثير من العربان والقبائل الرحالة وشنوا الغارة على الكثير من لم ينضموا إليه ولم يقوموا لنصرته ودخلوا القرى فأحرقوا ونهبوا ما لا يحصى من البقر والغنم والأثنام والريش وسن الفيل واستلبوا ما في خزائن مراكز الحكومة فلم يبقوا ولم يذروا،

ووصل الخبر بذلك إلى أهل الخرطوم وتجارها فحصل لهم فزع عظيم وداخلهم من الخوف ما لا مزيد عليه فجمعوا أموالهم وسيروا بها إلى أسوان بالصعيد الأعلى فكبر الأمر على الوزير محمد شريف باشا وجعل يرسل المدد تباعا من الجند والكرع وقدم إلى القاهرة طوائف التجار من الاقطار السودانية ما بين أهليين وأجانب فرارا من نار الثورة وإيذاء مدعى المهودية وأصحابه فتحدثوا بخبر ما وصلت إليه لموم المدعى وما يفعله أصحابه من القتل والنهب وإحراق المدن والقرى وذبح الأطفال على صدور الأمهات وإهلاك الحرث والنسل وكثر انحدار السفن ومراكب النقل إلى أسيوط والقوافل من طريق الأربعين وغيرها تحمل أرزاق التجار وانقطع إرسال البضائع إلى السودان وتعطلت سائر أسباب الرزق بتلك الأصقاع فلم يبق عند الناس شك فى صحة خبر المتمهدين وقد كانوا إلى هذا الحين يظنون أن القول بظهوره إنما هو اختلاق من الرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته ليتمكن بذلك من تمزيق شمل عصاة الجند والتفريق بين كبارها وأطالوا الكلام فى أمره أياما ثم تناسوه بحديث مجلس شورى النواب وما سيكون من أمر رجاله وتبعهم فى ذلك أصحاب صحف الأخبار المحلية وأكثروا من حض الوزير محمد شريف باشا على سرعة فتح أبواب ذلك المجلس وأطالوا العتب واللوم.

(مطلب)

افتتاح مجلس شورى النواب

فلما كان الخامس من صفر افتتح المجلس فكان يوما مشهوداً أخذ الناس منذ شروق الشمس يتواردون عشرات عشرات إلى صوب المقام حتى غصت حجرات المكان بالوفود من أهل البلاد والأجانب وامتلات دوائر قاعة المجلس بالوجهاء والمعتبرين ثم جاء الأعضاء بملابس الزينة والتشريف فجلسوا واصطف فى الفسحة الخارجية فرقتان من الجند ولم يلبثوا إلا قليلا حتى أقبل الخديوى فى عربته يصحبه الوزير محمد شريف باشا وأمامهما أحمد خيرى باشا المهردار وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوى فنادى الجند بالسلام وعزفت الموسيقى بالنشيد الخديوى فخرج للقائه زهاء العشرين من النواب وسائر النظار فدخل قاعة الاستراحة ولبت لحظة ثم انتقل فى نحو الساعة السادسة إلى قاعة المجلس ووقف فى صدر المكان وعلى يمينه النظار ورجال ديوانه الخاص وأخذ ورقة وقرأ ما نصه .

أبدى لحضرات النواب عنونيتي من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالي في الأمور العائدة عليهم بالنفع وفي علم الجميع أنني من وقت ما استلمت زمام الحكومة عازمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تأخر افتتاحه للآن بسبب المشكلات التي كانت محيطة بالحكومة فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما يسر لنا من رفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابية ومن تخفيف أحمال الأهالي بقدر الإمكان فلم يبق مانع من المبادرة إلى ما أنا متشوف لحصوله وهو مجلس النواب الذي أنا فاتحه في هذا اليوم باجتماعكم وأنتم تحيطون علما أن جل مقاصدي ومساعي حكومتى هو راحة الأهالي ورفاهيتهم وتنظيم أمورهم بتعميم العدالة بينهم وتأمين سكان القطر على اختلاف أجناسهم وهذا منهجى واضح مستقيم وعليه سيرى منذ توليت أمركم مجبا للثروة ونشر العلوم والمعارف فعلى المجلس أن يكون مساعدا للحكومة في هذه الأمور كلها خالصا مخلصا في خدمة الوطن منحصرة وأفكاره ومذكراته في المنافع العمومية مع مراعاة قرار لجنة التصفية وسائر تعهدات الحكومة مع الدول سالكا المسلك المعتدل والمنهج القويم الذي هو أهم شيء في هذا الوقت الذي هو عصر الترقى والتمدن فالواجب علينا الاعتدال والتأني وحسن التبصر وأن نكون يدا واحدة في إتمام الأعمال النافعة متوسلين بعناية الله تعالى وإمداد رسوله الكريم ومتمسكين ارتباطا بالحضرة السلطانية وبالدولة العلية أدامها الله تعالى نسأل الله حسن النجاح وهو ولى التوفيق.

فلما أتم كلامه أمن الجميع على دعائه ونادى الرئيس قائلا أدام الله المعظم فكرر ذلك أيضا الحاضرون ثم استراح الخديوى بقدر جلسة الخطيب ثم خرج وركب عربته فاطلقت عند ذلك المدافع من قلعة الجبل وأخذ الناس فى الانصراف هيئة المجلس فامر رئيسهم ف عقدوا جلستهم وتلا عليهم هذا الخطاب .

أيها السادة النواب نحمد الله الذى جعل أمرنا شورى، ونصلى ونسلم على نبيه فيه المأمور بالشورى، والأمر بها، وبعد فقد سمعتم ما تضمنته المقالة الخديوية الكريمة من حسن القصد وسمو الإرادة مما لم يزدكم إلا يقينا بما عهدتم بالجناب المعظم من حسن النية، وكريم العنصر وسلامة الطوية، والارتياح إلى المصلحة الوطنية، وقد سمعتم فى هذا المقام الرفيع بعناية الجناب الخديوى العالى ورجال حكومته السنية أمور أوطانكم وأنتم خلاصة وجهاء القطر ويضعة أعيانه ونبهائه فواجباتكم من قيل تقضى عليكم بالحكمة والاعتدال والثبات ولا أزيدكم علما بأن الولي العزيزى إلى الإصلاح والتنظيم قابل للتقدم والعمران جامع لأسباب المنافع الكلية

فما الاجتهاد إلا لنوال المراد ولكنكم لا تجهلون أن علينا حقوقا واجبة الحفظ وسلامة الرعاية وأنا قد أمرنا شرعا بحفظ العهد ورعى الذمم فمن تلك شدة الارتباط؟؟ للدولة العلية التى هى مركز قوتنا ومرجع سطوتنا وقد عرفنا منها العناية؟؟؟ الإخلاص فلا بد من ثباتنا على هذا الحال بالنظر إليها ولا شك أن تقدمنا؟؟؟ وتأيد أمور الشورى فينا يسر هذه الدولة العلية لما ينشأ لنا عنه من القوة جزء من قوتها الكلية، وأن الذمم والمواثيق هى علاقاتنا المالية والتجارية مع الدول العظمى فهذه الذمم واجبة الرعاية لما يترتب على حفظها من استحكام صلات المواثيق بيننا وبين هاتيك الدول التى ينبغى لنا الاعتقاد برغبتها فى انتظام أمورنا وميلها يعود علينا بالنفع كما صرح بذلك عظماء رجالها على منابر المجالس النيابية وفى المنشورات الرسمية فإذا حفظنا تلك العهود وراعينا تلك الذمم وعرفنا حقوق الوطن علينا ولم نذهل عن شيء من الواجبات. لزمنا الأخذ بأسباب الحكمة والثبات للنظر فيما يجلب علينا النفع ويدرأ عنا الضرر ويثبت للناس جدارتنا بما وصلنا إليه ويحقق لنا ظن أبناء الوطن الذين جعلونا موضع ثقتهم واعتمادهم فوجهوا إخوانى همتمكم فى السعى بالحكمة والاعتدال والتبصر والثبات فمن جدّ وجد. ومن سار على الدرب وصل فسأل الله العظيم حسن البداية والنهاية.

ثم انفض مجلسهم وتفرقوا ولما كانت الساعة التاسعة من تاسع الشهر المذكور وفد على مقر الخديوى بالإسماعيلية عشرة من نواب البلاد انتدبهم المجلس لتقديم الجواب على الخطاب الذى افتتح به الخديوى المجلس فمثلوا بين يديه وحوله جميع الوزراء والوزير محمد شريف باشا على يساره فتلا أحدهم هذا الجواب.

بعد حمد الله على توفيقه وإرشاده، والصلاة والسلام على من اصطفى من عباده، نقوم لدى هذه السدة الخديوية الكريمة نحن معاشر الأمة المصرية مقام النيابة عن جميعها فى تقديم واجب الشكر لهذا الجنب الخديوى الفخيم على انعطاف عواطفه نحو مجلس شورى النيابة الذى انتخبه بنطقه الشريف إظهارا لمقصده الجليل من حيز القوة إلى عالم الفعل وإجابة لرغبة الأمة ونظرا لمصلحة العامة بعد أن أزلت العوائق دونه وامتنعت الموانع بيننا وبينه بجلائل همه الخديوى التى زلت لها صعاب المسائل، وخضعت لها رقاب المشاكل، حتى صفا الوقت واطمأنت الحال، ودنا المنى وانقادت الآمال، ولقد شنف أسماعنا، وأنعش أرواحنا، ذلك النطق الكريم، وملك أفئدتنا سرورا وطربا بما تضمن من الإفصاح عما عرفناه لولى النعمة والفناء من نزاهة

ونبالة القصد حتى لقد نطقت السرائر بما بدا من نسمات السرور فلم تدع بالألسنة من حاجة للتعبير عن فرط محبة عظيمة من أمة كريمة لمولى تفضل عليها وتحب إليها تحب محب لحريتها مشغوف بخيرها ونفعها فلم يبق إلا أن نبذل غاية ما فى السعة وتأتى جهد الاستطاعة فى نفع هذه الأمة التى انتدبتنا للنظر فى منفعتها واستنابتنا عن أنفسها لرؤية مصالحها سالكين فى ذلك مسالك الحزم والتبصر وحسن النظر بما تتحسن بعناية الله مغبته وتحمد يمين التوفيق غايته ويعضد مقاصد حكومتنا السنية المتجهة للرشاد والساداد وسلامة البلاد والعباد ويؤيد ما لنا من روابط التبعة للذات السنية السلطانية والدولة العلية العثمانية التى منحتنا عواطفها الكريمة من الامتيازات المرعية فكمملت به النعمة وعظمت المنة ويؤيد علائقنا الإدارية مع الدول الأجنبية المحبة لمنفعتنا وفائدة بلادنا مبتهلين إلى الله جل ثناؤه وتقديست آلاؤه فى أن يحرس لنا هذا الجنب الخديوى الفخيم ويديم لأوطاننا به النفع العميم أدام الله توفيقها على أحسن ما يرام وبلغ به الوطن العزيز غاية المرام آمين.

والتأموأ بعد ظهر اليوم ثانية وقرروا أمر تحقيق الانتخابات فكانت جملة النواب خمسة وسبعين ثم شكلوا لجنة لتتظر فى أبواب وفصول قانونهم وتنقيحه، وقد كان ذلك القانون هو الذى أنشأه الخديوى إسماعيل وقرر كل قسم نوابا عنه فى تلك اللجنة فأخذوا بأطراف العمل وساروا فيه سيرا حثيثا فلما كان ثانى عشر صفر سار الوزير محمد شريف باشا إلى مقر النواب ورفع لهم القانون الأساسى لأعمال المجلس لينظروا فيه ويبدوا ما يخطر لهم من الأفكار فى مصاده وحدوده ثم وقف بينهم وألقى فيهم هذا الخطاب.

(أيها السادة النواب - إنى لا أقدر أن أعير حضراتكم عن سرورى من الحضور بينكم فى هذا اليوم الذى أعدته مبدأ لعصر جديد إن شاء الله يعود على هذا القطر بالتقدم والنجاح وحضراتكم تعلمون أنه من منذ ثلاث سنوات تراءى لى أن الطريقة الوحيدة لخلاص البلاد من الورطات التى كانت محيطة بها هى توسيع نطاق الشورى واشتراك رأى نواب البلاد مع الحكومة فى نظر كل أمر مهم تعود منه المنفعة وكنت قدمت مشروعا لمجلس النواب الذى كان موجودا يومئذ وقد أجرى فيه تغييرات ثم تيسر للحكومة النظر فيها ثم طرأت حوادث سياسية ومالية ليست خافية عليكم قد ترتب عليها تعويق إتمام المشروع والحمد لله قد زالت العوائق وإنى لأجد نفسى سعيدا حيث إن أفكارى فى هذا الخصوص ما كانت إلا نتيجة مقاصد الحضرة الخديوية وهذه الأفكار قد طابق عليها عموم الأهالى ولهذا حصل انتخاب حضراتكم

واجتمعتم فلتهنىء القطر على ذلك ولتهنىء أنفسنا وندعو للذات الشاهانية والحضرة الخديوية ببقائها مصدرا لكل خير ولما كانت لائحة النواب التى اجتمعتم على مقتضاها لا تلائم أفكارنا جميعاً قد أوضحت من منذ ثلاث سنوات وكررت المعروض الذى رفعته أخيراً للسدة الخديوية عند طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتغلت مع رفقاى بتحضير لائحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر فكان يلزم أن السلطة التى تعطى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل بإطلاقها بالتدريج شيئاً فشيئاً لكن حيث إن مقصدنا جميعاً واحد وهو خير البلاد والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة فى إبداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال مأمورى الحكومة من أى وجه وأى صنف كانوا وصرح لكم بنظر الموازين العمومية وإبداء آرائكم فيها ونظر كافة القوانين واللوائح وقد التزمت بعدم وضع أى ضريبة ولا نشر أى قانون أو لائحة ما لم يكن بتصديق وإقرار منكم، وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه إخلال بحقوقكم والغاية فأنه لم يحجر عليكم فى شىء ما ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم إنما لا يخفاكم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الأجنبية بها ونشأ من ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتعهداتها بالتزامات ليست خافية عليكم بعضها بعقود خصوصية والبعض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الأمور موضعاً لنظرها أو لنظر النواب حاشاً لأنه يجب عليها قبل كل شىء القيام بتعهداتها وعدم خدشها بشىء ما حتى نصلح خللنا وتزداد ثقة العموم بنا ونكتسب أمانة الحكومات الأجنبية ومتى رأت منا تلك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتها بحسن إخلاص بدون مساعدتها فتتخلص شيئاً فشيئاً مما نحن فيه، وإنى لوائق بأن بصيرة وحكمة النواب ومساعدتهم الحكومة لأبد وأن يترتب عليها ازدياد الثقة بنا هذا ومن المعلوم أننا تابعون للدولة وصوالحنا مرتبطة بصوالحها وهذه التبعية وهذا الارتباط هما السبب الوحيد لسلامتنا ونجاتنا فحقوقها حينئذ هذه مقدسة ومراعاتها فرض واجب على كل منا ولندع الله جميعاً بدوام الذات الشاهانية وتأييد دولته العلية التى منحتنا امتيازات تضمن لنا خير البلاد وحيث إن الثمرة المقصودة من اجتماع المجلس وهى نفع البلاد لا يمكن الحصول عليها إلا بعد التصديق على لائحة إجراءاته فالمأمول من

حضراتكم المبادرة بنظرها حتى إننا نشرع في الأعمال النافعة المهمة ولكون من تنمة وضع مجلس نواب يلزم ترتيب مجلس للإدارة وتحضير القوانين ومحاكمة المأمورين عن كل أمر يجرونه خارج عن حدودهم أو مخالف للقوانين واللوائح في أثناء تأدية وظائفهم فقد عمل عن ذلك مشروع وها هو مقدم للمجلس المأمول أيضاً الإسراع بنظره حتى يصدر مع اللائحة وإن شاء الله تعالى سيتقدم لحضراتكم عما قريب مشروع لائحة الانتخاب فنسأله تعالى ببركة نبيه الكريم أن يقرن أعمالنا بالنجاح ويوفقنا للاتحاد قولاً وفعلًا لما يكون فيه الإصلاح آمين آمين بجاء خاتم النبيين .
فأمن الجميع على دعائه ثم تركهم وانصرف .

(مطلب)

مفاد ما في قانون الانتخاب

وكان مفاد القانون الذي رفعه إليهم في ذلك اليوم أن الانتخاب وكيفيته يكون بموجب قانون آخر يتبع القانون العمومي وأن مدة النيابة لا أقل من خمس سنين وأن النواب يكونون أحراراً في الأعمال وإذا ارتكب أحدهم جريمة فلا يجوز للحكومة أن تقبض عليه إلا بإذن وتصديق من هيئة المجلس ومن أحكام هذا القانون أيضاً أن النائب ينوب عن الجهة التي استنابته خصوصاً وعن مصالح البلاد كلها عموماً ويكون مقر المجلس بالقاهرة ولا يكون التثامه إلا بأمر يصدر من الخديوى على قرار من مجلس الوزراء ولا يستعمل في إدارة أشغاله إلا اللغة العربية ويصح للنظار أن يحضروا جلساته كما لهم أن يستنيبوا عنهم في الجواب عن بعض المسائل أعضاء مجلس الإدارة أو أحد كبار الموظفين في دواوينهم ويقدم النظار الجواب عن كل ما يسئلون عنه من قبل المجلس اللهم إلا فيما هو من خصوصياته وإذا اختلف مجلس الأمة ومجلس الوزراء في أمر من الأمور جاز للخديوى حل عقد مجلس الأمة ويأمر بانتخاب سواه لمدة أربعة أشهر، فإذا صدق مجلس الأمة بعد الانتخاب الثانى على ما كان قرره الأعضاء السابقون كان قراره هو النافذ ولا يعرض موضع الخلاف على مجلس الأمة ثانية في كل مدته وللمجلس الأمة أن يتداول في اللوائح والقوانين والضرائب وفي كل أمر تعرضه عليه الهيئة الحاكمة وله أن يرى في ميزانية الخزانة ويبدى فيها رأيه فقط وأن لا يمكن فرض ضريبة من أى نوع كان بدون قانون يصدق عليه من الأمة فإذا جمعت ضريبة غير المقرر في القوانين المالية عوقب جامعها

بأشد العقاب أما ميزانية الخزينة فتعرض على المجلس قبل نهاية الشهر الثاني من التسامه ويجب أن تكون موضحة التوضيح الكافي وله أن يبدى فيها رأيه وعلى الرئيس أن يبلغ ذلك إلى ناظر الخزينة قبل انحلال المجلس ولا يجوز للمجلس التداخل فى أمر العسكرية ولا قرارات لجنة التصفية وصندوق الدين وما يتعلق به ولا المعاهدات الدولية ولا يمكن المداولة فى المجلس إلا إذا حضر ثلثا الأعضاء ويقتضى لاعتبار قراراته أن تكون الأغلبية تامة أما قرار مسئولية النظار فيكون بأغلبية من ثلاثة أرباع الحاضرين، هذا هو ملخص ما فى ذلك القانون أتيت به تسميما للفائدة المقصودة.

(مطلب)

تولية أحمد عرابى وكالة ديوان الجند

وورود لائحة الدولتين للخديوى

وفرّح الناس بفتح أبواب مجلس شورى نواب البلاد واستبشروا به خيرا فأناروا فى تلك الليلة منارات المساجد بالأنوار الكثيرة وأقيمت الأدعية على المنابر وهنا الناس بعضهم بعضا وأصبحوا وقد شاع الخبر بتولية أحمد عرابى بيك وكالة ديوان الجند فتناقلوه وهم بين مصدق ومكذب لا سيما أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فلما كان خامس عشر صفر تأكد الخبر وتحقق صدق الرواية فهرع إلى داره طوائف الضباط والوجهاء والعلماء والأعيان والعميان وأصحاب العكاكيز ووقف الشعراء والمطربون على بابه وأتته الهدايا من الضأن والأرز والسمن والعسل والسكر وبن القهوة والشمع وغير ذلك من أعيان البلاد وعمدها وتزاحموا على بابه يرجون لقاءه ويتمنون طلعه وتلبث الحال هكذا يومين وخرج فى تاسع عشره يريد مقر الخديوى ليقبل الاعتاب على العادة المألوفة فى مثل ذلك فقابلته الخديوى بالبشاشة والترحاب وأحسن لقاءه ولم يخرج من عنده حتى دخل فونصلا الإنجليز والفرنسيين ورفع إلى الخديوى ورقتان هما فى عرف أهل السياسة (لائحة) وقال: إنهما متحدتان فى المعنى والمبنى وقد بعثت بهما الدولتان يعدان الخديوى فيهما بالمساعدة والإعانة على قضاء كل ما يروم نواله لاستتباب سلطته وتمكين عرشه عند مسيس الحاجة وشاع خبر هاتى اللائحة فتعجب الناس وكثر تحدثهم به ودخل ضابط الجند بسبب هذه اللائحة من الريب ما داخلهم فاجتمعوا بقصر النيل وتناجوا فى الأمر طويلا ثم اتفقت كلمتهم على أن البارودى يكلم هيئة مجلس النظار فى ذلك فاجتمع البارودى

بالوزير محمد شريف باشا ثم بالخدوي وعقدوا لذلك مجلسا وتكلموا فى معنى ما جاء فى تلك اللائحة وبعد أخذ ورد اتحدت كلمتهم على أن يرسلوا صورة منها إلى الباب العالى ويسألوه الجواب فبعث الوزير بالصورة إلى دار السلطنة وكان القونصلين قد أحسا بما وراء ذلك فتقدما إلى الخديوى والوزير محمد شريف باشا فى طلب الجواب وألحا فى الطلب فرسم الخديوى إلى الوزير بإعطاء الجواب فطاول فشدد الخديوى فى ذلك فكبر الأمر على الوزير وطال بينهما الأخذ والرد فاحتجب الوزير فى بيته أياما فذهب إليه قونصل الفرنسي فى صبح حادى عشرى صفر وطلب الجواب وألح فى الطلب فقال الوزير: لا جواب عندى على ذلك البتة والبلاد آمنة مطمئنة فإذا وقع فيها ما يكدر صفو الراحة كانت الدولة العلية أولى بالذب عنها فهى صاحبة السيادة والخليفة أمير المؤمنين سلطان البلاد، فقال القونصل: لا سبيل إلى غير ما تطلبه دولتا الفرنسي والإنجليز، فقال الوزير: لم أعرف إلى الآن ما مراد الدولتين من هذه اللائحة ولذلك فإننى استوضح منك مشكلاتها قبل إعطاء الجواب فقام القونصل وتركه، وكلم قونصل جنرال الإنجليز كبير سياستهم فيما يسأله الوزير محمد شريف باشا من فك أسرار ومشكلات تلك اللائحة فرسم له بسؤال الوزير عما يريده ففعل وأبلغ ما أعطى بيانه ولبث ينتظر الجواب، وبينما كان الوزير محمد شريف باشا يراقب الحوادث ويطمئن القلوب الراجفة ويعمل على منع الأراجيف وإزالة القلاقل إذ كتب صاحب صحيفة التيمس الإنجليزية عبارة طويلة سماها باسم لائحة الحزب الوطنى وضمنها فصولا وأبوابا لا يسعنا إيرادها هنا وعزا تحريرها وتنميقها إلى أحمد عرابى بيك وبالحق فى مدحها واستحسناتها فكبر هذا الأمر على الوزير واستعظمه وعمل على تكذيبه وإذهاب ما علق منه بالأذهان، وقد كان لما تظاهر أحمد عرابى بيك بزعامة العصاة وتمكن من خلع الرئيس مصطفى رياض باشا من منصب الرئاسة أحدثت به عيون أهل السياسة من الإنجليز وكثر تواردهم عليه وتزلفهم إليه رغبة منهم فى معرفة قدر إدراكه ومبلغ علمه بعوائد الأمم وأحوال البلاد وأساليب السياسة وكأنهم كانوا يرون فى ظهوره وخروجه مفتاحا لمخالف آمالهم فسيروا له من دهاتهم وحملة أسرارهم جماعة فجعلوا يسايرونه ويبالغون فى الأطراء عليه ويخاطبونه بأنواع التجلة والتكريم ويقولون له إنك لمن أعظم الرجال وأقطاب أهل السياسة وإنك لرجل الحرية ومنقذ البلاد وأهلها من وهدة الذل والعبودية وأنت العون والسند وأنت الملجأ والملاذ وغير ذلك من صنوف التضييل والتغريب حتى استهووه وتطوخوا به وكان ممن لازمه ملازمة الظل من دهاة هؤلاء

القوم طاغيتان أحدهما اسمه وليم جريجورى وثانيهما اسمه بلانت فاستهويه وغررا به تقريراً وزيئاً له كل عمل وحرصاه على فعل كل خارجه لا سيما منهما بلانت فإنه تمكن من أحمد عرابى وأخذ بمجامع قلبه وكاشفه على ما خفى من سر بعثته إلى ديار مصر التى إنما هى سلخ الكتانة عن تابعة دار السلطنة العثمانية والعمل على تشييد ملكة عربية إسلامية يدخل تحت لوائها سائر بلاد العرب من عراق ويمن وحجاز وما بين النهرين وتونس وطرابلس والجزائر ودمشق الشام وكل بقعة من بقاع الأرض التى تحتلها العرب ويبلغ فى المدح والإطراء، قال أحد المقربين إلى أحمد عرابى: وما زال ذلك الطاغية بأحمد حتى تأقت نفسه إلى طلب المعال الرخيصة وخضع له وعمل بمشورته فجرد عند ذلك هو ورفيقه جريجورى على تحرير الرسائل المهيجة وتلفيق الأراجيف المزعجة وجعلوا يرسلانها إلى صحفهم السيارة على لسان عرابى وشيعته حتى كادا ينكران متبوعية مصر لدار السلطنة العثمانية فكانت أصحاب صحف الإنجليز ترددها مشفوعة بالمدح والإطراء والتكهن بزوال ملك آل عثمان.

اهـ.

قال جماعة: وزين بلانت ورفيقه إلى أحمد عرابى مخابرة شريف مكة وغيره من كبار العرب فى هذا الأمر وفى استنهاضهم إلى الخروج وشق عصا الطاعة عند ظهور الحركة بمصر قيل وسير إلى السنوسى بطرابلس الغرب يستقدمه إلى القاهرة ليكون له عوناً على بلوغ الأرب وبعث إلى كبار مسلمى الهند يشاورهم فى الأمر فظهرت عندئذ حركة الخواطر وبدت إشارات الخروج وبلغت ترهات بلانت ورفيقه يومئذ والتغدير بأحمد عرابى مبلغاً عظيماً فكانا إذا سمعا أحمد عرابى يقول فى حديثه مع آخر أن نفرا من الجند أصابتهما اليوم تخمة تستلزم نقلهم إلى المستشفى كتباً إلى أصحاب صحف الإنجليز يقولان أشار أحمد عرابى بىك بنقل فريق من الجند وطائفة من العسكر بجميع سلاحهم وكراعهم إلى الجهة الفلانية وهم على قدم الرحيل والقلوب واجفة والخواطر مضطربة، وإذا سمعاه يقول زرت اليوم ضريح ولى الله العترىس أو اجتمعت بشيخنا فلان فدعا لى دعاء صالحاً وبشرنى بأنى من أهل الجنة، كتباً يقولان علمنا من يوثق بحديثه أن قد طاف أحمد عرابى بىك على مساكن الجند ومعه جماعة من كبار العلماء وأئمة الدين فحثوا الجند على التعاون والتعاقد وإعزاز الدين والخروج عن طاعة الخلافة الغير الصحيحة إلى طاعة خلافة عربية تعمل بسنة الله ورسوله وغير ذلك من الأقاويل فكانت هذه الترهات والأضاليل داعية إلى كلمة القال والقال والقليل وحاملة إلى طيرة الناس وتخوفهم

وتسألهم، قلت: وبلانت هذا رجل طويل القامة يبلغ الخمسة والأربعين من العمر قد نزل بالقاهرة أعواما يتقرب من بعض العلماء والمشايخ وأرباب الوظائف العالية ويتظاهر بحبته إلى العرب وميله إلى عاداتهم وطباعهم وحریتهم وحبهم للاستقلال ومقته للذل والاسترقاق ولولوعه بلغتهم وغير ذلك فاغتر الكثير منهم بظاهر أمره وأدنوه من مجالسهم فجلس وتصدر واستفرغ ما فى صدورهم من حيث لا يشعرون حتى عرف مبلغ علمهم ولبث بين ظهرانيتهم يكتب رءوساء قبائل عرب العراق واليمن والحجاز وما بين البحرين ويستميلهم بالعطايا والتحف وأصحاب الحل والعقد فى سنة من النوم لا يعرفون من أمره سوى أنه من سواح الإنجليز الذين دأبهم البحث عن الآثار القديمة ومعرفة طبقات الأرض وقد اتخذ عين شمس له مقرا وما زال حتى ظهرت الفتنة بالقاهرة وقام أحمد عرابى ومن معه يطالبون بمطالبهم الطويلة ففرح بلانت وتجدد إلى العمل وتقرب من أحمد عرابى وأصحابه وجعل يزين لهم ما بدا ويحضهم على الأخذ بأطراف الحزم حتى كان من أمرهم ما كان مما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله تعالى.

وكان لما بعث الوزير محمد شريف باشا بصورة من لائحة الدولتين إلى الباب العالى كما تقدم القول أرسل السلطان إلى كبرى السياسة الإنجليزية والأفرنسية يستعلم عن السبب الحامل على إرسال تلك اللائحة ويحتج عليهما فى ذلك فكتبنا إليه يقولان إنهما لا ينازعان فى تبعية ديار مصر إلى مقام الخلافة العظمى ولكنهما عزمنا على تأييد سلطة الخديوى وحفظ مقامه الحالى وبقاء المراقبة على ديوان الخزينة كما هى بدون مساس فأحس السلطان بخطورة ما وراء ذلك من اشتداد الأزمة واستفحال الخطب إذا ظل الحال هكذا (قال جماعة) فراسل أحمد عرابى سرا على يدى أحد القراء وكأنه رسم له بحشد الجنود والتأهب للقتال ومنع تطاول يد الدولتين فعاد أحمد عرابى إلى طلب زيادة عدد الجنود العاملة إلى ثمانية عشر ألفا والى فى الطلب وشد على البارودى فى ذلك فنادوا فى البلاد بخروج سائر العسكر وجاءت الكتب بذلك إلى المديرين والمحافظين فأنحدرت العساكر أفواجا إلى القاهرة حتى ضاقت بهم منازل الجند أو كادت وانبشوا فى الأسواق فخاف طوائف الأجانب وزاد بهم الهلع وظنوا أنه ما وراء هذا الزحام إلا حصول الطعن وامتشاق الحسام فنزع الكثير منهم إلى الإسكندرية وطارت الأخبار إلى الآفاق بمجىء العسكر إلى القاهرة فهول أصحاب الصحف الإنجليزية وبالغوا فى الأمر ونهوا قومهم عن

الاختلاط بالمسلمين ومجانبتهم.

وبينما كان الجند يأتون إلى القاهرة تباعا والناس فى شغل بهم عما سواهم كان نواب البلاد وهيئة الحكومة على طرفى نقيض فى أمر تخويلهم حق النظر فى ميزانية الخزينة ومصرفات المصالح وقد طال بينهما الخلاف واشتد اللدد وأرسلوا لائحة مجلسهم إلى مجلس النظار يريدون الاعتراف منه بما أدخلوه على موادها من التحوير والتعديل لا سيما ما كان متعلقا بأمر الميزانية فطاولهم المجلس ومناهم فأبوا إلا ما يقولون وشددوا فلما كان يوم الثلاثاء حادى عشر ربيع الأول أعاد مجلس النظار إلى مجلس النواب اللائحة وأرسل يقول أن وكيلى الدولة الإنجليزية والأفرنسية يريان أن لاحق لمجلس النواب فى تقرير ميزانية الخزينة ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة فى هذا الشأن بشرط أن يستقر الاتفاق بين جماعة النواب وهيئة الحكومة على سائر بنود اللائحة وبناء على ذلك تطلب الحكومة من النواب أن يصدقوا على اللائحة كما عدلها مجلس النظار وأن يترك البند المتعلق بالميزانية إلى حين وأن يبدى النواب رأيهم النهائى فى أمر الميزانية ليتسنى للحكومة جعله أساسا لفتح باب المخابرة مع الدولتين فلما وصلت اللائحة إلى النواب مع الطلب بما تقدم كبر عليهم الأمر واستعظموه واجتمعوا فى بيت محمد سلطان باشا الرئيس وظلوا ليلتهم تلك يتشاورون ويتدبرون فى العمل إلى أن اتحدت كلمتهم على أن لا يجيبوا طلب الحكومة ولا يعملوا برأيها وأصبحوا وقد عقدوا مجلسهم على غير العادة وقرروا تسليم اللائحة وورقة الطلب إلى اللجنة التى كان عهد لها تحرير تلك اللائحة واشتروطوا عليها أن تنظر فيها ثانية وتعديل منها ما ترى لزوم تعديله ففعلت وصادقت على بعض البنود وأنكرت البعض الآخر وأبقت البند المتعلق بالميزانية جائزا بجميع أحكامه، وفى صبح الخميس سار خمسة عشر من النواب إلى مقر الخديوى بالإسماعيلية ليطالبوا تنفيذ ما قرروه فمروا فى طريقهم ببيت الوزير محمد شريف باشا فدخلوا عليه وسألوه قبول العمل بما قرروه فامتنع وقال: هذا لا يصح فألحوا عليه فلم يقبل فساروا إلى مقر الخديوى وتقدموا إليه فى قبول لائحتهم والعمل بما قرروه فيها وإلا لزم تنزيل الوزير محمد شريف باشا وخلعه من منصب الرئاسة وتحقق الوزير ما فى عمل جماعة النواب من الدسائس الغريبة عن طباعهم فخشى العقابة وعمد إلى المواربة وعين للوساطة بينهم بطرس بك غالى كاتب سر مجلس النظار يومئذ ورسم له بالعمل فقام بالأمر وسلك مسالك الجند والحزم وعمل على تذليل تلك الموانع فكان إذا مهد السبل وأحكم العمل وسار معه جماعة النواب وهم آمنون مطمئنون بوصولهم إلى الغرض وسوس

لهم خناس العصابة فيرجعون ناكسين وهم أشد عنادا وأصعب مراسا من ذى قبل فلما ضاقت عليه المذاهب أو كادت عمد إلى مجامع العصابة فدخلها وما زال بكبارها وأصحاب الكلمة فيها حتى تمكن من تعديل بعض مواد القانون التي لا علاقة لها بالميزانية وبقيت أحكام المادة المتعلقة بالميزانية على ما هي عليه، وعظم الأمر على الوزير محمد شريف باشا واستعصى الحل فكتب قونصلا الإنجليز والفرنسيس إليه يقولان بناء على كون قانون التصفية لم ييج اشتراك نواب البلاد في تقرير ميزانية الخزينة وبما أن الدولتين تقرأ أن أمر الميزانية صار ارتباطا بينهما وبين حكومة مصر فيجب على الحكومة أن ترفع لنا بيان ما يتطلبه الآن مجلس النواب لتبعث به إلى أصحاب الحل والعقد في بلادنا ليروا فيه رأيهم، فجمع الوزير في اليوم الثاني مجلس الوزراء وبينهم بعض نواب البلاد ليروا في طلب القونصلين فتكلموا في ذلك كثيرا وطال الأخذ والرد حتى علت الأصوات وكثرت الضوضاء واشتد الخصام وأبى النواب إلا ما أرادوا من رؤية ميزانية الخزينة وتعديل أبوابها على ما فيه المصلحة للبلاد ثم انصرفوا على غير طائل وعاد الوزير بعد ظهر ذلك اليوم فجمع إليه محمد سلطان باشا رئيس النواب وشريعى باشا رئيس التحرير وشواربى بيك وأمين بيك الشمسى ومحمد بيك سليمان وأباظه بيك وأحمد أفندى محمود وإبراهيم أفندى الوكيل وأحمد أفندى عبد الغفار وأعادوا البحث والجدال في أمر الميزانية وفي نص الفقرة المختصة بها في القانون (قلت) وكان نصها:

(متى تعادلت الآراء استشير مجلس الأمة فإذا صدق على قرار لجنة التحوير وأصرت الحكومة على رفض ذلك ولم تستعف الوزارة فض المجلس وجاز حيثئذ أن تسحب المبالغ الضرورية لسير الإدارة وتوقفت الميزانية إلى أن يلتئم مجلس النواب الجديد فإذا صدقت لجته على قرار لجنة المجلس السابق وجب أن يكون قرارها مقبولا . اهـ .

فلم يتم لهم في ذلك اليوم أمر ولم ينفض لهم نزاع فانصرفوا وعادوا في نحو الساعة الثالثة عربى ليلا إلى بيت الوزير ولبثوا يتنازعون إلى ما بعد نصف الليل ولكنهم لم يهتدوا إلى أمر ما فعند ذلك نهض الوزير وقال بعد كلام: وحيث إننا لم نصل مع توالى الاجتماع إلى حل عقدة هذا الإشكال صار المتعين على المخابرة في ذلك مع قونصلى الإنجليز والفرنسيس إذ هي من المسائل الخاصة بهما وياتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع الوزير بالمستر مالت قونصل الإنجليز وتحادثا في الأمر

فدخل عليهما قونصل الفرنسيين فتكلموا فى ذلك طويلا وتكلموا أيضا فيما لم تصل إلينا معرفته إلى هذا الحين وسير الخديوى إلى سلطان باشا يستحثه على استمالة النواب وتركهم لهذا الشغب فأرسل يعتذر ويقول: أنه لم يقو على استمالتهم لأنهم جميعاً فى طاعة عصاة الجند وفى قبضة أحمد عرابى وأن لا سبيل إلى عدولهم إلا باستمالة زعماء العصاة واسترضائهم وهذا مما لا يقوى عليه هو أيضاً فرسم الخديوى باجتماع مجلس الوزراء فاجتمعوا فى سراى عابدين وبينهم سائر النواب وجعلوا يتجادلون فى أمر ذلك الخلاف فطال الحال واشتد بهم الجدل وكثر القيل والقال واحتدم الخصام وتعذر الوثام وانفض مجلسهم على غير طائل.

واتفق أن دخلت فى هذا اليوم إلى مينا الإسكندرية سفينة من سفن الحرب العثمانية آتية من دار الخلافة فجاء الخبر بدخلوها وتحدث الناس به كثيرا وجزم بعضهم أن مع ربانها أوراكا من بسيم أفندى أحد قرناء السلطان مخاطبة إلى أحمد عرابى وقال البعض: إن الربان المذكور جاء خفية من الإسكندرية إلى القاهرة ونزل بالنزل المعروف بلوقائدة أوريتال وبات ليلته تلك وأصبح فركب حمارا واستتر برداء من أكسية جند البحر وسار إلى بيت أحمد عرابى بباب اللوق ولبث معه ساعة ثم رجع من فوره إلى الإسكندرية وشاع الخبر بذلك فطيره الناس إلى الآفاق وبالغوا فى نقله على عادتهم فأحس الوزير محمد شريف باشا بما وراء ذلك فكتب إلى المديرين والمحافظين وسائر مأمورى الحكومة يلزمهم بحض الناس على ملازمة السكون وترك الإشاعات وعدم الأخذ بأقوال أصحاب الغايات وقال: أن هذه السفينة وإن كانت من مراكب الحرب العثمانية ولكنها ليست الآن إلا فى خدمة والى الشام وأنها لما قامت من مرساها قاصدة إحدى الموانئ العثمانية صادفها ريح عاصف فألقى بها إلى سواحل مصر فلجأت إلى مينا الإسكندرية فرارا من الأنواء ونظرا لكون بعض آلاتها تعطلت بأسباب ما لاقته ستلبث أياما حتى تصلح ما تعطل منها فى هاويس الإسكندرية ثم ترجع، فلم تبطل هذه الأقوال الإشاعة ولم تنكف الناس عن القال والقيل ولا سيما الأحزاب وضباط الجند، قلت: وكان لمجىء تلك السفينة فى هذا الحين أى بعد رفع الدولتين لاثنتهما التى تقدم الكلام عليها سرّ خفى وقصد منوى عليه وكان السلطان وجميع قرنائه وأرباب شوره وأصحاب الكلمة فى بابه وإمامه الشيخ أحمد أفندى أسعد يعتقدون أن فى ظهور أحمد عرابى وأصحابه وقيام الحركة بالقاهرة واضطراب الخواطر بالأقاليم القبلية فتحا ونصرا للسلطان على خصومه بديار

مصر فترفع فيها كلمة الخلافة وترجع الشوكة السلطانية إلى ما كانت عليه قبل سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية فيتولى الباب العالي التصرف فيها كتصرفه في بقية الإيالات التابعة له من شام وعراق وكانت هذه الهواجس والظنون تقوى عندهم كلما أكثر أحمد عرابي والبارودي من إرسال كتب التلطف ورسائل التأدب إلى الباب العالي عند الشكوى من أفعال الرئيس مصطفى رياض باشا ومراقبى الإنجليز والفرنسيين فكثير لذلك توارد كتب السلطان على أحمد عرابي بواسطة بسيم أفندى من قراء السلطان وجاءته الرسائل تترى بما لم تصل إلينا معرفته إلى الآن وظن رجال السلطنة أن بضاعتهم ردت إليهم، وكما كانت آمال رجال السلطنة العثمانية وبابهم العالي معلقة بالمحال وهم في تغرير وضلال قد كان سعاة الإنجليز لا ينكفون عن التقرب من أحمد عرابي وأصحابه وكبار سياستهم يعملون ليس على سلب مصر عن تابعة الخلافة العثمانية فقط بل وعلى إزالة ملك آل عثمان من قارتي آسيا وأوروبا وتأسيس دولة عربية ليست لهم ما يرغبون وهذه هي سياسة غلادستون شيخ الأحرار من الأحزاب الإنجليزية منذ حدوثه فكانوا كلما تقربوا من أحمد عرابي مال عطفاً إليهم وعمل بقولهم وأخذ بمشورتهم وراسل مشايخ العرب باليمن والحجاز والعراق وتقرب من السنوسى ونجيب إلى شريف مكة ودعاهم إلى نصرته وجماعة الإنجليز يظنون أن قد تم الأمر لشيخ سياستهم غلادستون على يدى أحمد عرابي، وكان الخديوى إسماعيل باشا يرى أيضاً أن فى ظهور أحمد عرابي واتساع كلمته واستفحال الخلل بديار مصر وتهديد مقام ولده توفيق باشا فرصة ربما كان من ورائها خلع ولده وعودته هو إلى كرسى الخديوية فجعل يرأسل أحمد عرابي ويمنيه بالأمانى الكثيرة ثم عمد إلى الاستعانة ببعض كبار الإنجليز فماراهم بالهدايا العظيمة والتحف الجليلة قيل فكان أحمد عرابي يظهر له الطاعة ويتلطف معه فى الجواب ويهون عليه الأمر حتى ظن إسماعيل باشا المحال وبلوغه غاية الآمال، وكما كان إسماعيل باشا يمنى النفس بقرب عودته إلى منصب الخديوية على يدى أحمد عرابي بك وأشياعه كان الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا يتقرب أيضاً من أحمد عرابي ويهديه بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة على يدى أحد خدام بيت أبيه ويستفزه إلى نصرته برّد تاج الوراثة إليه، قال بعض الكتاب: وأغراه بالرشا والبرطيل واشتد أمله وكبر رجاؤه بتحزب بعض رجال المايين الهمايونى إليه فكان أحمد عرابي يسايره ويتلطف فى الرد عليه ويمنيه بالأمانى الكثيرة حتى اختلط الأمر على أحمد عرابي

وطاش منه الرجاء وحار وقد كان فى خلدّه أن لا يعمل إلا لنفسه ولا يجاهد إلا فى إعلاء كلمته وارتقائه منصب الخديوية بما له من المكانة عند أهل البلاد والمحبة فى قلوب العساكر والأجناد والهيبة عند كبار الناس وعظمائهم كما فعل محمد على باشا الكبير، قال جماعة: وقد كانت هذه الآمال أيضاً لا تفارق كلا من محمود باشا البارودى ومحمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد كما سيتلى عليك خبر ذلك فى موضعه فكان مثلهم فى ذلك كمثل صبى فى يده مرآة يوجه بها نحو أشعة الشمس فينطبع ضوءها على الأرض ومعه فتية يتزاحمون ويتراهمون على ذلك الضوء فكل منهم يظن أنه أصاب منه شيئاً وهم لا يقدرون لحركة ذلك الضوء بتحريك الصبى للمرأة.

(مطلب)

عودة النواب إلى تنفيذ لائحتهم وما وراء ذلك

وعاد نواب البلاد إلى طلب تنفيذ لائحتهم كما صوروها وأصروا على ذلك وسار جماعة منهم إلى مقر ديوان الداخلية ورفعوا إلى الوزير محمد شريف باشا تلك اللائحة وقالوا: إن تأخير تنفيذها جالب للفشل فإننا عقدنا النية على أن لا نترك هذا اليوم يمضى بغير قبولها أو رفضها فجعل الوزير يلاطفهم ويهون عليهم ثم قال لهم: تعلمون أنى منذ أخذتم فى تنظيم لائحتكم هذه لم اتعرض لشيء من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وإبداء رأيكم فيها على أنى ما زلت لا أتحوّل عن هذا الرأى فلذلك لم أصادق على ما رأيتموه فى أمر الميزانية إلا بعد رضا الدول ذوات الشأن فقالوا: إن هذا من خصائصك ولا دخل للدول فيه بل لا موجب لتوقفهم فإنها مسألة لا تمس ما لهم من الحقوق ولا تضر لهم مصلحة، فقال الوزير: لا سبيل إلى ذلك البتة، فقال جماعة منهم: إنا نأسف جداً أن يصادق لنا على اللائحة غيرك يعنون بذلك إكراهه على التخلّى عن منصبه، ثم انصرفوا وساروا إلى مقر الخديوى بعابدين وتمثلوا بين يديه وتقدم جماعة منهم وقالوا: إنا جازمون بحبّة مولانا للوطن وميله إلى إصلاحه ولهذه الغاية قد منح مولانا الأمة المصرية حقوق الشورى وفتح مجلسها فنظمتنا له هذه اللائحة ونقحناها وطلبنا إلى الوزير محمد شريف باشا أن يوقع عليها فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشيء مما فى العقود الدولية، فقال الخديوى: إذا كانت هيئة الوزارة قد أبت التصديق على اللائحة فماذا تطلبون حينئذ قالوا: نطلب أن تعزل فتشكل وزارة أخرى لا تأبى

التصديق والعمل معنا فوعدهم بإعطاء الجواب فى غد فانصرفوا ولبت الوزير بعد خروج نواب البلاد يفكر فى الأمر ويضرب أخماسا فى أسداس ثم قام ودخل على الخديوى وجعل يتحاجج معه فيما لم تصل إلينا معرفته وحضر قونصلا الإنجليز والفرنسيس إلى مقر الخديوى ودار بينهم الحديث فاشتد الجدل وطال القيل والقال، فوقف الوزير وقال: قد خلعت نفسى واعتزلت منصب الرئاسة فانظروا من يتولاها فأجابه الخديوى إلى ذلك بحضرة القونصلين وانصرفوا جميعا وفى نحو الساعة الثالثة من ليلة الخميس خامس عشر ربيع الأول من السنة استقدم الخديوى خمسة عشر عضوا المندوبين من قبل شورى البلاد لتنفيذ لائحة مجلسهم فتمثلوا بين يديه فقال قد تخلى الوزير محمد شريف باشا عن الرئاسة فاختاروا من يتولاها فقالوا لا، وحاشا أن نتعدى على حقوق مولانا فيطلب مولانا من يختاره، فقال: لابد من ذلك فامتنعوا وبقي الحال على ذلك إلى الساعة الرابعة ثم انصرفوا وأصبحوا وقد استقدمهم الخديوى وسألهم أن يختاروا من يصلح للرئاسة فقالوا نختار اليوم محمود باشا البارودى رئيس ديوان الجند بشرط تصديقه على لائحة مجلسنا ثم خرجوا وساروا إلى بيت البارودى وانتظم مجلسهم ومعهم جماعة من كبار عصابة الجند فتباحوا بينهم فيمن يختارونهم لبقية المناصب فاختاروا جماعة ممن لا يخالفون لهم كلمة وكأنهم أرسلوا إلى الخديوى يعلمونه بذلك فلما كان بعد ظهر اليوم بعث الخديوى مع أحد رجال ديوانه الخاص إلى محمود باشا البارودى مرسوما يقول فيه: حيث دعت الأحوال لانفصال محمد شريف باشا بناء على استعفائه واقتضى الحال لانتخاب بديل عنه يكون متأهلا ولائقا لمقام الرئاسة ومن المسلم عندى أنك أهل لذلك لما اتصفت به من كمال الدراية وحلية الصدق والاستقامة فقد انتخبك لهذا المقام الخطير وقلدتك رئاسة النظار. فيجب المبادرة بانتخاب هيئة النظار اللازم وجودها معك وحيث إن غاية قصدى ونهاية أملى إنما هى السعى وصرف الجهد لما فيه عمارة وسعادة الوطن وإصلاح أحواله فأملى فيك القيام بهذه المساعى الحسنة وفقنا الله جميعا لما به الإصلاح والنجاح انتهى.

فلما وصل الكتاب إلى البارودى فرح به وفرح من معه من زعماء العصابة ورفع فى الحال إلى الخديوى عريضة ذكر فيها أسماء الوزراء الذين انتخبهم للهيئة الجديدة فكان مصطفى باشا فهمى للخارجية والحقانية وأحمد عرابى بيك للجهادية والبحرية وإسماعيل باشا أيوب للمالية ومحمود فهمى بيك للأشغال وعبد الله فكرى باشا للمعارف وحسن شريعى باشا للأوقاف فاستقدم الخديوى فى الحال قونصلى الإنجليز

والفرنسيس وكلمهما فى هذا الأمر طويلاً ثم صدق على هذا الانتخاب وأضاف إلى عهدة البارودى نظارة الداخلية أيضاً وجاء الوزراء وتمثلوا بحضرة الخديوى بسرائى عابدين فحدثهم طويلاً فيما لم تصل إلينا معرفته فلم ينصرفوا من عنده حتى خلع إسماعيل أيوب باشا نفسه من منصب وزارة المالية بناء على أن خلع الوزير محمد شريف باشا لنفسه من منصب الرياسة لم يكن إلا بسبب بند الميزانية فأجابه الخديوى إلى ذلك وقام بقية النظر وساروا إلى بيت البارودى فعقدوا مجلسهم واختاروا لوزارة المالية بعد جدال طويل على صادق باشا وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع سائر ضباط الجند فى ساحة قصر النيل فوفد عليهم أحمد عرابى بيك وخطب فيهم خطاباً طويلاً فى وجوب الاتحاد ووحدة الكلمة، ثم ساروا بعد ذلك جميعاً إلى رحبة عابدين وتمثل جماعة من كبارهم أمام الخديوى يتقدمهم طلبة عصمت بيك أميرجند قصر النيل فالقى طلبة خطاباً بين فيه تعلق جميع أفراد العسكر بشخص الخديوى ثم ساروا إلى ديوان الداخلية حيث البارودى وإلى مقر والده الخديوى وحرمه وهم فى أبهة وكبكية زائدة، وقد كان نواب البلاد عند اشتداد الخلاف بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا على بند الميزانية ومسئولية الوزراء أمامهم على طرفى نقيض فكان جماعة منهم يرون أن الظروف التى قضت بتشكيل مجلس النواب وخولته النظر فى جميع مصالح البلاد هى نفس الظروف التى تقضى على النواب بلزوم التساهل وعدم فصم عرى الوفاق بينهم وبين هيئة الحكومة وإلا طاش المجلس عن الغرض وضل عن الغاية، وكان الآخرون يرون أن فى إكراه الحكومة على تخويل مجلس النواب حق النظر فى الميزانية وتعديلها بحسب ما تقتضيه مصلحة البلاد فائدتين عظيمتين أولاهما: تخفيف أثقال المصروفات بالتزام طرق الاقتصاد وقفل أبواب السرف والتبذير فى أى نوع كان فيسهل على البلاد التخلص من كثير من شدائد الديون وذل الاستدانة التى كانت السبب فى استرقاق أهلها وثقليلهم بأحمال الضرائب والمكوس والمغارم، وثانيتهما: تعديل موارد الإيراد وترتيبها على نمط عادل جامع بين النظام والمساواة بين صنوف الرعية وكل مستوطن فى البلاد فيستتب بذلك الأمن ويرتفع الظلم والاعتساف وتزايد العمارة فتعظم ثقة الأجانب بأهل البلاد ويجل قدر الحكومة فى أعينهم وتقوى شوكتها فلا يظفر بها نسر ولا يغتالها أسد (إشارة إلى دولتى الفرنسيس والإنجليز) وكان هذا رأى لفريق من زعماء العصاية أيضاً فاستمالوا إليه كثيرين من وجهاء البلاد وأعيانها وتمسك كل فريق بمذيعانه فاشتد الخلاف يومئذ واستفحل فأدرك زعماء العصاية ما وراء ذلك وتجردوا

لمقاومة أصحاب الرأى الأول وحذروهم وهددوهم فكان إذا تخلف أحدهم فى بيته ليلة لا يشعر إلا وقد دخل عليه نقر من الجند فيوسعونه شتما وسبا ويتوعدونه بالتباعد إلى أقاصى الدار فوراً وربما توعدوه بالقتل إن هو لم يعدل عن رأيه وما زالوا معهم على هذه الحال حتى اشتد بهم الخوف وأخذ من قلوبهم مأخذه فانضموا إلى بقية النواب وصاروا أشد طاعة وأكثر تزلفاً إلى أصحاب الزعامة فقويت عزيمة أولئك الزعماء فخلع كبارهم رداء المواربة وأظهروا ما كانوا يخفونه عن الناس من طلب المعالى باستلام زمام حكم البلاد والتصرف فى أمور الرعية فجعلوا يعملون على استحكام النفرة بين نواب البلاد والهيئة الحاكمة ويراعوا أن البلاد فى حاجة إلى مثل الوزير محمد شريف باشا إذ أعماهم الغرض وتملك عليهم هوى النفس وما زالوا يوسوسون فى صدور النواب ويزينون لهم كل عاطل حتى تجرد النواب يومئذ إلى المقاومة واختاروا من بينهم أولئك الخمسة عشر كما تقدم القول ففعلوا ما فعلوه حتى نفر منهم الوزير محمد شريف باشا وفضل خلع نفسه من منصب الرياسة عن نقض العهود ومس الزعم فأنزل نفسه كما تقدم وكان ما كان من تقليد البارودى منصب الرياسة فلم يكن ليخفى على الناس يومئذ أن فى طلب نواب البلاد تقليد البارودى هذا المنصب غاية الجبن والتدليس فقد دلت على ذلك الدلائل وقامت على صدقه البراهين ولو لم يكن فى الأمر سوى اتحاد أصحاب الزعامة على تقسيم المناصب العالية بينهم قبل أن تصل إليهم لكفى.

ولما استقر بالبارودى منصب الرياسة فرح قومه وعم السرور أعوانه والمستقرين من بابه فمنهم من أولم ومنهم من أدب ومنهم من تصدق ودفع النذور وحذا حذوهم نواب البلاد فأكثروا من الولائم والمآدب وكان ممن توسع من النواب فى مأدبته أحمد محمود صاحب نيابة البحيرة حيث دعا إليها البارودى وأحمد عرابى وسائر الوزراء وجميع نواب البلاد وكبار الجند ولقيف العلماء وبعض الوجهاء وكثيرا من موظفى الحكومة ووكلاء الدواوين وبعد الفراغ من الطعام ارتقى صاحب البيت منبر الخطابة فتكلم طويلا وذكر فى كلامه ما عاناه نواب البلاد من العنت والشدة منذ بداية المجلس إلى تلك الليلة وعرض بذكر وساطة بطرس بيك غالى بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا كما تقدم بيانه فى حينه وكان معهم فى تلك الليلة، فقال الخطيب ولا أخالكم تجهلون أيها السادة إننا لما قمنا بحقوق النيابة وتجردنا للدفاع عن الوطن وطلابنا رجال الحكومة يومئذ بمراعاة الزعم انتدبوا للوساطة بيننا وبينهم وسيطا من إخوانهم الذين يدعون الوطنية ويتظاهرون بحبة الوطن فقام بالأمر وأدى عافاه

الله واجب الوساطة فكان تارة يتوعدنا وأخرى يهددنا وطورا يعزرننا وآخر ييساكتنا وآونة يستميلنا بزخرف القول وآنة يعدنا برتب الشرف ونياشين الاعتبار وما درى أنا على غير ما كان يتوهم وأنا جميعا على قلب رجل واحد فى خدمة الوطن وبنه .

ولما كان تاسع عشر ربيع الأول اجتمع الوزراء بعد الظهر بسرأى عابدين وعقدوا مجلسهم بحضرة الخديوى وتكلموا فى قانون مجلس نواب البلاد فتقرر العمل به بدون تغيير حتى فى بند الميزانية، ثم تلى بينهم أيضا الجواب على اللائحة التى كان رفعها قونصلا الإنجليز والفرنسيين إلى الوزير محمد شريف باشا فوافقوا عليه وتقرر إرساله إلى القونصلين على يد مصطفى فهمى باشا وفى ثانى عشرى ربيع المذكور سار البارودى إلى مقر نواب البلاد وسلم إلى رئيسهم قانون المجلس مصدقا عليه فقام النواب من ساعتهم ودخلوا على الخديوى وقدموا له مراسم الشكر والطاعة ثم انصرفوا، وقد قرأت فى ذلك اليوم فى إحدى صحف الأخبار الإنجليزية صورة مكاتبة بعث بها أحد كبار الإنجليز بعاصمتهم على جناح البرق إلى أحمد عرابى بيك يقول فيها، تقدموا أيها المصريون فلا خوف عليكم من جانب الأمة الإنجليزية فإنها لا تروم إلا تأييد مذهبكم القائل يجب الرأفة بفلاح بلادكم، أى نعم فلتسقط أقوال الباكسين للأعمال المالية باختلاف الأكاذيب ولتعلن الأمة المصرية لتحيا الأمة المصرية، وشاع خبر هذا الإنجليزي ففرح به ضباط الجند وسروا سرورا عظيما ونقشوا ترجمته على أوراق وجعلوا يرسلونها إلى الأحزاب والمتقربين وهؤلاء كانوا يتلونونها على الناس محشوة بالخلط والتحريف وسقط القول فكان منهم من يقول: أى والله قد جاء اليوم إلى أحمد عرابى بيك أعزه الله فرمان من ملكة الإنجليز منقوشا بخط يدها تقول فيه إنها فرحة القلب، قرية العين بما علمت به من أعمال الحزب الوطنى وثبات زعماء عصاة الجند ووقوف نواب البلاد موقف الجلاد وأنها لم تكن لتعلم إلى هذا الحين قدر عزة نفوس المصريين ولذلك فهى ساخطة على من كان السبب فى إبعاد أخبار هذه الحقائق عنها وهى تطلب من الله تعالى أن يطيل بقاء أحمد عرابى بيك ويجعل أيامه كلها خيرا وبركة على البلاد وأهلها، فيقول الثانى بل هو خطاب سياسى متوج بتاج الملكة، فيقول الثالث ليس هو كما تقولان فقد نظرته منقوشا بماء الذهب وأحسن الألوان التى لم تر عيني لها مثيلا، فيقول الرابع إنكم جميعا لفى ضلال فقد حدثنى من رآه بعينى رأسه وسمع ما فيه بأذنيه أنه على شكل كراسية مغطاة من الخارج بالديساج الأحمر وفيها أساطير كلها تحية وتعظيم، فإذا قيل

لهم قد نقلت أصحاب الصحف الأخبار هذا النبأ وليس هو فى شىء بما تذكرون قالوا
هى عادة أصحاب الصحف يقولون غير ما يسمعون وظل الحال هكذا أياماً، وبينما
كانت الأفراح والولائم لنواب البلاد والبارودى قائمة على ساق تحرك المراقبان
الإنجليزى والفرنساوى ورفعوا إلى الخديوى مجرراً سياسياً احتجاجاً فيه على الحكومة
حيث أباحت لنواب البلاد حق النظر فى ميزانية الخزينة وخولتهم المراقبة على جميع
ما يتعلق بأنواع الإيراد والمنصرف فكان مما قالاه فيه ما تعريبه، ولما انتشرت الأوامر
الخديوية بتنظيم سلطة المراقبين وخصائصهما كانت القوة المادية منحصرة فى شخص
الخديوى بالأصالة عن نفسه وفى وزرائه بطريق الوكالة والنيابة وبما أن حق المراقبين
العموميين هو قاصر على إبداء النصيحة وإعطاء المشورة فكان المتعين إذا التمسك
بنصيحتهما واعتبارهما بما يحق لهما من الاعتبار والمراعاة فلذلك تحققت الآمال
وأصبحت خزانة البلاد فى غاية الضبط والسداد بعد أن كانت فى غاية الخلل
والارتباك ولكن لم تلبث على هذه الحال طويلاً حتى تزحزحت تلك القوة المادية من
موضعها وانتقلت إلى مجلس نواب البلاد وفريق من كبار الجند واستأسر هذا الفريق
جميع النواب فهم لا يعملون عملاً إلا بمشورته فهذا التغيير العظيم الذى طرأ على
نظام البلاد أحدث تأثيراً مهماً حيث كان ديبه تدريجياً مبتدئاً من شهر فبراير سنة
إحدى وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية الذى هو تاريخ قيام الثورة وخروج الجند
وزعزعة سلطة الخديوى ووزرائه ومن هذا التاريخ أخذت هذه السلطة فى القهقرى
والانحطاط يوماً عن يوم إلى هذا الحد وكان من نواب البلاد الذين كانوا على عهد
إسماعيل باشا مقيدى بقيود الرق والعبودية وأوقعوا البلاد تحت أحمال الديون الثقيلة
أن قاموا فى هذا الحين يطالبون بحقوق غير ملائمة لحالة البلاد ولهيئتها الاجتماعية
وتتمادى بهم الحال إلى إكراه الخديوى على خلع الوزارة التى كان معتمده عليها
وألزموه بواسطة جماعة من كبار ضباط الجند بتسليم رئيس ديوان الجهادية زمام
رياسة الوزراء حتى انحطت بذلك سلطته وصارت هملاً مهملاً وكان لم يبق
لشخص الخديوى وجود وحيث قد بلغت هذه الأحوال حداً فصار لا يهمنى كثيراً
معرفة ما إذا كان المراد التعرض أيضاً لسلطة المراقبين واختصاصهما أولاً لا سيما
وأنها قد أصبحت اليوم منحلة العرى بأسباب عدم إمكانهما الاشتغال مع الخديوى
ولا مع وزرائه الذين أقيموا فى هذا المنصب جزافاً لا ولا مع نواب البلاد والجند
العاملين معهم فإن الخديوى وهؤلاء الوزراء ليسوا مسئولين أمام الرأى العام والدول

الأجنبية عن الطرق والأسباب التي عارض فيها المراقبان ودونها في مراسيم سينشئونها عاجلاً، إلى أن قالوا، ولقد كان المصدر الوحيد لتأييد قوانا الأدبية هو شخص الخديوى والوزراء أما الآن فلا بد وأن تصير هذه القوة وهمية مع الوزراء الذين انتقاهم نواب البلاد وفريق رؤوس الجند فإن الوزراء الذين هم على هذه الصورة لا يكون إزعاجهم إلا لرؤوس الجند ونواب البلاد إذ لولاهم ما كانوا ولقد تم هذا الأمر حيث عقدت الوزارة الحالية النية على تخويل مجلس النواب حقاً في نظر الميزانية ولم تكثر بمعارضة المراقبين معارضة رسمية في هذا الأمر ولا ننسى أن السبب الذي أوجب سقوط وزارة الوزير شريف باشا هو مراعاتها عدم معارضة حكومتى الإنجليز والفرنسيين فيما طلبه مجلس النواب من أن يخول له حق النظر في الميزانية فصار إذا قبول الوزارة الحالية لهذه الأمور وإخراجها إلى حيز الفعل هو بمنزلة قبول ما يمكن ارتكابه من انتهاك حرمة نفوذ دولتى الفرنسيين والإنجليز ونجم عن ذلك إزالة نفوذ المراقبين اللذين لا سلطة لهما إلا بسلطة حكومتيهما هذا ولا يليق التعامى عن الأسباب التي لا بد وأن تدرك أس الإصلاحات وتذهبها أدراج الرياح بعد توطيد أركانها في داخلية البلاد منذ الستين فإن التعامى مجلبة التغير وقصارى الأمر أنه ليس ببعيد وقوع الخلل في الأحوال المالية التي قامت بترتيبها وإصلاحها لجنة التحقيق ولجنة التصفية. اهـ.

فلما وقف الخديوى على ما فى هذا الخطاب تامل وسير به إلى البارودى فلم يكثر به ولا أعاره جانب الالتفات ثم عاد فاجتمع بالمراقبين وأعلمهما بأن ليس فى نية الوزراء قط التعرض لسلطة المراقبة على أى حال كان ومع ذلك فقد كان الوزراء إذا عقدوا مجلسهم للنظر فى أمور البلاد لم يدعوا المراقبين للحضور فيه كعادتهم فإذا سأل المراقبان عن السبب قيل لهما إن الوزراء إنما هم ينظرون فى الأحوال الإدارية والأمور الداخلية التى لا علاقة لها بالأشغال المالية فأصبح المراقبان بعد هذا هملاً مهملاً بل سقطاً مردلاً وشاع الخبر وتناقله أصحاب الصحف المحنية والأجنبية فكثرت تساءل كبار حكومتى الفرنسيين والإنجليز واشتد بينهم الأخذ والرد وقام خطباؤهم وقوالهم يقلبون لنواب البلاد ظهر المحن بعد ذلك وعمت الإشاعة بقرب وصول بعض مراكب الحزب الإنجليزية والفرنساوية إلى ميناء الإسكندرية فبالغ العامة فى التحدث بهذا الخبر وأحجم أصحاب صحف الأجنبية تكذيبه فخاف عقلاء الناس وتطيروا منه فلما كان اليوم الأول من ربيع الثانى طارت الأخبار إلى القاهرة بقدم

سفن حربية فرنسية وإنجليزية إلى مدينة بورسعيد الناس واختلّفوا فى أسباب حضور تلك السفن وكثر تحدّثهم فى أمرها فبالغوا فى وصفها واختلّفوا فى عددها. فمن قائل إنها عشرون ومن قائل بل أربعون فكتب البارودى إلى قونصل جنرال الفرنسيّ فأجابه بأن ليس فى الأمر ما يدعو إلى الاضطراب وإنما هى سفينة واحدة قاصدة كوكشين الصين وهى معدّة لنقل الجنود الذين قضوا مدتهم العسكرية فى تلك الاقطار ونقل المرضى وشاع الخبر بذلك فلم تكن لتتكف لتنتهى التحدّث فى أمر حضور تلك السفينة حتى كثر اللغظ أيضاً بحركة الملك يوحنا نجاشى ونزوله على حدود مصر الشرقية وتضييقه على أهلها وإجراقه الكثير من قراها وغير ذلك واشتد اللغظ وكثر الأرجاف أياما حتى وردت الأنباء الصحيحة بأنه أهالى قرية من قرى أرض البورى التى تبعد عن مصوع مسافة يومين الضرائب لأصحاب الجباية (وكانت عادة ملوك الحبشة أن لا يجيئوا الضرائب (الجند والعسكر) قامت عليهم الجنود فأحرقت منازلهم وغنمت زهاء أربعة آلاف وعشرة آلاف من الضأن وثلاثة آلاف من الحمير وقتلوا نحو مائة وسبعين رجلاً أحد عشر فأذاع هذا الخبر أصحاب صحف الاخبار وتوسعوا فى الكلام على ذلك الحبشان وشوكة ملوكهم وشدة بأسهم وجبروتهم على الرعية عسى أن تنقطع أسباب القلاقل وتبطل الأراجيف.

وأشار البارودى بإبطال تسيير الجند الذين كانوا على أهبة السفر إلى السودان لردع صاحب المهديّة فأوقفوا وصرفوا وأشاعوا أن القوة التى هى فى بلاد السودان هى لحصر المتهمدى فى جبل هناك. ودفع أذاه عن البلاد وأهلها وطيروا الخبر بذلك إلى الملأ فصدّق الناس الإشاعة أو كادوا فلم تكن إلا أيام حتى وردت الأنباء الصحيحة باستفحال أمر المهديّ وتزايد جيوشه وخضوع الكثير من المدن والقرى إليه وقيام الحركة الدرفور وكردفان وغيرهما قالوا وبلغت لمومه إلى هذا الحين مبلغاً عظيماً فكان إذا نزل بأرض ولم تقم أهلها بأمره شن عليها الغارة ونهبها وحرق بيوتها وأعمل السيف فى أهلها على آخرهم فهابه لذلك الناس وخشوا سطوته وقاموا لنصرته فتقدم ولم ير أمامه مانعاً وبث الدعاة فى الأطراف حتى فى مراكز الحكومة وحول مقر الحكام فأجاب الناس دعوتهم صاغرين وكبر الخوف بالسواد الأعظم من أهل الكردفان وسنار والخرطوم فأنجلوا عنها فرارا من بطشه فتعطلت أسباب الرزق ووقفت حركة التجارة وزال الأمن من تلك الأصقاع وانحدر أصحاب التجارة ببضائعهم إلى مدينة أسيوط ومنع تجار القاهرة من إرسال شىء من البضائع على

ظهور السفن إلى مدينة أسبوت كعادتهم ووصل إلى القاهرة ومصر بعض النازحين وظهرت الحركة فلم تبق للرب محلا، واتفق أن حضر في هذا الحين إلى القاهرة جماعة من قبائل العربان ومشايخهم وساروا ما بين راكب وراجل وهم متقلدون السيوف يريدون مقر البارودى فلما رأهم العامة على هذه الحال ظنوا أنهم رسل مدعى المهديوه وهم فى ضجة وجلبة حتى دخلوا إلى ديوان الداخلية وصعد جماعة منهم إلى مقر البارودى فقابلهم وسألهم عن سبب حضورهم فقالوا نريد أن لا تضيع علينا حقوقنا التى ورثناها عن آبائنا وهم نالوها بمقتضى فرمانات محمد على باشا الكبير مقابلة خفارتنا للحدود ومنع العدو من الوصول إليها فقال : وماذا تبسغون الآن؟ وهذه قضية رأها من كانوا فى خطتى من قبل وفعلوا فيها ما فعلوه قياما بالمصلحة العامة فقالوا لا نرضى أن يؤخذ منا رجال للجند النظامى ولا أن تخرج قومنا للسخرة أو العونة وهذه حقوق ورثناها فلا سبيل إلى التخلى عنها ما دامت البادية بادية ونحن حارسوها فهون عليهم البارودى الأمر ولاطفهم فانصرفوا ولكن لم تنصرف عن الناس تلك الهواجس والأوهام وحضر فى هذه الاثناء أيضاً عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السودانى من مدينة دمياط إلى القاهرة ولأرم أحمد عرابى بيك أياما فاشتد الخوف بالناس وكثير تطيرهم وقالوا : إن حضوره فى ذلك الحين عقب حضور أولئك العربان إنما هو مترتب على أن تكون مراكب العدو قد ألقت مرساها أمام حصون وقلاع دمياط فلم يبق إلا الرمى بالقنابل، وكان حضور عبد العال بيك فى ذلك الحين باستدعاء من أحمد عرابى ليتشاوروا فيما يلزم عمله للحصول على ما يطلبونه من ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار فقد كانت القاعدة من القدم أن لا يتولى رئاسة ديوان الجند إلا من حاز رتبة الفريق ليتمكن من سياسة الأمور وحفظ نظام كبار الضباط وكبار الجند وقد تولاهما أحمد عرابى بيك وهو لهذا الحين لم يتخط رتبة إمارة فريق من الجند فلما كان لابد من ارتقائه منصة هذه الرتبة العالية وكان عبد العال بيك وبقية أصحاب الزعامة على ما هم عليه من الرتب الصغيرة خاف أحمد عرابى من أنه إذا نال تلك الرتبة السامية قبل أن ينالها أصحاب الزعامة حسدوه ثم أبغضوه وعملوا على نكايته وإذلاله فسير فى طلب عبد العال فقدم إلى القاهرة ولبث بها أياما حتى تم لهم ما أرادوه من ترتيب أماكن إقامة سائر الجنود والعساكر وإبعاد من شاءوا إبعادهم من صغار الضباط وإدخال من كانوا يتوسمون فيه سمة الخلود إلى طاعتهم والقيام بإشارتهم، ثم رفعوا إلى الخديوى

ورقة بأسماء كثير من صغار الضباط الذين اصطفهم وقدم إليه أحمد عرابي في طلب إعطائهم بعض الرتب والنياشين فلم يعسجب الخديوى بذلك ورأى منهم من لا أهلية له ولا استحقاق فراجعهم أحمد عرابي بيك وهون عليه الأمر فامتنع وجعل يطاول أياماً، وكانت عادة أصحاب الزعامة أنهم إذا رأوا من الخديو مطلوبة في أمر يبتغونه أشاعوا أنه إنما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة خصومهم فيكثرون حيثئذ من الاجتماع والتطواف ويثيرون الأراجيف ويختلقون الأكاذيب والترهات فإن عدل عن عزمه عدلوا هم كذلك عن فعالهم وإلا غادوا حتى يتاح لهم الظفر فلما تحققوا لإصراره على الامتناع من إجابة طلب أحمد عرابي بيك قام من بينهم عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السوداني وأشاع أنه قد دس إليه السم في اللبن، قال وتحرير الخبر أنه بينما كان ذات ليلة عند أحد أخوانه إذ عاد إلى بيته فقالت له الجارية التي كانت تعد له الشاي واللبن في صباحا إنها تركت المحل لحظة لطيفة ثم عادت فرأت غطاء الوعاء الذي فيه اللبن مكشوفاً ولون اللبن متغيراً قال: فبحث في الوعاء الذي فوجد في راسه مادة فأبقاها إلى الصباح وأحضر طبيباً عارفاً فحلل تلك المادة فإذا بها زرنينخ كاف لقتل نفس فأكثر واتهم في هذا العمل غلاماً يبلغ السابعة عشرة وهو يهتم بتربيته في بيته فقبض عليه وأتى به إلى مقر جند الحرس الخديوى برحبة عابدين وضيق عليه قيل فاعترف بأنه الفاعل بإغراء محمد بك بن إسماعيل بيك ابن أبي بكر راتب باشا ثم عدل واعترف بأن غلاماً شركسياً من عماليك الخديوى رفيقاً له في المكتب أعطاه ذلك الزرنينخ وأوصاه بوضعه في وعاء اللبن ففعل رجاء حارسى وصاية عبد العال بيك وحيازته على أمواله المودعة عنده ثم بعد ذلك سلم الغلام إلى صاحب شرطة المدينة فأودع في السجن حتى تظهر الحقيقة، ولم يتشر خبر هذا الخبر العجيب حتى جعل ضباط الجند يفدون على دار عبد العال بيك عشرات عشرات يهتفون بالسلامة وهرع إليه كذلك أعيان المدينة والعلماء والوجهاء وبعض موظفى الحكومة واستقدم الخديو صاحب شرطة المدينة وشدد عليه في استكشاف سر هذا الحادث وكشف الحقيقة وقد خافه ورسم بالقبض على ذلك الغلام الشركسى ووضعه بالسجن أيضاً دفعاً للشك والظنون وسير إلى عبد العال بيك أحد رجال ديوانه الخاص كدوره من وقوع هذه الحادثة ويهتس بالنجاة من شرها وأطال عبد الله صاحب الكلام في هذا الحادث وبالع في مدح تلك السوداء التي كانت سبباً في نجاة عبد العال كانوا يزعمون فهاداها جميع ضباط الجند بالحلى والملابس وكان اسمها

تشريفا فجعلوا يصيحون تشریف تشریف وينادون بالويل والثبور على أصحاب هذه المكيدة يعرضون الخديو وعداوته لجماعة الضباط وأصحاب الزعامة منهم حتى أجابهم إلى ما يطلبون كبارهم من الرتب ونياشين الافتخار ما كانوا يسألون فنال أحمد عرابي بيك وعلى بيك أمير جند الحرس وعبد العال بيك حشيش أمير الجند السوداني لقب ميرلواء الباشوية وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فهرع إلى دار أحمد عرابي العلماء والكبراء والوجهاء وتزاحم على بابه الشعراء وغصت حجرات داره بالكثير من الأجانب ووردت إليه رسائل التهاني من عمد البلاد ومشايخها والتجار بالبريد وسلك التلغراف وهادته الوجهاء بالمأكول والمشروب والملبوس والمفروش فأدب في ذلك اليوم وزين داره وأتت إليه طوائف أرباب الأشاير وأصحاب العكاكيز والمتعممين بطبولهم وزمورهم وكاساتهم يضربون بها أمام داره واصطف حول الدار سائر ضباط الجند على اختلاف درجاتهم وجعلوا يضجون ضجيج استحسان ويهتفون هتاف التبريك وزاره في غروب ذلك اليوم سائر رجال الحكومة الملكيين والعسكريين والرؤساء الروحانيين ومحررى صحف الأخبار المحلية والأجنبية وبعض قناصل الدول كقنصل دولة إيطاليا وغيره ممن كانوا يكثرون التردد عليه لأمر لم نصل إلى معرفتها وما زالت داره محطاً للمهثئين وكعبة للشعراء والمادحين ثلاثة أيام وهكذا جرى مع على باشا الديب وعبد العال باشا حشيش فقامت عند ذلك قيامة أصحاب الصحف الأجنبية لا سيما منها الإنجليزية ونادوا واحرباه إن لم تتدارك دولتنا الإنجليزية والفرنسيس الخلل الذى كان يهبط بمصر إلى حضيض الويل والدمار وجعلوا يحضون كبار سياستهم على الأخذ بأطراف العمل ووجوب تغيير منهج السياسة الذى اتخذته الدولتان منذ ظهور الجند إلى هذا الحين فآكثر قونصل الإنجليز من الغدو والرواح إلى مقر الخديو للمكالمة فى الأمر.

(مطلب)

تنزيل المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى لنفسه

من منصب المراقبة وما كان بعد ذلك

واتفق فى ثالث عشرى ربيع الثانى أن تقدم المسيو دى بلينار المراقب الفرنسوى إلى الخديو فى قبول تخليه عن منصب المراقبة فأجابه الخديو إلى ذلك بغير معاودة فانحدر من فوره إلى الإسكندرية ومعه عياله يريد عاصمة الفرنسيس فلما شاع خبر انسحابه من منصبه فرح أصحاب الزعامة وبالفوا فى الأسباب وعزوها لأنفسهم

وقالوا إنما هي معجزة من معجزاتهم وآية من آياتهم وجعل عبد الله صاحب الطائف حينئذ يطنب في مديح أحمد عرابي باشا ويثنى على همه رجال العصابة أولى العزم ويقول: قد آن والله الوقت الذى لابد فيه من التخلص من نيران هؤلاء البعوث الجائعة الذين لا يهمهم إلا إشباع بطونهم، واختلف الناس فى أسباب عودة الرجل إلى بلاده وتخليه عن منصبه وقد كان سعى الخديو والرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته خلف هذه الغاية ذاهبا أدراج الرياح فترامت الظنون إلى المرمى البعيد وكثر تحدث الناس فى هذا الأمر فمن قائل أن لاستغفائه غاية سياسية قضت حالة البلاد الحاضرة على دولة الفرنسيين باتحادها فلا يليث أن يرجع إلينا وفى وعائه شيء من السم والدسم ومن قائل بل كان استغفاؤه إرضاء لأصحاب سياسة الإنجليز إذ هم يعتبرون أن بقاءه فى منصبه باعث على فصم عرى الاتحاد وقطع رباط الوفاق الذى عقده الدولتان لأن الرجل شهم حازم جرى حريص على نفوذه قوال فعال لا تأخذه رهبة ولا يخشى مكيدة وكان المراقب الإنجليزى على غاية من الجبن وضعف العزيمة وفساد الرأى، قال أصحاب هذا المذهب: فلما كان دى بليان بهذا لا يعمل إلا لمصلحة بلاده خاصة ميالا إلى التفرد بالعمل وكان المراقب الإنجليزى لا يقوى ولن يقوى على مجاراته استقدمته دولته حرصا على بقاء عرى الاتحاد وشد رباط الوفاق وعزمت على استبداله بأخر أقل غيرة وأكثر صبرا، ومن قائل بأنه ليس فى الأمر شيء من هذا كله وإنما هي فلتة من فلتات السياسة الأفرنسية التى ما وراءها إلا الخيبة والعدم حيث لا يتفع الندم، وعندى أن لاستغفاء دى بليان هذا سبب آخر لعله الصحيح أو ما يقرب منه وذلك أنه لما سقطت وزارة غامبتا رجل الجمهورية الفرنسية وخطيئها المقلق وقامت بعدها وزارة فريسينيه وكانت سياسة دى بليان هذا على شاكلة سياسة غامبتا كلها حزم وكياسة وتدبير ورئاسة وكانت سياسة فريسينيه مشوبة بالضعف وعدم الثبات محفوفة بضوضاء المكارة من الأحزاب لا سيما منهم غلاة الحرية الذين كانوا أطوع إلى رغائب الإنجليز منهم إلى مصلحة وطنهم أدرك دى بليان ما وراء بقاءه فى منصب المراقبة فى هذا الحين من ذهاب الكرامة وسقوط الهبة لا سيما وقد كان واقعا يومئذ بين متططح عزيزين عدااء الفرنسيين الذين بمصر وتقييم لأعماله جزاء ما بدا منه لقونصلهم على عهد رئاسة مصطفى رياض باشا كما سبق بيان ذلك فى موضعه ويغض رجال الحكومة إليه فعمد إلى خلع نفسه واعتزال المنصب وتقدم إلى كبير سياسة الفرنسيين والخديو فى قبول ذلك فقبلاه فرحل راضيا من الغنيمة بالإياب، ولم تك تهدأ القلوب بعد زوال أراجيف استقالة المراقب الفرنسي حتى شاع الخبر وذاع بحركة نجاشى الحبشة ورحقه بالجند الكثير على

حدود مصر وعقده النية على إضرار نار الحرب حتى يقضى ما فى نفسه فتحدث الناس به وخططوا وخبطوا كعادتهم حتى خيل لهم أن قد قامت القيامة وانتصب الميزان، وتحرير الخبر أن علاء الدين باشا العامل يومئذ على شرق السودان أرسل إلى ديوان الخديو يقول قد جاءت رسل نجاشى الحبشة وبينهم قسيس من قسوسهم اسمه ملاك برهان قبيروت ومعهم عشرة رجال آخرون خمسة منهم من أئمة الدين وترجمان اسمه يعقوب وعشرة من الأتباع الذين يحملون متاع الوفد فدفع إلى كبيرهم كتاب من النجاشى يقول فيه، باسم سيدنا يسوع المسيح كلمة الله الخ.

من الملك يوحنا ملك صهيون نجاشى الحبشة وملك ملوكها إلى حضرة المحب المكنون علاء الدين باشا.

تخبركم أننا بنعمة سيدنا يسوع المسيح نحن وجميع عسكرنا ورجال مملكتنا حائزين كمال الصحة والعافية ممتعون بالراحة الوافية ونود استمرار العلاقات بيننا وبين حكومة مصر ونحب تثبيت أحسن الصلات الودية وأنه مرسل لكم يامحبنا الباشا هدية وهى حصان من جياذ الخيل إشارة إلى التودد والمحبة والسلام. اهـ.

وكان مع ذلك الوفد أيضاً هدايا أخرى بعضها إلى بطرك القبط بديار مصر وبعضها إلى الخديو وهى عبارة عن عشرة من الفضة الموهبة بالذهب ونياشين من الذهب الخالص وثمان درقات وكمية من اللؤلؤ وزهات الألف وخمسمائة جنيه فرنسوى برسم القدس الشريف وكتاب إلى الخديو وكانت جميع رجال الوفد البيت المقدس ليلبشوا فيه ما شاء الله، فلما تحقق الخبر بقدماء أولئك الجيشان ومثولهم بين يدى الخديوى ثم نزولهم بدار البطركية القبطية بالقبيلة بطلت الأراجيف وزالت الهواجس واشتغل الناس بما سيكون من وراء ارفضاض مجلس نواب البلاد إذ ظهرت الإشاعة بقرب ارفضاضه ورجوع النواب إلى بلادهم وقد تناقلها أصحاب صحف الأخبار فما لبثت أن بلغت أصحاب الصحف الأجنبية حتى وردت صحفهم مشحونة بالتقبيح والتعيب والاستهزاء والسخرية بنواب البلاد وأصحاب زعامة الجند وقام بعض الأجانب الذين فى خدمة الحكومة يسخرون أيضاً بالنواب ويهزؤون بأعمالهم فكانوا إذا قابل أحدهم رفيقه فى طريقه أو فى مجتمع عام قال له عوض صباح الخير أو مساء الخير مثلاً، إننا نودع نواب الأمة الوطنيين - الوداع للنواب الوطنيين - وغير ذلك من عبارات السخرية والاستهزاء فحرك هذا كله ساكنات فى قلوب ضباط الجند فجعلوا يطوفون بالشوارع والطرقات ويكثرون من التطواف ملازمين مساكن الأجانب فانكمشوا وانكفوا عن الاجتماع فى المتديات والطرق العمومية وخافوا العاقبة فقام بعض أصحاب صحف الأخبار المحلية يهوتون الأمر

على أهل البلاد ويلاطفون ضباط الجند ويكثرون من الإطراء على النواب فكتب أحدهم في وداع النواب يقول: وداع يزيد النفوس وجندا، وبعد يفيد القلوب قربا، وانفصال لا يؤثر في المشارب إلا اتصالا، وأفتراق لا يوجب في المبادئ إلا اتحادا، وداع لنواب الأمة المصرية راحلين يوم السبت بما في قلوب الأحبة من الشاء والدعاء مشكورين ماجورين مرجواً عودهم بالمهابة والإجلال والتوفيق والإقبال إن شاء الله . اهـ.

فلما كان ثامن جمادى الأولى من السنة أى سنة تسع وتسعين فى نحو الساعة الخامسة العزبية صباحا قدم محمود باشا البارودى إلى مقر النواب يحمل مرسوم الخديو برفضاض المجلس فدخل عليهم وسلم ووقف بينهم موقف الخطيب، وقال: إن المدة القصيرة التى أقمتموها والأعمال الكثيرة التى نشرتموها تدل على شدة ميلكم إلى الإصلاح ورغبتكم فى تقدم الوطن العزيز، وحيث إن هذا اليوم هو اليوم المعين لأرفضاض المجلس بمقتضى لائحته الأساسية فقد أتيت بالأصالة عن نفسى وبالنسابة عن إخوانى لأشكر مساعيكم المحمودة وأرغب إليكم أن تشغلوا أفكاركم فى مدة الاستراحة بالمنافع العامة والمشروعات التى ستوضع فى العام القابل موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة، قال: وهذا هو الأمر الكريم الناسق بانفضاض المجلس على مقتضى القانون أقدمه لديكم والله المسئول فى توفيقنا جميعا لخدمة الوطن العزيز.

فأجابه محمد سلطان باشا رئيس النواب يقول: إنا نشكر للجناب الخديو المعظم عنايته باستنابة عطوفتكم فى ختم أعمال المجلس هذا العام ونسأل الله توفيقنا فى العام القابل لتتميم المقاصد الخيرية والمنافع العامة التى منع قصر الوقت فى هذا الاجتماع من إخراجها إلى عام الفعل كما نسأله أن يؤيد الاتحاد ويزيد تألف القلوب لتكون يدا واحدة وقلبا واحدا على خدمة هذا الوطن العزيز بما يحتاج إليه من الإصلاح آمين، فأمن النواب جميعاً على هذا القول ثم ودعهم البارودى وانصرف وقاموا هم من ساعتهم وساروا إلى مقر الخديو سراى عابدين لوداعه فقابلهم وخطبهم قائلاً: إن اجتهدكم فى خدمة الوطن وقيامكم بأداء حقوقه الواجبة قد صادف لدينا موقع القبول والاستحسان كما أثبت لكم الفضل وعلو الهمة وصدق العزيمة فى خدمة الأمة ولا ريب عندنا أنكم ستصرفون العناية فى مدة انفضاض المجلس إلى البحث عن طرق المنافع العمومية والمذاكرة فيما يوضع لديكم موضع النظر فى العام القابل لتأتوا إن شاء الله على ما فى نيتى من الإصلاح لوطننا العزيز

ورأى أستودعكم الله ضارعا إليه سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما يترتب عليه سعادة بلادنا وأن أحسن الحال يحسن المآل آمين، فرد عليه محمد سلطان باشا رئيسهم يقول أيد الله تأييد الجنب العظيم بعنايته ويحفظه برعايته وأن يسيقه للأمة والوطن فتحصل في ظله الأمانى وتكمل المنافع العمومية وتدوم قوم الاتحاد بين أركان البلاد ولها غرو في ذلك فإنه أدام الله مجده قد بسط للنواب يد المساعدة فيما انصرفت همتهم إليه من أوجه الإصلاح ومهد لهم جانب العناية في البداية والنهاية، ثم بعد ذلك قدم الموكب الخاص إلى الخديو المراسيم الصادرة للنواب باعتماد نيابتهم فسلم إلى كل منهم المرسوم الموجه إليه بيده فكان ما فيه .

قدوة الوجوه المعتمدين ، والأعيان المنتخبين حضرة فلان زيد إقباله إن من الأمور التى أثبتتها التجارب من سوائف الأزمان حتى صارت جلية عند ذى البصائر والأذهان ووصلت إلى درجة الاستغناء عن إقامة دليل وبرهان أساليب الأقوى فى تقدم الأمم والوسيلة العظمى لانتظام الأحوال على الوجه الأتم هو التشاور فى الأمور وتبادل الأفكار والمبادلة فى الآراء والأنظار ولا شك أن هذه هى أحسن المسالك والشرع الشريف يأمر بذلك فلذا تحررنا طريق الصواب واخترنا أن يكون لمصر مجلس نواب تبعث الأهالى أعضاءه بالانتخاب ويتبادل فيه آراء الأعضاء المرجوه فى مذاكرة ما يلزم من الأمور والقوانين والآن قد تم الانتخاب بالأهلية وعرض ذلك علينا فقبل بالقبول والاستحسان لدينا فأصدرنا إليك هذا الرقيم إعلاناً على شرف العضوية مدة خمس سنين فى ذلك المجلس الكريم فنرجو الله تعالى أن يجعل هذا المجلس باعثاً لحصول مقاصدنا وأوطارنا بتقدم أوطاننا وأقطارنا ووسيلة لانتظام أمورنا وأمصارنا وأن يكون سبباً لنوال الفلاح وكمال الإصلاح إنه ولى التوفيق . اهـ .

فانفض من عنده شاكرين وأولم لهم البارودى وليمة فاخرة فحذا حذوه بعض أعيان القاهرة ثم سافر من سافر منهم وبقي من بقي فكتب صاحب جريدة مصر هذه الأبيات مودعا لهم بها قال :

وَدَعَتْهُمْ وَبَنَفْسِي مِنْ مَأْثَرِهِمْ	أثار حمد أقامت بعد ما رحلوا
أكارم إن همو عن ناظري انفصلوا	فذكرهم أبداً بالفكر متصل
لهم منازل حب في القلوب فهم	بها مقيمون إن ساروا وإن نزلوا
فحبذاهم من قوم أمائل في	أمثالهم بالمعالي يضرب المثل
وحبذا القول ما قالوه عن رشد	وحبذا الفعل في الإصلاح ما فعلوا
ضنوا بأوطانهم وهي التي بذلوا	في حبها النفس نعم الجود والبخل

وكان الناس يظنون أنه بارتضاء هذا المجلس وانحلال عقد اجتماعه تبطل تلك القلائل المتابعة فتطمئن القلوب الواجفة وتسكن الخواطر الراجفة وتنكف أصحاب الزعامة عن اختلاف المشاكل والأراجيف، فيئتما هم على هذا الجانب من الظنون إذ قامت قيامة أصحاب الزعامة ورفعوا إلى الخديو فى خامس عشرى جمادى الأولى شكوى تتضمن أن عصاية سرية من جماعة الضباط الشراكسة الذين اختيروا لقتال مدعى المهودية بالسودان قامت للفتك بأحمد عرابى باشا وأنهم أعدوا له كميناً فى مفارق بعض الطرق لأخذه غيلة وجعلوا يبالغون ويهولون فكبر الأمر على الخديو ورسم بكشف الحقيقة، وبث أحمد عرابى باشا العيون حول جماعة الضباط الشراكسة وتبعهم الجند فقبضوا على خمسة منهم وألقوهم فى سجن قشلاق جند الحرس برجة عابدين وهبوا لتحقيق هذا الحادث مجلساً عسكرياً مؤلفاً من عشرين عضواً بينهم على بيك الروبى وعبد العال باشا أبو حشيش وانقسم هذا المجلس إلى قسمين أحدهما، لعمل النهار، والثانى: لعمل الليل وقبضوا على كثير من الشراكسة وألقوهم فى حبوس قشلاق عابدين وقبضوا كذلك على يوسف نجاتى بيك وآخرين معه فكانت عدتهم نيفاً وأربعين فاشتد الخوف بأصحاب البيوتات من جماعة الترك والشراكسة وأخذوا حذرهم فى الداخل والخارج فلما كان تاسع عشرى الشهر انعقد مجلسهم العسكرى بقصر النيل وجعل يسأل المتهمين، قالوا: فتحقق أن الذى هيا هذه العصاية هو راتب باشا سردار العسكر المصرى على عهد إسماعيل باشا فى بيت أحمد أفندى راشد أحد الضباط الشراكسة بجارة الرزنامة القديمة وكان ذلك على علم من محمد أفندى طلعت ويوسف نجاتى بيك ومحمد نيازى أفندى وأمين شكرى أفندى وسالم شوقى أفندى وعمر أفندى رحمى المعاوان بديوان الضابطة ومحمد شفيق أفندى ومحمد أفندى فؤاد الملازم بالمخالفات وأحمد فهيم أفندى وخليل حسنى أفندى ورشوان أفندى ونجيب أفندى المقيم مع شفيق أفندى وأحمد أفندى وصفى الملازم بالمخالفات قالوا: وتحالفت هذه العصاية على السيف والكتاب وجعلوا مقاصدها سرية لا يطلع عليها أحد من صغار الضباط حتى تتقوى عزائمهم وتطمئن قلوبهم ثم اجتمع معهم بعد قليل من الأيام محمود أفندى طلعت أخو راتب باشا وعقدوا مجلساً وأعلموا الصغار من جماعة الضباط الشراكسة بأن أول شىء يعمله رجال العصاية هو أنهم يرفعون إلى الخديو عريضة يطلبون فيها ردّ حقوقهم إليهم ورفع يد الاستعباد عنهم ولم يطلعوا أحد من أولئك الأصاغر يومئذ على سر المقصد

الإعدامى الذى تحالف عليه كبارهم فانضم إليهم كثير من الأصاغر ومالوا إلى تعضيدهم فبلغوا يومئذ زهاء المائة فكتبت أسماؤهم فى ورقة وأعطيت إلى أحمد أفندى راشد صاحب الدار.

واتفق أن قدم من الإسكندرية خليل أفندى حلمى أحد كبار العصاة فاجتمع عصاة منهم فأبلغهم أنه قد انضم إلى عصبتهم على باشا شريف ووعدهم بالمساعدة جهده؟ استطاعته إذا ظلوا على هذه الحال من الاتحاد قالوا وكأنهم قد أحسوا بما وراء اجتماعهم فى بيت أحمد أفندى راشد فتركوا الاجتماع فيه واستبدلوه ببيت عبد الله أفندى الكردى فانضم إليهم عندئذ حسن أفندى الكردى ورجب أفندى ناشد وتشاوروا فاستقر رأيهم على الاجتماع فى ليلة جمعة ليقيموا كلا من رجب أفندى ناشد وحسن أفندى حلمى وعبد الله أفندى الكردى رؤساء موكلين يدبر كل واحد منهم خمسين رجلا ويأخذ عليهم العهد وأن يكونوا روحا واحدة وجسدا واحدا وإذا مات أحدهم قاتل الكل على دمه حتى إذا اتسع نطاق العصاة ونجحت آمالها اختارت الرؤساء من أصحاب الرتب العلية؟؟ محمود بيك طاهر ومحمد بيك نجيب ومحمد بيك شوقى وهكذا كلما عظم أمرها واتسعت كلمتها فوُضعت الرئاسة إلى الأكبر من جماعة الشراكسة أو الترك واتفقوا جميعاً على أن مقام السيدة زينب ليتحالفوا ويجددوا يمين القسامة هناك ويظهروا ما أسروه من أسر عن بعضهم من قتل أحمد عرابى وكل من يناوئهم الشر أو يقف فى سبيلهم هذا فلما عرضت الرئاسة على عبد الله الكردى أباهما وقال إني أحسن يا قوم بانقباض فى صدرى واضطراب فى قلبى ورجفة فى جسمى من هذا الاجتماع وأخشى أن يكون وخيم العاقبة تتمكن العصاة من إنفاذ مقاصدها ويعظم شأنها فإذا تم لها الأمر وقامت على قدم والوثاق أتيت لها بخمسمائة من الباشبورق بمعاونة حسين بيك قراجول فأجابوه إلى ذلك حتى يبلغ مبادئ عصابتهم إلى بعض كبار الشراكسة ليكونوا لهم عوناً عند الحاجة فاجتمع بالقبض منهم وعاد فأجبر رجال العصاة بأنه لم ير من أولئك الكبار إلا غاية الجبن حتى انفصل عبد الله الكردى عن رجال العصاة لأسباب فكادت تنفشل وتنفرك كلمتهم ولولا رجب أفندى ناشد وحسن أفندى حلمى أدركاها بهمة منهما حيث جمعا أفراد العصاة الذين كانوا عقدوا جلستهم تلك فى بيت أحمد أفندى فهيم الكائن بالقوطية واتفقوا على أن يكون كل من انتظم فى سلك العصاة إلى مقام السيدة زينب ليطلعوه على السر المقصود بهم على إخراجهم

إلى حيز الفعل حتى لا تنفصم عقدتهم قبل إدراك مأربهم فلما انكشف أمرهم وعلم به بعض صغار الضباط الشراكسة ذهب أحدهم المدعو على رمزي وأخبر بعض أقارب أحمد عرابي وأفشى مكنون سرهم فهال أحمد عرابي الأمر ورسم فقبضوا على أكثرهم وتبعوهم حتى لم يبق منهم أحد خارج الجبوس، حدثني صاحب لي قال: عصابة الشراكسة وتناقله الناس حتى كثر تطواف الجند بالشوارع والحدارات وأخذوا يقبضون على المارة ويكبسون البيوت ويخرجون من فيها من صغار الضباط الشراكسة حاسري الرؤوس حافي الأقدام فيخرجونهم في الجبوس بقشلاق حرس الخديو برحبة عابدين والناس خلفهم يترامحون وهم في دهشة وحيرة فكنت لا أسمع في تلك البيوت إلا عويل النساء وبكاء البنين والبنات وتأوه الشيوخ وكان كل من أودع السجن منهم وكلوا به من يذيقه مر العذاب فكان الواحد منهم يقضى بياض يومه وسواد ليله واقفا على قدميه وأمامه الموكل به فإذا أغمض الجفن لكمه أو وخزه فيتبته وعيناه تذرفان الدمع فإذا خر على الأرض أو سقط مغشيا عليه من شدة التعب دهمه ذلك الموكل بالضرب واللكم المتتابع فيسترحم وليس من يرحم، قال وكانت حبوسهم مجردة عن كل ما يحتاج إليه المسجون كجرة للماء مثلا أو صحيفة للطعام أو حصيرة للرقاد أو مصباح للضوء وكان ضجيجهم لا ينقطع وعبراتهم متراصة. فآثر هذا الحال في الكثير من جند الحرس أثرا مؤلما فضجروا وكادوا يخرجون عن طاعة كبارهم فلم يتبته رجال المجلس العسكري إلا وجند الحرس على أهبة التخلي عنهم فتداركوا الأمر وعجلوا بالعقاب فجاروا وظلموا وأغمضوا جفن الطمان على وسادة الانتقام فلا حول ولا قوة إلا بالله، قلت: وطار خبر هذا الحادث إلى الآفاق فأرسل السلطان في خامس جمادى الآخرة إلى الخديوي يسأل عن ذلك وكتب أحد الشراكسة إلى إحدى صحف الأخبار الأجنبية يقول قد نزل آباؤنا بديار مصر من عهد ليس بقصير فكانت هي مسقط رؤوسنا وأرض نشأتنا وقد تربينا تحت سمائها وتلقينا من علومها وفنونها أشكالا فقمنا ببواجب شكرها وأخلصنا في خدمتها أعواما طوالا وبذلنا النفس والنفيس في تلبية داعي تقدمها ودافعنا عن مجدها باقتحام الحروب الروسية وتحشم الخطوب الهائلة الدموية فخدمناها خدمة الابن البار بأبويه ومازلنا على هذه الحال حتى وسوس شيطان الحسد في صدور أهل البغي والفساد فرموا بغضنا بالفجور والتألب على اغتيال النفوس التي حرم الله قتلها وقبضوا عليهم قبض الوحش على فريسته وكبلوهم في قيود الظلم وألقوا بهم في

حبوس الهوان وأذاقوهم مضض اللكم والوخز وأليم الأخذ والرد وحرموهم لذة الرقاد واحرقوا منهم الأكباد بنار الجوع كل ذلك بلا ذنب جنوه ولا خطأ ارتكبهوه فالله حسبنا ونعم الوكيل إلى أن قال: وحيث ضاقت بنا أرض هذه البلاد وقد أصبحنا مضغة في أفواه قوم لا يخشون يوم الميعاد فقد عزمنا على الرحيل إلى الدنيا واسعة الفضاء وقد عينا أنفسنا لخدمة أمير المؤمنين لا غير والسلام. اهـ.

فأعجب الناس بهذه المقالة وحنوا إلى جماعة الشراكسة وعابوا على زعماء عصابة الجند فعالهم، فلما كان حادى عشر جمادى الآخرة حكم المجلس العسكرى على هؤلاء الضباط بالنفى والتبديد المؤبد إلى أقاصى السودان وكانوا مائة وأربعين وبينهم عثمان رفقى باشا مع تجريدهم من كافة رتبهم العسكرية وامتيازاتهم ونياشينهم وأن يكونوا متفرقين فى أنحاء السودان بعيدين عن مراكز المدن والبنادر والسواحل النيلية وحكموا كذلك على اثنين من موظفى الحكومة بالنفى والتغريب مع تجريدهم من كافة حقوقهم المدنية وحكموا على راتب باشا السردار الذى عدّ زعيم هذه العصابة بالتجريد من رتبة العسكرية وامتيازاته ونياشينه وحرمانه من العود إلى ديار مصر بحيث إذا عاد إليها نفى منها على الصورة المذكورة وقال المجلس العسكرى فى حكمه أن الخديوى إسماعيل هو مسبب هذه الحركة العدوانية والباعث عليها مستعيناً فى بثها بالمرتبات التى تصرف إليه فى كل سنة من خزينة البلاد فقرر أن يكون للخديو توفيق ولهيئة الحكومة حق النظر فى قطع هذه المرتبات وإلغائها ورفعوا هذا الحكم للخديو ليرسم بتنفيذه وكان الذى رفعه هو محمود باشا البارودى، وقيل: على باشا الروبى والأول أصح فلما وقف الخديوى على ما فيه كبر عليه واستعظمه فراجع البارودى فلم يقبل فكلم فى ذلك أحمد عرابى فأظهر غاية الشدة وبالع فى الجفاء فجعل الخديوى يطاول ويحاول لعله يتمكن من استرضاء أصحاب الزعامة فلما أعياه الحال تجرد إلى تعديل الحكم فنقض فيه وأبرم واستبدل حكم التبديد إلى أقاصى السودان بالتبديد عن ديار مصر حيث يشاء المبعدون مع حفظ رتبهم ونياشينهم ولم يتعرض إلى مرتبات أبيه فلما برز الأمر من ديوانه على هذه الصورة كبر ظهوره على البارودى وأحمد عرابى وكادا يتميزان غيظا وراجعا الخديوى فأبى إلا ما رسم به فآلح عليه البارودى فامتنع وشدّد فى الامتناع فعظم عند ذلك الخلاف وكبرت الفتنة وتزاحمت أقدام أهل السعاية على أبواب الفريقين وانبثت العيون حول مقر الخديوى، قيل: وهدد البارودى الخديوى بالخلع فلم يلتفت الخديوى إلى ذلك

ولم يحتفل به ، حدثني أحد المقربين من البارودي ، قال : وتاقت نفس البارودي والنفس أمارة بالسوء إلى ارتقاء منصة الخديوية المصرية بعد استفحال أمر الخلاف بينه وبين توفيق باشا فجمع إليه جماعة من أهل التاريخ وكاشف بعضهم على ما فى نفسه وسألهم أن يأتوه بسلسلة نسبه فأتاه أحدهم بشجرة كثيرة الفروع ينتهى أصلها إلى السلطان الملك الأشرف طومان باى وقيل إلى السلطان الملك قانصوه الغورى فاشتد عند ذلك ظهره وكبرت آماله . اهـ .

قلت : ومع بحثى عن حقيقة هذا الخبر كنت أرى الناس فيه فريقين فريق يؤيده بالأدلة القاطعة وفريق ينكره ويقول إنه فرية على البارودي لا أنزل الله بها من سلطان وعندى أن قول الفريق الثانى أقرب إلى الصدق وأبعد عن الشماتة والخط من مقام البارودي ، قالوا وتجرد البارودي إلى العداوة فلم يطق الخديوى الصبر على ذلك وقد علم بما فى نفس البارودي فراسل السلطان فى أمره وأعلمه بخبره فورد إليه الجواب باستعمال الحزامة والتأنى والإتيان على سائر الأمور من أبوابها فاطمان عند ذلك الخديوى ورسم إلى جماعة الشراكسة بالخروج إلى حيث شاءوا فخرجوا جميعاً إلى دار السلطنة ولم يتخلف منهم أحد .

وسير البارودي إلى نواب البلاد يستحثهم على الحضور إلى القاهرة فحضروا جميعاً وانعقد مجلسهم بغير إجازة من الخديوى كما هى العادة فقص عليهم البارودي ما وقع من الخديوى وبالع فى الشكوى واستمسك عليه بأمور منها مؤامرة جماعة الشراكسة على قتل أحمد عرابى وتبديد الحرمة عائشة المعروفة بالكودية والغلام الحبشى الذى سرق بعض الجواهر من سراى عابدين وقيام إبراهيم أغا التنجى إلى الشام بأمورية سرية وإرسال ثابت باشا إلى دار السلطنة بغير موجب ولا سبب ظاهر وسعى الخديوى خلف إذهاب حقوق البلاد وتقليل امتيازاتها الممنوحة لها بالفرامانات السلطانية وغير ذلك من التهم التى ما أنزل الله بها من سلطان فأطال النواب اجتماعهم وتناجوا فى الأمر وجعلوا يقومون ويقعدون والحال على ما هو عليه من الوحشة والنفور بين الفريقين وأصبحت حادثة الجراكسة شغل البارودي الشاغل له عن حوادث السودان وخروج المهدي واتساع كلمته بين قبائل تلك الأصقاع وعجز رؤوف باشا عامل السودان عن إيقاف تيار الفتنة مع طلبه المدد وندائه المتواصل ولم تكن لتخفى يومئذ حقيقة الحال بتلك الديار عن الكثير من أهل القاهرة فقد وصل جماعة كثيرة من تجار السودان بعيالهم وأموالهم ومتاعهم وأخبروا بجميع

حوادث صاحب المهدوية وقصوا على الناس القصص والأنباء وحدثوا عن عجز رؤوف باشا وأصحابه وقالوا: إن نار الفتنة لم تضطرم إلا بيد سلاطين بيك أحد مديري ولايات الدارفور بما أعطاه إلى العريان من بنادق الحكومة وذخائر الحرب فكثرت تحدث الناس في ذلك وجعلوا يتبعون سير تلك الحوادث ويحسبون ما وراءها والله من وراء كل حساب، حدثني صاحب لى قال: حدثني من لا شك عندي في صدق حديثه قال: ما تعاقد كبير السياسة الإنجليزية مع الخديوى إسماعيل عام ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية على إبطال تجارة الرق من بلاد مصر والسودان حتى جعل يطالبه بالمطالب الطويلة ثم لم يلبث أن دس إليه الرقباء من قومه فساروا إلى أرض السودان وجعلوا يجوبون البلاد من أدناها إلى أقصاها ويبحثون في عادات أهلها. وطباعهم وأميالهم والاختلاف الواقع بين عادات بعض القبائل والأدواء الناجعة في استمالة أعصى القبائل وأشدّها بأساً ثم عمدوا إلى تخطيط الأرضى ومعرفة ما فيها من الدروب والمسالك والعقبات والمراكب ووقفوا على حقائق نباتها وأشجارها وتربة أرضها وأنواع حيواناتها وأحصوا قبائلها عدداً ولم يتركوا شيئاً تدعو إليه الحاجة إلا وأحصوه وكان ممن سير به من الإنجليز كبير من مقدمى جندهم اسمه غوردون فقدم إلى القاهرة ولبث أياماً لم يفارق فيها باب الخديوى إسماعيل ثم رحل إلى السودان باسم مراقب منع الاتجار فى الرقيق فلم يلبث أن صار حاكم شرقى السودان وخط الاستواء ثم سواحل البحر الأحمر ثم حكمدار جميع أرض السودان وخط الاستواء وأطلق الخديوى له الكلمة وأعطاه رتبة الباشوية وأتحفه بنياشين الشرف فعظمت هيئته وعلت كلمته ونزع إلى قلب الكثير من عادات تلك البلاد وأبطل بعض المغارم والمكوس ورفع ما تأخر من الأموال الأميرية عن مشايخ القبائل ولبث فى خرطوم السودان يأمر وينهى ويعطى من يشاء ويحرم من يشاء بلا راد ولا ممانع فترج فى أيامه إلى أرض السودان كثير من الأجانب وأهل التجارة فراجت تجارتها وكثرت ثروتها ودرت أرزاقها وكان ممن سارت به مطية الأمل إلى تلك الأصقاع أيضاً رجل اسمه سلاطين قيل: أنه تمساوى الجنس، وقيل: إيطالى، والأول أصح وقيل: أن الخديوى إسماعيل هو الذى سير به إلى السودان فى خدمة وإليها إسماعيل أيوب باشا فلبث فيها يتقلب فى المناصب الديوانية ويترفع إلى درجات الحكام والمديرين حتى قبض الله له من ولاه ولاية صغيرة من أعمال الدارفور فنشط عند ذلك من عقال وهب من خمول وأخذت كلمته من هذا الحين فى الظهور فلما تولى السودان

غوردون الإنجليز تقرب سلاطين هذا منه وأخلص في خدمته وأجهد النفس في طاعته، قال: وخلع غوردون نفسه من ولاية أرض السودان بعد بضع سنين ورجع إلى بلاده وهم أعلم من وطىء هذه الأرض بعبادات أهلها وطباعهم وأميالهم وعاداتهم من قبائل العربان وقد بدأت في أيامه تدب روح الحرية في صدور كبار أشد القبائل بأسا وأعظمهم شهرة ولم يمض بعد ذلك غير القليل حتى ظهر رجل من الأبيض الدارفور اسمه محمد أحمد فادعى المهدوية وتظاهر بمظاهر النساك وتزيا يزي الصالحين واتخذ له خلوة ورباطا وجمع إليه جماعة من أهل الجبال سماهم دراويش وأكثر هو وإياهم من مظاهر التقشف والتعبد والزهد والورع فشاع بين العربان خبره وظهر اسمه واشتهر ذكره ومال إليه كثير منهم فهادوه بالهدايا من الأدرّة والدخن والبقر والضأن وتقربوا منه ولازم بعضهم رباطه فكان يقص عليهم قصص الأبرار ويحدثهم بأخبار الصالحين ويحذرهم من قرب الساعة ودنوا لأجل ويقول إذا عم دين الإسلام واتحدت كلمة المؤمنين على يديه قامت الساعة وانتصب الميزان وحكم الحاكم الديان وما زال على هذا الحال حتى عم خبره وبلغت الآفاق شهرته وتجاوزت بلاد الدارفور فبلغ عدد من لازم خدمته ولاذ إلى رباطه نيفا ومائتين وأربعين درويشا وبدت على عهد رؤوف باشا معظم الخروج وتحزب بعض قبائل العربان وكادت تشق عصا طاعة أصحاب الجباية وامتنعوا من دفع الخراج فرفع أصحاب الجباية الأمر إلى رؤوف باشا وأخبروه بخبر هؤلاء القوم فلم يلتفت إلى ذلك ولم يحفل به فتورك من هذا الحين محمد أحمد في تخت المهدوية آمنا مطمئنا وجعل يبعث الدعاة إلى بلاد الدارفور يدعون الخلق إلى طاعته ويستميلونهم إلى طريقته ويستنجدهم إلى نجاته واستخلاص البلاد من أيدي الكفرة المارقين فمال إليه ناس كثيرون جدا من أهل تلك الأصقاع وتبعه آخرون ممن تبعوا غوردون الإنجليز من قبل وواصلوا رباطة بالهدايا والتحف وصاروا يجعون إليه في أيام معلومة من كل شهر ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة فأوعز أصحاب الحل والعقد إلى رؤوف باشا بتدارك الخطب قبل استفحاله وأن سعين هيئة الحكومة بأصح الأخبار فأرسل رؤوف نفرا من الجنود لا يبلغون المائتين وضابطين من صغار الضباط إلى مقر صاحب المهدوية ورسم لهم بقتاله وأن يأتوا به حيا صحيحا فلما كانوا على مقربة من رباطه انقض عليهم دراويشه فمزقوهم كل ممزق وسدوا عليهم المسالك وأبدوهم حتى لم يبق منهم سوى ضابط ورجلين قد ولوا الأدبار وركنوا إلى الفرار فاخبروا بما حل

بأصحابهم، قال المحدث، فلم يحرك هذا الحادث من قلب رؤوف ساكنا ولم يتبين له همة حيث جهز للقتال ثانية جماعة من الجند لا يزيدون عن الذين ماتوا وشدد عليهم فى الإتيان بمحمد أحمد حيا وكان المهدي بعد أن ظفر أصحابه بجند رؤوف وسلبوا ما كان من ذخيرة ومتاع قد ترفع بهم إلى الجبال وسير فى طلب النجدة من بعض القبائل فاجتمع لنجده كثير من السود الأبطال وخرجوا للقاء أصحاب الوالى ودارت بين الفريقين رحى الحرب والقتال فظفرت لموم صاحب المهودية وانتصرت على أصحاب الوالى نصره مؤزرة وأبادوهم بحد السيف وشاع الخبر بين قبائل العربان القريبة من مقر المهدي فهابوه وخشوا بأسه وآمنوا بمهديته وقاموا فى الحال لنصرته وتواردت على رباطه الهدايا وكثرت عنده المؤن فأحبه أصحابه وأخلصوا له الخدمة وبالغوا فى طاعته فوقع الوالى فى الخبال وبلبلة البلبال وكتب إلى حكام الدارفور يستفزههم إلى إيقاف تيار هاته الفتنة فكان أول من لب نداءه سلاطين بيك حيث جمع نفرا من العربان وقلدهم بنادق الحكومة وجهزهم بمعدات الحرب وسير بهم إلى القتال فكان كغراب نوح عليه السلام يوم استقر به الفلك وكانت هذه الضربة من أشد الضربات على هامة الحكومة حيث تقوّت بقوم سلاطين ومعدات حربهم عزيمة صاحب المهودية وكبرت شهرته وكادت تعم دعوته سائر البلاد وهان لديه من هذا الحين كل رخيص وغال فنهى وأمر وجمع وأدّخر وغلب وقهر وفاز وانتصر ورتب قومه على أحسن ترتيب وسمى منهم أمراء الجيوش وكبار المئات والأمناء على بيت مال المسلمين وبالغ فى التظاهر بمظاهر الأولياء والصالحين بل الأنبياء المقربين وسن لأصحابه سنة جديدة فكانوا كلهم على قلب رجل واحد يأتمرون بأمره ويقومون عند إشارته، قال محدثي: كل هذا ورؤوف باشا كان كمن ضرب على سمعه وبصره، ثم تنهد وأطرق لخطه ثم رفع رأسه وقال: ولسوف يأتى يوم ترى فيه النفوس تفتك بالنفوس والرؤس مختلطة بالرؤوس يوم تنطبق فيه السنايك على السنايك وتلتقى البنادق بالبنادق والألوف تفتك بالألوف والسيوف تخابط السيوف فالله الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، قلت وكأن رؤوف باشا خشى عاقبة إخفاء الحقائق فجاء منه الخبر إلى أولى الأمر مفصلا بما هنالك من اشتداد الفتنة وخروج الكثير من بلاد الدارفور عن الطاعة فسيروا إليه المدد من القاهرة من جند وكراع وكتبوا إليه يقبحون فعالة ويتوعدونه بالعقاب الشديد وجعلوا يواصلون إرسال المؤن والذخيرة ويراقبون سير الحوادث فلما رأوا أن لا قبل له على إطفاء نار

هذه الفتنة خلعه من منصب الولاية وأقاموا مكانه عبد القادر باشا أحد كبار الجنود على أيام الخديو إسماعيل فسار إلى الخرطوم في نفر من الأتباع ففرح الناس بولايته واستبشروا.

وبينما الناس في شغل بسبب حوادث أرض السود واستفحال أمر الفتنة وما يفعل به أصحاب المهدي في كل يوم من القتل والنهب وسبي النساء والأطفال رفع قونصلا الإنجليز والفرنسيين في حادي عشر جمادى الآخرة إلى الخديوى لائحة تتضمن وجوب إيقاف زعماء العصاة ونواب البلاد عند حدّ عدم مس العهود الدولية المرتبطة بها الحكومة المصرية والإقلاع عن كل ما من شأنه إثارة الخواطر ووقوع القلاقل والاضطرابات وإلا وجب التداخل القوى وإيقاف كل عند حده فاستقدم الخديوى عند ذلك البارودي وأعطاه تلك اللائحة فكبر أمرها عليه وعلى سائر أصحابه واستعظموا ما فيها وعدوه عارا وشارا وجعلوا يولون الاجتماع بنواب البلاد حتى تقررّت القاعدة بينهم على أن يرسلوا بصورة من تلك اللائحة إلى الباب العالي ويسألون سرعة التداخل في الأمر ومنع تعدى الدولتين على حقوق البلاد واختاروا من بينهم من يذهب إلى الخديوى ويحذره من التكلم في أمر تلك اللائحة مع القونصلين حتى يرد الإذن من أمير المؤمنين، واشتد من هذا الحين بغض أهل البلاد الأجانب على اختلافهم فتقدم قناصل الدول إلى البارودي وأحمد عرابي في ذلك فهوّنّا عليهم الأمر وتكفلا بالأمن وعدم تكدير صفو الراحة فلم يطمئن مع ذلك للأجانب قلب ولم يكن لهم جأش ونزح الكثير منهم إلى أوطانهم فرارا مما كانوا يتوقعون وكثر اللغظ بقرب وصول مراكب حرب الدولتين إلى ثغر الإسكندرية تارة وبقياس مأمور من كبار رجال السلطنة العثمانية أخرى، وقد بلغت الوحشة بين الخديوى والبارودي حدها وتفاقم الشر بين الفريقين، فلما كان أحد الأيام أرسل الخديوى أحد رجال ديوانه إلى البارودي يقول له تخلى عن مسند الرئاسة واعتزلها وإلا أنزلناك عنها قهرا وكذلك قال لبقية الوزراء فعند ذلك عقدوا مجلسهم في بيت البارودي وتناجوا فيما بينهم ثم سيروا إليه يقولون إننا لا ننزل عن منصبنا ولو أكرهنا على ذلك وإننا نعتبر كل أمر يصدر في هذا الصدد بمثابة تهديد للأمن العام وتكدير لكأس الراحة فإذا قامت الفتنة بين أهل البلاد ولحق الإيذاء بالأجانب الدين بينا كان الخديوى مسئولاً عن جميع ما يحدث دون غيره قيل فكبر هذا الكلام على الخديوى حتى كاد يتميز غيظا فلما كان اليوم الثاني الذي هو خامس عشرى جمادى الآخرة انقطع البارودي وبقيّة النظار عن الذهاب إلى نظاراتهم واجتمع نواب البلاد في بيت

مقدمهم محمد سلطان باشا ولبثوا ساعة يتحدثون فى أمر انقطاع النظار ثم انتقلوا إلى بيت البارودى ولبثوا فيه طويلاً وجاءهم أيضاً بعض العلماء والمشايخ والوجهاء والأعيان وبعض قناصل الدول وتكلموا فى ذلك وأكثر قونصلا الإنجليز والفرنسيين الغدو والرواح بين مقر البارودى وسليطان باشا ثم جمع إليه البارودى سائر الوزراء ونواب البلاد وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وأغلقوا عليهم الأبواب وأوقفوا الحجاب قال بعض المتقربين إليهم: وتكلموا فى خلع الخديوى وتزيله وفيمن تصح ولايته من بعده كان أمره بيدهم أو روحه من عندهم وطال بينهم الجدال وكثر القيل والقال فكانوا إذا أتوا على أمر وهما بتنفيذه قام من بينهم من يفتحه ويحذرهم عاقبته فيرجعون عنه إلى غيره وما زالوا حتى أعياهم الحال وقلت منهم الحيل فصمموا على اعتزال سائر الأشغال وترك الأمور وشأنها ولقاء تبعة جميع ما يحدث من الخلل أو ما يقع من سفك الدماء والفتك بالأجانب والتزلزلة فى قلب البلاد على شخص الخديوى وأرسل البارودى فى الحال فى طلب محمد سلطان باشا فحضر معه بعض النواب فاعلمه بما وقع الاتفاق عليه وسأله أن يذهب إلى مقر الخديوى ويعلمه بالخبر وكان ذلك فى نحو الساعة العاشرة نهائياً فراجعته محمد سلطان باشا وكذلك فعل نواب البلاد وطال بينهم الأخذ والرد إلى الساعة الرابعة عربى ليلاً فقام محمد سلطان باشا وسار إلى مقر الخديوى ولبث عنده إلى الساعة السادسة ثم عاد إلى بيت البارودى واختلى معه إلى نحو الساعة الثامنة فكان بينهما من الحديث ما لم تصل إلينا معرفته إلى هذا الحين ثم انصرفوا جميعاً وباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جمع البارودى سائر الوزراء وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وبعض العلماء والمشايخ والأعيان والوجهاء وجعلوا يتكلمون فيما وقع عليه الاتفاق بالأمس فعملت أصواتهم وقامت بينهم الفوضىاء وتفرقت كلمتهم فأرسل البارودى يطلب محمد سلطان باشا فحضر معه جماعة من نواب البلاد فلم يستقر بهم المقام حتى دخل قونصلا الإنجليز والفرنسيين وطلبا من البارودى وأحمد عرابى أن يعطيا لهما كفالة على عدم التعرض لرعايا دولتيهما بسوء والذب عن أرواحهم وأموالهم عند ميسر الحاجة فأجابهما إلى ذلك ثم طفق البارودى يقص على القونصلين ما فعله الخديوى مما يعكس مشروعات الأمة ويصغر من قدر نواب البلاد وما وراء غايته من تعديل حكم المجلس العسكرى وتعظيمه لجماعة الضباط الشراكة وإرساله ثابت باشا إلى دار السلطنة لدس الدسائس وإذهاب امتيازات البلاد فتكلم القونصلان مع البارودى

وأحمد عرابي ومحمد سلطان باشا طويلاً وأخذوا على عهديهما إزالة ما في الصدور وإذهاب ما علق في الخواطر وإرجاع الحالة إلى ما كانت عليه من المودة والصفاء، وقاما من ساعتها ودخلا على الخديو وكلماه، قيل: فشكى إليهما ما يلاقيه من البارودي وأصحابه فما زالا به حتى هوتا عليه وخففا عنه وزال بعض ما به من الغضب.

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرى جمادى الآخرة اجتمع محمد سلطان باشا ولفيف النواب وبعض العلماء والمشايخ والوجهاء بالبارودي وأصحابه في بيته الكائن بشارع عابدين وتكلموا في أمر الصلح وفي رجوع البارودي إلى معاطاة أشغال منصبه رحمة بالناس ودفعاً لشماتة الأعداء وظلوا على هذا الحال إلى أن صارت الساعة الثانية عربى ليلاً فقام محمد سلطان باشا ومعه جماعة من نواب البلاد وتقدموا إلى الخديو فى طلب العفو وحسم أسباب الشقاق فلم يقبل، وقال: لا بد من خلع البارودي من مسند الرئاسة فخرج محمد سلطان باشا ومن معه من النواب وعادوا إلى بيت البارودي وأخبروا بما جرى، فقال البارودي: تتخلى كلنا عن مناصبنا ونلقى تسعة ما يحصل من الأخطار على عاتق الخديوى وطال بينهم الكلام ساعة ثم عاد النواب إلى مقر الخديوى وتقدموا إليه فى قبول تنزيل البارودي فقط بشرط أن يتولى الرئاسة مصطفى باشا فهمى فأجابهم الخديوى إلى ذلك فساروا إلى مصطفى فهمى باشا وكلموه فى الأمر فامتنع وشدد فى الامتناع وقال لا أتولاها والحال على ما هو عليه من الشدة والخصام فعدت عند ذلك الأمور إلى ما كانت عليه بل زادت خبالاً وإشكالاً وتعطلت الأشغال ووقفت حركة المصالح واشتد الخوف بالناس وأخذتهم الطيرة وعجز محمد سلطان باشا أوكاد عن التوفيق بين مطالب الفريقين وكثر تطواف صغار الضباط فى الشوارع والحارات واثبت الجند فى أطراف القاهرة وأكثر صاحب شرطة المدينة من التطواف والمراقبة وبقي الحال هكذا إلى سابع عشرى جمادى الآخرة فجمع محمد سلطان باشا لفييف العلماء والوجهاء وجماعة من الكبراء والأعيان واشتوروا ثم سار نفر منهم إلى مقر الخديوى بسرأى عابدين وجعلوا يستعطفونه ويستميلونه إلى العفو عما فات وهو لا يلتفت إلى قولهم وما زالوا به حتى هان عليه الخطب ونسى أو كاذ ينسى ما فات وأجابهم إلى ما طلبوا وهم الكافلون فتكفلوا فرسم باستبقاء الوزراء فى مناصبهم فأصبحوا وقد جلسوا على كراسيهم يأمرن وينهون وطيروا الخبر إلى الآفاق بزوال الخلاف وعود الأمور

إلى سابق مجراها فسكنت الخواطر المضطربة واطمأنت القلوب الواجفة ولكن لم يمض على هذه الحال أيام حتى وفد على مدينة الإسكندرية مساء الجمعة غرة رجب الفرد مدرعة من مدرعات الحرب الإنجليزية ودخل كذلك فى صباح السبت ثانيه اثنتان إنجليزيتان وثلاث أفرنسيات فأطلقت المدافع سلاما للحصون فردت عليها الحصون السلام وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة ثم بعد أيام وردت عدة سفن أخرى كبيرة فاشتد الخوف بالأجانب ونزع الكثير منهم من الإسكندرية وكثر تحدث الناس فى أمر حضور هذه السفن العظيمة وكادت تقف حركة الأشغال بالإسكندرية، فلما كان سابع رجب المذكور رفع القنصلان إلى مقام الخديوى بلاغا نهائيا من جانب دولتى الإنجليز والفرنسيس يطلبان فيه أولا تنزيل الوزراء من مناصبهم ثم خروج أحمد عرابى من ديار مصر إلى حيث يشاء من أرض الله الواسعة الفضاء مع بقاء رتبة ومرتبته وحفظهما عليه وتباعد عبد العال مقدم الجند السودانى وعلى فهمى مقدم جند الحرس الخديوى إلى الأقاليم القبلية أو البحرية مع حفظ رتبهم وألقابهم على ما هى عليه فإن لم يتم ذلك بالتى هى وجب تنفيذه كرها فاستعظم البارودى ما فى هذا البلاغ واستكبره جدا فلم يجب عليه فسأله القونصلان، فقال: لا شأن للدول الأوروبية معنا فى مثل هذه الأحوال وإنما نحن تابعون لسلطان فإذا شئنا فيلخابرن سلطاننا وما ذلك عليهن يبعيد وزعم البارودى وأصحابه بأن الصلح كان خدعة من الخديوى حتى تأتية سفن حرب الدولتين فيفعل ما بدا له فكثرت اجتماعهم تارة فى بيت البارودى وأخرى فى قشلاق الحرس الخديوى وكثرت تطواف الجند فى الأزقة والحارات ليلا ونهارا وعاد محمد سلطان باشا إلى الوساطة بين الفريقين فلم يفلح ولم ينجح له عمل واشتدت الأزمة واستحكمت حلقاتها وتحذر كل فريق من الآخر ورأى البارودى أن فى خلعه لنفسه من منصب الرياسة غاية التبعة ونهاية المسؤولية على الخديوى أمام الدول الأجنبية فخلع نفسه فى ثامن رجب وتبعه فى ذلك بقية الوزراء فهاج عند ذلك ضباط الجند وماجوا واحتج البارودى ورفاقه على بلاغ الدولتين واشتد الهياج والاضطراب فأرسل الخديوى إلى الوزير محمد شريف باشا ورسم إليه بتشكيل هيئة وزارة أخرى فامتنع فأصر على الامتناع ولازم بيته فسار إليه قونصل الإنجليز وكلمه فى الأمر فلم يقبل فأراه خبرا واردا إليه من صاحب السياسة الإنجليزية وترجمته: بؤدنا لو يقبل شريف باشا رياسة الوزراء فتؤكدوا له أننا نعضده ونؤيده جهد الاستطاعة فقال لا لكم ولا للكرامة والله ما

توليبتها وهي على شفا جرف تتجاذبها الأهواء واشتد الخوف بالناس وسعى محمد سلطان باشا ونواب البلاد بين الفريقين فلم يفلحوا وذهب جماعة من ضباط الجند مع طلبة بيك عصمت إلى مقر الخديوى بسراى عابدين وكأنهم يريدون به السوء فرسم الخديوى يحضور الوزير محمد شريف باشا فحضر وانعقد مجلس حافل حضر فيه نواب البلاد والعلماء والأعيان والوجهاء فكلم الخديوى الوزير فى قبوله منصب الرئاسة وألح عليه فى ذلك وكذلك فعل النواب والعلماء والأعيان والوجهاء فقال أنولها بشرط تنفيذ ما فى لائحة الدولتين وخروج أحمد عرابى من البلاد فعند ذلك قام طلبة عصمت وقال إنا فى طاعة أولى الأمر ولكننا لا نقبل ما فى تلك اللائحة ولاحق للدولتين فى طلب ذلك منا إذ هى أمور خاصة بالخليفة أمير المؤمنين ثم قام من فوره مغضبا فتبعه من كان معه من الضباط وانفض مجلسهم على غير طائل .

وظهرت بعد خروج طلبة من مجلس الخديوى حركة عظيمة بين الجند وسائر الضباط وورد الخبر من الإسكندرية بأن الجنود المرابطين فيها امتنعوا من قبولهم رئيسا على ديوانهم غير أحمد عرابى وأنه إن مضى اثنا عشرة ساعة ولم يرجع إلى منصبه لا يكونون مسئولين عما يحصل بالإسكندرية فأزداد الحال إشكالا وخبالا وكبرت حجة الوزير محمد شريف باشا على عدم قبوله الرئاسة وكثر تطواف أحمد عرابى فى هذا اليوم أرسل إلى محمد سلطان باشا فى طلب سائر نواب البلاد فاجتمعوا فى بيت سلطان باشا وحضر أحمد عرابى فى نفر من الضباط والجند وأحاطوا بالبيت ومسكوا على من فيه المسالك ودخل أحمد عرابى فوقف فى وسطهم وعلى يساره محمد عبيد أحد ضباط جند الحرس الخديوى وخطب فيهم خطبة طويلة كلها حض على التعاضد والتعاون على خلع الخديوى ورفض سائر مقترحات الدولتين ثم طفق يقبح ما وقع من الخديوى ويعدد مساويه ومعاييه ومعايب أسلافه وما جلبوه على البلاد وأهلها من المظالم والمغارم وغير ذلك من أنواع البلايا والرزايا فما أتم خطابه حتى علت بينهم الضوضاء واشتد الهرج فصاح أحمد عرابى ما بالكم لا تسمعون وكأنكم خشب مسندة إن كنتم لا تنادون بخلعه فنحن قد خلعناه فصاح عند ذلك سائر العسكر الذين كانوا حول البيت قد خلعناه ثلاثا وكان ممن حضر فى مجلسهم تلك الليلة الشيخ البحراوى مفتى الحقانية فقام ورد على أحمد عرابى وكاد أن يوقفه فتقدم إليه محمد عبيد وصفعه وأمسك بفروجيته فمزقها فصاح الشيخ فى وجهه

وضاح جميع الحاضرين واستل محمد عبيد سيفه وأقسم أنه يقطع عنق سلطان باشا ومن لم يناد بخلع الخديوى من سائر الحاضرين الساعة فهرب أكثر النواب وألقى بعضهم نفسه من الشنايك وعلا الصراخ فى بيت نساء سلطان باشا ظنا منهم بأنه مات ذبحا وترامح الأتباع ليروا ما حل بساداتهم والجند تدفعهم عن الأبواب وما زالوا على هذه الحال من الجلبة والصياح إلى نحو الساعة السادسة ليلا فخرج أحمد عرابى ومن معه وهم يرددون ويزيدون كأن بهم مسا من الجن وعلم الخديوى بما جرى فى بيت محمد سلطان باشا فى تلك الليلة فأرسل إلى الباب العالى وديوان المايين الهمايونى يقول إن الجنود المصرية لم ترض عن تخلى الوزراء عن مناصبهم وأن مقدمى الجنود والوزراء أقاموا الحجة على لائحة الدولتين فأتى إليه الجواب بأن قد رسم جلالة الخليفة أمير المؤمنين بإرسال وفد ليرى فى الأمر وسيقدم عليكم بعد ثلاثة أيام فانتظروه وكان الخوف قد كبر بالناس فلم ير الخديوى بدا من استبقاء الوزراء فى مناصبهم فرسم بذلك حتى يأتى وقد السلطان فعاد أحمد عرابى إلى تعطى الأشغال وكتب إلى سائر قناصل الدول يطمئنهم ويضمن لهم تأييد الأمن وعدم مس أحد من أهالى البلاد والأجانب بسوء. وقال لهم بعد كلام أيضاً ولم تطلب العصاة الوطنية ونواب البلاد إلا أمورا ثلاثة، الأول منها إعادة لائحة الدولتين كما وردت مع خروج مراكب الحرب لتطمئن القلوب، وثانيها وضع قانون أساسى تبين فيه حدود كل العائلة الخديوية والوزراء، وثالثها قطع المخابرات والعلاقات مع دولتى الإنجليز والفرنسيين خصوصاً وسائر الدول عموماً لا بواسطة دار السلطنة العثمانية، وبلغ هذا الكلام الدول فأكبرته وأعظمته جدا وكتبت دلة، لة الإنجليز إلى قونصلها بمصر تقول إنها لا تألو جهد فى الذب عن مقام الخديوى والدفاع عن نفوذه ما استطاعت.

فلما كان عشرون من رجب دخل مينا الإسكندرية مركب سلطانية وفيها رجل من كبار الدولة اسمه المشير درويش باشا فنزل فى سراى رأس التين برهة لطيفة ثم ركب منها إلى محطة السكة الحديد وأمامه نفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وسافر إلى القاهرة فكان فى انتظاره على محطتها فريق من الجند ونفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وقد أعدوا لركوبه عربة من الأصطبل الخديوى فركبها وسارت الجنود أمامه وأصحاب الدولة خلفه فاجتمع عند ذلك الكثير من الحرافيش والسوقة وزعر باب الحديد البحر والأطراف وترامحوا أمام الجند وهم يضجون ويصيحون

يبيذى القول وفحش الكلام. وأحاط جماعة منهم بعربة المشير وهم يصيحون بأصوات مزعجة نصر الله دين الإسلام ؟ وهدم الله دين الكفار أناكم الموت ياكفار أناكم الموت بحرق النار وغير ذلك من عبارات السب واللعن وإشارات السخرية والاستهزاء ، قيل فسأل درويش باشا عن سبب ذلك قال إن هذه عادة العامة إذا فرحوا بقدوم ضيف عزيز لديارهم فلم يستحسن منهم ذلك وأشار فلم يفعلوا وما زالوا على هذه الحال من الضجيج والصياح والنداء بعضهم على بعض لإذاء المارة من الأجانب وأهل البلاد حتى وصل المشير إلى المكان الذى أعد له فوقف أمام يابه ساعة وهم على ما هم عليه من الصياح والجلبة ثم انصرفوا وبات الناس ليلتهم تلك ذلك وهم فى شاغل مما عساه أن يحدث بسبب حضور درويش باشا ولقائه على هذه الصورة المنكرة وأصبح درويش باشا وقد بدأ فى المكالمة مع أحمد عرابى وكبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية وعقد لذلك عدة مجالس فتكلموا فيها طويلاً وكانوا إذا أغلظوا فى القول مع أحمد عرابى وعابوا ما وقع من الوزراء ولا سيما منهم البارودى قال لاحق لكم ولا عتب ما دامت البلاد آمنة مطمئنة وها هى الفتنة قائمة على ساقها ومع ذلك لم يقع فى جوف البلاد والله الحمد ما يكدر صفو الراحة وطال الكلام بينهم أياماً على غير جدوى .

وكان مذ قدمت سفن حرب الدولتين إلى مدينة الإسكندرية قد أخذ الأجانب يفدون عليها أفواجاً وهم فرحون بها مطمئنون كأنهم لا يخشون بجوارها جائراً فكبر ذلك على العامة والسوقة من أهل الإسكندرية وحسبوه إهانة لهم وإذلالاً وظنوا أن الأجانب إنما يريدون بأهل البلاد الشر فأظهروا التغيظ وبدت منهم دلائل الشر وأغلظوا فى مخاطبة الأجانب فكان إذا كلم الواحد منهم أجنبياً هزله الرأس وأسبل الجفن توعدا وتهديدا فأحس الأجانب بما وراء ذلك وخافوا شر العاقبة فأخذوا فى التآهب والاستعداد وأكثروا من شراء البنادق والبارود واستخدم عظماءهم بعض الأقوياء من أسافل اليونان وزعر الطليان ، قيل : وشاوروا فى ذلك أميرى مراكب حرب الإنجليز والفرنسيس فوافقاهم عليه وأرسلوا رجلاً منهم إلى القناصل بالقاهرة ليسألهم فى ذلك أيضاً فلم يوافقوا عليه واشتد تحذر الفريقين وظهرت علامات الوحشة فقل تطواف الأجانب فى الليل وامتنع جلوسهم فى محلات اللهو وأغلق أصحاب الحوانيت منهم حوانيتهم فكانت وحشة عظيمة للغاية ، فلما كان يوم الأحد سادس عشرى رجب من السنة أى سنة تسع وتسعين هجرية وحادى عشر يونيو سنة

إحدى وثمانين وثمانمائة. وألف ميلادية بينما كان الأجانب خارجين عن بيوتهم قامت الغوغاء من أهل الإسكندرية وتجمعت زمرا وسارت أولا من الشارع المعروف بشارع إبراهيم وبأيديهم العصى والهراوى والمساوق وحطب الوقود وهم فى ضجة وجلبة عظيمتين ثم أتى جماعة منهم من شارع الضبطية وأخرى من سوق الطباخين وكأنهم كانوا على عهد واتفاق وأوقعوا بالأجانب ضربا وقتلا فترامح الناس إلى الحوانيت والبيوت وتسابق الأجانب يريدون الخلاص وأطلقت البنادق من منافذ البيوت على الغوغاء فكانوا إذا رأوا أجنبيا ترامحوا خلفه ونزلوا بالعصى والهراوى على أم رأسه حتى يسقط ميتا فيأخذون ما معه ويتركونه ويلحقون بغيره وقد أفحشوا فى القتل والسلب وتخريب الحوانيت ونهب ما فيها فكثر الصباح من أقصى المدينة إلى أقصاها واشتد البكاء والعيول وضاعت الأرض فى وجه الأجانب ولجأ بعضهم إلى بيت أصحاب الشرطة فرارا من الموت فلاقاهم أصحاب الشرطة الذين هم جند المستحفظه بسنابك البنادق فقتلوه عن آخرهم فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار وطافت الغوغاء جميع حارات الأجانب فكان إذا رأى الأجنبى نفرا من هؤلاء الأخلاط مقبلين نحوه امتقع لونه فى الحال وتخلخلت قدماء فإذا هم بالفرار فلا تطاوعه قدماء فيعدو عدو الغراب خطوات ثم ينكب على وجهه فيلحقونه بضرب العصى والنباييت وربما وجدوه ميتا من شدة الخوف فكان ذلك من غرائب الطبيعة وقد جرح ومات فى ذلك اليوم خلق كثير وبينهم جماعة من كبار الأجانب ووجهائهم، وكان مقدم جند الإسكندرية يومئذ سليمان بيك داود فأرسل إليه عمر باشا لطفى محافظ المدينة فى طلب المدد من الجند ليستعين بهم على إيقاف تيار الفتنة وحقن الدماء وكان ضابط المدينة قد تمارض فى ذلك اليوم ولم يخرج من بيته فأرسل سليمان بيك يقول لا دخل لى فى شىء من ذلك حتى يأذن لى أحمد عرابى فطير عمر لطفى باشا الأخبار إلى القاهرة بما وقع فورد الأمر من أحمد عرابى بقيام الجند ومنع تلك الفظائع فتفرقت العساكر فى الشوارع وأخذوا فى التطواف فى نحو الساعة الحادية عشرة العربية نهارا وكانت إلى هذه الساعة قد تفرقت الغوغاء وتمزقت اللوم وطاف محافظ المدينة فى نفر من أصحاب الشرطة ومعاونى الضابطة وأمر فجمعوا ما بقى من جثث القتلى بالشوارع والطرق وجوار حمام الضابطة فكانوا نيفا وثلاثمائة قتيل، وقيل: غير ذلك ونادوا بالأمان وعود الناس إلى تعطى أشغالهم وما زال الجند يطوفون الليل كله وبكاء النساء وصياح الأبناء على آبائهم متتابع، فكانت

حادثة يالها من حادثة لم يسبق لها مثيل إلا فى دولة المماليك الثانية وقيام العامة على نابليون بالقاهرة، ولما علم من بمصر والقاهرة بما وقع بالإسكندرية قامت بينهم ضجة عظيمة وتسابق كل من له أهل أو ولد بالإسكندرية إلى موارد الأخبار يسألون وعم الخوف والإضراب وياتوا وهم فى كمد ملازم وأصبحوا وقد اجتمع سائر قناصل الدول ودخلوا على المشير درويش باشا وكلموه فى الأمر وأغلظوا فى مخاطبته واتهموه بإضرار نار هذه الفتنة وعنفوه وقالوا أنت وحدك المسئول عن كل ما جرى إذ لولا حضورك فى هذه الظروف ما أريقَت هذه الدماء الزكية ونحن اليوم نطلب منك أن تكفل صيانة أرواح جميع الأجانب الذين فى داخل البلاد، قيل: فاضطراب المشير وأشار بعقد مجلس فى سراى عابدين للمداولة فى الأمر فعقدوه وحضر فيه الخديوى ودرويش باشا ومن معه من رجال الوفد العثمانى والوزير محمد شريف باشا وكبار رجال الحكومة وسائر قناصل الدول فتقررت القاعدة بينهم بعد أخذ وردّ على التكفل لقناصل الدول بحفظ أرواح وأموال سائر الأجانب ونزلاء البلاد منهم بشرط امتثال أحمد عرابى وطاعته وقيامه بتنفيذ كل ما يصدر إليه متعلقا بالامن فأجابهم أحمد عرابى إلى ذلك وتكفل لهم درويش باشا بجميع ما طلبوه وبملاحظة طاعة الخديوى والقيام بجميع أوامره فانفض مجلسهم يومئذ على ذلك وقام أحمد عرابى من فوره وأرسل إلى سائر المديرين والمحافظين بمنع اجتماعات الجند أينما كانوا وكتب إلى سليمان بيك داود مقدم جند الإسكندرية يستحثه إلى الالتفات ومنع وقوع شىء من الحوادث والقلال وبذل العناية فى ملازمة جند الإسكندرية لحدود الطاعة والامتثال.

ورسم الخديوى بتحقيق أسباب هذه المذبحة ومحاكمة كل من كان له يد فيها وشكل لذلك مجلس مخصوص يرأسه عمر لطفى باشا محافظ الإسكندرية فاجتمع المجلس فى دار المحافظة وبينهم مندوبو قناصل الدول وقد كثر فى هذا الحين رحيل الأجانب عن الإسكندرية وحضورهم من داخل البلاد عشرات ومئات إلى السواحل طلبا للفرار والنجاة وكثر تواردهم حتى لم يبق منهم أحد فى المدن والقرى ونزح أيضاً العدد العديد ممن كان منهم بالقاهرة وقام الخديوى إلى الإسكندرية فى سادس عشرى رجب ومعه درويش باشا ورجال ديوانه الخاص فلما نزل بمقره برأس التين استدعى إليه قناصل الدول وحادثهم فى أمر الفتنة وطيب نفوسهم وكلمهم كذلك درويش باشا وهونّ عليهم وبقي قونصلا الإنجليز والفرنسيين بالقاهرة ولم يحضرا

مع الخديوى إلى الإسكندرية إلا بإجازة من حكومتيهما بعد أيام فلما قدما إلى الإسكندرية أوعزا إلى سائر قناصل الدول بالتشديد عن رعاياهم بالجلء عن البلاد ففعلوا فاشتد الخوف بالناس ونزل من بقى من الأجانب إلى السفن الراسية أمام الإسكندرية وطلب قناصل الدول من دولهم سفنا لنقل رعاياها فجاءتهم فسكنها الناس بدل البيوت فرارا مما عساه أن يقع .

حدثنى صاحب لى كان لا يفارق باب الخديوى فى هذه الأيام قال : دخل المراقب الإنجليزى يوما على الخديوى وقال له : هل يمكن الاعتماد على ما يقوله المشير درويش باشا من طاعة الضباط وأمانة العسكر المصرى فى الخدمة عند ميسس الحاجة ، قال فتأفف الخديوى وقال : أنى يكون لنا ذلك ولم نر منهم إلى الآن إلا العسف على أنى أخشى العاقبة ولا أرى سبيلا لتوطيد الأمن فى هذه الظروف إلا باستنجد أمير المؤمنين فيرسل إلينا فريقا من عسكره المنصور يذب عن البلاد ومن فيها عند ميسس الحاجة ولم أر فى سفارة المشير درويش باشا ما كنت أتمناه من الفلاح فقد خابت سعيها وباتت وأصبحت وكأنها لم تكن شيئا مذكورا ، وشاعت هذه الأقوال بين الناس وعلم بها قناصل الدول فتقدموا إلى الخديوى فى خلع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى عسى أن تفلح فى تدارك الخطر قبل استفحاله فأجابهم إلى ذلك وقد كانت حاجة فى نفسه ، ورسم بتشكيل وزارة جديدة برئاسة إسماعيل راغب باشا وهو من كبار رجال الحكومة القدماء وأنزل أحمد عرابى باشا نفسه من منصبه وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فاستغرب الناس هذا الأمر وكثر تحدّثهم به فلما استقرت براغب باشا الرئاسة تقدم إلى الخديوى فى طلب العفو عن جميع من اشتركوا فى الحوادث الأخيرة إلا من كان لهم يد فى مذبحة الإسكندرية وقال للخديوى : إنما نريد بذلك تطيبب القلوب المتنافرة فيعود الأمن وتزول المخاوف وترجع الأحوال إلى سابق مجراها فأجابه الخديوى إلى ذلك ثم جعل راغب باشا يشدد فى تحقيق حادثة الإسكندرية ويقبض على كل من كان له يد فيها وبث العيون والجواسيس وأصحاب الشرطة فى أنحاء البلاد فجاءوا بالكثير من السوق والغوغاء والحمارين والشيالين وأهل البطالة والكسل وبعض مشايخ الحارات ومشايخ الطرق وجماعة من أصحاب الشرطة فأمر بهم فألقوهم فى حبوس الإسكندرية حتى غصت بهم وضائق وجعل الخديوى يطوف فى نفر من الحراس فى شوارع المدينة وأرجائها

تطمينا للقلوب وتسكينا للخواطر المضطربة وكذلك كان يفعل درويش باشا ومن معه من رجال الوفد ومع ذلك فقد كان جلاء الأجانب عن البلاد متتابعاً.

وتقدمت الدول الأوروبية على يد سفرائها إلى الباب العالي فى عقد مؤتمر دولى بدار السلطنة للبحث فى ألمجيع الأدواء الحاسمة لأسباب الفتنة بديار مصر وإيقاف أهلها عند حدهم وشددوا على الباب العالي فى طلب ذلك فامتنع وقال ليس فى الأمر والأنباء متواصلة من درويش باشا باستتباب الأمن ورجوع سائر الأمور إلى مقدر ما كانت عليه فأبى كبار سياسة الإنجليز إلا عقد ذلك المؤتمر والباب العالي يطاول ويحاول ثم استعان بدول روسيا وألمانيا وإيطاليا فأعانوه وقاموا لنصرته خوفاً من مطامع الإنجليز فى مصر دولة الإنجليز منهم ذلك وكتبت تقول أنها تتعهد متى تم عقد ذلك المؤتمر لا تعمل قط على فصم عرى الصداقة التى بينها وبين الباب العالي ولا تعمل على أراضيه إلى جانب أملاكها ولا أن تستولى على مصر ولا على قسم منها ولا أن تسعى قط فى الحصول على شىء من الامتيازات السياسية أو التجارية ما لم يشاركها فى ذلك بقية الدول فانحازت لرأيها عند ذلك سائر الدول وانفرد الباب العالي فأصر على الامتناع فتشذدت الدول وعقدت المؤتمر فى قسطنطينية فى ستايح شعبان من السنة أى سنة تسع وتسعين ولم يحضره أحد من جانب الباب العالي فتقررت القاعدة بينهم على أن الحكومة وكلاؤها بالنيابة عنها على هذا البروتوكول (يعنى المحضر السياسى) تتعهد قط اغتنام أرض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا أن يكون لرعاياها من يكون لغيرها من رعايا الدول الأخرى فى مصر وذلك فى جميع المسائل التى عليها بسعيها واشتراكها فى المخبرات لترتيب وضبط أمور البلاد المذكورة الإنجليز من هذا اليوم يعدون المعدات ويجهزون الجنود ويجعلون سفن حربهم قدم الاستعداد ثم دعوا بقية الدول إلى الاشتراك معهم فى عمل يكون من ورائه الفتنة ووقوفهم عند حد الطاعة أو أنهم يسرون معا إلى الإسكندرية والعساكر لإرجاع الأمن والراحة إلى تلك البلاد فأحست الدول بما وراء ذلك لأسباب لم تصل إليها معرفتنا لغاية الآن، فلما رأت منهن هذا الإحجام قونصلها بمصر وهو المستر مالت فتمارض ونزل إلى إحدى سفن الحرب الإنجليزية أمام الإسكندرية ولبث بها أياما والناس يتسنائون عن سبب ذلك ثم شاع الخبر إلى برندزى إحدى موانى البحر الأبيض فتحدث الناس به كثيرا وأخذتهم الطيرة فى هذا الحين على هذه الصورة هو بمثابة إشهار الحرب على البلاد وإطلاق النار على حصون

الإسكندرية ، وبينما كان مالت قونصل جنرال الإنجليز بعيدا عن منزوليا فى برندزى كان لم يبق بين دولته وديار مصر علاقة كان دوفرين سفير السلطنة يقرر بالباب العالى ويزين لرجال المابين استرضاء أحمد عرابى نياشين الاعتبار وما زال بهم حتى أفلح سعيه فأحسن السلطان على أحمد عرابى المجيدى الثانى وسير الخبر بذلك إلى القاهرة ففرح أحمد عرابى وأصحابه وظنوا أن رضاء السلطان وارتياحه إلى ما هم عليه من مخالفة الخديوى والدولتين ولم يعلموا الخطر القريب وتناقل أصحاب الصحف المحلية خبر هذا الإنعام وفصلوا فيه وقاسوا وخاطبوا فنقله أصحاب الصحف الإنجليزية ونادوا بالويل والثبور وقالوا أنه لبرهان جديد على عداء السلطان لسيدة البحار ودولة العظمة والفخار وعمر كبار سياستهم على إحباط أعمال المؤتمر الدولى وتقدموا إلى بقية الدول فى رفع لائحة إلى الباب العالى يطلبون فيها إما أن يسير جنوده إلى مصر لإخماد نار الفتنة وإرجاع الأمور إلى سابق مجراها وإما أن يترك الدول ترى رأيها فى ذلك فامتنع الباب العالى وقال لا داعى لإرسال الجنود والبلاد آمنة مطمئنة فأعجب الإنجليز امتناعه ووافق ما فى نفوسهم وقد كانوا يخشون من ذهاب عسكر السلطان إلى مصر ويحسبون لذلك ألف حساب وأوعزوا فى الحال إلى أمير سفن حربهم الراسية أمام الإسكندرية أن يتتخل أقل العلل والأسباب العدائية ويطلق على الفور مدافعه على حصون الإسكندرية حتى يدكها دكا وكان أحمد عرابى قد قدم من القاهرة إلى الإسكندرية فى حاشيته وبعض الخدم ومعه بعض كبار الجند المقرّبين إليه فاستقرّوا بالترسخانة وكان فى حصون الإسكندرية تسعة آلاف مقاتل فكتب سيمور أمير تلك السفن إلى أحمد عرابى يقول أن الجنود المصرية آخذة فى تحصين سائر القلاع وإلقاء الأحجار الكبيرة فى مدخل المينا ليسدوه ويمنعوا المدد فينحصر الأسطول وأن فى تحصين الحصون وتقوية الاستحكامات مع وقوف سفن دولة الإنجليز أمامها عارا وتحقيرا فإن لم تنكف الجنود عن ذلك أطلقت عليها مدافعى وأصلها نارا حامية ، وكان طلبة عصمت أحد أصحاب الزعامة هو المتولى أمر ذلك فكتب إلى أمير السفن يقول ليس فى الأمر شيء مما تقول وأن حصوننا وقلاعنا هى فى حالة لا تستدعى عملا ما فعاود سيمور الكلام وأغلظ فى القول وقال: لابد من جلاء العساكر المصرية عن طابئى الأنفوشى والبرج واحتلال الجنود الإنجليزية لهما فلم يجبه طلبة إلى ذلك أيضاً فجعل سيمور يهدد عساكر الحصون ليلا بأنوار الكهرباء التى كانت تنبعث من مراكب الحرب على الحصون فتخطف

الأبصار وتهتز لها القلوب وشاع خبر ذلك بين الناس فاشتد بهم الخوف وكثر جلاؤهم عن الإسكندرية إلى القرى والأرياف البعيدة وكثر تطواف أحمد عرابي في الشوارع والطرق وخلفه جماعة من الجند يحملون البنادق وأرسل سيمور إلى الخديوى على يدى كولفن مراقب الإنجليز يقول له: أترك المدينة وأنزل إلى إحدى السفن كي لا يصيبك شيء مما عسى أن يحصل بأسباب ضرب القلاع والحصون فلم يقبل، وقال: عار على أن أترك المدينة وفيها العدد العديد من رعاياي المخلصين فألح عليه كولفن فامتنع وقال: لا يحل لى أن أتركهم فى وقت الشدة ولا يجمل أن أترك بلادى فى ساعة الضيق، وتداخل قناصل الدول فى الأمر وسعوا فى الصلح بين سيمور البحر وعرابى البر فلم يفلحوا وكان سيمور يأتيهم فى كل يوم بطلب جديد فإذا امتنع عرابي من تنفيذه جاءه بأشد منه فكتب أحمد عرابي محضرا بجميع ما يطلبه سيمور ووسمه بالعداء والفجور وقال عن سيمور: أنه مثال الظلم والعداء للبلاد وأهلها وأنه أهان المصريين واحتقرهم ولم يراع للهيئة الحاكمة حرمة ولا اعتبار ولذلك وجبت مقاومته جهد الاستطاعة وأنه قد فوض أمر الدفاع عن البلاد إلى أحمد عرابي ومن معه من كبار الجند المصرى ثم أخذ ورقة هذا المحضر جماعة من أصحاب الزعامة وطافوا بها على بيوت الوزراء فوضعوا عليها أسماءهم قيل ودخلوا بها على الخديوى أيضاً فلم ير بدا من التوقيع عليها ثم أرسلوا هذه الورقة إلى سيمور البحر وسير فى الحال أحمد عرابي إلى سائر المديرين والمحافظين يعلمهم بأن يكونوا من الآن على قدم الاستعداد لإرسال المدد من المال والرجال عند الطلب وأكثر من تطوافه على القلاع والحصون وترتيب الذخيرة ومعدات الحرب فلما كان يوم الأحد ثانى عشرى شعبان جاء رسول من قبل سيمور ودخل على الخديوى بمقره برأس التين، وقال: إن الأمير على عزم إطلاق المدافع على الحصون فى صبح الثلاثاء رابع عشرى الشهر وقد جئت أسألكم أن تتسقلوا من سراى رأس التين إلى سراى الرمل تحموا مما عساه أن يحصل من رمى القنابل ثم تركه ودخل على المشير درويش باشا وناولته خطاباً يقول فيه: إنك أنت المطالب بحياة الخديوى وعليك تبعة جميع ما يحصل لشخصه فأحذر العاقبة والسلام، وفى صبح الثالث والعشرين من شعبان أرسل إلى راغب باشا رئيس الوزراء ودرويش باشا مندوب الباب مكتابة يقول فيها: حيث قد انسحب قونصلنا من الديار المصرية ولم يبق بها أحد الآن من وكلاء دولتنا فقد انقطعت بذلك العلاقات التى كانت بين حكومة جلالة ملكة الإنجليز

والخديوية المصرية ولم يبق بينهما من الوداد ما كان، فلما شاع هذا الكلام بين الناس خافوا خوفا عظيما وازداد جلاؤهم عن المدينة وشدد قناصل الدول على من تخلف من رعاياهم بسرعة الأرتحال أو النزول بالسفن الراسية أمام الإسكندرية واشتد الهرج والمرج فى الشوارع والطرق وأغلق فى ذلك اليوم ما بقى من حوانيت الأجانب وغيرها من حوانيت أهل البلد وهرع العامة إلى بابى رشيد وسدده فارتين إلى الريف وخرجت مراكب حرب الفرنسيس فى مساء ذلك اليوم راجعة فلم يبق منها سوى مركبين تحت طلب قونصل جنرال الفرنسيس فكان لخروجها دهشة عظيمة وكثر تساءل الناس عن سبب ذلك فاختلفت الأقوال فمن قائل: إن خروجها كان لخلاف وقع بين أميرى الأسطولين، ومن قائل: بل بين الدولتين، ومن قائل: لكره الفرنسيس لقتال المصريين وغير ذلك من الخدس والتخمين وقد عاب عقلاء الناس على الفرنسيس هذا الأمر وعدوه فلة من فلتات سياستهم المحفوفة بالطيش والخفة وقالوا: سوف يندم أصحاب سياسة الفرنسيس على ما فرط منهم فلا ينفعهم الندم واشتد قلق الناس وتحذروهم وامتناعهم من الخروج من دورهم فى الليل فكانت وحشة عظيمة للغاية.

ولما كانت الساعة الأولى من يوم الثلاثاء رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية أى صباح الحادى عشر من يوليو سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية صوب سيمور أفواه مدافع سفنه نحو الحصون والقلاع وأطلق عليها القنابل إطلاقا متتابعاً فاطلقت الحصون كذلك مدافعها وتتابع الرمى من الفريقين ووصلت قنابل السفن إلى القلاع والحصون والبيوت وضواحي المدينة فكانت أشكالا مختلفة بعضها عن بعض ففتكت بجند الحصون فتكا ذريعا ودكت بعض القلاع دكا فلما اشتد الرمى وكادت تتعطل مدافع الحصون خرجت الغوغاء من الحارات وانتشرت فى الأطراف واختلطت بالجنود وهم فى جلبة وصياح وتزاحموا على القلاع والحصون يريدون معاونه الجند فكان إذا هم الجند بتصويب مدفعه نحو سفن الإنجليز هللوا وصاحوا ونادوا يا أهل بيت رسول الله، يا شيخنا يا أباصيرى، ياسيدى يا قوت يا عرشى، وغير ذلك من أنواع النداء والصياح والجلبة وسار جماعة منهم وأمامهم أرباب الأشاير بالبيارق والطبول والكاسات حتى وقفوا على شاطئ البحر ناحية السيلة وصاروا يصيحون بأعلى أصواتهم بيا لطيف الله أكبر الله أكبر وهم يطوحون البيارق ويضربون الطبول والكاسات فرمت عليهم إحدى تلك السفن شيئا

من القنابل الصغيرة تباعا فمزقتهم وأهلكتهم عن آخرهم إلا من كان بعيدا واشتد الرمي من السفن وتراسل فاتصلت نيران إحدى القنابل بمخازن البارود الكائنة بقلعة آطة فالتهب البارود وانفجر انفجارا هائلا ودمر القلعة ودكها دكا وأهلك جميع من بها من الجنود والعمامة والضباط والتصقت لجوهم وما بقي من مشاشهم بجدران القلعة فكان لها منظر تنفطر من رؤيته القلوب وتفتت من هوله الأكباد وما زال الرمي متراسلا من السفن والحصون وأحمد عرابي لا يخرج من قلعة القضا ولا يعلم بشيء مما هو جار في غيرها من بقية القلاع، قيل: وكان لا هم له في ذلك الحين سوى تحريك شفتيه بتلاوة بعض الأوراد وتحريك أصبعيه على مسبحة كانت بيده، وكان راغب باشا رئيس مجلس الوزراء وبعض الوزراء عند باب رشيد فخرج الناس من المدينة هائمين على وجوههم من شدة رمي القنابل وفعلها بالقلاع والدور والوكائل ومروا من باب رشيد زمرا كالإبل الآبقة، فلما كان وقت الظهيرة بطلت مدافع الحصون وسكنت أصواتها وظهر على ما بقي من القلاع رايات بيضاء إشارة إلى الكف وطلب الأمان فانكفت السفن عن الرمي وخرج حيثذ أحمد عرابي من مخبئه وسار إلى مقر الخديوى بسرأى الرمل فسأله الخديوى عما جرى بالقلاع وما حل بالعسكر فقال: الخيبة والفشل والخطر الشديد ولا حول ولا قوة إلا بالله فلم يبق فى قدرتنا أن نقاوم فأما أحسن التدبير فالتسليم بسائر مطالب أمير السفن، فلما سمع الخديوى هذا الكلام كبر عليه الأمر واستعظمه وكان معه بالسراى يومئذ عثمان باشا وإسماعيل باشا كامل والوزير باشا والجنرال استون باشا رئيس أركان حرب الجيش على عهد إسماعيل باشا وفريدكو بيك وتيكران بيك وآخرون غيرهم فجمعهم إليه وعقد فى الحال مجلسا منهم وكلمهم فى الأمر كثيرا فاتفقوا على أن يسيروا طلبه بيك عصمت أحد أصحاب الزعامة رسولا إلى سيمور أمير السفن ليخبره فى الصلح فسار طلبه وغاب ساعة ثم عاد وأخبر الخديوى بأن سيمور يطلب أن تحتل عساكره ثلاث قلاع من أكبر قلاع المدينة وإلا فانه يعاود الرمي بالقنابل بعد الظهر، قال: فسألته مهلة حتى تحصل المداولة فلم يقبل فأمر الخديوية عند ذلك بالمجلس فانتظم وتكلموا ثانية فتقرر أنه لا يصح قط للخديوى المصرية الترخيص فى نزول جنود أجنبية فى قلاعها ولا حصونها بغير إذن من الباب العالى وكتبوا بذلك محضرا ولكنهم لم يبلغوه إلى سيمور السفن.

وأخذ من بقى من جند القلاع والحصون فى الخروج منها قبيل الغروب وقد تركوا ما فيها من جثث الأموات والذخيرة والمهمات وساروا نحو باب رشيد والباب الجديد وخرجت كذلك بقية العساكر من معاقل رأس التين وباب رشيد والباب الجديد إلى ناحية الملاحة وحجر النواتية وتتابعوا فى الخروج الليل بطوله فلما لاح الفجر ظهر سليمان بيك داود مقدم جند الإسكندرية ورسم إلى بعض الفرسان بالنداء فى الناس بالخروج من المدينة عاجلاً ومن تخلف حل به ما يكره فكثرت النداء فى الحارات والشوارع وهب الناس من نومهم وكان على رؤسهم الطير وخرجوا هائمين وهم حفاة حاسرو الرؤوس، فكانت الأطفال تبكى وتصيح والأمهات يولولن والرجال تتسابق وتترامح وهم فى دهشة وذهول وتتابع خروج النساء من ذوى البيوتات لا يحملن من متاعهن سوى المآزر وما عليهن من خفيف الثياب والعسكر يستحثهن إلى الخروج من الباب الجديد وينادون عليهن بأصوات التهديد فلم تشرق الشمس إلا وقد غصت رحبات الباب الجديد بالخلق الكثير من الرجال والنساء والأطفال وهم فى أسوأ حال وكثر الزحام واختلط الناس بعضهم ببعض وارتفعت الشمس فاشتد بهم الظمأ فطلبوا الماء فلم يصلوا إليه وانتشر العربان حول تلك الأطراف فعاثوا وأفسدوا وسلبوا كل ما وصلت إليه أيديهم فعلا عند ذلك الصباح وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والنحيب وهم بعضهم بالرجوع إلى المدينة على ما فيها من المخاوف والأخطار فلم يتمكن إذ بانث طلائع زمر الأخلاط والحرافيش يحملون المنهوبات من الحوانيت بالمنشية وشارع شريف باشا والميدان والسكة الجديدة من أصناف الحرير والديباج والمقصبات وأفخر الملابس وأثمن المجوهرات والمصوغات وأنواع التحف وأصناف الزينة والمشروب والمأكول وأصناف العطريات وأثاث البيوت من الصينى والبلور وغير ذلك مما يجلب عن الحصر وهم فى ضجة وجلبة عظيمنتين وأكثرهم ملطخ بالدم، وكان لما أخذ الناس فى الخروج من المدينة وقد تركوا بيوتهم بما فيها من متاع وفرش ومأكول ومشروب تناولت أيدي العامة إلى سرقة بعض الشيء من ذلك ولم تكد تصل إليه أيدي البعض الآخر حتى برز سليمان بيك داود فى ميدان محمد على، قيل: ونادى فى الجند والعامة بكسر حوانيت التجار ونهب ما فيها وإضرار النار فى المدينة حتى تصير رمادا وأكثر من النداء بذلك فقامت العامة قومة واحدة وكسروا أبواب الحوانيت بالفؤوس والبلط ونهبوا جميع ما فيها من الحرائر والمقصبات وأصناف الأقمشة الغالية والمجوهرات

والمصوغات وكل ما وصلت إليه أيديهم وكان الرجل منهم إذا حمل شيئاً من ذلك وهم بالخروج لحقه من هو أقوى منه فيضربه أو يقتله ويأخذ ما معه وربما اقتل الاثنان أو الثلاثة منهم على شيء لا يستحق بعض قروش وأنحدر العربان من السيوف والرمل والمندرة وباب العرب ومريوط وغيرها وانبثوا في المدينة انبثاث الجراد فقتلوا ونهبوا وفسقوا بالأبكار والأمهات قسراً وعاثوا فيمن خرج من الناس إلى الباب الحديد وخطفوا ما وجدوه من حلى وملبوس وقتلوا بعض النساء بإطلاق البنادق والرجال بطعن الرماح وفعل كذلك الجنود فنهبوا وخطفوا وأطلقوا بنادقهم على من كان يقاومهم وكان المشهد مريعاً جداً والخطب شديداً للغاية، فلما كان بعد الظهر بساعة أضرموا النار في الكثير من بيوت المنشية وشارع المسلة وشارع الضبطية والميدان وفي تلك الوكائل العظيمة والمباني الشهيرة فاندلع لهيب النار وتطاير الشرر إلى عنان السماء وأظلم الجو وامتلاً بالدخان واسود وجه الأرض من الرماد المتساقط والجند يطوفون ويزيدون النار إضراراً بإراقة زيت البترول على ما لم يشتد منها لهيبه والعمامة يسرون بين النار وهم يحملون المنهويات والناس في بكاء ونحيب والأطفال والنساء يلتهبون عطشاً ويصيحون الماء الماء، ودخل الليل فكان المنظر أشد هولاً وإزعاجاً فقد كانت المدينة كلها كشعلة واحدة وبقي الجند والنهباء على ما هم عليه من القتل والنهب والعبث بالأبكار والنساء كرها إلى صباح اليوم الثاني فأخذوا في الجلاء عن المدينة وخرج معهم من لم يبق معه شيء يخاف عليه وتبعهم من كانوا بالباب الحديد فراراً من العربان الضارين حولهم كالوحوش الخاطفة وأمر أحمد عرابي فأتوا بقطارات السكة الحديد وأركبوا فيها الناس إلى سائر البنادر والقرى لحد القاهرة وأرسل في يوم الحريق أصحاب الزعامة إلى مقر الخديوى بسرائر الرمل جماعة من الفرسان يبلغ عددهم زهاء الأربعمئة فارس وبعض أصحاب الشرطة فأحاطوا به من كل جانب وعلم الخديوى بخبر ذلك فأرسل يسأل عن سبب حضورهم فقال مقدمهم: إنما جئنا لحراسة الذات الخديوية والمحافظة عليها، قال بعض الكتاب: ولم يكن الأمر كذلك فقد كان حضورهم لإضرام النار في السراي وقتل كل من يخرج فاراً منها وظلوا واقفين إلى قبيل الغروب ثم سارت جماعة منهم وبقيت جماعة أخرى تبلغ زهاء المائتين وخمسين فسير عند ذلك الخديوى إلى منيب أفندى مقدمهم يدعوه إلى الطاعة ومراعاة الذمة والعهد فأذعن وتمثل بين يدي الخديوى وأقسم أنه يموت بين يديه وجعل يكلم الجند حتى أطاعوا أيضاً وحلفوا يمين الطاعة ثم نصبوا خيامهم أمام مقر الخديوى وقاموا بخفارتهم.

ودخل فى ذلك اليوم على الخديوى محافظ المدينة وقص عليه خبر ما جرى من إضرار النار بالمدينة ونهب حوانيت التجار وانحدر العربان من الأطراف وما فعلوه من القتل والنهب والعبث بالأبكار وما الناس عليه من الشدة بسبب إكراههم على الخروج من المدينة فبكى الخديوى وطرق كفا لكف ورسم إلى إسماعيل باشا كامل وإلى الزبير باشا بالانحذار ومنع العامة من النهب ورد العربان إلى منازلهم فأنحدرا وبذلا جهد الاستطاعة فلم يقلحوا، وأرسل سيمور البحر فى سادس عشرى شعبان يعلم الخديوى بأنه على عزم أن يتزل بعض عسكره إلى سراى رأس التين لحراستها ويطلب إليه أن يأتى إلى إحدى سفن الحرب فيقيم بها حتى تخمد نار الفتنة فامتنع الخديوى وقال : إنى أفضل البقاء فى مقرى برأس التين بين رعاياى الأمناء على البقاء فى سفينة الأميرال وانحدر من ساعته من سراى الرمل فى عربته ومعه المشير درويش باشا وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الفرسان والحجاب وجاوشية ديوانه وساروا بين أطلال القصور والمباني التى دمرتها النيران، فلما رآه العامة ظنوا أنه أحمد عرابى عائد لقتال الإنجليز فصاحوا الله ينصرك يا عرابى وما زال حتى دخل سراى رأس التين فلاقاه الأميرال سيمور فى نفر من الجنود الإنجليزية يبلغون الثلاثمائة مقاتل وأصعدوه إلى السراى فجلس وجلس معه سيمور يتحادثان فيما لم تصل إلينا معرفته لغاية الآن، فلما كان غروب اليوم نزل أيضاً من كان على ظهور السفن من وكلاء الدول وصعدوا إلى مقر الخديوى وهنؤه بالسلامة وباتوا ليلتهم تلك وهم فى تحرز وأصبحوا وقد أنزل سيمور طائفة أخرى من عساكره إلى البر ورسم لهم بالتطواف فى المدينة فجعلوا يطوفون فى الشوارع والحارات ومعهم بعض المدافع الخفيفة فكانوا إذا رأوا أحداً من العامة أو أسافل الروم بين أطلال الحريق يلتقط ما بقى من النهابة رموه بالبنادق وشددوا فى ذلك فامتنع الناس قاطبة وكان إلى ثانى يوم الحريق لم يبق فى المدينة أحد من العساكر والجنود المصرية ولا من الضباط ومقدمى العسكر إلا انسحب إلى حجر النواتية وامتدوا منه إلى كفر الدوار وتركوا المدينة ومن بقى فيها يضرعون إلى الله من هول ذلك اليوم العصيب .

(وقد نظمت قرائح بعض الأدباء فى حريق هذه المدينة الأهلة القصائد الرنانة فمنها قصيدة لقدرى بيك أحد رجال الدولة الذين كانوا مع المشير درويش باشا قال فيها):

إسكندرية هذه أحلام
ما هذه الأحوال يائغر الغنى
أتكون قاعا بلقما منشية
أو تنظر العيينان أبهج بلدة
أحرقت أعرابي ثغر بلادنا
ياليت شعري ما اقترفت فإنه
فنقول من فرط الهنا أهل العنا
إسكندرية هذه أحلام
أو قد قضت فيما نرى الأيام
حارت بها الأفكار والأوهام
إن العبارة بعدها لحرام
أضحت رمادا والسماء قنام
والله قد حاطت بك الآثام
ما سام هذا الفعل قبلك حام
إسكندرية هذه أحلام
انتهى باختصار

(وقال أحد الأدباء أيضاً في هذا المعنى):

تفطر القلب من حزن ولا عجا
إسكندرية ما هذا الخراب وكم
قتل وموت وتدمير مهاجرة
قد كنت راقصة مثل العروس وها
وكنت بالأمس مثل الشمس مشرقة
ما هذه الحال في يوم وليسته
ييكبك دان وقاص والدموع دم
والدمع فاض على الخدين منسكبا
من نكبة بك قد حلت فوا حربا
سلب ونهب وكف للنساء سبا
أصبحت ثكلي فلا حظا ولا طربا
فناء كل ضياء عنك واحتجبا
يحل فيك مصاب قط ما كتبنا
وقد كوت نارك الأهلين والغربا

(وقال طيب الذكر أديب أفندي إسحق في ذلك أيضاً):

عج بي على تلك الطلول ونادى
هل صادمهم شرك الردى فأبادهم
أم غادروا الأوطان في أوطانهم
وسل الرسوم وإن خلت عنهم وما
خلفته في حبهم ميتا فهل
أم حملوه رديف صبري والمنى
أم غادروه رنيق وجدي والضنى
يا وارد الإسكندرية طامعا
أقصورها خفيت عن الأنظار أم
أم تدمر قد دمرت وعمورة
أنى تحمل أهل هذا النادي
صرف أناخ على ثمود وعاد
مذ حاذروا غدر الزمان العادي
فعلوا قبيل رحيلهم بفؤادي
أحياء أم محيائه أهل ودادي
وتجلدي وتعالى ورقادي
وتلهفي وتذللي وسهادي
بمنافع الأصدار والإيراد
آثار قصري في القفار بوادي
ما عمرت أم دار ذي الأوتاد

هذي عروس الشرق ماتت فاكتسى
بالأمن كانت والبياض دنارها
كانت ملاذ الخائفين فأصبحت
كانت موارد للظماء وقد غدت
كانت مراتع نعمة فغدت وما
كانت وكان الدهر يسعد أهلها
كانت وكنا لا ننام حسودنا
كانت وما تخشى بوادر ضدها
قامت على أقوى العمد تزين ما
فأبادهما جهل خفى ما بدا
جهل الذي رام الأماني وهي في
وعدا وما لقي الثعالب عمره
وسعى إلى الثورى ولكن خالها
وعلى المساواة ابتنى هدم الهنا
وقد ادعى في عسفه حرية
وإلى الإخاء دعا فنال بفعله
شقيت يزله الجموع وطلما
وتلاه في سبل الغواية معشر
غرسوا الجناية في الجنون فما جنوا
وسعوا فساداً في البلاد كأنهم
خلعوا الشعار المستعار من الحيا
وتخيلوا أن الطريق خلت لهم
فأتاهم رعد المدافع مبرقاً
وسطوا على المستأمنين خيانة
ورموا بنارهم الديار ويددوا
نكر عرفنا منه أن لبعضهم
ونقيصة يسمى بها أبناءهم
أسفا على تلك القصور فإنها

حزنا عليها الغرب ثوب حداد
واليوم صارت أرسماً بسواد
والخوف منه مبعد القصاد
ما أن بها من مورد للصادي
فيها سوى البأساء للمرئاد
فأصابها بالأهل والإسماد
صارت وصرنا راحة الحساد
فغدت ترجى رحمة الأضداد
تحت التي رفعت بغير عماد
مثل له من حاضر أو بادي
قمم الجبال وكان دون الوادي
يغنى اقتحام عرائن الآساد
لما تهتك برقع استبداد
لما تساوى حربه بفساد
يا من رأى حرية استعباد
من قومه ما لم ينله العادي
أشقت جموعاً زلة الأفراد
زلوا وضلوا حيث ضل الهادي
مما جنوه غير شوك قتاد
والجسادات أتوا على ميعاد
فتقمصوا عارا إلى الآياد
فسمعوا فكان العدل بالمرصاد
فنبوا عن الأبراق والأرعاد
لم تشف منهم غاية الأحقاد
ما استجمعت من طارف وتلاد
بز اللصوص وبزة الأجناد
لمقابر الآباء والأجداد
كانت منى الوراد والرواد

أسفا على من قاده استسماؤه
أسفا على قوم أتاها فجأة
فتسارعوا طلب النجاة من الردى
يا هولها من ساعة مرت بما
كم حامل خرجت بها محمولة
ومصونة نفسا تقول لصحبها
لطخت بأثار الولاد ومادرت
دمياء ما يدميه لس حريره
ومعمر لم يبق في الدنيا له
ومريض قوم غاب عنه طبيب
خرجوا وهم لا يهتدون سبيلهم
ودموعهم والنار في أحشائهم
فكانهم إبل يبدون نالها
تعلو وتهبط جانحات لا ترى
أو أنهم قصدوا الصبح فجاءهم
شهد الوبال ولم يجد من منجد
فتفرقوا والهول ملء قلوبهم
أو أنهم أهل القبور تيقظوا
نشروا عراة واجفين فيومهم
والنار موقدة سرت من خلفهم
والجند شردهم قتال عدوهم
ونضوا على أهل السبيل بواترا
قد حديت شفراتها لكنها
ولرب عباد منهم في رعدة
مكنت فرائسه على نهب الحمى
ومزاس حيث الجنود وخلفه
عندم الرباط فشله بنجاده
فهم اللصوص وإن هم قد أوهوا

للفاتكين ولم يجد من قناده
صوت المنادي بالبلاء ينادي
بنفسوسهم والأهل والأولاد
زهقت به الأزواج م الأجساد
فوق الكواهل أو على الأعواد
يا ليتني قدمت قبل ولادي
جسدا تلتطخ قبله بجساد
طفل قريب العهد باليلاد
غير السكينة من منى ومزاد
وجفاه أنس الأهل والعواد
والنائبات روائح وغواذي
حلت محل مزادهم والزاد
ألم السغوب وحاذ عنها الحادي
من بلغة في أنجدو وهاد
في فجأة منهم طريد طراد
فاغذ في الاتهام والاتحاد
يقتادهم زمرا بنير قياد
سحرا بنفخ الصور بعد رقاد
يوم المعاد أتى بلا ميعاد
فكانها حيات بطن الوادي
فرقا فلم يتجلدوا لجلاد
في الحرب ما نضبت من الأغمد
كانت على الأعداء غير حداد
ما أن تسلم بصائد الرعداد
من قبل تسكن رعدة النصيد
مما حباه النهب حمل جواد
وأتى معسكره بنير لجناد
أن ليس ما ارتكبه غير جهاد

وبلادهم قد نالها من عارهم
 عيبت فلولاً السابقون ومجدهم
 ومؤيد ملك أمير عادل
 وعصابة كانت قلائد فضيلهم
 لم تلف في مصر ومصر عزيزة
 إلا وقد ولى الشريف أمورها
 مولى له في النفع رغبة طامع
 وهو الذي يخبا ليوم كرهية
 وإذا بدا من ليل خطب رأيه
 ياحائز المجد الرفيع وجامع
 باجالب النعم العظام ورافع النقم

إلى أن قال :

بيضت بالنعماء أيامي وما
 ويلوتني فرأيت مني صادقاً
 وحميتني والنائبات ملمة
 وظهرت فيك بكل مدح صادق
 وقد اعتذرت وما ورا متصلي
 فإذا صفوت فذاك غاية مقصدي
 يا صبح كل مؤمل بالمحج
 لولاك ما أحبيت ليلي ضارباً
 وصفاً لما يجري الدموع أقله
 فلقد هجرت الشعر لما أن رمي
 واستامه من ليس يفرق بين ما
 لكن رأيتك يانصيري جامعاً
 فنظمته نظم الفرائد مثل ما

إلى أن قال

زعموا بأن سريرتي قد كدّرت
 فبعثت صافي الشعر يثبت صفوها
 فلمن يصافي بالجميل يصادي
 ولو استطعت جعلت فيه فؤادي

انتهى

وأخذ أحمد عرابي وأصحابه في التأهب والاستعداد للقتال فأرسل في طلب الجند وعدة الحرب من مؤن وذخيرة وسير في طلب جماعة المهندسين وأرسل العيون الجواسيس إلى أطراف الإسكندرية ليأتونه بالأخبار وأرسل إلى القاهرة مكتابة يقول فيها سنقاتل الإنجليز دفاعا عن الدين والوطن فعجلوا بالمدد واثابروا على الدعاء للعسكر المظفر بذلك فأرسل إليه يأمره بالإمساك عن جمع الجند وإعداد المعدات ويقول له لا خطوط قط بين بلادنا والدولة الإنجليزية وأن أمير سفن الحرب يقول أنه على أهبة تسليم ترتيب القوة الحافظة لها واستتب الأمن فيها وسأل أحمد عرابي أن يسرع رأس التين ليكلمه في الأمر، وكان لما خرج أحمد عرابي من الإسكندرية بعد والقطوب المذلهم ونزل كفر الدوار لحق به بعض من التف عليه من الأجانب بلانت الإنجليزي الذي سبق لنا الكلام عليه فبينما هم جالسون مع أحمد عرابي الخديوي بما ذكر فأراه إلى بلانت وشاوره في الأمر، قال بعض الكتاب: فقبح له بمشورة الخديوي وحجب إليه مقابلة الإنجليزي حتى يذعنوا، وقال: إن الإنجليزي ليس لهم منتظم يقدر على مقاومة العساكر المصرية وأن الدول كافة لا تترك الإنجليزي وشأنهم في ذلك فهن للإنجليز بالمرصاد فيأيك وأن تخدعك ظواهر الخديوي وأمير السفن وثابر على ذلك حتى يعلموا أن في هذه البلاد رجالا، قال وكان هذا الكلام خدعة من بلانت فاغتر أحمد عرابي وهان عليه كل خطب وكتب إلى الخديوي يقول: إني لم الإنجليزية بجند القلاع إلا بعد أن صدر لى بذلك قرار مجلس الوزراء فإذا كان قد رغب الآن في الصلح بعد انتشاب القتال فلا بأس به ولكن هذا الطلب الحرب قائمة بيننا وبينه وإني لا أرغب عن الصلح ولكن مع المحافظة على شرف البلاد والحكومة فإذا أراد الأمير تسليم المدينة فليسلمها وليعجل بسحب مراكبه عن الإسكندرية أما الاستعدادات الحربية فلا مندوحة عنها ولا بد منها حفظا لشرف البلاد ما دامت القوة الإنجليزية على سواحلها ولا يمكنني الرجوع إلى الإسكندرية وألقى بيدي ما دام الإنجليزي بالإسكندرية وختم كلامه بطلب سائر الوزراء إلى مقره بكفر الدوار فكبر الأمر على الخديوي ومنع من إرسال أحد إلى كفر الدوار وراجع أحمد عرابي في ذلك فلم يلتفت أحمد عرابي إلى قوله وتجرد إلى العداوة والبغضاء وأرسل في الحال إلى يعقوب سامى باشا وكيل ديوان الجند يومئذ يوقع بالخديوي ومن معه ويرميه بالتهمة الطويلة ويصفه بالمروق وسوء النية نحو البلاد وأهلها ويقول أنه هو الذي جلب كل هذه المصائب بسوء رأيه وفساد تدبيره وأنه يطلب لذلك عقد

مجلس من علماء الأزهر ومشايخ القاهرة والوجهاء والأعيان ليروا رأيهم فى خلع الخديوى وتولية من يصلح لتدبير شئون البلاد فجمع يعقوب سامى باشا جميع العلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين وأرباب المناصب العالية والأعيان والوجهاء وكبار التجار وعقد مجلسا منهم فى غرة رمضان برئاسة حسين دراملى باشا الذى كان وكيل نظارة الداخلية وتلا عليهم مرسوم أحمد عرابى وكان المكان غاصا بجماهير الناس حتى السوق والغوغاء وأسفل القوم فما أتم القارئ كلامه حتى علت الضوضاء واشتد الهرج وجعل بعض العلماء والمشايخ يقبحون ما فعله الخديوى ويرمون به المروق وكان بينهم الشيخ عlish المغربى الأزهرى شيخ المالكية فوقف فى وسط ذلك الجمع وقد أخذته رجفة فصاح الله أكبر الله أكبر قد خلعناه يا قوم قد خلعناه الله أكبر على من طغى وتكبر ثم اضطرب وأخذته الرجفة فكثرت عند ذلك صياح العامة فكانوا بين مدمدم ومحول وناطق بالشهادتين ثم اتفقوا على أن يرسلوا إلى الإسكندرية وفدا ليرى أولا ما يدعيه الخديوى على زعماء العصاة عموما وأحمد عرابى خصوصا وثانيا ليحقق ما إذا كان الوزراء مسجونين كما جاءت بذلك الأخبار وقد وقع اختيارهم لذلك على على مبارك باشا ورءوف باشا وأحمد بيك السيوفى والشيخ سعيد بيك الشماخى والشيخ على نایل والشيخ حمد كبوه فساروا إلى كفر الدوار واجتمعوا بأحمد عرابى وحدثوه بما جرى فرحهم إلى الإسكندرية ومعهم نفر من الجند فلم يتمكنوا من دخولها إلا بعد شدة زائدة وتمثلوا بين يدي الخديوى وقصوا عليه جميع ما وقع فساء الأمر ورسم بخلع أحمد عرابى من منصب الوزارة وطير الخبر بذلك إلى الآفاق وكتب إلى دار السلطنة يخبر بعضيان أحمد عرابى وأصحابه ورفع عن نفسه تبعة ما ينجم عن فعالهم من الخطر على البلاد وأهلها وكان فى هذه الأثناء قد ورد مرسوم السلطان إلى درويش باشا ومن معه بالعود إلى دار السلطنة بناء على تغير الحال وتوال سفير الإنجليز من المابين مأربا فعادوا وكأنهم عافاهم الله لم يحضروا إلا لتضرب الإنجليز حصون الإسكندرية وتحتل جنودهم المدينة على مشهد منهم وكان أحمد عرابى يعلم سر بعثتهم فلم يطع للخديوى كلمة وقد أخذ فى إعداد معدات الحرب والذخيرة وبالع فى جمع العساكر والأجناد وإنشاء القلاع والحصون على طول خط ملاحه الإسكندرية وعالج سدّ ترعة الإسكندرية ليمنع الماء عنها فلم يفلح وسير إلى القاهرة يشدّد فى طلب المؤن والمدافع وطوائف البنائين والمهندسين، وقد وصل إلى القاهرة مرسوم الخديوى بخلع أحمد

عرايى من منصبه وشاع خبره وتحدث الناس به فكادت تقف رضى أعماله وتنصرم
 حزمة آماله فأدرك يعقوب سامى ما وراء ذلك وجمع سائر من حضروا فى المجلس
 المنعقد فى غرة رمضان وتلا عليهم ما رسم به الخديوى من خلع أحمد عرايى
 وتنزيله فاختلفت عند ذلك كلمتهم وتفرقت أغراضهم وعلت بينهم الضوضاء وكان
 بينهم جماعة من كبار الضباط وصغارهم وطائفة من الجند فلما رأوا ما هو عليه ذلك
 الجمع من الهرج واختلاف الكلمة وأدركوا أن السواد الأعظم منهم ميال إلى خلع
 أحمد عرايى كما رسم الخديوى قاموا وصاحوا فى وجوه الناس وارتفعت أصواتهم
 بسبب الخديوى وتقبيح فعاله ونادوا القتال القتال ما دام الإنجليز فى قلب البلاد ثم
 أكثروا من الحركة وقبضوا على سيوفهم كأنهم يقاتلون الإنجليز فانكمش سائر
 الحاضرين وخافوا وتحققوا أنهم إن مالوا إلى خلع أحمد عرايى والعمل بمرسوم
 الخديوى أخذتهم سيوف الضباط وحرب الجند من أمامهم ومن خلفهم فقر رأيهم
 على استبقاء أحمد عرايى فى منصبه وتكليفه بالذب عن البلاد ما دامت مراكب
 حزب الإنجليز أمام الإسكندرية وعدم الالتفات إلى ما رسم به الخديوى فطير يعقوب
 سامى الخبر بذلك إلى الآفاق وعلم به الخديوى فأحزنه جدا ورسم ثانية بخلع أحمد
 عرايى وعصيانه وسير الكتب بذلك إلى القاهرة وسائر المدن والبنادر فمنع الضباط
 وصولها وجعلوا يجوبون البلاد ويحضون الناس على بغض الخديوى ويسمونونه
 بالمروق عن الدين وقام الخطباء والفصحاء من أهل البلاد يخطبون فى الناس
 ويحضونهم على معاونة زعماء العصاة والأخذ بناصر مقدمهم أحمد عرايى وقام
 بعض الشعراء من أهل القاهرة يلقون الأشعار الحماسية والقصائد المهيجة من ذلك
 قصيدة لأحد علماء الأزهر يقول فى مطلعها:

لعمرك ليس ذا وقت النصايي	ولا وقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوي	ولا وقت التغافل والتغايي
ولا وقت التشيب فى سليمي	ولا وقت التشاغل بالرباب

إلى أن قال:

ولكن ذا زمان الجدد وانى	وذا وقت الفتوة والشباب
ووقت ليس فيه يلىق إلا الـ	إقامة بالقلاع وبالطوايى
ووقت فيه الاستعداد فرض	لتنفيذ الأوامر من عرايى

إلى أن قال:

وفى مصر لقد طمعوا ومصر بكم والله أمتع من عقاب

وقال فيها :

وقوموا بالثبات على الأعادي وقولوا فيهم فصل الخطاب
وإن سألوكم من بعد هذا فما غير المدافع من جواب

إلى أن قال :

وقولوا يا عرابي مر بأمر تراه فأنت ذو الأمر المجاب
ودم لوزارة لسواك تأبى وإن وصلت إليك بلا طلاب
وقولوا يا عرابي دم رئيسا لحزب النصر محفوظ الجناح

(ونظم آخر قصيدة في هذا المعنى قال في مطلعها):

نوال المعالي من طعان الكتاب ونيل الأمان من ثمار المتاعب
وقهر الأعادي بالتدبير أولا وبعد بإشهار السيوف القواضب
إلى أن قال :

ولسنا كقوم عن طريق الهدى عموا إلى اليوم من اضلالهم في غياهب
ومنها قوله :

ومن كعرابي في البرايا وحزبه أولى العزم أصحاب القنا والقواضب

وغير ذلك من الشعر والنثر شيء كثير لا يسعنا إيراده هنا ، وسير أحمد عرابي جماعة من الفرسان وأخرى من المشاة إلى ناحية المنذرة ووكلمهم باستطلاع أخبار الإنجليز فلم يبلغوها حتى خرج عليهم جماعة من عسكر الإنجليز وناوشوهم القتال فقاتلوهم وتغلبوا عليهم فانهزم الإنجليز وولوا الإدبار فأعمل المصريون في أقفيتهم السيف ثم عادوا في ثاني يوم وقاتلوا حتى أجلوا المصريين عن مواقعهم فسير أحمد عرابي في طلب المدد من المال والرجال ومد الحصون والقلاع من الرمل إلى كفر الدوار وأقام بكفر الدوار خطا عرضه ثلاثون مترا وحفر تحته خندقا فاصلا ما بين الخط والفضاء وقد جعل في هذا الفضاء عدة كثيرة من القلاع ، وكان خط الدفاع الأول مما يلي المحلة بمسافة ألف متر على طول الخط الممتد من الرمل إلى البيضاء وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة إلى كفر الدوار فبلغت عدة هذه الاستحكامات والمواقع الدفاعية زهاء الخمسمائة وكذلك في المسافة الواقعة ما بين كفر الدوار وأبي حمص وكان بين أبي حمص ومدينة دمنهور تل كبير مرتفع فحصنوه وجعلوه معقلا يقيمهم عند الحاجة إذا تقيهم إلى وراء وعززوا دمنهور بالكثير من المدافع الكبيرة وعبوا فيها المؤن والذخيرة ومعدات الحرب وأقام فيها

جماعة من الجند ووكلمهم بتسيير المؤن وتوصيل المدد إلى كفر الدوار، ورأى سيمور من استعداد أحمد عرابي وتأهبه للقتال وقطعه لجميع المواصلات مع الإسكندرية ما لم يكن يتوقعه فأرسل إلى عاصمة الإنجليز في طلب النجدة ورسيم فمدوا سلكاً تلغرافياً تحت البحر من الإسكندرية إلى بورسعيد وجاءه المدد من المشاة والفرسان وأصحاب المدافع على ظهور السفن من قبرص وجبل طارق ومالطة والهند وكأنهم كانوا جميعاً على قيد فرسخ من مدينة الإسكندرية وجعلت حكومة الإنجليز تبالغ في التأهب والاستعداد غير سائلة عما تقوله بقية الدول ولا راغبة في مشاورتهن ولا ميالة إلى مشاركتهن وقد أعدت من المال لنفقة هذه الحرب مائتي ألف ألف وثلاثمائة ألف من الذهب وكان ما جاء إلى سيمور من الجند ألفين وأربعمائة من الفرسان وثلاثة عشر ألفاً من المشاة وألفاً وسبعمائة من أصحاب المدافع وثلاثة آلاف وسبعمائة ما بين خدمة المرضى وأصحاب الخدم وجيشاً احتياطياً قدره ثلاثة آلاف ومائة مقاتل وكان المقدم على هذه الحملة قائداً اسمه الجنرال جارنت ولسلى وآخر اسمه أويبا ومعهما آخرون من الأمراء والقواد فلما نزلت هذه الجيوش بمدينة الإسكندرية أخذوا في ترميم ما تهدم من الجسور الواقعة على خندق الباب الحديد وما تداعى إلى السقوط من جدران قلعة كوم الدكة ونصبوا بعض المدافع على باب رشيد للدفاع عن محطة السكة الحديد ونصبوا تسعة مدافع من الطراز الكبير على قلعة كوم الدكة وبالفعل في تحصين المدينة لمنع الواصل إليها وسارت طائفة منهم إلى الملاحة فقطعت خط السكة الحديد الموصل إلى الإسكندرية لتكون المدينة آمنة من هجوم العصاة.

ووقع بين الباب العالي ودولة الإنجليز وبقية الدول مناقشة وجدال في أمر إرسال عساكر عثمانية أو عساكر مختلطة من الإنجليز والفرنسيين والإيطاليين إلى مصر ما استغرق الأيام الكثيرة ولكنها كانت مباحكة ومراوغة فكان كل فريق من الدول ولا سيما العثمانيين والإنجليز والفرنسيين يظهر للآخر خلاف ما يظن ويقول غير ما يفعل ثم عادت دولة الإنجليز وشددت على سعيد باشا مندوب الباب العالي في تلك المفاوضات وأعلمته بأنها لا تسمح قط بأن تطاء أقدام الجنود العثمانية أرض الكنانة. وأنها قد أخذت على نفسها إرجاع الحالة إلى ما كانت عليه من الهدوء والسكينة وتأييد مركز الخديوى بكل ما تصل إليه قدرتها فراجع سعيد باشا اللورد دوفرين سفير الإنجليز في ذلك، فلما كان خامس رمضان انقطع سعيد باشا عن ملاقاته سفير الإنجليز وانكف عن مناقشته في الأمر فجعل السفير يفكر في ذلك فما هو إلا أن

جاء الخبر فى ثانى يوم بقيام سفيتين كبيرتين من سفن النقل العثمانية وعليهما جماعة كثيرة من العسكر العثمانى وكان قيامهما من دار السلطنة تحت جناح الليل وفيهما أيضاً كثير من الذخيرة والمؤن ومعدات الحرب وأن قد قام بعدهما أيضاً فى نفس تلك الليلة مركبان أخريان إحداهما إلى أزمير وثانيتهما إلى الدردانيل وفى ثالث ليلة قام غيرهن يحملن كثيرا من الجند وآلات الحرب وقامت أخرى فى خامس ليلة من الجهة المعروفة بقرن الذهب إلى صوراباى بمياه جزيرة كريد وكانت فى نفس هذه الليلة مركب أخرى على أهبة القيام إلى جهة غير معلومة وشاع الخبر حينئذ بأن السلطان قد رسم بجعل جميع هذه القوات تحت إمرة درويش باشا وآخرين من كبار القواد العثمانية فتأهب هؤلاء للقيام على ظهر الباخرة عز الدين إلى سلايك ثم يسيروا منها ليلتقوا بالجند إما بمياه رودس أو مياه صوراباى فخشى سفير الإنجليز عاقبة ذلك وأزعجه الخبر وسير إلى كبير سياستهم يعلمه بالأمر فلم يكن بأسرع من أن جاء الأمر إلى سيمور أميرال سفن الحرب الراسية أمام الإسكندرية يقول: إذا جاءكم مراكب حرب الدولة العثمانية فامنعوا من نزول أحد من جندها بالإسكندرية وبورسعيد وأى جهة من الموانئ المصرية واحذروا ما استطعتم وأعلموا مقدمى العساكر السلطانية مع غاية الرقة والتلطف بأن يرجعوا فوراً إلى جزيرة كريد أو إلى أى جهة يشاؤون وإياكم والتغافل، فرتب عند ذلك سيمور مراكبه وصفهم فى سلك الدفاع وأبلغ سفير الإنجليز خبر ذلك إلى سعيد باشا مندوب الباب العالى فراجعته سعيد باشا وقال: إن السلطان رسم بتسيير عسكره وهو يكفل بإرجاع الأمور إلى سابق مجراها من الأمن وصفاء الحال وسيرسم أيضاً بعضيان أحمد عرابى واعتباره خارجاً عن طاعة أمير المؤمنين فلا موجب إذا للتعرض لمراكب الدولة إذا وصلت إلى الموانئ المصرية التى هى جزء من بلاد السلطنة فقال السفير: قد ذهبت الفرص وطاش الغرض ولم يبق من حاجة إلى شىء من ذلك البتة وقد سارت الجنود الإنجليزية على جناح الطائر الميمون وما كنا نرجوه بالأمس قد أصبح عندنا اليوم أمراً مقضياً فراجعته سعيد باشا فلم يقبل، فقال له: قد قبلت الدولة سائر مقترحات الدول بشأن إرسال العساكر السلطانية ويسائر الحدود والاختصاصات التى حددتها لها بالديار المصرية وصرحت بقبولها جميع ما ترى لزوم إجرائه أيضاً لإرجاع الأمور إلى ما كانت عليه فقال السفير: لا سبيل إلى ذلك وقد نفذ المقدور فكبر الأمر على السلطان واستعظمه للغاية وارتبكت أحوال الباب العالى وكثر توارد الجنود الإنجليزية

على مدينة الإسكندرية وقدم إليها فى خامس عشرى رمضان الدوق أوف.كانوت ثالث أولاد ملكة الإنجليز وهو أحد مقدمى العساكر.وأخذوا فى تحصين بعض القلاع والحصون وتعبية المؤن والذخيرة ثم جعلوا يناوشون العساكر المصرية عند كنج عثمان وحجر النواتية وكفر الدوار مناوشة خفيفة ونشر ولسلى مقدم العساكر الإنجليزية منشورًا يقول فيه، لم تأت الجنود الإنجليزية إلى هذه الديار بقصد الغزو أو فتح البلاد وإنما حضورهم لردع العصاة وإيقاف تيار الفتنة إلى حد إرجاع الهدوء والسكينة إلى سابق مجراهما وتأييد سلطة الخديوى جهد الاستطاعة، ثم رسم فألقوا بأوراق من هذا المنشور فى مواقع المصريين ليعلم الضباط ما فيها فالتقطوا منها شيئاً كثيراً.

ولما كان خامس شوال انتشب القتال ما بين طليعة العرابيين وبعض الجنود الإنجليزية عند كفر الدوار وطال زهاء الساعتين ثم انجلى عن هزيمة العرابيين فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يقاتلون فكانت الحرب بينهم سجالاً وبالوا وأصبحوا فاقتتلوا قتالاً عنيفاً فأظهر العرابيون بسالة زائدة وكادوا يستظهرون على الإنجليز فطلب مقدمهم المدد فجاءه على قطارات السكة الحديد من الإسكندرية واشتد الرمى من الجانبين بالقنابل والرصاص شدة بالغة ثم افترقوا وقد تحرز كل فريق فى موقفه وكان مقدم العرابيين فى هذه المواقع طلبه عصمت وأصبحوا ولم يتقدم الفريقان لقتال وكانت أخبار الحرب والقتال تأتى إلى الإسكندرية والقاهرة على غير حقيقتها منقولة عن الفلاحين والعربان وضباط الجند ومقدمهم طلبه عصمت فلم يحلها عقلاء الناس محل التصديق ولم يعيروها جانب الالتفات، ونزل من كان على ظهور السفن الراسية أمام الإسكندرية من الأجانب على اختلاف أجناسهم إلى المدينة ودارت رحى الأعمال فى دواوين الحكومة وياشر أرباب الوظائف وظائفهم على قدر الاستطاعة فعز عند ذلك المأكل ونفذ ما كان موجوداً منه ببعض الحوانيت واشتد الجوع بالناس ثلاثة أيام خرج فيها صغار الناس على اختلافهم إلى رحبة سراى رأس التين وهم يضحجون ويعجبون فهال الخديوى أمرهم ورسم بإطعامهم وشدد فى ذلك فرتبوا لهم مشارد الشريد بالأرز واللحم مرتين فى كل يوم وكان الخديوى يلاحظ إطعامهم بنفسه وهو مشرف عليهم من مجلسه وشدد الإنجليز فى المحافظة على المدينة فكانت الجنود تطوف فى النهار والليل ومنعوا من خروج الناس من بيوتهم بعد غروب الشمس إلا من كان معه كلمة سر الليل وهى كلمة كان يتفق عليها فى غروب كل ليلة ليعبر بها من يثلقها وكانوا يقبضون على كل من يرونه سائراً بغير مصباح ولو كان يعرف سر

الليل وأفحشوا فى رمل الناس بالرصاص لأقل سبب وكان إذا رأى أحد المرابطين أحدا فى الطريق بعد الغروب نادى عليه بكلمة (هلت) ومعناها قف فإن لم يجبه على الفور بكلمة (فرند) يعنى صاحب أو رفيق رماء بالرصاص فيسقط ميتا وإذا رأوا مارا بحارات المنشية أو غيرها من جهات الحريق ظنوه يلتقط ما بقى من المنهوبات فيقتلونه فى الحال برمل البنادق فخاف الناس واستوحشوا وامتنع خروجهم قاطبة فكانت شدة عظيمة ووحشة بالغة، وتقدم إسماعيل راغب باشا إلى الخديوى فى قبول خلعه نفسه من منصب رئاسة الوزارة فقبل منه ذلك ورسم إلى الوزير محمد شريف باشا بتشكيل وزارة أخرى مع قبوله هو مسند الرئاسة فأذعن وأطاع، وكان لما طير البرق الخبر إلى الديار الأوروبية بخروج عرابى وأصحابه عن طاعة الخديوى وإشهاره الحرب على الإنجليز وبقاء الخديوى مع كبار الدولة وحاشيته بمدينة الإسكندرية وكان مصطفى رياض باشا يومئذ بإحدى مدن الفرنسيس فارا من وجه زعماء العصاة على ما تقدم بيانه فى محله عاد من فوره إلى الإسكندرية وتمثل بين يدى الخديوى مسترحما فعفا الخديوى عنه ورسم له بتولى نظارة الداخلية ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة فلم يحفل أصحاب الزعامة بها ولا أحلوها محلا وجدوا فى إرسال المدد إلى كفر الدوار وهم يشيعون فى كل يوم أخبار هزيمة الإنجليز ووقع الموات فيهم وسير أحمد عرابى إلى المديرين والمحافظين فى طلب حشد الجند من خفراء البلاد وتسييرهم إلى مواقع التل الكبير وفرض على كل مديرية عددا فكان ما خص البحيرة ألفا ومائة واثنين وسبعين والقلوبية ألفا وثمانية وثلاثين والشرقية ألفين وسبعة وسبعين والغربية ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسة وثلاثين والدقهلية ألفين وستمائة وخمسة وستين والجيزة ألفا وثلاثمائة وخمسين وبنى سويف ستمائة وخمسة وتسعين والفيوم ثمانمائة وثلاثة وستين ومئة ابن خصيب ألفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين وأسيوط ألفين وثلاثمائة وخمسة وأربعين وجرجا ألفين ومائة واثنين وستين وقنا ألفا وستمائة وعشرة وإسنا ألفا وأربعمائة واثنين وستين فكان جميعهم خمسا وعشرين ألفا فاهتم بعض المديرين بهذا الطلب وبالغ فى الاهتمام وتراخى البعض الآخر ولم يحفلوا به لما يعلمونه من سوء العاقبة وسوء المصير وجاءت الأخبار بذلك إلى أحمد عرابى وهو على حصون كفر الدوار فكبر عليه الأمر واستعظمه وعادوا الطلب وشدد وهدد وقام الخطباء من أهل البلاد فى المساجد يحضون الناس على الجهاد ودفع العدو وأكثروا من الأرجاف والتهويل وقام بمدينة أسيوط رجل اسمه

الشيخ على المليحي فجعل يحض الناس على الغزو والجهاد ويستفزههم إلى التطوع في سبيل طاعة أجمد عرابي وخطب فيهم يوما يقول:

الحمد لله الذي جعل أمة محمد ﷺ خير الأمم، وعودها العناية والنصر إذا العدو بها ألم، لا إله إلا هو لا عز لنا إلا به إلى يوم الدين، فهو المختص بإعانة من هاجر في سبيله وكلف عزمه وسمعه، لقوله تعالى ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾، ونحمده سبحانه وتعالى على ما أولانا من النعم، ونتوب إليه من جميع الآثام إذا انجر بها القلم، ونسأله اللطف والإعانة على الكافرين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، المتعالى عن المشاركة والمشاركة، وعن أن يحتاج لمشارك له في إعانة من خرجوا من بلادهم متطوعين، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله، وذروة سنام المجد وتاجه وإكليله، رسول خصه الله بالعناية والفتح المبين، اللهم صل وسلم على هذا النبي العظيم، والرسول السيد السند الكريم، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه كلما برق بارق النصر للمؤمنين وبأن أثر الذل على الخائنين، وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد فيا عباد الله لا خفاء أنه قد مرت بنا في الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم، وما ذلك إلا لعدم الحمية الإسلامية في حكامه الذين كانوا كالليل المظلم، إذ كانوا منهمكين في ميدان حظهم الدنيوي وعن الدين غافلين، والآن قد ظهرت البشائر بعز المسلمين وسطوتهم، إذ قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالأخذ في أسباب قوة الدين ورد ما ضاع من شوكتهم، وصاروا باذلين الهمة في التوصل لما يبعد الأمة عن التشويش ولما يكونون به آمنين، إذ قد شرع رئيس المجاهدين المؤيد بنصر ربه في مدافعة من كانوا في تشويش الأمة أول سبب، وباع نفسه هو وجيشه للجهاد في سبيل الله ولم يبال بمشقة ولا تعب، كل ذلك لحفظ الوطن وإعلاء كلمة الدين، فطوبى لقوم باعوا الحياة الدنيا وشروا الآخرة ولم يكن لهم مطمح نظر سوى النصر من رب العالمين، واعلموا عباد الله بأن الله تعالى أمرنا في كتابه المجيد بالقتال وأوضح لنا أمره، فنعم السيد الأمر ونعم من امتثل أمره، وتأمل في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين﴾. فالمسلم العاقل من اكتفى بأمر مولاه، واشترى آخرته وباع دنياه في سبيل الله، وتباشر بقوله تعالى: ﴿فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا

مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن اوا مع الصابرين ﴿ فاقبلوا عباد الله واخلعوا عنكم ثياب البخل والكسل، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله قبل اقتراب الأجل، وروّدوا أنفسكم التقوى وأعرضوا عن المتقاعدين، فمن الواجب الآن على غنينا القاعد بذل الهمة فى الإنفاق على من تبرع بنفسه لدفع الأعداء، وصارت شهامة الإسلام على وجهه وجميع أعضائه تنادى، وجعل قوّته قوله تعالى: ﴿ ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجى المؤمنين ﴾ فمن لم يقنع الآن وبعد الآن بما سمعه فهو متافق، ومن دين الحق مارق، وغافل عن قوله تعالى: ﴿ فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين ﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى قال: من انتدب خارجا فى سبيلى غازيا ابتغاء وجهى وتصديق وعدى وإيمانا برسلى فهو ضامن على الله عزّ وجلّ إما أن يتوفاه فى الجيش بأى حتف شاء فيدخله الجنة وإما أن يسيح فى ضمان الله. وإن طالبت غيبته حتى يرده الله إلى أهله مع ما نال من أجر أو غنيمة وعلى الله قصد السبيل». وجاراه فى ذلك أيضاً آخر اسمه الشيخ محمود إبراهيم من أهالى أسيوط فخطب يقول - حمدا لمن جعل أعلام الملة المحمدية، على كواهل أعلام الأمة العربية، وحرسها بشهب ثاقبات، لرجم شياطين أهل البغى والغوايات، وصلاة وسلاماً على من كان إذا أراد غزوا ورى به، ليتأهب ذو الهمة فيتوجه بصادق آرائه، وعلى آله السّدين أقاموا أنفسهم أسوارا لحزمة الدين، ومن تبعهم فى المحاماة من كل حر لعرضه يصون (أما بعد) فإن الإنجليز قد طاشت عقولهم، وعميت بصائرهم، فلم يحسنوا الضروريات فساموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها، وساقوا إلينا من زيف المعارضات خسيسها، وقابلوا عيشنا بخداع، وفتشوا أكتافنا لغدر أضمروه ليوم النزاع، ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الإيمان، وفينا لهم بعقد الذمة والأمان، فعاملناهم بالحسنى، وجبرنا ما كان منهم ضعفا ووهنا، فلما صحت أبدانهم، وعمرت أوطانهم، لم يقنعوا بذلك، بل طلبوا التصرف فينا تصرف المالك، فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب، فخربوا بيوتهم بأيديهم من غير زعزعة منا ولا اضطراب، وهكذا خاتمة أهل السوء والفحشاء، والله يؤيد بنصره من يشاء، حيث أقام ناظرا بعين الشرع ناظر، لم يخش فى الله لومة لائم أو زجر زاجر، فقابل كتائب الضلال، وأذاقهم كأس النكال، وقام خطيبنا يدعو إلى دعوة الحق، إذ كان من أم الكتاب بها فى عصرنا هو الأحق، فلباه أناس باعوا أرواحهم للجهاد، فى قطع جيش الضلالة والعناد، فأقبلوا إليه من كل فج عميق أفواجا،

بالمال والنفس فرادى وأزواجاً، فعند ذلك دهم الإنجليز ما دهاها، حيث لم يكن في حسابها ما عراها، فنسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابي باشا هو المشار إليه بـ (يبعث الله على رأس كل مائة سنة) فإن البشائر دلت عليه، حتى يمزق الباغون كل ممزق، ويحيا المندوب والمفروض بهذا الموفق، وتموت البدع التي اسود القطر بظلماتها، ويختفى شارق الظلم بأرجائها، فحاشا أن يجعل الله ديار أهل بيت نبيه في ذمة كافر، جعل الله سعادة أحمد عرابي باشا وجنده الظافرين بأعدائنا في المبدأ والآخر آمين.

وجاء الأمر إلى سيمور البحر بعد وصول ولسلى مقدم العساكر البرية كما تقدم القول فرحل سيمور بسفنه عن الإسكندرية إلى بورسعيد وألقى مرساها أمام المدينة على هيئة الدفاع وبقيت سفن النقل أمام الإسكندرية وكان لما وصل سيمور بسفنه إلى بوغاز بورسعيد رأى هناك سفينة حربية صغيرة اسمها الصاعقة راسية أمام المدينة فتخوف سيمور منها وقد جاءه الخبر بأن فيها من الديناميت والمواد الاتهابية ما يكفي لسد البوغاز في أسرع من لمح البصر وأن ربانها من أحب الناس إلى أصحاب الزعامة فتحرز سيمور منها وباتوا ليلتهم تلك وقد قضى ملاحو الصاعقة ليلتهم في جلبلة وحركة فلما أصبحوا أرسل سيمور إلى الربان يقول: ما هذه الحركة وما داعي تلك الجلبة وقد شوشتم علينا وأقلقتمونا فقال الربان: هي حركة لا بد منها أمام السفن الأجنبية، فأرسل إليه ثانية يقول: كف وإلا ألحقتك والمركب إلى قاع البحر وارع حرمة سفن الحرب الإنجليزية ما دامت على قدم الاستعداد فانكمش الربان وخاف، وقدمت إلى بورسعيد بعض الطرادات الفرنسية والألمانية والإيطالية تخفر السواحل يمنة ويسرة وحضرت مدرعة كبيرة إنجليزية اسمها أوريون ورست أمام البوغاز فمانع أصحاب البوغاز من الفرنسيين في دخولها فبقيت أياما ثم دخلت وسارت حتى رست في بركة التمساح وكان فيها من الضباط مائة واثان وأربعون ومن العساكر والأجناد عدد كثير، قيل وكان من أخص عمل هذه السفينة الوقوف أمام القنطرة بعد قطع خط التلغراف الموصل إلى دار السلطنة، ثم عدلت عن قطعه وعادت فألقت مرساها أمام مدينة الإسماعيلية، وكانت الحرب إلى هذا الحين قائمة ما بين العراقيين والإنجليز عند مواقع كفر الدوار والمواقع الأمامية بلا انقطاع حتى أتت الأخبار إلى أحمد عرابي بوصول مراكب الحرب إلى مدينة بورسعيد ونزول جيوش ولسلى بمدينة الإسماعيلية فسار من كفر الدوار إلى التل الكبير ومعه جماعة

من الضباط وطائفة من الحرس فلما وصل قطاره إلى مدينة الزقازيق خف للاقائه العمدة والأعيان والمشايخ وأرباب الطرق والأشايير وموظفوا الحكومة فنزل بالمحطة وعلى يمينه عبد الله صاحب الطائف وجلس بالكشك المقابل لها فاجتمع عند ذلك زعائن الناس حول الكشك واشتد زحامهم وعلا الضجيج وكثر الصياح بكلمات وعبارات قد لفقوها على قدر عقولهم من مثل العسكر فى الطوابى، الله ينصرك يا عرابى، يامولانا يا عزيز، أهلك عسكر الإنجليز، ياسيمور ياوش القملة، من قال لك تعمل دى العملة، وغير ذلك من بذى القول وفحش الكلام ولبث على هذا الحال برهة ثم قام ودخل عربة القطار وهو ينادى أنا لها أنا لها والناس فى ضجيج زائد والغوغاء يصفقون بأيديهم ويضربون الأرض بأرجلهم فسار به القطار إلى التل الكبير على عجل وجعلوا من هذا اليوم يتابعون إرسال المؤن وآلات الحرب إلى التل الكبير وتوارد الجند من مشاة وفرسان وأصحاب المدافع وكثر الوارد منهم فتعطلت قطارات السفر من الإسماعيلية والسويس وهاجر من السويس من رجال الدولة وبعض الأهالى وأجهد الجند الطاقة فى إنشاء الحصون والمعاقل وأقاموا المتاريس على مسافة وجمعوا الكثير من أهل البلاد لهذا العمل ورتبوا المقدمات وبالغوا فى تعبئتها وعالجوا قطع الماء الخلو عن الإسماعيلية والسويس وتبع العسكر كثير من السوق وأصحاب الصنائع الدنيئة مثل الإسكافية والقهوجية والسمركية والخياطين وباعة الأفيون والمكيفات ونصبوا لهم المطاول وعملوا النايات والعشش من القش والبوص وغير ذلك فأصبح ذلك الصعيد أهلاً بأصناف الناس وكانت لما رست تلك السفينة الإنجليزية أمام مدينة الإسماعيلية تصدّت إلى سائر ما وجدته هناك من بقية السفن على اختلافها ومنعت وقوفها أمام المدينة وشددت على أصحابها وضيقّت فرحلوا عنها وهم صاغرون وخلا لها الجو فلم يمض إلا النصف الأول من تلك الليلة حتى قامت فى المدينة حركة شديدة للغاية وضوضاء وجلبة، ثم اشتد بعد ذلك إطلاق البنادق وجر المدافع وزحف الجند فهب الناس من مضاجعهم مذعورين وكان على رؤوسهم الطير ونظروا وإذا العساكر الإنجليزية قد ملأت الفضاء وهم فى حركة زائدة كأنّ العدو يهاجمهم ثم لم يمض على ذلك إلا ساعة أو بعض ساعة حتى دوت أصوات المدافع من تلك السفينة وسفينة أخرى جاءت فرست بجانبها اسمها كارليفور واشتد الرمي وتراسلت القنابل على مواقع العرابيين بناحية نفيسة وما زال الحال هكذا طوال الليل فلما أشرقت الشمس سكتت المدافع وخرج جماعة من الإنجليز

قاصدين قرية العرب فلما رآهم أهلها مقبلين خرجوا على وجوههم هائمين فأخذتهم نيران البنادق من كل جانب لا سيما منهم النساء والأطفال ثم قطعوا سائر خطوط التلغراف القائمة ما بين السويس والإسماعيلية والقاهرة فاشتد الخوف بأهل الإسماعيلية من الأجانب والأهلين ونزح الكثير منهم إلى بور سعيد والمنزلة والمنصورة وغيرها ووصل إلى الإسماعيلية سيمور أمير سفن الحرب وولسلى مقدم العساكر البرية وكثر توارد المؤن وآلات الحرب ودواب الحمل من الجمال والخيول والبغال على ظهور السفن والشوانى واشتدت الحركة بزحف العساكر وجر المدافع وتحميل الأثقال، قيل: فأخذت أحمد عرابى وأصحابه الطيرة واشتد بهم القلق وقد كانوا على عهد مع ديلبس فأتاح خليج السويس بأنه لا يمكن سفن الإنجليز من العبور والوصول إلى مدينة الإسماعيلية فكتب أحمد عرابى إلى المابين الهمايونى كتابا يقول فيه: كنت قد بسطت لعظوفتكم قبل الآن أمر اعتداء الإنجليز وتسلبهم فى جهتى السويس والإسماعيلية على التبعة ومخالفتهم للعهد بما جاء مخلا بنظام التبعة وبسطت أيضاً ما كان من الهمة التى بذلناها فى جعل التبعة على الحيادة لأنها نقطة وحيدة لاجتماع منافع الأمم وعمر تجارة العالم أجمع وحيث قد قرب الآن توجه المحل الشريف والحجاج المسلمين إلى جهة الحجاز كتب إلى الميسو ديلبس الموجود الآن فى الإسماعيلية بالاستفهام عما إذا كانت إنجلترا تمنع فى مرور عساكر المحافظة المعتادة على التوجه مع المحمل الشريف أولا فأجاب وكالة الجهادية بالتلغراف، قائلاً: إنه بالنظر إلى الأحوال الحاضرة لا يمكنه أن يأخذ على نفسه تبعة إرسال المحمل الشريف قال وبعد ورود هذا الجواب منع الإنجليز جميع سفن الدول الحربية من المرور بالقتال وقطعوا الأسلاك البرقية الكائنة بين السويس والإسماعيلية كما عرفنا ذلك بالتلغراف ثم أدخلوا سفنهم الحربية مع العساكر بأسلحتهم وقد أجريننا الاحتياطات لمقاومة العدو إذا تقدم إلى داخلية البلاد وكان قومندان الخط الشرقى ومحافظ الإسماعيلية ويوزباشى المستحفظه هناك قد أفادوا أن من عزم الإنجليز أن يطلقوا مدافعهم على النقط العسكرية الكائنة فى مداخل البلاد فى هذا الصباح علم من الأخبار الواردة أن الإنجليز شرعوا فى الساعة التاسعة من ليلة أمس فى إطلاق القنابل من جهة الإسماعيلية على نفيسة أما نحن فبالنظر إلى احترامنا لعهود التبعة بأن تكون على الحياد وإلى عدم تقويتنا لتلك النقطة وعدم وجود قوة عسكرية تقوم بشأن المحافظة على النقط فيما عدا نقط العساكر المستحفظة وموالة التحريض الشديد

على عدم مس حقوق التربة كل ذلك جعلنا فى مأمن تام من تحمل أى تبة كانت .
ولما بدا من الإنجليز هذا الاعتداء على ضفاف التربة أقام المسو ديلسبس الحجة على
الأميرال الإنجليزى وأرسل صورة الحجة بالتلغراف إلى الحكومة الفرنسية فاتصل
خبرها بوكلاء الدول فى عاصمة الحكومة المشار إليها فأعلموا بها دولهم بصفة رسمية
أما الإنجليز فسيروا منهم على حكم المثل السائر «البادى أظلم» لم يلتفتوا إلى إقامة
الحجة بل أصرروا على الإخلال بنظام التربة وفى هذا الشأن أرسل تلغراف إلى المسو
ديلسبس بما يأتى «بما أن الإنجليز خرقوا نظام حيادة التربة فقد صارت مصر مضطرة
إلى سدها وتعطيلها معنا لاعتداءتهم فإذا لم يرد لنا جواب فى مدة أربع وعشرين
ساعة اضطررنا إلى اتخاذ الاحتياطات اللازمة للمدافعة» - قال - فمن التفاصيل التى
تقدم سردها تعلمون أن الدولة الإنجليزية التى كانت متخذة لها مقاما خطيرا لدى
الخلافة الكبرى وفى دار السلطنة العظمى وكانت تزعم أنها أشد الدول محافظة على
السلام وأنها لا تحارب مصر ولا تقصد بها شرا قد أوقعت المسلمين فى إشكال عظيم
ومن التعدى الذى قامت به أمس ظهر فى الواقع أنها تتظاهر بخلاف ما كانت تزعمه
سابقا وتحقق أيضاً أنها مقاومة لجميع المصريين الأمة الخاضعة للدولة العثمانية ، وأنها
داست بأرجل المطامع منافع جميع الدول ولم تخش أحدا ورمت بنار الحرب والقتال
إقليما عظيما فيما أن أعمال الإنجليز وصلت إلى هذه الدرجة لم يعد فى الإمكان أن
نترأخى فى اتخاذ الوسائط الموصلة لدفع كيدهم وأما النتائج الوخيمة التى سترتب
على ذلك فستكون عائدة على المعتدى الظالم وقد بسطت فيما مضى شرح الأحوال
التي كانت جارية يوم تدوينها وإرسالها فلكى يكون ما أعقبها غير خاف على شريف
علم ظل الله بادرنا إلى كتابتها وتقديمها لنادى عطوفتكم . اهـ .

وكان أحمد عرابى وأصحابه يعلمون أن دخول عسكر الإنجليز إلى جوف البلاد
سيكون من هذه الأرجاء الواسعة ولا سيما من جهة الصالحية فعقد مجلسا من جميع
الضباط وكبار العصاة وتكلموا فى هذا الأمر ثم استقر رأيهم على تجهيز قوة ثالثة
يكون مركزها الصالحية وسيروا فى طلب ما جمعوه من خفراء البلاد بالجهاد القبلىة
والبحرية وألبسوهم الدرعايات من البفتة البيضاء ولبد الصوف عوض الطربوش
وسلحوهم بالبنادق والقرابينات على غير درية ولاخبرة وجعلوا المقدم عليهم على
الروى أحد زعماء العصاة وساقوهم إلى الصالحية فعسكروا بها وعملوا بعض
الخطوط والمتاريس وخرج معهم محمود باشا البارودى متطوعاً يريد الغزو والجهاد فى

الإنجليز، وكان أحمد عرابي قد أعد لنفسه بالتل الكبير خيمة سعيد باشا ابن محمد على الكبير وهي من عجائب الخيام التي قل أن يكون لها مثل، وأقام بها بين الخدم وطوائف الحرس كأنه في عرس أو وليمة فجاءه جميع العلماء والمشايخ والعمد والأعيان ووجهاء البلاد للسلام وهاداه عمد ومشايخ سائر البلاد بالهدايا من السمن والأرز والعسل والدقيق وعجول البقر وفحول الجاموس والضأن لطعامه وطعام الجند المحاربين معه وأكثروا من إرسال الحلوى والفاكهة على اختلافها فكانت تأتي إليهم على قطارات السكة الحديد، وكان لما ذاع الخبر بما عليه المحاربون من الراحة ورغد العيش تطوع الكثير من أرباب الطرق والأشائر والمتعممين وأصحاب العكاكيز من سائر البلاد القبلية والبحرية وسار من منية ابن خصيب إلى مواقع التل الكبير الشيخ عبد الجواد ومن اليمون الشيخ الجنيد في لموم كثيرة وطبول ورموز وكاسات وبيارق فأنزلوهم في ناحية أعدت لهم فكان لا هم لهؤلاء القوم البتة سوى طلب المأكول والمشروب في الأوقات الثلاثة فإذا أكلوا وشربوا وامتلات بطونهم من الثريد واللحم المسلوق وجحظت عيونهم عقد كل طائفة منهم مجلسا كما يسمونه فيذكرون ويرطنون بكلمات لا معنى لها البتة ويصيحون وينادون مدد مدد فإذا اشتبك القتال بين الجند والإنجليز واشتد رمى المدافع والتقت نيران البنادق بالبنادق صاحوا وترامحوا ونادوا ياسيد يابدوي يا أبا عبد العال يا آل البيت يارجال الله ثم لا يلبثون أن يختفوا عن الأبصار، فإذا بطلت الحرب عادوا إلى حلقات الذكر وتكلموا برطانتهم ثم يقولون قتلنا من الكفار كذا وذبحنا بحد السيف كذا وكذا ولا نزال بهم إن شاء الله حتى نأتى على آخرهم ببركة آل البيت وكذلك كان يفعل جماعة العربان الذين كانوا بالصالحية مع معسكر على الروبي عند النداء في العسكر بالخروج إلى القتال.

وبينما كانت الحال على ما وصفنا في مواقع التل الكبير وكفر الدوار والصالحية كان العامة بطنطا ودمهور والمحلة الكبرى يفعلون ما لا يوصف من النهب والقتل والعريضة ويكثرون من التطواف ليلاً ونهاراً جماعات وبأيديهم العصي والمساوق وهم في ضجة وجلبة وصياح ييامولانا ياعزيز أهلك عسكر الإنجليز وغير ذلك من العبارات التي لفقوها، حدثني من شاهد، فعال العامة بمدينة طنطا ورآها رأى العين بعد كلام قال: ولم أتجاوز البيت يعني بيته حتى رأيت البلد يضج بالغوغاء وصراخ النساء والأطفال وتجمع الناس في الأزقة والشوارع يدفع بعضهم بعضا فسألت عن السبب فقيل لي أن الحرب على أبواب البلد وقد ثار المسلمون على النصارى

يذبحونهم وينهبون بيوتهم ويسبون نساءهم وأولادهم فقلت فى نفسى فتنة ورب البيت وأسرعت إلى مقر ديوان المديرية فرأيت أمامه من المناظر المحزنة والمشاهد الموحجة ما تنفطر منه الأكباد فقد كانت الناس تقتل وتجر من أرجلها على الأرض كالبهائم المأخوذة إلى السليخ بعد الذبح وكان الغوغاء وخفراء الديوان يحملون العصى والمساوق ويوقعون العطب بكل من يمر عليهم من النصارى ولا يرفعون أيديهم عنه حتى يقضى عليه، وكان بعد موته على هذه الحالة الشنعاء يستلمه جماعة آخرون، فمنهم من يجره من رجليه، ومنهم من ينزل على رأسه بالهراوة حتى تتطاير أجزأه . اهـ .

وحدثنى أيضاً من شاهد ما وقع فى نفس ذلك اليوم بالمحلة الكبرى بعد كلام قال : وقد كنت فى سوق السلطان وكان الوقت بالغاً إذ ذاك من النهار حد الساعة السابعة إذ أقبل من ناحية القنطرة جم غفير من الحمارة والسوقة وكلهم من السفلة والرعاى وفى أيديهم العصى والمساوق وبعض الآلات الجارحة والنارية وهم فى ضجة وجلبة عظيمة وكلما مروا بحارة أو زقاق انضم إليهم أهله من أصحاب البطالة حتى اقتربوا منا فسمعناهم ينادون يا تجار اقفلوا حوانيتكم لأن النصارى جعلوا يقتلون المسلمين على القنطرة فعند ذلك سارعنا إلى النهوض وقصدنا بيوتنا خوفاً على العيال، وكان معنا فى هذا الحين حسين أفندى سامى مأمور تاريخ المديرية فأبى الذهاب إلى بيته وقال : حتى أرى ما أصاب المسير كجروس مفتش تاريخ المحلة فذهبنا معه وقبل أن نصل إلى بيت ذلك المفتش سمعنا الغوغاء يقولون : يامسلمون اقتلوا النصارى وانهبوا بيوتهم كما أمر ضابط البلد، ووصلنا إلى بيت المفتش فوجدنا بابه مغلقاً وعليه جماهير العامة وأصحاب الفتنة يريدون كسره واقتحام البيت لنهب ما فيه وقتل المفتش ومن معه فصاح فيهم حسين سامى وفرق جموعهم ودخل على المفتش وهدأ روعه وسكن جأشه وسار الأهالى رجالاً ونساءً وأولاداً وهم يصيحون الله أكبر الله أكبر ويهجمون على الخانات ودكاكين التجار وينهبون ما فيها من مأكول ومشروب وملبوس ومفروش واستمر الحال على هذا الوصف إلى قبيل الغروب قليل وقد قتل تسعة رجال منهم ستة من الروم وثلاثة من مهندسى التاريخ الأجانب، وقد كانوا مقيمين فى ناحية الشون الكبير وكان لأحدهم زوجة ولآخر ثلاث بنات أبكار وغلّام وحماة التجّوا كلهم إلى بيت محمود أفندى منجد مأمور مركز سمندو فأوأمهم وذب عنهم جهد الاستطاعة - قال - وقد أحرقت العامة بعض القتلى بنار البترول وألقوا البعض الآخر فى البحر ومنهم من دفن فى تل الواقعة . اهـ .

(قلت): وكانت فعال العامة بالقاهرة أيضاً بالغة حدّ الجفاء والشدة ولكن لم يقع شيء من القتل ولا النهب ليقظة صاحب الشرطة إبراهيم فوزى بيك وتطوافه فى الشوارع والأزقة والحارات ليلاً ونهاراً وقد رأيت جماعة منهم يوماً يطوفون وبينهم حمار وعلى ظهره كلب أسود وعلى رأس الكلب قبعة (برنيطة) بالية والكلب فى غاية الخمول والكسل كأنه أظعم شيئاً من المخدرات كالحشيشة ونحوها ولسانه قد تدلى من شدة الظمأ والتعب وهم يصيحون حول يياسيمور ياوش القملة من قال لك تعمل دى العملة، وما زالوا على هذه الحال من التطواف إلى وقت الهاجرة ثم أتوا إلى قشلاق جند الحرس الخديوى برحبة عابدين فلما صاروا أمام الباب تقدم أحدهم نحو الكلب وألقاه عن ظهر الحمار وذبحه بسكين كانت معه ذبح الشاة، فصاح عند ذلك الجمع صياحاً متابعاً الله قطع الله رأس سيمور قطع الله رأس سيمور يريدون سيمور أمير مراكب الحرب وهكذا كان شأنهم مع الكلاب فى كل يوم حتى انكمشت واختفت عن الأبصار ولجأت إلى مواقد الحمامات وخرائب المدينة وكان إذا ظهر واحد منها ونادى عليه أحد الصبيان باسم سيمور اندعر وترامح واختفى عن الأبصار فراراً من الموت وكأن الكلاب قد أدركت بملكة التمييز (أى الغريزة الحافظة لنوع الحيوان) ما وراء كلمة سيمور من لبس القبعة والتطواف على ظهر الحمار ثم قطع الرأس أقول: والشئ بالشئ يذكر حدثنى صاحب لى، قال: حدثنى أبى رحمه الله وقد كنت أقص عليه يوماً فعال العامة بالكلاب فى تلك الأيام فتبسم وقال: ليس فى الأمر ما يدعونى إلى الاستغراب من تلك الحيوانات الداجنة فقد أتى إلى القاهرة على عهد محمد على باشا الكبير أمير من أمراء الإنجليز ومعه زوجته للتفرج على آثار الديار فأقام بالقاهرة ما شاء يتجول فى شوارع المدينة ويتفرج على ما فيها من الدور والمباني والمساجد والمعامل وكانت يومئذ كثيرة إلى أن سار يوماً إلى ناحية الحسينية والدمرداش ومعه زوجته وكان زىّ ملابس الأمراء فى ذلك الحين قبعة طويلة سوداء وسراويل ضيقة وكساء مخروطاً من الأمام ولقافة حول العنق، وكان كساء النساء فستاناً تحته آخر بأسلاك الحديد على شكل قبة الهواء وقبعة كثيرة الأقمطة والأربطة فلما وصلا إلى ناحية الحسينية عرّج بهما ترجمانهما إلى ناحية المذبح ليراو كيفية الذبح فى هذه البلاد وكان أمام المذبح كثير من الكلاب الأشداء كأنها الوحوش الكاسرة فلما رأت هذه الهيئة الغريبة والزى البعيد عن عادة أهل البلاد قامت على الأمير وزوجته قومة واحدة فذعرتهما ومزقت ملابسهما فتداركهما أهل تلك الخطة

وخلصوهما فعادا إلى المدينة ولبشا ما شاء ثم عزموا على الرحيل عن مصر فذهبا
لوداع محمد على باشا فلاطفهما وحادثهما ساعة وسألهما عما أعجبهما في البلاد -
قال: وكان محمد على باشا شديد الرغبة في تقدم البلاد وإيرادها موارد العز
والرفاهية ميالا إلى توسيع نطاق الزراعة والتجارة والصناعة مجبا لخيرها جهد
الاستطاعة فقال الأمير: قد رأينا في بلادك أيها الأمير كل ما يسر خاطر ويقر الناظر
ويبشر إن شاء الله بخير المستقبل غير أن قد رأينا أيضاً شيئاً لم نره في بلاد الأمم
المتقدمة قال: وما هو، قال: رأينا بناحية المذبح عند باب الحسينية جيشاً من الكلاب
فما وقع نظرها علينا حتى قامت قومة واحدة كالوحوش الكواسر فازعرتنا فتداركنا
نفر من أهل تلك الخطة فخلصونا وعهدنا بالبلاد المتقدمة أن لا يترك في شوارعها
مثل هذه الحيوانات الكاسرة فقال الباشا يحزننى جداً ما أصابكما ولكن إذا عدتما إلينا
في السنة القابلة إن شاء الله فلا تريان إلا ما يسركما فشكراه وودعاه وانصرفا فأرسل
الباشا في الحال في طلب كتخداه لأظه أوغلى فدخل عليه فقال: عليك من الساعة
أن تبعد عن القاهرة ومصر جميع ما فيهما من الكلاب وتسير بها إلى الدار البيضاء
وطره والجيزة وإياك أن تبقى منها واحداً، قال: فنزل الكتخدا وسار إلى ديوانه ودعا
إليه مشايخ الحارات، وقال: تجمعون من الساعة سائر كلاب مصر والقاهرة ومن ترك
واحداً منها حل به ما يكره فنزل مشايخ الحارات وجعلوا يطوفون في الأزقة
والحارات وتبعهم الصبيان يقبضون على كل ما يجدونه منها وكثر البحث والتفتيش
وأخرجوها من كل فج عميق واشتدوا عليها شدة بالغة فكانوا يسيرون بها عشرات
ومئات إلى الدار البيضاء وطره والجيزة فأدركت الكلاب ما هنالك واختفت عن
الأبصار فشدوا في طلبها أياماً حتى ظنوا أنه لم يبق منها واحداً فانكفوا، فلما كان
بعد بضع أيام ظهر منها ما كان مختفياً وهى فى أسوأ حال من الجوع وجعلت تسعى
فى طلب الرزق ولا يخفاء أن عادة السوقة وأصحاب الحوانيت إذا جلسوا فى
حوانيتهم صباحاً لا يبيعون ولا يشترون حتى يفطروا فيأتون بالقول المدمس والبصل
والخبز ويجلس الرجل منهم وظهره إلى الطريق فكان إذا أتى كلب ووقف أمام
الحانوت يطلب صدقة التفت إليه صاحب الحانوت فيقول له اخساً - جر - عصا -
امش - فلا يتحرك فإذا قال لغلامه: ناد يا ولد على شيخ الحارة - هرول الكلب
مسرعا واختفى عن الأبصار لإدراكه ما وراء حضور شيخ الحارة من القبض عليه
والتغريب وبقي الحال هكذا فى منع الكلاب وطردها عن الحوانيت أياماً كثيرة.

وكبرت فى هذا الحين شرور مهاجرى الإسكندرية وعظمت فعالهم فعاثوا وأنفسدوا وبالغوا فى إيذاء الناس بلا فرق ولا تمييز فابعدوهم عن مصر والقاهرة وفرقوهم فى الأقاليم القبلية والبحرية وأسكنوا من بقى منهم بالقاهرة فى دور الحكومة وبيوت الأمراء الذين لجؤا إلى الخديوى بالإسكندرية وأنزلوا جماعة منهم فى بيت محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد على ما فيه من فرش وبسط وأثاث نكاية وانتقاما ورتبوا لهم خبزا فى كل يوم وأقاموا عليهم من يقوم بتسيير أمورهم وإحضار طعامهم فى أوقاته فكانوا لا يشكرون نعمة ولا يحمدون محسنا ولا ينفكون عن المهاترة والشناعة والملاكمة بعضهم مع بعض رجالا ونساء وأولادا وكان الرجل منهم إذا أعوزه الأفيون أو الدخان أو بعض المكيفات عمد إلى الخوانيت المقفلة ففتحها وأخذ ما فيها بلاخوف ولا اكتراث فكان إبراهيم فوزى بيك صاحب شرطة القاهرة لا ينفك عن التطواف ليلا ونهارا ومعه جماعة من أعوانه بأيديهم العصى فإذا رأوا جماعة من هؤلاء الخرافيش فى إحدى الطرق فرقوا جمعهم وباعدوا بينهم وبين بعض كى لا يتمكنوا من فعل شئ بالدور والخوانيت المقفلة وكانت فعال من تفرق منهم فى القرى والبلدان غاية فى الشناعة والإيذاء أيضاً فكانوا ضربة على البلاد وأهلها.

ولما تكامل حضور العساكر الإنجليزية إلى مدينة الإسماعيلية جعل مقدمهم يستكشف مواقع العرابيين ومعاملهم وحصونهم التى كانوا يشتغلون بعملها بين الإسماعيلية والمسخوطة وكانوا قد تمكنوا من منع الماء عن الإسماعيلية وبورسعيد والسويس فرأى مقدم الإنجليز أن يعاجلهم بالقتال وهم على هذه الحال فزحف عليهم وقاتلهم قتالا شديدا حتى أوقع بهم واستولى على مواقعهم ثم كر عليهم العرابيون فأخرجوا الإنجليز من مراكزهم ولكنهم عادوا فاستولوا عليها بعد قتال، وسار جماعة منهم قبل ظهر السادس من شوال يبلغ عددهم زهاء الثلاثمائة قاصدين نفيسة فوصلوا إليها فلم يجدوا فيها أحدا من العرابيين فأنهم لما علموا بقرب الإنجليز منهم تركوا نفيسة وساروا إلى المحسمة فعلم الإنجليز بخبرهم فتبعوهم وضيقوا عليهم وأخذوا عليهم الطرق من كل جانب فتقهقروا من المحسمة وتركوا بعض ما كان معهم من المؤن والذخيرة وآلات الحرب وكان محمود باشا فهمى ناظر الأشغال العمومية وأحد زعماء العصابة مع العرابيين يومئذ فى ذلك المكان يرتب خطوط الدفاع الأمامية للتل الكبير فتركه العرابيون وتقهقروا فلاقاه نفر من الإنجليز عند

محطة السكة الحديد ولم يعرفوا من هو إلا بواسطة أحد العساكر المصرية المجروحين لأنه كان لابسا لباس الملكيين ويده مظلة بيضاء فلما اقترب من ذلك الجندي المجروح وكان الجند جالسا قام وأدى له إشارات التعظيم ففطن الإنجليز لذلك وقبضوا عليه فسجنوه ليلتهم تلك فى حجرة صغيرة ثم أصبحوا فسيروا به إلى الإسمايلية، فلما تمثل بين يدى مقدم الجيوش الإنجليزية قال له: أنت ممن تركوا العسكر وولوا الإدبار أو ممن أسروا قهرا قال إنى أسير ولست منهزما فأمر به مقدم الجيوش فنقلوه إلى الإسكندرية وسجنوه فى دار محافظة المدينة وتقدم الإنجليز فى ذلك اليوم يريدون قطع شأفة العربيين فخرج عليهم جماعة من العربيين ورموا عليهم بالبنادق رميا متتابعا وكذلك رمى الإنجليز واشتبك الحرب بين الفريقين ففعلت يومئذ نيران العربيين بالإنجليز فعلا رديئا وكان القبط لا يطاق فى ذلك اليوم ففعلت الشمس أيضاً بهم من الموت ما لم تفعله نيران العربيين وظهرت مدافع المصريين أيضاً وتابعت الرمى بالقنابل على مواقع الإنجليز واشتدت فى الرمى حتى اتصلت بمؤخر الإنجليز وفعلت بهم فعلا أليما، وكان العربيون قد حصنوا التل الذى هناك وأقاموا فيه خطوط دفاعهم مرتبة ترتيبا حسنا إذ كان يشغل فيها من أهل البلاد والقرى المجاورة زهاء سبعة آلاف فلما اشتدت عليهم نيران الإنجليز وتراسلت قنابلهم انسحبوا إلى التل المذكور وتحصنوا به فتبعهم الإنجليز فى عاشر شوال وقاتلوهم قتالا عنيفا وكان مقدم المصريين فى هذه الواقعة الفريق راشد باشا حنى الجركسى المعروف بأبى شنب فضة فقاتل فى ذلك اليوم قتالا شديدا جدا وفعلت نيران مدافع العربيين بالإنجليز فعلا رديئا وكانت قنابلهم تأتى إلى مواقع الإنجليز تباعا محكمة الرمى والإصابة حتى اتصلت بموقف ولسلى مقدم الجيوش فقتلت من حاشيته وجرحت فشهد الإنجليز لأصحاب المدافع وامتدحوا كفاءتهم وما زالوا على هذه الحال والرمى متراسل من الفريقين وراشد باشا يدير الحركة ويتابع الإشارات لأصحاب المدافع وهو بين ملتقى النارين حتى جرح جرحا بليغا وشاع الخبر بذلك بين العسكر فانفشلوا وانهزموا فتبعهم الإنجليز وضيقوا عليهم حتى أخذوا مواقعهم وغنموا ما كان فيها من المدافع والمؤن والذخيرة واشتد التعب بالإنجليز وأعوزهم الماء والطعام فقد قضوا ثلاثة أيام كاملة بعد هذه الوقائع لا يأكلون سوى البقسماط اليابس ويشربون الآسن الممزوج بدماء القتلى من الإنسان والموتى من الحيوان ففعل فيهم هذا كله فعلا رديئا ووقع فيهم الموات واشتدت بهم العلل والأمراض وحاول

العرابيون رجوع الكرة عليهم واسترجاع مواقع القصاصين منهم فخرجوا عليهم بقوتين إحداهما: قدمت من مواقع التل الكبير، والثانية: من مواقع الصالحية وكان مقدم هاتين القوتين فى ذلك اليوم على باشا فهمى المعروف بالديب فخرج الإنجليز للقائهم واقتتلوا قتالا عنيفا فظهر الإنجليز على العرابيين وجرح على الديب جرحا خفيفا وتقهقر المصريون وانفشلوا وتبعهم الإنجليز وقد مات فى هذه الواقعة من كبار الإنجليز وصغار ضباطهم جماعة وعدد من الجنود وتحصن العرابيون بعد ذلك فى حصون ومعقل التل الكبير فتبعهم الإنجليز رويدا فجعل المصريون يرمون عليهم بالقنابل رميا متابعا غاية فى الإحكام فتربص الإنجليز حتى تكاملوا، حدثى صاحب لى قال: ودبر العرابيون الأمر ورتبوا كيفية هجومهم على الإنجليز والإيقاع بهم بأن تسير من مواقع الصالحية قوة مؤلفة من الجنود بين مشاة وركبان ومدفعين وجماعة من العربان بقيادة على الروبى والبارودى فتأتى على ميمنة وخلف الإنجليز قبل مطلع الفجر الأول، وتسير قوة أخرى من مواقع التل الكبير وتأتى على ميسرة وخلف الإنجليز أيضا بعد وصول القوة الأولى بقليل ثم تلتحق القوتان بطرفيهما فيصير الإنجليز فى القلب ويقطعان عنهم خط الرجعة إلى المحسمة ويعملان فيهم القتل والتشريد قال: وسمعت أهل الحرب يقولون كانت هذه الخطة غاية فى الإتقان بالغة حد التفنن الحربى ولكن لحظ الإنجليز لم يتم للعرابيين شئ من ذلك إذ تأخر حضور عسكر الصالحية فى الميعاد المحدد لالتقائهم بجند التل الكبير وانقسم الرواة فى سبب تأخرهم إلى قسمين قسم قال: إن الخبراء من العربان الذين تولوا الإسراء بالجند ليلا من صحراء الصالحية إلى المحسمة قد ضلوا عن الطريق فلم يشعروا إلا ونور الفجر قد لاح وهم على قيد فراسخ من المواقع فخاف الضباط وتربصوا قليلا ليتحققوا الأمر فسمعوا أصوات المدافع مترادفة فرجعوا على أعقابهم القهقهرى، وقسم قال: إن الذى أوجب تأخرهم إنما هو ضخامة الجيش وثقل مدافعه وصعوبة السير على رمال تلك الصحراء الموجة فلما وصلت طليعة جند التل الكبير إلى مقربة من مواقع الإنجليز وكان الإنجليز قد أحسوا بما دبره العرابيون قابلهم فرسان الإنجليز بالسيوف شمال المراكز وأعملوا فيهم الضرب فتقهقروا وعادوا إلى الورا بدون قتال ولجؤا إلى مقدمات قلاع التل الكبير ولم يفلحوا فى هذه اللحظة التى كان عليها تمام نصرتهم والله يؤتى النصر من يشاء من عباده.

وبدأت تظهر من هذا الحين طلائع الأخبار ببعض المدن وفى القاهرة بعزم

السلطان على إشهار عصيان أحمد عرابى ومن معه من كبار العصابة وأنهم خوارج مارقون واتصلت هذه الأقوال ببعض أخصاء أحمد عرابى والمقربين إليه من أهل البلاد فبالغوا فى كتمانها وكأنهم قد أشفقوا عليه فكثرت رؤياهم وأحلامهم أو هم أكثرها منها وجعلوا يذيعونها بين العامة وصغار الناس عليها تدفع عن أسماعهم الخبر القائل بعزم السلطان على تكفير أحمد عرابى والنداء بخروجه وشقه لعصا الطاعة، حدثنى صاحب لى بمن كان فى ركاب أحمد عرابى بالثل الكبير قال: وكثر وقوع الأحلام والرؤيات لبعض المشايخ والمتعممين من أهالى القاهرة ومصر وبعض المدن فكانوا يسطرونها على أوراق ويرسلونها إلى أحمد عرابى بالثل الكبير وكلها عجائب وغرائب فقد اطلعت على بعض ما فى تلك الأقوال فرأيت أنها من الإفك والبهتان بمكان عظيم وعلى الخصوص منها أحلام أهل الشرقية وبعض مشايخها فقد أرسل أحدهم إلى أحمد عرابى يوما يقول رأيت فى نومي الليلة البارحة كأنى دخلت بستانا كثير الأشجار يانع الثمار تجرى فيه الأنهار فأدهشنى حسن ما فيه وتقدمت رويدا وأنا أسرح الطرف فى ذلك البهاء الظاهر واللجنة التى لا يعرف لها أول من آخر فبينما أنا على هذا الحال إذ أمسك بكفى صبى ما رأت عيني أجمل طلعة من طلعتة، وقال: إلى أين يا هذا أصلحك الله؟ فقلت: لا أدرى ورب البيت، قال: انظر إلى يمينك ولا تجزع فنظرت فإذا بى أرى كرسيًا من الزمرد الأخضر وبجانبه آخر من العقيق الأصفر ثم سمعت دويًا كصوت النحل ومنادياً ينادى أنزل يا مصطفى أنزل يا أحمد أنزل يا محمد فاشتد عند ذلك صوت ذلك الدوى وارتج المكان رجة مزعجة حتى كدت أسقط مغشياً على من شدة الخوف فلم ألتفت إلا وقد جلس على ذلك الكرسي الأخضر إنسان لم تر عيني أحسن شكلاً منه ويده مسبحة حباتها من العنبر فنظر إلى المكان نظرة المشفق ثم دق كفاً لكف فحضر لديه فى الحال جماعة من الغلمان كأنهم البدور إذا بدت وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا: لبيك يا حبيب الله قال: أين المجاهد أين المغاوى أين نسل ولدى الحسين فغاب بعضهم لحظة لطيفة وعادوا وأنت بينهم أيها الأمير الجليل متشحاً بحلة من السندس الأخضر وعلى وجهك هبة وجلالة الله أكبر فقال النبى عليه الصلاة والسلام، تقدم يا أحمد فتقدمت وأنت خاشع مطرق فمد النبى ﷺ لك يده الشريفة فقبلتها مبتهلاً، وقلت: انظر يا رسول الله ما فعل الكفار بنا ونحن فى جوار عترتك الطاهرة وآل بيتك الكرام انظر كيف طرقت أرض الكنانة بخيلهم ورجلهم فعاثوا وأفسدوا وأراقوا

الدماء هدرا ثم اغرورقت عينك أيها الأمير بالدموع فنظر إليك رسول الله ﷺ وهو باسم وقال: خفف عنك يا أحمد فسوف تظفرون بهم وينصركم الله عليهم نصراً مبيناً ثم تناولك سيفاً قبضته من الذهب الخالص المرصع بالدر والجوهر، وقال: اضرب بهذا رقابهم ولا تكف عنهم حتى يستسلموا بإذن الله تعالى فلما سمعت أنا هذا الكلام من رسول الله ﷺ وكأني والله في يقظة لا في منام صحت فرحاً وقلت الله أكبر الله أكبر على من طغى وتجبر فانتبهت من نومي وكان رؤياي منقوشة على صدرى فأبشر بالنصر والغلبة على القوم الكافرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، قال الراوى لهذه العبارة: وكانت هذه الأكاذيب تتلى بين المحاربين في مواقع التل الكبير من ضباط وجند وعربان وفي مواقع الصالحية وكفر الدوار فيتناقلها العامة والسوقة الذين يتبعون الجيش في مواقع القتال وهؤلاء يثونها محشوة بالإفك والبهتان بين أهل المدن والقرى القرية فكان الناس لا يشكون قط في صدقها ولا يقبلون لها تأويلاً وظل الحال على ما هو عليه من انبثاث دعاة العصاة في جوف البلاد يحضون البسطاء من أهلها على إمداد المحاربين في مواقع التل الكبير بالنفس والنفس ويموهون عليهم الحقائق ويقصون عليهم تلك الأحلام والمنامات محشوة بالخلط والتخريف حتى عم الفساد واختل النظام واشتدت الفتنة واتسع خرقها وصار الناس كلهم يتناولون على مقام الخديوى بالسياب وفحش القول ويرمون بالمروق ويتهمون بترك دينه والتمسك بدين النصرانية ونصروا عبد الله صاحب الطائف ودعاة العصاة معه وأحلوا سائر مفترياتهم محلاً عظيماً، وبينما كانت الحرب قائمة على ساقها أمام مواقع التل الكبير ونار الفتنة تتأجج في جوف البلاد كان سفير الإنجليز بدار السلطنة العثمانية يكثر من تهديد رجال المايين ويعمل على قطع حبل الاتصال الذي كان مشدوداً بينهم وبين أحمد عرابى ولا سيما منهم الشيخ أحمد أسعد إمام السلطان فكان يقضى بياض يومه وسواد ليله وهو يغدو ويروح ما بين الباب العالى ومقر السلطان ويعمل بدهائه ويدبر بقطبته وذكائه ويلج بطلب صدور فرمان السلطان بعصيان عرابى، وكان يرجو من هذا العمل أمرين خطيرين أولهما: صرف وجه أحمد عرابى وأشياعه عن السلطان ورجال المايين فيفتنون وتقسم عروة اتحادهم والثاني تنزيل أحمد عرابى من عيون المصريين وصرف وجوههم عنه لخروجه عن طاعة سلطانه وربيه بالمروق واعتبار أن جريه للإنجليز حرب غير جائزة ولا هى من الجهاد فى شىء كما كانوا يظنون وما زال السفير يعمل ويكيد حتى أفلح وغرر

بالسلطان ورجال ما بينه وكبار دولته وأصدر فرمانا بخروج أحمد عرابي وعصيانه فطير السفير الخبر بذلك إلى الآفاق وأوعز إلى صاحب جريدة الجوائب العربية التي تطبع في دار السلطنة العثمانية فنقش ذلك فرمان على صحائف جريدته فابتاع السفير منه زهاء ستة عشر ألف نسخة وسير بها إلى الهند ومصر وغيرها من البلاد الإسلامية فوصل منها إلى مدينة الإسماعيلية شيء كثير فأمر به مقدم الجيوش الإنجليزية فنشروه على أيدي الجواسيس من العربان والفلاحين في معسكر التل الكبير والصالحية وكفر الدوار فما انتشر بينهم وذاع خبر ما فيه حتى تراخت عزائم العسكر وفترت همم الضباط وكادوا ينفشلون وعم خبر ذلك بين الأفراد فتحدثوا به كثيرا.

وكان ممن جاء مع عسكر الإنجليز إلى الإسماعيلية محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وجماعة آخرون من رجال الحكومة المتحيزين للخدوي قد سير بهم الخديوي في ركاب مقدم العسكر الإنجليزية ليكونوا له عوناً على قضاء حاجاته ويمهد أمام جيوشه ما يحدثه أهالي القرى من الموانع والعقبات فجمع إليه سلطان باشا بعض طوائف العربان ممن كانوا حول معاقل العربيين واستمالهم وأجزل عطاءهم وقرب منه بعض كبارهم فأطاعوا ومالوا إلى العطاء ودخلوا بين جند التل الكبير وأذاعوا بين صغار الضباط وأفراد العسكر خبر ما رسم به السلطان من عصيان عرابي ومن تبعه وأنهم خارجون مارقون عن طاعة أمير المؤمنين فأزعجهم هذا الأمر وتراخوا وانحلت عزائمهم وانفشلوا أو كادوا واتصل خبر ذلك بأحمد عرابي وأصحابه فهالهم وكبر عليهم وتناجوا فيه طويلاً فاتفقوا على كتمانهم وإخفائه إلى حين ولكنهم لم يفلحوا إذ انتشر الخبر وعم وتكلم به سائر العسكر، قيل: وجاء في هذا الحين رسول من عند مقدم الجيوش الإنجليزية فاجتمع بأحمد عرابي في سرادقه وتحادثا ساعة فيما لم يصل أحد إلى معرفته حتى الآن ثم قفل الرسول راجعاً إلى معسكر الإنجليز فظهرت بعد ذلك على وجوه كبار الضباط وصغارهم علامات اليأس والقنوط ووقع بينهم الهرج وبانت على وجه أحمد عرابي دلائل الضعف والاستسلام وذهبت عنه تلك الشدة والحدة وتولاه الخمول فلم يكن لهم في هذا الحين سوى تحريك شفثيه بتلاوة الأوراد والأحزاب وتقليب مسبحة ذات اليمين وذات الشمال والاحتجاج عن الناس إلا القليل من مقدمي العسكر وكان مقدم جنود خطوط التل الكبير الأمامية اسمه علي يوسف المعروف بعلي خنفس فراسله محمد

سلطان باشا أيضاً واستماله إلى طاعة الخديوى فاطاع واستوثق لنفسه، فلما كان ثامن عشرى شوال من السنة أى سنة تسع وتسعين ومائتين رتب مقدم جيوش الإنجليز عسكره على مقربة من خط السكة الحديد وترك المعسكر كله خالياً فى حراسة نفر قليل من جماعة المهندسين وأبقوا نارهم موقدة لإيهاما بأنهم متربصون فى مضاربهم فلما صاروا على قدم الاستعداد سروا بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال تحت جنح الظلام وأمامهم جماعة من الضباط المصريين ممن كانوا فى خدمة الخديوى بالإسكندرية وجماعة من عربان الهناده يدلونهم على الطريق وما زالوا على قدم السير حتى بلغوا مقدمة خطوط العرايين فأمر لهم على بيك يوسف فدخلوا بين صفوف عسكره بلا ممانع ولا مدافع وكان جل العسكر فى هذا الحين نياماً على الحصون والمتارس والضباط فى فراشهم بأقمصة النوم كأنهم فى أسيرة بيوتهم بين أحضان عيالهم آمنين مطمئنين وما زال الإنجليز حتى صاروا فى وسط المعقل وأطلقوا البنادق تباعاً فانصبت نيرانها على العرايين انصباب المطر فهبوا من نومهم مذعورين وحملوا على الإنجليز فلم يثبتوا إلى لحظة لطيفة حتى تمت هزيمتهم ولولوا الإدبار وثبت أصحاب المدافع وأكثروا من الرمى بالقنابل فركب الإنجليز عند ذلك أقفيتهم وأعملوا فيهم السيف وأفحشوا فى قتل كبارهم وصغارهم فلما سمع عرابى أصوات المدافع والبنادق هب من نومه وقيل: بل كان على يقظة فخرج من سرادقه وخرج معه عبد الله صاحب الطائف وركب فرساً وركب عبد الله كذلك ومعهما جماعة من الفرسان وخرجوا على وجوههم يريدون بلبيس وقد ترك عرابى ما كان فى سرادقه من أوراق ومتاع فتبعهم نفر من فرسان الإنجليز وترامحوا خلفهم فلم يدركوهم أو لم يشأوا أن يدركوهم وما زالوا حتى أتوا أنشاص الرمل قبيل الظهر واتفق أنه كان بمحطة أنشاص قطار من قطارات المهمات قاصداً القاهرة فترامح أحمد عرابى ومن معه حتى أدركوه وركبوا فى آخر عربة فيه فسار بهم إلى القاهرة فدخلوها فى الساعة الثامنة عربى نهارة من تاسع عشرى شوال والناس فى شغل عنهم بما هم عليه من التطواف والضجيج فى الشوارع والحارات فقد كان العامة وأرباب الطرق والأشابر وسائر صبيان المكاتب يطوفون زمراً فى ذلك اليوم ويصيحون ببالطيف، ياجبار اهلك عسكر الكفار، وكان المؤذنون يعججون على المنائر ويتهلون إلى الله بعبارات الاستغاثة وطلب النصر على العدو فلما دخل عرابى القاهرة طاف صاحب الشرطة ومعهم جماعة من العسكر يمنع الناس من التجمع فى الشوارع ويشدد على العامة بملازمة

السكون على غير عادته فلم تلتفت العامة إلى قوله وبقوا على هذا الحال من التطواف والضجيج والعجيج حتى شاع الخبر بوصول عرابى ومعه رأس سيمور أمير سفن الحرب الإنجليزية ورؤوس كثيرين من كبار الإنجليز والمصريين فهرع عند ذلك العامة من كل صوب وحذب وتبعتهم النساء بالزغاريت واشتدت جلبتهم وتزاحمت الغوغاء فى الشوارع والطرق وكثر صياحهم وضجيجهم واشتدت الحركة فخاف أصحاب الحوانيت وأغلقوا حوانيتهم وكبر خوف أصحاب البيوت وتطهروا من شر ذلك اليوم العصيب وسار عرابى بعد وصوله إلى قصر النيل وجمع إليه أصحابه من كبار الضباط وصغارهم وأخبرهم بخبر هزيمته ودخول الإنجليز فى جوف الحصون والمعقل قيل : وشكى وبكى فتكلموا فى الأمر طويلاً فألح عليهم بالتعجيل فى إنشاء الحصون والمعقل ومد الخطوط والاستحكامات أمام العباسية وأن يجمعوا المتشردين من العسكر يلتقوا بالإنجليز قبل أن يدخلوا المدينة فيقاتلوهم وخطب عبد الله صاحب الطائف فى ذلك وجعل يستحثهم ويستنهض همم فاختلفت كلماتهم وكان ممن حضر معهم يومئذ فاراً من الصالحية على الروبى فأشار بوجوب التسليم للقضاء وعقد المجلس العرفى فعهقوه واستدعوا سائر أعضائه من كبار العسكر والملكيين والعلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين والوجهاء والأعيان فقص عليهم عرابى ما جرى وبكى وبالبغ فى الشكوى وعظم البلوى ثم قال : وإنى ما زلت على قدم الدفاع ورد العدو عن البلاد ما دام فى رفق من الحياة وجعل ينتحب فرداً عليه بعض الحاضرين من كبار العسكر وقال : أوما كفاك يا هذا أن دمرت الإسكندرية حرقاً بسوء تدبيرك وجهلك العواقب حتى تريد أن تدمر القاهرة أيضاً بسوء فعالك فإن كنت لم تبق فيها على شيء فإن لنا فيها عيالا وأطفالا وأملاكاً لا نسلم بضياعها ضحية لأغراضك فكفى كفى ماجرى، فعند ذلك أطرق عرابى رأسه خجلاً ولم ينطق ببنت شفه وطال بين الجميع الأخذ والرد ساعة ثم استقر رأيهم على كف القتال وعدم التعرض لعسكر الإنجليز بشيء ما وأن يتقدم أحمد عرابى وأصحابه إلى مقام الخديوى فى طلب العفو عنهم بعريضة يرفعونها إليه فقام عبد الله صاحب الطائف وكتب عريضة ملاها بالطعن والتنديد بفعال الإنجليز وشحنها بالإفك والتغدير والتضليل وقص فيها ما وقع من البداية إلى النهاية ولم يصرح فيها بذكر شيء من ذنوب أحمد عرابى وذنوب أصحابه ثم جعل يتلوها على الحاضرين فلم تعجبهم وكان ممن حضر فى ذلك المجلس أيضاً بطرس باشا غالى وكيل الحفانية فكلم عبد

الله فى ذلك، وقال: إن المقام الآن لا يحتمل شيئاً من الطعن ولا التشديد فهات أملى عليك ما يحسن رفعه إلى مقام صاحب الأمر فأملى عليه شيئاً من عبارات الاستعطاف والاسترضاء فأعجب الحاضرين وأوقع عليه عرابى وأصحابه على كره من صاحب الطائف ثم اختاروا لهذه السفارة محمد رءوف باشا وبطرس باشا غالى فطلب على باشا الروبى مرافقتهم وقاموا من ساعتهم فى قطار مخصوص فسار بهم إلى الإسكندرية فلم يصلوا إلى كفر الدوار حتى جاءهم الخبر بأن تربصوا حتى يأتىكم عبد الله برسالة من عرابى وأصحابه فتربصوا حتى حضر عبد الله على قطار مخصوص ومعه عريضة أخرى يخالف ما فيها ما فى العريضة الأولى، وقال: يقول لكم عرابى باشا لا ترفعوا إلى الخديوى العريضة الأولى وارفعوا إليه هذه، وكان لما قام رءوف باشا ومن معه إلى الإسكندرية فكر عبد الله فيما سيلقاه من العذاب إذا حوسب كل بعمله فزين لعرابى العدول عن طلب العفو وأن يظهر من الضعف قوة ومن الخوف رجاء ويكتب إلى الخديوى قصة يدفع بها عن نفسه عار الذل وشماتة الأعداء فأجابه عرابى إلى ذلك وعبد الله إنما يريد بهذه الحيلة التمكن من الفرار والاختفاء فلما وصل إلى كفر الدوار اختفى ولم يوقف له على أثر إلى أن كان من أمره ما سيذكر فى محله إن شاء الله .

ووصل رءوف باشا ورفاقه إلى الإسكندرية فى غرة ذى القعدة بعد العناء الشديد وتمثل هو وبطرس باشا بين يدى الخديوى ورفعا إليه عريضة عرابى وأصحابه فلم يقبلها وأمر بعلى الروبى فقبضوا عليه وأودعوه فى السجن منفردا عن أتى بهم الإنجليز من مواقع الحرب من العرايين وفرح أهل الإسكندرية يومئذ فرحا لا يوصف وأنت رسائل التهانى إلى ديوان الخديوى من كل صوب وطاف طوائف الفرنجة بالإسكندرية يهللون وينشدون أناشيد النصر ونزل المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز إلى الإسكندرية ودخل على الخديوى وهناه من قبل ملكة الإنجليز ومناه بالأمانى الكثيرة، أما المقاتلون من الإنجليز بمواقع التل الكبير فإنهم لما دخلوا فى وسط معاقل العرايين وحصونهم نسفوا بعضها ومزقوا شمل من كان بها من العساكر ثم تركوا منهم جماعة لدفن جثث القتلى فأحصوها فكانت زهاء الألفين وسار الباقون قاصدين القاهرة من طريقين الأول بجانب السكة الحديد الموصلة إلى مدينة الزقازيق وبنها وبليس والثانى على ضفة الترعة الحلوة الخارجة من القاهرة كى يصلوا إليها بأسرع ما يمكن خوفا من أن يصيبها ما أصاب مدينة الإسكندرية وكان سير فرسانهم إلى الزقازيق غاية فى البطأ والفتور بسبب تعب الحيل وضعف الجند عن الحركة فلما

صاروا على قيد فرسخين من الزقازيق هجموا عليها ولكن بغاية الضعف والاختلال فلم يروا من يردهم فمال جماعة منهم نحو السكة الحديد وكان بها فى هذا الحين خمسة قطارات مشحونة بالعساكر المصرية والمهمات الحربية وكثير من المرضى والجرحى فأربعة من سائقى هذه القطارات لما رأوا اقتراب الإنجليز منهم قاموا وأسرعوا فى مسيرهم فنجوا بمن معهم من الوقوع فى أيدى الإنجليز أما الخامس فإنه ما كاد يتحرك حتى لحقه ضابط من الإنجليز ورماه بالرصاص فسقط ميتا فلما رأى العراقيون ما حل بسائق القطار وهجوم الإنجليز عليهم ألقوا بأسلحتهم وفروا طالبين النجاة فلم يتبعهم الإنجليز لقلّة عددهم ففجا العراقيون جميعا وفى نحو الساعة الثالثة عربى نهارا تكامل وصول جميع العساكر الموكلين باحتلال مدينة الزقازيق مع مقدمهم الجنرال ماكفرصون وأما الفريق الثانى الذى سار إلى القاهرة على ضفة الإسماعيلية فإنه عبر التربة من ناحية التل الكبير وسار سيرا حثيثا جدّا على شكل هجوم وما زالوا كذلك حتى وصلوا إلى مدينة بليس ليلا فباتوا فيها ليلتهم وهم على أهبة وتحفظ ثم ساروا غلسا فى ثانى يوم الذى هو غرة ذى القعدة وقد تركوا الطينة وترفعوا نحو الخانكاه ومازالوا يجدّون السير حتى بان لهم سواد القاهرة فى نحو الساعة العاشرة ونصف عربى نهارا وما وطئت حوافر خيلهم أرض العباسية حتى غابت الشمس فنزلوا عليها وهم فى أسوأ حال من شدة التعب وفعل الشمس وقلة الماء وشدة الحركة وكان عدد من دخل العباسية فى تلك الليلة زهاء سبعة آلاف مقاتل وسار نحو قلعة الجبل أيضاً زهاء ثلاثة آلاف آخرين فدخلوها فى نحو الساعة الثالثة عربى ليلاً وأخرجوا من كان بها من العسكر المصرى وصغار الضباط وفكوا قيود من وجدوهم فى حبسها بمن أتى بهم زعماء العصاية من المديرين والوجهاء والأعيان وغيرهم وكذلك فكوا قيود أصحاب الجنائيات قيل ولم يكن مقدّم العساكر الإنجليزية الذين صعدوا إلى قلعة الجبل يعرف طريق القلعة من جهة العباسية فضبط اثنين من صغار الضباط المصريين الذين كانوا بمعاقل العباسية ليدلاهم على الطريق فامتنعوا فرسم بقتلهم فإطاعا وسارا مع الإنجليز حتى أدخلاهم القلعة فقابلهم مقدمهم جندها ويش لهم وأدخلهم بها على الرحب والنسعة وكان بالقلعة من العساكر المصرية فى تلك الليلة زهاء أربعة آلاف مقاتل كاملى العدد فسلموا بغير منازعة وألقوا بأسلحتهم ونزلوا من ساعتهم إلى معسكر قصر النيل فلما خلت القلعة منهم استلم مقدّم الإنجليز سائر المواقع والأبواب ومفاتيح قلعة المقطم الواقعة على

رأس قلعة الجبل وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دخل القاهرة الجنرال ولسلى كبير
مقدمى الجيوش الإنجليزية ومعه محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وبعض كبار
الضباط من المصريين فهرع للقائهم بعض موظفى الحكومة. ممن كانوا فى حبوس
العرايين بالقاهرة وإبراهيم فوزى بيك صاحب شرطة المدينة، وكان لما دخل الجنرال
لو بعسكره إلى العباسية ولاقاه صاحب الشرطة رسم له بالقبض على أحمد عرابى
وكافة أصحابه والإتيان بهم إلى العباسية فنزل صاحب الشرطة وذهب إلى أحمد
عرابى فوجد معه طلبة عصمت وآخرين غيره. فقال لهما الجنرال لو مقدم جيوش
العباسية يطلبكما الساعة فاضطرب أحمد عرابى ولكنه جعل يظهر من الضعف قوة
وقام ومعه طلبة عصمت وساروا جميعا إلى العباسية وأرسلوا فى طلب على يوسف
أيضاً وعلى يوسف هذا هو الذى سلم للإنجليز قلعتى الجبل والمقطم بعد أن تخلى
لهم عن الطريق فى مقدمات التل الكبير كما تقدم بيان ذلك فى محله، فلما دخل
ومن معه فى وسط معسكر الإنجليز أوقفوهم برهة وحولهم جماعة من العسكر
بالبنادق والحراب ثم أخذوهم إلى مقر الجنرال لو وكان الجنرال جالسا على كرسى
ورجلاه ممدودتان على كرسى آخر وحوله جماعة من عسكره وترجمانه فلما تمثلوا
بين يديه لم يلتفت إليهم برهة طويلة ثم نظر إلى أحمد عرابى نظرة الظافر وقال:
أأنت عرابى باشا؟ قال: نعم، قال: أنت الذى عصيت وخرجت عن طاعة أميرك
ومولاك وحاربتك بغير سبب حتى سقطت فى أيدي جند ملكة المجترة فتلجلج عرابى
ولم يردّ الجواب فالتفت إليهم الجنرال وقال: اخلعوا عنكم سيوفكم فخلعوها
وتقدموا بها إليه وقالوا إليك نسلم سيوفنا وإلى حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمى
نسلم أنفسنا لأننا نعتقد سلامة نواياها نحونا ومعاملتنا بالعدل فامتنع الجنرال من أخذ
سيوفهم بيده وقال: لستم أهلا لأن تؤخذ سيوفكم كأسراء الشرف ألقوها إلى
الأرض كما تستحقون فألقوها أمامه فأشار إلى بعض صغار الجند الذين حوله
فأخذوها وقبضوا على عرابى وطلبة عصمت وعلى يوسف وألقوهم فى سجن
العباسية فى تلك الليلة، هذه رواية، وفى رواية أخرى أنهم لما تمثلوا بين يدي
الجنرال لو بسيوفهم أخذها بيده فقالوا إننا نحمد الله تعالى على تسليمنا بأنفسنا إلى
أمة تعرف العدالة وتقدرها قدرها وسيتضح لها أنا ما عملنا إلا بواجبنا ولم نسع إلا
خلف حقوقنا وإن عندنا من العسكر المنظمة بمراكز العباسية زهاء خمسة وثلاثين ألفا
ومثلهم فى مواقع كفر الدوار ورشيد ودمياط وهم على قدم الدفاع عند أول نداء

فيهم ولكننا لم نقدم على فعل شيء بعد ذلك خوفا على سلامة البلاد وقد سلمنا بأنفسنا فداء للوطن (قلت): وعندى أن لا حقيقة لهذه الرواية فقد كان موقفهم فى تلك الساعة محفوفًا بالمكاره وأبعد من أن يتكلم فيه الفصيح اللبيب اللهم إلا إذا كانوا على يقين من السلامة وبيئة من أمرهم وهذا ليس بالأمر البعيد فقد كان فى انسحاب أحمد عرابى من مواقع التل الكبير ودخول العساكر الإنجليزية بين حصون ومعازل المصريين على ما مر بيانه سر سيتلى عليك فى محله إن شاء الله .

ولبثوا فى سجن العباسية إلى يوم الأربعاء حادى عشرى ذى القعدة ثم نقلوهم إلى قشلاق جند الحرس برجة عابدين وقد احتله طائفة من الجنود الإنجليزية ونزل فريق آخر بقشلاق قصر النيل ففعلوا به ما لا خير فيه فقد أخذوا جميع ما فى ديوانه من فرش وبسط وطنافس وشراشف وكراسى فكانوا يبيعونها للعامة تحت القصر بأبخس الأثمان أو بشيء من التبغ أو العرق أو الفاكهة أو الخبز أو الجبن وأحرقوا جميع ما عثروا عليه من الأوراق والدفاتر الديوانية والأدوات على اختلافها ونزل الجنرال ولسلى بسرارى عابدين واتخذها له مقرا وأقام على أبوابها الحراس والحجاب وأنزل بسرارى الحرم الخديوى جميع أركان حربه ونزل الجنرال موريس مقدم النزل بسرارى المدرسة التى برجة عابدين وانبثت العساكر الإنجليزية فى شوارع القاهرة زمرا تطوف وتخطب العامة بعبارات التحية وكان الهنود منهم يكثررون التطواف بالخطبة المعروفة بخطة سيدنا الحسين وناحية دهليز الملك والحسينية ويحيون الناس ويقولون السلام عليكم يا مسلمون نحن مسلمون مثلكم أتينا لخلاصكم من أيدي العصاة المارقين ، واهتم محمد سلطان باشا بأمر المؤن والعلوفات لعسكرا الإنجليز وقد كثر طلبهم للخبز والأرز واللحم والسمن وغيره فشدد محمد سلطان باشا على صاحب شرطة المدينة فى ذلك فلم يقدر على القيام بأداء هذه الطلبات فى أوقاتها ، وقد كنت يومئذ من مفتشى المراقبة العمومية فأتانى الطلب من محمد سلطان باشا على يد صديق لى اسمه عبد القادر بيك فهمى من قضاة المحاكم المختلطة فذهبت إليه فرسم لنا بأن نهىء ديوانا يناط به لوازم العسكر الإنجليزي وكتب بذلك إلى صاحب شرطة المدينة وإلى ديوان الخزينة فأنشأنا ديوانا بالمكان الذى كان به ديوان المحافظ وقمنا بجمع حاجة الجيش فكانت أشياء كثيرة جدا من الضأن والبقر والخبز والأرز والسكر والفلفل والعسل والشاى وبيض الدجاج وبن القهوة والزبدة والسمن والخضروات

وحطب الوقود والتبن والفول والشعير والحشيش اليابس فى كل يوم صباحا عما قيمته ألف جنيه مصرى وسبعمائة جنيه عدا ما كان معهم من المؤن والعلوفات .

وعادت الأشغال الديوانية بعد أيام إلى سابق مجراها ووردت كتب الخديوى بالقبض على سائر من كان له يد فى إضرام نار الفتنة فقبضوا على من بالقاهرة وأودعهم فى سجون بيت الشرطة وطيروا الخير بذلك إلى الآفاق فأفحش المديرون والمحافظون فى معاقبة الناس وبالعوا فى إيذائهم وعلى الخصوص منهم مديرى الشرقية ومنية ابن خصيب فأخذوا بالشبهات وملأ السجون من أصحاب الوجاهة وكبار الناس تشفيا وانتقاما وتزاحم أصحاب الوشاية وأهل السعاية على باب مصطفى رياض باشا ناظر ديوان الداخلية فأخذ بقولهم وشدد وهدد وتبعه فى ذلك سائر المأمورين ومن له كلمة مسموعة فانكمش الناس وعم الخوف وبات كل من لا يأمن على نفسه وولده، وكان لما دخل الجنرال وود بعسكره مواقع كفر الدوار حضر للقاءه يعقوب سامى وكيل ديوان الجهادية فرسم له بإحصاء ما فى تلك المواقع من جند وآلة وسلاح فأحصاهم فكانوا زهاء ستة آلاف مقاتل وسبعمائة فرس مسرجة ملجمة وخمسين مدفعا بجميع مهماتها وخمسة عشر ألف بندقية فنقل جميع ذلك إلى القاهرة ثم رسم بدفن ما وجد من جثث الموتى من الإنسان والحيوان وبصرف جميع العساكر إلى أوطانهم فانصرفوا ماعدا الضباط فإنه أمر فسيروهم إلى سراى الرمل تخفهم جماعة من فرسان الإنجليز، قال بعض الإنجليز: وكانت مواقع كفر الدوار غاية فى المنعة وحسن الوضع الهندسى والطبيعى قل أن يمكن التغلب عليها إلا بعد معاناة الأهوال وموت الألوف من الأبطال إذ كانت تنقسم إلى ثلاثة خطوط منتظمة محاطة بأرض غير مسلوكة لكثرة ما فيها من الأوحال والمراكب ويتفرغ من تلك الخطوط خطوط أخرى على شكل زوايا قائمة ممتدة إلى جهة سكة حديد كفر الدوار وترعة المحمودية وكانت الخطوط جميعها مسلحة بكثير من المدافع المرتبة على هيئة مناسبة للغاية قل أن يمكن معها للعدو الظفر بها وكان أمام كل خط من الخطوط الثلاثة خندق بعرض خمسة عشر قدما متقن الوضع محكم العمل وكان بين الخط الأول والثانى والثالث خمسة آلاف متر وكان على رأس الأول منها قلعة تسمى قلعة الإسلام إعزازا للدين وهى من أجمل القلاع شكلا وأقواها بنيانا وأحكمها وضعاً .

وكان العراييون قد سدوا خط السكة الحديد بسد من البناء والتراب فرسم

الجنرال وود بكسر هذا السد فكسروه بشيء من الديناميت وأصلحوا بعض ما تعطل من خط السكة الحديد وعثروا وراء الخط الثالث من تلك الخطوط على كثير من عربات النقل مشحونة بشيء كثير من الحرائر والمقصبات والاطالس والشاشات وغيرها من منهوبات الإسكندرية فجمعوا ذلك كله وأحصوه، ولما أنجز يعقوب سامى ما رسم به الجنرال وود تمثل بين يديه وخلع سيفه وسلمه إليه وقال: لم يكن فيما فعلته إلى الآن مع أصحاب الثورة إلا طاعة مولاي الحديوى وكمال الإخلاص فى خدمة أهل البلاد وكثيرا ما نصحت عرابى فلم يقبل حتى كانت العاقبة ما كانت فلم يلتفت الجنرال إلى كلامه بل قال له: وما الذى جرى للقائمقام الإيطالى مسيو يولشي الذى نزل من بضعة أسابيع من مركب الحرب الإيطالية ولحق بعرابى فى كفر الدوار فقال لا أعرف من هو ذلك الرجل فالتفت الجنرال إلى جماعة الضباط المصريين فرأى الرجل بينهم وهو فى زى الضباط المصريين فأمسك بيده وقال هو هذا الذى أطلبه قال: ذلك وسلمه إلى نفر من الإنجليز فساروا به إلى الإسكندرية ليجازى عما فعل، واستسلم أيضاً من كانوا فى رشيد وحصون أبى قير والبرلس وطاية أشتوم الجميل القريبة من مدينة بورسعيد وغيرها من بقية القلاع والحصون ولم يمتنع سوى عبد العال أبو حشيش مقدم جند دمياط ومن معه من الضباط وصمم على الامتناع والمقاومة ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا بعددهم وآلات حربهم ولازموا الحصون والتاريس وجدوا فى تحصين مواقعهم فلم يلبثوا حتى شاع بينهم خبر استسلام جند طاية الجميل وبقية الحصون ففترت همتهم وتراخت عزيمتهم وتركوا سلاحهم وتفرقوا أشتاتا ولم يفلح عبد العال فى ردّهم وجاء الخبر بذلك إلى الجنرال وود فسير فرقة من عسكره على قطار السكة الحديد إلى دمياط فلما وصلوا السنانية أرسل كبيرهم إلى عبد العال يقول إنا لم نحضر إلى هنا إلا لنأخذك كرها إذا لم تأت بنفسك خاضعا فامتنع عبد العال وأرسل يقول إنى مريض فعبر كبير الإنجليز النيل إلى دمياط فى قلة من أصحابه ودخل على عبد العال بمقره وقيل بل لاقاه عبد العال عند باب الديوان فأمر مقدم الإنجليز فقبضوا عليه قبيل الغروب وعبروا به النيل إلى السنانية ووضعوه ليلته تلك فى إحدى عربات البضاعة والجنود يخفرون وأصبحوا فسيروا به إلى القاهرة وأنزلوه فى سجن أحمد عرابى ومن معه وهى دار أعدوها لهم بجوار جامع أزيك عند رأس الأزبكية.

وفعل الإنجليز بمدافع الحصون والقلاع جميعها ما لا خير فيه وألقوا جميع

ما وجدوه فى المخازن من البارود والمهمات وآلات الحرب والعدد فى النيل وقد كان شيئاً كثيراً جداً وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فانقبضت صدورهم وظنوا بالإنجليز السوء بعد أن كانوا فرحين بمقدمهم ، فلما تم للإنجليز ما أرادوه من نصف مواقع كفر الدوآر وحصون التل الكبير وتعطيل مدافع سائر القلاع من الإسكندرية إلى أبى قير فرشيد فالبرلس فدمياط فالجميل وما بين هذا كله من المعقل والأبراج أنزلوا عسكرهم فى جميع المخافر ومراكز الأربطة بالإسكندرية والقاهرة ورتبوا منهم أصحاب الشرطة والعسس وجماعة يطوفون فى الليل والنهار مشاة وركبانا لانتشار عسكرهم فى الطرق والشوارع العمومية وأماكن اللهو والقصف بخطة الأزبكية والعبة الخضراء والموسكى وجلهم سكارى فكان العامة يتحكون فيهم ويمارحونهم أو يشوشون عليهم وجماعة العسس المتطوفون يحملون السكارى منهم إلى المعسكرات فكان مقدمهم يرسل الأوامر تباعا إلى كبار ضباط العسكر وصغارهم بمنع العسكر من الاجتماع فى الحانات والتشديد على باعة الخمر والمسكرات بالامتناع عن بيع الردىء منها إليهم وإلا بولغ فى عقابهم فلم يأت ذلك بفائدة إذ تفشت الحميات الخبيثة بين العسكر كافة فى قلعة الجبل والعباسية وقصر النيل وميدان عابدين وفى سائر المخافر حتى فى مساكن الضباط فأنشوا الشفاخانات (وهى بيوت المرضى) بقلعة الجبل والعباسية فامتألت بمرضاهم من كل صنف ورتبة وكثرت موتاهم كثرة بالغة فكانوا يحملون الجثث بالنقلات على أكتاف الخدم من الهنود أو على عجلات المدافع مغطاة بالراية الإنجليزية وأمامها الجند بالبندق والموسيقى تعزف بالحن الحزن والحنان فإذا كان الميت ضابطا أو عظيما من قوادهم سيروا جواده خلف العجلة التى تحمل نعشه مجللا بالسواد وعلى سرجه قبعة الميت وسيفه وحذاؤه فى ركاب السرج بشكل يخيل للرائى أن صاحب الجواد زاكب عليه فكانت العامة إذا رأوهم على هذه الحال تجمعوا عليهم خلقا كثيرا وزاحموهم من الأمام ومن الخلف وربما دخل الصبيان بين صفوفهم فلم يكونوا ليظهروا شيئاً من الضجر فإذا وصلوا بالميت إلى المقبرة وضعوه لحظة لطيفة للصلاة عليه، وربما رثوه بشيء من الكلام يناسب مقامه أو رتبته ثم يوارونه التراب وحينئذ يطلقون بعض المدافع من قلعة الجبل أو يطلقون بنادقهم فى الهواء فوق القبر ثم يعودون صفوفًا كما أتوا وكانت المنية يشتد فعلها يوما عن يوم بين عسكرهم الهندى فأهلك منهم خلقا كثيرا فاهتم لذلك مقدّم الجيوش ورسم بإرجاعهم إلى أوطانهم وجاءه الأمر بذلك فأخذوا

يرحلون طائفة بعد أخرى إلى مدينة السويس ومنها إلى الأقطار الهندية على ظهور النقالات والشوانى الكبار وبقيت طائفة من فرسانهم وبعض كبارهم بالمكان المعروف بالبوليجون بالعباسية وهم فى ضعف وهزال وقد شاع يومئذ أنهم سيلبثون بالقاهرة حتى يأتيهم الطلب إلى عاصمة الإنجليز فيتمثلون بين يدى امبراطورتهم فتتهتهم عن أنفسهم وعن بقية الذين أبلوا منهم البلاء الحسن فى قتال العربيين، هذا ومن عجب الاتفاق أن الليلة التى دخلت فيها الجيوش الإنجليزية القاهرة وضواحيها وهى ليلة الثانى من ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين وألف أى خامس عشر سبتمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف كان الكثير من أهالى القاهرة ومصر القديمة عاكفين على الأعراس والأفراح والولائم وهم فى شغل عن كل ما سوى ذلك فكانت فعالهم فى ذلك اليوم كفعالهم يوم دخول نابليون بونابرت القاهرة بجيوش الفرنسيين سواء بسواء فكان مدارك القوم هداهم الله لم تتصل إلى شىء من الترقى من ذلك الحين إلى الآن وفى ذلك ما فيه من العجب العجيب .

ونهض أصحاب صحف الأخبار من الإنجليز يفصلون ويقسّون فى شكل موقعة التل الكبير ويلبسونها أثواب المدح والإطراء ثم جعلوا يعرضون بذكر حروب بونابرت مع طوائف الممالك بديار مصر ويعجبون بالفرق بين ما لاقته جنود بونابرت من التعب والموت بسبب وعورة الطرق وقلة الماء وما لاقته جيوش الإنجليز من التوفيق وحسن الحظ ونسف مواقع التل الكبير فى قليل من الزمان وعدّوا أفعال مقدم عسكريهم من العجائب والآيات الخيرية فرد قولهم بعض الكتاب وأكثروا من النقد والتعيب وقالوا: إن الصورة التى هجم بها قائد الإنجليز على مواقع التل الكبير كانت غاية فى الخلل بالغة حدّ الطيش الذى ما بعده إلا الخسارة والندم قالوا ولا يخطر على بال عاقل قط أن قائداً محنكاً يجسر على اتخاذ تلك الخطة الهجومية على خطوط عدوّ من إحدى الدول الأروباوية فإن إسراء تسع مراحل تحت جنح الظلام كاف وحده للجزم بالفشل والخسارة ويشؤم المصير وأن خروج مقدم عسكري الإنجليز هذا بعسكره فى نحو الساعة الثانية عربى ليلاً وتركه جميع العسكر تحت حراسة نفر من الجنود وإسراء وإيّاهم إلى منتصف الليل ثم تربصه ثم إسراء لمن أكبر الأغلاط وأنعس المناورات وقد عابوا أيضاً طريقة الهجوم التى فعلها عند خطوط التل الكبير الأمامية وقالوا إنها تخالف الطرق الجديدة المعمول بها الآن فى جيوش الدول الكبرى وجزموا بوجود سر خفى فى الأمر وشىء مستفق عليه بين قائد العساكر

الإنجليزية وبين أحمد عرابي ومن معه من زعماء العصاة ولولا ذلك ما تمكن مقدم
 جيوش الإنجليز من الدخول على تلك الصورة الخارقة لكل فن ونظام عسكري،
 وكتب رجل اسمه جون نيني كتاباً في هذا الصدد يقول فيه، مالى أرى إخواننا
 الإنجليز ولا سيما أصحاب صحف الأخبار منهم يلهجون بذكر موقعة التل الكبير
 ويحسبونها كرامة لمقدم عسكريهم مع أن الأمر ليس فى شيء من ذلك البتة لأنه لما
 اشتدت الأزمة واستحكمت على جيوش الإنجليز حلقات الضيق قدم إلى أحمد
 عرابي فى ظهر ثامن عشرى شوال من السنة يعنى ستة تسع وتسعين أحد مشايخ
 العربان وأعلمه بأن الإنجليز على قدم الهجوم على خطوط الدفاع بعد نصف ليلة
 تاسع عشرى شوال المذكور بساعتين وأنهم سيسرون بعد ذلك إلى بلبس ليفتحوا
 الطريق منها إلى القاهرة فكان الذى يجب على أحمد عرابي فعله بعد أن سمع هذا
 الكلام أن يبادر على الفور بتحصين مدينة بلبس جهد الاستطاعة كي لا يتمكن
 العدو من دخولها وهى التى كانت أول حصن لبونابرت عند زحفه على مدينة
 القاهرة ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك وأرسل إلى طلبة عصمت مقدم جند كفر
 الدوّار يستمده ويقول له أرسل لى المدد بحيث يكون وصوله إلى التل الكبير ضحوة
 تاسع عشرى شوال يعنى بعد أن تكون قد خرقت جيوش الإنجليز خطوط التل الكبير
 ومزقت شمل من بها من الجنود وساروا منها إلى بلبس ليفتحوا الطريق إلى القاهرة
 ومع ذلك فقد جاء المدد قبل الأجل المضروب ودخل مدينة الزقازيق ولكن ما الذى
 رآه ياترى ذلك المدد رأى جندا شاردا كالإبل الأبقة وأشلاء قد غطت وجه الفضاء
 وقد تم الأمر للإنجليز وفر أحمد عرابي هارباً إلى القاهرة فعاد المدد مع من لحق به
 من الفارين إلى القاهرة - قال - ومن العجب العجائب أن فى الليلة التى دخل فيها
 الإنجليز معاقل العرابيين كان العربان على رأس الخطوط الأمامية منها فلما سمعوا
 صوت أول طلق خرج من ينادق الإنجليز صاحوا وترامحوا وعلت جلبتهم وجعلوا
 يدوسون بأرجلهم بطون الجند النائمين فهب الجند من نومهم مذعورين لا يعرفون
 من معهم ومن عليهم وخرجوا على وجوههم هائمين ومع ذلك فقد قابل أصحاب
 المدافع منهم عساكر الإنجليز وهم لا يزيدون عن ثلاثة آلاف مقاتل فقاتلهم فاعمل
 الإنجليز فيهم السيف كأنهم يقاتلونهم وجها لوجه ومع ذلك فقد راسل أصحاب
 المدافع الرمى على الإنجليز فأصلوهم نارا حامية - قال - ولم يبق مجال للشك أو
 الريب فى أن ساداتنا الإنجليز قد قبضوا على كثير من صغار الضباط المصريين

وكبارهم عندما هموا بالفرار بما أخذوه من الرشاوى والبراطيل فأذاقوهم كأس الموت
بحيث لم نر بين جشثهم جثة واحدة أو شيئاً من مشامش أحد العربان الذين كانوا
كما قلنا على رأس الخطوط الأمامية فى تلك الليلة وبين الحصون والمتاريس ولم يكن
ثمت ما يدرأ عنهم فى تلك الساعة نيران الإنجليز غير أنهم كانوا على عهد مع
محمد سلطان باشا وبينه من الأمر قبل وقوعه ومن العجب العجائب أننا لم نر أحداً
من هؤلاء العربان سيق إلى الحبوس كما ساقوا غيرهم مع أنهم كانوا لا ينقصون عن
أربعة آلاف كلهم مدججون بالسلاح بل لم نر أحدهم أوقف يوماً موقف المسئول
فليقل لنا السادة الإنجليز هل بعد هذا كله من دليل على صحة ما يزعمون وما بالهم
اليوم ينكرون على جماعة العربان ذلك التوفيق والفوز العظيم الناجم عن فعالهم وما
لنا لا نسمعهم يردّدون آيات الشكر والثناء على سلطان باشا جزاء ما قام به من بذل
الأصفر الرنان حتى أزال به ما كان يتخلل طريق عسكرهم من العقبات وحال دون ما
كان يترصدهم من المراكب والهلكات - قال - والحق أقول ولا أخشى لومة لائم أن
جيش الجنرال ولسلى الذى كان يبلغ زهاء خمسة وثلاثين ألف مقاتل كاملى الآلات
والعدد لم يقاتل فى تلك الليلة على خطوط التل الكبير سوى ثلاثة آلاف من
المصريين وبينهم قليل من أصحاب المدافع وكلهم فى دهشة من النوم فأنه لما كثر
صياح العربان عند دنو الإنجليز من الخطوط وارتفعت أصواتهم وعلت جلبتهم خرج
سائر المصريين على وجوههم هائمين فلم يبق منهم بالمعاقل فى تلك الساعة سوى
هذا التل القليل وعليه فإنى لم أر فى نصرة مقدم الإنجليز على مواقع التل الكبير
شيئاً يستوجب الاستغراب أو التفاخر والإعجاب . اهـ . بنصه .

وقد كانت رعى المناقشة إلى يوم دخول الإنجليز مواقع التل الكبير دائرة ما بين
الباب العالى واللورد دوفرين سفير الإنجليز بدار السلطنة العثمانية على قاعدة تقرير
عصيان أحمد عرابى وخروجه عن الطاعة وكانت هذه المناقشة غاية فى المواربة بل
كانت من قبيل إظهار غير الخفى وإخفاء الظاهر المشاهد لأنه بعد أن كانت انقطعت
المخابرة بينهما بشأن إرسال العساكر السلطانية إلى ديار مصر لأسباب ما أنزل الله بها
من سلطان ووصل إلى المايين الهمايونى الخبر بقيام الجنرال ولسلى مقدّم حملة
الإنجليز بعسكره من الإسكندرية إلى مدينة بورسعيد وأنه قد احتل القنطرة ثم
الإسماعيلية وأنه أخذ يقاتل العرابيين تباعاً وأن مساعى محمد سلطان باشا فى
استمالة العربان إلى طاعة الخديوى قد تمت أو كادت عاد رجال الدولة إلى فتح باب

المخابرة مع السفير بشأن إرسال فريق من العسكر السلطاني إلى مصر وألحوا في الطلب فكان السفير يطاولهم تارة ويحاولهم أخرى ثم عاد إلى المواربة في القول فلما آتسوا منه بعض الرغبة عادوا فأظهروا عدم الرضا عن قاعدة الاتفاق الذي بموجبه يرسل السلطان عسكره، قيل: فانقبض السفير عند ذلك وانكف عن الكلام أياماً أخرى. وكان الإنجليز قد سيروا جماعة منهم في هذا الحين إلى الشام لشراء بعض الدواب من البغال والخيول والجمال لحملتهم على مصر، فأرسل الباب العالي إلى عماله بالولايات يحذروهم من بيع تلك الدواب وخروجها من بلاد الدولة ففعلوا وقبضوا على من استخدمه الإنجليز من أهل البلاد في خدمة هذه الدواب وألقوهم في الحبوس، فجاء الخبر بذلك إلى السفير فاستعظمه وكبر عليه وكلم الصدر الأعظم في ذلك وبالع في الشكوى وأكثر من الترداد بين الباب العالي والمابين ومازال يغدو ويروح حتى رسم السلطان في ثامن شوال بإطلاق أمر البيع والشراء في تلك الدواب لمن يشاء من خلق الله وأطلقوا سبيل من كانوا في الحبوس بسببها، وأرسل السلطان بعد ذلك أحد رجال ديوانه الخاص إلى السفير يسأله أن لا يكون نزول العساكر السلطانية المزمع إرسالها إلا في مدينة الإسكندرية فقام السفير من ساعته واجتمع بصدر الدولة وكبارها وكلمهم في الأمر فكلموه طويلاً وبعد أخذ وردّ قال السفير: إنه سيلغ هذا كله إلى كبير السياسة الإنجليزية فوافقوه على ذلك ووافقوا أيضاً على جميع الأوجه التي كانت سبباً في الاختلاف ورفع السفير الأمر إلى كبير سياستهم ثم عاد فكلّم السلطان في إصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابي وشقه لعصا طاعة الخلافة، قيل: فتملّم السلطان وامتنع فألح السفير فشدد هو في الامتناع ورسم إلى رجال دولته فجعلوا يطاولون ويحاولون ويهوتون على السفير الأمر والسفير لا يزداد إلا تشديداً في الطلب وسير إلى الصدر الأعظم يوماً من يقول له: أن دولة الإنجليز لا تعتبر إرسال العسكر السلطاني إلى الإسكندرية أمراً مقضياً وأنه لا يصير التوقيع على الاتفاق المبرم بشأن ذلك حتى يصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابي ومن معه، وباتوا وأصبحوا وقد جاء الخبر من صاحب سياسة الإنجليز برفض طلب السلطان نزول عسكره بمدينة الإسكندرية فكبر الأمر على السلطان ورسم إلى الصدر الأعظم بمعاودة السفير وفتح باب المخابرة معه، وأنه متى تم إرسال العساكر السلطانية إلى الإسكندرية رسم السلطان بعصيان أحمد عرابي، وطير الخبر بذلك إلى الآفاق فعاد الصدر إلى الكلام مع السفير وأظهر غاية اللين والتلطف وثابر على الكلام مع

المجاملة لعله ينال أربا فلم يفلح، قيل: فأرسل إلى الولاة ثانية يمنع من خروج دواب الحمل لحملة الإنجليز على مصر ففعلوا وأحس السفير بذلك فانكف عن الكلام مع رجال السلطنة أياماً فراسله الصدر الأعظم فى ذلك فامتنع وقال: لا سبيل إلى ما تطلبون فسير إليه من يعلمه بأن أمير المؤمنين لا يمتنع من قبول نزول عسكره بأبى قير عوضاً عن الإسكندرية فإذا وافقت دولته على ذلك وصار التوقيع على العهد أصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابى ومن معه فأظهر السفير رضاه بهذا الشرط، ولكنه طلب قبل كل شىء أن ينفذ الأمر لسائر الولاة والعمال بالكف عن منع خروج الدواب من ولاياتهم فأجابه الصدر إلى ما طلب، وشاع الخبر بذلك فى دار السلطنة فظن الناس أنه لم يبق بعد هذا كله من سبب للمواربة والتكلف لا سيما وقد ورد على بعض رجال الدولة الخبر بتقدم العساكر الإنجليزية وتغلغلهم فى جوف البلاد المصرية وانضمام بعض كبار العربان إليهم، فلما كانت ليلة سادس عشر شوال سار سعيد باشا صدر الدولة إلى دار سفير الإنجليز وأعلمه بأن أمير المؤمنين مبال كل الميل إلى التعجيل بتسيير عساكره إلى أبى قير كما وقع الاتفاق فلم ير من السفير فى ذلك اليوم وجهاً باشا ولا صدراً رجباً فانصرف عنه وعاد إليه فى ثانى يوم ومعه كاتب أسرار السلطان. وقال: الخليفة يقرئك السلام ويقول أنه لم يكن ليأنف قط من تنفيذ رغائب صاحب السياسة الإنجليزية كما هى إذا تساهل فى نزول عساكره السلطانية بمدينة الإسكندرية كما أنه لا يحجم أيضاً عن تقليل عددهم المتفق عليه ابتداء وتنزيله إلى ألفين أو ألف مقاتل وأنه يرسل معهم باكر باشا الإنجليزي قائداً ثانياً ولا يمنعه من أن يأخذ معه من الضباط الإنجليز من يشاء بحيث تبقى العساكر السلطانية فى ديار مصر فى هذه الحملة تحت المراقبة الإنجليزية كما كانت أيام الحرب الروسية، قيل فرفع السفير محصل هذا الكلام إلى صاحب سياستهم فلم يرد عليه الجواب أو ورد ولكنه لم يبلغه إلى الصدر الأعظم، وجعل يطاول ويحاول إلى أن وردت إليه الأخبار بنجاح حملتهم وتحقق من تمام استمالة بعض كبار الضباط المصريين وصغارهم ومشايخ قبائل العربان وجاءه الأمر من صاحب سياستهم بأن يبلغ السلطان أن حكومة الإنجليز كانت لا تتأخر عن قبول شروط إرسال العساكر الشاهانية إلى مدينة الإسكندرية لولا ما يحول دون ذلك من الدواعى والأسباب الكثيرة ولكنها مع ذلك لا تمتنع من قبول إرسال ألفين منهم وتنزيلهم فى أحد مواقف ترعة السويس، قيل: فلما سمع السلطان هذا الكلام حزن جداً لا سيما وقد

جاء الخبر فى هذا الحين إلى المابين والباب العالى بتغلغل ولسلى وعسكره فى جوف البلاد وأن قد انضم الكثير من كبار الضباط وصغارهم إلى جهة الإنجليز فأرسل السلطان الصدر الأعظم إلى داز السفير يقول: إن أمير المؤمنين يقبل تنزيل عسكره فى مدينة بورسعيد وأنه فى مقابلة ذلك يتعهد بإصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابى وسائر زعماء الثورة بديار مصر فأظهر السفير رضاه عن ذلك ولكنه لم يبد جوابا شافيا.

فلما كان رابع عشرى شوال سار السفير إلى الباب العالى صباحا ومعه ورقة مسطور فيها العهد المراد إبرامه بشأن إرسال العسكر السلطانى ودخل إلى مقر الصدارة ولم يستقر به المقام حتى جاءه من أعلمه بصدور فرمان الشاهانى القاضى بعصيان أحمد عرابى فسر بهذا الخبر سرورا عظيما، ولكنه لما اطلع عليه لم يعجبه وانقلب سروره حزنا أو هو تظاهر بذلك وقال إنه لم يتضمن شيئا البتة من الأسباب والقواعد التى وقع الاتفاق عليها فراجعته الصدر الأعظم فلم يلتفت إليه وامتنع من التوقيع على ورقة العهد القاضى بإرسال العساكر الشاهانية إلى مصر فعادوه الصدر ولاطفه وهون عليه، وقال: لا بد من إرجاع كل شيء إلى ما وقع الاتفاق عليه وسأله أن يطلعه على ما فى ورقة العهد فأطلعه عليها فإذا هى لم تعين مدينة بورسعيد محطا للعساكر السلطانية كما وقع الاتفاق على ذلك بل تبيح نزولهم على ضفاف ترعة السويس ليس إلا فاستاء الصدر الأعظم من ذلك، وقال للسفير: وددت أن لا يبقى بيننا من الآن شيء من المواربة فقد ذهب الصبر واختلط الحال والعهد الذى أبرم بيننا إنما هو على جعل مدينة بورسعيد محطا لعساكرنا وقد وافقتمونا على ذلك فلا موجب إذا أن تعدلوا فتركه السفير وانصرف ثم عاد وقد كتب فى تلك الورقة ما نصه: أن حكومة جلالة الملكة تبيح للعساكر السلطانية الرحيل إلى مدينة بورسعيد ومنها إلى الموقع أو المواقع التى يحصل الاتفاق عليها ما بين مقدمى الجيشين . اهـ.

(قلت): وقد قصدوا بذلك أن العساكر السلطانية يأتون فيمرون من ترعة السويس ولا ينزلون على ضفافها إلا حيث يأمرهم مقدم عسكر الإنجليز، فأبى السلطان عليهم ذلك، وقال: لا بل يتزلون بمدينة بورسعيد فوعدهم السفير بتبليغ هذا الكلام إلى صاحب سياستهم وانكف عن مقابلة الصدر الأعظم أياما فأحس رجال الدولة بما وراء هذا التطويل وأدركوا ما يترصد لهم من الخيبة لا سيما وقد جاءتهم

الأخبار يومئذ بقرب تغلب الإنجليز على أصحاب التل الكبير وأنهم قد طيروا الخبر بعصيان أحمد عرابي وخروجه عن طاعة أمير المؤمنين كما تقدم القول.

وفى سادس عشرى شوال سار الصدر الأعظم إلى مقر سفير الإنجليز متأبطاً بعض الأوراق وصورة من العهد المتعلق بإرسال عساكرهم إلى ديار مصر ومذكرة للتوقيع عليها من السفير وكلمه فى الأمر، وقال: قد رسم أمير المؤمنين بأن لا يمكن التغاضى عن عدم ذكر هذه العبارة فى بنود الاتفاق وهى: «يتزلون بمدينة بورسعيد» فأبى السفير عليه ذلك. وقال: لا بأس من أن نأتى على تفسيرها فى سطور المذكورة بهذه العبارة «تسير العساكر الشاهانية قاصدة مدينة بورسعيد لكى تتمكن من الدخول من خليج السويس» وكانت تلوح على وجه السفير فى هذا الحين لوائح الاضطراب والوجل وكأنه كان يتوقع حدوث حدث جديد وكان فى كل لحظة يدخل عليه أحد بطائنه فيكلمه همساً فكان تارة يحمر وجهه فرحاً وأخرى يصفر وجلاً ورجال الدولة فى شاغل عنه بمراجعة بنود الاتفاق وقراءة عبارة المذكورة ثم أعادوا معه الكلام فلم يقبل إلا ما أشار به وأصر على الامتناع فقاموا من عنده وانقطع الكلام بينهم أياماً أخرى، فلما كان تاسع عشرى شوال وردت الأخبار إلى السفير بانتصار الجنرال ولسلى على العرابيين ودخوله القاهرة فأشاع السفير هذا الخبر وطيره إلى الآفاق فجاءه فى ذلك الحين الصدر الأعظم وناظر الخارجية وكلماه فى أمر إرسال العساكر السلطانية إلى بورسعيد وفى تعديل بنود العهد وكأنهما لا يعلمان شيئاً مما حل بالعرابين، فلما سمع السفير كلامهما تبسم وقال: قد ضاعت الفرص وذهبت الآمال بل قضى الأمر فلم يبق من موجب لإرسال العساكر السلطانية وقد انتصرت ولله الحمد عساكرنا وظفر مقدم جيوشنا بأهل الثورة ظفراً مبيناً، قيل: فأظهر الصدر الأعظم استغرابه من هذا الخبر وقال: وكيف ذلك؟ فقال السفير: نعم وقد أثنانى الأمر بأن استرجع صورة الاتفاق التى قد كنت بعثت بها إلى المايين ولقد كانت حكومة جلالة ملكتنا تود أن لا تعمل إلا ما فيه إرضاء أمير المؤمنين غير أن الظروف لم تأت بالغرض ولكنها لم تغير قط شيئاً من العلاقات الودية الكائنة بين الدولتين من القدم فقال ناظر الخارجية: أى نعم وأن حكومة عظمة أمير المؤمنين لا تنسى قط ماهية الحب المتبادل بينها وبين حكومة جلالة الملكة، وعليه فإنى أسأل باسم مولانا أمير المؤمنين ما هو الأجل الذى ضربتموه لجلاء عساكركم عن أرض الكنانة فطفق عند ذلك السفير يحدثهم بخبر ما لاقته العساكر الإنجليزية من التعب

أمام حصون التل الكبير وجعل يبالغ فيما بذلته حكومة جلالة الملكة من النفس والنفس حبا في إرجاع الهدوء والطمأنينة إلى البلاد بعد أن كادت تقوض الفوضى ربوعها إلى أن قال: ولقد زادت هذه الضحايا في نفوذنا نفوذاً آخر نجم عنه مسئولية عظيمة لا يمكن التخلي عنها لا سيما وقد اتحل الجيش المصري وأصبح خديوى البلاد فى حاجة إلى تدبير حكومته وإرجاع سابق سلطته فلا يجمل بدولة بريطانيا فى هذا الوقت إجلاء عساكرها وترك البلاد بلا حافظ ولا رقيب على أنها مع ذلك قد رسمت بجلاء فريق منهم وهى على عزم أن لا تبقى منهم أحدا فى جوف البلاد متى سمحت الظروف بذلك إلى أن قال: ولا أرى نفسى مقصرا فى القيام برغائب أمير المؤمنين كما لا ينكر جلالته على ذلك ولكن إعراض جلالته عن الأمر فى حين وجوب الإقبال والتزامه جانب التطويل فى الوقت الذى كان يجب فيه الاختصار كلاهما كان باعثا على وقوع ما وقع. ومع كل ذلك فإن رباط المودة بين الدولتين لا ينقسم أبدا فقام الصدر الأعظم ومن كان معه وانصرفوا وشاع فى الأستانة خبر دخول جيوش الإنجليز إلى القاهرة فاضطرب الناس وأخذتهم الطيرة وقبحوا فعال الصدر الأعظم ووزير الخارجية ورموهما بالخيانة وسوء النية واتهموهما ببيع أملاك الدولة بثمان بخس وقامت الفتنة فى السراى السلطانية وتفرقت أغراض أهل المايين ورمى كل رفيقه بالغش والخيانة وانكشف من أسرارهم المضحك والمبكى، وتكلم أصحاب صحف أخبارهم فى هذا الأمر وتوسعوا فى القول وكادوا يفضحون ما استترت معرفته عن الناس فمنعوهم وهددوهم فانكفوا وفى القلوب ما فيها وقد صدق من قال: وقد يغلب المقدر على التقدير حتى تكون الآفة فى التدبير فالله حسينا وكفى.

ورسم الخديوى بخلع سائر المديرين والمحافظين وسائر المأمورين الذين استلموا زمام الوظائف على عهد أصحاب الثورة فخلعوا، ورسم أيضاً بصرف سائر العساكر المصرية ورجوعهم إلى أوطانهم فتفرقوا ولم يبق منهم بالقاهرة إلا نفر قد لبسوا لباس العامة ودخلوا فى خدمة بعض الناس وكذلك رسم بتشكيل لجان خصوصية لتحقيق حادثتى رابع عشرى رجب ورابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين بمدينة الإسكندرية وفى طنطا وأخرى بالمحلة الكبرى لتحقيق ما وقع بهما من القتل والحريق ثم أرسل مصطفى رياض باشا الذى ولى نظارة الداخلية إلى المديرين والمحافظين يستقدم من وقع القبض عليهم من أهل كل بلد ممن كان لهم يد فى إضرام نار الفتنة

فسيروا بهم مكبلين بالحديد عشرات عشرات وهم فى أتعس حال وقام المأمورون بعمل التحقيق فجاء لديهم بالمتهمين من كل فج عميق فخاف الناس وأوجس كل شراً من عدوه وصديقه إذ كثر أصحاب السعاية على باب مصطفى رياض باشا وتزاحموا على ديوانه وتسابق الغريم إلى النكاية بغريمه والجار إلى الإضرار بجاره لأقل سبب ، وأنشئت محكمة عرفية فى القاهرة وجعل رئيسها محمد رؤوف باشا وأخرى رئيسها إسماعيل أيوب باشا ، فاختصت محكمة رؤوف باشا بالحكم فى جميع الدعاوى التى ترفع من اللجنة الخصوصية وجعلوا أحكامها فى ذلك قطعية لا تقبل الاستئناف وشكلوا لجنة عسكرية أخرى بالإسكندرية لتحكم أيضاً فى القضايا التى ترفع إليها من محكمتى الإسكندرية وطنطا المخصصتين حكماً قطعياً لا يقبل الاستئناف وكثر القبض على الناس وانبث أصحاب الشرطة يبحثون على الفارين من المتهمين فكانت شدة عظمة للغاية كل هذا والخديوى بالإسكندرية يتابع إصدار المراسيم بإعادة النظام وترويج الأعمال كسابق مجراها ، فلما كان حادى عشرى ذى القعدة قام الخديوى من الإسكندرية إلى القاهرة فدخلها فى الساعة السابعة عربى نهراً وكانت طوائف الجند من الإنجليز والهنود مشاة وركبانا مصطفىين ذات اليمين وذات الشمال من محطة السكة الحديد إلى سراى عابدين فلما نزل من القطار ونزل معه الدوق أوف كانوت ثالث أولاد ملكة الإنجليز ، وكان هذا الدوق قد حضر للقتال كقائد فرقة من العساكر الإنجليزية ، أطلقت المدافع من قلعة الجبل وفسحة المحطة تبعاً وصدحت الموسيقى بالنشيد الخديوى وهتف الجند بأصوات التهليل فركب عربة يجرها أربعة من جياد الخيل وركب على يساره الدوق المشار إليه وجلس أمام الخديوى ولسلى مقدم الجيوش الإنجليزية وأمام الدوق المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز وكلهم بملابس الزينة والتشريف وخلف العربة طوائف الحرس وكبار الضباط وكوكبة من الفرسان وما زال سائرا بين صفوف الجند وأصوات التهليل ودعاء العامة المتواصل وزغاريت النساء من أعالي البيوت حتى نزل بمقره بعابدين وأمر فعملت الولايم والمآدب لكبار عسكر الإنجليز أياماً كثيرة وأهداهم نياشين الافتخار من كل رتبة وصنف وأحدث نيشانا جديداً من المعدن المعروف بالبرنز على شكل زاوية سماه النجمة المصرية وأهداه لجميع الجنود الإنجليزية الذين شهدوا قتال مواقع كفر الدوار والتل الكبير ، ثم أتت جميع الجنود الإنجليزية إلى القاهرة فلم يبق منها إلا نفر بالإسكندرية وبورسعيد والإسماعيلية فاستعرضها الخديوى برحبة عابدين بين عزف

الموسيقى وأصوات المدافع وكانوا قد أعدوا لذلك كشكا لطيفا فى وسط الرحبة وزينوه بالبيارق والرايات وكان بين هذه البيارق والرايات الراية الإنجليزية فجلس الخديو بالكشك ومر الجند من أمامه تباعا على أشكال متنوعة واتفق أن جلوس الخديو بذلك الكشك كان تحت الراية الإنجليزية وعلى يمينه الدوق أوف كانتوت فتطير الناس من ذلك وخافوه وترامت ظنونهم فى ذلك اليوم إلى المرمى البعيد وجعلوا يتساءلون عن معنى ذلك الاستعراض وما فيه من الرموز والإشارات الخفية وما ينجم عن جلوس الخديو تحت ذلك العلم الإنجليزى .

وانقضت ليالى الأفراح والولائم على أحسن ما يكون من الأبهة والزينة وعادت الأعمال الديوانية إلى سابق مجراها فجعل الوزير محمد شريف باشا يدبر الأمور على أحسن ما يكون من التدبير وقد رأى أن فى بقاء جميع العساكر الإنجليزية فى جوف البلاد خطرا دائما وكمدا ملازما فكلّم قونصل جنرال الإنجليز فى ذلك وكشف له عما فى سياسة بقاء جيوشهم بالقاهرة من الخطل وضعف الرأى وطال الأخذ والرد بينهما أياما حتى تقرر الاتفاق على بقاء اثنى عشر ألفا منهم بين القاهرة والإسكندرية وطالبت حكومة الإنجليز الخزينة المصرية بنفقة هذه الجنود ورسمت بصرف ثمانية وأربعين ألفا ذهبا فى كل شهر ما دامت هذه الجنود قائمة بحراسة البلاد، قالت: حتى يستتب الأمن وتتوطد الراحة وتقوى الحكومة الخديوية على القيام بشئونها المالية والإدارية منفردة، ثم رحل عن القاهرة سائر الجنود الذين حصل الاتفاق على تسفيرهم وعاد الجنرال ولسلى إلى عاصمة بلاده وقد أهداه كبار القاهرة وأعيانها سيفا من الصنعة المصرية منقوشا عليه هذه العبارة (هدية من المصريين إلى الجنرال ولسلى قائد الجيوش الإنجليزية). ولم يكد يستقرّ بالجنرال المقام فى عاصمة بلاده حتى قدم إلى القاهرة اللورد دوفرين سفير الإنجليز فى دار الخلافة لينظر فى تنظيم أمور البلاد على ما تقتضيه المصلحة الإنجليزية فقبول بغاية الاحتفال وأنزلوه مع حاشيته وبطانته بقصر النزهة بشبرا من ضواحي القاهرة فلبث به أياما ثم انتقل إلى دار قطاوى بيك بخطة الإسماعيلية فلارمه بعض الأجانب النازلين بمصر ممن يدعون العلم بعادات البلاد وأخلاق أهلها وما يحتاجونه من خير أو إصلاح شر فقصوا عليه ما وصلت إليه معارفهم وبث هو كذلك العيون لتأتيه بأخبار العامة وما يقوله أهل البلاد، وجعل يوالى الاجتماع تارة بالخديوى وأخرى بالوزير محمد شريف باشا ويكثر من التطواف فى شوارع القاهرة وبين مجتمعات العامة وظل على

هذه الحال أياما، ثم حرر تقريراً فى غاية التطويل والإسهاب وقسمه إلى أبواب وفصول دون فيها ما شاء من احتياجات البلاد المالية والإدارية والقضائية وما ينفعها من المنظمات الداخلية وبالغ فى إظهار حاجتها إلى ترتيب أمر الجندية وأصحاب الشرطة أولاً، ثم جعل المراقبة على جميع مصالح الحكومة فى حالة أقوى وأكمل مما هى عليه الآن، ثم توسع نطاق المصالح الأميرية المتولى إدارتها الموظفون الأجانب وتقليل عدد الموظفين بالدواوين من المصريين، قال: وهم الذين ضاقت بهم تلك المصالح لكثرتهم، وتنظيم محاكم عدلية على نظام يناسب حال أهل البلاد والمساواة بين الأجانب والأهلين وإنشاء هيئة شورية تكون حاصلة على شىء من الحرية واستقلال الفكر ولا بأس من أن تكون هذه الهيئة هى مجلس نواب البلاد أو ما يشابهه وإبطال تجارة الرقيق وقطع دابر الاسترقاق وتأمين طرق التجارة وسبل الاتصال ما بين السديار الأوروبية والشرق عن طريق مصر وعلى الخصوص حرية المرور من خليج السويس، هذا أهم ما جاء فى تقرير دوفرين هذا، فلم تتناوله الأيدى حتى قابله أصحاب صحف الأخبار المحلية بالسنة الطعن وعابوا عليه كثيراً من الملاحظات ولا سيما ما يتعلق منها بخدمة الحكومة وأرباب الوظائف وشددوا عليه النكير ورموه بالخلط والخط، وقالوا: إنما هى سفسطة نقلها عن رسله الذين كانوا يجوبون القرى ويطوفون البلاد وينقلون عن حرافيشها وزعانف النزلاء فيها الذين لا خبرة لهم ولا دراية بالأمر فما هو إلا كلام فى كلام فى كلام. فلم يلتفت دوفرين إلى هذا كله ولم يعبأ به وعمد إلى الاهتمام بأمر من كانوا فى الحبوس بتهمة الاشتراك فى الفتنة وقد غصت بهم وضائق إذ بلغت عدتهم يومئذ ألفاً ومائتى مسجون لم يحسب بينهم محمود فهمى وأحمد عرابى وطلبة عصمت ومحمود البارودى ويعقوب سامى وعبد العال حشيش وعلى فهمى وعلى الروبى وغيرهم من كبار العصاة ومقدمى الثورة، فكلم مصطفى رياض باشا فى ذلك وسأله التعجيل فى أمر أولئك المتهمين وفك قيود البرىء منهم فأعظم مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأكبره لأنه لا يستطيع أن يرى يداً فوق يده أو كلمة سابقة لكلمته فلم يلتفت إلى ذلك ولا أحل طلب دوفرين محله وقد وردت الشكاوى تترى على مقر دوفرين من أصحاب الحبوس يعدّدون فيها ما يقاسونه من أليم العذاب وأشكال الضيم وذهب بعض نسايتهم وذرائعهم إلى مقره ليكون ويتوجعون إليه بما يلاقى أهلهم من الجور والعسف من مصطفى رياض باشا ويسألونه الرحمة بأنفسهم والرافة بأهلهم، فهال

دوفرين أمرهم وأحزنه وقيد جماعة من كبار ضباط الإنجليز بتفتيش جميع السجون التى بالإقليمين القبلى والبحرى وسماع ظلامة سائر من بها من أهل البلاد فذهبوا وعادوا وقصوا عليه من أخبار تلك السجون ما تنفطر من سماعه القلوب لا سيما جبوس الشرقية ومنية ابن خصيب فتقدم إلى الخديوى فى العفو عن سائر أصحاب الجرائم الصغيرة فأجابه إلى ذلك ورسم بالعفو عن سائر صغار الضباط إلا من كان منهم فى مظاهرتى غرة ربيع الأول ورابع عشرى شوال سنة ثمان وتسعين ومن كان تحت السلاح وقت مذبحة حادى عشر يوليو سنة اثنتين وثمانين ميلادية أى رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ولبثوا فى الخدمة العسكرية إلى حين ظهور الفتنة واضطرام نارها وماعدا الذين دخلوا فى الخدمة العسكرية باختيارهم بعد اشتداد الفتنة ووقوع مذبحة حادى عشر يوليو المذكور فسكنت عند ذلك خواطر الناس قليلا وزال عنهم بعض الخوف، قال بعض الكتاب: فلم يرق هذا فى عينى مصطفى رياض باشا وأغضبه فترع إلى التفرد بالأمر وعمد إلى معاكسة اللورد دوفرين فشد فى تعقب أعمال أحمد عرابى وأصحابه وضيق عليهم وهدد فأحس دوفرين بما وراء ذلك وأدرك أن العاقبة إنما هى شر على أحمد عرابى وأصحابه، وفى ذلك نكت لعهدهم معه فرسم بوجوب التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه بالطرق العادلة ورفع الأمر بعد ذلك إلى محكمة لتحكم فيه ومنع تعرض مصطفى رياض باشا وكفه عن العبث بالنظام الذى جاءت الجيوش الإنجليزية لتثبت أركانه، قال المستر شارلس رويل أحد كتاب الإنجليز فى كتاب ألفه فى حوادث مصر الأخيرة، فامتعض لذلك مصطفى رياض باشا وأبى إلا معاقبتهم بغير تحقيق وألح على اللورد دوفرين فى ذلك فلم يقبل وصمم على إجراء التحقيق والتزام جانب العدالة ورسم بسرعة العمل فزاد امتعاض مصطفى رياض باشا واشتد به الغيظ إلى حد لم يطق معه السكوت فسار إلى مقر اللورد دوفرين وكلمه طويلا واحتد وأغلظ فى القول فلم ير من اللورد دوفرين أذنا واعية ولا وجهها طلقا فتركه ودخل على الوزير محمد شريف باشا وكلمه أيضاً فى ذلك فقال الوزير: لا بد من التحقيق ورفع الأمر إلى محكمة، فكاد مصطفى رياض باشا يتميز غيظا وسأل الوزير أن يقيله من منصبه فأجابه إلى ما طلب بغير معاودة، وقد قيل: فى أمر تنزيله من هذا المنصب أقوال أخرى أضربنا عن ذكرها ومن هذا الحين أصبح عمل التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه ورفع نتيجته إلى محكمة تحكم عليهم بما تراه أمرا مقضيا لا رادّ له.

وكان لما أخذ الإنجليز محمود فهمى أسيرا فى موقعة القصاصين على ما تقدم بيان ذلك فى حينه وأتوا به إلى الإسكندرية أرسل المستر مالت قونصل جنرال الإنجليز إلى اللورد جرانفيل زعيم أو صاحب سياستهم يقول: أن الجنرال ولسلى مقدم جيوشنا فى مصر يرى أن من مواجهه تسليم جميع الأسرى الذين يؤتى بهم من ساحة القتال إلى سلطة وتصرف الخديوى فأجابه اللورد جرانفيل إلى ذلك بشرط عدم الحكم على أحد منهم بالقتل ما لم تصادق على ذلك حكومة الملكة، فاعلم القونصل الخديوى بذلك فقبله واشترط على نفسه أن لا يأتى أمرا فى حقهم قبل أن تعترف به دولة الإنجليز، فلما كان سلخ ذى القعدة قدم إلى القاهرة رجلا اسمه مارك نابيير من كبار علماء الشريعة الإنجليزية ومعه آخر اسمه ريشارد آيث وتقدما إلى المحاماة والدفاع عن أحمد عرابى أمام المحكمة التى سيرفع لها أمره فمانع فى ذلك الوزير محمد شريف باشا، وقال: أن الشريعة المعمول بها فى بلاد مصر لا تبيح للمجرمين اختيار من يدافع عنهم ولا إجراء التحقيق معهم علانية ولا تجيز وجود أحد من الأجانب فى هيئة المحكمة وأبلغ هذا الكلام إلى المستر مالت فرفعه إلى زعيم سياستهم فورد الجواب على غير ما يرضاه الوزير وصمم الزعيم المشار إليه على وجوب الدفاع عن أحمد عرابى ورفقائه وعلى تنفيذ ما أشار به مما يتعلق بكيفية المحاكمة فبعد أخذ وردّ طويلين قبل الوزير محمد شريف باشا ذلك بشرط أن يكون المحامى عن أحمد عرابى مصرياً لا إنجليزياً فلم يقبل اللورد جرانفيل، وأعاد القول بترك الدفاع عن أحمد عرابى إلى من يختاره هو لنفسه من أى جنسية كانت بشرط اجتناب جميع وسائل الإكراه والتهديد فامتنع الوزير من قبول ذلك وطال الأخذ والرد بين الفريقين أياماً وقفت فيها رضى التحقيق ثم عادت على ما رسم به زعيم السياسة الإنجليزية رغما عن كل مكابرة وعناد، وانقسمت الآراء وتباينت الأقوال فى أمر دفاع الإنجليز عن أصحاب الثورة ومحاماة كبار شريعتهم عن أحمد عرابى فكان الناس فى ذلك على طرفى نقيض لاسيما أصحاب صحف الأخبار المحلية فقد قام بعضهم ينادى بوجوب تسليم أهل الثورة لشريعة البلاد ومنع دفاع الإنجليز عنهم وعدم مس كرامة الشريعة المطهرة فلم يجدوا لندائهم من مجيب، ونزع فى عاصمة الإنجليز جماعة من كبارهم وآخرون من كتابهم وجعلوا يصيحون بالسنة أعلامهم واعدائهم وإنسانيتهم وأمرحمتهم، وكان فى مقدمة هؤلاء القوم السير وليم جريجورى والمستر بلانت اللذان تقدم لنا الكلام عما فعلاه، وجاء بلانت هذا برجل من أصحاب الشريعة الإنجليزية اسمه برودلى وقيده بالدفاع عن أحمد عرابى، وكان

هذا الرجل من موظفى حكومة الهند ثم انفصل عنها ولحق بباى تونس مولاي حسن باى فقدم القاهرة فى رابع عشرى ذى القعدة وطلب الاجتماع بأحمد عرابى فلم يسمحوا له بذلك، فاستعان هو ومن معه من جماعة الكتاب والمحامين بقونصل جنرال الإنجليز فأعانهم ونزع إلى مساعدتهم وطلب من الوزير محمد شريف باشا جعل التحقيق مع أحمد عرابى وبقية أهل الثورة علنيا فطال بين الفريقين الجدل وكثر القيل والقال وأبى القونصل إلا ما أراد ومازال حتى تقررت القاعدة على تسليم أمر الدفاع عن أحمد عرابى وأصحابه وعمن يشاء من بقية المجرمين إلى برودلى هذا وتقييد بورلى بىك أحد محامى الحكومة بإقامة الدعوة العمومية ثم تعينت أوجه التهم وأسبابها فكانت - أولاً- تهمة أحمد عرابى وطلبة عصمت ومحمود سامى ومحمود فهمى وعمر رحى كاتم سر أحد عرابى بكل ما حدث من الأضرار المترتبة على رفعهم الراية البيضاء على طوابى الإسكندرية فى يوم الأربعاء خامس عشرى شعبان، ثم إخراجهم جميع العساكر المصرية من المدينة وإضرار النيران فيها، بينما كاث تلك الراية تخفق على حصونها - ثانيا- تهمة أحمد عرابى وطلبة عصمت ومحمود سامى ومحمود فهمى وعمر رحى وعلى فهمى بتحريض الناس وحضهم على حمل السلاح والخروج عن طاعة أمير البلاد وماترتب على فعالهم هذه من القتل والنهب والسلب وإراقة دماء الأبرياء من النساء والأطفال ثم تهمة أحمد عرابى ومحمود فهمى وطلبة عصمت ومحمود سامى باستمرار القتال ومحاربة الإنجليز بعد علمهم بإتمام الصلح وتقرير قاعدته. وشاع الخبر بذلك وكثر طلب أصحاب التهم من العامة وصغار الموظفين بمحكمة طنطا والإسكندرية واشتد أصحاب الشرطة فى البحث عن الفارين منهم فكبسوا على الكثير من الدور والوكائل فعظم خوف الناس وكانت شدة بالغه.

فلما كان سابع ذى الحجة انتظم مجلس التحقيق فأتوا بأحمد عرابى ورفاقه وخلفهم الحراس من أصحاب الشرطة بالبنادق والخراب فكان لايرى على وجه أحمد عرابى شىء من الاضطراب أو الخوف بل كان ساكن القلب هادئ اللب، وكان إذا سئل أجاب بلا تردد ولا تلجلج وأكثر من الاحتجاج بل ندد وقبح وعاب عليهم ما يرمونه به من العصيان والخروج عن طاعة الخليفة وأمير البلاد وقدم إلى هيئة المحكمة كثيراً من الرسائل التى كانت تأتية من كبير المايين الهمايونى ومن كاتم أسرار أمير المؤمنين ومن الشيخ أحمد أسعد إمام السراى السلطانية وكلها استنهاض

وتحريض وتشجيع على التظاهر بما كان لإعلاء كلمة السلطان فى داخل البلاد. قال أحد الكتاب العارفين بحقائق هذه الأمور بعد كلام طويل: وقد نجحت تمام النجاح تلك الدسائس الإنجليزية. وفازت فى دار السلطنة عامى أحد وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية واثنتين وثمانين فإنه ما تظاهر أحمد عرابى مظاهرتة الحريية بميدان عابدين التى لم يكن القصد منها إلا تنزيل مصطفى رياض باشا ورفاقه من منصب الوزارة حتى حض الإنجليز الباب العالى على انتهاز هذه الفرصة للحصول على سلطة فعلية فى بلاد مصر فأطاع وعمل بما أشاروا، فلما رأوا فلاح سياستهم والعمل بمشورتهم زادوا وغرروا برجال الدولة ومنوا السلطان بالأمانى البعيدة التى منها محو امتيازات عائلة محمد على باشا الكبير وإعادة مصر إلى ولاية عثمانية خاضعة تماماً للباب العالى إن هو عمد إلى تعضيد أحمد عرابى وأصحاب الحزب الوطنى - قال: ولم يقف أرباب السياسة الإنجليزية عند هذا الحد من التفرير بالسلطان ورجاله بل أوعزوا أيضاً إلى أصحاب صحف أخبارهم أن يساعدوا على نوال هذه الخطوة فصاحوا بالثارات السلطان عبد الحميد وأشاروا على دول أوروبا بأن تسأل الباب العالى فى إرسال جيوشه المظفرة لإخماد نار هذه الثورة التى لا يقوى على إخمادها إلا العساكر العثمانية، فآغتر الباب العالى بذلك أيضاً واندفع دفعة أخرى فى غير طريق الهدى وسير إلى القاهرة جماعة من المايين والسراى السلطانية بينهم الشيخ أحمد أسعد وقدرى أفندى ليؤكدوا إلى أحمد عرابى ورفاقه تعضيد أمير المؤمنين لهم فنشط عند ذلك أحمد عرابى وتجرد للدفاع عن حقوق أمير المؤمنين فمالت إليه قلوب أهل البلاد واستمال إليه من كان يخالفه من قبل ومن بعد ١٠ هـ.

وقدم أيضاً أحمد عرابى إلى هيئة المحكمة عدة محاضر موقفاً عليها من عمد وأعيان البلاد يمتدحون فيها أعماله ويشكرونه على نهضته ويسألون له النجاح والفلاح ويطلبون منه الاستمرار على الدفاع عن حقوق الوطن وأهله ومحاضر أخرى منهم أيضاً بمعنى ما ذكر إلى رئيس المايين الهمايونى فأعجبت هذه الأوراق جماعة الإنجليز وعظمت لديهم الأمر واشتد بها أزر برودلى الذى تقيد بالمحاماة عن أحمد عرابى ورفاقه فبالع فى الدفاع وشدد فى الحجة وأعانه على ذلك جماعة من كبار دار الندوة الإنجليزية وجماعة من أصحاب الكلمة فى دولتهم إذ قام منهم الخطباء والفصحاء يشدون النكير على رجال السلطنة العثمانية ويرمونهم بالخديعة والمكر، فتبدلت عند ذلك الأحوال وتبددت الآمال وانقلبت من طور إلى طور ومازالت

الأمور بين أخذ ورد وإقبال وإدبار حتى ثبت عصيان أحمد عرابي ورفاقه فكتب رئيس لجنة التحقيق إلى برودلى يقول: قد صار من المقرر فى نية هيئة مجلس التحقيق إحالة أحمد عرابي على المحكمة القانونية التى تشكلت للحكم على العصاة وأصحاب الثورة حيث قد تراءى وجوب محاكمتهم بالعقوبة المنصوص عنها بالمادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى وبالمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى. وشاع الخبر فاختلف الناس فيما سيكون من وراء ذلك وتفرقت آراؤهم وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد وكلهم مجمع على فشل الحكومة وفوز جماعة الإنجليز.

(مطلب)

محاكمة أحمد عرابي ومن معه من العصاة

فلما كان يوم الأحد ثانى عشرى محرم الحرام افتتاح سنة ثلاثمائة وألف هجرية أى رابع ديسمبر ختام سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية اجتمعت هيئة المحكمة فى قاعة مجلس شورى القوانين وأتى المتفرجون من كل رتبة ودرجة وغص المكان بجماهير الإنجليز وكبار ضباطهم وكتاب صحف أخبارهم وجمع قناصل الدول وكانت أمارات الهيئة والوقار بادية على هيئة المكان والناس كلهم فى سكون وخشوع فلم تكن إلا ساعة حتى دخل المتهمون ووقفوا فى وسط المكان فأحدثت بهم العيون من كل جانب وتهللت الوجوه فرحاً بوقوفهم فى موقف الجزاء فأشار الرئيس إلى أحمد عرابي وقال : يا أحمد عرابي باشا قد أتوا بك اليوم أمام هذه المحكمة بصفة أنك متهم بالعصيان والخروج عن طاعة الذات الخديوية كما ثبت ذلك أمام مجلس التحقيق وأن عقابك على هذه الجناية يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى فهل تعترف بأنك مذنب أم لا؟ فقام فى الحال برودلى المقيد بالمدافعة عن أحمد عرابي وناولته ورقة فأخذها عرابي وجعل يقرأ ما فيها بصوت جهورى فكان هكذا: أعترف بإرادتى وبناء على نصيحة المحامى عنى أنى مرتكب للجناية التى أنا متهم بها الآن. فلما أتم أحمد عرابي كلامه قال الرئيس : انفضت الجلسة مؤقتاً وسيتملى الحكم فى الساعة الثالثة بعد الظهر. ولم يحضر فى ذلك اليوم بورلى بيك المدعى العمومى لكى يشرح لهيئة المحكمة موضوع التهمة ويسمع الحاضرين ما أتاه أولئك المجرمون من الفظائع وما ارتكبوه من الجرائم ولأقام من يتكلم بدلا عنه فاندesh

عند ذلك الحاضرون وجعل ينظر بعضهم إلى بعض وهم فى حيرة واستغراب وجعل جماعة الإنجليز يكلمون بعضهم همسا والسرور يطفح على وجوههم، فلما كانت الساعة الثالثة تسابق الناس إلى قاعة الجلسة حتى ضاق بهم المكان ولم تكن إلا لحظة حتى خرج الرئيس والقضاة وجلسوا على منصة الحكم فأتوا لديهم بالمتهمين، فلما صاروا فى وسط الجمع أشار الرئيس إلى أحمد عرابى وقال: اسمع الحكم عليك ثم تناول ورقة وقرأ ما نصه: حيث قد ثبت ارتكاب أحمد عرابى باشا جناية العصيان والخروج عن الطاعة وهذه الجناية منصوص ومعاقب عليها بحكم المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاء الهمايونى، وحيث مع ثبوت ارتكابه هذه الجناية لدى مجلس التحقيق لم يتعرض المجلس للبحث فى شيء خلافها ولذلك لم يطلب من المحكمة إلا الحكم بالعقوبة المنصوص عنها فى المادتين المذكورتين وهى عقوبة القتل. فبناء على هذه الأسباب، قد حكم باتحاد الآراء على أحمد عرابى بالقتل لارتكابه جريمة العصيان والخروج عن طاعة الجنب الخديوى طبقاً لأحكام المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاءات الهمايونى ويرفع هذا الحكم للجنب العالى للتصديق عليه وقد حكم بهذه العقوبة أيضاً على بقية المتهمين بجريمة العصيان مع أحمد عرابى المذكور. فلما سمع الحاضرون هذا الحكم تهللت وجوههم فرحاً ولكن لم يضع رئيس المحكمة ورقة ذلك الحكم من يده حتى تناول أخرى وأخذ يقرأ ما فيها وإذا به عفو خديوى ونصه: قد اقتضت إرادتنا بأن الحكم الصادر على كل من أحمد عرابى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى المتضمن جزاءهم بعقوبة القتل وقع تبديله بالنفى إلى الأبد من جميع الأقطار المصرية وملحقاتها، وأن هذا العفو يبطل ويقع إجراء الحكم على المذكورين بالقتل إذا رجعوا إلى الأقطار المصرية أو ملحقاتها وأن يجردوا جميعاً من كافة الرتب وألقاب الشرف والنياشين مع محو أسمائهم من سجل العسكرة.

فما أتم الرئيس قراءته حتى وقع الهرج بين الناس وعلا وجوههم الاصفراء وانقبضت نفوسهم وجعل بعضهم ينظر إلى بعض وكأن على رؤوسهم الطير وجلس عرابى وبقيّة المجرمين وهم باشو الوجوه منشرحو الصدور فتقدمت عند ذلك إحدى النساء الإنجليزيات هى زوجة نابيير شريك برودلى الذى تقيد بالمحاماة عن أولئك المجرمين وهى بملابس الزينة والأعراس وناولت عرابى باقة من الورد الأبيض إشارة إلى الظفر والغلبة ثم صافحته ضاحكة فصافحها باسماء فاشتد تعجب الناس

واستغرابهم وكبر عليهم هذا الأمر وخرجوا وهم يتحدثون به ويعجبون من تصاريफ الأيام . وأخذ العهد على أولئك المجرمين بالبقاء فى الجهة التى تعينها لهم الحكومة بعيدة عن الديار المصرية وكتبوا بذلك صنكا فوقعوا عليه جميعاً .

(مطلب)

رسم الخديوي بمصادرة أصحاب الثورة

فلما كان ثالث صفر رسم الخديو بمصادرة أحمد عرابى وسائر أصحاب الثورة وقيدوا جماعة بضبط أرزاقهم وعقاراتهم فضبطوها فلم تكن شيئاً يذكر ولم يتعرضوا إلى شىء من متاعهم وكان كثيراً خصوصاً متاع أحمد عرابى ، وقد قيل : إنه كان يحتوى على شىء كثير مما نهبه النهابون من الإسكندرية مما خف حمله وغلا ثمنه ولم يمسه بشىء كما أشار بذلك وزير سياسة الإنجليز ، ثم تأهب المجرمون للرحيل إلى سيلان إحدى ممالك الهند الإنجليزية وقد كانوا يعلمون بأنها ستكون دار إقامتهم قبل أن يصدر الحكم عليهم بالإعدام بأيام كثيرة كما هو ظاهر مما كتبه برودلى المحامى عنهم فى كتابه المعنون بعنوان (الله ينصرك يا عرابى) أو (كيف كان دفاعنا عن أحمد عرابى) فحملوا إليهم سائر متاعهم وذخائرهم وأتوا لهم بها فى قشلاق قصر النيل فى منتصف ليلة خامس عشر صفر المذكور وكذلك حضر إليهم من شاء الذهاب معهم من نسائهم وجواريتهم وأولادهم وأتباعهم فكانوا نيفاً وستين ما بين إناث وذكور وساروا جميعاً فى قطار مخصوص فى تلك الليلة إلى مدينة السويس ، ثم أنزلوهم فى إحدى بواخر الشركات الإنجليزية وصحبهم بعض رجال الإنجليز مودعين ومطيين لخواطريهم فأقلعت بهم السفينة بسم الله مجراها .

(مطلب)

قيام تجار الإسكندرية لمطالبة الخزينة بثمن ما نهبه النهابون

وكلم اللورد دو فرين الوزير محمد شريف باشا فى أمر من بقى من أصحاب الفتنة فرسم الوزير بالتعجيل ففعلوا وقد كانوا أنفذوا من قبل الحكم على سليمان داود مقدم جند الإسكندرية بالإعدام شتقاً لارتكابه جريمة إحراق المدينة فضلاً عن جريمة الخروج عن الطاعة وحكموا على بعضهم بالتباعد إلى سواكن ومصوع وعلى البعض الآخر بالتباعد إلى الشام وغيرها وكانوا كثيرين ، وعفى عن البعض وانفضت

حيثئذ مجالس التحقيق ومجالس القضاء وانجلي أصحاب الثورة عن مصر ولكن لم ينجل عنها شر فعلهم إذ قام تجار الإسكندرية يطالبون الخزينة بثمان ما أخذه النهابون وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه، وتزع قناصل الدول كافة إلى الشدة فى الطلب فجعل الوزير محمد شريف باشا يطاول ويكثر من مخاطبة كبار رجال السياسة حتى تقررت القاعدة بينهم على إلزام الخزينة برد ثمن جميع ما نهبه العامة والرعاع وكانت الخزينة إلى هذا الحين قد أمحلتها الحوادث وزادها إمحالا نفقة الجنود الإنجليزية القائمة بين الكنانة والإسكندرية فضلاً عن كساد التجارة وتعطيل أسباب المعاملات وبوار أكثر الزروعات بأسباب جمع سائر أبناء البلاد وتجنيدهم لقتال الإنجليز بمواقع التل الكبير وكفر الدوآر فلم ير رجال الدولة بدأ من الاستدانة فاتفقوا على أخذ قرض قدره أربعة آلاف ألف من الذهب، وتقدم اللورد دوفرين إلى الوساطة فى أخذ هذا المال من بيت روشيلد الغنى الشهير بعاصمة الإنجليز واهتم صاحب سياستهم بذلك اهتماماً عظيماً كى لا يفشل فى سياسته بعد نصرته التل الكبير، وقيد الوزير محمد شريف باشا جماعة من موظفى الحكومة ورجال الدولة بإحصاء ما نهبه النهابون وحرافيش الإسكندرية وما أكلته نيران الحريق فأنشئوا لذلك ديواناً بدار محافظة الإسكندرية سموه ديوان لجنة التعويضات وطبروا خبره إلى الآفاق فتزاحمت على بابيه أصحاب الشكايات فأحصوا ما ضاع لكل صاحب حانوت ومخزن وأصحاب البيوت فكان شيئاً لا يكاد يدخل تحت الحصر لكثرتة فردوا لهم قيمته ذهباً من ذلك القرض ومازالوا حتى لم يبق أحد من أصحاب الشكايات فربح يومئذ من ربح وخسر من خسر وقليل هم الخاسرون.

وتسابق من يومئذ أصحاب الدور والوكائل إلى البناء وإعادة ما تهدم فتوسعوا فى العمل وبالغوا فى الإتقان فلم تمض إلا أشهر حتى عادت المدينة إلى أحسن ما كانت عليه من الرونق والبهجة. واتسعت وعمرت ربوعها وامتلأت حوانيتها بأصناف المتاجر الفاخرة. والبضائع الثمينة وعاد إليها من نزح منها من الأجانب على اختلافهم وجاءها الكثير من تجار الإنجليز بأصناف البضائع النفيسة والصنائع الغريبة فاتسع نطاق الأخذ والعطاء وراجت التجارة. وعادت الأمور إلى سابق مجراها واتصلت العلاقات التجارية بعضها ببعض بين القاهرة والإسكندرية وداخلية البلاد على ما كانت عليه من قبل واطمأنت قلوب أهل البلاد وزالت عنهم أساب الوحشة فلم يبق من الثورة إلا حديثها والحديث ذو شجون.

ونظم بعض الأدباء فى سير هذه الحوادث المهمة ومآل هذه الخطوب المدلهمة

كثيراً من القصائد المشخصة لبعض وقائع الحال وما بلغت إليه يومئذ الأحوال مع وصف ما وقع من أصحاب الثورة من سوء الأعمال منها منظومة العلامة مصطفى باشا صبحى التى عنوانها «صدق المقال فى مثالب البغاة الجهال» وهى:

تبين عقبي غيه كل معتدى	وأسمى العرابى وهو بالذل مرتدى
يعض بنان المستكين ندأمة	ويقرع بالإذلال سن المسهد
فهلا رعى نعماء كانت ظليلة	عليه وهلا قد وعى نصيح مرشد
وهل ندم الباغى إذا حم أمره	إلى الحين يجدى بالرجاء المردد
بنى الجهل والطفيان كيف كفرتمو	بأنعم توفيق العزيز محمد
ملك توافبه الملوك لنصره	بأنفسها غير الخميس المجرد
وهل غير إحسان الخديوى عليكمو	سوايغ كانت من طريف ومتلد
نبذتم قوانين الشريعة ضلة	وجاهرتمو بالبغى فى كل مشهد
ومن كان لا يدري حقيقة أمركم	أنبئه الأنباء عنكم ليهتدى
ولست مريداً بالقوافى مصانعا	ولا راهباً من غائل أو متدد
فقد تلجئ الأحوال للعجز حازما	كما تلبس الأحرار أثواب أعبد
ويدخل فى عد التواصب خيفة الـ	ردى علوى حين لم يلق مفتدى
وما أنا إلا ذاكر ما جئتمو	كما يذكر الرائي فعال المعربد
سرقتم نقود الجند ثم رميتمو	دفاترها ليلاً بسرداب مفقد
وقد ظهرت تلك الخفايا جليلة	وحن جزاء السارق المتعمد
كما سرق التفتيش طلبه عامدا	وبالرفت أسمى فى عقال التلد
ورب يتيم قد أكلتم ترائه	وأبعدتموه عن مجير ومسعد
وقلتم جنى ذنبا ليعفى وتظفروا	بإعدامه والمال يبقى لذى اليد
وأرملة أنلقتمو جل مالها	وصيرتموها عرضة للمفند
وأظهرتم التوكيل عنها تسترا	على نهب محصولاتها والتردد
وبالوفر لما أن فصلتم كغيركم	تضررتمو كالأرقش المتوقد
ووطاتم العصيان بالعهد بينكم	وثرتم بقصر النيل ثورة مفسد
وفى مصر ساورتم سراى أميركم	مراراً وأوريتم زناد التمرد
وجنتم تجرون المدافع حولها	حصاراً وأبرقتم بأصوات مرعد
فأصبحتمو أصحاب سيف ومدفع	وللفأس والشادوف وسمات باليد
ولما تيقنتم بأن جزاءكم	هو القتل أعملتم دسائس ملحد
وأجمعتمو كيد ابن ملجم إذ غدا	يحاول قتل الأبرياء ولا يدى
والفتمو حزب الضلال يحوطكم	بترقيش بهتان وزور ممهد

وقلتم عن الأوطان والدين أنكم
ومما للأوطان والدين آفة
وزدتم على مائة الجند وأفرا
وأنشأتمو قانون يرى معاشكم
يخالف أسلوب القوانين وضعه
فأمسست به بعض الأراذل منكم
وغيرتم الضباط عمرا بفساد
ولقبتمو منكم عبيداً بخالد
والقباش شتى من همام وقائد
وقدمتمو أهل الرذائل منكمو
يجرون أعقاب السيوف على الثرى
وصححتم الأضغاث بالوهم بينكم
وأبرمتمو عهد التحالف بينكم
وكان عفا بالحلم عنكم أميركم
هو الحلم حتى يقتل الجهل ربه
ولما أتى الأسطول مصر مسالماً
ومناكمو بالمستحيل خطيبكم
وأوهم زورا أن فيكم بسالة
وهيأتو بعض الطوايي تنمرا
فسببتمو إحراقها وخرابها
وأتلفتمو الخرطوش من غير عائد
ولم تر منكم في سفين إصابة
وغادرتمو قتلاكمو دون ملحد
وصلتم على المستأمنين لتأخذوا
وأخرجتم السكان من دور نغرمهم
وكم من برئ قد قتلتم بينكم
وكم ذات خدر قد فضحتم وحامل
وأحرقتمو منشية الشفر بعد ما

نحامون في الجلى حمامة صندد
سواكم عليها إذ أتيتم بمؤيد
ومن يستزد بالبغي ما شاء يزد
بتلفيق أحكام وقول معقد
وزيرى بيت المال إزاء محصد
لواء وأخرى كالفریق المجد
وسعداً بمشئوم وحرراً بأوغد
تريدون سيف الله بعداً لمعتدى
وحامى حمى الهيجا وفارس معهد
كنيا شتموا في مسند بعد مسند
فتعمرکه فعل السفیه الیلندد
وبالرغم سدت لا بفضل ومحتد
على الحرب إن فی اليوم تنشب أوغد
فألینتمو إلا وفاء التعهد
وترمى به الأهواء فی شرّ مورد
أثرتم بریح البقی نار التعمد
وأدمج غشا فی حماس مقلد
فحاولتمو بالجهل خطة أصيد
وهددتمو سیمور کل التهدد
وكانت حصاناً بالبناء المشید
مع الريح يدوى لا إلى الفلك يهتدى
تعلل نفس الحر عند التهدد
وخلفتمو الجرحى بها دون منجد
بشار الطوايي من ضعيف ومقعد
سراعاً بتهديد وضرب مبدد
وكم من عزيز قد أهتم وسيد
جبهتم فلأقت حملها دون مولد
نهبتم وسرتم كالنعام المشرد

وكان سليمان الغبىّ معينا
 فما لكم لا أحسن الله حالكم
 وخلفتمو في الثغر عارا ورحنمو
 وعادوكم بعض الغرور فملتمو
 وحاصرتو قصر الخديوى بعسكر
 وفي كسفرة الدوار خلتم مقامكم
 وحالفتمو إبليس فيها وقد خلا
 نصفرتمو تيهها ونقر بعضكم
 وفي العزل والتنصيب والحكم جرتو
 سلبتم من الانحاء محصول زرعها
 وأظلمات الإسكندرية حينما
 وكم محضر أمضيتموه بقهركم
 وأخربتم البلدان ثم صعدتمو
 إليكم إليكم إنما قد تركتمو
 فهذه جيوش للنضال تواصلت
 لنصر الخديوى أو لقهر عداته
 وأضحت رحي طغيانكم في عديدكم
 بطالع توفيق المقدى وبنيكم
 وفي وقعة التل الكبير انهزامكم
 أغارت عليكم فيه أول فرقة
 وما رايها الروى هناك بخيله
 فأين الذى واعدتمو وأدعيتمو
 فهلا صبرتم وهو تصديق زعمكم
 إذا كانت العورات يخفى ظهورها
 ولكن فضحتهم بالفرار كدأبكم
 كدأب بنى كلب غداة تمكنت
 كدأب جهول باع ثورا لبومة
 لعمرى لقد أبدى العزيز لجهلكم

إلى الحرق وقافا لذى كل مرصد
 هربتم هروب الأعرش المتبльд
 بخزى لكم يبقى بدم مخلد
 إلى الرمل ميل الغادر المتقصد
 وخيل توالى من كسيت وأجرد
 منيعا فأظهرتم كمين التحقد
 لكم جوها فى فدند بعد فدند
 ولاح لكم ييض به النصر يفتدى
 وكنتم لجمع المال أشره مجتدى
 وما للأهالى من لجين وعسجد
 منعم وصول الماء من كل مورد
 ومتمنع أربتمو بالتوسعد
 إلى التل فى جيش كثيف معدد
 إلى أجل دون القصاص محدد
 بكل سفين مثل صرح ممدد
 لهم وثبات بين راغ ومزبد
 تدور عليكم بالكروب المهدد
 خذلتم غداة الحرب فى كل مطرد
 يعيركم فى كل عصر مجدد
 فطرت شعاعا كالهباء المبدد
 ولا زار الذئب الكمين بمرقد
 به من ثبات فى الوغى وتجلد
 وهلا قتلتم وهو خير لمرتدى
 لدى البحث فى ناد دقيق التفقد
 وكان العرابى بالهزيمة مبتدى
 بنو أسد منها بضرب المهند
 وقبده فى غصنها المتأود
 من الحلم ما يوهى صلابة أقود

ورقاكمو بالمكرمات فحدثو
مطايا العلى فى الخطب تنجو بصادق
بيمن الخديوى مصر كانت لأهلها
سقاها نعيم النيل صفوا فأزهرت
تدبرها للسلم نظار مجيدها
فمعهد رياض كان يزهر نضارة
وقد حذراكم منا استطاعا فختمو
تضلونه جهلاً ومكرأ يضلكم
ومازال فى أمر^(١) البريثين آخذاً
إلى أن هوى بعد العنوّ ولا لعا
جعلتم^(٢) لذى الداءين فيها رئاسة
وهل ميت الأحياء يرجى لعظم
بمنشوره البرقى هيج فتنة
كان له فى الأمر حق تصرف
لقد زاد فى الطنبور أنكر نغمة
ولولاه ما حاز العصاة من القرى
فقل للعرايى إن رؤياك صادفت
وتأويلها بالخبس تلقى إهانة
فيا كل مشثوم ويا كل غافل
أراك درست البغى بالجهل كاملاً
وسلمت سيف الذل فى مصر صاغرا
فلو كنت تجزى بالذى تستحقه
تقدم عرايى وأرق أعواد واعظ
ومثلك فى ذا الحكم كل مجاهر
ولكن عفا عنكم أمير تعودت
له الفضل أما أنتمو بفضولكم

وكل لشيم إن رقى يتمرد
وتكبو بمعتل السريرة أحقد
عروسا تجلت فى كساء زمردى
ورأقت بنى الدنيا بوجه مورد
وأحكامها تبدو يعدل موطد
وكان شريف للعلى خير منجد
وأضحى بكم سامى أشرف مقلد
وكل بأراء المضلين مقتدى
بقول العرايى مظهراً للتشدد
لعشرة باغ فى الحماقاة أوحده
فعرضتموها للدواهى بأجرده
من الأمر فى يوم من الخطب أسود
وأسند عهد الحكم فى غير مسند
وصيره فيكم بقصد التودد
بها أرق المحزون صوب المفرد
مغانم شتى غير رند ومرفد
ولكنها وافت على غير مقصد
ويعقبها شر يسوءك فى غد
لك الويل من عاد عن الرشد مبعد
وفى الحزم لم تبدأ بأول أبجد
فيا شثوم سيف فى الوغى لم يجرد
لناداك داعى الحكم غير مردد
بصمت وقيل الارتقاء تشهد
ببغى على عدل العزيز المؤيد
خلاتقه الإحسان كل التعود
نميشون أمواتاً بزلة أنكد

(١) البريثين: يريد بهم جماعة الشراكة.

(٢) لذى الداءين: يريد به راغب باشا.

ولولا صدور العفو ناحت نساؤكم
وإن تبعيدوا لا قرّب الله داركم
فبغضكمو أبقى عراقيل جمّة
فسيروا إلى أرض الجزيرة حيثما
وكم سائل هل أخرجوا من ديارنا
فقل في جواب السائلين مؤرخا
سنة ١٣٠٠

وغص بنوكم بالقروح المبرّد
ولا دار من والاكمو في التحيد
عليكم بها لعن من الله سمردي
مبيتكم حمت بها وكان قد
وهل أمنت أوطاننا عود معتدي
بلى خرجوا كرها لنفي مؤيد
٤٢ ٨١٠ ٢٢٦ ١٧٠ ٥٢

يعيش أبو العباس ذخراً لمصره
يعيش الخديوي مصلحاً لرسومها
وتسمو به الأنجال مثل جدودهم
ولا زالت النظار تحمي ذمارها
وإن تعرض الآراء من أيّ وجهة
أصالته بالرأي في مصر أرخت
سنة ١٣٠٠

وكهفاً لأهلها ورغما لحسد
بعد وإجلال ومجد وسودد
سموا لإبراهيم بعد محمد
بخزم وتديبر ورأي مسدد
فإن الخديوي يتقي كل أفيد
محمد توفيق به الكل يقتدي
٩٢ ٥٩٦ ٧ ٨١ ٥٢٤

وقال العلامة البحر الفهامة الشيخ الجليل على أفندي الليثي في ذلك أيضاً :

كل حال لضده يتحوّل
يا فؤادى استرح فما الشأن إلا
رب ساع لحثفه وهو بمن
قدر غالب وسر الخفايا
غاية العقل حيرة وعقال
كيف ننسى وحادثات الليالي
أذهبت أنفسنا وغالت نفيسا
كان إقليمتنا رياض صفاء
من رآه يقول توفيق مصر
قد أمنا الزمان فيه ونمنا
نتهادى في ظل أسمى ملك
فسرت أعين الحوادث فينا
ورأى غيبرنا من الحلم أمرا

فالزم الصبر إذ عليه المعوّل
ما به مظهر القضاء يتنزل
ظنّ بالسعى للعلى يتوصل
فوق عقل الأرب مهما يكمل
واللبيب الذكي من قد تأمل
فاجأنا بكارث ليس يحمل
وذوى مريع الحظوظ وأمحل
فيه للواردين أعذب منهل
أبصر الناس بالأمور وأعدل
آمنين الخطوب لا نتملل
من سجاياه كل خير يؤمل
فأطرحنا الوتار والأمر أعضل
غرة فابتغى الذي لا يحصل

وإذا المرء كان بالوهم ينفى
ويح قوم سمعوا لإدراك أمر
ما أصروا عليه إلا أضروا
ذاك يسمي على التقية خوفاً
لو أصابوا الرشاد عند ابتداء
وكفينا معرة أو بقتنا
أه من رقصة الحلوم ودهر
كانت الناس في ظلال نعيم
ما لنا لم نقم بجحد وتدعو
ما لنا كلنا سوى القل منا
قد تساوى الغنى والنفاس
قد جبننا وصاحب الجبن جان
لو رزقنا السداد لانسد باب
كان ياقوته المذاب مصونا
كم غرسنا جماجما وجسوما
يائزى من يقوم عنا بعذر
حيث حدثنا عن المليك وخفنا
حيث لا يرفع البريد شكاة
خيرة أدهشت أولى اللب حتى
ذاك سر القضا وليس عجيبا
غير أنا لما ألقنا أرقنا
ويستطنا اللسان في ذم قوم
ومددنا أكف ذل لمولى
آل مصر بغيره لا تلوذوا
ياعظيم الجناح يا خير ملك
من بغى والوغى أثار فحكم
واجعل العدل عادل الرمح فيهم
واسقمهم كالذى سقيناه إنا

فخيال الظنون ما قد تمثل
دون إدراكه الجبال تزلزل
بأناس من نابه أو مغفل
وسواه يسمي لكىما يجمل
كانت الغاية الجميلة أمثل
فاستوى شائك السلاح وأعزل
أيقظتنا صروفه إذ تبدل
تجتنى من ثمار غصن تهدل
من عدا المهتدى وتنصح من ضل
قد سلطنا سبيل غاو مضل
وعليم من جاهل صار أجهل
وهو بالطبع فى الأنام مردل
وحققنا دماء قوم تحلل
فسقينا به الثرى اذ تهبل
وجنينا الأسى بزلة من زل
إذ أطعنا الغواة فى كل محفل
سطوة من عداه والقطر مقفل
وسلوك السلوك صار معطل
ما اهتدى للصواب منهم مجمل
أن يحار الأديب فيه فيذهل
من شئون العيون دمعا تسلسل
إن ذكرناهمو نغص ونخجل
شأنه البر كم عفا وتطوك
إذ هو الملجأ الملاذ لمن زل
سعدده قد أباد من قد تقول
فى طلاء الحسام فالسيف فيصل
نافذاً قدس ما يعمل وينهل
قد شربنا من بعد بعدك حنظل

واغتفر زلة لمن جر غمما
 كم عليك عفا وأنت المقتدى
 وامنح الناس من سجاياك عطفاً
 فجدير بمجد ذات الخديوى
 فابق واستبق من رعاياك قوما
 إن تدقق تدق أعناق ألف
 والرعايا تضيق بين عدو
 حاش توفيقنا يقصر عما
 سيدى لا عدت شكرا سناه
 لا تكلف جميل طبعك أمرا
 كان ما قد أساء حلما فلما
 هذه مصر زينت واستعدت
 وازدهت بالجمال حين تبدى
 موكب حف بالكواكب زاه
 كلهم صادق شريف الطوايا
 ما رأت مصر يوم بشر كهذا
 دمت للدين والدنا خير راع
 ما جرى بالفخار عنك حديث
 أو أشار الزمان للسعد أرخ
 سنة ١٢٩٩
 ١٣٣ ١٤٥ ٣٦٠ ٦٦١

وصل

(فيما كان من وراء احتلال)

الجيش الإنجليزية لأرض الكنانة)

قد كان من وراء ما تقدم من الخواث والانباء واحتلال الجيوش الإنجليزية
 للقاهرة وبعض الثغور والمدن كالإسكندرية ودمياط والسويس وطنطا والإسماعيلية أن

وقع أمران خطيران فى نوعهما وعليهما حياة البلاد السياسية والاقتصادية فى مستقبل الأيام - الأول: قلب هيئة الحكومة وتغيير عاداتها والتزاماتها القديمة وإبطال الكثير من مراسمها المعمول بها من أيام محمد على باشا الكبير واستبدالها بالقوانين والشرائع الثابتة والإحداثيات التى تناسب روح العصر وترقى البلاد وأهلها إلى ذروة العمران والمدنية - والثانى: سلخ الأقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها مرسحا للفوضى وغيث العائثين من الخوارج الذين هم مدعى المهدوية والمتلفون حوله وقد ذكرنا فيما تقدم كيف كان خروج ذلك وأمر الفتنة وحديث النافخين فى ضرامها وكيف تطاير شررها حتى عم تلك الأصقاع شرقاً وغرباً ثم كيف كان عجز الحكومة يومئذ عن إخماد نارها بسبب الثورة العرابية وما جرته على مصر وأهلها من الويل وذهاب القوة والضلوة على أنه لم يمض على مقدم اللورد دوفرين رسول الإنجليز بمصر أيام حتى عكف على ابتكار الإحداثيات وسن النظمات الجديدة آتيا الأمور من أبوابها فرسم بإنشاء المحاكم الأهلية على هيئة وشكل المحاكم المختلطة بديار مصر وتوسع فى نفقتها وساعده على ذلك الوزير محمد شريف باشا وبطرس غالى باشا لأن إنشاء هذه المحاكم كانت حاجة فى نفس الوزير منذ أيام الخديوى إسماعيل وأتوا لهذه المحاكم بجماعة من القضاة البلجيكين والهولاندين منعاً لتطاول أيدى رجال الدول الكبرى إلى وظائفها والاستئثار بها أو كما شاع يومئذ تمهيداً للوصول إلى حل عقدة المحاكم المختلطة وإذهاب سلطتها لأنها عقبة كؤود فى سبيل بسط الحماية الإنجليزية على البلاد وإخراجها من تحت نير المراقبة الدولية وقد كنت ممن وقع عليهم الاختيار لوظيفة القضاء بمحكمة المنصورة ثم لرئاسة النيابة العمومية بها فسارت هذه المحاكم سيرا حثيثاً واشتدت عزيمة رجالها جميعاً بما نالوه من الحرية فى العمل والاستقلال فى الفكر ففرح الناس بها فرحاً عظيماً وحمدوا دوفرين على صنيعه كما شكروا الوزير محمد شريف باشا على عنايته واستبشروا بحسن المآل. وبينما هم على هذه الحال إذ وردت كتب صاحب السياسة الإنجليزية وهو يومئذ اللورد جرانفل إلى دوفرين سفيرهم بلزوم سلخ سائر الأقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها إلى مدعى المهدوية بغير رد ولا معاودة فصعد دوفرين بالأمر وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فلم يوافقه وقال: لا يكون هذا الأمر وفى عروقى قطرة من الدم فراجعه دوفرين فلم يقبل فكبر الأمر على دوفرين وأعظمه وكلم الخديوى فيما بدا من الوزير من الغلظة والمكابرة ثم أوعز إلى

مالت قونصلهم بما أوعز فقامت حينئذ بينه وبين الوزير قائمة الأخذ والرد وبدأت علامات الوحشة، وجعل مالت يكيّد المكايد والوزير هادئ القلب ساكن اللب لا يزعجه عن عزمه شيء من ذلك، ثم اشتد دوفرين في الطلب وجعل يسد في وجه الوزير أبواب كل عمل ونافذة كل أمل حتى استنفذه وأضاع صبره وتقدم إلى الخديوى في قبول استقالته من منصب الرئاسة فأجابه الخديوى إلى ذلك بحضرة الوزراء وقال له: أقلتك. قيل: فالتفت الوزير إلى دوفرين وقال: إني بريء مما سراق من الدماء في سبيل هذه الغايات الرديئة فولوا الرئاسة من تشاءون والله من وراء ما تفعلون.

قال بعض الكتاب: وأشار دوفرين على الخديوى بتقليدها للوزير نوبار باشا فصعد نوبار باشا بالأمر ولكنه لم يقدر على المجاهرة بسلخ السودان عن جسم مصر.

(مطلب)

اعتزال الوزير محمد شريف باشا وتولية الوزير نوبار باشا

وأعجب الناس بما فعله الوزير محمد شريف باشا وازدادوا تعلقاً به واشتدت محبتهم له واندفع أصحاب صحف الأخبار يلهجون بحمده فجاءت إليه رسائل التهاني تترى من كل فج عميق، وزاره أصحاب السياسة من الإنجليز والفرنسيين ليعرفوا منه ما خفى من الأسباب وما استعصى عليهم فهمه من مغامز هذه السياسة وكان ممن زاره عظيم من الإنجليز فكتب يومئذ إلى إحدى صحف أخبارهم يقول: زرت الوزير محمد شريف باشا في داره بعد اعتزاله للرئاسة فحدثني طويلاً في جميع الضحايا التي ضحّاها في سبيل الوفاق مع وكلاء دولتنا بذيّار مصر لعلمهم يقفون عند حد يكون من ورائه الكف عن مشاغبتهم، ثم قال لى وهو يتنفس الصعداء: قد أقسم مالت قونصلكم أن يتركنى وشأنى أتصرف فى العمل حسبما تقتضيه مصلحة البلاد إذا قبلت الرئاسة ومع ذلك فما كنا نتأخر عن فعل ما كانت تشير به دولة الإنجليز فيما يتعلق بالإصلاحات فقط، لا فيما يمس وجودنا السياسى الذى يقضى علينا بالمحافظة على الأصقاع السودانية الشرقية والقبلية وإلا فنكون غير سالكين مسلك الصداقة نحو الأمة التى تعتبر ذلك أمراً ضرورياً لحياة مصر وراحتها. وليس بخاف أنى كثيراً ما ضحيت محبة الأمة لى وتعلقها بى إرضاء لمطالب الإنجليز ومع ذلك فإننى أعتبر نفسى غير أهل لمنصبى إذا افتخرت بهذا العمل. أما زعيم

السياسة الإنجليزية فإنه لم يعمل عملاً طيباً لنا نحن معاصر المصريين وتشديده علينا بترك السودان في أيدي المهدي أكبر برهان على ما أقول، لأنه من المعلوم أن ترك السودان للمهدي مما يزيد في قوته ويصيره عزيزاً قوى الجانب، فلماذا بلغ متمناه هذا فماذا تكون ياترى الوساطة في إيقاف تيار تلك القوة الثائرة ومن الواضح البين لكل ذى بصيرة أن جعل حدود مصر عند أسوان أو وادي حلفا كما أشار صاحبكم يستلزم وضع جيش من خمسة عشر ألفاً إلى عشرين ألفاً من الجنود ليبقى رباطاً هناك فمن يا ترى يقوم بنفقة هذا الجيش. نعم إن الخطر بعيد عنا حتى الآن ولكنكم سترونه قريباً على الأبواب ولا أنكر عليك سيدى أن السودان كانت تكلفنا الشيء الكثير من المال غير أنه لا خسارة علينا إذا حافظنا على حدودنا بإتفاق زهاء مائتي ألف جنيه وأظنك لا يعزب عليك أن محمد علي باشا أدرك في أيامه أن حماية حدود مصر الأصلية تستلزم ضم أراضي النيل الأبيض إليها فسعى في ذلك وأخضع بقوته تلك الأطراف وجعلها تابعة لديار مصر فنعم ما فعل، وهل يصح بعد ذلك أن تترك حكومة متوحشة بربرية على حدود البلاد فتسلبها راحتها وطمانيتها مدى الأيام على أن النفقات التي تنفق على إقامة خط دفاعى على النيل الأبيض لا تبلغ جزءاً من النفقة التي يستلزمها الدفاع عن وادي حلفا أو أسوان وأن خمسة عشر ألفاً من المصريين يقومون على حراسة الخرطوم وبربر ودنقلة وسنار وعلى ذلك يكون من الخرق في رأى بل من قلة التبصر تضحية سكان هذه المدن ومن فيها ونحن مسئولون عن الذب عن أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

قال الراوى: ثم أطرق الوزير لحظة ورفع رأسه وقال: وماذا تفعلون يا ترى أيها الإنجليز بدعاة المهدي الذين أقسموا أغلظ الأيمان أن يموتوا بحد السيف أو يفتحوا مصر السفلى، أما أنا فلم أفهم ما الحامل للإنجليز هداهم الله على التنحى عن مقاتلة المهدي واحتلال السودان، وما الباعث لهم على معارضتنا في استرجاع البلاد التي أخذها مدعى المهدوية ولماذا لا يسمحون لنا بإبقاء النيل الأبيض في حوزتنا كما كان؟ ولماذا لا نطلب من أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد النجدة فيمدنا بعشرة آلاف من أبطاله وقد أمددناه مراراً عند حاجته إلى ذلك، وإنى أقول لك الحق: إنا لو أجلبنا المهدي عن الخرطوم لاتخذت المسألة دوراً آخر ولكن قل لى بحقك ما الذى يدعونا نحن إلى الانجلاء عن ذلك البلد قبل أن يتقدم لها المهدي بأقوامه وهاهو الزبير باشا قد أبى الذهاب إلى دارفور والآن حيث إنى خلعت نفسى من الرئاسة ومادام أمر الجلاء عن السودان شيئاً مقررأ ولا يمكن التخلي عنه فلا بد أن حسين باشا ومن معه

من العربان لا يتقدمون إلى الأمام وتفتر عزيمتهم تماماً - قال - وإنى لا أخفى عنك أنى ناظر إلى المسألة من وجهها الحقيقى فلذلك أرانى مشاهداً من بعيد جميع المصاعب التى تترصدنا، فإن نجاح المهدي أحدث تأثيراً قوياً فى عقول أهل البلاد بحيث صار يتعذر علينا إنفاذ ما ننويه حالة كون البلاد بأسرها تضادنا فى ذلك - قال: وأنت تعلم أن سقوط هيئة الوزارات عادة لا يكون إلا عند مباينة رأى الرئيس لآراء الأعضاء الآخرين ومن تبعهم من أعيان البلاد، أما وزارتنا فقد كان سقوطها مسيئاً عن اتفاقنا فى رأى بشأن عدم ترك السودان، نعم إنى مع رفاقى سلمنا بجميع ما يمكن التسليم به على أننا قد رأينا أن ترك الخرطوم وبربر ودفنقله أمر لا تقوى عليه عزيمتنا وكيف نستطيع ذلك وهى ليست من أملاكنا الخاصة؟ وما نحن إلا قائمون بحراستها بموجب فرمان سلطانى لا يسمح لنا بالتصرف فيها دون رضا الباب العالى وكأنى بصاحبكم يزعم أن بقاء السودان فى يدينا ضرب من الجور والظلم، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا ياترى جازفنا بإتفاق الأموال الطائلة فى إبطال التجارة بالعبيد حتى أغضبنا أهل تلك البلاد وحاربناهم لتوطيد أركان التمدن وتثبيت قدم الإنسانية وإن كنا قد أنفقنا الأموال الكثيرة فى ذلك فإننا والله المنة لم يعاونا أحد على تحمل أثقال هذه النفقة، نعم إنى صممت على التسليم بترك كردفان والدارفور ولكننى لم أسلم قط بترك الخرطوم وسوف ترون ما سيكون من وراء سياسة صاحبكم الخرقاء وما ستكبده البلاد من النفقة الثقيلة لا لشيء سوى المحافظة على القوم فقط .

قال الراوى: ثم حملق إلى الوزير بعينه وقال: إنى أقول لك الحق إنى حزنت جداً من جراء حادثة السودان ولكنى لم أضجر وثابرت عى العمل وأجهدت النفس ما استطعت، فلما أيقنت أنى مشرف على هوة عظيمة جزعت ووقفت ثم خلعت نفسى من منصب الرئاسة وكان بودى لو يعلم الناس كافة إخلاصى فى الخدمة حتى النهاية ولكن يأبى الله إلا ما يريد . اهـ .

قلت: فكان لمقالة الوزير غاية الوقع فى نفوس أقيال السياسة وأقطابها وتكلم عنها أصحاب صحف الأخبار الأجنبية وعدوها غاية فى الإصابة والسداد بل آية من آيات حسن النظر وأصالة الرأى وازدحم على بابه كبار الكتاب من الإنجليز والفرنسيين لاستكتاب حق أفكاره فكان يحدثهم غير متعب من عظيم أو كبير .

وبينما كانت الظنون تتراعى إلى ما سيكون من وراء تولى الوزير نوبار باشا منصب الرئاسة وما سيكون من وراء ترك السودان وغوائل الحرب القائمة من أقصاها

إلى أقصاها كان زعيم السياسة الإنجليزية يتخبط فى الأمر ويعمل على سلخ السودان شرقاً وجنوباً لأقل الأسباب وأوهى العلل.

(مطلب)

بعثة الأميرال هيوت إلى نجاشى الحبشة

ثم قدم فى هذه الأثناء إلى القاهرة أمير من أمراء سفن الحرب الإنجليزية اسمه الأميرال هيوت مبعوثاً إلى نجاشى الحبشة لعقد وفاق معه على فصل التخوم بين الأملاك المصرية وأملاك السلطنة الحبشية فلبث فى القاهرة أياماً ثم سار إلى السويس ومنها إلى مصوع فوصلها فى أخريات جمادى الثانية من السنة. أى سنة إحدى وثلاثمائة وألف هجرية، ثم غادرها ومعه محافظ المدينة وبعض كبار عسكر سفيته يريد لقاء الرأس ألولا قائد الجيوش الحبشية وكان قد سير أمامه جماعة من العسكر ليخبروه بقدمه وبسبب حضوره ويطلبوا تعيين المكان الذى يأذن النجاشى بمقابلته فيه، فعادوا وأخبروا بأن اللقاء يكون فى بلدة عدوة فسار إليها بمن معه من الرجال فلما صاروا على مسافة يومين منها كتب إلى النجاشى يعلمه بالغرض من مهمته وبالشروط التى يبنى عليها الاتفاق بين الدولة الإنجليزية والحكومة المصرية والمملكة الحبشية ولبث ينتظر الجواب أياماً حتى جاءه الخبر من قائد الجيوش الحبشية بأن النجاشى مقيم ببلدة مكله فإذا شاء المسير إليه لاقاه على الرحب والسعة فلم يشأ الأميرال الذهاب إلى مكله، وسار بمن معه إلى عدوة فلما بلغوها لبثوا بها أياماً فجاءهم أمير الجيوش يحمل الأمر من النجاشى بالمداولة معه فيما جاءوا بصدده فوارب الأميرال ولم يمتنع بتاتاً وأكثر من الأخذ والرد فيما لا طائل تحته وجاء الخبر بذلك إلى النجاشى فلم يحفل به ولم يتحرك إلى عدوة وبارح مكله وعرج فى طريقه إلى دبه ومدرا وغيرهما ثم رجع إلى مكله ثانية كل هذا والأميرال ومن معه يتحملون مضض الانتظار حتى قدم الملك عدوة وأذن لهم بمقابلته فدخلوا عليه وسلموه كتب ملكة الإنجليز وقدموا له بعض التحف والهدايا. فلما كان اليوم الثانى طلبهم أيضاً إلى حضرته فتمثلوا بين يديه وهو فى زيهِ الملوكى فحادثوه طويلاً فى أمر المعاهدة وما تتضمنه من الشروط والقيود، ثم ودعوه ورحلوا إلى مصوع وعادوا إلى القاهرة ومعهم ورقة عليها خاتم النجاشى واسم الأميرال ومامون بيك محافظ مصوع قالوا: إنها هى تلك المعاهدة وأنها تتضمن سبعة أمور أهمها منح الحرية التامة

للمملكة الحبشية فى نقل جميع البضائع والأسلحة والذخائر من ميناء مصوع تحت حماية الراية الإنجليزية، ثم إعادة بلاد بوغوس إلى المملكة الحبشية مع كسلا وأماذيب وسنهيت بما فى جميعها من المباني والأسلحة والذخيرة حين جلاء العساكر المصرية عنها بشرط أن النجاشى يسهل لأولئك العساكر سبل الجلاء. فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذ الناس يتساءلون عما يراد منها فى حين أن تلك البلاد آمنة مطمئنة لا خوف عليها من إغارات العدو، فقال قوم: إنها غلطة من غلطات زعيم السياسة الإنجليزية، وقال آخرون: بل هى آية من آياته يريد بها إضرام نار الفتنة بين الحبشان ومدعى المهدوية عند بسط النجاشى يده على تلك البلاد فتقوم الحرب بين الطرفين ويقتتلان دونها حتى يهلكا كلاهما أو يهلك فريق ويضعف الآخر فتلتهم السودان دولة الإنجليز لقمة سافعة وتضمه إلى ما نالته من قبل، على أنه لم يكذب ينشر خبر هذا للوفاق وما جره على البلاد من الخزي والعار حتى ظهرت الإشاعة بتعاقد زعيم السياسة الإنجليزية مع زعيم السياسة الإيطالية على تنازل السلطنة الإنجليزية للإيطاليان عن مدينة مصوع بعد سلبها من أملاك الحكومة المصرية مع سائر النقاط الحربية الواقعة على سواحل البحر الأحمر ما بين عصب ومصوع على شرط أن الجنود الإيطالية التى تحتلها تقوم بقتال أصحاب المهدوية عند الحاجة فنشط حينئذ أصحاب صحف الأخبار المحلية وجعلوا ينادون بالويل والثبور ويحضون أصحاب الحل والعقد على الوقوف فى وجه زعيم تلك السياسة وينذرونهم بالخراب العاجل إن هم ظلوا على هذا الإغضاء والتعامى. وكان ممن أكثر من هذا الصياح والجلبة صاحب جريدة إفرنسية اسمها البوسفور فإنه بالغ فى الوقية بزعيم سياسة الإنجليز وزاد فى الطعن والسباب والخط من كرامته حتى استشاط جماعة الإنجليز ولم يطبقوا السكوت على ذلك فطلبوا من الوزير نوبار باشا القبض على الرجل وإبعاده فلم يقدر الوزير على ذلك ولكنه رسم بإلغاء صحيفته وإغلاق محل تحريرها فمانع قنصل الفرنسي فى ذلك ووردت إليه الأخبار من وزير السياسة الإفرنسية بالثابرة على الممانعة وقطع كل علاقة مع الحكومة إن هى أصرت على ما تبغيه من إغلاق مكان صاحب البوسفور فأصبح الوزير نوبار باشا وهو بين متطع كبشين لا يدرى أى الطرفين أدنى إلى السلامة، إغضاب جماعة الإنجليز أم قطع العلاقات مع دولة الفرنسيين، ثم إنه كأنما رأى الثانى أهون الشرين فأوعز بإغلاق المحل فرحل القنصل فى الحال عن القاهرة إلى الإسكندرية وأعلن قطع كل علاقة مع الحكومة ولبث يتظر ما يأتیه من زعيم سياستهم، وقد اشتغلت الخواطر بهذا الأمر ولم يبق للناس حديث سواه وهم بين

مستضعف لدولة الفرنسيين وشامت بها فكان بعضهم يقول: لو أن فرنسا أظهرت هذا الحزم والعزم يوم كانت مراكب حربيها أمام طوابى الإسكندرية ولم ترض بانسحابها صاغرة ذليلة لما حاق بقومها والنافيين في بوقها ما حاق بهم اليوم من الذل والهوان وقال آخرون: هذا جزاء ما فعلته بنا من التغرير حتى أصبحنا وإياها على ما ترى من الضيم والحيف والجزاء من جنس العمل، وقد كثر الأخذ والرد حينئذ بين وزير السياسة الإنجليزية ووزير سياسة فرنسا ونوبار باشا ونسب جماعة الإنجليز أو تناسوا أنهم النافخون في ضرام هاته الفتنة فجعلوا يسعون بين المتخاصمين ويصلحون ذات البين كأنما لم يكن لهم يد فيها وطالت المخابرة في ذلك أياماً والأبناء تأتي في كل يوم إلى القاهرة أشكلاً وألواناً. واتفق أن جاء في هذه الأثناء إلى ميناء الإسكندرية بعض سفن الحرب الفرنسية فطاش عند رؤيتها جماعة الفرنسيين وبالغوا في الاحتفاء بمن جاء فيها من كبار الجند ومقدمى العسكر وهب أصحاب صحف أخبارهم عما كانوا فيه من خمول وأخذوا يفصلون خبر مجيء تلك السفن ويظهرونه في مظهر العداء والوعيد حتى خيل للناس أن قد قامت الحرب على أبواب القاهرة وبينما هم على هذه الحال إذ المجلت المخابرة عن حصول الاتفاق بين الفرنسيين والوزير نوبار باشا على أن تعود جريدة البوسفور إلى الظهور وأن يذهب نوبار باشا إلى دار قنصل الفرنسيين بكسوة التشریف معتذراً عما وقع فعاد حينئذ القنصل من الإسكندرية إلى القاهرة ومعه أمير تلك السفن الحربية وبعض كبار عسكره، فلما كان اليوم الثالث بعد عودتهم زارهم الوزير بكسوة التشریف فقابلوه هم كذلك فابتدروهم بعبارات الاعتذار والمصالحة فأجابوه بتلطف وفتحت بعد ظهر ذلك اليوم أبواب محل الجريدة فعادت الأمور إلى سابق مجراها وبطل حينئذ القيل والقال بهذا الشأن وانتقل حديث الناس من ذلك إلى سبب رحيل فتس جرالده وأخذ رجال الإنجليز الذي تولى إدارة أعمال حسابات الحكومة وخزيتها حيناً فقلب نظامها وغير قواعدها القديمة بمعاونة بلوم باشا الذي تولى وكالة الخزينة على عهد الخديوي إسماعيل ولهذا الرجل وخلعه من منصب الوكالة حديث طويل كله أحاجي ومعميات قد ضربنا صفحاً عن ذكره هنا. رحل فتس جرالده هذا في تاسع عشر رجب من السنة أى سنة اثنتين وثلاثمائة وألف هجرية فلم تكن إلا أياماً حتى جاء بدله آخر اسمه ويستلاند فلم تطل أيامه وانقلب راجعاً، قالوا: لأنه رأى في أعمال حسابات الخزينة من الخلط والخلط ما لم يوافق عليه، وقد كان من رأيه إعادة شكل الحسابات القديم الذى كان على عهد رؤساء كتاب الخزينة من أهل البلاد وكان من همه منذ حضر إلى القاهرة من ديار الهند الإنجليزية البحث والتنقيب لمعرفة ما كانت

عليه هيئة الحسابات قبل أن يتولاها الإنجليز وبعد أن تولوها وظل على هذه الحال أياما حتى إذا ما هم بإرجاع شكلها إلى ما كان عليه مانعه في ذلك جماعة الإنجليز فلم يسعه إلا التخلي عن منصبه مفضلاً الرجوع إلى وظيفته في ديار الهند على البقاء مقيداً بعمل لا ترضاه نفسه فحمدته الناس على ذلك، فجاء بدلاً منه آخر يدعى بلمر فسار على خطة فتس جرالڊ وزاد فيها توسعاً وبالع في الإكراه على العمل بها حتى عمت سائر دواوين الحكومة وأبطل من قواعد الحسابات القديمة ما لم يتمكن فتس جرالڊ من إبطاله إلى يوم رحيله عن البلاد، وما زالت طريقة فتس جرالڊ هذه مرعية إلى هذا اليوم.

ومن الحوادث الجوية الغريبة التي وقعت في ليلة الحادى والعشرين من صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلاثمائة والى هجرية أنه انفجر بعد العشاء الأولى في السماء ضوء حتى ملأ الجو ثم ظهرت بعده في السماء نيازك وجعلت تتساقط ركاماً كأنها سهام ترمى في أعقاب الشمس حتى خيل للناس أن الحرب في السماء قامت على قدم تنفجر نيازكها انفجار نار المدافع وإن لم يسمع لها دوى فخاف العامة كثيراً وترامحوا وهم يولولون ويضجون بيالطيف يا خفى الألفاظ وصعدوا إلى أسطحة البيوت وصاروا يعجبون ويتهلون إلى الله تعالى، وكانت النساء يبكين والأطفال يصرخون بأصوات الخوف وعذرهم في ذلك مقبول إذ هم لم يسمعو بل لم يروا من قبل هذا الحادث الغريب وكان المنظر في تلك الليلة غاية في الغرابة فلم يبق طرف إلا مد إليه ولا نظر إلا تعلق عليه وكانت نجمة الزهرة في تلك الليلة أشبه بالنارة الدائرة على نفسها ينقبض نورها حتى لا تكاد تتميز عن سائر صغار النجوم، ثم لا تلبث أن تنبسط فتعود إلى حالها ونورها الزاهر واستمرت على حالتها تلك برهة طويلة والنيازك بين ذلك متتابعة متواصلة كأنها أوراق الشجر تتساقط متناثرة، ثم بطلت وسكنت خواطر الخلق وأصبحوا وهم يرجفون بوقوع الحوادث المهمة وحدث الخطوب المدلهمة.

(مطلب)

اهتمام دولة الإنجليز بإعطاء الخزينة قرضاً فلم تفلح

وكانت إلى هذا الحين قد أمحلت خزينة البلاد وتولى العجز مواردها وكثرت عليها المطالب والمغارم كثرة بالغة فهمت دولة الإنجليز بإقراض الخزينة قرضاً يقوم بسد احتياجاتها فعارضها في ذلك وزير سياسة الفرنسيين وقال: إن الحكومة المصرية

مرتبطة بعهود ومحالفات دولية لا يضح معها انفراد الإنجليز بهذا العمل فضلاً عن أن البلاد مازالت تحت سيادة السلطان عبد الحميد فلا يصح لها أن تستدين إلا بإذنه .

قال بعض الكتاب : وقد كان وزير الفرنسي يريد بذلك غل يد الإنجليز في مصر وإظهار عجزهم عن سد حاجتها حتى لا يعتبر احتلالهم إياها لازماً لا بد منه ولكن خاب ظنه وطاش سهمه إذ ما لبث الإنجليز أن سعوا لدى السلطان ورجال المابين حتى جاء فرمان السلطان بعدم المانع من الاقتراض لوفاء مطالب الخزينة المترتبة على الحوادث التي حدثت فتم للإنجليز عمل ذلك القرض فراجت الأعمال وزالت المصاعب فنشط الوزير نوبار باشا حيثئذ إلى مخابرة زعيم السياسة الإنجليزية في صعوبة جعل وادي حلفا حداً فاصلاً بين السودان ومصر وعدم موافقة ذلك لمصلحة البلاد، وقد كان زعيم السياسة المشار إليه رسم بذلك لأصحابه وأشار بالتعجيل فقال الوزير نوبار باشا : إن طمأنينة البلاد لا تتم إلا إذا صارت مديرية دنقلة غاية تخومها لا وادي حلفا لتتمكن من السيادة على النيل - قال : ولما كان ذلك يستلزم إرسال حملة إليها بعد جلاء العساكر الإنجليزية عنها فهو يرى أن تعهد هذه الحملة إلى الحكومة المصرية بحيث تجند عسكرياً كامل العدد والعدد يتولى قيادته رجل مصري خبير بأحوال السودان وأن هذه الوساطة أقرب من سواها إلى الوصول إلى أحسن النتائج فضلاً عن أن النفقة التي تلزم لذلك ستكون طفيفة بالنسبة للنفقات الجسيمة التي يقتضيها تجريد حملة إنجليزية وأنه ينبغي أن نقاتل السود بنفس أسلحتهم، وإذا تحقق خبر موت المهدي كان الأمر أيسر وكانت العاقبة أسلم والمبادرة بالحرب أوجب وألزم فلما علم صاحب سياسة الإنجليز بمقالة الوزير أرسل إليه يقول : اترك كل شيء على ما هو عليه الآن حتى يفد عليك رسولنا درومند ولف .

وكان لما خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من مسند الرئاسة بسبب تصميمه على عدم التخلي عن السودان وتركها لمدعى المهدوية وأخذت أقلام الكتاب يومئذ تقرع صاحب السياسة الإنجليزية بأشد ما يكون من التقرع عمد إلى شيء من الموارد تسكيناً للفتنة وأرسل كتبه إلى السلطان يعلمه بما عزم عليه السلطنة الإنجليزية من إرسال رسول ينوب عنها في التعاقد مع الباب العالي على ما فيه المصلحة لديار مصر والسودان في مستقبل الأيام .

(مطلب)

بعثة السير درومند ولف إلى دار السلطنة العثمانية

فلم تكن إلا أيام بعد ذلك حتى سار إلى الآستانة عظيم من الإنجليز اسمه السير

درومند ولف يحمل الأمر بإبائه عن السلطنة الإنجليزية فى عقد ذلك الاتفاق فأكرم السلطان وفادته وأحسن لقاءه فأخذ يغدو ويروح على الباب العالى تارة والمابين الهمايونى أخرى أياً لم يتعد الكلام فيها تعيين القاعدة اللازمة لمواد ذلك الاتفاق، وكان الكلام بين الفريقين غاية فى المواربة والتعقيد. وبينما هما على هذه الحال إذ قامت الفتنة فى إمارة البلغار وظهر أهلها ومن ولى الإمارة عليها يطالبون بالاستقلال والخروج من تابعة الدولة العثمانية.

قال بعض الكتاب: ويقال إن دولة الإنجليز هى التى أغرتهم على فعل ذلك وجرتهم إلى التظاهر فى تلك الأيام بما يوجب فشل الدولة العثمانية واضطراب أمورها عساها تتساهل مع رسولها ولف فتتال منها ما تتمناه فتعطلت المخابرة بين ولف والباب العالى ووقفت عند حد الانتظار واشتدت الفتنة البلغارية وتطاولت أيدى رجالها إلى العبث بحقوق السلطنة العثمانية واستخفوا بها فجيش أميرها الجيوش وأعد المعدات وسير الرسل إلى الدول الكبرى يستفزها إلى نصرته فطافوا الممالك وأكثروا من الشكوى، وعظموا البلوى فمن الدول من مناهم بالأمانى البعيدة ومنها من حضهم على طاعة السلطان وملازمة السكون وطالت الأيام على مبعوث الإنجليز وهو ينتظر فى دار السلطنة العثمانية ما سيكون من وراء تلك الفتنة عسى أن يكون من ورائها مغنم لهم فلم يقع شئ من ذلك وتلاشت الفتنة على أيسر ما يكون وعادت الأمور إلى سابق مجراها وبعد أخذ ورد ما بين ولف والباب العالى وسفراء الدول الكبرى وقع الاتفاق على أن يرسل السلطان مبعوثاً من قبله إلى ديار مصر مع ولف مبعوث الإنجليز فيكون مندوب السلطان هو الأول ومندوب الإنجليز هو الثانى ويكون مع كل من الاثنين بعض الموظفين والمأمورين ليساعدوه على قضاء مأموريته بحيث إن هذه الرسالة لا تتناول إلا البحث فى أحوال خزانة البلاد وأمورها الإدارية والعسكرية مع إصلاح ما يمكن إصلاحه وعلى المندوبين أن يرفعا تقريراً بما يريانه مشتملاً على تفصيلات المسائل باباً فباباً .

ووصل ولف الإسكندرية فقبول بغاية التجلة والتعظيم وسارت خلفه وأمامه الفرسان من الإنجليز والمصريين إلى محطة السكة الحديد، فلما وصل القاهرة بالغ الخديوى فى الاحتفاء به فقد كان فى انتظاره على المحطة ذو الفقار باشا كبير التشریفات وجميع النظار ومحافظ المدينة وقائد عموم جيش الاحتلال وبعض مقدمى العسكر وكوكبة من الركبان والمشاة، ثم زاره الخديوى وكبار الدولة والأمراء كافة ولبت ينتظر قدوم المبعوث السلطانى وهو يجتمع فى كل يوم بعظماء أهل البلاد

ولاسيما من كان منهم له علاقة بالسودان ومعرفة بأحوالها . وبينما هم يترقبون قدوم مبعوث السلطان إذ جاء الخبر إلى ديوان الخديوى بالإحسان من الخليفة على الخديوى بنيشان الامتياز العالى ، وأنه قد أرسل النيشان على يد الفريق محمد باشا وآخر اسمه خيرى بيك فوصلا إلى الإسكندرية وقدا منها إلى القاهرة وسارا من محطة السكة الحديد فى موكب حافل حتى أنزلوهما بقصر النزهة من ضواحي القاهرة فباتا ليلتهما وأصبحا فسارا إلى مقر الخديوى بعابدين ولبثا بحضرته برهة لطيفة ثم عادا إلى قصر النزهة . فلما كان اليوم الثانى عمل التشريف فدخل على الخديوى كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية فهنئوه وأطلقوا لذلك عدة مدافع من قلعة الجبل وفى عصر اليوم سار الخديوى إلى قصر النزهة حيث الوفد العثمانى فسلم عليهما وجلس معهما برهة لطيفة ثم عاد إلى مقره وأقام رجال الوفد بعد ذلك أياماً ثم بارحا الديار إلى الآستانة .

(مطلب)

قاعدة الاتفاق الذى رامت الدولة الإنجليزية عقده مع السلطان

وجاء البريد من دار السلطنة فى ثمانى عشرى صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف يحمل صورة الوفاق الذى تم ما بين دولة الإنجليز والباب العالى بشأن مأمورية السير درومند ولف مبعوث الإنجليز وسعيد باشا ناظر خارجية السلطنة العثمانية والأمور التى سيجريها فى مصر بالاشتراك مع الغازى مختار باشا مبعوث السلطان فكانت كما يأتى بنصه :

لما كانت جلالة ملكة بريطانيا العظمى وأيرلانده وإمبراطورة الهند اتفقت مع جلالة السلطان على إرسال معتمدين فوق العادة إلى مصر لأجل تنظيم الشئون المصرية قررا أن يعقد بينهما وفاق وعينا لهذه الغاية معتمدين مرخصين وهما المحترم السير هنرى درومند ولف من أعضاء المجلس الخاص حامل نيشان شوفاليه غران كرواه من صنف سان مشيل وسان جورج ونيشان شوفاليه كومندور من صنف بين وأحد أعضاء البرلمان الإنجليزى ومعتمد الدولة الإنجليزية ووزيرها المرخص لدى جلالة السلطان بمأمورية خصوصية تتعلق بالأكثر بشئون مصر من قبل جلالة ملكة بريطانيا العظمى وأيرلانده وإمبراطورة الهند ودولتو محمد سعيد باشا وزير الخارجية

العثمانية الحامل النيشان الأول المرصع والنيشان المجيدى الأول من قبل جلالة
السلطان. وبعد أن تبادل الاطلاع على أوراق تعيينهما الرسمية ووجداها صحيحة
توافقا على المواد الآتية المبينة على سائر الفرمانات الشاهانية المرعية :

المادة الأولى : يرسل كل من جلالة ملكة بريطانيا العظمى وجلالة السلطان
معتمدا سامياً إلى مصر .

المادة الثانية : يبحث المعتمد السامى العثمانى بالاتحاد مع سمو الخديوى أو مع
المعتمد الذى يعينه سموه فى أصلح الوسائط الممكن الوصول إليها لإخماد ثورة
السودان بطريقة سلمية ويوقف المعتمد السامى العثمانى وسمو الخديوى المعتمد
الإنجليزى السامى على سير المخابرات .

ولما كانت الاحتياطات التى ستقرر متعلقة بتسوية شئون مصر العمومية اقتضى
اعتمادها وتنفيذها بالاتحاد مع المعتمد الإنجليزى السامى .

المادة الثالثة : ينظم المعتمدان الساميان الجيش المصرى بالاتحاد مع سمو الخديوى .

المادة الرابعة : يفحص المندوبان الساميان بالاتحاد مع سمو الخديوى جميع فروع
الإدارات المصرية ولهم أن يعدلوا فيها ما يستصوبون طبقاً للفرمانات الشاهانية .

المادة الخامسة : تصدق الحكومة العثمانية على جميع العهود الدولية التى
أبرمها سمو الخديوى بشرط أن لا تكون مغايرة للامتيازات المخولة لسموه بمقتضى
الفرمانات الشاهانية .

المادة السادسة : عقيب أن يتأكد المعتمدان الساميان حصول الأمن على التخوم
وتوطيد الحكومة المصرية يقدم كل منهما تقريراً إلى حكومته وعندئذ تبحث
الحكومتان فى عقد وفاق يتقرر فيه جلاء العساكر الإنجليزية عن مصر فى أجل
مناسب .

المادة السابعة : يصدق على هذا الوفاق ويصير تبادل النسختين المصدق عليهما
فى الأستانة فى خلال خمسة عشر يوماً أو أقل إذا أمكن .

وبناء على ذلك وقع المعتمدان المرخصان على هذا الوفاق وذيلاه بطغرائهما

اهـ .

(مطلب)

تعدي العساكر الإيطالية على مصوع واحتلالها عنوة وما جرى

وبينما كان المبعوث الإنجليزي ورجال الحل والعقد في مصر يراقبون حضور مبعوث السلطان وأهل البلاد يرجون النفع من وراء هذه النهضة إذ جاء الخبر من عامل الخديوى على مصوع بأن الجيوش الإيطالية التى كانت ضاربة حول البلد قد دخلتها وأحاطت بأماكن ودواوين الحكومة وطلبت من محافظ البلد الجلاء العاجل عنها بمن معه من المرابطين وتسليم القلاع والحصون إلى قائد الإيطاليان فمانع المحافظ فى ذلك وقال: إنه لا يفعل حتى يأتیه الأمر من الخديوى فشدد قائد الإيطاليان فى الطلب وأغلظ فى القول وهدد المحافظ بإطلاق القنابل من مدافع السفن على الحصون حتى يدمرها إن هو أصر على الامتناع فلم يسع المحافظ إلا الانسحاب بمن معه من الجند وبارح البلد وانحدر إلى سواكن، فلما شاع خبر هذا الحادث هاج الناس وماجوا وطاف نساء وذرارى الضباط وأصحاب الوظائف الذين بمصوع يتساءلون عما جرى لرجالهم وهم فى ولولة وضجة واجتمع الوزراء كافة وبينهم الخديوى وتكلموا فى الأمر طويلاً ثم اتفقوا بعد جدال على أن يحتجوا على عمل دولة إيطاليا هذا ويرفعوا الأمر إلى الباب العالى ليرى رأيه فيه مع سفراء الدول الكبرى بدار السلطنة وظنوا أن الغازى مختار باشا لا يفد إلى مصر إلا ومعه علم ما كان وما سيكون من أمر هذه المحن المتتابعة. فلما كان ثانى عشر ربيع الأول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية وصلت السفينة عز الدين إحدى البواخر السلطانية تقل الغازى مختار باشا مبعوث السلطان فقابله الوزير نوبار باشا وسائر النظار وذو الفقار باشا كبير التشريفات فى أبهة وجلالة وأطلقت المدافع لقدمه من قلاع وحصون الإسكندرية، وكان فى انتظاره العدد العديد من العلماء والوجهاء وأعيان البلد فبعد أن سلموا عليه جميعاً بات ليلته تلك بالسفينة وأصبح فسار بمن معه من رجال الوفد ونسائه وخدمه وأتباعه إلى محطة السكة الحديد فحملهم القطار إلى القاهرة، وكان فى انتظاره الأمراء والكبراء والعلماء والوجهاء فسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع إلى سراى الإسماعيلية التى أعدها لنزوله ولم يستقر به المقام حتى زاره المبعوث الإنجليزي ولبث بحضرته برهة لطيفة وكذلك زاره العلماء

والوجهاء وأصحاب الوظائف على اختلاف طبقاتهم، ثم زار الخديوى فى ثانى يوم ولبت معه برهة وعاد إلى مقره فرد له الخديوى الزيارة وهو فى موكب التشريف، ثم بعد أيام قلائل جعل الغازى يوالى الاجتماع بمبعوث الإنجليز ويتكلمان فى أمر الإصلاح وفى أوجهه وأسبابه وظلا على هذه الحال أياماً. وجلسا يوماً يتكلمان فقال الغازى لولف: لا أخفى عليك أن حالة البلاد الآن داعية إلى تجهيز جيش مناسب تسلم قيادته لقواد من أهل الخبرة والتجربة من المسلمين ليتولى إرجاع الأمور فى الديار السودانية إلى سابق مجراها والزحف على بلادها كلما سنحت الفرص. فقال لوف: إن الاتفاق مع أمير المؤمنين مبنى على اتخاذ الوسائل السلمية لا على تجنيد الجنود وتسليح العساكر وإرسالها لقتال العدو فقال الغازى نعم إنى لم أعود أن أرى غير الحقيقة وقد يمكن أن يكون مولاي الخليفة يظن ذلك فعلى أن أرفع إلى سدته الملوكانية ما أراه الآن من استحالة إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه بالوسائل السلمية ما لم تعضدها قوة عسكرية، فقال لوف: ومن أين المال للنفقة؟ فقال الغازى: إن شاءت الدولة الإنجليزية مساعدتنا فالأمر دين والنفقة متيسرة وما عليها إلا أن تعطينا ما نأخذ من خزينة البلاد نفقة على جيشها المحتل الآن مصر. قال محدثى: فسكت عند ذلك السير لوف وأطرق لحظة ثم رفع رأسه وقال: سأكتب بهذا القول إلى صاحب سياستنا وأنتظر الجواب فإذا جاءنى اجتمعنا وتناقشنا فى الأمر.

واتفق فى هذه الأثناء أن تقدمت طائفة من العربان وجماعة من الدراويش أنصار المهدي إلى مواقع العساكر المصرية والإنجليزية الضاربة على الحدود فعاثوا فى ذلك الصعيد فقامت عليهم العساكر وضربتهم ومزقت جمعهم وتأثرتهم فاسترجعت منهم عدة مواقع وكثيراً من القرى والبلدان الصغيرة وما زالت تطاردهم وتعمل فى أقفيتهم السيف حتى صارت على أبواب دنقلة ووردت الأنباء بذلك إلى القاهرة من عاصمة الإنجليز لا من الحدود ففرح الناس فرحاً عظيماً وتعلقت آمالهم بقرب دخول العساكر المصرية دنقلة وإرجاعها إلى حوزة الحكومة وجعلها مقراً للحركات العسكرية ووردت رسائل التهاني على الخديوى من كل فج عميق فلم تكن إلا أيام حتى جاء الأمر من اللورد سلسبورى زعيم السياسة الإنجليزية إلى الجنرال استيفنسون قائد الجيوش الإنجليزية بالحدود أن ردوا المقاتلين كافة عن دنقلة وأرجعوه إلى الحدود، قيل: فراجع الجنرال استيفنسون فى ذلك فلم يقبل وشدد فى إرجاعهم فانحدروا إلى مواقعهم الأصلية وتركوا ما كان بأيديهم من تلك المعاقل والمراكز فعاد إليها

العربان وتقووا فيها وترسوا وجعلوا يراقبون الفرصة لإعادة الكرة على الحدود وانحدر الجنرال استيفنسون إلى القاهرة فشر الناس بما وراء ذلك من مكنون السياسة الإنجليزية وأكثر أصحاب الصحف المحلية من الكلام على سوء الأثر المترتب على هذه السياسة وعلى بقاء العساكر الإنجليزية في الحدود من الاضطراب ودوام القلق وأن الحال يحتاج إلى غير ذلك .

(مطلب)

ما وقع إلى الكونت روني وكيل الفرنسييس السياسي بمصر واعتذار الوزير إليه وهو بكسوة التشريف

ولم يشغلهم عن هذه الجلبة إلا ما وقع لقنصل جنرال الفرنسييس ووكليهم السياسى بمصر، وذلك أنه قد جاء فى هذه الأثناء عظيم من الفرنسييس اسمه الكونت روني لتولى منصب الوكالة السياسية بمصر فلما وصل القاهرة تحدد يوم لقبوله فى الموكب المعتاد واستلام الأوراق المؤذنة بتعيينه فى هذا المنصب على الطريقة المألوفة فلما حل الأجل المضروب لذلك وتمثل القنصل بين يدى الخديوى بملابس الزينة والتشريف وسلمه تلك الأوراق وألقى عليه حديث المودة وعلائق المحبة الكائنة بين حكومة مصر ودولة الفرنسييس لم تطلق المدافع لذلك من قلعة الجبل كالمعتب فى مثل هذا الاحتفال وانفضت الحفلة على غير ستها المألوفة ونزل القنصل إلى داره وفى قلبه ما فيه لاسيما وأن المتولين أمر قلعة الجبل وإطلاق مدافعها فى هذه الحفلات الرسمية هم جماعة الإنجليز، فما استقر بالقنصل المقام فى داره حتى كتب إلى الوزير نوبار باشا يقيم الحجة ضد ما وقع ويطلب الترضية العاجلة فانزعج الوزير أى انزعاج ورسم الخديوى بإطلاق المدافع فى اليوم الثانى استرضاء للقنصل وتطييباً لحاظه فلم يقبل، وقال: لا بد من الترضية بأن يأتى إلى دارى رئيس التشريفات بكسوة التشريف ويعتذر عما فرط فطلق عند ذلك المدافع ثانية. وبأن يأتى كذلك الوزير نوبار باشا بملابس التشريف وتطلق المدافع ففعلاً وأطلقت المدافع ثانية وثالثة. واندفع أصحاب صحف الفرنسييس ينادون بالويل والشبور على جماعة الإنجليز بمصر وشاركهم فى ذلك أصحاب الصحف المحلية فاهتم السير ولف مبعوث الإنجليز بالأمر وخاف أن يكون من وراء ذلك فشل مأموريته فسار إلى دار قنصل جنرال الفرنسييس ومعه قائد الجيوش الإنجليزية، قيل: واعتذرا وتلطفا فى المقال. فطلب القنصل عندئذ نشر بيان

جميع ما جرى بالجريدة الرسمية فأجابا طلبه وأشار ولف على الوزير نوبار باشا بالتعجيل فى ذلك ففعل وزال الخلاف فعادت الأمور إلى سابق مجراها . وعاد ولف إلى الاجتماع بالغازى مختار باشا والمكاملة فى شئون البلاد وحاجاتها وفى قواعد الإصلاح الواجب إدخالها فى سائر دواوين الحكومة وفى تنظيم الجيش على النمط الذى يمكن معه إعادة الكرة على دنقلة ثم استرجاع البلاد السودانية إلى الطاعة وتدوينها وإرسال رسول من قبل الخديوى إلى وادى حلفا للمخابرة مع زعماء القبائل رجاء الوصول إلى تقرير قاعدة للصالح معهم وظلا على هذه الحال أياماً وجاء الطلب من عاصمة الإنجليز إلى السير أفلنج بارنج قنصل جنرالهم فتأهب للسفر وقد رتب متاعه وزار الوزير نوبار باشا وبقية الوزراء وقناصل الدول فشاع الخبر يومئذ بخلعه من منصبه وأنه لا يعود إليه إلا إذا عاد ولف إلى بلاده ظافراً بما يرجونه من بعثته، فتحدث الناس فى ذلك كثيراً وقالوا إن استدعاه فى هذه الظروف الحرجة وإفراغه من كل عمل يدلان على وقوع شئ من النفور بينه وبين السير ولف أو أن يكون نداء الوزير نوبار باشا المتتابع بطلب خلع القنصل المشار إليه قد أقلق صاحب السياسة الإنجليزية ومال به إلى استدعاء القنصل، وقالوا غير ذلك أيضاً . فسار القنصل من القاهرة وغاب عنها حيناً ثم جاءها وقد أعلوا منزلته وأكبروا منصبه وسموه وكيلهم السياسى بديار مصر فذهبت تلك الظنون أدراج الرياح وتم له ما أراد فى منصبه من النجاح والفلاح .

وجاء الخبر بعيد ذلك بقليل بعزم صاحب السياسة الإنجليزية على إرسال غردون الذى هو غردون باشا إلى السودان لاسترجاع من بها من العساكر والجند وغيرهم ممن يشاء الجلاء عنها ثم لم يمض إلا أيام حتى جاء الطلب فى أخريات شهر صفر من صاحب السياسة المشار إليه بتولية غردون الولاية العامة على السودان وإعطائه السلطة المطلقة فيها فأبلغ السير بارنج هذا الطلب إلى الخديوى والوزير نوبار باشا فدهشا واضطربا ومانعا فى ذلك كثيراً فلم يقبل السير بارنج وصدع بالأمر، ثم لم تكن إلا أيام آخر حتى وصل غردون إلى القاهرة فى أخريات ربيع الأول من السنة أى سنة ثلاث وثلاثمائة وألف واجتمع بالسير بارنج فأسر إليه بارنج بكل ما قضت به سياستهم فى أصقاع السودان ولم يتصل أحد يومئذ إلى معرفة ما الذى تنويه الهيئة الحاكمة ولا ما إذا كانت شاركت السير بارنج فى آرائه أو لا . ولم يطل غردون مكثه بالقاهرة بل غادرها فشيعة الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والسير بارنج والعدد

العديد من مقدمى العساكر الإنجليزية ولم يأخذ غردون معه فى ذلك اليوم جنداً ولا كراعاً ولا حشماً ولا أتباعاً سوى وعاء للملابسه ورحل إلى الخرطوم كأنما هو ذاهب إلى داره للقاء أم أولاده فتأمل .

قال صاحب كتاب السودان: فلما وصل كروسكو كتب كتاباً إلى المهدي وأرسل معه هدية من نوع الهدايا التى تقدم إلى مشايخ الأعراب كالبش وغيره وفحوى الكتاب: إننى أعترف بك سلطاناً على السودان الغربى كله فأنت مطلق التصرف فى أقاليمه التى هى كردفان ودارفور. قلت: وهذه هى سياسة الوزير محمد شريف باشا التى مات شهيداً - قال: وإننى لما بلغنى ما أصاب أهل السودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خامرنى غم شديد ولذا قد انتدبتنى جلالة ملكة بريطانيا العظمى وإمبراطورة الهند والياً على السودان وصدقت على ذلك الحضرة الفخيمة الخديوية وإننى من صميم فؤادى أرغب توثيق عرى العلائق الودادية بينى وبين سلطتكم وأرجو أن تسمحوا بإعادة المواصلات التلغرافية وأظن أن أدوات التلغراف قد أتلفت فى غضون تلك الخطوب، ولهذا أصدرت الأوامر إلى مركز الحكمدارية بأن يعطيكم كل ما تطلبونه من تلك الأدوات وأن يستقبل رسولكم كما يستقبل أعظم سفير، وقد داخلنى الحزن الشديد لما علمت بقفل طرق السودان الشرقى مما حال بين المسلمين وبين مكة المكرمة التى يقصدونها فى كل عام لأداء فريضة الحج وزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام فهيا بنا لفتح هذا الطريق وإلقاء السلاح وتشديد أركان الراحة وتوطيد دعائم السلام اهـ.

ووصلت الأخبار إلى الخرطوم بمقدم غردون وولايته العامة على السودان فقرح الناس بذلك قرحاً عظيماً وأملوا النجاة على يديه فوردت عليه رسائل التهانى من كل صوب فأرسل إلى أهل الخرطوم يعلمهم بتركه المتأخر من الضرائب والأموال وخراج ثلاث سنوات مستقبلة وبترك جميع السودان الغربى إلى مدعى المهودية واعتباره منفصلاً عن الخديوية المصرية وأن حكومة جلالة ملكة الإنجليز هى التى منحت المهدي هذا السلطان الواسع. وسير كذلك إلى حسين سرى باشا باعتزال منصب وكالة الولاية فاعتزله صاغراً وأقام بدله رجلاً من الإنجليز اسمه الكولونيل برى كوتلجف - قال: وكان هذا الرجل قد حضر إلى الخرطوم فى مهمة سرية من قبل زعيم السياسة الإنجليزية قبل مقدم غردون بكثير ورسم غردون بتولية آخرين بعض الوظائف العالية ثم إنه رحل عن كروسكو إلى بربر فلاقاه مديرها ومعه أعيان البلد

وأصحاب الوظائف الديوانية فحضرهم على الولاء والإخلاص، وقال: قد تركت لكم سائر المتأخر من الأموال الأميرية وتجاوزت عن خراج ثلاث سنوات مستقبلة وقد أبحث لكم الاتجار فى الرقيق وأبطلت كل مرسوم يخالف ذلك، ثم أهداهم بعض الهدايا النفيسة والتحف الغالية وسار عنهم قاصداً الخرطوم فكان يرى من الأهالى فى طريقه عين المقت والقلى إذ كانوا يسبون ويكثرون من شتمه ويقولون فى وجهه: قد زالت دولتكم يا كفار. قال الراوى: فاندھش غردون من ذلك وأكبره جداً وكاد يتحقق عدم فلاحه وخيبته فى هذه البعثة إلا أنه تجلد واستعان بالصبر إلى أن وصل الخرطوم فجمع الأعيان والعلماء والوجهاء والشايخ وتلا عليهم فرمان الولاية. ثم جعل يقول للناس: يا أهل السودان جميعاً إن الخديوى يسلم عليكم صغيراً وكبيراً أحراراً وعبيداً إنائاً وذكوراً وكذلك جلالة الملكة فيكتوريا ملكة دولة بريطانيا العظمى وإمبراطورة الهند. وأنكم لا تجهلون شفقتى عليكم ومحبتى لكم وقد ساءنى ما سمعته عنكم لما قامت بينكم الحرب وتعطلت تجارتكم وسفكت دماؤكم ومنعتم من تأدية فريضة الحج التى هى من أركان الإسلام ومن زيارة قبر النبى عليه السلام، وقد ساء ذلك كلا من جلالة الملكة وسمو الخديوى المعظم فانتدبت من قبل حكومة جلالة الملكة لأكون والياً على السودان ومرخصاً فوق العادة وقد صار فصل السودان فصلاً تاماً وفوض إلى الحكم المطلق عليه وقد خابرت حضرة السيد محمد أحمد المهدي بكنه مأموريته واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربى برمته بشرط أن لا يمد يده لغيره. وقد أبطلت جميع الأوامر المانعة من الاتجار فى الرقيق وتجاوزت عن جميع المتأخر من الضرائب لغاية سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية وتجاوزت أيضاً عن خراج ثلاث سنوات منذ أول سنة أربع وثمانين وأمرت بإحراق دفاتر المتأخرات وبإطلاق جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جنائياتهم وقد عازمت منذ الآن أن لا أجعل أعضاء حكومتى إلا من الوطنيين حيث إننى أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه وقد عينت عوض الكريم أباسن مديراً للخرطوم وأحسنست عليه برتبة الباشوية، ولى الأمل بأن العلائق ستصبح بينى وبين سلطان الغرب «يعنى المهدي» وثيقة العرى وقد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون وتخريبها وسحب الجنود منها لكى تفرغوا إلى عمارة بلادكم وحرث أراضيكم وإنشاء تجارتكم ومنى عليكم السلام اهـ.

قال صاحب كتاب السودان: وكان أهل الخرطوم يسمعون هذا الكلام وأعينهم

تذرف الدمع حزناً وإشفاقاً لأنهم كانوا يعلمون أن دوام الحال من المحال وأن مدعى المهذوية سوف ينحدر عليهم بخيله ورجله فلا عهد يتفع ولا حنان غردون يدفع . فدخل جماعة العلماء والوجهاء على غردون وقالوا: إنا نموت موتاً إن أنت أثلقت شيئاً من الحصون والقلاع فإن المهدي لا يلتفت إلى شيء مما دعوته إليه ولا يرده عنا إلا عسكر جرار وهام طوائف العربان الضاريون حولنا متحفزون للوثبة علينا والإيقاع بنا فلم يلتفت غردون إلى قولهم ولم يحفل به فلم تمض على ذلك أيام حتى جاء الخبر إلى الخرطوم بفشل حملة الجنرال جراهام وقتل جل رجالها . وكانت هذه الحملة قد سارت من القاهرة إلى شرقى السودان لتمهد الطريق إلى غردون فى مقاصده فلما شاع خبر اندحارها وإثخان رجال المهدي فيها اشتد الخوف بمن هم فى الخرطوم وأكبروا المصيبة وانزعج غردون وجعل يتدبر فيما عساه أن يكون إذا امتنع المهدي عليه وهاجمت جموعه الخرطوم وأخذ من يومه يطوف الحصون والقلاع ويتعهد المعاقل التى كان أشار فى مقالته بفتح أبوابها وتخريبها وسحب من بها من العسكر وبث العيون لتأتى له بأخبار العدو من كل صوب وحذب ، فكانوا يتخطون فى القول ولا يصدقون فى الرواية حتى ضعفت منه الآمال واختلطت عليه الأحوال .

واعلم أن ذهاب غردون إلى الخرطوم فى هذه الظروف المحفوفة بأكبر الأخطار وأعظم المكاره واندفاع أصحاب السياسة الإنجليزية وراء هذه الغاية ليس من الهنات الهيئات ولا هو من المجازفة أو عمى البصيرة فى شيء وإنما هى أعمال تشف عن عزم ثابت قوى ونية معقودة على أمر لا يقبل المراجعة وهذه النية كانت تكنها صدور أصحاب تلك السياسة من عهد محمد على باشا الكبير بل ومن قبله على عهد مراد بيك وعلى بيك الكبير فكانوا كلما لاحت لهم بارقة أمل تتبعوها أو فرصة انتهزوها حتى أيام الخديوى إسماعيل الذى بش لهم وفتح لهم الأبواب مرحباً فوجدوها آمنين وخفض لهم جناح الطاعة فتربعوا فى مناصب الرئاسة وتصرفوا فى موارد إيراد البلاد ومازالوا يعملون على بلوغ الغاية تارة ببذل المال وأخرى بدهاء الرجال وتارة باستعمال الضغط والتشديد وطوراً بالوعد والوعيد إلى أن أتاح لهم القدر المقدور ظهور فتنه صاحب المهذوية ثم اشتداد الثورة العرابية فأصبحت حكومة البلاد وهى أشغل من ذات النحيين فنهضوا حينئذ إلى إظهار ما تكنه الصدور وسيروا غردون هذا إلى الخرطوم على ما وصفنا وهم يقدرون له السلامة فى الحل والترحال ويرجون على يديه بلوغ سلطنتهم غاية الآمال . ولأجل أن لا يفوت القارئ معرفة بعض

الشيء من ضروب هذه السياسة الخازمة نذكر فى فصل آت شيئاً مما جرى من أفيال هولاء القوم فى السودان على عهد الخديوى إسماعيل والله سبحانه من وراء كل عمل .

فصل

(فيما كان من دهاء رجال سياسة الإنجليز على عهد الخديوى إسماعيل)

ثما فتح محمد على باشا السودان ودوّخ مدنها وبلدانها شرقاً وغرباً وملاها بعسكره وجنوده جنوباً وأنشأ عاصمتها الجديدة التى هى مدينة الخرطوم، وقد كانت قاعدتها يومئذ مدينة واد مدنى الواقعة على شاطئ النيل الأزرق جعل يولى عليها الولاة والعمال بعد ولاية الدفتردار العامة فكان جلهم على ما قاله بعض الكتاب ممن يحسنون التدبير عارفين بحاجات البلاد بعيدين عن الجور والاعتساف. فلما مات محمد على باشا وجاءت أولاده من بعده كان أكثر عمالهم أغرارا كثيرى الجور والظلم مياالين إلى أخذ ما بأيدى الناس مع غلظة وتجبر، وكان آخر من تولاها على عهد محمد سعيد باشا سنة أربع وسبعين ومائتين وألف هجرية حسين سلامة بيك .

قال صاحب كتاب السودان: كان نعم الرجل عادلاً شفوئاً على الرعية، وكان يسمى يومئذ مدير عموم قبلى وبحرى السودان وبقي الرجل وبقيت الولاية بهذا الاسم حتى تولى الملك الخديوى إسماعيل فجعل يبدّل ويغير فى الولاية وليس بينهم من تحمد أيامه أو تشكر أحلامه إلى أن تولاها جعفر باشا المعروف بالصغير فكان رجلاً عادلاً شفوئاً باراً بالرعية عارفاً بحاجة البلاد وأهلها فأقام ماشاء الخديوى، ثم عزل وخلفه عدة من الولاة على التعاقب فكان آخرهم قبل غردون الإنجليزى إسماعيل أيوب باشا وفى أيامه بلغت سلطة الخديوى فى تلك الانحاء أوجها وعمت كلمته أرجاء السودان شرقاً وغرباً وجنوباً إذ تابعت غزوات عسكره وأوغلت فى أقاصى البلاد طلباً للمزيد من الفتح فكان أصحاب سياسة الإنجليز وأقطاب القوم منهم ينظرون إلى فعالة بعين السخط ويحسبون لها حساباً كبيراً وجعلوا يعملون على ما تقتضيه مصلحتهم ويتدبرون لمستقبل الأيام فأرسلوا الكشاف والرواد من طريق

الزنجبار ورأس الرجاء بعضهم فى زى المبشرين بالنصرانية، وبعضهم باسم علماء الآثار وأصحاب علم طبقات الأرض، فلم يتم لهم ما أرادوا فعمدوا إلى الحيلة والتدبير وجاءوا الخديوى إسماعيل من أقرب المسالك وأجها إليه فزينوا له المزيد من فتح تلك الأصقاع واستكشاف مجاهل خط الاستواء وما فى جوف أرضه من معادن الذهب والفضة والحديد والفحم وما زالوا به حتى ظفروا منه ببيعتهم وساعدهم على ذلك ما كان فيه يومئذ من التورط فى الدين لأصحاب الأموال من الإنجليز والفرنسيين ثم إنهم سيروا إليه رجلاً من أقبالهم العارفين بمناحي سياستهم ومرامى غايتهم اسمه السير صمويل بيكر فتلقاه الخديوى على الرحب والسعة فأقام بالقاهرة أياماً، وكان قد أتى معه من ديار الإنجليز بشيء من الهدايا والتحف برسم زعماء قبائل السودان ومشايخ أهلها وأدلاء دروبها ومسالكها وهى أصناف من الخرز والجلود المصبوغة والفراء والقبعات الحمر والأساور والأقراط والخواتم والقلائد من الصفر والأحذية وشقق الكتان والخناجر والسكاكين والشئ الكثير من الأعياب الأطفال كالأكر والزمامير والصفافير والعصى والسياف فاستصحب كل ذلك وبارح القاهرة على عجل وما برح سائراً حتى تغلغل فى جوف السودان وأوغل فى مجاهل خط الاستواء فبحث ونقب وراد الطرق واستكشف المسالك واستمال بعض زعماء القوم وعرف الشئ الكثير من طباعهم وعاداتهم وما يميلون إليه وما ينفرون منه . قيل وعاهد بعضهم على الولاء والإخلاص للسلطنة الإنجليزية وعاقدهم على ما لم تصل إلينا معرفته وبعد أن لبث بتلك الأصقاع ماشاء هو أو ما شاء صاحب سياسة الإنجليز قفل راجعاً إلى قومه بسلام فلم تكن إلا فترة بعد ذلك حتى أخذ قنصل جنرال الإنجليز بالقاهرة يصبح الخديوى ويمسبه فى طلب معاهدة دولة الإنجليز على منع الاتجار فى الرقيق وقطع شأفة النخاسة من أرجاء السودان المصرى فكان الخديوى يماطل ويحاول والقنصل لا ينفك عن الطلب ولا يثنى له عزم دون نوال هذا الأرب حتى فاز وغلب . وتم التعاقد على شروط أقل ما فيها من الحيف أن صار لأمرأ سفن الحرب الإنجليزية تمام السيطرة على سائر السفن والشوانى الحاملة للراية المصرية بالبحر الأحمر وحق التفتيش عليها وضبط ما يوجد بها من الإماء والعبيد وتحريرهم ومصادرة كل ما كان بها من مال ومتاع ومعاقبة أصحابها بالعقوبات الشديدة . فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذت أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية نشوة الفرح فتهللوا وأيقنوا بالفوز والغلبة ونحن المصريين لاهون عما سيكون من وراء ذلك فى مستقبل

الأيام. ثم رسم الخديوى إلى عماله بالسودان أن يعملوا بنصوص تلك المعاهدة وأن لا يخالفوا شيئاً من أحكامها فصدعوا بالأمر وذاع خبرها فى البلاد شرقاً وغرباً وجنوباً فلم تكن إلا أيام حتى ظهرت على وجوه السود علامات الوحشة والانقباض وبدأت إشارات الخروج أو كادت ووقفوا فى وجه أصحاب الجباية الذين عم شرهم يومئذ وثقل نيرهم على الأهلىن، لأن القوم رأوا أن منع المتاجرة فى الرقيق مصيبة كبرى لأن هذا الاتجار معين ثروة كبيرة لهم فضلاً عن أن أهل السودان لم يتعودوا خدمة الأرض بأيديهم ولا خدمة ماشيتهم بل أن نساءهم قلما يؤدين شيئاً من الخدمات البيتية وكل اعتمادهم فى زرع الأرض وتربية الماشية والخدمة البيتية إنما هو على أولئك الإماء والعبيد.

ولما تم للإنجليز ما أرادوا من أمر تلك المعاهدة أوعزوا إلى قنصلهم يومئذ أن كلم الخديوى فى ارسال رجل منهم إلى مجاهل خط الاستواء مرة ثانية ليحى ما إندرس من معالم المدنية التى كان وضع أساسها فى تلك الأنحاء السير صمويل بيكر ولكى يقطع شأفة الاتجار بالعبيد ويسد المسالك على القوافل التى تقوم بالنخاسة ففعل القنصل وأكثر من ملازمة باب الخديوى إسماعيل والخديوى لا يجهل ما وراء ذلك فكان يطاول ويمنى القنصل بالمواعيد والقنصل لا ينكف عن الطلب حتى أذعن الخديوى، فأتوا له برجل من كبار عسكريهم اسمه الكولونيل غردون «وهو غردون هذا الذى نحن بصدد الكلام عليه» فرسم له الخديوى بالولاية على سواحل البحر الأحمر التى هى شرقى السودان المصرى فتولاها حيناً وكأنه لم يطب له المقام هناك أو كأن لم يحسن فى عينى زعيم السياسة الإنجليزية أن يرى سلطة صاحبهم وتعاليمه لا تتجاوز شرقى السودان فوردت حيثئذ كتبه على الخديوى بطلب تولية غردون الولاية العامة على خط الاستواء وما يليه. وكانت الديون الى هذا الحين قد أثقلت كاهل الخزينة وأمخلتها فأصبحت وهى بين أيدي أصحاب الديون من جماعة الإنجليز والفرنسيس كالريشة فى مهب الرياح، فكان الخديوى ييذل فى مرضاة أصحاب سياسة الدولتين كل مرتخص وغال عساهم يدفعون عنه بعض ما يعانیه من جور الدائنين فلم ير بدا يومئذ من إجابة طلب صاحب سياسة الإنجليز ورسم إلى غردون بالولاية على خط الاستواء فى أخريات سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية فسار غردون إلى الخرطوم على الطائر الميمون فتلقاه إسماعيل أيوب باشا والى السودان يومئذ وبالف فى إكرامه وأطلق المدافع

إجلالاً لقدمه وأنزله على الرحب والسعة بالقصر المعروف بقصر راسخ بيك فلبث به أياماً ثم سار بمن أخذه من العساكر والجنود إلى فشوده ومنها إلى منزلة سبت التي هي أول بلاد خط الاستواء شمالاً فأمر ببناء القلاع والحصون فيها وحفر خندقاً عظيماً وجعلها مقراً لحكومته الجديدة، ثم رحل عنها بعد أيام إلى جبل الرجاف وكندكور التي كانت مقراً لأستاذه السير صمويل بيكر من قبله ومازال ينتقل من مكان إلى مكان ويأخذ العهود على من يلتقى بهم من زعماء القبائل والمشايخ ويقيم الولاية والحكام من صغار ضباط الجند ومن كانوا في خدمة صمويل بيكر حتى قامت في وجهه قبائل العبيد وقاتلت عسكره قتالاً عنيفاً ومازالت تقتاتلهم حتى هزمتهم العساكر شر هزيمة وأخضعتهم بغير عهد ولا ذمة، وظل غردون يجوب البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى نزل على بلاد الملك أميته صاحب بلاد مرولى فعمد إلى ضم بلاده الواسعة إلى فتوحاته وهم بذلك، ثم علم بأن الرجل يدين بدين النصرانية وقد اعتنقها على يدى المبشرين الإنجليز الذين قدموا عليه من ناحية الزنجبار فانكف عن غزو بلاده وجعل مرولى خاتمة فتوحاته.

(مطلب)

انحدار غردون بعد ذلك إلى القاهرة

فلما كانت سنة أربع وتسعين ومائتين وألف هجرية انحدر غردون إلى القاهرة وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياماً ثم برح القاهرة إلى ديار الإنجليز فلم يستقر به المقام حتى شاع الخبر وسطرته صحف الإنجليز بتوليته الولاية العامة على جميع السودان المصرى شرقاً وغرباً وجنوباً. قيل: فاندعش الخديوى ورجال دولته لأنهم لم يكونوا يعرفون عن ذلك شيئاً البتة. ولم تمض إلا أيام حتى عاد غردون إلى القاهرة فى هبة وجلالة ودخل على الخديوى فسلمه الخديوى فرمان الولاية بيده مكرهاً فسار غردون إلى الخرطوم ودخلها فى ضجة عظيمة فدقت لمقدمه البشائر وطير الخبر بولايته إلى الآفاق فجاء مشايخ وزعماء القبائل فخلع عليهم الخلع من الأكسية والفرجيات من الجوخ الأحمر وشقائق الحرير وبالع فى إكرامهم وفرق بعض التحف والهدايا على جماعة العلماء والوجهاء والأعيان وبعض أصحاب الوظائف فانطلقت ألسنتهم يومئذ بالدعاء له إذ كانوا لم يروا شيئاً من ذلك البتة على يد أحد من كبار الولاية قبل جعفر باشا الصغير. وكانت ولاية غردون على سائر السودان

المصري ولاية عامة فأطلق الخديوى يده وصرفه فى سائر الأمور.. قال بعض الكتاب :
وهى محنة أخرى قد نزلت على هامة البلاد من سماء عاصمة الإنجليز وفتنة كبرى
لا يعلم بعاقبتها إلا الحكيم العزيز، فإن غردون مالبث أن تربع فى دست الولاية
حتى وردت الكتب منه تباعاً على الخديوى فلم يكن إلا شهر أو بعض الشهر حتى
جاءه أمر الخديوى بضم سائر بلاد خط الاستواء إلى ولايته فرتب لها الحكام وعين
جباة الأموال وسلم مقاليد المهمات إلى جماعة من الإنجليز والألمان والأميريكانيين
والطليان ونصر من أهل البلاد كإدريس بن أبتر وغيره ممن كانوا سيارة يتجرون فى
الإمام والعبيد والريش وسن الفيل وأطلق لهم الكلمة حتى تصرفوا فى سائر الأمور
فعملوا لغير ما تقتضيه مصلحة البلاد وبالغوا فى منع الاتجار بالرقيق وصادروا التجار
فى أموالهم وأرزاقهم وضيقوا عليهم سبل الاتجار وقفلوا فى وجههم أبواب الكسب .
واستكتب غردون يومئذ رجلاً اسمه التهامى بك وجعله كاتم أسرارهم فتمكن التهامى
هذا من قلب غردون وأخذ بمجامع لبه فكان لا يأتى أمراً إلا بإشارته ولا يعمل عملاً
إلا برأيه .

قال صاحب كتاب السودان : وكان ذلك الرجل من شر الرجال وأخبشهم نية
وأفسدَهم طوية فسلك بغردون مسلكاً نفر منه القلوب وحرك فى صدور أهل البلاد
كامن الحقد عليه وكان تشديد الحكام لا سيما من الإنجليز والإيطاليين فى منع الاتجار
بالرقيق وتحرير كل من علموا بوجودهم عند ساداتهم من أهم الأسباب التى دفعت
بأهل السودان إلى شق عصا الطاعة كما سيأتى بيان ذلك فى محله . إذ كان الناس
هناك يحسبون أن تحرير مواليتهم وخروجهم من حوزتهم على يد أولئك الأجانب
اضطهاد دينى من النصرانية للإسلام وكان شيوخهم وعلمائهم يؤيدون لهم ذلك
بالأدلة المقبولة والشواهد المعقولة حتى أصبحت عندهم حقيقة لاشك فيها فكانوا
يخفون ما بقلوبهم من نار التآلم والحقد على عمال الحكومة ويرقبون كل سانحة
حتى ظهر محمد أحمد مدعى المهدوية وأيقظ الفتنة الراقدة فهبوا جميعاً لنصرته ولبوا
على الفور دعوته وبايعوه على الطاعة والجهد ضد أولئك القوم الكافرين فلما
انتشرت دعوته أو كادت عاهده حتى الذين كانوا ينكرونها عليه . وقالوا : عاهدناك
سواء صدقت فى دعواك أو كذبت ما بقيت على عداء هذه الدولة الجائرة
ومحاربتها . وقد بقى هذا السر مكتوماً والدعاة يجوبون البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً
وجنوباً حتى قامت الفتنة بين الحبشة ومصر على يد غردون بأسباب تحديد التخوم

بين المملكتين وكان غردون هو البادئ بمعادة النجاشى والاستخفاف بشأنه استغضاباً له وتكبيراً للفتنة فلم يطق الخديوى إسماعيل الصبر يومئذ على ذلك خوفاً من استفحال الخطب واضطرام نار الفتنة بين البلدين لا سيما وقد كانت دولتا الإنجليز والفرنسيين فى ذلك الحين تشدان عليه النكير بسبب كثرة الديون وتضييقان عليه الخناق بالبحث والتنقيب فى موارد ومصارف البلاد وتشيران من طرف خفى إلى أن خلعه من مسنده هو من الهنات الهيئات . وكان قد آتس من غردون أيضاً الميل إلى الاستبداد بأمر السودان فاستقدمه على عجل فدخل غردون القاهرة فى آخريات سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية مستقيلاً من منصبه فأقاله الخديوى ورسم إلى محمد رؤوف باشا بالولاية بدله فسار رؤوف باشا إلى الخرطوم فلم يصلها إلا ودعوة المهدي قد استفحل شأنها إذ كان قد بايعه أهل الحلون والخلق العظيم من القبائل الضاربة حول جزيرة آبا وبينهم قبيلتا دقيم وكثانة المعروفان باسم البقارة لكثرة ماشيتهم والقوم من أهل القوة البأس والصبر فى الحروب وعاهده كذلك عظيم من السود من ذوى الوظائف الديوانية على موافاته بالأخبار والتف حوله زهاء الثلاثة آلاف من العربان كل هذا ورجال الحكومة لاهون عنه أو هم مغضون لا يريدون كشف أسرارهم ولا ذكر شئ من أمره حتى وردت الرسائل ترى على رؤوف باشا من بعض أعداء المهدي يعيبن فيها الحكومة على ذلك الإغضاء ويلومونها على تركها الرجل يعمل على إيقاد نار الفتنة وشق عصا الطاعة حتى ظهرت كلمته كل هذا الظهور، فأرسل رؤوف باشا الكتب بذلك إلى مدير فشوده وهو يومئذ الطبيب بيك ورسم له بالقبض على ذلك الخارجى فصعد بالأمر وسار إلى آبا فى نفر من الجند وكبس الخارجى فى مقره وأمسه حياً وزجه فى السجن أياماً . قال صاحب كتاب السودان: حتى جاء بعض أتباعه ومريديه ورشوا الطبيب فأطلق لهم سراحه واستقدم الواشين وهددهم وتوعدهم إن هم عادوا إلى الشكوى، ثم أنه قفل راجعاً إلى فشوده . أما الخارجى فإنه ما أفلت من السجن حتى زاد غروره وكبرت قحته فأرسل الكتب إلى سائر من عاهدتهم يقول فى مطلعها بعد البسملة والحمد له : إنه قد جاءنى النبى ﷺ فى اليقظة ومعه الخلفاء الراشدون والأقطاب والخضر عليه السلام وأمسك بيدى ﷺ وأجلسنى على كرسىه وقال لى: أنت المهدي المنتظر من شك فى مهدويتك فقد كفر وإن الترك كفار وهم أشد الناس كفراً لأنهم ساعون فى إطفاء نور الله ﷻ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿ وأخبرنى ﷺ بأن

النصر سيسير بين يدي أربعين ميلاً وأنه ﷺ يحضر بذاته الكريمة أمام جيشي ومعه الخلفاء الراشدين، وأن الله تعالى أيدني بالاولياء والشهداء والصالحين من عهد آدم عليه السلام إلى زماننا هذا، وأن مؤمنى الجن يجاهدون معي ولا ينهزم لى جيش وأن الله ناصرى ومؤيدى على كل من حاربنى من الثقلين وأن أصحابى كأصحابه ﷺ وعامتهم أكبر مقاماً فى دار الخلد من الشيخ عبد القادر الحلى. قال صاحب كتاب السودان، وهو شيخه الذى نهاه عن الخروج فى هذه البدعة ثم طرده. قال: وأرسل نسخاً عديدة من هذا المنشور إلى أناس فى الخرطوم منهم الشيخ الأمين الضريير رئيس العلماء بالسودان وهذا أطلع عليه رؤوف باشا فرسم الباشا إلى أبى السعود بيك العقاد أحد معاونيه بالسفر وأصحابه بجماعة من الدنقلين المقيمين بالخرطوم وأنفذهم رسلاً إليه يعنى إلى الخارجى يدعونه إلى الطاعة ويحذرونه عاقبة الفتنة ويبلغونه أمر الوالى. بدعوته إلى الحضور لديه فذهبوا على الباخرة الفاشر، ولما وصلوا إلى جزيرة آبا قابلهم كل من فيها بالتكبير على الكفار وكان الخارجى يتعبد فى سرداب فى الأرض فامتنع عن مقابلتهم أولاً، ثم أذن لهم بالدخول فدخلوا عليه وسيوف أصحابه مسلولة على رأسه فسألوه عن دعواه فأجابهم بمعنى ما فى منشوره فقال له أبو السعود بيك: إن الوالى يدعوك إلى الحضور لديه فقال: لا أذهب، فقال: يا سيدى أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم، فقبض المهدى على سيف كان على فخذه الأيسر وكشر عن أنيابه وقال: أنا ولى الأمر الآن على سائر الأنس والجان فاستأذن الرسل بالانصراف فأذن لهم وهم الناس بالإيقاع بهم لولا أنه شدد عليهم فى الكف عنهم وقللوا راجعين إلى الخرطوم.

وعلم الملتفون حول الخارجى من المريدين والدراویش بخبر رسل الوالى وما جرى لهم فخافوا شر العاقبة وأيقنوا أن الحرب قائمة لا محالة وأن لا قبل المدعى المهدوية على الوقوف فى وجه العسكر المصرى ففرقوا عنه وتركوه مع نفر من أقاربه وخواص مريديه من الدناقلة وهؤلاء أيضاً كانوا يتوقعون القتال فى كل يوم. ووصل رسل الوالى إلى الخرطوم وأخبروا بما جرى لهم فسير الوالى طائفة من العسكر ومعهم مدفع لقتال ذلك الخارجى ومن معه والإتيان به حياً فخرجوا فى أخريات رمضان من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف قاصدين جزيرة آبا فوصلوها قبيل الغروب، وكان الوقت صيفاً والأمطار تهطل غزيرة والأحوال تملأ الطرقات فلم يتم نزولهم من السفن التى كانت تحملهم حتى اختلف الضابطان اللذان كانا يقودان هذه

الحملة على من منهما يتولى الرئاسة واشتد بينهما الخلاف حتى باتوا جميعاً فى مكانهم تلك الليلة بعد أن وضعوا أحمالهم والتموا حولها فعلم الخارجى بخبرهم وبث حولهم العيون وهم نيام لا يشعرون ومازال يراقبهم بمن معه من المقاتلة حتى بعد ما نصف الليل فانقض عليهم حينئذ وأعمل فيهم السيف فلم يفلت منهم إلا بضع نفر منهم أبو السعود بيك وغنم الخارجى جميع متاعهم وكراعهم وسائر ما كان معهم وعاد أبو السعود وأخبر بما جرى فعم حينئذ الخوف وذاع خبر هزيمة العسكر فى أكثر البلاد السودانية فجعل التجار من الأجانب والأهلين يرحلون من المدن والقرى ويأتون إلى الخرطوم وأسيوط والقاهرة وغيرها وارتبك رؤوف باشا وتحير فى أمره وكأنما كان يعتقد سراً بصحة مهدوية ذلك الخارجى فلم يأت شيئاً من الحزم أو حسن التدبير سوى أنه أرسل طائفة أخرى من الجند لحصار جزيرة آبا وأرسل إلى مدير كردفان فى طلب النجدة العاجلة وكان المهدي لما ظفر بالعساكر المصرية فى تلك الواقعة حسب وما رواء ذلك فجعم إليه أصحابه وقال لهم: أن رسول الله ﷺ يأمرنى أن نعمل العجج «قال صاحب كتاب السودان وهو نوع يشبه الفلين لخصته وطفوه فوق الماء» مركاب لنعبر بها النيل إلى الجانب الغربى وإن الله تعالى سيأخذ على ناصية الترك الكفار لا يقدرّون على إيصال الأذى إلينا حتى نبلغ مأمنا من الجانب الغربى ومن هناك نتوجه إلى دار هجرتنا بجبال ماسه وقدير وهى دار هجرة الأنبياء كلهم إلا نبينا محمداً ﷺ ففرح أصحابه بذلك وعملوا شيئاً كثيراً من تلك المراكب وعبروا النيل فلم يأذن رؤوف باشا لقائد العسكر الذى كانوا يحاصرون الجزيرة بتدمير تلك المراكب وكأنما كان يعمل فى ذلك الحين بمشورة ججلر باشا الألمانى وكيل الولاية وهو تلميذ غردون فى سياسة السودان وغرس نعمته فما استقر الخارجى بالجانب الغربى حتى جاءته رجالة دقيم وكثانة والتفوا حوله وباعوه على السمع والطاعة والجهاد فى سبيل الله ثم قدموا له الأقوات. قال صاحب كتاب السودان: وكانت البيعة هكذا بايعنا الله ورسوله وبايعناك على طاعة الله وأن لا نسرق ولا نزنّى ولا نأتى بهتاناً نفتريه ولا نعصيك فى أمر بمعروف ونهى عن منكر، بايعناك على زهد الدنيا وتركها وأن لا نفر من الجهاد رغبة فيما عند الله اهـ.

وكان الذين بايعوه فى ذلك اليوم زهاء عشرة آلاف مقاتل مدججين بالرماح والسيوف الهندية وبينهم جماعة من الفرسان، ثم ساروا معه إلى جبال ماسه وقدير فعارضهم قبائل النوبة الساكنة هناك وقتلوهم أياً ما كانت الحرب فيها سجالاتاً، ثم

حلت الهزيمة بأهل الجبال فأذعنوا وأطاعوا فتركهم ومر بجبال تقلى فلم يتمكن من إخضاع أهلها لأنهم أصحاب بأس وقوة فى الحروب، وشاع الخبر بما جرى حتى بلغ كردفان فقويت عقيدة أهلها فى مهدويته وتاقت نفوسهم إلى نصرته وتحققوا خلاصهم على يده من ذل الولاة والحكام فهرعوا إلى قدير ليبياعوه. قال صاحب كتاب السودان: وقد عليه زعيم قبيلة الحوازمة الذين هم البقارة وزعيم قبيلة القديات وكل منهما فى مائتى فارس من أشجع فرسان قومهم وأصبرهم على القتال فأحسن لقائهم فبياعوه على السمع والطاعة. قيل: وقال له زعيم قبيلة الحوازمة أبياعك على المهدوية وإن لم تكن مهديا أبياعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها فتقوت بهؤلاء القوم عزيمة الخارجى وأنصاره ووقعت مهابته فى قلوب أهل الجبال المجاورة فكان إذا تحرك جماعة منهم إلى قتاله نزل عليهم وهزمهم شر هزيمة. وفى هذه الأثناء كان قد خلع السلطان الخديوى إسماعيل من مسند الخديوية وتولاه ولده محمد توفيق باشا وكان ما كان من ظهور الثورة العرابية وعجز الحكومة يومئذ عن قطع شافة المهدوية فلما كانت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية جاء الأمر إلى رؤوف باشا بالتخلى عن الولاية فاعتزلها وسلم مقاليدها إلى ججلر باشا وكيلها وسافر من فوره إلى القاهرة يريد لقاء عبد القادر باشا الذى تولى الولاية العامة بدله فجعل ججلر يتصرف فى الأمور كما يشاء وأرسل يوسف باشا حسن الشلابى فى جيش ضخم لقتال المهدي فظفر به المهدي وقتك بعساكره فتكأ ذريعاً وأخذ جميع ما كان معهم من متاع وسلاح ودواب للحمل فعظمت بذلك قوة الخارجى واشتدت ظهور أصحابه وكثرت لمومه وعمت بيعته سائر الأصقاع السودانية أو كادت فتاقت نفسه إلى التشبه بالخلفاء الراشدين وترتيب أصحابه وأنصاره على طريقة المجاهدين فى أيام عمر بن الخطاب. قال صاحب كتاب السودان: وكان الذين يعتمد عليهم فى سائر أموره خمسة أولهم الخليفة عبد الله التعايشى فعقد له لواء أسرد على جميع المقاتلين معه من قبائل السودان الغربى ولقبه بخليفة الصديق، والثانى الخليفة على بن محمد حلو وعقد له لواء أخضر على المقاتلين من القبائل التى تسكن ضفتى النيل الأبيض والجبال الواقعة حول جبل قدير ولقبه الخليفة الفاروق، والثالث ابن عمه الخليفة محمد شريف بن حامد وجعله مقدماً على سائر من معه من أهالى الخرطوم وبربر ودنقله وسنار ولقبه بخليفة الكرار، وجعل الزعامة العامة لأخيه محمد عبد الله ولقبه بأمير الجيوش المهدوية، وولى رجلاً اسمه أحمد بن سليمان من قبيلة المحس أمانة

بيت المال فكان أحمد هذا من أقرب المقرين إليه وأصدقهم فى طاعته وأحفظهم لسره وأطلعهم على سائر عوراته . قال : وهؤلاء هم الخمسة الذين كانوا موضع ثقته اهـ .

وما ذاع خبر انتصار أصحاب الخارجى على جيش الحكومة بين أهل البلاد حتى خرج على عمال الحكومة وأصحاب الجباية كل من فى قلبه مرض وكالوا لهم بالكيل الوافى وزحف رجل اسمه عامر بن المكاشفى فى لموم كثيرة على سنار فقاتل من بها وفتحها عنوة وأفحش فى القتل والنهب وسبى النساء والذراى وجاء الخبر إلى ججلر فقام من الخرطوم فى نفر من العسكر يريد اللحاق بابن المكاشفى وإجلاءه عن سنار فسمع الصائح فى طريقه بخروج آخر اسمه الشريف أحمد طه ووقوفه فى لموم كثيرة بين الخرطوم وسنار فتربص بمن معه وأرسل إليه يدعوه إلى الطاعة فلم يذعن بل قتل الرسول فسير إليه جماعة من العسكر فقاتلوه وهزموه شر هزيمة وتبعوه حتى قتلوه ثم انقلب ججلر بمن معه من العساكر إلى سنار فأنتقذها وشتت شمل من كان حولها من لموم المكاشفى وكان ابن المكاشفى قد مات قبل وصول ججلر بجراح أصابته عن دخوله سنار .

(مطلب)

وصول عبد القادر باشا إلى الخرطوم

وبينما كان أهل الخرطوم فى خوف ما عليه من مزيد وهم يتوقعون فتك العدو بهم فى كل لحظة من الزمان لخلو البلد من المرابطين وانتشار أهل الفساد وقطاع الطرق حوله وعدم وجود من يحسن التدبير عند ميسس الحاجة إذ جاءهم عبد القادر باشا فى نفر من الخدم والاتباع والكتاب فلم يستقر به المقام حتى طاف البلد وعلم ما يحتاج إليه من أسباب الدفاع فرتب العسس للحراسة فى الليل وجمع من العبيد عسكرياً لحراسة النهار والدفاع عند الحاجة وحصن البلد تحصيناً منيعاً وخندق عليه وأوقف الحرس على الأبراج فذهب الخوف من قلوب الناس وانتشر الأمن حول البلد وخاف أهل الشقاوة وانكمشوا ، ثم أرسل فى طلب المرابطين عند حدود بلاد الحيشة فجاءوا فعهد إليهم بحراسة بعض المواقع والأبواب . وكان إذ ذاك قد التهب جوف السودان المصرى جميعه بنار الفتنة وعمت دعوة المهدي سائر تلك الأطراف وخرج من كان باقياً على الطاعة وكثرت المذابح فى كل صوب وحذب . قال صاحب كتاب

السودان: فكان لا شئ أيسر من أن يهب كل من فى قلبه مرض إلى الخروج وشق عصا الطاعة فتلتف حوله السموم من أهل حلتة على أسرع ما يكون بسيوفهم ورماحهم ومؤنتهم طلباً للجهاد وغزو الكفار فيسير بهم حيثئذ إلى الخارجى فى جبل قدير فيوليه الخلافة ويأخذ عليه العهد بما شاء ثم يرجع بمن معه ويقفون فى طريق الجند ويقاتلونهم أو يطاردونهم أو يهاجمون مراكزهم مستقلين مستبسلين والدعاة يجوبون البلاد شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً يدعون القبائل إلى طاعة الخارجى حتى لم تبق قبيلة إلا استنجدوا بها ولا بيت إلا طرقوا بابه. وجاء الخبر سراً إلى عبد القادر باشا بعزم الخارجى على ترك جبل قدير والزحف على الأبيض لبقائها على ولاء الحكومة الخديوية ووجود المرابطين من العسكر المضرى بها. قال صاحب كتاب السودان: وكان زحف المهدي إلى الأبيض بدعوة من تجار كردفان وإلحاح منهم فجعل عبد القادر باشا يتأهب للقاءه بالأبيض وينظم النجدة ويعد المعدات على قلة من عسكره وكان يخشى أن المهدي إذا انحدر إلى كردفان سير دعائه حول الخرطوم فيحرضون الناس على الخروج وشق عصا الطاعة فيشتغل بمن معه من الجند بإرجاعهم ويتعذر عليه حيثئذ إرسال النجدة إلى كردفان، فتمكن لموم المهدي من الفتك بمن فيها من الحامية - قال - وقد صدق ظنه فإنه ما أنحدر المهدي من قدير حتى قامت الفتنة حول الخرطوم واشتبك عبد القادر باشا معهم فى القتال واشتد عليهم واشتدوا عليه فلم يكن ليخضعهم حتى تم للمهدي الاستيلاء على الأبيض وتخریب ما فيها من آثار المدنية وال عمران. ثم جعل عبد القادر باشا ينتقل من بلد إلى آخر ويلج فى قتال أنصار الخارجى ويصليهم ناراً حامية ويجد فى تمزيق جموعهم حتى تمكنت مهايته من قلوبهم مع ما كانت عليه جنوده من شطف العيش وعرى الأجساد إذ كانوا يسترون بالجلود ويقفون بلحوم الماشية التى كانوا يغنمونها من العدو ويعملون أحذيتهم من جلودها مع خلو أيديهم من الدرهم والدينار لعدم صرف مرتباتهم وتأخير جماكيهم الشهور الكثيرة، وكان عبد القادر باشا لا ينفك عن استعطاف رجال الدولة بمصر عليهم يرثون لحالهم ويطلقون لهم شيئاً من رواتبهم. فبينما هم على هذه الحال إذ جاءه الخبر من ديوان الخديوى بأن قد قامت إلى الخرطوم حملة عظيمة من الجنود المصرية بقيادة رجل من الإنجليز اسمه هيكس وأنها على قدم السرعة وستدرك الخرطوم فى القريب العاجل.

(مطلب)

قيام حملة هيكس إلى الخرطوم

فلما ذاع هذا الخبر إندھش الناس أى إندھاش إذ مع ما هو معلوم من أن الفريقين المتحاربين كليهما من المسلمين فإن الفتنة كانت معتبرة دينية والحرب بينهما جهاداً، فكيف إذا علم أصحاب الثورة أن قواد الجيش المحارب لهم هم من الإنجليز، وكيف يكون تأجيج نار الفتنة واشتداد أوارها وفوز دعاة المهذوية متى تحقق للخارجي وأصحابه ذلك. أما هيكس هذا فهو رجل من مقدمي عسكر الإنجليز أوفده زعيم سياستهم إلى أرض مصر لهذه الغاية فلم يلق عصا ترحاله حتى طلب السير بارنج إلى الخديوى إرساله على رأس ذلك الجيش إلى السودان لإخضاع أهله والقبض على مدعى المهذوية فأكبر الخديوى الأمر وأعظمه وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فامتنع الوزير وقال: لا سبيل إليه والفتنة دينية والرأى عندى أن نمد عبد القادر باشا بالمدد الكافى ونطلق له عنان التصرف وإلا اختلط الحابل بالنابل وتعذر إطفاء نار هذه الفتنة، فراجعه السير بارنج ووردت الكتب من صاحب سياسة الإنجليز بالتعجيل وخروج العسكر والوزير يحاول ويحاول. وكان إسماعيل أيوب باشا الذى تولى السودان على عهد الخديوى إسماعيل يشغل أحد المناصب الوزارية مع الوزير محمد شريف وكان يكره ظهور كلمة عبد القادر باشا ويميل إلى خذلانه وحرمانه من فخر الفوز على الخارجى وشرف الظفر بقطع دابر الفتنة، فزين إلى السير بارنج طلب استرجاع عبد القادر باشا وإرسال هيكس بدله، قيل: وما زال هو والسير بارنج يعملان يداً واحدة وبقلب واحد حتى تم إخراج الجيش على رغم أنف كل مكابر وكان مؤلفاً ممن كانوا يعملون فى الجيش المصرى على عهد الثورة العرابية، فسار بهم هيكس وقد أعطاه الخديوى رتبة الباشوية فوصل بالجيش إلى الخرطوم ومعه الشىء الكثير من الأسلحة والمدافع ودواب الحمل والذخيرة وكان إلى يوم وصوله قد تم تحصين سنار ورحل عنها العدو وزالت القلاقل من الجزيرة وحصر عبد القادر باشا دعوة الخارجى فى إقليم كردفان فزال الخوف عن الخرطوم أيضاً بمقدم جيش هيكس أوكاد. قال صاحب كتاب السودان: وكان عبد القادر باشا قبل قدوم جيش هيكس يتمنى لو أن الحكومة تمده بشىء من المال والرجال فيتيسر له إذ ذاك وضع حامية تقاوم دعاة المهدي فى الجزيرة وحول الخرطوم ثم يتقدم هو نحو كردفان من طريقها الشمالى الذى يكثُر فيه الماء لا من طريقها الجنوبى الذى لا ماء فيه ولا رواء تاركاً

فى كل مرحلة يقطعها حامية تحفظ له خط الرجعة، ثم يؤلف من بقى قوة للهجوم فيهجم بها على العدو فيمزق شمله ويقضى عليه القبض الاخير ولكن قد جاء هيكس وقضى الأمر اهـ.

وقد اشتد العجب بالناس أيضاً من قدوم كبير من كبار عسكر الإنجليز اسمه الكولونيل استيورت إلى بربر ومعه كتاب من الديوان الخديوى إلى سائر العمال يأمرهم فيه بأن يطلعوا استيورت هذا على سائر دفاتر وأوراق الحكومة وأن يصدعوا بأمره فى كل ما يطلبه وكان مع استيورت هذا رجل آخر اسمه داليه إيطالى الجنس من كانوا فى خدمة السودان على عهد الخديوى إسماعيل، فسار استيورت من بربر إلى الخرطوم والتقى بعبد القادر باشا ولبث بها أياماً لا يعلم أحد من عمله شيئاً، ثم غادر الخرطوم إلى سنار فالتقوا فكسلة فمصوع فمصر فاختلف الناس فى داعى حضوره فمن قائل: إنه جاسوس جاء ليتحقق من أمر طموح عبد القادر باشا إلى الاستقلال بملك السودان كما أشاع يومئذ المرجفون وهم على ما ذهب إليه بعضهم إسماعيل أيوب باشا وأشياعه أو على مذهب غيرهم، هم صاحب السياسة الإنجليزية ورجال حزبه، ومن قائل: بل حضر ليمهد العقبات أمام جيش هيكس، ومن قائل: غير ذلك، وعلى كل حال فلم تكن إلا أيام بعد عودة استيورت إلى القاهرة حتى جاء الأمر من الديوان الخديوى إلى عبد القادر باشا بالتخلى عن الولاية والعودة إلى مصر فتخلى عنها فى الحال وجعل يتأهب للرحيل، وبينما هو على هذا إذ جاء علاء الدين باشا والياً بدله فأنحدر عبد القادر باشا من الخرطوم يريد القاهرة وجعل علاء الدين يتصرف فى الأمور، وعلم الخارجى بخبر جيش هيكس فاهتم له كثيراً. قال صاحب كتاب السودان: وظهرت على وجوه أصحابه علامات الخوف فتطير الخارجى من ذلك وكتب يحض الناس على الغزو والجهاد فى أعداء الله ورسوله: ثم نادى فى عسكره بالخروج إلى ظاهر البلد وظلوا على هذه الحال زهاء ستة شهور، فلما كان شهر ذى الحجة من السنة أى سنة ثلثمائة وألف خرج جيش هيكس من أم درمان براً وبحراً حتى بلغ الدويم وتربص حتى تكاملت رجاله ومعداته وجاء الصائح إلى الخارجى بمسير الجيش فأرسل فى الحال رجلاً من مقدمى عسكره وآخرين ممن لا ذوا به من عسكر الحكومة ومعهم أربعون ألفاً من الجعليين والدناقلة ورسم إليهم بأن ينزلوا جميعاً بمكان يعرف بالبساطة على مقربة من أم درمان - قال - وقال لهم: إذا سارت حملة هيكس من أم درمان فسيروا خلفها على بركة الله واجعلوا بينكم وبين مؤخرها رمية قوس. وخرج علاء الدين باشاً ليسير مع الجيش ومعه بعض الخدم

والحشم والاتباع ودليلان من قبيلة الجمع قدما إلى الخرطوم بإيعاز من مدعى المهدوية ليسيرا بالجيش من أوعر الطرق وأقلها ماء ورواء، وكان هذا الجيش كما وصف صاحب كتاب السودان: مؤلفاً من ستة عشر ألف مقاتل من العساكر النظامية وألف من الفرسان لابسى الدروع والخوذ وألف من الجنود السود وكثير من الفرسان الترك غير المنظمين، وكان عدد دواب الحمل فيه زهاء الثلاثين ألف جمل ما عدا البغال ومع الجيش الشيء الكثير من الأسلحة والمدافع والمكاحل من الطراز الحديد والمؤن والذخيرة، وسار هذا الجيش الضخم من الدويم إلى شاة ثم منها إلى عقبة وما كاد يفارق النيل حتى جعل العدو يقلقه بالجلبة والصياح فاضطر أن يسير على شكل مربع يحيط بدواب الحمل وكان لا يقدر على المبيت إلا فى داخل زريبة من الشوك فكان كل من ابتعد من العسكر عن الزريبة فى طلب الحشائش لعلف الدواب وقع فى أيدى العدو فتعذر الحصول على العلف ومات أكثر الدواب جوعاً ولحق بالعسكر ما لا مزيد عليه من التعب من قلة النوم لأن العدو كان لا يتركهم ينامون من كثرة صياحه وجلبته فى كل ليلة مما يضطرهم إلى التأهب والاحتياط والوقوف على قدم الاستعداد والسهر حتى مطلع الفجر.

(مطلب)

الخلاف بين علاء الدين باشا وهيكنس باشا

وبينما كانت الجنود على هذه الحال من التعب وتهديد العدو لهم فى الليل والنهار بغير حرب ولا نزال كان الخلاف قائماً ما بين علاء الدين باشا وهيكنس على أى منهما تكون له الرئاسة إذ كان كل منهما يزعم أنه مقدم هذا الجيش وصاحب الكلمة بين أفراداه. حدثنى صاحب لى قال: حدثنى رجل ممن وقع فى يد العدو بعد هلاك جيش هيكنس قال كانت فعال هيكنس هذا تدل على جهله بأحوال البلاد وعادات السود وكان كثير الثقل قريب الغضب، وكان علاء الدين فخوراً مختالاً فكان إذا أبدى رأياً فى أمر خالفه هيكنس وعابه وإذا أشار هيكنس بشىء مانعه علاء الدين وخطأه ورماه بالجهل فظهر عندئذ من جماعة الضباط وطوائف العسكر الاستخفاف بالاثنتين فنبذوا طاعتهما وقد أضناهم العطش وأنهكهم التعب وتفشت بينهم الأمراض العفنة وكثر الموات فى دوابهم لقلة العلف والماء ومازالوا والعدو محقق بهم من كل صوب يسIRON وهم على هذه الحال حتى نزلوا على غدير يقال له: غدير شيكان مملوء بماء الأمطار، فأقاموا عليه أياماً قلائل حتى استنزفوا ماءه

وسبقهم الخارجى بجيوشه إلى غدِير كثير الماء ونزل حوله ليمنعهم من الوصول إليه فلم يتمكنوا من اللحاق به ولم يقدروا على مناجزة العدو لضعفهم وخور قواهم وأقاموا حول غدِير شيكان حتى أكلوا طينه وأوحاله من شدة الظمأ وتمرد الجند على كبارهم وهموا بقتلهم مراراً. فلما كان يوم الاثنين رابع المحرم افتتح سنة إحدى وثلاثمائة وألف قاموا على ما هم عليه من الجهد والضعف يريدون الأبيض لخلوها من رجال الخارجى والتماساً للماء فيها. قال صاحب كتاب السودان: وكانت جواسيس المهدي قد أبلغته ما هم عليه من حالة الضعف والظمأ وأنهم قد أصبحوا جثاً لا حراك بها فنأدى فى أصحابه بالخروج عليهم فأطبقوا عليهم من كل جانب وأعملوا فيهم السيف فلم يقدروا على الدفاع ولم يسمع لهم صوت مدفع ولا بارودة حتى أفتتهم سيوف العدو ولم يبق منهم إلا بضع عشرات ممن اختفى بين الأشلاء وأمر الخارجى أتباعه فجعلوا يحرقون جثث القتلى من أعدائهم معللين ذلك بأنهم كفار وقتلوا علاء الدين وهيكس شر قتلة. قلت: هذه رواية، وفى أخرى أنه لما خرج الجيش من أم درمان على ما تقدم ذكره سار الدليلان أمامه فى طريق كثير الغابات شديد المراكب والعقبات قليل الماء والرواء والعدو من خلفه وعن يمينه وعن شماله يثب على مربع العسكر كل حين وهم يجدون المسير رجاء أن يدركو الماء ويرووا بعض ما بهم من الظمأ فلم يمكنهم العدو من ذلك وقد قل علف دوابهم فكثر فيها الموات وضعفت عن حمل أثقالهم وجرّ مدافعهم، ثم تفشت فى العسكر الأمراض العفنة وأنشب فيهم الموت أظافره ولما كان كلهم أو جلهم من الذين كانوا فى مظاهرات الثورة العرابية وكان كبارهم ممن حكم عليهم بالتجريد من الرتب وألقاب الشرف وكان انتظامهم فى هذا الجيش إنما هو بإيعاز من صاحب السياسة الإنجليزية ولنكد حظهم كان ما كان من سوء تدبير الجيش وتغريير الدليلين بعلاء الدين وهيكس أيقنوا جميعاً بأنهم إنما هم مسوقون إلى الموت لا محالة فانتقضوا وعصوا كبارهم وأكثروا من سبهم وتعنيفهم وضربهم، قيل: وهموا بقتلهم مراراً ومازالوا على هذه الحال من الظمأ والتعب والعدو من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم وهم لا يقدرون على دفعه حتى نزلوا على غدِير شيكان فشرّبوا ما فيه وأكلوا من طينه وأوحاله وعيون العدو ترمقهم حتى أيقنوا أنه لم يبق فى أحد منهم شيء من القوة يدفع بها قاتله فانقضوا عليهم وهم كالأموات وأعملوا فيهم السيف حتى لم يبق منهم إلا نفر قليل ممن اختبأ بين جثث الأموات وقتلوا هيكس وعلاء الدين وجمعوا السلاح والمتاع والمدافع وما بقى من دواب الحمل وقفلوا

راجعين إلى الأبيض فرسم الخارجى بتقسيم الأسلاب والغنائم على المجاهدين
والأنصار والخلفاء. وجاء الخبر إلى القاهرة بما أصاب جيش هيكس فكان لذلك رنة
حزن وأسف شديدين وكثر البكاء والعيول فى بيوت الضباط وكبار الجند وجلس
الناس للعزاء أياماً وظن أهل الخرطوم أن الخديوى لا يلبث أن يعيد عبد القادر باشا
فى عسكر جرار للأخذ بالثار وشاع بينهم أيضاً خبر عزم زعيم سياسة الإنجليز على
إرسال غردون قائداً على ذلك العسكر فجعلوا يعجون ويتهلون إلى الله بتحقيق هذا
الخبر واختلط الحال على الخديوى ورجال دولته فجعلوا ينقضون اليوم ما أبرموه أمس
ويتخطون فى العمل كمن فقد الرشيد ووزير السياسة الإنجليزية يضرب على أيديهم
ولا يمكنهم من أخذ أو رد فكانوا إذا قاموا أقعدهم وإذا قعدوا أقامهم وإذا قالوا
عاب عليهم قولهم وإذا عملوا رماهم بالعسف حتى جاءهم مرسومه بالتعجيل فى
إخلاء الدويم وفشوده والكوه والجلء عنهال وتركها إلى الخارجى والإتيان بحاميتها
إلى الخرطوم، فصعدوا بالأمر فلم يتم الجلاء عن هذه البلاد حتى جاءهم الأمر أيضاً
بإجلاء سائر المصريين عن الخرطوم وإعادتهم إلى مصر على نفقة الخزينة فصعدوا
كذلك بالأمر صاغرين وأخذ الناس فى الجلاء إلى بربر وأحصوا النازحين يومئذ
فكانوا زهاء مائتى ألف وخمسين ألفاً، وشاع خبر ذلك فى البلاد شرقاً وغرباً فأجمع
الناس من ذلك اليوم على طاعة الخارجى والإسراع إلى متابعته فكان يجتمعون فى
القرى والبلدان ويضربون الطبول ويخلعون أثوابهم ويلبسون المرقعات التى هى شعار
المهدوية ويوفدون الوفود إلى حيث الخارجى ليسانعوه ويأخذوا عليه العهد فتم إلى
هذا الحين سقوط هبة الحكومة المصرية وزوال سلطانها وذهاب نفوذها وصار حكام
البلاد يذهبون بما لديهم من الأموال إلى مقر الخارجى تزلفاً وتقرباً منه فكان يمينهم
بالإمانى الكثيرة، وكان ممن سلم وتزلف وبالف فى ذلك جداً سلاطين باشا ومن كان
معه من كبار العساكر وأسلم يومئذ ونطق بالشهادتين على يد الخارجى ولازم باب
الخليفة التعايشى. قال صاحب كتاب السودان: أما مقدموا العسكر فقد فعل بهم
المهدى من القساوة والتعذيب والضرب بالسياط ما تقشعر لسماعه الأبدان.

وصل

فى ظهور الفتنة بالسودان الشرقى

قد كانت الفتنة إلى هذا الحين فى السودان الشرقى نائمة ولم يحرك أحد من
القبائل لها ساكناً، وكان بقرية الدامر على ساحل النيل شيخ من أرياب الطرق اسمه

الطاهر المجذوب وكان محبوباً موقراً معظماً عند أهل السودان الشرقى مسموع الكلمة عند الولاة والحكام وافر الهيبة معزراً. فأرسل إليه مدعى المهدوية يدعوه إلى لقائه ويشرح له كيفية مهدويته ويسأله الانضمام إلى خلفائه هو ومن معه من المريدين ومشايخ الطرق ويستحثه على الخروج على عمال الحكومة وأجازه بمبايعة الناس وخاطبه باللقاب الإمارة على السودان الشرقى جميعه فبعث إليه الطاهر بجماعة من مريديه يتقدمهم رجل اسمه عثمان دقته بن أبى بكر دقته وهو من التجار الكبار كانت له أملاك واسعة بسواكن وسواها فذهبت أمواله وبيعت أملاكه لأسباب سياسية.

لا محل لسردها هنا، وكان عثمان دقته هذا يحمل كتاباً من الشيخ الطاهر إلى الخارجى يقول فيه: إن عثمان هذا من خيرة مريديه ومن أصدق أتباعه وإنه من أولى العزم والحزم وأنه أجدر بإمارة شرقى السودان منه يعنى من الشيخ الطاهر وأن الشيخ لا يأنف من أن يكون تابعاً لأفضل مريديه وأنه سيكون هو مستشاره ومدبر أموره والناصح لسائر أتباعه بالقيام بنصرته وموارثته وأنه لم يكن من مانع من قبول منصب الإمارة لنفسه سوى الشيخوخة والعجز عن الحركة التى يستلزمها هذا المنصب الخطير، فلما وفد عثمان دقته على الخارجى أكرم الخارجى وفادته وبالف فى الاحتفاء به وسأله عن الحال فى شرقى السودان قيل: فهوّن عليه، وقال: ياسيدى الناس طرا طائعون لك واهبون أرواحهم فى سبيل مرضاتك ومرضاة رسول الله ﷺ وهم جميعاً على أهبة الغزو والجهاد فى الكفار، قال: ثم ماذا؟ قال: وأستاذى يقول: أن الدولة قد عذمت على قهرق يارسال جيش جرار إلى بربر عن طريق سواكن وهو يشير عليك بإرجاعى للوقوف مع المجاهدين فى طريق ذلك الجيش وسد جميع المنافذ عليه حتى تتمكن من فتح الخرطوم. قال الراوى: ففرح الخارجى بمقالة عثمان دقته وسرحه إلى سواكن وكتب له كتاباً إلى سائر القبائل الضاربة هناك يستصرخهم ويستفزهم إلى نصرته ونجدته وأنه قد أمر عليهم عثمان دقته فيجب عليهم طاعته والعمل بمشورته فلم يصل عثمان إلى بربر حتى علم رجال الحكومة بخبره وما جرى له مع الخارجى فأرسلوا خلفه من يقبض عليه فلم يفلحوا ووصل إلى سواكن آمناً مطمئناً واجتمع بالشيخ الطاهر وسلمه كتب المهدى، فجمع الشيخ سائر مريديه وأبناء طريقته ومن التف حولهم وقام فى وسطهم ومد يده إلى عثمان دقته وبايعه بالإمارة فبايعه الناس كافة وترامت أخباره إلى مصوع وكسلة فدخلت جميع القبائل فى طاعته فجاء الأمر إلى محافظ سواكن بالقبض عليه وهو يومئذ فى سنكات فسير إليه توفيق بك مأمور طوكر فى ستين من الجند للقبض عليه ولم يكن محافظ سواكن يعلم من

أمر جموعه ومن التف حوله من القبائل شيئاً، فلما صار توفيق بك ومن معه على مقربة من سنكات خرجت عليه لموم عثمان دقته فقاتلهم وأصلاهم ناراً حامية وتحصن داخل زريبة من الشوك وخندق وعمل متراساً عظيماً وصار يدافع من ورائه ويصلى عدوه بناره.

(مطلب)

إرسال جيش لاستخلاص سنكات وطوكر

وجاء الخبر إلى القاهرة بظهور الفتنة أيضاً في شرقي السودان وخروج جميع قبائله عن طاعة الحكومة، فبعد أخذ وردّ طويلين مع السير بارنج جاء الخبر من صاحب السياسة الإنجليزية بإرسال جيش لاستخلاص طوكر وسنكات من أيدي أصحاب الفتنة، فاهتم لذلك الخديوى وجماعة الوزراء وجيشوا زهاء خمسة آلاف مقاتل ممن بقى من العسكر المصرى بعد حملة هيكس وبالفحوا فى الإكثار من معداتهم وآلات حربهم وعقدوا لواء هذا الجيش إلى محمود طاهر باشا أحد مقدمى العسكر على عهد الخديوى إسماعيل، فسار بجيشه هذا يريد طوكر فعلم بخبرهم عثمان دقته وتأهب للقائهم فى عدة كثيرة من المقاتلة وكن بهم فى منتصف الطريق بين طوكر والترنكات فبينما هم سائرون خرج عليهم الكمين من كل صوب وحذب وداهمهم على غرة فأوقع بهم ومزق شملهم، فلم ينج غير مقدمهم محمود باشا ونفر قليل وغنم دقته سائر ما كان معهم وعاد الفارون إلى سواكن فتبعهم العدو إليها وأحرق بها وجعل يتهدها وجاء الخبر إلى القاهرة بما حل بجيش محمود باشا فأكبر الخديوى الأمر وأعظمه جداً وكبر قلقه أيضاً على الخراطوم لترادف الأخبار يومئذ بما هى عليه من الشدة والضيق واقترب دعاء الخارجى من أبواب البلد، وكثر تردد السير بارنج على مقر الخديوى تارة وعلى ديوان الوزير نوبار باشا أخرى، ثم لم تكن إلا أيام حتى شاع الخبر بعزم الحكومة على إرسال جيش آخر معقود لوائه الكبير من كبار عسكر الإنجليز اسمه بيكر باشا فتطير الناس من ذلك وأيقنوا عجز الدولة وعدم قدرتها على إرجاع الأمور فى شرقي السودان أيضاً إلى ما كانت عليه وكأنما أراد صاحب سياسة الإنجليز بإرسال هذا الجيش استبقاء سواحل البحر الأحمر فى قبضة الحكومة المصرية إلى حين حتى يتمكن هو من بسط سلطانه عليها وإدخالها ضمن ممتلكات مملكتهم فخرج بيكر باشا فى أربعة آلاف مقاتل فلما بلغ سواكن أرسل يستميل بعض زعماء القبائل ويبلغ فى استرضائهم والتودد إليهم وأقام على

هذه الحال أياماً فلم يفلح فعمد إلى مخابرة القبائل الضاربة بجهات مصوع لعله يجد بينهم من يشد بهم أزرد فنى فتح الطريق إلى كسله ثم إلى الخرطوم فلم يفلح أيضاً وقد علم أن الطريق بين مصوع وكسله كلها أدغال وغابات كثيرة المراكب والهلكات وأن للطريق إلى الخرطوم أصعب من أن ترام فأخذ يتأهب للمسير إلى طوكر لإنقاذها ثم لإنقاذ سنكات، فلما كان شهر ربيع الثانى من السنة أى سنة إحدى وثلاثمائة وألف خرج بعسكره من سواكن إلى ترنكات وسلك ذات الطريق التى سار فيها محمود باشا بجيشه فلم تكن إلا مرحلة أو بعض مرحلة حتى انقضض عليهم عثمان دقته بخيله ورجاله فاختلف عندئذ نظام العسكر وفشلوا أى فشل وركن من فى الساقة إلى الفرار وألقوا ما بأيديهم من السلاح فائنخ العدو فيهم قتلاً وضرباً حتى أفنى منهم زهاء الثلاثة آلاف وفر بيكر باشا ومن بقى إلى ترنكات وغنم عثمان دقته سائر ما كان معهم من سلاح ومتاع ودواب وكانت واقعة من شر الوقائع وجاء الخبر بما جرى إلى القاهرة فكثر صياح وعويل نساء الضباط فى بيوتهم وجلسوا للجزاء وكثر اللغظ بأن هلاك هذا الخلق الكثير من العسكر والضباط إنما كان بإيعاز من الخديوى وجماعة الإنجليز لغاية فى النفس، واشتد القلق بالناس جميعاً حيث أعقب هذه الواقعة سقوط سنكات أيضاً وقتل من كان بها من العسكر مع توفيق بيك ذلك البطل المغوار مذبوحاً ذبحاً.

وقد كانت عمت الفتنة سائر أطراف السودان وتفشت أيضاً فيما حول الخرطوم من القرى والبلدان فأصبحت الخرطوم وهى مطمح نظر الخارجى يريد الانقضاض عليها بخيله ورجاله ليقبض على ناصيتها حتى إذا ما علم ذلك فى شرقى السودان وغربه وشماله وجنوبه دانت له البقية الباقية من زعماء بعض القبائل الموالين للحكومة فيخلو له الجو حيثئذ وكانت عيونه تنقل له أخبار ما كانت عليه البلد من الشدة والضيق وما وصلت إليه الدولة من العجز وهن العزيمة وزوال الهيبة فيزداد تحمساً وغروراً ويكثر من البعوث والدعاة ويرسل الكتب مشحونة بما حدث به الخضر وإلياس أو ما بشره به صاحب الشريعة الإسلامية وما أعدده الله له ولأصحابه من الأسرة والكراسى فى جنات النعيم وغير ذلك من الخرف والهرف والبهتان على الله وعلى أنبيائه ورسله، حتى افتتن الناس طراً واتسع الخرق وتعدر الخلاص وقد زاد الأمر خبالاً والطين بلة بما ورد على الخديوى من صاحب السياسة الإنجليزية من وجوب ترك جميع السودان والتخلى عنه بما فيه من مال ومتاع وكراع إلى الخارجى والإسراع بإجلاء من به من أصحاب الوظائف ومن بقى من العسكر ومن يريد الجلاء

من الأهليين أيضاً، فكان ما كان مما مر بك بيانه في محله من تنحي الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرئاسة وتولية الوزير نوبار باشا بدله وما وقع من اشتداد زعيم السياسة الإنجليزية على الخديوى والوزير نوبار باشا وترادف طلباته وتباين بعضها لبعض حتى تولى غردون الولاية العامة على السودان ونال السلطة المطلقة عليه شرقاً وغرباً وذهب إلى الخرطوم على ما وصفنا وكان من أمره وما وقع بعيد ذلك ما سيتلى عليك في بابہ إن شاء الله تعالى.

وصل

فى هزيمة أخرى وكسرة كبرى

لم يكن غردون ليتوقع الفشل إلى هذا الحد بعد أن اعترف للخارجى بالملك والسلطنة على غربى السودان وبعد أن خطب فى الناس بما خطب من ترك البقايا من الأموال ومنع الجباية ثلاث سنوات وإطلاق حرية التجارة فى الرقيق وغير ذلك من عبارات المجاملة والتلطف، ولكن خائته الأقدار وسقط فى يده واختلط عليه الحال وفسد التدبير وقلت منه الحيلة وضاق عليه الفضاء بما رحب لا سيما وقد جاءته الأنباء فى هذا الحين بفشل جيش جراهام وموت أكثر رجاله وقد كان يعتقد أن خلاصه وخلاص من معه مرهون على فوز هذا الجيش ونجاح غزوته.

وتحرير الخبر أنه لما علم صاحب السياسة الإنجليز بفشل جيش بيكر باشا ووقوع معظم رجاله فى قبضة عثمان دقته علي ما تقدم بيانه كبرت عليه هذه الخيبة وقد كان يرى أن فتح الطريق ما بين سواكن وبربر أمر لا بد منه لفائدة سلطتهم فى مستقبل الأيام فعمد إلى إرسال جيش ثالث من رجالهم وصفوة أبطالهم ليتم له ما يريد من فتح ذلك الطريق فجاء جراهام هذا على رأس ذلك الجيش إلى سواكن فى العشرة الأخيرة من ربيع الثانى من السنة أى سنة إحدى وثلاثمائة وألف ومعهم الشيء الكثير من آلات الحرب ومعدات القتال وإنجروا من سواكن إلى ترنكتات وسار معه بيكر باشا مقدم الجيش الذى أفناه عثمان دقته قاصدين الالتقاء بدقته، وقد علم دقته بوصولهم فتحصن فى التيب وخذق عليها وأحاط الخندق ببعض المتاريس ووضع عليها المدافع التى غنمها من محمود باشا طاهر وبيكر باشا وتأهب للدفاع، فلما صار جيش جراهام على مقربة من التيب وشاهد جراهام ما هو عليه موقع العدو من المنعة والحصانة نادى فى عسكره بالزحف والهجوم فلم يفعلوا وجبنوا ثم ولوا الأدبار

فلحقته قنابل العدو وتساقطت عليهم تساقط المطر وفتكت فيهم فتكاً ذريعاً جداً فما زال بهم جراحهم حتى لم شعشعهم وأعاد صفوفهم وسار بهم ثانية حتى صار على مقربة من متاريس العدو ثم جعلوا يطلقون مدافعهم ويرسلون قنابلهم على المتاريس والعدو يشتد عليهم في الرمي ويصليهم ناراً حامية حتى انكشف نظام أحد جوانب الجيش وفعلت فيه قنابل العدو فهم جراحهم بتغيير شكل صفوفه ليدراً عنهم تلك النيران الآكلة فاحس بذلك عثمان دقته فلم يكن بأسرع من أن هجم يقومه عليهم من كل صوب وأعمل فيهم السيف وبقي الحال هكذا بضع ساعات من النهار، ثم انفصل الفريقان فكانت القتلى من الجانبين لاتعد. وتقهر عثمان دقته إلى طوكر لعل جراحهم يتبعه فيقع في مخالب العطب فأدرك جراحهم الحيلة ولم يغرر بعسكره. فلما تحقق غردون ما أصاب جيش جراحهم كاد يذوب حزناً وأيقن أن الحيلة ضائعة وأن القضاء واقع لا محالة فرسم إلى كبار عسكره بترميم الحصون وتحصين القلاع وشاع خبر ذلك وملا الأسماع فاعتزل أصحاب الوظائف الديوانية من المصريين وظائفهم ونزلوا مع الكثير من التجار يريدون القاهرة فراراً من البلاء المنتظر وورد على غردون جواب الخارجى هادماً لصروح أمانيه مفعماً باللوم والتقريع وقارص القول ورد هدية غردون التي كان أهداها إليه على ما تقدم لك بيانه ومعها مرقعة من مرقعات الدراويش. قال صاحب كتاب السودان: وأرسل يقول له: إن أحسنت في دنياك وآخرتك فعجل بترك الكفر واعتنق الإسلام ديناً وأليس هذه المرقعة التي هي لباس الزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة ولا تكن سبباً في إراقة الدماء وأعمل كما عمل غيرك من الولاة والحكام. فغضب غردون غضباً ما عليه من مزيد وكبر عليه أمر ذلك جداً. وكان الناس إلى ذلك اليوم لا يعرفون حقيقة بعثة غردون ويجهلون نوايا دولة الإنجليز في شأن السودان المصرى ولا يدرون ما إذا كان الخديوى مطلق اليد في التصرف في بلاد هي ينبوع حياة مملكته وأم نيلها العظيم أو أنها خرجت من قبضته بحكم لاراد له ولا ممانع فيه، فدلهم يومئذ تخطيط غردون وخلطه وعدم حضور عسكر من الإنجليز كما كانوا يتوهمون على أن صاحب سياسة الإنجليز لم يبعث غردون إلا ليعمل على ترك السودان للخارجى حيناً حتى إذا تم لهم ما يريدون من التحفز للوثبة انقضوا على ذلك الخارجى بخيلهم ورجالهم وانتزعوها منه أو من خليفته من بعده وضموها إلى أملاكهم في هذه القارة السوداء وأضخموا بها جسم سلطتهم الواسعة وهى غاية في أنفسهم طالما تمنوها حتى مهد لهم رجالهم الأسباب وفتحوا لهم بحسن كياستهم مغلق تلك الأبواب بأن أوقدوا نار الثورة

العربية فى جوف القطر المصرى ونفخوا فى ضرام نار الفتنة المهدوية فى جوف السودان وأدانوا لهم فى القريب العاجل من الايام ما لم تكن لتتاله سلطنتهم فى البعيد من السنين والأعوام.

وكثرت كتب محمد بن البصير داعية الخارجى فى أرباض الخرطوم إلى غردون مفعمة بالسباب واللعن والخط من قدره وتهديده بالويل والثبور وعظائم الأمور إن لم يعجل بالتسليم بغير ذمة ولا عهد وظل الحال على ذلك أياماً كاد يهلك فيها غردون كمدأ. قال صاحب كتاب السودان: فاجتاز غردون النيل الأزرق إلى قصر راسخ بيك وأرسل إحدى عشرة رسالة برقية إلى السير بارنج بمصر يخبره بما وصلت إليه حالته ويقول: إن العدو على وشك الزحف للإحاطة بالبلد وأن أسلاك البرق انقطعت قبل أن يتمكن من مخابراته ثانية وأرسل كذلك إلى الخديوى والوزير نوبار باشا فأجابه السير بارنج بما معناه - إنى لم أفهم ما تضمنته رسائلك الإحدى عشرة فأعلمنى بقصدك بعد التفكير الطويل - على أن كل ما فى تلك الرسائل كان يتضمن استنهاضهم إلى إرسال النجدة وحفظ الاتصال بين دنقلة وبربر - قال - ولعل السير بارنج كان يقصد بقوله لم أفهم ما معناه - ياغردون أنك لا تجهل أن مقاصد حكومة جلالة الملكة غير الذى أنت تطلبه فلذا لم أفهم منك هذه الطلبات حيث إنك لا تجهل أنها لا تتحول عما عقدت النية على تنفيذه - قال - وفى تلغراف غردون أن الاسلاك البرقية على وشك الانقطاع وأنه من المتعذر بعد هذه الفرصة وصول أخباره إلى القاهرة فكانت إشارة السير بارنج بمخابراته بعد التفكير أمراً فى غاية الصراحة بعدم لزوم المخابرة حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً ١. هـ.

قلت: وهذه كانت صفة الغرض من الممانعة فى نجدة عبد القادر باشا عندما كان يقاتل الخارجى واتهامه بشق عصا طاعة الخديوى والاستقلال بحكم السودان ثم استقدامه على غرة بعد أن كاد يقضى على الفتنة فيما وراء الدارفور وعاد بعيد ذلك غردون إلى استعطف السير بارنج إذ كتب إليه يقول: ليس فى الإمكان إجلاء أصحاب الوظائف من المصريين بمن معهم من العيال إلا أن تفتحوا لى الطريق التى قلت لكم عنها فرد عليه رداً كله مباحكة وفيه شىء من الأمانى وفى كل عبارة يحضه على التروى وطول التأمل أى كأنه يقول ما بالك لا تفقه ما أسره إليك صاحب سياستنا ومالك تطلب المدد ونحن على غير ذلك من العهد معك. حدثنى صاحب لى خبير قال: كانت فعال السير بارنج فى هذه الظروف الحرجة تقضى بالعجب العجاب، فإنه بينما كان يمنى غردون بالمدد ويعدده بقرب وصول النجدة إليه كانت

رسائله ترسل تبعاً إلى عاصمة الإنجليز بأن فتح الطريق بين سواكن وبربر بطائفة من فرسانهم كطلب غردون ضرب من الحماقة، كما أن إرسال جماعة من عسكريهم إلى أسوان ووادي حلفا لتأمين السبل وتسهيل الجلاء عن الخرطوم كما يشير غردون لا معنى له البتة ولا هو من حسن السياسة في شيء، فكانت كل هذه الأحاجي والمعميات قاضية على حياة غردون وحياة الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء والأطفال في الخرطوم وأرباضها ولا ذنب لهم غير الارتكان على عزيمة الحكومة المصرية وحسن ظنهم بأصحاب الحل والعقد بها فتأمل.

ورأى غردون كثرة مناوشة العدو للجند والعسكر المرابطين بالخرطوم وتحقيق من دخول سائر سكان الضواحي في طاعة الخارجى وخروج جميع السود من سكان البلد إلى معسكر ابن البصير داعية الخارجى والانضمام إليه فأكبر الأمر جداً، وكان العدو قد جعل مركز حركاته في الحلفايا على قيد بعض فراسخ من الخرطوم وقد تحصن بها فأمر غردون بخروج طائفة من العسكر لطرد العدو من حلفايا وإجلاته عن الضواحي المتاخمة. قال صاحب كتاب السودان: خرج من الجند لذلك يعنى لطرد العدو ثلاثة آلاف من الباشيبوزق وألفان من المنظمين وعقد لواء هذا الجيش إلى السعيد حسين الجميعاتى وحسن إبراهيم الشلالى من معه من مقدمى العسكر ولم ينج إلا بضع عشرات عادت بهم السفن إلى الخرطوم، وما انتشر نعى القتلى حتى ضجت البلد بالعويل والبكاء من كل صوب ودرب وحزن غردون حزناً عظيماً وكاد يستسلم للقضاء المحتم وقد جاءته أخبار جواسيسه بزحف الخارجى على الخرطوم فنظر فلم ير أمامه باباً يلججه فى طلب النجدة إلا استعطاف السير بارنج بمصر لعله يفرج كربته بنصر من العساكر الإنجليزية سوى إرسال الكولونيل استيورت الذى كان فى ركابه من الخرطوم إلى دنقلة ومنها إلى القاهرة مزوداً بالرسائل والكتب بطلب النجدة، فانهدر استيورت هذا من الخرطوم على إحدى البواخر فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة إحدى وثلاثمائة وألف وتبعه باخرتان تحملان بعض المقاتلة وانهدر معهم كذلك نفر من المهاجرين يريدون اللحاق بدنقلة، فبينما هم فى طريقهم خرج عليهم العدو وجعل يطلق عليهم بنادقه وهم يجدون المسير حتى وصلوا بربر فرجعت باخرتا الحرس بمن فيها من المقاتلة وانطلقت سفن المهاجرين تمخر فى النيل وخلفها باخرة استيورت تشق عباب الأمواج والعدو من ورائها وعلى يمينها وعلى شمالها يطلق عليها نيران البنادق إلى أن قطعت الشلال الأول واستيورت يحث ربانها على الإسراع فى المسير أكثر فأكثر حتى ارتطمت بصخر

عظيم ولم تكن إلا لحظة حتى دخلها الماء وملاً جوفها فانزعج استيورت ولم يوفق لنكد طالعه إلا إلى إلقاء المدفع الذى كان معه وسائر الذخيرة فى الماء وأنزل متاعه فى زورق وسار به مع من كان معه من الخدم والأتباع إلى جزيرة فى وسط النيل ونزل بها فأشار عليه بعض من كان معه أن يسير بالزورق إلى حدود دنقله، ثم يرسل من يحمل الخدم والأتباع فامتنع من ذلك ولم يقبل لنفاذ القدر المقدور، وبينما هم فى تردد وحيرة إذ أقبل عليهم جماعة من أهل السلامانية ونادوا بأنهم فى طاعة الحكومة وأنهم على عهد الخديوى فأرسلوا لنا بسفر منكم لتكلم معهم فصدق استيورت كلامهم وأرسل إليهم جماعة من الأتباع وملاحى البارجة فعبروا النيل والتقوا بأولئك القوم وسألوهم عما إذا كانوا باقين على الطاعة فأقسموا أنهم على ذلك فعاد رسل استيورت وأخبروه بالخبر وباتوا ليلتهم تلك بالجزيرة، فلما أصبحوا جاء اثنان من القوم يقولان لاستيورت: إن شيخ القرية قد عاد من غيبته وعلم بما أصاب باخركم فجهز لكم ما يلزم من دواب الحمل وهى فى انتظاركم بالجانب الشرقى من النيل فإن شتم فاعبروا وامتطوها وسيروا على بركة الله - قال: ففرح استيورت بذلك وعبر مع من كانوا معه وهم زهاء خمسة وأربعين ونقلوا متاعهم فلم يجدوا غير سبع من النوق ضئيلة، فقالوا لهم: إن الفرق آتية الساعة فلبثوا فى انتظارها حتى قريب الزوال، وبينما هم كذلك إذا جاء رجل من أهل القرية يقول لاستيورت: إن الشيخ أعد لكم طعاماً فيها كلوا واشربوا هنيئاً مريئاً فقام استيورت من ساعته ولبس ملابسه كأنه ذاهب إلى وليمة أحد الأصدقاء ولم يأخذ لنفسه شيئاً من الحيلة أو الحذر وسار معه قونصلا النمسا والفرنسيس اللذان نزلا معه من الخرطوم وترجمانه فلاقاهم أهل القرية بالترحاب وبشوا فى وجوههم وأدخلوهم فى مكان فسيح كان فيه خمسون رجلاً فى زى السيارة فرحبوا بهم وهتوهم بالسلامة ثم انصرفوا عنهم لحظة لطيفة وعادوا فانقضوا على استيورت والقونصلين وأغمدوا فى رقابهم السيوف وذهب جماعة من القرية إلى شاطئ النيل وأعملوا السيف فيمن كان هناك حتى أفنوهم جميعاً وأخذوا كل ما كان معهم من متاع وأوراق، وكتب غردون التى كان استيورت يحملها وأرسلوا بجميع ذلك إلى الخارجى - قال: ففرح الخارجى بها فرحاً عظيماً وأمر فدقوا البشائر وطير الخبر بذلك إلى غردون وعرض له بذكر ما فى كتبه التى كان استيورت يحملها، ودعاه إلى الطاعة والدخول فى عداد الدراويش فحزن غردون حزناً شديداً وأيقن أنه لم يبق فى طاقته دفع هذا المقدور، وتحقق الناس طراً أن الخرطوم ساقطة لا محالة وأن جميع من بها هالك ولا شك وقد كانوا أحصوا من بها من المصريين فقط فكانوا مائتى ألف فلا حول ولا قوة إلا بالله .

(مطلب)

اشتداد الحال على بربر ومن بها

والى هذا الحين كان قد اشتدت الحال على بربر وضافت ذرعاً بأمرها ووصل إليها دعاة الخارجى وضيقوا عليها المسالك وأمسكوا عليها الأطراف فجعل من بها من المرابطين وأهل البلد يصيحون المدد وكتبهم تأتى إلى مقر الخديوى وديوان الوزير نوبار باشا، وقد أرسلوا يوماً عريضة على لسان البرق تشتمل على عبارات تؤلم الفؤاد وتفتت الأكباد فمما جاء فيها قولهم: هل من العدل أن نترك فريسة للعصاة ضحية سوء سياستكم يا أصحاب الأمر أين العاطفة الإنسانية والشهامة والحمية، أين منا جرائد لوندرة وجميعياتها المزرية بالاسترقاق ما بالها أغفلتنا وقد باعنا رجالها لهالك بفساد سياستهم وها نحن نحسد الأرقاء فإنهم آمنون على حياتهم ونحن لا نأمن على الحياة والعرض والمال، فأين الدولة البريطانية العظمى التى وعدت وصرحت برغبتها فى إنقاذنا وانتشالنا مما ألم بنا ، ما بالها لا تتقدم إلى وفاء الوعد والقيام بالواجب قبل انقضاء الأجل، وهل تمد يد المعونة بعد أن نذوق حفتنا فثقيماً من القبور أو كيف؟ وما القصد والداعى إلى تقاعدها وتهاملها بل ما كان الموجب لاسترجاعها عساكرها بعد حلولها فى سواكن وإعلان عزمها على كشف الضيق الحائق بنا . أما نحن فلا نستمد الفرج من إنجلترا وخذها بل نلتمس إسعافنا بالقوة من أية دولة كانت فإن القصد الوحيد إنقاذنا من الموت الزؤام وحفظ أعراضنا وأموالنا فالمدد المدد يا أولياء الأمر المدد اهـ.

فصاح حينئذ لصيحتهم هذه أصحاب صحف الأخبار المحلية وجعلوا يقرعون الهيئة الحاكمة وينحطون عليها باللائمة وهى لا تقدر على نجدة أهل بربر ولا على مكاملة صاحب سياسة الإنجليز فى ذلك بعد الذى تحقق لها من اشتداده فى طلب إخلاء السودان جميعه من المصريين ومن معهم مهما بلغت الضحايا وعظمت الرزايا. وأخذت الخديوى آخذة من الغم فجمع إليه سائر الوزراء وبينهم الوزير محمد شريف باشا ومصطفى رياض باشا وخيرى باشا وعمر لطفى باشا وثابت باشا ومحمد سلطان باشا وتاجوا فيما عليه أهل بربر فبعد أخذ ورد ظهر عجزهم عن نجدة القوم وأن الجلاء عن بربر خير من البقاء فاشتدت جلبتهم وطال بينهم الجدل فآخذت أحدهم عند ذلك «ولعله الوزير محمد شريف باشا» هزة الغضب: فقال ما بالكم تقولون غير ما تفعلون وتطلبون ما أنتم عن إدراكه عاجزون وكأنكم تجهلون

أو تتجاهلون أنكم أمسيتم كالريشة أمام مهب الريح إزاء وزير السياسة الإنجليزية لا تملكون من أنفسكم ولا من أموالكم وعيالكم شيئاً منذ احتلت جنودهم البلاد وهاكم كتب صاحبهم ناطقة بذلك ومشيرة إلى ما هنالك فعلاً من هذا الاجتماع والإام تغافل وتعامى عن الحقائق. قال الراوى: وبينما هم على هذه الحال إذ جاءهم الخبر بأن داعية الخارجى فى أرباض بربر أرسل كتاباً إلى حسين باشا خليفة مدير بربر يدعو إلى التسليم هو ومن معه من المرابطين وأهل البلد فامتنع فنادى داعية الخارجى عند ذلك فى عسكره وجموعه بالتأهب لحصار البلد ومنع الوارد عنها حتى يسلم من فيها أو يموتوا جوعاً فأكبر الوزراء الأمر جداً وأرسلوا فى الحال إلى صاحب السياسة الإنجليزية يسألونه عما يفعلونه فجاءهم الجواب بأن لا نجدة إلا بعد أربعة أشهر يعنى ابان الشتاء فإنفض مجلسهم يومئذ على ذلك. وكتب الوزير نوبار باشا إلى حسين باشا خليفة يقول: إن قدرت على الدفع فادفع عن نفسك وإلا فانحدر بمن معك والسلام. فلم تكن إلا أيام قلائل حتى شاع الخبر بقيام سائر القبائل المتاخمة لبربر إلى نجدة أصحاب الخارجى على قتال من فى البلد وانضمام بعض المرابطين إليهم أيضاً، وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك فى محله والأمر لله من قبل ومن بعد.

وصل

فى سقوط أم درمان والخرطوم وما جرى بعد ذلك

لما وردت أخبار النصر على الخارجى تباعاً من كل صوب وحذب تقوت عزيمته واشتد ظهره فرسم إلى عبد الرحمن ولد النجومى صاحب الراية البيضاء الذى سبق الكلام عليه بالزحف على الخرطوم ومعه ستون راية يتبع كل راية زهاء ألف مقاتل خاضعين إلى أمير، وهذا الأمير خاضع إلى ولد النجومى، وانضم إلى جيش ولد النجومى أيضاً عبد الله بن النور فى عشرين راية أخرى ومعه بعض المدافع التى غنمها من المصريين. قال صاحب كتاب السودان: ونادى مناديه فى الناس من شاء الغزو والجهاد فى الكفار فليلحق على بركة الله بجيش ولد النجومى فخرج الناس أفواجاً أفواجاً من الأحرار والعبيد فبلغت بهم عدة الجيش زهاء ستين ألفاً، وبينهم عشرة آلاف من الجنود السود بالبنادق ونحو عشرة آلاف فارس مدججين بالسلاح فوصل هذا الجيش العرمرم إلى بلدة الجريف فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة إحدى وثلاثمائة وألف، ونزل بها ولد النجومى أياماً حتى تكامل عسكره فقسمهم إلى ثلاث معسكرات وشاد القلاع وأقام الحصون وحفر الخنادق وأنشأ

المتاريس وسلم إلى مقدمى العسكر مواقع الدفاع ومفارق الطرق، وأرسل إلى غردون يدعو إلى التسليم ويحذره من عاقبة الامتناع - قال - وتراجع أيضاً المنهزمون من جماعة أولاد الشيخ العبيد وعسكروا فى الحلقايا كما كانوا واحترفوا الخنادق وعملوا المتاريس فكانت مقدوفاتهم تصل إلى منازل المدينة يعنى الخرطوم وشوارعها وتلحق الضرر بالسكان وتميت كثيراً منهم فى كل يوم، ولبت الحال على هذا المنوال إلى أوائل المحرم افتتح سنة اثنين وثلاثمائة حيث رحف الخارجى فى جيش عظيم، قيل: إنه بلغ زهاء الستمائة ألف مقاتل يريد أم درمان، فلما صار على مقربة منها أرسل جواسيسه فدخلوا الخرطوم ولم يشعر بهم أحد وصاروا ينشرون كتب الخارجى بين الناس وكلها حض وتحريض على شق عصا الطاعة والاجتماع على نصرته وألقوا بشوارع البلد من تلك الكتب شيئاً كثيراً. وأقام الخارجى بمكانه حتى تكاملت لمومه فرسم لهم بالهجوم على أم درمان وكان بها جماعة من العساكر المصرية والعساكر السود فهجم القوم عليها فى أوائل النصف الثانى من المحرم هجمة قوية فقابلتهم الجنود بنار حامية واشتدت عليهم برمى القنابل فترجعوا عنها خاسرين، وقد مات منهم خلق كثير فكبر الأمر على الخارجى ونادى فى قومه بالقتال ثانية فقاتلوا قتالاً شديداً حتى ملكوا من البلد بعض المواقع الأمامية ثم حاصروها حصاراً شديداً إلى آخر ربيع الأول فنفذ ما كان عند الحامية من المؤن ولم يبق عندهم شئ يقتاتونه فسلموا إلى صاحب المهديوية بإشارة من غردون فأحسن الخارجى معاملة كبارهم واستخدمهم فى مصاف جيوشه.

فلما سلمت حامية أم درمان وشاع خبر ذلك بين من بالخرطوم من العساكر والأجناد وهنت عزائمهم وظهرت عليهم علامات الضجر وزاد الأمر شدة نفاد ما فى المخازن والأشوان من المؤن والغلال وعدم إمكان الحصول على شئ منها من الخارج لأخذ العدو بأطراف الطرق فتفشّت المجاعة بأسرع ما يكون واشتد الجوع بالناس فصاروا يقتاتون ورق اللوبيا العفنة كانوا يطبخونها ويلعقونها - قال - وكان قوت الحامية من الصمغ مخلوطاً مع جمار النخل، وقد شوهد أن الذين يقتاتون هذه الأصناف يصابون بالإسهال وتظهر على وجوههم، أعراض تشبه أعراض مرض اليرقان ثم تتناقص قواهم الجسمية فى مدة ثلاث أيام وتعقبها أعراض الموت - قال - ومن غرائب ما رأينا فى حصار الخرطوم أن صيادى السمك قبل الحصار كانوا يصطادون فى كل يوم نحو ألف قنطار من الأسماك، ولما بدأ الحصار انقطع وجود الأسماك كأنها فرت من فرقة البنادق وهزيم المدافع حتى أن غردون انتهى سمكة

يتغذى بها قبل سقوط الخرطوم بأربعة شهور فلم يتيسر الحصول عليها وكما أن الأسماك هجرت شواطئ الخرطوم فإن أراضي بساتين المدينة التي كانت تقوم بحاجة سكانها من البقول والفاكهة أصبحت في إبان الحصار وقد تلفت كل مزروعاتها ولم ينبت فيها شيء من البقول وذبلت أشجار الفاكهة وتلاشت محصولاتها - إلى أن قال وكانت أسعار الأقوات في البلد حتى سقوطها كما يأتى ثلاثون ريالاً ثمن الكيلة من الغلة وعشرة ريالات ثمن الأقة من البقسماط وخمسة ريالات ثمن الأقة من اللحم البقرى، وكان بعض السكان يذهبون الحمر الأهلية والحكومة تعاقب من يرتكب ذلك اهـ.

واختل نظام الجند بالخرطوم فتمردوا على كبارهم وساروا عصابات تعبت في البلد وتسوطوا على باعة الأقوات وتخطف كل ما هو معرض للبيع، ولحق جماعة كثيرة منهم بالخارجي عند أم درمان هرباً من الجوع، وكان غردون مع كل هذه الكروب يظن أن صاحب السياسة الإنجليزية ربما يكون غير أو بدل من أسرار سياسته فيعتمد إلى إرسال حملة لخلاصه فأعد لاستطلاع طلع هذه الحملة الموهومة تسع بواخر مدرعة كانت إلى ذلك الحين تناوش العدو وتأتى بالمؤن إلى الخرطوم من القرى فسير بهذه البواخر إلى المتمة وبربر ولكن على غير طائل. وكان يضرع إلى الله تعالى أن يقرب عودتها حاملة أخبار تلك الحملة وظل على هذه الحال أياماً ثم يش وقط وتولاه الحزن والاضطراب فكان لا يستقر له قرار لا في الليل ولا في النهار وكان يغدو ويروح بين الحصون والقللاع يشدد عزائم الجند بلين الكلام ويحضهم على الأمانة والإخلاص وكان كلما رأهم وهم يتألمون من وخز الجوع يذوب حسرة وتوجعاً. ويقول: كيف يهدأ بالى وها هى جنودى تقاسى ألم الجوع ومر العذاب، قيل: وكان يقضى اليوم واللييلة لا يذوق إلا الشيء اليسير من الطعام وأكل جمار النخل أياماً حتى أضناه وكاد يودى بحياته. وكانت كتب الخارجى ترد عليه كل قليل يدعوه بها إلى التسليم وترك العناد ويقول له فى بعضها: إن الإنجليز إن قدموا لنجدتك فلا يصلون إليك ولا يكون حظهم إلا كحظ يوسف الشلالى وهيكس. قال صاحب كتاب السودان: وكتب المهدي ثلاثة كتب إلى غردون، نص الأول منها: بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد المعتصم بمولاه محمد المهدي بن عبد الله إلى غردون باشا هداه الله إلى طريق النجاة قبل أن يتلاشى آمين. نعلمك أن جوابك ردّ المحرر منا وصل إلينا وفهمنا مضمونه وقد عذرناك على عدم إذعانك وإجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك

وذلك لأنك لم تدر الحقيقة التي نحن عليها وتحسب مقامنا ودلائلنا على الله وشفقتنا على عموم خلق الله حتى من هو مثلك ولكن لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ولا زلنا ندارجك عسى الله أن يهديك إلى سواء السبيل فأجيب داعي الله واغتنم سلامتك من الشر الويل فقد رأيت ما حل ونزل ولا زلت ترى ولا طاقة لك ولا لأعوانك بحرب جند الله عز وجل وقد ذكرت أن عبد القادر ولد أم مريوم حبيبك وتقبل قوله ونصيحته وتطلب إرساله لك فعلام ذا هل أنت منيب إلى الله وقصدك التسليم لنا على يد المذكور؟ أم أنت على تصميمك على إعراضك ومعاداتك لربك فأفدنا على هذا لنعلم طلبك له على أي الوجهين ونرسله لك إن رأينا في ذلك صلاحاً للدين وأقول لك إن عزة الإسلام خير لك وأبقى لدوام احترامك في الدارين فتحل بها إن عقلت والسلام.

قال - والكتاب الثاني : بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد المفتقر إلى الله المعتمد به محمد المهدي ابن عبد الله إلى غردون باشا أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن أعرضت كان عليك إثمك وإثم من معك فقد أتى الخبر عن الرسول ﷺ أن الجردة الآتية لو كان معي أمامها ستة أنفار تموت أو خمسة تموت أو واحد يموت أو وحدي كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد آتاني خبرها تموت أيسر من موت جردة ولد الشلالى وهيئك وسأملك المديريات الغربية كلها والبحر الأبيض كذلك موعود بجميع البلاد فالأمر لله ومادام أن الله القادر أيدي بالكرامات والنصر فلا يضرنى إنكار منكر وإنما يضر نفسه فقط والأمر الذي وعدت به من رسول الله ﷺ جار على الجردة التي تعتمدونها مالها وجه يوصلها لكم لسد الأنصار الطرق فإن أسلمت وسلمت فقد عفونا عنك وأكرمناك وسامحناك فيما جرى منك، وإن أبيت فلا قدرة لك على نقض ما أراه الله وسترى والسلام اهـ.

تحشية - وإن طلبت زيادة بعد وصول جوابي هذا فتخبرك المرأة الواصلة إليك وإن رأيت التمكين واليقين إن أردت التسليم أكثر من هذا الجواب فسنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة في الأمان ولا مانع وبذا لزمتم التحشية اهـ بنصه .

قال - والكتاب الثالث : بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد، فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى غردون باشا وقاه الله كل شر لاشي فإن أراد الله سعادتك

وقبلت نصحنأ ودخلت فى أماننا وضمأنا فهو المطلوب، وإن أردت أن تجتمع على الإنجليز الذى أخبرنا رسول الله ﷺ بهلاكهم فنوصلك إلهم فإلى متى تكذبنا وقد رأيت ما رأيت وقد أخبرنا رسول الله ﷺ بهلاك من فى الخرطوم إلا من آمن وسلم ينجيه الله ولذلك أحببت لك أن لا تهلك مع الهالكين لأننا قد سمعنا مراراً أن فىك الخير ولكن قد كاتبتك للهداية والسعادة فما أجبنا بكلام يؤدى إلى خيرك كما نسمعه من الواردين والمتردين، والآن ما أيسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فىك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى أن تيسر هدايتك بها إذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة إلى الله ولذلك طالما كاتبتناك لنرجع إلى وطنك ونحوز فضيلتك الكبرى ولا تأس من الفضل الكبير، أقول لك قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ والسلام، وقد قلت فى جوابك الذى أرسلته إلينا أن الإنجليز يريدون أن يفدوك وحدك منا بعشرين ألف جنيه، ونحن نعلم أن الناس البطالين يقولون كلاماً كثيراً ليس فىنا وذلك ليصدوا من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه إلا من اجتمع بنا وأنت إن قبلت نصحنأ فيها ونعمت وإلا فإن أردت أن تجتمع بالإنجليز فبدون خمسة فضة نرسلك إلهم والسلام. اهـ. بنصه.

قلت: وقد عثرت على صورة كتاب آخر من ذلك الخارجى إلى غردون يقول فيه: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة والسلام على سيدنا محمد من التسليم. وبعد، فمن العبد الفقير إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى عزيز بريطانية والحدوية غردون باشا، قد وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه والحال أنك تزعم إرادة إصلاح حال المسلمين وفتح الطريق لزيارة قبر النبى عليه الصلاة والسلام واتصال المودة فيما بيننا وبينكم وإطلاق المسيحيين من النصارى والمسلمين وأن تجعلنا سلطاناً على كردفان، فأقول والأمر لله إنى قد دعوت العباد إلى صلاحهم وما يقربهم إلى ربهم وأن يفزعوا من الدنيا الفانية إلى دار البقاء ويعملوا ما يصلحهم فى آخرتهم وقد كتبت إلى حكمدار الخرطوم وأنا بأبأ بدعوته إلى الحق وبأن مهدويتى من الله ورسوله ولست فى ذلك بمتحيل ولا مريد ملكاً ولا جاها ولا مالا، وإنما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين وأكره الفخر وعز السلاطين ونبوههم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الحياة والمال والبنين وهذا هو الذى صدهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فآخذوا الفانى وتركوا الباقى واشتغلوا بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعا قول الله ولا رسوله ولم يذكروا خبر أهل القرون الذين لم يغن عنهم ذلك شيئاً وتندموا على قدر الذى تمتعوا به فأيدنى الله تعالى بالمهدوية الكبرى لدلائلهم

إلى الله تعالى وليتركوا العز الفانى والنعيم الفانى إلى العز الدائم والنعيم الأبدى فى دار النعيم المقيم ولأعرفهم غرور من يريد العاجلة ويظن أنه ساع فى رضا الله ويكون له نصيب فى الآخرة وقد قال المسيح عليه السلام يا معشر الحواريين ابنوا على موج البحر لكم داراً وإياكم والدنيا فلا تتخذوها قرار (قلت: إن المسيح لم يقل شيئاً ولا شبه شيء من هذا الكلام فى إنجيله البتة) - قال المدعى - فمن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل فهو مقهور وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهاها ويكون له فى الآخر شأن فأنب إلى الله الباقي واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة. ولا تظن أن هذه الدنيا دار بقاء حتى تسعى للملكها وعزها وكيف من يكون على خلاف طريقة النبى ﷺ ممن يرغب زيادة الكلاب كما ورد فإن الدنيا جيفة وطلابها كلاب ولم يرغبها فمن عبد غير الله نسى الله وأعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الفانية فإن كنت شقيقاً على المسلمين فالأولى أن تشفق على نفسك وتخلصها من سخط خالقها وتقومها على اتباع دين الحق باتباع سيدنا محمد رسول الله ﷺ الذى أحيا ما اندثر من ملل الأنبياء عليهم السلام الذين لو حضروا لما سلخوا غير ملته وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته ومن حضر بعثته وما بعد لا يقبل منه دين غير سكتة فظهر نفسك أولاً بالدخول فى ملته ثم اشفق على أمته بسلوك سبته فعند هذا فأنت الشفيق ومن غير هذا فما لك من المحقين رفيق، كيف وقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ - إلى أن قال: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون، ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون﴾ وإننا امثلنا أمر الله فما نتخذ ولياً إلا الله ورسوله والمؤمنين، وعلى ذلك قد وعدنا الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هذا وما دام أن الله يقول هم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فإن رجعت عما أنت عليه من ملة غير الإسلام وأنبت إلى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك ولياً وتكون من إخواننا وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امثل أمر الله فاستحق الوعد والبشارة بعد هذه الآية فى قوله تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحث أرجلهم﴾ الآية . . فبعد هذا تظل المودة بيننا وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والإنجيل وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد ﷺ عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزت الخير الأبدى، وحيث علمت من كلام الله أن حزب الله والذين يليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون فأعلم أن حزب الله واصل إليك مزيل

لك عما شاركت به خالك فادعيت ملك عباده وأرضه مع أن الأرض لله يورثها عباده الصالحين وأن المسلمين والمسيحيين الذين دعوت بإطلاقهم إليك فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفي دار الأبد كما أريده لك ولكافة عباد الله خلاء من جنتهم إلى محنتهم فإن الله قد أيدنى رحمة لعباده ولأنقذهم من الهلاك الذين هم واقعون فيه لولا رحمة الله بظهورى فيهم واعلم إنى المهدي المنتظر خليفة رسول الله ﷺ فلا حاجة لى بالسلطة ولا بملك كردفان ولا غيرها ولا رغبة لى فى مال الدنيا وزخرفها وإنما أنا عبد الله دال إلى الله والى ما عنده فمن كان سعيداً أجبني وتبعنى ومن كان شقياً أعرض عن دلالتي فأزاله الله عن موضعه وأذله وعذابه عند الله إلى الابد وقد أيدنى الله تعالى بالأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين وجميع الأولياء والصالحين لإحياء دينه وقد بشرنى النبي ﷺ بأن جميع من يلقانى بعداوة يخذله الله ويهزمه ولو كان الثقلين الأنس والجن فلا تغتر فتهلك كما هلك إخوانك فافهم وسلم وسلم.

وأما الهدية التى أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاك الله الخير وهداك إلى الصواب، واعلم أنه كما كتبنا أنا لا نرغب فى متاع الحياة الدنيا وزينتها وإنما هى قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فيها هى مرسله إليك مع ما نرغبه من الملابس لنفسنا ولأصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقي الأبدى ليستحقوا بذلك نعيم الأبد وملك الدوام كما درج على ذلك الأنبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحين وتعلم ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسى عليه السلام وحواريه، وقد قال: كتبت لكم الدنيا فلا تغشوها بعدى (قلت: والمسيح لم يقل هذه الترهات أيضاً ولا جاءت فى إنجيله) - قال - فتعلم بذلك أن من خالفه من الأخبار والرهبان وجميع من يدعى اتباعه ليسوا محقين وإنما غرتهم الحياة الفانية والأمتعة الآيلة إلى أن تكون جيفة وعذرة ثم عدماً محضاً فتكون حسرة ورزاً عند فراقها وما فوتته من اكتساب خيرات الدوام ثم إن مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعرضنا عنه طلباً لما عند الله وأقول لك فى ذلك كما قال سليمان عليه السلام لبليقيس وقومها: ﴿أتمدون بآمال فما آتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون * ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ وأعلم إنك إذا أتيتنا مسلماً نؤنسك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعك فى الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك إن رأينا فيك خيراً وصلاًحاً للمسلمين وليناك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد المشهور بزقل مدير دارا سابقاً فإنه لما آتانا ورأى الحق وفرح

بلقائنا وندم على ما فات مما ضيعه من عمره فى الفانى واطمأن قلبه بالإيمان واختار
 الآخرة ووثق بالله وليساه على دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك عبد القادر سلاطين
 «يريد سلاطين باشا» بالتسليم فأكرمناه وإلى الآن نريد كمال تربيته وهو الآن فى خير
 كثير وكذلك السيد جمعة الذى كان مديراً لفاشر والآن أرسلنا إلى محمد خالد
 المذكور يأتى به إلينا لكمال التربية والإرشاد وبلغنا حسن إسلام الدمترى سجاهه
 وصدق اتباعه لنا وإنابته للآخرة وكذلك جميع أمراء النقط بدارفور قد أذعنوا لله
 كباقي سلاطين دارفور وسلموا جميعاً أمرهم إلينا فى حب الله ورسوله فحسن
 تسليمهم واتباعهم لنا، وكذلك الملك آدم ملك جبال تقلى الآن أتى مهاجراً لما رأى
 الحق وحسن اتباعه وصدقه وقد أكرمناه وهو الآن معنا بخير كثير وهلم جراً، فكل
 سعيد لا بد أن يتصل بنا من جميع أقطار الأرض ومن أبى لا بد أن يخذله الله ويعذبه
 فى الآخرة كما أشار إلى ذلك النبى ﷺ مراراً وليكن معلوماً عندك يا حضرة الباشا
 أن جميع الذين قتلوا على يدي قد أنذرتهم أولاً إنذاراً بليغاً وها هو واصل إليك
 إنذار ولد الشلالى بعد مخاطبته وإنذار هيكس بأجوبة عديدة وجواب مخصوص له
 ولأكابر جيشه وقد أرسلنا إلى باشه الأبيض بجواب فقتل رسلنا وبعد أن وقع فى
 يدنا أكرمناه وأعطيناه جبة جميلة ليتدرج إلى الصدق مع الله ولازلنا نكرمه ونعظمه
 ليقتنى بنا ويصدق مع الله فيكون من الأصحاب الذين هم كالنفس فلم يصدق
 ولازال يقع فيما يهلكه ونحن نصفح عنه حتى أخذته منيته فمات، ومع ذلك لأجل
 مبايعته لى ومجالسته معى أياماً قد أتاناً خبر بعد موته أنه عفى عنه فى الآخرة فصار
 من السعداء والعبد إذا كان يسعد فى الآخرة فهو المقصود ولاخير فى الدنيا ولا فى
 نعيمها بل إنما متاعها يكثر الحسرة والحس فقط يوم القيامة ونيتى بالعباد سعادتهم فى
 آخرتهم الأبدية وإزالة الهلاك عنهم من الله ولذلك لاطفت جميع الأكابر من الدولة
 والحكام فما عملنا معهم إلا الخير والإكرام فمن صدق منهم معنا فهم الآن فى خير
 كثير وازدياد شرف والسلام - وبعد هذا البيان فإن اهتديت وسلمت لى واتبعتنى
 حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجرك وأجر جميع من اتبعك وإلا هلكت فكان
 عليك إثمك وآثام جميع من اتبعوك وإن كان لك حسن نور فى العقل تعلم أنى
 خليفة رسول الله ﷺ فلم تتهمنى فيما أسوق به إلى الله والدار الآخرة ولم تسمع
 على قول الظلمة الحساد الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن
 يتم نوره - وقد قال ﷺ من شك فى نصرته المهدي فليقرأ قوله تعالى: ﴿وهو الذى

أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون»، وقوله: «كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله» ولزيادة الشفقة عليكم لزمتم التحشية بهذا والهادى هو الله وكثرة البيان لاتهدى هدايا الله والعباد إلى الصواب آمين اهـ. بنصه.

قيل: وكتب المدعى على الظرف الذى أرسل فيه هذه الرسالة ما نصه سألتك بحق الله ونبيه عيسى عليه السلام أن تقف على أجوبتنا هذه بالحرف الواحد وقد أبلغنى محمد سعيد المسلمانى الذى يسمى جرجو اسلامبولى أن رجلاً يسمى السيد أفندى نعيم الأجزجى له معرفة بلغتكم وبالحظ العرى ومادام أنه يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على ما فى هذا الظرف جميعه حرفاً حرفاً على يد المذكور أو من هو مثله والسلام.

وأرسل إلى غردون بعد هذه الرسالة خطاباً يذكر له فيه بيان الهدية التى أرسلها إليه فى مقابلة الهدية التى كان غردون أرسلها عند مقدمه إلى الخرطوم ونص هذا الخطاب: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فمن عبد ربه الفقير إلى الله محمد المهدي بن عبد الله إلى غردون باشا باطلاعك على ما تدون بالجواب إليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من المشتبهيات طلباً لعالى الدرجات وهى جبة ورداء وسراويل وعمامة وطاقيه وحزام وسبحة فإن أنبت إلى الله وطلبت ما عنده لا يصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدائم حظك وها هو الرسول الذى أتانا منك واصل إليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام اهـ.

وعندى أن هذا الجواب يجب أن يكون أول كتب المدعى إلى غردون ومع ما فيه من سماجة الأسلوب وركاكة التركيب فأنى استبعد أن يكون من إنشائه إذا جزمنا بأن الخطاب الثالث الذى هو أحد الخطابات التى نقلناها عن صاحب كتاب السودان هو من إنشائه وعلى كل حال فإنها كلها تدل على مبلغ اعتقاد الرجل فى دينه وبقينه الثابت بأنه هو المهدي المنتظر بلا جدال.

وجعل غردون منذ اشتداد العدو على حصون البلد ومعاقلها يدبر واسطة لخلاص قناصل الدول الذين كانوا معه فى الخرطوم فلم يقبلوا وقالوا: لا بل نبقى حتى تصل الجنود الإنجليزية، فأجابهم غردون إلى ذلك وقد كانت الأخبار جاءتهم بأن صاحب السياسة الإنجليزية أرسل لخلاص غردون ومن معه حملة كبيرة بعد أخذ

ورد لا محل لايرادهما هنا وأن تلك الحملة بلغت النيل عند المتمة فقاتلها أنصار
الخارجى قتالاً عنيفاً فقهرتهم وغلبتهم، ووردت الأخبار كذلك إلى الخارجى بما وقع
لأصحابه فاضطرب وجمع إليه خواصه وأهل شوره وكلمهم فيما هم فيه فاختلفوا
فمنهم من أشار عليه بالزحف فى جيوش وأنصاره والوقوف فى طريق الإنجليز
وقتلهم حتى ينجز لهم الله النصر ومنهم من أشار بترك حصار الخرطوم والجلاء عنها
والرجوع إلى كردفان والتحصن فيها ومنهم من أشار بغير ذلك. قال الراوى: ثم
سكتوا لحظة فالتفت الخارجى إلى أبى قرجة أحد الأمراء وعبد القادر على ابن عم
الخارجى وقال وأنتما ماذا تقولان: فقال أبو قرجة: إن الفرجة لا يقصدون إلا
الخرطوم فإذا بلغها مائة منهم تعذر وقوعها فى قبضتنا فالرأى عندى أن نقاتل من بها
ونلح فى قتالها حتى نفتحها فإذا وصل خبر سقوطها إليهم ارتبكوا وتولاهم اليأس
فنكر عليهم ونقاتلهم حتى نقهرهم، وقال عبد القادر: مقالة أبى قرجة أيضاً فظهرت
عند ذلك على وجه الخارجى علامات الفرح، وقال: هذا هو الرأى الصواب فنعمل
به إن شاء الله تعالى وقد كان الخارجى إلى هذا الحين يظن أن المؤن عند حامية
الخرطوم كافية وأن أهل البلد فى أمان من الجوع كما كان يكتب إليه غردون كل قليل
من الأيام فكان لذلك يخشى الزحف على البلد وفتحها عنوة، وكان يحسب لذلك
حساباً كبيراً فلما قال أبو قرجة وعبد القادر مقالتهما هذه اشتدت عزمته وزال خوفه
وعقد النية على مهاجمة البلد وفتحها وكان من عساكر الباشيوزق سنجان قد مالا
إلى دعوة الدعاة وكأنهما استوثقا لأنفسهما منهم. قال صاحب كتاب السودان:
فخرجنا فى إحدى الليالى من البلد سراً ولحقا بالمهدى فأكرم مثاوما وقربهما منه
وسألهما عما فيها من المؤن والعسكر فأعلماه بكل شئ وكشفا له عن عورات البلد
وهونا عليه فتحها ودلاه على مكان فى طرف الخندق من ناحية النيل الأبيض قد
انحسر عنه الماء فلذلك يسهل الولوج منه إلى البلد ففرح المهدى بذلك فرحاً
لايوصف، فلما كان صبح الأحد ثامن ربيع الثانى من السنة أى سنة اثنتين وثلثمائة
وآلف خرج المدعى من كهفه وعلى رأسه مقطف من الخوض مملوء رملاً وسار فتبعه
الناس حتى جاء شاطئ النيل فأحاط به الناس إحاطة السوار بالمعصم فوقف صامتاً لا
يتكلم والناس كأن على رؤسهم الطير ثم صاح الله أكبر على الخرطوم وأخذ حفنة
من الرمل بيده ورمأها فى اليم فصاح الناس جميعاً الله أكبر على الخرطوم ومازال
يصيح هكذا ويلقى بالرمل فى اليم والناس يصيحون بعده بمثل مقالته حتى فرغ ما
فى المقطف فالتفت إلى من هم حوله وقال يا قوم: إن النبى ﷺ قال لى يا محمد

اهجم على البلد فى هذه الليلة فتسقط فى يدك لا محالة، قال ذلك وعبر النيل إلى الجانب الشرقى يريد معسكر ولد النجومى وبعد صلاة العصر ركب جملاً فاحتشد الناس حوله فأثنى على ولد التجومى وقال له: إن النبى ﷺ بشره بالاستيلاء على الخرطوم فى هذه الليلة وأمره أن يقسم مقاتلته إلى ثلاث فرق كقلب وجناحين ويكون هو فى القلب ومعه الفرسان ويكون الحاج محمد أبو قرجة قائد الميمنة ومعه حملة البنادق ومحمد نوبارى شيخ قبيلة بنى جراد احدى بطون قبيلة الكبابيش قائد الميسرة ومعه العرب والبقارة أصحاب الحراب والسيوف وأن يكون هجوم القلب على نقطة الوسط من الخندق عند البرج المعروف باسم باب المسلمية - قال وهى مقر فرج باشا الزينى قومندان الحامية ويكون هجوم الميمنة على الخندق مما يلى النيل الأزرق لجهة برى ويكون هجوم الميسرة على الخندق مما يلى النيل الأبيض عند المكان الذى انحسر عنه الماء وتراكت عليه الأوحال وصار فى الإمكان الوصول منه إلى المدينة وقدم المهدي عمر إبراهيم وهو أحد الصنجقين اللذين دلا على عورات البلد إلى محمد نوبارى قائد الميسرة بصفة دليل يرشده إلى ذلك المكان «يعنى المكان الذى انحسر عنه الماء» ودفع إليه شخصاً آخر اسمه بدوى الدنقلاوى، وكان كيالا فى الشون بصفة دليل ثان وأصدر المهدي إلى محمد النور أمراً قال فيه ما يأتى: لدى دخولك المدينة يجب أن تقصد سراى غردون على الفور وتبلغه تحيتى ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحداً يتعدى عليه حتى توصله إلى سالماً بغير أن يصيبه مكروه وخطب على الجميع قائلاً لا يتعرض منكم أحد إلى حياة غردون بسوء لأننى أريد أن أفدى به أحمد عرابى باشا، ثم خطب فيهم يحضهم على الجهاد ويذكرهم بنعيم الآخرة، وقال لهم فى ختام خطبته: احملوا الخشائش لالقاتها فى الخندق حيث تجتازون عليها وقفل راجعاً إلى أم درمان ومعه عبد الله التعايشى وترك الخليفين محمد شريف خليفة الكرار والخليفة على بن حلو خليفة الفاروق واجتاز النهر آيماً إلى أم درمان اهـ.

وكثر عبور المقاتلة من أم درمان إلى الخرطوم وجعل مقدم العساكر المهدية يطلق مدافعه من أم درمان على الخرطوم تبعاً من عصر الأحد ثامن ربيع الثانى إلى ظهر الاثنين تاسع الشهر المذكور وكان يوم الأحد يوما لا شمس له قد حجبتها الغيوم المتلبدة والضباب المتكاثف وكان البرد قارصاً وعلم غردون بحركة العدو واحتشاده فصعد إلى سطح داره ومعه قناصل الدول وجعل ينظر بالنظارات إلى كثرة العدو

وعبوره النيل فانزعج وتحقق أن العدو على أهبة الزحف على البلد فى تلك الليلة فأسرع إلى الحصون والمعقل وجعل يستنهض همم الجند ويحثهم على الصبر فى الدفاع فكانوا فى شغل عن كلامه بما هم فيه من الجهد والتعب وما أصابهم من الضر فعاد إلى مقره، قيل: والدمع ملء عينيه فقابله قناصل الدول فقال لهم: لا قدرة للجنود على دفع العدو وقد دبرت لكم أمر النجاة فلم تقبلوا فلا ذنب لى ولا جناح على ولا بد للعدو من ولوج البلد فى هذه الليلة ثم صافحهم جميعاً قائلاً أنى أبرأ إلى الله والعالم أجمع من تبعة كل داهية تلم بكم، فقالوا: نحن نشهد بما تقول فصافحهم ثانية وكانت مناوشات العدو فى ازدياد من ناحية الخندق ومن جهة أم درمان وشاع الخبر فى نحو الساعة العاشرة ليلاً أن العدو على عزم الهجوم على البلد فوقع الهرج فى الناس وعلت الضوضاء فلم تكن إلا ساعة حتى دخل العدو بخيله ورجاله وساروا نحو مقر غردون وأحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم. قال صاحب كتاب السودان: وكان القائد فرج باشا واقفاً وقت زحف العدو عند باب المسلمية فلما أحس بدخول الميسرة إلى الخندق مما يلى البحر الأبيض أمر بفتح باب المسلمية حيث فر منه بعد أن تنكر بملابس جندى ومعه القائم مقام سرور بهجت ولما دخل محمد نوبارى المدينة قصد بكل مقاتلته سراى غردون - قال - وكانوا زهاء مائة ألف مقاتل فأطل غردون من النافذة ونظر إليه ثم قال لحراسه لا تبدوا معارضة لآى أحد يريد الوصول إلى وإياكم أن تبدوا أقل دفاع - قال - ولبس كسوة التشريفة الصغرى التى هى ملابسه اليومية على الدوام وتقلد سيفه ولبس طربوشاً ووضع عليه رداء حريريا «كوفيه» وربطه بعقال كزى الأعراب فدخل عليه محمد نوبارى وجماعة من مقاتلته فوجدوه جالساً على كرسيه ممسكاً بيده منديلاً أبيض فابتدره أحد الدراويش وقال له أين أموالك يا غردون يا كافر، قال: فتبسم غردون ضاحكاً، وقال له: أين محمد أحمد يقصد المهدي فابتدره الرجل بطعنه فى صدره خر منها صريعاً على الأرض يتخبط فى دمه ولكنه لم يفقد حواسه من هذه الضربة - قال - ونقل لى أحد الحاضرين أنه سمع واحد من الدراويش صاح بالذى طعن غردون وقال له: لا تقتله بل أبقه كأمر المهدي فأجابه القائد محمد نوبارى بقوله إن الخليفة التعايشى أمر بقتله وكان صوته خافتاً حين نطق بهذه العبارة قال: ثم سحبوا غردون من رجليه ولم يكن قد فقد الحواس ولا قوة النطق حتى قيل: إنه كان يتبسم وهو مسحوب على وجهه ثم أنزلوه إلى حوش السراى وهناك قطعوا رأسه وأرسلوها إلى الخليفة

محمد الشريف الذى كان وقتئذ فى جامع الخرطوم فانتدب محمد بن عبد الكريم من أقارب المهدي فركب الباخرة اسماعيلية وأوصل رأس غردون إلى المهدي الذى أنكر قتله وصاح قائلاً لماذا قتلتموه ألم أنهكم عن قتله ؟ فقال له التعايشى : إن قتله خير من استحيائه . فبدت من المهدي علامات الغضب وأسرع بالقيام ودخل إلى منزله ونصبت رأس غردون على خشبة طولها متران وأخذ الصبيان والنساء يرجمونها بالحجارة ويهينونها بالبصق حتى تهشمت قطعاً صغيرة اهـ .

ووردت الأخبار نفعاً إلى القاهرة بسقوط الخرطوم فى قبضة الخارجى واستسلام من بها من المرابطين وموت غردون ومن كان معه من قناصل الدول فكان الناس يتحدثون فى هذا الأمر همساً ولا يصرحون به عسى أن يكون من سقط الروايات أو من تضليل الرواة وكانت الحملة التى سيرها الإنجليز لاستخلاص غردون معقوداً لواؤها إلى الجنرال ولسلى صاحب موقعة التل الكبير أو هو فاتح مصر على المشهور وقد سارت مدججة بالسلاح مثقلة بالشئ الكثير من الكراع والمدافع الحديثة الطراز والمؤن والخليل ودواب الحمل وكثير من سفن النقل فجعلت مركز حركتها مدينة أسوان وجعل الجنرال ولسلى يترفع بالجنود إلى أرض السود يريد اللحاق بالخرطوم قبل أن يتمكن الخارجى من فتحها ، وقيل : بل كان فى تردد وحيرة وكتب صاحب سياستهم تاتيه تباعاً تارة بالإقدام وأخرى بالإحجام والمخبرون يأتونه من الأنباء بأشكال متضاربة حتى وقع القنوط واليأس أو كاد وكثر توارد كتب الخديوى على ولسلى أيضاً فى طلب معرفة بعض الشئ من أخبار الخرطوم وما حل بها فلم ينل مأرباً واختلط الحال كذلك على قناصل الدول وكثر تساؤلهم وتردادهم على ديوان الوزير نوبار باشا يسألون عما حل بقومهم النازلين بأرض السود فلم يعرفوا من خبرهم شيئاً سوى الشائع بين الناس . وجاءت الأخبار فى هذا الحين أيضاً بوصول طائفة من العساكر الإيطالية فى عدة وذخيرة عظيمة إلى فرضة مصوع وأنهم قد احتلوا بعض المواقع فى ضواحي البلد وهم على عزم الزحف إلى بربر لئلا تتقاء بجيوش الجنرال ولسلى وإنقاذ غردون ومن بالخرطوم فكان الناس بين مصدق ومكذب إذ البلد تابعة لمصر وكان الخديوى ورجاله لا يعلمون من أمر هذه العساكر ونزولها على مصوع شيئاً إلا بقدر ما تعلمه العامة وأصحاب صحف الأخبار أو كانوا يعلمون بحقيقة خبرها ولكنهم كانوا يتجاهلون كيلاً يوقظوا الفتنة الراقدة ، وكان مقدم سياسة الإنجليز لما عول على إرسال جيش ولسلى إلى الخرطوم عن طريق

أسوان استمال السنيور كرسى وزير إيطاليا يومئذ إلى أن يمد جيش ولسلى بمدد من العساكر الإيطالية يسرون إلى فرضة مصوع ومنها إلى بربر فيلتقون بالجيش ويتضافرون جميعاً على غزو ما فتحه الخارجى من البلاد، ولجماعة الإيطاليين فى مقابلة ذلك فرضة مصوع وما والاها من بلاد الصومال وما جزاء الإحسان إلا الإحسان ففرح كرسى بذلك وأرسل أولئك العسكر على السفن والشوانى الكبار فأنزلوهم فى بعض المواقع القريبة من مصوع وضربوا خيامهم ولبثوا ينتظرون الأخبار عن جيش ولسلى وهم على أهبة الزحف على بربر وجعل كبارهم يتقربون فى تلك الأيام من مشايخ القبائل الضاربة فى تلك الأطراف ويتزلفون اليهم بالهدايا والتحف فالتف حولهم بعض أولئك القوم وكشفوا لهم عن عورات الصوماليين وهونوا عليهم غزوهم والغلبة عليهم وإدخال بلادهم فى طاعة سلطنتهم. قيل: فعاقدهم وعاهدوهم على ذلك وكتبوا السر إلى حين حتى كان من أمرهم وما وقع لهم ما سيتلى عليك فى محله إن شاء الله تعالى.

وسار جيش ولسلى والأخبار عن الخرطوم ومن فيها تأتية مبتورة مقتضبة لا تشفى عيلاً ولا تروى غليلاً وعيون الخارجى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم تنقل أخبارهم وهم لا يشعرون، وكان أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية يظنون إلى هذا الحين أن غردون حى يرق، وبعضهم يقول: إنه يقاتل دعاة الخارجى على بربر فإذا تقدم جيش ولسلى إلى ما وراء دنقلة تمكن غردون من مبارحة الخرطوم والإتيان إلى دنقلة بطريق بربر دون أن يلقى معارضة من أصحاب الفتنة إذ هم يخلدون إلى السكينة بمجرد نزول جيش ولسلى على دنقلة، وكان غيرهم يقول غير ذلك والعلم بمقتل غردون عندهم غير مقطوع به، وكان الخديوى قد رسم الى سائر المديرين والمشايخ والأعيان فى جميع البلاد السودانية بأن يكونوا عوناً للجيش وفى طاعة الجنرال ولسلى وشدد عليهم فى ذلك تشديداً كأنهم باقون على طاعة وولاء حكومته والأمر يومئذ على غير ذلك، وكثر توارد سفن النقل للجيش على أشكال مختلفة يديرها جماعة من رجال البحر من أهل كندا وتقاطر مرور الشوانى الكبار صعداً وهبوطاً إلى أسوان وكبرت الحركة وعمرت أسوان بالبيوت والأشوان والحوانيت لأرباب التجارة والصناعة وأصحاب الوظائف ومقدمى العسكر وغيرهم، وقدم بعض السعاة فى هذا الحين بكتب من غردون كان قد أرسلها قبل سقوط الخرطوم، وكلها استجارة واستغاثة وإعلان بأن لموم الخارجى أصبحت

أدنى من رمية قوس من الخرطوم ثم يقول فى بعضها: إنى لا أرى الخلاص إلا إذا جاءنا عسكر من العساكر السلطانية العثمانية وإلا فالبلد ساقط لامحالة، ويقول أيضاً: إنه إذا جاءه الزبير باشا فى نفر من أصحابه كانت النجاة على يده أيضاً وكأنه كان يخشى اشتداد الفتنة بوصول جيش ولسلى أو كأنه قد أشفق على قومه من الوقوع فى مخالب ذلك العدو الأسود، وشاع خبر تلك الكتب بين الناس وتحذروا بها كثيراً وكلهم مجمع على سقوط الخرطوم وموت غردون وتعذر بلوغ جيش ولسلى الخرطوم فى الأجل المضروب لسرعة هبوط النيل وانحسار الماء وارتكار أكثر شوائى النقل فى متعب الشلالات حتى تعذر المسير فيها. ووصل ولسلى مع أركان حربه إلى دنقله فلاقاه مديرها وأجله إجلالاً عظيماً فألبسه ولسلى نيشاناً إنجليزياً وأراه مرسوم الخديوى إلى سائر المديرين وأهل البلاد بمعاونة الجيش والطاعة إلى مقدمه فجمع المدير إلى ديوانه سائر المأمورين والجند والأعيان والتجار وتلا عليهم المرسوم وهو :

من خديوى مصر وجميع ملحقاتها - إلى حضرات المديرين والعلماء والقضاة والتجار ومشايخ القبائل وسائر أهالى السودان رعاياه إليكم سلامنا الخصوصى وبعد، فإن الجنرال ولسلى ذاهب إلى السودان بوظيفة قائد عام للجيش الإنجليزى بمقتضى مأمورية خصوصية ذات أهمية سامية وقد صدرت له من لدنا ولدن الحكومة البريطانية التعليمات اللازمة لأجل قضاء الغرض المطلوب على أحسن حال ولذا فإننا نوصيكم جميعاً بأن تكونوا خاضعين له مطيعين لأوامره مجيبين لمطالبه كى تفوزوا برضانا ويتمكن من إتمام المأمورية المنوطة به بأقل ما تقتضى من الزمن والسلام عليكم أجمعين اهـ.

قال الراوى: فعند سماعهم هذا المكتوب سكتوا ولم يعجبهم ما فيه، ورسم ولسلى بجعل دنقله مركز حركة الحملة ونقطة مخازن المؤن والكراع، وجعل بلدة الدبة أول النقط الاستحكامية ورتب جماعة من المرابطين فى مرمى لحفظ المواصلات، وقرر القاعدة بينه وبين أركان حربه على أنهم يسرون بعد ذلك قاصدين بربر فإذا تمكنوا من فتحها زحفوا إلى شندى فإذا قابلهم المهدي بأصحابه جعلوا تلك النقطة حداً فاصلاً وإلا زحفوا إلى الخرطوم وأنقذوها، واشتدت الحركة لذلك فى دنقله وكثر توارد العسكر وانتشرت خيامهم حول البلد فلم تكن إلا أيام حتى تفشت بينهم الأمراض المعدية والحميات الخبيثة والجدرى فعظم قلق الجنرال

ولسلى وضاعت تخميناته هباء منشوراً. قال صاحب جريدة الغازيت الإنجليزية : يا الله إن المصاعب الحائلة دون تقدم جيش الجنرال ولسلى إلى السودان ظهرت أكثر جداً مما خمنها ولسلى وقد تعود المرء أنه إذا صحت له نبوءة مرة حاول التكهن أخرى، ولكن لعمرى ما كل مرة تسلم الجرة ولا كل مرة يصح التكهن، فقد قال هذا المقدم الكبير قبل مبارحة الآل والوطن: إن جيشه يجتمع فى دنقله سابع عشر شهر نوفمبر وأنه سيجلس مع غردون على خوان الطعام خامس عشرى ديسمبر من السنة فما قد مضى الأجل الأول ولم يجتمع من عساكره فى دنقله إلا العدد القليل، فإذا كانت نيته أن لا يتقدم إلى عطمور أبى حمد قبل احتشاد جمع عساكره فى دنقله فعسير عليه إذا المسير قبل أخريات يناير افتتاح سنة خمس وتسعين وثمانمائة وألف أما إذا بلغت به الجسارة مبلغها ونهض إلى الخروج مع فرقة الهجانة المسلحة على خطر معاناة الفشل فيتعذر عليه التقدم قبل منتصف شهر يناير المذكور - قال: فقل لى بحقك إذا أين هذا التاريخ وتاريخ وصوله إلى الخرطوم من الأجل الذى ضربه لياكل فيه مع غردون على خوان واحد إن فى ذلك العجب العجيب اهـ.

وشاع الخبر يومئذ بأن ولسلى سير رسله إلى الخارجى فى طلب تقرير قاعدة للصالح والكف عن القتال فلم يفلحوا فاستتج الناس من ذلك حرج موقف جيوشه وتحققوا خبر نفشى الأمراض الخبيثة فيهم وإشفاق ولسلى عليهم، وقد جاءت كتبه إلى القاهرة بتعجيل إرسال المؤن والأدواء والأكسية وسائر احتياجات العسكر فعجلوا بإرسالها فى الليل والنهار وظهرت الحركة تحت قلعة الجبل وفى بولاق الدكرور وبالغوا فى التعجيل بتسيير قطورات السكة الحديد تباعاً حتى كان بعيد ذلك ما سيتلى عليك فى محله.

وصل

فى حركة بعد أخرى

بينما كانت الخواطر فى حركة واضطراب دائمين بسبب الفتنة المهدوية وتباين الأخبار عمن هم فى الخرطوم من الجند والعسكر والأهل والمال والولد ظهرت حركة أخرى، إذ جاء الخبر من زعيم سياسة الإنجليز بمقدم عظيم من عظمائهم إلى القاهرة اسمه اللورد نورثبروك ومأموريته هى أن يفحص فيما عليه البلاد من خير أو شر وما تحتاجه دولوين الحكومة من القلب والإبدال كان الذى أتاه دوفرين رسولهم من قبل

لم يكن شيئاً مذكوراً فلم تكن إلا أيام حتى وفد الرجل ونزل ضيفاً على السير بارنج ثم جعل يجتمع برجال الدولة وأصحاب الحل والعقد وأرباب المناصب العالية فيحادثهم في أمر المكوس والضرائب وأمن البلاد ونظام عمل وعمال الدواوين وغير ذلك، ثم سار عن القاهرة فطاف الإقليمين القبلى والبحرى واجتمع بكثير من أعيان البلاد ومشايخها وكلمهم في الأمر كذلك، ثم قفل راجعاً إلى القاهرة وكان قبل مبارحته عاصمة الإنجليز قد أرسل إلى الهند في طلب قاض من قضاتها وأصحاب الشورى فيها فجاء إلى القاهرة رجل طويل القامة أسمر اللون طويل اللحية أسودها تظهر على وجهه علامات السذاجة اسمه سميع الله خان ومعه صبي في الرابعة عشرة من العمر، قالوا: والرجل صديق اللورد نورثبروك جاء به ليطلع على قانون البلاد المعمول به في محاكمها الجديدة ويعمل فكره في تنقيحه وفي التوفيق بين الشريعة المدنية والشريعة الخيفية وتوحيد المحاكم المصرية وتشريع شيء جديد يناسب روح العصر فأدهش الناس حضوره إذ البلاد بلاد علم وعلماء الشرع فيها ليسوا بقليلين فلبث سميع الله هذا بالقاهرة أياماً زار فيها سائر دواوين الحكومة ورجال الدولة وقاضى القضاة بمصر وأرباب المحاكم الأهلية فلم يظهر للناس من أمره شيء، وقد كنت يومئذ رئيساً للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية فجاءنا الأمر من الوزير نوبار باشا بلقاء الرجل فلاقيناه على الرحب والسعة وجلس يتكلم بالعربية مع غاية البطء والتكلف وعلامات الإعجاب والخيلاء بادية على وجهه فقال: أنتم تنظرون المقدمات يريد هل أنتم تنظرون في قضايا الأحوال الشخصية وكان يتكلم وهو يقلب صفحات نسخة من القانون الأهلى فقلت: إن للمقدمات التى يعنىها الأستاذ محاكم أخرى وقضاه آخرين، فقال: وكم من المقدمات عندكم اليوم: فقلت لا شيء منها عندنا وكما قلت لك هى من خصائص المحاكم الشرعية فسكت لحظة ثم قال: أنتم تحكمون بشريعة سيدنا محمد ﷺ: فقلت قد شغلنا عن الحكم بها شاغل من هذا الذى يبيدك وأشرت إلى نسخة القانون فدمدم بالهندية، وقال: أنتم تجلسون وين فأخذت بيده وأريته قاعة الجلسة وسائر غرف المحكمة فكان ينظر إليها وهو باهت جامد، ثم رحل عنا إلى القاهرة، قيل: واجتمع بشيخ الأزهر وبعض كبار العلماء وحادثهم في شيء من شريعة بلاده وما هو عليه القضاء فى مدن وقرى الهند الإنجليزية، قالوا: وبالف كشيروا فى مدح الأمة الإنجليزية وفى رجال دولتها، ثم رحل عن القاهرة إلى عاصمة الإنجليز وغاب عنا كما غابت عن الناس

نتائج مأموريته، وكان قد حضر قبل سميع الله هذا آخر من الإنجليز اسمه كليفور دليود وهذا قد كانت مهمته تغيير نظمات الحكومة واستبدال عاداتها المعمول بها من القدم بأخرى تناسب روح العصر الجديد وتنطبق على المألوف من عادات البلاد والشرعية الإنجليزية وتنفيذ ما أسسه اللورد دوفرين من اللوائح وقته من القوانين، فكان الرجل من شر الرجال متسرعاً مخاطراً فخوراً مختلاً مستخفاً بعظائم الأمور صلفاً عنيداً مكابراً فعات وعبث وجعل يغير من شرائع البلاد ويقلب من عاداتها ويسن البدع ويبعد السنن السيئة ويكاتب مشايخ البلاد والقري ويزين لهم الخروج عن حدودهم التي ألفوها وينظر إلى سائر المأمورين وأصحاب الوظائف العالية يعين السخط والقلبي ويمدّ يده إلى كل عمل ويقع على المديرين والمأمورين باللائمة والتفريع لأقل سبب واتخذ له مقراً بديوان الداخلية وصار يسمى نفسه في كل يوم باسم جديد فتارة يقول: مأمور الإصلاح، وأخرى يقول: مستشار الإصلاح وأنه مدير النظام، وأخرى منشئ التحسينات المستحدثة وغير ذلك من الأسماء والعنوانات المتشابهة وهو كالههر الذي عثر عليه الأعرابي وقد سماه له الناس بأسماء كثيرة فأكبر ثمنه فلما وجده على غير ذلك ضرب به الأرض، وقال : لا بارك الله فيك ما أكثر أسماءك وأقل ثمنك، وظل كليفور دليود هذا على ما وصفنا من التحرش بسائر أمور الحكومة مع بسط يده على كل شيء حتى ضج الناس وعجبوا وصاح المأمورون والحكام صيحة الضجر والملل، وقد أعيا الوزير نوبار باشا أمره وعجز عن رده وإيقافه عند حده، فأرسل كتبه إلى زعيم السياسة الإنجليزية يشكو من فعال الرجل ويحذر أصحاب الحل والعقد في دار السلطنة الإنجليزية من شر العاقبة ويلقى كل تبعة على الرجل، فجاء الأمر بخلعه فأنخلع وسار إلى بلاده متنكراً. وقد ترك من آثاره إبطال دواوين أصحاب الشحنة وتقليل اختصاصات بعض الدواوين الأخرى وتقليل سلطة أعضاء مجلس شورى البلاد وعدم تقييد الهيئة الحاكمة بأرائهم والاستغناء عن العدد العديد من أصحاب الوظائف وقفل أبواب الرزق في وجوه المرتزقة من أبناء البلاد.

وقدم إلى القاهرة في هذه الفترة شارب سايد عامل الإنجليز على شرق السودان وسواحل البحر الأحمر يسأل الوزير نوبار باشا والسير بارنج استبقاء شرقى السودانى وعدم تركه لأصحاب الثورة قال : حتى يتمكن جيش الجنرال ولسلى من الغلبة على أصحاب المهدي، واستخلاص الخرطوم ومن فيها وكان قد جاءه الأمر بالتخلي عن

بعضها لدعاة المهدي وبعضها إلى نجاشى الحبشة بما فيها من متاع وكراع فلم ير بدا من الشخصوس إلى مصر ومكاملة الوزير فى ذلك إشفاقا، فعقد الوزير مجلسه فى دار السير بارنج وحضره عبدالقادر باشا ومصطفى فهمى باشا والجنرال استيفنسون قائد الجيوش الإنجليزية بديار مصر والمستشار المالى وشارم سايد وتكلموا فى الأمر طويلا وحرروا بما وقع عليه الاتفاق محضرا وأرسلوه إلى دار السلطنة الإنجليزية وانفض مجلسهم يومئذ على ذلك، وأرسل الوزير فى ذلك اليوم أيضا إلى الجنرال ولسلى قائد الحملة يسأله عما يكون قد أخبره به جواسيسه من أبناء الخرطوم ومن فيها فلم يحصل إلا على بعض كلمات كلها أحاجى ومعميات لا تشفى غليلا، على حين أن الأخبار متردفة على بعض ذوى المقامات بالقاهرة ومصر بوقوع النفور والوحشة بين الجنرال ولسلى ومدير دنقلة وإعراض ولسلى عن المدير إعراضا تاما، قالوا: وذلك لا متناع المدير من المسيرة بمن عنده من عساكره فى طليعة الحملة إلى بربر وتكلم أصحاب صحف الأخبار بعزم ولسلى على تحويل سير الحملة من طريق النيل إلى سواكن وكادت تتحقق الإشاعة بعبور بعض سفن النقل والشوانى الكبار ترعة السويس إلى سواكن، وثبت الخبر القائل بأن دعاة المهدي ومن التف حولهم قد تحصنوا بمعبر بربر وإن ثلاثهم نازلة فى جهات مروى أو ما يتقدمها، وإنه لما علم ولسلى بذلك أخذ الحيلة ورسم بعدم تجاوز عسكره الدبة فتربصوا بها وهم على قدم الأهبة والاستعداد لصد العدو عنهم وأرسل كتشنر بعض الجواسيس من الدبة إلى الخرطوم عساهم يأتون ببعض الشئ من أنبائها فلم يتسكنوا من ذلك، وجاء الأمر إلى شارم سايد عامل شرقى السودان بالشخوس إلى سواكن وإجلاء الحامية الباقية هناك وترك البلاد كافة لمن يطلبها من الحبشان وأصحاب عثمان دقنه فسار على عجل وانقطعت أخباره أياما ليست قليلة .

(مطلب)

وتوالت الطلبات على الخزينة لكثرة النفقة

وتوالت الطلبات على الخزينة وكثرت النفقة فتعذر على أصحاب الحل والعقد رفق هذا يتأهبون للقتال فلم يكن بأسرع من أن أطلق عليهم العدو نارا حامية وأرسل الرمى واشتد فى ذلك شدة بالغة فقتلت نيرانه جماعة كثيرة من الإنجليز وجرحت قائدهم الكولونيل استيورت جراحا بليغة فاستلم قيادة الجيش آخر اسمه

الجنرال ولسن فأودع الجرحى والمؤن وآلات الحرب فى الزريبة وسار بمن بقى من الجيش يجتاز تلالا من الرمال على شاطئ النيل، كان المقاتلون من أصحاب المهدي مترسين خلفها ومعهم طائفة كبيرة من الفرسان فتراجع المهديون حينئذ وتبعهم ولسن بجنوده، فلما كان ثانى يوم علم ولسن بأن البلد حصينة منيعة لا ترام وأن بها زهاء الألفين من الحامية بينهم ألف من العساكر المنظمة يرأسهم الأمير نور أنقره وعندهم ثلاثة مدافع وكثير من المؤن والذخيرة. قباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جاءهم الفرج حيث رأوا أربع سفن حربية من سفن غردون وعليها بعض المقاتلة مقبلة ففرحوا بمقدمها فرحا لا يوصف، فلما دنت من الشاطئ نزل منها خشم الموس باشا ومن معه من العساكر وانضموا إلى جيش ولسن ولبثوا يومهم فى تأهب واستعداد وأصبحوا وقد سير ولسن ثلاثا من تلك السفن لا ستكشاف ما فى شندى فعادوا وأخبروا بأن حامية البلد قليلة وليس عندها من الأسلحة وآلات الحرب سوى مدفع واحد فعدل ولسن عن مقاتلتهم وأنزل جماعة من عسكره بثلاث سفن من تلك السفن وترفع بهم يريد اللحاق بالخرطوم وترك بقية عسكره فى كابوت بعد أن حصن البلد تحصينا منيعا حتى صارت لا ترام، وجاء الخبر بذلك إلى القاهرة ففرح به جماعة الإنجليز فرحا عظيما وقالوا: ها قد أصبح الجيش الإنجليزى على أبواب الخرطوم وغدا غردون فى مأمن من ذلك العدو فلم يبق على أولئك الأبطال البواسل إلا اقتسام الأسلاب والغنائم ويسط السلطة الإنجليزية على تلك القارة السوداء من أقصاها إلى أقصاها، كل هذا والعارفون بحقيقة ما أصاب غردون يسخرون ويقولون سبحان من يحيى العظام وهى رميم.

وجعل جيش ولسن يخرب القرى المجاورة لكابوت ويدكها دكا حتى لم يبق بها حجرا على حجر وقد تركها أهلها ونزحوا إلى الجبال مستصرخين الأهالى للأخذ بالثأر، وكان إلى هذا الحين لم يعلم ماذا جرى على جيش آرل الذى سيره ولسلى عن طريق أبى حمد فخاف أصحاب الحل والعقد من الإنجليز الذين بالقاهرة أن يكون قد لحق به العطب فاستصرخوا نقلة أخبارهم، فجاء الخبر بوصوله إلى برتى الواقعة شمال أبى حمد وأنه لم يلق فى طريقه إلا شراذم قليلة من أصحاب المهدي فبدد شملهم وأوقع بهم، ولكنه عجز عن أخذ بربر ولن يتأتى له أخذها إلا إذا ساعده جيش ولسن الضارب عند المئمة وهذا عسير عليه الانضمام إلى جيش آرل إلا إذا تم له فتح المئمة وشندى وتبديد شمل من بهما من المقاتلة، وترفع ولسن بسفنه

ومعه الجنرال شارلس الذى كان ريان السفينة الحربية الكسندرا يوم ضرب حصون الإسكندرية وآخر اسمه الكولونيل ورتلى وخمسة من ضباط العسكر ومائة من عساكر البحر، فلما صارت سفنه على مقربة من حصون أم درمان لم تشعر إلا وقد علتها نيران مدافع العدو من كل صوب وتراسلت عليها القنابل من طوابى الخرطوم وطوابى عسكر المهدي واشتدوا عليها جميعا بالرمى، فتأمل آراى ومن معه حيثئذ فرأوا أن الخرطوم وريعتها قد تهدمت وأن منازل الحكومة قد تلاشت فلم يبق منها حجر على حجر فأسرعوا بالسفن فلم يتمكنوا من ذلك وقد أصابت قنابل العدو اثنتين من السفن فأغرقتها بما كان فيهما ونجا ولسن ومن معه وطلعوا إلى إحدى الجزر الواقعة أمام البلد وتمكنت الدقة الثالثة وكان عليها الكولونيل ورتلى من النجاة فانحدرت مسرعة إلى حيث مقدمة. وأخبر ورتلى بما جرى، فطيروا الخبر بذلك إلى ولسلى مقدم الجيش فأخذ فى الحال يأمر صاحب سياستهم على لسان البرق من دنقله إلى لندن عاصمة السلطنة الإنجليزية واختلط على ولسلى يومئذ الحال وفسدت تدابيرهم وانعكست آماله وقام أصحاب صحف أخبارهم وقعدوا وعلت ضوضاؤهم واشتدت جلبتهم وكلهم مجمعون على فساد سياستهم وسوء تدبيره فى إرسال جيش ولسلى وجعلوا يتكهنون بما أصاب غردون بالضعف من أهل البلد من النساء والأولاد حتى قال بعضهم: إن حامية الخرطوم صادقة فى الخدمة أمينة إذ كان غردون يقول لهم كل قليل من الأيام أنه إنما قدم لهم من قبل الخديوى وأمير المؤمنين السلطان عبد الحميد فكانت واقفة من صدق الرواية على الطاعة وحسن الولاء، فلما رأت العين قدوم العساكر الإنجليزية بأكسيتهم وقبعاتهم المحدثبة والمقعرة كذبت الرواية ومالت عن غردون وأبغضته ففتحت للعدو البلد فوجها وأعمل فيمن بها السيف ولربما أصاب غردون ما أصاب آحاد الناس وحدثنى فى هذا الحين رجل ممن فرّ ناجيا من الخرطوم، قال: كانت جميع القبائل حول الخرطوم إلى ما قبل سقوط البلد مخلصّة فى طاعة الحكومة الخديوية غير هيابة ولا مصدقة لدعواه ولا هى حاسبة له حسابا حتى تبدلت أحوال غردون واختلط عليه وساءت أعماله حيث أمر بتخريب المقام الخوجلى الواقع على قيد غلوة من الخرطوم خدام المقام وخليفته فنفرت عند ذلك جميع تلك القبائل أى نفور وأخذوا من ذلك اليوم يضيقون على البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول حتى اشتد الجوع بمن فيها من الناس فأكلوا الصمغ والجمار أياما حتى سقطت البلد وقتل غردون ذبحا ومثلوا بجثته تمثيلا شنيعا أ.هـ.

وأرسل ولسلى سفينة لتأتى بالجنرال ولسن ومن معه عن تركوا بالجزيرة بعد غرق السفيتين كما تقدم الكلام فأتوا بهم بعد العناء الشديد، وقد عثروا فى طريقهم بخمسة رجال من الفارين من البلد فأتوا بهم إلى ولسلى فأخبروه بمقتل غردون وما هم عليه وكيف مثل العدو برأسه تمثيلا شنيعا فى أم درمان وأكدوا ذلك بالأدلة والایمان الغلاظ فطير ولسلى الخبر بذلك إلى صاحب سياستهم قيل: فاختلف عليه الحال واختلف مع أصحاب الحل والعقد فيما يفعلونه وفى الذى يشيرون على ولسلى بعمله وقام بينهم والقوالون ينادون يا لثارات غردون ولبت ولسلى ينتظر الجواب وقد كان إلى ذلك الحين يظن أن قبيلة الشايفية مازالت باقية على الولاء والإخلاص للحكومة الخديوية فلما، جاءه الخبر بسقوط الخرطوم آتس من هذه القبيلة الخروج ومشايعة المهدي أيضا ومظاهرته على الإنجليز فرسم إلى سائر العساكر بالتحفظ وملازمة المعامل والمستاريس حتى يأتیه المدد، ولكن العربان لم تتركهم بل هاجمهم عند آبار غدقول وأرسلوا عليهم الرمی بالبندق أیاما فلم ير ولسلى بدا من استمالتهم فسير إلیهم رسلا یقولون: إن الإنجليز إنما هم آتون من قبل ملكتهم لبث السلام فى ربوعهم وأنه خير لهم أن یخلدوا إلى السکينة والطاعة فیكونون فى مآمن على أرواحهم وأموالهم وعیالهم وهو یكفل لهم جمیعا القیام بسائر ما وعدهم به غردون، وظل على هذا الحال أیاما والأخبار ترد إلى القاهرة أشکالا وألوانا حتى شاع فى خلالها أن قد وقع الاتفاق بین زعيم السياسة الإنجليزية وزعيم السياسة الإيطالية على حضور جماعة من العساكر الإيطالية النازلین عند مصوع وما والاها لیحلوا محل العساكر الإنجليزية بالقاهرة فیرحل حیثئذ من بالقاهرة من الإنجليز إلى السودان لنجده إخوانهم وتأكدت الإشاعة أو كادت بظهور الحركة بین قلعة الجبل ومنازل الحرب ومنازل الجند بقصر النیل والعباسية وتسابقهم فى جر المدافع وإنزال الأثقال والأحمال وآلات الحرب من مخازن قلعة الجبل وذهاب طائفة من العسكر إلى مدينة السویس بخیلهم ومدافعهم ونزولهم بخيامهم فى ظاهر البلد أیاما.

(مطلب)

تحرك نجاشی الحبشة للحرب

وزاد الأمر تخوفا وخبالا تحرك نجاشی الحبشة وتأهب عسكره لتذمره من فعال الإنجليز وخرقهم للعهد الذى عاهدوه علیه من ترك مینا مصوع وبوغس حرة له

ومفتاحا لا ملاكه لا يحتلها أحد غير عساكره ورجال دولته، فإنه لما علم بتوارد العساكر الإيطالية ونزولها حول مصوع أكبر الأمر وأعظمه وراسل المهدي ومناه بالمساعدة على قتال الإنجليز وأرسل كذلك إلى عثمان دقته واستفزه إلى قتال الإيطاليين وجاءت صحف أخبار الإنجليز وهي ملأى بالحض على إرسال المدد إلى سواكن والا اختلط على من بها الحال وتعذر الخلاص، وكانت عيون عثمان دقته وأرصاده على أشد ما يكون من اليقظة والانتباه، فلما شاع خبر قدوم المدد من الإنجليز إلى سواكن أخبروا به عثمان دقته فزحف عثمان بمن معه من المقاتلة وخيم في طمانيب فأنضم إليه أكثر القبائل الضاربة في شرقي السودان وشايعة أهالي اكجيج وغيرها واجتمعت لديه قوة عظيمة مدججة بالسلاح وكلهم متحفزون للوثبة على القادمين من البر والبحر، وكانت إلى هذا الحين ما برحت حملة آرل السائرة عن طريق أبي حمد على قدم المسير والعدو يتخطف ساقها ويجول على يمينها ويسارها وهي تدافع بالأمر الخفيف فلما صارت في منتصف الطريق بين مروى وأبي حمد بأن العدو أمامها في عدد كثير ثم اختفى فخاف آرل شر العاقبة وأرسل طليعة للمكاشفة فعادت الطليعة وأخبرت بما رأت فتحرز آرل وجمع جنوده وسار بهم حتى صار على مقربة من مواقع الثائرين وأحاط بهم من كل جانب فهبوا من مرابطهم كالأسود الضواري واشتبك القتال بين الفريقين فأظهر أصحاب المهدي بسالة وإقداما غريسين واشتدوا في الطعن والضرب شدة بالغة وأبلوا بلاء حسنا ومازالوا حتى انكشف القتال عن قتال الجنرال آرل وأربعة من مقدمي العساكر الكبار وترفع العدو إلى التلال الواقعة على شواطئ النيل وكان الذين يدبرون أصحاب المهدي في هذه الموقعة ثلاثة أمراء وهم موسى: ولد أبي حجل وعلى ولد حسين وحامد ولد على وقد ماتوا جميعا في ساحة الحرب وكان المقاتلون معهم نفرا من المناصير ونفرا من الرباطاب وجماعة من دراويش بربر ثم جعل من بقي من جيش آرل بعد لم شعثه يتابع السير إلى أبي حمد وهم على أشد ما يكون من الجهد والإعياء وقد تولى قيادتهم الجنرال براكنبوري بعد مقتل آرل.

(مطلب)

إرسال الأمير حسن إلى السودان

باسم مندوب فوق العادة

وبينما هم على هذه الحال إذ وردت كتب زعيم السياسة الإنجليزية إلى السير بارننج بالمكالمة مع الأمير حسن أخى الخديوى فى ذهابه إلى السودان من قبل السلطنة

الإنجليزية باسم مندوب مدنى فوق العادة بدلا من غردون الذى تحقق لهم خبر مقتله فصعد السير بارنج بالأمر وكلم الأمير فى ذلك فأجابه إلى ما طلب، وقال لى شروط أشرطها: فقال السير بارنج وما هى : قال: أن ترسل معى الحكمة الخديوية خمسة آلاف مقاتل من الباشيوزق وأن تكون لى الولاية العامة على السودان شرقا وجنوبا فأولى من أشياء من الحكام والمأمورين وأن يعطى لى التصرف المطلق فى سائر الأمور ولا يكون معى قط أحد من الإنجليز فلم تعجب صاحب سياسة الإنجليز هذه الاشتراطات، وأرسل يقول: إذا قبل الأمير الذهاب بلا شرط ولا قيد نال رضا حكومة جلالة الملكة فأذن الأمير وأطاع ولم يبد بعد ذلك معارضة ففرح الناس وقالوا: إن أول الغيث قطر ثم ينهمل وبارح الأمير القاهرة فى نفر من الكتاب والجاوشية على الباخرة زينة البحرين إلى أسوان ومنها إلى قرطى مركز مقدمة جيش الجنرال ولسلى فلم تكن إلا أيام من وصوله حتى ظهرت الحركة فى قرطى والدبة وغدقول ودنقله وفى سوا كن وشرق السودان ويأن عزم الإنجليز على الجلاء عن تلك الأطراف أو كاد ووردت كتب صاحب السياسة الإنجليزية بذلك إلى الوزير نوبار باشا ثم لم تمض إلا أياما على ذلك حتى أرسل إلى الوزير يقول: أن اتركوا السودان إلى صاحب المهدوية واجعلوا وادى حلفا حدا بينها وبين مصر وعجلوا فى ذلك، فاختلط حيثئذ على الوزير محمد شريف باشا وهم يتكلمون فى الأمر وقد استعصى على الناس إدراك مغزى هذه السياسة إذ كيف يرسلون بالأمس الأمير حسن مندوبا بدلا من غردون ليحافظ على ما بقى من البلاد فى طاعة الحكومة ويسترجع ما يقدر على استرجاعه مما خرج منها واليوم يطلبون تخلى الحكومة عن سائر البلاد السودانية إلى صاحب المهدوية بغير شرط ولا عهد وإجلاء من بها من العساكر، واختلف الناس فى أسباب ذلك الجلاء العاجل فمنهم من قال: إنه مترتب على عجز جيش ولسلى عن مقاومة العدو وتفشى الأمراض الخبيثة بين أفرادهم وسوء الحال الذى بات بالحسنى ودلتهم على المكان أخذوا ما وجدوه وأكلوا وشربوا ما يعشرون عليه من طعام وشراب وخرجوا آمنين مطمئنين لا خوف عليهم وإذا رأوا من أصحاب الدار دفعا كانت الداهية السدياء على البلد وجميع من فيه: فيتفرقون فى أركته ودروبه أو خارجا عنه ويصلون أهله نارا حامية ويفجشون فى القتل والتخريب وهتك الأعراض وكان الذى أكبر فيهم هذه القحة المتناهية ما التقطوه من البنادق والخرطوش مما تركه

العساكر المصرية إبان الثورة العراقية فى ميادين القتال بكفر الدوار والمسخوطة والتل الكبير، وقد كنت يومئذ رئيسا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية فرأيت من غرائب أفاعيل أولئك الطغاة أمورا لا يكاد العقل يتصورها من ذلك أنهم سطوا ليلة على بلدة العزيزية «إحدى بلاد الشرقية» وكان منسرحهم زهاء الأربعين لصا وهم مسلحون ببنادق رمنجتون التى التقطوها من ميادين الثورة فلما أحس بهم خفراء البلد قاموا فى وجههم وأطلقوا عليهم البنادق تباعا فقابلهم اللصوص بالمثل واشتبك القتال بين الفريقين وخرج أهل البلد بما عندهم من الأسلحة وقاتلوا اللصوص قتالا عنيفا من بعد العشاء الأخيرة حتى مطلع الفجر، وبينما النيران تتراسل بين الفريقين كان جماعة من اللصوص ينقبون جدران البيت حتى اتصلوا بمكان لرجل اسمه عبدالجليل أغا المورلى فدخلوه وأخذوا جميع ما وجدوه من حلى ومتاع وقتلوا صاحب البيت وابنته وخادما أسود وخرجوا بما أخذوه من وسط زحام أهل البلد وهم على أشد ما يكون من القحة والجراءة وقد أحصينا ما أطلقوه من الخرطوش فى تلك الليلة فكان زهاء السبعمئة خرطوشة واهتمت الهيئة الحاكمة بأمر أولئك الأشقياء اهتماما عظيما فرتبت لمحاكمتهم محاكم فوق العادة باسم لجان تحقيق الجنايات وخوكت لها شيئا فوق الحقوق القانونية فجعلت من يومها تقبض على كل ذى شبهة وكل شقى وتودعه الحبس ثم تتحقق من جنايته وتحكم عليه بالعقوبات الشديدة بين قتل وأشغال شاقة ومؤبدة وسجن مؤبد وغير ذلك من صارم العقوبات فامتلات الحبوس بعدد أولئك الأشقياء فى الأقاليم البحرية والقبلية ورسم الخديوى أيضا بجمع ما تركه أصحاب الثورة العراقية فى ميادين القتال من البنادق وأدوات الحرب وبكس دور أهالى كافة القرى والبلاد وإخراج ما بها من ذلك ومعاقبة من يوجد عنده شئ منها بأشد العقوبات فأحصينا ما جمعه يومئذ من قرى الدقهلية والشرقية وبعض البلدان الأخرى فكان زهاء عشرة آلاف بندقية ومائة ألف من الخرطوش فخاف عند ذلك الأشقياء وانكمشوا وبطل سطو العصابات واطمأنت قلوب الناس قليلا وأمنت الطرق ويات أصحاب الزرع فى مزارعهم بعد أن كانوا لا يلتفتون إليها إذا قربت الشمس إلى الغروب، وسارت تلك اللجان فى عملها سيرا حثيثا فلم تخل من الانتقاد والتعيب ولم تنتزه أحكامها عن الخطأ بأخذ البرئ بذنب المجرم وظلت على هذه الحال عامين وبضعة أشهر حتى أمر الخديوى بحلها فأنحلت وعاد النظر فى الجرائم كلها إلى المحاكم الأهلية كما كانت عليه من قبل والحكم لله وحده من قبل ومن بعد.

وصل

(فى آمال وفرض احتمال)

إلى هذا الحين كانت قد تبدلت وزارة غلادستون شيخ الأحرار وزعيم السياسة الإنجليزية الذى فعل بالسودان ما فعل بوزارة المحافظين القائم على رأسها اللورد سلسبورى وأصبح هذا اللورد زعيم السياسة والقباض على دفة الرئاسة فلما علم المصريون بهذا التغير ترامت ظنونهم إلى أبعد المرامى وتعلقت آمالهم بأعصى الموامى وجعلوا يفرضون الاحتمالات ويتساءلون فيما بينهم عما عسى أن يكون من سياسة ذلك الزعيم فلم تكن إلا أيام حتى وردت كتبه على قائد جيوشهم بمصر بلزوم التخلّى عن سائر بلاد السودان وتركها شرقا وجنوبا إلى خليفة الخارجى وغيره ممن يشاء احتلالها وعدم الخروج عما رسم به الوزير غلادستون، فلما كان السابع من رمضان من السنة أى سنة ثلاث وثلاثمائة وألف هجرية اجتمع الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والمشير مختار باشا مبعوث السلطان والسير ولف مبعوث الإنجليز والسير بارنج والجنرال استيفنسون قائد الجيوش الإنجليزية بمصر وكبار العساكر المصرية والكولونيل كروف أحد مقدمى العساكر الإنجليزية وبعض كبار عساكرهم أيضا، فلما انتظم عقد اجتماعهم أبرز الجنرال استيفنسون ورقة وقرأ ما فيها علنا وإذا هى مرسوم زعيم سياستهم الذى كانت ترجى رحمته بأهل السودان يقول فيه: إن حكومة جلالة ملكة الإنجليز تطلب من أصحاب الحل بديار مصر - أولا: إخلاء وادى حلفا التى تبقى مستقرا لطائفة من العساكر المصرية فقط رباطا - ثانيا: استرجاع سائر الجيوش الإنجليزية من أسوان وتحديد مواضع استقرارهم فى مدينتى أسيوط والقاهرة - ثالثا: إمداد القبائل المصافية بما يحتاجونه من المال والذخيرة ليتيسر لهم مقاتلة العدو فى وادى حلفا أ.هـ

فما أتم الجنرال قراءة ذلك حتى أخذ العجب من جماعة المصريين مأخذه وعرتهم الدهشة وسكتوا لحظة ثم جعلوا يناقشون جماعة الإنجليز ويراجعونهم فى الأمر فاشتد الأخذ والرد بين الفريقين واختلفوا وذهب كل إلى مذهب فقام حيثد الوزير نوبار باشا وقرأ على مسمعهم نبأ ورد إليه من يوسف شهدى باشا الذى كانوا بعثوا به إلى وادى حلفا بعد رجوع الأمير حسن ليسهل الجلاء على النازحين من تلك الأطراف ويكلم دعاة المهدي فى أمر الصلح والتعاهد معهم على الهدو

والسكون يقول فيه: إنه قد وصل إلى وادى حلفا خلق كثير من الموظفين المصريين القدماء فى الخرطوم وأخبروا بأن الفوضى ضاربة فى تلك البلد بين الأهالى والأمراء والرؤساء وأن الشقاق مستحكم بين عبد الله التعايشى خليفة المهدي وأبى الخير أمير بربر وأن القبائل تتأهب للقتال وأن لا صحة لخبر تحفز العصاة للوثوب على التخوم فما أتم الوزير مقالته حتى وقع الهرج بينهم وعلت الضوضاء وكبرت حجة المصريين واشتد ظهر الوزير بهم فتكلم فى الأمر طويلا ولكنه رأى من جماعة الإنجليز غلظة فى الرد وجفاء فى القول واشتد السير ولف فى الكلام مع المشير مختار باشا ثم انفض اجتماعهم على غير طائل وهم الكولونيل كروف بالرحيل لتبليغ خبر ما جرى إلى صاحب سياستهم، وأعقب ذلك ورود الخبر من يوسف شهدى باشا بعجزه عن العمل وبعدم إمكان استتباب الأمن على التخوم إلا إذا استرجعت دنقله وأخذت من دعاة المهدي، وقد هوّن على أولى الأمر بلوغ الغاية بنفر من العساكر المصرية وبشئ قليل من النفقة فلم يقو المشير مختار باشا على إقناع السير ولف بذلك ولم يتمكن الوزير نوبار من استمالة السير بارنج إلى رأيه، ورحل السير بارنج عن مصر إلى دار السلطنة الإنجليزية فلحق به الوزير ولم يلقيا عصا الترحال حتى جاء الخبر بنجاح الوزير فى استرجاع الصلات التجارية بين مصر والسودان والتصريح للقوافل بالخروج إلى الدروب ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وتأهب أصحاب التجارة لذلك وبعثوا البعوث إلى أسبوط وحلفا وأسوان ليمهدوا لهم الطرق ويتفقوا مع المكارية وأصحاب الأبل وراجت أصناف التجارة السودانية أو كادت رغما عن الأخبار المتواترة بوقوف الدراويش والدعاة فى جميع الدروب والمسالك وشنهم الغارة على الحدود، وكان الناس يقولون كما أقول إن إعادة هذه الصلات ينجم عنها فائدتين عظيمتين أولهما: تدانى الخطاطر فى السودان من جانب الصلح والسلام. والثانية: نهوض التجارة من حضيض الكساد إلى أوج الرواج، وكان المشير مختار باشا مندوب الباب العالى يذهب أيضا إلى هذا المذهب ويكثر من إرسال الكتب إلى الباب العالى والمابين الهمايونى فى ذلك، ويقول: إنها مفتاح مغالق السلام والطمأنينة وخلود العدو إلى السكينة وظل الحال هكذا أياما حتى جاء الخبر ثانية بعدم نجاح الوزير فى رسالته وامتناع زعيم السياسة الإنجليزية من استرجاع دنقله ومن إعادة الصلات التجارية بين مصر والسودان فعاد الوزير وعاد كذلك السير بارنج وكتب يوسف شهدى متتابعة إلى الحديوى والوزير نوبار باشا بالحض على فتح دنقله وانتهاز هذه الفرصة التى

أنشأ فيها الجوع أظافره بأصحاب الفتنة من أدنى السودان إلى أقصاه وكبار عسكر الإنجليز بأسوان يشكون من فعل الأمراض الخبيثة بعساكرهم وامتلاء بيوت المرضى منهم فترفع الجنرال استيفنسون قائد الجيوش الإنجليزية إلى وادى حلفا وأقام بها رباطا من الإنجليز والمصريين ورتب العيون والجواسيس من الجند تخلصا من تغير الجواسيس من أهل البلد وأقام كذلك بأسوان رباطا ورسم بتبعيد الروم بائعى الخمر والمسكرات فأقصوهم إلى أسوان رحمة بالعساكر الإنجليزية الذين ضاقت بهم بيوت المرضى بسبب إدمانهم على السكر وأراقوا خمورهم فى النيل وفى الطرقات فضجوا وعجوا وانحدروا إلى القاهرة صفر اليدين وجعلوا يرجفون ويشيعون الأخبار المقلقة عن الجنود الإنجليزية والناس لا ينكرون عليهم شيئا مما يقولون لما تولد فى صدورهم من البغض لسائر المحتلين على اختلاف طبقاتهم.

(مطلب)

والى هذا الحين لم تقف رضى المخابرات مع الباب العالى

والى هذا الحين لم تكن لتقف رضى المخابرات بين الباب العالى وصاحب سياسة الإنجليز ولم تنكف الرسل عن التردد بين الفريقين وهم بين أخذ وردّ وكتب الغازى مختار باشا تترادف على المايين الهمايونى وكلها ملأى بأوجه الإصلاح وأسباب الخير للبلاد فكان صاحب السياسة الإنجليزية يطاول فى ذلك ويحاول وفى كلامه شئ من الجفاء والغلظة، وكان إذ جاءت جواسيس الحدود بخبر تجوّل نفر من السود عند التخوم فى طلب الماء أو الكلا لماشيته طير الإنجليز الخبر إلى الآفاق بأن قد قامت الحرب واتسع ميدان القتال بين دعاة المهدي والجند المراتبين هناك فيصيح حينئذ أصحاب صحف أخبارهم وأخبار المدد المدد، وإذا تخاصم هناك اثنان من سائقي الإبل على ركوة من الماء أو شئ من التمر قالوا: هما من أمراء الدراويش وقد أتيا يسترقان السمع ويستكشفان مرابط الجند فيصيح حينئذ أصحاب صحف أخبارهم وأخبار النجدة النجدة فإذا أغضى الباب العالى وخفض المايين الجناح أو أظهر شيئا من المجاملة انكفوا، وقالوا: إن الحدود آمنة مطمئنة لا خوف عليها من زعانف السود فكانت الدول كافة تنظر مع الباب العالى إلى هذه المغامرة نظرة الحائر فلاهم يجسرون على نبذها وإيقاف ترهاتها عند حدّ ولاهم قادرون على إكراه هذا الأسد الرابض على الجلاء عن البلاد وتركها لأهلها وغاية ما فعله كل من زعيم

السياسة الروسية، وزعيم سياسة الفرنسيين أنهما كتاب إلى زعيم سياسة الإنجليز يقولان: إنهما لا يعترفان بصحة أى اتفاق يحصل رأسا بين الباب العالي ودولة الإنجليز فكان من وراءه ذلك أن وقفت ربحي المخابرات بين الباب العالي وسفير الإنجليز بدار السلطنة العثمانية وبارح ولف رسولهم القاهرة وانكشف شيء مما خفى من تلك المخابرات وهو اعتراف السلطنة الإنجليزية بسيادة السلطان عبد الحميد خان على ديار مصر وتكفل جماعة الإنجليز بتأييد الراحة والطمأنينة فى داخلية البلاد ودفع كل عدو خارجى بحيث إن خزينة البلاد هى التى تقوم بالنفقة على ذلك فى كل عام، ثم جلاء الجيوش الإنجليزية عندما يصبح الجلاء بامتناع الأسباب الحائلة دونه فإذا تم الجلاء لزم زيادة عدد العساكر المصرية ووجبت زيادة القواد بينهم من الإنجليز ويصح أن يستخدم معهم نفر من الضباط العثمانيين فإذا مضت ثلاثة شهور ولم تقم حرب على التخوم لزم جلاء العساكر الإنجليزية عنها إلى أسوان ووادى حلفا وحلت محلهم العساكر المصرية ورحلت حامية القاهرة الإنجليزية إلى مدينة الإسكندرية بحيث يبقى لجماعة الإنجليز أرجحية الرأى والإدارة فى سائر المسائل المتعلقة بالخرزينة والأشغال العمومية قالوا: أما وزارة الداخلية ووزارة الحفانية فتبقيان مصريتين مطلقا مع الاعتراف بسيادة السلطنة الإنجليزية الأدبية على مصر اعترافا لا يقبل اللبس والإبهام، فلما شاع خبر ذلك قام له أصحاب الصحف المحلية وقعدوا واستصرخوا رجال المابين الهمايونى وقالوا عليكم بالتأنى فى تدبير حل هذا المشكل وإياكم والعجلة فإن الخطب جلل وخلوا برأى صاحبي سياسة الروس والفرنسيين حتى لا يكون فى عملكم ما يوجب الندم أو يدفع إلى زلة القدم، قالوا: وأنتم يا أهل البلاد « ينادون المصريين » عليكم بملازمة الهدوء والسكينة وخفض جناح الطاعة لأولى الأمر عسى أن تعترف جماعة الإنجليز بذلك ولا تنكره فينجلون عن البلاد أو يعينون ساعة الجلاء.

(مطلب)

العزم على إنقاذ أمين باشا من خط الاستواء

فلم تكن إلا أياما بعيد هذه الصيحة من أت كتب زعيم السياسة الإنجليزية إلى الوزير بعزمه على إرسال حملة خصوصية إلى خط الاستواء بقيادة الرحالة استانلى لإنقاذ أمين باشا مدير خط الاستواء على عهد غردون وإنقاذ من معه من العساكر

والمرابطين فى تلك الأطراف فلم يعجب الوزير هذا الخبر وأكبره لما فيه من المغامز والمقاصد الخفية، قلت: وأمين باشا هذا رجل ألمانى الأصل كان طبيبا مع غردون على عهد الخديوى إسماعيل فولاه غردون يومئذ الوظائف العالية حينما ثم استعمله على عمالة خط الاستواء فبدل اسمه من الألمانية إلى العربية وديانته من النصرانية إلى الإسلامية وسار فى تلك الأرجاء سيرة الملوك والسلاطين. وتقرب من مشايخ وزعماء القبائل وتمكن من المنصب أى تمكن فلما قامت الفتنة المهدوية وخرجت سائر الأصقاع السودانية من قبضة الحكومة المصرية بقى أمين باشا هذا متربعا فى دست منصبه لا يزاحمه مزاحم ولا يحاربه متاخم فتاقت نفسه حينئذ إلى الاستقلال بملك تلك الأطراف واستمال إليه زعماءها وتحبب لعظماؤها وأدخر المؤن وأعد المعدات ليوم الكريهة - وعلم أصحاب الشركة الأفريقية الإنجليزية. يخبر ما عنده من العاج وريش النعام وتحقق أهل الحل والعقد فى السلطنة الإنجليزية مما هو عليه من عزة السلطان ونفوذ الكلمة وأيقنوا أنه سيكون عقبة كؤودا فى طريق ملك مملكتهم الجديدة التى ينوون بسط يدهم عليها حتى يدخل فى حوزتهم السودان من أدناه إلى أقصاه وتتبع ذلك الأقطار المصرية إلى الإسكندرية فأوعزوا هم وأصحاب تلك الشركة إلى صحف أخبارهم فأقاموا حينئذ صيحة الأسف وضجوا ضجيج التوجع على مصاب أمين باشا وجعلوا ينادون وا غوثاه أغيثوا يا أهل المروءة سجين خط الاستواء ارحموا يا أهل الرحمة والحنان من معه من الرجال والأطفال والنساء وأمين باشا فى إبان هذه ضجة قرير العين جذل بما أتاحته له الأيام من السكينة والاطمئنان وكان فى حوزته تسعة مواقع حصينة قائمة على شاطئ النيل ومعه من الجنود نيف وألفا مقاتل مدججين بالسلاح وعشرة من المصريين بوظيفة مقدمى العساكر وخمسة عشر من السود ومعه عشرون من الأقباط أصحاب الوظائف الديوانية وكثير من النساء والأطفال والخدم والأتباع وكلهم فى صحة وعافية وظل أصحاب تلك الصحف على هذه الحال من النداء والاستغاثة أياما حتى صدق الناس أو كادوا يصدقون أن خلاص أمين باشا والإتيان به من تلك المجاهل البعيدة عمل من أجل الأعمال المشكورة التى تفردت بها أمة الإنجليز، ولم تمض بعيد ذلك إلا أيام حتى جاء الطلب من صاحب سياستهم إلى الوزير بتقدير النفقة لإرسال حملة لإنقاذ أمين باشا هذا ومن معه والإتيان بهم إلى القاهرة فراجع الوزير السير بارنج فى ذلك فلم يفلح واشتد السير بارنج فى الطلب فقرّر على التخزينه القيام بنفقة الحملة وقدرها اثنا عشر ألف ذهباً

وسار استانلى رسولهم لإنقاذ أمين باشا بحملته عن طريق الزنجبار فلقى فى طريقه بعض المقاومة من جماعات السود مما عاقه عن السير أياما ومازال حتى بلغ خط الاستواء والتقى بأمين باشا ولبثا يتجادلان أياما إذ لم يكن أمين باشا ليرضى بترك مقره ولا التسليم فى سلطانه فجعل استانلى يهدده تارة ويمنيه بالأمانى الكثيرة أخرى حتى تمكن من إحضاره مع بعض نسائه وأولاده ونفر من المصريين إلى الزنجبار فلقيه قنصل الألمان وتحادثا فيما هم فيه هناك، فحجب إليه الرجوع إلى مقره والعمل تحت ظل الراية الألمانية وعدم الالتفات إلى شىء مما يقوله استانلى، قيل: ففرح أمين بذلك وتقوّت عزيمته وامتنع من الرحيل عن الزنجبار وصمم على الرجوع إلى واد لاي ووافقه على ذلك نفر ممن جاء معه من المهاجرين ووردت الأخبار بذلك إلى القاهرة وتحدث الناس بها كثيرا وكبرت الوحشة بين أمين واستانلى، قيل: وتلاكما ثم تماسكا بالأطواق وانحدر استانلى إلى السويس يريد القاهرة على غير طائل فوصلها فأولم له الخديوى وهناه رجال الدولة بسلامة العودة فلم تكن إلا أيام حتى برح الخفاء وظهر للعالمين ما خفى من سر بعثة استانلى وداعى إنقاذ أمين باشا إذ قام أصحاب صحف الألمان يرمون استانلى بالخديعة والمكر ويسمون السلطنة الإنجليزية بالخيانة والغدر، ويقولون: إنها أخلاط من أصحاب المتاجر فى ريش النعام وسن الفيل ومزيج من المرايين والسوقة ثم جعلوا يتهددونها بالحرب والقتال فى تلك القارة السوداء إن لم تقلع عن عدائها لدولة الألمان ومعاكستها فى مستعمرتها الأفريقية أو إن هى عملت عملا يكون من ورائه الإضرار بأمين باشا فردّ على ذلك أصحاب صحف الإنجليز ردّا جافيا واستطالوا على دولة الألمان بهذر الكلام وهددوا أمين باشا بالخيانة وسوء المصير إن هو عاد إلى واد لاي ليؤيد فيها السلطنة الألمانية، وقالوا: سوف يرى «يعنون أمين باشا» من الشدائد ما ليس له فى حسابان بحيث لا يستغرب عجزه عن الوصول إلى بحيرة نيانزة أو أوغانده فإن وصل فلا بد أن يرى عند وصوله إليها العلم الإنجليزى خافقا عليها لأن الشركة التى قد سirt استانلى لخلاصه ستسبقه إليها لتمد فيها التفوذ البريطانى وتمنع يد الألمان من التناول إليها مهما كلفها ذلك من النفس والنفس، وكان استانلى قد أوجعه طعن أصحاب صحف الألمان ووخزهم لفؤاده الدامى بعد خييته فى استرجاع أمين باشا فالتقى يوما بأحد مراسلى صحف الإنجليز الكبرى، فقال له: وهو يتنفس الصعداء قل لى بحقك ما الذى دفع بأصحابنا الألمان إلى كل هذه المهاترة والهراء ولقد كان من واقع أمرى

أننى خيرت أمين باشا بين خصال ثلاث ليختار إحداها: إما البقاء فى وادى لاي تابعا للسلطنة الإنجليزية يراتب سنوى قدره ألف وخمسمائة جنيه مع مساعدة مادية قدرها اثنا عشر ألف، وإما أن يرحل إلى جهة أخرى من تلك القارة ليستقل بحكمها، وأما أن ينحدر معى إلى القاهرة فهذا كل ما حصل مما لا يستلزم كل هذه الجلبة والتطاول على غير مسوغ فبلغهم عنى ما سمعت منى والله يحكم بيننا، فلما بلغت أمين باشا مقالة استأنلى هذه وأن استأنلى يتهمه أيضا بأنه لم يدعن إلى مبارحة واد لاي إلا بعد أن فرض له جعلاً على ذلك قدره اثنا عشر ألف ذهباً أكبر الأمر وأعظمه وكتب إلى صديق له من أصحاب الحل والعقد فى السلطنة الألمانية يقول: لم يبق فى وسعى وآيم الله مراعاة السكوت والكتمان فى حق من لم يكتم السر ولم يراع حقوق الذمة فلقد عرض على استأنلى رسول تلك الشركة الطامعة قبول خصلة من خصلتين: إما أن أترك منصبى فى خدمة الحكومة المصرية وأدخل فى خدمة ملك البلجيك بمستعمرة الكونغو برتبة قائد مع بسط سلطتى على واد لاي وأن أطلب لنفسى ما أريده من الراتب السنوى خلاف مبلغ الاثنى عشر ألف جنيه الذى سيتقرر كنفقة للإدارة. وأما أن أجمع له جنداً من السود ليكون هو قائدهم من جانب تلك الشركة الإنجليزية لا يقل عددهم عن أربعة آلاف ليسيروا معه» يعنى مع استأنلى» إلى الجنوب الغربى من بحيرة فيكتوريا نيانزا ويحتلوا كاخير وندو ثم يؤسسوا فيها مركزاً إذا وجدوها موافقة ويذهب استأنلى فى أثناء ذلك إلى مومباسيا ليأتينى بسفيتين نقلتين لنقلى مع طائفة من جيشى لبعثة فى نواحى أوغاندا وأونبورو حتى إذا تم لنا فتح ذلك الصعيد كانت مركزاً لنا نزحف منه رويدا رويدا إلى واد لاي مقر حكومتى القديمة ثم أجمع بين البلادين وأتولى الحكم فيها باسم الشركة الأفريقية الإنجليزية لاسم الحكومة المصرية - قال - وقد ألح على ذلك الإنجليزي «يعنى استأنلى» بوجوب الدخول فى خدمة تلك الشركة وتفضيلها على الحكومة المصرية وكان عافاه الله يخاف كثيراً من أنى أفضل البقاء فى مقر سلطانى على الرحيل معه لعلمه أنى بانفصالى عن خدمة الحكومة المصرية لا يمنعنى شىء من الرجوع إلى خدمة دولتى إذا دعيت إليها، ولذلك قد عقد نيته وعزم عزمًا ثابتاً على أنه إما أن يكرهنى على قبول خصلة من الاثنتين وإما أن أرضخ لامره وأبارح على الفور القارة الأفريقية وإلا سلبنى جميع ما عندى من ذخيرة ومؤونة وآلات حرب وتركنى وشأنى لا زاد ولا سلاح فاضطرتت إلى مرافقته كارها حزينا فظن أنه قد نال منى أربه وفاز بمغنمه وساعدته القدرة على تقليد أظافر ذلك الأسد ولكن قد خابت

آماله وفسدت أحلامه وها أنا اليوم خادم للراية الألمانية فى تلك الأرجاء والله من وراء ما يعملون .

قلت : وشاع عند وصول استانلى إلى القاهرة أنه أشار على الخديوى والوزير أن يرسلوا إلى سلطان الزنجبار فى طلب أمين باشا وأنه إذا حضر له عاقبه ومنعه من الرجوع إلى واد لاي فلم يفعلوا جميعا فى ذلك لما ناله أمين باشا من المكانة وعزة الجانب بين الألمان وتحقق الناس حينئذ أن تلك الصيحة التى بلغت عنان السماء من جانب جماعة الإنجليز لاستنهاض أهل النخوة وأصحاب المروءة إلى فك أسر أمين باشا وإنقاذ من معه ليست من الخنان فى شيء ولا هى لوجه الله تعالى، وظهر اهتمام دولة الألمان بتلك الأرجاء وبحملة أمين باشا فبالغت فى تشيعها وأكثرت لها من المعدات وآلات الحرب وأوعزت إلى أمين باشا بأن ييسط يده على بحيرات نياتزا ومات والاها مع واد لاي، وأن لا يبقى ولا يذر وسيرت إليه جماعة من مقدمى العسكر وعظيما من قومها اسمه الماجور ويسمن قد ولته الولاية العامة على ما كان وسيكون لها من المرافق والأملاك هناك، ثم صاحت على جماعة الإنجليز بلسان أصحاب صحفها الكبرى أن ارجعوا عن طمعكم وخففوا من جشعكم فى القارة السوداء واعلموا أن يومكم ليس كأمسكم فلا ارعاد سلطنتكم القديم ينفع ولا أزيادها اليوم يدفع واقصروا أيديكم من التناول الذى هو دأبكم فعيوننا وأرصادنا ترمقكم من كل صوب وحذب وعسكرنا يحول دون بلوغ سلطنتكم كل أرب لاسيما وإن كان كلمتها هناك قائمة على الإيهام والتغريز وسلطانها أفرغ من كنّ الفقير فلا عسكر لها هناك ولا كراع ولا حصون ولا قلاع فإن أحسنت العمل فلنفسها وإن أساءت فعليها والسلام، فقام لذلك جماعة الإنجليز وهموا بعمل شيء يرجون من ورائه كشف هذه الغمة فلم ينالوا مأربا واهتمت دولة الألمان من هذا الحين بتوسيع نطاق استعمارها فى قارة أفريقية بعد أن كانت تبتعد عن ذلك وتحسبه ضربا من الطمع وعمدت إلى المزيد من الفتح حصل هذا كله ورجال مصر لاهون بما عندهم من المشاغل معرضون عن الاهتمام بشئ مما وراء الحدود التى رسمها لهم صاحب السياسة الإنجليزية والناس فى دهشة مما يرون ويسمعون - وقد تفرق بعض من حضر من المهاجرين مع أمين باشا فى أزقة وحارات مصر والقاهرة يستعطون أهل البر والإحسان ويحدثون الناس بما كانوا فيه وقد طرّقوا أبواب الحكومة فى طلب ما تأخر من جماكيهم وما يستحقون من المعاش حتى وقفوا فى طريق الوزير فأهتم بأمرهم

وكشف عن بعض غمتهم وصرفوا لهم ثلث ما تأخر لهم وطالب كذلك أمين باشا الخزينة بماله من المتأخر مدة السبع سنوات التى لبثها فى أواسط أفريقيا فأجابته إلى طلبه صاغرة وأعطته ما يستحق كارهة ورتبت له معاشا شهريا يتقاضاه من الخزينة، وأشاع جماعة الإنجليز عن أمين باشا بعيد ذلك الإشاعات المختلفة والأقوال المقلقة عند قومه فيوما يقولون: إنه مريض، ويوما يقولون: إنه فقد السمع والبصر ويوما يقولون: أنه جن وآخر أنه سقط من شرفة مكانه فدق عنقه ومات، وغير ذلك من الإشاعات المتباينة حتى قدم الماجور ويسمن من الزنجيار إلى القاهرة ومعه بعض الخدم من السود والأتباع فاحتفل بمقدمه جماعة الألمان وبالغوا فى إكرامه وأدبوا له المآدب الفاخرة فوقف مرة خطيبا فى إحدى تلك المآدب وقال: أشكركم على المقابلة التى قمتم بها نحوى كلما أسعدنى الدهر بالمرور فى هذه العاصمة الزاهرة ثم إنى أخبركم بأننى قد قمت بالأمورية التى عهدا إلى امبراطور ألمانيا وأؤكد لكم بأن السلام الذى عبث به بعض الثائرين قد استتب فى جميع سواحل أفريقيا الشرقية والفضل فى ذلك للعساكر والمدافع التى استخدمتها لإخضاعهم ولكننى مع ذلك أقول: إنه يتهدد مصالح ألمانيا فى أملاكها الآن مصاعب سياسية ولذلك فقد دعانى عظمة الامبراطور «يعنى امبراطور ألمانيا» لأبين له نتيجة بعثى وأعين الرسوم الجديدة لأملاكنا فى أفريقيا خسما للنزاع الذى ربما ينشأ عن هذه المصاعب السياسية ثم إنى أومل أن أعرض على دار ندوتنا حالة دولتنا فى أملاكها فى أفريقيا وأسأل النفقة اللازمة لإقامة مملكة استعمارية ألمانية ثابتة فى تلك البلاد وأؤكد لكم أنه رغما عن المساعى التى يبذلها البعض لمنع النفوذ الألمانى فى أفريقيا فإن ألمانيا لا تتأخر البتة رغم أنوف الذين يحولون دون أعمالها المدنية.

هذا وأنى أنقل لكم سلام أمين باشا الذى لا يزال يذكر أصدقائه فى مصر وأبشركم بأنه على غاية الصحة والعافية خلافا لما تقوله الجرائد عنه من أنه مريض كفيف البصر معتوه العقل بل هو لا يزال كما عرفناه من عشر سنوات بدليل أنه بدلا من أن يعود إلى بلاده للمعالجة قد أحب أن يعاود سفره إلى أواسط إفريقيا رئيسا لحملة عظيمة ولقد أخذه العجب من الذين كانوا يدعونه بالشهير «يعنى الإنجليز» أيام كان فى خدمتهم ثم أصبحوا الآن يدعونه بالكفيف العاجز المعتوه بعد أن فارقه وعاد إلى خدمة دولتنا فسيحان مغير الأحوال أ.هـ .

وعاد استأنلى إلى عاصمة الإنجليز فأجزلت له سلطتها العطاء ولقبت به بأكبر

الألقاب عندها وأسندت إليه مسندا عاليا وهو اليوم فى مصاف أهل الرأى وأصحاب الشورى فنشط إلى استنهاض أصحاب الحل والعقد إلى الوقوف فى وجه الدولة الألمانية ومنعها من التغلغل فى جوف القارة الإفريقية ووقوفها سدا قويا فى طريق الإنجليز هناك وجعل يخطب فى الناس ويملاُ صحف أخبارهم بعبارات الحض والاستنهاض. والأتين والشكوى من تقاعد رجال السلطنة الإنجليزية عن تدارك الخطب قبل استفحالها لاسيما وقد تمكنت دولة الألمان من قلب القارة الإفريقية أوكدت فتحركت حينئذ خواطر القوم وهمّ صاحب سياستهم بإرسال عظيم منهم إلى عاصمة الألمان يرجو امبراطورها الوقوف عند حد ومنع ذلك الخصام واللدد فلبث الرجل هناك أياما حتى رسم الإمبراطور لرجل من قومه اسمه الدكتور كرانل بأن يناقش رسول الإنجليز فيما جاء فيه فأقاما على هذه الحال أياما طال فيها الأخذ والردّ بين صحف الفريقين وكثرت بينهم المهاترة والقول الهراء على ما تقدم بيانه فجعلت حينئذ أصحاب صحف الفرنسيين تسخر بهم وتهزأ بفعالهم، فما قاله إحدى تلك الصحف الفرنسية عبارة لا بأس بإيرادها هنا فإنها تشخص لقارئها واقعة الحال بأجلى مظاهر التعبير وتدلّه على نوايا السلطنة الإنجليزية فى تلك القارة من أقصاها إلى أقصاها - قالت لعمري إن من تأمل مساحة تلك القارة الواسعة على صفحات الخريطة تبين له من أول نظرة أنها كافية لاستعمار سائر الدول حتى دولة البرتغال، ولكن متى تذكر ما اتصفت به الدولة الإنجليزية من الطمع والأنانية واستعمار الدولة الألمانية واندفاعها فيه عاد به الأمر إلى عكس ماتوهم من كفايتها حتى لنسأل عن الدولتين بعد إذ حرمتها منها دولة البرتغال حتى لا ينتهى بهما الحال إلى الخصام عليها وقد رأينا أن نمثل للقارئ دورا لطيفا بين هذين الرسولين، نعنى بهما رسول دولة الإنجليز ورسول الألمان بكلام نسطره لهما بما يوافق الحال وإن لم نبلغ فيه إلى ما دار بينهما من الجدال بحرفه ولكنه يبين للقارئ بأجلى بيان نوايا الدولتين فى تلك القارة السوداء فنقول ليمثل القارئ البنية رسول الإنجليز منكبا على خريطة إفريقيا وفي يده قلم يخط به خطا من الدرجة الخمسين طولا على طول طريق يؤدي إلي أواسط إفريقيا من بوغاز السويس ثم التفت إلي صاحبه الألماني وقال: أليست هذه أرضا إنجليزية فانحنى له الألماني وتبسم فأردف الإنجليزي عبارته هذه وأتبعها بقوله: إننا إذا اتبعنا الدرجة الخمسين طولا نجد أنها تقطع النيل فى موضعين أو ثلاثة مارة به فيكون نهرا إنجليزيا إن شاء الله تعالى - فقاطعه الألماني بقوله: نعطيكم إياها إن شاء الله - فقال الإنجليزي وبذلك نصل إلى الخرطوم ولا ننكر عليكم أن غردون قد مات

ولكن لابد من الأخذ بثأره لأن استأنلى عندما عاد إلينا فى هذه المرة جعل يقول إن ترك السودان يعد جريمة لنا لا تغتفر وأن أخذها من الهنات الهينات إذ لا يلزم لافتتاحها سوى مد خط حديدى بين البحر الأحمر والنيل كما بين سواكن وبربر مثلا وهو خط لا يكون طوله أكثر من ثلاثمائة كيلو متر وذلك ليس بالشئ العسير ثم نمتد من بربر مقتفين الدرجة الخمسين طولا فنأخذ العبيد وسنار ثم نصعد فى النيل الذى هو ملكنا كما لا يخفاك حتى بلغ كوندوكورو وبذلك نضمن لتجارتنا سلامة النهر بطوله على مسافة ألف وخمسمائة كيلومتر تبتدئ من بربر ومن ثم نتصل إلى البحيرات العظمى بلا مشقة ولا عناء - فقاطعه الألمانى على رسلك يا صاح لقد وصل الدكتور بترس عالمنا الشهير إلى تلك البحيرات العظيمة أيضا وكنا نظنه ميتا قد دفن فإذا بنا نجده حيا يرزق وفى وعائه الشئ الكثير من المعاهدات والاتفاقيات التى عقدها مع ملوك وزعماء تلك الأصقاع بعد المخاطرة فى قطع جبلى كينا وكليمنجارو اللذين قد أصبحا جبلين تابعين لدولتنا بعد الآن ولم يقتصر على ذلك بل دار حول بحيرة نيانزه فيكتوريا حتى صار الآن فى أواسط أوغانده حيث يتبعه أمين باشا عما قليل ويلاقيهما الماجور ويسمن قادما من الزنجبار فإذا الدرجة الخمسون التى قد اتخذتموها لأنفسكم ملكا حلالا ليست لكم فإنها تمر فى درجة نفوذنا ولا يصح قط التسليم لكم فيها - فقال الإنجليزى: إذا أنتم تريدون أن تنازعونا فى البحيرات العظمى التى هى خزانات النيل ومنبع حياته كأنكم تجهلون أنها إنجليزية وأن مكتشفها من الإنجليز فإن كنتم تجهلون ذلك أو تتجاهلونه فانظروا إلى اسمها تجدوا فيكتوريا وكفى بهذا الاسم دليلا على أنها إنجليزية فضلا عن أن سكان تلك الجهات لا يعرفون من الأمم الأخرى سوانا وفوق ذلك فلإن الرحالة استأنلى لم يسمح لزعيم سياستا بأن يتخلى عنها وهذا الزعيم لم يسمح لى بأن أتخلى لكم عن قيد شبر قط بل ولا عن محط أصبع من تلك الأرض ثم أنتم تعلمون أن أمين باشا كان حاكم السودان وقد بسط يده عليها باسم الحكومة المصرية أى باسم السلطنة الإنجليزية كما أنكم لا تنكرون أن تلك الدرجة الخمسين إنما هى طريقنا إلى تانفانيكا أفتريدون أن نتخلى عنها ونتركها لكم - فأجابه الألمانى ما هذا يا صاح إن تانفانيكا هذه التى تقول عنها إنما هى قلب النفوذ الألمانى وفلذة كبده وأنت هداك الله لا تجهل أننا عزمنا على أن نمد مستعمراتنا من الزنجبار إلى الكونغو وتانفانيكا كما هو واضح ومعلوم واقعة فى طريقنا فهى إذا لنا ولا كلام - فهز الإنجليزى رأسه وقال هيهات

ذلك فقد أخذناها وقد عقد لنا استانلى المعاهدات القوية مع زعماء القبائل الضاربة فى شماليها وستخذها شركتنا الإنجليزية الإفريقية قاعدة لنفسها سيما وأن استانلى رجلنا عافاه الله لا يدع صاحب سياستنا يتخلى عنها قط - فقال الألمانى وصاحب سياستكم أظنه لا يدعك أنت أيضا تتخلى لنا عن شئ منها - فقال: أجل وكيف أتخلى عن شئ من ذلك فتقطعون طريقنا بين البحيرات وتانفانيكا من جهة وبين أملاكنا فى نياسا من جهة - فصاح الألمانى رويدك رويدك ماذا وكيف تقول ألا تدرى أننا ملكنا نصف نياسا وأنها إحدى طرقنا المطروقة إلى الكونغو وغيرها حتى أن البرتغاليين قد تركوها لنا إننى أراك متسرعاً متعدياً على حدود نفوذنا وهذا لا يمكن أن يكون وفيما قطرة من الدم - فقال الإنجليزي: كيف تزعمون امتلاك بحيرة نياسا ونحن الذين حمينا منازل المرسلين الأيكوسيين حوالها بل من الذى مدّ الطريق بين تانفانيكا وبينها ومهده غير جماعة المرسلين الإنجليز أما ما تدعيه دولة البرتغال من الحقوق فإنكم معشر الألمان تعرفون أننا نجعلها ولا نعترف بشئ منها ولذلك فإنها لم تقدر أن تنازل لكم عن أراض ليست لها فى الحقيقة وفضلاً عن ذلك فكيف تقدر أن تقطعوا علينا الطريق الوحيدة التى توصلنا من أملاكنا الواقعة فى خط الاستواء إلى أملاكنا الشمالية إلى بورنتال مارة فى دالوكوا التى إن لم نبسط يدنا عليها اليوم ففى غد وغد لنا ظرة قريب - فقال الألمانى: يا لله ولماذا إذا لا تقول أن الدرجة الخمسين هى كلها لكم لالسواكم - فأجابه الإنجليزي: ولكن هذا هو الحاصل وإذا أنصفتكم وعدلتكم لم يسعكم إلا جعل الحق فى جانبنا وأن تلك الدرجة هى طريقنا من مصر أرض الفراعنة إلى رأس الرجاء الصالح ثم أنتم إذا تبصرتكم فى الأمر رأيتم أننا لا نطلب إلا طريقاً بين مستعمرتين إنجليزيتين فأين يكون الشطط أو الاجحاف فى ذلك ونحن لا نطلب إلا الوصول إلى أخواننا فى طرفى القارة وذلك ويعلم الله أقل ما يكون فعند ذلك غمطى الألمانى وقال: فماذا نصنع إذا وماذا يصنع البرتغاليون والإيطاليون - فأجابه على الفور ما لنا وللبرتغاليين الآن أما جماعة الإيطاليين فقد طاب لهم المقام بمصوع فإذا أرادوا الحبشة أيضاً فليأخذوها وإن كنا قد دخلناها بجنودنا فيما مضى وصار لنا فيها بعض الحق ولكننا نتركهما لهم هبة كريم مسامح - فقال الألمانى: ونحن - فأجابه: أما أنتم فقد أعطيناكم الزنجبار بين جزيرتها وشاطئها وذلك فوق الكفاية بل قد نكون أخطأنا فى ذلك لأنه سيأتى يوم نحتاج فيه لنقل محصولات خط الاستواء إلى البحر من غير بدّ فإذا ظل أصحاب المهدي آخذين

علينا طريق النيل لم يكن لنا ندحة عن إيرادها من البحيرة إلى البحر ولا سبيل لنا غير الزنجبار ولذلك كانت هذه الجهة أولى بنا من سواها لاننا إذا أطعنا الرحالة استأنلى - فعند ذلك قاطعه الألمانى واحتد والتفت إليه محملا وقال إنى لا أرى فائدة من هذا الجدل وإنه خير أن نرفع الأمر إلى امبراطورنا لأنى على ما أرى عسير على أن أسالك شيئا بشأن تحديد النفوذ بيننا فقام الإنجليزى وانصرف مقطب الوجه وهو يقول أجل ومن قال دائرة النفوذ الإنجليزى فكأنما يقول دائرة الكرة الأرضية بتمامها أ.هـ.

وجاءت فى هذه الأيام أيضا كتب صاحب السياسة الإيطالية إلى ديوان الخديوى والوزير نوبار باشا بطلب فتح باب المخابرة بينهم بشأن السودان وتوسيع دائرة النفوذ الإيطالى فيه من حد سواحل البحر الأحمر يعنى من فرضة مصوع وما والاها إلى ضفة النيل الأزرق فأكبر الخديوى هذا الطلب وأعظمه وكلم قنصل إيطاليا فى ذلك فلم تكن إلا أيام حتى وردت كتب صاحب السياسة المذكور بأنه إنما يريد إطلاق الحرية له فى احتلال كسله والاعتراف بسيادة الايطاليان على البقعة المأهولة بقبيلة بنى عامر والممتدة إلى ناحية بركة التى قبل أهلها حماية دولة إيطاليا لهم. قال: فإن لم تتفق معنا الحكومة المصرية على ما فيه المصلحة كلنا فى ذلك زعيم سياسة الإنجليز فإن لم يوافقنا هو أيضا تصرفنا فى الأمر بحسب ما تقتضيه مصلحتنا وبسطنا سلطاننا على كل قسم من القارة الإفريقية بدخل ضمن دائرة نفوذنا، وجعلوا من هذا الحين يحاولون مباغته القبائل الصومالية المصافية للحكومة فكانوا إذا انسوا منهم إخلادا إلى السكينة ورأوا من نجاشى الحبشة تغاضيا أو من الرأس ألولا مقدم جيوش الحبشان تقاعدا عن الحركة تقدموا بعسكرهم ببطء ومدوا يدهم إلى بعض البقاع بلطف وسايروا أهل القرى وكبار القوم فيها وأجزلوا لهم العطاء وأتحفوهم بالتحف والهدايا وخابروا صاحب سياسة الإنجليز فيما هم فيه وعلقوا أملهم بالمحال فإن أحسوا من مقدم عسكر الحبشان بالحركة وزحف الجنود ورأوا الكتابات تتلو الكتابات انكمشوا وعادوا صاحب سياسة الإنجليز فى الكلام فيمنهم ويهون عليهم ويشير بالتأنى وترك العجلة فلما طال على نجاشى الحبشة الحال ورأى أنه لا هو دافع شر الإيطاليان عن تلك البلاد التى تعتبرها جزءا من سلطته بحكم الاتفاق الموقع عليه مع رسول الإنجليز «وقد مر بيانه» ولا هو تاركها للإيطاليان يضمنونها إلى مستعمرتهم الجديدة رسم إلى مقدم جيوشه بالحركة وعدم الوقوف عند حد فسار مقدم الجيوش إلى التاكا

وضرب القبائل النازلين حولها ونهب أموالهم وماشيئهم وأفحش في قتلهم ثم قفل راجعا إلى عدوه مقر كرسى النجاشى وليث بها أياما ثم سار إلى جندع الواقعة بين عائلة وأسمره على مرحلة من مصوع وعسكر بها بجيوشه وجعلها مقره ومركز حركته وأخذ يتأهب لقتال الإيطاليان وشاع الخبر بذلك فخاف الناس كثيرا وأخذوا يلجئون بعيالهم ومتاعهم إلى الجزيرة وتتابع خروجهم من البلد حتى لم يجد الرائي في طرقها سوى النوق المحملة بالأثاث والمتاع فقلق عند ذلك جماعة الإيطاليان واشتدوا في عمل الحصون والتاريس وأكثروا من وضع المدافع والمكاحل على الأبراج وسيروا إلى كتشنر باشا عامل الخديوى على سواكن فى طلب المدد فأرسل إليهم سفيتين حرييتين من سفن الحرب الإنجليزية وجاءهم كذلك بعض السفن الإيطالية وكبر خوف المرابطين من العساكر الإيطالية من اهتمام الحبشان بإقامة الحصون والتاريس بمعسكرهم فأنشأوا هم كذلك قلعة حصينة على رأس الناحية المعروفة بحريققو وسموها طابية وعاء ووضعوا عليها كثيرا من المدافع الكبار وبث الحبشان عيونهم وأرصادهم حول البلد فانقطع عنها الوارد من المأكول والمشروب ورحل من كان نازلا حولها من العربان والمرتزقة فطير الجنرال جنيه قائد العساكر الإيطالية الخبر بما جرى إلى زعيم سياستهم ثم كتب يقول له قد استحكمت النفرة بيننا وبين الرأس ألولا قائد الجيوش الحبشية فالمدد المدد فلما أبطأ المدد لم ير بدا من تسليح الموالين من أهالى حريققو بالبنادق وأعطاهم شيئا كثيرا من الذخيرة والمؤن واستحلفهم على أن يكونوا عوناً لهم على الحبشان وتصاريق الزمان فلم تكن إلا أيام حتى جاء الخبر إلى مقدم العساكر الإيطالية بحاجة المرابطين منهم فى موكوللو إلى المؤنة والذخيرة فأزعجه هذا الخبر لحراجة الموقف ويقتطع العدو فجعل يراقب الفرص حتى آتس من الحبشان بعض الخلود إلى السكون فسير قافلة صغيرة بما تيسر لديه من المؤن والذخيرة إلى موكوللو وأتبعها بطائفة من المقاتلين فلم يتم خروجهم من البلد حتى داهمهم العدو بخيله ورجله وأعمل فيهم القتل بحد السيف حتى لم يبق منهم أحد وخرج من كانوا فى موكوللو من المرابطين على وجوههم إلى مصوع لعدم قدرتهم على البقاء وتركوا رباطهم بما فيه من متاع وكراع فلم يتعرض لهم جماعة الحبشان بسوء واحتلوا مكانهم وغنموا ما فيه غنيمة باردة فأكبر قائد العساكر الإيطالية هذا الأمر وأعظمه جدا ولكنه لم يجسر على الخروج بمعسكره من البلد وسير الكتب تباعا إلى صاحب سياستهم فى طلب المدد ولكن والله ماذا ينفع هذا كله وأرض السود هوة

عميقة تبتلع الشيء الكثير من الأموال والأحمال والأثقال والعدد العديد من الرجال وتزهق دون إخضاع جبايرتها أرواح الأبطال ولقد طالما أنفق فيها الدم والمال من الممالك القديمة كما يدل على ذلك تاريخها ورأينا رأى العين ما أصاب الإنجليز والمصريين من نار هذه الأرض الغبراء حتى جاءت اليوم نوبة الإيطاليان الذين غر صاحبهم الطمع فأوقع قومه فى هذه المهلكة فلما اتصل خبر هزيمتهم هذه بزعيم سياستهم أبلغه إلى دار ندوتهم فعلم به السواد الأعظم من عامتهم وأهل الدعارة منهم فاجتمعوا حول دار الندوة ألوا وارتفعت أصواتهم وعلت ضوضاؤهم ونادوا بالويل والثبور على زعيم سياستهم واشتد بهم اللجاج والهيّاج فجاءت طائفة من عسكريهم وفرقت جمعهم ومزقت بضرب العصي شملهم بعد لكم وضرب وجاء كتاب نجاشى الحبشة إلى جنيه قائد عسكريهم بالجللاء العاجل عن مصوع وما جاورها حقنا للدماء وإلا فالسيف والنار ولا هذا العار قيل فلم يردّ عليه وقيل بل ردّ بأحسن ما يكون من عبارات التلطف والتودد.

وقد هيج ظفر الحبشان بجماعة الإيطاليان ساكنا من أصحاب المهودية النازلين حول سواكن فهبوا إلى الحركة وجعلوا يتخطفون الناس والماشية من حول البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول والمشروب فاهتم كتشنر باشا بالأمر وأكثر من تطواف العساكر حول البلد فى الليل والنهار وتقدمت بعض سفن الحرب الإنجليزية نحو البلد تأهباً للدفاع عند الحاجة وأخذ كتشنر يستميل مشايخ القبائل الذين كانوا يكرهون الانضواء إلى عثمان دقنه والطاعة إلى دعاة المهدي وخليفته فمال إليه بعضهم فأمدّهم بالأسلحة والذخيرة ودفعهم إلى قتال العدو فقاتلوه وأبلوا فى قتاله فترفع العدو إلى الجبال وانجلى عن ضواحي البلد ثم انحدر إليها بعد أيام وهكذا كانت فعالة كل قليل من الأيام، وورد على كتشنر باشا يومئذ كتاب التعايشى خليفة المهدي مفعماً بالتهديد والوعيد إن لم يخفض كتشنر جناح الطاعة ويترك العناد وقد ذكر له شيئاً كثيراً من مناقب المهدي وصحة مهاديته ثم دعا كتشنر إلى ترك النصرانية واعتناق المهودية فإنها أصبح المذاهب وأقربها إلى الله تعالى فإن لم يأت طائعا مخلصا فى العقيدة سير إليه جيشا عظيما فيستولى على سواكن وما والاها ويطرح حاميتها فى اليم حيث يكونون طاماً لأسماكه وشاع خبر هذا الكتاب بين أهل البلد فخافوا خوفا عظيماً وصاروا يتوقعون وصول جيش التعايشى كل قليل من الأيام وقد زادهم خوفا ما شاع فى ذلك الحين أيضا من تواطىء الرأس ألولا مقدم الجيوش الحبشية مع كبار

المهدويين على قتال الأجانب الطامعين فى بلادهم وقطع شأنتهم وأن النجاشى يوحنا مبال إلى ذلك وكاد يتحقق الخبر بخروج مشايخ الحباب والشاكرية والهندوى والشيخ أمين فقيرى شيخ قبيلة الارقويت الذين استمالهم كتشنر إلى طاعة الحكومة وموالاتها وامتناعهم عن مناهضة العدو رغما عما بذله لهم كتشنر من الأسلحة والأموال الطائلة والهدايا الكثيرة وكان كتشنر قد أرسل إلى السير بارنج فى طلب الشيخ الميرغنى شيخ سجادة الطريقة الميرغنية التى يتبعها أهل السودان شرقا وجنوبا ليحمل العصاة على الرجوع إلى طاعة الحكومة فجاء الشيخ إلى سواكن وجعل يبعث البعوث ويرسل الدعاة ويحض القوم على ترك الحرب والكف عن القتال فلم يفلح وقد رموه بالمروق عن الدين القويم واتهموه بالنصرانية وبيع الآجلة بالعاجلة فلاهم لذلك يعرفونه ولا هم يعتقدون مشيخته فكبر الأمر على الشيخ وسار إلى بلد اجيج وأقام بها أياما لعله ينال من القوم مأريا فلم ينل ولم تجسر بعوثه ودعاته على لقاء أحد من كبار المهدويين فكانت أخبار تلك الأطراف كل يوم فى شأن إن سرت يوما أحزنت أياما .

وعاد الوزير نوبار باشا إلى رأى القائل بأن إعادة العلائق التجارية مع السودان لابد أن يكون من ورائها تفرق العصاة فى البلاد طلبا للرزق وعدم اجتماعهم فى صعيد واحد للتألب على قتال الحكومة فكتب ثانية إلى زعيم سياسة الإنجليز فى ذلك ولبث ينتظر الجواب أياما حتى جاءه بالقبول ففرح الناس بذلك فرحا عظيما واستبشروا بحسن المآب وقالوا أول الغيث قطرة ثم ينهمل وقد كانوا لا يتوقعون بلوغ هذه الأمنية بعد امتناع زعيم السياسة الإنجليزية من المكاملة مع الوزير نوبار باشا فى شأنها حينما على ما تقدم بيانه فاهتم الوزير لذلك اهتماما عظيما ورسم بعمل دستور يكون قاعدة لإعادة تلك العلائق فأجتمع الوزراء كافة فى مجلسهم وقرروا سبعة أمور، حاصل ما فيها منع الاتجار فى الأسلحة وسائر أنواع الآلات والأدوات الحربية وضبط ما يوجد منها ومعاقبة المتجرين فيها وجعل حلفا وكروسكو وأسوان ودراو المراكز التى تخرج وتدخل البضائع منها وأخذ العهود على مشايخ العابدة والكبابيش وغيرهم من قبائل العربان بذلك ويطاعتهم لتفتيش سائر البضائع التى ترد من السودان أو التى ترسل إليه أولا فى حلفا فى كروسكو وفى أسوان وفى دراو ثم يعطى لأصحابها تسريح، فجعل التجار من ذلك الحين يتأهبون للعمل وسار جماعة منهم إلى حلفا وأسوان ونزلوا بهما فعمرت أسوان وكثرت فيها الحوانيت والمخازن

والأشوان للبضائع وأصناف المتاجر وراجت التجارة فى القاهرة بعض الرواج وشاع خبر انحذار بعض القوافل من دنقلة بالصمغ والريش وسن القيل وأشياء آخر من محاصيل أرض السود وشوهد كذلك غير لأهل كردفان بأصناف المتاجر وجاءت الأخبار بخلود العربان والدراويش المرابطين على الحدود إلى السكينة عندما وصلت إليهم الأخبار بعود العلائق التجارية بين مصر والسودان .

(مطلب)

طلب الإنجليز تخفيض عدد العساكر المصرية

ولم تكن أيام بعد ذلك حتى تقدم الجنرال جرانفل باشا سردار العساكر المصرية إلى الخديوى فى طلب تخفيض عدد العساكر المصرية وحل بعض ألويتها لعدم الحاجة إليها يومئذ وأن الجيوش الإنجليزية تحل محلها فى سائر مضاربها وكان زعيم السياسة الإنجليزية قد رأى فى إعادة العلائق التجارية مع السودان وفى بقاء العساكر المصرية على قدم الاستعداد فى عددها وعددها شيئاً يخافه فى مستقبل الأيام فأوعز إلى السردار أن اطلب تخفيض عددهم فوافق الخديوى على ذلك وكلم الوزير نوبار باشا فى الأمر فاهتم له الوزير وجمع إليه سائر الوزراء وعقد مجلسهم وجلس الخديوى بينهم فقال السردار مقالته وبالف فى الطلب فرد عليه عبدالقادر باشا وهو يومئذ المتولى نظارة الداخلية وأخذ يشرح الأسباب الداعية إلى بقاء الجيوش المصرية على ما هى عليه من العدد والعدد وما تحتاجه البلاد فى هذه الظروف من حفظ كرامتها فى أعين الأعداء وإعظام قوتها الدفاعية رهبة لهم فعارضه فى ذلك السردار وبالف فى الممانعة وكان الخديوى لا يشاء أن يرم أمرًا على غير الذى يرمى إليه زعيم السياسة الإنجليزية تسكيناً للخواطر وتطمينا للقلوب، قيل فعضد السردار فى رأيه وعاب على عبدالقادر باشا قوله وسفهه فامتعض عبدالقادر باشا وبالف فى التعبير وسفه رأى السردار ورفع صوته بحضرة الخديوى فقاطع عليه الوزير نوبار باشا وقال له: أنت بحضرة مولاك فاخفض من صوتك، قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكان الخديوى يعرف من الشوائب والتهم الموسوم بها عبدالقادر باشا شيئاً كثيراً وكان إلى ذلك الحين يغض الطرف عنها منعاً للقلق وتحاشياً من سوء العاقبة وكان جماعة الإنجليز يودون لو أن الخديوى يأذن بتحقيق تلك التهم وقد جمعوا من الدلائل على صحتها وعلى سوء تصرف عبدالقادر باشا مع بعض أصحاب الأتبان بحوش عيسى

والنوبارية بمديرية البحيرة واستعماله لسلطة وظيفته وتطاول يده إلى أموال الناس شيئا كثيرا فلما رأى منه هذه الجرأة والمكابرة ومعاودة السياسة الإنجليزية فى مجلسه كبر عليه الأمر وأعظمه لاسيما وقد رأى من جماعة الإنجليز فى ذلك اليوم تحفزا للوثبة وكشف ما خفى من عورات الهيئة الحاكمة فرسم حينئذ بتحقيق كل ما هو مسند فعله إلى عبدالقادر باشا وقيد بذلك جماعة من كبار الموظفين فأصبح عبدالقادر باشا وهو يتوقع العزل فى كل لحظة من الزمان وعلم خصومه بالخبر فوردت شكاياتهم ترى على ديوان الخديوى وتم لصاحب السياسة الإنجليزية ما أراد من تخفيض عدد العساكر المصرية فى أيام قلائل، حدثنى صاحب لى قال: كان مما أوجب بغض جماعة الإنجليز لعبد القادر باشا وأكبر سعيهم وراء خلعه من منصبه أنهم رأوا أنه فضلا عن استعماله لسلطة وظيفته فى أخذ حقوق بعض الناس وتطاول يده إلى أملاكهم على غير مسوغ شرعى وتطلعه إلى ما فى أيدي الغير فقد كان يكيد للإنجليز كيذا عظيما ويدس لهم الدسائس فى السر والجهر واتفق أن خلت قلعة الوجه الواقعة على التخوم بين الأراضى المصرية والأقطار الحجازية من المرابطين وباتت خاوية على عروشها منذ انحلال الجيوش المصرية بعد الثورة العرابية فهمّ مقدم الجيوش الإنجليزية بإرسال نفر من عسكره ليحتلوها ويرفعوا الراية الإنجليزية على ما يجاورها من البقاع فأحس الباب العالى بذلك فسير فى الحال جماعة من كبار العسكر الشاهانى وطائفة من الجند إلى تلك القلعة فاحتلوها وبسطوا يدهم على ما يجاورها من السهول والبقاع وجاء الخبر بذلك إلى عبدالقادر باشا بصفته ناظرا للدخالية فأهتم له كثيرا واستحسنه وبالع فى استحسانه واجتمع بالمشير مختار باشا مندوب الباب العالى بمصر وتناجيا فى ذلك طويلا فلما علم زعيم السياسة الإنجليزية بما جرى وتحقق أن لا قبل له على إخراج العساكر السلطانية من تلك القلعة إلا إذا دفع برجال الحل والعقد فى الحكومة المصرية إلى معمعان المقارعة مع الباب العالى أوعز إلى السير بارنج بأن يكلم الوزير نوبار باشا فى ذلك ففعل وأكثر من الاجتماع بالوزراء فكان يرى من عبدالقادر باشا جفاء وغلظة فى القول فشكاه إلى الخديوى وكان الخديوى يكره فعال عبدالقادر باشا وينقم عليه كثيرا فرسم بتشكيل هيئة من بعض كبار موظفى الحكومة لتتظر فيما هو مسند إليه من سلب أموال بعض الناس والاستطالة على حقوق الضعفاء من الرعية فسارت تلك الهيئة فى عملها سيرا حثيثا وحققّت من تلك الشوائب شيئا فلم تكن إلا أيام حتى ظهر خبر تنزيل عبد القادر باشا من منصبه

وعلم الناس بخبر مبارحته القاهرة على عجل فتحققوا أنه مكره لا بطل فولى الخديوى مكانه مصطفى فهمى باشا وولى محمد زكى باشا مكان مصطفى باشا نظارة الخزينة ١٠ هـ.

(مطلب)

وكاد السلطان ينجح في استمالة الروس والفرنسيين إلى معاونته

وكاد السلطان في هذه الفترة ينجح في استمالة كبار سياسة الروس والفرنسيين إلى معاونته على طلب تخفيض عدد العساكر الإنجليزية المحتلة لمصر وهموا جميعا بطلب ذلك فلما أحس زعيم السياسة الإنجليزية بما هم عليه أوعز في الحال إلى قائد جيوشهم بمصر بأن أظهر الأبهة والاستعداد لجلاء الكتائب فجعل يظهر الحركة بين الجنود وأخذت كتائبهم تغدو وتروح بين الإسكندرية والقاهرة وتحت قلعة الجبل وبولاق الدكرور بأثقالهم وأحمالهم وآلات حربهم ودوابهم وانجلي من كان منهم بقشلاق الحرس الخديوى برحبة عابدين فاحتله نفر من العساكر المصرية ولم تكن إلا أيام حتى كثر الأرجاف بأن جماعة من الدراويش انحدروا إلى حلفا بخيلهم يريدون الزحف على أسوان فالقاهرة وأن الفتنة ظهرت بين أهالى ذلك الصعيد وأن قد جاء الصائح بطلب المدد العاجل فأسرعوا فى إرسال طائفة كبيرة منهم إلى الحدود قالوا لمنع العدو وأنزلوهم بالمواقع والمعازل التى قد كانوا أخلوها وطيروا الخبر بذلك إلى الآفاق فسكت حيثئذ أصحاب المايين وانكف السلطان عن استنهاض الدول ولبت كعادته يراقب الفرص فعلم الناس أنها خدعة وحيلة وظن السواد الأعظم بالوزير نوبار باشا سوء ورموه بالخيانة وعاد أصحاب الصحف الحازبة إلى صيحتهم الأولى وهى طلب تنزيل الوزير نوبار باشا من منصبه وإرجاع الوزير محمد شريف باشا إلى منصة الرئاسة وبدأت تظهر طلائع التحزب بين الناس وشوهد بعض الأوراق التحريضية ملصقة على جدران بعض محال الحكومة فتناقل خبرها مراسلو الصحف الأجنبية وأكبروها جدا فلم تكن إلا أيام بعد ذلك حتى مرض الوزير محمد شريف باشا واشتدت علته فجمعوا له الأطباء فأشاروا بسرعة مغادرته للقاهرة. والترفع فى النيل إلى الصعيد الأعلى فاندesh الناس من هذا الحادث الغريب وترامت ظنونهم إلى المرمى البعيد فمن قائل إنه مريض بذات الجنب ومن قائل إنه مريض باهة فى

الكبد ومن قاتل بأنه قد سم فى التبغ بيد أجنبية ومن قاتل غير ذلك وسار الوزير على ظهر باخرة من الركائب الخديوية إلى الصعيد الأعلى فلبث أياما ثم انحدروا به على غير جدوى إذ اشتدت علته وكبر سقمه فأشار الأطباء بقيامه إلى الديار الأورباوية فسار فى نفر من الاتباع إلى تريستا وأقام بها والناس كافة يسألون الله له السلامة والعودة إلى منصب الرئاسة فلم تكن إلا أيام حتى جاء الخبر بموته فحزن الناس جميعا وبكوه ورسم الخديوى إلى الوزير نوبار باشا بتعطيل سائر دواوين الحكومة حدادا عليه وإلى كبير التشريفات الخديوية بالشخص إلى تريستا على باخرة مخصصة ليأتى بالجثة إلى مصر التى كان يحبها وكانت تحبه وتحن إليه وجلسوا فى داره للعزاء أياما حتى وصلت جثته على ظهر سفينة قد استأجرها ولده قبل أن تصل إليه سفينة مصر فما ألفت السفينة مرساها حتى هرع الناس من كل رتبة ودرجة إلى المسير أمام نعشه فسار أولا جمهور المشايخ والعلماء ثم صفوف جند البر والبحر ورجال الحرس الخديوى تتقدمهم موسيقى باخرة المحروسة ثم وجهاء البلد وأعيانها على اختلاف أجناسهم ثم تلامذة المدارس ومازالوا سائرين بالنعش والناس على جانبي الطريق يبيكونه حتى وصلوا به إلى محطة الباب الجديد فأنزلوه فى قطار مخصوص وسار القطار إلى القاهرة فلما وصلها حمل النعش جماعة من العساكر المصرية وساروا بالجنازة على شكل مهيب وترتيب عجيب أسكب عبرات الناس وأبكاهم حتى واروه التراب، وكان شريف باشا رحمه الله معروفا بالإخلاص والترفع عن الدنيا مشهورا بالخزم والحكمة والدراية وسعة الباع فى المعارف السياسية والعلاقات الدولية وغير ذلك من علوم العصر - تلقى علومه فى مدارس الفرنسيين العليا وقضى فى خدمة البلاد وأهلها زمنا غير قليل فى الجندية على عهد الحاج محمد على باشا الكبير ثم على عهد إبراهيم باشا وعباس باشا الأول وسعيد باشا ثم فى ولاية إسماعيل باشا وتقلد فى كل هذه الأزمنة وظائف خطيرة أدار مهامها بالخزم والجد والغيرة مات وله من العمر ثمان وستون سنة وقيل سبعون وهو القاتل إن تركنا السودان فلا تتركنا فذهب مثلا عند المصريين رحمه الله برحمته الواسعة .

وكان مما زاد الناس كرها للهيئة الحاكمة توالى الحوادث وظهور الكوارث واشتداد الإنجليز على أهل البلد وإذلالهم لأقل سبب وأصغر حادث فقد وقع فى هذه الأيام أن اثنين من كبار عسكر الإنجليز خرجا يوما للصيد فى أرباض أهرام الجيزة فاتفق أن أحدهما أطلق بارودته يريد صيدا فأصاب نارها وجه صبي لأحد الفلاحين كان

يرعى جاموسته فانذعر الصبي وذهب مولولا مستصرخا أباه فلحق به الضارب وأخذ يلاطفه ويخفف عنه وأعطاه شيئا من الدراهم ولم ينصرف عنه حتى جاء أبوه وقبض على الإنجليزي وأوسعه سبا ولكما فصاح الإنجليزي على رفيقه فأتاه مسرعا وصوب بارودته نحو الرجل فاستصرخ الرجل أهل قريته وأكثر من النداء عليهم فأطلق أحد الإنجليزين بارودته على الرجل فسقط ميتا وجاء أهل القرية مسرعين وقبضوا على الإنجليزيين وأخذوا ما كان معهما من سلاح وذخيرة وساقوهما إلى قرية وزجوهما في دار هناك وحملوا القتل إلى القرية بين الصباح والجلبة وعويل النساء ثم ساروا بالإنجليزين إلى ديوان مديرية الجيزة وسلموهما إلى ولاية الأمر فلما اتصل خبر ما جرى بقنصل جنرال الإنجليز وقائد جيوشهم قاما وقعدا واشتد القنصل على الوزير نوبار باشا في طلب معاقبة أهل تلك القرية جميعا لقبضهم على القاتل والجراح من الإنجليز ولم يكن إلا يوم أو بعض يوم حتى سار إلى تلك القرية طائفة من فرسان الإنجليز وأحاطوا بها من كل صوب ودرب وأخرجوا جميع من بها من الرجال وساقوهم كالأنعام إلى خيمة قد ضربوها على مقربة من الأهرام وبها جماعة من الإنجليز فأخذوا يستنطقونهم ويسألونهم ثم عاقوهم أياما ثم حكموا عليهم جميعا بالجلد بالسياط فضربوهم ضربا مبرحا وسجنوا بعضهم وقد جمعوا ما في القرية من سلاح وهاوى وانصرفوا وقد راح دم ذلك المقتول هدرا ثم هذا كله والهيئة الحاكمة لا تبدى حراكا ولا تظهر عراقا سوى أنها وافقت على زج أهل تلك القرية في الحبوس حتى تحكم عليهم المحاكم بالعقوبات التى يقتضيها القانون فكان من وراء ذلك أن ظهرت عصابة من شبان أهل القاهرة ومصر القديمة المتخرجين من بعض المدارس وسموا أنفسهم باسم «الوطنيين الأحرار» فالتف حولهم جماعة من المحازبيين لمصطفى رياض باشا وجعلوا يجتمعون في بيت أحدهم في السر والعلن ويتكلمون فيما وصلت إليه الحكومة من الضعف وزوال الهيئة وفى استسلام الوزير نوبار باشا وجماعة الوزراء إلى السير بارنج وشوهدت بعض الأوراق المفعمة بالتقريع والتنديد على جماعة الوزراء ملقاة فى بعض دور الحكومة ودواوينها وجاء مصطفى رياض باشا من مزرعته فى طود البحيرة وأقام بالقاهرة فتزاحم على بابيه أهل الدعارة والمملقون ومن فى قلبه مرض وتحققوا أن الوزير نوبار باشا معزول لا محالة وظهرت يومئذ الحركة فى ديوان الخديوى وترددت رسله على نيت مصطفى رياض باشا لغير سبب ظاهر سوى الإرجاف بعزم الوزير نوبار باشا على التخلّى عن منصب الرئاسة

وما هو شائع بين الناس من أن كبار الإنجليز أرسلوا إلى الأقاليم القبلية نفرا من اليونان والمالطيين جواسيس يسعون فى استطلاع أفكار أهل البلاد بشأن احتلال الإنجليز لمصر وغير ذلك من الترهات التى ما أنزل الله بها من سلطان، وكان من دهاء السير بارنج وقوة شكيمته أنه كلما آنس من أولئك الزعانف خلودا إلى الحركة أو سمع لهم صوتا فى مجتمعاتهم أو رأى لهم مقالا فى إحدى الصحف المحاذية عمد إلى المساهلة مع الوزير نوبار باشا وخفف من طلباته وهون عليه كل صعب من الأمور كأن يقول خففوا عنكم فوالله ما استعملنا صاحبكم » يعنى مصطفى رياض باشا « إلا بعد أن نكون قد دبرنا له المكاييد والإحن وقلبنا لكم ظهر المجن وقلنا على يديه ما لا تستطيعون عليه صبرا، حدثنى صاحب لى قال: كان بعض هؤلاء الصبية يرسلون بعض مديرى الأقاليم وأصحاب بعض الوظائف الديوانية بكتب الاستمالة والانعطاف إلى مصطفى رياض باشا وهو لا يأنف من ذلك ولا يراه معيبا بل كان إذا زاره أحد من أعيان البلاد أو مديرى الجهات زلفى أن واشتكى وعاب على الهيئة الحاكمة ضعفها وتأنف مما وقعت فيه البلاد من الدمار وكان كثير الوقعة برجال القضاء يقول إنهم أحداث أغرار لا خبرة لهم بالأمور ولا درية حتى خيل للناس يومئذ أنه إن عاد إلى منصة الرئاسة أراح جميع الخلق وسلك فى سائر أموره مسالك الحق - قال: وأخذت الحمية من أولئك الصبية مأخذها فنجحت سعائتهم وتخرجت صدور الناس من الوزير نوبار باشا أو كادت فتجرد حينئذ السير بارنج إلى النهج فى منهاج جديد والقبض على زمام سائر الأمور بيد من حديد - قال: وكأنه كان على اتفاق مع الوزير نوبار باشا بأنه إذا شاء إنفاذ أمر من الأمور التى تقتضيها سيطرة الاحتلال الإنجليزى وحفظ هيئته فى أعين أهل البلاد من مثل إحداث الإحداثيات المخالفة لعاداتهم أو إبداع البدع الداعية إلى سقوط نفوذ الحكام المصريين أو ترتيب النظمات الجديدة الحاملة على إقصاء أصحاب الوظائف من أبناء البلاد عن أبواب الارتاق جعل إنفاذ ذلك كله على يدى من كان معتمد أولئك القوم عليه وأرغمه على العمل به - قال: فقد مضى على رئاسة الوزير نوبار باشا فى هذه المرة حين وكلمة السير بارنج معه فى شئون البلاد لم تتجاوز حد النصيحة والإرشاد ولم تتعد عبارات التشجيع والاستنهاض ماعدا ما يتعلق منها بالسودان شرقا وجنوبا وكان الوزير إذا رأى منه يوما إكراها على عمل شئ أراده صرفه عنه بالتى هى أحسن واستماله إلى التأنى وترك العجلة فيثنى عنه راضيا ولذلك قد تأخر إبرام الشئ

الكثير من مقاصد زعيم سياسة الإنجليز فى الأمور الداخلية وظلت كلمة المديرين والمحافظين وأصحاب الوظائف الأخرى مسموعة وأيديهم مطلقة وسلطتهم مرعية وكان الذين تولوا الوظائف العالية من جماعة الإنجليز إلى هذا الحين يعدّون على الأصابع وقد تمكن الوزير نوبار باشا بحزمه وقوة شكيته من فك قيود الحكومة من العقود التى كانت مرتبطة بها مع الأجانب التزلاء الذين فى خدمتها ونادى على رؤوس الأشهاد بالكف عنها وعدم العود إليها فهيج هذا العمل أصحاب بعض الصحف الأجنبية فقاموا يستصرخون قناصلهم وظهر التحزب والتألب بين أصحاب الوظائف من كل جنس وطبقة ولبث الحال على ذلك أياما كثر فيها أنصار مصطفى رياض باشا وتقوت عزيمتهم بما كانوا يسمعون من ضوضاء أصحاب الصحف الأجنبية وتكهنهم بقرب سقوط الوزير نوبار باشا من أعالي منصة الرئاسة، وكان مصطفى رياض باشا قد استبشر بما سيكون من وراء هذه الحركة فجعل يكثر من التردد على مقر الخديوى ويظهر التودد والعطف إلى رجال ديوانه الخاص ويوالى المآذب إلى كباره ويدنى من مجلسه أصحاب صحف الأخبار ويوحى إليهم بالذى يعمله إذا أفضت إليه الرئاسة.

وأشاع المرجفون فى هذا الحين أن الوزير نوبار باشا أكره الشيخ المهدي شيخ الجامع الأزهر ومفتى الحنفية وجماعة من كبار العلماء وأصحاب المقامات العالية على عمل محضر يطلبون فيه ضم مصر وسائر ملحقاتها إلى أملاك السلطنة الإنجليزية واستخلاصها من سيطرة الدولة العثمانية التى أثقلتها كل هذه السنين والأعوام وتكلم فى ذلك أصحاب صحف الأخبار على اختلافها فصدق ذلك السواد الأعظم من الناس وأرجفوا إرجافا عظيما والأمر على غير ما كانوا يسمعون وذلك أن الشيخ المهدي مالت نفسه فى ذلك الحين إلى الاستبداد بتقليد وظائف القضاء الشرعى إلى صنائعه والأغرار الملتفين حول ولده الشيخ عبدالحالوق وقد كان إعطاء هذه الوظائف لذويها من أهل العلم والفضل موكولا إلى لجنة يرأسها بطرس باشا غالى وكيل الحقانية يومئذ والشيخ عضو من أعضائها فمانعه بطرس باشا فى ذلك واشتد فى ممانعته بحكم اللوائح المعمول بها عندهم فامتعض الشيخ وأخذته هزة الأحزاب فاستمال إلى رأيه جماعة من العلماء وأعضاء شورى البلاد فكان لا حديث لهم فى سمرهم إلا خبر وقوف بطرس باشا فى وجه الشيخ والحيلولة بينه وبين هواه واتفق أن رجلا من أهل الجزائر التابعين لدولة الفرنسيين امتلك دارا بأحد شوارع القاهرة

وآخر يمتلك دارا أمام دار ذلك الجزائري قد تداعت إلى السقوط فأخذ صاحبها في لم شعنها وترميم ما تهدم من جدرانها وتنسيق شبايكها على الطراز الجديد فقام عليه ذلك الجزائري ومنعه من العمل وقال له إن منافذ دارك تكشف عورات دارى فعارضه صاحب الدار المتداعية وقال إن بين الدارين طريقا ولا سبيل قط إلى المعارضة وطال بين الاثنين الخصام أياما لم ينكف فيها صاحب الدار عن العمل فشكاه الجزائري إلى قاضى قضاة مصر فحكم له القاضى بسد منافذ دار خصمه فهال صاحبها حكم القاضى وأزعجه أى إزعاج فرفع ظلامته إلى المحكمة المختلطة لتابعة خصمه لدولة الفرنسيس فأنصفته وحكمت ببقاء منافذ داره كما هى وحكمت على خصمه بشئ من المال تعويضا عما لحق صاحب الدار من الخسارة بسبب الحكم الشرعى فلما شاع خبر ذلك بين الأحزاب هاجوا وهاجوا وأكبر الشيخ المهدي الأمر وأعظمه جدا وقال إنما هو عمل من أعمال بطرس باشا غالى التى يقصد بها إلصاق الخنزى بأصحاب الشريعة الخفيفة ونصرة أصحاب شريعة الفرنجة وسعى الشيخ مع جماعة من أعضاء مجلس شورى البلاد والأعيان عند الخديوى ووشوا فى حق الباشا ومازالوا بالخديوى حتى كادوا يستهونونه ويغفرون به فعلم بطرس باشا بما فعله القوم فدخل على الخديوى وأعلمه بحكاية الجزائري وما جرى لصاحب الدار المتداعية وما حكم به قاضى قضاة مصر وحكم المحكمة المختلطة فكبرت عليه فعال الشيخ المهدي وأعظم مقارعة المحازيين له من الأعيان وشورى البلاد وأرسل فى طلب الشيخ وكلمه فى ذلك طويلا ورسم إلى بطرس باشا بعمل ما فيه المصلحة تسكينا لتلك القلاقل فأشار على الشيخ بتكذيب كل قال وقيل فى هذا الصدد فلم ير مناصا من الإذعان وكتب من يومه إلى الجريدة الرسمية وصحف الأخبار المحلية يعلمهم بأنه لم يحصل شئ مما ذاع خبره ألبته وأن جماعة العلماء براء من كل تهمة أو فرية يفترها عليهم المفترون وأن لا أصل لما أرجف به المرجفون العاملون على إيقاظ الفتنة فاختلف الناس يومئذ حتى كادوا يفتنون وداخل الخديوى ما داخله من بغض الشيخ المهدي حتى رسم بخلعه من منصبى الإفتاء ومشيخة الجامع الأزهر فخلع وولى مكانه فى مشيخة الجامع شمس الدين الشيخ محمد الأنابى وفى منصب الإفتاء الشيخ محمد البناء الاسكندرى واتفق فى هذه الأثناء أن مرض الوزير نوبار باشا واحتجب عن الناس أياما فعاد الإرجاف بخلعه وتنزيله عن منصب الرئاسة .

(مطلب)

وقوع القتال بسواكن مع عثمان دقنه

وبينما كانت الأحزاب فى قيل وقال وأمانى وآمال إذ وردت الأخبار من سواكن بوقوع القتال بين أصحاب عثمان دقنه والقبائل المصافية للحكومة والمرابطين من العسكر المصرى وبأن العدو أبلى فى قتال المرابطين بلاء حسنا، وتحرير الخبر أنه لما كثرت مناوشات العدو للقبائل المصافية وكثر تعذيبهم على ضواحي البلد رسم كتشنر باشا العامل يومئذ على سواكن إلى نفر من الجند والمولدين المرتزقة وإلى أولئك المصافين بقتال العدو وإجلاله عن ضواحي البلد فخرجت طائفة من قبيلة الرمارد وجماعة من الباشيوزق والمترزقة مع طائفة أخرى من السود الذين نجوا من حامية كسله وغيرها فى منتصف الليل يتقدمهم كتشنر وبعض كبار العسكر من الإنجليز وبعض الفرسان والهجانة المصريين وساروا بجوار الخط الموصل إلى هندوب وما زالوا فى طريقهم حتى إذا كان ما بعد زوال اليوم الثانى وصاروا على مقربة من هندوب بانّت لهم طلائع العدو فهجم عليهم جماعة الباشيوزق والعبيد وهزموهم أو كادوا فلم تكن إلا لحظة حتى أخطق العدو بكتشنر وجنوده من كل صوب ودرب فثبتت الجنود فى مواقعها واشتدت فى رمى القنابل ورضاص البنادق على العدو وأصلته نارا حامية فقابلهم العدو بالمثل وهجمت طائفة من فرسانه على ميمنة الجنود هجمة شديدة كادوا يسحقون فيها الميمنة سحقا وأصاب كتشنر رصاصة فى فكه الأيمن وأصابته كذلك جراحة عظيمة ففرقت عساكره شذر مذر وتعذر جمعهم للقتال أو الدفاع وكثرت القتلى والجرحى واقتفى العدو أثر من بقى من العساكر يصليهم نارا حامية حتى دخلوا البلد وهم فى أسوأ حال واشتدت علة كتشنر وعظمت جراحته فانحدر من سواكن إلى السويس وجاء القاهرة فاهتم السير بارنج لحضوره وزاره الكبراء والعظماء وجعل أصحاب صحف الأخبار ينقلون للناس أخبار صحته وما يطرأ عليه فى كل ساعة من ليلة ونهاره كعظماء الملوك أو أقيال القوم إذا مسهم مرض وما زالوا حتى برأ وعوفى وزال عنه البأس.

وكما كانت أحوال سواكن إلى هذا الحين فى قلق واضطراب بسبب هجمات العدو المتتابعة فقد كانت أحوال مصر أكثر قلقا وأكبر اضطرابا لتفشى الأمراض الخبيثة بين الجنود الإيطالية وفعلها فيهم وفى خيلهم ودواب حملهم ووقوف الحبشان

لهم بالمرصاد وتخطفهم كل من بعد ولو قليلا عن البلد حتى شمت نفوس العساكر وخارت عزائمهم من السهر ليلا على حراسة البلد والطواف حولها نهارا دفعا لذلك العدو الرابض كالأسد وكان قائد الجنود الإيطالية يتقرب زلفى من القاضى إبراهيم شيخ قبيلة الأسورتين ويستميله بالرشا والبراطيل إلى معاونة الإيطاليان وحماية أجنحة الجيش بنفر من قومه فكان هذا الشيخ كثير التقلب إذا قرب يوما ابتعد أياما وإذا أظهر الرضا والحركة يوما فبالشئ الكثير من المال حتى أعيت الحيلة وعيم السياسة الإيطالية وهمّ بإجلاء العساكر عن مواقعهم والتخلى عما بأيديهم إلى ذلك العدو الذى أشبعهم ضرباً وطعنا قد طأطأت لشدتهما الرؤوس وكان قائد الجيوش الحبشية يرسل فى كل قليل رسله إلى الحماسيين يستحثهم على اليقظة وعدم ترك السلاح ويستنهضهم إلى إجلاء العدو عن أرضهم فكان دعائه يجوبون البلاد شرقا وغربا وأهل البلاد فى حركة متتابعة ونهضة عظيمة وقد زاد الحال شدة على الجنود الإيطالية اشتداد القيظ وكثرة الموات من تفشى الحميات الخبيثة بينهم، وإلى هذا الحين كان قد تم الاتفاق بين صاحب سياسة الإنجليز والدول الكبرى على عزلة بوغاز السويس وجواز سير سائر السفن فيه وكيفية الحكم فى الخلاف الذى يقع بين الدول فى ذلك وفى حق سيادة الباب العالى وملكيته لسائر الأراضى التى يشقها الخليج من أدناها إلى أقصاها فلما اشتدت الأمراض بالعساكر الإيطالية المرابطين بمصوع وفتكت بهم ذلك الفتك الشديد كلم زعيم سياستهم وزير السياسة الإنجليزية فى أن يأذن لهم بالتزول فى قطعة أرض بمدينة السويس وجعلها مصيفا لهم إبان القيظ فرارا من هذا العدو الذى قد ضم عداءه إلى عداء الحبشان فكادوا لا ييقون على أحد منهم فأجابه وزير سياسة الإنجليز إلى ما طلب فهب حيثئذ أصحاب صحف الفرنسيين من رقادهم وتبعهم أصحاب الصحف المحلية واستصرخوا الدول كافة وحذروهم سوء عاقبة هذا الأمر وأكثروا من الجلبة والضوضاء ولم يشغلهم عن هذه الصيحة إلا ورود الخبر بهجوم عثمان دقنه ولمومه على حصون سواكن مرة ثانية فإنه لما تم له الظفر بالقبائل المصافية للحكومة وقهرهم طمع فى مقاتلة المصريين فكان لا ينكف عن شن الغارة على ضواحي البلد ولا يقف عند حدّ من تخطف القادمين إليها أو الخارجين منها ورمى حصونها بالقتال رميا متابعا ليل نهار حتى فرغ صبر المرابطين وأعياهم الدفاع من خلف الأسوار فتقدمت عند ذلك سفيتان من سفن الحرب الإنجليزية وجعلت ترمى قنابل مدافعها على العدو كلما اقترب من البلد وظلت على

هذه الحال أياما فلما كان بعض الأيام رأى الكولونيل تاب مقدم عساكر المصرية أن العدو قد احتل عند مطلع الفجر مرتفعات القلعة المسماة بقلعة هرسون وهي لا تبعد عن سور البلد إلا بقدر فرسخ وأن قد جاء المدد من المشاة والركبان من هندوب فخاف تاب العاقبة ونادى فى العسكر بالخروج من وراء الحصون فخرجوا جميعا بمدافعهم وآلات حربهم وخرج كذلك طائفة من الجنود الإنجليزية ومعهم بعض مدافع السفن وساروا جميعا لإجلاء العدو عن تلك القلعة فاشتبك القتال بين الفريقين وحمل الوطيس والتقت السنايك بالسنايك فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى تفهقرت العساكر ورجعوا إلى الوراء على أعقابهم فنبعهم العدو وأصلاهم بناره ثم انقض عليهم من كل صوب فقتل الكولونيل تاب وقتل وجرح كثير ممن معه ومازالت نيران العدو تساقط تساقط المطر حتى غابت شمس ذلك اليوم وتمكن من بقى من العساكر من دخول البلد فرجع أصحاب دقته بما ظفروا به من الغنائم والأسلاب وشاع الخبر بما جرى ووردت تفاصيل الواقعة إلى الخديوى والوزير نوبار باشا فانزعجا وكان كتشنر باشا قد عوفى فكر راجعا إلى سواكن قيل وأوصاه الخديوى بعدم خروج العساكر من وراء الحصون كي لا يحركوا ساكنا من العدو وجاءت كتب زعيم سياسة الإنجليز بالتخلي عن سواكن أيضا وتركها إلى العدو فكبر أمر ذلك على الخديوى وأقلقته جدا ووردت أيضا كتب كتشنر إلى الوزير نوبار باشا بأن جماعة من المهاجرين الذين قدموا إلى سواكن أخبروا بأن عثمان دقته أرسل إلى الخليفة عبدالله التعايشى فى طلب النجدة على قتال المرابطين فى سواكن فإذا جاءته النجدة هاجم البلد بخيله ورجله ولم يتخل عنها حتى يفتحها عنوة ويقتل جميع من بها بحد السيف وكبر خوف كتشنر يومئذ واهتم كثيرا باستطلاع أخبار العدو ومراقبة حركاته ورسم إلى جميع العساكر بملازمة الحصون والسهر على حراستها وأرسل دعائه إلى مشايخ قبيلة الرمادر يستفزههم إلى الوقوف فى طريق عثمان دقته ومنعه من التقدم إلى البلد قيل فأجابوه إلى ذلك وسيروا رسلهم إلى دقته يقولون له لا تبارح هندوب وإلا قاتلناك أشد القتال ومزقنا جموعك فلم يلتفت دقته إلى قولهم ولم يهمه أمرهم وقال للرسول: السيف يحكم بيننا فارحلوا عنا فعادوا كما ذهبوا، واتفق أن جماعة من عساكر السفن الإنكليزية الراسية أمام البلد نزلوا إلى البر لحاجة وابتعدوا عن البلد قليلا فخرج عليهم نفر من أصحاب دقته وأعملوا فيهم الطعن بالحراوب والضرب بالسيوف فرأى المرابطون بالقلعة ما حل بالإنجليز فأطلقوا على

العدو مدافعهم فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى اجتمع العصاة واحتشدوا ألوفاً وهاجموا القلعة هجوماً الأسود الضواري حتى كادوا يأخذونها عنوة لولا اشتداد نيرانها عليهم وتراسل قتابل مدافعها ولم يرجعوا عنها إلا بعد قتال عنيف للغاية، وخاف من في البلد فكادوا يتركونها ويتزلون إلى السفن ولم تطمئن قلوبهم إلا بعد رجوع العدو عن القلعة وكف المرابطين عن إطلاق المدافع وأصبحوا وقد رأى كثيرون أنه لا يمكن الذب عن البلد وردّ العدو عنها إلا إذا أنشئوا قلعة أخرى فأنشئوها وأنموا على أحسن ما يكون وسلحوها بالمدافع الكبيرة وعبوها بالأسلحة وآلات الحرب والمؤن الكثيرة وأقام بها المرابطون فكانوا يدفعون العدو عن البلد كل قليل من الأيام وهو لا ينكف عنهم فلما أعياء الحال وعجز عن مناجزة من في هذه القلعة عاد على أعقابهم إلى هندوب فكبر أمر رجوعهم على عثمان دقنه وأعظمه وأرسل الكتب إلى الخليفة عبدالله التعايشي في طلب المدد ويشره بقرب الفتح والخليفة يمينه ويرد عليه الرد الحميل ولم يمده بشيء.

وصل

(في ارتياب وانقلاب)

قد كانت الرئاسة على طول أيامها لم تصف إلى الوزير نوبار باشا من أكدار الوشاية وأضرار السعاية إذ كان له مع الخديوى من أمرها في كل يوم شأن ومع السير بارنج في كل لحظة أخذ ورد بشأن أعمال بعض المأمورين وأصحاب الوظائف وفي نظام بعض الدواوين وفي غير ذلك مما يتعلق بشئون البلاد الداخلية وقد كبرت في هذه الأيام شدته وعظم إلحاحه في طلب تنفيذ الكثير من الإحداثيات المخالفة للمألوف عند أهل البلاد وإبداع البدع التي لا يقوى الوزير على عملها خوفاً من صيحة الأحزاب وتآلبهم عليه فكان إذا دافعه وحاجه وكادت حجته تغلب حجته تأفف وقلب للوزير ظهر المجن حتى يكاد يخلط عليه الحال ويفسد عليه كل عمل وتدير وإذا سايره وعمل بعض الذى يريده كارها قامت صيحة الأحزاب وأخذت الوزير من كل جانب واشتدت جلبة أعدائه وأكثروا من الاجتماع تارة في بيت مصطفى رياض باشا وأخرى في مقر الغازى مختار باشا فإذا علت أصواتهم وسمع الناس صيحاتهم ورأوا كثرة اجتماعهم أقبل السير بارنج على الخديوى وتبرأ من تبعة كل عمل وشجعه على الأخذ بأطراف الحزامة وحبب إليه الاستبداد بشئون مملكته

فداخل الخديوى من هذا الحين ما داخله وصار لا يأذن بانعقاد مجلس الوزراء إلا تحت رئاسته ولا يبرم فى شئون البلاد أمر إلا برأيه ولا يعمل عمل إلا بمشورته حتى كاد يستبد بالأمر ولا يترك لأحد من رجال دولته عملاً وتعد على الوزير حينئذ أن يوفى الرئاسة حقها أو أن يأتى عملاً إلا ويكون من ورائه اللدد والكمد فكثير توجهه وعظمت شكواه إلى بعض قناصل الدول وضعفت عزمته عن العمل وضاعت تدابير فخاب منه الرجاء والأمل وظهرت علامات الوحشة بينه وبين الخديوى وكادت تستفحل فأرسل الوزير تكران باشا وكيل نظارة الخارجية يومئذ إلى زعيم سياسة الإنجليز يشكو إليه علة الوزير وما يلاقيه من أفاعيل السير بارنج وما نجم عن ذلك من الاضطرابات الداخلية التى لا بد وأن تودى بنظام الحكومة وترجع بالأحوال إلى أسوأ مما كانت عليه ولبت تكران باشا فى عاصمة الإنجليز أياماً ثم قفل راجعاً إلى القاهرة وشاع الخبر بعد رجوعه بوصول كتب صاحب السياسة الإنجليزية إلى السير بارنج بالإقلاع عن كل عدااء وعدم مساس كرامة الوزير بشيء ولا مراجعته فى شيء من أعمال منصبه فلم يكن هذا الخبر ليرضى الأحزاب ولا ليقف الأرجاف عند حد بل زاد النفور وربك الأمور ومال بالخديوى إلى التفرد بالعمل والبحث فى الصغيرة والكبيرة من أمور الحكومة وقد أحس مصطفى رياض باشا بما وراء ذلك فعاد يومئذ إلى عمل المآدب للكبراء والأمراء وأصحاب الوظائف وبالغ فى التودد إلى الناس والإقلاع عن التحجب فكثير تردد المديرين وأعيان البلاد على بيته تزلفاً فلما كان شهر رمضان من السنة أى سنة خمس وثلاثمائة وألف هجرية جاء من مزرعته بمنحلة روح إلى القاهرة وأكثر من عمل تلك المآدب فقويت حينئذ ظهور المحازبين له وظهرت جلبتهم وكثرت اجتماعاتهم وفى تاسع عشرى الشهر أرسل الخديوى إلى الوزير نوبار باشا كتاباً يقول فيه :

إنه بناء على ما وقع فى جلسة المجلس بالأمس وما هو إلا تكرار ما حدث أكثر من مرة من التباين فى الآراء مما رأيت معه استحالة بقائك فى منصبك فلماذا قد أقلتكَ منه وعهدت رئاسته وتشكيل هيئة جديدة إلى صاحب الدولة رياض باشا . أ. هـ .

ثم أرسل إلى مصطفى رياض باشا يستقدمه إلى الإسكندرية وقد كان الخديوى يومئذ هناك فجاءها فى ظهر الثلاثين من رمضان واجتمع بالخديوى ولبت بحضرته ساعة ثم نزل وطاف يزور بيوت الكبراء والأمراء وقناصل الدول وغيرهم من

الأجانب أصحاب الخيشيات قزاره الجم الصغير منهم وازدحم على بابه الشعراء والمهنتون وأصبحوا وقد خرج الناس من الأمراء والكبراء وأصحاب الوظائف لتأدية واجبات التهئة بالعيد وصعدوا إلى مقر الخديوى برأس التين فهنتوه، وسمعت بعضهم يقول للخديوى ونحن بقاعة التشريف ساعة التبريك عيد مزدوج يا أفندينا يريد بذلك عيد الفطر وعيد خلع الوزير نوبار باشا وكان ممن سمع معى هذا القول جماعة ممن لا يفضلون فريقا على الآخر فنظر الى أحدهم بعد أن خرجنا من حضرة الأمير وقال أو تظن أن الخديوى أقال الوزير نوبار باشا للأسباب التى تضمنتها مرسومه؟ قلت لا أظن غير ذلك - فقال: اعلم أنه لما كبرت الوحشة بين الوزير نوبار باشا والسير بارنج وعظم الخلاف وضاعت تدابير السير بارنج أدراج الرياح فلم يتل من الوزير مأربا عمد إلى المواربة فكان إذا اجتمع بالخديوى ورأى منه انقباضا خفف عنه وقال: يا مولاي إن البلاد إسلامية وقد بلغت فيها المعارف الحديثة مبلغها فليس من حسن السياسة أن يكون وزيرها نصرانيا ولا من الحزامة أن تترك البلاد هدفا لغايات الأحزاب الذين قد ظهر صوتهم وارتفع نداؤهم، وكان إذا طرأ شئ من الخلاف بين الخديوى والوزير على أمر من الأمور دخل على الخديوى وأظهر التأفف وبالغ فى الإشفاق - كل ذلك ليتمكن من خلع الوزير من منصب الرئاسة لكرامة الوزير عند صاحب سياسة الإنجليز وتقديره له حق قدره - قال: ومازل بالخديوى وهو يهون عليه خلع الوزير حتى ظن الخديوى أن السلامة فيما يشير به السير بارنج وأن الخلاص هين وميسور فلما آتس منه ذلك أشار عليه بتولية الرئاسة للوزير مصطفى رياض باشا وهو يرمى بذلك إلى غايتين أولاهما التكيل بالوزير نوبار باشا وثانيتهما بلوغ ما يتمناه لدولته من المآرب على يدى مصطفى رياض باشا لشهرته بالوطنية وإعجاب السواد الأعظم بكياسته وحسن تديره حتى إذا ارتفعت أصوات الأحزاب يومئذ وعلت ضوضاء أصحاب الصحف الأخبار وقالوا فعل الإنجليز بالبلاد كذا وتركوا كذا وكذا أجابهم السير بارنج خففوا عنكم فما هى إلا فعال زعيمكم ومقدام وطنكم فلا لوم على الإنجليز ولا تثريب فتأمل - فقلت ياهداك الله هذه ظنون وأوهام والله وحده علم ما فى مستقبل الأيام فقال نعم ولكن الأمر ظاهر للعيان والنتيجة لا يختلف قط فيها اثنان واعلم أن الخديوى ما برح ذاكرا للوزير نوبار باشا حسن طاعته وولاءه لذاته وعرشه وهو يعلم أنه أسلم الوزراء نية وأنقاهم طوية وأحب الناس إلى البيت العلوى وأحفظهم لنعمته ولكن وقع القضاء فلا خلاص ولا مناص ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ثم تم تشكيل هيئة الوزراء فكان الوزير مصطفى رياض باشا للرئاسة ولنظارتى الداخلية والمالية ومصطفى فهمى باشا للحرية والبحرية وذو الفقار باشا للخارجية ومحمد زكى باشا للأشغال العمومية وحسين فخرى باشا للحقانية وعلى مبارك باشا للمعارف العمومية، وجعل الوزير مصطفى رياض باشا يغدو ويروح على مقر الخديوى إلى يوم الثلاثاء ثم عاد مع الوزراء إلى القاهرة وطيح الخبر بتوليته إلى الآفاق وكتب إلى سائر المديرين والمحافظين بالقيام بواجب وظائفهم وحذرهم من عاقبة التراخى والإهمال ثم لم تمض إلا أيام حتى استقدمهم إلى القاهرة وأشبعهم تأنيبا وتقريبا ثم حضّا على الاستقامة والأخذ بأطراف الحزمة والسهر على راحة العباد وتأمين الطرق والمسالك فى أنحاء البلاد وقد شاع يومئذ أنه على عزم خلع سائر وكلاء النظارات كنظارة الخارجية ونظارة الحقانية ونظارة المعارف فقام لذلك بعض أصحاب الصحف الأجنبية والصحف المحلية وقعدوا وأخذوا يرمون بعض أولئك الوكلاء بشيء من التهم ويوجهون إلى بعضهم اللائمة فكان ممن أكثر الكلام فى ذلك صاحب جريدة الغازيت الإنجليزية وهى لسان الإنجليز بمصر فإنه شط فى المقال وأغلظ فى التعبير وكان إذا أمسك عن الكلام يوما أته كتب الخصوم فى ذلك ترى فيرجع إلى المهاترة وهذر القول حتى ظن الناس أن مناصب القوم باتت على شفا جرف الزوال وأن قول صاحب الغازيت فى ذلك موحى به إليه من المراكز العالية ولكنه لم يمض على هذه الجلبة إلا أيام حتى نهض أصحاب صحف الإنجليز الكبرى يعيرون على صاحب سياستهم ما وقع من خلع الوزير نوبار باشا ويظهرون الميل والعطف إليه وإلى مبادئه وأمياله الشريفة ثم جعلوا يعرضون بدسائس الغازى أحمد مختار باشا مبعوث الباب العالى ويقولون إنه هو علة هذا الانقلاب وداعية ذلك المصائب بإيقاظه الفتنة الراقدة وتشجيعه السير بارنج على ما زين للخديوى عمله وأخذوا من هذا الحين يقلبون للغازى مختار باشا ظهر المجن ويتوعدون الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحاب شوره بسوء العقبى والمصير إن لم يقلعوا عن هذا المنهاج المعيب ويعتدلوا فى سيرهم وتطرق بعضهم إلى القول بأن الرئيس إنما يريد من هذه الضوضاء تولية ولده منصب وكالة الحقانية وزج سائر ذوى قرباه فى مصاف أصحاب الوظائف العالية وقالت بعضهم غير ذلك، وأخذ الرئيس يتصرف فى الأمور فمد يده إلى أعمال سائر الدواوين وبسط عليها نفوذه فتعذر على كبارها توفية وظائفهم حقها واستعصى عليهم رده عن هواه أو مخالفة كلمته فاختلف يومئذ الحابل

بالنابل وفشلوا أى فشل وهو لا ينكف عن ترديد نداء الوعد والوعيد إلى المديرين والمحافظين وسائر أرباب الوظائف بالالتفات إلى تأمين الطرق وقطع شأفة اللصوصية وأصحاب السطوات إذ كثر عبثهم فى هذه الأيام واشتدوا على القرى والبلاد بين قتل ونهب وإفساد فكان كلما اشتد الرئيس على أصحاب الوظائف بسبب ذلك ازداد اللصوص قحة وجراً على الإفساد وإراقة الدماء وفتكوا بالناس فتكا ذريعاً فى مشرق البلاد ومغربها حتى فى القاهرة ومصر القديمة إذ سطوا على بيت حسين فخري باشا ناظر الحقانية وأخذوا منه شيئاً من الحلوى والأعلاق النفيسة وكذلك فعلوا ببيت نوبار باشا بعد رحيله إلى الديار الأوروبية وبيت الطبيب جرانت بك الإنجليزى وأزعجوا أهل القاهرة ومصر وبلغ خوف الناس منهم معظمه فكان إذا خرج الرجل من بيته لحاجة وكل جاره بحراسة بيته حتى يعود والرئيس مع هذا كله كان يقول: عسير علىّ أن أرى فى أيام رئاستى غير ما هو صائر من تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وقطع شأفة أصحاب الشقاوة .

واجتمع به يوماً مكاتب جريدة الستاندرد الإنجليزية فحادثه فى أحوال البلاد وما عليه أهلها من القلق والخوف المتزايد بسبب عبث اللصوص فى مشرق البلاد ومغربها وفى التهم الفاضحة الموجهة إلى أصحاب بعض الوظائف الديوانية وأشار على الرئيس بتشكيل لجنة شبيهة باللجان التى يتولاها مجلس الأشغال العمومية فى عاصمة الإنجليز وأن تكون أعمال هذه اللجنة علنية لا تخفى على أحد من الناس فقال له الرئيس: إن مثل هذه اللجان فى بلادكم لا تتناول إلا أبناء جنسكم فقط على حين أنها إذا أنشئت هنا حال دون بلوغها الغاية موانع شديدة إذ تقوم الأحزاب ويندفع كل منهم على الآخر ويرمى غيره بالتهم والوشاية وهناك تكون الطامة الكبرى- إلى أن قال: وحقيقة الأمر أن الأحوال فى السنوات الست الماضية « يعنى بها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا » قد بلغت حداً من الخلل والارتباك لم أكن أخالها تبلغ إليه عند ما استلمت زمان الرئاسة فى هذه المرة والذى أراه أنه ليس فى الإمكان الآن فحص جميع الأعمال المخلة التى عملها بعض موظفى الحكومة لا سيما وأنهم فيما يظهر قد أقدموا عليها مدفوعين ممن كانت واجباتهم تقضى عليهم بمعايبتهم قال: وأؤكد لك أنه لا يكاد يضى يوم حتى يظهر فيه مظهر جديد مشوه بالعيوب والخلل مما كان يدفع بى أحياناً إلى القنوط إذ أجد نفسى تجاه أمور ثقيلة تقضى على بالعناء الكثير والذى يدهشنى ويوجب مزيد استغرابى هو عدم تداخل الدولة

الإنجليزية فى ذلك الأمر وإغماضها الطرف عن الأعمال السابقة «يعنى أعمال الوزير نوبار باشا» قال وإنى لا أقصد محو المغايرات القديمة والإغضاء عنها ولكنى سأجهد النفس فى نسيان الماضى لا سيما وأن المستقبل معقودة نواصيه بنزاهة الأعمال الحاضرة أ.هـ.

قلت : ومحصل بعض هذه التهم التى أشار إليها ذلك المكاتب الإنجليزى أنه لما سقطت الخرطوم وانحدرت الجيوش الإنجليزية وتحقق الناس خروج الأقطار السودانية من قبضة الخديوية المصرية تقدم إلى ديوان الخزينة جماعة من اليونان والروم الذين كانوا يتجرون فى السودان يطالبون بمال لهم فى ذمة غردون أيام الحصار ودفعوا إلى الخزينة صكوكا موقعا عليها بخاتم غردون تثبت أن فى ذمته لأصحابها مالا اقترضه للنفقة أيام الحصار وتزاحمت أقدام هؤلاء القوم على أبواب الخزينة وهم فى كل يوم يلحون فى طلب مالهم فاهتمت الخزينة يومئذ بالأمر وأكبره رجالها وشكلوا لفحص تلك الصكوك هيئة من أشار بهم جماعة الإنجليز فتقرب أصحابها حيثذ من بلوم باشا وكيل الخزينة وأورنشتاين كاتب سر المستشار المالى قيل ومنوهمما ووعدوهمما بالوعود الكثيرة ففصلا فى الأمر وقاسا وألسا كلا من أصحاب تلك الصكوك ما لاق فهمت الخزينة بالوفاء وهى فى إمحال وعسر فلم تتمكن فانبث أصحاب الجباية يومئذ يجوبون البلاد شرقا وغربا ويجمعون الأموال والضرائب مع العنف والشدة وطلب أصحاب تلك الصكوك مترادف حتى برح الخفاء وبان فساد تلك الصكوك وتحققوا أن خاتم غردون مزور فامتنعت الخزينة من القيام بتعهداتها وخابت مساعى كل من كان فى قلبه مرض بعد قيل وقال ضربنا عنهما صفحا فلما ذاع كلام الرئيس مصطفى رياض باشا مع ذلك المكاتب على ما تقدم وتناقله الناس أخذت الرئيس ألسنة الأحزاب وعابوا عليه خيلاءه وتفاسخه وقالوا عسير عليه أن يدرأ عن نفسه وصمة هذا التزلف وعار التقرب من الإنجليز وهو رجل الوطن ووحيدته وتطيروا من ذلك وحسبوا للمستقبل أيام رئاسته فى هذه المرة حسابا كبيرا.

وكان قد حدث على عهد الوزير نوبار باشا حادث فى الفيوم - وذلك أن أحد أصحاب الحثيات بها واسمه مصطفى بك واصف قتل فى إحدى ليالى شهر رمضان فى بيت وجيه من البلد اسمه خليل الدهشان فاهتمت الحكومة يومئذ بالأمر ورسم الوزير نوبار باشا إلى جماعة من المأمورين بتحقيق هذا الحادث وإظهار الجانى فلم يفلحوا واختلط عليهم الحال أياما فلما تولى الرئيس مصطفى رياض باشا الرئاسة

وآس من الناس قلقا واضطرابا لفقدان الأمن وعبث اللصوص فى سائر البلاد عمد إلى إظهار شىء من الشدة فى تحقيق مقتل مصطفى بك هذا ورسم به إلى جماعة اصطفاهم وهم حشمت بك رئيس محكمة المنصورة، وأحمد خيرى بك قاضى تحقيق جنايات محكمة مصر، ومحمد صبرى بيك أحد ضباط قسم الضبط فساروا جميعا إلى مدينة الفيوم وقبضوا على خليل الدهشان صاحب البيت الذى قتل فيه مصطفى بك وعلى جماعة آخرين ممن حصروا الشبهة فيهم وزجروهم فى الحبوس وضيقوا عليهم وشددوا فلم يصلوا إلا إلى معرفة أن الرجل أصيب بطلق نارى وهو يلعب النرد مع خليل الدهشان ثم شاع الخبر بعد ذلك أن خليل وأخاه خير الله هما القاتلان - قالوا: وتحرير الخبر أن مصطفى بك هذا جاء فى إحدى ليالى شهر رمضان من مزرعته إلى بيت الدهشان ليزوره لمودة وصحبة بينهما فبعد الإفطار وأداء صلاة التراويح جلس مصطفى بيك مع الدهشان على مسطبة فى صحن الدار يتحادثان لحظة لطيفة ثم طلب مصطفى بيك من الدهشان أن يلاعبه النرد « الطاولة » فأجابه إلى ذلك ونادى على أحد أتباعه أن هات لنا الطاولة فأتى بها الخادم فينما كان خليل يرتب أحجارها نظر مصطفى بيك مسدسا بجانب خليل فقال ما هذا؟ قال هو مسدس من الطراز الجديد قال أرنى إياه ومد يده وأخذ قلبه وأعجب به كثيرا ثم ناوله إلى الدهشان فجعل الدهشان يقلبه أيضا ويطرى على صانعه فلم يشعر مصطفى بيك إلا وقد خرجت منه رصاصة أصابت كتفه فانزعج وصاح فى وجه الدهشان وقال «أهى خونة يا كلاب فلا كنتم ولا كانت صحبتكم» فجاء فى الحال خير الله أخو خليل وصاح على أخيه ما هذا وما الذى تنتظره بعد الذى جرى عجل بإزهاق روحه - قال وأخذ هو المسدس وأطلقه على مصطفى بيك ثانية فأماته . قالوا وقد شهد شهود الحال بهذا المقال فأتى جماعة المحققين عملهم وانحدر حشمت بك إلى القاهرة وأخبر الرئيس بما جرى قيل فأعجب الرئيس فطنته وذكاؤه واهتم بالأمر ورسم إلى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية بتشكيل محكمة مخصصة للحكم فى مقتل مصطفى بيك فرفعوا بذلك طلبا إلى الخديوي فأجابهم إليه وتشكلت تلك المحكمة من خمسة قضاة وهم: عبد الحميد باشا، وأحمد بليغ بيك، وإبراهيم نجيب بيك، ومحمد كمال بيك صهر الرئيس مصطفى رياض باشا، وسليمان رؤوف بيك، وأحمد حشمت بيك، لأداء وظيفة المدعى العمومى وتقرر بأن تتبع هذه المحكمة فى أحكامها نصوص القانون الجديد المعمول به فى المحاكم الأهلية بالأقاليم البحرية

لأنه إلى ذلك اليوم لم تكن تأسست المحاكم بالأقاليم القبلية وبأن يكون حكمها فى ذلك نهائيا لا يقبل طعن على أى وجه كان فلما كان صباح الاثنين خامس عشرى المحرم افتتاح سنة ست وثلثمائة وألف هجرية انعقدت هيئة تلك المحكمة وأوقفوا أمامها خليلا وأخاه خير الله ووقف معهما أحمد أفندى الحسينى و خليل أفندى إبراهيم المحاميان عنهما وبعد دفاع يومين كاملين حكمت المحكمة بإعدام خليل وأخيه شنقا، وصادق قاضى قضاة مصر والحدويى على ذلك وأعطى للمحكوم عليهما مهلة ثمانية أيام من يوم صدور الحكم لكى يدبر أمر عيالهما وعلاقاتهما ثم نفذ الحكم على خليل بمدينة الفيوم وعلى خير الله أخيه باهرية إحدى قرى الفيوم فلما وضعوا حبل المشقة فى عنق خليل وأزاحوا الكرسي الذى كان تحت أقدامه انقطع الحبل وسقط خليل مغمى عليه فأجلسوه على كرسي وذهب الجلاد يشتري حبلا آخر من سوق البلد ففتح خليل عينيه وقال اتنوني بقليل من الماء فأتوه بركوة فشرب قليلا والتفت إلى الجمع وقال: أشهدكم بأنى مظلوم مظلوم ويعلم الله - القصاص قريب - ثم أغمض عينيه وسكت فضج الناس وتوجعوا وظهرت حركتهم وعاد الجلاد بالحبل ووضعوه فى عنق خليل وشده فبقى معلقا وفاضت روحه فى الحال وشاع خبر هذا الحادث فانقبضت صدور الناس لسماعه وعاب كثير من القضاة على تلك المحكمة حكمها ورموا بعض رجالها بالمروق عن جادة الحق وكثر تحدث الناس فى ذلك ولا سيما بعد أن خلع الرئيس بعض أصحاب الوظائف العالية وحاكم البعض الآخر ممن كان لهم يد فى التحقيق الأول. حدثنى وجيه من وجهاء الفيوم قال: أظن الناس أن خليل الدهشان وأخاه خير الله هما قاتلا مصطفى بك واصف - قلت: لم يبق على ما أظن من ريب عند أحد فى ذلك بعد أن حكمت به تلك المحكمة العليا فأطرق ثم رفع رأسه وقال عرفت مصطفى بك منذ حين وأعرف ولدى الدهشان من قبل فأحدهما وهو خليل صعب المراس قوى الشكيمة جبار عنيد ولكنه جواد كريم حسن المعشر بعيد عن الجور وكان بينه وبين مصطفى بك صفة ومودة عظيمة لا لغرض سوى محض الإخلاص وكان أعرابى اسمه منصور مستأجرا لشيء من أطيان خليل الدهشان بإحدى قرى الفيوم وله زوجة جميلة قد علق خليل بحبها وعلقت هى كذلك به فكان خليل يزورها فى خدرها كل قليل من الأيام وتزوره فى بيته بالبلد وكانت مع شدة مراقبة خليلها وغيرته لا تخشاه ولا تنكف عن الإتيان إلى خليل وشاع خبر ذلك بين الناس وعرفه كبار البلاد وصغارها حتى ندد بعضهم يوما بزواج المرأة وناداه بعضهم بفحش القول فصمم الرجل على الانتقام من

خليل وجعل يراقب الفرص و خليل يعلم ويحذر ويدفع بالرجل إلى المهالك رجاء الخلاص منه واتفق أن حضر مصطفى بك فى إحدى ليالى شهر رمضان لزيارة خليل فى داره بَاهرِيْت والإفطار عنده فى تلك الليلة ففرح خليل بحضوره وبعد الإفطار جلسا على مسطبة بصحن الدار يتحدثان ساعة ثم قال مصطفى بك لخليل أو ليس عندك طاولة للعب فقال عندى قال: هاتها لنلعب معا قتلا للوقت فنأدى خليل على أحد أتباعه أن اثنا بالطاولة من بيت النساء فدخل الخادم وأبطأ كثيرا فقال مصطفى بك أين الطاولة يا قوم ما هذا الإبطاء فخرج خليل من إبطاء الخادم وأسرع إلى بيت النساء فلاقاه الخادم عند الباب وقال له: سيدى فلان «يريد به ابن أخى خليل المتوفى» منعنى من أخذ الطاولة ويقول إن أخته ماتت منذ خمسة أيام فكيف يليق لعب الطاولة وقد لطمنى على وجهى فلما سمع خليل ما قاله الخادم غضب وأسرع بالدخول وكان ابن أخيه قد رآه على هذه الحال فأسرع إلى الطاولة وأخذ حجرا من أحجارها ليمع من الاستفادة منها فمال عليه خليل وأشيعه ضربا ولكما وأخذ الطاولة وخرج مسرعا وجعل يعتذر إلى مصطفى بك ومصطفى بك يضحك فجلس خليل وفتح الطاولة يريد رص أحجارها فوجد حجرا فاقداً فنأدى على الخادم أن أحضر لنا قرشا نحاساً نضعه بدل الضائع من الحجارة فذهب الخادم، وعلم منصور العربى فى تلك الساعة بخبر جلوس خليل وضيئه فى صحن الدار فأتى مسرعا يتأبط بارودته ووقف خلف سور صحن الدار والسور لا يتجاوز ثلاثة أذرع ارتفاعا وصوب بارودته نحو رأس خليل وكان فى هاته اللحظة قد رجع الخادم وناول سيده القرش فأخذه وانحنى قليلا وجعل يرص الحجارة ثم رفع رأسه قليلا ثم طأطأها فأطلق الأعرابى بارودته فخرجت رصاصتها عند انحناء خليل واحتكت برأسه من خلف إلى الإمام وأصابت كتف مصطفى بك ثم استقرت بقلبه ففاضت روحه لساعته واختفى الأعرابى فلم يعلم به أحد فقامت ضجة فى بيت خليل وامتلا صحن الدار بالعدد العديد من أهل البلد وطيروا الخبر بما حصل إلى المدير وإلى أهل الفقيد فوردت يومئذ كتب الوزير نوبار باشا مشددة بالقبض على القاتل وجاء بعض مأمورى الحكومة لتحقيق الحادث وبثوا العيون فدلّت التحقيقات على أن الطلق النارى كان على بعد بضعة أمتار وأن مقذوف البارودة شظية من الرصاص لا رصاصة من رصاص المسدسات واستخرج تلك الشظية جماعة من الأطباء فلم يبق موضع للريب عند أحد فى أن القاتل هو غير الدهشان. قال: ولكن أين هو القاتل يا ترى لم يحصل العثور عليه إلى ذلك الحين، واتفق أن عزل الوزير نوبار باشا من

منصبه فتولى الرئاسة مصطفى رياض باشا فاهتم بهذا الحادث اهتماما عظيما لسعاية بعض الخصوم وتقرب أصهار مصطفى بك من مجلس الرئيس فوردت كتبه على مدير الفيوم بالتشديد فى طلب القاتل والتحذير من عاقبة التوانى ثم لم تكن إلا أيام حتى أرسل أحمد حشمت بك أحد رؤساء المحاكم الأهلية ومعه جماعة من المأمورين فما لبثوا أن قبضوا على خليل وأخيه خير الله وزجوهما فى الحبس مع نفر من أهل البلد وعملوا ما لا خير فيه إذ نبشوا جثة المقتول وأخرجوها من قبرها وكبسوا بعض الدور وفتشوها ونقلوا شيئا مما وجدوه بها ومنعوا المسجونين من الراحة فى الليل والنهار واشتدوا عليهم فى الأخذ والرد شدة بالغة وقالوا إن الجراحة التى شوهدت فى رأس خليل ليست إلا كيا بمسار محمى فى النار يراد به درء فعل القتل عنه . قال : وقد كان السواد الأعظم من أهل الفيوم يعلم بأن الحقيقة غابت عن أولئك المأمورين أو هم أخفوها لغرض فى النفس فأخذتهم الطيرة وكانوا إذا تكلم بعضهم مع بعض فى شىء من ذلك تكلموا همسا خوفا من العيون وكثر غدر ورواح حشمت بيك إلى القاهرة فكان كلما ذهب وعاد قلب الأعمال بطنا إلى ظهره وبالغ فى الحيلة والتشديد على المسجونين ثم جاء جماعة من القضاة للحكم على خليل وأخيه فى محكمة مخصوصة أو هى محكمة عليا كما سموها وجلسوا لذلك يوما وبعض يوم قام فيهما حشمت بك مدعيا فبالغ فى القول وشط فى الطلب وعاب على بعض مأمورى التحقيق عملهم وارتاب فى ذمهم ولم يترك جراحة إلا وطعن بها جسم خليل وأخيه خير الله ثم أخذ بعد كلام طويل ينادى القصاص القصاص احكموا لنا بتعليق هذين السفاكين على خشبة احكموا احكموا على قاتلى ذلك البرئ احكموا فكان السامعون يمددون فيما بينهم ثم قام المدافعون عن خليل وأخيه وتكلموا واحتجوا بأقوى الحجج وبرهنوا بأعظم ما يكون من البراهين على براءة خليل وأخيه واستلقتوا أصحاب الحكم إلى صوت الحق الصارخ أمامهم حتى بكى بعض الحاضرين وبعد أخذ وردّ تقدم خليل وكانوا قد فكوا قيوده وأغلاله وقال بصوت استلقت إليه الأنظار: يا سادتى اتهمنى وأخى خير الله حضرة هذا المدعى الذى لم يراع الذمة ولم ينصر الحق واشتد على وعلى أخى شدة الله يحكم فيها بعدله وزعم أن الجراحة التى أصابت رأسى من الطلق النارى الذى أصاب قلب فقيدنا مصطفى بيك إنما هى جراحة أحدثها لى أحد الحلاقين إخفاء الحقيقة جريمتى وقد سمعتم من دفاع المدافعين عنى ما أسأل الله أن يوفقكم به إلى الصواب فلم يبق إلا أن أسألكم أمرا هو إن وفقتم إلى الحكم على وعلى أخى بالقتل ولا أنظنكم إلا

فاعلين فأستحلفكم بمن ترجون منه الرحمة من هول هذا الموقف الرهيب أن تبدءوا بى وتستبقوا أخى خير الله أياما حتى تفحص الأطباء جراحتى بعد الموت فإن كانت إصابة حقيقة وليست جراحة من يد حلاق كما يزعم مدعيكم فأطلقوا سبيل أخى ليعول صييتى وأهلئى ويكون قد خفف الله عنكم وزرا من وزرين وكفاكم عقاباً من عقابين وإن كانت جراحتى كما يقول صاحبكم فأنتم فى حل من دمي ودم أخى والله. على ما أقول شهيد ثم ذرفت عيناه الدمع فانتحب وبكى الناس لبيكاته وكادوا يفضجون ويرفون أصواتهم. قال الراوى: فعند ذلك قام القضاة واختلوا برهة ثم خرجوا وجلسوا على كراسيهم ونطق الرئيس بالحكم على خليل وأخيه بالإعدام شنقا فاندعر الناس وخرجوا وكان على رؤوسهم الطير. قال: واتفق أن عاد السير بارنج فنصل جنرال الإنجليز إلى القاهرة بعد غياب وشاع خبر حضوره فعلمت به عجوز هى أم خليل وخير الله فقامت لساعتها ومعها صبي للخليل لم يناهز الخامسة وانحدرت إلى القاهرة واتصلت بباب السير بارنج واستجارت فأدخلها إليه وسألها عن سبب حضورها فقصت عليه الخبر وقالت جئتك يا سيدى لا لتخلص ولدى من الموت بل ليبدءوا بقتل خليل وفحص جراحتة فإن كانت كما يقول فأبقوا لى خير الله يعولنى ويعول صبيته وصبيته أخيه وإن كانت كما يزعم مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراه فهم فى حل مما يفعلون. قال: وبكت العجوز بكاء مرأ وتراعى الصبي على أقدام السير بارنج فطيب السير خاطرها ووعدا خيرا. قال: وكان السير بارنج أرسل إلى الرئيس مصطفى رياض باشا يستعلم عن هذا الحادث فلم يكن إلا يوم أو بعض يوم حتى جاء أحمد حشمت بك إلى الفيوم يحمل الأمر بتنفيذ الحكم على خليل وأخيه، ولم يكن قد مضى الأجل المضروب لذلك قانونا فأنفذوه على ما اشتهر خبره يومئذ وبلغ السبع الطباى أ.هـ.

قلت: وكان الرئيس كان يظن أن فى قتل ولدى الدهشان، وعبرة وإرهايا لأهل الشقاوة وأصحاب اللصوصية الذين ملثوا البلاد شرقا وغربا ينهبون ويقتلون ويقطعون الطرق فلم يصب ظنه المرمى فإنه ما انتشر خبر هذا الحادث حتى كبرت قحتهم وعظمت جراتهم وانبثوا فى سائر أنحاء الإقليم فكانت الأخبار تاتى إلى الرئيس تباعا بوقوع النهب والقتل وإتلاف المزارع وتسميم الماشية حتى ضج الناس وذهب منهم الصبر وتولاهم القنوط واليأس وقد زادهم قلقا واضطرابا ورود الخبر بظهور الوباء فى مكة واشتداد الموات بين الحجاج شدة بالغة فاهتمت رجال الحكومة لذلك اهتماما كبيرا ورسم الخديوى بناء على ما قرره مجلس الكورنتينات بإرسال قوة

كبيرة من العساكر والأجناد إلى مدينة السويس لتقوم بعمل طوق صحنى ما بينها وبين طور سينا وعيون موسى وتشديد مراقبة الحجر على الحجاج فى الطور عند قيامهم من جده وغيرها وبالغت الخزينة فى بذل النفقة اللازمة لذلك وتحوطت الدول الأجنبية كافة فضربت الحجر على سائر ما يرد إلى موانئها من الموانئ المصرية وسواحل البحر الأحمر وأرسل بعضهم إلى السويس رسلا ليراقبوا مرور الحجاج بالترعة الملحة عند عودتهم إلى أوطانهم وخاف الناس من تناقض الأخبار وورودها متناقضة مبتورة عن ظهور هذا الداء أيضا فى رواندوز من بلاد الموصل وفى جزيرة ابن عمر وغيرها من البلاد العربية وهو آت إليها من الهند الإنجليزية وكثر اجتماع الرئيس مصطفى رياض باشا بكبار موظفى ديوان الصحة ليرأى رأيتهم فيما يجب عليهم عمله لقاء هذا العدو الفتاك وطاف أطباء أقسام مصر والقاهرة فى الأزقة والحدارات ومعهم أصحاب الشرطة ومشايخ الحوارى يستحثون العامة إلى نظافة بيوتهم والعناية بتطهيرها وصارت الأخبار تأتى فى كل يوم من مكة والمدينة بعدد الوفيات فكان مبلغها فى اليوم نيفا وألفا فاشتد الخوف بالناس وكبرت حيلة رجال الحكومة ورسم الخديوى بمنع عمل الموالد ومنع الناس من الاحتشاد فيها وأرسلوا بعض سفن الحرب لحراسة السواحل من السويس إلى دبه ومنها إلى الزعفرانة وأقاموا أربطة من الجنود على هذه السواحل لمنع الفارين من الحجر والأخبار ترد فى كل يوم باشتداد الوباء فى مكة وفى المدينة ودخوله إلى جدة وفتكه بالحجاج فتكا ذريعا ثم كثر توارد الحجاج على ظهور السفن إلى الطور وعيون موسى فأنزلوهم هناك محجورا عليهم وبقي الحال هكذا أياما وجاء الخبر يوما إلى محافظ السويس بفرار أربعة من الطوق الصحى ودخلوهم المدينة ثم فرارهم منها ليلا إلى القاهرة واختفائهم فى بولاق مصر فطير الخبر بذلك إلى محافظ مصر فاهتم له المحافظ وبث جماعة من أصحاب الشرطة فى طلب الفارين فعاثوا فى بولاق مصر وكبسوا على كثير من الدور والوكائل على غير طائل واتفق أن مرض رجل من سكان بولاق مرضا عاديا سبقه بعض القيء والذرب فأخبر شيخ حارته طبيب القسم بخبره فسار الطبيب إلى منزل المريض لىبحث عن علته وسبب مرضه فوجد أن الرجل قد مات وأن أهله يستعدون لتشييع جنازته فمنعهم من ذلك وأرسل فى طلب عربة الموتى من مركز صاحب الشرطة ببولاق وطير الخبر إلى محافظ البلد بأن الرجل مات بالهيفة الوبائية ثم منع الناس من الاقتراب من الجثة وبالف فى ذلك فقام عليه حيثئذ أهل الميت وأشبعوه ضربا ولكما ووخزا وأخرجوه خارج الدار وقفلوا دونه الباب فلم تكن

إلا لحظة حتى أتى رجال الشرطة ونفر من رجال الصحة ومعهم عربات نقل الموتى وتطهير متاع المصابين بالأمراض المعدية وشيء من العقاقير ومواد التبخير ودقوا باب بيت الميت فلم يفتحوا لهم فظلوا على هذا الحال ساعة اجتمع فيها العامة وزعر بولاق بعصيتهم وهراويلهم واشتدت جلستهم وصياحهم فى وجه أصحاب الشرطة ورجال الصحة وعلا عويل النساء وصراخهن من شبايك الدور ورموا رجال الصحة بالحجارة من أسطح البيوت وكثر الهرج والمرج فأتى محافظ المدينة فى نفر من الجند والأتباع ومازال بأهل الميت حتى فتحوا الباب فدخل أصحاب الشرطة ورجال الصحة وحملوا الجثة عنوة ووضعوها فى عربة الموتى فسارت بها على عجل إلى مستشفى القصر العينى والناس محتشدون حولها وهم فى ضجة وصياح فكان المشهد مريعا وخاف الناس خوفا عظيما وظن بعضهم أن قد أنشب الوباء أنفثاره فى جوف بولاق القاهرة بدخول الفارين من الحجر الصحى إليها واستصرخ أصحاب الصحف على اختلافها رجال الصحة واستهضت أصحاب الشرطة إلى الأخذ بأطراف الحزم والثبات وسألت أصحاب الحل والعقد أن لا ييخلوا ولا يقتروا فى النفقة حتى يدفع الله عن البلد شر هذا العدو القاهر وأكثر الأطباء من نشر الإرشادات الطبية والنصائح الصحية لعل الناس يعولون عليها ويعملون بها، فلما كان اليوم الرابع من ظهور هذا الحادث ظهر الخبر وتحقق أن ذلك الميت لم يمت بالهَيْضَة الوبائية وأن مرضه إنما هو من الأمراض العادية التى تحصل عادة فى فصل الصيف من كل سنة وأن الرجال الفارين من محجر الطور ليسوا من الحجاج وإنما هم ممن ذهب مع ركب الحج يوم خروج المحمل من القاهرة ثم تخلفوا بالسويس لضيق ذات اليد ولبثوا بالبلد ينتظرون رجوع الحجاج فينزلون معهم إلى القاهرة كأنهم حجوا وطافوا وتمموا المناسك كلها زورا وبهتانا وتكلمت فى ذلك الجريدة الرسمية وأقامت عليه الدليل فاطمان الناس وزال عنهم الخوف وكبرت عناية أصحاب الحل والعقد بمراقبة السواحل والتشديد فى النطاق الصحى بمحجرى عيون موسى وطور سيناء.

وبينما كان دعاة الصحة يطوفون المدن والبلدان شرقا وغربا وشمالا وجنوبا يحضون الناس على تنظيف دورهم وإصلاح حالة طعامهم والعناية بماء شربهم والامتناع عن كل ما من شأنه تسرب ذلك الداء الفتاك إلى البلاد وفتكه فيهم وفيمن يحبون كان جباة الخراج يطوفون كذلك البلاد زمرا يجبون الأموال فى غير آجالها ويشددون على الناس فى ذلك تشديدا بالغا وكان بعض المديرين يبذلون من الهممة فى ذلك والعناية به ما أعجب الرئيس مصطفى رياض باشا وأرضاه إذ كان يخشى

عاقبة إمحال الخزينة وفراغها من الدرهم والدينار وعجزه عن القيام بالنفقة المطلوبة - قيل وهو فى كل يوم يقول لجماعة الإنجليز إن أيام رئاستى خير ورخاء على البلاد وأهلها فرسم للمديرين كافة يومئذ بخروج الجبابة والتشديد عليهم فى جمع الأموال وعدم الوقوف فى التحصيل عند حد فظافوا وعاثوا واشتدوا على الناس فضج الناس وعجوا إلى الله تعالى وأرسلوا الشكاوى تترى إلى ديوان الرئيس بطلب المهلة وكف أيدى الجبابة إلى حين فلم يلتفت الرئيس إلى ذلك بل رسم أيضا بتحصيل سائر المتأخرات على اختلافها وعدم التجاوز عن شىء منها وسير بعض المأمورين وأصحاب الوظائف إلى الأقاليم يستحثون الجبابة على التعجيل وعدم الإبطاء فضاق خناق الناس وتولاهم القنوط وانحدر منهم جماعة كثيرة إلى القاهرة ووقفوا على أبواب الداخلية والمالية يرجون لقاء الرئيس أو لقاء صهره محمود باشا دبوس أوغلى فلم تمكنهم الحجاب من ذلك أياما .

واتفق فى هذه الأثناء أن تولى وكالة الخزينة المستر منلر أحد كبار الإنجليز «وقد كان مديرا لحسابات الخزينة» بدلا من بلوم باشا الذى تولاهما فى عهد الخديوى إسماعيل وبقي شاغلا لها حتى أقصاه الإنجليز عنها فى هذه الأيام صاغرا لأسباب لا محل للإيرادها هنا فتزاحم القوم على باب منلر وصاحوا واستغاثوا ووردت على ديوانه كذلك صكوك الظلامات من كل فج عميق فأكبر منلر الأمر واهتم له اهتماما عظيما لأنه أعلم الإنجليز بحالة البلاد وأهلها وما هم فيه من شظف العيش وخلو ذات اليد وأعلمهم كذلك بقدر اهتمام الرئيس بجباية الأموال وميله إلى قهر الناس على دفعها صاغرين فسار من فوره إلى الإقليمين القبلى والبحرى وطاف كثيرا من المدن والبلدان وخبر من أحوال أهلها ما زاده شفقة وعاد إلى القاهرة فسير إلى المديرين والمأمورين فى منع الجباية إلا فى آجالها المقررة وكف الجبابة عن المطالبة بالبقايا والتأخرات إلى ميسرة وشدد عليهم فى ذلك تشديدا فلم يعجب الرئيس فعال منلر وعابها وحسبها تعديا وافتياتا على منصبة وهم برّد كل شىء إلى ما كان عليه وأرسل فى طب سائر المديرين ووكلاء المديريات فحضرُوا فخلا بهم فى ديوانه يوما أو بعض يوم ثم أرجعهم إلى مراكزهم فلم تكن إلا أيام حتى ظهر لمنلر وجماعة الإنجليز أن بعض المديرين يكرهون مشايخ البلاد على تقديم عرائض يسألون بها دفع جميع الخراج معجلا عن السنة الجارية أى سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية وأن قد ورد على ديوان الخزينة شىء من تلك العرائض فاهتم منلر بالأمر كثيرا وطال الأخذ

والردّ بينه وبين الرئيس أياما ثم أرسل منلر كتبه إلى المديرين ثانية بالكف عن الجباية والإقلاع عن كل إكراه وإلا ساءت العاقبة وعظم الحساب وبدت من هذا الحين دلائل الوحشة بين منلر والرئيس ونفر كل من رفيقه واهتم منلر بإيقاف الرئيس عند حده وبالغ فى السعى وراء ذلك وعلم الناس بما جرى ففرحوا وحمدوا منلر وشكروه فتكلم فى ذلك بعض أصحاب صحف الأخبار وعابوا على الرئيس فعالة وقالوا ما ضره لو أقلع عن هواه وقلل من حدّته ولم يمكن منلر من الغلبة عليه وتنغير قلوب الناس منه وهو رجل الوطن وكاشف غمته ومفرج كربته فردّ عليهم بعض أصحاب الصحف المحاربة للرئيس ردا كله بمحاكمة ومهاترة ووقعوا على المستر منلر باللائمة وأشبعوه تأنيبا وتقريعا، وتلاقيت يوما مع أحد المقرّبين من مجلس الرئيس فقلت قد ذهبت أتعاب صاحبكم فى التعجيل بجباية الخراج قبل أوانه وفى تحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة هذرا وقد كان عهدنا به أن لا يصرف وجه أصحاب الظلامات عنه ولا أن يمكن أحدا من طرق باب غير بابيه فان ذلك كما تعلم أدهى إلى الصغار وأدنى إلى مهواة البوار وكلنا يعلم ما لصهر الرئيس من الحيلة والقدرة على تلافى مثل هذه الفتنة المزرية المعيبة خصوصا فى هذه الأيام التى قويت فيها شوكة الأجنبى واتسعت سلطته فسبحان الله - فتبسم الرجل عند ذلك وقال: وأى حيلة تنفع أو قدرة تدفع والرئيس قد خص ذاته بقضاء أشغال الخزينة ولجنتاتها ومجلس الوزراء وجلساته وأشغال الداخلية وفروعها واهتم بمعرفة أسرار وعورات كل فرد من أفراد مستخدمى كل ديوان وإدارة من الصغير إلى الكبير فضلا عن عنايته الكبرى بنشر المنشورات والإكثار منها وقلب النظامات وغير ذلك من دوام التفكير فى أحسن التدابير مما لا يقدر عليه أحد غيره - قلت: إنى لا أراك مصيبا فى ذلك لأن ما لا يقدر على عمله بنفسه وقلمه وهو على كرسى إدارة الخزينة مثلا يقوم بعمله صهره محمود باشا وهو فى مسند وكالة الداخلية - قال: وهل لصهره من الوقت ما يكفيه لقضاء مثل هذه الأعمال الخطيرة كلها وقد هجر منزله فى بولاق مصر ولازم دار الرئيس بالحلمية نهارا وليلا ولا يجد مع ذلك ساعة يقضيها فى حوائج نفسه لأنه يأتى نظارة الداخلية فى صباح كل يوم فيجد على مكتبته الشئ الكثير من الرسائل الرسمية والكتب الخصوصية فيفرض ختامها ويقرؤها جميعها ويحفظ الخصوصى منها ثم يرد الباقي إلى أصحاب الوظائف الديوانية كل هذا وهو يقابل الكتاب والحجاب وأصحاب الحاجات الخصوصية وأرباب الوظائف العالية وأصحاب الحاجة من مشايخ البلاد حتى الساعة الأولى بعد الظهر فيذهب إلى دار الرئيس ويجلس معه على مائدة

طعام الظهر ويقص عليه حوادث الصباح وما فيها وقصص أفراد السهارة فى الليل وحاجات أصحاب الحاجات منهم ثم يذهب فيستريح قليلا ويقوم بعد ذلك إلى حيث يستقبل الوافدين فيرد عليه رواة الحوادث والأخبار اليومية والجواسيس الخصوصية ثم المرتزة وطالبو الخدمات ووظائف مشيخة البلاد وأرباب الصحف وأصحاب الوساطة فيقضى بقية يومه فى سماع ظلاماتهم وربما حنّ لشكوى بعضهم وتوجع لبلواهم حتى الغروب فيأخذ فى قراءة الصحف بتأمل وإمعان فيذم الذامة منها ويضرب بها عرض الحائط ويقل على المادحة ثم يقوم إلى تناول الطعام مع الرئيس فيقص عليه ما اتصل به من أخبار نقلة الأخبار والجواسيس ثم ما قرأه فى الصحف من مدح وقبح ثم يشير على الرئيس بأن يأمر بإقصاء زيد عن خدمة الحكومة وبإدخال عمرو فيها وبرّد بكر إلى مشيخة بلده كما كان وغير ذلك من المقاصد والآراء إلى أن ينتهى من الطعام فيرجع إلى حيث يستقبل الناس فيدخل عليه حيثئذ المدلسون والمملقون والمداهنون والواشون والآكلون للحوم إخوانهم والزوار فمن كان من هؤلاء مقبولا فى مجلس الرئيس استأذن له وأدخله وإلا أخذ يسمع له شكواه ويتأوه لبلواه حتى منتصف الليل فيتركه ويذهب إلى غرفة نومه أو يشعر الرجل بثقل وطأته فيرحل من ساعته وهو يعص أصبع الندم على ما أضاعه من الوقت فقل لى بعيشك أين الساعة التى يتمكن فيها من نظر تلك الظلامات وهذه الحال حاله بين ليله ونهاره فقلت إن الله فى خلقه شئونا.

(مطلب)

عدم بلوغ النيل حده المؤلف من الزيادة

ولم تكد تطمئن القلوب بزوال الوباء وعودة الحجاج إلى أوطانهم وسلامة البلاد كافة من تسرب الداء إليها حتى ظهر انخفاض فيضان النيل عن معتاده فى كل عام وعدم بلوغه حده المؤلف الذى ترتاح إليه الخواطر فكان قلق أهل الإقليم القبلى والخوف الشرقى عظيما إذ ارتفعت عندهم أسعار الغلال من القمح والفلو والشعير والعدس والحلبة وقلّ علف دوابهم فأنحدروا بها إلى الأقاليم الوسطى والإقليم البحرى طلبا للكلأ والعلف فاهتمت الحكومة لذلك وظهر اهتمام جماعة الإنجليز بالأمر تقريبا من أهل البلاد وزلفى وسار محمد زكى باشا ناظر الأشغال إلى الإقليم القبلى لينظر فى تدارك الخطر قبل استفحاله وسار معه الماجور روس مدير رى الإقليم القبلى وهو من كبار مهندسى الإنجليز رجل كبير الدراية واسع الخبرة عالى

الفكر مهندس حاسب مقدم لم يضارعه أحد ممن تولى عمل الرى قبله وقل أن يضارعه أحد من بعد فاهتم الماجور روس بالأمر وعمل من خوارق الأعمال الهندسية ما أزال الخوف وأمن الناس فعاد من نزح منهم إلى بلده وجاء زمن الرى فلم يتعذر سوى رى الجزر المرتفعة والخوف الشرقى وقليل من الأحواض العالية ببلاد إسنا وقنا وجرجا فأصاب أهلها الضر ولا سيما أهل الخوف الشرقى منهم فمات بعضهم وأنشبت الأمراض الخبيثة أظفارها فيمن بقى منهم وكبرت عناية الماجور روس بأمر رى ذلك الصعيد واهتم بتنسيق جسوره وتنظيم أحواضه على أحسن ما يكون من الأشكال الهندسية وعمل من خوارق الأعمال شيئا كثيرا ولم تبخل الخزينة بالمال وأكثر من بذل النفقة حتى جاءت أعماله آية من الآيات الهندسية وهى باقية إلى ما شاء الله تشهد للرجل بالفضل وطول الباع.

(مطلب)

مجيء ولي عهد السلطنة الإنجليزية إلى مصر

وجاء الخبر فى هذه الأيام إلى ديوان الخديوى بقيام الأمير دى غال ولي عهد السلطنة الإنجليزية على ظهر إحدى سفنهم الحربية يريد ديار مصر والمكث فيها أياما معدودة فرسم الخديوى إلى الرئيس مصطفى رياض باشا بالتأهب للقاء هذا الضيف العظيم فقام رجال الدولة حينئذ من مصريين وإنجليز لذلك وقعدوا وبالعوا فى الاستعداد فلما كان يوم الأربعاء سابع ربيع الأول من السنة أى سنة سبع وثلاثمائة وألف هجرية سير الخديوى أخاه الأمير حسن وذو الفقار باشا ناظر الخارجية وعبدالرحمن رشدى باشا كبير التشريفات ومحمد زكى بك التشريفاتى إلى الإسكندرية على قطاره الخاص لينوبوا عنه فى استقبال الأمير فساروا إلى سراى رأس التين وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد جاءهم الخبر من بورسعيد بقرب وصول الأمير إليها وأنه قد رجع عن عزمه على القدوم إلى الثغر الإسكندرى وأنه أراد الذهاب إلى القاهرة عن طريق الإسماعيلية فقاموا من ساعتهم إلى الإسماعيلية على القطار الخديوى ومنها إلى بورسعيد ولبثوا يومهم ذلك حتى وصل الأمير فى نفر من الحاشية والأتباع فقاموا فى ركابه إلى القاهرة وكانت قد توجهت ساعة الظهيرة كوكبة من العساكر المصرية وأخرى من العساكر الإنجليزية إلى محطة السكة الحديد للقاء الأمير وكذلك وفد إليها الوجهاء ومقدمو العسكر ورؤساء النظارات ثم تبعهم الخديوى بلباس الزينة والتشريف ومعه جماعة الوزراء وكبار الدولة بزيتهم ووقفوا

جميعا على أكمل هيئة ونظام حتى أقبل القطار الذى يقل الأمير وأولاده ورجال حاشيته فأطلقت عند ذلك مدافع التعظيم واستقبله الخديوى بالتجلة والتكريم وأركبه على يمينه فى عربة تجرها أربعة من جياد الخيل يتقدمها طائفة من الفرسان المصريين والإنجليز وخلفها عربة أولاد الأمير ومعهم الأمير حسين أخو الخديوى ثم عربات الوزراء وكبار الدولة ومازالوا سائرين حتى وصلوا إلى دار قنصلاتو الإنجليز فنزل بها الأمير وحاشيته وذهب الخديوى إلى مقره بعابدين وأقام الأمير فى تلك الدار لحظة تناول فيها طعامه ثم سار فى موكبه إلى سراى الجيزة وقد كانت أعدت لنزوله فزاره الخديوى فرد له الزيارة على الأثر ولما كان فى مساء ذلك اليوم أقبل الأمير إلى سراى عابدين بموكب حافل لمأدبة أدبها له الخديوى وفيها ثمانون مدعوا فلبث إلى ما قبل نصف الليل بقليل ثم عاد إلى مقره بالجيزة وفى اليوم الثالث خرج إلى شوارع المدينة وجعل يتجول فيها وفى ركابه السير بارنج وشاع الخبر فى ذلك اليوم بأنه سيستعرض الجيوش الإنجليزية والمصرية معا بميدان العباسية عند الجبل الأحمر فهرع الناس إلى ذلك المكان أفواجا وانتشر أصحاب الشحنة على طول الطريق ذات اليمين وذات الشمال ثم أقبل الخديوى فى موكبه فلم تكن إلا ساعة حتى برز كل من الأمير والخديوى إلى الميدان فى ملابس زينت وتشریفه ممتطين جوادين ووفقا وحولهما كبار الجند ومقدمو العسكرين وخلفهما حاملو العلمين فهتف لهم الجند بأصوات التهليل وصدحت الموسيقى بألحان السلام ومرت من أمامهما العساكر والأجناد مشاة وركبانا وكذلك أصحاب المدافع وما يتبعهم فكان المنظر مهيبا والناس فى دهشة وسكون كأن على رؤوسهم الطير إشفافا مما عساه أن يكون من وراء مجيء ذلك الأمير إلى هذه الديار، واتفق أنه فى مساء ذلك اليوم كانت الليلة الكبرى لمولد صاحب الشريعة المحمدية المعتاد عمله فى كل عام فبعد أن تناول الأمير العشاء مع الخديوى ركب عن يمينه فى موكب حافل مشى فيه الوزراء وكبار العسكر وساروا إلى ساحة المولد ونزلوا بفسطاط شيخ مشايخ الطرق لحظة لطيفة. ثم انتقلوا إلى فسطاط الخديوى وجلسوا به ساعة كثر فيها لغط العامة وتساؤلهم وترامت ظنونهم إلى أسمع المرامى ثم انصرفوا جميعا وباتوا وأصبحوا وقد ركب الخديوى فى موكبه وسار إلى محطة السكة الحديد وخلفه سائر الوزراء والأمراء وكبار العسكرين يريدون وداع الأمير حتى إذا كانت الساعة التاسعة صباحا أقبل الأمير وولده يحف بهما موكب حافل من الفرسان وطائفة من الخرس الخديوى فاستقبله الخديوى وبالق فى وداعه فركب الأمير مع حاشيته القطار إلى الإسكندرية فلما وصلها نزل فى سفينة فأقلعت به إلى بعض الثغور الإيطالية .

وما تحركت سفيته حتى تحركت معها أقلام أصحاب الصحف العربية المحاربة للسياسة الإنجليزية بمصر فجعلوا يتكهنون وينبئون بمستقبل الأيام ويقولون قد قضى الأمر ونفذ القضاء وأذن الله بضم الديار المصرية من أقصاها إلى أقصاها إلى ملحقات السلطنة الإنجليزية فلا دافع ولا راد لقضاء الله ولا مجير لأهل البلاد سوى الاستسلام وخفض جناح الطاعة لأولى الأمر من الإنجليز وأن تقلع الأحزاب عن تلك الضوضاء وتنكف عن استصراخ الدول لتخلصهم من سيطرة الإنجليز فقام حينئذ في وجههم أصحاب الصحف الأخرى وكذبوا فيما يقولون ورموهم بالخيانة وبيع الذم وقالوا لهم إنما أنتم في إضرار نار هذه الفتنة تريدون السوء للبلاد وأهلها وكثر اللغط في ذلك كثيرا حتى أرجف بعض أصحاب تلك الصحف بأن الخديوى قد استسلم وأطاع وعقد النية على تسليم البلاد بشروط وقع الاتفاق عليها بينه وبين الأمير دى غال وعندى أنها فرية ما أنزل الله بها من سلطان .

واشتدت عزيمة السير بارنج بمقدم الأمير دى غال وأظهر ما كان يخفيه من الشدة والجبروت وكان الرئيس قد تمكن من بسط يده على سائر الدواوين والإدارات وقلب بعضها بطنًا إلى ظهر ومسح نظام بعضها واشتد على قضاة المحاكم الأهلية فخلع بعضهم لغير علة ولا سبب ظاهر وهدد بعضهم بشيء من قارص الكلام فاختلف الحال على من بقى منهم وأصبحوا وهم في ريب من استقلالهم وسلامة مراكزهم وبات حسين فخري باشا ناظر ديوانهم مغلوبا على أمره ليس له من حق النظر سوى الاسم والأمر للرئيس مصطفى رياض باشا وحده فكان إذا أخذت حسين باشا يوما عزة النفس وهم يعمل يرضى الله والناس قام في وجهه محمود باشا صهر الرئيس فينكف وفي النفس ما فيها وظل الحال على هذا المنوال حينما حتى تحركت من جراء ذلك خواطر جماعة الإنجليز القابضين على زمام بعض المصالح الديوانية وأكبروا عمل الرئيس وأعظموه وعابوا عليه عسفه وخيلاءه وشكوه إلى السير بارنج فعمد السير بارنج حينئذ إلى إيقاف كل عند حده قيل وقد زاده اهتماما بهذا الأمر ما عرفه من دخائل حادث مقتل خليل الدهشان وأخيه خير الله وما تحققه من أسباب التعجيل في تنفيذ الحكم بإعدامهما قبل الأجل المفروض وجعل من هذا الحين يكيد للرئيس كيذا فكان إذا هم الرئيس بأمر من الأمور وقف في وجهه ورده عنه ومنعه من هواه فيتركه أياما ثم يرجع إليه فيرده وهكذا حتى اشتد الجفاء وكبرت الوحشة بين الاثنين وظهر للعيان بغض بعضهم لبعض فتحقق الناس من خذلان الرئيس وقالوا بأنه معزول لا محالة وأن رئاسته باتت على شفا جرف الزوال ومال الخديوى

أيضا عن مسابرة وعاب عليه الشيء الكثير من أعماله وأنكرها فظهرت عند ذلك جلبة الأحزاب وترددت رسل الرئيس على دار السير بارنج يسترضونه ويستميلونه وهو يكيد له كيدا ويعمل على تسليم زمام الوظائف العالية إلى جماعة الإنجليز ويطلق لهم الكلمة فيما هم قابضون عليه منها ويفسح لهم نطاق سلطتهم بلا حد ولا تقييد وظل الحال على ذلك حتى بات أصحاب الوظائف من الأهلين وهم لا يملكون من أمرهم في مناصبهم شيئا سوى جماكيهم وما يتبعها من الألقاب والنعوت وذاع الخبر بأن السير بارنج سيتقدم إلى الخديوى فى طلب إقامة مستشارين من كبار الإنجليز فى كل وزارة من وزارات الحكومة ليحولوا بين هوى الرئيس وحقوق المأمورين وأصحاب الوظائف الذين أثقلهم نير الرئيس وعسفه فقام عند ذلك أصحاب الصحف المحاربة يقرعون السير بارنج ويرمونه بالجور فرد عليهم أصحاب بعض الصحف الكبرى الإنجليزية كصاحب التيمس وصاحب الدالى نيوز وصاحب مجلة القرن التاسع عشر ردا كله إيعاد ووعيد وإرهاب وتهديد ثم نادوا صاحب سياستهم أن اضرب على يد أولئك الأغرار الذين زينت لهم أنفسهم الإمارة إذهاب ما صنعتهم أيديك من الإصلاح فى أرض الفراعنة وأدراج الرياح ولا تكن ضعيفا مستضعفا فيشمت بك الشامتون ويستخف بك المستخفون فلم تمض على هذه الضجة إلا أيام حتى تقدم السير بارنج إلى الخديوى فى طلب إقامة رجل من الإنجليز مستشارا قضائيا يكون مقره بديوان الحفائية ويختص بالإشراف على سائر أعمال المحاكم الأهلية والشرعية على السواء فلا يرم أمر إلا بإشارته ولا يتم عمل إلا برأيه- قال : كى لا يبقى للرئيس مصطفى رياض باشا دخل فى شىء من هذه الشئون وكى لا تزول بهجة ذلك النظام الذى أحدثته يد السلطة الإنجليزية بعد ذلك العناء الكبير. قيل فمال الخديوى إلى مقالة السير بارنج ووقعت عنده موقعا مقبولا لأنه كان يكره من الرئيس استبداده بسائر الأمور وضغطه على صغار وكبار المأمورين وأصحاب الوظائف وكان ينهائهم عن ذلك ويتألم من اندفاعه وراء صغار الأمور وإيغار الصدور على غير مسوغ فكتب صاحب جريدة الأهرام لمحة فى هذا المعنى بعنوان «صهوات المناصب لقوارس التجارب» وهى من حسن السبك وخالص النصيح بمكان عظيم قال فيها:

سأل أحدهم حكيمًا من أجلّ الرجال فقال: من قام بأجل الأعمال قال من هو وما هى قال من قاد أبدان الناس بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها بأسبابها قال إذا تعنى رب المنصب ومنصبه أجاب أنت قلت وإلى هذا المعنى أشار أرسطو

الفيلسوف على الإسكندر حيث قال املك الرعية بالإحسان إليها تظفر بالمحبة منها واعلم أنك إنما تملك الأبدان فاجمع لها القلوب لأن الرعية إذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل فاجتهد أن لا تقول تسلم من أن تفعل . نتج مما ذكر أن سياسة المنصب من أجل الأعمال وأن القائم بمواجبتها له امتياز الفضل بين الرجال ولا غرو فإن المرء ليتولاه الشعور بالفخر وتلقاه نوافل الثناء وهو لم يحسن القيام إلا بسياسته وسياسة خاصته فكيف به وقد أضاف إلى ذلك إحسانه سياسة العامة، ولما كان مقدار فضل المرء على سواه موقوفاً على مقدار نفعه سواه كما جاء في الحديث الشريف «إن خير الناس من نفع الناس» كان لرب المنصب ما ليس لغيره من الذرائع التي تعدّ له سعة المجال في سبيل نفع الناس وليس يخفى على البصير أن المرء يطالب بقدر مكنه ووسائله إذ لا جود إلا من وراء موجود فإذا أمسك موسراً ليم لوم من بسط معسراً وإذا نشرت له الأيام بساط العمل فطواه إما بذراع أدامها سهم الخمول والكلل أو بيد أشلها الغرض والحمق قضى عليه العدل بعقاب من عاكس إحكام الوضع والطبع وخالف قانون العرف والشرع وهل تفتش الأيام بساط العمل لرجل أولى من رجل المنصب فهو ولا مرء شريك الطبيعة في المحافظة على قوانينها والاحتفاظ على نواميسها بل هو آلتها المنفذة لأحكامها والقائمة بحركة دقائقها فإذا لم تكن صالحة حالت دون الحركة فنشأ الضرر وقد قيل إذا زل العالم زل بزله العالم ومثل ذلك زلة من يتولى مصلحة العباد ويقوم بسياستهم فهو قد عهد إليه أهم أعمال الإنسان فكان مركبه خشناً وموقفه هائلاً وحسبه من صعوبة المراس جمعته من الأضداد ما قاله عمر رضى الله عنه وهو لين لا يتولاه ضعف وقوة لا يمازجها عنف أو ماقاله آخر تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وإنصاف عن قوة .

وإذا سبرنا غور الحقائق بإمعان الفكرة وإنعام النظرة وأنسنا إلى صحة المبادئ التي شرحنا متونها وقفنا أمام المنصب وقد حفرت بنان الحق على قوائم كرسيه الأربع أربع كلمات وهى وطنية حكمة همة مسئولية فوجدنا الموقف هائلاً لأن من ورائه التقاضى إلى محكمة مهية عادلة قانونها الذمة وقاضيه الضمير ومنفذ أحكامها الشرف فمن العبث إذا أن تسند المناصب إلى من لا تهصر أعطاف الوطنية فى مقامه ولا يجنى ضرب الحكمة من ضروب بنائه ونفثات أقلامه ولا يسل سيف الهمة من أجفاف نشاطه وأعماد إقدامه ولا تشام بارقة شعور فى أفق ضميره من سحب نقضه وإبرامه إلى أن قال : أما الوطنية فهى المحور الذى تدور عليه كرة الخواطر أو النقطة التى ترسم منها دائرة الشعور والعواطف يولدها الطبع وتنميتها التربية ويكفلها الشرف

وتعززها الأريحية ولها على المرء من الحرمة ما لوالديه. عليه لأنها تقوم بكفائتهما ليقوما بكفائته ولم تعمّر البلدان إلا بحبة الأوطان ولذلك قالوا إن حب الأوطان من الإيمان فعلى صاحب المنصب أن يتصف قبل كل صفة بالوطنية الصادقة ويأنس إلى وفاء حقوقها العامة قبل النظر في وفاء حقوقه الخاصة لاشتغال الأولى على الكل والثانية على الجزء والجزء داخل في الكل وأن له من احتضان الطير لعشه مهمازا لشاكلة تنبيهه.

وأما الحكمة فهي الدعامة الثانية المتممة للوطنية لأن مجرد إرادة الميل إلى العمل لا يغنى مالم يشفع بقوة فاعلة مدركة تستبين أوجه العمل والذرائع التي تنطبق على ذاك الميل وتحجوب على تلك الرغائب الصادقة وإلا ضاع الميل القويم باستكانة عن خمول أو نزق عن جهل فأتى الضرر من حيث يرجى النفع ووقع الخطأ من حيث يرام الصواب ومن هذا القبيل قولهم عدو عاقل خير من صديق جاهل.

وأما الهمة فمن متممات الحكمة لأنها القوة المنفذة لها والكافلة لاغتنام نتائجها بل هي التي تمتطى الليل والنهار في مجاهر العمل إنفاذا لما تشعر به الوطنية ويقضى بإيجابه الحكمة فمن ثبطت همته عن السعى إلى الأمام نقلته إلى الوراء أدوار الأيام.

وأما المسؤولية فما هي إلا خلاصة القوى الثلاث ومن خصائصها التنبيه والتحذير وصون رب المنصب من الخطل في القول والزلل في العمل صونا ناشئا عن رعاية لحرمتها وإدراك لأهميتها فمن لا يسئل عما يعمل يأخذه دافع من اثنين إما قعود يمازجه كسل وإما غرور يخالطه طيش وفي الأول سقوط وخمول يفضيان إلى الإضاعة والضعفة وفي الثاني استبداد وظلم يؤديان إلى النفرة والضغينة وبشت نتيجة المقدمتين.

ولكن بأي شيء تقوم الوطنية يا ترى أبالدعوى بها قولاً والإغماض عنها عملاً أم بمجرد الانتماء النسبي دون القيام بمواجهه أم بالتحامل على قريب لم يسيء أم بكسر الأبواب الموصدة دون تداخل الغريب أم بنسيان الواجبات التي تستلزمها الوطنية على مبدأ الدين والشرف - كلا ليس ما ذكرناه من الوطنية في شيء فالحقول لا يصدق حتى يشهد به العمل ولو أنك لم تقل ولم تفعل خير من أن تقول ولا تفعل وأفضل منه فعل لا يسبقه قول وما ألطف ما قاله صفى الدين الحلبي في مثل ذلك إذ ضمن في شعره مثل البلبل والصقر فقال البلبل مخاطباً الصقر:

وقال أراك جليس الملوك	ومن فوق أيديهمو تحمل
وأنت كما علموا أخرس	وعن بعض ما قلتك تنكل
وأحبس مع أنني ناطق	وقدري عندهم مهمل
فقال صدقت ولكنهم	بذاك دروا أنني الأفضل
لأنني فعلت وما قلت قط	وأنت تقول ولا تفعل

وأما مجرد الانتماء دون القيام باللوازم فكالصفير عن يسار العدد لا قيمة له أو كواو عمرو تكتب ولا تقرأ بل هو عيب لا يستر وذنب لا يغفر ومثله إيقاع الأذية بمن لم يسئ تشفيا وانتقاما على جهل بدعوى أن ذاك ليس منا مع أن السياسة تقضى بأن تعتبر من ليس عليك في مصاف من هو معك ويعاكس ذلك تمهيدك لمن هو عليك السبيل الذي تمهده لمن هو معك وهذا من قبيل وضع الشيء في غير موضعه ومثل ذلك إغضاؤك أو صمك الأذنين دون استماع صوت الدين والشرف اللذين يقضيان عليك بأن تغدى وطنيتك بما عز وهان وتحتقر في جنب صونها كل مصلحة خاصة وإن عظمت وتحترم كل مصلحة عامة وإن حقرت تلك هي الوطنية الحققة الصادقة التي يجب أن يتجلى بها كل ذى منصب ورياسة .

ثم بماذا تقوم الحكمة الوطنية يا ترى أبالاستبداد في الرأي والعمل أم باتخاذ المنصب ذريعة للإضرار بالناس إجابة لداعى الانتقام أو إصاخة لإشارة أم بتفريق كلمة أبناء الوطن وإيجاد الشقاق بينهم ودفع الواحد منهم للإيقاع بالآخر أم بإنفاذ الغرض الخاص وتحميل المؤتمرين بالأمر ما ليسوا مكلفين باحتماله أم بأسر الإرادة في شئون الإدارة وإطاعة كل إشارة أم بتفضيل حلاوة المنصب مجردة على مرارته مركبة وقد نتجت المضرة من بينها وحكم العقل والعيان بها وأبى الطبع الشريف قبولها فكل ذلك بينه وبين الحكمة بون شاسع وبعد سحيق - فأما الاستبداد فضرب من ضروب الحماقة وقالت الحكماء : الرجال ثلاثة رجل ونصف رجل ولا رجل فالأول من له رأى ومشورة والثانى من له رأى ولا مشورة له والثالث من لا رأى له ولا مشورة فالمستبد لا بد من أن يكون ثانى الثلاثة أو ثالثهم ولا يعزب عنا قوله : «وشاورهم في الأمر» والمشورة من الروح القدس قال الشاعر :

أقرن برأبك رأى غيرك واستشر	فالأمر لا يخفى علي الاثنين
للمرء مرأة تريه وجهه	ويرى قفاه بجمع مرأتين

وقال آخر :

شاروسواك إذا نابتك نائبة يوما ولو كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها ما دنا ونأي ولا تري نفسها إلا بمرآة

وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم فقال: نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن نشاوره فكأننا ألف حازم، وأما اتخاذ المنصب ذريعة للمضرة فمن أكبر المعايب وأخس الأفعال فعلى رب المنصب أن ينسى صفته الخاصة وهو فى منصبه ولا ينظر إلا فى صفته العامة التى تحظر عليه الانتقام إما لغاية داخلية أو لإشارة خارجية فإن ذلك من الدنيا التى يترفع المنصب عن النزوع إليها ومن سوء الطبع اندفاع القوى إلى الإضرار بالضعيف وإن لم يحل دون ذلك حائل فكيف به وقد قام حاجز حصين هو منصة تحمل دعامتها نجاد حسام العدل والحق ولذلك امتاز كبار الرجال بتكبيهم عن هذه الخلة وشرفوا مناصبهم برعاية ما ظهر لهم صوابه ولو بدا من عدو ألد فضلا عن صديق أودّ، ثم الإغضاء عما لم يأت على مرادهم. أو لم يلائم سياستهم، بل ما هى الحكمة الوطنية من وراء نثر النظيم وتشيت الجميع إذا كان رب المنصب يثير ثائرة الحقد من هذا على ذاك ويفرق كلمة الرعية المؤتمرة بأمره ويولد الضغائن والأحقاد فى القلوب بإنشاء الأحزاب المتباينة وتعصيد البعض للتغلب على الآخر إما لانتقام خاص عن كرهه لذاك وإما لغاية أخرى مثل أن يتوهم أنه بتفريق كلمتهم تسود كلمته فيأمن فى سربه وينال مرامه ويجاوب جشع طمعه بينا تقضى الحكمة بجمع الشيت ونظم الشير وإزالة الأحقاد وتأليف القلوب ونبد التنافر ومثل ذلك يقال فى تحميلهم مالميسوا مكلفين باحتماله بأن يكرههم وهو غير مصيب أو مسوق إليه بموجب قانون على قبول ما يكرهون وهم مصييون وغير مكلفين به بقانون ولله در من قال من تداخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه وأن ليس فى القانون محاباة وجوه ومراعاة خاطر على حد قول الشاعر:

ولم أنس المليحة حين راحت إلى قاضى المجبة تشكينى
فقلت لها ارحمى ضعفى فقالت وهل فى العشق يا أمى ارحمىنى

وكيف يليق به وهو يرى نفسه أهلا لمنصبه أو أسمى منه أن يكلف من يأتمر بأمره إما عن رجاء أو عن تهديد بتحمل ما يكره وهو غير مكلف به وهل ذلك من قبيل الحكمة الوطنية والطبع الشريف والمتزع السامى ومن هذا القبيل أيضا عدم استقلال الإدارة فى شئون الإدارة وهكذا - إلى أن قال: وليس من الحكمة أيضا

رفض رب المنصب كل ما يطلب إليه ثم قبوله لكل ما رفض لأن الرفض إما أن يكون عن أنفة واستكبار إجابة لخلق غريزي يرتاح إلى مجرد النهى والأمر دون النظر فى صوابية المطلوب وإما عن اقتناع مسبق بترؤ وإمعان بأن المطلوب لا يناسب فإذا كان الأول ولا مناص من القبول فالأولى عدم الرفض لأن مرارة العود إلى القبول تربو على حلاوة الاستبداد بالرفض وإذا كان الثانى فالثبات على الرفض أولى ولا عبرة للمصانعة إذا كان هناك سبيل للتخلص منها والتوصل من تبعاتها ويقاس على ذلك تفضيل الحلاوة المجردة على المركبة التى كدرتها المرارة فإن فى منابذتها حلاوة لا تعقبها مرارة وهى وسيلة للتجرد عن مضرة تكتنفها معرة.

ثم بماذا تقوم مهمة الحكمة الوطنية أبالنزوع إلى إنفاذ العمل دون رعاية الظروف أم بالضغط الشديد المتولد عنه ضغط متسلسل؟ ليست هذه المهمة تقوم بمثل ذلك لأن الإسراع فى إنفاذ العمل دون رعاية الظروف يدعو فى كثير من الأحيان إلى تجاوز الحقيقة والتخلى إلى الاعتساف فلكل مقام مقال والأشياء مرهونة بأوقاتها وكثيرا ما أفسد العمل التسرع فى إنفاذه ولذلك قالوا فى العجلة الندامة وفى التأني السلامة وإما الضغط المتوّه عنه فأقل ما فيه أن يدفع العمال بالتسلسل إلى الإخلال بالقانون والعيب بأحكامه وما أحسن ما جاء عن معاوية فى هذا الشأن حيث قال: إني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ففيل له وكيف ذلك قال كنت إذا مدوها أرخيتها وإذا أرخوها مددتها - ثم بماذا تقوم المسؤولية وراء ذلك أبالإسراع فى العمل حسنا أو قبيحا أم بمجرد نيته دون إنفاذه أم برفعها عن كاهله وإلقائها على كاهل غيره؟ كلا لا تقوم المسؤولية بشيء من ذلك ولكنها تقوم بأن يعلم رب المنصب أنه مسئول أمام منصبه أولا من ربه وثانيا من ضميره وثالثا من شرفه ورابعا من أميره وخامسا من وطنه وسادسا من خاصته وبأن يعلم عظم هذه المسؤولية وأهميتها وما يترتب عليها له ولوطنه من مضرة ونفع وخير وشر - وأن عليه تلقاء ذلك مواجب ذات شأن تقضى عليه بمغادرة الوسن وملازمة السهر ومزاولة العمل ومراقبة الحوادث وانتهاز الفرص ومنايذة الأغراض والترفع عن الدنيا والتجملد على مضض الشغل واحتمال أثقاله بالصبر والتؤدة والرفق بمن يأثمرون بأمره وزرع بذور الاتحاد والألفة والمحبة بينهم واستئصال جراثيم الشقاق والخلاف والضغائن والأحقاد بحيث يكون لهم بمثابة أب وأخ وابن فيبر أباه ويحفظ ويرحم ابنه تلك هى مسؤولية المنصب بل تلك هى بعض المواجب التى عليه ولا سبيل لتصله من تبعاتها إذا لم يقم بها فإذا قرن استقلال

إرادته بحسن إدارته أتاح له الأيام إدراك غايته ونيل بغيته فلزم الوظيفة يشرفها وتشرفه واستمال إليه قلوب من سلم زمام أمرهم فأخلصوا له فى السر والنجوى ووثقوا منه بعدم تغييره فى سلوكه لوثوقهم بأن نفسه أسمى من منصبه على نحو ما قاله أرسطو وقد سئل عما دفع زيدا إلى التغيير بعد الولاية فقال: من ولى منصبا وكانت نفسه أكبر منه لم يتغير له ولكن إذا كانت نفسه أصغر منه تغير له. فالمنصب إذا مقام خطير محفوف بالمصاعب فمن الخطأ أن تراه العامة بالنظر المجرد فتحكم بأن صاحبه أمر مطاع لا يهमे إلا إصدار الأمر ونبل الراتب بل يجب أن لا يفوتهم العلم بحقائقه من أن صاحبه أليف الأرق حليف الفكر رفيق الهموم حديد اللحاظ شديد التأثير مديد التصور هدف لسهام اللوم عرضة للملاحظات العموم مسئول عن كل ما يفعل عدو لنصف من يرعاهم ولو عدل بعيد السخط قريب الرضا ومن كانت هذه مواجبه وكلها مرازة فهل يحلو له ذكر المنصب فهو على حد المثل القائل «درهم من غسل على قنطار من خل» وحسبه هما اضطراره إلى الاحتفاظ على الأحكام السياسية ليتذرع بها إلى نيل غاية صعبة المنال ألا وهى استمناعه بهيبة الخاصة مع صدق مودته وانقياد قلوب العامة بالإنصاف إليها وقد قل بل ندر من حنكته تجربته ومكتته حكمته من الوصول إلى هذا المطلب ولذلك قلنا إن صهوات المناصب لفوارس التجارب أ.هـ.

فكان كل ما فى هذه المقالة من المغامز الظاهرة والمطاعن الخفية قليلا من كثير مما بدا من الرئيس مصطفى رياض باشا لدى توليه المنصب فى هذه المرة وتناقل الناس مقالة صاحب الأهرام هذه فى الأندية والمجتمعات فكانت سمر ليلهم وحديث نهارهم حتى ظن بعضهم أنه موعز إليه بها من ديوان الخديوى الخاص إرهابا للرئيس وتحذيرا والأمر على غير ما يظنون فإنه لما اختلط على الرئيس الحال وفسد التدبير وساء المال ونال السير بارنج من دواوين الحكومة كل منال اجتمعت كلمة أصحاب صحف الأخبار المحلية على نشر هذه الشوائب على رؤوس الملأ والتعريض بها كل قليل من الأيام عسى أن يقلع الرئيس عن هواه ولا يعطى نفسه مشتتها فترجع عن بغضه القلوب وتتكف عن تقريره الألسنة وتقف مطامع جماعة الإنجليز عند حد ولذلك لم يهب أحد من المحازيين للرئيس إلى الرد على مقالة صاحب الأهرام وأقوال غيره ممن حذا حذوه بل أقبلوا على قولهم وأنزلوه من سمعهم وقلبهم وامتدحوه قالوا فقد بلغت الروح الحلقوم والسكين العظم.

(مطلب)

وقوف عثمان دقنه بسواكن على قدم الكر والفر

وكانت أخبار التخوم إلى هذا اليوم لم تخل من المغامز الدالة على عدم خلود العدو إلى السكينة ووقوفه على قدم الكر والفر ولا سيما عثمان دقنه ومن معه من عصاة شرقي السودان فقد عظم شرهم وكبر أمرهم وكثر هجومهم على القلاع والحصون تارة ورميها بالقنابل أخرى حتى ضاق خناق المرابطين وأعييتهم الحيل وأرسل مقدمهم يطلب المدد فجاءه سردار الجيوش المصرية ومعه جماعة من مقدمي عسكر الإنجليز وأقاموا بسواكن أياما يتروون في أمر الخلاص من شر ذلك العدو وعلم دقنه بمقدم السردار فزاد في الكر والفر بمن معه من أولئك الأبالسة السود واشتد في رمي القنابل على الحصون والتاريس في الليل والنهار ففعلت مقذوفاته بالمرابطين فعلاً رديئاً جداً واتصلت بسفن الحرب الإنجليزية الراسية أمام البلد فخاف السردار العاقبة وقد آنس من المرابطين مللاً ونفورا إذ أعياهم القيام على قدم الدفاع ليلاً ونهاراً فأرسل إلى صاحب السياسة الإنجليزية يخبره بواقعة الحال ويسأله سرعة إرسال المدد على كل حال فكان يطاول ويحاول ويرسل كتبه إلى الباب العالي بأن تحتل طائفة من العساكر الشاهانية سواكن وتتولى أمر الدفاع عنها - قيل وكانت تلك الكتب على ما فيها من التطويل معقدة مفعمة بالألغاز والمعميات ليتعذر على السلطان ورجال دولته البت بإرسال عساكره إلى سواكن ولبت الحال على ذلك أياماً فلما آنس من السلطان ميلاً وعزماً على إرسال حملة من عساكره إلى سواكن بعد ذلك التردد والإحجام خاف العاقبة ورسم على الفور إلى قائد عسكرهم بمصر بإرسال النجدة العاجلة من عسكرهم إلى سواكن فصعد بالأمر وحملت ذلك العسكر سفنهم وشوانيتهم وأنزلتهم في سواكن ففرح المرابطون بمقدمهم وأخذوا من يومهم في ترميم الحصون والتاريس وضاعفوا القلاع ورتبوا مدافعها وأصلحوا الخنادق وجعلوا يتأهبون لقتال العدو فلما شاع خبر وصول هذه النجدة وتناقله أصحاب صحف أخبار الإنجليز قامت الأحزاب في عاصمتهم واشتد حزب الأحرار منهم على زعيم سياستهم وعلت ضوضاؤهم في دار ندوتهم وظهرت جلبتهم في سائر محافلهم ونادوا وأويلاه ما لكم تعرضون بأرواح رجالنا وتبددون أموالنا لمصلحة غيرنا وظل حالهم على ذلك أياماً حتى كاد المطلع على صحف أخبارهم لا يشك في أن الرجل على شفا جرف السقوط من منصة الزعامة وأن أصحابه مخذولون وما

ذلك إلا ضرب من التغيرير كأن يقولوا إذا قامت الدول فى وجه صاحبهم ومانعت فى حلول عسكرهم سواكن إنا ما احتلناها بعسكرنا وسفن حربنا إلا مكرهين وهذا الباب العالى قد استصرخنا رجاله وسألناهم نجدة المرابطين فلم ينجدوهم ولا أعاروا نداءنا المتتابع فلا لوم علينا بعد هذا كله ولا تريب ولا نحن مؤاخذون بما فعلنا .

وعلم عثمان دفته بمقدم العساكر الإنجليزية مددا للمرابطين بحصون سواكن وماهم عليه من الحركة فجداً حيثنذ فى قتالهم وألح وتابع الرمى بالقنابل على القلاع والحصون أياما فهاجموه فلم ينالوا منه مأربا فأحلوا فى قتاله بين كرّ وفرّ أياما أيضا ثم عادوا إلى الحصون وجعلوا يدافعون من وراء المتاريس أياما أخرى ووردت الأخبار إلى ديوان الخديوى بما هم عليه من التعب المتواصل بسبب مناوشة العدو لهم فى الليل والنهار وعجزهم عن كفه عن تخطف كل من بعد عن البلد ولو قليلا وكبر على السلطان ورجال دولته خبر وصول المقاتلين من الإنجليز إلى سواكن فعادوا إلى مخابرة صاحب السياسة الإنجليزية فى تقرير القاعدة التى على مقتضاها يرسل الباب العالى إلى سواكن طائفة من العساكر الشاهانية لتبقى مع المرابطين وأكثروا من الأخذ والرد فى ذلك أياما فلم يفلحوا ولم يساعدهم أحد من رجال سياسة الدول الكبرى على نوال هذا الأرب فتكلم حيثنذ أصحاب صحف دار السلطنة بكلام فى معنى سيادة السلطان على تلك السواحل وفى معنى كيان السلطنة العثمانية وفى شىء من ماهية الخلافة الإسلامية وفيما يعتورها من الضعف إذا زالت هيبتها وتقلص ظل نفوذها من سواحل البحر الأحمر وأطالوا فى ذلك القول وبالغوا فى التوجع حتى كتب أحدهم صورة المعاهدة الدولية التى كان تم التوقيع عليها من كبار سياسة الدول صاحبات الشأن فى حياد بوغاز السويس شاهدا على ما للسلطان من المقام الراجح بينهن ولم يكن أحد يعلم بها إلى يومنا هذا وهى :

أولا - يبقى بوغاز السويس حرا مطلقا فى زمن الحرب والسلم لجميع السفن الحربية بغير تمييز بينها وعليه فالدول العظمى الموقعة على هذا الوفاق قد وافقت على أن لا يعشن بحرية هذه الترة سواء فى زمن الحرب أو السلم وعلى أن لا تحاصر شطوطها على الإطلاق .

ثانيا - أن الدول الموقعات باعترافهن بأنه لا يمكن أن تكون الترة الحلوة منفصلة عن الترة الملحة قد أخذن على أنفسهن القيام بالمعاهدات المبرمة بين خديوى مصر وشركة بوغاز السويس العمومية فيما يتعلق بالترة الحلوة كما هو مذكور فى

الوفاق المبرم فى ثامن عشر مارس سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية الذى يشتمل على مقدمة وأربعة بنود ثم تعهدن بأن يحسن حالة هذه الترعة وما يتبعها ولا يقمن فيها ما يمنع حريتها .

ثالثا - قد تعهدت الدول باحترام المواد والأبنية والأعمال الموجودة فى الترعتين المذكورتين وعدم مسها بشئ ما .

رابعا - تبقى الترعة الملحة مفتوحة فى زمن الحرب بحيث تمر فيها المدرعات الحربية بدون عمانع كما جاء فى الوجه الأول من هذا الوفاق - وبناء على ذلك قد اتفقت الدول الموقعات على أن لا يباح عمل عدائى يكون من شأنه منع حرية الملاحة فى الترعة والموانى الموصلة إليها أو على بعد ثلاثة أميال بحرية من تلك الموانى ومن جملة هذه الموقعات الدولة العثمانية ولو كانت من المحاربات ثم إن المدرعات الحربية لا يجوز لها أن تأخذ إلا ما يكون ضروريا لها من المؤن والذخيرة فى الترعة والموانى الموصلة إليها وأن يكون مسيرها منها فى أقرب ما يمكن من الزمن على حسب الشروط النافذة ولا تقف إلا عندما تقضى الضرورة بذلك وفى هذه الظروف أيضا تكون مجبورة على السفر بأسرع ما يمكن ويجب أن يكون الوقت بين خروج سفينة وخروج أخرى من سفن دولة معادية لها من إحدى الموانى الموصلة للترعة أربعين ساعة على الأقل .

خامسا - أن الدول المتحاربات لا يمكنهن فى زمن الحرب أن ينزلن فى البوغاز والموانى الموصلة إليه جنودا أو ذخائر أو مواد حربية ولا أن يأخذنها منها ولكن إذا حدث بها مانع فى الترعة كان لها عند ذلك أن تنزل إلى تلك الموانى أو تأخذها منها فرقا من الجنود لا تبلغ الواحدة منها ألف رجل بما يلزم من المؤن .

سادسا - إن ما اشترط على المدرعات فى مسيرها يشترط فى مناوراتها إذا حصلت فى الترعة .

سابعا - لا يجوز لأية دولة أن تبقى لنفسها فى مياه الترعة أو فى بحيرة التماسح والبخيرات المرة مدرعة حربية على أنه يجوز لها أن تقيم فى الموانى الموصلة إلى مدينة بورسعيد والسويس مدرعات لا يتجاوز عددها اثنتين لكل دولة إلا أن هذا الشرط لا يباح للدول المحاربات .

ثامنا - أن وكلاء الدول القائمين فى مصر من قبل الدول الموقعات على هذا الوفاق منوط بهم مراقبة تنفيذه بحيث إنهم عندما يحدث ما يهدد سلام الترعة

وحرية الملاحة فيها يجتمعون بناء على طلب ثلاثة منهم برئاسة أقدمهم فى الوكالة للبحث فيما يجب إجراؤه ثم يخبرون الحكومة الخديوية بما يكونون قد عملوه من المحاضر لتأخذ الوسائط الفعالة لضمانة ووقاية السرعة وحرية المرور فيها وعلى كل حال فإنهم يجتمعون مرة فى كل سنة ليروا ما إذا كانت المعاهدة معمولاً بشروطها أو لا وهذه الاجتماعات يصح أن تكون برئاسة مرخص مخصوص تعيينه الدول العثمانية الشاهانية ويصح أن ينوب عن هذا المندوب آخر من رجل الحكومة المصرية عند غيابه ويصح له أن يحضر الجلسات إذا كان حاضراً ويكون لهؤلاء الوكلاء الحق فى أن يطلبوا على الخصوص منع كل اجتماع على أى مكان من شطوط السرعة يكون من ورائه مس حرية المرور بالسرعة .

تاسعا - تتخذ الحكومة المصرية بما لها من السلطة الممنوحة لها بالفرمانات السلطانية وبموجب الشروط المذكورة فى هذه المعاهدة كل ما يلزم من الوسائل توصلا إلى إنفاذ المعاهدة واحترامها ولكن إذا لم تكن هذه الوسائط كافية لذلك فعليها أن تطلب من الباب العالى الشاهانى القيام بتلك الوسائط من عنده وإعلانها إلى الدول الموقعات على التصريح الذى أبرم فى لندن فى سابع عشر مارس سنة خمس وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية والاشتراك معهن عند الحاجة فى المحذورات الواضحة فى المواد أربعة وخمسة وسبعة وثمانية فلا تكون عائقا فى تنفيذ الوسائل اللازمة بمقتضى هذا الوجه .

عاشرا - وأيضا فإن المحذورات الواردة فى المواد المذكورة لا تحول دون الوسائل التى تضطر الحضرة السلطانية الشاهانية أو الخديوى بالنيابة عنها بموجب الفرمانات الممنوحة له إلى اتخاذها لكى يكفلا بقوتيهما الخاصة حماية مصر وتأييد النظام العام فيها ولكن إذا اضطرت الحضرة السلطانية أو الخديوى أن يستزيدا الاستثناءات الواردة فى هذا الوجه كان على حكومة السلطان أن تعلن الدول الموقعات على تصريح لوندرد بذلك ثم إن ما ورد بالأوجه الأربعة السابقة بشأن هذه الاستثناءات لا يمنع الوسائل التى ترى حكومة جلالة السلطان ضرورة اتخاذها بواسطة قواتها الخاصة ضمانة لحفظ سائر أملاكها على الساحل الشرقى من البحر الأحمر .

حادى عشر - إن الوسائل التى تؤخذ مراعاة للأحوال الواردة فى الوجهين التاسع والعاشر من هذا الاتفاق لا يجب أن تكون عشرة فى سبيل استعمال السرعة وحريتها وفى هذه الأحوال يكون من المنوع إقامة حصون مستمرة تخالف منطق الوجه الثانى .

ثانى عشر - تتعهد الدول الموقعات على هذه المعاهدة بناء على مبدأ المساواة فيما يتعلق بحرية استعمال التربة وهو المبدأ الأساسى لهذه المعاهدة أن لا يسعين بالتوسع فى الأرض والتجارة بالنسبة للتربة ولا بالحصول على امتيازات دولية تتعلق بهذا الشأن أيضا ماعدا الدولة العثمانية لما لها من الحق فى ذلك لكونها صاحبة البلاد .

ثالث عشر - عدا الموائيق الواردة بإيضاح فى بنود هذا الاتفاق فإنه لا يجوز مس حقوق الخديوى الممنوحة له بالفرمانات ولا التعرض إلى ما أغفل منه من الواجبات .

رابع عشر - اتفقت الدول الموقعات على هذا على أن الموائيق الناشئة عن هذه المعاهدة لا تنتهى بانتهاء مدة الامتياز الممنوح لشركة بوغاز السويس .

خامس عشر - لا تحول شروط هذا الاتفاق دون التحولات الصحية المتخذة فى الديار المصرية .

سادس عشر - تتعهد الدول المتعاقبات بأنهن يبلغن هذا الوفاق إلى الدول التى لم توقع عليه ويطلبن منها التسليم به وهذه المعاهدة يصدق عليها ويتبادل التصديق بشأنها فى الأستانة فى مدة شهر أو أقل إن أمكن .

وبناء على ذلك فالمرخصون قد وقعوا على هذه المعاهدة ووقعوا أختام وظائفهم عليها . انتهى بنصه .

ونقل أصحاب صحف الأخبار العربية نص هذه المعاهدة وقالوا إذا كانت كل هذه الحقوق للسلطان وليس لدولة من سائر الدول أن تنازعه فيها فليس إذا من النصفة فى شىء أن تستضعف الإنجليز جسم السلطنة العثمانية إلى هذا الحد فتسلبها حقها وتبخسها أشياءها ولا من الكياسة فى شىء أن تطيل يدها إلى هذا الحد من التناول على غير مسوغ فرد عليهم أصحاب صحف الإنجليز وأغلظوا فى الرد وبالغوا فى التهديد وعادوا إلى استنهاض همم صاحب سياستهم وحضه على ترك المجاملة والأخذ بأطراف الحزمة والضرب على يد كل مكابر حتى يرجع صاغرا .

(مطلب)

موت رجل من الهنود وإحراق جثته

واتفق أن مات فى هذه الأيام رجل من الهنود التابعين للسلطنة الإنجليزية وهو من كبار تجارهم بمصر فعزم قومه على إحراق جثته حسب عاداتهم الدينية فطلبوا من قنصلهم التسريح بذلك فصرح لهم وأعلم صاحب الشرطة بخبرهم فاحتمل القوم

جثة فقيدهم إلى فضاء العباسية عند سفح الجبل الأحمر وطرحوها على الأرض ودهنوها بالزبدة ثم لفوها بلفائف من نسيج الكتان ووضعوا قطعة من الخشب فوق الرأس وأخرى فوق القدمين وأحاطوا بالجثة حطبا مرصوفاً بعضه فوق بعض وأضرموا فيه النار إلى أن احترقت وصارت رمادا فأرهم وهم على هذا الحال نفر من أصحاب مقالع الحجر بالجبل الأحمر وسمعوا دمدمتهم بشيء من الأدعية الدينية فهلعت قلوبهم من شدة الخوف وصاحوا وولوا مسرعين إلى البلد يستفزون أصحاب الشرطة ويستصرخون العامة من سكان الحسينية والمذبح وعلت أصواتهم بيا لطيف نصر الله دين الإسلام أهلك الله دين الكفار فتبعته النساء والأولاد وهم فى صياح وجلبة ولحقهم أصحاب الشرطة ففرقوا جمعهم وأقاموا جماعة منهم يحرسون القوم حتى جمعوا رماد جثة فقيدهم فى ركوة وساروا بها على غير الطريق السلطاني خوفا من بطش العامة وزعر الحسينية بهم وانتشر فى تلك الليلة خبر هذا الحادث فى سائر أطراف القاهرة ومصر القديمة وتحدث العامة به فقال ضعفاء العقول منهم إن هذا الحادث قطرة من بحر مما سيحل بالمسلمين بعد أن جاء ولى عهد السلطنة الإنجليزية وأنهم سيرون يوما قبور آبائهم منبوشة وعظامهم محرقة بزيوت البترول وجثث موتاهم تلقى على قمم الجبال وغير ذلك من الأرجاف حتى كادوا يفتنون.

(مطلب)

ما ترتب على كثرة اللصوص من إلحاح السير بارنج بتعيين مستشار لنظارة الحفانية

وكررت فى هذه الأيام اللصوصية وعم فساد أهل الشقاوة وكبر عبثهم فى القرى والبلاد وعظمت قحتهم فكانوا يتخطفون فى الليل والنهار ويكبسون الدور بلا حياء ولاخوف فجد أصحاب الشرطة فى طلبهم واهتم الرئيس لذلك جدا تحاشيا من ضوضاء جماعة الإنجليز وأصحاب صحف أخبارهم فلم يتمكن من إرجاع الأمور إلى مجراها وبقي الحال على ذلك أياما كثر فيها تردد السير بارنج على ديوان الخديوى تارة وديوان الرئيس أخرى يشكو مما هو صائر من الخلل وعدم الأمن على الأرواح والأموال بسبب فساد رأى المديرين والمحافظين وعجزهم عن إرجاع الأمن إلى البلاد ثم أشار على الخديوى بطلب تسليم وكالات المديرين والمحافظات إلى جماعة من الإنجليز وهو يقول لا خلاص للبلاد من هذه الفوضى المستحكمة إلا

بتسليم زمام سائر إدارة الحكومة إلى جماعة الإنجليز قيل فتأنف الخديوى من ذلك وكلم الرئيس فيما هو صائر وأغلظ عليه فى القول وألقى عليه تبعة ذلك كله فتشكى الرئيس من أعمال المكلفين بضبط الجنايات من رجال النيابات ورماهم بالجهل وقال: إنهم أغرار غير أكفاء لمهمة ضبط الوقائع وتحقيق الجرائم ووسم قضاة المحاكم بوهن العزيمة والخلط بين اللين والشدة وطلب جعل النيابات تابعة لنظارة الداخلية وتحت سلطة رجال الإدارة فلما شاع هذا الكلام نقله أصحاب صحف الأخبار الإنجليزية وجعلوا يقرعون الرئيس ويرمون به بالعجز وعدم القدرة على تدبير الأمور فى هذه الأيام وأكثروا من عبارات الهزء والسخرية. قالوا وقد آن الوقت الذى يجب فيه على صاحب سياستهم أن يسلم زمام الدواوين الكبرى إلى من يحسن تدبيرها من الإنجليز لكى يحولوا دون كل مطمع وهوى وما كادت تهدأ ضوضاؤهم هذه حتى تقدم السير بارنج إلى الخديوى فى التعجيل بإعطاء منصب استشارة الحقانية والإشراف على سائر النيابات والمحاكم الأهلية والشرعية إلى رجل من الإنجليز قد اصطفوه لذلك اسمه أسكوت، وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياما حتى رسم الخديوى إلى الرئيس بالعمل، قيل فامتنع لما فى ذلك من الحيف والصغار لا سيما وأنها كبيرة من الكبائر التى لم يكن ليقوى السير بارنج على إتيانها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا فجعل يطاول ويحاول والخديوى فى قلق من تردد السير بارنج على ديوانه فلما آتس الرئيس من الخديوى ميلا إلى طلب السير بارنج زين كما قيل يومئذ إلى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية الوقوف فى وجه السير بارنج والعمل على إيقافه عند حده فقام حسين فخرى باشا قومة الحازم غير هباب ولا وجل ورفع إلى الخديوى صحيفة كلها تفنيد لمزاعم السير بارنج وتحذير من سوء عاقبة هذا الأمر، حدثنى صاحب لى من المقرئين من مجلس الرئيس قال: كان الرئيس إذا رأى فى هذه الأيام من حسين فخرى باشا مللا أو إغفالا لمقاومة مطالب السير بارنج حرصه وشجعه وأكبر قدره أو أنبه وقرّعه وصغر نفسه وأخرج صدره فيهب إلى المشاغبة ويتجرد إلى الدفاع ويملا فضاء ديوانه بكلمات الوعيد وعبارات التهديد على أنا نعلم والناس كلهم يعلمون أن صيحته هذه إنما هى كصرخة فى واد أو نفخة فى رماد وأن لا راد للسير عن هواه ولا دافع لقدر الله وقضاه وكانت كتب زعيم سياسة الإنجليز مترادفة على ديوان الخديوى بالتعجيل وترك الإبطاء والخديوى فى أخذ ورد مع الرئيس والرئيس يفسح لحسين فخرى باشا الأمل ويشجعه على الأخذ بأطراف العمل

لعله ينال من ذلك الداهية مأربا فقال الناس يومئذ: إن أحد الرجلين مخلوع لا محالة وإن فوز زعيم سياسة الإنجليز فى هذه المرة سيكون مفتاحا لمغالق ما استعصى على جماعة الإنجليز ولوجه من دواوين الحكومة إلى الآن فلما كان خامس عشر فبراير من السنة أى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية وسادس رجب الفرد سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية رسم الخديوى بتولية أسكوت هذا منصب الاستشارة القضائية والإشراف على سائر المحاكم فتولاها وكان من أمره بعد ذلك ما هو مشهور ومعروف أ.هـ.

وحدثنى أيضا من لا أشك فى صدق حديثه قال: قد كان من دهاء صاحب سياسة الإنجليز فى أمر تسليم زمام الاستشارة القضائية إلى أحد رجال الإنجليز أنه كان يرسل إلى الخديوى الرسائل تلو الرسائل وكلها تتضمن الشكوى والإشفاق مما هو حاصل من ذهاب الأمن من البلاد وكثرة اللصوصية ويستميله إلى تمحيص الأسباب الناجم عنها هذه القوضى المستحكمة حلقاتها ويشير بمنع تطاول يد الرئيس مصطفى رياض باشا إلى العبث بوظائف رؤساء النيابة وأمورى تحقيق الجنايات ومازال بالخديوى حتى هان عليه تولية أسكوت المنصب جولا فإن أفلح وتم لأهل البلاد على يديه فى ذلك الحول ما يرجونه من تأمين الطرق واستتباب الراحة فإلى ما شاء الله أو إلى أن تصير المحاكم فى غنى عنه وإلا عادت الأمور إلى ما كانت عليه ثم تعين أسكوت فلم تمض عليه أيام حتى طاف سائر المحاكم بالإقليم البحرى وسبر غور ما فيها وجعل يمحو ويثبت ما يشاء من مواد القانون المدنية والجناية ويعدل فى نظام وهيئة القضاء والقضاة ورؤساء أقلام النيابة ويدون كل ما يعن له من أوجه الإصلاح ووسائل الفلاح ثم سار إلى الإقليم القبلى وسار معه حسين فخرى باشا فكان إذا نزل فى بلد استدعى إليه عمدتها ومشايخها وحادثهم فيما عليه المحاكم بالإقليم البحرى ويشرهم بقرب انفراج الأزمة وزوال تلك الشدة ومناهم بمستقبل كله خير واطمئنان ثم عاد إلى القاهرة وشاع الخبر بأنه على عزم أن يرفع إلى الخديوى والرئيس تقريراً بما رآه من أوجه الإصلاح فتحدث الناس فى ذلك وفيما عساه أن يكون من الرئيس إذا أخرج السير بارنج موقفه وأكرهه على قبول مطالب أسكوت وأحس الرئيس بوشك وقوعه فى هذا الشرك فعمد إلى الخلاص منه وأوعز إلى حسين فخرى باشا بأن يستعد لتقديم تقرير إلى الخديوى بما يراه فى مطالب أسكوت وفيما يلائم وما لا يلائم منها مصلحة البلاد فلم تكن إلا أيام حتى رفع أسكوت تقريره وفعل كذلك حسين فخرى باشا وكل يدعى لنفسه العصمة والبعد

عن الخطل، ورأى الرئيس أن لا يتجزز لأسكوت غرضاً ولا أن ينيله مأرباً فرسم بتشكيل لجنة من المسيو بيتري مستشار قضايا نظارة الحفانية وإبراهيم فؤاد بك وكيل محكمة الاستئناف الأهلية وإبراهيم نجيب بك رئيس المحكمة الابتدائية والمسيو لوجريل النائب العمومي واثنين من مستشاري الاستئناف الأجانب لينظروا فيما يشير به أسكوت من أوجه الإصلاح وفيما يعارضه به فخرى باشا فوافق على ذلك مجلس النظار وقرر العمل به، وسافر الخديوى إلى الأقاليم القبلية فى قلة من الخدم والحشم والأتباع ترويحاً للنفس أو كما شاع فرارا من عناء الأخذ والرد فى هذا الحادث الذى كثرت أذنا به واشتبهك بعضها ببعض وأحس أسكوت بالذى ترمى إليه أغراض الرئيس فلم يرض عن تشكيل تلك اللجنة وعده تشكيلها ميلا عن الجادة وضررا بالإصلاح وقال: لا يصح تشكيلها على هذه الصورة قبل أن يصادق مجلس النظار على المبدأ الذى قد بنى عليه تقريره ولا سيما تصديقه على وجود المراقبة والتفتيش على سائر المحاكم وجعل سلطة التفتيش بيد جماعة من الإنجليز أو من المصريين إن وجد بينهم من يصلح لذلك واشتد الأخذ والرد بين الرئيس والسير بارنج شدة بالغة كان من ورائها استبدال المسيو بيتري مستشار قضايا نظارة الحفانية بالمسيو مور يوندو مستشار قضايا الداخلية وجعل رئاسة اللجنة لحسين فخرى باشا فكبرت عند ذلك حجة أسكوت وأنكر على اللجنة فعلها وقال إن حكمها فى ذلك سيكون من قبيل حكم المرء لنفسه وامتنع المستر بوند الإنجليزى أحد الاثنين المستشارين المعينين بعضوية اللجنة من الحضور فى جلستها وقال لا تصح رئاسة حسين فخرى لها وهو خصم أسكوت المعارض له فى مبدئه وكذلك لا تصح عضوية بعض الأعضاء لأنهم أصغر درجة من صاحبى الخصومة فلم يلتفت أعضاء اللجنة إلى شىء من ذلك واجتمعوا بغير حضور بوند وبحشوا فى قولى الخصمين أياما ثم اتفقت كلمتهم على رفض سائر مطالب أسكوت إلا ما كان منها مختصا بتعيين مستشارين من الأجانب بمحكمة الاستئناف العليا بشرط أن يكونوا من القضاة الأجانب الشاغلين الآن لوظائف القضاء بالمحاكم الابتدائية لا أن يكونوا من جماعة الإنجليز كما أشار أسكوت، ولما علم السير بارنج بما قرره اللجنة أكبر الأمر وأعظمه ورأى أن فوز الرئيس مصطفى رياض باشا فى هذه الطفرة يكون هادما لأمانى صاحب سياسة الإنجليز وقاضيا على عظمة الاحتلال فرفع فى الحال إلى الرئيس مذكرة يطلب فيها البت قبل كل شىء بتثبيت أسكوت فى منصب الاستشارة وعزل حسين فخرى باشا من مسند نظارة الحفانية وعدم المعارضة فى ذلك ويقول إن هذه المذكرة واردة إليه على جناح البرق

من صاحب سياستهم وهو يلقي تبعة كل إبطاء فى تنفيذها على عاتق الرئيس ، وكان التعجيل بتثبيت أسكوت تعجيل أيضا بقبول سائر مطالبه على علاتها لأنه إذا تمت له ولاية المنصب أمنت مطالبه جميعها من العبث وحقت على الرئيس طاعته- فلما وقف الرئيس على ما فى تلك المذكرة عقد فى الحال جلسة مجلس النظار فلم يحضرها معه سوى على باشا مبارك وقيل حسين فخرى باشا أيضا وقرر عدم جواز تثبيت أسكوت فى المنصب ورفض عزل حسين فخرى باشا وكتب مذكرة بالتركية ورفعها مع قرار المجلس إلى الخديوى بالصعيد الأعلى ولبت الفريقان ينتظران الجواب وهما على أحر من نار الجمر .

فلما كان تاسع عشر جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان وثلاثمائة وألف هجرية وتاسع فبراير سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة وألف ميلادية عاد الخديوى من رحلته فبالغ أهل القاهرة ومصر فى عمل الزينة لمقدمه ثلاث ليال وأولم الرئيس مصطفى رياض باشا وليمة عظيمة لسائر الأمراء من البيت العلوى وكبار الحكومة وأصحاب الوظائف ولم تنقضى ليالى الزينة حتى اجتمع النظار لدى الخديوى بسراى عابدين صبيحة الجمعة رابع رجب الفرد وثالث عشر فبراير وجعلوا يتباحثون فيما جاء فى مذكرة السير بارنج حتى الساعة الحادية عشرة فظهر الخبر وتحقق بأنه قر رأيهم أولا على إبقاء أسكوت فى المنصب مع قبول جميع الشروط المترتبة على الولاية وجميع فروعها وأذئابها بغير معارضة ، وثانيا رفض عزل حسين فخرى باشا من منصبه بما أنه قد تقرر ولاية أسكوت فلم يوافق السير بارنج على ذلك وقال لابد من عزل حسين فخرى باشا لاستحالة حصول الوثام بينه وبين أسكوت وترددت الرسل بين الخديوى والسير بارنج بقية يوم الجمعة إلى ظهر السبت والناس فى تساؤل عما عساه أن يكون من الرئيس بعد ذلك التشديد وتلك الحدة وهل هو باق على عزمه من اعتزاله الرئاسة بعد أن وكلت الاستشارة إلى أسكوت وأصاب سهم السير بارنج من جسم الحكومة فى هذه المرة أيضا مقتلا وبعد أن باتت نظارة الأشغال بيد منكرىف والحربية بيد الجنرال جرنفيل والخزينة بيد منلر وبالم والداخلية بيد فنك والمعارف بيد صنائع السير بارنج فيها وقد ختم أيضا على قلب الوظائف الصغرى بخاتم لا يقدر على فضه إلا الجبار العظيم فلم يبق إلا أن يقضى على البقية الباقية بأيدى أبناء البلاد الضعفاء من أوجه الارتزاق فيموتون جوعا ونحيا جماعة الإنجليز أو ثناء عنه عزة المنصب وأبهته الظاهرة فلم يكن إلا القليل حتى برح الخفاء وظهر للعيان أنه قد غير من عزمه وفضل البقاء فى منصبه فقالوا لعل فى ذلك حكمة .

واشتد أصحاب صحف الإنجليز على الرئيس وبعض النظار بقارص الكلام ورموهم بالعسف وحب الذات وقالوا إنهم جميعا زعماء للحزب الذى عاش أعواما تحت راية الاستبداد القديم فلا يليق بعظمة السلطنة الإنجليزية أن تفسح لهم فى الأجل ولا أن تتركهم يتضافرون على مثل هذا العمل فإما عيشة راضية وإما ضربة قاضية وإلا ساءت الحال واتسع المجال واستعصى على سلطنة البحار بلوغ الآمال. وهبَّ صاحب سياسة الفرنسيين من الخمول وأرسل إلى قنصلهم بمصر أن يحتج على تولية أسكوت منصب الاستشارة ويمانع فى تعيين لجنة المراقبة وأن يعلن أصحاب الحل والعقد بمصر أن دولة الفرنسيين لا تتساهل فى شيء من ذلك ألته فصعد القنصل بالأمر واجتمع بالرئيس مصطفى رياض باشا وتكران باشا وأدى الرسالة حقها، قيل ففرح الرئيس بذلك وأبلغ الخبر إلى السير بارنج وهذا رفعه إلى صاحب سياستهم ولبثوا ينتظرون الجواب وانقطع الرئيس فى داره يوما وبعض يوم ثم سافر إلى مزارعه بطود البحيرة وأقام بها أياما كثر فيها لغط أصحاب صحف الأخبار المحلية بشيء من مطاعن أصحاب الصحف الإنجليزية ثم جاء الخبر إلى ديوان الخديوى بنزوع صاحبى سياسة الإنجليز والفرنسيين إلى المناقشة فيما أفضى إلى تولية أسكوت منصب الاستشارة وأن المناقشة فى اشتداد وقد دخلت فى غمارها أيضا دولة الألمان والباب العالى.

واتفق أن مات فى رابع عشر رجب قاضى قضاة مصر الشيخ عبدالرحمن نافذ فخلا بموته منصب القضاء الشرعى فتساءل الناس عن من يخلفه وعما إذا كان ذلك الخلف يأتى من دار السلطنة بفرمان من الباب العالى على ما جرت به العادة من قبل أو أن الحكومة المصرية تولى من تشاء من قضائتها وظنوا أن وقوع هذا الحادث فى هذا الحين قد يمكن السلطان من التوسع فى الكلام مع الدول عن حالة القضاء بديار مصر وفى تناول يد الاحتلال الإنجليزي إلى العبث به وفى تولية أسكوت منصب الاستشارة على غير مسوغ فيتضافروا جميعا على ما فيه المصلحة وقد وقع ما كانوا يظنون فإنه ما بلغ الباب العالى خبر موت الشيخ القاضى حتى وردت كتبه على ديوان الخديوى والغازى مختار باشا بعزم السلطان على إلغاء ما جاء بفرمانه الشاهانى المؤرخ سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هجرية من بقاء الشيخ عبدالرحمن فى منصب القضاء بمصر وعدم استبداله كالعادة المتبعة بالباب العالى فى كل سنة إذ يموت الشيخ عاد إلى الباب العالى حقه فى تولية القضاء كل عام لمن هم مترشحون لذلك

من مشايخ الوقت فى دار السلطنة، فاهتم الخديوى بالأمر وكلم الغازى مختار باشا فى بقاء حق انتخاب القاضى الجديد للخديوية المصرية فأرسل الغازى إلى الباب العالى فى ذلك فجاء الجواب قائلاً إنه قد جرت العادة من قديم أن للباب العالى وحده حق تعيين قاضى قضاة مصر من أصحاب الدراية والأهلية بالترتيب لكل قاض منهم سنة واحدة فإذا انقضت السنة يرسل الباب العالى صاحب الدور وهكذا، فلما كانت سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هجرية التمس الخديوى إسماعيل من لدن الذات الشاهانية بقاء الشيخ عبدالرحمن نافذ فى منصب القضاء بشرط أن تدفع خديوية مصر ثلاثة آلاف جنيه فى كل سنة لصاحب الدور من مشايخ الوقت فى دار السلطنة بدون أن يشغل الوظيفة فأجاز الباب العالى للشيخ عبد الرحمن البقاء فى مصر من سنة اثنتين وتسعين بمرتبة قدره ألف وخمسمائة جنيه يتقاضاه من خزينة الخديوية المصرية فى كل سنة إلى أن يتوفاه الله ولما كان هذا الامتياز لم يختص به إلا الشيخ عبد الرحمن وحده فقد زال بموته وعاد إلى الباب العالى حقه فى إرسال صاحب الدور من علماء دار السلطنة إلى هذا المنصب، فمال الرئيس مصطفى رياض باشا إلى مقالة الباب العالى وأحلها محلها ولم ييخسه حقه وكأنه كان يتمنى لو أن السلطان ينال من هذه الفرصة مأرباً فيوقف مطالب صاحب سياسة الإنجليز عند حد ويعمل على إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه ولكن هل يطلب أثراً بعد عين وقد جاء فى المثل «الصيف ضيعت اللبن» وقيل إن من التوقى ترك الإفراط فى التوقى لأن من حنكته التجارب قاد هامة الحوادث بذوائبها فدانت له ورجل الأنام من قدر على الاستيثاق من مواعدة الأيام.

فلما كان ثالث عشرى رجب جاء الخبر من دار السلطنة العثمانية بأن قد صدر فرمان السلطانى بتولية الشيخ عبدالله جمال الدين قضاء مصر وقد كان على قضاء الروملى ثم أعقب هذا الخبر ورود كتاب من الصدر الأعظم إلى الديوان الخديوى يقول فيه: إن جلالة مولانا المتبوع الأعظم أمير المؤمنين قد ساءته تولية أسكوت الإنجليزى منصب الاستشارة القضائية بالخديوية المصرية فى حين أن القضاء بديار مصر قد بلغ أقصى درجات الكمال وشاع الخبر بذلك فأرسل الخديوى إلى الباب العالى على جناح البرق رسالة يقول فيها بعد الاستعطف والتلطف: إنه بإجازته تولية أسكوت هذا المنصب لم يأت أمراً جديداً فى ديار مصر بل هو فعل مثل ما فعله خلفاؤه من تولية بعض الأجانب فى المصالح والدواوين المهمة للاستفادة من

نشاطهم وعلمهم وأنه لا شيء بيد أسكوت من القوة الإجرائية ولا هو مطلق الكلمة فى شيء وأن مشروعاته لا يعمل بها. إلا بعد تمحيصها والتصديق عليها من مجلس النظر وصدور الأمر بتنفيذها - فلم يعجب الأحزاب هذا القول وظنوه خدعة وحيلة وقالوا إن الباب العالى سيطاول فى إرسال القاضى الجديد حتى يتم لصاحب سياسة الفرنسيس الاتفاق مع زعيم السياسة الإنجليزية على إرجاع الأمور إلى ما كانت عليه فلم يصب ظنهم المرمى ووصل القاضى إلى الإسكندرية فى صبح الاثنين الحادى والعشرين من شعبان من السنة مع عائلته وبعض الخدم وبات ليلته تلك فى بيت مفتى الشجر فزاره العلماء والوجهاء وأصبح فركب قطار السكة الحديد إلى القاهرة فاستقبله فى محطتها جماعة العلماء والغازى مختار باشا وبعض رجال الغازى وفخرى باشا ناظر الحسانية وشيخ الجامع الأزهر ومفتى مصر والتشريفاتى الخديوى وبعد تبادل التحية ركب القاضى فى مركبة من المركبات الخديوية يحف بها كوكبة من الفرسان وعلى يساره حسين فخرى باشا ونزل ضيفا بمنزل سعادته وفى ثانى يوم ركب فى عربة من عربات الخديوى وعلى يساره الشيخ الرافعى رئيس المجلس العلمى وحضر إلى سراى عابدين فاستقبله عبد الرحمن رشدى باشا رئيس التشريفات وأدخله على الخديوى فقابلته بالترحيب وبعد أن تناول القهوة ألبسه الخديوى خلعة ثمينة من فرو السمور فنزل بها إلى المحكمة واحتفل به قضاة مجلسها وهنئوه وبعد برهة لطيفة سار إلى المشهد الحسينى فزاره وركب من هناك إلى منزل مضيئة وبعد أيام قلائل أولم له الخديوى وليمة شائقة حضرها الغازى مختار باشا وبعض الأمراء من البيت العلوى وبعض الوزراء وكبار الديوان الخديوى والعلماء .

واتفق أن ابتاعت حكومة الإنجليز من الحكومة الخديوية قطعة أرض من فضاء قصر الدوباره على ساحل النيل الشرقى لبنائها دارا لقنصلاتو الإنجليز بشمن وقع الاتفاق عليه وكان المشتري لها السير بارنج باسم ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند فبعد أن تم الاتفاق على البيع والشراء وقبض الثمن أرسل ناظر المالية إلى قاضى القضاة جمال الدين يطلب توقيع الصيغة الشرعية وتسجيل البيع بالطريق الشرعى واستخراج الحجة بذلك فأعاد القاضى السؤال عما إذا كان تحديد الأرض يشمل شيئا من ساحل البحر فإذا كان كذلك فلا يصح لأنه طريق مطروق لا يصح تملكه للغير فقال السير بارنج إن البيع يشمل الساحل وأنه قد اشترى الأرض إلى مجرى الحوت فامتنع القاضى عند ذلك من عمل المسوغ الشرعى وقال لا يجوز تملك الطريق السلطانى للغير

فشدد السير بارنج فى الطلب وقال لابد من استخراج الحجة بما تم بيعه فسأل حسين
فخرى باشا مفتى مصر رأيه فى ذلك فأفتى بعدم جواز البيع وبعدم تمليك الطريق
السلطانى للغير وعدم جواز جعل الحد الغربى .

فلما كان عصر ذلك اليوم حضر مصطفى فهمى باشا إلى مقر الخديوى بعابدين
ولبث بحضرته برهة ثم خرج فأرسل إليه الخديوى فى سادس شوال مرسوما يقول
فيه : إنه بناء على ما رأيناه فى عطوفتكم من الدراية والاهلية ووثوقنا بكم قد أحلنا
على عهدتكم رئاسة مجلس نظار حكومتنا وعلى هذا نطلب منكم القيام بتأليف هيئة
نظارة جديدة وليكن فى علمكم أننا نعضدكم ونساعدكم على الأعمال المهمة التى
دعوناكم لأدائها وبما أن المنهج الذى سلكناه منذ توليتنا حسن سير أعمال حكومتنا
وسرنا على مقتضاه للآن هو ما جاء فى أمرنا الصادر بتاريخ حادى عشر سبتمبر سنة
تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولا حاجة لتذكيركم بما تضمنه من المواد
الأساسية وهى أن حكمنا وإجراؤه يكون مع مجلس نظارنا وبواسطته مع بقاء الحق
لنا فى الرئاسة على جلساته بذاتنا كلما رأينا لزوما لذلك كما أن جل قصدنا وغاية
مرغوبنا هو العدل والاستقامة والإصلاح وحسن الترتيب فى جميع إدارات القطر
والسعى فى ازدياد الرفاهية والتقدم فى جميع أنحاء البلاد حسا ومعنى فليكن ذلك
دائما مطمح أنظاركم حتى يتسنى لنا بإذن الله الحصول على ما ذكر ونسأله تعالى أن
يوفقنا جميعا لما فيه الخير للبلاد ورفاهية العباد أ.هـ .

فلما وصل إلى مصطفى فهمى باشا مرسوم الخديوى اجتمع بالسير بارنج برهة
طويلة واجتمع كذلك بالمستشار المالى وعند الساعة الثامنة من ذلك اليوم تمثل بين
يدى الخديوى بمقره ورفع إليه عريضة تتضمن أسماء من ستألف منهم هيئة الوزارة
الجديدة فكان فيها أن عبدالرحمن رشدى باشا للمالية ومحمد زكى باشا للأشغال
العنومية والمعازف وحسين فخرى باشا للحقانية ويوسف شهدى باشا للحرية
والبحرية وتيكران باشا للخارجية فوافق الخديوى على إسناد هذه المناصب إليهم
ورسم بذلك فناروا جميعا إلى مقره بعابدين فهتفوا بقبولها يده وانصرفوا وسافر
مصطفى رياض باشا إلى مزرعته بطود البحيرة واحتجب عن الناس كافة وعفت
أخباره وشاع الخبر بعزم أولى الأمر على خلع محمود باشا دبوس أوغلى صهره من
وكالة الداخلية فاستحسن الناس ذلك وأحلوه من الصواب محله .

(مطلب)

ظهور الجراد بالإقليمين القبلي والبحري

ووردت الأخبار من بعض مديري الإقليمين القبلي والبحري على ديوان الخديوى وديوان الداخلية بظهور الجراد فى جهات الصالحية والزنكلون وتل حوين من بلاد الشرقية وأهوه وباروط وآها من بلاد مديرية بنى سويف وكثير من بلاد مديرية جرجا وأسيوط وبلاد مركزى النجيلة والدلتجات واليهودية وقبور الأمراء بالبحيرة وطود ودامريس والبرجين والأخصاص وغيرها بمديرية المنيا وأكثر بلاد القليوبية والمنوفية وكسا أراضى الجزيرة بالبر الغربى من القاهرة وكان ظهوره فى أخريات رمضان فخاف الناس شره واهتمت الحكومة بأمره اهتماما عظيما وأرسلت إلى سائر المديرين والمحافظين بالتشديد على قطع شأفته فجذروا فى تأثره وكانت الأخبار ترد تباعا بتكاثره وانتشاره شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وفتكه بكل ذى خضرة من النبات والشجر والنخيل وظل الحال على ذلك أياما والناس فى دهشة وحيرة حتى أذن الله سبحانه بأن هبت فى أخريات شوال من السنة رياح مختلفة بعضها من الشرق وبعضها من الغرب ولبثت على اشتدادها أياما فاكسحته وحملت بعضه إلى الحوف الشرقى وبعضه إلى الجبل الغربى ولم تترك منه إلا القليل فى البلاد والقرى التى نزل عليها فأباده أهلها بضرب العصى وسعف النخل وجذروا فى جمع بيضه وفرضت الحكومة قرشين لمن يأتى بأقة من بيضة فتسابق الناس إلى البحث عن مواطنه وإخراجه منها فكان أكثره فى مركز النجيلة بالبحيرة وفى الجبل الغربى وسواحل البحر وفى الفشن بمديرية المنيا، ومن غريب ما نقل عنه أن سحابة منه نزلت على مزرعة قطن بإحدى بلاد المنوفية فأكلتها وما أتت على آخرها حتى ماتت جميعها فجاءت أخرى إلى مزرعة فى جوار المزرعة الأولى فلما رأت ما أصاب الأولى نفرت من النزول على شجر القطن وعافته وفرت فلم ير بعد هذه الحادثة جراد يأكل شجر القطن وتحول ضرره إلى الأشجار والنباتات الأخرى وأخبر جماعة من تجار المنوفية مديرها وحلقوا له الأيمان المغلظة بأنهم شاهدوا فى بلاد مركز أشمون جريس طيرا كثيرا جدا أقرب شيها بأبى قردان ولكنه أطول متقارا قد نزل من الجبل الغربى أسرابا أسرابا وأخذ يتبع الجراد أينما وجدته ويكس عليه ويزدد منه المثين والألف ثم يتقيئونه ميتا وهكذا فلا يرحل عن البلد أو المزرعة إلا وقد أفنى ما فيها من الجراد وأباده وأن بعض الجهلة من الفلاحين كانوا يخافون من ذلك الطير

فيرجمونه بالأحجار وهو لا يلتفت إلى ذلك ولم يثن له عزماً، قلت: وقد شاهدت شيئاً كثيراً من ذلك الطير نازلاً على طول الطريق من نفيسة إلى السويس وهو على هيئة صفوف الجند بعضها خلف بعض ساكن القلب لا يزعجه مزعج ولا يحركه محرك وقد أخبرني بعض أهالي نفيسة بأن قد نزل عليهم منذ أيام وهو يترصد الجراد الزاحف من بلاد الشرقية إلى الحوف الشرقي حتى إذا مر به قام من فوره وسد عليه الطريق وجعل يضربه بأجنحته ومنقاره ويتلع منه الآلاف فلا تستقر في جوفه لحظة حتى يتقايأها فإذا أفلت منه شيء تعقبه وقتله ثم يعود إلى مكانه متربصاً. قيل وبقي على هذه الحال أياماً حتى قامت تلك الريح واكتسحت ما بقي من الجراد فسبحان مدبر الأكوان ومسلط الأبدان على الأبدان إنه خلاق عظيم سبحانه جل شأنه.

(مطلب)

موافقة عيد الأضحى لعيد بلوغ ولي العهد سن الرشد

وبالغ الخديوى هذا العام فى إظهار أبهة عيد الأضحى لموافقة أيامه لآيام عيد بلوغ الأمير عباس ولي العهد سن الرشد وكان الخديوى باسكندرية على عادته فى إبان الصيف فطير الخبر بعمل تشريف العيد إلى الآفاق فهرع الأمراء من البيت العلوى والكبراء والعلماء والمشايخ وأرباب الوظائف على اختلاف مراتبهم إلى الإسكندرية استعداداً لحضور يوم التبريك بالعيدين عيد الأضحى وعيد بلوغ الأمير سن الرشد وكثر توارد رسائل التهانى على ديوان الخديوى من كل صوب، فلما كان صبح الخميس عاشر ذى الحجة ركب الخديوى عربة التشريف وعلى يساره الأمير عباس وأمامه الأمير محمد على ولده الثانى وأمام العربة كوكبة من الفرسان وخلفه كذلك وسار إلى مسجد أبى العباس فصلى صلاة العيد ثم عاد إلى مقره برأس التين فدخل عليه الأمراء من البيت العلوى فهتئوه بالعيد وبلوغ ولي العهد سن الرشد وهتئوا كذلك الأمير ثم دخل الوزراء والكبراء والعلماء والوجهاء والرؤساء وأدوا فروض التهانى وخرجوا من عنده إلى سراى الحرم وكانت رحبة السراى مزدحمة بصفوف الجند والمواكب والمدافع تطلق من طوابى وأبراج البلد ومن سفن البحر على اختلاف أجناسها والموسيقى تصدح فى كل ناحية من ساحة السراى وكانت والدته ولي العهد قد أولت ثلاثة أيام قبل يوم العيد وأطعمت وتصدقت على الفقراء وأصحاب البيوتات وفرقت بعض التحف والهدايا النفيسة وكذلك فعل الخديوى

وجاء إلى ولي العهد نيشان الافتخار من إمبراطور النمسا والمجر فسلمه إياه القنصل
فى حفلة من الأمراء والوزراء والكبراء وألبسه الخديوى كذلك بيده فى حفلة أخرى
النيشان العثمانى الأوّل فوقف على باب الأمير يومئذ الشعراء والقوالون وتسابق
المهثوثون من كل صوب فمما قاله أحدهم فى الأمير :

نبه يراعك من وصف وتشبيب	وخذ بنظم التهانى كل أسلوب
إن الهناء إذا طابت موارده	أغناك عن غزل فى الشعر مطلوب
واليوم جلت تهانينا فكان لها	صدر المقام كعنوان المكاتيب
قد بلغ الله مصرا ما به وعدت	ونعمة الله وعد غير مكذوب
إلى أن قال :	

والبدر فى أصله تم تحجبه	أيامه ثم يبدو غير محجوب
يابالغ الرشيد فى ترتيب مدته	وأنت بالفه من قبل ترتيب
ونائل الأدب الوضاح من خلق	من قبل تأديب أستاذ وتهذيب
ليس الخداعة من حلم بمانة	قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب
وليس رشد الفتى فى سنه أبدا	بل فى فؤاد وأخلاق وتدريب
كذلك قد خلق الله الأمير لنا	والمجد فى النفس طبع غير مكسوب
فنال من بعد تغريب معارفه	ولم ينل فضله من بعد تغريب
فضل توارثه عن خير محتده	والفرع من أصله فى الحسن والطيب
جارى أباه فكادا يجريان معا	لولا مهابة إجلال وتأديب
وأصبحت مصر فى آمالها ولها	قلب المحب أنهاء وعمد محبوب
حتى ترى منه غيثا فى شمائله	والغيث فى شك سكب مثل مسكوب
لقد دعوه بعباس ليوم وغى	ولكنه فى الندى من غير تقطيب
فأبصروا منه بحرا فى مكارمه	تخلو عذوبته من كل تعذيب
وشاهدوا منه عقل الشيخ فى حكم	برأس أمرد داجى الشعر غريب
ومن يكن نجل توفيق البلاد فلا	بدع إذا كان مجموع الأعاجيب
حاولت وصف الهنا فيه فأزعجنى	كأنه شقة فى عين متعوب
فلم أنل وصفه إلا على بعد	ولم أنل مدحه إلا بتقريب

وركب ولى العهد فى ذلك اليوم فى عربة فاخرة وخلفه نفر من الجند فطاف على بيوت الأمراء من البيت العلوى وزار بعض قناصل الدول فكان يوما مشهودا .

(مطلب)

ظهور الوباء بمكة ومصوع

وما تمت أيام العيد وما تبعها من أيام التزاور حتى ورد الخبر من مكة بظهور الوباء الأصفر بها ودخوله إليها من الحجاج الهند فقام رجال الحكومة لذلك وقعدوا وأرسل الخديوى كتبه إلى نصحي باشا أمير ركب الحج المصرى فجاء الرد يقول إن الوباء على أشد ما يكون بمكة وأنه قد مات به ثلاثة من الجنود المصرية وأحمد أفندى عمر طبيب الركب المصرى ثم جاء الخبر أيضا بدخول ذلك الوباء إلى مصوع وفتكه بمن فيها فتكا ذريعا فرسم الخديوى من فوره بعمل الاحتياطات الصحية وسيروا فى يوم الأربعاء سادس عشر ذى الحجة جماعة من الأطباء والصيدلية وخدام المرضى إلى محجر الطور على ظهر الباخرة عائدة معهم الأدوية والخيام والملابس لفقراء الحجاج وأرسل ديوان الصحة إلى سائر عماله بالتأهب والاستعداد ليوم الطلب ومنعت نظارة الداخلية من إقامة سائر الموالد فى أنحاء البلاد فخاف الناس وجعلوا يبالغون فى الحيلة والتوقى من شر ذلك العدو الفتاك وطاف مشايخ الحارات ينادون على العامة بتنظيف دورهم والعناية بمأكلمهم ومشربهم وملبسهم فضلا عن نظافة أجسامهم فوقع هذا النداء من قلوبهم موقعا رهيا وكثر بينهم الهرج والمرج على عادتهم عند ظهور خبر هذا الحادث وطاف كذلك أصحاب الشرطة وأطباء الأقسام يفتشون الدور والوكائل ويلزمون أصحابها بنظافتها والعناية بها وظل الحال على ذلك حتى وصل الحجاج إلى محجر الطور ولبثوا به أيام الحجر فكان الموات بينهم قليلا ثم انقطع ولم يبق عليهم من خوف فجاءوا إلى السويس ودخلوا القاهرة معافين فزال عن الناس الخوف واطمأنت قلوبهم وانكف أصحاب الشرطة وأعوان الصحة عن التطواف كما كانوا يفعلون فى كل يوم .

(مطلب)

حريق سراي عابدين

وفى فجر يوم الخميس سابع عشر ذى الحجة سمع دوى شديد وصوت كأشد ما يكون من قصف الرعد وانتشر دخان كثيف ملأ جو القاهرة فهب الناس من نومهم

مذعورين وخرجوا يريدون مكان ذلك الصوت فظهر لهم لهب النار يرتفع من سراى الخديوى بعابدين إلى عنان السماء وشاهدوا طوائف الجند من المصريين والإنجليز يتسابقون إلى رحبة السراى ومعهم أصحاب المطافئ وجماعة ينفخون فى البوق نداء لمن تخلف منهم وكانت النار قد ظهرت أولا من غرفة فى الجهة الشرقية المجاورة لأحد مطابخ الدائرة الخاصة واشتد لهيبها ثم اتصلت إلى غرفة أخرى فأصابت أنابيب الغاز ففرقت الأنابيب فاشتد سعي النار وامتد لسانها وكبر خطرهما وكثر نداء البوق فهرع الجند من كل صوب وناحية وجاءت خيل الحمل وعربات المياه وعربات الرش والظلمبات والفعلة ثم حضر الوزراء ووكلاء النظارات ورؤساء المصالح وكثير من الباشوات المتقاعدین وجعل كل منهم يقول رأيه فى كيفية إطفاء تلك النيران الآكلة فاختلفت الآراء واشتد اللهب وعلا علوا كبيرا وقد غاب عنهم جميعا لإجراء الهدم للفصل بين الأماكن التى أخذت النار تأكل فيها وبين الأماكن التى لم تكن قد وصلتها النار واشتد الخوف على ما فى السراى من الأمتعة الفاخرة والفروشات الثمينة والثريات والمقاعد والأسرة والتحف التى لا تكاد تدخل تحت الحصر فأشار بعضهم بنقلها كلها إلى فسحة السراى الخارجية فنقل الجند بعضها فتكسر بعضه وتعطل البعض الآخر وكانوا يلقون بالشئ الكثير منها من التوافذ والشبابيك فيتحطم وهكذا ولم يتببه أحدهم إلى الهدم والحيلولة بين النار وبين ما بقى من البناء أو تنبه بعضهم ولم يجد سميعة حتى أتت النار على جميع ما فى الجهة الشرقية إلى قرب باب المعية من الجهة الأمامية وإلى قريب سراى الحرم من الجهة الخلفية فتنبهوا حينئذ للهدم فهدموا غرفتين كبيرتين بين ديوان المعية وبين سراى الحرم بإلقاء الديناميت وكذلك هدموا سائر محلات الكتبة فانفصلت النار عن غرف المعية وانحصرت فى الجهة الشرقية وكان فعل الديناميت عند إلقائه على ذلك البناء غريبا مهولا جدا مادت له الأرض وأظلم به وجه السماء وكاد الناس يخرون على وجوههم لشدة ما أصابهم ثم جعلوا يلقون الماء على النار من المطافئ كالسيل ومازالوا على ذلك حتى تمكنوا من إخمادها وسلمت الجهة البحرية من السراى وكان ما كان من أمر المفروشات والنفائس والتحف أما الأواني الذهبية والفضية والخزائن والسجلات والأوراق المهمة فقد نجت كلها من النار فحفظوها فى مكان وأقاموا الحراس من الجند حول السراى وما تهدم منها فى الليل والنهار وطبخوا الخبر بما جرى إلى الخديوى فيجاء ولى العهد ووالدته إلى القاهرة على قطار مخصوص وذها من فورهما إلى بناء السراى ولبثا هناك إلى قريب الغروب ثم عادا إلى الإسكندرية ومعهما من حضر من

الخدم والأتباع، واختلف الناس فى أسباب الحريق وكثرت الظنون وترامت إلى أسمع المرامى فرسم الخديوى بتحقيق الأسباب قيل وبلغه ما يقوله الناس فشدد على النائب العمومى فى ذلك، واتفق أن وجد جماعة العسس فى فجر الخميس ثانى عشرى ذى الحجة كيسا ملقى فى الطريق ما بين ترعة الإسماعيلية وكنيسة الإفرنج فيها ففتحوه فوجدوا فيه جثة رجل من العامة مقطوع الرأس مجهول الاسم والبلد فحملوا الجثة ودفنوها وأبقوا الرأس على رصيف الطريق وحولها جماعة من العسكر تخفروها فلما طلع النهار وشاع خبر ذلك تسارع الناس على اختلاف طبقاتهم إلى ذلك المكان ليروا الرأس واشتد الزحام حتى استدت منافذ الطرق وكثرت ضوضاء العامة وقالوا إن صاحب هذا الرأس هو الذى أحرق سراى عابدين وأنه قد حكم بقطع رأسه وتشهيرها وكثر اللغظ بذلك وانتشر فى القاهرة ومصر القديمة فخاف أصحاب الشرطة العاقبة وحملوا الرأس فدفنوها وقد كانوا يريدون من عرضها على الناس معرفة صاحبها فلم يتمكنوا من ذلك وجدّ أصحاب الشرطة فى البحث عن القاتل وتعقبه أينما سار وحيثما صار فعلموا أن القاتلين للرجل جماعة دعاهم إلى فعل القتل الطمع فيما معه من المال، وتحرير الخبر أن القاتل رجل من المزارعين من أهالى أسيوط وله عادة أن يأتى إلى القاهرة فى مثل هذه الأيام من كل سنة ليدفع أجرة أرض استأجرها من أحد أعيان القاهرة فجاء فى ذلك اليوم على سابق عادته فى إحدى المراكب ومعه شئ من القمح والقول لبيعه ويدفع إيجار الأرض من ثمنه وبات ليلته تلك عند صاحب له من خفراء بيوت خطة الإسماعيلية فظن الخفير أن ضيفه يحمل معه إيجار الأرض لصاحبها على عادته فى كل عام فلما نام الرجل آمنا مطمئنا فى حمى مضيفه انسل الخفير وعاد ومعه رجلان على شاكلته فانكبوا على الرجل وهو فى نومه وذبحوه ذبح الشاة وفتشوه فلم يجدوا معه شيئا لأنه لم يكن إلى تلك الليلة قد باع غلته فوضعوا جثته فى كيس وألقوها فى الطريق فقبض أصحاب الشرطة عليهم جميعا وألقوهم فى الحبس لينالوا جزاءهم.

(مطلب)

جبر البحر

ورسم الخديوى بأن يكون جبر الخليج أى جريان الماء فى خليج الخليفة المار بوسط القاهرة فى يوم الخميس ثالث عشر الشهر أى شهر المحرم من السنة وأن ينوب عنه فى حضور المهرجان ولى عهده الأمير عباس فقام الأمير من الإسكندرية فى يوم

الأربعاء على قطار خاص فكان كلما وقف القطار فى محطة أطلقت له المدافع إجلالا وتعظيما حتى وصل القاهرة وقد كانت محطتها مزدانة بالرياحين والأزهار وغاصة بجماهير الأمراء والوزراء والعلماء والموظفين والوجهاء وقضاة المحاكم الأهلية وأعضاء مجلس شورى البلاد وقد اصطفت الجنود ما بين مشاة وركبان فى ساحة المحطة مع بعض العساكر الإنجليزية فلما نزل الأمير من القطار أطلقت المدافع وصدحت الموسيقى العسكرية فسار بين هذا الجمع حتى ركب العربى وإلى يساره شقيقة الأمير محمد على وركب أمامهما شوقى باشا ناظر الخاصة ودومرتينو باشا أحد رجال المعية وسارت بهم المركبة وخلفها الجند حتى اليخت الخديوى بالترسانة ببولاق مصر فأطلقت لمقدمهم المدافع من كل صوب فباتوا ليلتهم باليخت فلما كان مساء اليوم الثانى فى نحو العشاء الأولى ركب الأمير وشقيقه إلى مصطبة فم الخليج وقد أعدوا لهما بصدر المصطبة سرادقا من الديباج فرش بالطنافس وأنير بالثريات وصفت فيه الكراسى الملبسة بالحرير فجلس الأمير واجتمع الناس فى تلك الساحة وفى الساعة التاسعة أحرقت الحراقات وأطلقت الأسهم النارية وجعل كبار القوم يدخلون على الأمير ويهتئون به إلى نحو نصف الليل ثم ركب مع شقيقه وحاشيته إلى قصر الجزيرة فباتوا وفى الصباح عاد إلى المصطبة وكان قد اجتمع هناك الوزراء وموظفو الحكومة بملابس الزينة والتشريف وبعد برهة لطيفة أمر الأمير بقطع السد فجرى الماء بالخليج ونثرت على السد الدنانير فصاح الناس بأصوات الفرح ثم ركب فى قلة من الخدم والحشم إلى مدينة حلوان فقضى فيها بقية يومه وعاد فبات ليلته فى اليخت الخديوى وأصبح يوم الجمعة فزار فى مسائه المشهد الزينى والمسجد الجامع والمسجد الحسينى ومن هناك عاد إلى اليخت وفى يوم السبت قضى هو وشقيقه نهارهما بين المطرية والقبة والأهرام ومتحف الجيزة وسافرا فى صباح الأحد عائدين إلى الإسكندرية ووقف الشعراء على باب الأمير وامتدحوه بالأبيات الأبيات فممن قال فى ذلك محمود أفندى حسنى المعاون بمحافظة مصر قصيدة طويلة قال فى مطلعها .

وفى النيل بالأنجال يمنا لذا العام ولاحت شمس البشر للخاص والعام
وقال فى المديح :

صفات صفت من معدن المجد والتقى صفات أمير القطر والسودد النامى
وقال فى الختام :

جبرتم قلوب العالمين تكروما بتشريف جبر النيل فى خير أيام

وقال فى التاريخ :

بذا لسعود القطر قلت مؤرخا وفى النيل بالأبحال يمنا لذا العام

(مطلب)

تحقيق ديون غردون باشا

وعادوا فاشتغل أصحاب الحل والعقد بعد خلع مصطفى رياض باشا من منصب الرئاسة بتحقيق ديون غردون لأصحاب الأموال بالسودان أيام حصار الخرطوم والنظر فى شكاوى النازحين من الأقطار السودانية من الجند وأصحاب الوظائف والأهلين فقد كان قناصل الدول فى سعى متواصل مع رجال الدولة فى ذلك فرسم الخديوى فى سابع عشرى المحرم وأول سبتمبر بتشكيل لجنة من البارون رشتوفن والكونت زالوسكى والمسيو لوشوفاليه والمستر مونى والمسيوريوميدس والمسيو مورانا والبرنس موروزى وكلهم أعضاء صندوق الدين والمسيوروكاسيره مستشار قضايا الخزينة وأجاز لهم النظر فى تلك الطلبات والحكم فيها نهائيا مع اعتبار صحة سائر الديون التى حكم بها قضائيا بأحكام صارت فى قوة التنفيذ وكذلك الديون المعترف بها من الخزينة أنها صحيحة وأن ترد للخزينة جميع الأموال التى قامت بدفعها قبل تشكيل هذه الهيئة فأحصوا تلك الديون والطلبات فبلغت تسعمائة ألف وستة وتسعين ألفا وستين جنيها مصريا منها ستمائة ألف وسبعة وخمسون ألفا ومائتان وثمانية وخمسون للأجانب على اختلاف أجناسهم وثلثمائة ألف وثمانية وثلثون ألفا وثمانمائة واثنان للأهالى على تباين مذاهبهم فعدّلوا فيها ماشاءوا وحكموا بما شاءوا واستدانت الخزينة لوفاء هذه الديون والمطالب قدرا من المال كبيرا فكان نصيب الأهلين وأصحاب الوظائف الديوانية من ذلك نصيب الثعلب من صيده مع الأسد وراحت أموالهم وأرزاقهم هباء كما راح دم غردون بين أصحاب المهدي هذرا.

(مطلب)

العثور على عبد الله نديم بعد هروبه

وشاع خبر عزم الخديوى على الخضوع إلى القاهرة من مصيفه بالإسكندرية وأن بعض العيون أبلغت ديوانه الخاص بأن فى بلد الجميمة التابعة لمديرية الغربية رجلين غريبين يقيمان بها منذ أمد بعيد وربما كان أحدهم عبدالله نديم صاحب الطائف

وخطيب عصاة الثورة العراقية وصاحب تلك الأحوال والأهوال المشهورة فاهتم الخديوى بالأمر وسير إلى مدير الغربية مرسوماً بتحقيق الخبر ومعرفة ذنبك الغريبن فصعد المدير بالأمر وسير جماعة من أصحاب الشرطة وبعض رجال العسس إلى ذلك البلد فلم تكن إلا أيام حتى عادوا فى ثانى ربيع الأول ومعهم عبدالله نديم بعينه ومينه وخادم له اسمه صالح أحمد وكان عبدالله فى زى الدراويش المولوية وعلى رأسه عمامة خضراء مكورة وقد أطلق لحيته فجعلته أقرب شبهة بعرب العبادة فكتم المدير عن الناس خبر ظهوره خوف الفتنة وطير الخبر بذلك إلى ديوان الخديوى ونظارة الداخلية فاجتمع فى نظارة الداخلية عبدالرحمن رشدى باشا وزكى باشا وكشنر باشا وتيكران باشا وأحمد شكرى باشا وتناجوا طويلاً فى ظهور عبدالله نديم بعد اختفائه كل هذه المدة الطويلة وفى الخطة الواجب اتخاذها فى تحقيق أمر هربه واختفائه ومكثه كل هذا الزمان بالجميزة فلما كان عاشر الشهر قرر مجلس النظارة إنفاذ الأمر الخديوى الصادر بنفى عبد الله نديم إلى الشام وإطلاق سبيل من ضبط معه وجاء الأمر بذلك إلى مدير الغربية وبأن يرسل عبدالله إلى الإسكندرية ليسير منها إلى الشام فأنزلوه فى قطار السكة الحديد تحرسه جماعة من الجند ومعاونى المديرية ومنعوا الناس من رؤيته وقد كانوا قبضوا أيضاً على جماعة من أهل الجميزة ممن آوى إليهم عبدالله ومن كان يعرفه فعفا الخديوى عنهم وأطلقوا سراحهم ووصل عبدالله إلى الإسكندرية فأنزلوه فى سجن الترسانة ليكث تلك ثم أصبحوا فنقلوه إلى إحدى بواخر الشركة الخديوية الهازبة إلى الشام وقد رسم الخديوى إلى ربانها بأن لا يضيق على عبد الله ولا يشوش عليه وأن ينزله بأى بلد شاءها هو من بلاد الشام وأن يعطى له بعد نزوله شىء من المال للنفقة وتيسير المعيشة وأجاز إلى عبدالله أن يشتغل بأى حرفة شاءها فأعجب الناس صنع الخديوى وتحذثوا به كثيراً وقد كان بعضهم يظن أن عقاب عبد الله نديم بعد العثور عليه لا يكون إلا الصلب أو قطع يديه أو النفى من أرض الشرق بأجمعه فوق غير ما كانوا يظنون واختار عبد الله أن ينزلوه بيافا فأنزلوه بها قيل ففتح مكتباً لتعليم الصبيان وأظهر الزهد والورع ما استطاع ورضى بالكفاف فعرفه بعض الناس وقربوه منهم فحسنت حاله .

(مطلب)

فتح جسر قشيشة المستجد فى حفلة حافلة

وجاء الخبر إلى الديوان الخديوى فى الإسكندرية بما بذله عمال الرى من جماعة الإنجليز من العناية بضبط رى سائر حيضان مديريات الإقليم القبلى فى هذا العام

وعدم تخلف شىء من الشراقى إلا النزر القليل من أطيان الخوف الشرقى رغما عن عدم بلوغ النيل حده المعتاد فى الزيادة وهم يطلبون الإذن بفتح قناطر قشيشة المستجدة فى حفلة حافلة فرسم الخديوى بذلك فلما كان رابع عشر ربيع الأول من السنة وسابع عشر أكتوبر زين رجال الرى القنطرة بطولها والطريق الموصلة إليها بالأعلام والرايات ووضعوا رسم الخديوى فى مدخل القناطر من جهة ورسم ناظر الأشغال العمومية والكولونيل منكريف والنابعة الكولونيل روس مفتش الرى وجماعة المهندسين الذين باسروا عمل هذا البناء من الجهة الثانية وقد اجتمع سائر الوزراء والكبراء وأرباب الوظائف وكبار المزارعين وطوائف المهندسين من أجناب ووطنيين وكثير من كتاب صحف الأخبار فلما أتت الساعة الحادية عشرة صباحا فتحوا خمسا من عيون تلك القنطرة فانحدر الماء انحداراً عجيباً ثم جلسوا على مائدة الطعام الذى أعده لهم السيو زورو مقاول بناء القناطر فأكلوا جميعاً وشربوا وعادوا إلى القاهرة فى القطار الخصوصى الذى حضروا به ، وقد كان بناء هذه القناطر بإشارة من المجاور روس فإنه لما رأى الخطر المحدق بجسر سكة حديد الإقليم القبلى بسبب المياه التى تسلط عليه أوان انحدر مياه الخيضان القبلية إلى حوض قشيشة وعدم تيسر ضبط صرف مياه هذا الحوض ومياه سائر الخيضان التى تنصرف إليه وضرورة وجود الموازنة فى مياه الصرف حرصاً على فائدة حيضان الإقليم البحرى وانتفاعه منها أشار بعمل تلك القنطرة فانفقوا مع أحد المهندسين الأجانب واسمه السيو زورو وشريكه السيو بوتاً فى أخريات جمادى الثانية سنة سبع وثلاثمائة وألف هجرية وأوائل شهر فبراير سنة تسعين وثلاثمائة وألف ميلادية على عمل البناء بمقتضى تخطيط وتقدير هندسى فأنموا بناءها وهى تشتمل على ستين عينا مزدوجة سعة الواحدة منها ثلاثة أمتار وتحتوى على صفى عقود أحدهما فوق الآخر وللصف الأعلى منها أبواب أفقية من الحديد المتين وللصف الأسفل أبواب من حديد أيضاً مركبة فى دروندات سطحية ترفع بواسطة مرفعتين متحركتين على خط حديدى مستوى الدورند من الأمام ووزن الباب الواحد من الأبواب العليا نحو سبعة وأربعين قنطاراً مصرياً ومن الأبواب السفلى نحو ثلاثة وعشرين قنطاراً وكيفية استعمال هذه الأبواب هى أنه قبل أن يأخذ النيل فى الزيادة ترفع سائر الأبواب العليا وتجعل أفقية فتسد الفتحات العليا من القنطرة ثم ترفع البوابات السفلى فتدخل من العيون السفلى مياه النيل إلى الحوض ومتى صارت مياه الحوض معادلة لمنسوب مياه النيل أقفلوا تلك البوابات لكى تعلو

مياه الخوض مما يرد عليه من مياه الملق ومياه البحر اليوسفى فإذا زادت المياه بالخوض عن منسوب تمام الرى المعتدل فتحوا العيون السفلى مرة ثانية للتخفيف كلما دعت الحالة لذلك حتى يجيء وقت الصرف العمومى فيفتحون الأبواب العليا كلها حتى إذا ما هبط منسوب الخوض هبوطا كافيا فتحوا العيون السفلى لسهولة صرف ما يكون قد بقى فى الخوض من المياه - وبصرف مياه قشيشة إبان الصرف يرتفع النيل عند القاهرة وتظهر فيه الزيادة ولكنها تختلف بحسب مناسيب مياه الخوض والبحر فى إبان الصرف ويبلغ عمق المياه المحصورة فى الحيضان الكائنة بين أسبوط وقشيشة ما بين عشرين وأربعين ستيمتراً - وقد بلغ ما أنفق على هذه القناطر العظيمة زهاء اثنين وستين ألفاً وستمائة وعشرين جنيهاً مصرياً فجاءت من أجل الأعمال الهندسية وأكبرها فائدة إذ هى تصرف فى النيل مياه سلسلة الحيضان الكائنة بين أسبوط وقشيشة على مسافة مائة وسبعة وسبعين ميلاً تجمع خمسمائة ألف وخمسة وخمسين ألف فدان وستمائة واثنين وخمسين فداناً وأخبرنى جماعة من المهندسين بأن هذه القنطرة تصرف كل عشرين يوماً ألفى مليون متر مكعب فى السنين التى يكون نيلها عالياً وألف وخمسمائة مليون فى السنين التى يكون نيلها منخفضاً فيكون صرفها فى كل يوم مائة مليون متر مكعب فى الحالة الأولى ومائة وخمسين فى الحالة الثانية، قلت: وكانوا قبل إنشاء هذه القنطرة يردمون شاطئ النيل موضع القنطرة الآن ردماً محكماً ويغطون سطحه بالأحجار الضخمة أيام الشتاء ويتفقدون على ذلك الكثير من المال فضلاً عن تسخير العدد العديد من أهالى مديرية الجيزة وأهالى مديرية بنى سويف وبعض أهالى مديرية الفيوم فإذا جاء الصيف وبدأ النيل فى الارتفاع أعادوا ردم ما يكون قد تشعث منه وبالقوى فى حراسته وأكثروا من التطواف عليه فى الليل والنهار وهكذا حتى تتم زيادة النيل وتمتلئ الحيضان القبلية فإذا جاء أوان صرفها إلى قشيشة قام بحراسة ذلك السد مدير بنى سويف ومدير الجيزة وجماعة المهندسين والمأمورين والعدد العديد من أهالى البلاد القريبة والعمد والمشايخ فيضربون خيامهم على طول الشاطئ ويقضون ليلهم ونهارهم متاهبين لكل طارئ حتى يأتى الأمر بكسر السد فيكسروه مع التحفظ والالتفات فتصرف منه مياه الحيضان كافة إلى النيل وهكذا فى كل عام يصرفون على هذا السد الشئ الكثير من المال ثم هم يكسرونه ويلقون به فى اليم حتى انشوا تلك القنطرة فتخلصوا من جميع تلك المخاوف، ولم يمض على ذلك أيام حتى شاع الخبر بعزم الكولونيل منكريف وكيل نظارة الأشغال والمجاور روس صاحب الأيادى البيضاء فى أعمال رى الإقليم القبلى على ترك

منصبيهما والعودة إلى عاصمة الإنجليز فأجمع الناس يومئذ على أن ذلك مترتب على ما هو واقع بينهما وبين السير بارنج من البغض والشحناء قالوا لأن الرجلين من أقيال القوم وأصحاب البيوتات العالية والمعارف السامية فلم يخفصا جناح الطاعة العمياء إلى ذلك الداهية ولم يطبقا الصبر على ذل النفس وإكراهها على ما لا ترضاه فبادرا إلى اعتزال المنصب وترك السير بارنج وشأنه في هذه الأرض أرض العجائب يولى فيها المناصب العالية والوظائف السامية لمن يشاء من صنائعه والملتفين حوله من شبان الإنجليز الأغرار حتى إذا قال لأحدهم قم قام أو افعل فعل بغير أخذ ولا رد، فلما كان أول ربيع الثانى من السنة وثالث نوفمبر اجتمع مجلس النظار بغير حضور الخديوى وقرر قبول استعفاء الرجلين وتعيين المستر جارسن لوكالة نظارة الأشغال والمستر فوستر لتفتيش رى الإقليم البحرى والمستر براون لتفتيش رى الإقليم القبلى والمستر ويلكوكس لتفتيش الخزانات المزمع إنشاؤها بأسوان عند قصر أنس الوجود والمستر الن يوسف لرى القسم الثالث وإسماعيل بك سرى لرى القسم الرابع- وأن يؤتى باثنين من الإنجليز المقيمين بالهند ليتولى أحدهما رى القسم الأول و ثانيهما رى القسم الثانى فتطير الناس من ذلك وقال جماعة منهم هى حلقة من سلسلة كثيرة الحلقات سيطوقون بها أعناق أهل البلاد مادامت مصر مغنما والإنجليز ساداتها وقال آخرون ربما كان فى تخلف الخديوى عن الحضور بجلسة ذلك اليوم حكمة لا تلبث أن تظهر للعالمين يوم يعود الخديوى من مصيفه بالإسكندرية، فلما كان خامس الشهر أى شهر ربيع الثانى قام الخديوى من الإسكندرية على قطاره الخاص ومعه جماعة الوزراء ورجال ديوانه يريد القاهرة فكان لوداعه احتفال عظيم وكان فى انتظاره بمحطة القاهرة كافة الأمراء من البيت العلوى والكبراء والعظماء والعلماء وأصحاب الوظائف العالية فلما وصل القطر أطلقت المدافع من قلعة الجبل وصدحت الموسيقى وهتف الجند هتاف الترحيب فركب عربته وعلى يساره الرئيس مصطفى فهمى باشا وخلفه طائفة الحراس وجماعة الفرسان وسار إلى مقره بسرأى عابدين وكان قد تم بناء ما تهدم منها وكمل زخرفها على أحسن ما يكون وفرشت بأحسن المفروش وأنفقوا على ذلك شيئا كثيرا جداً وكان يعمل فيها من الصناع والبنايين وأصحاب الصنائع الأخرى فى كل يوم ألفان وثمانمائة عامل مدة أربعة أشهر كاملة - وبالع أهله القاهرة ومصر القديمة فى عمل الزينات والألعاب النارية إجلالا لمقدمه وغصت الشوارع كافة بالمتفرجين مشاة وركبانا وانتشر أصحاب الشرطة فى كل صوب ودرب فأقبل الخديوى عند الساعة الثامنة مساء فى عربته يطوف فى تلك الشوارع ويحى

الناس فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وألسنة النساء منهم بالزغاريت وطافت كذلك خلفه والدة ولى العهد فى عربة وحولها جماعة الخصيان وأمامها طائفة من الفرسان ثم عادوا جميعا إلى سراى القبة وأصبحوا وقد وقف على بابہ الشعراء والقوالون وأتت إلى ديوانه قصائد التهاني والمدائح من كل صوب ومنها قصيدة طويلة لحسن بيك حسنى الطويرانى يرحب فيها بالخدويى قال فى مطلعها :

توسمت بدر الفوز من مطلع اليسر فبشرت آمالى بطلالة البشر
وفى مخلصها :

ولولا الهوى لم أشك من غربة النوى ولولا سنا توفيق ماعدت للشعر
له موكبا بأس ولين كلاهما وأقام المنى والأمن فى البر والبحر
أنام الورى فى أمنه وهو ساهر وأنعب منه النفس فى راحة القطر
وفى ختامها :

وأرخ بأفراح القდوم زهاء الهنا وقل عاد توفيق المليك إلى مصر
وقال فى ذلك أيضا محمود أفندى حسنى أحد معاونى محافظة مصر :
بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا وكوكب البشر فى أفق الهنا صعدا
وقال فى الختام وهو بيت التاريخ الهجرى :

لسان إسعادها نادى يؤرخها بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا
ثم شفعا بتاريخ هجرى آخر قال فيه :

بالصفو عاد الخديوى والأنس بالبشر عرف
ياطر فاهنأ وأرخ باليمن توفيق شرف

ومضت أيام الأفراح والزينات والناس متشوقون إلى معرفة ما سيفعله الخديوى بعد تسليم زمام الرى إلى جماعة الإنجليز وإطلاق أيديهم فى شئونه فلم تكن إلا أيام قلائل حتى قرر مجلس الوزراء مرتبات أولئك القوم فكانت ألفا وخمسمائة جنيه لكل منهم يتقاضاها من الخزينة فى كل سنة وستمائة فقط إلى إسماعيل سرى بك فصادق الخديوى على ذلك ورسم به فاختلف حيثئذ الحال على الناس وقالوا حكمة الله سبحانه فى ذلك فوق كل حكمة، فلم يكن إلا يوم أو بعض يوم حتى جاء الخبر من مدير البحيرة بأن قد حدث قطع عظيم بساحل ترعة المحمودية عند جسر حجر النوتية وأن الماء قد انحبس عن الإسكندرية وانهال على ملاحه مربوط وأن سبب

ذلك إهمال أصحاب الري ردم الجسور وتقوية منافذ الماء وجاء الخبر كذلك من محافظ الإسكندرية بانحسار الماء عن الآلات الرافعة لسقاية البلد وأن الأهالي في قلق واضطراب لاسيما الأجانب منهم وقد تراجعت العامة على صهاريج أصحاب البيوت القديمة بالبلد ليستقوا منها فاهتم أصحاب الحقل والعقد لذلك اهتماما كبيرا وقام مدير البحيرة ومحافظة الإسكندرية وسعدالدين باشا رئيس مفتشى الداخلية والمستر فوستر أحد أولئك الإنجليز إلى مكان القطع وحشدوا الأنفار وجمعوا بعض الصناع واشتدوا في العمل وأكثروا من المعدات وظلوا على هذه الحال أياما وانحدر الماء من القطع على أشده حتى تمكنوا بعد العناء الكبير من سده ورجعت المياه إلى مجاريها ولم يمض على هذا الحادث إلا بضعة أيام حتى جاء الخبر من مدير أسبوت بأن قد جرت المياه إلى حوض الزنار وغمرتها ثانية بعد انقضاء أوان صرف ذلك الحوض فأغرقت مزروعاته وأماتها جميعا وأن قد قامت ضجة أصحاب تلك المزروعات ورفعوا الدعاوى أمام الجهات الاختصاص على أصحاب الري ووردت شكاوى القوم على ديوان الخديوى تباعا وكلها مفعمة بقارص الكلام ومر الملام والتألم من فعال أصحاب الري الذين تسلموا زمامه في هذه الأيام فأكبر الخديوى الأمر وكلم الرئيس مصطفى باشا فهمى في ذلك فأوعز الرئيس إلى مدير أسبوت بملاطفة أصحاب تلك المزراع وأن يخفف عنهم ما استطاع حتى يترى في الأمر، ثم كلم أصحاب الري في شكوى أهالي حوض الزنار وتوجع من فعال المكلفين بصرف مياه الأحواض فقام على الفور الماجور براون مفتش رى الإقليم القبلى إلى أسبوت وغاب أياما ثم عاد ورفع إلى نظارة الأشغال تقريرا قال فيه - إن الضرر الذى أصاب المزروعات بذلك الحوض ليس بالأمر العظيم لأن المزروعات تتراوح ما بين مائتين إلى ثلثمائة فدان وأن أصحاب الري لم يخطئوا فى عملهم عند فتح الحيطان للصرف وأن الأهالي كسروا سدا لم يشر أصحاب الري قط بكسره فكان فعلهم سببا لرجوع المياه إلى الحوض يعنى حوض الزنار وغرق تلك المزروعات، وعلم مدير أسبوت بما قاله الماجور براون فأنكر عليه مقالته وأثبت أن الضرر ألم بمزروعات زهاء ثلاثة آلاف فدان وقال إن الأهالي لم يكسروا شيئا من السدود وأن الخطأ كل الخطأ فيما فعله أصحاب الري. وعلت ضوضاء أصحاب حوض الزنار وأنذر بعضهم نظارة الأشغال بطلب التعويض على يدى المحاكم المختلطة وقام أصحاب صحف الأخبار يقرعون جماعة الإنجليز ويرجعون على أصحاب الري منهم باللائمة ويقولون إنهم أغرار

يجهلون طرق الرى المصرى ولا يعرفون شيئا من وسائل الحيلولة بين النافع منها والضرار وأن إعطاءهم تلك الجماكى الفادحة ضرب من الجور ومحنة كبرى لا دواء لها وصاح لصيحتهم هذه أيضا بعض أصحاب صحف الفرنسيين فأكبر الرئيس مصطفى فهمى باشا أمر ذلك وعقد جلسة مجلس النظار وتناجوا طويلا وبعد أخذ ورد قرروا تشكيل لجنة من محمد سعد الدين باشا وعامر عبد البريك واسمعلوم بك لتحقيق تلك الشكاوى وتقدير ما أصاب أصحابها من الخسائر وإقامة الدليل على ما إذا كان الخطأ الناجم عنه تلك الخسائر واقعا بفعل أصحاب الرى أو الأهالى أو غيرهم فساروا إلى أسبوط وقد أحس السير بارنج بما وراء ذلك فعمل على استرضاء الكولونيل مونكريف والماجور روس واستبقائهما فى منصبيهما حولاً آخر وسعى فى ذلك ما استطاع حتى قبلا البقاء عاما أو بعض عام فغيروا حينئذ من ذلك النظام وقللوا من أهمية وظائف جارستن وبراون وفوستر وغيرهم إلى حين ثم خففوا من مطالب أصحاب حوض الزنار واسترضوهم بشيء من المال فسكتوا وانقطعت ضوضاؤهم فبات هذا الحادث بعد ذلك فى خبر كان.

(مطلب)

ما أبطل من المغارم والمكوس

ورأى منلر وكيل المالية عند عمل ميزانية الخزينة لسنة إحدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية أن فى مجموع موارد إيراد الخزينة شيئا كثيرا من المغارم والمكوس التى ما أنزل الله بها من سلطان وهى غل فى أعناق الفقراء من أهل البلاد فأخذ منذ ولايته يدبر الأمر على إبطالها ويعمل على تغيير نظام بعض تلك الموارد ومازال دابا على ذلك وبعض كبار الإنجليز يمانعونه حتى تمكن فى أخريات ربيع الثانى من السنة وأخريات سبتمبر من إعفاء بيوت القاهرة ومصر القديمة التى لا يتجاوز إيجارها فى السنة خمسمائة قرش من الإتاوة السنوية ومن إبطال رسوم القيدية على رخص تعاطى صناعة الطب والولادة والجراحة الصغرى ومهنة القوابل والمحلات المعدة لبيع العقاقير والمواد الأقرباذنية والجواهر السامة ورخص الصنائع وأنقصوا ثمن الملح كى لا يتعذر على الفقراء وأهل القرى استعماله بدلا من الملح البرانى الذى هو الملح الجبلى وأبطلوا دائرتى بلدية مصر والإسكندرية وخصصوا دخل دخولية الإسكندرية لمجلس بلديتها وأبطلوا كذلك السخرة والعونة وما يتبعها من البذل

النقدى وتكفلت الخزينة بالنفقة على خفارة الجسور والأعمال المستعجلة التى تلزم عند حصول خطر من فيضان النيل فقرح الناس بذلك واستبشروا بانفراج الأزمة بعد أن استحكمت حلقاتها .

(مطلب)

ما وقع من التبديل في قضاة المحاكم الشرعية

والى هذا الحين أى إلى شهر ربيع الثانى من السنة كان المستشار القضائى قد كاد ينجز ما أراده من القلب والإبدال فى هيئة القضاء والقضاة بالمحاكم الأهلية وأعضاء ورؤساء النيابة كما تقدم القول فلما كانت أخريات الشهر عمد إلى التغير والتبديل فى قضاة المحاكم الشرعية أيضا فمند يده إلى محاكم الجيزة وأسيوط وبنى سويف والغربية والشرقية وسيوه وسواكن وتناول كذلك بعض وظائف الإفتاء بالمديريات ثم انقلب على محكمة الاستئناف الأهلية فتنحى عبدالحميد صادق باشا عن مركز رئاستها فتولاها إبراهيم فؤاد بيك رئيس محكمة مصر الابتدائية واشتد المستشار فى عمله وأكبر فى القلوب هيئته وتمكن من منصبه أى تمكن واستبد بالأمر حتى بلغ الغيظ من حسين فخرى باشا معظمه واتفق أن أحسن الخديوى على إبراهيم فؤاد بك برتبة الباشوية عقب توليته رئاسة محكمة الاستئناف فقال الناس إنه سيخلف حسين فخرى باشا فى منصبه وشاع الخبر بذلك وأصبح عند نقلة الأخبار فى حكم الشىء المقرر لأن السواد الأعظم كان يتوقع ذلك من يوم دخول حسين فخرى باشا فى عداد وزارة مصطفى فهمى باشا لبغض جماعة الإنجليز له وكرههم لبقائه فى مسند الوزارة وسعيهم وراء خذلانه، فلما كان صبح الثانى عشر من جمادى الأولى من السنة أى رابع عشر ديسمبر ذهب السير بارنج إلى مقر الخديوى بعابدين ولبث بحضرته ساعة ثم انصرف ثم عاد ولبث برهة أخرى ثم انصرف فاستدعى الخديوى فى الحال جماعة النظار وعقد مجلسهم فتداولوا معه فى كيفية افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد حسب العادة فى كل سنة ثم انفض مجلسهم وذهب كله منهم إلى ديوانه ولم يؤذن الظهر حتى جاء الطلب من الديوان الخديوى إلى حسين فخرى باشا فقام من فوره وتمثل بين يدى الخديوى فقال له الخديوى إن الرئيس مصطفى فهمى باشا قد شكأ إلى منذ أيام مما هو بينكما من الخلاف والتباين فى رأى ويقول إنه يستحيل اتفاه معك وقد أتانى اليوم وعرض على خصلة من ثنتين إما أن يخلع نفسه ويترك

منصب الرئاسة وإما أن تخلع أنت من مسند الحقانية فقال يامولاي إني لا أريد أن أكون حجر عثرة في سبيل أعمال حكومة سيدى وها أنا قد خلعت نفسى وتركت منصبى فليقبل سيدى منى ذلك فقال الخديوى قد قبلته فانصرف حسين فخرى باشا من حضرة الخديوى وأرسل فى طلب ماله فى الديوان من الأوراق الخصوصية فأتوه بها. حدثنى أحد المقرين من باب الخديوى قال: خرج حسين فخرى باشا فى ذلك اليوم من حضرة الخديوى وهو يجر أذيال الغيظ ويعض أصبع الندم وكلنا يعلم أن ما بدا من الرئيس مصطفى فهمى باشا من الشكوى وما قاله من استحالة الاتفاق مع فخرى باشا إنما هو مكره عليه من أسكوت ومدفوع إليه من السير بارنج وأن خلع فخرى باشا وتنحيته عن منصبه أمر متفق عليه من قبل وقد ضربوا له أجلا هو تغيب أسكوت بالإجازة فلما غاب أسكوت وحان الأجل المضروب استقدمه الخديوى وقال له تلك المقالة التى لم تخف مغامرها على أحد من العالمين - قال ولقد كان الأجدر بحسين فخرى باشا أن لا يبقى فى هذا المنصب المحضوف بصنوف المكاره إلى أن يكرهه على التخلّى عنه فإن ذلك يحط من الكرامة وتأباه الشهامة - قال: ويعد فقل لى يحقك من ذا الذى يرجو السلامة لجماعة النظار من مثل هاته الضربة إذا لم ترض جماعة الإنجليز طاعتهم أولم تعجبهم شمائلهم، إن الناس طرا يعلمون أن سياسة القوم فى هذه الأيام هى تمزيق شمل أصحاب الوظائف من أهل البلاد كل ممزق حتى يتم لصاحبهم ما طفق ينادى به على رؤوس الملأ من أنه لا رجال فى مصر يحسنون التصرف فى مناصب البلاد أ.هـ.

واتفق أن أحمد بليغ بك وكيل رئاسة محكمة الاستئناف العليا أدب فى ليلة اليوم الثانى خلّع حسين فخرى باشا مادية لإبراهيم فؤاد باشا بمناسبة ارتقائه مسند الرئاسة للاستئناف ودعا فى تلك الليلة جماعة القضاة وبعض رؤساء النيابة فآكلوا وشربوا وبينما هم حاصلون على أكمل ما يكون من أسباب الأناج والصفاء إذ دخل عليهم كحيل باشا باشكاتب مجلس النظار وأبلغ إبراهيم فؤاد باشا خبر ما رسم به الخديوى من توليته مسند نظارة الحقانية بدلا من فخرى باشا فشكر وانطلق لسانه بالدعاء فهناك الحاضرون وأصبح فسار إلى مقر الخديوى يعابدين فهناك الخديوى بالمنصب فقبل يده وكان ذلك اليوم وهو خامس عشر جمادى الأولى وسابع عشر ديسمبر من السنة موعد افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد فرسم الخديوى إلى إبراهيم باشا بالذهاب إلى قاعة الشورى مع جماعة الوزراء فقبل يده وانصرف،

وركب الخديوى كذلك عربة التشريف وعلى يساره ثابت باشا كاتب الديوان الخديوى وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الجند وسار إلى قاعة الشورى فلقىه النظار وجماعة أعضاء شورى البلاد فدخل وجلس فى إحدى غرف المكان فقدموا إليه عمد البلاد المتدبين لعضوية الجمعية العمومية فحلفوا بين يديه يمين الأمانة إذ كانت هذه أول مرة لانعقاد الجمعية العمومية بعد الانتخابات الأخيرة ثم دخل الخديوى القاعة الكبرى وخلفه النظار فخطب على الأعضاء: الخطبة المعتادة ثم قال إن الغرض من اجتماعكم فى هذه المرة هو النظر فى مشروع تقليل فيات ضرائب الاطيان ولا يخفاكم أن هذا المشروع إنما هو مقدمة لتخفيف الضرائب كافة وأملى أنكم تنظرون فيه بما يكون صالحا للبلاد وأهلها وأسأل الله أن يوفق الجميع إلى ما فيه السداد والخير فعند ذلك صاح جماعة الاعضاء بالدعاء له فخرج ولبث أصحاب الشورى مع جماعة النظار يتكلمون فيما هم بصدده وفى ثانى يوم سادس عشر جمادى الأولى رسم الخديوى بتولية بليغ بيك رئاسة محكمة الاستئناف بدلا من إبراهيم فؤاد باشا وأحسن عليه برتبة الباشوية وعاد أسكوت من غيبته فرحاً جذلاً بما ناله من الظفر والغلبة على حسين فخرى باشا وقد خلا له الجو فجعل يصفر وينقر ما شاء أن ينقر ولم تكن إلا أيام قلائل من عودته حتى رسم الخديوى أيضا بتولية إسماعيل صبرى بيك رئيس محكمة الإسكندرية وكالة محكمة الاستئناف العليا فلم يبق فى نفس أسكوت بعد ذلك حاجة إلا قضاها فأقصى عن سائر المحاكم صنائع مصطفى رياض باشا وصهره محمود باشا وخلع من وظائفها جماعة من أهل الدعارة والنفاق وألبس القضاة والنواب وأعضاء النيابات شارات مخصوصة عند جلوسهم للحكم بين المتقاضين وهى زنار من الحرير فى عرض قبضة اليد يجمع بين اللونين الأحمر والأخضر اللذين هما لونا الراية المصرية العثمانية فكانوا إذا جلسوا فى كراسى القضاة تقلدوها على صدورهم وألبس كذلك جماعة المحامين كساء من الجوخ الأسود على شكل الفروجيات أو أقبية العلماء وأصحاب حلقات التدريس بالجامع الأزهر يلبسونها عند الوقوف فى موقف المحاماة وقد كانت هذه الشارات والأكسية من ميكرات شفيق بيك منصور على عهد ولايته وكالة النيابة العامة ولكنه رحمه الله لم يقدر على إخراجها إلى عالم الظهور لممانعة مصطفى رياض باشا فى ذلك أيام رئاسته فاهملت حتى جاء أسكوت فجعلها ركنا من أركان نظامه الجديد فى محاكم البلاد .

(مطلب)

ما فعله كتشنر باشا من النظام

وكما بسط أسكوت يده على سائر المحاكم فغير وبدل أدنى من قضاتها من شاء وأقصى منهم من شاء وسنّ لهم السنن وقنّ القوانين فعل كذلك كتشنر باشا فى نظام الشحنة ومن فيها من الجند ومقدمى الجند وقد بالغ فى الحيلة وإحكام التدبير لعله يتمكن من قطع دابر اللصوصية وإرهاب أهل الشقاوة وتأمين السبل لأبنائها فكان له فى كل يوم منذ تولاها شأن جديد وعزم لا يفله الحديد وكان لا ينكف عن التجوال بين الإقاليم القبلية والبحرية ليتحقق من كفاءة خفر البلاد وعسها وسير مشايخ القرى وعمدها وما يحتاجه الأمن فيها من الوسائل والأسباب وقد غير وبدل كثيرا من ضباط الجند وسنّ لهم السنن وقنّ القوانين الصارمة وسنّ كذلك قانونا للعطلة من أهل البلاد والأجانب سكان المدن والمشردين من الفشتين لا يقدر على العمل به إلا الجبار العنيد فلما أخذ أصحابه فى تنفيذه والعمل به استعصى عليهم الحال وأشكل المآل وخشن قناصل الدول للرئيس مصطفى فهمى باشا بسببه المقال وظلوا على ذلك أياما حتى أوعز الرئيس بعد أخذ ورد مع أعضاء شورى البلاد بإهماله والكف عن مشاغبة الناس إلى حين .

(مطلب)

ما فعله المستر منلر وكيل المالية

وكذلك فعل المستر منلر وكيل نظارة المالية فإنه لما ساء ما فعله مصطفى رياض باشا أيام رئاسته من التشديد على مأمورى الحكومة بجمع الخراج فى غير آجاله وبثه أصحاب الجباية فى شرق البلاد وغربها لتحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة وكان ما كان بينه وبين مصطفى رياض باشا من الوحشة والجفاء واستفحال العداء إلى الحد الذى بيناه فى محله عمد من ذلك الحين إلى البحث والتنقيب عن حالة موارد الخزينة وما وصلت إليه حالة أهل البلاد مع المربين وتجار الأرياف من جماعة الروم وغيرهم وفى أسباب استدانتهم وما عليهم من الديون المتراكمة بعضها فوق بعض وفى كيفية حبس أرزاقهم وزروعاتهم وعقارهم تحت أيدي أولئك القوم رهنا على تلك الديون كل ذلك ليبرهن إلى صاحب سياستهم على أن فلاحى البلاد فى

أشد ما يكون من حالات العسر والإفلاس وعلى أن البلاد فى أخرج المواقف وأدناها من مهواة الدمار وعلى أن فعال رياض باشا يومئذ كانت ضربا من العسف بأهل البلاد وتغيريرا بأصحاب الوظائف الديوانية من جماعة الإنجليز فرفع إلى صاحب سياستهم صحيفة مطولة فى معنى ما ذكر وتناقل ما فيها أصحاب صحف أخبارهم الكبرى كالتيمس والدالينوز وغيرهما وتعقبوا عليها بشىء من قارص الكلام وقد أحصى منلر فى صحيفته تلك حياه الله ما على أهل البلاد على اختلاف درجاتهم من الديون المسجلة بسجلات المحاكم المختلطة وحدها لأولئك القوم إلى أخريات سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية فبلغ عشرين ألف ألف وستا وثمانين ألفا ومائة واثنين وثمانين جنيهها مصرى وأن ما حبس لوفائها من الأطيان بلغ ألف ألف وثلثمائة ألف وأربعمائة فدان من العقار تسعة آلاف وخمسة وتسعين عقاراً هذا عدا ما استدانوه فى سنة إحدى وتسعين الحالية وعدا ما هو مسجل بالمحاكم الشرعية وفضلا عن المبالغ المتعامل بها بين الأهالى والأفراد الأخر من الأجانب ونزلاء البلاد مما لا ينقص عن الخمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف جنيه وأطب منلر فى المقال وأكثر من البرهان على وجوب تغذيل الخراج والتعجيل بالتخفيف عن أهالى مديريتى الحدود وأسوان وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا ومدحوا منلر وقالو « إذا تراحمت الخيل فمن سعد الركاب » وجعل منلر من هذا الحين يكثّر التردد ما بين مجلس النظار ومجلس شورى البلاد حتى تم له ما أراد من التخفيف عن تينك المديريتين وتقررت قاعدة ذلك بينهم .

(مطلب)

مرض الخديوى توفيق باشا ووفاته

واتفق أن ذهب السير بارنج فى سابع عشر جمادى الأولى من السنة أى تاسع عشر ديسمبر إلى سراى عابدين ليكلم الخديوى فيما وقع الاتفاق عليه مع منلر فعلم من رئيس التشريعات أن الخديوى بعد أن كان على عزم الانحذار من قصره بحلول إلى عابدين على عادته فى كل يوم وقد أخذ رجال ديوانه الأهبة لذلك جاءهم الخبر بعدم قدرته على الحضور وأنه يشكو منذ صباح اليوم ذات الصدر فعاد السير بارنج إلى مقره ولبت يومه ينتظر الخير فإذا بهم أرسلوا يقولون إنه قد شعر فى ذلك اليوم بقشعريرة أتعبتة ولكن الأعراض ليست شديدة وليس فيها ما يدعو قط

إلى القلق، فلما كان اليوم الثانى أى ثامن عشرى جمادى الأولى سار السير بارنج وجماعة الوزراء وبعض الكبراء إلى حلوان للسؤال عن صحته فعلموا فى طريقهم بأنه انحدر من حلوان إلى القاهرة فعادوا ودخلوا عليه بمقره بعبدين فشكا إليهم ما يلاقيه من أعراض النزلة وبات ليلته تلك بسرأى القبة ثم عاد فى ثانى يوم إلى حلوان فلم يصلها حتى اشتدت به الأعراض فلأزم مخدعه ولم يخرج منه واستدعى طبيبه الخصوصيين وهما سالم باشا سالم وعيسى باشا حمدى فأثبتا أنه مصاب بالنزلة الصدرية فى درجتها البسيطة وبقي على هذه الحال إلى صباح خامس جمادى الآخرة وكان ديوانه قد أعلن عزم الخديوى على أن يآدب فى هذا اليوم أى خامس جمادى الآخرة مأدبة يحضرها ثلاثون مدعوا من الأمراء والعظماء ومقدمى العسكريين المصرى والإنجليزى وقد كانوا أخذوا الأهبة والاستعداد لذلك فلما اشتدت به علته شاع الخبر بأن قد أبطلت تلك المأدبة وتأجلت إلى يوم الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة ثم جاء الخبر إلى القاهرة بتقدمه إلى العافية وزوال البأس عنه وتكلمت صحف الأخبار فى ذلك وهنأ بعضهم بشىء من مليح القول فلما كانت عشية ذلك اليوم أحس الخديوى بألم شديد فى الصدر فاستدعى طبيبه عيسى باشا وشكا إليه أنه فحس الطبيب نبضه فإذا به على أشد ما يكون من السرعة وكذلك الحرارة على أشد ما يكون فسهى عليه ليلته تلك وبعد نصف الليل بقليل ظهرت عليه أعراض أخرى خطيرة فاستدعوا الطبيب سالم باشا فحضر فى نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل فرأى أن الحالة قد بلغت أشدها وأن الخديوى على شفا جرف الموت فطيروا الخبر إلى صاحب شركة سكة حديد حلوان بإعداد قطار خاص يستحضر بعض الأطباء من القاهرة فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى حضر الطبيب كيمنوس والطبيب هيس فلما عاينا حالة الخديوى قالوا إنه فى النفس الأخير وأن لا مفر من القدر المحتوم وكان إلى هذه الساعة قد اشتدت به علة ذات الرئة فامتنعت بذلك كل وسيلة ولم يبق لهم قط حيلة.

إن الطبيب له فى الداء مخبرة مادام فى أجل الإنسان تأخير

أما العليل فإن حانت منيته تاه الطبيب وخانتته العقاقير

وقضى الأطباء الليل كله فلم تنجح لهم طريقة وبقي الحال هكذا إلى الساعة الثالثة من مساء الخميس سابع الشهر فكبر الخطر وشاع الخبر وطلب الأطباء جماعة آخرين ليشاوروهم فى الأمر فحضر الطبيب أمبرون والطبيب بنيت والطبيب وولد

فلما شاهدوا الحالة قالوا لم يبق أمل فى النجاة فقد استعصى الداء ولا ينفع الدواء وكان لما وصل الخبر إلى القاهرة بطلب هؤلاء الأطباء تسارع كبار قناصل الدول والأمراء من البيت العلوى والكبراء وعظماء القوم إلى حلوان، ومنذ الساعة السادسة غاب العليل عن الصواب ولم يعد يعى وسأله الطبيب كمانوس عما يؤلمه فلم يجبه بشىء سوى هذه الكلمات «هاتوا لنا الضوء» فتحقق جماعة الأطباء أنه قد دخل فى غمرات النزاع الأخير واستمر النزاع إلى الساعة السابعة وفيها أسلم الروح فقام الصباح من كل صوب وعلت أصوات الجوارى والخدم والحشم والأتباع بالصياح والعيول فهب الناس من نومهم وتسارعوا إلى رحبة القصر وكلهم باك منتحب ووصل الخبر إلى القاهرة إذ طاف جماعة الخدم والخصيان على بيوت الأمراء يخبرونهم بالحادث وتتشرب نعيه وشاع فى كل صوب ودرب فهرع الناس على اختلاف طبقاتهم إلى حلوان وعقد النظار جلسة مجلسهم فى صباح الجمعة بحلوان فجلس بينهم السير بارنيج قنصل جنرال الإنجليز وتناجوا فى ذلك طويلا وقد شاع أنهم لم يقرروا على تبليغ الخبر من طريقه الرسمى إلى دار السلطنة العثمانية ولكن الخبر وصل إلى المابين والباب العالى من مصادر أخرى كثيرة ثم انعقد المجلس مرة ثانية بسرارى عابدين فجلس معهم غرانفل باشا سردار الجيش المصرى وكتشتر باشا صاحب الشرطة فقرروا فيما بينهم كيفية سير الجنازة والإتيان بجثة الفقيد من حلوان ثم قرروا أيضا تبليغ الخبر إلى الباب العالى قيل وقد كان تأخرهم عن ذلك مترتبا على انتظار مجيء الإذن من صاحب السياسة الإنجليزية .

ونشروا فى ضحوة اليوم بالجريدة الرسمية النشرة الآتية: الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى إلى رحمة الله تعالى فى ليلة الجمعة ثامن يناير سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وألف فى الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة إفرنكى ليلا بسرارى حلوان، وقد أعلن بذلك سمو البرنس عباس باشا حلمى تلغرافيا (بريانا) ويتظر قدومه لمصر بوابور مخصوص وسيدير أعمال الحكومة إلى حين حضور سموه مجلس النظار تحت رئاسة سعادة مصطفى فهمى باشا .

الاحتفال بجنازة جثمان الخديوى سيكون فى الساعة الثانية على الحساب الإفرنكى بعد الظهر من هذا اليوم يعنى الجمعة ثامن شهر يناير والجنازة ستشيع من سرارى عابدين .

ولإذانا بالحزن ستقفل كافة دواوين الحكومة والمصالح العمومية يومى السبت والأحد تسعة وعشرة يناير .

وانتشر الخبر وذاع ونقله البرق إلى الإسكندرية وسائر المدن والبلدان فى داخلية القطر ودار السلطنة العثمانية والممالك الأورباوية فى تلك الليلة فأصبحوا يوم الجمعة وقد رفعت الأعلام مجللة بالسواد وألبسوا مصاييح الغاز بالشوارع لفائف سوداء وأناروها فى النهار وأقفلت سائر دواوين الحكومة والبنوك والمخازن والدكاكين والمدارس والمكاتب ورفع قناصل الدول أعلامهم منكسة وجاء إلى القاهرة كثير من وجهاء البلاد والعمد والأعيان وفى الساعة الأولى من بعد ظهر اليوم حملوا نعش الفقيد من قصر حلوان فى قطار مخصوص فسار به إلى القاهرة وكان قد ركب فى القطار الأمير حسين أخو الخديوى ورجال الديوان الخاص وكثير من كبار الأهلين والأجانب ممن جاءوا حلوان فلما وصل القطار إلى محطة باب اللوق استقبل النعش الغازى مختار باشا مندوب دار السلطنة « وقد كان مقيما فى بلدة مغاغة فى الأقاليم الوسطى تبديلا للهواء فوصله الخبر ليلا فانحدر إلى القاهرة مسرعا » واستقبل النعش مع الغازى مختار باشا جماعة الوزراء ورجال الديوان الخاص والعدد العديد من الوجهاء والعظماء وأجلة القوم فحمل النعش جند الحرس وسار المشهد إلى سراى عابدين بين الزحام وولولة النساء من الشبايك وأسطحة الدور فلما وصلوا إلى السراى قابلهم العلماء والرؤساء الروحانيون وقناصل الدول وأعضاء صندوق الدين ورؤساء المصالح الأميرية وكبار الجند وأصحاب البنوك والتجار وأرباب الإشارات وأصحاب الطرق وعدد لا يحصى ولا يحصر من الأهالى والقادمين من الأقاليم القبلية والبحرية ثم ساروا بالمشهد فمشى أمامه جمال الكفارة ثم طائفة من الجند الهجائة ثم جماعة من الفوارس المصرية وأمامهم رجال الموسيقى ساكنة زرق الملابس والجند منكسو السلاح ثم جماعة من أصحاب المدافع ومعهم بعض المدافع الكبار ثم مقدمو العساكر المصرية مشاة وركبانا ثم حملة المصاحف والذاكرون ثم مشايخ الطرق والسجاجيد وأرباب الإشارات وبأيديهم السياريق ثم تلاة البردة ودلائل الخيرات ثم تلاة الأحزاب والأوراد ثم نقباء الأشراف والأشراف ثم مشايخ التكايا ودرأيشهم ثم طوائف طلبة العلم بالجامع الأزهر ثم تلامذة المكاتب الأهلية والمدارس الأميرية وطلبة مدرسة دار العلوم والمدارس العالية الخصوصية ثم تلامذة المدارس التجهيزية والابتدائية ثم التجار والأمراء والكبراء من الأهلين والأجانب ثم موظفو النظارات والمصالح فى العاصمة وغيرها من مدن القطر ثم رجال المحاكم المختلطة والأهلية والأفوكاتية والمحامون ومديرو صندوق الدين والسكك الحديدية والدائرة السنية والدومين ثم الرؤساء الروحانيون وخدمة الدين ثم كبار قناصل الدول ثم النظار ثم الأمراء من البيت العلوى والغازى مختار باشا ورجاله ثم العلماء ثم حملة القمام

والمباخر ثم أولاد الكتائب يحملون المصاحف ثم النعش وحوله جماعة من العسكر وطائفة من أصحاب الشرطة وخلفه جماعة أخرى من الجند المصرى ثم فريق من فرسان الشرطة وعلى النعش سيف الفقيده وبعض ما عنده من النياشين .

وخرج المشهد من سراى عابدين إلى شارع عبدالعزيز إلى العتبة الخضراء إلى الموسكى إلى السكة الجديدة ومنها إلى المشهد الحسينى فوضعوا هناك النعش وصلوا عليه ثم حملوه إلى القرافة فوصلوها قبيل الغروب فدفنوه وفرقوا ساعة دفنه الصدقات وعاد الجمع إلى رحبة عابدين حيث نصبت السراذقات وأوقدت المصابيح فجلسوا للعزاء كما جلسوا للعزاء أيضا بسراى القبة وقصر حلوان فلم تكن إلا ساعة بعد جلوسهم حتى ورد الخبر من الأمير عباس إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا يقول: إن خبر وفاة سيدى والدى قد أدهشنى وهذا مصاب عظيم ليس بالنسبة لعائلى وحدها بل بالنسبة لجميع القطر المصرى أيضا فمتى وصلتتى منكم الأخبار الاكيدة عن الوابور الذى سيصير تحضيره فى تريبته أسافر بلا تأخير وأخبركم بالتلغراف عن ساعة السفر وإنى على يقين من أن الأعمال ستستمر سائرة إلى حين وصولى على أحسن محور بهمة عطوفتكم ورفقائكم أ.هـ.

وجلسوا للعزاء ثلاث ليال متواليات ثم جعلوا يجلسون فى مساء كل يوم خميس إلى تمام أربعين يوما، وفى ضحوة تاسع جمادى الآخرة ورد على السير بارنج إشارة من ملكة الإنجليز وإمبراطورة الهند بطلب موافاتها بتفصيل مرض الخديوى توفيق باشا وأسباب الوفاة قبل فأرسل السير بارنج خبرا مفصلا للحادث وجاءت بعد ظهر اليوم إلى الغازى مختار باشا والرئيس مصطفى فهمى باشا إرادة سلطانية مؤداها أنه لما وصل الخبر بوفاة المغفور له محمد توفيق باشا اجتمع الوكلاء فى الحال وقرروا أن يسند مسند الخديوية المصرية إلى الأمير عباس ووكالة أشغال الحكومة إلى الرئيس مصطفى فهمى باشا وبقية النظر إلى حين حضور الخديوى عباس وأنه برفع هذا القرار إلى أعتاب المتبوع الأعظم صدرت الإدارة الشاهانية بالموافقة عليه، فعقدوا فى الحال مجلس النظر وقرروا تبليغ هذه الإرادة السلطانية إلى سائر قناصل الدول وأن يوالوا الاجتماع فى كل يوم صباحا حتى يصل الخديوى الجديد .

واختلفت الأقوال فى مرض الفقيده وفى كيفية العلاج وأسباب الوفاة وما فعله الطبيب عيسى باشا وقد أجمع جماعة الأطباء الذين شاهدوا الفقيده قبل موته بقليل

أن عدم العناية بالعلاج وإهمال مراقبة سير المرض كانا سببا في تسمم دم المريض واختلاط علته الأصلية التي هي النزلة الصدرية بعزل أخرى وأودت بحياته رحمه الله فطلب بعض الأمراء من البيت العلوى وقيل السير بارنج تحقيق أسباب الوفاة ومقاضاة الطبيين فسأل الرئيس مصطفى فهمى باشا الطبيب هيس والطبيب كمانوس أن يبديا رأيهما في ذلك وكلم والده ولى العهد في هذا الأمر فلم توافق على مقاضاة الطبيين ورفع الطبيب هيس والطبيب كمانوس تقريراً قالاً فيه في الساعة الرابعة الإفرنجية من صباح الخميس سابع يناير الجارى دعينا للتوجه إلى حلوان على قطار مخصوص لأجل عيادة الجنب العالى فوصلناها منتصف الساعة السادسة الإفرنجية من الصباح واستقبلنا هناك سالم باشا الطبيب الخصوصى بالحضرة الخديوية فأعلمنا بالإيجاز أن الجنب العالى أصيب منذ ثمانية أيام بالنزلة الوافدة وكان سير المرض إلى الباردة عادياً وأن الحمى لم تشتد وطأتها إلا في الليلة الماضية وأن الجنب العالى كان يعانى الأرق وضيقاً في التنفس وبعض الألم في الجانب الأيسر وأنه لأجل تخفيف الألم أعطيت له حقنة من المورفين ولما دخلنا بعد هذا التعريف إلى غرفة المريض اندهلنا إذ رأيناه في حالة موجبة للقلق الشديد وكان منظره على العموم متغيراً ولونه أصفر وبصره شاخصاً وكان متكئاً على أذرعته جاريتين وظاهراً عليه شدة ضيق التنفس ولم يكن يميز من حوله وكان يشكو على الخصوص عدم إبصاره للضياء وبالفحص وجدنا أن الحمى بلغت درجة أربعين وأن ضربات النبض سريعة وضعيفة جداً ويمكن إيقافها بسهولة ثم فحصنا الجسد فوجدنا ارتشاحاً شعبياً رئوياً زائداً في الرئة اليسرى ونزلة شعبية عامة في الرئة اليمنى ومع كون حالة الرئتين هي بهذه الشدة فإنها ليست كافية لإحداث الأعراض المخية التي كانت ظاهرة ولذلك وجهنا نظرنا إلى فحص الوظائف الأخرى وخصوصاً الكليتين وباستيضاحنا من الأطباء المعالجين عن حالة البول كان الجواب أن لا شيء فيه خارجاً عن الحالة المعتادة وعندما أتممنا الفحص أمرنا بعلاج موافق لما ظهر لنا من التشخيص وشددنا في التنبيه على اتباعه ثم رجعنا إلى مصر لاختذ الاحتياطات اللازمة لمرضانا والعودة إلى جنبه العالى فلما رجعنا إلى حلوان في الساعة الواحدة الإفرنجية بعد الظهر حصل لنا مزيد الكدر لما رأينا حالته قد أخذت في الخطر الشديد بكيفية ظاهرة وأن الأعراض التي في جهة الصدر قد اشتدت وفوق ذلك أن الأعراض المخية قد وصلت إلى درجة ينقطع معها الأمل ودلنا ذلك دلالة واضحة على تسمم الدم بالبول فألححتنا في طلب

البول فعلمنا حينئذ أن جنابه الفخيم لم يبل منذ الليلة الماضية فأدخلنا المجس وتحصلنا بواسطة القسطرة على كمية صغيرة من بول أسود قاتم فحللناه تحليلًا كيمائيًا اتضح منه وجود كمية عظيمة من الزلال في البول فقادنا ذلك إلى أن نعرف بلا ريب طبيعة الداء وهو أن الجناح العالى بعد إصابته بالترلة الوافدة أصيب بالتهاب رئوى عفن مصحوب بالتهاب وريدى عفن أيضا وأنه فى هذه الحالة لم يبق لنا أمل ولكن لم يمننا ذلك من اتخاذ كافة التدابير والوسائط الفعالة حسب ما يقتضيه فن الطب وإن لم نجد نفعا وبمزيد الأسف علمنا أنه لا بد من الوفاة التى حصلت فى الساعة السابعة وربع مساء أ.هـ.

فتحقق الناس طرأ أن الوفاة كانت بسبب إهمال الطبيين وخصوا الخطأ كل الخطأ بالطبيب عيسى باشا لإخفائه خبر احتباس البول عن الطبيب سالم باشا بسبب مرض المثانة المزمن وتحدثوا فى ذلك كثيرا فكان سمر ليلهم وحديث نهارهم وأرجف بعضهم بأن سيقبض على الطبيب عيسى ويودع فى ظلمات الحبوس حتى تتم مقاضاته ثم شاع بعد أيام أن والدته ولّى العهد لم تسمح بذلك وأنها أشارت على الرئيس مصطفى فهمى باشا بالكف عن متابعة هذا الحادث فانكف إذ لم يبق إلا التفويض لله الواحد القهار الذى لا يزول ولا يحول وهو وارث الأرض ومن عليها وإليه المآب.

قلت: وهو محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن محمد على باشا الكبير ولد فى يوم الخميس عاشر رجب سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية ولما شب أدخل مدرسة المتيل فتعلم فيها العلوم الأولية ثم انتقل إلى التجهيزية فتلقى بها علومها واللغات العربية والإفرنسية والإنجليزية والتركية والفارسية ولما بلغ التاسعة عشرة تولى رئاسة جلسات المجلس المخصوص فى سنة ثمان وثمانين ثم تولى نظارتى الداخلية والأشغال العمومية ثم قلد رئاسة مجلس النظاز قبل توليته الخديوية بقليل وفى سنة تسعين ومائتين تزوج بابنة الأمير إلهامى بن عباس باشا الأوّل وإلى مصر وفى سنة إحدى وتسعين ولد له بكره الأوّل الأمير عباس وفى سنة ثلاث وتسعين ولد له ابنه الثانى الأمير محمد على وفى سنة أربع وتسعين ولدت له الأميرة خديجة هانم وفى سنة ثمان وتسعين ولدت شقيقتها الأميرة نعمت هانم وتولى الخديوية المصرية فى يوم الخميس سابع رجب الفرد سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع عشرى يونيه سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وكان عمره يومئذ

سبعاً وعشرين سنة هجرية إلا ثلاثة أيام وأقام فى هذا المنصب ثلاث عشرة سنة إلا شهراً ومات فى ليلة الجمعة لسبع ماضين من جمادى الثانية سنة تسع وثلثمائة وألف فكانت حياته كلها أربعين سنة هجرية إلا ثلاثة وثلثين يوماً.. وكان رحمه الله شفوفاً على رعيته يواليهم فى شدائدهم ويعفو عنهم كثير التسأل عن حالهم وما هم عليه فى إبان الشدة والرخاء وكان باراً بذوى قرابته مع رافة وحنان وشفقة وعطف وأمانة ومروءة وعدل واستقامة وحلم وتواضع وخشية وتقوى وجلال وإنفاق فى الخير وتصديق فى السر والعلن ولكنه قليل الحظ غير موفق الطالع فكانت ولايته كلها مشاكسة ومعاكسة ومحاسدة ومنافسة إن سرت يوماً أحزنت أياماً وإن صفت عاماً كدرت أعواماً وهو مع ذلك طويل الروح كثير الجلد والصبر شديد التوكل حسن الاعتقاد فى وحدانية الله تعالى وقدرته فلم يكن يظهر مللاً ولا ضجراً ولا قنوطاً بل كان دائماً هادئ القلب ساكن القلب حتى وافاه القدر المقدور وقد رثاه الشعراء وأبنة الفصحاء وبكاه أصحاب الصحف على اختلاف مذاهبهم فمن قال فى ذلك صاحب المؤيد :

هى الدار ما الآمال إلا فجائع عليها وما اللذات إلا مصائب
فكم سخنت بالأمس عين قريرة وقرت عيون دمعها الآن ساكب

يا الله أىّ خطب نزل وأى مصاب حل وأى صاعقة صعقت القلوب وأى حادثة شقت لها الجيوب بل ما شأننا وقارعة الخطوب قد اندكت لها جوانب الجنان وفاجعة القلوب قد تولت على خاطر كل إنسان وخارت القوى وحارت النهى ووهى العزم وخان الجلد فإننا لله وإننا إليه راجعون نعم آمنا بقول القائل :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وأى نعيم بعد نزول هذا الخطب المدلهم الذى قضى على كل جارحة بالشكل فلا عجب أن ناحت الثاقلات وأوحت إلى المحاجر كيف تجود بالعبرات فإننا لله وإننا إليه راجعون يا الله بماذا نسمى الداهية الدهياء والمصيبة العظمى التى فاجأتنا بها حوادث الأيام فقضت بالبأس على الأنام وعلى العبرات بالانسكاب وعلى المهج بالأنين وعلى الأحداق بالرينين كما قيل فى المثل استراحة المنكوب ولكن أين الاستراحة وقد اغتالتها أيدي الحادثات فلتذرف الماء فى بلاء راحة ذائب الجوانح :

فلقد آن لك أن تودع خلة رثت وكان حبالها أرماما

كذلك تكون فى آمالك يا طالب الراحة فى هذه الحياة الدنيا وموضوع سعادتها
قد تولى

وهل تستطيع الناديات إلى العلا تقول يفدى الملك بعد الذى حلا
وفى نعيمها نعى الملوک بأسرهم ودون الذى تنعیه کم حادث جلا
فيا مصيبة الملك والدين والدنيا بعد أن قضى توفيق أمير البلاد المحبوب نحبه
وعاجلته المنون فإن الله وإنا إليه راجعون .
وقال صاحب الأهرام :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
طلع على مصر صباح اليوم بما أظلم ضحاها وودّ الناس معه لو طال ليلها
وامتد دحائها ينعى إلى رجالها خطب فقيد تقومت لمنعاه الأضالع وفقد عظيم ارتجت
لوقعه القلوب واستكت لمنعاه المسامع فقامت تندب بفقد أميرها الكريم على توفيقها
المحبوب وتبكى على عزيزها العظيم بما استنزف شئون المدامع واستدرّ حبات القلوب
وكيف لا يبكى الوطن على من كان له أبا شفوفا بل كيف لا تسفح عين العدالة
والمكارم على من كان لها خدنا ورفيقا بل كيف لا يندبه وطن ساوى بعدله بين
جميع سكانه حتى ذهب كريما مندوبا ينشده الحال بلسانه :

فكنت لناشيهم أبا ولكهلهم أخا ولذى التقويس والكبرة ابنما
فلتبك عليك البلاد ياتوفيقها عدد انعامك وعدلك وتتخب عليك قلوب أبنائها
بمقدار ما خزنت فيها من حبك وفضلك فإنها لو بكتك بما لك فى نفوسها من
الفضل والمكارم إذن ما رأينا مقلّة إلا وهى دامعة ولا مدمعا إلا وهو ساجم فعليك
رحمة ربك من ذاهب ذهبى الأكباد على آثاره وفقيد فقدنا الصبر من بعده فحل
محله شديد تذكاره وكريم تولت المكرمات لما مات وواعظ مرشد هدى الناس فى
الحياة حتى هدامهم فى الممات فأى آثار فضلك لا يندبون بعدك وأنت لم يطلبوا منك
محمدة وعدلا إلا وجدوهما عندك بل أى فضائلك ينساها الناس وقد كنت لهم أبا
رحيما كما أنت أبو العباس أمحسن فضلك أم مآثر عدلك أم فيض مراحمك أم
غزارة مكارمك أم حسن أخلاقك أم كرم أعراقك .

أى الفضائل منك تندب فقدها يا بن المكارم يا أبا العباس
فلقد حويت من المحاسن مثل ما جمعت جميع الناس لفضة ناس

فقل لمصر الآن أن ترثيك بعد مدائحها ولشعرائها أن تجود فى تأبينك إن كنت أبقيت لغير الحزن مجالاً فى قرائحها وللأقلام أن تبكيك بدمع محابرها وللكتاب أن تنفجع عليك بما يسودّ وجوه دفاتها فلقد طالما بيضتها بمحاسن أعمالك ومعاليك فصار يحق لها أن تلبس أثواب الحداد من خط مرثيك فإنك الراحل الذى لم يجعل مطايا غير القلوب والمودّع الذى لم يترك للناس زادا غير أكباد ملتبهة ودمع مصبوب فنحن نودّعك بما أبقي فقدك فى نفوسنا إن كان فيها بقية ولا نزال نذكر رزيتنا فيك مع أمثالك إن كان يوجد مثلها رزية رحمك الله رحمة واسعة عداد حسناتك وأجمل أجرك وأجر البلاد فيك بعدد مبراتك وخيراتك فأنت الكريم فى حالى فقدك ووجودك ويومى حياتك ومماتك .

ثم نتقدم بعدك بالعزاء إلى صاحبة الطهر والعفاف والنجلين الكريمين اللذين يعز علينا أن نعزيهما بك بعد أن كنا نهتك بيديهما الكاملين ولكن مثل بيتك الكريم من حمل المصائب ومثل ألك المصون من عودته على التقاء الخطوب واستقبال النوائب فإننا عهدنا الصبر على قدر قلب الثاكل كما عهدنا الأجر فيه على قدر الفقيد الراحل فأيهما اعتبرنا فهم أصحاب الصبر الكريم وإلى أيهما ذهبنا فأنت الفقيد الراحل العظيم نسأل الله أن يعوضهم وإيانا جميل الصبر وأن يكتب لك بما تقدم من عدلك مزيد الأجر فإنك لا تخل قلباً من المسرة فى حياتك ولم تحزن نفساً قط إلا فى مماتك .

ومن يحزن الناس فقدانه يسر ملائك دار النعيم

هذا ما سمحت به بادرة الحزن وأجازه على القلم وقع المصاب وهول الفجاءة ووسعة مقام الجريدة وضيق الوقت والصدر منهما أضيق والقلب أصغر وأخرج ولا حولة ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

يا دهر بع رتب المعالى بعده بيع السماح ربحت أم لم تربح
قدّم وأخّر من تشاء فإنه مات الذى قد كنت منه تستحى

وقال صاحب النيل :

قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير .

سمو ولى نعمتنا البر الرحيم بنا المشفق علينا خديونا المعظم بالأمس محمد توفيق الأول وهو اليوم الخديوى المرحوم هو اليوم الفقيد العزيز وهو اليوم ساكن

الجنان فى جوار رضوان الله عليه الرحمة والرضوان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى
العظيم .

قد مات توفيقنا والدائم الله	فليهرق الدمع ولتستتبع الآه
مات الخديوى الرحيم البر فطرته	قديسة ملكيات سجايه
قضى فباحسرة الملك العظيم له	ومات فلتندب العلياء عليه
فازت بطلعته الأخرى ويا أسفا	أضحت تعزى به من بعد دنياه

إى وربك إن خديويتنا العزيز أمير مصر المحبوب توفيق الأول قد فارق الدنيا
مأسوفا عليه بقلوب الأمة مبكى الشماثل بدموع الوطن انتقل إلى جوار مولاه طيب
ثراه وأكرام فى الفردوس مثواه فترك القلوب تسامى الجيوب فى الانشقاق وودع
العيون المندفقة تجارى المهج المحترقة فالتقى النهران دم يراق ودمع مهراق وحق لهول
هذا اليوم وناهيك به يوم الفراق :

بكينا خديويتنا العزيز وإنما	بكى كل مصرى أميرا ووالدا
ولو أن فى الأقدار ما يبلغ المنى	تمنى بنوها أن يكونوا له الفدا

يعز على الأفلام التى كانت تستمد الخبر من آثار حكمته أن تبتلى بصب دموع
المداد يوم رحلته رحيل مدهش وسفر بعيد وأوب غير منتظر إلى يوم موعود رسم
وداع لكن إلى الأبد موكب حافل لكنه مأتم سيار وحزن قهار وقلوب فى نار وعقول
فى انبهار ودهشة محرقة وموقف عظيم « الوداع الوداع » أيها المولى المنعم البر بالأمة
الرحيم بالملة المشفق بكل الذى لا نشكو منه إلا يوم هذا الفراق الأليم فالوداع الوداع
يا من سهر ليليه لتنام الرعية فى مهد أمانة وأجهد أيامه ليرغد عيش الأمة تحت
ظلال فضله وإحسانه لقد قضيت عمرك العزيز وحياتك الشريفة وأوقاتك الناضرة
وشبيبته الوضاء فى توخى الصوالح الوطنية والمصالح الجدية والمنافع العمومية لم
تلهمك الدنيا بزهرتها ولم تلفتك جلالة الملك عن التماس رضا الخالق بالإحسان إلى
الخالق فلم يسوءهم منك إلا حزنهم عليك وبعذك عنهم وهم فى حاجة إليك
« الوداع الوداع » يا من لم نر من حكمه غير الحكمة ولا من سيرته غير الرحمة فكنت
القريب من الضعيف الرقيق بالبائس العافى عن المسئ المتفضل على المحسن المعزز
لأبناء الوطن المحب لخير البلاد المعين على السراء والضراء فلنعم سيرتك الجميلة
وسريرتك الطاهرة وأخلاقك الكريمة ونفسك الراضية ووجهتك المرضية :

شيم يتقضى الزمان وتبقى وثناء تبلى الليالى وتبلى

ومحاسن كلما ذكرناها بكيها وفواصل كلما تأثرناها تأثرنا بها فعليك الرحمة والرضوان وغاية الحديث فى عالم الإمكان كان وسبحان من يبقى كل شىء فإن نودعك يا خديوبنا العزيز بقلوب واجفة وعيون واكفة وأفكار مضطربة مضطربة وأذهان مستوحشة مندهشة ونسال الله العظيم أن يجعل لك الفردوس مقرا والنعيم المقيم مقاما والرضا الإلهى قرينا إنه هو الرؤوف الرحيم إلى آخر ما قال .

وقال صاحب الفلاح :

إنا لله وإنا إليه راجعون من مصاب ألم وخطب أعم داهمنا مساء هذا اليوم والجريدة تحت الطبع فقصف منا الضلوع وأهمى منا الدموع وأجمد الدم فى العروق وابتلانا بالصدوع وأجج فينا نار حزن لا يطفئها ماء جفن ماطر وأنزل فى صدر كل سامع درأ للقلوب فاطر لا ينشرح معه خاطر وذلك بينما كانت الآمال مستبشرة بزوال ما مارج ولى النعم من الاعتلال، والأخبار تفد إلينا مباشرة بتقديم صحة سموه فى خطة الاعتدال إلى الكمال إذ فجعتنا أخبار عصر هذا اليوم بأن صحة سموه عن الاعتدال تحولت واضطربت وتغيرت فاستدعى كبار الأطباء للإسراع إلى جلوان ليتبصروا فى هذا الشأن فما ذاع هذا الخبر وكلمح البصر انتشر إلا وكنت ترى القلوب راجفة والخواطر واجفة والكل فى اندهاش وتلهف إلى أخبار ترد إلى الأرواح الانتعاش - إلى أن قال ولكن أبى الدهر الخؤن إلا أن يتفد مطالب المنون ويحرق القلوب ويدمى العيون فإنه لم تأت الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة مساء الخميس إلا ونعب غراب الكهرباء بمنعاه فكان أشأم على النفوس من البسوس إذ نعى من قضى وهو حى بذكره ومضى أثره مخلد فى قطره ولى نعمتنا «محمد توفيق» الأول خديوى مصر الذى لم يماثله مماثل فى هذا العصر فياله من خير تهون دونه الخطوب فإنه فتت الأكباد وأذاب القلوب - إلى أن قال ونعق بوم التلغرافات إلى كل الجهات للقيام بمراسيم التعزية والتأسف ولسان الحال يقول هذا المقال :

أصوت صاعقة أم نفخة الصور	فالارض قد ملئت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهياء داهية	وذاق منها البرايا صعقة الطور
تصدعت قلل الأطواد وارتعدت	كأنها قلب مرعوب ومذعور
أتى بوجه نهار لا ضياء له	كأنه غارة شنت بديجور
أم ذاك نعى لتوفيق الزمان ومن	قضت أوامره فى كل مأمور

معلى معالم دين الله مظهرها	فى العالمين بسعى منه مشكور
وحسن رأى إلى الخيرات منصرف	وصدق عزم على الألفاظ مقصور
بآية العدل والإحسان يمثّل	بغاية القسط والإنصاف موفور
مجاهد فى سبيل الله مجتهد	مؤيد من جناب الله منصور
براية رفعت للمجد خافقة	تجبرى على علم بالنصر منشور
يانفس مالك فى الدنيا مخلقة	من بعد رحلته عن هذه الدور
وكيف تمشين فوق الأرض غافلة	أليس جثمانه فيها بمقبور
حق على كل نفس أن تموت أسى	لكن ذلك أمر غير مقدور
يا نفس فاتشدى لا تهلكى أسفا	فأنت منظومة فى سلك معذور
إذ لست مأمورة بالمستحيل ولا	بما سوى بذل مجهود وميسور
سبحان من ملك جلت مفاخرة	عن البيان بمنظوم ومنثور
لا زال أحكامه بالعدل جارية	بين البرية حتى نفخة الصور

فيالها من ليلة ليلاء قضتها مصر بين التلهف والتحسر والبكاء، وتنفس الصعداء
وقل ما تشاء عن حلوان التى جللها الحزن والهوان مع وفرة الناس للقيام بمراسيم
احترام ساكن الجنان فأعظم به من مؤلم ملم وخطب عظيم مدلهم شقت له الجيوب
بل تمزقت له القلوب فدحا سطور الصبر من الصدر وظهر به ما فى اللوح مكتوب
واقشعر له الوجود إذ قيل مات توفيق مصر والجود.

فانفض يديك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

فأكرم به ميتا كثر إحسانه، وقلد أعناق الجود امتنانه ... إلخ

وأرسل تيكران باشا متولى نظارة الخارجية فى ثامن جمادى الآخرة وتاسع يناير
الى جميع قناصل الدول يقول : إنه ليحزننى أن أنبثكم بوفاة مولاي الفخيم الجنباب
الخديوى محمد توفيق باشا توفى إلى رحمة الله فى مساء اليوم السابع من هذا الشهر
يعنى شهر يناير بقصره الحلوانى أثر مرض لم يمهلّه سوى بضعة أيام وإنى
بمواصلتكم بهذا المصاب الذى حل بالبلاد أتشرف بإبلاغ جنابكم أن الجنباب الخديوى
المعظم عباس حلمى باشا قد تبوأ الأريكة الخديوية خلفاً لساكن الجنان والده الفخيم
طبقاً للفرمانات الشاهانية العلية اهـ.

وقد رثاه رحمه الله وهنا ولده العباس بالولاية العلامة الفهامة
إسماعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحقانية حالاً فقال :

نحن لله ما لى بقاء
نحن لله راجعون فمن ما
يفرح المرء فى الصباح وما يع
ومتاع الدنيا قليل وما يد
زهد الناس فى الحياة لم
قصر حلوان كنت أنضر قصر
كنت ذا هيبة يحاذرها الدم
كيف أصبحت مستضاماً وللخط
ما كذا عهدنا بعزك ترمي
كان بالأمس فى ذراك أبو العب
فطوت برده الخطوب وكانت
ويح من شيعوه قد أودعوا القب
وارتضوا بالبكا وما الحزن إلا
عاش فينا عذب البشاشة والأخ
وتولى وفى الصدور من الوج
عطلت مصر من سناه كما قد
كل خطب فى جنب خطبك يا مص
ما يقول الراثون فى فقد توفى
والرزايا فى بعضها يطلق القو
إن مولاك كان أحسن من تز
كان للتاج فوق مفرقه ضو
كان يجلو دجى الكوارث إن حل
كان أدرى الملا بكسب ثناء
آل توفيق الكرام ألبسوا الصب
أنتم الراسخون فى علم ما كا

وقصارى سوى الإله فناء
ت ومن عاش ألف عام سواء
لم ماذا يكنه الإمساء
هوبه المرء من حطام هباء
روعتنا بهوله الزنباء
فيه يحلو ويستطاب الهواء
ر وتكبو أمامها البأساء
ب إلى ركنك المنيع ارتقاء
ه الليالى أو يعتره انقضاء
س نحيا يبشره الأحياء
قبل تشقى ببعده وتساء
ر كريماً يكي عليه العلاء
أن تسيل القلوب والأحشاء
لاق تروى به النفوس الظماء
د عليه ما ليس يرويه ماء
عطلت من حليها الحسناء
ر يرجى للناس فيه عزاء
ق وماذا تحاول الشعراء
ل وتعي فى بعضها البلغاء
هى بأنوار وجهه البطحاء
ه لديه محقر الأضواء
ت برأى تعنوله الآراء
آه لو خلد النفوس ثناء
ر رداء فالصبر نعم الرداء
ن فقولوا من ذا عداه الفناء

<p>ها وكانت تهوهم العلياء وهمو في بطونها نزلاء تشن منها الملوك والأنبياء أن تعزى بمثله الحكماء بإح فالبؤس قد تلاء هناء ما حوت شبهه بدورا سماء ربها يصنع الدجى وضياء كيف يلقي العظام العظماء دار منه حول البلاد بناء ب ذلولا وعزة قمساء للمعالي وحكمة وإباء ف وفيها يستغرق الإحصاء أنعمأ لا يشوبهن انتهاء</p>	<p>أين قوم شادوا البلاد وسادوا ملكوا الأرض حقبة ثم أمسوا سنة الله في البرية لم يس لا أعزىكمو وأنى لقولى أحمدوا الله في العشية والإص إن يكن من سمائكم خر بدر فلقد أشرقت لآخر أنوا قد أرانا العباس بعد أبيه فاجتليناه طود مجد وسورا حبذا منه همة تترك الصعر وثبات في طيه وثبات وصفات عن كنهها يعجز الوص دام يكسو الزمان حسنا ويسدى</p>
--	--

ورثاء العلامة البحر الفهامة حنفى بك ناصف
القاضى بالمحاكم الأهلية حالا فقال :

<p>وذروا الدمو تقرح الأماقا دمعا وتسكبها دما مهراقا أكبادكم واستنفدوا الأماقا يا لهف نفسي من يطيق فراقا فزعا وطبق نعيه الآفاقا كالسحب صيفا أرسلت إيراقا والحزن أولى الألسن استغلاقا ونبا المكان فكل رجب ضاقا من في الرعية لم يؤد لحاقا لم يوله نبأ الرى تصمقا لم يوسع الصبر الجميل طلاقا كأسا من الروح المرير دهاقا يلقون فى مهج الورى إحراقا فيها وحل بنا البلاء وحاقا أم أى قلب لم يكن خفاقا</p>	<p>شقوا القلوب وغادروا الأطواقا ودعوا النفوس تصبها أجفانكم ذوبوا من الأحزان لا تبقوا على قد فارق الدنيا العزيز محمد خطب دوت في الخافقين رعوته غشى الأنام ولم يكن متوقعا وأصمت الأسماع رنة وقعه ودجا الزمان فكل نور حلقة ناشتدكم يوم ارتحال محمد هل تعلمون معمرأ أو ناشئا هل تعلمون معمرأ أو ناشئا أى امرئ لم يسقه يوم النوى لا كان يوم سار فيه نعاته هى ساعة راش القضاء سهامه أودى فأى فريضه لم ترتعد</p>
--	---

بدر عراه وهو فى استقباله
 حملته أعناق الرجال وطالما
 تركوه عمداً فى الظلام ولم يكن
 سكن القبور وكم قصور شادها
 إن فاق فى المجد الملوك فإنه
 خلق كما سرت الشمال ورقة
 وبديهة تقف الروية دونها
 وعبرة تشفى الغليل ومنطق
 وتساؤل بذر المعنى واضحاً
 خفق السماح عليه حتى أنه
 لا يرهب الإقلال بعد لقائه
 إن قيل عفو فهو بحر زاخر
 طبعته سجايه عليه أما ترى
 أو قيل دين فهو حافظ عهده
 أو قيل إصلاح فذلك صنعه
 لدغت أفاعى الحادثات يمينها
 زأب الصدوع بحكمة منه وقد
 وأقر فيها العدل بعد تزعزع
 ونفى الضلال فما تصدى باطلا
 أولى المعارف فى البلاد عوارفا
 مهتد الطريق لمن تقلد بعده
 فسروا بنبراس الذكاء ليغمضوا
 ما وفق الله أمراً فى أمة
 تربت يمين الدهر غيب فى الثرى
 سبق الكرام إلى النعيم وعهدنا
 وسرى إلى الرب الرحيم ملاقيا
 عن فضله حدث فطيب حديثه
 يا راحلاً عنا تركت نفوسنا

خسف وصادف فى الكمال محاقا
 بنوا له قد طوّق الأعناق
 يرضى الشموع لبيته إشراقا
 وأوى إلى غرف وحل طباقا
 أرب عليهم فى العلى إنفاقا
 تحكى الشمول لطافة ومذاقا
 والسمع يلقي عندها الأوراقا
 بمجامع المعنى يحيط نطاقا
 وطلاقة تولي النهى اطلاقا
 لم يخش طالب جوده إخفاقا
 ءاف ولا يتهبب الاملاقا
 لا يعرف الجاني له أعماقا
 ي كل بادرة له مصداقا
 كم شد منه عرى ومد رباقا
 فى مصر أعتق أهلها إعتاقا
 دهرأ فكان لسمها ترياقا
 ملئت طباق بلاد مصر شقاقا
 والحق أولى أمره إحقاقا
 إلا وأزهق روحه إزهاقا
 والعلم يعد ذبوله إيراقا
 وهدى السراء وفتح الأغلاقا
 من تطلع نحوها أحداقا
 إلا وكان لنفعها منساقا
 هذى الخصال وتلكم الأخلاقا
 فيه لكل عزيمة سباقا
 بين الملائكة الكرام رفاقا
 يشفى المحب ويضطرب المشتاقا
 تشكو الاسى وتساور الأشواقا

لم يبق منا الحزن إلا مهجة	حرى وإلا مدمعنا دفاقا
خطفتك خاطفة المنية فجأة	منا وغادرت الجسوم رقاقا
لم تنتثر شهب السماء ولم يطل	مرض ولم يبد الغراب نعاقا
ويد الردى سرقتك ليلا ليتهاهم	حدوا بقطع يديهم السراقا
بحماك حراس وحولك عسكر	وصنوف أبهة فكيف أطاقا
إننا على الود الذى مكنته	منا وعنه لا نحول فواقا
لا كان من ينسى الولاء لسيد	يوما وينقض بعده الميثاقا

وقال العلامة وهبى بيك ناظر المدارس القبطية على منوال العزاء والهناء :

مهaddock فى حسن العزاء عهد	وجدك ملحوظ به الكل يشهد
وبدر علاك اليوم أسفر ضوءه	فأودى به ليل الأسى يتبدد
وعادت بك العليا إلى مصر راقيا	على الطائر الميمون والعود أحمد
ودانت لك الأقدار حتى كأنها	بأمرك تشقى من تشاء وتسعد
فوال بنى الآمال واصدع بما تشاء	فلأنك فى كف الزمان مهند
وفوض إلى الله الأمور فإنه	إليه تعالى فى العظام يصمد
ومن عجب أن الحوادث جمه	ولكن سهم النائبات مسدد
أساءت إلى المعروف فينا صروفها	وما الأجل المحتوم إلا محدد
وقد كان توفيق البلاد مملكا	حديث حلاء للمكارم يسند
نحلى به جيد الفضائل ناشئا	وأوتى منها فوق ما كان يعهد
وساس شئون الملك خير سياسة	بها الفضل يحيا والفخار مؤيد
فلا غرو أن ساء الأنام فراقه	وقد أصبحت نار الجوى تتوقد
ولما رقت شوقا إلى الله روحه	وأنهم فينا المرجفون وأنجدوا
تلافيت أمر القطر خوف تلافه	وأنت بتوفيق الإله مؤيد
وجاءك مرسوم الخليفة مؤذنا	بأنك مشروع الوراثة أوحده
وآلت إلى عليك فى العز دولة	إذا سيد منها خلا قام سيد
وها أنا أهديك الثناء مرحما	على الوالد المبرور وهو المجد
وأنشد يا مولاي فيه مؤرخا	توفى توفيق العزيز محمد

سنة ١٣٠٩

رعاك إله العرش جل ثناؤه . وألهمك الصبر الذى ليس ينفد
ولا زلت مشكور العناية دائماً . وذكرك فى تاريخ مصر مخلد

وقال أحد الأدباء ولم نقف على معرفة اسمه :

من عادة الدهر بعد الحزن إناس
يوماء يوم به اللهم قد مزجت
فاضرب عن الحزن صفحاً وامح سيرته
واستقبل الأمر بالتعزيز من ملك
وكن على الله فيما شئت معتمداً
بالجد والجد نلت الأمر ذا شرف
وفى الوراة معنى عز مدركه
لله من خلف فى القطر عن سلف
وأجمعوا الأمر فى تدبير ملكهم
هذا وعذراء فكرى لا أخال معى
ولا لسان به أطرى ولا قلم
وفضل والدك المرحوم لست له
لا زال فى كرم الرحمن مسكنه
ولا تزال لهذا القطر معتصماً
وهذه حكمة المولى مؤرخة

وما الدهر فى أفعاله باس
كأس ويوم هنا تصفو به كأس
فهكذا الدهر ناس بعدهم ناس
فى قطر مصر فأنت الروح والراس
تطب لعلياك بالتأيسد أنفاس
لا غرو ان أثمرت بالعز أغراس
وما به بعد هذا اليوم الباس
سادوا الورى وعلى هام السها داسوا
والرعية بالإنصاف كم ساسوا
بل ما معى الشتداد الخطب إحساس
يجرى وللضيق ذرعا ضاق قرطاس
أنسى ولو ضمنى بالموت أرماس
جئات عدن بها الريحان والآس
وأعين الله مهما كانت حراس
توفيق مات وولى اليوم عباس
سنة ١٣٠٩

قلت : ومن غريب الاتفاق أنه رحمه الله ولد في يوم خميس وتولى الخديوية المصرية في يوم خميس ودخل القاهرة في موكبه بعد الفتنة العرابية في يوم خميس وتوفى إلى رحمة الله تعالى في يوم خميس فسبحان الله الأزلي الذي لا يموت سبحان مالك الملك والملوك منه المبتدأ وإليه المنتهى وهو رب الآخرة والأولى وله ما سلب وما أعطى وما أخذ وما أبقي ولا شك أنا جميعاً في هذا السبيل نسعى وأن إلى ربك الرجعى .

اللهم كما حمدتك في المبدأ أحمذك في الختام وأشكرك على مر الأيام اللهم كما وفقتني للحق فارض عني الخلق ووفقهم إلى معذرتي والتجاوز عن عثرتي فإنني أشفق أن يكون عملي هذا عملاً حابطاً أو شغلاً ساقطاً اللهم إنني معترف بأنني لست من أهل ذاك الشأن ولا من خيل هذا الرهان ولكني قد توكلت عليك سيدي فأعتنتي ولم تكني إلى نفسي فلم أضل وأريتني الغي غياً فاجتنبته وأريتني الهدى هدى فاتبعته والوقت غير مساعد والمانع غير مباعد والفراغ متعسر وجمع الخاطر غير متيسر لاسيما وقد أصبت في خلال العمل بما غلب على التجلد والصبر وقت في العُضد والصدر من فقد شقيق لي كان مرجعي في كل أموري إليه ومعتمد في سائر أعمالي وآمالي عليه وحيدى الذى أورثنى فقله جزعاً وهلعاً وسقماً ووجعاً وغماً وهماً وحزناً لم تزل في أحشائي ناره وفي صدرى أواره فعندك اللهم أحسبه واستمنحك أحسن الصبر فلك سيدي الأمر اللهم أنت تعلم أن بغية مرادى وغاية مرادى تعميم النفع بقدر اجتهداى فإن كنت قد أجريت البراعة في هذه الغاية إلى متتهاها وبلغت النفس من هذه الأمنية مشتتهاها فذلك لكى أجمع بين قديم الأيام وجديدها وأكفى المطلق مؤنة الرجوع إلى قريب الأخبار وبعيدها ليتم النفع بما ألفتها منها وصنفته بعد إعمال الفكرة وإجهاد الفطرة اللهم أنت تعلم أنى فعلت ما فعلت تقرباً إلى أبناء وطنى بخير ما لدى بعد معاناة الأهوال في طول الأحوال وما بى إطرء نفسى ولا تزكية عملى فإننى أكره المباهاة فوقهم مولاي إلى أن يتقبلوه بالقبول والإقبال وهم في كمال الأحوال كى أنال من عملى ما أتمناه وأفوز من أملى في وجهك سيدي بأسناه ولا حول ولا قوة إلا بك فانت حسبي وكفى .

دبت للمجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا

لا تحسب المجد ثمراً أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

إلى هنا تم الجزء الرابع من الكافى وبه ختام الكتاب فإذا فسح الله لى فى

الاجل ووفقتى إلى شىء من العمل وأعاننى على بلوغ الأمانى عنيت بجمع أخبار
أيام صاحب الولاية الحالية والأريكة الخديوية (عباس باشا حلمى الثانى) ورتبتها كما
تستحق من التنسيق والترتيب فإنها جمعت أمورا عجيبة وحوادث غريبة وشئونا
تستوقف الطرف وتستدعى الإسهاب فى الوصف وكلها تشهد بأن الأمير «حرسه
الله» وأناله ما يتمناه لم يقل قبل أن يعلم ولم يجب قبل أن يفهم ولم يعزم قبل أن
يفكر ولم يقطع قبل أن يقدر وهو مع ذلك بين عاملين شديدين وفريقين متقاربين
متباعدين فكيف به إذا قضى الله تعالى بنفاذ ما أراد وانقضت سحب تلك المجن عن
سماء هذه البلاد فزاده الله نبلاً وعزماً وفضلاً وحزماً ووقاه من شرها حتى يطويها
على غرها.

وما أحسن ما قيل :

لأستسهلن الصعب أو أدرك المتى فما انقادت الآمال إلا لصابر
وقول آخر :

فاصطبر وانتظر بلوغ الأمانى فالرزايا إذا توالى تولى
وإذا أوهنت قواك وجلت كشفت عنك جملة ونجلى

اللهم هب لى مغفرة من لدنك

وارحمنى يا أرحم الراحمين

(تم)

يقول طه بن محمد قطريه رئيس التصحيح بالمطبعة الكبرى الأميرية :

إن أحسن الحديث فى القديم والحديث بعد التيمن باسم الله تعالى حمد الله جل ثناؤه على نعم تنهل على عباده وتتوالى فالحمد لله القديم وجوده العام للخاص والعام كرمه وجوده الأول قبل كل شىء بلا بداية الآخر بعد كل شىء بغير نهاية المنزه عن أن يؤرخ بزمان أو يسئل عنه أين كان ومتى كان كيف وهو الذى خلق الزمان والمكان نحمده أن جعلنا خلفاً للأولين وقص لنا عنهم أحسن القصص فى كتابه المبين وحدثنا عن ماضى بما فيه مزدجر من الانباء فكان لنا قدوة حسنة فىمن أحسن منهم وعبرة بينة بمن أساء ونصلى ونسلم على نبي الرحمة وهادى الأمة أول الأنبياء موجوداً وآخرهم مولوداً وعلى سائر النبيين والمرسلين ومن اقتفى أثرهم وسلك سبيل المهتدين .

أما بعد: فإن من حسن البخت وصفاء الوقت للمصريين عامة وطلاب التاريخ خاصة طبع هذا الكتاب الجليل الذى لم تسمح الأيام له فى بابه بمشيل المسمى بـ«الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث: تأليف حضرة الفاضل السرى الوجيه الكامل صاحب العزة «ميخائيل شاروييم» مدير الأملاك الميرية بنظارة المالية حالاً بلغه الله آماله وأكثر فى فضلاء المصريين أمثاله شمر حفظه الله عن ساعد الجد والاهتمام وقام بتأليف هذا التاريخ أحسن قيام فجاء كتاباً بأحوال مصر ومجرياتهما حافلاً ويشرح حال ملوكها وأمرائها وعادات أهلها وما كانوا عليه محيطاً كافلاً وبسط الكلام على سياسة ملوكها فى كل زمان من عهد القدماء ثم من بعدهم دولة بعد دولة إلى الآن أعنى سنة ١٣٠٩ هجرية التى انتقل فيها إلى الدار الباقية المرحوم محمد توفيق باشا خديو مصر السابق عليه الرحمة والرضوان فله در هذا المؤلف من همام خدم الوطن بهذا العمل الجليل والصنيع الحسن الذى قلده به الأعناق أعظم المن فلا غرو إن افتخرت به مصر على سائر الأمصار وكانت به القاهرة قاهرة لغيرها من الديار فلقد شيد لها حفظه الله ذكراً وشرح لأبنائها صدراً ورفع لهم قدراً فما من المصريين أحد إلا وهو فى حاجة إلى تحصيله واضطرار إلى الوقوف على إجماله وتفصيله ليعرف نعمة الله عليه فى هذا القطر السعيد المغمور بهذا النهر الذى يغار منه البحر الطويل المديد هذا القطر الذى كم شددت إليه الرحال وتطاولت إليه أعناق الرجال وخيضت فيه لجج المعاطب والأهوال وأجاد فى وصفه من قال :

إن مصر لأطيب الأرض عندى ليس فى حسننها البديع التباس
وإذا قسنتها بأرض سواها كان بينى وبينك المقياس

ومن قال :

بما مصر إلا منزل مستحسن فاستوطنوه مشرقاً أو مغرباً
هذا وإن كنتم على سفر به فتيمموا منه صعيداً طيباً

وبالجملة فهو تاريخ وحيد وعقد في فن التاريخ فريد جاء كاسمه كافياً وللدعاء
العضال شافياً وكان لنا دليلاً قاطعاً وبرهاناً ساطعاً على فضل هذا العلم المعلوم
وعظيم شأنه بين العلوم كما اتفقت عليه الكلمة وأصبح من القضايا المسلمة :

ليس بإنسان ولا عالم من لم يع التاريخ في صدره
ومن درى أحوال من قد مضى أضاف أعماراً إلى عمره

قد سلك المؤلف حفظه الله في كتابه سبيل الاحتياط والتحري التام فجاء
بالأحوال والمجريات والمقاصد السياسية فضلاً عن الأخبار من مصادر الصدق الموثوق
بها وهذه هي الطريق القويم التي أفلح من تمسك من المؤرخين بسبيلها وتأدب بأدبها

الصدق أوفى خليل إن ظفرت به يغنيك عن جمع إخوان وأحلاف
ومن أراد بأنباء الذين مضوا علما وصدق حديث يكفه الكافي

هذا وقد ضاعف المؤلف حفظه الله إحسانه فقام بطبعه على نفقته وبأشر
تصحيحه وإتقانه بمطبعة بولاق الأميرية في عهد الدولة الفخيمة الخديوية العباسية
أطال الله أمدّها وأسبغ ظلالها وألهم العدل والإصلاح رجالها وتم طبعه المنير في
أوائل رجب سنة ١٣٢٣ من هجرة البشير النذير عليه الصلاة والسلام وعلى آله
الكرام وأصحابه بدور التمام.



(ولما أذن طبعه بالتمام قرظه حضرات الأدباء الفضلاء أرباب الأقلام)

كتب فى ذلك العلامة البحر القهامة صاحب السعادة

إسماعيل صبرى باشا وكيل نظارة الحفانية

الجليلة حالاً يخاطب حضرة المؤلف فقال :

قرأت كتاب الكافى ووقفت من تحريك الوقائع المدونة فيه وإبرازك إيهاا لمحـب التاريخ على مبلغ الآتعاـب التى تجشمتها فى تأليفه فجاء وله نصيب من اسمه كافيا وإفيا يخبر عن أحوال القرون الماضية بأفصح عبارة فأنيت على واضعه مع المثين وأعجبت به مع المعجيين كيف لا وقد اشتمل على فوائد كل الناس فى الانتفاع منها سواء وإن اختلفت منهم المشارب والأهواء يقرأ فيه الأمراء كيف تحاط الممالك ويسلك أقوم المسالك وتجد فيه قادة الملل كيف تعلو الدولات وتصح السياسات ويتعلم منه من دونهم كيف تتضافر الأمم وتتعاقد الهمم للوصول إلى السعادة ضالة كل مجتمع إنسانى. إن الشاعر إذا أجاد فى شعره قيل له أجدت والنائر إذا أحسن فى نثره قيل له أحسنت والحكيم يصيب كبد الحقيقة يهنا بأصبت والمؤرخ يتحرى الصدق فى تحرير وقائع التاريخ يقال له صدقت أما أنا وقد اطلعت على كافيك وعرفت ما تحمـلته من العناء فى جمعه وتنسيقه وترصيفه فإنى أهنيك بقولى لك أجدت وأحسنت وأصبت وصدقت.

وقرظه العلامة المفضل صاحب العزة

وهبى بك ناظر المدارس القبطية قال :

بسم الله الرحمن الرحيم

ما صدحت حمائم البيان للدلالة عما فى الجنان بأوجب من حمد الله القديم ولا ترنحت عذبات البان بأطرب من صلاة الملك المئان على كل رسول كريم فالحمد لله أجرى أعنة الأقدار بما تتضاءل عنه أفكار الحكماء ولم يعزب عن علمه وهو الفاعل المختار مثال ذرة فى الأرض ولا فى السماء.

(أما بعد) فإن التاريخ على ما بين دفتيه من خصائص حسان الحق أداها بأقصاها لم يغادر من شئون بنى الإنسان صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وحسبنا شاهداً على ذلك ما أودعه تاريخ مصر من آثار ملوك وخلفاء سالت بأعناق مطيها أباطح الكلام وكادت تنقلب بها رياح العفاء فى غضون الجاهلية والإسلام فلا غرو إن جاس خلال ديارها فريق من العلماء علقوا بأذيال التنقيب عن آثار القدماء فدونوا فى وصفها كما فعل عبد اللطيف البغدادى العالم الطيب من الحوادث والأخبار ما حقه أن يتخذة اللبيب كتاب إفادة واعتبار وإن للإفرنج فى تمحيص تاريخها القديم استقرار لا يتأتى لكل محسن ولا يقدره كل من أقلته الغبراء وأظلمته الخضراء من أبناء هذا اللسان فأحر بنا أن نطاول كل ذى استئثار بمزايا هذا البلد الأمين وما شاده فيه السلف الصالح من الآثار الباقية فى العالمين ولقد ألمّ العالم الفاضل صاحب العزة ميخائيل بك شاروييم فى مؤلفه هذا كل الإمام بما رقّ وراق وتناولته يد المريد على طرف التمام من ثمرات الأوراق فهو عقد فريد اندمجت فيه الحوادث كأنها للؤلؤ والمرجان أو جنة كثيرة الأغاريد بها من كل فاكهة زوجان فلو أنه تداولته الأيدي فى العهد الذى غبر عهد ابن خلدون لقوم ما أورده فى ديوان المبتدأ والخبر بالدون أو مثله العيان لابن خلكان لألحق وفيات الأعيان بخبر كان. فلله در مؤلفه آنحف ذوى الألباب بما تأخذ بمجامع الأفتدة حلاه واستخلص فى تاريخ مصر القشر من اللباب ومصر كنانة الله فى أرض الله فيا أيها الأريب الذى أصاب مرمى السداد وأماط اللثام عن كل غريب من مآثر الآباء والأجداد لقد سحررتنا بآياتك بعد أن ألقينا عصا الأذعان والتسليم ومحوت سيئات الزمان بحسناتك وفوق كل ذى علم عليم لازلت تستدرج فى أى غرض تتوخاه ما يهزأ بقلائد العقيان على لبات الغوانى ونصيب مؤلفك فى الاستغناء به عما سواه نصيب الأغانى لأبى الفرج الأصبهاني إن الله على ما يشاء قدير وبإجابة هذا الدعاء جدير.

وقرظه أيضاً الكاتب الفاضل والنحرير الكامل صاحب العزة

جرجس بك حنين أحد مديري الأموال المقيمة

بنظارة المالية حالاً مخاطباً لحضرة المؤلف فقال:

لقد طالعت يا أخا الفضل تأليفك «الكافي» فى التاريخ وأمعنت النظر فيما احتواه وجئت بهذا لأذى لجناحك واجب التهئة على ما توقعت إليه من أحاسن

التأليف والتصنيف التي بها أكسبت علم التاريخ مجداً وفخراً وخلدت لاسمك السعيد على مر الدهور كرامة وذكرأ. نعم تحق التهاني فكتابك يا ناصر الأدب له قيمة عظيمة وممتازة رفيعة بين المؤلفات العربية إذ ليس هو مجرد أقاصيص وأخبار أو مجموع روايات وأسماء بل هو ميدان تمثلت فيه مشاهد العالم بأدق مظاهرها يرى الناظر فيه مشهد نشأة الخلق وأدوار تكوينه، يرى أيضاً دولاباً عظيماً جداً تديره العناية الإلهية على سلاسل نظامية طبيعية ينشأ من احتكاكها تولد الحوادث العمرانية والتقليبات المدهشة العصرية من قيام الممالك والامم والشعوب ونهوضها وارتقائها بعد الانحطاط أو ذبولها بعد الإيناع وانحلالها بعد الارتباط وغير ذلك من مجتمعات الأضداد التي بها تتمثل حقائق أحوال الأمم وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وأخلاقهم وتربيتهم وعلومهم وآدابهم ولغاتهم وصنائعهم وأنسابهم وأفرادهم ومن قام منهم من الأنبياء والأولياء والملوك والقواد والعلماء والحكماء والكتاب والخطباء والشعراء وغيرهم من أبطال العصور.

التاريخ الصادق هو أعدل شاهد على درجات العصور في الحضارة والمدنية بل هو حياة الذكرى بل هو رسول القدم لمن يشاء الاقتداء بفضائل السلف من أمور الدين والدنيا وكيف لا يكون كتابك أيها السيد من أصدق التواريخ وقد عرف القاصي والداني عن شمائلك من شهامة في الأخلاق وطيب في الأعراق وقلم سيال ولسان قوأل ورجحان في البرهان واقتدار في البيان وسلامة في الذوق ودقة نظر في الترتيب وجميل وضع في الأساليب وحسن اختيار في الألفاظ الرقيقة ولطف صنع للمعاني الرشيقة وغير ذلك من الخصائص الغراء والشيم الشماء التي أكسبت الكتاب طلاوة فوق طلاوته وجذبت النفوس لتلاوته والاعتماد على صحة روايته. وكيف لا يتخذ كتابك حجة يرجع إليه ويعول عليه وقد توفرت فيه شروط الاعتماد الخمسة وهي :

أولاً: اعتبار المتابع المستمدة مواده منها. ثانياً: صفائه من شبهة الغرض وابتعاده عن هوى التعصب في المدح أو الهجاء. ثالثاً: جلاء عباراته ودقتها وخلوها من التطويل الملل. رابعاً: تجرده عن الخرافات والتزهات التي لا يحتملها العقل ولا يقبلها الذوق السليم. خامساً: تجرده من التمليس والتلبيس والمضاعة التي يراد بها التزلف لأصحاب المراتب السامية.

ولا يقف بي القلم عند هذا الحد في وصف هذا الكتاب الجليل الشأن لأنك قد

زدته بهجة وغلاء بما أوردته فيه من تقرير الحوادث التي عاصرتها بنفسك والمعلومات
الواسعة التي لجناحك في الوقائع السياسية أثناء الثلث الأخير من القرن التاسع عشر
واعتمادك فيما عدا ذلك على أقوال صفوة المؤرخين والكتاب - وأخيراً فإننى أكرر لك
التهنئة وأرجو الله أن ينفع البلاد بعلمك وقلمك وأن يوفقك لكل خير.

